

(فهرست)

المجزء الاول

من حقايق الاخبار — من دول البحار

حسن

هدية
بسم الشيخين في الدين ناظر الى الثاني
الحق
مكتبة مركز الوثائق والدراسات
أبو ظبي

(فهرست الجزء الاول من حقائق الاخبار عن دول البحار)

صحيفة

- ٢ خطبة الكتاب مقدمة في الملاحه وتاريخها والملاحه في الازمنة القديمة وعند أهل أوروبا ٥ - الملاحه والبحرية في دول الاسلام عموما والدولة العثمانية خصوصا ١٤
- ٢٧ الباب الاول (الفصل الاول) تاريخ الانسان من عهد الخليقة الى حادثه الطوفان (الفصل الثاني) قصة الطوفان ٣٠
- ٣٤ الباب الثاني (الفصل الاول) تاريخ فينيقية ٣٤ - (الفصل الثاني) تاريخ الصيداويين ٣٤ - (الفصل الثالث) استيلاء المصريين على فينيقية ٣٥ - (الفصل الرابع) انحطاط الملاحه عند الصيداويين وأسباب ظهور التلصص بالبحار ٣٦ - (الفصل الخامس) سقوط مدينة صيدا ٣٧ - (الفصل السادس) فينيقية مدة مدينة صور ٣٨
- ٤١ الباب الثالث (الفصل الاول) تاريخ الميديين والفرس ومملكة الميديين ٤١ - (الفصل الثاني) السلطنة الفارسية ٤٢ - سلطنة درا ٤٤ - سلطنة كسيريس ٤٥ - (الفصل الثالث) حروب دار الثالث مع اسكندر المقدوني ٤٧ - (الفصل الرابع) ظهور دولة الاكسرة ٤٨
- ٤٨ الباب الرابع (الفصل الاول) تاريخ دولة اليونان القديمة ٤٨ - (الفصل الثاني) شعوب اليونان ٤٩ - (الفصل الثالث) تأسيس تروادة وأصلها ٥٠ - (الفصل الرابع) حروب تروادة ٥٠ - الحروب الهرقولية ٥١ - (الفصل الخامس) ذكرا سبارطة ٥٢ - (الفصل السادس) نظامات ليكودورغ ٥٣ - (الفصل السابع) مملكة أثينه ٥٧ - (الفصل الثامن) حروب بيلوبونيزه ٦٠ - (الفصل التاسع) مدينة طيبه ٦٣
- ٦٥ الباب الخامس (الفصل الاول) مقدونية ٦٥ - (الفصل الثاني) اسكندر الاكبر ٦٨
- ٧٧ الباب السادس (الفصل الاول) تاريخ الرومانيين ودور الملوك ووصف بلاد ايطاليا ٧٧ - (الفصل الثاني) تأسيس دولة الرومانيين ومدينة رومية ٧٨ - (الفصل الثالث) قيام القناصل وتأسيس الحكومة الجمهورية ٨١

- (الفصل الرابع) في الدكتاتورين والحروب التي قامت في أيامهم ٨٢ -
 (الفصل الخامس) حكم الديستيفير ٨٢ - (الفصل السادس) استيلاء الغول
 على رومية والحروب التي قامت في خلال ذلك ٨٤ - (الفصل السابع) البحرية عند
 الرومانيين ٨٥ - (الفصل الثامن) حروب رومية مع قرطاجنة المسماة بالحروب
 البونيقية والحروب البونيقية الاولى ٨٧ - (الفصل التاسع) الحروب البونيقية
 الثانية ٩٠ - (الفصل العاشر) محاربة الرومانيين لبلاد اليونان وسوريا ٩١ -
 (الفصل الحادي عشر) الحروب البونيقية الثالثة ٩٣ - (الفصل الثاني عشر)
 الحروب الداخلية ٩٤ - (الفصل الثالث عشر) حروب داخلية أخرى والكلام
 على ماريوس وسيلا ٩٥ - (الفصل الرابع عشر) سقوط الجمهورية الرومانية وأسباب
 ذلك وعظمة الرومان ١٠٢ - (الفصل الخامس عشر) عصر الامبراطورية
 وقيام القيصرية ١٠٣ - (الفصل السادس عشر) في تقسيم الدولة الرومانية ١٢٢ -
 (الفصل السابع عشر) الامبراطورية الغربية بعد التقسيم ١٢٦

١٢٩ الباب السابع الامبراطورية الشرقية أو الدولة السفلى أو البوزنطية

- (الفصل الاول) قيامها وضعفها ثم ملامتها وأسباب ذلك ١٢٩ - (الفصل الثاني)
 خلاصة تاريخ الدولة الشرقية وقيامتها ١٣٢ - المدة الاولى ١٣٢ -
 (الفصل الثالث) المدة الثانية ١٣٦ - (الفصل الرابع) المدة الثالثة ١٤١ -
 (الفصل الخامس) المدة الرابعة ١٤٤ - (الفصل السادس) المدة الخامسة ١٤٧
 (الفصل السابع) استيلاء الصليبيين على القسطنطينية ١٥٠ - (الفصل الثامن) المدة
 السادسة ١٥١

١٥٤ الباب الثامن تاريخ العرب القدماء - (الفصل الاول) جغرافية بلاد

- العرب ١٥٤ - (الفصل الثاني) أقسام بلاد العرب ١٥٥ - (الفصل الثالث)
 الثغور البحرية ببلاد العرب ١٥٧ - (الفصل الرابع) الامة العربية ١٥٧ -
 (الفصل الخامس) دول العرب قبل الاسلام ملوك التبابعة ١٦٠ - (الفصل السادس)
 استيلاء الحبشة على اليمن ١٦٢ - (الفصل السابع) ملوك العرب في غير اليمن ١٦٥ -
 (الفصل الثامن) الغساسنة ملوك الشام ١٦٩ - (الفصل التاسع) ملوك كندة ١٦٩ -
 (الفصل العاشر) ذكر عدة من ملوك العرب ١٧٠ - (الفصل الحادي عشر) ذكر

علوم العرب وآدابهم ١٧٢

١٧٣ الباب التاسع (الفصل الاول) دول العرب بعد ظهور الدين الاسلامي ١٧٣ -

(الفصل الثاني) دولة الخلفاء الراشدين ١٧٦ - فتح بلاد مصر ١٧٩ - (الفصل الثالث)

دولة بني أمية ١٨٨ - (الفصل الرابع) الدولة العباسية ٢٠٧ - (الفصل الخامس)

تاريخ الاندلس ووصف الاندلس ٢٤٥ - أمراء بني أمية بالاندلس ٢٤٦ -

(الفصل السادس) خلفاء بني أمية بالاندلس ٢٤٦ - (الفصل السابع) دولة الغلوين

بالاندلس ٢٥٩ - (الفصل الثامن) دولة بني الاحمر ٢٦٣

٢٦٩ الباب العاشر مملكة المغرب (الفصل الاول) عمومات على مملكة مراکش

- ٢٦٩ (الفصل الثاني) دولة المغرب الاقصى أو مراکش ووصفها الطبيعي ٢٧٢ -

(الفصل الثالث) تغور مراکش البحرية ٢٧٣ - (الفصل الرابع) ملخص

تاريخ مراکش قبل الاسلام ٢٧٤ - (الفصل الخامس) دخول الاسلام ببلاد

مراكش ٢٧٥ - (الفصل السادس) دولة الادارسة بالمغرب الاقصى ٢٨٣ -

(الفصل السابع) دولة العبيديين بالمغرب الاقصى ٢٨٨ - (الفصل الثامن) دولة

الملمثين بالمغرب الاقصى ٢٨٩ - (الفصل التاسع) دولة الموحدين بالمغرب الاقصى

٢٩٢ - (الفصل العاشر) دولة بني مرين بالمغرب الاقصى ٣٠٠ -

(الفصل الحادي عشر) دولة بني وطاس ونسبهم وأوليتهم ٣١٤ - (الفصل الثاني عشر)

دولة الاشراف السعديين وأوليتهم ونسبهم ٣١٧ - (الفصل الثالث عشر) دولة

الاشراف السجلماسيين ٣٢٥

٣٥٤ الباب الحادي عشر بلاد الجزائر - (الفصل الاول) وصفها الطبيعي

وتغورها البحرية ٣٥٤ - (الفصل الثاني) تهديد تاريخي ٣٥٨ - (الفصل الثالث)

عائلة بارباروس واستيلائها على الجزائر ٣٥٩ - (الفصل الرابع) خضوع

سواحل البربر للعثمانيين ٣٦١ - (الفصل الخامس) دايات الجزائر ٣٦٧ -

الارتباك التي منعت الدولة العثمانية من التساؤل في استيلاء الفرنسيين على الجزائر

بالقوة ٣٧٤ - (الفصل السادس) استيلاء الفرنسيين على الجزائر ٣٧٦ -

الامير عبد القادر الحسيني ٣٨٢

٣٨٥ الباب الثاني عشر تاريخ تونس - (الفصل الاول) وصفها الجغرافي ٣٨٥ -

(الفصل الثاني) ثغور تونس وملخص أخبارها البحرية ٣٨٦ - (الفصل الثالث) تاريخها القديم ٣٨٩ - (الفصل الرابع) تونس بعد الفتح الاسلامي والكلام على البحرية في عهد عمال الخلفاء ٣٩٢ - الدول الاسلامية التي حكمت الديار التونسية (الفصل الخامس) دولة بني الاغلب ٣٩٣ - (الفصل السادس) دولة العبيديين أو العلويين بافريقية ٤٠٠ - (الفصل السابع) دولة بني زيري الصنهاجيين في تونس ٤٠٥ - (الفصل الثامن) دولة الموحد بن بتونس ٤١٠ - (الفصل التاسع) دولة بني حفص وتصريف أحوالهم ٤١٢ - (الفصل العاشر) استيلاء العثمانيين على تونس وقيام الدايات والبايات ٤٢١ - (الفصل الحادي عشر) الدولة الحسينية الحالية ٤٢٦ - (الفصل الثاني عشر) دخول تونس تحت حماية قرانسا ٤٣٧

٤٤٢ الباب الثالث عشر تاريخ طرابلس الغرب - (الفصل الاول) وصفها

الجغرافي ٤٤٢ - (الفصل الثاني) ثغورها البحرية ٤٤٣ - (الفصل الثالث) تاريخها قبل الفتح العثماني ٤٤٥ - (الفصل الرابع) استيلاء الدولة العلية على طرابلس ٤٤٧ - (الفصل الخامس) عائلة القره مانلي واستيلاءها بولاية طرابلس ٤٥٠

٤٥٤ الباب الرابع عشر تاريخ الدولة العلية العثمانية - (الفصل الاول)

جغرافيتها الطبيعية ٤٥٤ - (الفصل الثاني) الثغور البحرية في الدولة العلية العثمانية ٤٥٩ - (الفصل الثالث) منشأ آل عثمان وظهور دولتهم ٤٨٢ - (الفصل الرابع) استقرار الدولة العثمانية وتأسيسها حتى ظهور تيمورلنك والكلام على السلطان الغازي عثمان خان ٤٨٦ - السلطان الغازي أورخان ابن السلطان الغازي عثمان خان ٤٨٨ - السلطان مراد الاول ابن السلطان أورخان ٤٩١ - السلطان بلديرم بايزيد الاول ابن السلطان مراد ٤٩٥ - (الفصل الخامس) من اغارة تيمورلنك الى فتح القسطنطينية وفاصلة السلطنة ٤٩٦ - السلطان محمد الاول الملقب بجلبي بن بايزيد الاول ٤٩٨ - السلطان مراد خان الثاني ابن السلطان محمد الاول ٤٩٩ - (الفصل السادس) من فتح القسطنطينية الى انتقال الخلافة الاسلامية لسلطين آل عثمان والكلام على السلطان الفاتح محمد خان الثاني ٥٠٦ - السلطان الغازي بايزيد خان الثاني ٥١٩ - (الفصل السابع) من انتقال الخلافة الاسلامية لآل عثمان الى وفاة مقوللي محمد باشا والسلطان سليم الاول الملقب بيباوز ٥٢٥ - استيلاء العثمانيين على مصر ٥٢٨ - السلطان الغازي سليمان خان القانوني ٥٣٢

السلطان سليم الثاني ابن السلطان سليمان خان ٥٥٥ - (الفصل الثامن) من وفاة
صقولي محمد باشا الى وفاة السلطان أحمد الاول ٥٦٣ - السلطان الغازي مراد خان
الثالث ابن السلطان سليم الثاني ٥٦٤ - السلطان محمد خان الثالث ابن السلطان مراد
خان الثالث ٥٦٨ - السلطان أحمد خان الاول ابن السلطان محمد الثالث ٥٧١ -
(الفصل التاسع) من وفاة السلطان أحمد الاول الى صدارة كوبري بي محمد باشا -
والسلطان مصطفى الاول ابن السلطان محمد خان ٥٧٥ - السلطان عثمان خان الثاني
ابن السلطان أحمد الاول ٥٧٥ - السلطان مراد خان الرابع ابن السلطان أحمد
خان الاول ٥٧٨ - السلطان ابراهيم خان ابن السلطان أحمد خان الاول ٥٨٢ -
(الفصل العاشر) من صدارة كوبري بي محمد باشا الى معاهدة قارلوفجه - والسلطان
محمد خان الرابع ابن السلطان ابراهيم خان ٥٨٦ - السلطان سليمان خان الثاني ابن
السلطان ابراهيم خان ٦٠٥ - السلطان أحمد خان الثاني ابن السلطان ابراهيم
خان ٦٠٧ - (الفصل الحادي عشر) من معاهدة قارلوفجه الى جلوس السلطان سليم
الثالث - والسلطان مصطفى خان الثاني ابن السلطان محمد الرابع ٦٠٨ - السلطان
أحمد خان الثالث ابن السلطان محمد خان الرابع ٦١٣ - السلطان محمود خان الاول ابن
السلطان مصطفى خان الثاني ٦٢٢ - السلطان عثمان خان الثالث ابن السلطان
مصطفى خان ٦٢٦ - السلطان مصطفى خان الثالث ابن السلطان أحمد الثالث ٦٢٧ -
السلطان عبد الحميد خان الاول ابن السلطان أحمد الثالث ٦٣٤ - (الفصل الثاني عشر)
من جلوس السلطان سليم الثالث الى صدور رخط الكيخانه - والسلطان سليم الثالث ابن
السلطان مصطفى خان الثالث ٦٣٩ - السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد
الاول ٦٥٩ - السلطان محمود الثاني ابن السلطان عبد الحميد الاول ٦٦٠ -
(الفصل الثالث عشر) من صدور رخط الكيخانه الى زماننا الحاضر والسلطان
عبد الحميد خان ابن السلطان محمود خان الثاني ٦٧٩ - السلطان عبد العزيز خان ابن
السلطان محمود خان الثاني ٧٠٦ - السلطان مراد خان الخامس ابن السلطان
عبد الحميد خان ٧٢٤ - السلطان ابن السلطان عبد الحميد خان الثاني ابن
السلطان الغازي عبد الحميد خليفة قسطنطين الثاني ٧٢٨ - (الفصل الرابع عشر) الادارة
البحرية وحالتها الحاضرة والقوة البحرية العثمانية ٧٤٣ - (الفصل الخامس عشر)
القوة الحربية البرية لدولتنا العلية ٧٦٤

(فهرست القوائم والمطالعات الموجودة باسفل الصفحات)

صحيفة
٩ ملزارين
١٠ ناسون

صحيفة
٩ الدر يادوريا
٩ ريشياير

(فهرست القوائد والمطالعات الموحدة بأبوابها)

صفحة	صفحة
١١٠	١٢ ميركاتور
١١٣	٢٨ جاك أوسيريس
١١٣	٢٨ هنري كلانتون
١١٨	٢٩ مانتون
١١٨	٢٩ جورج كوفيه
١١٩	٣٤ جزيرة ارواد
١٢٠	٣٧ بلاد بيزاسيوم أو بيزاسين
١٢٤	٣٧ بلاد زوجيتانه
١٢٥	٣٨ بلاد فوميديا
١٣٢	٣٩ بلاد موريتانية
١٣٣	٣٩ بلاد أوفير
١٣٤	٤٢ مدينة تينوى
١٣٦	٤٤ نيارك
١٣٩	٤٧ القرثيون أو أمة البارث
١٤٢	٥٧ آبولون
١٤٣	٦٥ مدينة لوكروس
١٤٣	٦٥ مدينة ممتينا
١٤٦	٦٩ هوميروس الشاعر
١٥٦	٧٠ نهر غرانيكوس
١٥٨	٧٠ معبد امون
١٥٩	٧٥ تاريخ سوريامدة اليونان
١٦٠	٨٢ الدير كاتانور
١٦٢	٨٢ الدير صقير
١٦٢	٨٤ أمة انبول
١٦٢	٨٧ مدينة قرطاجنة
١٦٣	٨٩ مدينة تيليبوم أو مرساله
١٦٤	٩٠ ساغنتوم أو ساغونت
١٦٥	٩١ ارخميدس المهندس
١٦٥	٩٢ بلاد بنينا
١٦٧	٩٤ بلاد لوزيتانيا
١٦٧	٩٤ بلاد برغامس
١٦٨	٩٥ أمة السامبر
١٦٩	٩٥ أمة النوتون
١٧٢	٩٨ أمة البارث
١٧٦	٩٩ مدينة فارسال
والمثوقس والتجاشي	١٠٤ هيكلي جانوس
١٧٧	١٠٦ جزيرة كاري

(فهرست القوائد والمطالعات الموجودة بأسفل الصحائف)

صحيفة	صحيفة
٢٢١ أمة البجاه	١٧٨ مكانيب سيدنا عمر الى أبي عبيدة بن الجراح
٢٢٢ صاحب الزنج والزنج	١٨٠ مدينة رفح
٢٢٣ قبيصة أم المعتز	١٨٠ القرما
٢٢٣ بلاد طبرستان	١٨٢ مکتوب سيدنا عمر الى عمرو بن العاص يطلب منه فيه وصف مصر
٢٢٤ القرامطة	١٨٤ مکتوب عمرو بن العاص الى سيدنا عمر يصف له البحر
٢٢٥ مدينة الرقة	١٩٥ بلاد كرمان
٢٢٧ بلاد هجر	١٩٥ بلاد سجستان أو سيستان
٢٢٧ بني بويه	١٨٨ صفين
٢٢٨ دمشق	١٨٧ النهروان
٢٢٨ سامان	١٨٩ شمال رودس
٢٢٨ أمة الديلم	١٨٩ النار الاغريقية
٢٢٩ مدينة الرها	١٩١ البريد
٢٣١ آل السبكتكين	١٩٢ المنجنيق
٢٣١ بني مروان	١٩٩ منارة الاسكندرية
٢٣١ البطيخة	٢٠١ العائلة المروانية
٢٣٣ الخطاء	٢٠٢ مدينة الرصافة
٢٣٣ الكرخ	٢٠٢ مدينة بوردو
٢٣٤ الدولة الخوارزمية	٢٠٦ الحميمة
٢٣٥ طائفة الباطنية	٢٠٦ حران
٢٣٧ الدولة الغورية	٢٠٦ نهر الزاب
٢٣٧ أمراء الغز	٢٠٩ نهر الصراة
٢٣٩ حمام البطاقة أو الرسائل	٢١٠ المصانع
٢٤٠ القشرف أو الخلعاء في دولة بني العباس	٢١٠ الاميال
٢٤١ أمة التتار	٢١١ البريد (ملخص تاريخي)
٢٤٣ مدينة بغداد	٢١٣ النغور
٢٤٧ مدينة لك	٢١٣ العواصم
٢٤٧ برتغال أو بورنو	٢١٣ الديلم
٢٤٧ مدينة سمورة	٢١٤ مدينة باب الابواب
٢٤٨ مدينة اربويه	٢١٤ مدينة برذعه
٢٤٨ بلاد حليقيه	٢١٤ مدينة أفسوس
٢٤٩ بلاد بريناقية	٢١٥ بلاد ساوراء النهر
٢٤٩ مدينة بديلويزة	٢١٥ بلاد حرجان
٢٤٩ النور مندوني	٢١٥ مدينة طوس
٢٤٩ مدينة شدونه	٢١٨ مدينة طرسوس
٢٤٩ مدينة اشبونه	٢١٩ مدينة سامرا
٢٥٠ أمة البشكنس	
٢٥٠ مدينة ليون	

صفحة	القديعة ١٩
٢٩٩	مدينة بظليوس
٣٠٣	مدينة مارده
٣٠٣	مدينة سر قسطه
٣٠٥	مدينة طليلطله
٣٢٦	مدينة شانت ماري
٣٢٧	مدينة رنده
٣٢٩	مدينة شنت اشتباين
٣٢٦	قلريه
٣٣٨	مدينة سالم
الاولى الى ملك العرب	مدينة شانتيماق
مدينة وجة	نهر دويره
٣٤٨	بلاد جيان
المكوس التي فرضها المولى محمد	مدينة فلسية
٣٤٩	مدينة طرطوشه
الظهير الذي أعطاه المولى محمد لسقير انكتره	مدينة شريش
مدينة الدا والبيضاء	مدينة اشديليه
٣٥٢	مدينة دانية
لائحة انكتره لحكومة مراکش	مدينة مرسية
٣٥٩	مدينة المرية
سهل متيجة	مدينة الملقه
٣٦٣	مدينة غرناطة
رأس نامند فوست	مدينة قرطبة
٣٧٩	مدينة غرناطة (ملتص نازيحي)
شروط تسليم الجزائر	شروط تسليم غرناطة
٣٨١	مدينة درعه
الضرائب التي كانت تدفعها أوروبا بالجزائر	مدينة نافيلت
٣٨٩	وادي سبو
مدينة بنطا بوليس	البر غواطي وضلاله
٣٩٠	دولة بني مدرار
الاميرال ماهون	مدينة ولبلي
٣٩٠	السكة التي ضمنها المولى أحمد ملك مراکش
الملاح هيلكون	مدينة شترين
٣٩٠	مدينة بيجا
القائد مملكار	ياوروه
٣٩٠	مدينة الارث
القائد انيبال	مدينة وادي الحجازة
٣٩٠	حصن العقاب
القائد ماغون	
٣٩٤	
بلاد أوتيكه	
٣٩٥	
مدينة قلوريه	
٣٩٥	
مدينة مسيني	
٣٩٦	
مدينة قصر ياه	
٣٩٦	
مدينة سر قوسه	
٣٩٦	
مدينة بلرم	
٣٩٨	
مدينة طرنبه	
٣٩٨	
مدينة قطنانية	
٣٩٨	
مدينة تريو	
٣٩٩	
مدينة طرميس	
٤٠٢	
مدينة حرجنت	
٤٠٣	
مدينة رقادة	

(فهرست القوائد والمطالعات الموجودة بأسفل الصحائف)

صحيفة	صحيفة
صالح رئيس ٥٤٧	مدينة قمبوه ٤٠٤
بياله باشا ٥٤٧	المالك بردوبيل أو بغدادين ٤٠٥
السيد علي قبودان ٥٤٧	مالطه ٤٠٥
أولوح علي ٥٤٧	جزيرة قوصرة ٤٠٦
مدينة سنج ٥٤٨	قبيلة زويلة ٤٠٧
مدينة جناد ٥٤٩	مدينة اطربنش ٤٠٧
مدينة لبيوه ٥٤٩	وجاق باجه ٤٢٦
مدينة طمشوار ٥٤٩	خطاب مصطفى باي لقمصنل قرانسا ٤٣١
مدينة اكري ٥٤٩	جواب القنصل الباي ٤٣١
قلعة سكودار ٥٥٥	القرمان السلطاني لمحمد الصادق باي ٤٣٥
معاهدة البنادقة ٥٦١	معاهدة باردو ٤٣٨
مدينة وارانت ٥٧٠	لأئحة وزير خارجية الدولة عن مسألة تونس ٤٣٩
مدينة أيوار ٥٧١	ميناء زارا ٤٥١
نهر آق صو ٦٣٤	جزيرة العرب ٤٥٥
عماله مكريليه ٦٣٤	المردينيل ٤٦٥
خطبة الغازي حسين باشا الجزائري ٦٣٧	البلجوقيين ٤٨٤
ترجمة حسين باشا الجزائري ٦٤٢	البكجيرية أو الامكشارية ٤٩١
مدينة كمبوفورميو ٦٤٩	الصرب ٤٩٢
مدينة تلبيت ٦٥٩	البلغار ٤٩٢
المؤلف كاتب جلبي ٦٦٤	تموريثناث ٤٩٧
المؤلف ساني زاده ٦٦٤	بلاد المجر ٥٠٢
جمعية هيتريال السرية اليونانية ٦٦٧	قوصوه ٥٠٥
طائفة البكتاشية ٦٧٩	القسطنطينية ٥٠٩
القرمان الصادر بتعيين خليل باشا القبودانية ٧٠٤	الافلاق ٥١٤
جواب عالي باشا الوالي عصر بخصوص الدينون ٧٠٤	بوسنه ٥١٥
تقرير عالي باشا بخصوص قتال السويس ٧١٧	القرم ٥١٦
الفتوى الصادر بتخلع السلطان عبدالعزير خان ٧٢٢	البانيا ٥١٧
مضبطة الاطباء عن وفاة السلطان عبدالعزير ٧٢٣	مسبح باشا ٥١٨
الجواب المحرر من السلطان عبدالعزير للسلطان مراد ٧٢٤	بغدان ٥٢٤
مراد	أمة الاسترفون ٥٣٧
تقرير الاطباء عن مرض السلطان مرادخان ٧٢٧	بارباروس خير الدين باشا ٥٤٦
الفتوى الصادر بتخلع السلطان مرادخان ٧٢٨	طورغودجه ٥٤٦

لتصنيفه وجمعه وترصيفه مستعيناً في ذلك بأشهر المؤلفات العربية والتركية والافرنجية القديمة والحديثة وبما ينشر عند أغلب الأمم من النشرات الدورية العلمية والبحرية وبمادتي من المعلومات التاريخية البحرية لاني ممن تخرج من المدرسة البحرية المصرية ومارس فن البحر زماناً طويلاً في سفن الحكومة المصرية الحربية وغير الحربية ولقد بذلت في ذلك من يد العناية والتنقيب والتلخيص والتقريب جفاء كما أحب سفر اجامعاً شاملاً لأشتات المسائل التاريخية والوقائع البحرية والبرية القديمة والحديثة بين شرقية وغربية والله أرجو أن يحوز لذي العموم القبول كما هو المبتغى والمأمول

وقد اشتمل هذا المؤلف على تاريخ الدول القديمة كالفينيقيين والفرس واليونان والرومان وقدماء المصريين ودول العرب والحديثة كالدولة العلية العثمانية والحكومة المصرية ودولة مراکش وحكومة الجزائر وحكومة تونس وحكومة اليونان والروسية وایتاليا وجمهورية البنادقة وحكومة السيلستين وكورسكا وحكومة البابوات وجمهورية جنوه ودولة النمسا واسبانيا والپورتغال وهولانده والبلجيقا وانكلترة وفرنسا والمانيا والدانيماركة والسويد والترويج

ويشتمل تاريخ كل دولة من الدول المذكورة على موقعها الجغرافي تفصيلاً وأشهر ثغورها الحربية والتجارية وكيفية ظهور تلك الدولة وتأسيسها ومشاهير ملوكها وما حدث في زمنهم من الحوادث المهمة وقوتها البحرية وسفنها الحربية وغير ذلك مما له مناس بهذا الخصوص

وينقسم هذا التاريخ إلى ثلاثة مجلدات يحتوي المجلد الأول منها على الخطبة ومقدمة عامة في البحرية والملاحاة عند الدول الأوروپاوية والدول الإسلامية وتاريخ الانسان منذ الخلق حتى وحادثه الطوفان الشهيرة وتاريخ الفينيقين والميديين والفرس واليونان والرومان ودول العرب قبل الاسلام وبعده ودولة المغرب الأقصى وجزائر الغرب وتونس والدولة العلية العثمانية ويحتوي المجلد الثاني على تاريخ مصر القديم والحديث وتاريخ قرانسا وتاريخ انكلترة ويحتوي المجلد الثالث على تاريخ دولة روسيا والمانيا والسويد والترويج والدانيماركة وهولانده والبلجيقا والنمسا وایتاليا واسبانيا والپورتغال ومملكه اليونان الحديثة

وكان تمام تصنيفه في عصر معيد مجد الدولة العثمانية الساعى في اعلاء شأن الخلافة الاسلامية صرح في درجات المعارف والعلوم المنطوق منها والمفهوم سلطان البحرين وحقان البرين مولانا الغازى السلطان ابن السلطان السلطان (عبد الحميد خان الثاني) أدام الله دولته وأيد بالنصر والتعجيد شوكرته ووقفه لميرضاه وأعان على ما يتمناه

وقد جعلته هدية إلى سدة مولانا محيى الآمال الوطنية ومعيد النشأة المصرية عزيز مصر وحامى حى القطر خديوينا الانقم وملاننا الاعظم (عباس على الثاني) أدام الله مجده ورفع إلى السماكين قدره وسعده انه على ما يشاء تقدير وبالاجابة جدير وقد سميت (حقائق الاخبار عن دول البحار) وأرجو الله أن يكون له من اسمه نصيب انه

سميع مجيب كما أرجو كل من اطلع عليه أن يسبل ذيل المسامحة ان وجد هفوة فلا بد للهندي من نبوة
وللجواد من كبوة

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلا ان تعد معايبه

وبالله الهداية في البداية والنهاية ما

تحريرا بالقاهرة في غرة شوال سنة ١٣١٢

اسماعيل سرهنك

ميرالاي

مقدمة في الملاحة وتاريخها

الملاحة في الأزمنة القديمة وعند أهل أوروبا

لواعتبرنا الجنس الآري أنه أقدم أجناس الكرة الأرضية لعلمنا من دراسة لغته الأصلية أن معلوماته البحرية كانت في مهد الطفولية ولوقلتنا أن أهل الصين أقدم منه لكانت النتيجة كالنتيجة الأولى لا تشفى غليلا ولا تروى غليلا وقطعنا بأن درجة الملاحة التي وصلوا إليها كانت قاصرة جدا لانهم لم يتوصلوا الا لاكتشاف شواطئ بلادهم الواسعة وربما كانت بعض الشواطئ لا كلها وكذا لو حولنا النظر الى ما ورد في القران الشريف وغيره عن سفينة سيدنا نوح عليه السلام ما أمكننا أيضا أن نستفيد شيئا تاريخيا مهمما عن الملاحة في تلك الاعصار وغاية ما نعلمه أن تلك السفينة التي أوحى الله سبحانه وتعالى الى نوح بصنعها كانت لوقاية سيدنا نوح ومن آمن معه من الغرق وورد أنه عليه السلام صنعها في سنتين وكان طولها ٣٠٠ ذراع وعرضها ٥٠ ذراعا وطولها في السماء ٣٠ ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون أى طبقات تحمل في البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الاوسط الدواب والانعام وركب هو ومن معه في البطن الاعلى مع ما يحتاج اليه من الزاد ويروى أنه جعل معه جسد آدم عليه السلام وجعله معترضا بين الرجال والنساء

وعن الحسن رضى الله عنه كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ٦٠٠ ذراع وعن النبي عليه الصلاة والسلام أن عدد من كانوا مع نوح عليه السلام في السفينة من الانس ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونسأؤهم

وعن محمد بن اسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة وأولاد نوح سام وحام وياثف ونسأؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء وورد غير ذلك والله أعلم

وروى أن السفينة استقلت بهم لعشر خلون من رجب وكانت في الماء خمسين ومائة يوم واستقرت بهم على الجودي شهرا وهبطت بهم يوم عاشوراء وسيأتى بعض تحقيق عن الجودي ومكانه في حادثة الطوفان

أما أصل الملاحة فشى تضاربت فيه الاقوال واختلفت فيه روايات المؤرخين فقال قوم ان أقواما من القدماء وهم المعروفون في تواريخ أهل أوروبا بما ترجمته أكلة السمك Ichthyophages (اشنيوفاج) كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسي وشمالي افرقيتهم أول من خاطر بحياته وجال في بعض جهات البحار القريبة من الشاطئ طلبا لقوتهم المذكور

وقال سانكونياتون الفينيقي ان اعصار اهببت فجاءة على غابات مدينة صور فأحرقها وعند ذلك تناول أحد مشاهيرها المدعو اوساوس (Ousoüs) جذع شجرة وألقاه في البحر وركب عليه فكان أول من تجاسر على ركوب البحر اه فان صح هذا على ما فيه كان ذلك ابتداء اتخاذ الالكلان أي الرواس المعروفة عند البحر بين بالصالات

وزعم آخرون أن الاطلانط سنة (٣٠٠٠ ق م) هم أول من ركب البحار وساروا حول شواطئ أوروبا وبحثوا وصلوا بلاد آسيا ومع ذلك فهما كان أصل الملاحظة فان هذه السياحات البحرية المذكورة غير تامه أصلا بحيث يتعذر علينا أن نعرف منها جرثومة الملاحظة الحالية

أما التجربة البحرية المسممة في نواريخ اليونان بتجربة الارغونوت فليست الاقصة لايعول عليها وان اشتمت على أصل حقيقي ومشروع اشتهر ذكره في الآفاق ومما روى أن تلك السفينة المسممة أرغوالتي ذكرها كنبه اليونان وأن ملاحها كانوا يحملونها على أكتافهم في الاماكن الصعبة ويخرجونها كل مساء بغاية الاعتناء مخافة حصول حادث نعلم أن درجة هذا العلم كانت لاتزال اذذاك في المهد ومع ذلك فر بما كان في القصة التي بقيت لنا عن تلك السفينة دليل على جهل شعراء اليونان بعلم كان قد حاز درجة عظيمة عند غيرهم لان مدينة صيدانالت اهمية

وشهرة في فن سلوك البحار في نحو سنة (٢٧١٤ ق م) وقد أثبتت تجارتها الممتدة في ذلك العصر زمتا للملاحظة تقدمت فيه لان الفينيقيين وان كان سيرهم قريبا من الشاطئ فلا بد وأن يكونوا ساحوا

سياحات طويلة وواجب اجميع جهات البحر الابيض المتوسط وقد اشتهر الفينيقيون ثم الاثينيون ثم الكراتيون ثم أهل رودس ثم أهل قرطاجنه على التعاقب في فن سلوك البحر

ومن الاسباب الاولى التي ساعدت الامم المذكورة على نوال هذه الدرجة موقع بلادهم وتمسكهم بمتقوتهم البحرية ويقال إن أهل رودس هم أول من وضع الاصول والقواعد الاولى لعلم سلوك البحار وذلك في سنة (٩٠٠ ق م)

وفي (١٤٣٧ ق م) جهز فرعون مصر سيزوستريس عدتة أساطيل عظيمة لاكتشاف سواحل فينيقية وسواحل البحر الاحمر وكان للمصريين أثناء اغارتهم على بلاد البيلاج أساطيل حقيقية جيدة البناء والنظام ومع ذلك فان هوميروس الشاعر المتأخر كثيرا عن زمن الحوادث المذكورة السابقة والذي كان من أكبر سياحي عصره لم يتكلم عن الملاحة أو البحرية في زمنه الا باقوال أوسع وأرقى بقليل مما ورد عن الارغونوت عنها

وقد كان الاوقيانوس في الحقيقة بالنسبة للامم القديمة عبارة عن الشيء الغير المنتهى والعنصر الخطر الذي لا يمكن للانسان أن يهتدي فيه الابعلاحة العناية الالهية وكانوا يقولون أيضا ان الاوقيانوس إله لا يملك الانسان نفسه بمجرد وضع قدميه فيه وانه تحت تصرف قوة عالية لا تقهر حتى ان الاناسيد اليونانية القديمة قد ورد فيها كثير من هذه الافكار الفاسدة التي كان يوجد هذا اذذاك مجرد النظر الى الاوقيانوس

وفي سنة (١١٣٧ ق م) أسس الفينيقيون قرطاجنه وبعدها بقليل أسس القرطاجنيون مدينة مسيليا أي مرسيليا وهذا يدل على أن البحر الابيض المتوسط باجمعه كان معروفا فخر بيماهه سفن كثيرة بلا انقطاع ونجاح هذه المشروعات الاولى والميل إلى السياحة

ومعرفة المجهول من الاقطار هو الذي دعا الملاحين الى المخاطرة بالسير الى ابعدم من ذلك على سفنهم الصغيرة فأجرى هنون القرطاجني سياحة حول افريقية في سنة (٨٠٠ ق م) مبتدئاً من مضيق هرقل أي (جبل طارق) وتسم أودوكس الاغريقي سياحته حولها بعده سنة (٦١٦ ق م) مبتدئاً من البحر الاحمر ولا يبعد أن يكون طاف حول رأس الزوابع (عشم اندير) قبل أن طاف حوله فاسكودوغامه لا أول مرة كما هو المشهور واكتشف طريق مصر الى بلاد الهند من البحر الاحمر وبعد ذلك قام هيميلكون القرطاجني وواب جهات الاوقيانوس الشمالية الى انكترا وفي سنة (٣٣٠ ق م) اكتشف سيسياس المرسيلى جزيرة اسلانده المسماة أولتيمبول عند الرومان ولم يعد لبحر الظلمات سر عميق مكنون لذي هؤلاء الملاحين الجسورين كما كان له قبل حتى انه من المظنون الراجح أنهم أثناء تلك السياحات العظيمة وصلوا بلاداً مريفاً وان كان ليس لدينا ما يؤيد هذا القول ثم ان أسطول اسكندر المقدوني تحت اماره نيارك ا اكتشف شواطئ آسيان نهر السند الى الخليج الفارسي وقد أوقعت قرطاجنه العرب في قلوب روميه بما كانت تحوزه من البحريه الشهيره ولذلك شرعت روميه في ايجاد بحريه وسفن من جميع الاشكال والانواع ولا غرض لها في ذلك غير نكاية أعدائها أهل قرطاجنه وقد ورد فيميروي ان روميه لم يكن لديها من السفن مثال تحذو عليه في بناء أساطيلها غير سفينة قرطاجنيه كانت ألقتها الامواج على شواطئها ولم يتأ كد الرومان من قوتهم وسلطانهم الا بعد الا لتصار البحرى الذى انتصره القائد ديوليوس على أهل قرطاجنه

ولا يخفى أن السفن في ذلك الوقت لم تكن تتحرك الا بالمقاذيف فقط وليس لها شراعات أما استعمال الشراعات فغير معروف في ذلك الزمن ومع ذلك فمن المظنون أن أودوكس الاغريقي استعملها قليلاً في سياحته السابق ذكرها حينما استعان بالرياح الموسمية لينتقل من البحر الاحمر الى بحر الهند ويستدل من المتولوية الاغريقية على استعمالها في تجرودة تيزى ضد مينيطور ملك افريطش حيث جاء فيها ان والد تيزى المسمى ايجي قتل نفسه بغلظة ابنه لانه غير شرعاً به السوداء عند عودته بشراعات بيضاء

وقد اعتمد تيمستوكل اليوناني في تجاوة وطنه على ما شيد من السفن ونجى بلاد اليونان في واقعة سلامين البحريه وكانت فيها سفن الفرس واليونان تتحرك بالشراعات كما ستقف عليه عند ذكرأمة اليونان ولم تنل الملاحة مدة الرومان تقديماً يعتد به إذ أن الاصلاحات التي أحدثوها كانت قاصرة على بناء وتجهيز السفن فقط للسير بجانب الشواطئ ولهذا لم تترك الملاحة باكتشاف عظيم مع ما كانت عليه من النقص الكبير وقد تكلم قيصر عن بحريه الغالسين وبحريه سكان مدينة فان بفرنسا الذين حاربوا الرومان سنة (١٥٦ ق م) حرباً بحرياً أظهر واقعها إقداماً ومهارة عجيبة وقد حفظ الغاليون شهرتهم البحريه مدة حكم الرومان

وذكر أحد القسيسين في تأليف له بحريه الغاله قديماً بقوله (يتصف كل بحري عند الغالين بالمهارة والتعليم بقدر ما يتصف بها غيره من بحارة الامم الاخرى لانه لى التزال عند التمام السفن ببعضها (المعبر عنه عند البحريين بالرأمة) تراهم يتقضون على سفن الاعداو ويقلبون ما قابلهم منها قبل أن يتمكن الاعدا من الاستعداد للقاومه متى طاردوا وسفينه استولوا عليها لا تحملكهما

كانت جودة شراعاتها ولو اضطروا الى المقاتلة وهم في حالة الانهزام أظهر من الجراءة في مناوراتهم شيئا عجيبا بحيث لا يرمون بالجن والهرب وبالاختصار يمكن أن يقال عنهم أنهم يتصرفون في الرياح والأمواج وحتى في الموت كما يشتهون اهـ

وكانت شهرة أمة الفريج (الفرنك) في البحرية لا تنقص عن شهرة الغالين ومما يحكى أن الامبراطور پروبوس كان ينقل بعض قبائل الفريج الى شواطئ البحر الاسود فاستحوذوا بعد قليل على سفن وقطعوا بها مضيق القسطنطينية وبحر مرمره ومضيق الدردنيل وبحر الارخبيل والبحر الابيض المتوسط ومضيق جبل طارق حتى أمكنهم العودة الى وطنهم من الاوقيانوس ونهر الرين وما يجب التنبيه اليه ان تيودير Théodebert ابن تيريري الاول ملك استراسيا هزم اسطولا دانييريا ولو كان لشاركان أساطيل جسيمة القدر بالاقيانوس والبحر الابيض المتوسط وسفن مسلحة واقفة عند مصبات أنهر فرنسا لطردها لقرصان الشمال (نورمان) وكان هؤلاء القرصان أصحاب إقدام عجيب يسخرون بالاختطار ويقعون الرعب في كل مكان مروا به وقد أربى غيلوم الفاتح وهو من نسل النورماندين على شواطئ انكتره ومعه ثلاثة آلاف سفينة وأكثر من خمسمائة مسلحة مستعدة للحرب

وقد ارتقت الملاحة في العصر الوسطى ارتقاء نسيبا حاز بعض الأهمية باكتشاف النورماندين جزيرة غسر ونلانده وبلاد لبرادور والارض الجديدة وبتقل الصليبيين من القسطنطينية الى شواطئ بلاد الشام على سفن البنادق وذلك بعداكتشاف النورماندين المتقدم بقرون ومن أول القرن الثاني عشر المسيحي كانت تجارة البحر الابيض المتوسط وبلاد الشرق في قبضة البنادق وجمهوريه خصوصاً الأولى من هذه الجمهوريات الثلاث فكانت البندقية هي فينيقية الحديثة ثم ما زال علم سلوك البحري ترقى شيئا فشيئا حتى وجد تماما ثم كثر عند تجار هذه المدن المذكورة عدد الملاحين أصحاب العزائم والهمم الذين تدربوا على فن سلوك الجرفوق السفن التجارية العديدة التي كانت لتلك الجمهوريات وكانت تلك السفن مدارس لهم ينبغ منها كثير من المشاهير بحيث لم يكن ينقص الملاحة اذذاك الا الاكتشافات وتطبيق القوانين الطبيعية والفلكية المعروفة عليها اليعلق قدرها ويتسع نطاقها وقد كاناكتشاف بيت الابرة أول خطوة عظيمة خطتها الملاحة في هذا الباب وتقدمتها تقديما حقيقيا وقام عده من مشاهير الملاحين لاكتشاف الجوهول من الكرة ولم يكن سيرهم في البحار مساحلة كما كانوا يفعلون من قبل أي قبيل اختراع بيت الابرة بل كانوا يخترقون عباب الاوقيانوس وبعداكتشاف جزائر قنارية أو الخالدات وجزائر ماديره وأسوره وجزائر الرأس الاخضر اكتشف كريستوف كولومب الشهير بلاد أميركا سنة (١٤٩٢ م) واكتشف فاسكودو غامه رأس عشم الخير سنة (١٤٩٧ م) ثم بعد ذلك امتدت فتوحات البورتغال والاسبانول ثم الانكليز وأهل هولانده واكتشفوا دنيا أخرى واقتصدوا ولاواسعة في بلاد الهند وغيرها وماالفضل في ذلك الا للاساطيل

ومتى تفكرنا في أمر أولئك الملاحين الجسورين وعلمنا أن بيت الابرة لم يكن تام الاتقان في ذلك الوقت وانهم كانوا بذلك عرضة للوقوع في أعظم الغلطات سيما وان سفنهم كانت ضعيفة ضئيلة خالية تقريبا من المخادع مجهزة بقليل من الذخائر تقصم أعظم الاخطار وتلاطم أجسام الأمواج وهم في

شظف من العيش عرضة للموت في كل وقت يبغون المسير في بحر لا تعلم حدوده لاكتشاف جهات العالم استولت علينا الدهشة ودانحلنا الاستغراب وبعد ذلك بعدة سنوات اكتشف مجالان في نهاية أمر يكا الجنوبية طريقا يوصل الى المحيط الهادى وبعد ان اجتازه وصل الى بلاد الهند وبهذا الاكتشاف صار العالم معروف الجوانب معلوم طرق المواصلة كل ذلك حصل بين سنتى (١٤٩٢

- ١٥٢١ م)

وقد أحدثا اكتشاف أمير يكا وغيرهما من الجهات الوافرة الثروة طمعاً وعميماً وأثر على الملاحه تأثيراً لا مثيل له في التاريخ

ولما كثر تردد السفن على الاوقيانوس وليس لها به أما كن ترسو عليه اضطر القوم لتغيير بناء السفن وتقليل استعمال المقاذيف حتى تركت تماماً باستعمال الشراعات المربعة وكان ذلك أول العهد بها

وفي مدة الازمنة الوسطى اضمحلت البحريه عند الفرنسيين جدا ولم يكن لبعض ملوكهم الا القليل من السفن حتى ان فيليب أغسطس اضطر لان يستعير من أهل جنوه اسطولاً ينقل عليه جنوده في الحملة الصليبية الاولى ولحق سان لويس سنة (١٢٤٢ م) العناء الشديد حتى جمع ثمانين مراكب لحماية بلاد پوانومن الانكليز ونقل عليها جنوده الى أفريقيا في حياضه الصليبية وكذا اضطر فيليب الظريف لان يتوسل لاهالى جنوه بمساعدة بالاساطيل لما أراد مقابلة الانكليز الذين هزموا اساطيله سنة (١٣٤٠ م) وفي ذلك الوقت كانت الثروة تنهال على بلاد البندقية وجنوه ومدن الخليفة الهانسياتيكية من اساطيلها التي جعلت لها نفوذا عظيماً ولما صعد فرانسوا الاول على تخت فرانس ابدل جهده في احياء البحريه بجمع وأنشائها عددا عظيماً ونصب عليها اندريادور يا أميرالا (١) وكان أشهر الملاحين في عصره ثم أرسل سفن سنة (١٥٢٣ م) للبحث عن اراضى أخرى بشمالى أمير يكا واستولى في ذلك الوقت ملاح بسيط فرنساوى يدعى جالك كارتيه على بلاد كندا باسم ملك فرانسوا المذكور

ولما حصلت الحروب الدينية بأورپا اضمحلت اساطيل الفرنسيين فاهتم ريشيليو (٢) الشهير باعادتها وترأس هو على البحريه لشغفه بتقدمها حتى انه في وصايته السياسة للويس الثالث عشر يحرضه كثيراً على اتخاذ الاساطيل والاكتفاء منها وتجهيزها بالعدد وجعلها حاضرة عند أول اشارة وقد أخرج هذا الرجل أفكاره من القوة الى الفعل وأسرع في تشييد السفن فصار له بعد قليل منها عدد عظيم بالمحيط والبحر المتوسط وسلطها بالمدافع الكثيرة وأوجد في جميع الغور مدارس بحريه مجانية وغيرها مما عاود على البحريه الفرنسيه بالتقدم ولما مات ريشيليو تقهقرت البحريه زمن مازارين (٣) حتى انه لما صعد لويس الرابع

(١) هذا اللفظ مأخوذ من أمير البحر أو أمير الماء بالعربية وأول من استعمل هذا اللفظ في أوروبا أهل جنوه وغيرهم من الطليانيين اه

(٢) ريشيليو كان وزيراً للويس الثالث عشر وهو من أكبر رجال فرانسوا وكان كرده بالاوله أعمال عظيمة عادت على بلاده بالقوائد كما تراه مفصلاً بتاريخ فرانسوا لسنه ١٥٨٥ ووفى سنة ١٦٤٢ م

(٣) كان كرده بالاطلياني الاصل ولما اختصر ريشيليو اوصى عليه لويس الثالث عشر فجعله وزيراً الاول وحفظ مازارين منزلته العاليه مدته لوزير الرابع عشر وسياق ذكره وأعماله بتاريخ فرانسوا سنة (١٦٠٢-١٦٦١ م)

المدرعة المتنوعة لحماية شواطئها وحماية المستعمرات التي تهاقت على الحصول عليها بجميع أقطار العالم من بعد ذلك التاريخ خصوصا ومع ذلك فإن الانكليز لم يرضوا الطرف عن هذه المسابقة بل اهتموا الاهتمام الزائد في تشييد السفن المدرعة وغيرها ليكون لهم النفوذ الاول في جميع البحار ولذلك نرى رجالها وعظماؤها يعتفون الدولة على الدوام فيرمونهم بالتقصير في انشاء السفن كملار أو دولة من دول البحار الحالية أنزلت الى البحار سفينة أو سفينتين ولذلك اضطر واحكومتهم الى تخصيص المبالغ الوفيرة لانشاء السفن الحربية لمراقبة حركات الدول الاخرى فلم يسع الحكومة الاجابة مطالبهم والحق يقال انه لو اصرح خطباء الانكليز وكناهم في الوقت الحاضر لتهقرت دولتهم في البحرية ناخرنا محسوسا للمسابقة الحاصلة من الدول الاخرى وكيف لا يتم الانكليز بتقوية سفنهم التي لولاها ما كان لدولتهم هذه القوة والثروة والنفوذ بالعالم

ومن الدول البحرية الحديثة التي اهتمت بتقوية نفوذها البحري بانشاء الاساطيل البحرية المتنوعة المايا وايتاليا فكان اهتمام الاولى بذلك على الخصوص بعد ان تصارها على القرنيس سنة (١٨٧١ م) وكان اهتمام الثانية بحرية بعد الهزيمة التي هزمت فيها اساطيلها بجوار جزيرة ليسا سنة (١٨٦٦ م)

ومن الدول العظيمة التي اهتمت بالبحرية اهتماما عظيما دولة الروسية حيث أوجدت لها أسطولا قويًا بالبحر الاسود واخر بالبحر الابيض المتوسط خلاف اساطيلها القوية الموجودة ببحر بالتيق ولم يقف ترقى الملاحة والبحرية عند النقطة التي ذكرناها قبل أن تكملنا على تاريخ البحرية عند الفرنسيين والانكليز وغيرهم بل انما يمكن تعيين النقاط الاصلية بالضبط الكافي واستعملت الخسرات التي كانت قاصرة على رسم الشواطئ في أول الامر ثم تحسنت وصارت خرطاط بحرية تعيين خطوط الاطوال على طريقة المساقط التي أصلها مير كلور^(١) في القرن السادس عشر الميلادي واخترع مقياس سير السفن (البركيتيه) حصل من ذلك للملاحة تقدم عظيم لانه صار في امكان البحري حساب المسافة التي يقطعها بطريقة أضبط وأسرع من ذي قبل ولاشك ان ملاحى القرن الماضي الجسورين لم يكونوا في احتياج الى هذه التحسينات لاجراء الاعمال العظيمة التي قاموا بها في استكشاف امرىكا والطواف حول رأس عدم الخير وحتى للطواف حول الارض وقد كانوا يخدعون أنفسهم بانفسهم ظنا منهم ان خرطاطهم البحرية لا يمكن ان يفوقها غيرها ولم يكن في حسابهم ان يأتي يوم يفوقهم فيه خلافتهم في هذا الباب أصلا وفي ذلك الوقت أهملت خرطاط مير كلور بالضبط التام الذي حصل في بيت البرتو بتقدم علم الطبوغرافيا البحرية (الهيدوروغرافيا) وبالتحسينات التي أدخلت على الآلات المستعملة في علم الفلك البحري وايجاد السكستان (آلة السدس) والساعات البحرية والكر ونومترات التي يمكن بها تعيين طول أى مكان معلوم حتى أمكن الملاحين عدم الوقوع في الغلطات الفاحشة التي كانوا عرضة لحصولها واقتصر واعلى استعمال البوصلة فقط ومن بعد اختراع هذه الآلات وتحسينها صار علم الملاحة علما حقيقيا كيدامينا على قضايا هندسية بحيث لم يعد أمامه خطورة يتخطاها في سبيل التقدم الاستعمال البحري الملاحة

(١) هو عالم شهير من علماء الجغرافيا هولاندى الاصل ينسب اليه طريقة مساقط شهيرة في رسم الخرط والرسنة ١٥١٢ ومات سنة ١٥٩٤ م

ولكنه في هذه المدة البالغة نحو الاربعة قرون أى ما بين القرن الخامس عشر والسابع عشر الميلادى حازت الملاحة عدة تقدمات مهمة واتسع نطاق التجارة البحرية بمهارة الملاحين بحيث تبودلت علاقات الامم مع بعضها وانتشرت السفن فى كل البحار ومع ذلك لم تسهل التجارة فائدة عظيمة الا بعد ادخال تحسينات مهمة فى بناء السفن لانه انضح اذذالآن من الضرورى الاستعانة بالعلوم الهندسية لحل المسائل المعضلة المتوقفة عليها تغيير شكل ومقدار السفينة الثقيلة الضيقة التى اكتشفها كريستوف كولومب قارة أمريكا الى الشكل الجسيم الذى وصلت اليه السفن الحربية فى زمن لويس الرابع عشر ملك فرنسا والى السفينة التجارية الانكليزية القوية التى جمعت جميع المزايا بين سرعة سير واستعداد تام ومناقة فائقة

ولما أتى القرن التاسع عشر الميلادى تقدم علم الملاحة تقدماً باهرا حتى كأنه طرأ عليه انقلاب جديد وذلك باستعمال البخار لسير السفن وتحريك آلاتها

ولا يخفى انه باستعمال البخار لم يعد للشرعات التى كانت لذلك الوقت هى العامل الاصلى لسير السفن الا درجته ثانوية وباستعمال البخار أيضا قبض الملاح على آلة قوية يمكنه بها وقت اللزوم أن يتغلب على عنصرى الماء والهواء ويؤثر على سير السفينة بسرعة وانتظاما بكيفية غريبة وقد يتصل بهذا الانقلاب البحرى الرئيسى أى استعمال البخار استعمال القزانات الانبوية والسلاسل بدل الاحبال (الغمن) وتصفيح السفن بالحديد وقوعويض العجلات ذات المقاذيف الخشبية بالرصاصات واستعمال الشرعات مع البخار فى وقت واحد وغير ذلك وقد قال أحد علماء هذا الفن ان استعمال البخار فى الملاحة أو جد صعوبات عظيمة خصوصا اذا كان المسير الى البلاد البعيدة المحتاجة لادخار كميات عظيمة من الفحم والسفن على غاية من الاستعداد والمناقة المحتاجة لآلات قوية جدا وقد أمكن بعد قليل حل هذه المسئلة من الجهة الميكانيكية

ولكن تحقق أن السرعة والانتظام لا يمكن الحصول عليهما فى قطع المسافات خصوصا بالعبدة الا يبذل المصاريف الهائلة التى تفوق بكثير مصاريف الملاحة بالشرع لان السفن البخارية من حيث الابتياح والحفظ ليست أكثر قيمة من السفن الشراعية بل ان المحرك لها يستهلك خفا كثيرا وهذا الفحم يشغل من وسعها اجانبا عظيما ويكثر المصاريف ويقلل الايراد لانهم قد تمكنوا الآن من تقليل المصروفات بادخال الاصلاحات اللازمة شيا فشيئا مثل تصفيح السفينة بالحديد لانها بذلك صارت أخف وأمتن من الاخشاب وأمكن جعلها على الشكل الدقيق بدون أن يؤدى ذلك الى ضرر فى متانتها وبادخال تحسينات أخرى مختلفة فى الأجهزة والعدد أمكن جعل البخار أقل قيمة وأكثر فائدة

ومن التحسينات أيضا وضع القزانات الانبوية واستعمال الرافس لخفته وصغر حجمه عن العجلات ومع هذا فهناك أسباب عديدة جعلت مصروفات الملاحة البخارية عظيمة منها تحميل السفينة حملا عظيما من البضائع والركاب حتى تبقى بالمصروفات ومنها ازدياد حجم السفن وزيادة خارجة عن حد القياس دعت اليها المزاوجة الشديدة الحاصلة بين شركات الملاحة الانكليزية والفرنساوية والامريكانيه ولهذا الاسباب المتقدمة وغيرها لازالت السفينة الشراعية أكثر عملا وانتشارا فى الملاحة رغم ان التقدم العظيم الذى أحدثه استعمال البخار فى السفن البخارية

ولازلتنا شاهد السفن الشراعية تستعمل للاسفار البعيدة ولنقل كثير من المواد وكانها استفادت من جميع التحسينات التي أدخلت في بناء السفن الحديثة لم تبق أقل منها الا من حيث السرعة فقط

الملاحة والبحرية في دول الاسلام عموماً والدولة العلية العثمانية خصوصاً

اعلم أن الملاحة كانت معلومة من قديم الازمنة لكثير من القبائل العربية النازلة على سواحل خليج العجم والبحر الأحمر وكافوا يتعاطون التجارة مع سكان سواحل أفريقيا الشرقية والجنوبية وكان لهم معرفة جيدة باستعمال الشراعات غير أن سفنهم كانت صغيرة الحجم وقد تحقق أنهم في أسفارهم التجارية قبل ظهور الاسلام الى كثير من سواحل الهند وجزر آسيا الجنوبية ولكن لما ظهر الاسلام أهملت القبائل التي اعتنقته أمر الملاحة حتى زمن الفاروق رضي الله عنه

ولما فتح عمرو بن العاص الديار المصرية كتب اليه سيدنا عمر رضي الله عنه مكتوباً يطلب منه فيه أن يعلمه بوصف البحر وأحواله فكتب عمرو الجواب وقال فيه اعلم يا أمير المؤمنين أن البحر خلق عظيم ركبه خلق ضعيف كدود على عود تمنع الفاروق الاسلام من ركوب البحر صيانة وحفظ الارواح الامة المحمدية في ذلك الوقت غير أن أهل مصر ومن ساكنهم من الملل المختلفة خصوصاً التجار منهم لما كانوا يشتغلون من قديم التجارة والحروب البحرية من عهد الدول السالفة وقد صرفوا زماناً طويلاً من أعمارهم في أسفار البحار متلقين تلك المهنة المقيدة عن آبائهم لم يلبوا وعنان رغبتهم عنها ولم يلتفتوا الى النهى المتقدم بل استمروا على تشييد السفن بثغور رشيد ودمياط والاسكندرية وسائر السواحل وكان لهم تجارة مع بلاد اليمن والهند وبقي سواحل البحر الأبيض المتوسط

وكافوا لا ينفكون عن ترغيب القبائل العربية النازلة على سواحل بلاد مصر وكذا قبائل زنات وكبراء المغاربة على الغزوات والتجارة البحرية غير أن أعيان العمالة الذين كانوا مع عمرو بن العاص حين الفتح لم يرضوا بمخالفة قول الفاروق في أول الأمر وأمروا بالتمسك به جيداً الآن عرّفه بن هرثة الأزدي سيد بجيلة وكذا كما بلاد مسقط رأياً أنه ليس من الصواب منسح المسلمين من الغزو والجهاد في البحر والحصول على المكاسب في البحر وغزو واجهات عمان وما قرب منها من السواحل والجزائر فلما بلغ ذلك الفاروق أرسل الى عرّفه كتاباً يعاتبه على ما حصل منه وأمر عمرو بن العاص بمواخذته وزجره وكان غرضه من ذلك عدم التغرير بالعرب الذين دخلوا الاسلام حديثاً مخافة أن يتشتتوا في البلاد ويبعدوا عن مركز الخلافة ولا يخفى ما يناله من ذلك من الضعف ويؤيده هذا القول أنه لما بلغه رضي الله عنه بعد ذلك أن بعض أكبر المسلمين اشتركوا مع الموسرين من أصحاب السفن ببلاد مصر وأخذوا يركبون البحر ويغزون فيه ويتجرون لم يشدد النكير عليهم بل أغفله

وفي خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه ركب عبد الله بن أبي سرح أمير مصر البحر سنة (٥٣٣ هـ) في مائة سفينة والتقى مع الروم وكانوا في ألف سفينة فنصر الله المسلمين وغنوا منهم مغنم كثيرة ولما قام معاوية بأمر الخلافة صار لاهل الاسلام في البحار سفن صغيرة خاصة بهم يغزون بها تارة ويبحرون أخرى غير أن رؤساءها وخدمتها كان أكثرهم من النصارى لوقوفهم على فن سلوك البحار فهذا كان يستخدمهم المسلمون باجر عالية لجهل الاسلام اذ ذلك بهذا الفن

ولما تولى عمرو بن العاص مصر ثانية في خلافة معاوية وكان صار للاسلام علم يفتن سلوك البحار اذن الخليفة لعموم المسلمين بركوب البحر والغزو فيه ومن هذات تعلم الحكمة التي بنى عليها الفاروق منع ركوب البحار أولا ثم اغضاه عن ركوبه بعد ذلك ثم صدور الاذن العام من معاوية رضي الله عنه بعدها والسبب في ذلك كما قاله ابن خلدون أن العرب ابدا وتهم لم يكونوا أول الامر مهرة في ثقافة البحر وركوبه والروم والافرنج لما رستهم أحواله ومر باهم في التقلب على أعواده مروفا عليه وأحكوا الدراية بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم حول لهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استمدت فابصرها بها فشرها الى الجهاد فيه وانشأوا السفن فيه والشواني وشمخوا الاساطيل بالرجال والسلاح وأعطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم النصارى واختصوا بذلك في ممالكهم وغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافظه مثل الشام وأفر بيقية والمغرب والاندلس اه

وبعد صدور الاذن المذكور اهتم غزاة المسلمين في بناء السفن المناسبة واستأجر والها العمال من النصارى العارفين باحوال الرياح والبحار وصار المسلمون يغزون البحر ويعترضون سفن الفرنج والروم وغيرها أو يتجرون بها وقد بلغت عدة سفن الاسلام في عهد معاوية رضي الله عنه ١٧٠٠ سفينة ومما ساعده على بنائها غابات جبال لبنان العظيمة ثم ترقت صناعة السفن تدريجيا وتعلم المسلمون فن سلوك البحار جيد حتى قبضوا على القوة البحرية بجميع جهات البحر المتوسط الابيض كما ستعلم من تاريخ دولهم

وفي ولاية عقبة بن عامر على مصر خرج باسطول عظيم سنة (٥٤٧ هـ) وغزار ودرس ورجع منها بغنائم وافرة وفي السنة التالية أغزى معاوية الاسطول بجزيرة قبرس وفي خلافة عبد الملك بن مروان أرسل الى حسان بن النعمان عام له بافر بيقية أن يبني دارا لصناعة بتونس لعمل السفن والآلات البحرية حرا على مراسم الجهاد فقام بهذا الامر خير قيام وكانت هذه الدار هي أول دار صناعة عملت في الملة الاسلامية ولفظ ترسانة المتداول الآن على السنة الترك والعرب هو تخر يف من لفظة دارا لصناعة وقد حرف هذا اللفظ أيضا الامم الاور وياوية فهو دخيل في لغتهم وقد صنع بدار الصناعة المذكورة أكثر من ٥٠٠ سفينة تشبه الفرقاطة لكنها أخف منها مؤنة وكان ذلك في امارة زيادة الله بن ابراهيم على تونس سنة (٥٨٢ هـ)

ولما تولى على تلك الجهات عطاء بن رافع من طرف عبد الملك استعجب ذلك الاسطول وفتح بجزيرة صقلية المسماة سيسيليا وأغزى بهذا الاسطول موسى بن نصير والى افر بيقية طارق بن زياد الاندلسي ففتح سبي وفتح أيضا بجزيرة سرد بنيا سنة (٥٩١ هـ) وفي السنة التالية ألقط طارق بن

زيد باسطول كبير كان هو الامير عليه والقائلان به من الجيوش حتى خرج من خليج سبته الى بحر
الظلمات ثم حارب الاسبانيول وانتصر عليهم وفتح بلادهم وهذا الاسطول هو اول اسطول اسلامي
خرج من مضيق سبته الذي دعي فيما بعد مضيق طارق ولا يخفى ان فتح الاندلس البلاد الغنية
الواسعة التي اتسع بها شأن الاسلام علما وفروسية وسطوة وكذا غيرهما من جزائر البحر لم يكن الا
نتيجة الاهتمام بالقوة البحرية وبعدها صار لغزاة المسلمين قوة بحرية جسيمة كانت تخرج في كل سنة
من الثغور المصرية وسواحل افرريقية لغزو جزائر البحر وممالك الفرنج فتفتح الفتوحات الجليلية وتعود
بالغنائم الوفيرة وفي عهد سليمان بن الوليد غزا مسلمة بن عبد الملك القسطنطينية بجيش كثيف
وعماره عظيمة يزيد عدد سفنها عن ألف وثمانمائة سفينة كان أعظمها يحمل مائة رجل يجهزهم
ولولا النيران الاغريقية لافتتحت هذه الاساطيل تلك المدينة

أما قيادة الاساطيل في المغرب وافرريقية فكانت من مراتب الدولة وخططها قال ابن خلدون
وهي مرؤسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الاحوال وإنما اختصت هذه المرتبة بمالك
افريقية والمغرب لانهم جميعا على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب بمقابل الفرنج الذين اعتنوا
في أمر ركوب البحر والحرب في الاساطيل وبها أتوا الى بلاد البربر واستولوا عليها ولم يكن العرب
يعرفون هذه المهنة الى أن سلسلطانهم واتصلوا بالفرنج فاضطروا الى بناء الاساطيل وأتقنوا
صناعتها وكانت أساطيل افرريقية والاندلس في دولة العبيديين والامويين تتعاقب الى البلاد
الواقعة على سواحل البحر الرومي وبحره في سبيل القننة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب
وانتهى أسطول الاندلس أيام عبد الرحمن الناصر الى ٢٠٠ مركب أو نحوها وأسطول
افريقية كذلك وكان قائد الاساطيل بالاندلس ابن رماحس ومرؤها اللحظ والاقلاع بجاية
والمرية وكانت أساطيلها مجتمععة في سائر الممالك من كل بلد اتخذ فيه السفن اسطول يرجع نظره
الى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ورئيس يدبر أمر حربه بالريخ أو بالمجاذيف وأمر
ارسائه في مرؤته فإذا اجتمعت الاساطيل لغزو ومحتفل أو عرض سلطاني مهم عسكرت بمرؤتها المعهولم
وشحنها الساطان برجاله وجعلهم في نظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم
اليه

وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على البحر المتوسط الابيض في جميع جوانبه
وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للام النصرانية قبل باساطيلهم فكانت لهم المقامات المعهولة
في القنق والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه وبعض ممالك الروم والفرنج
وكان أبو القاسم الشيعي وأبناءؤه يغزون أساطيلهم من المهديية بلاد جنوه فتقلب بالظفر والغنمة
وكانت الاساطيل الاسلامية في بحر الروم جائية وذاهية والعساكر الاسلامية تجوز البحر في
الاساطيل من صقلية الى البر الكبير (اوروبا) المقابل لها من العدة الشمالية فتوقع بمالوك
الفرنج وتخن في ممالكهم حتى ضعفت شوكة الافرنج جدا وانحازوا باساطيلهم الى الجانب
الشمالي الشرقي منه وما زال الحال على ذلك حتى اذا أدركت الدولة العبيدية والاموية الفشل
والوهن وطرقها الاعتلال سد الافرنج أيديهم الى جزائر البحر فلكوها وطرقوا سواحل الشام
واستولوا على جميع ثغوره وغلبوا على قابس وسفاقس والمهديية فضعف شأن الاساطيل في دولة

مصر والشام الى أن انقطع ولم يعتنوا بشئ من أمره فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بافريقيه والمغرب مخصصه

واستمر الجانب الغربي من هذا البحر موفورا لاساطيل ثابتة القوة وكان قائدا لاسطول به لعهد لمتونه بنى ميمون رؤساء جزيرة قانس وانتهى عدد أساطيلهم الى المائتين من بلاد العدوتين جميعا ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائدا لاسطولهم أحمد الصقلي أصله من جزيرة جربة أسره النصارى وربوه ثم استخلصه صاحب صقلية واستكفاه

ثم مات وولى ابنه فاستنطه ببعض النزعات وخشى على نفسه ولحق بتونس ونزل على بنى عبد المؤمن بهلوا أجاز الى مراكش فتلقاته الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالكرامة وأجزل له الصلوة وقلده أمر أساطيله فكانت له آثار في الغزو ومقامات مشكورة مذكورة في دولة الموحدين وانتهت أساطيل المسلمين على عهده من الكثرة والاستجداء ما لم تبلغه من قبل

ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام باسترجاع نفور الشام من يد الصليبيين وتباعت أساطيلهم بالمدد لتلك النفور من كل ناحية ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل هنالك كما سبق أو فد على أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب رسوله عبد الكريم ابن منقذ طالبا بمدد الاساطيل التحول في البحر بين أساطيل النصارى وبين أمرائهم في امداد الصليبيين بنفور الشام فلم يجيبوه الى طلبه ولم يكن في الاسلام في ذلك الوقت قوة بحرية غير قوة الموحدين ثم لما ضعفت دول المغرب واستولت أمم الخلافة على الاكثر من بلاد الاندلس والجزوا المسلمين الى سيف البحر وملكوا جزائره الغربية اشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه الى المساواة معهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الاساطيل اضعف الدولة ونسيان عوائد البحر لكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الاندلسية ورجع النصارى فيه الى المعروف من الدراية فيه والمران عليه والبصر باحواله وغلب الامم في جنسه وعلى أعواده وصار المسلمون فيه كالأجانب الاقليات من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه غير أن رتبة قيادة الاساطيل بقيت محفوظة في الدولة الغربية والرسم في معاناة الاساطيل بالانشاء والكوب معهود ولما تدعو اليه الحاجة من الاغراض السلطانية فيه لعهد القرن الثامن وأوائل التاسع اه يتصرف

أما الملاحه في الدولة العلية العثمانية فلم يكن لها أثر في مبسدا لقيام الدولة المذكورة لان كل غزواتها تقريبا كانت برية ولما امتدت فتوحاتها الى سواحل بحر من مره وقصد المرحوم الأمير سليمان باشا بن السلطان أورخان عبور مضيق الدردنيل لمد فتوحاته في البر الرومالي لم يجد واسطة للعبور الا بعمل بعض صالات أي رومس وعبر بها الى الضفة الاخرى في المكنان المدعو ايديتقي أو اييدوس وبعد أن أخضع قسما عظيما من بلاد الرومالي عاد نانيا وأبقى تلك الصالات في مضيق جنق قلعة وذلك هو ابتداء أمر البحارة في الدولة العثمانية ولما صممت الدولة على مهاجمة القسطنطينية مدة السلطان مراد رأيت ان المهاجمة برا غير كافية بمفردها بل من اللزوم

وجود أساطيل لذلك فأخذ يشيد السفن ويجعل لها أسطولا في كليبولي ولما عزم في تلك الاثناء على افتتاح مدينة سلونيك أرسل البنادقة عمارتهم المؤلفة من ٦٠ سفينة لاحراق السفن العثمانية الراسية في ميناء كليبولي المذكورة فلم تتمكن من شئ أصلا ورجعت مقهورة ولما كان السلطان مراد لا يهدأ له بال ما لم يفتح القسطنطينية جهز عارة قوية مؤلفة من ٤٠ سفينة لفتحها فلم يتيسر له ذلك وانتشرت سفنه في سواحل البحر الأسود نحوها

ولما قبض المرحوم السلطان محمد الفاتح على زمام الدولة رأى من اللزوم فتح القسطنطينية لتستقر الاحوال ويهدأ البلبل فأخذ في التجهيزات البرية والبحرية وأنشأ أسطولا قويا عديدا وزحف به لحصار القسطنطينية ولما رأى أنه لا يمكن الدخول الى ميناء القسطنطينية لوجود سلسلة من الحديد ضخمة معترضة في مدخل الميناء أمر بعد مشاوره قواده بإنشاء طريق على الشاطئ رصفوه بالالواح السميكة ودهنوه بالشحم لسهولة الانزلاق وجروا عليه السفن حتى أنزلوها في ميناء القسطنطينية وكان هذا الطريق يتدنى من ساحل روملى حصارا الى غير طوله بانحججه وفي رواية أخرى أنهم شيدوا سفنا خاصة بالقرب من ميناء القسطنطينية ثم أنزلوها بها وكان ذلك بمعرفة أحد قواد الجنود المدعو بالطمه أو غلى سليمان بك فكان هو أول ريان للأساطيل العثمانية ولا زالت الميناء المشهورة الكائنة فوق المكان المدعور روملى حصارا تسمى باسمه لأن وبعد فتح القسطنطينية اهتمت الدولة العثمانية بإنشاء دار الصناعة وبناء الكثير من السفن حتى إنه في مدة قليلة أمكنها أن تهدد جمهورية البنادقة صاحبة الشهرة العظيمة والمنة وذلك في الوقت المذكور

وقد تمكن السلطان المشار اليه بهذه القوة البحرية من فتح كثير من المدن والقلاع وتقدمت البحرية العثمانية وصارت مهيبه وظهر بينها كثير من مهرة الرباين منهم كالريس الذي أثبت لياقته ومهارته في نظر العموم بما ناله من الفخر

وفي عصر السلطان بايزيد الثاني سنة (٨٩٢ هـ) تسلط الاسبانيول على بلاد الاندلس وجزيرة صقلية وصاروا يضايقون ويهددون مملكة غرناطة فبعث أحد ملوكها من بني الاحمر اليه كتابا يطلب المساعدة لانقاذهم من يد الاعداء فأرسلت الدولة كالريس المذكور بأسطول مؤلف من عدة سفائن لامدادهم لانه تصادف في تلك الاثناء حصول محاربات بحرية في جهات الارناؤد وسواحل مورده فاهتمت الدولة بها وأعرضت عن مساعدة الاندلس لما ذكر وفي ذلك الوقت شرعت الدولة في بناء سفن كبيرة كثيرة وروى كاتب جلبي عن بعض مؤرخي اللاتين أن أحد ملوك أوروبا المدعو الفونس أنشأ سفينة عظيمة محمولها ٤٠٠ طونيلاطه ثم أنشأ سفينتين أخريتين وقال انه لم يوجد دلغاية ذلك العصر سفن بهذا القدر ولكنه لم يكنه استعمالها لانها تلامت في الميناء عند انزالها فتكسرت وفي تلك الاثناء أيضا أخذت البنادقة في إنشاء سفن جسيمة وكان السلطان محمد الفاتح أنشأ أيضا سفينة عظيمة محمولها ٣٠٠ طونيلاطه إلا أنها غرقت في الميناء بعد انزالها

وكانت أنواع السفن الحربية المستعملة في ذلك العصر لدى الدولة العثمانية كثيرة أشهرها الفرقاطه والماعونة والغراب (القدرغه) والشانية وغيرها وكانت تتحرك بالمجاديف والشراعات معا وكان الرجال الذين يناطون بتحرك المقاديف من أمراء الحرب عادة تقيدهم بسلاسل من حديد أثناء العمل خوفا من فرارهم وقت القتال ويسمون (فورسه) وفي بعض الاوقات كان

يجعل نصفهم من الاتراك والنصف الاخر من أسراء الحرب وكان بعض هذه السفن يتركب من طبقة أو طبقتين أو ثلاث

ولما عزم المرحوم السلطان بايزيد الثاني على فتح سواحل مورده أنشأ عدة سفائن جسيمة منها سفينتان طول كل واحدة منهما سبعون ذراعاً وعرضها ثلاثون ذراعاً وسلحهما بالمدافع العظيمة وجعل في كل منهما أنفي مقاتل ونصب على احدهما كمال ريس الشهير المذكور وعلى الاخرى براق ريس وجمع نحو ٣٠٠٠ سفينة بين كبيرة وصغيرة ولما تم ترتيبها وتنظيمها وتسليحها أرسلها على ثغرائه بجنحى (ليانت) ولما وصلت هذه الاساطيل الى جزيرة براق تلاقى بأساطيل الاعداء ولما انتشب القتال بين الفريقين أظهر الاتراك جسارة غريبة ومهارة عجيبة ودمروا من سفن الاعداء عدة بالمدافع ونيران النفط والزيت ثم تكاثرت سفن الاعداء على السفينة التي بها براق ريس وفصلتها عن باقي السفن العثمانية وأحرقها بنيرانها فانها غارت وهو معه خمسمائة نفس من عساكر الاسلام اما باقي المحاربين الذين ألقوا بأنفسهم الى البحر فخلصتهم زوارق السفن العثمانية وأسرا العثمانيون غليون البنادق الذي حضر لساعدة أهل ليمانته وسميت الجزيرة القريبة من تلك المعركة بجزيرة براق نسبة الى القائد المذكور وبعد ذلك قوى أمر العماره العثمانية حتى انه في المحاربات البحرية التي أعقبت هذه قهرت الاساطيل العثمانية أساطيل البنادقة وافتتحت مدن إينيه بجنحى ومتون وكرون وغيرها

وبعد أن ارتقت بحريه الدولة العثمانية وتغلبت على عمارة البنادق كما قلنا أصابها الفتور والضعف لترك الوزراء الاهتمام بها وذلك مدة هرم السلطان بايزيد وتقدمه في السن ثم تركت المحاربات البحرية زماناً

ولما جلس السلطان سليم على تخت الملك واشتغل بالمحاربات ببلاد ايران والعرب لم يلتفت الى أمر العماره العثمانية لانه قدم الاهم على المهم ومنع كذلك قرصان المسلمين من المحاربات البحرية لكي لا يوجد له في البحر الابيض المتوسط ما يشغله عن مشروعه فلهذا هاجر كثير من قواد الاساطيل الى سواحل بلاد الغرب وأنشأوا بها بعض السفن وأخذوا يبحرون بأساطيل الفرنج مظهرين بذلك سطوة العثمانيين الذين كانت دوائهم في ذلك الوقت في عنفوان شبابها وكان أشهر هؤلاء الرؤساء خير الدين باشا الملقب لدى الفرنج ببارباروس وفي تلك الاثناء لما جلس السلطان سليمان القانوني اهتم بأمر العماره العثمانية اهتماماً زائداً وأكسب قوتها البحرية حياً جديدة لان السلطان سليم كان شرع في اصلاح دار الصناعة وانشاء ما يلزمها من المباني فبنى مخازن أكثر من الموجود منها في زمن الفاتح وجر كثير من العيون بجهات آينه الى قواق وكان في نيته تشييد عمارة عظيمة ليستولى على الممالك السكائنة بسواحل البحر الابيض المتوسط وعلى جزره وضمها الى مملكته حتى انه لذلك سأل بعض خواصه بينما كانوا في حضرته يوماً عما يجب عمله لجمع المال الموجودة على ساحل البحر الابيض المتوسط تحت لواء الدولة العثمانية وجعل هذا البحر خليجاً تابعاً للدولة وقال لهم بصورة سرية انه سيبدل غاية وسعه لنوال هذا الممتنى وأقسم أنه اذا ما الله في أجله يشييد عمارة كريمة لبلوغ هذا القصد وتخصير جميع الممالك المذكورة وقال انه اذا لم يستول عليها تكون الراحة محرمة على نفسه ولهذا جدد في اكمال الاعمال اللازمة لدار الصناعة ويوفير المهمات ليشرع فيما عزم عليه بكل همه وشهامة

ولما اضطرت به الاحوال لفتح بلاد مصر ونزعها من يد دولة الشركه كما سئذ كرهه مصلا وعاد الى
عاصمته اهتم اهتماما زائدا في تشييد الاساطيل الا ان المنية عاجلته في السنة الثانية من قدومه
ولما جلس ولده السلطان سليمان أظهر من يد العناية في بناء الاساطيل واتمام دار الصناعة كما
تقدم وذلك لان فرسان ماري يوحنا المتسلطين على جزيرة رودس كانوا لا ينفكون عن التلصص
البحري حتى قطعوا طريق البحر المتوسط على السفن العثمانية وصاروا يأخذون كل سفينة تجارية
فلهدا صمم السلطان على فتح تلك الجزيرة لتأمين طريق مصر فجهز اسطولا عظيما وفتح تلك الجزيرة سنة
٩٢٩ هـ (١٥٢١ م) وفي سنة (٩٣٢ هـ) نصب المدعو سليمان ريس سردار او قبودانا البحر
السويس وجهزه بأسطول من كعب من ٢٠ غرابا الى ديارالين فاستولى عليها وعلى عدن ثم لما حضر
خير الدين باشا الى الاستانة وصلت قوة الدولة البحرية في زمنه الى درجة الكمال

ولما عين خير الدين باشا قبودانا اول العمارة العثمانية في اواسط سنة (٩٤٠ هـ) أمر بإنشاء
ستين سفينة وغربا وعززها بكثير من السفن الاخرى ثم خرج بهارة مركبة من ٨٤ سفينة مختلفة
القدر والنوع الى البحر الابيض المتوسط فهاجم كثيرا من جزائره وسواحلها وخرّب عددا عظيما
من بقاعه وقلاعها وأحرق عدة سفن للاعداء ثم عاد ظافرا الى الاستانة وشرع في تقوية العمارة العثمانية
فأمر بإنشاء مائتي سفينة أخرى ثم ظهر بعد ذلك بالبحر المتوسط الابيض بقوداسطولا مؤلفا من ٢٨٠
سفينة مختلفة النوع وافتتح بها جملة جهات وأغار على جزيرة كورفو ونهب غالب قراها واستولى
على عدة جزائر واغتنم أموالا وافرة حتى قدر خمس تلك الغنائم التي أخذتها الحكومة بأني
وخمسة أسير واربعائة ألف قطعة من الذهب خلاف الأقمشة وغيرها وبذلك نال رضا
السلطان عنه فمهره بالاحسانات الوفيرة ثم سافر بعد ذلك بهارة عظيمة واستولى على عدة قلاع
وافتح بجزيرة كريد عدة أماكن وضرب على جميعها الجزية ولما بلغه تجمع أساطيل اسبانيا
والببايا والبرتغال والبنادقة عند جزيرة كورفو لان خير الدين باشا المشار اليه كان سلب راحة
دول أوروبا التي رأت أن دار الصناعة بالاستانة صارت تحت أوامره وصار في أمكانه تدارك السفن
اللازمة منها فعملوا ان بذلك يمكنه الاستيلاء على جميع جهات البحر المتوسط الابيض فلهدا اتفقوا
جميعا وأقرواعلى مهاجمة العمارة العثمانية عند سنوح الفرصة وفي سنة (٩٤٥ هـ)
تقابلت العمارة المتحدة مع عمارة العثمانيين وكان عدد عمارة الدول يزيد عن ٣٠٠ سفينة
أما الاساطيل التي كانت تحت يد خير الدين باشا فكان لا يتجاوز عدددها ١٢٠ سفينة وبعده وقائع
طال أمرها انتصر خير الدين باشا انتصارا باهرا وشنت شمل العمارة المتحدة التي كانت تحت قيادة
اندر يادور يا أشهر أمراء البحر في ذلك الوقت وهذه الواقعة من أعظم وأشهر الوقائع البحرية العثمانية
ولما استولى البرتغاليون على بعض سواحل الهند وضايقوا سكانها الذين عجزوا عن مقاومتهم
طلب بعض ملوكهم من المسلمين مساعدة السلطان سليمان الذي أرسل لمساعدتهم أمير مصر
المدعو سليمان باشا فاقبل هذا من نعر السوس بأسطول عظيم ولما وصل الى تلك الجهات حارب
البرتغاليين وانتصر عليهم في عدة وقائع واستخلص منهم بعض القلاع وسارت سفناته في ثلاث
الاطراف حتى وصلت الى بلاد سومطره وبورنيو وغيرها

ولما أغار الامبراطور شارل كان به سارة عظيمة وجيش جرار على بلاد الجزائر فقاومه حسن بيك
واليها مقاومة عنيفة حتى اضطره الى الرجوع وأخذ منه عدة سفائن
ولما طلب فرانسوا الاول ملك فرنسا مساعدة السلطان ضد خصمه شارل كان أرسل له عمارة
عظيمة تحت قيادة خير الدين باشا المذكور سنة (٩٥٠ هـ) ولما وصلت تلك العمارة الى مرسيليا
قوبلت بغاية الترحاب وساعدت ملك فرنسا على نوال بغيته ولما كان خير الدين باشا باسط يده
في تغمر مرسيليا أخذ يتفرج على سفن الفرنسيين فلم يحميه نظامها وترتيبها وأظهر ذلك لضباطها
ورؤسائها الذين اعترفوا بخبطها ونقص نظاماتهم في ذلك الوقت وقبلوا منه نصائحها بغاية الخضوع
ولاشك ان هذا يدل أحسن دلالة على ما كانت وصلت اليه العمارة العثمانية في ذلك الوقت من
الاتقان والقوة

ولما مات خير الدين باشا نبغ من بعده كثير من أمراء البحر من أشهرهم سنان باشا وطورغود باشا
وكان سيفاهم السلو على الأعداء وبهيمته فتحت بلاد طرابلس الغرب ودخلت ضمن ممالك الدولة
العثمانية سنة (٩٥٨ هـ)

وبعد ذلك ذهبت الاساطيل العثمانية الى جهات اليمن والهند والخليج الفارسي لمنع البرتغاليين
من الاغارة على تلك الجهات فنالت الظفر في بعض الوقائع ومن أشهر أمراء البحر في ذلك الوقت في
تلك الجهات سيد علي القبودان الشهير وكان لا مثيل له في معارفه بالبحار ولما عين رئيسا على البحرية
المصرية سنة (٩٦٠ هـ) حصل بينه وبين البرتغاليين في جهات هرمس ومسقاط واقعة بحرية
نال فيها انتصارا عظيما حتى تلاشت من تلك الاطراف قوة البرتغاليين وقام مقامها الاساطيل
الاسبانية لولية التي صارت هي واساطيل هولاندة صاحبة النفوذ في ذلك العصر في بحار الهند وسبعتهما
بعد ذلك الاساطيل الانكليزية

ومن خدموا ورقوا شأن البحرية العثمانية بياله باشا الشهير وكان في زمن السلطان سليم وهو
الذي صدر له الامر منه بالذهاب مع الاساطيل العثمانية لمساعدة ملك فرنسا الذي استغاث بالدولة
العثمانية لمساعدته على خصمه الامبراطور شارل كان سنة (٩٦٢ هـ) وهو الذي هاجم أيضا
بلاد وهران وبنزرت وغيرهما واستقلصهما من الاسبان ولتشت سفينهم ثم حصلت بينه وبين
عمارة الفريج الجمجمة بجوار جزيرة جربة واقعة عظيمة كان النصر فيها له واستولى على جربة لحسن
موقعها وامكان من يستولى عليها امر اقبه أحوال الفريج في تلك الاطراف ولما عاد الى الاستانة
بالغنم الزاخرة والاسرى العديدة أنعم عليه السلطان بجيزيل الصلات وزوجه بابنة السلطان سليم
وهو الذي استولى على جزيرة سافز وله شهرة في محاصرة قبرس

وكان تعيين بعده ملسنند القيودانية أحد النكشاريه المدعو مؤذن زاده على آغا وفي أوائل
حكم السلطان سليم الثاني تفهقت شهرة العمارة العثمانية فخلوها من مشاهير الرجال ولا تصاف
مؤذن زاده المذكور بالكبرياء والتهور وصلابة الرأي والجهل بأحوال البحار كان سببا في قضاء العمارة
العثمانية وملاساتها كما سيأتي

وفي هذا العصر افتتح العثمانيون جزيرة قبرس وأرسلوا عليها لذلك عمارة عظيمة مكونة من ٣٦٠
سفينة مختلفة المقادير والانواع وبعد ذلك قصدت العمارة العثمانية أيضا جهات كورفو وغيرها

فافتحت من البنادقة عدة قلاع ولم يصادفها اسطول من أساطيل الاعداء وقوع العرب في قلوبهم من بأسها ولما قصدت الدونامة العثمانية مع من بقى فيها من العساكر مينايايه بنجتي (ليانته) تقابلت بعدها بأساطيل الدول الأوروبية المتحدة وبعد قتال حصل بين المارتين في واقعة شهيرة في التاريخ دارت فيها الدائرة على الاساطيل العثمانية لوقوع الخلاف بين أمرائها خصوصا ما حصل من مؤذن زاده المشهور في الصلابة والجهل فقتل في الواقعة ولم ينج من جميع السفائن العثمانية غير نحو ٧٠ سفينة مهمة أولوج على باشا الذي تسمى فيما بعد بلنج على باشا وصار قيودا ناعاما للعمارة العثمانية

ولما ضعف أمر العمارة العثمانية بهذه الصفة اهتم صقولي محمد باشا الصدر الأعظم غاية الاهتمام وأظهر من الغيرة ما حير الافهام حيث بذل مافي وسعه لانشاء السفن وتسليحها حتى تمكن بعد قليل من تشييد عمارة عظيمة وأمكن لقلنج على باشا ان يخرج بعد ذلك بسنة لعرض البحار يتودأ اسطولا عظيما بخلاف ما كانت تعتقه دول أوروبا ولما كان معظم الرجال المعول عليهم في البحر فقدوا في واقعة ليانته المتقدمة المذكورة بالحفاضة على الشواطئ العثمانية ثم في سنة (١٩٨١ هـ) لما تعين بيالة باشا سردارا للعمارة العثمانية خرج بأسطول عظيم مع قلنج على باشا وخرب كثيرا من سواحل ايتاليا ثم سارت بعد ذلك الاساطيل العثمانية سنة (١٩٨٢ هـ) وهاجت مسينا و تونس واقتحت قلعة حلق الوادي من يد الاسبانيول وألحقت تونس بالولايات العثمانية

وبعد هذا أصيبت العمارة العثمانية بالضعف وأهمل أمرها ولم تأت من الاعمال المهمة شيئا حتى فتح جزيرة كريدبل كانت غاية مافي تلك المدة المحفاضة على الشواطئ فقط وكان استعمال السفينة المسماة بالقلبون عند الدولة العثمانية في سنة (١٠٥٤ هـ) وبعد ذلك أخذت القلايين يزداد عددها في عمارتها ومع هذا فكان الضعف لا يزال مستوليا على العمارة العثمانية حتى ان عمارة البنادقة ضايقها كثيرا وأغرقت بعض سفنها في مياه جزيرة كريد عند الاستغال بفتحها وكان هذا هو السبب في امتداد فتح كريد من طابولا ولان عمارة البنادقة كان معظمها يتألف من نوع القليون الذي لا يمكن للغراب الموائف منه أغلب عمارة الدولة العثمانية التغلب عليه فكان يجب على العثمانيين الاكثر من هذا النوع في أساطيلهم ثم ترقت العمارة البحرية بعد ذلك في عهد السلطان محمد الرابع لما وجدوه فيها من القلايين الكثيرة وأمكنها مقاومة عمارة البنادقة في كثير من الوقائع وان كان البنادقة يفوقون العثمانيين كثيرا في علم البحر في ذلك الوقت وتمكنوا من قهر أساطيلهم عدة مرات بجواربوز غازال دردنيل الا أنه بالهمة التي بذلها كوبري محمد باشا الصدر بما شيده من القلاع أمكن طرد البنادقة عن محاصرة تلك الاطراف غير أنه في أثناء ضعف العمارة العثمانية بهذه الصفة كانت قلايين مصر وتونس والجزائر صاحبة نفوذ في البحر الابيض المتوسط وكان بها كثير من لهم معرفة عظيمة باحوال البحر وبذلك تمكنت تلك القلايين سنة (١٠٧٩ هـ) من قهر أسطول البنادقة بمياه كريد وأخذوا منه قليونين عظيمين ثم أخذت بعد ذلك العمارة العثمانية البحرية تقوم من كبوتها شيئا فشيئا بما بذله بعض الرجال الغيورين من الهمة وكثر فيها نوع القليون الشهير بوجوده في هذا الوقت وتقدمت كثيرا حالة القليونجية في

دار الصناعة العثمانية حتى أمكنهم الاسترداد جزيرة ساقر من البنادقة الذين كانوا استولوا عليها بعد أن هزمتهم في واقعة بحرية ورفرف طائر النصر على الأساطيل العثمانية فقهرت أساطيل البنادقة في عدة وقائع متواليمة وتقدمت بذلك قوة بحرية الدولة ثانية حتى أخرجت إلى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود كثيرا من السفن المختلفة الأنواع وأوجدت لها أيضا دوانمة خفيفة يزيد عددها عن مائتي سفينة بنهر الطونة

وفي أوائل حكم السلطان أحمد الثالث ترفت العمارة العثمانية وهددت سواحل اسبانيا ومالطه وغيرها وصارت مؤلفة من نوع القلمون فقط أما الشواني وباقى السفن فصارت مستعملة لخدمة العمارة وكان قبودان باشا العمارة يركب دائما سفينة خصوصية ووظيفته كوظيفة سردار على الدوانمة الهاميونية أما القائد الحقيقي للدوانمة فهو قبودان القلايين وكان الذى يركب القلمون الاول يطلق عليه اسم قبودانه والذى بعده يطلق عليه اسم بطرونه وعلى الثالث ريباله كما يقال الآن رئيس الدوانمة العموى أميرال ولن بعده في الدرجة فيس أميرال ولن بعده كوترا أميرال

وقد كانت المخاطيف الحديدية اللازمة للقلايين تجلب في أول الامر من بلاد الانكليز الا انه في سنة (١١٢٠ هـ) ظهر أحد الصناع المدعو على بعمل القنابل وشيد معملًا مخصوصا في دار الصناعة لعمل المخاطيف اللازمة وبذلك استغنت الدولة عن جلبها من الخارج ثم انه في عصر السلطان أحمد خان صنع العثمانيون سفينة عظيمة ذات ثلاث طبقات طولها ٦١ ذراعًا ونصف ذراع وقلمونين عظيمين آخرين وشيد السلطان محمود الاول عدة قلايين منها تحفة الملوك ومراديه وقايق بحرى وبر بحرى وناصر بحرى وبريد الظفر وغيرها

ومن هذا الوقت تقر بياوض لكل سفينة اسم خاص بها لتمييزها عن غيرها وبما كرتجدت القوة البحرية عند الدولة العلية واتسع نطاقها بعد ان أهملت زمانا طويلا وصارت العمارة البحرية تخرج في أوقاتها كالمعتاد إلى البحر الأبيض المتوسط للمحافظة ثم تعود في فصل الشتاء إلى دار الصناعة وينبع أيضا كثير بين أمراء البحر وصارت لهم معرفة ومعلومات وافرة ومهارة عظيمة في صناعة السفن واستعمالها وبعدها كانت العساكر البحرية ورؤسائها لا يعرفون شيئا سوى ملاحظة أمور الجزائر عند دخر وجههم إلى البحر ترفت أحوالهم ومعارفهم وصنائعهم وفنونهم البحرية كما كان الامر على ذلك في أوروبا وانتظم القبودان باشا بين أركان الدولة وكان هذا المنصب قبل ذلك يعطى لكثير من ليس لهم دراية بأمور البحرية فكيف كان يمكنهم اذ ذلك ان يقابلوا أساطيل أوروبا التي كانت آخذة في الارتقاء والتقدم وكانت أمور دار الصناعة قبل ذلك محتلة ومصاريفها غير منتظمة حتى صارت الدولة في احتياج إلى سفن تساعدها على حماية الخليج والذاهبين والقادمين من الخجاز عن طريق مصر وكان كل قلمون يكلف الترسنة في انشائه عشرة أمثال ما يساوي به الحصول الاهمال في بنائه كما فصل ذلك المرحوم عبد الله مثلا أفندى في لأخته عن البحرية العثمانية في ذلك الوقت وكان لخدمة دار الصناعة يتصرفون في الغابات لقطع الاخشاب منها حتى خربوها وملئت السفن بكثير من الشبان الذين لا معرفة لهم في فن الحرب ولما كانت السفن تصنع من أخشاب غير نامة الجفاف كانت تتلف من تلقاء نفسها بعد مضي قليل من السنوات

وكانت حاصلات الترسانة ينهبها الموظفون والقليو نجيية وكانت حالة العساكر محتلة حتى كانوا يشتغلون بالتجارة والتلصص البحري ويتعرضون للوقعة بالغير وامتدت الرشوة بين الرؤساء الذين أخذوا يتقسامون على فوات الجنود بينهم ولهذا ظهرت العمارة العثمانية تماما وغرق غالب سفنها في الواقعة الشهيرة المسماة بواقعة چشمه سنة (١١٨٤ هـ) مع ان الاساطيل العثمانية كانت أكثر عددا وأقوى عددا من الاساطيل الروسية وماذا لك الاجل ره رؤساء الاساطيل العثمانية اذ ذلك بفن حرب البحر ولأن أغلب عساكرها كانوا من المتشردين المجتمعين من جهات مختلفة وقد أظهر في هذه الواقعة حسن بيك الجزائر الذي صار قبوذاً باشا فيما بعد من الشجاعة والمهارة ما يستحق عليه جزيل المدح والثناء وكانت العمارة العثمانية تحت قيادة القبودان حسام الذين باشا والعمارة الروسية تحت قيادة الاميرال اليكس أورلوف وقد كانت هذه الواقعة المشؤمة درسا مفيدا للعثمانيين حيث أخذوا بعد ذلك في تدارك السفن والاكثر من نوعها وتسليحها بما يليق من الاسلحة وتعليم أمراءها وجنودها فن البحري فتحو الى زمن صدارة خليل جيمد باشا مدرسة للبحر به لانها قبل أن يتخرج من تلك المدرسة أحد اضطررت الدولة للحرب الروسية في البحر الاسود فتغلبت عليها الكثرة عدد سفن الدولة العلية في البحر الاسود عن السفن الروسية

ولما أنت الدولة الروسية سنة (١٢٠٥ هـ) الى رأس أمينه وشرعت في مضايقة الاستانة ظهرت الحرب بين الروسية ودولة السويد فلذلك انسحبت الاساطيل الروسية ولو كانت الروسية في ذلك الوقت نقلت أساطيلها من بحر بلطيق الى البحر المتوسط الابيض لامكنتها تهديداً أغلب سواحل وجزر الدولة العلية وكان أصابها من الخسائر مثل أو أكثر مما أصابها من واقعة چشمه المذكورة لهذا كان موقع الدولة العلية العثمانية وكثرة سواحلها يلزمها بان يكون لها قوة بحرية عظيمة معادلة لقوتها البرية حتى تأمن غوائل الايام

ولما أدرك رجال الدولة العلية ذلك أخذوا في سن اللوائح في هذا الباب وتقديعها للاصحاب الامر وازهار الاهمية الزائدة لتنظيم وإعداد قوة بحرية تليق بمقامها ومما ورد في هذا الخصوص اللائحة التي قدمها تاتارجق عبد الله باشا أحد الصدور العظام فانه بعد أن أظهر أن كمال القوة البحرية لدى الدولة العلية فرض عين عليها أشار بتخفيض المصروفات والاسرافات الحاصلة في دار الصناعة بلا فائدة والغاء المخصصات المجعولة لرؤساء القضاة فين و اضافتها للمصاريف دار الصناعة وكذا الغاء المخصصات المقطوعة للزعماء التابعين لقلم البحر بالترسانة وغير ذلك من المصروفات التي تصرف بلا فائدة وضمها جميعا الى قلم انشاء السفن واكثر واردات دار الصناعة وترتيبها وتنظيمها وإحضار الكثيرين مهرة الصانع من الانكليز والفرنسيين وغيرهم لانشاء السفن على الهيئة التي عليها سفن أور و باقي ذلك الوقت وتخصيص المرتبات الوافرة لهم ليصدقوا في عملهم واستحضار مؤلفات فن الحروب البرية والبحرية الجديدة وترجمتها الى وجه السرعة والآلات الهندسية لتعليم ضباط البحرية وعساكرها فنون البحر والملاحة والطوبجية والاهتمام بتعليم فن الخريطة واستخدام الكثيرين المشهورين في فن الملاحة من سكان الجزائر التابعة للدولة وغير ذلك مما يعود على البحرية العثمانية بالتقدم والارتقاء

وقال أيضا الدكتور داريبريف أفندي في لائحته بهذا الخصوص انه لما كانت بلاد القريم في يد

الاعداء وجب علينا اول كل شئ الاعتناء الزائد بعمارتنا ذلك يلزم قطع الاخشاب في ايمانها ثم
 جمع وترتيب اجزائها وانشاء مخازن جديدة تجمع فيها المواد اللازمة كالاشباب والحديد
 ومماثل ذلك من الضروريات اللازمة للعمل بحيث تكون لوازم القليون في المخزن حاضرة ومتى
 اريد بناء غليون امكن عمله في شهر واحد وعلى ذلك يلزم أن تكون الاخشاب والادوات اللازمة
 لبناء مائة غليون مرة واحدة موجودة على الدوام فكلاما صنع غليون أو أكثر قطعت الاخشاب
 وحضرت الادوات لانشاء غيره ولما كان هذا العمل لا يتم الا بعد مضي نحو العشرين سنة تقر بسا
 ومن الممكن ظهور الحرب بعد ست سنوات أى قبل أن نحصل على هذا الترتيب فيلزم الانتباه من
 الآن بعشيرة عدة غلايين من انكثرت وغيرها من الدول الاروپاوية ويرتب لها فيما بعد طوائف
 مميزة من القليونية والمقاتلين بشرط أن القليونية لا يكفون بعمل المقاتلة ولا المقاتلة بعمل
 القليونية ليلتفت كل واحد لعماله ويتدرب عليه ويزاد في عولقاتهم حتى يرغب الناس الانخراط
 في سلك هذه الطائفة ويقدمون عليها بمحض ارادتهم ويجب أيضا ان يكون العدد اللازم من الانتقار
 لكل غليون تاما بحيث اذا نقص منه أحد دعوقب قيودانه على ذلك ولما كانت مسئلة العمارة من
 أعظم وألزم المسائل الاخرى كان الواجب على الدولة أن تشاور وتذاكر أبواب الدراية في هذا
 الباب المرة بعد الاخرى وتهم بنظاماتها الكلية والجزئية وتجعل لها قوانين جديدة مفيدة
 لتكون دستور العمل فيما بعد ويجب على الدولة ان تشتري ما يلزم لذلك من الادوات والاشباب
 والذخائر والمهمات من الاهالى لترويح حالهم وتصرف لمن تستخدمه من العمال أجرته كالعادة المتبعة
 ويجب على الدولة أن تشتري من الاهالى ما يلزمها من الادوات بنفس القيمة التي يبيعون بها تلك
 الاشياء للغير وتعطى لمن يخدمونها منهم عين الاجرة التي يأخذونها من الغير عند خدمتهم لهم ويتبع
 ذلك في الاستانة وفي غيرها من البلدان التابعة للدولة حتى لا يكون الاخذ والاعطاء نقيبا عليهم
 ويجب على الدولة أيضا ان توزع تكاليفها على جميع عمالها على السواء ويجب على الباشاوات
 اتباع هذه الطريقة في السفر والاقامة مع الععود منفعتها على الدولة العلية ورعاياها وتكون
 موجهة لخيرهم وتحصل الدولة على رضا العموم اه بتصرف ومن تأمل في لائحة شريف أفندي
 هذه رأى أنه قصد بهارجه الله تقوية العمارة العثمانية وتنظيم حالتها وادخالها ضمن عمارات
 الدول الاوروپاوية العظيمة والغاء السخرة التي كانت جارية اذ ذلك في دارصناعة الدولة وفي
 مصالحها الاخرى بحيث كانت سببا لافلاق راحة الاهالى وتخريب أملاكهم وكراهتهم لوطنهم
 وسلب الامنية من بينهم وتعرض مملكتهم للدمار هذا وان هذه الشروط وان كان يصعب
 تنفيذها في وقت واحد لكنه مع امتداد الزمن يعود منها الخير الجزيل والمنفعة العظمى وفي الواقع قد
 كانت هذه الارشادات ركائما للتنظيمات الخيرية التي وضعت منذ عهد قريب وكان مدارها التأمين
 على النفس والعرض والمال وهى كما لا يخفى أهم شئ وأنفعه لدى الدولة العثمانية

ولما ارتقى السلطان سليم الثالث على تخت السلطنة اهتم بالعمارة العثمانية اهتماما زائدا عظيما
 بعد عقد الصلح مع الروسية سنة (١٢٠٦ هـ) و(١٧٩١ م) والنفت الى أمور دارالصناعة
 فنظمها ورتبها ورتب أيضا السفائن الحربية بحسب كبرها وصغرها وانتخب لها ربايين ورؤساء
 بحسب ما ظهر له فيهم من الاستحقاق والاهلية ورتب بعضهم الى الدرجات الرفيعة ورتب لهم

ما يكفيمهم من المرتبات وقيد من لم يوظف منهم تحت الطلب ومن قانوا للعزل والتنصيب والجزآت ومشتري المهمات وغير ذلك

وجعل مسألة الخنج والعزل والتنصيب من خصائص القبولان باشا الذي يقدم عنها تقاريره للباب العالي واشترط ترقية الضباط بحسب مهارتهم في الفنون وشجاعتهم وصدقهم وأهليتهم وغير ذلك من الاصول التي بتطبيقها تترقى حالة العمارة العثمانية

وقد أخذت هذه التنظيمات تترقى وتحسن شيئا فشيئا حتى واقعة اسسقلال اليونان واتحاد أساطيل الروسية وانكثرة وفرانسوا وحقاقهم للعمارة العثمانية في ثغرنا فارين سنة (١٢٤٣ هـ) وبذلك انحط شأن العمارة العثمانية ومع ذلك فقد اهتم السلطان محمود خان العبدلي في تعويض ما فقدته العمارة العثمانية من السفائن وتمكن من اخراج عمارة بحرية مناسبة في قليل من الزمن أيام حرب الشام سنة (١٢٤٧ هـ) و(١٨٣١ م) بلغ عدد سفنها ٣٧ سفينة جسمية

ولما ظهر استعمال البحار زمن المرحوم السلطان عبد المجيد خان اهتم باستعماله في سفنه وأدخل لذلك اصلاحات جمة في دار الصناعة وشيد الكثير من البواخر الخربية وجلب لها العدد والآلات من بلاد الانكليز وغيرها حتى انه في واقعة سينوب المشؤمة سنة (١٢٧٠ هـ) وفي حرب سيواس تناولت كانت أغلب سفن الدولة العثمانية تتحرك بالبحار

وفي زمنه تقدمت المعارف البحرية ونسج جله مشاهير في فن الملاحة البحرية واتسعت الاعمال بدار الصناعة التي أخذت تنشى السفائن الخربية كل موجود منها لدى أهل أوروبا

وفي عهد المرحوم السلطان عبد العزيز خان اهتم بامصلاح دار الصناعة أيضا وشيد المعامل البخارية والاحواض لاصلاح السفن الخربية وغير ذلك بحيث غير حالتها الاولى تماما وصيرها بعد قليل من أعظم دور الصناعات وأحضر لها مهرة المعلمين والصناع من بلاد الانكليز لتدرب شبان العثمانيين على إنشاء السفن والادوات والآلات على النمط المسجد وكان كلما تخرج أحد من العثمانيين ومهرفي فنه كافأه على ذلك بتنصيبه في وظيفة بدار الصناعة وبذلك أمكنه بعد قليل الاستغناء عن أكثر أولئك المعلمين ووسع نطاق المدارس البحرية وجعل لها نظاما متينا خاصا بها وأحدث عدة معامل مختلفة لعل الآلات اللازمة للدرجات العثمانية ولما كان يعيل كثيرا التعزيز شأن العمارة العثمانية تدارك كثيرا من المدرعات من أوروبا وحتى انه في سنة (١٨٧٣ م) كان لدى الدولة ما يزيد عن العشرين مدرعة بخلاف ما كان لها من السفن الاخرى التي شيدتها بمعامل الاسنانة وأزميد وسينوب وغيرها حتى صارت الدولة في عهد هذه تعد من الدول البحرية العظيمة وكان معظم رؤساء تلك السفن مارسوا صناعتهم في بحرية الانكليز وغيرهم من دول أوروبا ومما يؤيد اهتمام السلطان عبد العزيز بالبحرية العثمانية غير ما ذكرنا من الخط الهاموني الصادر منه بتوجيه نظارة البحرية الى المرحوم خليل باشا في محرم سنة (١٢٨٢ هـ) وان كانت هذه الاساطيل لم تأت بالفائدة المطلوبة التي كان يجب أن تأتيها أساطيل مثلها في المحاربة الاخيرة الروسية إلا أنها هددت كثيرا من السواحل وأتلفت للروسيين عدة مباني واستولت على بعض القلاع ولولا انتصارات الروسية البرية لانت هذه الاساطيل بفوائد عظيمة

وقد سار مولانا السلطان المعظم الغازي عبد المجيد خان أدام الله ملكه وأعلى كلمته على هذه

الخطة واهتم بأمر البحرية العثمانية اهتماما عظيما وان كان أقل من المأمول في جلالته لاهتمامه
انا الليل وأطراف النهار بالترقيات البرية وتنظيم داخل المملكة وتوسيع نطاق المعارف واصناعات
وأحوال الاهالي ومع ذلك فان الاعمال لا تزال على قدم النشاط بدور الصناعة العثمانية
وفي عهده تغير كثير من المدفوعات والبوارج الخشبية الى طرادات من الطرز الحديث وبديل
أربع مدرعات عظيمة الى آخر طرز من نوع المدرعات المعبر عنها بالفانكة (بارباد) كما أنشأ
عدة سفن حربية أخرى من أنواع ومقادير مختلفة وغالب هذه السفن وغيرها من السفن الحربية
وان كانت كأساطيل احتياطية للعمارة العثمانية ولا تخضع لبحر الجبل الا ان فقد أمكن استعمال
الاموال التي كان يجب ان تصرف عليها في حالة ما اذا كانت مستعدة لاتباع عدد عظيم من سفن
التوربدو وغيرها من المهمات الحربية اللازمة لتقوية العمارة العثمانية عند الحاجة اليها ولا
تسكروا الحق يقال ما وصلت اليه الا ان الترقيمات الفنية والعلمية والصناعية في بحرية الدولة العثمانية
الى درجة رفيعة بما أدخل عليها من انشاء عدة فرق للفتون الحربية كفن التريبدو والكهربائية
وتأسست عدة مجالات خاصة بفتون الحرب البحرية وعلومه ووزع كثير من ضباط العمارة العثمانية
على سفن الدول الاوروبية وفي ابورات الشركة المخصوصة للتمرير على الاسفار البحرية كما
سنفصل ذلك في تاريخ هذه الدولة ان شاء الله تعالى

(تنبيه) - لما كان مرادنا على الخصوص من وضع هذا التاريخ ذكر ما كانت عليه البحرية
والملاحية في الدول التي حكمت بلاد مصرين قديمة وحديثة رأينا من المناسب ارجاء الكلام عليها
وجعلها في مقدمة تاريخ مصر في أول الجزء الثاني من هذا الكتاب

الباب الاول

(الفصل الاول)

تاريخ الانسان من عهد الخليفة الى حادثة الطوفان

قد أجمع المؤرخون عموما من قدماء ومتأخرين أن تاريخ أولية الانسان غير معلوم تماما
لبنى نوعه وذلك لانسدال سحب الظلمات على تلك العصور
ومع ما اهتمت به العلماء وسياحو الاوروروايين المتأخرين من البحث والتنقيب في
الكتابات القديمة والتقييدات العميقة وما وجد في بعض النواويس والقبور وأطلال المدن
والعمارات والقصور ومن خطوط الامم المتقدمة كالقلم المصري القديم المعروف بالهيبورجليف
والقلم السرياني والهندي القديم المسمى بالسانسكربت ومن خطوط الصينيين لم يتحصوا
للا ان على ما يشفى الغليل من أخبار الخليفة قديما
وغاية ما اعتمد عليه العلماء المذكورون في هذا الصدد هو ما وردت به التوراة ضمن مروياتها
وما انتشر من الحكايات المليئة المتداولة في عدة أقطار من الارض متباعدة عن بعضها البعض وليس
بين أهلها صلة أو مخالطة ما منذ آلاف من السنين
ومن المستحيل حتى مع ما وصلت اليه المعارف البشرية في العصر الاخيرة أن يتوجه أمل

أحد من العلماء أن يعين تاريخاً لأول نشأة النوع البشري على وجه بين مقنع لأنه لم يرد في التوراة عدد صحيح من السنين لافيماء يتعلق بالازمان الاولى السابقة على عهد خلق الانسان ولا في الحقبة الماضية من عهد الخليفة الى عهد الطوفان

وقد قال العالم المدقق أبو الفداء عماد حماد في مقدمة تاريخه عن عمر الزمان انها مسألة خلافية لأنه لم يحصل فيها الا ان الوقوف التام على قول ثابت صحيح ولا رأى واحد يرجح بطمئن العقل اليه ويسكن القلب لديه

ولقد بذل علماء أوروبا وبالخصوص منهم المؤرخون غاية ميسورهم في الابحاث فلم يصلوا الى الحد يعينون به علم التوقيت مبدأ ثابتاً يعتمد عليه بل تشعب الخلاف في مسألة تحديد زمن خلق الدنيا الى نحو مائتي مذهب ثم استخلصوا أخيراً من مجموع هذه المذاهب قولين شهيرين

(الاول) ان المدة المنقضية بين حادثه الخليفة وولادة عيسى بن مريم عليه السلام هي ٤٠٠٤ سنة شمسية وهذا هو التاريخ الذي قال به المؤرخ أوسريوس^(١) الاراندى في سنة ١٦٥٠ ميلادية واقتدى برأيه أشهر مؤرخي القرنين كلاسقف بوسويه والمؤرخ رولان ورافو وغيرهم

(الثاني) ان المدة المنقضية بين الحادثتين المذكورتين هي ٤١٣٨ سنة وهذا قول المؤرخ الانكليزي كلانتون^(٢) في سنة ١٨٢٩ واعتمده المؤرخ ويكتور دوروي وزير المعارف العمومية بفرانسا وأخذ هذا القولان من التوراة عند ذكر ولادة وموت وحياتهم وعمر بعض الانبياء عليهم السلام

ولم تر واحداً من القائلين بهذه الاقوال قال بأن المدة المنقضية من ابتداء خلق العالم لغاية ميلاد المسيح عليه السلام تزيد عن ٧٠٠٠ سنة ولا تنقص عن ٣٧٠٠ سنة وهذه الاقوال جميعها واسعة المباحث صعبة الاعتماد لان التوراة متنوعة النسخ كانه عليه الملك المؤيد أبو الفيداء حيث قال في مقدمة تاريخه انها ثلاث نسخ وهي التوراة السامرية والتوراة العبرانية والترجمة اليونانية التي نقلها اثنان وسبعون حبراً بالاسكندرية قبل ميلاد المسيح بنحو ٣٠٠ سنة اباطليموس الثاني وهي المعروفة بنوراة السبعين ولها على ما عداها الترجيح عند أربابها واذا ضربنا صفحات المعلومات التاريخية المستنبطة من التوراة نجد أن بعض الامم القديمة ارادت ان تنال قصب السبق في الاقدمية والهرم فحسبت لنفسها اعماراً بالغت فيها باشنع المبالغات حيث قالت انه قدمضى على وجودها الاف بل الملايين من السنين تفاخروا تعاطفاً على من عداها من الامم

ومن هؤلاء الامم من قد جعلت لنفسها قبل ان يحكمها عائلات انسانية عدة دول من الالهة وانصاف الالهة مكتواً يحكونهم حسب زعمهم مدة من الازمنة تبلغ ٦٠٠٠ سنة وقد أوصلها

(١) جاك أوسريوس (Usher) جراح انكليزي كان معلماً لعلم اللاهوت في أول امره عند مدرسة دو باين وكان بكره الكاثوليك كراهة شديدة وأكثر شهرة في التاريخ وهو أول من قال انه مضى على الدنيا ٤٠٠٤ سنة قبل الميلاد ولسنة ١٥٨٠ ومات سنة ١٦٥٦ م

(٢) هنري كلانتون مؤرخ انكليزي له عدة مؤلفات معتبرة وكان عضواً في مجلس العموم ولسنة ١٧٨١ ومات

بعضهم الى ٢٤٠٠٠ سنة ومن هذا القبيل ما قال به أحد علماء الفرنسيين والبعض الى ٧٢٠٠٠ سنة والبعض الى ٤٢٢٠٠٠ سنة

ومن هذا القبيل ما قال به أحد علماء الفرنسيين المتأخرين وألف فيه رسالة مخصوصة بقبول ما ذكره القسيس المصري مايتون (١) الذي ألف جداوله لملوك الفراعنة السالفين بأمر أحد ملوك البطالسة وهو انديار مصر في سالف الدهر قبل ان يليها ملوك من البشر كانت محكومة بدول عديدة من الآلهة وأرواح أناس من الاموات مددة من الزمن تبلغ ٥٧٢٠ سنة قبل الملك مينس أو منا أو مصرايم أول من ولي مصر من البشر في سنة ٥٧٧٣ قبل الميلاد المسيحي فاعتمد المذكور هذه الاقوال وعارضه آخرون من العلماء

أما ما يقتضيه العقل ويسلمه الادراك فهو عدم تكاف القول بكذب الاحقاب التي قالتها الهنود في تواريخهم ولا في الدول الآلهية التي يزعمها أهل الصين وأهل يابونيا وقد ماها المصريون وما نسبة لانفسهم قدماء الكلدانيين أي العراقيين لخروج أقوالهم عن حد المعقول

ومن هذا القبيل ما رواه قدماء الفرس عن مدتهم وان كان أخف وطأة من الاقوال السالفة وانما الذي يمكن الاخذ به في تحقيق هذا المقام ما نتج عن دقة النظر في أحوال الكرة الارضية وكيفية تكونها وما عتراه من التغيرات والاحوال التي انصارت الى ما هي عليه الآن آهلة عامرة وهو البحث الجيولوجي أي علم طبقات الارض وذلك لان علماء الجيولوجية وفي مقدمتهم العالم الشهير كوفييه (٢) بعد ما دققوا النظر في هذا الامر قالوا بان الكرة الارضية مع الحالة التي هي عليها الآن لا ينبغي ان تكون أولية خلقها مؤرخة من مدة زمنية أكثر من ٦٠٠٠ الى ٨٠٠٠ سنة شمسية

وقد أثبت المعلم كارلوس دريس في كتاب الكرنولوجية الذي ألفه من أقوال المؤرخ الانكليزي كلانتون أن حادثة خلق الدنيا كانت قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو ٤١٢٨ سنة وهو الذي اتخذها أكثر المؤرخين مبدأ تاريخيا لسائر الحوادث القديمة

قال مؤرخ أور وروبا في مقدمتهم فرنسيس لونورمان انه ذكر في أول سفر الخليفة وهو أول سفر في التوراة أن الله سبحانه وتعالى خلق العالم على هذا الترتيب النور فالملك فالارض فالكواكب السيارة فالشمس فالأعمال فالطيور وسائر أنواع الحيوانات ثم ختم صنعه بخلق الانسان وكان قد خلق آدم أولاً في حالة براءة مطلقة من الذنوب ونزاهة محقة من العيوب وسعادة تامة حتى عصي ربه وهو في الجنة التي أسكنه فيها أولاً ثم أخرجه منها الى الدنيا بعد عصيانه هو وزوجه وحكم عليه هو وذريته بالكبد والالم والموت وكان انزالهما في القسم الغربي من آسيا بالقرب من نهر الفرات وهو موقع جنة عدن الارضية حسب نص الاصحاح الاول من سفر التكوين فكانا لشخصين

(١) هو كاهن مصري ولد بمدينة سينيت وكان معاصر الملك بطليموس في اذائف في سنة ٢٦٣ ق م وكانت وظيفته حافظ المكتبة المقدسة بهيكل هيليو بوليس وله تاريخ لمصر فقدته الايام لسوء الحظ أما التاريخ المنسوب اليه فليس له في الحقيقة وقد جمع بعضهم العبارات التي نقلها يوسف اليهودي واوريب وجورج سينسيل وغيرهم عن المؤرخ المذكور وطبع على حديثها

(٢) جورج كوفييه طبيعي شهير فرنسي له أقوال معتبرة في العلوم الطبيعية وآراء صائبة انبعاثها من بعده ولد سنة ١٧٧٣ ومات سنة ١٨٢٨ م

الوحيد في هذا العالم ثم ولد له ما ولدان قايين أي قاييل وهاميل الذي اتخذ الفلاحة حرفه كما اتخذ الاول رعاية المواشي حرفه ثم قتل قاييل أخاه هاميل حسدا منه وبغضاله ثم هاجر آسفا على ما صدر منه من قتل أخيه واستوطن مع نبيه وعائلته وذويه جهة شرقي موطنهم الاصلى وانتأ بها أول مدينة سماها نوشيه باسم ولده البكري المدعوا نوش وكانت الهيئة الالهية العقلية والبدنية التي وضعها الخالق في الانسان صيرته قادر على أداء كل غرض ومقصود من لوازم الدنيا وينسب لعائلة قاييل هذه أولية اختراع الفنون والصناعات وقد ولد لآفوش بن قاييل لاملك أولاد مخ وولد لآفوخ عدة أولاد منهم جاييل وهو أبو الرعاة وجوبال مخترع الموسيقى وطوبال قايين وهو مبتدع فن سبك المعادن وصناعتها وابنته السمسة نعيمه هي المخترعة لصناعة غزل صوف المشية ونسج الاقمشة منها

ثم ولدا آدم وولد ثالث ودعى باسم شيث وقد عمر ٩١٢ سنة ومنه خلق كثير منهم اينوش وقايين ومهلائيل ويرداويرد وأخوخ وهو ادريس كما في تاريخ أبي الفداء ثم رفع الى السماء ومن ولدا أخوخ أيضا ما توارثه أوستوشلخ ولامك أولاد مخ ثم نوح عليه السلام وهو أبو سام وحام ويافث

(الفصل الثاني)

قصة الطوفان

ولما انتشر بنوا آدم ووطنوا فيما اختاروه من الارض وحصلوا على حضارة وواقفة وسالمهم الدهر وصفت لهم الايام وأخذت أخلاقهم تفسد وطباعتهم تقسو حتى وصلت لدرجة عظيمة من البغي وبلغ بغيتهم وطغيانهم حالة لا ترضى الله سبحانه وتعالى فغضب عليهم جل وعلا وأراد أهلاكهم بغرق عمومي وهو الطوفان

وكان نوح عليه السلام وهو من نسل شيث قديقي وحده بحال الاستقامة والصلاح فلذلك رضى عنه وأمره ببناء سفينة لينجو بها هو وبنوه ويحمل فيها من الحيوانات من كل زوجين اثنين كما ورد في القرآن الشريف

ثم ابتدأت طامة الطوفان وهي عبارة عن غرق هائل عم جميع سطح الارض على المشهور وأناف على أعلى رؤس الجبال وأهلك سائر الناس وكان الطوفان سنة ٢٤٨٢ قبل الميلاد المسيحي ونسجي نوح عليه السلام ومن معه قال تعالى فأنجيناها (أي نوحا) والذين معه وبعد ان مكثت المياه عامرة سطح الارض ١٥٠ يوما أخذت في التناقص تدريجيا

وفي الشهر الثامن من الطوفان استقرت السفينة على جبل اارات أو عرارات على المشهور وبيلاذ ارمينيا أو الموصل كما قال به مؤرخو العرب قال المؤرخ فرنسيس لونورمان ان المراد بأارات الجبل المسمى باسم ايراراه عند سلف القبائل الياقضية الاولى وباسم مير وعند أهل الهند وباسم جبل البرج عند الفرس أعني بولورطاغ أو الرابوه الاليسية نسبة الى جبال آله المسملة باسم مير في ولاية بنجاري

الصغرى أى بلاد تركستان الصينية وليس على الجبل المسمى باسم ارازات بلاد ارمينيا وهو ما يدل عليه صريح نص التوراة اه وقد ورد فيها أن بنى نوح عليه السلام انما وصلوا الى سهل شعار الكائن فيما بين الدجلة والفرات من الموضع الذى وقفت عليه السفينة سائرين دائماً من المشرق الى المغرب وهذا دليل لا يروج معه ان يظن كون مبدئ سيرهم كان من بلاد الارمن بل من نجد الكائن بولاية بخارى الصغرى بخلاف قول ويكتور دروى وخلاف ما رواه مؤرخو العرب وبه جاء القران الشريف من أن السفينة وقفت على جبل الجودى من أرض الموصل

وقد قال المؤرخ المذكور انه لما أخذت الارض تنكشف أرسل نوح عليه السلام جماعة ليعلم منها حالة الماء فطارت ثم رجعت عند غروب الشمس وفي منة قارها غصن من شجر الزيتون استدل به على جفاف المياه وامكان الخروج من السفينة

ولما خرج مع نبيه الثلاث ومن كان معه من الاناث قرب للولى سبحانه وتعالى قربا ناشكرا له على ما اولاه من النجاة وعاديزرع الارض كما كان وأخذت نسله يزاد يومافيو ما حتى ينهم صاروا شعبا عظيما في مدة مائة سنة من بعد الطوفان وكان الى ذلك الوقت أكثر أهل بيت نوح عليه السلام أحياء لان نوحا عمر بعد الطوفان ٣٥٠ عاما وكان عمره حين لحقته الوفاة ٩٥٠ سنة كما صرحوا به والذي ورد به القران الكريم ان هذه المدة هي زمن دعوته لقومه وبعد ذلك أخذت أعمار بنى آدم تناقص حتى صار والاي يعيشون كثيرا بل متوسط الاعمار كان كالمعتاد في هذا العصر وأخذ هذا الدليل من أقدم كتابات قدماء المصريين المؤرخة من نحو ألف سنة قبل بعثة ابراهيم عليه السلام وكانت عائلة نوح تخبر أولادها بطغيان المياه وتغطيتها وجه الارض واهلاكها جميع الناس والحيوانات ما عدا الذين التجؤا الى الفلأ

وكان الذين بلغهم خبر الطوفان يخافون جدا ان تجلب شرور البشر عليهم قصاصا نانيا فأجمع رأيهم على بناء برج عظيم لكي يلتجؤوا اليه وقت الحاجة ويخلصوا من الغرق والهلاك فشرعوا في تأسيسه على شاطئ نهر الفرات الى جهة الشرق واجتهدوا في بناءه غاية الاجتهاد حتى رفعوه عن الارض مسافة ليست بقليلة ويقال انه لم يبلغ ارتفاعا عظيما وربما كانوا قاصدين بجهدهم أن يصلوا به الى الجوا والى أعلا من ذلك ولكن مع كل اجتهادهم وتقدمهم في البناء كانوا يرون الشمس والنجوم بعيدة عنهم كبعدهم عنها عندما ابتدؤوا في عملهم

ومع كل ذلك كانت الكبرياء متسلطنة عليهم حتى ظنوا أنهم بكثرة عددهم وقوة شوكتهم ينالون غرضهم وبينما كانوا مشغولين بعملهم المذكور حدث فيهم أمر الله سبحانه وتعالى بان خلط لغاتهم بحيث صاروا لا يفهم بعضهم بعضا وان ذلك أطلق على ذلك البرج بابل وهى لفظة عبرانية الاصل آتية من لفظ بالال أو ببلل ومعناه خلط إشارة لاختلاط اللسان ولما حدث ذلك التبديل اضطر بنو نوح المذكورون للفرق في البلدان وكفواعن بناء البرج وذهبت كل عائلة أو جملة عائلات تعرف لغة بعضها واستوطنت من الارض مكانا

ومن ذلك تولدت في أقطار العالم أنواع اللغات المتعددة وقد رتب العلماء بعد ذلك هذه اللسان المتفرقة الى عدة مراتب متميزة بحسب ما وجد بينهما من علائق المشابهة والموافقة والمطابقة وعلى هذا الوجه المتقدم كان أصل منشأ الانسان الذى تشعب من أولاد نوح الثلاثة وهم سام وحام ويافت وكان

لياقت سبع بنين منهم جوميرهاجر الى الساحل الشمالي من بحر تبش المعروف الان بالبحر
الاسود وتفرق نسله غربا واستوطنوا في الجنوب الغربي من أوروبا وامتدوا حتى وصلوا الى جزائر
بريتانيا ويقال ان أكثر شعوب الاوروپاويين من نسله

ومنهم ماجوج بن يافت الذي نزل بعائلته بلاد التتار في الاراضي الواقعة على الساحل الشمالي
من بحر قزوين أو طبرستان وامتدت شعوبه في أواسط آسيا ومن نسله من سكان آسيا المغول
وخلافهم

وأما مادي فانتشرت عائلته في بلاد الفرس شمالا بمقاطعة مادي وأما ياون فاحتل بلاد اليونان
وباسمه سمي دانيال النبي عليه السلام أهالي تلك البلاد يونان وكان يياوان المذكور أربعة بنين وهم
اليشه وانتشرت عائلته في هلاس وهي المقاطعة الجنوبية الغربية في بلاد اليونان وترشيس وعائلته
انتشرت في كيليكيا آسيا الصغرى أي بالاناضول وباسمه سميت مدينة ترسيس وقال البعض ان من
نسله بعض سكان بلاد اسبانيا وكثير سكن نسله سواحل بحرايتاليا وبلاد اليونان ودودايم ونسله
انتشر في البانيا وبلاد الازناؤد الى مدينة ترسيسه جنوبا وقال البعض ان من نسله سكان نواحي
هرسيليا بجنوبي فرنسا وتوالب توطن نسله بجوار نسل ماجوج ما بين البحر الاسود وبحر الخزر روما
شك ونسله توطن بجوار توالب وماجوج وقد سكن بعض نسله سواحل بحر البليتك وتسلسل من
عائلته بعض شعوب المسكوب وتيراس ولا يعلم محل سكاه وظن المؤرخون ان نصف شعوب الارض
من نسل يافت بن نوح لان اولاده هم الذين انتشروا في أوروبا وآسيا بسرعة

وأما حام فكان له أربعة اولاد اولهم كوش وكان له ستة بنين ومسكنه بلاد العرب وتشعب من
نسله شعوب أفريقيا ومنهم من استوطن السواحل الشمالية من الخليج الفارسي وامتد شمالا الى
ما بين النهرين وظن المؤرخون ان أكثر أهالي أفريقيا من نسله فلذلك ينسبون اليه وان جميع بنيه
استوطنوا بلاد العرب وأفريقية ما عدا نجر ودفانه سكن جهات نهر الفرات وشيد برجا يعرف باسمه
يقال انه في نفس موقع بابل القديمة على نحو ٣٠٠ ميل شمالا ملتقى نهر الفرات بنهر الدجلة ومصر ايم
سكن وادي النيل وبه سميت مصر وقد تفرعت منه سبع قبائل

قبيلة لوديم سكنت غربي مصر وقبيلة عناميم وكانت من القبائل الرحل وقبيلة لهايم وسكنت
في جنوب قبيلة لوديم وقبيلة تققو حيم وسكنت على شاطئ البحر في الجهة الغربية من مصر ويقال ان
اسم نبتون آله البحر عند الاقدمين مأخوذ من اسمها وقبيلة قتروسيم سكنت مصر العليا وقبيلة
كسلو حيم وسكنت بين وادي النيل وأرض كنعان على ساحل البحر ومنها الفلستينيون وقبيلة
كفتوريم وسكنت جزيرة قبرص

وفوط وسكن شمالي أفريقيا ونسله مذكور مع نسل كوش ولودو كنعان سكن الارض المنسوبة
اليه وكان له ابنان صيدون وهو الذي بنى مدينة صيدا وديت باسمه ويقال انها أقدم مدينة في العالم
وحت وقد تشعب منه تسعة قبائل سكنت أرض كنعان الى أيام يوشع بن نون عليه السلام
وكان لسام بن نوح خمسة اولاد عيلان وسكن اولاده جنوبي بلاد الفرس وأشور وتشعب
من بنيه الاشوريون الذين استعبدتهم المروذ وكوش وأرخشند وسكن بنو بين النهرين ومن

نسله وولد ابراهيم بن تارح الملقب بانخليل عليه السلام سنة (١٩٩٦ ق م) وفي سنة (١٩٢١ ق م) أوحى اليه أن يأمر قبيلته بترك عبادة الاصنام ويحثهم على عبادة الواحد القهار وأن يعتزل قبيلته وأرض ميلاده ويبتأبسه ويسكن حوران وكان لابراهيم ولي يسمى شالح الذي ولد لعابرونه العبرانيون وفالج ويقطان وكان ليقطان شقيق فالج جله أولاد منهم قبائل بلاد العرب السعيدة (بلاد اليمن) الذين سكن الاسماعيليون بينهم ومنهم لود ونسله اللوديون سكان بلاد آسيا الصغرى و آرام وسكن بين النهرين ولذلك سميت تلك البلاد سهل آرام وغيرهم وأما سكان أمر بكا وجزائر البحر المحيط فهم شعوب انتقلوا اليها قديما من آسيا وأفريقية فانتقل سكان آسيا الى أمر بكا من مضيق قهرم نغ لشدة قربهم من شمالي آسيا وانتقل سكان الجزائر اليها من أفريقية بالسفائن قديما

وقد قال العالم المؤرخ جيلمان ان التمدن انتشر في بلاد العرب من قديم الزمان بمساعي بنو فوح الذين تربت طوائفهم المتباينة عن بعضها في الاخلاق والعوائد والالسن والعقائد كالاتى الاولى طائفة بنو يافث ويعبر عنها عند المؤرخين بالنسل الهندى الاوروبى وهى تشمل على الطبقات الشريفة العليا لبلاد الهند وفارس وأهل جبل قوه قاف وأالقوقاز وأهالى أقطار أوروبا وعموما الثانية طائفة بنو سام وهى تشمل على جميع أهالى بلاد آسيا الغربية والجنوبية من نهر الفرات الى البحر الابيض المتوسط وقال مؤرخو العرب انها أشرف الطبقات حيث ظهر منها الانبياء والمرسلون

الثالثة طائفة بنو حام وهى تشمل على جميع أهالى أفريقيا خصوصا المصريين والايثيوبيين غيران الفينيقيين والقرطاجنيين وان كانوا من بنو حام من ولد كنعان لكنهم لداعى اختلاطهم بنو سام يصح ان يلحقوا بهم بحق الجوارو بعد وامنهم للاختلاط المذكور وقال المؤرخون ان اللغة الهندية القديمة المسماة سنسكريت يوجد بينها وبين لغات فارس واليونان وايتاليا القديمة مشابهة عظيمة فلذلك يصح ان يقال ان الهندودو القرس والجرمان والامان واليونان كلهم يرجعون الى أصل واحد لانهم من أولاد يافث بن فوح عليه السلام وعلى هذا الترتيب صار الكلدانيون والسوريون والعبرانيون والعرب مرتبطين باللغة وبكونهم من ولد سام وأما الحاق الفينيقيين الذين هم من بنو حام بالشعوب المذكورة لاتحاد اللغة فلا يجعلهم من فرع واحد في الترتيب السابق ذكره

ومع كل ما ذكره قد اوضح أن بنو سام و حام ويافث هم الذين تكون منهم الجنس البشرى الابيض المسمى فى اصطلاح علماء أوروبا بالمتأخرين بالقوقازى الذى عمر بلاد آسيا الغربية وسائر الاقطار الاورباوية وشمالي افريقية

وهناك جنسان اخران وهما الجنس الاصفر والمغولى أى التتارى الذى أقام دائما بالاقطار الشرقية والشمالية فى آسيا والجنس الاسود والزنجى الذى انحصر بسلافا فرريقية وليس له تاريخ يعول عليه

وأما الاصفر الذى منه قبائل المغول والتتار والصينيون فقد بقي بمعزل تام عن حركة التمدن العام فلذلك أخرنا التكلم على تاريخه وتاريخ امر بكا حتى يأذن الله

اشتق من الصيد ثم اخترعوا بناء بعض زوارق أى صنادل ليتوصلوا بها الى داخل البحر وتمكنوا من صيد السمك الكثرة ومن ذلك الوقت صاروا يتقنون صنع السفائن شيا فشيا وتمرنون بها على فن الملاحة يوما فيوما حتى تربت فيهم ملكة الاقدام على الاسفار تلك السفن الصغيرة في داخل البحر الملح فكانوا ينجون في داخله تارة وتارة يسرون بها بقرب السواحل الى أن وصلوا نحو الديار المصرية سنة (٢٢١٣) قبل الميلاد تقريبا

وفي خلالها كان قبائل الهكسوس المؤلفة من أخطاط العرب وأهل سورية والكنعانيين آثارا وعلى الديار المصرية وفتحوها وأحدثوا فيها دولة تعرف عند العرب بدولة العمالقة وعند اليونان بالهكسوس وكانت أهلها الى مصر وقتها في ثورة ضد ملكهم آخر ملوك العائلة الرابعة عشرة السخاوية فعندما شاهدت ملوك مصر وجماعة من الرعية انتشار هؤلاء الاقوام في بلادهم كلجرادها جروا الى الصعيد وحكوا هناك بمدينة طيبة وأصبح باقي المصريين تحت رق العبودية خاضعوا للرعاة المذكورين

وقد أجمع غالب المؤرخين في أقوالهم على أن الفينيقيين هم أول الامم الذين اخترعوا صناعة السفائن وأول من سافر بها في البحار وتميزوا بها عن سائر الاقوام في ذلك العصر وقالوا ان سبب اهتمام هذه الاقوام وإقدامهم على خطر التجول بسفنهم في البحار هو وقوع بلادهم في أرض ضيقة جدا فيمابين الجبل والبحر كما سبق شرحه

ولما تمكن تلك الاراضى تكفيهم للعيشة اضطررا الى التثبت بعمل الوسائل لزيادة ثروة المعاش فاقتحموا سباق الاسفار فوق أمواج البحار للوصول الى الاراضى الخصبه لينقلوا منها الفوائد الى بلادهم فنالوا بغيتهم لان الامم النازلة اذ ذلك على سواحل البحر الابيض المتوسط كانت لاتزال على الحالة الوحشية ولم يكن بينهم من يعرف انشاء القوارب ليتمكن بها الجولان في البحر الملح ولومسافة صغيرة فضلا عن مقاومة أمواجه الصعبة فلذلك صار الفينيقيون أول دولة بحرية متجولة بسفنهم في جميع جهات بحار الروم وبحر الارخبيل والبحر الاسود

ومن أول وصولهم الى سواحل تلك البحار وجزرها أسسوا عدة أمانا كن ليلتجوا اليها عند الحاجة فن ذلك مدينة شيتي المعروفة باسم لانك في جزيرة قبرس ثم أسسوا مدينة ايطافوس بجزيرة كريد وأنشؤا لهم بسواحل كيليكيا أيضا عدة محطات استعمارية ليأخذوا منها لوازمهم وصارت لهم مراكز بحرية فانتعت تجارتهم بذلك في زمن قليل لانهم صاروا ينةقلون الى بلاد اليونان من محصولات وصناعات آسيا والديار المصرية ويأخذون نظيرها من محصولات وصناعة اليونان وما كانوا يلقطونه من الذهب المستخرج من جبل نجوس الكائن باقليم مقدونيا وغيرها

ثم تقدموا في سفارهم الى بحر تنطش أى البحر الاسود وشيدوا في أكثر سواحلها ما كن تجارية ومحطات بحرية لتجى اليها سفنهم وتنقل منها واليه تجارتهم ثم قصدوا بعد ذلك سواحل شمال افريقية ووصلوا الى اقليم زوجيتان الذي بنيت فيه قرطاجنه وعرف الآن بساحل تونس

(الفصل الثالث)

استيلاء المصريين على فينيقية

لما استيقظ المصريون القدماء من غفلتهم وعلما أن من العار بقاءهم وحشية تحكم بلادهم وتتصرف بهم قاموا بعصيتهم المليية وطردها طائفة ملوك الرعاة من بلادهم في عهد الملك احميس مؤسس العائلة الثامنة عشرة بعدما مكثوا بمصر أكثر من خمسة قرون وذلك في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ثم طمعت ملوك العائلة المذكورة في آسيا وهاجها الملك تحوتيمس الاول وأخضعها مبقيا للام الخاضعة تمام الحرية في تنصيب ملوكهم وسن قوانينهم مكتفيا بأخذ الجزية السنوية وفي زمن تحوتيمس الثاني أرسل جيوشا الى البلاد الشامية وفتحها بغير حرب ودخلت فينيقية تحت حكم مصر فاكسبت الديار المصرية الفوائد البحرية وبقيت فينيقية تابعة للقراعة من سنة (١٧٥٠ ق م) أي من عهد العائلة الثانية عشرة الى سنة (١٦٧٠ ق م) حيث تخلصت منها في مدة العائلة المتمة للعشرين

ولما كان المصريون في الزمن المذكور خاضعين بكليتهم للاوهام الدينية لم يكونوا يتجاسرون على الاسفار في البحار البعيدة وكانت ملوكهم لا تميل الى انشاء الاساطيل ثم بعد ذلك رأوا لزوم انشاء سفن وتشكيل أسطول بالبحر الاحمر في مدة الملكة حاتازا وافتتحت مصر حرجبا على بلاد بونت الكائنة في جنوب بلاد العرب لاجل اخضاعها واكتساب الثروة منها لانها كانت مركزا كبيرا لتجارة العرب فشيدت جملة سفائن حربية بالبحر الاحمر ووضعت بها كثيرا من بحارة الصيد اويين فاخذت تنقل بهم الجنود الى تلك السواحل العربية وتمكنت من الاستيلاء على كثير منها

وهذه الوسيلة أوجدت الصياد اويين في البحر الاحمر جملة سفائن تجارية صارت تتعاطى التجارة بين الثغور المصرية والاقطار العربية فلم يعض على ذلك زمن طويل حتى احتكروا تجارة البحر الاحمر أيضا ومدوا أسفارهم الى الخليج الفارسي والسواحل الهندية وصاروا ينقلون منها المعادن والمجوهرات والاشباب الثمينة والاعطار وسن الفيل وغير ذلك من أنواع التجارة التي كانت عديدة الوجود في بلادهم وبذلك أخذت تجارة الفينيقيين تزيد حتى صارت في المدة المذكورة أغنى تجارة الامم المعاصرة لهم وقيل انه لغناهم كثرت عندهم الفضة وأنقلتهم حتى كانوا يوسعونها في أيكاس ويستعملونها صابورة للسفن بدل الرصاص وغيره مما يستعمل لذلك

أما صناعتهم فكانت متنوعة وفي غاية الاتقان فكانوا يصنعون كل أنواع الحلبي من الذهب والفضة مستعملين فيها أنواع النقوش وكانوا يزينون مصنوعاتهم بالمعادن النفيسة وبال عاج وينسجون الاقمشة المتنوعة وكان لسنسوجاتهم شهرة عظيمة بجميع جهات العالم

(الفصل الرابع)

انحطاط الملاحة عند الصيد اويين

اسباب ظهور التخص بالبحار

قد استمرت سفن أهل صيدا تخوض جميع البحار بلا مزاحم ولم يحصل لشوكتهم البحرية ولا لتجارتهم العمومية أدنى معارض إلى سنة (١٥٠٠ ق م) حيث قام لهم مشاركون في أسفار البحار مزاجون بالإنجارية وحصل من ذلك تغيير مهم في حوض البحر الأبيض المتوسط وذلك أن أقوام البيلاج وهم اليونان والهيلينيون قاموا وأخذوا لهم أساطيل كبيرة وفي قليل من الزمن كثرت سفنهم التي صنعوها على أشكال سفن الفينيقيين وأتقنوها للدرجة صارت بها تقطع المسافات الطويلة في الزمن القليل وتتوعا في أشكال الشراع فجعلوه مثلنا ومربعا كما هو عند المصريين وكانوا يستعملون الشراع والمجاذيف في آن واحد ثم عقدوا مع أهالي أفريقيا (كريد) وصقلية وسردينيا محالفة بجزية اشترطوا فيها على بعضهم ان يكونوا يدا واحدة يتعاونون على السفر في البحار ومن ذلك الوقت صاروا يسافرون إلى أكثر سواحل البحر المتوسط الأبيض وبعد أن مضى على ذلك نحو قرنين ونصف صارت لهم اليد العليا على سائر البلدان فأثر ذلك في بحرية الصيدا وبين وظهرت على مدائنهم مبادئ الانحطاط والاضمحلال لأن أقوام اليونان الحديثي العهد بالاعمال البحرية وفن الملاحة صار لا يمكنهم أن يقتصروا على مزاجية الفينيقيين في أمر معاشهم فقط بل ألزمتهم الضرورة ان يكونوا معهم في حرب دائمى وأخذوا يدون عليهم سائر الطرق التي كانوا يترددون عليها في سواحل بحر الروم والبحر الأسود وبذلك تدنست البحار بظهور صناعة التلصص البحري وصار السفر في بحار بلاد اليونان غير مأمون من تعديات سفن اللصوص فسقطت بذلك أكثر الاماكن البحرية والمحطات التجارية الفينيقية وامتدت تعديات سفن قرصان اليونان على أكثر الاماكن الصغيرة ولما فاقوا منهم التزلات البحرية الكبيرة الفينيقية مثل ميلوس وطاسوس (طاشيوز) حولوا أعمالهم إلى الجهات الاخرى من سواحل البحر الأبيض المتوسط واشتغلوا بعد هابا بالاسفار البحرية للأنجار

(الفصل الخامس)

سقوط مدينة صيدا

لما حارب بنو اسرئيل الملوكة المتألمين عليهم بنواحي هاصور ببلاد فلسطين كان جيشهم تحت قيادة يوشع بن نون عليه السلام (١٢١٥ ق م) وانقرضت دولة الكنعانيين في تلك الحروب هاجر كثير منهم إلى اراضي مملكة صيدا فلما زاد عددا لاهالي فيها أرسل أهل صيدا جملة منهم إلى البلاد الخارجية فسنزل بعضهم بأرض طيبة بأقليم سيوتيا باليونان ونزل فريق آخر بأرض بقرية وأنشؤا الأقليم المعروفين قديما باسم بيزاسين^(١) وزوجيتان^(٢) وهي الاراضي التي تأسست

(١) أو بيزاسيوم مقاطعة من أفريقية قديما على خليج صريرة الصغير وجنوبي بلاد زوجيتان ولفظها مشتق من كلمة فينيقية معناها البلاد الكثير الماء وكانت عظمة الحصوبة وكانت هي وبلاد زوجيتان المذكورة الأقليم الروماني الأفريقي ومن أشهر مدنها بيزاسيوم المعروفة الآن بوفقي اه

(٢) مقاطعة من بلاد أفريقية قديما بين البحر الأبيض شمالا وشرقا وبلاد بيزاسين جنوبا وبلاد نوميديا غربا ومن أشهر مدنها قرطاجنة واونيكا اه

فها قرطاجنه فيما بعد وزلت جوع منهم أيضا بلاد اسبانيا وسواحل بلاد موريتانيا المسماة الآن مراكش وامتدوا الى رأس فون جنوبي مراكش وأنشؤا في جميع تلك السواحل زلات استعمارية وأما كن بحرية

ثم بعد اغارة بنى اسرائيل على فلسطين وانتصار رمسيس الثالث فرعون مصر في واقعة بالدلتا على جيوش وسفائر أهل آسيا الصغرى وجزائر اليونان الذين أراد بعضهم الخروج عن طاعته والبعض الآخر مهاجمة مصر طلبا للفائدة استوطن قوم من جزيرة كريد بالسواحل الشامية بين غزة وعسقلان يقال لهم الفلسطينيون وشيدوا فيها سنة (١٢٩٠ ق م) تقييد دولة تعرف بالفلسطينية ولما انتهزوا فرصة انحطاط الدولة المصرية المتممة للعائلة العشرية في سنة (١٢٠٩ ق م) ساقوا من عسقلان أسطولهم وهاجوا صيدا على حين غفلة من أهلها وأخذوها بالقوة القهرية ونخر بوها وكانت هذه الحادثة خاتمة لسقوط صيدا وقيام صور

الفصل السادس

فينيقية مدنة صور

لما هاجر الفينيقيون بعد خراب وتدمير صيدا الى مدينة صور اجتمعوا حول هيكلي ميليكارت معبودا الفينيقيين الاصلى في ذلك العصر والتجوا اليه واحتموا بحماه من صولة اولئك الاقوام الاغراب وأخذوا من ذلك الوقت يقرون مدينة صور وكانت لذلك العهد من مدن فينيقية ذات الدرجة الثانية فارتقت دفعة واحدة وصارت هي الكرسي الاصلى والمركز الثابت لباقي مدائن فينيقية وأخذت تعلو على غيرها بين سائر مدائن الفينيقيين وقد عد عهد هذا المذكور عهدا جديدا لعموم فينيقية لان قبائل الكنعانيين الذين بقوا في شمالي بلاد فلسطين قاموا من نومهم واستيقظوا من غفلتهم وفهموا وأن تفرق كلمتهم هو السبب الوحيد لانحطاطهم وأن لا سبيل الى حفظ حياتهم الا بتجمع شملهم فاتحدت أهالي مدائن سميره وجبيل وبيروت وصيدا التي رجعت للعمارة بنايا وتعاقدا على ان يكونوا يدا واحدة على سائر أعدائهم مع بقاء كل واحدة منهم على حاله استتقلالها تحت سلطنة ملوكها ويكون مرجع الجميع للملك صور الذي تكون له اليد العليا عليهم وبذلك صار هو الرئيس الاكبر على عموم فينيقية

وقد تشبثت صور باعادة ما كان لفينيقية في سالف العصور من الفوقان في الاسفار البحرية الكبيرة فاضطر الصوريون لان يتخذوا طرقا جديدة للجهات التي كانت تتوجه اليها الاسفار البحرية القديمة فاخترت الجهات الغربية من البحر الابيض وسير واسفانتم الى سواحل شمال افريقية متجهين الى الغرب وكانوا يستدلون في اسفارهم بالنجمة القطبية لان بيت الابرمة لم يكن يعرف في الوقت المذكور وقد أنشأ الصوريون مدن هييون (بنزرت) واوتيك في سواحل زوجيتانه ثم أقدموا على متداسفارهم الى جهات أبعد لتوالي الفوائد فساروا حتى وصلوا الى سواحل نوميديا (١)

(١) كانت هذه البلاد اولامملكة مستقلة ثم أخضعها الرومان وهي بشمال افريقية وكانت تحدها قبيل استيلاء الرومان شمالي البحر المتوسط وغربا بلاد ملقا ونزرتا بلاد فوسكانة فصلها الاولي عن بلاد موريتانيا والثانية عن أراضي قرطاجنه ولم تكن حدودها الجنوبية معينة وهي الآن عبارة عن بلاد الجزائر بالضبط اه

وموريتانية (١) وكشفوا سواحل اسبانيا وأنشؤا فيها مدينة قابس وجملة مدائن أخرى لتكون لهم مراکز بحرية فيما بين محطاتهم الاقرب بقية الكائنة بتونس والجزائر واستولوا على جزيرة مالطة وجعلوها مرسى لسفنهم وأخذوا أيضا ما قرب منها من الجزائر ووجد حيرام الثاني ملك فينيقية جملة عمارات بمدينة صور مقر حكومته وفي خلال ذلك أي في سنة (١٠١٩ ق م) توفي داود عليه السلام وخلفه على سرير مملكة بني إسرائيل ولده سليمان عليه السلام فبعث ملكا صور المذكور رسالاتهته ولد حليفه على الملك وكان داود قد عهد قبل وفاته الى ولده سليمان عليه السلام بأن يبني هيكل بيت المقدس لعبادة الله سبحانه وتعالى فطلب من ملك صور أن يعينه على اتمام بناء الهيكل ولداعى اشتغال حيرام بعمارته في بلاده فصر في إسعاف سليمان على الفور وقال المؤرخ فرانسيس لوفورمان ان حيرام ملك صور المذكور اتحد وتعاهد مع سليمان عليه السلام على ان يعمل بصاريه مشتركة من طرفيهما الا شروع في الاسفار البحرية الى نغرا و فير (٢) على البحر الاحمر فأنشأ فيه أسطولا بحريا وذلك أصل إنشاء الاساطيل البحرية بالبحر الاحمر وبحر الهند في عهد الفينيقيين

وقال المؤرخون ان سفن الفينيقيين في ذلك العهد كان طولها لا يتجاوز الاربعين ذراعا وكانت بسارية واحدة والبعض بساريتين وشراعاتها مثلثة وقال البعض انها كانت مربعة وكانت سرية السير وفي أثناء مسكون الرياح كانت تسير بالمجاديف

وفي زمن العائلة الحادية والعشرين المصرية هجم شيشاق أو شيشنق ملك مصر على بلادهم وذا وذلك بعد وفاة سليمان عليه السلام بخمس سنوات ودخل بيت المقدس سنة (٩٧٠ ق م) واستولى على جميع خزائن سليمان عليه السلام ولم يمكن الملك صور المحالف للملك بني إسرائيل ان يقاوم ملك مصر أصلا وفي خلال ذلك كانت أسفار أهالي صور امتدت الى الخليج الفارسي والهند وصاروا يتوسعون في التجارة وينقلون من الهند جملة أصناف عالية القيمة الى جميع الاقطار وكانت فلسطين تدهم بالمحصولات الزراعية كالحبوب والزيت والتخمر

وبعد زمن قليل خرجت سفن الفينيقيين من مضيق جبل طارق وقصدوا جهة الشمال ودخلوا نغورالبرتغال ووصلوا الى جزيرة بريطانيا ولقبوها بأراضي كستر يد ومعناها القصد لانهم كانوا ينقلون منها ذلك المعدن المقيس دو غيره ولم تكن تلك الاراضي معروفة الا لاهالي صور فقط ويروى ان سفينة فينيقية رأت سفينة أخرى رومانية ترود هذا الطريق لتعرفه من السفينة الفينيقية فاخترت الصوري ربانها ان يلقي بسفينته على شعوب صخرية هناك لتغرق ويهلك أهلها

(١) هي بلاد كانت باقرية الشمالية بالشمال الغربي منها ما بين البحر المتوسط شمالا والمحيط الاطلانطيقي غربا والصحراء جنوبا مقاطعة نويميديا شرقا وكانت مستقلة منذ العصر القديمة ولم يرد ذكرها في التاريخ الا في القرن الثاني قبل الميلاد وقد استولى عليها الرومان فيما بعد اه وهي عبارة عن بلاد مراكش

(٢) هي بلاد كانت تتردد عليها أساطيل سليمان عليه السلام لجلب الذهب ويظن انها سواحل بلاد سوسة باقرية أو بلاد الهند وقد جعلها بعضهم بلاد القرس والبعض بلاد العرب أو بلاد وحي قال البعض انها هي بلاد بيريو بامريكا الجنوبية اه

وكان قصده من ذلك اغراق السفينة الاخرى بجانبها كي لا تقفوا السفينة الرومانية اثره ففعل ذلك
 وأتلف سفينته فلما تبعته السفينة الرومانية ارتطمت على الصخر بجانبه ثم احتدم الداربان في نجاة
 واحد من ملاحها وذهب الى بلاده يحمل خبر ذلك ولما وصل الى صور أعلمهم بالكيفية فكافؤوه على
 عمله هذا مكافأة عظيمة عوض بها خسارته وصار بينهم مرموقا بعين التجلة والاحترام مخاطرته بنفسه
 حيا في منفعة بلاده واستثنى بها بذلك المعدن النفيس ولم تقف أسفار أهل صور الى ذلك الحد فقط بل
 وصلوا بسفنهم الى البحر البلطيق وسموه ببحر الكهر باع لانهم كانوا ينقلون منه كثيرا من صنف الكهر باه
 ويتجرون فيه وفي سنة (٨٤٠ ق م) حصل ان بعلبيون ملك صور قتل رئيس الكهنة المدعو
 أسرياس زوج شقيقته المسماة ديدون طمعا في ماله وذخايره فهربت ديدون المذكورة بعد قتل
 زوجها من ظلم أخيه اوجور مع عدد كبير من أكبر بيت أيها وأعيان المملكة وشجنت عدة سفن
 بكثيرة من الذخاير وأقلعت ليليا ثم ارسدت في شمال أفريقيا بالجهة المقابلة لجزيرة صقلية وابتاعت هناك
 من أهلها أرضا واسعة وأسست مدينة كبيرة سميت بعد ذلك بقرطاجنه وكان لها شأن عظيم
 ونفوذ تام وذكرا تاريخي في الحروب الرومانية التي سأتي ذكرها

وفي عهد الملك بعلبيون المذكور استولت ملوك آشور على بلاد فينيقية واستمرت بعدها القلاقل
 بهامدة طويلة تحركت في خلالها الفينيقيون عدة مرات ليلقوا عن أعناقهم نير الطاعة للدولة
 الاشورية وقد ردا ياولي ملك صور عن بلاده هجمات سرجون ملك آشور مدة خمس سنوات (من سنة
 ٧٢٠ الى سنة ٧١٥ ق م) ولم يمكن للاشوريين ان يستولوا على هذه المدينة البحرية الحصينة
 وفي سنة (٦١٠ ق م) أمر الملك نبخو أحد فراعة مصر جماعة من الصورين ان يكشفوا له
 حدودا فرقية فسافروا من بحر القلزم الى البحر الاحمر وطافوا حول إفريقيا مدة ثلاث سنوات وعادوا
 في أواخرها من البحر الابيض المتوسط ودخلوا مصر من مصب النيل الشرقي وقدمت المورخون
 بحرية الصورين على هذا الاستكشاف وقالوا انهم مروا على الرأس المسمى الآن رأس عنم
 انطير في زمن كان فيه سير السفائن في وسط البحار محاطا بالانظار حتى يكاد يكون من المستحيلات
 ونيفاوس ملك مصر المذكور هو الذي أهتم أخيرا في انشاء دور الصناعات وغيا رأسكال المراكب
 القديمة المصرية وبنى مراكب حربية على شكل جديد مقارب لسفن الفينيقيين ولما رأى انحطاط
 الدولة الاشورية أرسل جيشا عظيما واسطولا كبيرا قاده بنفسه الى سورية وتقدم بجيشه واستولى
 عليها وصادف في خلالها زحف بختنصر ملك الكلدانيين لفتح صور فهزم ملك مصر المذكور بقرب
 نهر الفرات سنة (٦٠٦ ق م) ولما جلس اربيس على تخت مصر أوعز الى صور ان تقوم على
 بختنصر سنة (٩٥٠ ق م) وأوعز الاخر الى صدقيام ملك يهوذا ان يخرج عن طاعة المصريين
 فخاربا في آن واحد وخرجا عن الطاعة فبعد ما خرب بختنصر بيت المقدس سنة (٥٨٧ ق م)
 هاجم بيليا تيراى صور القديمة وأخذها أخذ عزيمة مقتدر

أمام مدينة صور البحرية فقاومته ثلاث عشرة سنة وانتهى أمرها بان استولى عليها وأخرّب
 بعضها (٥٧٤ ق م) وخضعت للدولة الكلدانية ثم لليدانيين ثم للدولة الفارسية وذلك انه لما ظهر
 كبروش ملك فارس تقدم واستولى على بابل ودخلت بعدها جميع الثغور الفينيقية تحت سيطرة
 القرص الامدينة قرطاجنة

وقد استمر الفينيقيون في شهرتهم البحرية الى سنة (٣٣١ ق م) عندما هاجم بلادهم اسكندر
المكدوني بجيش جرار وعمارته البحرية اليونانية المؤلفة من ٢٥٠ سفينة والتي كان لها شهرة
عظيمة في الوقت المذكور وحاصر مدينة صور ستة شهور وتمتوا اليه برا وبحرا الى أن استولى
عليها وخرّب معظمها وأذاق أهلها أنواع العذاب فأخذت فينيقية من وقتها تهجر في أسفار
البحار وضاعت منها مدن الاستمرار واضمحلّت تجارتها من جميع الاقطار وأقل نجم عزها وبعد
موت اسكندر المكدوني دخلت فينيقية في حوزة دولة البطالسة المصرية ولم تقم لها قاعة بعد ذلك
تستحق الذكر في تاريخ دخول البحار

الباب الثالث

(الفصل الاول)

تاريخ الميديين والفرس

مملكة الميديين

قالت علماء التاريخ الذين خاضوا في البحث عن أصول الامم السالفة المتناسلة من نيافاث
وعن كيفية انتشارهم ان مملكة الميديين ظهرت في سنة (٧٨٨ ق م) وشعوبها وشعوب الفرس
من أصل واحد وكذلك ديانتها ولغتها حتى ان بين قبائل الامتين وبعضها علاقة كبيرة في الانساب
لتجاور بلادهم وان تاريخ هذه الشعوب لا يصعد الى أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح عليه
السلام وقد تشكل في بلاد ميديا دولة كانت ذات شأن عظيم في تاريخ الامم القديمة ثم لما
قامت بعد هادولة الفرس واستفعل أمرها صارت بلاد الميديين ضمن اجزائها كما سيأتي شرح
ذلك بهذا التاريخ

وبلاد الميديين القديمة عبارة عن بلادازر بيجان والعراق العجمي الواقعة جنوبي الجبال المحيطة
بجيرانلرر وكانت قديما خاضعة للملوك آشور ولما قامت الثورة الجسمية في دولة آشور واستولت
الجنود الملكية على مدينة نينوى الشهيرة وقتل الملك سردانا بال واستقر رئيس تلك الحركة والقائد
لتلك الجنود شكل حكومة شبيهة بجمهورية تحت رياسته وقبل أن يستتب لها الحال كادت تقع
تحت أسر الدولة العراقية نانيا فالنجا الميديون الى ترك الحالة الاستقلالية وانتدوا بديجوسيس وهو
أحد مشاهير رؤساء قبائلهم وكان اشتهر بينهم بالحكمة والعدالة وبايعوه بالملك (٧١٠ ق م)
واستمرت أيامه في راحة وسكون فكانت معدودة من أيام السلم

ولما تولى بعده فراورت سنة (٦٥٧ ق م) استعد الحروب لانه كان محبا للقتال فتقدم بجنوده
وأخضع جميع بلاد فارس الاصلية وأخضع بعدها بالبلاد القرمان وكثيرا من أقوام آسيا وعندما كان
مشتغلا بحروب بلادسورية هلك فيها سنة (٦٣٥ ق م)

وقام بعده سيارا فرقت جنودا جديدة جيدة وقهر بها مدينة ينوى (١) ثانية لانها كانت قد خرجت عن طاعته وزوج ابنته الى مختصر الشهير بن نابو ولا صار ملك الكلدانيين وذلك لعقد محالفة معه لفتح سورية فنجح في اعماله المذكورة (٦٢٥ ق م)

ثم قامت حروب هائلة بين الميديين والليديين استمرت خمس سنوات متوالية وصادف آخرها ان كسفت الشمس فانزعج الفرس بقا وبادر العقد الصلح وتوسط بينهما ملك بابل وكيليكيا وتأييد الصلح بالمصاهرة بأن تزوج ابن سيارا كزاربانة البات ملك الليديين وبذلك تأكدت روابط العهد المذكورة وفي سنة (٥٩٥ ق م) خلف استياج أباه سيارا كزار على تخت ميديا وفي عهده زوج ابنته مندانه بولد من ذرية العائلة الملوكية الفارسية القديمة يقال له قميز فرقت منه بولد سمي كيروش ويقال ان استياج رأى في منامه ان هذا المولود الجديد هو الذي ينزع عنه كرسيه فأمر أحد كبار رجال عسكره المدعوهر باجوس ان يقتله ولكن القائد المذكور أخذته الشفقة عليه فأعطاه الى أحد الرعاة وبذلك نجاه من القتل وحصل بعد مدة ان خرج استياج المذكور للصيد وقابل في طريقه كيروش وهو يلعب مع الاطفال ويجرى عليهم صورة رسوم المملكة ويطبق الاوامر بنخوة الملك فعرفه وأخذته وأعادته الى أهله وانتقم من رئيس جيوشه المذكور بكونه أطمع لحم ولده في وليمة دعاه اليها فخذهر باجوس من أعمال الملك الوحشية وأوعز الى كيروش أن يخرج عن طاعة جده استياج المذكور وعلى ان ينقذ أمه فارس الاصلية من رق عبودية السلطنة الميديية وفي الحال عمل حيلة وأثار نيران الفتنة في قبائل فارس ولما أرسله استياج بالجيوش لتسكين الثورة أظهرهر باجوس التراخي عمدا فاشتدت الثورة والتزم الملك استياج ان يت رأس نفسه على الجيوش ولكنه بعد وقائع كثيرة انهزمت عساكره وضاع أكثرها ووقع استياج أسيرا بعد أن حكم ٢٥ سنة فنودي بكيروش ملكا على الفرس ومن ذلك العهد ابتدأ تاريخ فارس كما يقال

(الفصل الثاني)

السلطنة الفارسية

كانت بلاد الفرس في سالف الزمان عبارة عن الارض الكائنة فيما بين بلاد الميديين المذكورة والخليج الفارسي من جهتي الجنوب والشمال وبين بلاد كرمان وبلاد بابل من جهتي الشرق والغرب ويحيط بها من جهتي الشمال والغرب جبال وعرة لا يمكن الدخول منها اليها الا بعد الجهد الجهد وكان التوارنيون الذين هم الميديون يخضعون في أول أمرهم للفرس أي للايرانيين لشدة قوتهم

(١) هي مدينة بلاد آسيا قديما كانت عاصمة دواني آشور أو ينوى كانت واقعة على نهر الدجلة بالشمال الغربي من بابل بالقرب من مدينة الموصل الحالية أسسها الكلدانيون منذ الاصل القديمة وينسب تأسيسها للشخص يدعى آشور أو ثور وروى مؤرخو اليونان ان الملك نبتوس حصنها وحسنها وكانت أسوارها مشيدة من القرميد يبلغ محيطها ٨٩ ق م وارتفاعها ٣٣ مترا تقريبا وكانت سمكة جدا حتى انه يمكن لثلاث عربات حربية ان تسير عليها بجانب بعضها وكان لها ١٥٠٠ برج ارتفاع البرج ٢٠٠ قدم وقما شتهرت هذه المدينة بقرتها ونظامها فلمؤرخو اليونان ان ارباسيس وبيليزيس الذين قهرسا دانيال آخر ملوكها استولوا عليها سنة (٧٥٩ ق م) ثم ان نابو ولا صار وسيارا كزار الاول آخر باهاسنة (٥٢٥ ق م) وهي بلد يونان عليه السلام وكان أخير بقوطها ويظهر ان تلك المدينة مع ذلك كانت باقية ولم ينزع رسمها تماما الا حين افتتاح العرب تلك الجهات وقد وجدت اطلالها بقرية قيوخني وأمكن الباحثين معرفة مواقع قصورها ومبانيها القديمة

ثم لما نضوا من ضعفهم وشقوا عصا الطاعة بقصد أن يكونوا هم أصحاب الدولة قامت الحروب بينهم وكانت سجالين الامتين الى ان فاز السيدون وشيدوا دولتهم السابق ذكرها التي استمرت في زهرتها الى أن انهزم الملك استياح آخر ملوكها

ثم قام كيروش بتشكيل السلطنة الفارسية (سنة ٥٥٩ ق م) وفي أول حر وبه ضم بلاد الميديين لبلاد فارس ومد جناح سلطنته على جميع القبائل المحيطة بمملكته وبعدها أخذ في اخضاع كثير من البلاد فتمكن من اخضاع قسم عظيم من بلاد العرب وضرب الخراج على ملوكها ثم عبر بحيشه الجرار نهرى الدجلة والفرات وجعل معسكره في إقليمي خوزستان والعراق واستولى على مملكة ليديا وقهر ملكها كرزوس الواسع الثروة وكانت له شهرة في فتح جملة بلاد في آسيا في سنة (٥٤٤ ق م) شن الغارة على سائر المدن الاغريقية ببلاد يونيا الممتدة على سواحل بلاد آسيا الصغرى فتم له الاستيلاء عليها سنة (٥٣٩ ق م) ثم أخذ في انشاء سفائن حربية بتلك السواحل للمحافظة عليها وبعدها استولى على مدينة بابل (سنة ٥٣٨ ق م) وبهذا الفتح صير جميع سكان الاقطار الكائنة بين نهر السندو بحر الارخبيل الرومي وبين صحارى بلاد العرب ونهر سيحون خاضعة لسلطانه وبعدها استمر ثمانى سنوات بحالة السلم تمكن في خلالها من تسخير اسارى العبرانيين في تشييد هيكل اورشليم ثانية وأكثرت من صناعة السفن على سواحل سورية ورثب فيها قوم امن بحارة الفينيقيين فصارت له في زمن قليل أساطيل ذات شأن في البحر المتوسط الايض

ولكنه في سنة (٥٢٩ ق م) لما أعلن الحرب على توهم سى ملكة السنين أى قبائل التتار الساكنين بجهات بحر الخزر قبالته الملكة بجيوشها وأبطالها وحدثت بينهما حرب هائلة قتل في خلالها ابن الملكة المذكورة وأخيرا انتصرت بجيوشها على جيوش فارس وأسرت كيروش ملكهم وقتلته انتقاما لولدها وقال مؤرخ اليونان انه قتل نفسه بيده عندما رأى كسرة جيوشه

ثم قام بعده ابنه قبز (سنة ٥٢٩ ق م) وأول أعماله أنه فتح بحر باعلى الديار المصرية لاسباب ان الملك أمازيس فرعون مصر كان تعاهد مع كرزوس ملك اللبيين على عرفلة مساعيه ولما انتصر قبز على جيوش فرعون أرسل من طرفه رسلا لعقد الصلح مع أمازيس بمدينة منف فلما وصلت السفينة اليونانية الحاملة للرسل المذكور بن خرج من قلعتها زمر من المصريين وقبضوا على السفينة وكسروها وقتلوا جميع من بها وعادوا باجزائها على النصر فغضب الفرس من ذلك وهاجوا القلعة وقتلوا عتوة وقتلوا جميع من بها حتى بسامتيك ابن ملك مصر المذكور وبعدها استولى على جميع القطر المصرى وهو الذى شوه وخرّب جميع المآثر والقبور والمعابد المصرية وبعدها تمهدت له السلطنة بالديار المصرية عزم على محاربة القرطاجيين بتونس والامونيين سكان واحة أمون (سيوه) غربى القطر المصرى وعلى الايتوبيين أى الحبشة فى آن واحد فأمر اسطوله الفارسى وكان ملاحوه من الفينيقيين أن يتوجه لبحار به قرطاجنه فاستمعوا من ذلك لعلاقة الاصل الموجودة بين الجانيين

فعدل عن مراده ثم تقدم نحو الجنوب بجيوشه لمحاربة الحبشة فلم يتمكن من غرضه لوعورة الطريق وقلة المياه فاضطر الرجوع بعد ضياع كثير من جنوده بالجوع والعطش وأخيرا اعتراه جنون ثم مات في الطريق أثناء رجوعه لبلاد لظهور دعى على تحت الملك بعد ان عذب المصريين وانتهك حرمتهم الدينية أما الجيش الذى كان أرسله للاستيلاء على واحة أمون فابتلغته الرمال

(٥٢٢ ق م) وفي خلال اشتغال ملك الفرس المذكور بافتتاح الديار المصرية قام رجل من طائفة الجوس يقال له غوما تامدعيانه سمرديس اوبرديان كبروش وكان قبيل قتل برديا قبل مبارحته بلاده وساعده بعض اعوانه فتملك على بلاد فارس ولما بلغه موت قبيلان قبيز مات في الطريق بعد مبارحته مصر ظن المذكور ان الجوس فاقه للتمسك من سرير فارس ولكن لم تطل مدة آماله فانكشف أمره وانضح للعموم كذب دعوته فانفقت عليه الفرس واجتمع ستة امرأهم داريوس اودار ابن هستانب وهجموا على قصره وقتلوا ذلك الجوسى (٥٢١ ق م) وقد اختلف هؤلاء الاعيان في الذى يتولى منهم المملكة الفارسية ثم انهم اتفقوا أخيراً على تولية دارا المذكور

وروى مؤرخو اليونان حكاية عجيبه في اتفاق الامر المذكورين وهى ان يركبوا خيولهم عند الصباح ويقصدوا مكانا عينوه خارج المدينة وقالوا ان من يسهل حصانه منهم أولا يكون هو الذى يتبوأ التخت وبذلك يرتفع النزاع وكان لداريوس خادما نهبها فلما بلغه خبر هذا الاتفاق انتظر ظلام الليل وركب حصان سيده وأخذ معه جاتبا من الحشيش والحبوب التى كان يميل اليها الحصان وقصد المكان المعهود وألقاها فيه ثم حام حولها بالحصان نحو نصف ساعة تارة كان يأتى اليها من الامام وتارة من الخلف ثم نزل عن الحصان وأطلقه عليها فاكلها ثم عاد الى دار سيده ولم يعطه أكل الليل بتمامه وفي الصباح ركبت الامراء الستة خيولهم حسب الاتفاق وقصدوا المكان المذكور وعند وصولهم رفع حصان دارا الذى كان أمامهم اذنيه وصهل فترجل حينئذ أصحاب دارا الخمسة وخرؤا له سجدا ويايعوه بملك فارس

سلطنة دارا

ولما بايع الفرس دارا أخذ يقوى أركان عرشه وكانت بابل أظهرت العصيان منتهزة حصول الفتن بين بلاد الفرس فخار بها وفتحها بالخيال الحربية وقتل من أعيانها ثلاثة الاف نسمة (٥١٧ ق م) ثم زحف من سوسه عاصمة بلاده بجيش مؤلف من ٧٠٠,٠٠٠ محارب لاختضاع السبتيين المنتشرين حول شطوط البحر الاسود الشمالية فاجتاز البوسفور على جسر من السفن بناه رجل يونانى وعبر نهر الدافوب أى الطونه وطارد القبائل المذكورة ولكنه صادف صعوبات جمة وخسراً كثيراً فبعاد وجيش جيشاً آخر استظهره على قسم من الهند وعمل جملته أساطيل في بحر اريثريا (خليج فارس) ورأس عليها الاميرال سيلا كس اليونانى الشهير فأخضع سواحل البحر المذكور واكتسب داريوس في هذه الحروب مجداً بجزيا ثم كلف داريوس بعد ذلك سيلا كس المذكور باكتشاف مجرى نهر السند من ابتداء بلاد كشمير الى مصبه ولما وصل الى تلك النقطه استمر على سياحته متجهاً الى الغرب فاكتشف السواحل الجنوبية والغربية من بلاد العرب لغاية الخليج العربى واستمرت هذه السياحه ثلاثين شهراً وهى أول سياحه اجتهد اليونان فيها للوصول الى الشرق الاقصى وكانت فاتحة لطريق نيارك (١)

(١) هو من قواد اسكندر الكبريا شهر باللاحه والاكتشافات التى أجراها على سواحل بحر الفرس بين نهري السند وبستيقرس وكان مولده بين رة أقر بطش في النصف الاول من القرن الرابع قبل الميلاد وكان مصاحباً لاسكندر منذ شبوبته واستنصبه معه بحروباً أسيا وجعله أميراً على الاسطول الذى أوجده بنهر السند وقد عادت مساعيه الاكتشافيه بغاية النجاح وكان هم بالاكشافات في الخليج العربى لولا موت اسكندر ولم يعلم زمن ومكان موته اه

الشمير الذي عادت اكتشافاته البحرية على الجغرافيا بالفوائد المهمة ثم جهز الجيوش لمحاربة
 الاغريقين لتجديتهم اغريق مدني آسيا المعصوا على دارا ولا حراقهم مدينة سارده وقد اصر على
 الانتقام حتى انه امر بعض خدمه بأن يذكره عند كل طعام بالانتقام من اليونان فاتخذوا لاجلة
 مرافق ومين بسواحل آسيا الصغرى وكان أشهرها مين أريترا Aritra الكائنة بجون أريترا
 المقابل لجزيرة ساقز وأكثرفها من بناء السفن فصارت له أساطيل عظيمة في مياه بحر الروم وفي سنة
 (٥٠٠ ق م) أرسل أسطولا مريكان من ٣٠٠ سفينة تحت قيادة صهره مردونيوس بعد أن قهر عصاة
 آسيا الاضباع اليونانيين وفتح بعض جزائر الارخبيل فقاتلت جيشه قبائل السيتين في بلاد تراس
 بهجمات شديدة وصادف أسطوله زوبعة عظيمة وأنواع شديدة بجوار جبل آثوس فأكرهت الجيش
 والاسطول على الرجوع بعد مضاعف أكثر السفن ولم ينل غرضه من امتلاك الجزائر البحرية المذكورة
 ومع كل ذلك لم يرجع عن مراده بل أمر بسرعة تجديد وتجهيز سفن أخرى في سنة (٤٩٠ ق م) أرسل
 جيشا آخر وعمارة كبيرة مؤلفة من ٦٠٠ سفينة تحت قيادة داتيس وارتافرنوس ففتح نكسوس
 وعقاعن جزيرتي بلوس المقدسة وخضعت له كل جزائر سكلادون مقاومة واخر بريتريا الواقعة
 في جزيرة أوييه لاستعمالها الخيانة ثم ساق الجيش البري فانصر عليه ملتيا بجبهة مروتون سنة (٤٩٠ ق م)
 وبينما كان داريوس مشغولا بالتهيزات الجسمية لاضباع جميع بلاد اغريقية ظهر العصيان في
 مصر فحال ذلك دون مراده ومرض في خلالها مرضا شديدا مات بسببه سنة (٤٨٨ ق م) وقام
 بعده ولده اكسيريس

سلطنة اكسيريس

أول ما تبوأ هذا الملك تحت فارس أرسل جيشا عظيما الى الديار المصرية فأخضعها وعاقب أرباب
 القسنة فيها بأشد العقاب ولما وطد الامن في داخل البلاد المصرية أتم تجهيز الجيوش والاساطيل وقاد
 بنفسه جيشا عرمرها مؤلفا من نحو مليوني مقاتل بين فرسان ومشاة كبار وى اليونان سنة (٤٨١ ق م)
 مسلحين بالاقواس والرمح وسائر الاسلحة البيضاء المستعملة اذذاك ومعهم عمارة كبيرة مؤلفة من
 ١٢٠٠ سفينة حربية وثلاثة آلاف سفينة لنقل المهمات ولم تتخاف أمة من أمم آسيا عن مساعدة
 ملك الفرس في هذا الحرب كبار وى هيرودوت وعند وصوله بهذا الجيش الجرار مضيق الدردنيل
 أمر رئيس العمارة أن يجعل عمارة كعبه صفا واحدا ما بين ساحل الاناطول وساحل الروم الى أى آسيا
 وأورو باو يربط السفن بعضها ببعض لتكون جسرا يعبر عليه هو وجيشه الى ساحل الروم الى
 إلا أنه أخفق في مساهمته أولا وذلك أنه لما تم ربط المراكب قامت زوبعة شديدة أنارت
 أمواج البحر فكسرت السفن ولما شاهد اكسيريس ذلك حنق وضاق صدره لعدم
 خضوع البحر لما أمر به فامر برشقه بالنبال وضره بالحديد وبعد هبوط النوع وسكون البحر
 أتم صناعة الجسر فعبه فوقه بجيشه العديد ويقال ان مرورا للجيش استمر سبعة أيام بلا انقطاع

ولما صار بأوروبا انضم اليه بأمر الملك كثير من سكان تراس ومقدونية وكان يسير بجانبه قريبا من الشاطئ أسطول جسيم وأمر ففصلوا جبل أثوس عن القارة اتمتكن عمارته البحرية من المرور ملازمة للشواطئ ويقال انه فعل ذلك عقابا للجبل المذكور ولما كان منه من إغراق عمارة مردونيوس كما مر ثم أخذ في مقاتلة اليونان فأخضع غالب مدنها ما عدا اسبارطة وأينافانها مع ضعفهما وقلة عساكرهما بالنسبة اليه قاومتاه مقاومة شديدة لان شعبهما كان من أشجع اليونان وأعرفهم بواجب المدافعة عن الوطن ولما اقتربا كسيرسيس من مبر ضيق بين الجبل والبحر يسمى ترموپيل اعترضه ليونيداس ملك اسبارطة بجيش قليل ولما انتشب القتال قاوم ليونيداس الفرس وقتل منهم نحو ٢٠ ألف مقاتل ثم تكاثروا عليه وقتلوه هو ومن معه ولم يسلم الا رجل عاد الى اسبارطة وأخبر بما حصل كما سيحكي.

اما عمارة الفرس المذكورة فأخذت في محاربة سواحل اليونان وفتح مدنها ثم قصدت أخيرا الهجوم على أساطيل اليونان فتقابلت معها بجوار جزيرة سلامين وهاجمتها فانشب بينهما القتال وحصلت الموقعة الحربية الشهيرة التي بعد أن استمرت مدة انجملت عن انهزام العمارة الفارسية وضياع عدد عظيم من سفنها (٤٨٠ ق م) وكان يقود الاساطيل اليونانية رجلان شهيران من أعيان اليونان وهما اوربياد وتمستوكل فالترزم ان يرجع هاربا في سفينة صغيرة الى بلاد فارس وأبقى يسلاد اليونان جيشا مؤلفا من نحو ٣٠٠٠٠٠ مقاتل لاخضاعها تحت قيادة مردونيوس فلم يفلح اما كسيرسيس فانه لما وصل بلاده قتلها اربطانيس رئيس حراسه (٤٧٠ ق م) طمعا في الملك وبعد ذلك أخذت دولة الفرس تتهقر وتخط درجاتها في البحر

وفي مدة ارتخيشيارش الثاني ارتفع شأن اليونان في البحر وأنتسفنهم وحاصرت جزائر الارخبيل التي كانت استولت عليها اليونان وطردها جيوشهم منها وهاجموا سواحل آسيا الصغرى وفتحوا معظمها وأخضعوا جزيرة قبرس وكانت تابعة لهم وفي خلال ذلك انتهمز المصريون هذه الفرصة ونبدوا طاعة الفرس ظهريا

فلما رأى ارتخيشيارش الثاني ملك الفرس تراكم هذه الخسائر الفادحة على مملكته وضعفها في الحروب الكثيرة المستطيلة لم يجد بدا من عرض الصلح على اليونان فأجابه سيمون رئيس أثينا مقترحا عليه ثلاثة شروط (٤٦٦ ق م) أولا أن ترفع الدولة الفارسية يدها عن ممالك اليونان الموجودة بآسيا الصغرى لتكون مستقلة بنفسها ثانيا أن تمنع أساطيلها عن السير في بحر الارخبيل الرومي ثالثا أن تمنع عساكرها من تجاوز أكثر من ثلاثة أميال من حدود البلاد النازلة فيها فالترزم ملك فارس المذكور أن يقبل هذه الشروط وأجرى التوقيع عليها أى على المعاهدة مخالفة على البلاد الباقية له

ثم قام اليونان ثانيا على الفرس وساعدهم اجيسلاص ملك اسبارطة فخرض ملك الفرس بلاد مورة على اسبارطة فالترزم اجيسلاص ان يرجع باساطيله ورجاله الى بلاده لحمايتها وبعد حروب طويلة انتصر الفرس وعقدوا مع اليونان صلحا بشرط إعادة تسليم آسيا الصغرى وجزيرة قبرس للفرس (٣٨٧ ق م) ثم بعد ذلك بقيت ممالك الفرس تتوارث الملك الواحد بعد الآخر الى

سنة (٣٣٦ ق م) التي حكم فيها دارا الثالث وفي مدته استوات اليونان على مملكة فارس كما سيأتي

(الفصل الثالث)

حروب دارا الثالث مع اسكندر المقدوني

لما استولى دارا على تخت الفرس كان فيلبس المقدوني يستعد لها بجهتة بلاد الفرس الا ان المنيعة عاجلته فمات قتيلا وخلفه ابنه اسكندر المقدوني الشهير وكان دارا ابتدا بتجهيز القوات البحرية والجيش لمنع تقدم اليونان على بلاد ملعلمه من نواياهم ولم يراى حدوث الثورات ببلاد اليونان وقيام أهالي طيبة على اسكندر اطمان وصرف جيوشه ولكنه لما رأى نجاح اسكندر في فتح الثورات استأنف التجهيزات لعله ان اسكندر هو العدو والقتل للفرس فساق دارا أسطولاً عظيماً وجيشاً قوياً تحت قيادة ممنون الرودي على بلاد اليونان لمحاربة المقدونيين فعذب ذلك اسكندر لإخلاقه بالشروط وأسرع باعلان الحرب على دارا ملك الفرس وهاجم آسيا الصغرى بجيش مؤلف من ٤٠ ألف مقاتل وحارب القائد ممنون المذكور سنة (٣٣٤ ق م) وتغلب عليه وقتله في الواقعة سنة (٣٣٣ ق م)

ثم تقدم اسكندر لقتاله بجيش جسيم يبلغ خمسمائة ألف مقاتل ساقه دارا عليه وكان يقوده بنفسه فاستظهر عليه أيضاً وأسرامرأته وأمه وأخته سنة (٣٣٣ ق م) وكن معه في القتال فاحسن معاملتهن وطلب دارا ان يفديهن بمبلغ وافرم المال وان يعقد مع اسكندر صلحاً ويزوجه بابنته ويهب له الاراضى الواقعة بين نهر الفرات وبحر الروم فقبل اسكندر بشرط حضور دارا بنفسه فاستعظم دارا وأبى ثم سار اسكندر بعد ذلك ففتح بلاد سورية وسواحل فينيقية ولما أتى مدينة صور امتنعت عليه فحاصرها سبعة شهور ثم فتحها وسام أهلها العذاب الاليم ثم فتح الديار المصرية واخطبها مدينة الاسكندرية سنة (٣٣٣ ق م) بعد ان زار معبد أمون الشهير بسبويه

ثم عاد وحارب دارا ثانية في آسيا الصغرى وانتصر عليه في واقعة اربل الشهيرة بقرب الموصل (سنة ٣٣١ ق م) ففر دارا بهم على وجهه فطارده في السنة التي بعدها واخترق خلفه جبال البرز والبراري المقفرة والسهول الموحشة ولما لحقه اسكندر وجده قتيلاً قتله أحداً كبير قواده فحزن عليه اسكندر وتأسف على فقدته وأقام له جلاء مسلات في أما كن عديدة نذكاره وانقرضت بذلك قوة الفرس

ثم بعد موت اسكندر بقيت بلاد فارس خاضعة لاحكام اليونان يحكمها أحد قوادهم حتى قام الفرثيون (١) وطردهوا اليونان من بلاد الفرس وحكموها بعدهم الى سنة (٢٣٠) ميلادية

(١) أو البارتسياتى ذكرهم عند الكلام على قيصر وبومبي بتاريخ الرومان

(الفصل الرابع)

ظهور دولة الاكاسرة

ظهر في سنة (٢٣٠ م) في بلاد الفرس رجل يدعى اردشير بابكان جمع الجوع ضد الفريثيين وتمكن بنصراته من طرد المذكورين بعد ان قهر ملكهم اربطان الرابع وتشكيل دولة الاكاسرة اودولة بنى ساسان وبعدهمونه استمر يتبادلها عقباه من بعده وفي سنة (٥٨٠ م) تولى كسرى انوشروان الذي اشتهر بالعدل ونال النصر على الرومان في حروبه واستولى على أكثر ولايات آسيا وهابته الملوك وهادته وهادته بأخفر الهدايا ومات سنة (٦٢٠) ميلادية وفي عصره ولد النبي عليه السلام وكفى بعدل كسرى أنوشروان شهادة النبي صلى الله عليه وسلم في حقه حيث قال ولدت في زمن الملك العادل كسرى أنوشروان وكان وزيره برزجهر الحكيم ومدة ملكه أربعون سنة ونيف

وتولى بعده هرمز وحارب طيباريوس قيصر وانتصر عليه وكانت الحروب في عصره مستمرة وفي سنة (٦٣٠ م) تولى يزيد جرد آخر ملوك الاكاسرة لان في أيامه فحمت العرب بلاد العجم وقتل يزيد جرد بعده ربه سنة (٣١ هـ) في خلافة سيدنا عثمان واستولى المسلمون على بلاد العجم واستمر حكمهم فيها الى سنة (١٢٥٨ م) وفيها هاجم البلاد التتار وأزالوا دولة العرب من بلاد العجم وبقيت تابعة للتتار الى سنة (١٥٠٠ م) عندما قام فيها ملوك من الفرس وشكروا دولتهم الحالية ولقبوا بالشاهات وسياقى تاريخهم ان شاء الله ضمن تاريخ دول آسيا وأمريكا الذي سنصدره على حدته عندما تساعد الفرص ودولة الشاهات المشار اليها هي الدولة القابضة الآن على صوبخان الملك تلك الاطراف

الباب الرابع

(الفصل الاول)

تاريخ دولة اليونان القديمة

كانت بلاد الاغريق أو اليونان الذين اشتهروا قديما بالعلوم والمعارف والمدنية صغيرة المسطح قاحلة قليلة الانبات ومع ذلك بلغت من المجد والفخار على درجة حتى فاقت غيرها من الامم القديمة

وكانت تلك البلاد المسماة هيلاس قديما تشمل على جزء كبير من الجنوب الغربي من تركيا أوروبا وهو إقليم مقدونية والبانيا أي الارناؤوط وأبيروس وتسايا وشبه جزيرة مورده المسماة قديما بيلايونيس وعلى جزائر الارخبيل اليوناني وجزائر البندقية وكان لهم بعض مستعمرات أيضا بآسيا الصغرى وجزيرة صقلية وإيطاليا وغيرها

(الفصل الثاني)

شعوب اليونان

قال بعض المؤرخين ان أصل البلاجيين وهم سكان بلاد اليونان قديما من الشعوب التي تناسلت من نبي يافث بن نوح وانتقلوا من آسيا الى أوروبا في القرن السادس بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام وقال غيره من المؤرخين ان أصل اليونان من نسل ياوان بن يافث بن نوح عليه السلام وقد انتشروا من آسيا واستوطنوا البلاد التي اشتهرت باسمهم في أوروبا منذ (٢٢٠٠ سنة ق م) وقال آخرون ان أصل اليونان من رجل يدعى ألن ولد في السنة السادسة من خروج سيدنا موسى من مصر ولما انتشروا ودرجوا كانوا على الحالة البربرية كما كانت كل الامم في مبدئ أمرهم الى أن أتاهم قوم من فينيقية يقال لهم التيتانيون قريبا من عصر سيدنا ابراهيم فاختلفوا بالاهالي الاصليين وعندهم أخذ اليونانيون جملة معارف خرجوا بها من حالتهم المذكورة ثم تعلموا عبادة آلهة الفينيقيين وهي الكواكب السيارة مثل زحل والمشتري وبعد قليل أدخل الهيلينيون التيتانيين في صف الهتهم

وقد انشأ التيتانيون جملة مدن صارت فيما بعد قواعدا لكثرة الصغيرة أقدمها يوم التي تأسست عند خليج لبياتيه في عصر حران جد ابراهيم الخليل عليه السلام أي سنة (٢٠٨٩ ق م) ومدينة أرغوس التي تأسست سنة (١٨٥٦ ق م) وكان التيتانيون يميلون للحرب والطعان فانهقروا سريعا ورجع اليونان الى حالتهم القديمة

ولما تقدم أهالي صيدا في الاسفار البحرية وتجولوا بجزائر الارخبيل اليوناني في نحو سنة (١٧٠٠ ق م) وأسسوا فيها المراكز التجارية ومحطات البحراستدات العمارية والمدنية نوعا بين أقوام اليونان خصوصا بعد ما دخل بلادهم الرجل المصري المدعوسكروبس في سنة (١٥٥٦ ق م) ومعه قوم من بلاده واستمروا على أراضي أتيكا وأنشؤا فيها ١٢ مدينة فعندها أخذت تلك الشعوب في التقدم وتزوج سكروبس المذكور بانسة ملك تلك البلاد وأخذ يعلمهم زراعة الكرم والحنطة والزيتون وسن لهم الشرائع والنظامات فلما توسع الفينيقيون في الاسفار البحرية ببلاد اليونان اتسعت تجارتهم ولما علم اليونان بمكاسب الفينيقيين مالوا الى تجارتهم في الملاحة وأخذوا في مبدئ الأمر في عمل بعض سفائن صغيرة بشكل سفن فينيقية وصاروا يتجولون بها بين البلاد القريبة منهم فلم يعب زمن طويل حتى حازوا شهرة في فن الملاحة والاسفار البحرية واخترعوا الشراعات المربعة وكانوا يسرون سفنهم بالمخاديف والشراعات معا ولما حصل الانقلاب العظيم سنة (١٤٥٠ ق م) بين البلاجيين وأكثر من صناعة السفن وعمل العمارة البحرية العظيمة اتفقت أهالي اليونان الاصليين مع الشعوب الهيلينيين التي توطنت بجزائر الارخبيل وبلاد ايطاليا وجزائر قريطس وصقلية وسردينيا على عقد محالفة بحرية يساعدون بها بعضهم بعضا ومن وقتها صاروا يداووا وحدة في التعاون على الاسفار بالبحار وقد استمروا على خطتهم هذه الى سنة (٢٥٠ ق م) حيث بلغوا فيها درجة عظيمة في التجارة والتقدم وصارت لهم اليد العليا على سائر

الاقطار الكائنة في الجهة الشرقية من البحر الابيض المتوسط وازاحوا أهل صيدا في جميع السواحل فابتدأت المقاتلات بينهم حتى صار اليونان في حرب دائمى تقر يماص فينتيق صيدا و صار كل فريق يجهتد في سد طريق البحر على الآخر فمن هذه الاسباب تدرست البحار بصناعة التلصص من البحرى وصارت الاسفار في بحار اليونان وغيرها غير مأمونة العقبى واستمر الحال على ذلك زمنا طويلا فتح في خلاله اليونان جميع التزلات البحرية الفينيقية وأقاموا لهم مهابرا كزنجارية في أكثر السواحل فالتزم الفينيقيون عند ذلك على البحث عن طرق أخرى لاعمالهم البحرى ولسير تجارتهم الكبيرة ولم ترض به ذلك مدة طويلا على اليونان حتى ظهرت حروب ترواده والحروب الهيرا كلبية

(الفصل الثالث)

تأسيس ترواده وأصلها

أعلم انه في مابين سنتى (١١٩٤ و ١١٨٤ ق م) هاجم اليونان مملكة ترواده المسماة أيضا ايليون وهى مملكة عظيمة كانت في الشمال الغربى من قسم آسيا الصغرى وكان ملكها يدعى برياموس حين هجوم اليونان عليها وكان لدردانوس جد ملوكها الذين كانوا من السلالة التكرية المرتبطة ارتباطا قويا بالسلالة الميسية ابن يدعى ارخثونىوس خلفه تروس ثم خلف تروس ايلوس وهو الذى بنى في سهل ترواده مدينة ايليون المذكورة ثم خلفه لاوميذون

وقد روت الخرافات اليونانية في تأسيس ترواده أقوالا لا تدخل عقل عاقل حاصلها أن أحد ملوكها المدعول لاوميذون خضع لاوامره نبتون وابلون بامر جوبتير (المسترى) خضوعا وقتيا فسخر لاوميذون الاول في تشييد بناء المدينة والثانى في رعاية المشيئة على جعل معلوم يؤديه اليها ولما انتهت مدة العمل أخاف وعده معهما فاغتاظا منه وأرسل نبتون عليه وحشا بجر باللائتقام منه فلما استشار المعبود امره بأن يعطى الوحش فتاة عذرا عشر بقة الاصل فوقعت قرعة الانتخاب على ابنة لاوميذون المسماة (اليسيونه) فتخير لاوميذون في امره ثمان هيركليس قتل الوحش فكافأه الملك بخيول قابله للموت فغضب هيركليس من ذلك وجمع ست سفن وهاجم ترواده واستولى عليها وقتل لاوميذون المذكور وأجلس ابنه مكانه وفي زمنه أغار اليونان على ترواده للاسباب الآتية

(الفصل الرابع)

حروب ترواده

ان سبب هذه الحروب الشهيرة التي تغنت بها الشعراء وكانت أول حرب بين الاغريق واسيا كافي روايات مؤرخى الفرنج أن باريس أو اسكندر بن ابريام أو برياموس ملك ترواده القوية كان توجه لبلاد اليونان ونزل ضيفا عند منيلاوس ملك اسپارطة فأكرمه منيلاوس اكراما لا يزيد عليه

وبعد ما أقام مدة في بلاطه اختطف ابنته هيلانه وكانت بديعة الجمال وكان والدها متزوجا بها وافرهاربا الى بلاده ليلا بعد أن أخذ مالا جزيل من قصر الملك فلما أصبح الصباح وأحس منيلاوس بهذه الحادثة الشنيعة شق عليه جدا ما حل بامر أنه وابنته معا فقام هو وأخوه الشجاع الشهير أغامنون ملأوا رغوس من عمالك اليونان وأخبروا اليونان بما وقع فباشت صدور أمراءهم حنقا وقالوا ان هذه فعلة لم تحصل لامة من أمم العالم أجمع وطلبوا الاسداد من كل جهة ورتبوا جيشا عظيما لمحاربة ترواده بلغ عدده ١٠٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة أغامنون المذكور وأخيه منيلاوس وجعت الاساطيل في أوليس من بيوتيا حتى بلغت نحو ٢٠٠٠ سفينة وركب الجيش سفن العمارة ومخزرت بهم تشق عباب البحر الى ترواده وذلك سنة (١١٩٤ ق م) فلما وصلوها أخرجوا الجيش الى البر وكان جيش ترواده تحت قيادة هكتور رأس شجع أولاد برياموس فلما بلغ أهل ترواده قدوم اليونان دخلوا مدينتهم وأغلقوا أبوابها وحصنوا أسوارها فخاضهم اليونانيون عشر سنوات الى سنة (١١٨٤ ق م) حتى اشتد الامر على أهل ترواده ففتحوا أبواب المدينة وخرجوا مشعلين نار الحرب في الهجوم الذي حصل بين الجيشين قتل أحد شجعان اليونان المسمى اخلاوس هكتور بن برياموس المذكور فهجم أخوه باريس على اخلاوس المذكور وقتله أخذا بإثار أخيه

ثم رأى اليونان تعذرا أخذوا المدينة لثمانية حصونها ومنعة أسوارها فعدلوا الى استعمال الحيلة والمكيدة التي تكون في كثير من الاحيان أنفد منهم ما وأشد نكايته من الحرب فتراعى لاحد منهم مشاهير شجعانهم المسمى أوريسايس إعمال هذه المكيدة وهي أنه أمر بعمل هيكل عظيم من الخشب على صورة حصان ودخل فيه مع جملته من شجعان اليونان وأمر بوضعه امام أبواب المدينة وأن يقلع اليونان مضاربهم ليوهمو انهم قد كفوا عن حرب هذه المدينة وأنهم برحوا ففعلوا ما أمرهم به ونزلوا في السفن وأقاموا فلما عاين أهالي ترواده ارتحالهم داخلهم الغرور وأوهوا هذا الهيكل فراقى في أعينهم وسولت لهم أنفسهم ادخاله مدينتهم لعدم علمهم بما هو كامن فيه من رجال المنايا فاولوا دخاله من الباب فضاقت دونه فهدموا سور المدينة من جانب الباب وأدخلوه فلما انتصف الليل فتح أوريسايس بطن الجواد ووثب منه مع رفقاءه وانقضوا على المدينة حربا ونهبوا واحرقوا وفي الاثناء عادت سفن اليونانيين مع جموعهم فملا عليها وانتهبوا ما بين الاموال الثمينة وهرب برياموس مع أولاده الى هيكل هنالك فاقتفى أثره بعض اليونان وقتلوه هو وأولاده بالهيكل المذكور وأباد اليونان غالب أهل المدينة فلم ينج منهم الا من أمكنه الفرار وأخذ منيلاوس زوجته هيلانه التي كانت السبب في خراب ترواده وهلاك عائلتها الملوكية كما سلف فأكرم مشواها ومما زاد في شهرة حروب ترواده خصوصا قصائد الشاعر هوميروس المعتبر كأبي الشعر اليوناني ولم يعلم بالتحقيق القرن الذي كان فيه هذا الشاعر الا أن المتنق عليه عند المؤرخين أنه كان في حوالي القرن العاشر قبل الميلاد

الحروب الهرقولية

انه في سنة (١١٨٦ ق م) قام قوم من نسل هرقل أو هرقل وهم الذين كانوا طردوا من مورده في مدة

ادريستي جداغا ممنون وميلاوس وحاربوا اليونان أخصامهم واستولوا على مسيني ولا كونيا وطردها منها الاثانيين الذين تسمت باسمهم تلك البلاد اذ اثيا ووطنوا ثانيا باسم الهرقليين وقسموا البلاد الى ثلاثة أقسام وهي أرغوليد ومسيني ولا كونيا ومارأوا ان القسم الاخير جيد الاراضى طمعو فيه فقامت بينهم الحروب الداخلية

واعلم انه في القرن الثاني عشر قبل الميلاد استوطن القبائل الهيلانية نهائيا وكافوا قبل ذلك لا يقر لهم قرار بل كانوا ينتقلون من مكان الى آخر حسب الظروف وقد اشتهر من هذه القبائل قبيلة الدورين التي نزلت من الشمال واقامت بقسم بيليو يونيز وقبيلة اليونيين أو اليونان التي نزلت ببلاد آتيكه بعد أن طردت من شواطئ خليج كورنثه وكان لكل من هاتين القبيلتين مدينة أصلية فكان للدور بين اسبارطه ولليونيين اثينة وتاريخ اليونان ينحصر في تاريخ هاتين المدينتين الشهيرتين

(الفصل الخامس)

ذكر اسبارطه

أما جهور به اسبارطه القديمة فكانت بقسم بيليو يونيز (موره) في الجهة الجنوبية من بلاد اليونان وقاعدته قسم لاقونيا على الشاطئ الايمن من نهر اير وتاس بين نهري اينوس وتيالس اللذين يصبان في اير وطاس المذكور على بعد عشرين ميلا من البحر وكانت تدعى قديما قدمونيه وأخضع الدور يون في أول الامر اللاقونيين واضطر وهم لفلاحة الارض ولما ثار عليهم سكان مدينة هيلوس أخضعوها ونكحوا باهلها وسخر وهم في الاعمال الشاقة وصير وهم طائفة مرذولة أما الدور يون وعددهم تسعة آلاف فبقوا جنودا وحفظوا أخلاقهم الخشنة القاسية القديمة وأول ملوكها يدعى اسبارطون وهو الذي بنى المدينة سنة (١٥٧٧ ق م)

وفي القرن الثاني عشر ق م في مدة ملكها ميميلوس حصلت حرب تراوده المتقدمة التي فيها أظهرت اسبارطه قوتها البحر به بالاساطيل العظيمة التي ساقت فيها جوشها الى ساحل آسيا الصغرى وبعد رجوع الهرقليين الى بيليو يونيز متحدين مع الدوريين سنة (١١٨٦ ق م) وقعت لاقونيا في نصيب اوستوديم أحد قواد الهرقليين وهو الذي توفي في أثناء الحرب وخلفه ولده اورستين وبروكايدس وانقسمت بذلك لاقونيا الى قسمين واستمر حكم أعقابهم ما في القسمين المذكورين مدة طويلة هيئته ملوكية

ولما توفي بوايديكتوس (٨٨٤ ق م) أحد ملوك القسمين ولم يترك من يرثه في الملك وكانت زوجته حاملا أرادت ان تزوج بليكورغ أخي زوجها المتوفى ووعدته بانها تقتل المولود ليسمى هو على التخت فلم يقبل طلبها الشناعتة وبعد ما وضعت حملها اهتم ليكورغ بترتيته ولقبه بملك اسبارطه وصار يدبر أمور الدولة بالنيابة عنه ثم حصل بينه وبين زوجته أخيه المذكور نزاع فترك البلاد خوفا على نفسه وقصد جزيرة كريد ومنها توجه للديار المصرية لتلقى العلوم والمعارف ودراسة شرائعها

خصوصا وفي مدة غيابه حصل في اسبارطة فن كادت تكون القاضية على وجودها السياسي فبعث الشعب بطلب ليكورغ سرى باليقي اليه زمام الملك ويخلص بلاده من الدمار فعاد اليها سرعا وشمر عن ساعد الجدة فسكن الثورات ثم غير هيئة الحكومة الملوكية وجعلها جمهورية تحت نظام مخصوصة ملائمة ولم تمض على ذلك مدة طويلة حتى اقتدت به أكثر ممالك اليونان لما رأوا من انتظام أحوال اسبارطة وقوتها

(الفصل السادس)

نظامات ليكورغ

لما سن ليكورغ قوانينه سنة (٨٨٤ ق م) أتقى قوة الحكومة بين ملكين كما كانت العادة عند اسبارطة الا انه لم يجعل للملكين خصائص أخرى غير قيادة الجيش وبقيت اسبارطة جمهورية حقيقية وأحدث أيضا مجلس شيوخ (سناتو) مركب من ٢٨ عضوا ومجلسا عموميا للاسبارطيين وجعل لهما القوة دون غيرهما وعين أيضا مراقبين لمراقبة سير الملوك وفي هذه البلاد كانت القوة في قبضة عدد قليل وكان الدور يون أو الاسبارطيون يكتفون عائلات متميزة عبارة عن جمهورية أرستقراطية وقد أتقى أيضا ليكورغ الامة منقسمة الى ثلاث طبقات وهي الدور يون واللاقونيون والهيالوت ووزع أجل الاراضي بين التسعة الاكاف الاسبارطي وماتى وزعه بين اللاقونيين البالغ عددهم (٣٠٠٠٠) وكان اللاقونيون هم والهيالوت مكلفين بزراعة أرض الاسبارطيين الذين لا يجوز لهم الاشتغال بغير القنص والحرب ليببقوا على قدم الدفاع والهجوم

ومن قوانينه أيضا ان كاف الاسبارطيين بان يأكلوا سويا ولا استمرارا للأففة دائما بينهم بشرط أن يأكلوا من لحوم واحدة مرتبة كما وكيفا حتى ان الملكين يجب عليهما تناول غذائهم مع بقية الاهالي وكان الغذاء بسيطا للغاية غير متقن التحضير وقد منع ليكورغ التجارة بالبرة ومنع كذلك تداول النقود الذهبية والفضية ولم يسمح بالاستعمال نقود حديدية وجعل قطعها كبيرة الحجم قليلة القيمة بعدا حتى يحتاج لمن يقبض مبلغا صغيرا أن يحمله على عربة وكان يحظر على الاغراب طول الإقامة باسبارطة مخافة افساد أخلاق سكانها بادخال بعض عوائد التمتع والترفيه فيما بينهم وقد اتبع ليكورغ هذا المبدأ بحيث صير الاسبارطيين جنودا قويا ومن قوانينه أيضا أن أقام الحكومة مقام العائلة في التربية وكان الطفل المشوه الخلقة يلقونه بحياتي اخذ ويسمى (سيادا) أما الاطفال التاموا الخلقة فكانوا يرثونهم تربية واحدة عمومية ويذربونهم على الاعمال الصعبة فكان رئيس كل طائفة منهم يقودها في القتال وفي زمن السلم يستعملهم كأرقاء في تحضير الاغذية وكانوا يعودونهم على السرقة ليعلموهم المكر والخداع فكانوا يطلقونهم في البساتين وأمكنة الغذاء العمومية ليسرقوا منها ما يحتاجونه بحيث لو قبض عليهم أثناء السرقة كانوا يجلدونهم جلدا مبرحا على إهمالهم وعدم مهارتهم في السرقة حتى يحكى أن طفلا سرق نعلين صغيرا وأخفاه تحت ملابسه فأخذ الثعلب عرق باظافره وأسنانه لحم بطنه ولم يظهر الطفل أقل فزع أو تألم مفضلا الحياة بغنيمته على أن يكشف أمره

وكأنوا يطلعون الاولاد على سكارى الهيلوت لينفروهم من ارتكاب جريمة السكر وكانوا يربونهم أيضا على احترام الشيوخ جدا يحكى أن أحد الشيوخ لم يجدمرة مكالنا للجلوس أثناء حفلة عيد عموي فقام سفراء اسبارطة من مكانهم وعرضوا عليه مكانهم ومن قوانينه تعويد سكان اسبارطة على النوم فوق الارض وعلى العدو والقفر والقتال وتحمل المشاق والالام وبذلك صاروا أبطالاً في مشداتهم تضحية نفوسهم جاني وطنهم ومن قوانينه انه حرم عليهم الهزيمة أمام العدو مهما كان عدده وبذلك صار الاسبارطيون أشجع جنود ذكرهم التاريخ ويمارون في هذا الباب أن اسبارطيا أراد الذهاب الى الحرب وكان به رمد فقال له بعض معارفه الى أين تذهب وأنت على الحالة التي أرى فقال ان لم أتمكن من فعل شيء أئلم بقتل سيف أحد الاعداء

وقد أكتسب قانون ليكورغ النساء فضائل الرجال في الشجاعة فماروى عن امرأه اسبارطية أنه لما بلغها موت ابنها في الحرب قالت بلا جزع ما كنت أنتظرنه حيث ذهب لقتال الاعداء الا ان يقتل أو يقتل وأحسن لدى أن أعلم أنه مات موة شريفة تليق بوطنه وجدوده من ان أراه عائشاً نادلاً اه وأعطت أخرى لولدها درقته عند ذهابه الى الحرب وقالت له ارجع بها أو محمولا عليها وقالت أخرى لولدها وكان يشكى من قصر سيفه لا بأس تقدم أنت خطوة الى الامام وغير ذلك كثير وهذه القوانين لا توافق الأمة حربية كاهالي اسبارطة لانها صيرت مدينتهم كعسكر وكانت تقوى النفس وتامر بالاخلاص للوطن فكانت اسبارطة بذلك اسبلاد الاغريق بل للدنيا بأجمعها مدرسة وطنية عظيمة ولكن لا يذهب عن فكرنا ان الاسبارطيين كانوا قساة خشنى الطباع على الامم المفهورة ولبسوا حديد يربان بعدوا من الامم التي تجعل مثالا الحسن الاخلاق

وبهذه النظمات تشيدت جمهورية اسبارطة فهابتها الاعداء وترلفت اليها ملك اليونان تطلب محالقتها ولم يكن اهتمام اسبارطة قادرا على تنظيم داخلتها وجيشها البرى فقط بل اهتمت أيضا اهتماما شديدا بأمر قوتها البحرية فكانت لها سفن كثيرة باجارة وقواد من أشهر وأشجع معاصريهم وقد شرعت اسبارطة في الفتوحات بعد سن نظمات ليكورغ وبعد ان انبثت في جسم الامم روح تلك النظمات وتضاعف عدد سكانها ومساحة أرضها بالبحرين اللذين افتتحتهما على بلاد مسينة

في الاول من مائتين أمامها ملك مسيني أو قاييس مدة عشر سنين وانكسرت اسبارطة انكسارا عظيما في موقعة ايثوم سنة (٧٤٣ ق م) بحيث استولى الرعب على قلوب رجالها وفي الثاني مات ارسطومين ملك مسينة قتل نفسه تلبية آماله بان تصار جيوش اسبارطة عليه انتصارها ثانيا سنة (٦٦٨ ق م) وهاجر منهم قسم الى ايطاليا ثم الى صقلية وبهم سميت مدينة مسينا أما من بقى منهم فالتمزوا أن يخضعوا للشرط القاسية التي اشترطتها عليهم اسبارطة

وكان منها أن استخلفوهم على ان لا يرفعوا سلاحا في وجه أهل اسبارطة أصلا وان يدفعوا لهم سنويا نصف محصول غلالهم وأن يمضوا نساء ورجالا بقباب الحداد ليشهدوا جنازة الملوك واصعوبة هذه الشروط كظم المسينيون الغيظ وانتهزوا الفرص فلم تض على المهاهدة أربعون سنة الا وشقوا

عصا الطاعة على اسبارطة فقالت لهم ملكها الكساندريك وهزمهم شرهزيمة وبذلك مد الاسبارطيون جناح ملكهم على جميع بلاد يلوپونيرتقر ياسنة (٥٠٠ ق م) وفي سنة (٤٩٢ ق م) لما قامت الحرب الاولى بين الفرس والاغريق لم تتدخل اسبارطة لمساعدة اخوانهم من ممالك اليونان ولم يكن ذلك لما قصد رديثة بل لعوائق داخلية منعتهم عن القيام بهذا الواجب ومع كل ذلك فقد أرسلوا أخيرا ألقي مقاتل حضروا المعركة في اليوم الثاني وفي سنة (٤٨٠ ق م) عندما تقدم كسيرسيس ملك الفرس بجيشه العرمرم وأساطيله التي تجاوز عددها ٢٢٠٠ سفينة تدخلت اسبارطة لمساعدة اليونان ولما وصل ملك الفرس بجيشه الكثيف الى مضيق الترموبيل الحصين المنيع كفتاح لبلاد اليونان كانت حراسته موكولة الى ليونيداس الشهير ملك اسبارطة ومعه نحو ٤٠٠٠ مقاتل فاحتقره الفرس وهجموا عليه فقاومهم مقاومة عنيفة ورددهم على أعقابهم خائبين ولما رأى ليونيداس كثرة الاعداء وأنهم أتوا اليه من الخلف أيضا بعد عبورهم المضيق من طريق كان دلهم عليها أحد الفلاحين صرف معظم جيشه وبقى في ثمانائة اسبارطي يقاوم ذلك الجيش العرمرم بقوة وجسارة نعلدت له في التاريخ ذكرا حسنا

ومن شجاعته أن كسيرسيس كتب له يقول سلم سلاحك في جوابه بقوله تعال خذته وكانت السهام التي تقذفها عليه الاعداء كثيرة جدا حتى حجب ضوء الشمس فقال له أحد الجنود ذلك فقال فلنقاتل في الظلام وما زال على مقاومته حتى دهمه الاعداء وقتلوه هو ومن معه جميعا ولم يرد أن يفر لان قانون ليكورغ كان يحظر عليه الفرار مهما كانت حالته أمام الاعداء كما سبق

وتفاوضت اسبارطة مع ايجياون طاغية سرقوسة ليكون لهم معين على اعدائهم الفرس فوعدهم بذلك تحت شرط أن تكون له قيادة العساكر عموما برا وبحرا فلما سمع بذلك سيارغوس البطل الاسبارطي وكان معجبا بنفسه أجابه في الحال جوابا ينهاه عن ضلاله ثم رضى بأن يكون له نصيب في اصدار الاوامر وقد أظهرت اسبارطة شجاعتها في الحرب البرية وقتلت من الفرس عددا وافرا

وبعد واقعة ترموبيل تقدم كسيرسيس على أثينا ولم يكن بها أحد لفرار سكانها خوفا من الفرس في وقتها أما السكان فكانوا التجأوا الى السفن كما نصحتهم بذلك تيمستوكل وكانت الاساطيل اليونانية راسية بمخيلج سلامين بمكان موافق جدا للقتال وقد حقق انتصار سلامين ماراة تيمستوكل المذكور (سنة ٤٨٠ ق م) وقبل هذه الواقعة البحرية الشهيرة تشاور الرؤساء فيما يفعله وبعده أخذوا وقد تمكن تيمستوكل من جعلهم يقبلون رأيه وهو مقاتلة الفرس وكان بعض الرؤساء لا يزال يخاف من القتال ولذلك حصل بينهم جدال عنيف حتى ان أوريبيدار رفع عصاه على تيموستكل فقال له تيموستكل اضرب ولكن اجمع فذهبت مشلا عند الفريخ ولما كانت الحرب خديعة أظهر تيموستكل للفرس أنه يريد البعد عن سلامين ثم عاد سرا بما استعدا وأمر بالقتال وجاء أرستيد وانضم الى تيموستكل ناسيا ما بينهم من العداوة وانفقا على قتال العدو ومع أن قيادة الاسطول لم تكن لتيموستكل الا انه أظهر اقداما ومهارة غريبة وكانت سفن اليونان لا تريد عن ٤٠٠ سفينة

وسفن الفرس تجاوزوا الالفين وقال اليونان نصرانا ما ولم يبقوا الا اربعمائة سفينة وفقدا الفرس
أكثر من ٢٠٠ سفينة سنة (٤٨٠ ق م)

وكان اكسيرسيس جالساً على رابية عالية يشاهد القتال فلما رأى انكسار سفنه فر وكان قد
بلغه أن اليونان عازمون على قطع الطريق عليه باحراق الجسر الموجود على الدردنيل وتركه ٣٠٠
ألف مقاتل تحت قيادة مردونيوس لمحاربة اليونان ثم سعى مردونيوس في إيجاد الشقاق بين اليونان
فلم يقلح فاجتمعت جيوش أثينا واسبارطة وكان عددها نحو ٦٠ ألفاً تحت قيادة بوزانياس
الاسبارطي وأرستيد الاثيني ولما اتلاقي الجيشان انكسر الفرس انكساراً عظيماً وقتل
مردونيوس وقُتلت شمل الجنود ببلد بلا تياسنة (٤٧٩ ق م) ونجحت اليونان بهذا الانتصار
من استعباد الفرس وكانت غنائم اليونان من ذلك وافرة ثم مات اكسيرسيس قتله أحد أتباعه
كما تقدم

أما تيموستكل فإنه حكم عليه بالنفي بعد ذلك ونسى اليونانيون جنيله كما فعلوا مع كثير غيره
من أمثاله حتى اشتهر وابذل والتجأ تيموستكل الى أحد ملوك مقدونيا وكان عدوه الاكبر ثم التجأ
الى الفرس فأحسنوا وقادته ويقال انه سم نفسه مخافة ان يضطروا له لجل السلاح على بلاده

ثم قامت المناظرة بين اسبارطة وأثينا وكانت على درجة عظيمة من القوة وكان أسطولها
جسيماً وثورتها وافرته فلما حدثت الحرب الثالثة بين مسينه واسبارطة سنة (٤٦٤ ق م)
واستمر الى سنة (٤٥٥ ق م) أرسلت في خلاله أثينا جيشاً للمساعدة اسبارطة فلم تقبل المساعدة
وتسبب من ذلك ان اشتهرت اسبارطة على أثينا بحرب سنة (٤٣١ ق م) استمر الى سنة
(٤٠٤ ق م) انتصرت فيها اسبارطة وكسر ليساندر قائد جيشها قوات أثينا في واقعة اغوس
بوتاموس البحرية سنة (٤٠٥ ق م) وبعدها حاصر أثينا برا وبحرا فلما سلمت خربها وصارت من
وقتها تابعة لاسبارطة زمننا الى أن خرجت من تابعيتها

وفي أثناء ذلك ظهرت الدولة المقدونية وبظهورها حصل تغيير عظيم في الممالك اليونانية وطلب
ملكها فيلبس المقدوني والداكسندر الشهير من اسبارطة الاشتراك معه في محاربة الفرس فرفضت
طلبه وحصل بعد ذلك اتحاد بين الممالك اليونانية مضافة مقدونيا فامتنت اسبارطة أيضاً من الدخول
مع المتحدين ولكنها حركت بعض الممالك لمحاربة مقدونيا فانتخب مساعها

وفي الحرب الذي قام سنة (٢٢١ ق م) بين اسبارطة والاخانيين والمقدونيين انهزمت
اسبارطة وتقاسمها المذكورون وفي سنة (١٩٢ ق م) خضعت اسبارطة قهراً الى الاتحاد
الاخاني وفي سنة (١٤٦ ق م) دخلت اسبارطة مع باقي ممالك اليونان قهراً تحت حكم الرومان وفي
مدة حكم امبراطرة الرومان كانت اسبارطة متمتعة بسكينة تامة وبعد قسمة الدولة الرومانية
مدة ولدى تيود ونيوس صارت قاعدية ولاية تتبعها كل بلاد موره ولما تأسست الدولة اللاتينية
سنة (١٢٠٤ م) أدخلت ضمن امارة موره وعقب ذلك كانت مقاطعة تابعة لاحد الامراء من آل
بالولوغ ثم استولى عليها السلطان محمد الفاتح سنة (١٤٦٠ م) وطردها آخر أمرائها المدعو
ديتريوس وبعدها ثلاث سنوات اتحاد الامير المذكور مع بعض الامراء وأحرقها وهذا كان آخر

العهد بآب بعد أن مضى عليها منذ تأسيسها نحو ٢٣ قرناً ولما استقل اليونان أعادوا بناءها ثانية بأمر ملكهم أوثون وهي الآن قاعدة عمالة من عمالاتهم

(الفصل السابع)

مملكة أثينا

كانت أثينا قديماً قاعدة لمملكة أثينا إحدى ممالك اليونان وواقعة على بعد ثلاثة أميال من ساحل جون سارونيك الشرقى وعلى بعد خمسة أميال من بيروس أو بيريا وهي مشيدة على تل يسمى أكر وپوليس ويسمى بالعرب في بعض كتبهم عدية الزيتون لكثرة فيها ويلقبونها بمدينة الحكاء ويطلق عليها أيضاً أتيكا

تأسست أثينا فيما قيل سنة (١٦٤٣ ق م) وكان لها ثلاثة ثغور ببحر يشتهر وهي فالير ومينا سلامين الحربية وبيريا فلذلك كانت أساطيلها أكثر وأقوى أساطيل باقي اليونان واشتهر سكانها بعلا المدارك والفوقان في الصنائع وقد تداولها بعد سكر وبس المصري السابق ذكره ستة عشر ملكاً وكان آخرهم قدروس الذي في أيامه هاجمها الهيراقليديون بعدما استشاروا أپولون (١) وأنبأهم بالانتصار على الأثينيين أن لم يقتل ملكهم قدروس في الحرب فكانوا يعتقدون بهذه الأوهام فلذلك كانوا في وقت الحرب محترسين من قتل الملك قدروس المذكور ولكنه لما علم معتقدتهم تزيارزى العامة ودخل بين صفوف الهيراكلية وقتل في وسط المعركة ولما علم الهيراكلديون بموته يتسوا من الانتصار لا اعتقادهم بصحة القول فالتقلبوا راجعين سنة (١٠٩٥ ق م) فخلقوه وولاه وقامت المنازعة بينهما

أما الأثينيون فبعد موت ملكهم الذي ضحى حياته بحياته ووطنه لم يقبلوا أن يولوا بعده ملكاً عليهم فلذلك رفضوا قبول تلميذ أولاده وأبطلوا الحكم الملكي وأقاموا الحكم الجمهوري باعتبار أن معبودهم المسمى جو بتيير هو الملك عليهم فأقاموا الحكم الجمهوري وكانوا يولون رؤساء كل واحد منهم يسمى أرخونت وأول من تولّى هذا المنصب ميدون بن قدروس وبنوه من بعده واستمر الحكم في أعقابهم نحو ٣١٣ سنة

وقال بعض المؤرخين أن الأثينيين قد أجزوا جميع أنواع الحكومة في بلادهم فكان لهم ملك في أول الأمر ثم في سنة (١٠٤٥ ق م) أصرت العائلات الكبيرة على أن تكون السلطة بيدها فانتخبوا كما سموه بالارخونت يحكمهم طول حياته ثم جعلوه لعشر سنوات ثم لسنة واحدة وعند ذلك كثر عددهم حتى بلغوا تسعة في آن واحد وكانت اسبارطة تحتج ثمرات نظام ليكورغ من زمن طويل بينما كانت أثينا مشغولة بالحروب الداخلية ولما التفت الأثينيون لحالة اسبارطة

(١) هو معبود الرعي عند اليونان ومعبود الطب والشعر والفنون والقطعان والشمس وهو ابن المشتري حسب اعتقادهم وأخودان ولد لجزيرة نابدولوس وكان له مدينة دلف معبد شهير وكانوا يشهرون باسمه كل سنة ألعاباً يشتركون فيها وله في خرافاتهم أفضيصة غريبة

كلفوادرا كون بسن تقامات الأتيا أنت قاسية حتى استعمال تطبيقها سنة (٦٢٤ ق م) ثم كلف
الائينيون بذلك سولون وكان ابن أحد التجار وساح كثيرا في البلاد واستطلع أحوالها فانت قوانينه
غاية في السداد وعاتت على أئينا بالفوائد العظيمة سنة (٥٩٥ ق م) ولهذا حسدها الاسبارطيون
وأخذوا يسعون في قلب حكومتها

ولما سن سولون قوانينه أبقى أئينا جمهورية كما كانت الان القوة كانت بيد الامة أي جعلها
جمهورية ديمقراطية وأبقى أيضا وظيفة الارخونت الذي ينتخب سنويا الان الاوامر المهمة كانت
تعرض على مجلس سنالو مؤلف من ٤٠٠ عضو ثم تعرض على مجلس الامة وكانت المحاكم مركبة
من أعضاء ينتخبون بالاقتراع وأوجد أيضا مجلسا عاليا مؤلفا من أعضاء عولوا المناصب العالية في
الجمهورية ووظيفةهم مراقبة الدين والتربية العمومية وكان هذا المجلس محترما للغاية

وقسم سولون الامة الى أربع طبقات حسب الثروة جعل لكل طبقة نصيبا معينيا في تنظيم
الجيش وعين لها أيضا صفها في القتال ونصيبها من الضرائب فبقي كانت الفوائد التي تنالها مناسبة
للثروة تكون وظائفها بتلك النسبة وكان القضاة لا ينتخبون الا من الطبقات الغنية الان الامة
كانت مع ذلك هي صاحبة النفوذ في الانتخاب والمراقبة على القضاة أما الارتفاع فكانت حالتهم سيئة
جدا وكان يمكن للاغراب التمتع بمطلق الحرية ويمكنهم ان يدخلوا ضمن الرعية الاثينية وكانت
الموارث تقسم على السوية بين الاولاد وكان من خصائص المجلس العالي التحقق من كيفية معيشة
كل أئيني وكان يعاقب كل من لا يتعاطى عملا ولم تكن الاولاد تربيتهم الحكومة كما كان في
اسبارطة بل يربون بمعرفة عائلاتهم وليس للحكومة حق طلبهم الا متى بلغ سن الولد ١٦ سنة ثم
يؤخذ ويدخل في المدارس العمومية لتربيته عسكريه ولو فاق بلنا بين قوانين سولون وقوانين
ليكورغلو جدا ان قوانين سولون تستخدم حقوق العائلات وحرية كل شخص وتشجع على العمل
وتنشر الصناعة والتجارة وترتيد عدد السكان

أما قوانين اسبارطة فغايتها المساواة بين الاسبارطيين وحصر النفوذ بيدهم على غيرهم ولهذا
كانت اسبارطة ثلاث متراكبة وهي الحكومة وكانت في يد عدد قليل والمملكة وكانت المتصرفة
في كل شئ تقيد الحرية والاثرة الشديدة التي اشتهر بها أهل اسبارطة كل ذلك جعل مدينهم جمهورية
ضيقة مقفلة الابواب في وجوه الاغراب بخلاف أئينا فكانت جمهورية متسعة مقفلة الابواب تحسن
وفادة الاغراب وتمتع فيها العائلات بحقوقها الطبيعية وليس بها طبقة فاتحة متميزة بل أمة سائدة
في مجتمعاتها الحرة وحكومتها وكانت اسبارطة لا ترحى الا لغرض واحد وهو ايجاد جنود وقد
نجحت تماما وصارت مهيبه الجانب الا انه لما سقطت قوتها لم يبق منها شئ بخلاف أئينا المدينة
الصناعية التجارية العلمية الحرة فانها حفظت آثارها مدة اجيال حتى حينما فقدت حكومتها
استمرت المركز الحقيقي للحضارة الاغريقية

وفي خلال ذلك أخذت ملوك الفرس تهاجم اليونان فقامت الحروب بين أهالي أئينا وجيوش
الفرس وكانت الوقائع كثيرة والحروب بينهم سجالاتا في سنة ٤٩٠ ق م لما نجح داتيس وارتفرن
قائد عمارة داربوس الاول المؤلفة من ٦٠٠ سفينة في فتوحاته بجزائر الارخبيل هاجم بعدها

سواحل أثينا وأزلهما جيشا من بكمين ١١٠٠٠٠ مقاتل فقاومتهم جيوش أثينا واسبارطة التي كانت تحت حكم ميليتادس (٤٩٠ ق م) وشتت شمل جيشهم فالتجأ الى المراكب طلبا للنجاة بعدما قتل منهم ٧٠٠٠ جندي ومنهم هيبياس دليلهم في هذه الحملة واكتسب ميليتادس شهرة لا مز يد عليها هذه النصر المسماة بواقعة ماراتون

ثم جهزت له أثينا أسطولاً عظيماً وملاؤه بالجيوش وذهب ميليتادس لمحاربة الفرس في جزائر الارخبيل وكافوا استولوا عليها تحت قيادة داتيس فنجح أيضا في ذلك نجاحا كبيرا واستخلص كافة الجزائر المذكورة من أيدي الفرس غير أنه صعب عليه أخذ جزيرة باروس فعاد الى بلاده ظافرا منصورا الا أنه بعودته على هذه الصورة لم ينظر اليونان في أثينا الى ما اكتسبه ميليتادس من الغنائم وما فتحه لهم من الفتوحات بل نفوا عليه لعدم فتحه الجزيرة المذكورة واتهموه بأخذ الرشوة من الفرس ولذلك حكموا عليه بدفع غرامة عظيمة فوجم لهذه المعاملة القاسية والمكافأة السيئة التي أصنعت أتعابه ادراج الرياح فقتل بعد قليل من الزمن

وفي سنة (٤٧٠ ق م) تقدم الملك اكسيرسيس بجيوشه ولما وصل الى بلاد أثينا اتخذ جهة أودوبوباغوس مركز المعسكره ثم وقعت موقعة ماراتون وسلامين الشهيرتان اللتان انتصر فيهما اليونان على الفرس وألزموهم القهقري وقد وصف رأسيل الشاعر اليوناني الشهير تلك الوقائع وصفا بليغا مؤثرا وكان من أبطالها ولم تكن الحروب بين الفرس واليونان انتهت بما اكتسبه الاولون من الظفر فان اليونان أغاروا على الفرس وكانت أساطيل الاثينيين القوية تجوب بحرا تحت قيادة سيمون بن مليتاد الذي لم يحدد على الاثينيين لما فعلوا مع أبيه بل قام لهم بأعمال جسيمة وخدم جليلة وانتصر على الفرس انتصارا عظيما بجزر يا على شواطئ آسيا ثم اتهموه بما اتهموا به كثيرين غيره ونفوه ولما لم يلبثي مثل تيموستكل الى الفرس عفوا عنه قبل انهاء زمن نفيه ثم تولى قيادة الاساطيل وانتصر بها على الفرس ثم مات من جرح أصابه في قتال قبرس سنة (٤٤٩ ق م) وعادت الاساطيل تحمل جسده وانفق أنها قابلت أسطولاً فارسيا فهزمته حتى كأن سيمون يهزم الفرس حيا وميتا ثم عقدت معاهدة مع ملك الفرس ارتكسبرسيس بها استئقلت المستعمرات الاغريقية باسيا وصار بحر ايجي بأجمعه بحرا اغريقيا وتعهد ملك الفرس بان لا يرسل فيه سفن حربية

وقد عادت الحروب الفارسية المشهورة بالحروب الميديه بالفخر والجد على أثينا التي تحملت أثناءها أعظم المشاق وأكبر الضحايا ومن ذلك الوقت صارت سكان الجزائر والمستعمرات يمدون يدهم طلبا لمخالفة أثينا أيضا وكانت أساطيلها القوية تصيرتها عزيزة الجانب مهيبه الجانب وألقت اليها مقاليد الدولة ببلاد اليونان

وقد نالت أثينا هذه السلطة بساعي بركليس أعظم رجال عصره وأمهدهم في الادارة (٤٤٩ - ٤٢٩ ق م) وكان بركليس خطيبا شهرا حاز الرئاسة بفصاحته العجيبة وكان طامح الغرض كريما لا يتطلع الى الوظائف ونوال الشرف بلا استحقاق ولا يتصرف الا في الوظائف التي سلمت له الامه فكان فريديفي الجهورية باستحقاقه وخبرته في الامور سواء كان في الوظيفة

أواخر جاعتها وقد اهتم تحسين أئينا وجعلها أبجل المدن وانشأها البارتيون أو هيكل منرف وكان من المرمر الابيض تحيط به العمدة الضخمة مزينا بادق النقوش ولا تزال اطلاله للآن تستوقف الابصار وتحير الانظار وله غير من المباني العمومية الفاخرة وقد اشترعصره في تاريخ اليونان حتى سمي بعصر بركليس وفي سنة ٤٣١ ق م وقعت حروب بين مملكة كورانتة وجزيرة كورسيرا (كرفو) وأعقب ذلك حروب ييلوپونيزه

(الفصل الثامن)

حروب ييلوپونيزه

٤٣١ - ٤٠٤ ق م

كانت مدينة أئينا تثير عوامل الغيرة والحسد لدى أهل اسبارطة لما تالته من الثروة والقوة وكثرة المخالفين ولهذا حرضت عليها أشهر أمم ييلوپونيزه فحصل اذذاك أن انقسمت بلاد اليونان الى عصبين وقعت الحرب بينهما مدة تبلغ ٣٠ ثلاثين سنة مع ما تخللها من الهدنات (٤٣١ - ٤٠٤ ق م) وهي المسماة في التاريخ بحروب ييلوپونيزه أي مورة فكانت اسبارطة و كورانتة وجميع ممالك ييلوپونيزه الواقعة في شمالها من جهة وكانت أئينا وتاليا وبعض جزائر الارخبيل من الجهة الاخرى فكان جيش اسبارطة مؤلفا من ٦٠٠٠٠ مقاتل يقوده ارخيداموس ملكها وجيش أئينا كان عدده ٣٢,٠٠٠ مقاتل وكانوا يفوقون أهل اسبارطة بقوتهم البحرية وقد اتفق أن نقشي الطاعون بمدينة أئينا من أول الحرب وكان مما زاد الحالة اربابا كاشدة تراكم أهالي القرى بتلك المدينة لان حصول الحرب اضطرهم لذلك ولما لم يجدوا بيوتا صالحا لسكنهام كانوا يسكنون في مدة الصيف في أكواخ ضيقة لا يدخلها الهواء ولهذا كان الموت بينهم كثيرا وكانت الجثث ملقاة على بعضها في الطرق وكان كثير من التعساء يطوفون في الطرق أو حول المياه وقد أتهمكهم العطش والجوع حتى ان الاهالي تركوا العوائد الدينية المتبع علمها في دفن الموتى فكانوا يدفنون موتاهم بقدر ما يصل اليه الامكان وقد ترتب على وجود الطاعون بتلك المدينة اختلالات كثيرة منها أن كل انسان صار يمكنه الانكباب على فعل كل ما تسوله له نفسه بتمام الحرية ولما روا الثقلب السريع من مثل موت الاغنياء بقاءة وثروة الفقراء بقاءة لم يتفكر الناس الا في التمتع السريع لان الحياة والثروة أصبحتا مهدتين بالزوال ولم يكن الناس يخافون لامن المعبودات ولا من القوانين

ثم خفت وطأة المرض قليلا الى ان زالت تماما بعد ان أخذت من الاثنيين عددا عظيما من ضمنهم بركليس الشهير (٤٢٩ ق م) وكان من أشهر حكام أئينا عقلا وعدلا وكان موته مصيبة عليهم لانه لم يوجد من يتخلفه في صفاته وأفعاله ثم دامت الحرب سجالا بين الطرفين الى أن أشار عليهم نسياس الحكيم فعقدوا صلحا وهو المسمى بصلح نسياس سنة (٤٢١ ق م) الا أن هذا الصلح كان عبارة عن هدنة فقط ثم ظهر رجل يسمى السيبادغر بالاثنيين وأوقعهم في حرب كانت وبالا عليهم وهو حرب صقلية (٤١٥ - ٤١٣ ق م) وقد كانت جزيرة صقلية يسكنها بعض جالية الاغريق يخضعون لحكم أقوى مدنيتهما وهي مدينة سرقوسة وكانت المدن الصقلية

توسل الى أئينا بطلب المساعدة لحمايتهم من جور ملوك سرقوسه فقام السيياد المتقدم وحسن
 للائينيين ارسال الامداد وأطمعهم في الاستيلاء على الجزيرة المذكورة فجهز الالئينيون أسطولا
 حركا من ١٣٤ شائبة صحبة جيش وأرسلوه الى تلك الجزيرة وكان من ضمن قواد ذلك الجيش
 السيياد ولكنه ما كاد يصل الى المدينة حتى استدعوه ليجاوب عن تهمة عظيمة اتهموه بها وهي كسر
 أصنام معبودهم المشتري فداخلة الفرع وفر الى اسبارطة فعينت أئينا مكانه قائدا آخر للاسطول يدعى
 ذيموستين ثم هزم الجيش والاسطول معالعدم بحسن تدبير القواد وكان الاسبارطيون أرسلوا مددا
 الى أهالي سرقوسه لطلبهم ذلك ولما وصلت الجنود الاسبارطية أزموا جنود أئينا برفع الحصار
 عن سرقوسه واشتبك بينهم القتال فدارت الدائرة على الالئينيين ولم يتمكن من بقاء منهم من
 الرجوع الى وطنه بل وقعوا في يد الأعداء وبعد أن أظهر ذيموستين شجاعة غريبة قتل نفسه
 مسموما مقضيا لذلك على الموت يبدأ أعدائه فأسف عليه الالئينيون أسفا شديدا لانه لم يقصر في
 القيام بواجباته وكانت تلك الكسرة مشؤمة على أئينا وسببها ضعف قوتها (٤١٣ ق م)
 فلهدأ انتهر الاسبارطيون تلك الفرصة وجددوا الحرب على أئينا أما السيياد فأكرمه الاسبارطيون
 أحسن اكرام وقلدهم كزاعالي في الجيش وأخذ يحارب وطنه ثم أساء السيرة فأراد الانتقام
 منه فهرب الى بلاد الفرس وأنفعهم بمساعدة الالئينيين فكافأه الالئينيون على تلك الخدمة بالعمو
 عنه وسمحو بالعودة الى مسقط رأسه وقلدهم رئاسة أسطول وجيش أثيني كانا شواطئ آسيا
 فخاربهما وانصرفي البر والبحر على أعداء أئينا أي اسبارطة ومحالفها وبذلك رد سيطرة أئينا على
 بلاد يونيا وشواطئ الدردنيل

ثم عاد الى أئينا منصورا حيث قوبل بالتجمل والاحترام (٤٠٨ ق م) وبعد ذلك بقليل
 تغلب الاسبارطيون ثانيا واستولوا على الاماكن التي كان استخلصها السيياد ثم بعد ذلك اضطر
 السيياد للهجرة واتزوى ببلاد ترائه حيث قتله الفرس بعد قليل وليس لهذا الرجل مثيل من حيث
 كثرة تقلباته ونواله للعظيم المدح وقيج الذم جمع بين الأضداد علوا الفضائل وسافل الرذائل
 واسقرت الحرب غير معلومة النتيجة الى أن ظهر الضعف والفشل من جانب الالئينيين الذين
 كانوا لا يزالون أصحاب النفوذ في البحر لكثرة أساطيلهم واكتسبوا واقعة بالقرب من جزائر
 أرچينوس على شواطئ آسيا الصغرى وكان أسطولهم في تلك الواقعة من ١٠٠ سفينة
 فألقت سفن المتعاهدين عن آخرها (٤٠٦ ق م) وبعد ذلك بقليل دهم الاسبارطيون جيش
 أئينا الذي كان يقوده كأقوى قوادها وتغلبوا على شواطئ ترائه بالقرب من النهر المسمى ايغوس
 پتاموس (٤٠٥ ق م) ووقعت غالب سفن الالئينيين في يد ليساندر الاسبارطي الذي أغرق منها
 عددا عظيما

ولما كانت قوة أئينا تتركز على بحر إيجه كانت هذه الهزيمة هي القاضية عليها ثم قصد
 ليساندر أئينا وحاصر نهرها البحري ييرا ولما اشتد القحط بأهالي أئينا وقتل بهم سلوا مدينتهم
 بشروط مصالحة متضمنة أن الالئينيين يهدمون حصن ميناء ييرا ويهدمون أيضا السور الذي مبدأه
 من المدينة وغايته الى الميناء وأنهم لا يأخذون من سفنهم الا اثنتي عشرة سفينة ويترك كون الثغور
 التي كانوا تغلبوا عليها سابقا وان يعيدوا المنفيين الى مواطنهم وأخر الشروط أنهم لا يشهرون

حربا الا باذن منهم وبذلك استولى الاسبارطيون على أثينا كما استولوا على كل المدن التابعة لها وهم
 ليساندريخا عظيم من أسوارها وأزال بذلك نظامات سولون وقوة الامة ونصب عليها ثلاثين شخصا من
 المخلصين لاسبارطة وهم المسمون في التاريخ بالثلاثين طاغية وكان من أعمالهم ان أمروا بقتل
 أكثر من ١٥٠٠ نفس بلا محاكمة واقتسموا فيما بينهم أموالهم وأغشوا في المظالم فصرخ أهالي
 أثينا من سوء تصرفهم ثم إن أحد الاثنين المسمى تراسيمول وكان التجار إلى مدينة طيبة تمكن من
 تجنيد بعض أهالي وطنه الذين كانوا هاجروا معه ثم أتى وهجم بهم على أثينا وخلصها من
 يد أولئك الحكام المدعورين بالاراخنة وأخذ في لم الشعب وابتعد الامن والوفاق وأصدر أمرا
 بالعفو العام عن المذنبين فتسكلت مساعيه بالنجاح وأجبت الالهالي

ولما انتهى حرب بيلايونيزه أشهر اليونان الحرب على الفرس ولما كانت اسبارطة أخذت
 المقام الاوّل بين المدن الاغريقية لمها المدافعة عنها وحصل أن الفرس هم الذين سهلوا لاسبارطة
 هذا العمل وخبر ذلك أن أخار تخشيارش منيون ملك الفرس تأمر على أخيه المدعو كيروش وأراد
 خلعهم والجلوس على تخت مكانه ولهذا جند كيروش كثيرا من اليونان الذين كثر عددهم ببلادهم وكافوا
 بلا عمل عقب الحروب الاهلية التي كانت ببلادهم فانتقى منهم أكثر من ١١٠,٠٠٠ وأدخلهم تحت
 لوائه ثم تقدم بهم وبغيرهم من جنوده الفارسية فاصدم مدينة بابل فقباله جيش ارتخشيارش وسد
 عليه الطريق عند مدينة كونا كسه ببلاد كلدة القديمة (٤٠١ ق م) ولما دارت رحى الحرب
 بين الفريقين انهزم كيروش وقتل في الواقعة وبذلك صارت الجنود اليونانية وعددهم ١٠٠,٠٠٠
 منفردين وسط الدولة الفارسية وكان يلزمهم ان يقطعوا فيافي عظمة وسهلوا واسدعة الى ان يصلوا
 الى شاطئ البحر ثم احتال الفرس على قوادهم فدعوههم الى واية وغدروا بهم وقتلواهم عن آخرهم
 وكان بصحبة ذلك الجيش عالم أثيني يسمى كزيمفون كان صاحب الجيش يستفيد من السياحة
 فقوى عزائمهم وولى رئاستهم هو وغيره ممن وقع عليهم الانتخاب ثم أخذوا في السير متجهين نحو البحر
 الاسود قاطعين الجبال التي ينبع منها الدجلة والفرات وتوغلوا في جهات قاحلة وبسبب عقر
 تسكنها قبائل حربية حتى وصلوا الى شاطئ البحر بعد أن قاسوا المشقات وتحملوا الاعاب الشديدة
 وفقدوا منهم كثيرا بالحرب والبرد والجوع ومن هناك استعانوا بالمدن اليونانية الموجودة على
 شواطئهم لتوصلهم الى بلادهم وقد بقي ذكركم في التاريخ وقطعوا في الخمسة عشر شهرا التي
 قضاها في الذهاب والاياب ١٤٥٠ فرسخا وخرقوا بلادا لا تزال غير معروفة لآن تماما

وانسحاب هؤلاء الجنود بتلك الصفة أعظم برهان على علو درجة اليونان وحسن
 نظامهم اذ امكنهم وهم فئة قليلة ان يتجولوا ببلاد الفرس الواسعة وقد ألفا كزيمفون المذكور
 تاريخا لهذه الحادثة الشهيرة وقد ظهر من انسحاب العشرة آلاف من اليونانيين بتلك الصفة
 ضعف دولة الفرس ولهذا انتهز ايجيسيلاس ملك اسبارطة تلك الفرصة لاغارة على بلاد الفرس
 والسير بداخلها الى ان يصل الى عاصمتها وصكان انضم الى ايجيسيلاس المذكور يونان آسيا
 ورأسوه على جيوشهم فلم ينجح ايجيسيلاس في مشروعه هذا لانه اضطر للعودة الى اسبارطة ليحميها من
 اغارة جيوش طيبة وأثينا وأرغوس وكوراثه المتحدة عليها وكان ذلك الاتحاد مع ايجيسيلاس دولة الفرس
 وكان ليساندريخا يبلغه نائب المدن المذكورة على اسبارطة أن يسر بعائلتها الا أنه مات في واقعة

ثم حضر اچيسيلاس فوجد بلاده على شرف الدمار قد هزمت جنودها وكسرت أساطيلها وتقابل مع الاعداء قرب مدينة قورونه ولم يدارت رعى الحرب اتصرا اچيسيلاس نصرة عظيمة (٣٩٤ ق م) وبذلك توقف تقدم المحالفين وحفظت الدولة الاسبارطية وعادت سلطتها على ما كان لها من المدن القديمة

الآن كاثون رئيس جيش الاثينيين خرب اقليم لاكونيا وقوى اسوار أثينا وحصنها بما يبذله له الفرس من الاموال فلما رأى الاسبارطيون ذلك وقع الخوف والرعب في قلوبهم من أهل أثينا وكانوا قبل لا يخشون لهم بأسا فلذلك تفكروا ان ايس اصلى لهم من مصالحة الفرس فعدوا معهم معاهدة كان المتولى عقدها من طرف اسبارطية شخص يدعى انتالسيدياس (٣٨٧ ق م) وكان من اعداء اچيسيلاس ومن أهم بنودها التنازل للفرس عن المستعمرات الاغريقية التي باسيا وغير ذلك من الشروط التي يعلم منها انحطاط الوطنية عند أهل اسبارطية وحصل بعد ذلك أن سكان جميع المدائن اليونانية كانت تأتي لتخدم لث الفرس حكما في فصل مخاصماتهم ويفرطون في مصالح وطنهم مقابل ما ينيهم من الغيرة والبغضاء

(الفصل التاسع)

مدينة طيبة

٢٧٩ - ٣٦٢ ق م

ان مدينة أثينا لم يعد في قدرتها أن تقوم من الضعف الذي سببه لها حرب بيلوبونيزه وكانت اسبارطية ابتدأ أمرها في الضعف أيضا وكان من ضمن مدن اليونان مدينة أخرى ستقبض وقتما على النفوذ الذي كان لأثينا واسبارطية وهي مدينة طيبة والفضل في نوال هذه المدينة تلك الدرجة الرفيعة راجع الى رجلين عظيمين وهما بيلوبيدياس وپامينيوندياس واتفق ان جيشا اسبارطيا تحت قيادة رجل يدعى فيدياس نزل أثناء سفره لتمتع عصيان بجوار مدينة طيبة التي كانت انذاك منقسمة بين طائفتين متعاديتين لما قد وقع فيهما من الاضطرابات التي أضاعت نظامها فطلب بعض رؤساء الطائفتين من فيدياس أن يساعده على خصمه فأجابته لمطوبه في الظاهر ثم هجم عليهم واستولى على قلعهم ولما كان ذلك من الظلم والتعدي لانه لم يكن بين تلك المدينة واسبارطية الا الصلح رفعوا أمرهم الى اچيزلاس ملك اسبارطية فلم ينصفهم تماما لانه كان يرى اباحة الاستيلاء على ما فيه المصلحة

وكان أهل اسبارطية لما استولوا على طيبة حكموا بالثقي على كثير من أهاليها ليجلهم بالخوف التجأ المنفيون الى الاثينيين وكان منهم شخص يقال له بيلوبيدياس من أهل الوجاهة اشتهر بالفضل وسداد الرأي فصدأ ان يتخلص بلاده مما أصابها وأرسل سرا يعلم أهل بلده بما قصده ثم أتى المدينة ودخلها محتفيا ومعه عدة من الابطال الذين يعتمد عليهم وهمجوا على الحكم الظلمة وقتلوه واستخلصوا مدينتهم (٣٧٩ ق م) وكان ذلك بمساعدة بطل من ابطال طيبة يدعى ايبامينوندياس وهو من أعظم الفلاسفة واسع المعارف وقد اتحد مع بيلوبيدياس قلبا وقالبا واجتهدا في رفع شأن وطنهما واصلاح ما تزعم عن من أركانه فنا لا بذلك ذكر اچيزلاس

ومن أعمال بيلوبيدياس تشكيل الفرقة المقدسة وكانت تتركب من ٣٠٠ شخص

منتخبين من بين أشجع الابطال وكانوا يختلفون عينا أنهم يفضلون الموت جميعا ولا يتقهرون وأصلا
ثم ان بيلو ييداس درس نظام الجيوش عند اللقدمونيين ودرّب جيش طيبة على القتال والصبر
على التزال في وقائع صغيرة حتى تمكن من الوقوف أمام جيوش اسبارطة ومنازلهم

ثم سعى أهل اليونان في الصلح بعد ذلك لازالة هذا التفرق الحاصل واجتمعوا بمدينة اسبارطة
فأبى ايامينونداس خضوع بلدته لاسبارطة ثانية وأصر على بقاءها مستقلة لا تعلق لها بغيرها
فغضب ذلك محوا أسماء أهل طيبة من وثيقة المشاركة العمومية وتصبوا جميعا على مدينة طيبة
ثم أغاروا جميعا على أهل طيبة الذين استعدوا للقائهم بنيات جاش وقوة جنان وجعلوا ايامينونداس
أمير الجنودهم بينما كان بيلو ييداس يقود الفرقة المقدسة المارذ كرها وسار والملاقاة الاعداء غير
ملتفتين لاقوال الجبناء وكانت عدة عساكرهم ٦٠٠٠ جندي أما عساكر المتحزبين فكانوا يزيدون
عن ٢٦٠٠٠ مقاتل ودارت رحى الحرب بالقرب من مدينة تدعى لو كروس سنة (٣٧١ ق م)
فأظهر الطيبيون شجاعة وإقداما غريبين واقحموا المهالك بعزم أكيد بلغضهم للجنود ومحبتهم
للاستقلال فانتصروا على أعدائهم نصر اعظيما وبعد تلك الواقعة انفصلت جميع المدن التي كانت
خاضعة لاسبارطة وانضمت الى طيبة ثم ان عساكر طيبة دخلت بلاد بيلو بونيزه تحت قيادة
ايامينونداس وعانت فيها حتى وصلت أبواب مدينة اسبارطة وبذلك فكذب القول الكبرياني
الذي قاله أهل اسبارطة من ان النساء اللقدمونيات لم تر اصلا دخان معسكر عدو ولم تنج اسبارطة
من الوقوع في محالب أهل طيبة لاجبا بذله ملكها الهرم اجيسيلاس من المساعي ومع ذلك فان
ايامينونداس قبل أن يرجع الى وطنه أنقذ أهل مسينا من قبضة اسبارطة ليكون له عون على
أعدائه ثم عاد يرفل في ثياب العز والفخر ومع ذلك لم يعامله أهل وطنه بما يجب

ثم تحزب الاثينيون وأهل اسبارطة وغيرهم على طيبة فأرسل أهل طيبة بيلو ييداس الى
ملك الفرس اوتكزي ريسيس لينضم اليهم فقبل ذلك ما بينه وبين أهل أثينا واسبارطة من العداوة
القديمة وأكرم بيلو ييداس جدا الفضائل وبعد ذلك سافر بيلو ييداس الى تساليا ومقدونية وغيرها
وذلك لاعلاء شأن بلاده ومدنفودها وربط علائق المودة والمهادنة مع من يستفيدون منه من الملوك
ثم مات في واقعة بيلاديساليا (٣٦٤ ق م) وانقم الطيبيون عن قتله وأجره والله عند نفسه
احتفا لافائقا جدا

وكانت اذ ذلك نيران الحرب مشتعلة جدا بين طيبة وأعدائها ويريد ايامينونداس ان يتغلب
على الاسبارطيين مرة أخرى ليطحنهم طحنا حتى لا تعود ادهم قائمة فالتقى بجيشهم بالقرب من مدينة
منطينا (٣٦٢ ق م) وانقض على الاعداء واقحم صفوفهم بمفرده فأطبقوا عليه من كل
جانب ورشقوه بالنبال فأصيب بجرح قاتل وخلصه جنوده من يد الاعداء وهو مشرف على الموت
وكان السهم الذي اصابه لا يزال في مكانه وقر الاطباء انه لو نزح لآدى الى الموت وأتى اليه أحبابه
من الضباط واحتاطوا به مظهرين الاسف والحزن على ما حصل به وبهم وسأل حينئذ عن حال
جنوده وأي جيش لاحت عليه علامات النصر فأخبروه أن أهل طيبة هم المنصورون فصاح قائلا
لقد هان على الموت الآن وقال ان حوله لا تنظر وأن هذا اليوم هو آخر أيامي بل هو أول سعادتني
ومبدا نعيمي لانتصار أهل طيبة وانتزال أهل اسبارطة ثم أشار اليهم بنزع السهم فبكوا بكاء شديدا

وقال له أحد هم ان من الاسف ان توت بلا عقب فقال له لا لا تخي أترك من بعدى عظيمين جليلين يقومان مقام الذرية وهما انتصار لوكروس (١) ومنتينا (٢) ثم تناول السهم بيده وانترع عفات لوقته وقد اتصف اييامينونداس بجميع الفضائل والحصل الجيدة والافعال الجميلة وكانت نفسه لاتتوق الى شيء الا الجلب الصالح ودفع الطالح وكان يعظم والديه ويحبهما جدا وكان واسع المعارف متواضعا قليل الكلام سال كما سلك الزهد وقد جعله بعضهم أعظم رجال اليونان

اضحلال طيبة واليونان وقيام مقدونية لقد كان موت اييامينونداس وبيلويداس ضربة قاسية على مدينة طيبة التي لم يقم لها اسم ولم يعرف لها في التاريخ رسم الا بقيام هذين البطلين الشهيرين اذ بعد موتهم اسقطت الى الدركة التي كانت عليها سابقا غير أنها كانت لاشت قوة اسبارطة التي كانت لاشت قوة أثينا وبذلك أضعفت مدن اليونان بعضها بعضا ووقعت بينها المنازعات وتبدلت قوانينها بالنظم والجور وعند ذلك تكون جهة الشمال مملكة قوية وهي مملكة مقدونية التي حكمت بعد ذلك كل هذه المدائن التي كانت تحسد بعضها بعضا وأدخلتها في دائرة العبودية كما ستقف عليه في الفصل التالي

وبعد واقعة منتينا المذكورة اضطر اليونان لعقد صلح لا ينقض واستقر رأيهم على ان كل مدينة تحفظ حريتها فاستقامت أحوالهم فوعا بذلك وان كانت اسبارطة لم ترض بهذا الشرط وأرادت ان تتدخل في أعمال الفرس لضعافهم فارسلت للمصريين انخارجين على ملك الفرس انذاك جيشا لمساعدتهم تحت قيادة أجيسلاس فلم ينجح في تلك الواقعة بل رجع مخذولا ومات اجيسلاس في سن متقدم أثناء رجوعه

الباب الخامس

(الفصل الاول)

مقدونية

ان هذه المملكة اليونانية القديمة كانت واقعة في شمال بلاد اليونان وهي الآن داخله ضمن أقاليم بريزه وسلانيك والروملى الشرقى من تركيا أوروبا وقد نعت باسم قبيلة بيلاجية كانت تسمى ماسدن استوطنت تلك البلاد من زمن قديم وكانت تتحد جنوا ببحر اليونان وقساليا وغربا بسلسلة جبال بنده التي كانت تفصلها عن ايليريا وأيبيريا وشمالا بجبل أوريلوس الذى كان يفصلها عن البلاد المسماة داردانيا وشرقا بجبال رودوب التي تفصلها عن بلاد تراس وهي قطر فسيح خصب كثير المياه والغابات يصلح لان يكون مركز مملكة قوية وكان بعض قبائل الاغريق استوطنت في تلك الجهة وكان ملوك مقدونية يجهتدون كثيرا اعتبارهم من الجنس الاغريق ولهذا أمكنهم التسلط على بلاد اليونان فيما بعد وكانوا يدعون انهم من ذرية هرقل أما اليونان فكانوا يعاملونهم

(١) مدينة قديمة بقسم بيوتيا من بلاد اليونان (٢) مدينة قديمة بقسم أركاديا من بلاد اليونان

معاملة البربر والفرس وأشهر ثغورها سلا نيك وغولوس أما مبدأ تار يخها فجهول على الراجح تستره
ظلمات ولا يعلم عنه خبراً كيد قبل زمن فيلبش أبي اسكندر الكبير ولا بأس أن نلم ببعض ما قالوه
روي بعض المؤرخين أن مؤسس مملكة مقدونية هو كادفوس أو كادنس الارغوسى الذى ملكها
سنة (٧٩٤ ق م) وبقى الملك فى أعقابها الى ان قام فيها منتاس الاول سنة (٥٢٧ ق م) وفى
أيامه أرسل ميغابازوس قائد داريوس الاول ملك الفرس رسلا من طرفه الى مقدونية وطلب من
ملكها منتاس المذكور ان يسلمهم ماء وترابا لامة على خضوعه للفرس فقبل ذلك لانه كان ضعيف
الجنان ويقال انه أدب مآذبة فاخرة للسفر المذكورين فلما اجتمعوا فها دعوت خشونتهم أن يطلبوا
منه نساء فلم يظهر تنعاع غير أن ابنه اسكندر الاول عد ذلك اهانة كبيرة وصمم على الانتقام فالبس
جماعة من خدام القصر ملابس النساء وأدخلهم على الفرس ولما اختلوا بهم طعنوهم بالخناجر
فقتلوه عن بكرة أبيهم

وفى سنة (٤٩٨ ق م) مات منتاس وقام بعده اسكندر الاول (٤٩٦ - ٤٩٤ ق م)
ثم برديكاس وكان صغيرا ولم يرث من أبيه الامقدونية العليا ثم قام على أخيه واستظهر عليه بهما الفين
من الاجانب ثم نازع بعد ذلك بوزانياس وكان اختلس الملك فنال مقصده وتم له التملك على عموم
مقدونية كلها (٣٩٣ ق م) وهو أبو فيلبش أبو اسكندر الكبير ولم يرض زمن طويل حتى هاجمه
ارغوس بن بوزانياس وطرده من المملكة ولم يتمكن من استرجاعها الا بساعدة التسالين ثم حالف
اسبارطة ليقوى على خصومه وفى خلال ذلك كان ولده فيلبش يتعلم عند يونان ووقف على كيفية نظام جيوشهم
السياسة والحرب وغيرهما من العلوم المشهورة عند اليونان ووقف على كيفية نظام جيوشهم
وقتلهم وغيوبهم وتحاسدهم وأسباب كل الاضطرابات الحاصلة بتلك الجهوريات الصغيرة الفاسدة
التي يوجد بها على الدوام رجال يتاجرون بوطنهم وكان سبب ذهاب فيلبش الى طيبة هو ان
يلويداس ملك طيوه أرسله هو وغيره من أعيان البلاد الى طيبة لينتظم حالهم وتزول الفتن من بينهم
وذلك بينما كانوا دعوا يلوويداس لازالة الشحنةاء من بينهم وكان وقتئذ لا يتجاوز عمره العشرين سنوات
فأقام فيها ١٢ سنة ولما بلغه خبر قتل أخيه (٣٦٠ ق م) وان البلاد فوضى هرب من طيوه وعاد الى
بلاد فوجد أهلها يقاتلون من كان السبب فى قتل ملكهم ويحاربون أهالى ايليريا وكان لبرديكاس
الثالث ابن صغير يدعى اميتاس فأخذ فيلبش على نفسه ان يكون وصياله وقبض على الاحكام باسمه

ثم بعد قليل طلب المقدونيون من فيلبش أن يكون هو الملك لانهم لا يريدون أن يملكهم طفل
فاجاب طلبهم وملك مقدونية (٣٥٩ - ٣٣٦ ق م) وعجبر دما جلس على التخت شرع فى
الاصلاحات على اختلافها فرتب الجنود ترتيبا جيدا وسن لهم قوانين محكمة على مثال ما رآه من اهل
طيبة واخترع كيفية فى صف الجنود لم يسبقه اليها غيره وكان عدد تلك الجيوش يبلغ ١٦ ألفا تقريبا
منضمة الى بعضها وكانت طليعتها تتركب من ألف مقاتل وكان خلف هذا الصف الاول ١٥
صفا أخرى مختلطة الاسلحة وكانت الستة صفوف الاولى فقط لها حرايب يختلف طولها بين ستة أمتار
وسبعة بحيث إن حرايب الصف السادس تزيد بنحو المتر عن جنود الصف الاول ولو حدث وهجم العدو
عليهم لوجد نفسه امام غابة من الحرايب لا يمكن الدخول فيها أما الصفوف الاخرى فكان يجب عليها

مساعدته الصفوف الاولى وسوقها الى الامام وكانت هذه الجنود تسمى بالفالانج ولم يرفى ساحته من
ساحات القتال عددهم من الجنود يتحرك بانتظام كهذا معترض الاعداء كية عظيمة من الحديد كالتي
بايدي هؤلاء الجنود ثم اخذ فيليبس يستعد برا وبحر الاخضاع الممالك اليونانية وضمها الى مملكته
بعد ان استولى على المستعمرات اليونانية الكائنة على سواحل مقدونية

وفي خلالها كانت اثينا واسبارطة قد ضعفتا من الحروب مع الفرس وكانت طيبة ايضا قد
ضعفت في حروبها مع اسبارطة كما تقدم فآخذ يستعمل الخدع السياسية لايقاع الممالك اليونانية
ببعضها وكان له في ذلك مهارة عجيبة لما لله من التفوذيين أهلها وأكبرها فاساعدوه على تنقيده مقاصده
وقد أمد فيليبس باستخراج الذهب والفضة من معادن مقدونية فصار يستخرج منها قدر او اقرا كل
سنة فتمكن بقوة الدرهم أن ينال ما لا يمكنه فواله بالسلاح قطفر بقبيلة من قبائل الاثينيين
وأخضعها له فصارت تعينه في حروبه وخلص بلاد تساليا مما حل بها من الظلم وجند منها فرسانا
ضمهم الى جيوشه ووربما كان سارا لافتحاح بلاد اليونان بأسرع مما حصل اذ لم تعرف ل مساعيه
خطب الخطيب الشهير ذيوسيتين التي كشفت الغطاء عن نيانه وكان ذيوسيتين لا ينفك عن انذار
الاثينيين وابقاع الرعب في قلوبهم وكان له الكلمة النافذة لديهم وكان ذيوسيتين المذكور في
أول أمره ألكن اللسان ضعيف الصوت فاستعمل طرقا عادت عليه بالنجاح حتى فاق غيره من الوعاظ
ومع كل الفصاحة والبلاغة والتخريض والتحميس الذي استعمله ذيوسيتين في خطبه ضد
فيليبس ومقاصده فان شجاعة أهل اثينا كانت خدت لفساد أحوالهم وتبدل نظامهم وانهم ما كهم
في الشهوات وقبولهم الرشوة في الاحكام واعتمادهم على جنود مملكة أجنبية فلورجند ذيوسيتين في
زمن عز الاثينيين وحريتهم منع طمع أهل مقدونية فيهم

أما السبب الذي تمكن به فيليبس من دخول بلاد اليونان فهو حدوث الحرب المقدسة التي
استمرت عشرين سنوات وسيبت الاضمحلال والفقير في جميع المدن اليونانية وحاصل تلك الحرب
أن أهل مدينة فوسية كانوا استولوا على قطعة أرض من الاراضي المرصدة على المعبودا بولون الذي
بمدينة دلف وحرثوها غير ملتفتين الى قوانينهم الدينية فأشهر عليهم من بجاورهم من المدن السلاح
للانتقام منهم على ما فعلوه وحكم عليهم مجلس الانفكتيون بالكفر وبالعقاب الشديد وبقى فيليبس
يقا تل أهل فوسية ومن انضم اليهم عدة سنوات (٣٥٧ - ٣٤٦ ق م) حتى تمكن
من محو هذه الامة من عداد الامم الاغريقية وأخذ ما كان لها من الاصوات في مجلس
الانفكتيون باقرار اليونان أنفسهم مكافاة له على صنيعه وبذلك صار فيليبس مع دودا ضمن العائلة
الاغريقية وأعطوه أيضا حق الادارة على بعض الالعب العمومية وكان هذا النجاح خطوة أولى
خطاها فيليبس في مجال مشروعه وانما اكتسب عند اليونان احتراماً عظيماً ولما رجع الى بلاده أخذ
يستعد منتظراً الفرصة لتنجيز مقاصده وفتح حوالى مملكته عدة فتوحات ثم ذهب وحاصر مدينة
بورانطية لقطع الاقوات عن اثينالها كانت ترد لها من تلك المدينة وذلك في مقابلة اغراء أهل اثينا
الفرس للقيام على فيليبس واشهار الحرب عليه ثم وقعت العداوة بين فيليبس واثينا يتحرك بعض
ذيوسيتين كما تقدم وأرسل أهل اثينا البورنطية امداداً تحت قيادة أحد رجالها المشهورين المتصفين
بالفضائل والمعارف المدعو فوسيون وكان هذا الرجل يعارض ذيوسيتين ويأمر أهل اثينا بالصالح

لانه كان يرى ان الحرب لا ينشأ عنه الا المصائب فتمكن بذلك من المصالحة مع فيليبس الذي دعت به بعد ذلك مدائن اليونان يقود جيشا في حرب مقدسة ثانية ضد اللوكرين الذين كانوا دنسوا اراضي دلف بمخالفة الديانة أما فيليبس فعرض عن ان يسير ضد تلك الامة استولى على مدينة يلاتي المعتبرة كفتح ابلا ديوتيا واتيكت سنة (٣٣٨ ق م)

ولما استولى فيليبس على تلك المدينة وقع الرعب في قلوب سكان اثينا وأخذ ذيموستين يثير عوامل التهمج والتعصب ضد فيليبس بما كان يلقيه عليهم من الخطب البليغة وبما عييه اتحدت اثينا مع طيبة التي كانت مهادة لتفليبس ومعادية لاثينا ثم جهز المدينتان جيشا عظيما واستعدتا للحرب استعدادا قويا غير ملتفتين لاقوال فوسيون أحد عقلاء اثينا والمامأ خبره الكهنة من سوء العاقبة ولما رأى فيليبس ذلك طلب الصلح فامتنعوا فدخل بلاد ديوتيا وحصلت بينه وبين جيش طيبة وأثينا واقعة بالقرب من مدينة تسمى شير ونه وكانت عساكر الفريقين متقاربة في العدد والعدد ولما دارت رحى الحرب انتصر المقدونيون انتصارا عظيما سنة (٣٣٨ ق م) وأظهر اسكندر بن فيليبس في هذه الواقعة مهارة عجيبة أما ذيموستين فانه ولي هار بالانه كان جبانا في الحرب بقدر ما كان شديدا بالقوة في الوعظ وقد أخطأ الاثينيون في تنصيبه قائدا للجيشهم دون فوسيون ومما زاد فيليبس عزاء وخرا عند الاثينيين وأهل طيوه انه أطلق اسراهم بلا فدية وجدد المواثيق القديمة بين جمهوريتي اثينا وطيبة وكان منذ ما نولى يتفكر في محاربة الفرس لاذلا لهم وقد زاده هذا الانتصار الحديث تعلقا بأذيال هذه الفكرة فجمع أمراء اليونان بمحفل عام بمدينة كورانتسه وشاورهم في ذلك فافروا عليه ونصروه قائدا عاما للجيش التي ترسل الى بلاد الفرس غير انه لم يتمكن من اخراج هذه الفكرة من القوة الى الفعل لانه مات قبله بمدينة يلا عاصمته بعد ذلك بقليل بينما كان يتم بزواج ابنته المسماة كليوباتره ليتفرغ للحرب (٣٣٦ ق م) قتله شاب من الاعيان يسمى بوزانياس كان بينه وبينه عداوة قديمة ومدة حكمه ٢٤ سنة وقد اتصف بمجودة القريحة وعلا الهمة ومزيد الشجاعة وحسن التدبير وكرم الاخلاق وان كان له من الصفات المذمومة ما يجعله محموتا كغيره من ملوك اليونان

(الفصل الثاني)

اسكندر الاكبر

(٣٣٦ - ٣٢٣ ق م)

اعلم ان اسكندر هذا الملقب بالمقدوني والاكبر هو من نوادر الرجال ونوابغ القائمين الذين جاد بهم الزمان أما سبب تلقبه بالاكبر فانه لما لم يكن بحكم بلاد مقدونية واليونان تافت نفسه لاختضاع آسيا وغيرها فنجح في كل مشروعه وانه كما سترى وكانت تلوح عليه دلائل الفخر والشجاعة منذ نعومة اظفاره يحكى ان فيليبس والده كان كلما استولى على مدينة عظيمة كان اسكندر يقول لمن في سنه من الاطفال ان ابي ياخذ كل شيء ولا يترك لي عالا يريد اقوم به يوما من الايام

معكم وقد اعنتى والدته بريتسه وتهذيبه جدا فلمه لارسطاطاليس أعظم فلاسفة عصره ليقيم
 بريتسه وتهذيبه وكتب له عند ذلك كتابا خلاصته (انتي رزقت ولدا فحمدت الله على اعطائه لي
 في زمنك ومرادى انك تقوم بريتسه وتهذيبه بحيث يكون جديرا بان يخلفني على تخت مكدونية)
 وقد درس اسكندر على ارسطاطاليس السياسة والآداب وجميع العلوم المعروفة في زمنه وكان
 مولعا بقراءة قصائد هوميروس (١) الشاعر المتضمنة حروب ترواده وكان لا يترك هذا الكتاب
 من يده ومتى نام جعله تحت وسادته

ولما جلس اسكندر على التخت وعمره ٢٠ سنة أظهر اليونان الفرح والسرور لموت
 فيلبش وشقوا عصا الطاعة طمعا في نوال الاستقلال وقام ذيموستين محمضا مشجعا واعد امتوعدا
 طالبارا فضا محببا الخروج على اسكندر لانه كان يصغفه بصغر السن والبله وان مملكته مشرفة على
 الدمار فقامت المدن اليونانية باجمعها وأشهرت السلاح على اسكندر وذبحت الجنود المقدونية
 المزابطة بها تخاف أهل مقدونية من ذلك وأشاروا على اسكندر أن يسلك معهم سبيل الصلح
 والرفق لصغرسنه وعدم قدرته على قمع جميع هؤلاء الاخصام فلم يقبل منهم قولا ووجد جيوشه
 واقتص أولامن أهل ترانه والايالرين وغيرهما لشقهم عصا الطاعة ثم أقبل نحو طيبة
 وافتتحها عنوة واسترق جميع أهلها ولم يبق على الحرية غير الكهنة وذرية بنداو الشاعر ثم هدمها
 ولم يبق منها غير بيت ذلك الشاعر المذكور احتراماله ولما بلغ الاثينيين فتح طيبة أخذهم الرعب
 وأرسلوا يلتمسون الصلح والعفو من اسكندر فأجابهم لمطلوبهم ثم ذهب الى كورانتس وعقد بها
 مجلسا عاما من كافة بقاع بلاد اليونان وأظهر لهم عزمه على فتح بلاد فارس وطلب منهم أن يجعلوه
 القائد العام لهذا الحرب فقبلوا جميعا ثم عاد اسكندر الى مملكته ليستعد لفتح اسيا ولم يرض
 بالزواج فرارا من ضياع الزمن في العرس ثم انه فرق ما جمعه من الاموال على امرائه وقوادجوشه
 ولم يبق لنفسه شيأ حتى قال له أحدهم ما الذي أعددت للانفاق على نفسك فقال الرجاء ثم أناب عنه
 بمقدونية انتيبار وأبقاه مع العبد الكافي من الجنود والاساطيل وخرج من عاصمته ومعهم من
 الجنود (٣٥٠٠٠) مقاتل يقودهم ضباط مجربون (٣٣٤ ق م) وعبر مضيق الدردنيل
 على ١٦٠ سفينة

أما مملكة الفرس وقت هذه المحاربة فكانت مشرفة على الدمار تقرربا لان اتساع ارجائها
 وسوء سياساتها واسترقاقها للامم الخاضعة وجبروت ملوكها الغارقين في بحار الملاذ والتنعم
 ان لم يكن موجبا للخراب كان معين عليه وزيادة على ذلك كانت المرازبة لبعدهم عن عاصمة
 المملكة يكادون ان يكونوا ملوكا مستقلين وكانت الاضطرابات والدياسات لا تفارق ايوان الملوك
 فمن ذلك ان ملكها المسمى أخوس الذي وولي بعده ارتكز بريسيس كان قتل اخوته ققتله الطواشي
 بغواس ثم وولي بعده اريسيس ثم قتل اريسيس أيضا وولي بعده دارا الذي قتل ذلك الطواشي ولولا ذلك

(١) هو شاعر شهير يوناني يعتبر انه أعظم الشعراء له قصائد طنانة في حرب ترواده وادسارت بد كرها الركبان ويقال انه
 كان نصريرا ينفذ من مدينة الى أخرى ينشد أشعاره و يظن انه كان في أواخر القرن العاشر قبل الميلاد في نحو
 سنة (٩٠٧ ق م) ولا يعلم متى تحقق عن شخصه حتى ان البعض أنكرو وجوده بالمرءة وقد ادعى أهالي سبع مدن
 يونانية انه والدها ويحتمل انه ولد لهما مازميرا أو مجز رساقز اه

لقتله وكان دارا الملقب كودومان هو ملك الفرس وقت اغارة اسكندر على بلادهم ولمواصل
الى ترواده فقدم ذبائح لابطال الاقدمين الذين قتلوا فيها فاستمال بذلك أكثر قلوب اليونان
ثم دخل بلاد الفرس ولما علموا بقصد مخرج جوار القتاله بيحش جزا مؤلف من مائة ألف مقاتل ثم
التقى الجيشان عند شاطىء نهر غراتيكوس (١) وجرت بينهما أول الوقائع فانهمز الفرس ونأثرهم
اسكندرو في وقت المعركة هجم اثنان من أمراء الفرس على اسكندر وولوا مساعده أحد الامراء
المقدونيين المدعو كليتوس لقتلاه ثم تقدم اسكندر على طول شواطىء آسيا الصغرى حتى استولى على
بلاد فرجيا فحضرته مدينة الكارناس المتحصن بها ممنون الرودى أحد قواد الفرس الشهيرين
مخاصرها واستولى عليها وخر بها

وكان للفرس عمارة قوية جدا لانها كانت مؤلفة من أساطيل المصريين والنينقيين
وولايات آسيا الصغرى البحرية وعلم اسكندر ذلك وان سفنه قليلة لا يمكنها الثبات أمام عمارة الفرس
فتركها قائلا لا عوانه انى أملك البحر باستيلاى على البر ثم أرسل يطلب جنودا جديدة من بلاد
اليونان وعزم على صرف وقت من الزمن ببلاد فرجيا لتستريح جنوده ويستعد للاقاء الفرس
وفي سنة (٣٣٣ ق م) عاد داريوس بجيوش عظيمة يتجاوز عددها ٥٥٠,٠٠٠ مقاتل
حسب رواية اليونان فلاقاء اسكندر في واد بالقرب من ايسوس في كيليكيا وجرت بينهما الواقعة
الثانية وكانت أشد من الاولى ثم فيها دارا بعد ما هلك من جيشه عند دلايحصى وفرهار باو قطع
نهر الفرات غير مصدق بالتجاة فاستولى اسكندر على أمواله وأسرامه وزوجته ستاتيرا وابنه وابنتيه
وكن يتبعه في القتال فعاملهم بالرفق والحلم ثم تقدم الى سوريا واستولى عليها واقتح أحد قواده
مدينة دمشق ووجد بها للفرس أموالا لا تحصى عن الحصص ثم سار الى فينيقية واستولى عليها أيضا الا
مدينة صور فانها امتنعت عليه فحاصرها بجيوشه برا و باساطيل بحرا ثم فتحها عنوة بعد حصار دام سبعة
شهور وقتل من أهلها خلقا كثيرا وعلق ألفين من رجالها على أسوارها وابع من أهلها ٣٠,٠٠٠
أسير وصادر عظماءها ثم تركها فاصداغزة وكانت منبعا جدا فلم تسلم الا بعد حصار شاق ولما فتحها
ذبح معظم سكانها ثم سار ودخل أورشليم وعامل أهلها بالرفق واحترم هيكلهم وكهنتهم ثم تقدم
الى مصر سنة (٣٣٢ ق م) وكانت تابعة للفرس ولم يبدسكانها مقاومة لكرهاتهم للفرس
سيما وان حامية الفرس كانت بها قليلة ولم يغير شيئا من عواندها القديمة بل أبقاها على حالتها الاصلية
فلهذا مال المصريون اليه وأحبوه وترغوا بمديحه

(والناس أكنس من أن يمدحوا رجلا * حتى يروا عنده آثار احسان)

ثم تقدم جهة الغرب لزيارة معبد امون (٢) بسبويه ولقبه كاهنه الاعظم بيا الشمس وعسدر جوعه

(١) نهر باسيا الصغرى ببلاد ميسيا أو ترواده وهو أحد النهرات التي تصب في نهر برو بوتيد ويسمى الآن

استولاصو وقد اشهر هذا النهر بهذا الانتصار وبالنصر التي نالها كولو س على متر يدات سنة ٧٣ ق م اه

(٢) هو معبود الشمس وكانت مدينة طيبة المصرية المقر الاصلى لعبادته ثم انتقل الى الواحة العظيمة التي سماها

اليونان واحضجوا بتيرامون وتسمى الآن سبويه على بعد (٣٥٦) كيلومترا من الجنوب الغربى من اسكندرية

ولا يزال يشاهد بها الآثار اطلال هيكل امون وبركة الشمس وكان الرومان واليونان يصورون هذا المعبود برأس

كباش كما كان يفعل المصريون من قبل وقد زار اسكندر الكبير معبد هذا المعبود وكان أهل طيبة المصرية يسمونه

أمين رع أى أمين الشمس

اخط مدينة الاسكندرية لتكون مركز التجارة الشرق والغرب فوفد اليها كثير من الاجانب
وامتدت بها العمارة

ثم استخلف على مصر كليومينوس أحد قواده وعاد الى آسيا ثانية بعد ما خضعت له سواحل
البحر الابيض الشرقية وما جا ورها من الجزائر ولما دخل اسكندر آسيا بعث اليه داريوس وقد ا
فارسيا يطلب منه فداء زوجته وأهل بيته بجمال وافر وانه يعقد معه الصلح ويزوجه ابنته ويجعل
مهرها كل الاراضي الواقعة بين نهر الفرات وبحر الروم فأجابته اسكندرا انه مستعد لذلك بشرط ان يأتي
دارا بنفسه يطلب ذلك منه فعظم هذا على دارا ولم يقبل التنازل الى هذا الحد وأخيرا عزم اسكندر على
مطاردة دارا وكان قد توارى في البلاد الكبيرة التي بقيت له فاجتاز نهرى الفرات والدجلة بجيش
مؤلف من ٦٠,٠٠٠ عسكري والتقى بجيوش فارس بالقرب من مدينة اربل وكانت تزيد عن
٩٠٠,٠٠٠ رجل و ٥٠,٠٠٠ فارس جميعهم مسلحون بالسيف والرمح ومعهم ما تنامر كبة
حرية و ١٥ فيلوا ويقال انها أول مرة خرجت فيها الافال للعرب في غير بلادها ولما رأى
المقدونيون كثرة الفرس وحلوا وأشاروا على اسكندر أن يجمع عليهم ليدافعوا انى لأحباب
أختلس النصر

ولما انتشب الحرب خرج على اسكندر كمين كان دبره له دارا فلم ينجح وفسدت الخيل الحربية
التي أتاها الفرس كلها ولما رأى اسكندر فرزع المقدونيين من هزيمة جناحهم الايسر أو عزالى منجم
كان معه ان يبشر المقدونيين بالنصر فنادى المنجم بصوت عال فانتعشت النفوس وبعد كفاح طويل
أظهر فيه الفريقان شجاعة غريبة انتصر اسكندر على الفرس بعد ان قتل منهم عددا وافرا وانهم
دارا وفرها بالى بكتريا (بلاد بلخ) ودخل الرعب في قلوب الفرس واستولى اسكندر على بابل وسوس
وبرسيو وليس عواصم البلاد واغتم أموالهم وفتح بعدها جميع البلاد وتبع دارا الى ان وجده
مقتولا في الدامغان سنة (٣٣٠ ق م) قتله رئيس حرسه وكان فرعه من اسكندر لذلك وأمر بأن
يدفن دارا باحتفال يليق به بمقابر ملوك الفرس وسلم القاتل لعائلة دارا التقتص منه فقتلوه شرقه

ولما انتصر اسكندر بواقعة اربل وقتل دارا خلا له الخو وثبت قدمه بالمنار ع فاخذ في اصلاح
البلاد المفتوحة وترتيبها وفرق على رفاقه وحتى على جنوده الاموال والذخائر التي وجدت بجزائر
ملوك الفرس وغيرهم وأرسل الى والدته الوميباس هدايا فاخرة ثمينة مما غنمه وكان لا يرضى أنها
تدخل في أعمال الحكومة أصلا وكان انبياتير الذي أبقاه بمقدونية نائبا عنه قد اشتكى لهم
تداخل أمه في الاعمال ويقال ان انبياتير كتب له مرة كتابا يتضرر فيه من سلوك أمه فكتب له
اسكندر يقول بعد أن قرأه ألا تعلم يا انبياتير ان عشرة آلاف كتاب ككتابك هذا تمسحها عبيرة
واحدة من عبرات الام ومن جيد أعماله وجليل صفاته ما يروى عنه انه بينما كان يتعقب دارا اخترق
بجيشه أرضا مقفرة عديمة المياه فاشتكى الجيش قلة المياه وأنه كالعطش حتى أشرف على الهلاك
وبينما هم كذلك اذ رأى اسكندر جماعة من المقدونيين يحملون ماء في قرب محمولة على بغال ولما رأوه
وكان ذلك وقت الهجرة وقد أعياه العطش جدا أخذوا خوزة من خوزهم وملؤوها ماء وأحضروها
له فسألهم اسكندر قائلا لمن هذا الماء فقالوا اولادنا ولما كتبنا اليك على فقد هم مادمت أنت حيا

فتناول منهم الخوذة ثم التفت الى فرسانه فوجدهم يتطلعون الى الماء فرد لمن أحضره له ولم يشرب
منه نقطة واحدة وشكرهم على فعلهم فائلا لوشربت منه بفردي فان هؤلاء القوم يفقدون شجاعتهم
ولما سمع منه الفرسان ذلك تعجبوا من قناعته وعلاؤ نفسه وصاحوا قائلين انهم يتبعونه لاي مكان اراده
ولا يظنون الموت مادام عليهم ملك مثله

ولما أصبحت أموال بلاد آسياني يد اسكندرو رأى بهاملا ذالملك ونعيم المعيشة التي أفسدت
أخلاق الفرس من قبل عاث في الاراضي واستعمل الجبروت ومال الى الامة وما يناسبها من الاحوال
وصار يسر من المدح والتعليق فتذمر من ذلك المقدونيون سيما لما رأوا ان ملكهم خلع الملابس
اليونانية واستعمل الملابس الفارسية ودعاهم الى تعظيمه وتبجيله تبجيلا يقرب من العبادة ومن طغيانه
ان امره يقتل عدده من خواصه مثل بارمايون القائد المحنك وابنه بلتاس وكبتوس الذي نجاه من
القتل في واقعة غرانيسكوس كما سبق ومنها جبنه بالينوس الفيلسوف لانه عارض القول بتأليه
اسكندر

ثم سار اسكندر بجيشه وبتوغل بسيلاد مقفرة ودخل البلاد المسماة الآن بافغانستان
وتركستان التي لا تمكن عساكر الامم المتعددة الا ان مع ما هي عليه من جودة التدريب والمعدات
ان تقطعها الاجشاق عظيمة وجبال في تلك البلاد عدة سنوات وأسس كثيرا من المدن سماها
باسمه وبذلك نشر في وسط آسية أفكار الاغريق وعوائدهم وعلاوهم ثم طمع اسكندر وتقدم لفتح
بلاد الهند وفي خلال ذلك تزوج بأسيرته روكسانا ابنة ملك الفرس سنة (٣٢٧ ق م) وهزم
يوروس (فيروز) أعظم ملوك الهند بقرب نهر هيداسب بسيلاد بنجاب وأسره ثم أرجع اليه ملكه
وحالفه لاراه فيه من علاؤ النفس

ولما رأى عسكره ان لا حدا لطماع رئيسهم اسكندر حينما وصلوا الى نهر يجاأوا التقدم فأمر
اسكندر بالرجوع وفي (سنة ٣٢٧ ق م) المذكورة ركب مع قسم من جيشه سفن في نهر هيداسب
فسارت بهم الى نهر السند حتى وصل الى مصبه ثم عاد وفي صيف سنة (٣٢٦ ق م) وصل الى
ساحل المحيط الهندي وأمر ريان أساطيله بالسير من مصب نهر السند الى نهر الدجلة وتقدم
اسكندر الى ساحل الخليج الفارسي وأرسل اسطولا تحت قيادة ربه نيارك ليحول ببحر الهند وخليج
عمان وقد عادت هذه السياحة على الجغرافية بالقوائد الجزيلة وكان طامحا الى حصول مجد في البحار
أيضا فخطر بباله أن يدور حول بلاد العرب ببحر او ببحارها فأمر ببناء اسطول كبير في فرض فينيقية
وأتى بالسفن قطعا الى بابل ونقلت منها الى بعض الفرض لتركيها وتسييرها في البحر ثم قصد الرجوع
الى بابل في سنة (٣٢٤ ق م) فعاد اليها من طريق غير طريقه الا اول حيث رجع من بلاد بلوخستان
وقد فقد من جيشه قسما عظيما لانه لم يعد الا بربعه ويقال انه قبل وصوله اليها آتاه قوم من العراق لهم
معرفة بالتنجيم وأخبروه بحسب ما ظهر لهم انه اذا دخل مدينة بابل يموت بها فكذب قولهم فلاسفة
اليونان المرافقون لاسكندر

ثم دخل بابل في عربة فاخرة ببحرها ثمانية خيول من الجياد باهية وعظيمة لم ير مثلها واهم ملك في

الملاذ فأصابته حتى منقطعة كانت سبباً في وفاته لانه كان أفرط ليلة من الشراب في مجلس اللذات كما هي عادته (٣٢٣ ق م) بعد ان حكم ١٢ سنة وعمره لا يتجاوز ٣٣ سنة ولم يوص بين يخلفه من بعده وكانت الدولة التي أخضعها اسكندر تمتد شمالاً الى نهر الدانوب والبحر الاسود وبلاد القوقاز وبحر قزوين وتجاوز نهر السند شرقاً ويمدحها جنوباً بطحليج عمان وصحراء بلاد العرب والبحر الاحمر وبلاد ايتيوبيا وغرباً بالبحر الادرياتيكي وكانت هذه الدولة تشمل باور وپا على بلاد اليونان ومقدونية (وهي الان عبارة عن بلاد اليونان وتركيا أوروبا) وتشمل بافر بيقية على مصر وبلاد ليبيا وفي اسياعلى اسيال الصغرى وسوريا وفلسطين واشور (جميع اسيال العثمانية الان) وبلاد الفرس وأقاليمها الشرقية (بلاد الفرس الحالية وتركستان وافغانستان وبلوخستان) وقسم من بلاد الهند (بلاد پنجاب) ولما عاد اسكندر من بلاد الهند الى بلاد الفرس اهتم في تنظيم الدولة وفي السير في الطريق الذي كان شرع فيه الا وهو مزج الجنس الاغريقي بالجناس اسيال وكان يتفكر في جعل اسيال مشابهة لبلاد الاغريق ولهذا كان يسكن اليونان في كل جهاتها وينظم مدنهم وينتقب الجبال لعمل الطرق ويصلح مجرى الفرات والدجلة لللاحة ويشجع الادباء والكتاب وغيرهم وعمل حوض المدينة بابل يسع ألف سفينة وأرسل سفناً تجول في خليج العجم لاستكشاف سواحلها والوقوف على احوال سكانها

وقد أورد مؤرخو العرب على موت الاسكندر المقدوني روايات جمعت من الحكمة أقوالاً نفيسة وكلمات عالية قالها الفلاسفة بعد موته وقد رأينا أن تأتي بها هنالمما اشتملت عليه من جليل الاقوال قال المسعودي في مروج الذهب بعد كلام

فلما مات الاسكندر طافت به الحكماء من كان معه من حكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم من علماء الامم وكان يجمعهم ويستريح الى كلامهم ولا يبصر الامور الا عن رأيهم وجعل بعد ان مات في تابوت من الذهب ورصع بالجوهر بعد ان طلى جسمه بالاطلية الماسكة لاجرائه فقال عظيم الحكماء والمقدم فيهم ليتكلم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزياً وبالعامه واعظاً وقام فوضع يده على التابوت فقال أصبح اسر الاسراء أسيراً ثم قام حكيم ثاب فقال هذا الاسكندر الذي كان يخبأ الذهب فصار الذهب يخبأه وقال الحكميم الثالث ما أزهت الناس في هذا الجسد وأرغبهم في هذا التابوت وقال الحكميم الرابع من أعجب العجب أن القوى قد غلب والضعفاء لاهون مغترون وقال الخامس يا ذا الذي جعل أجله ضمناً و جعل أمله عياناً هلا باعدت من أجلك لتبلغ بعض أملاك هلا حقت من أملاك الامتناع عن فوت أجلك وقال السادس أيها الساعي المنتصب جعت ما خذك عن الاحتياج فعودت عليك أوزاره وفارقت أيامه فغناه لغيرك ووباله عليك وقال السابع قد كنت لنا واعظاً فاعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك فمن كان له عقل فليعقل ومن كان مغترفاً فليغتر وقال الثامن رب هائب لك مكان يعتابك من ورائك وهو اليوم بمحضرتك لا يخافك وقال التاسع رب حريص على سكوتك اذ لا تسكت وهو اليوم حريص على كلامك اذ لا تتكلم وقال العاشر أماتت هذه النفس للسلامت وقد ماتت وقال الحادي عشر وكان صاحب خزانة كتب الحكمة قد كنت تأمرني أن لا أبعد عنك فالיום لا أقدر على الدومنيك وقال الثاني عشر هذا اليوم عظيم العبر أقبل من شره ما كان مدبراً وأدبر من خيريه ما كان مقبلاً فمن كان با كياً على من زال ملكه

فليك وقال الثالث عشر يا عظيم السلطان اضع لسلطانك كما اضع لظل السحاب وعفت
 آثار مملكتك كما عفت آثار الرباب وقال الرابع عشر يا من ضاقت عليه الارض طولاً وعرضاً ليت
 شعري كيف حالك فيما احتوى عليك منها وقال الخامس عشر أعجب لمن كانت هذبه سيده كيف
 شرهت نفسه بجمع الخطام الهائد والهشيم البائد وقال السادس عشر أيها الجمع الخافل والمتقى
 الفاضل لا ترغبوا فيما لا يدوم سروره وتقطع لذته فقد بان لكم الصلاح والرشد من الغي والفساد
 وقال السابع عشر انظروا الى حلم النائم كيف انقضى وظل الغمام كيف انجلى وقال الثامن
 عشر وكان من حكماء الهنديين ان كان غضبه الموت هـ لا غضبت على الموت وقال التاسع عشر قد
 رأيتهم أيها الجمع هذا الملك الماضي فليتغظه بالآن هذا الباقي وقال العشرون هذا الذي دار
 كثيراً والآن يقرطويلاً وقال الحادي والعشرون ان الذي كانت الاذان تنصت له قد سكنت
 فليتكلم الآن كل ساكت وقال الثاني والعشرون سيحلق بك من سره موتك كما لحقت بمن سرك
 موته وقال الثالث والعشرون مالك لا تنقل عضواً من أعضائك وقد كنت تستقل ملكاً الارض
 بل مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان الذي أنت به وقد كنت ترغب بها عن رحب البلاد وقال
 الرابع والعشرون وكان من نساء الهند وحكمائها ان دنياها يكون هكذا آخرها فالزهد أولى
 ان يكون في أولها وقال الخامس والعشرون وكان صاحب مائده قد فرشت التمارق ونضدت
 الزوائد وهيئت الموائد ولا أرى عييد المجلس وقال السادس والعشرون وكان صاحب بيت
 ماله قد كنت تأمرني بالجمع والادخار فالي من أدفع ذخائرك وقال السابع والعشرون وكان خازن
 من خزانه هذه مقاييس خرائتك فمن يقبضها قبل أن تؤخذ بما آخذ منها وقال الثامن والعشرون
 هذه الدنيا الطويلة العريضة طويبت منها في سبعة أشهر القبول التاسع والعشرون قول زوجته
 رو كسانه بنت دارا ملك الفرس ما كنت أحسب أن غالب دارا يغلب وان كان هذا الكلام
 الذي سمعت منكم معاشراً للحكام فيه شرابه فقد خلف الكأس الذي تشرب به الجماعة اهـ

وبعد موت اسكندر قامت الفتن بين قواده بسبب أطماعهم حتى أشغلتهم تلك الفتن عن
 الاحتفال بتشييع جنازة سيدهم ولما انفرحت الازمة تقلد برديكاس نيابة الملك باتفاق رفقائه قواد
 الجيوش حين مات لدر وكسانه وكانت حاملاً عند وفاة زوجها فعارضت الجيوش في ذلك ورغبت
 أن يكون النائب اريدياوس أخوا اسكندر فقبل ذلك تحت وصاية برديكاس سيما وان اسكندر كان
 سلمه خاتمه قبل موته أمام بقية القواد ولم يمض زمن طويل حتى قسم برديكاس ممالك سيده على
 اربعة وثلاثين قائداً من القواد الكبار وجعل نفسه رئيساً على الكل وفي تلك الاثناء وضعت
 رو كسانه ولداً سمي اسكندر على اسم أبيه وأخذ برديكاس على نفسه أمر تربيته وتعليمه

ثم قامت عليه الفتن بايعازاً نيباتير الذي جعله اسكندر الاكبر قبل خروجه من البلاد نائباً عنه
 فيها ثم نهضت اليونان لطلب الاستقلال فأخذ برديكاس يهتم لاجناد الثورة وقسم جيشه الى
 قسمين وضع أحدهما تحت قيادة لايمانوس والى كبادوكيا وساقه لمحاربة نيباتير وكراتيروس
 وزحف هو بالقسم الاخر نحو ابيطليموس لاغوس والى الديار المصرية ودارت رحى الحروب بينهم ما
 مدة ثم انتصر لايمانوس على كراتيروس وقتله وعادت رجاله منهزمين حتى قابوا نيباتير وأعلموه

بما حل بفرقتهم أما الجيش الذي تقدم به برديكاس فإنه لما وصل الى حدود القطر المصري وابتدأت المحاربة
 بينه وبين جيش بطليموس فبعد عدة وقائع انتصرت فيها القواد بطليموسية خربت عساكر برديكاس
 عن الطاعة وقتلوا قائدهم المذكور في سرداقه تخلصا من مشقاته الوقائع وسلموا أنفسهم لبطليموس
 (٣٢١ ق م) وفي أثناء ذلك وصلت جثة اسكندر الاكبر الى الديار المصرية من بابل على عربة
 مفخرة علوها ثمان وثلاثون قدما وعرضها أربع عشرة قدما وطولها اثنتان وعشرون قدما يجرها
 أربعة وستون فرسا من جبال انجيل وقال المؤرخ أسيدوروس أو أسيدور إن العرب المذكرة
 وجميع الامتعة والصندوق التي فيها كانت مزينة بأعني الجواهر ومضخخة بأذكي العطريات ولما
 وصلت الى منفيس صدر أمر بطليموس لاغوس بنقلها الى نجر الاسكندرية ودفنت في المقبرة التي
 بنيت لها في مدفن ميروس مكان المعبد القديم وهو في وسط المدينة ويقال ان موقعه تحت كوم الديعاس
 الواقع غربي كوم الناظورة الآن وقال المؤرخ المذكور ان المدفن زين من جوانبه الاربع بألواح
 منقوش بها هيئة قوة اسكندر وصورة الافيل التي حاربها في واقعة دارا ورسم أسطوله والمركبة التي
 حارب بها اسكندر أعداءه وصورة الاسلحة التي كانت مستعملة في جيشه وأنه دفن في صندوق من الذهب
 المرصع وقال آخرون ان والدته أمرت به فجعل في تابوت من المرمر وطل بالاطمية الماسكة لاجزائه
 وأخرجته عن الذهب لعلها ان من يطرأ بعدهما من الملوك والام لا يتركونه في ذلك الذهب وجعل
 التابوت المرمر على أحجار فضت وصخور نصبت من الرخام والمرمر وقيل ان السبب الذي جعل
 بطليموس لاغوس يخالف وصية اسكندر في عدم دفنه في هيكل جوبيتر أمون أي هيكل المشتري الذي
 بوأطت سيوه مبنى على كون الطوالع دلت أن المكان الذي يدفن فيه اسكندر ينال ثروة عظيمة
 عن جميع البقاع فلذلك أتر بطليموس دفنه في المدينة التي صارت بعد ذلك بقليل عاصمة دولته
 ولما قام انتيباتير ببناء الملك اليونان هربت أوليمياس أم اسكندر الى بلادايبيروس مع
 روكسانة زوجته وابنها الملك الصغير وبعد قليل مات انتيباتير المذكور وخلفه پوليسرخون ثم
 تحزب أقوام ضده هذا النائب وبينما كانت الحرب قائمة ببلاد اليونان تحزب قوم من القواد على
 اتيفونوس أمير بلاد آسيا فكسرهم جميعا (٣٠٧ ق م) ونودي به ملكا ثم جددوا الحرب
 ثانيا في آسيا وانتصر على اتيفونوس وابنه ديموتريوس وقتلوهما (٣٠١ ق م) وانقسمت مملكة
 اسكندر بين أربعة قواد

الاولى مصر امتلكها بطليموس سوتير مع العرب وجزء من سوريا الثانية مقدونية وبلاد
 اليونان أخذها كاساندر الثالثة بلاد تراس ويسينيا وبعض أجزاء آسيا الصغرى أخذها زيماخوس
 الرابعة بقية الممالك من البحر الاسود الى نهر السند في الهند أخذها سلاوس وسميت مملكة سوريا (١)

(١) المملكة السورية أي مملكة السلوقيين هي أكبر الممالك التي انفصلت عن الدولة المقدونية ومؤسسها سلوقس
 الاول نيكاتور رأى الظافر وهو أحد قواد اسكندر الذين اقتسموا مملكته وأثاروا الاطماع عليهم فقتلوا وحروا باعظمية
 وابتداء هذه المملكة سنة (٣١٢ ق م) وكان سلوقس شهما حسن الطالع ولما قهره اوليزيماخوس
 صاحب تراسه اتيفولانس في واقعة افوس واستولى على جميع املاكه في الشرق أصبحت مملكته حيث تخذ عظيمة
 جدا امتلكت على كل إقليم آسيا التي أخضعها المقدونيون ومن أعمال سلوقس تأسيسه مدينة أنطاكية سنة
 (٣٠٠ ق م) تذكرا لآبائه انطيوخس وجعلها عاصمة مملكته ولا تزال اطلال هذا المدينة تشاهد لآن

وفي خلال ذلك أي سنة (٢١١ ق م) قتل كساندراسكندر ابن روكسانه وقتل والدته ولم يبق من عائلة اسكندر العيسية أحد من الذكور وبذلك اضمحلت ثم انقرضت بتمامها في سنة (٣٠٠ ق م)

ثم أخذت مقدونية في الانحطاط بالفتن الداخلية واتحدت مع الحزب الاخائي على اقوام الايطوليين سكان شمالي مورث واستمرت الحروب بينهم من سنة ٢٢١ الى ٢١٩ ق م التي انتصرت فيها جيوش المتحدين على الايطوليين في واقعة اسيلازيا وعقدت بينهم معاهدة تسميه اراتوس قائد الاتحاد الاخائي الشهير وبعد ذلك دخل الاتحاد الاخائي بتمامه تحت سلطة مقدونية مدة فيليبس الثالث المقدوني وصار اراتوس المذكور وزيره الاعظم ولم يرض زمن طويل حتى قامت حروب بين الاخائين والمقدونيين تعرف بحرب الخزيين فظن فيليبس ان ذلك بتعريضات القائد اراتوس

بالقرب من انطاكية الحالية وحصل بينه وبين ليزيخاوس حرب كانت النصر فيها له سنة (٢٨٠ ق م) وبعد ذلك بقليل مات سيلوقس قتيلا وبغوته قامت رعاياه من رقة الخمول ونار بعضهم في طلب الاستقلال فقصرت لذلك عدة بلاد مثل بزماس وكبادوكيا وغيرها

وقام بعده ابنه انطيوخس الاول الملقب بسوطير ولم يحدث في زمنه أمر ذو بال ومات سنة (٢٦١ ق م) وبعده جلس ابنه انطيوخس الثاني وحصل بينه وبين المصريين حرب قهر فيه بطليموس وكان سببا لاستقلال بعض ممالكه سنة (٢٢٥ ق م) ثم حدث حرب أخرى هائلة بين بطليموس ارجيس ملك مصر وسيلوقس الثاني ملك سوريا الذي جلس على تختها بعد موت انطيوخس المتقدم كانت نتيجتها استيلاء ملك مصر على قسم عظيم من سوريا ومع ذلك قام سيلوقس وأخوه انطيوخس بتنازعان الملكة وبنيران حربا وقتنا أهلية امتدت في جميع اقطار المملكة وكادت تذهب بها ودام القتال بين الاخوين ثلاثه أعوام ثم انتهى بانتصار سيلوقس انتصارا تاما وقرار انطيوخس الى مصر ثم قتله فيما بعد وكان موت سيلوقس سنة (٢٢٦ ق م) وقام من بعده ابنه سيلوقس الثالث كارانوس وكان خامل الذكر وجلس من بعده انطيوخس الثالث المعروف بالكبير سنة (٢٢٣ ق م) وهو أعظم أمير جلس على عرش سوريا بعد سيلوقس مؤسس المملكة وكان شجاعا صائب الرأي ذي كياسة ما حكما وهو وان كان انكسر مرارا في الحروب مع الرومانيين غير ان ذلك لا يحبط قدره ولا يضعف ذكره ثم تقوى واستولى على بلاد البقاع واقليم فينيقية وقلطية من يد ملك مصر فكان ذلك سببا لوقوع القتال بينه وبين ملك مصر سنة (٢١٨ ق م) بالقرب من مدينة رفح كانت النصر فيه لبطليموس ملك مصر واسترد منه البلاد التي افتتحها غير انه استرجعها ثانية حينما حالف فيليبس ملك مقدونية وتعاونه على اقتسام المملكة المصرية وما زال هذا الملك يهز الجيوش و يتنقل من معمة الى معمة حتى أخضع جميع المداين المستقلة في آسيا الصغرى واستولى على قسم كبير من بلاد أوروبا ووطد سلطته على الاقاليم الواسعة بجنوده الجرار وتوسفته الكثيرة المتجولة في البحر المتوسط وما تنفر عنه من الخيلان وهو الذي التجأ اليه انبيال القرطجيين الشهير وكان هذا القائد اشارة عليه ان يقبل قيادة الجيش ليهجم على ايضاليا فلم يرض انطيوخس بذلك

ولما رأى الرومان الاخطار المحيطة بممالكهم من نجاح انطيوخس أعلنوا عليه حربا ثم اتفق الجيشان سنة (١٩١ ق م) بالقرب من مضيق ترمويل فكانت اللدائرة على انطيوخس وفر هاربا الى افسوس ثم وقعت الحرب ثانية بينه وبين الرومان فانتصر واعليه في البر والبحر وعقدوا معاهدة شروطن من ضمنها خروج عساكره من أوروبا وان يدفع لهم قدر اعظم من المال فرامة ويسلم للرومان جميع اقباله وسقنه الحربية ما خلا عشر او يسلم اليهم انبيال ويرسل الى رومية عشر بن رجال منهم ابنه انطيوخس بصفه رهائن

ولما لم يكن عنده انطيوخس هذا المبلغ ذهب الى بلاد فارس لينهب القواد المدخرة بأحدبها كلها فاستدوا اليه الحراس وقتلوه سنة (١٨٧ ق م) وقام من بعده ابنه سيلوقس قتيلا باور وهو خامل الذكر ولما مات جلس من بعده أخوه انطيوخس الرابع سنة (١٧٥ ق م) وكان ظالما قسوا ماجبارا عنيدا أشهر على مصر بين حربا استمرت

المدكور قدس له السم فقتله (٢١٣ ق م) وبذلك استتب له الحكم على بلاد اليونان واستمر في أعقابها مع القلاقل المستديرة وفي سنة (١٤٥ ق م) استولى الرومانيون على مقدونية وعموم بلاد اليونان وضموها الى أملاكهم بعد حروب قصيرة فأصبحت مملكة اليونان جزءا من مملكة الرومان وأضاعت استقلالها ولبنت تحت حكمهم بتعيين عليها نائب قنصل من رومية حتى انقسمت امبراطوريتها ونقل الامبراطور قسطنطين التخت الى بوزنطية سنة (٣٣٤ م) فصارت من وقتها بلاد اليونان جزءا من الامبراطورية الشرقية البوزنطية الى ان فتحها السلطان مراد الثاني سنة (١٤٤٢ م)

الباب السادس

(الفصل الاول)

تاريخ الرومانيين

دور الملوك

(٧٥٣ - ٥١٠ ق م)

بلاد ايتاليا

أربع سنين وكاد في آخرها عاكبها تلك البلاد الخصبه فارسل اليه الرومانيون سفيرا يأمروه بالكف عن القتال والرجوع الى بلادهم فاعتزل وكان أراد أن يجعل اليهود على تغيير ديانتهم فلما لم يقبلوا حاربهم وقتل منهم عددا عظيما وأسر منهم نحو ثمانين ألف نفس ونهب من هيكلكم ما تبلغ قيمته ثلاثة ملايين ليري و وضع فيه تمثال معبود اليونانيين وجعل عقاب من لا يسهله الموت ثم تحزب اليهود وأعلنوا الحرب على سور ياتم نالوا الاستقلال وكان القوس مصوفا أيضا لظلمه فلما حاربهم فهدموا سنة (١٦٤ ق م) وبينما كان عائد اسقط من مركبته فمات بعد قليل وهو الذي وسع مدينة حماة ودهاها ايقانيا وبعدهم كثرت الفتن الاهلية واضطربت أحوال المملكة وتوالى على عرشها نحو عشرين ملكا في مدة مائة سنة نورد أسماءهم على الترتيب

انطيوخس الخامس ابن المتقدم مات سنة (١٦٢ ق م) ديمتريوس الاول الملقب سوطير بن سيلوقس الرابع وكان بر ومية ثم فروا الى سوريا وقتل انطيوخس المتقدم اسكندر بالاس وهو من عائلة صغيرة ادعى انه ابن انطيوخس الرابع ملك سنة (١٥٠ ق م) ديمتريوس الثاني الملقب نيكاتور وقد تمكن بمساعدة ملك مصر من استرجاع المملكة سنة (١٤٦ ق م) ولما طرده الشعب لسوء سلوكه ملك عليه ابن اسكندر بالاس المتقدم ثم التجأ ديمتريوس الى مدينتي البارت وبعدها نرجب به وزوجه بابنته ساعده على الجلوس على تخت سوريا مرة ثانية بعد موت ابن بالاس ثم مات قتيلا بصور وقام من بعده انطيوخس السادس وولس له ما يذكر مات سنة (١٤٢ ق م) وخلفه تريفون ديودتس الذي خلف ديمتريوس الثاني وملك انطيوخس السادس ثم خلفه وتبوأ عرش المملكة الى ان قتله انطيوخس السابع الذي مات سنة (١٢٨ ق م) في حرب بينه وبين البارت وقام من بعده سيلوقس الخامس ومن بعده انطيوخس الثامن الملقب غريبس أي ذي الانف الاعوج وحصلت بينه وبين أخيه حرب كانت نتيجة اقسام الاخوين المملكة

ان مملكة ايتاليا التي زهاها التمدن اللاتيني زمانا طويلا عبارة عن شبه جزيرة واقعة بالجهة الجنوبية من أوروبا بين بلاد اليونان واسبانيا وبامتدادها في البحر الابيض المتوسط تقسمه على فوج مالى قسمين ويظهر للتأمل من موقعها انه يسهل عليها مدهنقودها على جهات الشرق والغرب وجبال الالب تحيط بهامن الشمال وتكون مغطاة بالسروج الدائمية ويمتد في وسط ايتاليا فرع من الجبال الالبية وهو المسمى ابيسين الى أن ينتهي في الجنوب وهذه الجبال تنبسط في كثير من الجهات وتتحدث فجودا مر تفعة الأمتها تركب ينها وبين البحر م ولا خصبة يروها أنهار عظيمة ويجاور هذه البلاد جزائر كثيرة جميلة منها جزيرة صقلية التي يظهر أنها كانت متصلة بها قديما وانفصلت عنها امامنا خها فاعتدل لطيف وهي أكثر مياها وأوسع مسطحا من بلاد اليونان وبها حقول ووديان واسعة خصبة تغذى قدرا عظيما من السكان

سكانها القدماء - أول من سكن هذه البلاد بحسب ما أمكن الوقوف عليه هم أمة اليبلاج ثم زلها الاتروسك ثم اللاتين ويظهر من الأسماء التي وجدت ببلاد نوسكانه الحالية مسكن قدماء الاتروسك كالآتية والاثاث والحلى وغيرها أن تلك البلاد تمتعت بحضارة جيدة اتخذها الرومان واللاتين نموذجالهم نسجوا على منوالها وكان اللاتينيون يقيمون بوادي نهر التبر وبلادهم تسمى الايتوم ويقال ان ابيه الترواى أتى هذه البلاد وقت وجود اللاتين وبعد سقوط مدينة ترواده ملتجئا اليهم فقبلاه بالترحاب وأحسنوا وفادته على قول ثم ان ابنه المدعو اسكاني Ascagne أسس ببلاد اللاتين مدينة دعيت بألب لالويج Albe la Longue حكم بها تسلسل عدة قرون ويقال ان من ألب تولدت رومية ثم إن فوميطور حفيدا سكاني المذكور نخلعه من تحت أخوه المدعو اموليوس وكانت ابنة فوميطور وضعت ذكرا نيا وأمين وهما روموليوس وريموس فأراد اموليوس ان يهلكهما فأخذهما وألقاهما على شاطئ نهر التبر فالتقطهما راع ويقال ان غزالة أرضعتما قبل ذلك فأخذهما الراعى المذكور وذهب بهما الى منزله ولما ترعرعا ظهرت عليهما علامة القوة والاقدام وقد اتفق اهما يوما نهما أأنا رعاة فوميطور الذي أراد ان يراهما لينتقم منهما فإلما شاهدهما اندهش من هيتتهما وملا محهما ثم تعرف بهما ولما علم بشرق أصلهما أقسم بان ينتقم التوميطور فخلعا اموليوس الطاغية وأجلسا جدهما على تحت ألب

(الفصل الثاني)

تأسيس دولة الرومانيين ومدينة رومية

بينهما فاستولى أخوه كيزيكانس على فينيقية وسهل البقاع وأخذ فرسيس مابق ثم مات قتيل سنة (٩٦ ق م) وقام من بعده أخوه انطيوخس التاسع وقتل سنة (٩٥ ق م) وقام من بعده سيلوقس السادس الملقب بيقانس وهرب لطلبه الى مدينة المصيصة ثم أحرقة أهلها وقام من بعده انطيوخس العاشر ومن بعده افيلبش بن انطيوخس غريبيس ومن بعده ديمتر بوس الثالث ومن بعده انطيوخس الحادى عشر ومن بعده انطيوخس الثاني عشر ومات في حرب جرت بينه وبين العرب ثم قام تيغران ملك ارمينيا وذلك ان السورين لما سموا الحرب وماتت نفوسهم الى الراحة ملكوا عليهم تيغران الذي أضاف سورية الى بلاد سنة (٨٣ ق م) وبقى ملكا عليها حتى قهره الرومان سنة (٦٩ ق م) ومن بعده قام انطيوخس الثالث عشر وبقى قابضا على زمام الاحكام الى سنة (٦٥ ق م) حينما دخل بومبييه بلاد سور يا واستولى عليها وصيرها ولايتا وماتت

اعلم ان السلطنة الرومانية التي كانت في الاعصر القديمة من أشهر الممالك اسما وأعظمها قوة امتدت تاريخها عشرة قرون وقد احتوى على كثير من الحوادث المفيدة والخبار المهمة واعلم ان هذه المدينة التي كانت في الاول عبارة عن مدينة صغيرة ارتفعت بالتدريج خصوصا حينما كان لها قوة بحرية استظهرت بها على القرطاجنيين أصحاب السلطان على سواحل البحر الابيض المتوسط وكان العرب يسمون الرومان بالروم ويؤخذ من الروايات المتناقلة أن تأسيس رومية كان سنة (٧٥٣ ق م) وعليه يكون ابتداء تاريخ الرومان من السنة المذكورة الى سنة (٤٧٦ ق م) التي سقطت فيها الدولة الرومانية الغربية وعلى ذلك تكون مدة الدولة الرومانية أكثر من اثني عشر قرنا ويتقسم التاريخ الروماني الى ثلاثة ادوار

الاول دور الحكومة الملكية من سنة (٧٥٣ ق م) الى سنة (٥١٠ ق م) الثاني دور الحكومة الجمهورية من سنة (٥١٠ ق م) الى سنة (٣١ ق م) الثالث دور الامبراطورية من سنة (٣١ ق م) الى سنة (٤٧٦ ق م)

وان هذا المدينة التي كانت في اول أمرها عبارة عن مدينة صغيرة نمت بالتدريج وصارت مركزا لعظم دولة قديمة ظهرت في التاريخ أما أهمية تاريخها فلانها أخضعت أهم البلاد الغربية وأدخلت بها أشعة الحضارة واعلم أن الأقوال الواردة عن تأسيسها محشوة بالخرافات التي لا يعبرها التاريخ اذن تصديق قائلوا ان المؤسس الاول لمدينة رومية هو ريموس وأخوه رومولوس (٧٥٣ ق م) كالتقدم وكان رومولوس المذکور رئيس منسبر من قطاع الطريق ولما أتى الى تلك الجهات رأى بالقرب من نهر التيبر تلا وهو المسمى بجيبيل بالانان فأسس على التل المذکور عدة أكواخ أحاطها بسور دليغا رات الاعداء اذا أرادوا بسوء

ولما سبدر رومولوس وأخوه المدينة المذكورة بالقيمة المتقدمة جعل لها أبوابا وأحاطها أيضا بخندق ويقال ان السور كان منخفضا جدا حتى ان ريموس تسلقه بسهولة فحتمرا فعل أخيه فغضب رومولوس لذلك وطعن أخاه فقتله واطخت أسوار المدينة بدمه وكان ذلك أول دم سفك في هذه المدينة ثم بعد أن أتم رومولوس ورجاله بناء بيوتهم أرادوا التزوج وكانت ايتاليا في العهد المذکور مسكونة ببعض قبائل متوحشة منهم قبيلة يقال لها السابين كانت متوطنة بجوار رومية فطلب رومولوس أن يأخذ من بناتهم نساء لرجاله فلم يجيبوه لطلبه فأضمر لهم سوء وضمهم على اهلا كههم متى سبحت له الفرصة ففي أحد الايام دعاهم الى وليمة عظيمة فحضر والاعوتة مع بناتهم ونسائهم ولما قامت الافراح والملاعب للدعويين أشار رومولوس الى أصحابه فسلوا سيوفهم وهجموا على ضيوفهم وقتلوا أكثر رجال وقبض كل رجل من الرومانيين على امرأة واتخذها زوجة له ولما قامت قبائل السابين للاخذ بالثارت دخلت النساء المذكورات بين المتحاربين ومنع الحرب بأقوالهن التي أثرت في قلوب الطرفين ولما تصالحوا عقدوا بينهم معاهدة وداوية وانتخب الشعب رومولوس ملكا عليهم فادار أمورهم بأحسن سياسة وقسم الاراضي بينهم ورتب مجلسا فوضع لاجتماعه التداول في الامور المهمة وفض الخصومات وكان الحكم لاهل المدينة دون غيرهم من أهل القرى ورتب رومولوس لنفسه حرسا مؤلفا من ٣٠٠ جندي وقسم شعب مملكته الى ثلاث طبقات

الاولى الاشراف والامراء الثانية الفرسان الذين يبحرون للعرب بجيولهم الثالثة عامة الناس
وخليطهم وبعد قليل من الزمن تعصب عليه أعضاء المجلس المذكور وقتلوه سنة (٧١٥ ق م)
وأشاعوا انه رفع الى السماء فصدقهم البسطاء وعبدته الرومان ودعوه كيرينوس وبقيت روميسة
بعده بدون ملك سنة كاملة يحكمها المجلس ثم انتخبوا بعده في سنة (٧١٤ ق م) نومايوميلوس
وكان رجلا حازما حكيما محبا للسلام فهذب الشعب ورتب له محافل دينية وأقام هيكل لاله
الصدق وأسس طائفة رهبان خصصها لخدمته وكان يقول ان ذلك بالهام الهى كى يصدقه
الشعب ثم مات سنة (٦٧٢ ق م) وانتخب بعده فوللوس هوستيلىوس وكان محبا للحرور وافتتح
مدينة ألب

وبذلك استولت روميسة على المدينة التى ولدتها ولما طال الحرب بين الفريقين اتفقوا على ان
كل فريق ينتخب ثلاثة أبطال من شجعانه يبارزون بعضهم بعضا ومن انتصرت شجعانه كان له
الغلبة فانتهت روميسة ثلاثة اخوة يقال لهم هو راس وانتخب ألب ثلاثة اخوة كذلك يقال لهم
كورياس فاتصر الرومان أخيرا بعد أن قتل من أبطالهم اثنين فسلمت ألب لذلك وقابل الرومان بطلهم
هو راس بالتهظيم لانه أكسبهم الفخر والنصر بعد ما خاب أملهم

وكان لهو راس المذكور أخت تسمى كاميل وكانت تحب أحد الثلاثة الذين قتلوا من
الكورياس فحزنت عليه وأخذت تسب أحباها وتلومه فغضب عليها لعدم اظهارها الفرح لانتصار
شعبها فقتلها بسيفه فحكمت عليه الشريعة الرومانية بالموت جزاء جرمه ولكن عفى عنه نظيرا لتصاره
وسمى المؤرخون هذا الحرب باسماء الأبطال المذكورين ثم مات الملك المذكور سنة (٦٣٩ ق م)
وانتخب الرومان بعده انكسوس مرسوس وهو الذى منع اللاتينيين من شن الغارات التى كانوا
معتادين عليها وحارب بعض القبائل التى خرجت على روميسة وانتصر عليها وهو الذى وسع مدينة
روميسة وشيد مدينة أوستى الواقعة عند مصب نهر التبر وعمل لها مقر فأومات سنة (٦١٦ ق م)
وانتخب بعده تاركان وهو أوتر يسكى الأصل ابن رجل اغريقى وكان أبوه تاجر اغنيا وبعد أن قبض
على الأحكام أشهر حربا على اللاتينيين والايتر وسكيين وغيرهم فانتهصر عليهم وقد أدخل روميسة
بعض عواندوطنه من ذلك أن القائد إذا انتصر نصره عظيمة دخل المدينة فى عربة يجرها خيل بيض
أما إن كانت نصرته صغيرة دخل راجلا امام جنوده وأنشأ روميسة ميدانا كبيرا للمسابقة وعمل مجارى
لجلب المياه ومصارف للقاذورات وشيد هيكل الكايتول ثم قتله أولاد انكوس ماريوس المتقدم
ذكره وكان وصيا عليهم حسب أمر والدهم (٥٧٨ ق م)

ثم تملك سرفيوس فولليوس (٥٧٨ - ٥٣٤ ق م) ويقال إنه ابن أحد العبيد ومن أعماله أنه
قسم الامة الى طوائف حسب الثروة ولهذا كرهته العائلات الكبيرة وقتل فى مؤامرة كان رئيسها
فوللى ابنته وصهره تاركان فقد بذف به من أعلى الكايتول ولما علمت ابنته المذكورة بنجاح ما بدرته
فرحنت فرحا شديدا وركبت عربتها وذهبت لهتمته تزوجها فصادفت شلوا بيها فى الطريق فلم تحزن ولم
تجزع أصلا ومرت بعربتها عليه

وجلس القائل تركوين الثاني (٥٣٤ - ٥١٠ ق م) ولما تمكّن من الملك سار سيرة خبيثة فظلم الرعية وارتكب الفواحش ونفى أكبر أعضاء المجلس وجعل له حرسا من الاجانب وكان له ابن يسمى سكتوس فحس بامرأة تسمى لو كريس فقفلت نفسها لاصحابها من العار وأوصت زوجها بأخذ ثارها وعند ذلك ازداد نفورا لامة حتى بلغ منتهاه وصارت في حالة لا يمكنها تحمّل قبائح هذا الظالم وولده فحرض كولاتان زوج المرأة ورفقاؤه ومنهم پروتوس الامة فثارت عليه وخلعته وكان بعيدا عن رومية وبه انتهت حكومة الملوكة (٥١٠ ق م) ويقال ان امرأة دخلت عليه ذات يوم وفي يدها تسع مجلدات من الكتب فعرضتها عليه للبيع وطلبت منه في مجلسه مبلغا جسيما ولما كان يجهل ما فيها استعظم الثمن ورفض مشتراها فرجعت الى دارها وأحرقت منها ثلاثة مجلدات ثم عرضت عليه الستة الباقية بنفس الثمن الاول فامتنع أيضا عن شرائها فتركته وعادت فأحرقت منها ثلاثة أخرى ثم رجعت اليه في اليوم الثالث وعرضت عليه الثلاثة الباقية بنفس الثمن الاول فتعجب الملك من أمرها وصمم على مشتراها ليرى ما فيها واذا بالمرأة ألقتها بين يديه واختفت في الحال فأنذهل الملك وجميع الحاضرين ولما افتحوا الكتب وقرأوها وجدوها عبارة عن رسائل وشارات من الحكم ألقها بعض النساء فاحترمها الرومان غاية الاحترام واعتبروها كآيات منزلة وحفظوها في خزائنهم وصاروا يتأخرونها بالخشوع كلما وقعوا في شدة أو ضيق

(الفصل الثالث)

قيام القنصل وتأسيس الحكومة الجمهورية

(٥١٠ - ٣٠ ق م)

لما طرد تركوين من سرير الملك كما تقدم التجأ الى الاوتر وسكنين وقامت من بعدهم في رومية حكومة تدعى بالقنصلية لها ما كان يلقب كل واحد منهما بلقب فنصل لاجراء الاحكام العالية وكانت سطوتها ما كسطوة الملوكة الا انها لا يمكنان في المنصب المذكور الا سنة واحدة ولما انعقد المجلس وانتخب كل من پروتوس وتركان كولاتان زوج لو كريس المتقدمة الذكرا أخذ ايديران الاحكام سوية ولم يستفد الشعب من هذا التغيير لانه بعد أن كان الظلم يرتكبه واحد ازدوجت أعوانه وكان سكان رومية يومئذ منقسمين الى حزبين الاول الاشراف وغرضهم القبض على زمام الحكومة والعامه ورجبتهم الاشراف في الحكم وكان جميع أرباب مجلس السناتوروا أكثرأ كبار القوم من القسم الاول فكان انتخاب القنصل منوطا بهم ولذلك قويت شوكتهم وعظمت سطوتهم وصاروا أصحاب الحل والربط فنشأ عن ذلك فتن ومشاجرات بين الطرفين وفي ذلك أرسل الايتروسكيون الذين التجأ اليهم الملك المنفي المطر ودرسلا الى رومية بحجة أنهم آتون لطلب أموال الملك المنفي وكان غرضهم عمل الحيل لارجاعه فانضم اليهم بعض شبان الاشراف حتى أولاد القنصل پروتوس المذكور الذي اشتهر بالعدل ومحبة الوطن ولما اكتشف على تلك المؤامرة أصدر

حكما يقتل أولاده الاثني لتداخلهما مع الخصم ضد الوطن فقوى بذلك قانون الحرية ثم خرج الملك الخلع مع من انضم اليه من شيعته لمحاربة أهل المدينة فقتل بروتوس في الواقعة مكسبا خسر المدافعة عن بلاده وأما الملك المطرود فاستعان بأمرأه ايتاليا وجمع له جوعا وحاصروا رومية (٥٠٧ ق م) وبعد أن فتحها تركها العصيان رعيته عليه ثم قامت فنن داخلية لعدم وجود المساواة وزيادة ديون الفقراء ومهاجرة الاعداء ببلاده أما الرومان فانهم بعد أن دفعوا العدو عن بلادهم اتفقوا على جعل الحكم في كل أمر مهم لحاكم واحد سموه بالديكتور (١)

(الفصل الرابع)

في الدكتاتوريين والحروب التي قامت في أيامهم

وكان الرومان قررروا الاسباب أهمها تسكين ثورة العامة أن ينتخبوا شخصا لهذا المنصب يحكمهم بما يراه صالحا كما لا يرد ولا ينقض ولا يمكث في منصبه الا ستة شهور وكان أول من انتخبوه لذلك هو لارسيسيوس الذي كان أحد القنصلين وذلك سنة (٤٩٦ ق م) ثم بعد أن عقد الصلح مع الاعداء السابق ذكرهم استعفى من وظيفته وتعين لها بعده بوستومبوس وفي مدته قام اللاتينيون تحت قيادة تتر كان لمحاربة رومية مدة اشتغال الامة بطلب حقوقها في الاحكام فتر كوا ذلك الاختلاف وانضموا واواحدة لمحاربة العدو وانتصروا عليه بقرب بحيرة رجيلو وبمجرد عودته تر كان الى بلاده مات من حزنه ثم عادت الامة للطالبة بحقوقها كما كانت فتمت رقائمة نواب منها تسمى بالديسمفير (٤٥١ ق م) في عهد القنصل اسپوريوس كسيوس

(الفصل الخامس)

حكم الديسمفير

- (١) الدكتاتور لفظه لاتينية معناها الامر المنفرد بالحكم أي المطلق التصرف وكان للدكتاتور السلطة العالية في جميع عصور الجمهورية الرومانية وكانت سلطنته لا تدوم الا ستة شهور فقط ينفذ في أثناءها كل ما يظهر له انه مفيد للمصلحة العمومية وكان للدكتاتور معنى من كل مسؤولية في مدة تنصيبه وبعد أن روعيت شروط هذا المنصب زمانا وتولاه كثيرون سقط وقت أن سقطت الجمهورية أو بالأحرى صار لكل امبراطور روماني دكتاتور استديما ٥١
- (٢) هم قضاء وخدمت منصبهم برومية سنة (٤٥١ ق م) وكان عددهم عشرة وكلفوا بسن قانون للامة ومخوضهم القوة العالية مدته سنة كان يتولى كل واحد منهم تلك القوة يوما واحدا بالمتناوبه بينما لا يكون للبقية سلطة وبعدهم في السنة عرضوا عشرة ألواح من القوانين فأقرتها الامة ولكن لما كان يوجد بها نقص عينوا عشرة آخرين (ديسمفير) لمدة سنة ليكملوا هذا النقص وكان لهم ما كان لسابقهم من السلطة فسنوا لوائح جديدين وبذلك اكملوا القانون لشهر المسمى لدى الرومان بقانون الاثني عشر لوجا ٥١

لما كان بين أعضاء مجلس السناتو من لا يجب الاصلاح استقر الشقاق وخرجت الاهالي من المدينة واعتزلت بالجبل المقدس سخطوا وغضبوا وتسبب عن ذلك وقوف دولاب الاعمال وأعبه قحط فأغرى نواب الامة الاهالي ان يتموا أعضاء مجلس السناتو بأنهم هم السبب في حصول القحط المذكور ثم أتت بعض غلال من جزيرة صقلية وبينما كانت الاعضاء تتداول في كيفية توزيعها على الفقراء قام كوريولانوس أحد أعضاء السناتو وكان بطلا صنديا ووجارا عنيدا وشرع في ابطال منصب النواب وهي المزية التي نالتها الاهالي بعد الشقاق الطويل فلما بلغ نواب الامة ذلك طلبوه امام جمعية الامة في سنة (٤٩١ ق م) وحكموا عليه بالنفي المؤبد فنقوه فخرج الى مدينة اتنيوم واتحد مع شعب القواسين وهو أكبر أعداء الرومانيين وأخذ يجرهم على محاربة أهل وطنه فأجابه فلنك وقلدوهم رياسة الجيش فزحف به على رومية وهزم جيوشها التي خرجت لقاومته فاستولى القرع على قلوب الامة وسعى مجلس السناتو في ارضائه واستعطفاه ليرجع عن غيه وأرسلوا له عدة رسل فلم يجب طلبهم وأخيرا أرسلوا له سفارة نائمة من اشراف نساء الرومانيين وفي مقدمتهم أمه فيتموريا وامرأه فرحين بما افتضرتا اليه فلم يستطع مخالفتهم او قال لامة لقد أنقذت يا امه مدينة رومية ولكنك سوف تعدميني ثم عاد يبيشه وبعده ذلك بقليل قتله أهل وطنه لما رجع اليهم لكونهم اعتبروه أنه خان بلاده ثم استتب الحال وقام قضاة الديسفير بخدمتهم للوطن بكل صدق وعفة ثم توجهوا الى بلاد اليونان للوقوف على قانون سولون وأخذوا منه ما وافق أحوال الرومانيين وطباعهم ثم عادوا الى رومية ونقشوا تلك القوانين على عشرة ألواح عرضوها على المجلس وعموم الامة فصدقوا عليها ويقال انهم زادوا عليها لوحين بعد سنة من الزمان

وقد قال المؤرخون ان من جملة ما دون في تلك الألواح أن للاباء حق قتل أولادهم وللسادات حق قتل عبيدهم وكان في تلك القوانين يندى بحرم على العامة مصاهرة الاشراف ثم أخذت القضاة تحكهم بالجهور بالتصرف المطلق حتى صاروا كالملوك رهبة وظلوا في أحكامهم فصارت لا تستطاع فتدمرت الاهالي واشتد الاسف على الايام السالفة

وفي أثناء ذلك أعار السايون والايثيون على أرض الرومان فألح القضاة على الاهالي بالدخول في الخدمة العسكرية فقبلوا ذلك بعد طول الامتناع حبا في الدفاع عن الوطن ومع ذلك انكسر جيشهم لسوء تصرف القواد وفي ذلك الوقت حصل اختلال بسبب تصرف ايبوس قلويدوس أحد القضاة في حكمة الاستبدادى فغضبت الاهالي والعساكر وخرجوا ثانيا الى الجبل المقدس وطلبوا التخلص من أيدي القضاة الظلمة حتى اضطر وهم للاستعفاء (٤٤٩ ق م) وعاد منصب القنصلية ونياية الاهالي ثانية وطلبوا من مجلس السناتو الاقرار بجواز واج بين الاشراف والعامة وجواز انتخاب القناصل من العامة أيضا فقبل المجلس الشرط الاول ولم يقبل الثاني لانه رأى ان وظيفة القنصل لا يصح ان تكون لمطلق الامة وأخيرا قرر بتعيين ثلاثة رجال من قواد الجيوش ليقوموا مقام القناصل في الحكم وجوز انتخابهم من الاشراف والعامة (٤٥٥ ق م) وقررت المشاركات اللازمة لذلك وبعدها أن مضى على ذلك نحو سبعين سنة حصل من أحد القضاة وهو المسمى سيسيتوس سولون هيجان عظيم بقوله ان القانون لا يجوز لاي وطني ان يستأجرا كقرومن

٥٠٠ فدان من الاراضي الاميرية وكذا يجب ان يكون أحد القضاة من الطبقة النازلة فلم يقبل منه ذلك الا بعد مضي عشر سنوات أي بعد انقطاع الشقاق الداخلي

(الفصل السادس)

استيلاء الغول على رومية والحروب التي

قامت في خلال ذلك

بعد أن انتظمت حالة الرومان الداخلية أكثر وامن اشهار الحروب على جيرانهم حتى تعودوا على الكفاح واقحام المعامع ففتحوا مدينة فيدين وانتصروا على المولسكيين وفتحوا مدينة انكسور ومنهم وبعدها نظم مجلس السناتو ترتيبات مخصوصة للعساكر وبذلك أوجد الرومانيون جيشا قويا دائما تحت السلاح وبه أمكنهم التقدم والحرب مع أبعاد القبائل وقد فتح القائد الشهير كاميل مدينة *Veies* العظيمة ببلاد الاوتروسك (٤٠٥ ق م) بعد حصار طويل ولكنهم كافؤه بالنفي لانهم اتموه ظملا باخفاء مقدار من الغنائم فخرج من المدينة باكل خزينا ساخطا بالبا من العبودات ان تنزل مخطها على المدينة الناكرة الجيسل وقد تحقق مطاوبه لانه في خلال ذلك أي سنة (٣٨٩ ق م) هاجم الرومانيين القائد برتوس بجيش عظيم من الغول (١) فلما دارت رحى الحرب بين الفريقين انهزم جيش الرومانيين هزيمة منكرة وقتل منه عدد عظيم بقرب نهر البانم تقدم القائد المذكور يريد محاصرة رومية فوجد ها خالية خاوية فاضطرت للتسليم (٣٩٠ ق م)

ولما دخل القائد المذكور المدينة سار محترسا مخافة أن يكون العدو كمن له في طريقه الى ان وصل الى مجلس السناتو فلما دخله رأى جماعة من الشيوخ جالسين في مدخله على كراسي من العاج في يد كل منهم عصا من العاج تلوح على وجوههم سمات الهيبة والشجاعة فاندش القائد الغولي من هذا المنظر ولا سيما من ثباتهم وعدم فرارهم فظنهم تماثيل آلهة لعدم ابدانهم أدنى حركة ثم تقدم أحد الجنود قبض بلطف على لحية أحدهم وكان يقال له يا بيريوس فغضب من صنع الجندي وضربه بعصاه فعند ذلك هجمت العساكر وقتلت الشيوخ المذكورين عن آخرهم ومن هنالك انتشروا في المدينة فأحرقوا أكثرها

وكان من الابنية العظيمة في رومية قصر يقال له الكايتول أشبهه بقلعة حصينة وكان التجأ اليه شجعان الرومانيين ومن بينهم البطل مانيوس كايبتوليتوس فأخذ الغول يحاصرون القصر من جميع أطرافه فردهم مانيوس المذكور مرارا عديدة ولما بلغ القائد كاميل ما حل بوطنه خرج من بلاد الارديانيين الذين أقام عندهم مدة منفاه وعاد مسرعا لمساعدة أهله وطنه مغضبا عما وقع منهم في حقهم من الاساءة وعند وصوله قلده مجلس السناتو ولاية الامر المطلق فأخذ يحارب الغول

(١) أميرة رومية قديمة وسباني ذكرها مفصلا بتاريخ فرانسوا لانها جرمية سكان هذا البلاد

من الخارج ومانيلوس من الداخل فانتصر الرومانيون على المتغلبين وقتكواهم فتكاعظيما حتى قيل انه لم يرجع منهم أحد الى بلاده ويقال ان الرومانيين حرموا أكل الاوز من ذلك الوقت لانه أيقظ حراس الكايتول عندما هم الغول بالاستيلاء عليه ليلا ثم قابل عموم الشعب الروماني كميل بكل تجلته واحترام ولقبوه تعظيما له بالمؤسس الثاني لرومية وقد أظهر بعد ذلك مانيلوس الطمع وقصد زيادة الظلم فحكوا عليه بالاعدام وقد فوه من أعلى قلعة الكايتول التي كان يدافع فيها عن استقلال بلاده

وبعد ذلك قويت شوكة الرومان وعظمت هيبتهم عند أكثر الامم المجاورين لهم وأخذت صولة الاشراف تتناقص يوما فيوما ودرجة العامة تتزايد شيئا فشيئا فاستحصل ليسينيوس أحد نواب الامة على وظيفة القنصلية في سنة (٣٦٨ ق م) ولا يخفى أن هذا المسند لم يكن يناله سابقا الاحزاب الاشراف ثم قام الغول المقيمون بشمال جبال الالب لاخذ نار اخوانهم الذين هزموا في رومية فلما وصلوا أخيرا إلى أبواب رومية هزمهم الرومانيون بعد حروب طويلة شرهزيمة واشتهر في هذه الحرب البطلان منيلوس ووركاتوس وتالير يوس كورفوس وبعد ذلك النجاح قامت بغض الامم اللاتينية والايترورية سكان ايتاليا وانفقوا على الرومانيين فقامت الحروب المتواصلة فأخضعهم الرومانيون أمة بعد أمة وبذلك استولوا على معظم بلاد ايتاليا فصار لهم بذلك ميناء كثيرة على سواحل البحر الادرياتيكي والبحر المتوسط الابيض وأخذوا من وقتئذ يبنون الاساطيل الحربية

(الفصل السابع)

البحرية عند الرومانيين

لما صار للرومان عدة تغور بحرية كما سبق دعوتهم الحائلة لانشاء السفن وكان أول من شغلهم بانشاء السفن الحربية بالميليدوس نازية قامن غيران يكون هناك ضرورة تقتضى ذلك وانما كانوا يفزعون من البطالة أكثر من العدو اذ هي أعدى الاعداء عندهم ولما لم يكن لهم بذلك معرفة أخذوا يقلدون اليونان وأهل قرطاجنة خصوصا وذلك انه تصادف ان غرابان من سفن قرطاجنة شحط على سواحل رومية فاتخذوه نموذجاً وصنعوا سفنهم على منواله ففي ظرف ثلاثة أشهر تجدد عندهم دون مئذنة وملاحون وتجهزت السفن بجميع لوازمها و موادها وأزوتوها البحر وساروا بها لمحاربة أعدائهم ثم تنوعوا في ذلك فكانت لهم سفن كثيرة بالمخازيف جعلوا فيها على كل مخداف ملاحا حاملا درعاً من الفولاذ وترساً مخصوصة وبعض أسلحة أخرى بيضاء وجعلوا لبعض السفن أشعة مناشئة وبعضها أشعة مربعة وجعلوا بعضها أبراجاً مربعة في الوسط ذات طبقات يقف في الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقسي والسهام وفي الطبقة السفلى الملاحون بالمخازيف يسيرونها حيث يراوون وكان لهم سفن عظيمة سرعية لنقل الجنود الى مواقع الحرب

وكانت معرفة القرطاجنيين بالملاحية والحركات البحرية العسكرية أهم من معرفة الرومانيين لكثرة تجاربهم وممارستهم لها ولكن الظاهر أن هذه المزية لم تبلغ اذ ذلك في الاهمية والنفع ما هي

عليه الا ان الأتري ان القداماء لم يكن لهم معرفة بيت الابرة كان لا يمكنهم الملاحاة الا بمجانب
الشواطى فكانوا لا يركبون الا في سفن مسطحة صغيرة ذات مجاذيف وكانت أغلب المراسى الصغيرة
عندهم بمنزلة الميناء العظيمة وكانوا في معرفة الطرق البحرية على غاية من القصور وكانت حركاتهم
البحرية هينة حتى قال ارسطو ان ركوب البحر بهذه المنابة لا يلزم ان يكون له طائفة مخصوصة بل
يقوم به الخرافون وأضرابهم فكان يستوى في ذلك وقتئذ أرباب الملاحاة والملاحاة وبالجملة فكان هذا
الصنف عندهم على غاية من النقصان بحيث كان تسيير السفينة بألف مجذاف لا يصل في السرعة
الى تسييرها بمائة في هذا الوقت وكانت السفينة الكبيرة عندهم قليلة الجدوى اذ كان يشق على
الملاحين تحريكها وتسييرها بل كان يتعذر ان تحرك الحركات الضرورية التي تدعو الحاجة اليها
فقد اتفق لانطوان انه اراد ان يجذب سفنه في جون اكسيوم من سواحل البانيا فعدت عليه
معاناة لذلك بالضرر والخسارة فانه لثقلها كان يتعذر عليه تسييرها حين كانت سفن افسس
نظفها تهمج عليه من سائر الاطراف ولما كانت سفن القدماء لا تسيير الا بالمجاذيف كان الخفيف
منها اذا صدمت سفينة كبيرة يكسر مجاذيفها لان السفن الكبيرة اذ ذلك لم تكن الا كالأجسام
الساكنة التي لا تحرك أصلا كسفن هذا العصر الشراعية اذا أزيلت منها السوارى وكانت
سفن الصدر الاول الصغيرة عند الحرب تشتبك في بعضها بمخاطيف على غاية من السرعة وتقع
المحاربة من الفريقين ويلتحم القتال بين الصفين وكانت العساكر البرية تنزل بأجمعها في الدونمة
كما شوهد في المحاربة البحرية التي وقعت بين القرطاجنيين والرومان وكانت النصر فيها للقائد
العساكر الرومانية ريفولوس وصاحبه ميلوس ولو ان عدد عساكر رومية كان مائة وثلاثين ألفا
وكانت عساكر قرطاجنة خمسين ألفا وكان معظم التعويل يومئذ على العساكر البرية وأما البحارة
فكانوا دونهم في ذلك على عكس ما هو عليه الامر الآن فان عساكر البحرية لا يعتمد عليها في
الغزوات البحرية مثل البحارة وحسبك دليلا على ذلك نصر القنصل دويلوس (سنة ٢٦٠ ق م)

ولما صار للرومان عمارات بحرية أخذت تفتح الممالك المجاورة لها فتمكنت من فتح عدة
نغور في البحر المتوسط الايض وكانت ايتاليا الجنوبية لزم القنصل فابريسيوس لم تدخل تحت
حكم الرومان وكان سكان تارنته وأصلهم من مهاجري اليونان يعتبرون الرومان كعبريين ودونهم
في الفنون والصنائع والغنى فلذلك كانوا يظنون أنهم اذا تعرضوا للرومان بأذى لا يتمكن الرومان
من الانتقام منهم بسبب اشتغالهم بالحروب ولم يكن يخطر في بالهم ان حرب الرومان مع السامنيين
واللاتينيين أكسبهم براعة في فن الحرب وصير في مقدرتهم محاربة عدة أعداء في آن واحد وبلغوا
في الفنون الحربية درجات الكمال وقد قال المؤرخ ويجيس ان فن تعبئة الجيوش المؤلفة من الرجال
والخيالة الغير المنتظمة يظهرانه من اختراع الرومان بالهام الهلني وقد اتفق ان سكان تارنته تعسوا
على بعض سفن الرومان التي كانت راسية امام تارنته (٢٨١ ق م) فأقام السفير پوستوموس
الحجة على ذلك وطلب ترضيته فجاءه بوعنف وشدته ثم خاف الترتينون عاقبة غضب الرومانين عليهم
فطلبوا من بيروس ملك ايبيريا المساعدة وكان يجب الحروب الخطيرة لانه تربى وتعلم بمدرسة نواب
اسكندر المقدوني الشهير فأجابهم اطلبهم وأبحر في جيش عظيم ومعه أفيال فلما رأى الجيش الروماني

القبيلة وكانت في مقدمة جيش بيروس اعتراه الفشل وفزعت العساكر فانصرف بيروس على الرومانيين بقرب مدينته هيراقله (سنة ٢٨٠ ق م)

وفي الواقعة الثانية التي حصلت بقرب اسكولوم بينه وبين الرومان أيضا فقد بيروس جملة عساكر وادعى أنه اكتسب الواقعة الثانية كما ان الرومانيين ادعوا ذلك أيضا ولكن بيروس رأى ان الاوفق مصالحة الرومانيين ومعاهدتهم فأرسل وزيره وصديقه سنياس الى درومية فلم ينجح وزيره المذكور في ما أمر به لانه الرومانيين قالوا له اننا لا نتعاهد مع سيدك الا اذا ترك ايتاليا فعاد الوزير وقال لسيداه ان رومة ظهرت له كهيكلي عظيم ومجلس شوراها بجمعية ملوك فالترزم بيروس ان يداوم الحسب وقال المؤرخون ان طبيب بيروس عرض على فابريسيوس قائد الرومان وكان توجهه الى بيروس لمبادلة الاسرى ان يسم سيده تظير مكافأة تعطى له الرومان فامتنع القنصل فابريسيوس من قبول معروضه وأخبر به بيروس الذي بعدما أعنته تلك الحروب ورأى عدم النجاح فيها ترك ايتاليا ورجع الى بلاده بعد أن كان ذهب الى صقلية يريد فتحها فأخضعها الرومانيون في سنة (٢٧٢ ق م)

(الفصل الثامن)

حروب رومية مع قرطاجنة المسماة بالحروب البونيقية

(٢٦٤ - ١٤٦ ق م)

الحرب البونيقية الاولى

(٢٦٤ - ٢٤١ ق م)

لما استولى الرومان على جميع بلاد ايتاليا ولم يبق لهم بها منازع وصفالهم الجوور تخفت قدمهم في الحكومة مدوا أنظارهم لوسط نفوذهم خارج بلادهم كما هو الحال عند جميع الامم الفاتحة فتصادمت جمهوريتهم مع جمهورية قرطاجنة (١) ووقعت بينهما الحروب البونيقية الشهيرة في التاريخ

(١) قال المؤرخون ان السبب في بناء هذه المدينة هو انه لما قتل ملك صور الاسمي بغمالون زوج شقيقته المسماة ديدون طمعا في أخذ أمواله وذخائره الكثيره هربت ديدون بعد ما قتل زوجها اسر باس وكان رئيس كهنة صور من ظلم أخيها وجور وشمنت سفائنها بكثير من النخائر والاموال وأخذت معها جملة من اكابر القوم ولما وصلت الى سواحل افريقية في الجهة المقابلة لجزيرة صقلية ابتاعت أرضا واسعة من أهالي تلك الجهات وأسست فيها مدينة جسمة بقرب موقع تونس الآن وسمتها قرطاجنة ومعناها المدينة الجديدة وذلك في سنة (٨٤٠ ق م) تقريبا وقال بعض المؤرخين انها بنيت في عهد بعاز ملك يهودا في سنة (٨٤٦ ق م) ثم بعد ذلك تغلب على قرطاجنة جابر باس أحد ملوك تلك الجهة وخطب ديدون لنفسه فامتنعت لانها كانت صممت على عدم الزواج بعد زواجها المقتول

أما سبب تسميتها بالبونيقيية فلان الرومان كانوا يسمون أهل قرطاجنة بالبون أما قرطاجنة فكانت في ذلك الوقت أشهر وأعظم مدن افسر بيقية وكانت واقعة على مقربة من الخليج المسمى الآن بخليج تونس وقد توسع الرومانيون في الفتوحات خصوصاً ما عزموا على منازلة القرطاجنيين فبنوا مائة سفينة حربية وبذلك صارت لهم قوة كون عليها في تلك السواحل ولم يرض بعد هامة حتى قصدوا الاستيلاء على جزيرة سيديليا أي صقلية التي كان القرطاجنيون يسعون في اخضاعها من مدة وصادف في أثناء ذلك ان قوما من سكان جنوب ايطاليا استعانوا بالرومانيين على هيرون ملك سرقوسة في صقلية المذكورة بشرط انهم يقبلون الدخول تحت حكم الرومان

ولما علم ملك سرقوسة المذكور مطامع الرومانيين نحو مملكته طاب من جهوره بقرطاجنة المساعدة في سنة (٢٦٤ ق م) أرسلت له جيشاً عظيماً واسطولا كبيراً فلم تمض على ذلك مدة حتى ذهب القنصل ايوس فلوديوس وقاد بنفسه الجيش الروماني في سيديليا وكان معه أول اسطول عظيم جهزه الرومان ثم قامت الحروب بين الطرفين فكسرا القنصل القرطاجنيين وملك سرقوسة وغنم من القرطاجنيين خمسين سفينة فنشأ من ذلك حصول العداوة بين الفريقين ولما توترت حبل العلاقات بين الطرفين رأى الرومان لزوم محاربة مدينة قرطاجنة فأخذوا في تكثير عدد سفن الاسطول مع اتقان صناعتها وجعلوها كسفن القرطاجنيين حتى بلغ عددها ٣٠٠ سفينة حربية وتولى قيادة الاسطول الجديد القنصل دويليوس وتقدم به لمحاربة القرطاجنيين (٢٦٠ ق م) فانتصر في أول واقعة بحرية واستولى على ٦٠ سفينة قرطاجنية ثم غزى اسرانيا وقورصقة واستولى عليهما

أما القرطاجنيون فالتزموا أن يتخذوا من كزادفاعيا في صقلية ولم يكن لهم هناك إلا ماكن قليلة حصينة وفي سنة (٢٥٦ ق م) تقدم القائد ريفولوس وزميله نيلوس باسطول

ولما استعرت بان الملك جاريان المذكور مصمم على اغتصابها أحرقت نفسها بالنار ثم بعد ذلك تشكلت في قرطاجنة حكومة ملكية وأخذت سكانها المختلφο الاجناس في زيادة تشوكة بلادهم وتوسعوا في التجار حتى صارت لهم جملة عظمت في سواحل البحر المتوسط الابيض ثم تحولت حكومتهم الى جمهورية واستمر القرطاجنيون في النجاح وتوسيع نطاق المكاسب وصارت لهم قوة بحرية عظيمة مدوا بها اسطوتهم ووسعوا بها أملاكهم في أكثر بلاد شمال افريقية وصارت تونس وطرابلس الغرب والجزائر وسواحل مراكش من ضمن أملاكهم وفي سنة (٧٠٢ ق م) استولى الاميرال مانغون القرطاجني الشهير على جزائر البيار وأنشأ في احداهما السماء مينورة ميناء عظيمة سميت باسمه وهي المشهورة لآن بيورمانغون وقع جزيراً كبيراً من جنوب اسبانيا وفتح القرطاجنيون أيضاً جزائر سردينيا وكورسيكا وما لظه وصارت لهم شهرة في أسفار البحار حتى ان البحري القرطاجني المسمى هيميلكون قد سافر الى شمال البصرى الاطلنطيق وتوغل بسفنه خلف جزائر هيرين والبيوني في أرخبيل سورنجز وذلك سنة (٤٠٠ ق م) ثم أخذ القرطاجنيون يعاملون أكثر الممالك التي كانت لها سواحل البحر المتوسط الابيض بالتجارة فتعاهدوا مع اسبارطة وأثينا وكان لهم معاملات مع ملك سرقوسة ولما طمعت في الاستيلاء على جزيرة سيديليا خاضتها الرومانيون وقامت بينهم الحروب الا ان بيانها اه

وجيش فكسرا القرطاجنيين في معركة عظيمة بحرية ثم نزلا على افريقية وحاصروا قرطاجنة بخمسة عشر ألف مقاتل روماني وكادت تفتح المدينة لولا مساعدة أهل اسبارطة للقرطاجنيين لانهم كانوا أرسلوا لهم جيشا واسطولا تحت قيادة كسانتيب وحسن تدبيره كسر الرومانيين وأهلك جيشهم وأسرفائدهم ريغولوس

وفي خلال ذلك حدثت عواصف أعزقت للرومانيين اسطولين من أساطيلهم وحسن حظهم كانوا انتصروا نصره عظيمة اذ ذلك بالقرب من مدينة باليرم عوضتهم بعض ما فقدوه في افريقية وعند ذلك سعى القرطاجنيون في طلب الصلح فكلفوا أسيرهم ريغولوس بعقد هدنة بعد ان حلفوه يميناً صار ما بالعودة اليهم ثانية ان لم يفلح في ما مورته فذهب الى رومية يعجبه رسل من طرف القرطاجنيين الا انه نصح لعزته نفسه ووطنيته أعضاء مجلس السناتوا أن لا يقبلوا الشروط التي عرضها عليهم القرطاجنيون فسمعوا نصيحته وقد أرادوا منعه من العودة الى قرطاجنة فلم تقبل شهامته ذلك وأن يخلف وعده حتى ان زوجته وأولاده تضرعوا اليه بالبكاء والتعجب فلم يسمع منهم ما أرادوا ويقال ان القرطاجنيين عدبوه عذاباً أليماً ثم قتلوه (٢٥٠ ق م) وأما في جزيرة صقلية فكانت حركات الرومانيين الحريسة أكثر نجاحاً فانهم أخذوا بابا روموس وانتصر واعلى جيش القرطاجنيين عند ما كان يحاول استرجاع البلدة المذكورة

ثم شرعوا في حصار ليليوم (٢٥٠ ق م) وبخ الرومان اسطولا ثالثا لفتحها فالتقه اسطول القرطاجنيين امام دريان وهي المدينة الثانية التي كانت باقية بيد القرطاجنيين بصقلية وقد فقد الرومانيون اسطولا آخر في البحر ثم استلمهم لكاربار كالفائداً لمخند قيادة القرطاجنيين ففتح في أعظم حروبه وهزم للرومانيين عدة جيوش وأغار على ايتاليا واستباح بعض جهاتها

ثم أنشأ الرومانيون اسطولا رابعا بعد العناء لانهم كانوا أرادوا ترك الحاربات البحرية لانكسار أساطيلهم فالتفوا به اسطول القرطاجنيين بالقرب من جزائر ايثاقا الكائنة أمام ليليوم المتقدمة وذلك تحت قيادة القنصل لانيموس كلولوس وفتحوا ليليوم المذكورة بعد الحصار الشديد (٢٤١ ق م) ولم يرد القرطاجنيون امدادهم لكاربحار به رومية بل كلفوه بعقد الصلح فأملى الرومان شروطا قوية تجحفه بقرطاجنه غاية الاجحاف منها أن ينسحبوا من صقلية ومن الجزائر المجاورة لها تماما وأن يدفعوا لرومية قدرا جسيما من المال ويطلقوا جميع أسرى الرومان بلا فدية وغير ذلك وكانت صقلية أول المستعمرات الرومانية الاجنبية وبذلك انتهت الحرب البونيقية الاولى بعد أن استمرت ثلاثا وعشرين سنة (٢٦٤ - ٢٤١ ق م)

وفي سنة (٢٩١ ق م) عبر الرومانيون بجزر الادرياتيك بعازتهم وطاروا الى ليليرين واستطهر واعلمهم وأرسلوا الى الولايات اليونانية سفارة لتبين لها سبب هذه الحروب فاقتنعت الولايات بذلك ثم في سنة (٢٢٥ ق م) حاربوا الغالة سكان فرنسا الاقدمين فكسروهم ووصل الرومان الى جبال الالب

(١) وتسمى الآن مارساله واقعة بالنهاية الشمالية الغربية من جزيرة صقلية وكانت مركزا حصينا للقرطاجنيين

(الفصل التاسع)

الحرب اليونيقية الثانية

(٢١٨ - ١٤٦ ق م)

بينما كان الرومانيون مشغولين بالحروب مع أمم الغالة في جبال الالب كان القرطاجنيون يبحثون على طريقة ينتقمون بها من الرومانيين ويتخلصون من عار الجزية التي كلفوا بدفعها وكان ظهر فيهم وقتئذ قائد شهير يدعى انيبال بن هملكار وكان مبغضا للرومانيين فأغرى أهل بلده على محاربة الرومانيين وذلك بعد ان افتتح بهم هملكار المذكور بلاد نوميديا ومورتانيا وغيرها وبعد موته افتتح اسدر وبال قسما عظيمين من اسبانيا وشيد مدينة قرطاجنة بها ثم شرع القرطاجنيون تحت قيادة انيبال في محاربة ساغنتوم (١) المدينة اليونانية وكانت محالفة لرومية قد اذاعت عن نفسها طويلا ولم يفتتحها الا بعد حصار ثمانية شهور (٢١٩ ق م)

وكان الرومان عفا عدوهم اسدر وبال محالفة بان لا يتجاوزوا نهر الابرياسبانيا (٢٢١ ق م) ثم طلب الرومان من حكومة قرطاجنة ان تسلم لهم الجنرال انيبال فرفضت الطلب فأشهرت الحرب على قرطاجنة (٢١٨ ق م) وهى الحرب اليونيقية الثانية

ولما أشهر الرومان الحرب على قرطاجنة استعد انيبال بما يلزم من الجنود والاقوات وكان جيشه يبلغ مائة ألف مقاتل فسار قاصدا ايطاليا مارا من وسط اسبانيا والغالة فوصلها بعد سبعة شهور قامى فيها من الاهوال ما لا يوصف وانضم اليه في طريقه كثير من أهالى الغالة ثم حارب الرومان في بلادهم فكسر القنصل سيمون وكسر زميله سيمون ونوس على نهر تريبا (٢١٧ ق م) وهزم أيضا القنصل فلامينوس عند بحيرة تراسمينوس (بحيرة بيروز) وفي خلال ذلك أقام الرومان فايوس مكسيموس بوظيفة دكتور فدافع بغاية الشجاعة وصعد انيبال الا أنهم هموه بالخيانة لمطاواته في الحرب وفي سنة (٢١٦ ق م) حاربه القنصلان قارون وأمياوس باولوس فكسرها انيبال تخاف الرومانيون بأسه ودخل مدينة كلبو قاعدة بلاد كامبانية وفي خلال ذلك أخذت رومية تنظم حالتها وجيشت جيوشا جديدة لمقاومة انيبال وقد أظهر الرومان لذلك من حميد الخصال وجليل الاعمال ما خلد لهم في التاريخ ذكرنا حسنا اذ قد تبرعت الامم بالاموال اللازمة وانخرط جميع الشبان ضمن تلك الجنود أما انيبال فإنه لم ترد له من قرطاجنة نجدات جديدة مع تكرار طلبه وشدة احتياجه أخذت قوته تنحط لعدم خروج فايوس لمحاربه وفي سنة (٢١١ ق م) فتح مرسيلوس الملقب بسارته بسيف رومية مدينة سرقوسة لان القرطاجنيين كانوا استولوا عليها بعد موت ملكها المحالفة لرومية وقتلوا بها

(١) أو ساغونت مدينة اسبانية قديمة كانت واقعة بالقرب من مصب نهر بلنسية أسسها الاغريق في بلاد خصبة وقد اشتهرت فيما بعد وصارت مركزا مهما للتجارة وكانت محالفة لرومية ولا تزال اطلالها لا تزال بالقرب من مدينة مورفيدو الحالية

أرجحيدس (١) المهندس الشهير سنة (٢٠٧ ق م) جدد سيمون الحرب في اسبانيا واستولى على مدينة قرطاجنة الاسبانيولية ولاقتصاراته على القرطاجنيين عين قنصلا في صقلية ثم تقدم بجيش وأسطول عظيم جدا الى افر بيقية وضائق القرطاجنيين بجيشه الجسيم (٢٠٤ ق م) وحارب حرو وبادشيدة نجح فيها برا وبحرا ولما اشتد الامر بالقرطاجنيين وضايقتهم جيوش سيمون طلبوا من انيبال ان يحضر سر يعامن ايتاليا ولما علم حالة بلاده فضل الذهاب اليها لمساعدتها عن بقاءه بايتاليا سيما انه لم يبق لديه الا القليل من جيشه فاقطع مسرعاً حتى أرسى بخلج قابس وكان القرطاجنيون ينتظرونه بفروغ صبر ولما صعد الى الشاطئ عسكر بالقرب من بلدة زاما الواقعة بالجانب الغربي من قرطاجنة وقبل الشروع في القتال تقابل مع سيمون المذكور ليعرض عليه الصلح وقال له ان قرطاجنة تتنازل لرومية عن صقلية وسردينيا واسبانيا ويكون البحر الفاصل بينهما اذا سبق لكم بعد ذلك فقال القائد الروماني سبق لسيمون شرف الانتصار على أنيبال ورفض ما عرض عليه من شروط الصلح ولما رأى أنيبال ان لابد من الحرب عي جيشه بطر بيقية أدهشت الرومان لان طائر السعد لم يرفرف على قومه في هذه المرة فانسروا واثتموا سنة (٢٠٢ ق م) ولما رجع أنيبال الى قرطاجنة بعد ان غاب عنها ٣٥ سنة نصح أهلها بقبول الصلح وكان من شروطه ان يترك القرطاجنيون جميع املاكهم خارجة عن قسم افر بيقية وان لا ينسروا حرو باحتي بافر بيقية من غير استئذان رومية وان يدفعوا في خمسين سنة مبلغا يوازي ١٠٠,٠٠٠ وزنة من الذهب وان يردوا للرومان جميع أسراهم وكذا من التجار اليهم ويسلموا جميع سفنهم ما عدا عشر منها ولما عاهد سيمون الى رومية قابلته بترحاب واجلال لامرئيد عليهم ما لقبوه بالافريقي ورسوموا بان تمثاله يوضع في هيكل جوبيتير

(الفصل العاشر)

مخاربه الرومانيين لبلاد اليونان وسوريه

(١) أرجحيدس هو أشهر المهندسين الاقدمين ولد في سرقوسة سنة (٢٨٧ ق م) وكان يمينه وبين هبار ملك سرقوسة قرابة صديقه وكان الملك المذكور يفتخر به وقد تعلم منذ صغره كل العلوم التي كانت تدرس في البلد ثم توجه الى مصر وكانت حينئذ مهد العلوم وكان اليونان وغيرهم يأتونها في طلبها وأقام فيها عشرين سنة يستفيد من علمائها قال ابن العنبري ان أرجحيدس اخذ كل معارفه من الآليات عن المصريين ثم رجع الى سرقوسة وقد اكتسب من الشرق فوائدهم وتفرغ هناك لدرس العلوم الرياضية والطبيعية ولم ينقطع عن الدرس الانخدمة ووطنه ولما ثار الرومانيون سنة (٢١٢ ق م) حروبا على همار واستظهروا بعض الاستظهار في صقلية تم حصر سرقوسة نفسها وأخذ البأس من الاهالي كل ما أخذ حتى عزموا على الاستسلام فحضر وط معية أخذان أرجحيدس بشجعهم ويقوى عزائمهم ويقال انه أظلم آيات كبيرة وراء أسوار المدينة أحدثت مساعي المهندسين الرومانيين وألقت الخوف في قلوب عساكرهم ولم يقبل علماء العصر الحاضر مار وود عنه من عمل المرايا التي كانت تحرق سفن الرومانيين وقد حارب بعضهم مسئلة المرايا وحرارها السفن فحققت بعض التحقق ومع ذلك فان قصة احراق الاسطول الروماني غرابا أرجحيدس من الامور التي لا يسلّم العقل السلم بصحتها ولما قتل أحد الخندار أرجحيدس وبلغ مرقولوس ذلك تكدر جدا وأحسن الى آفاره وبني له ضريحاً جعل عليه كوزة منحوتة من اسطوانة كما كان ينقح وهو حرق سنة (٢١٢ ق م) ولان أرجحيدس المذكور اكتشفت في الهندسة والآلات وقوة المياه كافية لتخليد ذكره اه

ولمّا لاشأن الرومان بالحروب التي فاز بها سبييون الافريقي وصاروا أمة فاتحة أشهر واسنة (٢٠٠ ق م) حرباً على مقدونية بحجة ان ملكها أخل بالعهد مدة ما كانت رومية تحارب أنيبال السابق ذكره وساعد القرطاجنيين فلذلك أرسل الرومانيون عدة قواد إلى بلاد اليونان وانتشب القتال وكان معها إلى ان انتصر اخيراً القنصل فلأمينيوس على جيش فيلبش الثالث ملك مقدونية انتصاراً يستحق الذكر في واقعة سينوسيفاً كه ببلاد تساليه فالترزم ملك اليونان أن طلب الصلح ثم عقدت معاهدة بينهما موجهة لذلك وحقارة اليونانيين وكان منها ان تنازلوا عن جميع سفنهم للرومان وأعطى ملكهم أحداً ولادهم المدعو ديتيريوس رهينة عند الرومان (١٩٦ ق م) وبذلك صارت لهم سطوة على الاغريق

اعلم انه لما رحل الرومان عن قرطاجنة بعد عقد المشاركة المذكورة أخذ أنيبال في اصلاح ما عوج من أحوال قرطاجنة فنظم ماليها وجنودها ومجالسها وكان يحرض القرطاجنيين على عدم الوفاء بالمشاركة المذكورة لاستغلال رومية اذ ذلك بحجابه المقدونيين تخاف مجلس الرومان من ذلك لما بلغه وأرسل لقرطاجنة وقد اطلب منها رأس ذلك القائد الجسور ولما كان القرطاجنيون بهمهم أمر التجارة جدا هم وواجبة مطوب رومية فعند ذلك هرب أنيبال والتجأ إلى انتيخوس ملك سورية (١٩٥ ق م) فقابلته بالترحاب وكان أنيبال يحسن له الهجوم على رومية ولولا اطماعه في بلاد اليونان لمخ أنيبال ما اطلب ثم استعد انتيخوس لمحاربة اليونان ولما عبر بجيوشه إلى بلادهم زحفت عليه جيوش رومية فتحصن بمضيق ترموپيل الشهير طانا انه بذلك سد باب بلاد اليونان على الرومان الا ان القائد كاتون كان يعرف الطريق التي منها عبر القرص هذا المضيق سابقاً في درب بالجيل وانقض على جيش السوريين فهزمهم فتقهقر انتيخوس إلى أفسوس

ثم عبر الرومان الدردنيل تحت قيادة لوسيموس سبييون وتعبقوا انتيخوس وهزموا جنوده بالقرب من مغنيسيا وبذلك اضطر انتيخوس لان يتنازل عن جميع اسيا الصغرى الواقعة إلى الجهة الاخرى من جبال طوروس وأن يدفع للرومان قدر اعظم ما من المال ويسلم لهم انيبال ثم إن الرومان أخضعوا أبعاد الامم التي تسكن تلك الجهات أما انيبال فانه التجأ إلى بروسياس ملك بتيينا^(١) وطلب القائد فلأمينيوس رأس ذلك البطل الشهير تخاف بروسياس عاقبة الاباء ولما علم انيبال بانه مأخوذ تناول سما كان معه وفي رواية انه أمر أحد العبيد بقتله (١٨٣ ق م) وفي هذه السنة مات سبييون قاهر انيبال

وفي سنة (١٧١ ق م) قام برسبي بن فيلبش بعد موت أبيه وقصد التحصن من رق الرومانيين وبعد أن هزم رومية عدة جيوش قهره أخيراً القنصل بول ايميل في واقعة بيدناوهي مدينة بمقاطعة مقدونية ثم قبض عليه وبعث به إلى رومية أسيراً (١٧٠ ق م) مع جماعة من كبار اليونان وكان من ضمن الاسرى المذكورين بوليب المؤرخ الشهير ثم جزأ الرومان بلاد مقدونية إلى أربع جمهوريات جعلوها تحت حمايتهم لتضعف عن المقاومة بتشتيت قوتها وفي سنة (١٤٦ ق م) شق

(١) بتيينا بلاد قديمة واقعة بالشمال الغربي من اسيا الصغرى وكان أشهر مدنها بتيقية ونيقوميديا وسكانها من أصل تراكي وكانت خاضعة بالاسم لاسكندر المقدوني ولم يتمكن السلوقيون من اخضاعها مع ما بلدون من العناية في ذلك وقد تنازل عنها ملكها نيقوميديا الثالث للرومان وهذه البلاد داخلية الآن ضمن ولايتي قسطموني وخذوندكار

اندريسكوس بن پيرسى المذكور عصا الطاعة فهزمه الرومان وأخذوه أسيرا ومن ذلك الوقت صارت
مقدونية اقليمارومانيا محضا وكذا صارت بلاد اليونان بأجمعها (١٤٦ ق م)

(الفصل الحادى عشر)

الحرب البونيقية الثالثة

(١٤٦ ق م)

كان الرومان لما أخضعوا قرطاجنة جعلوا مسينيسا ملك نوميديا مرقبا عليها ليمنع تلك الجمهورية
التعيسة من اصلاح شأنها فاختذ ذلك الملك هذه الأمورية وسيلة له فى الاستيلاء على أراضى ومدن
قرطاجنة فتشكى القرطاجنيون من تلك المعاملة التى لا تجيزها العهود والمواثيق الى سنانورومية
فأرسلت رومية وفدا للتحقيق تلك التثيكات ولما وصل ذلك الوفد أظهر رئيسه كاتون التشيع لجهة
مسينيسا وأخذ يتظر فى أحوال قرطاجنة وما وصلت اليه من الثروة والقوة فاندش من قيامها سرعا
من كبوتها بعد الحرب البونيقية الثانية ورآها مستعدة وتحت يدها كثير من السلاح والجنود فرأى
أنه لا يجب على رومية أن تستريح قبل ملاءمة هذه الجمهورية ولما رأى وسائل الاستعداد عند
القرطاجنيين يرجع الى رومية مزجما من ذلك وحرص أهل بلاده على عمل شديد للتخلص من كل
خوف يخشونه فى المستقبل وكان يختم كل جملة من كلامه بقوله يلزم هدم قرطاجنة

ولما طرحت مسألة قرطاجنة على أعضاء المجلس فى رومية كان من رأى أولادسيون أنه لا بد
لرومية من خصم تخافه لئلا تختل الراحة مجبة بما نالت من الظفر والنصر فى مواقع القتال وهو
رأى حكيم ومع ذلك لم يصغوا اليه ورجحوا رأى كاتون ولما فتحت أبواب الحرب بين مسينيسا
والقرطاجنيين أرسل الرومان سيبيون ليراقب نيتها وكانت التعليمات المتزود بها تنحصر فى أنه
لو انتصر أهل قرطاجنة يجبرهم المتدوب الرومانى على تسليم سلاحهم أما لو قهروا فإنه يشجع
مسينيسا على متابعة انتصاره وقد اتفق أن غلب أهل قرطاجنة مسينيسا سنة (١٥٢ ق م) ومع
ذلك أمرهم الرومان بتسليم أسلحتهم فاستلم منهم القنصل مرتيوس سانسورينوس عددا عظيما جدا
من الاسلحة على اختلاف أشكالها ولما صاروا عزلا أعلنوهم بأن قد صدر الامر بهم هدم قرطاجنة
وابعادهم عن البحر الى داخل القارة ولما سمعوا هذا الخبر المزعج تحولوا من حالتهم أى حالة التجارى الى
ابطال حرب وزال والتحوالى الى مدينتهم يستعدون بكل وسائل الدفاع فحولوا معابدهم وقصورهم
ومبانيهم الى معامل ومصانع لعمل الاسلحة واشترك فى ذلك الكل من هرم وشيخ وكهل وشاب
وامرأة إذ هو الواجب المقدس يطالب به الوطن أهله فى تلك الحالة حالة اليأس وعدم النصير وتولى
أسدر وبال أحد قوادهم قيادة الجيش ونازل الرومان فأوقع بهم مرارا ثم عين الرومان سيبيون
أميليان قنصلا ولما استلم زمام الجيش شجعه ونظم ما اختل من أركانه وكان أول أعماله أن سد خليج

قرطاجنة لينع عن المدينة وصول الافوات والذخائر ويجبر سكانها على التسليم جو عاظمها جسم المدينة المرة بعد المرة بنشاط الى أن استولى عليها وعلى قلعها ولم يبق أمامه ما يقاومه الا معبد ديانة حيث التجأ أسدروبال ومن معه اليه ولما رأى ذلك القائد أن لا قبل له على المقاومة عزم على التسليم فو بجخته زوجته على ذلك وقبل مبارحته طعنت ولديه فقتلتهما ثم ألتت نفسها في اللهب مخافة أن تتحمل ذل الاسر وامتهان العبودية

ثم أسلم الرومان المدينة الى اللهب بعد أن استباحوها قتلوا نوبا ولعنوا كل من يقدم على عمارتها ثانية وقتلوا من بقي من القرطاجنيين الى إيطاليا وفرقوههم في أقاليمها وخرّبوا كذلك كل مدينة عاوت قرطاجنة كما أنهم حصنوا كل مدينة حافظت على الوفاء الروماني ومن وقتها صارت قرطاجنة اقليارومانيا محضا (١٤٦ ق م) وفي سنة (١٤٠ ق م) فتح الرومان لوزيتانيا (١) بعد ما قتل حاميها البطل الشهير فيرياتوس ثم ألحقت بملكته برغامس (٣) من بلاد ميسيا بملكته الرومانيين بوصية أنالوس الثالث آخر ملوكها ثم أضافوها الى ولاية آسيا وجعلوا مدينة برغامس عاصمتها وقد انحطت سريريا لانها خسرت كنوزها الادبية بعد ما نقل كتبها أنطونيوس الى مكتبة الاسكندرية

(الفصل الثاني عشر)

الحروب الداخية

انه بعد الفتوحات المذكورة قامت برومية ثورات ونزاع بين الاعيان والشعب بسبب النظام الذي وضعه طيباريوس غرا كوس سنة (١٣٣ ق م) بخصوص تقسيم الاراضي بين الاغنياء والفقراء وقامت الحروب الجوغرطية نسبة الى جوغرطاملك نوميديا (١١٠ - ١٠٢ ق م) فصادفت فيها العساكر الرومانية فشلا وكان جوغرطارشي كثيرا من اعيان الرومان لمساعدته على فوال مطلوبه ولما نالت هزيمة العساكر الرومانية أمام جوغرطاعينت برومية ماريوس قنصلا فانتصر على جوغرطا وأخذها أسيرا الى رومية فخات بالسجن (١٠٢ ق م) وأعقب حروبه حروب صقلية (١٠١ ق م) وفي خلالها استحكمت خصومات السياسة بين الرومانيين وفي سنة (٩٩ ق م) انتهت حروب العبيد في صقلية بعد جلاء خصائرها لخصت الرومان

(١) هي قسم من الاقسام الخمسة العظيمة التي كانت منقسمة اليها اسبانيا منذ الرومان وكانت واقعة بالجنوب الغربي بين غاليشيا شمالا وطركونه وقرطاجنه شرقا وأشهر مدنها ساكالايس واوليوسيبو وهي عبارة عن بلاد البرتقال الحالية تقريبا

(٢) مدينة قديمة من بلاد ميسيا على بعد ثلاثة أميال من نهر كيكوس القديم وكان يطلق هذا الاسم قديما على جبل مشهور بكونه مقدسا وكانت برغامس عاصمة لملكة برغامس الشهيرة في التاريخ افتتحها الفرس ثم اسكندر المقدوني ثم أهالي تراسه ثم سلوقس الاول ملك سوريا ثم استقلت (٢٨٠ ق م) ومن ملوكها أنالوس الثالث الذي أوصى بكل ملكة للرومان فأضافوا الى ولاية آسيا وجعلوا برغامس عاصمتها لانهم انططت سرعيا بفقدتها كنوزها الادبية التي نقلها انطونيوس الى مكتبة الاسكندرية ثم تقهرت تلك المدينة في أيام ملوك بيزانطية وقد ورد ذكرها في التوراته ثم خربت في حروب العثمانيين ووجد الآن في موقعها مدينة تدعى برغامه الى الشمال من أزمير تابعة للواء قرس من ولاية خداندكارو يقال انها مسقط رأس جالينوس الطبيب الشهير اه

وعجز دما تخلص الرومان من حرب أفريقية ضد جوغرطا إذ باهم السامبر^(١) والتوتون^(٢) أغاروا على بلاد الغالة من جرمانيا بعد أن عبروا نهر الراين وكان عددهم يربو على ٣٠٠ ألف نفس ففرع الرومان ووجهوا عليهم الجيوش يتلو بعضها بعضا فسحق المذكورون منها ستة ومن حسن طالع الرومان أن تلك الأمم المتبررة لم تسرع على رومية بل ذهبوا بعد انتصارهم إلى داخل بلادا يلبيريا وعاثوا فيها مدة ثلاث سنوات فكان بذلك الوقت الكافي للرومان في استدعاء ماريوس من أفريقية وتكليفه بحماية بلاد إيطاليا ولما سار إليهم ونازلهم تمكن من قهرهم ففرح الرومان من ذلك فرح لا يوصف ولقبوه بالمؤسس الثالث رومية لاعتبارهم بإياه مثل كامل المتقدم ورومولوس المؤسس الأول

﴿ الفصل الثالث عشر ﴾

في حروب داخلية أخرى

ماريوس وسيللا

اعلم أنه لما فتحت رومية بلادا يتالبا صار سكانها الأقدمون حلفاء الرومان إلا أن هؤلاء لم يخفوا أولئك المساواة في الحقوق المدنية والسياسية التي كان يتمتع بها الرومان مع أنهم كانوا يؤدون كل ما يفرض عليهم بدون أن يعود عليهم فائدة فأثار ذلك غضب ليقيوس دروسوس أحد عظماء رومية ورأى في هذا الاستثناء عار على الرومان وطلب إزالة هذا الفاصل وأن لا يكون فرق بين الرومان والتليان فغضب الرومان من ذلك وثاروا على ليقيوس وقتلوه فتعصب التليانيون وشقوا عصا الطاعة فكان ذلك أول هذا الحرب الملى وقد أوقع العصاة العرب في قلوب الرومان لتجمعهم ومطالبتهم بحقوقهم ووجه الرومان عليهم القائد سيللا فقتل منهم مقتلة عظيمة ومع ذلك اضطر الرومان لأن يخفوا العصاة مطالبهم (٨٨ ق م) ثم حصلت المزاجية بين سيللا وماريوس فانتصر ماريوس على سيللا ليل الامتياز والسيادة لقا تله متريدات ملك بلاد بونت فاغتاط سيلان ذلك وعصى أوامر رومية وزحف عليها بقود جيشا وأضرم النيران في بعض جهاتها ودخلها قهرا وقتل من يكرهه وطلب ماريوس تخاف منه وهرب على سفينة حتى أتى أفريقية فنهجه عاملها من النزول وفي تلك الاثناء كان سافر سيللا لقتال متريدات الذي كان يحكم على آسيا الصغرى وبلاد تراسه ومقدونية وبلاد اليونان وكانت حدوده ببلاد آسيا متدة من جبل كوه قاف إلى البحر الأسود وكانت سفنه الحربية على

(١) السامبر أمة لا يعرف أصلها على التحقيق قال بعضهم انها من الجنس الجرمانى لم تسكن إلا بلاد غوتلند في القرن الأول قبل الميلاد وقال آخرون انها من السلتي التارزين على شواطئ بحر قزوين وقد حلوا عن بلادهم بسبب فيضان مياه البحر بلطيق (١٤٤ ق م) فنزلوا إلى الجنوب من قبائل التوتون وغيرهم وقهر واجيش القنصل بايروس كاربون عند جبال الالب (١١٢ ق م) ثم قهر واغير من قواد رومية وبعد أن أغاروا على اسبانيا رجعوا إلى إيطاليا فحاربهم الرومان وأخيرا قهرهم ماريوس كاتولوس (١٠١ ق م) فتفرقوا حينئذ وأقام بعضهم بإيطاليا وبقى البعض الآخر بقوتلندا

(٢) التوتون أمة من جرمانيا كانت منازلها على شواطئ بحر بلطيق وقد انضموا إلى قبائل السامبر والامبرون وغيرهم عند الاغارة على جنوبي أوروبا

غاية من الكثرة بهذا البحر وكان يذهب دائماً ليستأجر عساكر من الامة الاسكوتية (قدماء النتر) وكانت بلاد آسيا اذذاك مفتوحة الارجاه لاناراته وكان يمكن من الثروة والغنى لان مدائنه لكونها على بحر بنطس كانت تجبر تجارة بحرية رابحة مع اعمدونها في الصنائع والتجارة وكان متريدات ذبح جميع من عمالكم من الرومان فتقدم سيلابو فتح اثينا وغيرها الى أن تلاقى بجيوش متريدات وانتصر عليهم ولما طلب متريدات الصلح أملى عليه سيلابو وطاعة فلم يقبلها متريدات وقال له ماذا تبقى لي من ممالكي فقال له سيلابو ابقى لك اليد التي نحتت بها الامر بقتل المائة وخمسين ألف روماني

وبينما كان سيلابو يقاتل متريدات حصل برومية فتن فعاد اليها ماريوس وكل منفي ثم استطلت الحاربات ييلاد الرومان بين سيلابو ونصرائه من جهة وغيره من اتباع ماريوس من الجهة الاخرى ولما نال سيلابو غوبه وصفاله الوقت قتل ونفي كثير من الرومان وسامهم الذل والاحتقار ومديدته في المظالم حتى كرهته الاهالي واخسيرا قبض على منصبه كالتور غير النظمات القديمة ونزع من الامة القوة التي كانت نالها وسلمها ليد الاشراف فانقلبت بذلك الجمهورية من ذيقراطية الى أرسقراطية صرفة ووجدوا ايضا الامة من جميع حقوقها حتى سعى في إيجاد امة جديدة تكون أطوع اليه من ظله وشتت جنودها في الاقاليم التي خربها ومن قوانينه انه حرم على الامة التظاهر بمظاهر الابهة وحث على التخلق بالاخلاق الكريمة كما كانت في أول أمرها مع أنه كان هو بعيد عنها بالمره وبعد أن تم جميع أوامره ومشيئاته ظهر له ان منصبه الكاوتورية ليس إلا منصباً حقيراً فاعلن الامة بتنازله عن منصبه والتجأ الى بيت خلوي عاكفا على المطالعة واللهو ثم مات بعد قليل وكان لموته ذكر شهير وكتبوا على قبره ما يأتي (لم يضع أحد مطلقاً احبابه قدر ما صنع ولم يفعل أحد باعدائه قدر ما فعل) (٧٩ ق م)

ولمات سيلابو لم يكن برومية أحسن وارث له الا يومي صهره لانه كان حاز النصر في عدة محاربات عينه فيها سيلابو ثم أرسله السناتوا الى اسبانيا لمقاتلة سورتر يوس الشهير وكان عصي لما تحارب سيلابو ماريوس فانتصر سورتر يوس على خصمه في جميع الوقائع حتى ان متريدات راسله يريد الاتحاد معه على حرب الرومانيين ولم يتمكن قوادرومية من سرور يوس الا بالخذيعه فقتلوه غدرا وبذلك انكش جميع العصاة وانحسبت المشاكل من أطراف المملكة الرومانية ثم رجع يومي الى رومية حيث هزم الثوار من العبيد وبعدها أخضع سور يه وجعلها ولاية رومانية وذلك بعد ما قهر باس طوله الروماني جميع قرصان البحر الابيض المتوسط وكان لهؤلاء القرصان قوة بحرية هائلة ولهم بعدة من الشواطئ تغور وأبراج ومعقل حصينة وكانوا يجولون بسفنهم من بلاد فينيقية الى مضيق أعمدة هرقل ويمنعون سفن سردينيا وقرصقة من الوصول الى رومية فقبض يومي على كثير من سفنهم وأحرق لهم أزيد من ألف سفينة وخرّب حصونهم وأسر وقتل منهم عددا عظيما وأسكن بعضهم ببلاد اليونان فصار بذلك كأنه المعبود الذي الرومان ثم طلب منه السناتوا مقاتلة متريدات وبادته بالسرّة وان يراد على ما هو مقلده من الوظائف قيادة عموم الجيوش الرومانية باسبانيا وكان متريدات الذي قهره سيلابو استباح وشرع في معاكسة الرومانيين لما بلغه موت سيلابو

وكان انتهاز حصول بعض ارتباكات حصلت بين الامم الخاضعة لرومية باسيا وجرهم الى موالاة
 فأرسل السناتوق عليه لو كوس فلما التقى الجيشان هزم متريدات والتجأ الى صهره تغران ملك أرمنييا
 بعد أن أمر أخواته ونساءه أن يقتلن أنفسهن مخافة العار من الوقوع في قبضة الرومان فطلب
 لو كوس من تغران أن يسلم متريدات للرومان ولما امتنع عن اجابة مرغوبه دخل بلاده وهزم جيوشه
 وقهر متريدات أيضا ثم ان يومي اتي بلاد آسـيا سنة (٦٥ ق م) وكانت قوى متريدات
 انفضت عسراها بحيث لم يبق معه أحد ثم ان تغران طلب الصلح من يومي فأجابه وأبقاه كما على
 أرمنييا بشرط أن يكون محافظا للرومان وبعد ذلك انحدر يومي الى سورية وفلسطين واستولى
 عليهم ما وصيرهما اقليمارومانيا ونهب خزائن هيكل اورشليم ثم عاد الى رومية نظرا فرامنصورا فقبلاه
 بالترحاب وأوسعوا له في الكرامة وكان لاهالي مرسيليا عدة مستعمرات على شواطئ البحر الابيض
 المتوسط وكافوا أرادوا توسيع بعض جهاتهم ولما استأذنوا رومية ردت رومية مطالبهم الغير الحقة
 وأرسلت سكتيوس كالفيوس فيد شمل القبائل التي كانت مرسيليا تدعى حق حمايتهم
 وأسس مدينة اكس وجعلها قاعدة ذلك الاقليم الروماني الجديد (١٢٣ ق م)

وكانت أمة الهلثيت (السويسريون) نزولاً من جبالهم وأغاروا على بلاد الغالة في عدد
 عظيم فتوسل الغاليون الى الرومان بأن يحمو بلادهم من تلك القبائل الهمجية فأسرع قيصر من
 ايتاليا مع هذه الاغارة المخيفة ومنعهم من العبور بأرض الرومانيين وتعقبهم مدة خمسة عشر
 يوما على شاطئ نهر السون ثم نازلهم وقتل منهم أزيد من مائتي ألف واستسلم الباقيون فردهم قيصر
 الى جبالهم الاصلية

ثم وجه بعد ذلك جيوشه بناء على تضرع الغول على الجرمانيين ولكونه كان يجب القتال
 ويحيل الى نوال نخر النزال سار مسرعا نحو بلادهم ولما شاهد الرومان تلك الامم أصحاب القامات
 الجسيمة والمناظر الخشنة هابوهم جدا وأجمعوا عن قتالهم فاجتهد قيصر في تشجيعهم ثم حمل
 عليهم حلة شديدة فهزمهم (٥٧ ق م) وهرب رئيسهم الى الضفة الاخرى من نهر الرين
 ومعه بعض من نجح من القتال ثم بعد ذلك تقدم وأغار على بلاد البلجيقة بجيوشه المتفجرة
 فأخضعها بعد وقائع عظيمة يطول شرحها وبعد أن أراد قبائل القنيت من سكان تلك الجهات
 مصادمته بأسطول جسيم فلم يفلحوا ولما أراد أن يوطد قدم الرومان في تلك الاطراف وعيد سلطانهم
 على كل تلك الاصقاع رأى من اللزوم الاستيلاء على بريطانيا العظمى التي كان يعتبرها القديما آخر
 نقطة مسكونة في العالم

ولما هم بعبور المضييق الفاصل للجهتين عن بعضهم ما هبت زوبعة شديدة فكسرت جميع
 أساطيله تقريبا ثم هزم جيوشه أمام سكان تلك البلاد فسيدهم سقنا أخرى ووصل بهم الى نهر التاميز
 وحصل بينه وبين الاهالي عدة وقعات لم يكتب فيها الا بعض أسرى أرسلهم الى رومية ليظهر لها
 دخوله في بعض جهات مجهولة ثم اضطروا للعودة سريرا الى بلاد الغالة لتظهور العصاة بها فخار بهم
 وبددوا ثقتهم في عدة وقائع يطول شرحها وبعد أن عاملهم بالسوء والغلظة ألان لهم في آخر
 الامر جانبه ورفع الاثاوة عن كثير من مدائنتهم ومنح درجات الشرف لكثير من أغنيائهم وعظمائهم

وكان يتصد بذلك اذ صارهم لتنفيذ ما ربه عند اللزوم وتظم منهم جنودا وحصل أنه في أثناء حروب الغالة حدث برومية اضطرابات نشأت عن شراهة بعض الرؤساء وتطلعهم الى المناصب ونوال الشهرة فمن ذلك ان كراسوس داخله الحسد من انتصارات بومبي وقيصر فعبر بهم الفرات قاصدا الاغارة على بلاد البارت (١) فخدعوه حتى أدخلوه أراضي قاحلة عديمة المياه ثم بعد المراوغة والمطاوله هجموا عليه وقتلوه وهو ومن معه من الجيوش الرومانية ثم تمكن بومبي بمساعدة شيشرون الخطيب البليغ من ان يقبض على زمام القنصلية بمفرده (٥٢ ق م)

ولما استحكمت العداوة بين قيصر وبومبي أراد بومبي ان قيصر يترك قيادة الجنود ويرجع الى رومية فلما امتنع عن ذلك عداه السناتوق وعاوميا يجب قتاله (٤٩ ق م) وكان بومبي يأمل أن يتاليان يقوم معه كرجل واحد ضد قيصر ولكن خاب ظنه فانه بعد مضي نحو ستين يوما استولى قيصر على رومية وبلاد ايتاليا ولم يستعمل ما استعمله ماريوس وسيلان من قبل من سفك الدماء وتخريب المباني وهرب بومبي مع من يلوذ به الى بلادا بليريا وكانت قوة حربه الحقيقية باسبانيا فصار قيصر اول اعلى تلك البلاد وهزم جيوشها واستولى عليها وعاوميا بالرفق فسالمته وأطاعته ثم انتهى بعد ذلك لمقاتلة بومبي وكان يسميه القائد الذي لاجنود له ومع ذلك فكان بومبي يجمع جنودا جديدة من بلاد اليونان ومصر وبلاد الشرق وكان تحت أوامره عدة أساطيل أما قيصر فانه عند نزوله بمدينة ابولوني احدى مدن ايليريا القديمة لم يكن معه الا القليل من الجنود والدواب

ولما أعياها انتظار جنوده عزم على الذهاب بنفسه لجمع الجنود و بينما كان يسير في البحر قامت زوبعة شديدة كادت تغرق سفينه فاضطر للعودة من حيث أتى ثم ان انطوان قائد قيصر تمكن

(١) معنى هذا اللفظ المقيون في لغة السبتيين وهم أمة من أم آسيا ستوطنوا في زمان مجهول الجهة الجنوبية الشرقية من بحر قزوين وقد أخضعهم الفرس ثم اسكندر الكبير ثم السلوقيون واستمر وازمانا لا يعلم عنهم ثم حتى سنة (٢٥٥ ق م) وهو الزمان الذي خرج فيه أحد رؤسائهم المدعو ارساس على انتيوخوس الثاني تيوس وخلفه من بعده ارساس الثاني فحدود بلادهم تمكن بمساعدة أغريق بلاد بلخ الذين نازوا على سلوقس الثاني المتغلب على السوريين وفي هذا الوقت ظهرت مملكة البارت أو الفرت وهم الفرس الاولي وتكونت حقيقة سنة (٢٣٨ ق م) ولما اعترف انتيوخوس الكبير باستقلالهم سنة (٢١١ ق م) أمكنهم بدسطنهم تحت قيادة متريدات الاول وارساس السادس الذي انتزع كثيرا من الاقاليم من يد اغريق بكثر يانه (بلخ) وأخضع قسما من بلاد الهند وانتزع سنة (١٦٠ ق م) من السلوقيين بلاد ميديا وابل وأشور والجزيرة وتصب أخاه ملكا على الارمن سنة (١٤٩ ق م) وأسر ملك سوريا المدعو ديتريوس الثاني الآن فرا آت الثاني فقد كل هذا الفتوحات ثم قتل في حرب مع السبتيين وكذا انه متريدات الثاني قتله الارمن الذين صاروا من ملكتهم تغران الامه صاحبة النفوذ في هذا القسم من آسيا (٨٨ ق م) ولما انحط شأن أرمينيا بعد اضمحلال متريدات ملك البون و صيرورة بلاد سوريا بالقيصر ورومانيا سنة (٦٤ ق م) هضرت ممالك الرومان مجاورة لبلاد البارت وكان الفاصل بينهما مناهر الفرات ثم كان لهم مع كثير من قواد الرومان حروب شديدة انتهت بدخول بلادهم ضمن الدولة الرومانية ثم ان أحد جنود الفرس المدعو ارتكسر ميس أو اردشير ان أو حفيد ساسان ناز بلاد الفرس والجزيرة وميديا وقتل اربطان السادس وأسس الدولة الثانية الفارسية أي دولة آل ساسان سنة (٢٢٦ ق م) وكان البارت الشهرة الفاتحة في كروب الخيل والرمي بالنبل وكانت معتبتهم على ظهور الخيل ولهم مهارة عجيبة في الحروب وكانوا يتصفون بالكرم ياء وقساوة الاخلاق والخبديعة حتى صار يضرب بهم المثل في ذلك اعشقوا دن زرادشت فلما أخضعهم الفرس وكان تأسيس دولتهم في سنة (٢٥٥ ق م) وانقرضوا سنة (٢٢٦ ق م) وآخروا ملوكهم هو اربطان السادس المذكور

أخيراً من جمع الجنود له ولما استعد هجم بلارو به على يومي بالقرب من مدينة دورازو بابليريا فهزم وكادت هذه الهزيمة تكون القاضية عليه لولم يبادر بالهرب إلى مقدونية وسالبا فتعقبه خصمه وحصلت بينهما واقعة في سهل مدينة فارسال (١) كانت الدائرة فيها على يومي وفر هاربا وأقلع نحو جزيرة ليسبوس ومن هناك اتجه قاصدا الديار المصرية يهرب بالأسستعانة ببطليموس ديونسيوس وكان تحت وصايتسه الا ان يونان خادم بطليموس الذي كان مستوليا على المملكة خاف من يومي وقتله وحملت رأسه إلى قيصر لما أتى مصر فلم يستحسن هذا العمل القبيح ولقت وجهه وبكى على خصمه

وبعجرا ما وصل قيصر إلى مصر ثاراها إلى اسكندرية ضده ولم يكن معه غير ٤٠٠٠ جندي ومع هذا فقد خدمه السعد وهزم العصاة وشرع في فتوحاته بنشاطه الاعتيادي فقصداً وأول بلاد آسيا وأخضع الملك فرناس وكان هم بالاستقلال مثل أيه متريدات (٤٧ ق م) ثم ذهب إلى رومية بعد ذلك فقاتله ٤٠٠٠ وم الشعب بالترحاب والتهليل وغيره مما من أنواع التكريم ثم عبر بعد ذلك إلى أفر بقية وحوار بخصمائه وأعداء الرومانيين شبيعة يومي مثل كلون وغيره فأتقمتهم بعد أن هزمهم وقتل كلون نفسه ثم عاد إلى رومية وبينما كان يتمتع بثمرات نصرته العديدة إذ بلغه عصيان اسبانيا بتحرير أولاد يومي فسافر سرعاً ولما انتشب القتال بينه وبين الثوار كادت تنهزم جنوده فشجعهم وحل بهم حملة منكراً فشنت شمل انصار يومي وقتل منهم مقتله عظيمة (٤٥ ق م) وبعودته إلى رومية أكبره الشعب وأثنى عليه بكل جراحة ومكافأة له على ذلك منحه السناتور لقباً لم ينله روماني قبله أصلاً بان جعله ديكتاتوراً دائماً وسماه امبراطوراً وطول حياته وأقاموا له تماثلاً واعتبروه كعبود ويقام له الصلوات وسموا باسمه أحد الشهور (يوليه) ونقشوا على السكة صورته ورتبوا له خفراً من الاشراف والعظماء

أما هو فبعد أن نال السيادة على رومية وان شئت فقل على العالم أجمع أظهر من جليل الخصال وحميد القوال ما خلده ذكرنا في أعماله العظيمة أن سن لرومية تظامات جيدة وجمع قوانينها ورتب السناتور ترتيباً عادله سابق بجدته بان عزل من بين أعضائه كل من لم يتصف بعاهه الخصال وبينما كان يتفكر في اعلام شأن رومية أكثر مما وصات اليه تأمر عليه الجمهوريون وقتلوه بدعوى أنه يسعى في إعادة الحكومة الملكية (٤٤ ق م) وكان مقتله وسط مجلس السناتور وبعد قتله خرج قتله في الطرق شاهرين سيوفهم ولم يتعرض لهم أحد بسوء

ثم انطوان تمكن بعد موت قيصر من القبض على الحكومة وجمع مجلس السناتور وقرأ عليهم وصية قيصر ثم ان الشعب ثار يري بالانتقام من القاتلين فانتهز انطوان ذلك ورتب له خفراً يبلغ ٦٠٠٠ جندي واستولى على الوظائف وامارات الجيوش وأخضع الامه لظالمه القاسية وفي تلك الاثناء ظهر أوكتاف قيصر وكان سنه ١٩ سنة الا انه كان ذكياً يقظاً طامعاً واجذب الامه اليه واستهوى لارادته فرقة عظيمة من الجيش وبذلك صار تحت امرته عدد عظيم من الجنود وساعده شينرون الخطيب الشهير على اغراضه فقام بخطب في مصالحتهم مؤملاً أنه بذلك يستعمل أوكتاف

(١) مدينة قديمة ببلاد تساليا تسمى الآن فرساله

في خلع انطوان ثم يتخلص بعد ذلك من أوكتاف وكان انطوان خرج من رومية لقتال بعض قتله قيصر
فخرج اليه أوكتاف والقنصلان هيريتوس و بانسافانهم انطوان وبقى أوكتاف بمفرده بقودالجوش
المنصورة لموت القنصلين أيضا في الواقعة المذكورة

ولما خلا الجول أوكتاف سار الى رومية وألزم السناتوق بأن ينادى به قنصلا روميا عن الامه وروغا
عن كونه لم يبلغ السن المطلوب وحدث بعد ذلك عدة مشاغبات استقر الرأى فيها على ابقاء مقاليد
الحكومة الى ثلاثة وهم انطوان و أوكتاف ولييد وكان قائدا للخيلة في عهد قيصر وان ينفرد كل واحد
منهم بالحكم مدة خمس سنوات بلا معارض ولا منازع وقد لحق برومية في مدة حكمهم ما لا يوصف من
المظالم وقاست الامه أهوالا لانهم كانوا بعتة دون ان يحصل لقيصر لم يكن الامن استعماله المرجحة
والشفقة فقتلوا من أعضاء السناتور والعظاما عددا عظيما وكان من ضمن من ذهب ضحية تلك المظالم
شيشرون الخطيب الشهير وفعلا برأسه أفعالا تقشعرونها الابدان (٤٢ ق م)

وبينما كان هؤلاء الثلاثة يفتشون في المظالم برومية كما تقدم كان رؤساء الحزب الجمهوري
خصوصا كلسيوس وبروتوس يعيئون ببلاد آسيا وكانا التجا إليها ولما بلغ الحزب برومية سافر
انطوان وأوكتاف وتلاقيا مع خصميهما ببلاد مقدونية فدارت الدائرة على بروتوس وكلسيوس وبعد
تلك الواقعة اقسم انطوان وأوكتاف المملكة وذهب انطوان الى آسيا لطلب الاموال الضرورية
لمكافأة الجنود

ولما كانت أموال المعابد وخرائن المدن نهبت في الحروب السابقة ضرب انطوان على العقارات
ضريبة تجع منها أموالا طائلة وعكف ببلاد آسيا على الملاذ وانعم في النعيم وظهر بظواهر الاجلال
والعظمة وأتته ملكة مصر كليوباترة بمدينة تارس بكيليكيا وصعدت نهر سيدنوس على سفينة فاخرة
مؤخرها من الذهب الخالص وشراعاتها من الارجوان النقي ومجاذيفها من الفضة الخالصة

وبينما كان انطوان على تلك الحالة انتهز أوكتاف فرصة غيابه للاستيلاء على رومية وبلاد ايتاليا
فخرضت زوجة انطوان وابنه الامه على أوكتاف ففارت وحصلت جملة وقائع انتهت بهزيمة شيعة
انطوان وقتل ابنه ولما علم انطوان بما حصل أتى مسرعا ومعه اسطول مؤلف من ثلثمائة سفينة وكادت
الحرب تقع بين الاثنين لولا تدخل الامه بالصلح بينهما (٣٩ ق م)

وبينما كانت رومية تستعد لملاقاة الرئيسين المذكورين ظهر سكستوس بن بومبي بقود
أسطولا عظيما ومنع الاقوات الاتية من سردينيا وسيليا عن رومية ثم انتهى الامر بالصلح على شرط
أن يأخذ سكستوس سيديليا وقورصقة وسردينيا وبلاد اليونان وتعويضها بمبلغ ثمانية عشر ألف ألف
درهم وفي مقابلة ذلك تعهد سكستوس بان لا يقبل الفارين ببلاد رومية وان يرسل الخنطة الى بلاد ايتاليا
كلعتاد ولما تم الصلح تعاقب الرؤساء الثلاثة وتعاشوا سوية بسنينة سكستوس وبعدها حدثت
مأدى الى الحرب بينهم فانصر سكستوس في واقعة بحرية وكان يفخر بذلك ويقول ان الامواج
والرياح تسير بأمره رجا حيث يشاء

ثم تغيرت الامور وانصر انطوان على سكستوس الذي ذهب الى بلاد الشرق وقتلوه هناك
(٣٥ ق م) ولما بقي أوكتاف وانطوان بمفردهما يدبران أمر الدولة الرومانية حدثت بينهما البغضاء

لتخالف أعمالها وتناقض أقوالها فان انطوان كان يسير على شمواته منسجبا على الملاهو واللعب وكل ما من شأنه الخط بقدره فكان يظهر بظواهر مختلفة وملابس متنوعة وكانت سيرته مع ملكة مصر كليوباتره ملائ الافواه حتى كان يقال انه صار يفضل الاسكندرية على رومية ولوساعده المقادير لنقل اليها تخت المملكة

اما وكاف فكان بعكس ذلك يسير في إيجاد النظام والامن في الغرب وعرف بالاعتدال والحكمة والتبصر ولم يكن ييذر الاموال كما كان يفعل انطوان بل كان يجتهد في الاعمال النافعة وبناء القنوات جلب المياه وغيرها كاقامة الملاعب العمومية والاعياد المليية بكرم حبيب فيه الامة ووسع حدود المملكة بفتوحات جديدة ولما رأى أو كفاف ان الوقت اقل لعاقبة انطوان على افعاله وتبذيره أعلن عليه السنالو الحرب وكان يقول ان حربنا ليست موجهة على انطوان ولا على غيره من الرومانيين بل حربنا موجهة ضد المملكة التي تحمل بسقوط الكايتول وجنلزة الدولة ولما التقى الجيشان طلب انطوان من أو كفاف أن لا يطاوله القتال بل يتم الحرب في واقعة واحدة تتكون الفاصلة وكانت كليوباتره طلبت من حبيبها انطوان ان يتر يد أن تنزه الطرف عما حدة واقعة بحرية فلم يسع انطوان الا الانصياع لما أمرت ثم حدثت الواقعة عند مدخل خليج امبراسي بالقرب من رأس اكسيوم على الشاطئ الغربي من بلاد اليونان (٣١ ق م) وكان انطوان أول من فتح باب الحرب باسطوله المشكل من ٥٠٠ سفينة حربية وبعد أن أظهر الطرفان بسالة غريسية واقدا ما عجبيا ولم يكن تم النصر لاحدهما على الآخر اذ باسطول كليوباتره المركب من ستين سفينة نشر قلوبه وهرب بين سفائن المتحارين

ولما رأى انطوان هذه الحركة التي اوقعت الاختلال في اسطوله فقد رشده وفر هو أيضا تاركا مياه القتال تابعه شقيقته ثم سلمت سفنه للعدو وكذا قائد الجيش البري المدعو كاتيديوس لما رأى نفسه ان المملكة وانطوان تر كاهذب الى معسكر أو كفاف مع جيشه مدعنا له بالطاعة ولما علم انطوان بهذه الاخبار المكدرة هرب يقتل نفسه فنعته من ذلك أصحابه ثم عا الى الاسكندرية والتقى بكليوباتره وازوى في برج هناك عازما على المعيشة بعيدا عن انطلق الآن قلبه لم يطاوعه على فراق من أخذت ليه ولعب هواها ويجوارحه فعاد بعد قليل الى قصر كليوباتره منسجبا على مسرانه وملاذه ويقال انه عقد مع أصحابه وأصحاب كليوباتره عقدا كان أول شروطه أن يعولوا سوية بعد أن يتموا بجميع أنواع الملاذ أما أو كفاف فانه بعد هزيمة خصمه سار يتبعه الى الاسكندرية ولما ظهر بجيشه وسفنه أمام الاسكندرية طلب منه انطوان ان تصرح له بالذهاب الى أثينا ليعيش هنالك كأحد الناس أما كليوباتره فكانت ترغب في تاج مصر لا ولادها وكان أو كفاف وعدها بنوال مرغوبها الوصلت له في انطوان

ولما رأى انطوان ان كليوباتره قد خدعته أمر أحد عبده بأن يقتله فامتنع العبد عن ذلك وقتل نفسه فقال انطوان عند ذلك انه يعلم ما يجب على فعله وتناول سيفه وطعن به نفسه فخرصر بها أما كليوباتره فلم تعش بعده طويلا لانها كانت تعلم أن أو كفاف لم يبق عايبا الا ليجعلها في عداد الغنائم التي يأخذها معه الى رومية دلالة على انتصاره فلهدا فضلت الموت على ذلك الازدراء ويقال إنها قتلت

نفسها شعبان جلبه لها فلاح في سلة تين ثم وجدت قتيلة ملقاة على سرير من الذهب مغطاة بجلابسها
الملوكية وبعد ذلك دخلت بلاد مصر ضمن الولايات الرومانية وعادوا وكافوا الرومية فلقبوه بلقب
أغسطس أي العظيم وحكم على كل الدولة منفردا بالسلطة (٣٠ ق م)

(الفصل الرابع عشر)

سقوط الجمهورية الرومانية وأسباب ذلك

عظمة الرومان

لو تبصر عاقل في أحوال رومية منذ نشأتها وما وصلت اليه من العظمة لرأى في العناصر التي
كونتها أسباب ارتفاعها العظيم السريع وقد أظهر مجلس أعيانها (السناتو) التبصر والمهارة
فكان يدير جميع الاعمال ويوجه مجهودات الامة نحو غاية واحدة وهي توسيع أراضي الجمهورية
وإنه وان كان ارتكب مظالم عديدة في بعض الاوقات الا أنه مع ذلك أقاد الرومانيين بإفادة لا تقدر
وكان له تحت تصرفه جنودا تصفوا بالاقدام وخوض المعامع وقوادمهرة اشتهر وبالجزم وأصالة
الرأى بحيث لم يتبع أمة من الامم ما بلغه الرومان في المعارف الحربية بحسب ما وصل اليها وكانت
التربية كلها منصرفة في جعل الجندي يتصف بخصلة الشدة والقوة اللذين هما نتيجة نظام قوى
وكانوا يعزونه أيضا على تحمل المشاق والصبر على المؤلمات وكانت أمة الرومان التي ولدت
أبطالا دافعوا عن بلادهم بما خلد لهم الذكرا الجميل متصفة ببساطة الاخلاق وعلو النفس وعدم
المجاملة لدرجة عظيمة ولم يكن لديهم شيء أعز عليها من منازلها وحقوقها وكانت متمسكة بأهداب الدين
بسيطة المعيشة تمارس جميع فضائل الابطال نعم وان كانت الانشقاقات التي ظهرت بينهم في
أول الامر عطلت قوى الامة مدة من الزمن إلا أنها لم تنحدر طائفة الاعيان مع بقية الاهالي بما
أجراه الجانبان من التساهل لم يعطل نهضة الحربية بعد ذلك معطل أصلا ولقد كانت فتوحاتهم سبب
اضمحلالهم وملاساتهم فقد تفرقت الامة بجميع البلدان وسفكت دماء أبطالها في مواقع النزال
ولما ضعف أمرها عوضت أولادها في الحروب بجنود أخذتهم من الأرقاء المحررين فلم يكن لهم
ما كان لاوئلا من الخصال والاحساسات وعند ذلك تجد بين الاعيان وبقية الاهالي الحروب وال
القديمة وبحصول هذه المنازعات ضعف عامل الوطنية والاخلاص في قلوب الوطنيين وفسدت
الاخلاق وعم الاختلال حتى حصل أن حزب الامة والاعيان تفاؤوا في مقاتلة بعضهم بعضا وسقطت
الامة ومجلس أعيانها في هوة الاستعباد وقام الظلم الملوكي فألزمتهم بإطاعة أو أمره واجتنب
نواهيهم وكانت الجنود أثناء حروب الاحزاب التي تجتهد في القبض على السلطة العليا يخضعون لمن
يحسن مكافاتهم ويكثر لهم العطاء من الرؤساء وكان ماريوس هو أول من ارتكب هذا الخطأ الفاحش
والكرم المشؤم لانه عوضا عن أن يضم الى أعلامه أهل الوطن الحقيقيين جمع في جيشه كثيرا من

مختلفي الاجناس والغايات جذبهم الى محبته بأن تركهم ينهبون ويخربون ما أرادوا ومنى أرادوا وقد كانت جنود سيلابو يوميوس تقابل بقصد الحصول على الغنمة ليس الا ما جئوش قيصر فيهم وان انصفت بخلاف ذلك الا ان اخلاصهم لم يكن الا لنفسهم فقط وعوضا عن أن يخدموا البلاد كانوا آلات للظالم اسكل من يريد استعمارهم في فائدة طماعه وكانت الامه اذ ذلك تتمن للغاية الحرف اليدوية فكان العبيدهم المكلفون بالقيام عليها ولم يكن لها من التسليه وتغضية الوقت أثناء الفراغ الا التردد على أمم كنة اللهو واللعب ومجملات الاجتماعات العمومية ولما سلب ظلم القياصرة من الجماع العمومية المذكورة ما كان لها من القوة والتاثير صارت الامه تتردد على مجملات قتال الحيوانات المفترسة وأمكنة المصارعة ولما كان السناتو يوزع على الامه الخنطة اللازمة لغذائها بالمقابل صارت لا تتطلع اذ ذلك الا الى شئين وهما الخبز والالعاب تاركة ما انصفت به قديما من الشرف والكرام وكان بروميسه في عهد قيصر أكثر من ثلثمائة ألف من المحتاجين الذين لا صناعة لهم وكانوا يعيشون من صدقات السناتو أو من النقود التي يمنحها لهم الناس بالطرقات وكانت جميع الاملاك والثروة محصورة في قبضة بعض الاعيان فكان لهم مزارع واسعة جدا حتى لهم لا يتمكنون من مشاهدتها الا وهم ركوب على الخيل وكان لهم بروميسه من القصور الفاخرة والمتنزهات الجميلة الغناء ما لا يحيط به الوصف وكانوا محاطين بالخدم والحشم المستعدين في كل وقت لقضاء مشيقاتهم وكانوا يصرفون قسما عظيما من حياتهم في الولايم الفاخرة وكان لمهرة الطهارة عندهم المترلة الرفيعة فكانوا يفوقون أمهر الصناع والمصورين اعتبارا

ومن الاسباب التي ساعدت كثيرا على هذا التغير الذي حصل للرومانين دخول التمدن الاغريقي حينما دخل بلادهم عقب الحرب البونيقية الاولى وقد أفاد كثيرا في تقدم الفنون والعلوم والآداب ونبع بروميسه عدة من فنون الشعراء مثل اينوس وبلوت ونيانس ولوكريس وكاول وغيرهم وقام أيضا كثير من الخطباء مثل شيشرون وسيلابو غرايك وغيرهم ومن المؤرخين مثل قيصر وسالوست وان كان يعاب عليهم أنهم قلندوا زملاءهم من الاغريق تقليدا حط من شهرتهم

(الفصل الخامس عشر)

عصر الامبراطورية وقيام القياصرة

اعلم ان دولة الرومان كانت متحد في هذا الوقت شمالا بنهر الراين ونهر الطونة والدانوب والبحر الاسود ونهر الفرات وجنوبا بصحارى بلاد العرب وبلاد ايتيمو وياو صحراء لوبيا الشهيرة بليبيا ومن الغرب والشمال بحر الظلمات أو المحيط الاطلانطيقي الذي كان يدعى بالمحيط الاكيتاني والمحيط البريتاني والمحيط الجرمانى أو الشمالى وكانت هذه الدولة الواسعة الاطراف تقسم الى ثمانية وعشرين إقليما اقتسم إدارتها أغسطس مع مجلس السناتو فترك السناتو الاقاليم الخاضعة لروميسه خضوعا تاما وكان عددها ثلاثة عشر إقليما منها سبعة باورو وياوهى صقلية وسردينيا وقرصقة وبلاد الغالة الترونية وقسم مينيكا (الاندلس) من اسبانيا ومقدونية واخاثة ببلاد اليونان وجزيرة أقريطش

(كريد) وثلاثة بيا سياهي مملكة برغامس القديمة و بانيا وبافلاغونيا (ولاية قسطنطيني)
وبلاطون وجزيرة قبرس وثلاثة بفر بيقية وهي بلاد نوميديا (الجزائر) وأفريقية الحقيقية أو
أراضي قرطاجنة قديما وبلاد سيرينايمك (برقه)

وحفظ أغسطس الأقاليم الغير خاضعة تماما لتمكن بذلك من وجود القوى العسكرية تحت يده
يفعل به ما يشاء وهذه الأقاليم كان عددها خمسة عشر إقليم منها عشرة باور وبا وهي بلاد الغالة
السلتية وبلادا كيتانه وبلاد البليقية وبلاد تر كونه باسپانيا وبلاد لوزيتانيا وبلاد تيبا السويسره
(بريزون وتيرول وشمال لومبرديا) وبلاد قنديليسيا (بالشمال الشرقي من بلاد السويسره والتيرول)
وبلاد نوريكيا (من بلاد النمسا) و بانونيه (بين الدانوب شمالا والبلير يا جنوبا) وبلاد موسيا
ونلناسيا (خروات) وابليريا وأربعة في آسيا وهي كايكيا وغالاسيه وسوريه وفينيقية وواحد
في أفريقيا وهو مصر

ولما رأى أغسطس نفسه سييدا على الدولة الرومانية وتلقب بلقب امبراطور وان الامه قد
أنهكتها الحروب بادر بقفل هيكل جانوس^(١) لثبت أن امياله سلمية محضة وقد توصل الى ان صارت
ارادته لاترد وأوامره لاتنقض واستحوذ على جميع الوظائف العاليه بين دينية وسياسية وأخذ
في إمالة الامه اليه بما كان يبذله للعامة من الاموال والاقوات وإقامة الافراح والولائم والاعباد
ليشغل الامه عن التداخل في أعمال الحكومة وكان يحترم أعضاء السناتو واحتراما زائدا

ولما كانت الدولة الرومانية محتاجة الى وجود جيش دائم بالنسبة لموقعها وافتار الامه المتوحشة
على أطرافها في كل وقت اهتم أغسطس بتنظيم جيش مدرب قوى وأخرج العبيد من بين الفرق
الرومانية وجعل للجندي علوقه شهرية قدرها ١٣ فرنكا تقريبا وحدد مدة الخدمة العسكرية
وجعل للجنود معاشا متي تر كوا للجيش وخصص لحماية المدينة جنودا وكان الجيش البري يتركب
من عشرين فرقة كل فرقة عددها ٦٠٠ جندي موزعة على جميع حدود المملكة وكان
الرومانيون قبل ذلك لا يعرفون فرق العساكر البرية الدائمة وصنع أغسطس دور صناعة للبحرية
وكان الغرض الاصلى من عمارة السفن التي أحدثها العما هو حفظ الذخائر الحربية والوصول الى
أجزاء المملكة بجزرا وذلك لان الرومانيين كان تحت حكمهم البحر الابيض الرومي والبحر الاسود
وكان في ذلك الزمن لا يسافر بجزرا الا فيه ولم يكن لهم وقتئذ عدو يراجهم في التملك على ذلك
البحر وبلغ أغسطس أيضا أربعة أساطيل كافها بخفارة الأقاليم وحنظ الدولة من جهة البحر
وكانت هذه الاساطيل ترسو بمدن راقين وميزين وفرنيجوس والبحر الاسود وقد أدت هذه

(١) جانوس شخص ورد ذكره في خرافات الرومان اعتقدوا انه اتى من بلاد اليونان قديما واستمر قطعة أرض صغيرة
شيدت عليها مدينة رومية وكان شيد مدينة كان هو ملكها ويقولون ان الآلهة ووجهه خاصية معرفة الماضي والمستقبل
وكان يوجد حسب اعتقادهم بين سنتي ١٤٠٠ و ١٤٥٠ ق م ولما أتى رومولوس لتأسيس رومية كان جانوس
في صف المعبودات الكبيرة وكان الرومان يتضرعون اليه في الشدائد ويخصونه برأس ووجهين اشارة الى انه يعلم
الماضي والمستقبل ويسد اليسرى مفتاح كأنه يفتح السنة الجديدة المسمى أول شهرها باسمه (يناير) وفي بدء الخبي
قضيبي وهر سلاح البوابين عند الدار ومان وقد شيدوا لهذا المعبوده كالاخراج رومية وكان هذا المعبد يستمر مفتوح
الابواب مدة الحرب مغلقة هذا السلام وكان هذا الهيكل يسع جميع أعضاء السناتو ولم يلق مدوز من يبلغ ألف سنة
الاعمان مرات

التغيرات ضرورة لتعديل في مالية البلاد وأصلحت كذلك جباية الاموال وجعلت للدولة ميزانية مالية ثابتة قدرها المؤرخون بنحو ٩٦ مليوناً من الفرنكات وقد اشتهر عصر اغسطس في تاريخ الرومان بالتقدم في المعارف والآداب حتى سمي بالعصر الذهبي حيث نبغ فيه في الشعر مثل فيرجيل وهوراس وافرديد وغيرهم وفي التاريخ مثل تيتليف وتروغ وپومبيه وغيرهم وكانت حاشية اغسطس تصبوا الى المعارف والعلوم فكان ذلك من الاسباب الداعية لارتقاءها بعصره وكثرت ايضاً دور الكتب وشيد اغسطس برومية مباني فاخرة بين عمومية وخصوصية وحث الامة على تحسين رومية بقدر ما تصل اليه استطاعتهم ومع ما كان عليه زمن اغسطس من السكينة والسلم اضطرته الاحوال للقيام ببعض الحروب لتقاع الامم المستقلة النازلة بداخل الدولة أو لحماية أطرافها من الاغارات فمن ذلك حصول الثورات بجهات جبال الالب واسبانيا فأرسل على العصاة ترانتيوس فارون فأخضعهم وبعد ذلك أشهر حرباً على العرب وأهل ايتيوبيا ولكنهم تآت بما كان يؤمله وضم الى الدولة أراضي بعض القبائل المتوحشة الكائنة بجنوبي نهر الدانوب وبعد ذلك صارت تلك الاراضي حدوداً للدولة من تلك الجهة (١٥ ق م) وأرسل قواده على الجرمانيين فأخضع قسماً عظيماً من بلادهم ضم الى الدولة الرومانية الا ان عامه المدعو فاروس لما لم يحسن القيام بحكومة تلك الجهات خرج عليه الجرمانيون وحاصروه ثم انقضوا عليه وقتلوه وهو ومن معه من الجيوش فأكب ذلك اغسطس لما بلغه حتى يقال إنه شق ثيابه وصرخ قائلاً (فاروس فاروس رد الى جنودي) ولبس لذلك شعاع الحداد وتضرع الى المعبودات في طلب النصر ثم ياد بارسال القواد والجنود فانتصروا على الثوار نصر اميناً ثم مات اغسطس قبل ان يعلم بانتصار الرومان (١٤ م)

وفي أيام هذا القيصر كان ظهور عيسى بن مريم على نينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فكان ميلاده قبل الهجرة بستة وثمانين وعشرين سنة بعد ولادة ابن خالته يحيى بن زكريا بثلاث سنوات وبموال عيسى عليه السلام الذي حصل بعد نحو عشرين سنة مضت من ملك اغسطس أرخ النصراري وآريخهم وكان من خبره عليه السلام ما هو معلوم وكانت ولادته بقريه بيت لحم من عمل القدس وقدمت بعد ولادته رسل ملك فارس في طلبه ومعهم هدية فلما علم هيروس نائب قيصر على بيت المقدس طلبه ليقتله فسارت أمه مريم به وعمره ستان على حمار ومعها ابن عم لها وهو يوسف النجار حتى قدموا الى أرض مصر فسكنوها مدة أربع سنين ثم عادت به أمه ومعها يوسف النجار وعمر عيسى ست سنين فنزلت به مريم قريه الناصرة في جبل الخليل فاستوطنتها ثم أوحى اليه بأن يدعو بني اسرائيل الى عبادة الله تعالى فطاف القرى ودعا الناس الى الله تعالى وأبرأ الكه والابرص وأحيا الموتى باذن الله وبكت اليهود

وقام من بعده طبريوس ابن زوجته ليثى كانت ولادته من زوجها الاول كاود طبريوس نيرون وكان يتصف طبريوس المذكور بما لا يحمد من الخصال فكانت أقواله غير أفعاله وكان يخاف من جيريمايكوس ويضمر له الشر ولو أن اغسطس أوصاه بمحبته وكان جيريمايكوس محبوباً لدى الامة لانتصاراته على أعدائها فطلبه طبريوس الى رومية وبعد أن غمره

بالانعامات والهدايا أرسله الى الشرق لردع أمة البارت والارمن وعين في ذلك الوقت ييزون حاكما على
سوريه وأوصاه سربعرقلة مساعي جيرمانيكوس فقام ييزون بجمع اليه ودس جيرمانيكوس السم
فمات سنة (١٨٠ م) ولما وصلت زوجته وأولاده الى رومية قابلها الشعب بالترحاب وكان حزن
كثير الموت جيرمانيكوس ثم أقيمت القضية على ييزون امام السناتو وشهد عليه الشهود بذنبه وتخلي
عنه طبريوس فقتل نفسه

ولما تخلص طبريوس بذلك من عدو به شرع في اظهار مظالمه فانتزع من الامه كثير من
امتيازاتها وأعطاه السناتو وتغلب عليه بأن أمر أعضائه بعدم الاقتراع بعد ذلك الا بصوت جمهوري
بمحضور الملك أو نوابه وبذلك استبعد السناتو وحط من شأنه كثيرا وتبع الاشراف والعظماء فقتل
منهم ونفي كثيرا وانتخب أحد أصحابه المدعوسيجان وجعله وزيراً ومنحه سلطة مطلقة عامة ولما رأى
سيجان المذكور أن عائلته طبريوس أخذت في عرقلة مساعيه الرديئة لانه كان يسعى لان يكون
امبراطورا أثار عليها غضب طبريوس فقتل منها كثيرا ثم أشار على طبريوس ان يعتزل رومية ليستريح
من مشاق الاعمال لضرورة ذلك اليه لكي ينقده هو بالسلطة في رومية فانصاع لرايه وسافر الى جزيرة
كارى (Caprée) ^(١) وهناك عكف على ملاذ الهيمية وكانت تصله اخبار رومية من سيجان
الذي أخس في المظالم

ثم ان طبريوس انتخب سيجان لان يكون قنصلا معه وأجاز ذلك السناتو لمدة خمس سنوات
ثم ان طبريوس قلب له ظهر الجن لما علم بخت نيته وصمم على قتله فتم له ما أراد وأخذ العمامة بحسبه
فصعقوا به أعمالا وحشية وكذا قتلوا أولاده الثلاثة (٣١١ م)

وبعد موت سيجان أطلق طبريوس يده في المظالم فكان يقتل البرىء والمسىء بلامتياز بينهما
وكان يحضرا عددا من قضى عليهم فرحا غورا فكان ذلك سببا في حنق الامه عليه ثم ان الهموم
احتاطت به من كل جانب كأن نفسه الخبيثة استشعرت بما ارتكبت من فظائع الامور فأخذ
جسمه في الهزال وقواه في الاضعلال وأخذ يهيم في البلاد فلا يجده راحة ولما وافاه أجدله هلت
الامه وطارت فرحا ومدة حكمه ٢٣ سنة (سنة ٣٧ م) ومع ذلك فقد احتفلوا به عند
موته وقيل موته بأربع سنين رفع عيسى بن مريم الى السماء وقصة رفعه مشهورة حاصلها أنه لما
تنبأ وأظهر المعجزات وأمر اليهود بالزهد والتوبة من المعاصي لم يصدقوه إلا اثنا عشر رجلا وكذب
به عامة اليهود واتهموه بما هو برى عنسه ثم اتفقت أجبازهم على قتله وطرقوه ليلة الجمعة فقيل
انه رفع عند ذلك وقيل بل أخذوه وأتوا به الى بلاطس النبطى شحنة القدس من قبل طبريوس وراودوه
على قتله وهو يدفعهم عنه حتى غلبوه على رأيه فأمكثهم منه وعندما أدنوه من الخشبة ليصلبوه رفعه الله
اليهولة من العمر ٣٣ سنة وثلاثة أشهر فصلبوا الذى شبه لهم كما أخبر الله تعالى والى هذا المثلث
تسب مدينة طبرية بالشام

وقام من بعده كيبوس كاليغوله بن جرمانيكوس وكان من صغره تعود على مواقف النزال
لانه ترى وسط الجنود فكانوا يحبونه ولهذا لما جلس على تخت ابتهجت الامه به وظنوا أنه سيكون

(١) جزيرة صغيرة تطلق نابولى

امبراطورا عظيما تخفف عن الامة بعض ما كانت تشكو وتثمنه ومنحها الحر به بعد الظلم ولكنه أصيب بعد قليل بخلل في قواه العقلية فانقلب الى وحش مخيف فكان يرتكب من الاعمال الشنيعة ما لا يوصف ومن الدنيا القبيحة ما لا يعرف وصار يسخر ينجونه ما كان طبريوس جمعه من الاموال ليستعين به عند الحاجة ولما نضبت ثروته صار يقتل الاغنياء ليصادرهم ويستولي على أموالهم ومن أعماله في ذلك أنه باع في أسواق مدينة ليون أنثا وجواهر أسلافه بحجة أن أشياء منها كانت ملكا لقيصر وأغسطس وطبريوس وكان يجبر الاغنياء على ابتياعها بثمن فاحش ومن أعماله الجنونية أنه اتخذ لخصانه وكان يحبه كثيرا اصطبلا من الرخام ومذودا من العاج وعمدة من الاربعوان وقلادة من اللؤلؤ حتى وهبه منزلا تاما به من العبيد والاناث شيء كثير وأمر بأن يذهب الناس وياكلوا عنده حتى يقال انه كان في نيته ان يرشحه الى منصب القنصلية وكانت حياة الامة عنده لاتساوى الا قليلا فكان ينادى في المجتمعات بأعلى صوته ويقول إنه يريد الموتى أن يكون للامة الرومانية رأس واحدة حتى يتمكن من قطعها بضربة واحدة ومن أعماله الحربية أنه أشهر على الجرمانين حربا وعلى البريتون أخرى ففي الاولى منهم ما جعل في محضه على أعناق العبيد بعد أن أمر سكان المدن المجاورة بأن يتفقوا ويرشوا بالماء الطرق التي يسير فيها ثم لما وصل الى شاطئ نهر الراين أمر بعض الألمان من حاشيته بأن يختبئوا في غابة ثم هجم عليهم وأخذهم أسرى ورجع بهم الى وطنه وفي المحاربة الثانية قاد جيشه الى شاطئ البحر ثم أمر بضرب الابواق علامة على الجملة واقتصر بأن جمع من شواطئ البحر بعض القواقع ورجع بها مسمايا اياها غنيمية الاوقيانوس ومن جنونه أنه أراد أن الامة تعبده فشيده لنفسه هيكلًا وعند رجوعه من بلاد الغالة عمل في رومية أعمالا منكرة جدا ثم حنق عليه أحد العظماء المسمى كاسيوس شيرير يان بسبب ثقل جنونه وضربه بختنجر فقتله وكان حكمه أربع سنوات ثم أخذ جسمه سرا وأحرق حسب العادة ودفن (٢٤١ م)

وقام من بعده كلوديوس وهو ابن دروزوس أخو طبريوس وكان كالغولة أبقاه على قيد الحياة لعدم خوفه منه وكان كلوديوس لما قتل كالغولة محتبئا في القصر الماركى ولما وجدته العسكر أخذوه وهو يرتعد وقالوا له كن ملكا علينا ثم أخذوه وطافوا به حتى أوصلوه الى المعسكر فلم يكن من القنصلين والسناو والامة الا تثبت هذا الانتخاب الذي وقع على أبله بعد مجنون وكان يضرب بيله المثل وكان كلوديوس مع ذلك يتحلى ببعض حلي العلم وقد كذبت قوائمه ما كانت ترميه به الامة من البلا وله من الاعمال المفيدة نصيب وافر فقد أصلح حالة العبيد ورفع بعض المطام وكان يميل الى العدل وكان ضعيف العزيمة فكان لا يتصرف في شيء الا بحسب ارادة خواصه وقد انتهزت زوجته سالين من تلك الحالة فرصة وانكبت على الملاهي الفاخرة ولوثت قصر ملوك رومية بأعمالها الخبيثة وفي عصر هذا الامبراطور التبعس انتصرت الجيوش الرومانية في كل مكان نصرا مجيدا فدخل قائده أولوس بلانيتوس برتانيا العظمى وتوصل لان يعمل ما لم يتمكن قيصر ولا أغسطس من عمله وذلك باستيلائه على الجزء الجنوبي من الجزيرة المذكورة وأسس به مستعمرة ونضع الجرمانيون بالارادة رومية وصارت بلاد ترانس اقليمار ومانيا واستولوا

بالشرق على بلادارمينيا وأخضعوا بلاد ليدانيا وضمته فلسطين الى سورية وأخضع بوليفوس
رجيتا بأفريقية المغاربة ولما سمع كلوديوس من زوجته المذكورة قتلها وتزوج بعدها بأخرى كانت
عائلتها في الصفات القبيحة ثم تمكنت من أن دست له السم فقتلته لبعض أغراضها بعد أن حكم
١٤ سنة (٢٥٤ م)

وقام بالامر بعده نيرون وكان سنه ١٧ سنة وكان مؤدبه الفيلسوف سينيك وقد اتصف
في أول حكمه بالعقل والاعتدال فأزال المظالم ورفع الضرائب وأعان أعضاء مجلس السناتور ومنح
الجنود راتباً من الخنطة وأظهر الكرم لكل الطبقات وكانت أمه اغريبين تريد أن تضع في قبضتها
كل قوة فكانت تقابل السفراء بنفسها وتكتب للملوك والامراء وتحضر مفاوضات السناتور تحلف
ستار وكانت هي الحاكمة في الحقيقة ولما رأى سينيك وپوروس مؤدبه ذلك أوغراضه بالملك الشاب
على أمه وبذراف قلبه بذور العداوة فنجوها وحرصاه على التباعد عنها فلما رأته منه ذلك ابتعدت عن
الداخله في الاعمال وقربت منها بريكانيكوس كأنه تريباصعاده على التخت مكان ابنتها فبادر نيرون
وسقى خصمه سمأزعا فأنثت من ساعته ثم قتل زوجته وثنى بأمه

وبعد ذلك انكب نيرون على الملاهي والملاذ وكان يلعب بنفسه في التيارات وغيرها ولما
نضبت خزائنه صار يقتل ويصادر الاغنياء لانه أخذ أموالهم ثم التفت الى پوروس وسينيك ففسد
السم للاول وثنى الثاني لانهما كانا ينصحانه ليعدل عن الطريقة التي يسير فيها ومن أعماله أيضاً أنه
أمر باحراق مدينة رومية بحجة أن مبانيها رديئة البناء وطرقتها ضيقة معوجة فأشعلوا بها النيران
من عشر جهات دفعة واحدة فاستمرت بها النيران مدة ستة أيام وسبع ليال وكان أثناء ذلك يشرف على
هذا المنظر من أعلى برج يترجم بقصيدة من انشائه ثم أمر فشيده واليه قصر افسيس اسمه بالبيت الذهبي
صرفوا عليه أموالا طائلة أخذت من المدن الحرة والاقليم المفتحة والامم المتخالفة ولما كان الرأي
العام يتهمه باحراق رومية فخاص من ذلك بأن ألقى تبعته على النصارى فاضطهدوا وعذبوا عذاباً
شديداً وكان يزعم أن دينهم مكر وهين عند الجنس البشري وأن التعذيبات العادية ليست
كافية بالنسبة اليهم فأخذ بعضهم وأمر فوضوا داخل جلود بعض الحيوانات وألقوا الى الكلاب
فأكلتهم وأخذ غيرهم وألبسوا قمصاناً مدهونا بالقار وأشعلت فيهم النيران وكان الامبراطور يشاهد
تلك المناظر البشعة بنفسه وهو الذي قتل بولص وبطرس الخواريين (٦٦ م) وكان قتل بطرس
بالصلب ولما أرادوا صلبه طلب ان يصلبوه بحيث تكون رأسه الى أسفل ورجلاه الى أعلى على عكس
صلب السيد المسيح على زعمهم أما بولص فقطع رأسه لانه كان رومانياً ثم تأمر عليه بعض رعيته
خوفاً على أرواحهم وأموالهم وأعرضهم فلما اكتشف على حزبهم أخذهم ونكل بهم تسكيلاً
ومن ضمنهم مؤدبه سينيك

وفي هذا العصر كانت الجيوش الرومانية منصورة في الغرب والشرق معافكان قائده
سيوليتونيوس يقع العصاة بريتانيا العظمى وثبتت قدم السلطة الرومانية بتلك الجهات وقائده
في الشرق المدعو كوربولون يحارب أمه البارث وينصر عليهم النصرات العديدة ثم غدر نيرون
بهذا القائد الشجاع وقتله بمدينة كورانته حينما ذهب نيرون اليها ليحضر الاعاب الاولومبيادية

ثم ان الامة تألبت على هذا الظالم الغشوم وخرج الثوار بأطراف المملكة واختل نظامها فضاقت الدنيا في عينيه وانسدت أمامه أبواب الحيل وأراد قتل نفسه مرارا ثم ان السنوا اعتبره عدوا عموما للوطن ولما بلغه ذلك تناول خنجرين في آن واحد وطعن بهما نفسه في رقبتة وساعده على ذلك كاتب سره أبا فرويدت وفي مدته انقضت عائلة أغسطس سنة (٦٨ م)

واعلم أنه بعد موت كلود كانت كل فرقة من الجنود تجتهد في أن ينتخب الامبراطور من بينها فادت هذه الاثره الى الخصامات والى احداث نوع فوضى وكان الجنود اتخبوا في أول الامر غالبه حاكم اسبانيا ونادوا به امبراطورا فاشرح من ذلك صدر الجنود والاهالي أمهلا في الحصول منه على العطايا المعتادة التي عودهم عليها سلفه من القيصرية عند التولية الا أن ظنهم قد خاب ومن أعماله أنه قتل وزراعيون واجتهد في اصلاح الميزانية وأخيرا خرجت الامة عليه خصوصا بالجنه وقتلوه سنة (٦٩ م) بعد أن حكم سبعة شهور

ثم قام بعده أوتون وكان مقر باعندنيرون ولما جلس على التخت فرق العطايا على الامة والجنود وقد اتصف بالحلم والمهارة الا أن بعض اشياءه ما لوانعه الى فيتيلوس الذي كانت الجيوش الرومانية نادت به امبراطورا بجزمانيا وكانت قواده تتقدم على رومه بقصد خلع أوتون الذي لم يبلغه ذلك ترك حالة الرفاهية التي كان عليها وترأس على جيوشه فلما اتقى الجيشان انكسر أوتون وهرب ثم قتل نفسه بعد أن حكم ثلاثة شهور

أما فيتيلوس فلم يشترك بنفسه في تلك الواقعة بل ان قواده هم الذين ساروا أمامه ليأخذوا له التاج وكان يتبعهم من بعيد ولما وصل ايتاليا تفرج على موقع القتال الذي اتصرف فيه قواده ثم تقدم ودخل رومية وجلس على التخت وكان يمضي أيامه في الاكل والشرب طنانا ان الدولة وليمة لا تنتهي وكان يصرف على ما كفه ومشر به أموالا طائلة ويقال ان أخاه ليسيوس لمساعدته قدم له في أكلة واحدة ألفي سمكة لذينة وسبعة آلاف طائر وتصور مرة ان يصنع مائدة جسمية تشتمل على أكباد الاسماك النادرة وأمنحاق العقبان والطواويس والسنة الطائر المسمى بالتحاف وتخاع بعض الاسماك ويقال انه لتحضير هذه المائدة لزم الحمال لان تسير السفن من أول خليج البنادقة لغاية مضيق قابس قصد صيد الاسماك المطلوبة وكان هذا الامبراطور الذي يأكل خراج الدولة على سفرته سفا كالدماء بقدر ما كان شرها قتل كثير من أصحابه وأقاربه ثم تأمر عليه الجنود ونادوا بعزله

ولما بلغ الامة الرومانية التي سميت هذه الحاملة أن الجيوش نادت بقسباسبان امبراطورا فرحت لذلك جدا ثم بايع قواد جميع الجنود والاساطيل هذا الامبراطور الجديد ولما دخل قائده المدعو انطونيوس برعوس رومية خلع فيتيلوس نفسه واخفى بيت أحد عبيده ولما وجدوه أخبروا بحبوه على وجهه وأحضره الى الميدان العمومي ومن قوام لابسه ووضعوا حبلان في عنقه وكتفوا يديه وبعد أن عرّضوه وقتلوا هانات والسباب قطعوه اربا اربا وحكم ثمانية شهور سنة (٧٠ م)

وكان فلافيوس فيسباسبان المذكور من عائلة حقيمة في ايتاليا الوسطى وكانت له شهرة في حرب بريتانيا مدة كلوديوس ثم تعين لقمع العصاة بيلاديمونا وبينما كان يطارد العصاة نادى به الجنود امبراطورا فبادر بالعودة الى رومية تارك قيادة الجيش لابنه طيطوس وكان

فيسباسبان يتصف بالقناعة والنشاط والعدل فاصح الحاكم ونظم الجيش ورتب المالية وفي زمنه شق الغول والجرمان عصا الطاعة فجرد عليهم وقائلهم وبعد قتال استمر زمنا أذعنوا لطاغته وكان طيطوس أبقاه فيسباسبان يطارد اليهود ويحاصر أورشليم الآن تلك المدينة امتنعت عليه فلما أعيته الحيل في الاستيلاء عليها بنى حوائها سوراً حصيناً وأرسل للمعاصر بن أخذاً بناء جلدتهم وهو يوسفوس المؤرخ يطلب منهم التسليم فلم يقبل اليهود وكانوا يزعمون بالمدينة أن المسيح سيظهر عن قريب ويخلصهم من أعدائهم لأن اليهود يبلاد فلسطين كانوا يعتقدون أن حكم دين عيسى عليه السلام عليهم قد آن وأنه وان الرومان هم خلقاؤه وأعوانه وأنهم ينقلون عن رومه أو يستقلون بأنفسهم فكأنوا يقومون على الرومان ويقاؤون ولاية أمورهم

ولما انقطعت المواصلات بين داخل المدينة وخارجها بتضييق الحصار عزت الاقوات وفسا القعظ حتى أكل بعض الناس أولادهم وعند ذلك هاجم طيطوس المدينة وأعمل السيف في أهلها حتى أبادهم عن آخرهم وكانوا يزيدون عن ٧٠٠,٠٠٠ ألف نفس وخرّب المدينة تماماً حتى جعل عالمها سافها وأحرق هيكل سيدنا سليمان عليه السلام وخرّبه حتى لم يبق منه حجر على حجر سنة (٧٠ م) ثم عاد طيطوس الى رومية وتموظف بأحدى الوظائف الخطيرة وكان فيسباسبان يتصف بالفضل لإلانه استعمل جميع أموال الحكومة في المنافع العمومية وساعداً أعضاء السناو على احتياجهم وأصلح كثير من المدن المتخرّبة والطرق وقنوات المياه وشجع على اقتناء العلوم والفنون وغير ذلك ثم اعتراه مرض مات به ولما استشرع بجزوج ووجهه قال يجب أن لا يموت الامبراطور الا قائماً فأوقفه ومات وهو على تلك الحالة سنة (٧٩ م) ومدة حكمه عشر سنوات

وقام بالأمر بعده طيطوس وكان اشتهر في حروب جرمانيا وبرتانيا وأتمى حروب اليهود كما أحب الرومان ولم يكن محبوباً عند الامم فكانت تلمق به التهم وتندب أعماله وأفعاله حتى شبهته بنبيون الظالم ثم اتضح أنها مخطئة في حكمها لأنه كان سخياً محباً للفعل الخير والمساعدة بعيداً عن الفتك بالرعايا وقد عفا مراراً الجملة عن أساءاته وحتى عن الذين هموا بقتله وقد شيد مباني عمومية وخصوصية كثيرة وفي زمنه حصلت حوادث مفرجة ببلاد ايطاليا وذلك أنه بعد أن مضى على حكمه أربعة شهور تاربر كان ويزوف ثورانها لثاغرب بلاد كامبانيا وطمرت طفحانته المصهورة كثير من المدن خصوصاً هر كولانوم ويومي سنة (٧٩ م) ومات في هذه الحادثة بيلين (١) أحد مشاهير العلماء القدماء وأصاب رومية الطاعون ثم القحط ثم الغرق ثم الحريق وقد خفف طيطوس وبلات الذين تخرّبت بلادهم واستعمل أموال العائلات التي هلكت في اصلاح القرى التي تخرّبت وبعد حريق رومية تعهد للسكان بتعويض كل ما فقدوه فباع لذلك ما يمتلكه حتى آنته والحاصل أنه كان من الملوك الذين اشتهروا في رومية بحب الاصلاح ثم مات مسموماً سنة (١١٠ م) بعد أن حكم

٢٧ شهرا (٨٠ م)

وقام بالأمر بعده أخوه رومسيانوس المذكور وكان جسنوراً شريفاً وقد سعى حراز في خلق

(١) هو عالم روماني طبيعي شهير له مؤلف في الموالبات الثلاثة يتركب من ٣٧ قسماً ولا يزال لهذا الكتاب اعتبار لأن بين العلماء

أخيه وقد أظهر في أول حكمه طيبة وحلما وبشاشة وتشجيعا للعارف التي كان يصبو إليها ويستغل بها وشيخ يدرومية مباني عظيمة وأعاد بناء الكاينبول فوسعه وحسنه ولما أيقن من تمكن قدمه في السلطة انقلبت حسنة سيئات وأسرف في أموال الامة وصادرا لاغنيا وطرد من رومية الفلاسفة والمثجيين وأمر أن لا يغرس بها كرم حتى فاق نيرون في المظالم وقد كان فيه من الجبروت بقدر ما فيه من الجبن وقد اقتضت الحكمة الالهية ان الجبناء غالب الجابرة فيستعينون على حفظ أنفسهم بالجبروت لقدمهم نخوة الشجاعة وقد نكل بالنصارى تسكيلا وثقي بعض أقربائه الذين اعتنقوا الدين النصراني وقتل من النصارى مقتلة عظيمة وجردهم من أموالهم ومن ضمنهم القديس يوحنا الخواري بعد أن عذبه تعذبا شديدا وكان هذا الظالم يريد أن يشتر بالفتوحات كما اشهر نيرون من قبل فأغار على الجرمانين ورجع منصورا بحسب ظنه وكان في ذلك الوقت انتصر قائده المدعو اغر بكونه نصرات حقيقية في بريتانيا العظمى وتمكن من توسيع حدود الدولة لغاية خليجي فورث وكليد وقهر أهل ايكوسيا وكان زوميسيانوس يرى سروره في احتقار السناتو والاعيان ثم لما علمت زوجه أنه صمم على قتلها أغرت عليه أحد عبيده قتلها سنة (٩٦ م) وهو آخر الامبراطرة المسمون في التاريخ بالاثني عشر قيصر

وموت زوميسيانوس زالت عائلته فلاقيان ولم يتفق الجنود على انتخاب امبراطور فسمى السناتو بان نادى بنرفاملكا وكان من عائلة رومانية شهيرة وقد ائسف بالحلم والكرم ومن أعماله رد المنفيين الى بلادهم ومنع اضطهاد النصارى وتقليل المغارم وتفريق الاراضي على الفقراء وهو أول من فتح للدولة الرومانية عصر اسعيدا وهو المسمى بالعصر الذهبي للرومانيين لانه تعاقب فيه على تخت رومية امبراطرة اشهرت زكرهم في التاريخ بمجامد انخصال وجليل الافعال وكانت عادتهم أن يعينوا قبل موتهم من يخلفهم على التخت لتجنب الحروب الاهلية ولم يكونوا من عائلة واحدة بل ان نيرفا أولهم عين تراجان وريثاله وهذا عين ادريان الذي عين انطونيوس الذي عين أخيرا مارك أوريل الا ان نيرفا كان ضعيفا خائرا العزيمة فاستهانت به الامة ولما رأى منها ذلك صمم على انتخاب خلف له فبنى تراجان وجعله خليفة له مع ان له أقارب لم يلتفت اليهم بل نظر الى خير المملكة وكان تراجان أمهر قواده يتصف بالفضائل وعلا النفس ولما عين لهذا المنصب الجليل بعد موت سلفه دخل رومية راجلا في زي بسيط محتقرا بذلك هذه المناصب الزائلة (٩٨ م)

وأول عمل شرع فيه أن فرق على الامة الاموال ولم يكن يعيل الى الأبهة والعظمة الملوكية وكان يهزأ بالتعظيمات التي تؤدها الامة لتمثيل العظمة المتخذة من البروز والرخام ورد الى السناتو مطلق الحرية في الانتخاب وأنشأ بطراف المملكة طرقا عسكرية لتسهيل المواصلات بين أجزائها وابتنى كثيرا من الجسور والنفور في ذلك ثم انكونه على جون البنادقة بايطاليا وذلك لتكثير المتاجرو المعاملات وقد اجتهد في تيجيز بناء هذه الميناء في سنة واحدة فاعترف له مجلس السناتو بأنه يستحق التعظيم والتبجيل فبنوا له هيكلا بالمدينة المذكورة تخليدا ذكره وبقاء اسمه وفي زمنه اضطهدت النصارى وقتل منهم خلق كثير حتى ان تراجان عند مروره بانطاكية قتل أسقفها شرقتا واتسعت حدود الدولة الرومانية كثيرا وافتتح بلاد هسكاريا الحالية ورومانيا وصيرهما أقاليم رومانية

ثم أغار على أمة البارت واستولى على أرمينيا ثم ألبانيا وصيرهما إقليما رومانيا فهادته المملوك وهابته وهادته حتى ملوك الهند واقتحمت مدينتي سيلوقية واكتيزيفون أو المدائن وضم بلاد آشور الى الدولة الرومانية وتذكر الهذبة النصرات الجليلة أقاموا البرومية عمودا ليرزال اللان وبعد أن استراح قليلا بانطاكية من أتعابه هب الى الفتوحات ثانية وسافر بالواقيانوس الهندي ويقال انه كان يريد أن يصل الى ماوصل اليه اسكندر الكبير وبينما كان يريد الذهاب الى بلاد اليهود لفتح ثورتها فاجأه الموت بمدينة سيلمينوت أو تراجانو پوليس بكليكا فاخذ مراده بعد الحرق ودفن تحت العود المسمى باسمه وحكم ١٩ سنة وموته سنة (٢١١٧ م)

وقام بامر الدولة بعد تراجان أدريان حاكم سورية وكان يعيل الى السلام وأهم حروبه كان مع اليهود وقد دمر مدينة أورشليم تماما وبنى مكانها مدينة جديدة سماها بيليا كابتولينا وأنشأ للثتري هيكلا مكان هيكلها (١٣٨ م) وقتل في هذه الحروب أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ من اليهود وما بقي منهم أخذ يبيع كالتباع المشية ولم تقم بعد ذلك لليهود قائمة وتشتوا في جميع أنحاء الكرة ولما لم يكن يعيل الى الفتوحات وتوسيع الدولة ترك غالب الجهات التي كان فتحها تراجان من قبل وجعل نهر الدانوب آخر حدود الدولة من تلك الجهة وشيد بشمال برتانيا العظمى سوراً حصينا طوله ٣٠ فرسخا صد أغارات أهالي يقوسيه وكان أدريانوس يعيل الى الفنون والعلوم وأنشأ رومية وغيرها من المدن كثيرا من الآثار ولا يزال بعضها باقيا يشاهد الآن وأحدث في الادارة الرومانية اصلاحات كثيرة وقسم الوظائف العمومية الى ثلاث طبقات وهي طبقة وظائف المملكة وطبقة وظائف القصر الملكي وطبقة وظائف الجيش ومن نظامات عادلة وجمع قوانين المملكة في قانون واحد ثم أخذ في السياحة مدة إحدى عشرة سنة فطاف بجميع الاقاليم المهمة ومنها مصر ثم حثنا الادارات منشطا العمال باحسان الاخلاق والعوائد والمعتقدات ولما زار مصر أراد أهلها تخليد ذكر سياحته فضر بواحدة من الحديد مرسوسا عليها تاريخ سفره وصوره مدينة الاسكندرية كأنها انسان يستقبل هذا القيصر وهو قادم في سفينته وصوروا القيصر يتلقى هدايا تلك المدينة كأنه يديه للاسكندرية وهي تمديدها اليه للتحية ولهذا أطلق عليه الامم لقب مصلح العالم ثم عكف على ملاذنه بعد ذلك ثم انقلبت حالته وارتكب ما يقدح في سيرته الاولى ثم مرض مرضا ثقيلا ومات بعد أن تحمل الآماصعبة بعد ان حكم ٢٠ سنة (١٣٨ م)

وقام بالامر بعده انطونوس وكان عهدله أدريانوس بالامر قبيل وفاته وتولى في زمنه مناصب عالية ومن حسن طالعه ان مؤرخه كان مارك أوريل الشهير الامبراطور الاثني الذي ذكر وقد اتصف هذا الامبراطور بصفة المدارك وقوة الجاش والرفق والعدل بين الرعية حتى لقبوه بأبي الجنس البشري وقد تمتع الرومان في زمن حكمه الذي بلغ نحو العشرين سنة بسكينة تامة وعدل شامل حتى ازهرت التجارة والصناعة واتسعت دائرة الفنون والعلوم كثيرا ولم يطلق يده في أموال الدولة والرعية كما فعل أسلافه بل استعمل الأموال في تخفيف الآلام وتشيد المباني النافعة وكان يقول ان سعادة الامم هي ثروة المملوك وهو قول حكيم عاقل متبصر في الاحوال ولما عصى يونان

الاسكندرية عليه وقتلوا عامله عليها أتى نفسه يقود جيشا و عمارة بحرية فأدب العصاة وفي عصره كان بمصر بطليموس (١) الفلكي الشهير ولكن لما كانت العصمة لله ولرسوله لم تخل مسيرته هذا الامبراطور من غلطات ارتكبتها وكان موته سنة (١٦١ م)

ثم تولى بعده مارك أوريل المؤرخ الفيلسوف المتقدم الذكّر بعهد من انطونيوس المتقدم وكان تقلب في كثير من الوظائف واشتغل بدراسة وتقرير الفلسفة العالية والآداب النبيلة ولم يكن يقصد غير خير رعاياه وكانت وجهته بتحقيق قول أفلاطون حيث قال (ما أسعد الام اذا كان ملوكها فلاسفة أو كانت الفلاسفة ملوكا) وفي زمنه اضطهدت النصرانية اضطهادا شديدا وهو الاضطهاد الرابع بدولة الرومان وكانت النصرانية امتدت كثيرا في الشرق والغرب وحصل في زمنه طاعون ومجاعة بروسية وكذا فيضان نهري التبر وبو وفي تلك الاثناء شق الجرمان باوروبا والبارت والفرس بأسيا عصا الطاعة فانزعج الرومان بهم هجومهم على ممالكهم حتى خشى على المملكة من التمزيق وكانت مدينة رومية في أثناء هذه الاخطار محكومة بمحاكين مختلفي الامر والنهي في سائر المدن والامصار وذلك أن القيصر مارك أوريل كان من فرط حرصه أشرك معه في القيصرية لوقيوس ويروس فأرسل القيصر على الفرث أو البارت من يقوم بتبعهم وسار مارك أوريل بنفسه ضد الجرمان فأوقع بهم في كل مكان وأظهر في تلك الحرب دراية وإقداما عظيمين ومما يؤخذ به هذا الامبراطور اطلاقه السراح لزوجهته تغلب أحوال الدولة كما نشأ وبينما كان مارك أوريل يسعى في قطع دابر الثوار من الجرمان وادخال بلادهم في عداد الاقاليم الرومانية أصابه مرض بمدينة فينا من أعمال أوستريا مات بها وحن عليه الشعب كثيرا سنة (١٨٠ م) ويقال انه مات مسموما وكان هذا الامبراطور متمسكا بمذهب زينون (٢) الحكيم أحد الفلاسفة المتشبهين فكان من شديده زاهدا في الدنيا ينام على الفرش

(١) فلوديوس بطليموس الرياضي اليوناني المصري الشهير يقال انه ولد بمدينة بيلوز (الطنبة) ونشأ في الاسكندرية في القرن الثاني بالبلاد وقيل يعرف شي حقيقى عن أخبار حياته وله الكتاب الشهير المسمى عند اليونان سينتكسيس وعند العرب مجسطى يبحث عن العلاقة بين الارض والسماء وتأثير الكواكب في الارض وهو يجعل الارض في وسط المسكونة وبقى نظام بطليموس المؤسس على مذهب ابرخوس مقبولا عموما الى أيام قوبرنيكس ولولا العرب لكان كتابه المذكور ضاع ولم يبق عليه المتأخرون فانهم ترجموه في خلافة المأمون بن الرشيد وقد جعل بطليموس هذا رايا بين الرياضيين القدماء أى بعد اقليدس وابلونيوس وارخميدس وهو الذى عرف زاوية انكسار الضوء وبها توصل الى معرفة أمور فلكية وقد ألف بطليموس جغرافية عمومية بقيت الى القرن السادس عشر الميلادى دستور هذا الفن وهو أول من استعمل العرض والطول وبهما عين موقع كل البلاد والمدن وبرهن على كروية الارض وأول من اتخذ جبرئا الحديد احدى جزائر السعادات (قناريه) مبدأ للطول وقد اشتهر ايضا بفن الموسيقى والتنجيم والتاريخ اه

(٢) زينون فيلسوف يوناني ولد في جزيرة قبرس (٣٥٠ ق م) وكان يتعاطى التجارة في أول أمره ثم تعاطى الفلسفة ودرس على كراتيس وزينو كراتيس و بوليبيوس وغيرهم ثم عكف على التدريس وفتح مدرسة في أثينا فطارت له شهرة واسعة وتقاطرت اليه الطلبة من كل مكان وكان بطليموس في بلاد ملك مصر يأمر سفراء في أثينا بنقل كلامه له ولازم التدريس نحو خمسين سنة ومات شيخا كبيرا مكرما خلفه الذكّر وكان رأس فرقة الرواقيين نسبة الى الرواق الذى أسس فيه مدرسته وكان من تعاليمه عدم المبالاة بمصر وف الزمان وإحسان السير واتباع الفضائل ونبذ

الياسة ويعود بده على الرياضة الشاقة كما يروض عقوله على النظر في دقائق الامور والتفكير في
أسوال الكائنات

وقام بالامر بعده ابنه المدعو كود الذي انصف بجيئث الاعمال من صغره حيث تولى وظائف
مهمة فأسرف في جمعها وكل ذلك من تساهل أمه واطلاقها له عنان شهوانه وبجور ما جلس على
الخت عقد الصلح مع الجرمان لمتفرغ الى مشهياته الدينية وأدخل في الجيش الروماني أزيد من
عشرين ألفا من الامم الهمجية وبذلك أطلعهم على أسرار العسكرية الرومانية ومناوراتها بدون ان
يتبصر في ذلك وكان يتباهى بقوة البدنية فكان يضرب القبيل العظيم برمحه فيخرج سنانه من الجهة
الاشرى وله غير ذلك من الافعال الدالة على قوته

وفي زمنه اختلفت الادارة الرومانية لسوء تصرفه فزاد في المكوس وباع الوظائف وصادر الاغنياء
فخفت عليه الامة وصارت تمنى موته من يوم الى يوم ثم تأمر عليه بعض خواصه ودسوا له السم فقتلوه
بعد ذلك وأمر السناو فالتى جسمه في نهر النبر (١٩٢ م) وكان شديدا لشغف بالمصارعة يتباهى
بذلك وله في هذا الامر أخبار غريبة ضربة عن ذكرها صفيحا

وبعد أن تمتعت الدولة الرومانية مدة قرن من الزمان بالراحة والرفاهية وعظمت سمعها وازداد
مجدها وقعت في حالة تشويش واضطراب وحروب عدة قرن وكثر خلع الملوك وقتلهم بعد تنصيبهم بقليل
وعانت الامم الهمجية بالحدود وتمكن بعض رؤسائهم من نوال منصب الملوك وتظاهرت الاقاليم بحب
الانفصال فكان هذا بدء انحلال الدولة الرومانية

وأول هؤلاء الملوك برتينا كس الذي تولى المملكة بعد موت كود وكان شحنة رومية وقد اتصف
هذا الملك بحسن الترمية والميل للعدل والاقتصاد وقد رد الى السناو ما كان سلب منه من الحقوق
والوظائف وأخذ الثورات بالاقليم وسعى بقدر الامكان في رتق ما فتقته كود من قبل ثم خرج عليه
بعض ارباب الحكومة فقتلوه بعد أن حكم ثلاثة أشهر (١٩٢ م)

وقام بالامر بعده ديدوس جوليا فوس وكان ابتاع المنصب الملوكي لان القضاة بعد موت
برتينا كس كانوا أشهر والمنصب الملوكي في المزاد فاشتراه ديدوس المذكور بجمع طائل فلما علمت
الامة ذلك اغتاضت جدا وأخذت تهزأ بالقضاة ونسب الملك اعلانية ولما وصل هذا الخبر الى الجيوش
الرومانية الموزعة بالاقليم الخارجية تمبذوا الطاعة وانتخب كل إقليم امبراطورا خاصا من بين
القواد وكان ممن انتخب سبتيم سفير وس قائد الجيوش بيلادا بيليريا فأسرع بالسير الى رومية لقربه
منها واستولى عليها فعند ذلك استعان ديدوس بالسناو لحمايته فلم يكن من السناو الا أن أصدر حكما
بقتله بعد أن حكم سبعين يوما (١٩٣ م)

الردائل وقسم العلم الى ثلاثة أقسام المنطق والطبيعة والآداب وفسد ان القسمين الاولين اغماهما توطئة للاخير
وكانت مباحثه تنحصر غالباً في تعريف الحقيقة وقال انها مدركة للمواد يشبهها العقل وان كل الافكار صادرة عن
الحواس وفي مباحثه الطبيعية قال ان العالم للانسان مبداً من وهما العامل والمعمول فالعالم انما هو الله والنفس
البشرية والمعمول هو الجسم والمادة وان الله يدبر كل شئ بحسب نوايس العقل أو النظام العالمي ولم يكن عند خبير الا
الفضيلة ولا شر الا الرذيلة وقال ان الشهوات البشرية اغماهي ضعف وأمراض في النفس وكان يبحث على عدم
الاكثرات بنوازل الطبيعة ولم يكن يقول بخلود النفس الشخصية ولم يبق من كتاباته الا القليل اه

أما سيقم سفير وس فانه بعد أن وطد قدمه على التخت سار على رأس جيش لقمع القواد الذين ادعوا للملكية بالاقاليم فتمكن من ابادتهم ثم تتبع العصاة فقتل بهم في كل مكان واضطهد النصارى فاهرب يقتلهم وتعدبهم وقسر يدهم وهو الاضطهاد الخامس وفي عصره اغار البارث على بلاد العراق فاضطر الى الرجوع الى الشرق واستولى على سلوقية وبابل والمدائن وأوقع بالعصاة ثم عاد الى رومية ومارا مصر ولما سكنت الاضطرابات أحسن السيرة وشجع الضائع والعلوم وقصد مجلسه العلماء والمشرعون وكان موتة بعد نيته يورث من أعماله برتانيا العظمى وكان ذهب اليها بخارجة أهل ايقوسيا لما خرجوا عليه وأوصى اولاده بالعدل والسعي لطلب المنفعة للرعايا (٢١١ م)

ثم قام بالامر من بعده وولاه كرا كلا ووجينا وكانت أخلاقهما متضادة فلم يتمكنان من المعيشة سوية باتفاق فكان جيتا وديعا حليما وكان كرا كلا متكبرا شديدا وحشي الطباع وكان أبوهما يري فيهما ذلك وأبأ به قبل موته ثم ان كرا كلا قتل أخاه جيتا ليخلوه الجوع وقتل أيضاً أكثر من عشرين ألف نفس بتهمة أنهم من شبيعة أخيه وكان يغر الخنود بالاموال فلهذا كانوا يطيعون أو امره ومن أعماله الجنوبية انه أمر بقتل جميع سكان الاسكندرية لئلا ينتم منهم على هجوا البعض منهم له ثم قتله بعض الحكام (٢١٧ م)

ثم انتخب الاعيان مكرينوس ولما نادوا باسمه امبراطور لم يعل الى حرب من الاحراب فكان هذا التردد سبب موته ثم خرج عليه الجنود لضعفه وعزلوه ونصبوا بسيانوس من عائلة سفير وس وكان قبل ذلك بمدينة جنس من أعمال سورية كاهن في معبد الشمس ولذلك سموه هيليو غبال ولما بلغ مكرينوس ما فعله الجنود وكان بانظا كمية أسرع في العود فلقائله خصمه الا انه هزم وفر ثم قبضوا عليه وقتلوه ومدة حكمه أربعة عشر شهرا (٢١٨ م)

ولما وقع هذا الامر قام بسيانوس المشهور باسم هيليو جبال ولم يكن يبلغ من العمر اذ ذلك أزيد من ١٥ سنة وكان هذا الامبراطور الذي أتى الرومانيون اليه مقاليدهم في هذه المرة مخنث الطباع يظهر لرعيته في مظاهر نسائية لتليق بالشهامة الرومانية فن ذلك أنه شكل مجلسا من النساء وشيد على جبل بلاتان هيكل فاخر للعبج الذي كان يعبده بجمص رمز اعلى الشمس وقد بذرا الاموال وصرفها بصفة جنوبية بحيث لو قابلنا هابساراف فتيلوس لما وجدنا هاتذكريجاتها إلا أن هذا الامبراطور لم يحكم كثيرا لارتكابه هذه القبائح الخجلة بل تأمر واعليه وقتلوه وشرقتله وألقوا جسمه في نهر التير (٢٢٢ م)

ثم قام بالامر بعده اسكندر سفير يوس انتخبه القضاة ولصغر سنه جعلوا أمه نائبة عنه في الاحكام فقامت بالامر أحسن قيام وطرقت من القصر الملوكي كل السفلة الذين خدموا هيليو غبال وسيانوس من قبل وعالجت جروح الدولة بما قدرت عليه من الحكمة والمهارة بحيث كان زعمها أحسن زمن انتظمت فيه الادارة الرومانية وتمكن هذا الامبراطور بمساعدة مشاهير المشرعين الرومانيين من ان يسن للدولة قوانين عادلة صائبة وكل ذلك كان بإرشادات والدته وأعطى الوظائف لمستحقها ولقد كانت فضائله هذه سببا في معاداة البعض له على حد قول الشاعر

ان نصف الناس أعداء لمن * ولي الاحكام هذا ان عدل

فتأمر عليه القضاة لانه منع عنهم ما كانوا يتعون به من الرشاوى مدة القياصرة السابقين

وأحد ثور بربومية وقتلوا وزراء الامبراطور ونصحاءه وفي زمنه قامت ثورات شديدة باسيا
 حاصلها ان ادعى أحد الفرس المدعو ارتخشار أنه من ذرية كير وش وقتل ملك البارت الخالف
 للرومان وكسر جيوشه وكتب الى سفير يوس كتابا يتهدده فيه ان لم يسحب عساكره من جهات
 آسيا فيادر سفير يوس بالسيرة على هذا المدعى بنفسه وكسر جيوشه فهرب ارتخشار الى كور ولم تقم
 له بعد قاعة

وفي تلك الاثناء حصلت ثورة ييلاد الجرمان اضطرته للعودة سير يعاومها كانت عادة الايام معاكسة
 اصحاب المشروعات العظيمة والافكار العالية وعرقلة مساعيهم في كثير من الاحيان حتى كأن ذلك
 لنظام اقتضاه الخالق جل جلاله لحكم لا تفصل اليها عقولنا اضطررت الجنود وخالفوا أوامر هذا
 الامبراطور العظيم الذي كان لا يتكلم الا بحكم الاخلاق والنظام وكان المتأمر من الجنود تحت
 مشورة رجل يدعى مكسيمونوس صنيعة سفير يوس ويريب نعمته فدخلوا عليه ليلا ويذبحوه بعد ان
 قتلوا حرسه وامه (٢٢٣٥ م) وهو آخر القياصرة المسمون في تاريخ الرومان بالافريقيين وقد
 تحسنت حالة الجنود في زمنه كثيرا وتعهدهم بالمسلبس والاوزام الا انه كان يعاقب كل من يأتي
 منهم امر مخالفا للنظام أشد العقاب فبذلك صلت أحوال الجنود واستقامت سيرتهم وصاروا مثالا
 للادب والطاعة وفي أيامه حصل ييلاد الشرق انقلاب عظيم وذلك بذهاب دولة أمة البارت أو
 الفرس الاولى وظهور رارديشيرين بابك رأس الدولة الساسانية ففتح الاقاليم والمدن حتى عظم اسمه
 وهابته الملوك

ثم بعد موت سفير يوس حصلت اضطرابات وانشقاقات وتلوث الكرسي الملوكي بجيوش بعض
 من الاخلاق لهم من البرابرة مددة من الزمان من سنة (٢٢٣٥ م) الى سنة (٢٢٦٨ م) فكان
 أولهم مكسيمونوس قاتل سفير يوس وهو غوطي الاصل وكان عظيم الخلقه وافر القوة ومما يحكى عنه في
 ذلك أنه كان يستأصل الاشجار بيديه ويكسر بيده أسنان الفرس ويرى في ساحة المصارعة ثلاثين
 مصارعا بدون أن يستريح ويأكل في اليوم الواحد نحو عشرين كايوغراما من اللحم ويشرب خسا
 وعشرين ليتر من النبيذ وقد ارتكب السيا في حكمه بحيث عامل البلاد وأهلها معاملة بلاد
 افتتحها بالسيف وقد قتل من النصارى كثيرا وكذلك قتل اثنين من الباباوات ولما كانت أفعاله
 لا تحمها الرومان حصل الاضطراب للملكة وأول من ابتدأ به بلاد أفر بقمية فانتخب الجيوش بها
 نائب قنصلها المدعو غورديانوس

ولما علم السناتو بذلك صادق عليه واعتبر مكسيمونوس عدوا وميا أما غورديانوس فلم يكت
 الاستساعة أساييع ومات حزنا على ابنه الذي قتله عامل مكسيمونوس على بلاد مورتيانيا فعند ذلك
 انتخب السناتو شيخين من أعضائه وولاهما المملكة سويه وهما يوبيانوس وبالينوس وكان من
 اصحاب الاستحقاق فرضيت بهما الامة

أما مكسيمونوس فلما علم بذلك استشاط غضبا وقصد رومية بنية قتل جميع سكانها الا أن الجنود
 لم يوافقوه على هذا القصد السيئ فقتلوه وفرحت الامة بذلك وبعدها غضب القضاة على يوبيانوس
 وبالينوس وقتلوهما وانتخبوا بدلها غورديانوس الثالث وكان محبوبا لدى السناتو والامة معا وعمره

لما انتخب كان ثلاث عشرة سنة وفي زمنه كان اول ظهور قبائل الفرنك وله معهم حرب وحارب
ايضا الفرس والقوط وانتصر عليهم ولما عاد الى رومية قتله احد الحكام المدعوفيليب واستولى على
تاج المملكة (٢٤٤ م) ويدعى فيليب هذا بفيليب العربي وكان ابوه رئيس منسرا ما هو فقد
تقلب في كثير من مناصب الدولة ولما جلس على تخت اتم حرب الفرس بان تنازل للملكهم سابور
ابن اودشبر عن بلاد ميز وپوتاميا ولم يكن هذا الامبراطور يهتم بامور الدولة اكثر من اهتمامه باموره
الخصوصية

ثم قامت الثورات في كل جهة وانقضت البرابرة كالقوط وغيرهم على اطراف الدولة فانتهز
الجنود فرصة ذلك لتنصيب من يرغبونه من الملوك وفي تلك الاثناء قتل فيليب العربي بينما كان يقاتل
شخصا يريد اغتصاب المنصب الملوكي وذبح ابنه ايضا في رومية (٢٤٩ م)

ثم قام بعده ديسيوس اوديسيوس فتمكن من تسكين الحال نوعا في انظاره لان الاضطرابات وان
كانت تحدث نيرانها الا انها بقيت كآمنة حتى تظهرها الايام مشتعلة كما استعمله ومن أعمال هذا
الامبراطور ان اصدر منشور الجميع الحكام بالاقتال بالامرهم فيه بقتل النصارى والبحث عنهم
وتعذيبهم اشدا للعداب قبل قتلهم فنفذ هذا الامر بكل قساوة وقتل منهم خلق لا يحصى ثم مات
بينما كان يقاتل الغوط (٢٥١ م) وكانت عبادة الشمس والقمر لا تزال سائدة في ذلك العصر
متمسك بها في بلاد مصر والنوبة ولم يتحول عن دين الصابئة احد من العائلات المصرية والنوبية
فكان ذلك يجمعه مما يقوى عزم المضرين على ائادة الفتن والشروع ضد النصارى وصار
تعذيبهم يعد من ابرك المصالح فاقتفوا اثرهم وكثرت فحصر عنهم فهدموا الى صحارى الصعيد
الاعلى بمصر وترهبوا وكانت هذه الطائفة التي هربت اول من ترهب وسكن الديور ويقال ان من
مشيرى الفتن على النصارى هم اليهود وعباد الاصنام من المصريين فكانت الحكومة الرومانية بالديار
المصرية تساعد المتعصبين فكان هذا كله مما يقوى عزم المصريين على ائادة الفتن والشروع
ويبعثهم على القيام على الرومانيين وعدم الاقياد لهم وكان المصريون يساءدون من
تحزب على الحكومة وخرج عن طاعتهم امراء الرعايا والاغراب ويعينون كل من همم بخلع
الامبراطور والغالب ان ارباب الاقتيات على الحكومة الرومانية انما هم من الاجانب فكانت
نتيجة ذلك كله حصول الفتن والحروب الداخلية وما ترتب على ذلك من القحط والوباء مما اهلك
اهالى مصر وقلل عددهم وكان مما يقوى المصائب الرومانية انتخاب القياصرة من ارباب الخمول
والدناة

وبعد ان انتخب السناتور غالوس ورضى الجيش بذلك فبادر بعض الصلح مع الغوط ليرجع الى
رومية سر يعافيتفرغ الملاذ النفسانية ثم ان الغوط لم يراعوا شروط المحالفة السابقة وثاروا على
حدود الدولة الرومانية ثانية فقهروهم القائد اميليانوس الذى نادى به عما كره المنصورة امبراطورا
بعد ذلك

ولما علم غالوس بذلك تصده على رأس جيش الا ان جنوده خائتته وقتلته وحصل مثل ذلك ايضا
لخصمه بعد تنصيبه بقليل ثم انتخب الجنود الرومانية ببلاد الغالة فالير يانوس ولم يتمكن اميليانوس
من قتاله لان جنوده قتله كما قلنا

وفي ذلك الوقت عمت الفوضى أطراف المملكة وصار المنصب الملوكي العوبة في يدي القادرين وأصحاب الاطماع من الجنود وأغار الالمان والغوط والفرس وغيرهم على أطراف الدولة واستباحوها قتلوا ونهبوا ونحر بقاوعم القحط الاقاليم وقتل الطاعون بالاهالي فارتبكت أحوال فالير يانوس وارتعدت فرائسه خوفا واتهم النصرى بالسائس فامرهم بقتلهم فقتل منهم خلق كثير وهذاهو الاضطهاد الثامن للأمور به من طرف ملوك رومية

ثم جهز ابنه غاليناوس وأرسله ضد الفرنك ببلاد الغالة واسبانيا وسار بنفسه على الغوط فقهرهم الا أنه وقع أسيرا في يدي سابور ملك الفرس الذي استعبده وامتنه وكان يأخذه معه مكبلا في الحديد من مدينة الى أخرى وبعد أن قتله أمر ببيع جلده وصبغه باللون الاحمر وعلقه بهيكل النرس تذكارا لانتصاره على الرومان وبينما كان فالير يانوس في قبضة الفرس كان ولده غاليناوس يدير حركة الدولة بفسرده وخرج الثوار في كل جهة فاضطربت الاحوال زيادة عما كانت عليه وانتخب كل جيش روماني بالاقليم امبراطورا عليه فاتفق اذ ذلك ان وجد منهم تسعة عشر امبراطورا في آن واحد أما غاليناوس في تلك الحالة فلم يقاتل منهم أحدا مفضلا جانب السلم عا كفا على مسرته ولعبه الى ان قتله أحد ضباطه بينما كان يريد السير لقتاله أحد هؤلاء الادعياء بجهات ايليريا (٢٦٨ م)

وبعد ذلك أخذت الدولة الرومانية في القيام تدريجيا من سقوطها بارتقاء القياصرة الايليريين على تختها وانتهت تلك السدة المسماة بعدة الفوضى العسكرية ولما قتل غاليناوس كما تقدم قام بالامر بعده كلوديوس الثاني الغوطي وكان قبل ان يرتقى الى المنصب الملوكي حاكما بلاقليم ايليرية وهو أول الملوك الذين ينسبون الى هذا الاقليم الذين ردوا الى الدولة الرومانية بعض ما كان لها من السطوة وصادق السناتو بكل فرح على انتخابه وقد حقق كلوديوس ثقة الامنة فيه وكان قائدا عظيما وسياسيا ماهرا ومدبرا محكما وأول أعماله قمع الغوط بمقدونية وكافوا آغار واعلى ممالك الرومان الواقعة على سواحل البحر الاسود وكتب الى السناتو يقول اتناهنرنا الغوط ولاشينا أسطولهم المركب من ألني سفينة وامتلا ميدان القتال بالخطو والجنث وأخذنا منهم عددا عظيما من الاسرى بحيث نال كل جندي ثلاثة أرقاء ثم مات بعده بالاطاعون بقليل (٢٧٠ م)

وقام بعده بالامر أوريليانوس بعهد منه ومن أعماله الحربية قهر السمرات^(١) والغوط والمر كومان^(٢) والوندال ثم آغار بعد ذلك على الزبا المعروفة عند الاوروبيين بزوبيا ملكة تدمر وكانت تخضع على جزء من الاقاليم الرومانية بالشرق فانتصر عليها في وقتين بانطاكية وحص ثم قبض عليها بينما كانت تعبر الفرات لما أتت الى حضرته سألها الامبراطور المذكور كيف انها

(١) أمه قديمة كانت منتشرة شمال أوروبا من بحر بلطيق الى بحر بنطس وقد استخدمتهم متريدات في جيوشه لمحارب الرومان ثم لاشي الغوط دولتهم بالقرن الثالث قبل الميلاد ثم اختلطوا بجنس الصقالبة وسبأني ذكرهم بأزديان في دولة الروسيا

(٢) المر كومان أمه من الامم القديمة بأوروبا كانوا يجرمانيا ثم استوطنوا بلاد بوهيميا ثم آغاروا بعد ذلك على ايطاليا وقد تكبد مارك أوريل كثير من المصاعب حتى ردهم على أعقابهم

تجاسرت على قتال ملوك الرومان فأجابته قائلة اني اعترف بك امبراطورا لان تصارك امانا غالبا نوس
وخلافه فلم يكو تواملو كا (٢٧٣ م)

ثم قصد بلاد الغالة وانصر على تريكوس العاصي ثم دخل رومية بأهبة ومو ك ب يعادل ما كان
يفعله الرومان مدة سطوتهم العظيمة وتبع عربته الملو كية المزينة بانقرالينات وأجلها أسرا منهم
الزباء (١) وعليها من الخلي والجواهر ما لا يوصف وقد اهتم هذا الامبراطور فزال كثير من مصائب
الدولة واضطهد النصرى وقتل كثيرا من مطارنتهم وأساقفتهم وقسمهم ثم قتله أحد عبده بينما
كان يستعد لقتال الفرس (٢٧٥ م)

وقام بعده ناسيتوس انتخبه السناتون من الايليريين وهو وان كان شيخا واسع المعرفة في
الادارة كريم النفس الا ان الدولة اذذاك كانت تحتاج الى بطل مقدم في امكانه تقع الجنود المتردة
ورد البرابرة الثائرة ومع هذا فان ناسيتوس المذكور لم يمكث زمنا طويلا بل مات أو قتل في رواية
بعد أربعين شهرا من حكمه

ثم انتخب جيش الشرق بروبوس مكانه وكان قائدا ماهرا فقتل من البرابرة نحو ٤٠٠٠٠
محارب ببلاد الغالة وغيرها ونجى من اغارتهم نحو سبعين مدينة ثم تعقب غيرهم من البرابرة الذين
كانوا يعيشون في الاقاليم فربذلك الى العلم الروماني مهاجرتهم السابقة ثم انتقل من هناك الى بلاد الشرق
وقمع بعض العصاة بآسيا الصغرى فهابه الفرس وطلبوا منه الصلح فأجابهم الى ذلك بشرط موافقه
جدا وكان يقول لا يجب ان الجندى يأكل خبزه بلا عمل يؤديه لهذا كان يأمر الجنود وقت
السلام بفلاحه الارض وتوسيع نطاق الزراعة وتشديد الحصون وبناء الطرق ولما لم يرد ذلك
في أعين الجنود تآمروا عليه وقتلوه ونسب عن موته حزن عام في جميع الدولة وتأسف عليه
الكل حتى الجيش الذي كان شق عليه عصا الطاعة وشيدوا له قبرا فخرا كتبوا عليه ما يدل على
اعتبارهم له (٢٨٢ م)

ثم اتفقت الجند على تولية كاروس فاستمر في قتال البرابرة وانتزع من الفرس بلاد ميزوپوتاميا
ومدينتي سالوقية والمدائن الا ان الجنود قتلته في هذه التحريده ويقال انه أصيب بصاعقة فمات وخلفه
ولده كارينوس ونومير يانوس وبينما كان هذا الثاني يقصد محاربة الفرس قتله أحد الحكام
الرومانيين وعند هانادى الجنود باعسطس قائدا حرس القصر الملوكي المدعو دقلديانوس فقتل
قائل نومير يانوس ثم سار على رومية فخلع كارينوس حيث كان منهم كما على ملاذه

وبينما كان دقلديانوس على أبواب رومية كان كارينوس مضطجعا على سرير من الورود
يحيط به المغنون والمطربون والمضحكون غير مهم بشئ الا انه مع ذلك انتبه من غفلته لما علم بقصد
دقلديانوس وقابله بجنان ثابت وقهره الا انه لما كان مكرها وعند جنوده ذبحوه بعد نصرته بحيث
ان دقلديانوس المقهور توصل الى الجلوس على تخت المملكة كما كان يتقنى (٢٨٤ م) وهو
آخر الملوك الايليريين الذين بسعاهم الفاضلة سرت روح الحياة والقوة في جسم الدولة الرومانية
الهزيلة

(١) تعرف بزفوية ملكة تدروهي الزباء الشهيرة في تواريخ العرب وسياق ذكرها عند الكلام على ملوك المناذرة بالعراق

أما أصل هذا الامبراطور المشهور من عائلة حقيرة وكان في أول أمره جنديا سيطا ثم ترقى مدة
 بزوبوس الى أن ارتقى لوظيفة الفئضية وقيادة الحرس المملوكي ولما نال منصب الملوكية تفكر أنها
 عبء ثقيل لا يقوى على حمله شخص واحد فلهذا انتخب مكسيميانوس لقتال البورغوندي (١) والفرنك
 والامان الذين كانوا يعينون ببلاد الغالة فانصر عليهم وشتهم الا أنه لم يتمكن من التغلب على
 كارسيوس الذي انتخبه الجيوش الرومانية بريتانيا العظمى امبراطورا ولهذا اضطر دقلديانوس
 ومكسيميانوس بأن يعقدامعه صلحا

ولما قامت الثورة بكثير من اقاليم السلطنة الرومانية أوجد منصفين عالين فصارت الدولة بذلك
 تحت إمرة أربعة أمراء ثم وزعوا بينهم الاقاليم السائرة فكان الشرق من نصيب دقلديانوس
 وايتاليا وافر بيقية وجزائر البحر من نصيب مكسيميانوس وصار للدولة أربع عواصم مختلفة فكانت
 نيقوميديا لبادبثينا عاصمة للشرق وميلان عاصمة ايتاليا وتريف وارل عاصمة لبلاد الغالة وسيرميوم
 عاصمة لبلاد ايليريا أما رومية فلم يكن لها مدخلية في هذا الترتيب الحديث ولم يكن للسناو أدنى
 سلطة بل كان هؤلاء الاربعة بيدهم زمام السلطة المطلقة وأوامرهم معتبرة كقوانين يجب السير
 بموجبها بدون انتظار مصادقة السناو عليها وبذلك أزالوا كل أثر للحكومة الجمهورية

ثم ان دقلديانوس التفت الى الضرائب فعدل توزيعها وأدخل النظام في جميع فروع
 الادارة وانتصر هو ورفقاؤه على العصاة بكل الجهات حتى ببلاد بريتانيا واضطر الفرس فتمنازلوا
 للدولة عن بلاد ميزوپوتاميا وعن خمسة اقاليم أخرى بجهات نهر الدجلة واعاد ما كان لرومية
 من النفوذ على ارمينيا

ثم انتقل دقلديانوس الى مصر وفرق شمل عصاتها وذلك أنه كان على مصر نائب يدعى اخيلوس
 وكان قد تغلب عليها النقبه واستبدت بحكمها فبادر دقلديانوس اليه وحاصر مدينة الاسكندرية وقطع
 خيلجان النيل لتصرف مياهه التي تجرى فيها السفن لينج عن هذه المدينة الميرة والذخيرة فضيق
 على خصمه واستولى على الاسكندرية بعد حصار ثمانية أشهر فهدأت الاحوال وساد الانتظام
 وعم الامن وارتاحت الخواطر حتى كان الاربعة الذين اقتسموا الدولة يحكون بفكر واحد ووجهة
 واحدة واتفق أن أحرق القصر المملوكي بنيقوميديا فاتهم دقلديانوس النصراني باحراقه ولهذا
 طرد الاوامر الى الاتفاق بقتلهم وهدم بيعتهم واحرق كتبهم ونعتهم أيما وجدوا فحرت المذابح
 الهائلة بكل مكان ولم يشفقوا على أحد غير مفرقين بين عبدوحر وشيخ وصبي وذكر وأثني واستمر
 على ذلك مدة عشرين سنوات ويسمى هذا العصر في تاريخ الكنيسة عند النصراني بعصر الشهداء
 وقد اتخذوا أقباط مصر مبدأ لتاريخهم وذلك سنة (٢٣٠٣)

(١) البورغوندي أمة كانت نازلة بجيرمايا الشمالية بين نهري أودر وويستول على شاطئ نهر وارطا طردهم
 قبائل كانت بتلك الجهة يقال لهم جيبيدي وأواخر القرن الثالث من الميلاد ذهب بعضهم ونزل بجزيرة بورن هولم
 ببحر باطيق وأغار بعضهم على بلاد الغالة حيث صددهم الامبراطور بزوبوس فسنزلوا بالقرب من منابع نهري مين
 وبعد ذلك أي في سنة (٤٠٦ م) بعد ان اعتنقوا الديانة النصرانية دخلوا نانيا بلاد الغالة وأمكنهم الاقامة بها
 وكانوا أقل توحشا من قبائل الجرمان الأخرى وكان غالبهم تقريبا يمتزج حرق التجار والحدادة ولم يعاملوا سكان
 البلاد التي احتلواها بفظاظة كغيرهم من القبائل التوحشة وتلقوا سواها بالاخلاق والعواصم الرومانية

ولما كان دقلديانوس يريد أن يظهر للرومانيين أعماله العظيمة ذهب إلى رومية ودخلها باحتفال فائق الوصف وكان آخر احتفال رآته تلك المدينة ثم اعتراه مرض فتنازل عن منصبه وحل مكسيميانوس على التنازل أيضا وانزوى بقصره في بلاد دلماسيا مفضلا الراحة عن الاشتغالات الدولية وكان مكسيميانوس بعد ذلك يحسن له العودة إلى منصبه فكان يقبج له فكرته ويقال إنه لما رأى كثرة الثورات بالملكة حزن ومات غما (٢٣١٣)

ثم انه بعد تنازل دقلديانوس ومكسيميانوس ارتقى رفيقا هما غالير وكونستانس الاصغر إلى مرتبة الامبراطورية وانتخب غالير اثنين وهما سفير يوس ومكسيمايوس وبذلك صارت الدولة باجمعها في يد غالير وكان وحشيا ظالما مستبدا أزال كل أثر للحرية وكان ينتظر بفرغ وموت رفيقه كونستانس ليسل الناس اليه حتى انه كان يريد أيضا قتل قسطنطين بن كونستانس الذي لم اعلم بذلك هرب إلى أبيه ببلاد الغالة ثم مات كونستانس بعد ذلك بقليل بمدينة يورك من اعمال بريطانيا (٢٣٠٦)

ومعونه نادى الجيش بقسطنطين امبراطورا وكان هذا الامير اشهر من صغره بالجسارة والتبصر وجعل الصفات الآن غالير ليصدق على هذا الانتخاب ولقبه فقط بلقب قيصر مبقيا وظيفته الملوكية لرفيقه سيفير غير ان الامة كانت سئمت من قساوة سفير فثارت عليه وعزلته وانتخب مكسانس ابن مكسيميانوس الذي كان تنازل مع دقلديانوس ثم ان مكسانس أشرك معه أباه في الحكم وبذلك صار للرومانيين ستة ملوك في آن واحد وهم غالير وسفير وقسطنطين ومكسيموس ومكسانس ومكسيميانوس ثم قامت الحروب بين هؤلاء الستة الملوك فتقاتلوا مع بعضهم زمنا حتى قتلوا وماوا جميعا ولم يبق منهم الا قسطنطين الذي تحارب مع مكسانس وانصر عليه ولما كانت الحرب بينهما كانت رايات قسطنطين عليها علامة الصليب وهي أول مرة ظهر فيها الصليب على الرايات (٢٣١٢) وأقاموا له قوس نصر رومية تذكار لهذا الانتصار ثم صفاه الجوارل رفيقه ليسينيوس الذي كان غاليرا بقاءه هو ومكسيموس بالشرق كما كان الغرب لقسطنطين ومكسانس

ولم يبق الحال على ذلك زمان طويلا كما كانت العادة في آخر أيام الدولة الرومانية لتزعزع أركانها واضطراب أجزائها وسريان الاضمحلال في عروقها حتى ظهرت العداوة بين قسطنطين ورفيقه ليسينيوس وسبها تهازل قسطنطين مع النصارى وأمره بالكف عن معاداتهم وتعبص ليسينيوس عليهم حتى أدى ذلك لكرهه قسطنطين المتهم باحتقار آلهة الدولة الرومانية فانتشبت الحرب بينهما وكانت الدائرة فيه على ليسينيوس ثم تصالحا بعد أن تنازل ليسينيوس عن بلاده مقدونية واليونان ودالماسيا وغيرها إلى قسطنطين (٢٣١٤) الآن ليسينيوس كان يبحث سرا عن الوسائل الموصلة لتفهمه والانتقام منه فأشهر عليه الحرب بعد مضي تسع سنوات من المصالحة والتقى جيشهما بالقرب من مدينة اندرينوبل (أدرنه) وبعد قتال عنيف انهزم جيش ليسينيوس البرى وانصر ابنه كريسيوس على أساطيل ليسينيوس فحرق وأغرق منها كثيرا بغليبولي ثم ان قسطنطين قبض على خصمه ونفاه إلى سلاينيك ومع هذا كان لا يزال يحرض على القتلى فقتلوه (٢٣٢٤) وهو آخر من اضطهد النصارى من ملوك الرومان وبذلك خلس أمر المشرق لقسطنطين مستقلا فيه بلا معارض ثم أعلن قسطنطين اذذاك رسميا حبه للنصارى

وعرض عليهم خسائرهم بسبب اضطهادات ليسينيوس وأمر المدن بدم الاصنام وصرح للقسس بأخذ الاوقاف وقبول الهدايا وعافاهم من الخدمة العمومية وأمر بالانقطاع عن العمل يوم الاحد ومنع المصارعين من المصارعة

وفي زمنه ظهر اريافوس الذي شوش بمذهبه وأقواله المعنقدات النصرانية وانضم اليه كثير وقالوا بقوله وهو انكار ألوهية المسيح فأراد عند ذلك قنسطنطين أن يضع حدا للاضطرابات التي أحدثها المذهب المذكور فجمع حينئذ بمدينة نيقية ازنيق جميع أساقفة النصرانية فذهبوا اليها من كل صوب وكان عددهم ٣١٨ أسقفوا وشكلوا المجمع المسكوني الاول (٣٢٥ م) وهناك أقر واجمعاً على فساد مذهب اريافوس بعد المناقشة فيه ومن ضمنهم الامبراطور

ولما كانت مدينة رومية مدينة أسست على الدين الوثني ولا يصلح ان تكون بعد مكرز الدين النصراني الحديث الذي صار دين المملكة أراد قنسطنطين ان يتعد عنها لانه كان ينوي الغاء السننات وتباني الحالة القديمة الرومانية بالمره ولهذا عزم على انشاء مدينة جديدة يتخذها عاصمة له فوقع اختياره على مكان مدينة بيزانس الكائنة على النخوم بين أوروبا وآسيا ولكونها مطلة على ثلاثة بحار في مكان نزه وبعده أن خططها برحمه شديد أسوارها وأنشأ بها أجمل كنيسة بالشرق وهي كنيسة القديسة صوفية وأنشأ بها أيضاً كثير من المباني الفاخرة والطرق الفسيحة والميادين البهجة (٣٣٠ م) وكان يشجع على سكانها ويحسنه لكل من أراده فبعد مضي سنوات قليلة ازدادت عمارتها واتسع نطاقها وسميت رومية الثانية ومن أعمال قنسطنطين انه غير النظام الاداري للدولة تماماً وقبض على زمام السلطة المطلقة واهتم بجعل المنصب الملوكي ورائيا كما أراد قنسطنطين وأحدث ملابس ونياشين جديدة للوظائف التي اخترعها أيضاً وجعل له وخاشيته ووزرائه القبايا خيمة ورتباً عالية وفصل القوة الملكية عن القوة العسكرية انفصالاً تاماً ليأمن بذلك ثورات الجيش وليبقى لاولاده المملكة من بعده وقسم الجيوش الى ثلاث فرق وجعل عدد الأتلي ١٥٠٠ جندي بعد ان كان ٦٠٠٠ جندي وقد نجح من هذه التغيرات تقليل الثورات الا أن متوظفي الحكومة ازداد عددهم ولهذا وجد نفسه مضطراً الى زيادة الضرائب في الوقت الذي تعطلت فيه الفلاحة والصناعة بسبب اغارات الامم المتوحشة على الدولة الرومانية وفي هذا الوقت ابتدأت تلك الحروب التي تسببت عنها سقوط الدولة الرومانية وكانت بين عمال الخريضة الاميرية والموليين وكان موت قنسطنطين سنة (٣٣٧ م) فخزنت عليه الامه وقد اتصف بكثير من الفضائل المدحوة كاتصافه بكثير من الرذائل الممقوتة

(الفصل السادس عشر)

في تقسيم الدولة الرومانية

اعلم أن حكم قنسطنطين قد اشتهر بثلاثة أمور مهمة وهي اولاً مرور سوم ميلان سنة (٣١٣ م) الذي أباح به جعل الدين النصراني ديناً عاماً وثانياً تغيير الدولة الى مملكة ادارية وذلك أن قسم الدولة الى

الى عمالات عظيمة والعمالات الى أبرشيات والابرشيات الى مقاطعات وجعل العمال كسلسلة يتناولون أو امره بالتدريج من الاعلى الى الأدنى وجعل له مجلسا مكونا من مشيرين يلقب الواحد منهم بلقب قونت وعين للجنود قواد يلقب الواحد منهم بلقب دوق وهذا الترتيب العظيم اتخذته فيما بعد الامم الحديثة ثم وجدنا سبب عليه وثالثها تغييره للعاصمة وانتخابه القسطنطينية عاصمة جديدة لحسن موقعها ثم ان هذه الترتيبات وان كانت مفيدة وحصل منها فائدة عظيمة لتلك الدولة الهرمة الا انها لم تحفظ أنت متأخرة بعد ان تخرسوس الفتن والاضطراب عظامها وعم الفقر بازدياد الضرائب لاحتياج الدولة اذ ذلك للاموال اللازمة لبقاء هذا النظام الجديد الذي أحدثته قسطنطين المذكور فضعف أمر الوطنية وفشا الدخيل بين الامم وقبض على زمام الادارات قوم ليس لهم من الصفة الرومانية غير الملابس واللغة وهي أمراض لو أصابت جسم أي دولة لاودت بها او كان قسطنطين قبل موته قسم ممالكه بين اولاده الثلاثة وهم قنسطانوس وقسطنطين وقنسطان وأعطى أيضا ولدي أخيه حصصا معلومة فأعطى دالماس مقدونية وبلاد اليونان وأعطى أمباليان بلاد الامون وكبادوكيا وأرمينيا والملم ترق هذه القسمة في أعين اولاد قسطنطين قامت الحرب بينهم على قدم وساق وانتهت بقتل أمباليان ودالماس واقسم اذ ذلك اولاد قسطنطين الثلاثة الدولة الرومانية فكانت آسيا ومصر وترانس من نصيب قنسطانوس الذي كانت القسطنطينية عاصمة له وكانت ايتاليا وايليريا الغربية وأفريقية من نصيب قنسطان وبلاد الغالة واسبانيا وبريتانيا من نصيب قسطنطين الثاني ومع ذلك فان داء الحسد والغيرة تطرق اليهم فوقت الحرب بينهم في القتال الاول قتل قسطنطين الثاني (٣٤٠ م) واستولى قنسطان على ما كان له من البلدان وبذلك انقسمت الدولة الى قسمين وهم المشرق وكان لقنسطانوس والغرب وكان لقنسطان ثم اشتغل كل منهما بمقاتلة أعدائه الى ان قتل قنسطان يبلاد الغالة بينما كان

يريد قتال بعض الثوار (٣٥٠ م) وحكم ١٣ سنة

وبعد موته ثارت بعض الجنود وانتخبوا امبراطورا غيره واستمر الحال بين قتال وسلام وصعود وهبوط الى سنة (٣٥٣ م) حيث استقل فيها قنسطانوس بأمر الدولة وفي تلك الاثناء أغارت الامم البربرية على جهات الرين والداقوب فاضطر قنسطانوس لأن يجعل له معينا فعين جوليانوس اويوليوس حفيد قسطنطين وزوجه باخته هيلانه وأرسله الى بلاد الغالة لمقاتلة العصاة فأوقع بهم في كل مكان قابلهم فيه وبعد أن ردوا السكنة الى بلاد الغالة اجتمع في تحسين احوالها فالتحقه بنه لوتيس (باريس الحالية) عاصمة له وبها كان يراقب سير العمال وساعد الالهائي على التجارة والفلاحة وخفف الضرائب وبني الحمامات ومجاري المياه والملاعب العمومية ولم يمهل شيئا يساعده على جلب الرفاهية العمومية وكان جوليانوس على الهمة واسع القريحة وكان درس بالقسطنطينية وأثينا وهام جبا في الفلسفة القديمة وعبادة الاوثان ثم حصل بينه وبين قنسطانوس ما وعر الصدور فخردا الجيوش على بعضهما ولما هما بالقتال وكانت الحرب بينهما كقاب قوسيين أو أدنى مات قنسطانوس سنة (٣٦١ م) ببلاد كيليكيا بمدينة المصيصة وكان قنسطانوس عين جوليانوس امبراطورا من بعده قبل موته

فلما تفرد جوليانوس بالسلطة وتهدت له الاحوال نفي كثيرا من خدمة القصر الملوكي من اشتبه

في سيرهم وسيرتهم وقرب اليه الفلاسفة والعلماء والكهنة وكل من هو متعلق بأذيال الدين القديم
 وخلع دين النصرانية بعد أن اعتنقه وهدد النصارى بالقتل والنفي وأمر بحوهم من الوجود وكان
 يسعى في إيجاد التحزبات ضد النصارى ويغريهم ببعضهم ليعحون أنفسهم بأنفسهم وأبطل جميع
 الامتيازات الممنوحة الى القسس ومنع عنهم ما كانوا يتناولونه من الدولة على سبيل المساعدة ورسم
 معابد الوثنية من أموال الكنائس

ثم إن جوليانوس أعلن على الفرس حرباً بمدته ملكهم سابور ذي الاكاف فانتصر عليه نصرته
 عظيمة بالقرب من نهر الدجلة واستولى على المدائن ثم ان الفرس كمنواله نخر جوار عليه فحاة فأصابه منهم
 كان السبب في موته (٣٦٣ م) فانتخب الجيش اذذاك جوفيانوس وكان رئيس الحرس القيصري
 مخافة حصول الاضطراب ولكي يخلص الجيش من تلك الورطة الخطرة اضطر جوفيانوس ان يعقد مع
 الفرس صلحاً كما يشتهون وبوجبه تنازل لهم عن الخمسة الاف اقليم الواقعة على الضفة الاخرى من نهر
 الدجلة وعن خمس عشرة قلعة رومانية كانت لحراسة أطراف الدولة في تلك الجهة ولم تطل مدة
 هذا الامبراطور فانه قتل بعد سبعة شهور من حكمه (٣٦٤ م) وسبب ذلك هو عقده صلحاً محلاً
 بشرف الرومان وكان على سيره سلفه من اضطهاد النصارى

وانتخب الجنود بعده فالانتينوس وكان شجاعاً حازماً اذا ما حاد الطباع ولما رأى جل الدولة ثقيلاً أشرك
 معه أخاه فالانسيوس وجعله على المشرق واختصر هو بأمر المغرب المهتدم من جميع الجهات لان قبائل
 البربر أغارت في عدد عظيم على حدود الدولة وكذا نارت بر يتانيا العظمى وأفر يقية فجر د فالانتينوس
 على كل العصاة فهزهم ثم سن للدولة قوانين عادلة الا أنه كان فاسياً جاداً حتى وصفوه بالهجيبة فكان
 يعاقب بالموت على من اقترف ذنباً ولو صغيراً ثم مات سنة (٣٧٥ م)

وخلقه ولده اغراسيانوس فالانتينوس الثاني وفي زمنه ما حصل انقلاب عظيم بين الامم البربرية
 النازلة حول الدولة الرومانية وذلك ان قبائل الهون (١) التي أتت من آسيا الوسطى واخرقت بلاد

(١) الهون أمة متبررة شهيرة قال بعضهم انها من أصل اسبوي ومن الجنس المتولى لا يتخلفون في شيء عن القبائل المسماة
 هيونغ فو التي خرجت من البلاد الكائنة في شمال صحراء كوبي وأغارت على بلاد المانجو والصين وهدموا السور العظيم
 واخذوا تلك البلاد (٢١٠ - ٥٤٤ م) وقال البعض وهو المرجح انهم من فنلاند وكانوا ينتقلون
 من مكان الى مكان يسكنون اخيام ومعيشتهم على ظهور خيولهم قباج المنظر صغار العيون مستدير وهم مقروطو
 الانوف وفي القرن الرابع من الميلاد كانت طائفة منهم تسكن غربي بحر قزوين بين مصب نهر تريك ومضيق دريند
 وكان لهم محاربات عديدة مع آلسان من الفرس وطائفة منهم وهم الذين يسميهم الاغريق بالهون البيض بسبب
 حضارتهم وحسن أخلاقهم كانوا يستوطنون الجهة الشرقية من بحر قزوين على شواطئ نهر كسوس جنوبي
 التركستان الحالية وبعدها منكنوا في تلك الجهات وضابقوا الفرس من مناطق بلاد الخوارق والترك واخرقت طائفة
 أخرى منهم جبال القوقاز مع ملكهم المدعو بالامير وأخضعوا أمة الان القاطنة بين نهري ولغا والدون ونازلوا
 الاستروغوط وقهروا ملكهم هرمانريك (٣٧٦ م) وبعدها أقاموا في سكود مدناً ونشروا بآسيا الصغرى وبلاد
 تراسه وفي مدنتهم أنبلا الشهير هددوا القسطنطينية وأخضعوا قسماً عظيماً من جرمانيا ومدوا إماراتهم حتى بلاد
 الغالة واطلبوا بموت هذا الملك سنة (٤٥٣ م) ضعف أمرهم وذهب أحد اولاد المدعو رمالك الى بلاد آسيا
 وأخذ معه بعض القبائل واستوطن كثير منهم البلاد التي سميت فيما بعد هنكاريا وفي القرن السادس من الميلاد كان
 بعض قبائلهم بعد تار مع ملوك القسطنطينية وطور رابع الفرس ويخدمون بين عساكرهم الخيالة وسبأ على الهون
 كلام ظنوا بل في نار يجر روسيا

القوة تحت قيادة ملكهم بالامير اخضعت قبائل بربريه اخرى نازلة بين نهر ولغه (أتل) والدون ثم تلاقوا مع قبائل الغوط (١) التي كانت دولتهم تقدم من نهر الدون الى نهر التيس ومن البحر الاسود الى بحر بالطق وكانوا منقسمين الى قسمين الوزيغوط (الغوط الغربيون) والاستر و غوط (الغوط الشرقيون) ولم يكن للغوط مقاومة قبائل الهون ودان لهم بالطاعة الاستر و غوط والوزيغوط فهاجر واتحت قيادة رئيسهم آتاناريك وأرسلوا رسولا الى الامبراطور فالانتينوس ليسمح لهم بالتزول جنوب نهر الطونة أي الدانوب فتردد فالانتينوس ابتداء في قبول مطالبهم إلا أن وزراءه أشاروا عليه بمنحهم ما يطلبون نظرا لى المنافع التي يمكنهم أن يستفيدوها من هؤلاء الرعايا الحديديين وكان ذلك غلطة عظيمة لانها فتحت مجاا لعدد عظيم من البربر وسط دولة على شفا جرف السقوط وعاهدتهم فالانتينوس على قبول المذهب الارياني لانه كان من مروجيه وقد أخذ من رؤسائهم أولادهم رهائن عنده ليقيموا معاهدته ثم لما رأى الغوط قبح معاملة الرومان لهم شقوا عصا الطاعة وأغاروا على بلاد تراس وتساليا ومقدونية مخربين كل ما وجدوه في طريقهم فأسرع فالانتينوس لقتالهم والتقى معهم بمدينة أدرنه فنازلهم قبل أن تصل اليه الامدادات الرومانية فهزم جيشه تماما وقتل هو في الواقعة (٣٧٨ م)

لما قتل فالانتينوس كما قلنا انتقلت الدولة الرومانية الى اولاد فلانسينانوس الاول وغراسيانوس وفلانسينانوس الثاني ولما علم غراسيانوس عدم مقدرته على جمع الغرب والشرق تحت حكمه لصغر سن فلانسينانوس الثاني سيما ولانه كان يجب عليه قمع إغارات الوزيغوط الذين تسلطوا على الشرق بعد واقعة أدرنه والجرمان والفرس وغيرهم ولا يمكنه مقاومة كل هؤلاء الأعداء بفرده وكان القونت تيودوثيوس صاحب الخدم الجليلية في الدولة قتل فالانتينوس بأفريقية لما أخبره منجم بأن اسم خليفته يتدأ بكلمة (تيود) فلهذا قتل أعظم الناس المسهون بنيودود ونيودوز ونيودات ونيودول وغيرهم وكان لثيودوثيوس ولد ذكى نجيب كفء لادارة الاعمال فطلبه غراسيانوس من بيته وسلم اليه وظيفة الامبراطورية وولاه على الاقاليم التي كانت طاعة لفلانسينوس وأبقى لنفسه بلاد الغالة واسبانيا وبريتانيا وبلجيه الغربية ويطاليا وأفريقية وان كانت هذه الثلاث جهات خاضعة اسمها لفلانسينوس الثاني فقام تيودوثيوس بمعاهده اليه أحسن قيام ورد النظام الى الجنود وانتصر بهم على الغوط وأوقع القتل بينهم وعقد مع رئيسهم آتاناريك معاهدة مفيدة للرومانين وأذن لهم بالاقامة في بلاد تراس وموسيا وجمندتهم ثم أربعين ألفا خصصهم بحراسة نهر الدانوب

(١) الغوط أمة عظيمة جرمانية وجدت في القرن الثالث قبل الميلاد كانت متوطنة ببلاد أسكندنيا و او شمالي جرمانيا وفي القرن الرابع من الميلاد نزلت الى جهات الدانوب وأخذت بعبد ذلك تشن الغارة على دولة الرومان وقد حاربهم الامبراطور مكسيموس وغرديانوس الثالث ودوسيموس واضطروا ليايأوس ان يدفع لهم جزيه وقد خربوا بلاد اليونان الا ان كلوديوس الثاني انتصر عليهم عد مرات ولهذا لقبوا بالغوطي وفي زمن أورليانوس احتلوا بلاد داسياراجان ونهبوا آسيا الصغرى وكانت دولتهم في سنة (٣٥٠ م) تمتد من نهر تيس الى الدون ومن بحر بالطق الى البحر الاسود وكانوا ينقسمون الى ثلاث طوائف عظيمة وهى الوزيغوط (الغوط الغربيون) والاستر و غوط (الغوط الشرقيون) والجييدوقد اعتنقوا الدين النصراني على مذهب أريوس ولما أغار الهون على أوروبا (سنة ٣٧٦ م) طردوا قبائل الغوط على الدولة الرومانية

أما غراسيانوس فلم يكن أقل من رفيقه عملا في إيجاد الرفاهية والامنية ببلاد الغرب وقد ساعد على انتشار العلوم والمعارف وتساهل مع النصارى فلم يتعرض لهم بسوء ثم قامت الجنود ونادوا بشخص من بريتانيا يقال له مكسيموس وكان رئيسا عليهم ولما بلغ خبر ذلك الى غراسيانوس فرمى باريس الى ليون لان جنوده كانت عصته أيضا فقباله كما تلك المدينة باحسن مقابلة ثم غدر به وقتله (٣٨٣ م)

أما تيودتيوس فلما كانت الامور تستدعي بقاءه ببلاد الشرق اضطر لان يعقد معاهدة مع ذلك المدعى واعترف به امبراطورا فاستولى مكسيموس على بريتانيا وبلاد الغالة واسپانيا ثم جهز الجيوش وأغار على رومية فاصدا محاربة فلانسيناوس الثاني مع انه كان اشترط على نفسه احترام حقوقه فاضطر ذلك الملك الصغير الى الهرب الى بلاد الشرق مع أمه فقباله ما تيودتيوس بما يليق بمقامهما وأخذ في جمع الجنود بكل سرعة لينتقم من ذلك الخائن ثم سار نحو عدوه فانتصر عليه عدة انتصارات ثم قبض عليه أخيرا وأمر بقتله ومما يعاب على هذا الامبراطور بعد ذلك الانتقام ان أمر بقتل أهالي سلانيك عن آخرهم لانهم عصوا كما هم وقتلوه غير مفرق بين بري ووعاص فقتلوا منهم نحو ٧٠٠٠ نفس مع انه عفا عن أهل انطاكية قبل ذلك لارتكابهم أمرا أغضبه كثيرا ولما رجع فلانسيناوس الثاني الى امر كزه من بلاد الغالة خرج عليه ثائر فرنكي يسمى أريوغاست وكان أريوغاست هذا نافذ الكلمة له شعبة عظيمة وبذلك تمكن من قتل فلانسيناوس (٣٩٢ م) ثم ان أريوغاست المذكور انتخب مكان فلانسيناوس أحدا صدقائه المدعو أوجين فأرسل تيودتيوس جنوده لقتال هذا المتعصب ولما التقى الجيشان هبت ريح شديدة ألقت العشير في أعين جنود أريوغاست فأطبق عليهم جيوش تيودتيوس فهزمهم ووقع أوجين أسيرا في قبضته فقتله أما أريوغاست فبعد أن هام على وجهه أيما قتل نفسه لما قطع الامل من حظه

وكان تيودتيوس آخر امبراطور روماني اجتمع له زمام المشرق والمغرب وكان تتبع أتباع أريانوس فقتل وشتت منهم كثيرا وأجرى في حكمه عدة نظامات اتعتبت بها الدولة ورد المظالم وخفف الضرائب وعاقب اللصوص وقطع دابر الاشقياء والثوار وأعطى الوقت الكافي للمهم للجاوية عن همته واعتنى كثيرا باصلاح السجون وقبل موته عين ابنه هو نورديوس امبراطورا على بلاد الغرب وبعد موته تولى ابنه الثاني أرقاديوس أمر المشرق ومن هذا الوقت صارت الدولة الرومانية مقسومة الى قسمين شرقية وغربية (٣٩٥ م) وبعده ابتدأت اغارات القبائل البربرية على الدولة فكانت هي ابتداء ذلك العصر الحديث المسمى في التاريخ بالاعصر الوسطى ولله الامر من قبل ومن بعد

(الفصل السابع عشر)

الامبراطورية الغربية بعد التقسيم

كان عمر هو نورديوس الملقب بالملك سنة (٣٩٥ م) لا يزيد عن ١١ سنة وكان قسمه

من الدولة يشتمل على ايتاليا وجزائر القسم الغربي من البحر الابيض المتوسط وأفر بيقية وموريتانيا وبلاد الغالة واسبانيا وبريتانيا وپانونيا ودا المسيا وغيرهما من الايلات الثانوية وكان الامبراطور تيودوسيوس قبيل موته يريد أن يشترك ولداه في الحكم معاً الا أنهما انفزدا ولصغر سن هونوريوس كما تقدم كان استيلىكون القائد العام للجيش وصيا عليه وبعد قليل قام الوزيغوث يعينون في الدولة تحت قيادة ملكهم الاريك الذي أغار على تراسة ومقدونية ثم اتجه الى الجنوب حتى وصل بلاد پانونيا ولم يتعرض باذى لمدينة أثينة وبعد ان عاث فيها صعد نحو بيريا وابليريا لان أرقاديوس كان حرضه على الاغارة على رومية حيث الغنائم الوفيرة والاموال المتسكثرة ليصرفه بذلك عن القسطنطينة فلما استعد للاغارة على ايتاليا قابله جيوش رومية تحت قيادة القائد استيلىكون وانتصرت عليه وردته مدحور افر جمع منتظر افرصة أخرى تمكنه من مرغوبه

وكان هونوريوس امبراطورا جباناً غير جدير بمركزه فسمع أقوال الوشاة في استيلىكون أحسن رجل دافع عن تحتة وقتله ظالم بدون تحقيق (٤٠٨ م) فعند ذلك ظهر الأريك وقصد رومية على رأس جيش عظيم فحاصرها ثم استولى عليها بالتسليم وتعهد سكانها بدفع مبلغ وافر من الاموال ولما عصت بعد ذلك لعدم وفائها بما تعهدت به اعاد الكرة عليها واقتحمها عنوة (٤١٠ م) ونهبها وأحرق جانبها وكانت رومية لم تر البربر قبل ذلك منذ ثمانية قرون

وبعد أن نهب الوزيغوث رومية وأخذوا منها غنائم وافرة ساروا مع ملكهم قاصدين جنوبى ايتاليا ليجتازوا منها الى أفر بيقية ولكنه مات بتلك الاثناء ولما كانت جنوده لا تريد أصلاً ان يقع جسم رئيسهم الشهير في أيدي الاعداء حولوا بحرى نهر هناك ودفنوه به ثم أطلقوا فيه المياه ثانية وقتلوا بعد ذلك الاسرى الذين سخر و هدم في تحويل مياه النهر المذكور لكي لا يعلم أحد بقبر الاريك وخلفه أخوه أدولف ثم ترك الوزيغوث ايتاليا وساروا الى اسبانيا حيث تنازل لهم هونوريوس عن جنوبى الغالة واسبانيا وأسسوا هناك مملكة كانت قاعدتها مدينة تولوشة (طولوز) (٤١٩ م) بعد أن سادوا على ايتاليا أربع سنونات وكانت سطوة الرومانيين تضعف يوماً بعد يوم حتى التزم هونوريوس ان يتنازل عن بلاد بريتانيا وجرمانيا ثم مات هونوريوس عقب ذلك بعد أن حكم ٢٨ سنة (٤٢٣ م) ولما دخل الوزيغوث بلاد اسبانيا وجدوا بها قبائل السويق والوندال فطردوا الاولى الى الشمال والثانية الى الجنوب وبقى الوندال بوادى النهر الكبير الذى سمي فيما بعد باسمهم وانداليسيا (الاندلس) وأسسوا دولة قوية نصفها بأفر بيقية والنصف الآخر بأوروبا وفى هذا الزمن كان ابتداء استيطان أمم الفرنك في شمال بلاد الغالة (٤٢٨ م)

وبعد موت هونوريوس قام فلانسينافوس الثالث وكانت امه تحكمهم بالنيابة عنه لصغر سنه وتضعفت أحوال الدولة جدا واستولى الوندال على أفر بيقية من بونيفاسيوس قائد الرومان وكان يتهدها أيضاً خطر جسيم وذلك أن قبائل الهون الذين أتوا على شواطىء الدانوب والرين استعجبوا معهم كل القبائل الذين قابلوهم في طريقهم وكان يقودهم رئيس جسور وحشى وهو أتيل الشهير وكان جمع تحت يده القوية جميع قبائل الهون (٤٣٢ م) وكان يلقب نفسه بعدذاب الله وكان يقول ان النبات لا ينبت بعد حيث سار فرسه وفى أول أمره هدد الدولة الشرقية

ثم انقض على الغربية وخرّب ونهب وأحرق عدّة مدن ببلاد الغالة وغيرها ثم تحارب حرباً شديداً مع
 أمم الوزيغوط ومخالفهم ثم تقدّم إلى ايتاليا سنة (٤٥٢ م) وكانت الامم تفر من وجهه والتجأ
 بعضها إلى مستعدرات بحر الادرياتيك وأنشأ بها كواخا على عمد من الخشب ومنه انشأت فيما بعد
 مدينة البندقية الشهيرة وبينما كان أتيليا يقصد رومية خرج له البابليون متوسلاً اليه وتمعدها له
 بدفع خراج فعدل عند ذلك أتيليا عن رومية ثم مات فجاءه في السنة التي تلتها (٤٥٣ م) وكان بين
 أتيليا وجانسيريك ملك الوندال علاقة أكيدة جداً وكان جانسيريك يخشى بأس الغوط فزوج ابنه
 باينة ملكهم ثم لما أهاها وطردها التحدمع أتيليا ملك الهون فصار لا يمكن لامبراطورى المشرق
 والمغرب المحالفة على التعاون ضد هذين الملكين سيما وان امبراطورية المغرب كانت في حالة ضيق
 لانه لم يكن عندها قوة بحرية لان قوتها البحرية كانت اذذاك كلها بالمشرق ببلاد مصر وجزيرة
 قبرص وسواحل الشام وبلاد اليونان لانها كلها أقاليم تجارية

وجوت أتيليا انقسم الهون إلى قبائل وزال شهرهم ثم انه في سنة (٤٥٥ م) تفرّد جانسيريك ملك
 الوندال بالسلطة لموت أتيليا حليفة وكان أقوى منه جنائاً وأشد غلظة وكان مستولياً بجيشه على
 أفرريقية كما سبق وعلى البحر المتوسط الابيض بأساطيله العديدة القوية التي كان بنازل بها
 أساطيل القسطنطينية ولما انتهت فرصة حصول الاضطرابات في رومية وقيام الخصاصات بين
 أممها الاخيرين أغار على ايتاليا ولم يتمكن البابليون في هذه المرة من رده كما فعل مع أتيليا بل
 استولى على المدينة وأسلمها للنهب والسلب مدة أربعة عشر يوماً وقدار تكبهم الوندال من
 الاعمال الوحشية والافعال القاسية ما تنوب لذكركه الا فتنة أما جانسيريك فترك رومية في قبضة
 ملوك لا حيشية ولا قيمة لهم أصلاً وانسحب منها ثم استولى عليها رجل اجنبي من ضباط الجيش
 يدعى اودواكر وتلقب سنة (٤٧٦ م) بملك ايتاليا وذلك لان الدولة الغربية كانت فقدت
 قبل ذلك جميع أملاكها الخارجية وحصلت هذه الحادثة وهي ارتقاء هذا الاجنبي بدون ان
 يلتفت اليها أحد تقرّب بالحصول الاضطرابات والاختلالات بجميع أجزاء الدولة ومع ذلك
 فلم يتمتع أدواكر زمام طوبلا بغنيمته حيث أقبل الاستر و غوط الذين كانوا مختصوا من حكم الهون
 وأرادوا مثل غيرهم من الامم البربرية تكون دولة من أنقاض الدولة الرومانية فأغاروا على
 ايتاليا مع ملكهم تيودوريك وأخضعوها سنة (٤٩٣ م) وبذلك صار تيودوريك من أغنى
 وأقوى ملوك البربر الا ان دولته لم تمكث زمام طوبلا وبعدهم سنة (٥٢٦ م) أسرعت الدولة
 الرومانية الغربية في السقوط الى هوة الفناء

والحاصل انه من بعد موت هونوروس ابن تيودورتيوس جلس على سرير رومية عشرة ملوك
 ولم يكن لهم من الاعمال ما يستحق الذكر وكانت الاضطرابات والانشقاقات عامة بجميع أطراف
 الدولة وكانت قبائل البربر مثل الغوط والوندال وغيرهم تنقض على تلك الدولة إشباعاً لجشعهم
 ولإرضاء لشهواتهم رأينا من اللزوم عدم التعرض لذكرهم بالتفصيل الا اننا رأينا نذكر واقعة
 بحرية حصلت سنة (٤٦٧ م) زمن اتيوس أحداً وأولئك الملوك فنقول
 انه لما غارت الوندال بجهات السلطنة وهددت الدولتين الغربية والشرقية اتحد الامبراطوران
 على مناصرة الوندال وجهزوا عمارة مؤلفة من ١١١٣ سفينة حربية وبها جيش مؤلف

من ١٠٠٠٠٠٠ مقاتل وأقلعت من القسطنطينية الى قرطاجنة تحت اماره باسيلكوس صهر لاون
فأزلت الجيوش بافر بقيسة عن صدر أسبونه واجتمعت مع جيش هرقليس الذي كان أخضع طرابلس
الغرب وعمارة مارسيلينوس القادمة من سردينيا وزحف بهم جميعا على جنسريك ملك الوندال الذي
تحايل عليه في طلب المتاركة فاجابه وعقدت شروطها ثم نازل جنسريك العمارة الامبراطورية
المذكورة ليلا وانهصر عليها واستولى على صقلية وأحقها باملاكه
ومن النوادر الغريبة ان آخر ملوك روميه يدعى أغسطس رومولوس كاسم المؤسس لها وقد
صنف اللاتينيون اسمه تحقيرا فسموه أغسطس طولوس وبه انتهت الامبراطورية الغربية بعد ان بقيت
مفترقة عن امبراطورية الشرق مدة ٨١ سنة وقله الامر من قبل ومن بعد ثم صارت تعرف في
التواريخ باسم ايتاليا وسيأتي تاريخها الحديث في الجزء الثالث

الباب السابع

الامبراطورية الشرقية أو الدولة السفلى أو البوزنطية

(٤٩٥ - ١٤٥٣ م)

(الفصل الاول)

قيامها و وضعها ثم ثلاثتها وأسباب ذلك

غلب هذا الاسم على الدولة الرومانية منذ ولاية قسطنطين وقال بعض المؤرخين بل غلب عليها
منذ ولاية فاليريانوس وأطلق عليها الدولة الاغريقية من منذ ثيودوسيوس وتاريخها عبارة عن
أعمال فسادية واختلاسية وهرج ومرج وفوضى بفر وع الحكومة وقد تخاطف أجزاءها الامم
الضعيفة المنحطة وتمسكت بجسمها ثورات القائمين بخدمة القصر الملوكي وأخضعها أرباب الظهور
العسكري ولهذا كان تاريخها عبارة عن ذكرا غتصابات وجرائم أخفى أثناء حصولها كل احساس
يوجب العظمة الادبية عند الامم ويزيد في كرامتها وقد عزمنا على تلخيص مجموع تاريخها باحثين
عن أهم الاسباب الادبية التي تسبب عنها انفكالك عراها وخرابها الذي كان ملازما لعظمة الرومانيين
محمولا معهم منذ وجدت ثم نستنتج من ذلك الاسباب الباعثة على سقوطها التمام فنقول
اعلم انه في القرن الرابع الميلادي كانت السلطنة الرومانية مشرقة على الاضجعلال الكلي
كامريك حماد كرها في تاريخ رومية وفقد الاسم الروماني كل ما كان له من الشأن والتأثير وضعفت
كذلك السطوة الشديدة التي كانت لفاتحي الرومانيين على غالب الامم المقهورة وقبض المتسبررون
على كثير من الوظائف الادارية والعسكرية وصارت الخو من زيادة امتدادها مهددة لعدم حمايتها
سماية كافية ونجم عن احتياجات الطبقات العالية المتزايدة على الدوام وعن تبيذ الملوك الذي لم يسمع
بمثله أن زادت الدولة في الضرائب زيادة فاحشة فأسرعت الاقاليم بطرح النيران الروماني الثقيل لانها

كانت تنبئ من مظالم الحكام لما تصفوا به من الجشع لارضاء ملذاتهم ومشتهيات من يسعون في توطيد سلطتهم من الملوك

وقد أدرك الملوك من أول حكم دقلديانوس أن شخصاً واحداً لم يعد يكفي لمقاومة الاسباب العديدة المؤدية بالدولة الى الانحلال وأنه اذا كان لا يزال في الامكان نجاة العالم الروماني فليس لذلك وسيلة أحسن من تجزئة السلطة الملوكية وخصوصاً من تخويرها وتخويرها مطلقاً من الوصاية التي تجربها عليها الطبقة العالية (البطارقة) من الامة غير أن هذا العلاج الاول كان أضربها مما هي فيه لانه زيادة عن تطبيقه الذي يؤدي ضرورة الى الحرب الاهلية تصادم جميع الاطماع المتعادية التي تظهر عند ذلك وزيادة عن تزايد الضرائب الثقيلة التي يستلزمها إيجاد ثلاث أو أربع حواش ملوكية مع ما يلزم للثلاثة أو الاربعة ملوك الذين يتقاسمونهم من المصاريف كان من الواضح أن كل شريك في الدولة لا بد وأن يوجه نظره الى غرض خصوصي وهو السلطة العليا ويبدل كل مساعيه لقطع الخطوة الاخيرة التي تعرفه عن نواها

هذا من جهة الملوك أما ما يختص برتبة الاشراف وما منحوه من الامتيازات فان ذلك هو الافة الاصلية للعمل الذي شرع فيه قيصر وتمه اغسطس وخلفاؤه من بعده وهي آفة ملازمة لنفس نظام الدولة ولم يكن في مقدرة احد أن يقف في طريق تقدمها المتزايد على الدوام وقد سعى دقلديانوس في ذلك وحل فرقة الحرس المكونة من الطبقة العالية أي البطارقة ولكنه اضطر أن يعوضها بحرس آخر شبيه لها في نظامها مسمى باسماء مختلفة ولما صدق سقطنطين على التخت سعى في كسر شوكة طبقة الاشراف من الجنود وتعويض وظائفها بوظائف أخرى ملكية فنجح الى النقطة معينة غير أنه أدرك من ذلك الوقت أن الإقامة في رومية ليست ممكنة بعد للملوك فنقل الى القسطنطينية كرسي الدولة وكان ذلك سبباً لزال الدولة الرومانية وهذا قول بعض المؤرخين لانه كان عملاً مشؤماً عليها لانها هلكت بنفس القوة التي تأسست عليها وهي القوة العسكرية وحيث تحقق ان القوة العسكرية مستند سربيع العطب فالاحسن للدولة ان تستند على القوانين والنظامات وبعد أن مضى نحو ثلاثة قرون على اغتصاب قيصر للسلطة الملوكية حدثت بالدولة ثورات عديدة وارتبكت فساداً ومماثلهم ما افتتح الرومان الدنيا وبنوا اموالها اشباعاً لشهواتهم كالتفرج على جيوش المصارعين تتلاطم في الملاعب مع الحيوانات المقترسة بجميع أنواعها وقتل أزيد من ١٠٠,٠٠٠ نصراني ارضاء للامة وغير ذلك ولم يكن في مقدرة احد ان ينسى رومية القديمة حريتهم المفقودة والمفاخر السابقة التي فالتهمادة الجمهورية

ولما شاهد قسطنطين كل ذلك حدثته نفسه بان يشيد رومية أخرى جديدة ازاء القديمة ويقطع تماماً كل وصله بينه وبين العوائد القديمة ويترك الرومانيين ومعبوداتهم الكاذبة وأفكارهم التي لا تزال تبقى على الدوام أيام الجمهورية ويحدث بناء متيناً على تلك الاطلال العديدة المتركة الا أنه قد خاب في مساعيه بما السبب ان عمله هذا كان مستحيلاً وأنه لم يكن في مقدرة اخراج هذا العمل من القوة الى الفعل وربما كان اخطأ في اعتبار أن النصرانية أقوى واسطة لهذا العمل انما من المحقق ان أهم أسباب الزوال التي ظهرت في أول قيام الدولة السفلى كانت شدة المناظرات الدينية وتعدد المذاهب التي نجمت عنها وقد أحدثت المجادلات بين الارثوذكس والمبتدعة والميل لاقامة البراهين التي اشترك

فيما حتى الملوك ضرر اعظمي هذا النظام الحديث بقدر ما سببه طيش ومطالب طبقة الاشراف
 مدة النظام القديم رومية وكانت المسائل الدينية تنقسم الى اقسام ثانوية لاعدادها وكل فرقة
 تدافع عن معتقداتها دفاع المستميت حتى استتوات الفوضى على الامور الدينية كما استولت على
 اجزاء الحكومة وزيادة على ذلك فان طبقة الاشراف والبطارقة لم تكن تركز قسمها من
 المملكة وكذا المصادر وخدمة الملاعب وكانت كل هذه الطبقات المتعودة على المعيشة من كرم
 الملوك تبعتم الى القسطنطينية وقد انحطت سيرة جميع هذه الطبقات الطفيلية المذكورة درجة
 عما كانت عليه بمجيئها الى المشرق وبقدر ذلك ازدادت قوتهم ووقاحتهم حيث شوهد بعد قليل
 ان حوزي الملاعب العمومية صار في امكانهم نقل التخت لكل من يمكنه ان يذللهم في العطاء وحتى
 ان الديانة النصرانية خضعت لاحتياجات المعيشة الشرقية فلم تمنع في تشويه الانسان فقد شوهد
 كثير من الخصيان المنحطين عن درجة الرجال يدهم السلطة العالية بالنسبة عن الملوك الذين كانوا
 لا يزالون اقل منهم قدرة وقد بلغ الفساد منها لما توصل الجدل الطويل والمشاكرات الغير
 المنقطعة الحاصلة بين المذاهب الدينية الى ايجاد الفرق الدينية بالشرق ثم انت بعد ذلك المخاصمات
 بين البابوات وبارقة القسطنطينية الذين كانوا يحرمون بعضهم بعضا وغرست عنصر الانحلال وسط
 هذه الجمعية البالية وشغل البغض ضد اللاتين المكان الذي كان يجب ان يشغله البغض ضد
 الامم المتبرر التي كانت تحاصر الدولة من جميع اطرافها وازدادت الفرق الدينية زيادة عظيمة
 واكتسبت أهمية زائدة حتى ان الامبراطورة كانوا يهتمون بتقريب اتباع رئيس الكنيسة الاغريقية
 منهم أكثر من اهتمامهم بعلاقة الفرس والبلغار في ميدان القتال وكان الغرب الارثوذكسي
 المتبرر ينظر شذرا الى الشرق المتمدن الفاسد الاخلاق المتفرق الاوصال ومن ذلك الوقت صارت
 القسطنطينية المحاطة بالاعداء غنية بصطادها أشدهم حسارة وأعظمهم قوة أما هي فلم يكن لديها
 ما ينجي الدول لا قوة الاسلام وجميعهم في الازمنة الوسطى ولا التبصر وحرية الافكار الحافظة
 للجمعيات في الازمنة الحديثة

وكانت عسكر غودوفر وادوبويون وبودوان ودفلاندر القاسية العقول والاجسام لاتفهم
 شيئا من جميع دقائق المسائل المظلمة التي كانت موضوع الجدل بين أرباب المذاهب المختلفة بتلك
 المدينة بل كانوا لا يرون فيها الا النبي الكلي والجزئي للمذاهب التي هي أساس معتقدتهم فلذلك أزالوا
 عندهم ورهم بتلك المدينة تلك الانقراض الاخيرة للتمدن الزوماني وقدم هؤلاء المتبررون عملهم
 الى غاية باتمام تقويض بنيان الدنيا القديمة وأوجدوا مكانا فاسحا لاطلاق قيود الفكر الحديد
 وقد كان استيطان اللاتينيين بالقسطنطينية حادنا جسديا في تاريخ اضمحلال الدولة السفلى ولما
 خرجوا منها ظهرت بها على التسدرج اثار الانحلال الذي جعل حدوته أولئك القوم وسقطت
 بنقص الاسباب التي أوجدتها وابتدأت نائيا المقاتلات الدينية بقوة أشدهم سابق وتكرر حدوث
 الاعتصابات باليد المسلحة فانها بالبلغار على جميع التخوم وانقض الاتراك العثمانيون الذين كانت
 تزداد قوتهم من ضعف أعدائهم فكانت الدولة السفلى بقوة وجرأة عليها قصد الاستيلاء على
 القسطنطينية فافتتحوها سنة (١٤٥٣ م) أي قبل اكتشاف أمريكا بقرابة بعض سنوات

(الفصل الثاني)

خلاصة تاريخ الدولة الشرقية وتبايرتها

قسم بعض المؤرخين تاريخ هذه الدولة الى ست مدد وقد اخترنا اتباع هذا التقسيم لما في ذلك من فائدة القراء والتسهيل عليهم في تلخيص تاريخها لتخصيصها مفيداً فنقول

المدة الاولى

(٣٩٥ - ٥٦٥ م)

المدة الاولى تبدأ من سنة (٣٩٥ م) وهي السنة التي مات فيها تيودوثيوس بعد أن قسم الدولة الرومانية بين ولديه هونوريوس واركاديوس الى سنة (٥٦٥ م) وهي السنة التي كانت نهاية حكم يوستينيانوس الاول الذي هو اعظم امبراطور في تلك المدة أما ملوك هذه المدة فهم اركاديوس (٣٩٥ - ٤٠٨ م) وهو اول امبراطور للدولة الشرقية كما علمت والابن البكري لتيودوثيوس الاكبر وكان ملكاً ضعيفاً تغلب عليه وصيه المدعو روفينوس واوروباً كبير حبابه واودوكسي زوجته لانه كان صغير السن لما تولى على المملكة ولم يتمكن هذا الامبراطور اضعفه من منع تقدم الامم المتبررة ومن أعماله حياية مذهب اريانوس^(١) ثم مات غير مأسوف عليه من رعيته في السنة المذكورة وفي زمنه أمر أن تغلق هياكل الاصنام المصرية ويعتق الناس دين النصرانية دون غيره

(١) اريانوس أوريان أو أريانوس هو صاحب بدعة مشهورة في النصرانية ولد بمدينة سيريناياك (بوقه) في نحو سنة (٢٨٠ م) ومات في سنة (٣٣٦ م) وكان قسيساً ورئيساً اريانية بالاسكندرية سنة (٣١٨ م) وفي تلك الاثناء حصل بينه وبين مطران الاسكندرية المدعو القديس أناناس جدال كان يدعي فيه ان المسيح عليه السلام مخلوق تام الخلقة مشابه جسد الولي سبحانه وتعالى ولكنه ليس هو هو فقد قوله هذا القديس ثم حكم عليه بجمع بقيقه بالنق (٣٣٥ م) لانه لم يرد ان يعترف أسلاً بانحطاط الصفات الثلاث في الثالوث المقدس وكان اريانوس شاعراً وموسيقياً كما كان هارمونيوس واللاتينيوس المتقدمين وكان جعل مذهب هذا أناسيد ومغاني يتغنى بها وبذلك تمكن من نشر بين الامة ثم ساعد اوزيب مطران نيقوميديا وتمكن من حمل القيصري قسطنطين على اصدار العقوفه ثم مات فجأة في نفس يوم دخوله القسطنطينية وطلت شيعته انهم سموه ورأى اخصامه في موته مجزة للسيد المسيح وقد امتد مذهب كثير امته الامبراطور قسطنطين رولانص وكان المطارنة الارثوذكسية بقصر الملك جرجس المملوك على التساؤل في أعمال الكنيسة وكانوا يتحدون بأعمال الملوك ويتلقون لهم بالقول لم يكونوا يسمون بها من مطارنة الارثوذكس وقد نهى الملك تيودوس كنائس الارثوذكسيين ومنعهم من الاجتماعات غير ان ذلك لم يلاش هذا المذهب فقد كانت جميع الامم المتسببة تقر بما اعتنقته ما عدا الفرنك منهم وفي ابتداء القرن السادس كان الملك تيودوريك باطاليا والاريلك بلاد الغالة واسبانيا والقوقه بغالبها والوندال بافرقيية يمتدحون بذهب اريوس وقد تمكن المطارنة الذين اظهر والقوة في الدفاع عن الوحدة الكاثوليكية من التغلب على هذا البدعة وتمكن البابا افرغوار الكبير من محوها عما من اسبانيا في اواخر القرن السادس وهدمت فتوحات الفرنج لما بقي منها ببلاد الغالة الجنوبية وايطاليا وازالت تماماً من افرقيية لما تهر بليز والوندال اه

وقام بعده تيودوشوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠ م) وهو ابن ارКАДيوس وحفيد تيودوشوس
 الاول وكان يتصف بالضعف كوالده وتغلب عليه في حكمه وزير المدعو انثيموس وكان رجلا عاقلا
 ثم تغلبت عليه أخته يولخيريا وقد اجتمعت في اصلاح شأنه وستر عيوبه وجعله حديرا بالمنصب وايقاع
 مهابته في قلوب الرعية وساست البلاد سياسة حسنة وحاربت الفرس لفتكهم بالنصارى فانصرت
 عليهم (٤٢٣ م) وأرستهم بالتنازل للامبراطورية عن نصف أرمينيا وكان ملك الفرس اذذاك
 كسرى بهرام جور بن يزيد جردالاثيم وفي زمنها تغلبت الامبراطورية الشرقية على الغربية ونصبت
 عليها فانثيموس الثالث الذي كافأها بان تنازل لها عن ايليريا الغربية المشتملة على بلاد يانونيا
 ودلماسيا و فوريكوم الآن قبائل الهون اُغارت على بعض جهات الدولة حتى التزمت يولخيريا بالمد كورة
 بتنفيذ ما أملاه من الشروط عليها وهي زيادة الجزية المضروبة على القسطنطينية لامة الهون وان
 تسلم لهم دولة الرومان احدى المينات التي على نهر الطونة لتكون خالصة لاولاد الرومان عليها وان
 لا تعاد دولة القسطنطينية معاهدة أو صلح مع أي عدو من أعداء الهون فقبلت يولخيريا والقيصر ذلك
 بلا معارضة وتراسل القيصر وأتت املاك الهون وانحط شأن الرومان جد الذي أتت لاحتي جعلهم
 كعبيد لاوامره وفي السنة الخامسة عشرة من ملك هذا القيصر كان يقاط أصحاب الكهف من
 رقدتهم التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز وقصتهم معروفة وكان من المتغلبين على هذا الامبراطور
 أيضا زوجته أودوكسيا وكذا الخصى كريساف حاجبه ومن الحوادث التي حدثت وحصلت في
 عصره هذا الملك المجادلان الدينية بين شيعة نسطورس (١) وأصحاب المشيئة الواحدة وقد
 تسبب عن هذه المجادلات انعقاد مجمع مدينة افسوس (٤٣١ م) وفي زمنه صدر القانون المسمى
 بالقانون التيودوشي (٤٣٨ م) وهو أول قانون رسمي عرف لذلك الزمن

وبعد موته ارتقى الى المنصب الملوكي مرسيايوس (٤٥٠ - ٤٥٧ م) وهو من عائلة
 صغيرة وقد تدرج من صغره في وظائف الدولة الى ان ترقى الى العضوية في السناتو وارتقى حاله أيضا حتى
 تزوجت به يولخيريا المتقدمة الذاكر بعد موت تيودوشوس وكان نودى بها امبراطورة على الشرق بعد
 موت أخيها ويتصف هذا الامبراطور بالشجاعة وقد توصل لدفع اغارات الهون وردهم وحسن
 لرئيسهم أتتلا الاغارة على الدولة الغربية وبذلك تمكن من ابعاده عن بلاده الا ان أتتلا رفع مقدار
 الجزية السنوية التي تدفعها له الدولة الشرقية من ٧٠٠ وزنة من الذهب الى ٢١٠٠ وزنة ثم
 توفيت يولخيريا (٤٥٢ م) وحكم مرسيايوس المذكور بعدها مستقلا أربع سنوات وفي

(١) نسطورس صاحب بدعة مشهورة ولد بمدينة جيريما نيسا من بلاد قسطنطينية بعينه الملك تيودور الصغير بطريركا
 للقسطنطينية (٤٢٨ م) وكان من أعماله في أول أمره طرد اتباع رويس من هذه المدينة ثم شرع في أن يعلم بوجود
 شخصين متميزين في نفس عيسى عليه السلام وانه لا يصح أن يقال ان عيسى هو اله وانسان أو اله وانسان واله وان السيد المسيح
 هي أم المسيح وأم الاله وتعارض القديس سيريل بطريرك الاسكندرية في قوله هذا حكم مجمع افسوس على نسطورس
 المذكور (٤٣١ م) بالتفنيذ وعزله من وظيفته ثم نقاد تيودوس بصعيد مصر حيث مات ثم اجتمعت قضاة
 القسطنطينية في تعقب اتباعه بمصادرهم واحرق كتبهم ولكن ذلك لم يجد نفعاً ثم انتقل النسطورس الى بلاد
 الفرس ولا زال يوجد له أتباع بين الكلدانيين والنساطرة بسوريا

مدته عقد مجمع خلقدونيا (١) وهو المجمع المسكونى فى الرابع عند النصارى

ثم قام ليون الاول (٤٥٧ - ٤٧٤ م) ويلقب بالكبير وكان صعوده على تخت
بمساعى أحد عظماء الدولة المدعوا سبار الذى غشه فيما بعد فى محاربة الوندال وما هزمت جنوده قتل
أسبار المذكور وجميع عائلته وكان غير اعلى المذهب الاورثوذكسى وقد هزم القبائل المتبربرة فى
عدة وقائع حتى ساد الامن فى جهات الدولة

وبعد موته قام بالامر ليون الثانى (٤٧٤ م) وهو ابن زينون ولم يكن عمره لما صعد على
التخت يتجاوز الاربعة سنوات ولم تطل مدته حيث مات فى تلك السنة

وقام بالامر بعده والده زينون الاول (٤٧٤ - ٤٩١ م) وكان يتولى قبل ذلك رياسة
الحرس وكانت له حظوة عند الامبراطور ليون الاول لانه أظهر له المساعدة فى تعزيز مكره ضد
اسبار وادابور يوس القائدين خصميه ثم صار بعد ذلك صهره وبعد موت ليون الاول أشركه ابنه ليون
الثانى فى الحكم لضعف سنه ثم ان فيرنياز وجة ليون الاول وباسيليكوس عمه تآمر عليه وطرده
من القسطنطينية وجلس باسيليكوس المذكور مكانه (٤٧٥ م) الا أن زينون التجأ
الى الايسوريين والغوط فساعده على نوال مكره ثانية وقد كافأ الغوط على ذلك بأن صرح
لهم بالانغارة على رومية غير أنه ارتكب بعد انتصاره على أعدائه فظائع كثيرة وفى تلك الاثناء احترقت
دار كتب القسطنطينية وكان بها على ما يقال ١٢٠,٠٠٠ كتاب ثم وقع بينه وبين الغوط الذين
ساعده على نوال مكره وبعادت عليه بالخسران وعصى عليه كثير من قواد جيشه فتمكن
من ادخالهم تحت دائرة الطاعة وكان يعيل الى الشهوات والملاذات النفسانية كثيرا حتى كرهته الناس
وكانت نهاية أيامه أن دفنته زوجته المسماة اريادنى حيا وهو سكران وحصل فى زمنه حر وبدينية
سفل فيها كثير من الدمايين الارثوذكس والقائلين بطبيعة واحدة

ومن بعده جلس على سرير المملكة اناستيوس (٤٩١ - ٥١٨ م) وهو من عائلة
حقيرة وكان من موظفى القصر الملوكى وقد دعت اريادنى زوجة زينون لتتزوج به وتجلسه على
التخت فتم له ذلك وقد اصف هذا الامبراطور فى اول حكمه بالصلاح والععدل ثم تغيرت أطوارها
أظهره من المساواة والبخل والنجس الى بعض الطوائف حتى كرهه الناس وبينما كان يشتغل
بالمجادلات الدينية كانت الفرس والبلغار يعيشون فى أقاليم الدولة ويمسرقون وينهبون ولما جرد
عليهم هزم ولم يتمكن من عقد الصلح معهم الا بأن دفع لهم مبالغ وافرة من الاموال ثم مات فجأة ويقال
ان قدا أصابته صاعقة ومن أعماله ابطال المصارعة مع الحيوانات الكاسرة واحاطة القسطنطينية
بسور حصين عظيم ارتفاعة ثلاثة أمثال ليقها من انغارة البلغار

وبعد موته خلفه يوستينوس الاول بتعضيد الجنود (٥١٨ - ٥٢٧ م) وكان فى اول
أمره راعيا ثم جنونيا وما زال يترقى حتى وصل زمن الامبراطور ليون الى أعلى الوظائف وكان
امبراطورا عاقلا تمكن من اطفاء الثورات الدينية زمنا وكان يضطهد القائلين بالطبيعة الواحدة

(٢) خلقدونيا مدينة قديمة بآسيا الصغرى على سواحل البوسفور مقابل القسطنطينية وكانت تسمى مدينة
العيان تبتسمة (٦٨٥ ق م) وقد زالت الآن وبنى عليها القرية اللطيفة المسماة قاضى كوى اه

فعضده قساوسة الارثوذكس الاقوياء وقبل موته تبنى ابن اخته المدعو يوستينيانوس وعهد اليه
 بالامر من بعده ودخلت طوائف اللاذ في حكم القسطنطينية وكانوا قبل ذلك يدفعون الخراج لملك
 فارس فكان هذا سبب الاتقاض الصلح بين فارس والروم
 وللمعات يوستينيانوس خلفه يوستينيانوس الاول (٥٢٧ - ٥٦٥ م) وكان أبوه فلاحا بسيطا وهو
 أشهر ملوك هذه المدة وقد وصلت الامبراطورية في زمنه الى أوج المجد وكان له قائد يدعى بيلساريوس
 أو بليزيراشته في كل محاربته بالانتصار فمن وقائع الشهيرة محاربته الوندال بأفر بيقية
 (٥٢٢ - ٥٢٤ م) والغوط بايتاليا (٥٣٥ - ٥٥٠ م) وانتصاراته على الفرس
 (٥٢٨ - ٥٢٢ م) و (٥٤٠ - ٥٥٦ م) ففي محاربته مع الوندال لم يتيسر ليوستينيانوس
 المدكور أن يجهز الأسطول لأمركا من خمسين سفينة فقط حتى انه لما أرسى بها القائد بليزير على
 البر لم يجد باقيا معه من عدد العساكر سوى خمسة آلاف رجل لا غير فما كان أعظم حراجه في هذا
 المشروع مع ان القيصر ليون كان أرسل عليهم عمارة بحرية مؤلفة من جميع سفن بلاد المشرق
 الرومية وكان بها من العدة مائة ألف مقاتل وما قدر على فتح بلاد أفر بيقية بل اسقط في يديه ان قد
 أضع المملكة هذرا وهي ان تفلح أمثال تلك العمارات البحرية الجسيمة ولاتلك الجيوش البرية
 العظيمة فانها حيث كانت تذهب بكل عمارة الدولة وزخرتها كانوا انابعدت عليهم الشقة وأصاحبهم
 بعض المصيبة لا يجدون من عدلهم يد الا عانة ولا ما يجبر بعد ذلك خلفهم واذا فقد بعض الشيء فلامعول
 على ما بقي منه فان السفن الحربية وسفن الجولة والنسالة والمشاة والنظر وجميع المهمات الحربية
 كالشيء الواحد بحيث لو فقد منها البعض لاخل بالهيئة الاجتماعية الكلية ويبتل بذلك عملها ومع كل
 ذلك فقد استولى بليزير على أفر بيقية بهذه القوة الصغيرة لاستعداده ومهارته ووقع ملك الوندال في
 يده أسيرا ولما تم لهذا القيصر الظهور على الوندال أمر قائده بليزير بالمدكور بفتح ايطاليا وزرعها
 من يد الغوط فاهتم القائد بكل ما في امكانه الا انه لم يتمكن منه تماما وبقي الى أن أمته القائد ترسيديس
 فهو الذي ظفر بهؤلاء المتوحشين وانتصر عليهم وذلك لان سلطتهم بايطاليا كانت أخذت في الضعف
 بخلافها في مملكة اسبانيا فكانت عظيمة جسيمة وكان يحكمهم ملوك أصحاب قوة وتدبير وحسن
 نظر وحصل ان أتانا جلدوس ملك الغوط باسبانيا استعان بالرومان على خصمه ملك ايطاليا فوجه
 الروم بعد ان تصارهم على ايطاليا البطريرق بيبريوس لمساعدة اسبانيا وبعد ان قام بما يجب عليه
 استولى على مدن بلنسية وقرطبة وسائر مدن أقاليم الاندلس الشرقية وأضافها الدولة القسطنطينية
 ولا زال جزء من الاندلس في يد القسطنطينية حتى سنة (٦٢٤ م) اما سبب محاربته للفرس فلان
 كسرى أنوشروان كان نقض الصلح باغراء الارمن والغوط ولما هجم الفرس على الشام وكانت تابعة
 للروم طردهم بليزير منها الا ان أمه اللاذ التي كانت تابعة للوندال القسطنطينية وواقعة على سواحل
 البحر الاسود دخلت في طاعة كسرى فاغتنم كسرى هذه الفرصة وشرع في تجديد سفن حربية
 بتغور البحر الاسود بمساعدة أمه اللاذ التي كانت لها المهارة في الملاحة وبذلك كان يمكن لا كسرة
 فارس أن يوسعوا ادارة نفوذهم بسفنهم الحربية وان يتجولوا في جهات البحر المتوسط الايض بالعبور
 من خليج القسطنطينية الا ان طائفة اللاذ ومن اتبعها بالدخول في حوزة الفرس ندموا فيما بعد على
 فعلهم هذا لانهم سيتغربون عن بلادهم فنقضوا عهدهم والتحقوا بالقسطنطينية وأعانوها على طرد

الفرس من ممالكها (٥٥٥ م) ثم استمر الحرب بين فارس والروم زمانا وانتهى بان رد كل من الطرفين ما كان استولى عليه من ممالك الآخرفصارت بذلك حدود بلادهما كما كانت الا ان أعظم تغيرا له هذا الامبراطور هو سنة القوانين المسماة باسمه وذلك انه عهد لجمية من علماء الشريعة بجمع واصلاح جميع الاوامر والمنشورات التي صدرت مدة جميع من سبقه من الملوك وجعلها قانونا واحدا وقد اهتم يوستينيانوس أيضا بالمسائل الدينية بغيره ومعرفة فاق فيها اسلافه ومن اعماله اصلاح كنيسة أحياصوفيا بالقسطنطينية وابطال مدرسة الفلاسفة الوثنية في أثينا ومن مشاهير قواده أيضا تارسيس الخصى المذكور الذي تولى قيادة الجيوش بعد بليساريوس وهو الذي لاشى قوة الاستر وغوت في ايتاليا (٥٥٥ م) وردايتاليا وصقلية الى الدولة الشرقية

وفي زمن يوستينيانوس أدخل دودالقرالى أوروبا بجلبه اليها قوم من الصين أرسلهم اليها يوستينيانوس وانتشر التمدن واتسعت المعارف وكان ليوستينيانوس زوجة تدعى تيودوره اشتهرت بجمالها كما اشتهرت بجمالها الى الملاهي وقد أثرت عليه تأثيرا عظيما ولوئث حكمه بما ارتكبه من خيس الاعمال ويقال انها السبب في نكبة بليساريوس وقد كتب كثير من المؤرخين تاريخ هذا الامبراطور لشهرته وقد وقع في أيام هذا القيصر فتن عظيمة بالقسطنطينية وحدث طاعون شديد هلك فيه كثير من أهالي أوروبا ووقعت في مدته الزلازل الهائلة منها زلزال سنة (٥٤٧ م) هدم فيها مدن عظيمة وفي زمنه أيضا حرق أمير جنده تارسيس مدينة أسكندرية لامتناع أهلها عن قبول البطريرك تيوديسيس

(الفصل الثالث)

المدة الثانية

(٥٦٥ - ٧١٧ م)

تمت هذه المدة من موت يوستينيانوس الى سنة (٧١٧ م) وهو العصر الذي جلست فيه العائلة الايسوريانية على سرير المملكة الرومانية الشرقية نسبة الى بلاد ايسوريا مقاطعة آسيا الصغرى ومولوك هذه المدة هم يوستينوس الثاني (٥٦٥ - ٥٧٤ م) وقد استبشر الناس به في أول حكمه وتمكن من ردا غارة الفرس أولا الا ان اللومباردين اغتصبوا قسما كبيرا من ايتاليا ونهبت قبائل الافار (١) الولايات الواقعة على الطونة ثم ماتت مدت الدولة بانغارة القبائل المتبررة والفرس عقد هذا الامبراطور مع الاتراك التازين بجهات بحر طبرستان معاهدة ضد الفرس الذين

(١) الاقارمة من أصل تنارى كانت لها السلطة من القرن الخامس للبلاد بجهات جبال التاني بآسيا وقد خرب الصينيون قسما من مملكتهم (٥٥٢ م) وفر الذين بقوا من القتل الى أوروبا بامع خانهم المدعو واركوني واستوطنوا بلاد داسيا (٥٥٨ م) ثم أخضع أحد رؤسائهم المدعو يان مملكة الجيد والبوهيم حتى خافته الدولة الافريقية التي لم تنج من شرهم الا بهزيمة الملك هرقل لهم تحت أسوار القسطنطينية (٦٢٦ م) ثم ان خلفاء هذا الرئيس استولوا على بلاد داسيا الا أنهم أضاعوها (٦٤٠ م) ثم دخلوا ايطاليا وأخضعوا الصقالية والبلغار ثم تقدموا ما افتتحو مشيا فشيا الى أن أخضعهم الملك شلمان عام ١٠٢٥

كانوا أعداء الفريقين وهو أول اتحاد حصل بين الترك والروم وأرسل الترك سفيرا منهم الى القسطنطينية فقبول بالترحاب ثم عكف بعد ذلك يوستينوس المذكور على القصف والحلاعة وأظهر القسوة في أعماله وترك زمام الحكومة الى صوفية زوجته التي جرت الوبال على الدولة ثم ان هذا الامبراطور قد ارشد في آخر أيامه وكان أشرك صهره المدعو طبريوس قسطنطين معه في الحكم وفي السنة الرابعة من حكم هذا القيصر كانت ولادة النبي صلى الله عليه وسلم ومات في زمنه أيضا كسرى أنوشروان وتولى بعده ابنه هرمز وكان عاقلا عادلا ينظر في مظالم الرعية بنفسه روى عنه انه يوم ملاك نطق بمقالة بليغة احتوت على كثير من الحكم لهذا رأينا ايرادها هنا وهي

الحلم عماد الملك والعقل عماد الدين والرفق ملاك الامور والظننة ملاك الفكرة أهم الناس ان الله خصنا بالملك وعيكم بالعبودية وكرم مملكتنا فاعتقكم بهما من عبوديتنا وأعزنا وأعزكم بعزنا وقلدنا الحكومة فيكم وقلدكم الانقياد لامرنا وقد أصبحتم فرقتين احدهما أهل قوة والاخرى أهل ضعة فلا يستأكل منكم قوى ضعيفا ولا يغش ضعيف قويا ولا تتوطن نفس أحد من الغلبة الى ضم أحد من أهل الضعة فان في ذلك وهنالملكا ولا يرومن أحد من أهل الضعة الاخذ بالغلبة فان في ذلك انتشار ما نحب نظامه وزوال ما نحاول قوامه وفوت ما نحاول دركه واعلموا أيها الناس ان حاجتكم اليها في نفس حاجتنا اليكم وحاجتنا اليكم هي مسد لحاجتكم اليها وان التقيسل مما أنتم منزله منا من أموركم خفيف والخفيف مما نحن مجشموكم ثقيل العجزكم مما نحن مضطلعون واضطلا عن الما أنتم عنه عاجزون وانما تحمدون حسن مملكتنا ياكم وفضل سيرتنا فيكم اذا حسمت أنفسكم مما هييناكم عنه ولزمتنا ما أمرناكم به ميزوا بين الامور المتشابهات وأزروها منا زلالها وانسموا النسك ربا والاريا مر اقية ولا الشرجع ولا الظلم حراما ولا الرحمة نقمة ولا الصنع عفا ولا الاخذ بالفضل ذلة ولا العجبة عقلة ولا العذر ضرورة ولا الورع اجتهاد ولا الخيانة غنما ولا القصد تقيرا ولا الخيل اقتصادا ولا الزهو مروة ولا التواني تودة ولا الحياء مهانة ولا السفه صرامة ولا العجب كالا ولا الما لا يكون كائنا ولا كائنا ما لا يكون ولا المعاتبة مفسدة أيها الناس اجنبوا المردولات من هذه الامور المتشابهات وباروا على ما تحظون به عندنا فان وقفوكم عند امرنا مناجاة لكم من سططنا وتنكيكم معصيتنا سلامة لكم من عقابنا فاما العدل الذي نحن عليه مقتصرون وبه نصلح وتصلحون فأنتم فيه عندنا مستورون وستعرفون ذلك اذا رفعنا أهل القوة عن أهل الضعة مرتبة لا يستوجبها الا المستحق منهم الحياء والشرف لجدته توجد عندنا أو بلا حسن يظهر منه واعلموا أيها الناس اننا قرون سوطنا وسيفنا ومستعملوهما بتبنت وحسن روية فيمن غصص نعمتنا وخالف أمرنا وحاول ما نهينا عنه فاننا لا نكاد نصلح رعايانا ونضبط أمورنا الا ان تشكل بين خالف أمرنا وتعدى سيرتنا وسعى في فساد سلطاننا فلا يطعم أحد في رخصة منا ولا ترجون هوادة عندنا فاننا غير مدهنين في حق الله الذي قللنا فوطنوا أنفسكم على الطاعة أو الجزاء اه

وبعد موته قام بالامر طبريوس الثاني المذكور بعهد منه (٥٧٤ - ٥٧٦ م) وكان قبل ان يشرك في الحكم رئيس الحرس مدة يوستينوس الثاني وكانت زوجة يوستينوس المذكور هي التي نصحت زوجها بالاهمال اليه لانها كانت تأمل ان تكون زوجة لطبريوس فيما بعد ولما خاب أملها ماتت عليه تريد قتله ولما علم طبريوس بذلك عفا عنها ثم التفت الى الفرس

فنازلهم وكانت الحرب بينهم مامجالا ولم ينجح في عدة الصلح معهم ومن أعماله أيضا رداغارة الافار بأن دفع لهم مبلغا من المال وكانت الرعية ترجونه خيرا لها والدولة اذا فاجأته المنون بعد ان حكم قليلا وكان هذا القيصر شديد التمسك بدين النصرانية ولما رأى ان مصر تميل الى المذهب يعقوبية بذل جهده في تثبيت هذا المذهب فيها وجعله عموما بين نصارها وايد كنيسته يعقوبية

وقام بعده موريس (٥٧٦ - ٥٨٣ م) ويدعى أيضا مرسيسوس طبروس ومن أعماله أن رد كيخسر والثاني ملك الفرس الى التخت بعد ان طرده رعاياه وعقد معه صلحا مفيدا وساعدا يتايل على اللومباردين ثم اضطر هو أيضا لان يدافع عن نفسه من اغارات ملك الافار وبينما كان سائرا لمحاربته خاتمه جنوده بتحرصات فوكاس فقتلوه هو وأولاده السنة ومن التأليفات التي ألقت في عصره اثنا عشر كتابا في الفنون العسكرية ووجد هذا المتأخرون وطبعت بعد الترجمة بمدينة أوبسالة (١٦٦٤ م) وفي زمنه قبض أبرويز على أبيه هرمز ملك الفرس وسمل عينيه ولبس التاج وطال ملك ابرويز الى ان خلفه ابنه شيرويه في السنة السادسة من الهجرة وكان قد بعث اليه النبي عليه السلام كتابه مع دحية الكلبي يدعو الى دين الاسلام فزقه ابرويز قدما عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يمزق الله ملكه كل ممزق ثم حصلت بيلااد الفرس ثورات داخلية وبعد أن خنق ابرويز أباه لحق بملك الروم موريس هذا مستجدا به على خصمه فلما لموريس على ما فعله بآبيه أولا وثانيا ثم أنجده بجيش جرار على خصمه فتمكن ابرويز من الجلوس على تخت الفرس ثانية ثم تآمر عليه الجنود وقتلوه

لما قتل الجنود موريس بجهات الدانوب نصبوا مكانه فوكاس المتقدم الذكر (٥٨٣ - ٦١٠ م) فقصد القسطنطينية وانهمك في الملاذ والخلعة وأخذ في مصادرة الناس وكان ظلو ما جبانا حتى انه في زمنه انتزع الفرس من الدولة جهات ميزوپوتاميا وأرمينيا وسوريا وقسما من آسيا الصغرى وغيرها ثم خرجت عليه الاهالي نظمه وطلبوا حاكم بلاد أفر بقيه لمساعدتهم ضده فارسل الحاكم ابنه المدعو هرقل ومعه اسطول عظيم فتمكن بمساعدة الاهالي من خلع فوكاس بعد واقعة بجرت بين الطرفين بمياه القسطنطينية ثم قطع رأسه فوق سفينته

ولما أراح الله الدولة الشرقية من فوكاس وأعماله قام بالامر من بعده هرقل الاول (٦١٠ - ٦٤١ م) وقد اشتهر حكمة بالنسبة التي أصابت الدولة لان الافار اغاروا عليها باوروبا كما أن الفرس انتزعو منها آسيا الصغرى وفلسطين ومصر ولما رأى نفسه في أشد المضايقة عزم على ترك القسطنطينية التي لم يبق له سواها واتخاذ قرطاجنة عاصمة له ففرده البطريرك عن هذا الفكر ثم ان طالع النصر رمق بعينه تلك الدولة بعد ذلك فازت مجدا عظيما بانتصار هرقل عدة نصرات على كيخسر والثاني ملك الفرس واسترداد آسيا الصغرى حتى جهات الدجلة وعقد معهم معاهدة من شروطها ان يردوا الاسلاب التي كان الفرس أخذوها قبالا من بيت القدس عند استيلائهم عليه ومن ضمنها خشبة الصليب كما يقال فكانت هذه أول غزوة تصرفت فيها الروم على فارس بعد الغلب وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة ثم سارت جنود بحر حتى أرست على طرابزون وتعاهدت مع الخزر وأغار على خسر وأبرويز حتى كاد أن يتغلب على حدود مملكته وبدشمل التتار المعاهدين للفرس وهزمهم بعد ذلك قرب القسطنطينية وفي تلك الاثناء كان قائد المدعو بونوس يقتال القبائل

المتميزة برقردهم عن القسطنطينية فتمكن من مراده ومع هذا فقد أصاب الدولة بعد ذلك ضعف عظيم
 جلبه عليها أمرؤها (٦٣٢ - ٦٤١ م) وصار هرقل لا يهتم إلا بالمجادلات الدينية تاركاً أعمال
 الدولة لوزرائه وورثائه المتسائله في ذلك عذراً لانه لما رأى ان تلك المجادلات هي السبب في اضعاف
 الدولة أراد أن يجعل لذلك حداً لها بما يجتهد يلزم بتدخله كل طائفة بالتمسك بعتقاداتها ويريد من
 صدورهم غل الشكناة التي مضى عليها زمن طويل
 وقبل هذا العصر بقليل بعث النبي عليه أفضل الصلاة وأتم السلام الى كافة المخلوق بشيرا ونذيرا
 وأخذ شأن الاسلام ينمو بالتدريج حتى تمكن رجاله من تهديد دولة الروم هذه لانه سنة (٦٣٢ م)
 ساق أبو بكر الصديق رضي الله عنه جيش الاسلام تحت قيادة أبي عبيدة وخالدين الوليد وغيرهم من
 الصحابة رضوان الله عليهم فافتتحوا كسيرا من مدن سوريا وغيرها بعد أن هزموا جيوش الروم في عدة
 وقائع شهيرة ثم افتتحوا دمشق (٦٣٢ م) ثم اورشليم (٦٣٧ م) واستولوا أيضا على
 بلاد ميثوپوتاميا وسوريا و فلسطين ومصر وكانت كلها تابعة للروم كما لا يخفى وهرقل هذا هو
 الذي أرسل له النبي عليه الصلاة والسلام مكتوبا (١) يدعو فيه الى الاسلام كما أرسل الى كثيرين
 الامراء والسلاطين

و بينما كان العرب يزقون احشاء الدولة الرومانية جهة المشرق كما وعدهم النبي عليه الصلاة
 والسلام قام على ضفاف الطونة عدة ممالك صقلبية ولم يعض الا القليل حتى خرجوا على الدولة وخلعوا
 كل سلطة لها عليهم ثم مات هرقل سنة (٦٤١ م) وترك ولدين هرقل قسطنطين وهرقليوناس
 وبعد موته قام ابنه هرقل الثاني ولم يحكم الا بضعة أشهر وكان أشرك معه في الحكم أخاه
 لاييه هرقليوناس ولما علم أن أباه كان أودع أموالا عظيمة عند بيروم بطريق القسطنطينية
 وأوصاه بأن يسلم هذه الاموال الى الملكة مارتين أم أخيه هرقليوناس فيما اذا انتابتهام صيبة
 استولى على هذه الاموال التي كانت سبب موته لان مارتين لما علمت بذلك دست له السم
 وقام بالامر بعده هرقليوس قسطنطين الثالث ولم يحكم الا ثلاثة شهور ومات سنة
 (٦٤١ م) ثم قام بالامر من بعده هرقليوناس بن مارتين وأثرك أخاه هرقليوس قسطنطين
 معه في الحكم لان سنه لم يكن يتجاوز ١٥ سنة ولما مات أخوه مسموما كما تقدم استقل هو بالحكم
 منفردا وكان مكر وهالدي الرعية اسوء تصرفه ثم خرج عليه قوم وأزروه من على التخت وجدعوا
 انقه ونفوه فمات في منفاه ولم يحكم الا بضعة شهور (٦٤١ م)

(١) أما صورة المكتوب فهمي كما نقلها مؤرخو الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى قيسر ملك الروم سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله
 ويشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأن محمد عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله فأسلم
 تسلم فاني رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا ويحيي القوم على الكفر بن أهمل الكتاب تعالوا الى كلمة
 سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فاقولوا اشهدوا
 بأننا مسلمون فان أبيت فعلن اثم الاكارين اه وكان جواب قيسر الروم عليه كما يأتي
 من قيسر ملك الروم لاجد رسول الله الذي آمن به عيسى بن مريم أنه أجد فاجاني كتابك مع رسولك وأنا أشهد
 أنك رسول الله تجدك عندنا مكنو باي الانجيل بشر بك عيسى بن مريم واني دعوت الروم ليؤمنوا بك فابوا ولوا طاعوني
 لكان خيرا لهم وودت ان آتي عندك فخدمتك وغسلت قدميك والسلام اه

ثم نصبوا من بعده قسطنطين الثاني (٦٤١ - ٦٦٨ م) وهو ابن هرقل الثاني وفي
 زمنه أعارت جيوش العرب على كثير من مدنه بأسيا فافتكحوها واستولوا على عاصماتهم اذ ذلك من
 الاساطيل الحربية على جزيرتي قبرس و رودس وذلك في خلافة سيدينا معاوية رضي الله عنه وكسر
 أيضا اللومبارديون جيوشه بايطاليا ولما احتاطته الرزايا وحفت به السلايا اخرج من القسطنطينية
 والتجأ الى جزيرة صقلية وهناك أخذ يجمع الاموال من الناس ظميا وبكل قساوة بدعوى تجهيز
 الجنود على العرب فكبرهته الاهالي وتآمروا عليه وقتلوه وهو في الحمام بمدينة سرقوسة بعد ان
 حكم نحو ٢٧ سنة وكان بينه وبين البابا عداوة شديدة

ثم قام بالامر من بعده قسطنطين الرابع بوجناثس (٦٦٨ - ٦٨٥ م) وفي مدنه
 حاصر المسلمون القسطنطينية بجرا ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها لان النيران الاغريقية التي كان
 يستعملها الروم اذ ذلك وكانت سرامصونا لا يعلمها سواهم أضرت بسفن المسلمين ضررا بلغيا
 وأحرقت منها عدة وفي تلك الزقات مات أبو أيوب الانصاري رضي الله عنه وكان من المجاهدين
 فدفن خارج السور وشيدوا له قبرا ثم بنى عليه سلاطين آل عثمان مسجدا فاخر الايرال للآن من
 المزارات المشهورة

وقام بعده ولده يوستينانوس الثاني (٦٨٥ - ٧١١ م) ويلقب دينوتيميت أي الاجدع وفي
 سنة (٦٩٤ م) خرج عليه رعاياه فقبضوا عليه وجدعوا أنفه ونفوه الى بلاد القريم فبقى في منفاه عشر
 سنوات تغلب في أثنائها على المملكة اثنان من القواد وهما ليوتيموس وطيماريوس السماريوس
 ثم ان ملك البلغار المدعوترييل يوس ساعده بعد ذلك وأجلسه على التخت ثانية (٧٠٥ م) ولم
 يلبث ان أساء السيرة فقتلوه (٧١١ م)

وقام بالامر من بعده فيليبكوس بارداسيس (٧١١ - ٧١٣ م) وهو أرمني
 الاصل وكان خدما ملوك القسطنطينية وترقى الى وظائف سامية وكان أكده بعض التجمين
 بصعوده على التخت فاتفق ان فرط منه قول ذلك مرة فنفاه طباريوس الثالث المتقدم (٧٠١ م)
 الى جزيرة ساموس ثم نفاه أيضا يوستينانوس الثاني ثانية سنة (٧١٠ م) الى مدينة خرسون ببلاد
 القريم وهناك انضم عليه بعض الثوار ونادوا به ملكا ثم نظم جيشا ودخل به القسطنطينية فلم
 يقاومه أحد أصلا (٧١١ م) وكان حادا الطباع غشوما كثير الرذائل فلهذا كرهته الرعية
 فتآمروا عليه وخلعوه وقتلوا وعينيه ونفوه فمات في منفاه وكان له يد في قتل الامبراطور يوستينانوس
 الثاني (٧١٣ م)

وقام بعده أنستاسيوس الثاني (٧١٣ - ٧١٩ م) وكان كاتب سر الامبراطور
 فيليبكوس الذي عنده وتهيأت له صارت الدولة بلا رئيس ولما كانت الامنة تعهد في انستاسيوس الصلاح
 والفضائل والمعارف الملكية والعسكرية انتخبوه امبراطورا وكان أول شيء ابتدأ به تنظيم الادارة
 تنظيميا موافقا وأعاد نظام بعض فرق عسكرية وقاوم جيوش الاسلام في بعض وقائع وان لم يمكنه
 ان يتغلب عليها وقد نظم مالية البلاد تنظيميا حسنا ومع ذلك اضطر للتنازل عن التاج لخصمه

تيودوثيوس الثالث واعتزل الامور الدنيوية ومكث في دير بمدينة سلانيك (٧١٥ م) ثم سعى فيما بعد بمساعدة البلغار لان يجلس على التخت مكان ليون يسور يانوس الا ان الزمن لم يساعده فقبض عليه بعض اخوته وسلموه الى ليون في مقابلة مال وعدهم به فقطع رأسه (٧١٩ م) وقام بالامر بعده تيودوثيوس الثالث المذكور (٧١٥ - ٧١٧ م) وكان قبيل ارتقائه الى منصب الامبراطورية جابيا للغراج ببعض الاقاليم وقد نصبه الجيش ونادى باسمه امبراطورا وكان توقف في اول الامر عن قبول هذا المركز فلم يقبلوا منه ثم اضطر ان يستأثر بالنزاع له عن التاج كما تقدم وبعدها بقليل ترك المنصب هو ايضا حينما عارضه ليون الثالث وعاش مع الربيان (٧١٧ م)

(الفصل الرابع)

المدة الثالثة

(٧١٧ - ٨٦٧ م)

تمت هذه المدة من صعود العائلة الايسورية الى التخت بجيوس ليون الثالث الى سنة (٨٦٧ م) حيث تغلبت العائلة المقدونية بجيوس الامبراطور باسيلوس الاول وماولت هذه المدة هم ليون اول والثالث (٧١٧ - ٧٤١ م) الايسوري وهو ابن رجل كان يصنع النعال وكان هو يتجر في الحيوانات في شبيته ثم التف عليه بعض الاشقياء وافهموه انه يمكنه ان ينال الدولة لانه قد نالها كثير من قبله بل اقل منه ولهذا انتظم في الجيش لينال الرتب الرفيعة التي تكون فيما بعد اعظم وسيلة لادراك مرغوبه وصار يترقى بالتدريج لما اشتهر به من الاقدام والجرأة الى ان انتخبوه امبراطورا بعد عزل تيودوثيوس الثالث وقد رده هجوم العرب عن القسطنطينية حين اغارتهم عليها وكان هذا الملك لا يرضى بوجود الصور والتماثيل في الكنائس والمعابد فلما امر بتكسيرها جميعها واصدر بذلك امرا حدث عنه هرج بعوم الدولة وكان ذلك اصل القوة الدنيوية التي حازها البابوات لان الرومان لما غضبوا من اهانتهم رمو زياتهم لهذا القدر عصوا وامرهم وطردهوا ضباطه وتحالفوا على حماية كرسي البابوات وهموا ايضا بانتخاب امبراطور آخر فناع البابا غرغوار الثاني في ذلك وجهز لاون اسطولا قويا لافتتاح ايتاليا ومعاقبة رومية فلم يتم له ما قصد لتشتت الزوابع مثل سفته وكان ظهور هذا المذهب وهو مذهب تكسير الصور سببا لحصول عدة قتلان بعض المولود كان يؤيده ويجهتد في تعميده والبعض يمانعه ويجهتد في محوه

ومن بعده قام قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥ م) وكان على مذهب ابيه في كراهة الصور وكان يكره الربيان ويكرهونه واهذا اقل عدة من الاديعة بدعوى ان سكانها كسالى مقصدون واستخلص من العرب قسما من بلاد سوريا وارمينيا واتفق عليهم اسطولا امام قبرس ومات بينما كان يحارب البلغار الذين كانوا لا ينفكون عن النهب والسلب في ارض الامبراطورية

ومن بعده جلس ابنه ليون الرابع (٧٧٥ - ٧٨٠ م) وكان جده من خانات خوارزم وكان على مذهب والده وجده أيضاً من كراهة الصور حتى أنه لم يحترم زوجته ايريني بل نفاها لكونه رآها تحفظ بعض الصور المقدسة عند النصارى وقام من بعده ابنه قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٢ م) تحت وصاية أمه ايريني ولما رأته منه انه يسى في التخلص من وصايتها والاستقلال بالحكم ارتكبت أمراً وحشياً وذلك بأن قلعت عينيه لتبقي لها الوصاية والنقود عليه مات بعد قليل وقام بالامر من بعده أخوه نيقفور لوثفويت (٧٩٢ - ٨١١ م) وكان قبل ان يتولى المنصب الملوكي بوظيفة حافظ للخاتم الملوكي ومن أعماله اني الملكة ايريني الى جزيرة ليسبوس وفقاً عيني بردان خصمه وقد قدم مع شارلمان معاهدة لتجديد تخوم الدولتين وهو الذي قاتله هرون الرشيد الخليفة العباسي وانتصر عليه انتصاراً باهراً وألزمه بحمل خراج سنوي اليه وغير ذلك من الشروط لانه كان كتب مكتوباً قاسياً الى الخليفة يقول له فيه من نيقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي (يريد ايريني) اقامتكم مقام الرخ واقامت نفسها مقام البيدق فملت اليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحجمه لضعافه اليها لكن ذلك من ضعف النساء وحقهن فاذا قرأت كتابي هذا فإزداد ما حصل لك من أموالها والافالسيف بيننا وبينك اه فلما قرأ الرشيد الكتاب استغزاه الغضب وكتب على ظهر الجواب بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين الى نيقفور ملك الروم وقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه اه

قال أبو القداء في تاريخه ثم سار الرشيد من يومه حتى نزل على هرقله (١) ففتح وغنم وخرب فسأله نيقفور المصالحة على خراج يحمله له كل سنة فاجابه (٨٠٦ م) ثم ان البلغار كبسوا نيقفور مرة وقتلوه في الحرب (٨١١ م) وكان على مذهب سابقيه من كراهة الصور وقام بالامر بعده ميخائيل الاول (٨١١ - ٨١٣ م) وكان صهر نيقفور المذكور وقد اتصف بحسن السلوك في جميع الوظائف التي تولاها قبل ان يجلس على تخت المملكة وبذلك مال اليه الاهالي وأحبوه ولما مات نيقفور في السنة المذكورة اتفق الشعب وكبرائه على تنصيب ميخائيل هذا فكان من أوائل أعماله أن أحسن الى نساء وأطفال الجنود العديدة التي مات رجالها أو بناؤها أو أقاربهم في الحروب بين اليونان والعرب أو بينهم وبين البلغار ولطف غضب أصحاب المذهب القائلين بتكسير الصور لانهم مته نيقفور كانوا اضطهدوا الارثودكس اضطهاداً شديداً سالت فيه الدمامو بعد ذلك أغار البلغار على بعض جهات الدولة فلما حاربهم هزموه هزيمة منكرة ثم اقتضى الحال لحضوره الى القسطنطينية لظهور بعض الثورات فسلم قيادة الجنود الى ليون اولادون الارمني الذي انتهز تلك الفرصة في القبض على زمام السلطنة بمساعدة من معه من الجنود (٨١٣ م) ونفى ميخائيل الى جزيرة بروتي حيث ترهب وعاش بها الى سنة (٨٤٦ م) ثم لما ترأس لاون على

(١) مدينة قديمة من آسيا الصغرى كانت في أواخر الدولة الرومانية قبل تأسيس القسطنطينية قاعدة لارشيعة بلاد ترانس ونسبى الآن ابركلي اه

الجنود كما تقدم فادها أحسن قيادة وانتصر بهم على البلغار فنادوا به امبراطورا وكان ميخائيل المتقدم
(٨١٣ - ٨٢٠ م) ثم أثار على البلغار فتكلم بهم أيضا وبعدها أساء السيرة فتحو أقراره بأخطاها
القائلين بعدم تكسير الصور من الكنائس فكرهه الناس وانحرفوا عنه إلى أن ذبحوه (٨٢٠ م)
بكنيسة أجياصوفيا وكان رئيس تلك المؤامرة ميخائيل الألتغ الذي جلس مكانه

وقبض على الأحكام بعده ميخائيل الثاني الألتغ (٨٢٠ - ٨٢٩ م) وكان محبوبا عند
ليون المتقدم وقبل أن يجلس على التخت كان مسجونا لأن الامبراطور لاون كان اتهمه بالمؤامرة
ولمات خرج من سجنه وساء له المقادير إلى أن جلس على التخت وكان كسابقه من الحزب الذي
يكبره الصور والتماثيل وفي زمنه افتتح من بني الأغلب جزيرة صقلية وكلا بره وغيرها واقتح
الاندلسيون جزيرة أقرطش وفي آخر حياته انكب على الملاهي والملاذ وأفرط منها فاجلته المنون
(٨٢٩ م)

ثم قال بعده ابنه طيوفيل (نيوفيلوس) (٨٢٩ - ٨٤٢ م) وتبع أثر كل من
كانت له يد في قتل أبيه فقبض عليهم ونكل بهم تكيلا وأظهر الحقد الشديد ضد تعظيم التماثيل
والصور وقضى حياته تقريبا في حروب مع المعتصم الخليفة العباسي ومن أشهر تلك الحروب
واقعة سنة ٢٢٣ هجرية (٨٢٧ م) إذ خرج طيوفيل في جمع عظيم حتى بلغ زبطرة^(١) وقتل
وسى ومثل بن وقع في يده من المسلمين ولما بلغ المعتصم ذلك وأن امرأة هاشمية صاحت وهي في أيدي
الروم واعتصمها استعظمه ونهض من وقته وجمع العساكر وسار في تلك السنة وبلغه أن عمورية^(٢)
مولد طيوفيل أشرف عندهم من القسطنطينية وأنه لم يتعرض أحد اليها منذ كان الإسلام وتجهز
المعتصم جهازا لم يعهد قبله من السلاح وحياض الادم وغير ذلك وسار المعتصم حتى نزل على نهر
قريب من البحر ينه وبين طرسوس يوم وجعل عسكره ثلاث فرق فرقة مع الأفشين حيدر بن
كاوس ميمنة وفرقة مع اشناس ميسرة وفرقة مع المعتصم في القلب وبين كل فرقة فرسخان
وأمرهم المعتصم بإحراق القرى وتخريب بلاد الروم ففعلوا ذلك حتى وصلوا إلى عمورية فاول من
قدمها اشناس ثم المعتصم ثم الأفشين فأخذ قواها وكان نزوله عليها السنة خلول من رمضان من هذه
السنة وأقام عليها المنجنيقات وجرى بين المسلمين والروم قتال شديد يطول شرحه وآخره أن المسلمين
خرقوا في السور مواضع بالمنجنيق وهجموا البلد وقتلوا أهله ونهبوا الاموال والنساء وأقبل الناس
بالسبي والاسرى إلى المعتصم من كل جهة وأمر بعمورية فهدمت وأحرقت وكان مقامه على عمورية
خمسة وخمسين يوما وفي ذلك امتدح أبو تمام المعتصم بقصيدته التي مطلعها
السيف أصدق أنباء من الكتب * في حده الحد بين الجد واللعب

١ زبطرة بلدة في تركيا آسيا بين ملطية وميساط وذكراين الأثير في حوادث (١٢٥ هـ) وفيها خرج الروم
إلى زبطرة وهو حصن قديم كان فتحه جيب بن مسلمة الفهري فخر به الروم لأن فني بناء غير محكم فعاد الروم
وأخربوا أيام مروان بن محمد الحداج ثم بناه الرشيد وشحنه بالرجال فلما كانت خلافة المأمون طرقة الروم فغضبوا فأمروا
المأمون بترميمه وتحصينه ثم قصد الروم أيام المعتصم (٢٢٣ هـ)

(٢) عمورية هي مدينة تروسة الشهيرة بقصبة ولاية نخداوند كارالآن كما قاله ابن دحلان في الفتوح الإسلامية
ولكن نظن أنها ليست هي بل أنها بلدة أمورية القديمة المسماة الآن سوري حصار وهو الأقرب لأن لفظة
عمورية هي بلا شك تعريب لفظة أمورية

ثم ارتحل راجعا ولما بلغ ذلك طيوفيل وان ليس في مقدرة منعهم مات غماسة ٨٤٢ م وسبب اغارة طيوفيل على بلاد الاسلام وايقاعه باهل زبطرة ان بابك الخرمي وهو صاحب بدعة ورتيس طائفة تعرف بالجاويدانية او البابكية او السبعية وهم من الاسماعيلية لما ضيق الافشين قائد المعتصم عليه وأشرف على الهلاك كتب الى ملك الروم يعلمه ان المعتصم قد وجه عساكره ومقاتلته اليه ولم يبق على يابه أحد فان أردت الخروج عليه فليس في وجهك أحد يمنعك فخرج طيوفيل في أكثر من مائة ألف مقاتل فصنع به المعتصم ما ذكر

وقام بأمر المملكة بعده ابنه ميخائيل الثالث الملقب بالسكير (٨٤٢ - ٨٦٧ م) تحت وصاية امه وكان عمه المدعو برداس قد استولى على عقله وحرصه على اضهاد أمه تيودورا ففعل ثم بعد ذلك بقليل حنق الامبراطور عليه وقتله وفي سنة ٨٦٦ م أعارت الروس على الدولة وهمت بمعاصرة القسطنطينية فاضطر ميخائيل لرد غارتهم ثم تأمر عليه باسيل المقدوني الذي كان أشركه ميخائيل معه في المملكة وقتله ليجلس مكانه وفي زمنه انشقت الكنيسة الاغريقية عن الكنيسة اللاتينية (٨٥٢ م) وبه انتهت ملوك المدة الثالثة

(الفصل الخامس)

المدة الرابعة

(٨٥٢ - ١٠٥٦ م)

هذه المدة تبسدي بصعود العائلة المقدونية على التخت وتنتهي سنة (١٠٥٦ م) بصعود عائلة كومنين على التخت وملكهاهم

باسيل الاول المقدوني (٨٦٧ - ٨٧٨ م) وهو من عائلة فقيرة وكانت له حظوة عند الامبراطور ميخائيل الثالث لمهارته في سياسة الخيل ولما رأى ميخائيل منه نباهة وإقداما أشركه معه في الحكومة (٨٦٦ م) اعترافا بفضل من كونه نجاح من عدوه برداس ولما علم باسيل ان ميخائيل يسعى في هلاكه سعى هو سرا حتى قتله وقبض بمفرده على زمام السلطنة فاحسن الادارة وأصلح بعض الاحوال واطفا الفتن الدينية واسترد قيسارية من المسلمين وانتصر على الاغالبية أيضا في صلحية ومنعهم من دخول إقليم دالماسيا وراغوزة وانتشرت في زمنه العدالة بمسانة من القوانين والنظامات فذاق الناس لذة العدل ثم مات (٨٧٨ م)

وقام بعده ابنه ليون الاولون السادس الملقب بالفيلسوف (٨٧٨ - ٩١١ م) ولما جلس على التخت طرد البطريرك فوتيوس وكان من أعدائه ثم أراد بحاربة البحر والبلغار والمسلمين فلم ينجح في واقعة منها بل ارتدم قهورا وكان طلب من الاتراك أن يساعده على نفي العباس فانخذلوا ترك هذا الطلب فرصة وسيروا اسطولا افتتح جزيرة ساموس واستولى أيضا دوقات لومبارديا

على أعظم قسم كان باقيا للدولة الشرقية في ايتاليا وافتتحت أساطيل بنى الاغلب بمدينة سالونيك ولم يستقر واقفيها طويلا لان سفن البنادقة طردتهم منها ومع كل هذه الحوادث وهذا الضعف تمكن من رد أساطيل الروس لما أرادت اجتياز البوسفور وهي أول مرة هاجم الروس فيها القسطنطينية وعقد مع أوليغ كبيرهم معاهدة (٩١١ م) أما سبب تسميته بالفيلسوف فلانه كان يعيل لاهل الفضل والعلم ويحث على اقتناء المعارف التي هو كان يمارسها أيضا وقد نشر مجموع القوانين المسماة باسيليك وكان أبوه شرعي في جمعها وتقنينها وكان اليونان يسرون بوجها حتى افتتح المسلمون القسطنطينية وله من الاعمال غير ما ذكر

وقام بالامر بعده أخوه **اسكندر** ولم يحكم الا سنة واحدة وعمل أعمالا عادت بالوبال على مملكته ثم أنزله لارتكابه رذائل وقبائح وكان مشاركا له في الحكم أخوه **سطنطين السابع** تحت وصاية أمه وبعده اشترك مع قسطنطين المذكور **رومانوس يكابينوس** بإرادة أمه وكان قبل ارتقائه أمير اللجج مدة قسطنطين السابع وبعده تولى رومانوس أشرك الامبراطور قسطنطين المذكور على التعاقب معه أولاده الثلاثة وهم **فريستوف** و**انيانوس** و**سطنطين الثامن** ثم جرد على البلغار الذين كانوا ضايقا ودولته ولم يتمكن من طردهم الا بأن زوج حفيده الى بطرس ملك البلغار (٩٢٧ م) وفي زمنه أيضا أغار المجر والروس على الدولة وخربوا وسلبوا وقد تمكن مرة من احراق الدونا نعمة الروسية بالنيران الاغريقية ثم تآمر عليه ولداه ايتين وقسطنطين ونفياها الدير (٩٤٥ م) حيث مات به (٩٤٨ م) أما قسطنطين الثامن فانهم نفوه الى جزيرة نيبديوس ثم الى سيموتراكي ولما أراد أن يفر منها قبض عليه وقتل (٩٥٩ م)

وقام بالامر من بعده **رومانوس الثاني** وهو حفيد المتقدم (٩٥٩ - ٩٦٣ م) وكان دس السم لابنيه ليقتله ويجلس مكانه ولمجلس التفت الى الملاهي والملاذات كاشتغال الدولة وأخرج أمه واخوانه من القصر الملوكي ولم يعطهم شيئا يتعيشون منه ويقال ان الحالة التي وصلن اليها من الفاقة كانت سببا في ارتكابهن الفاحشة وفي زمنه استولى قائده نيقفور فوكاس على جزيرة اقر بطش من المسلمين (٩٦١ م) ثم تمكنت أمه من أن تدس له السم فمات (٩٦٣ م)

ومن بعده جلس على التخت **نيقفور الثاني فوكاس** المذكور (٩٦٣ - ٩٦٩ م) وكان يتصف بالاقدام وجميع الصفات العسكرية وكان يتولى قيادة عوم الجيوش أثناء صغر سن أولاد رومانوس الثاني وقد استرد من الاسلام بلاد كيليكيا وبعض سوريا وقبرس إلا أنه أغضب رعياه بما فرضه عليهم من الضرائب وكان تقدم مرتير يد الاغارة على العرب بمقلية فقاتله اسطولهم وهزمه شرهزيمة ثم ان أحد قواده المسمى **يوحنا ديسيس** تآمر عليه وقتله (٩٦٩ م)

وقام من بعده **يوحنا الاول** المذكور (٩٦٩ - ٩٧٦ م) الملقب **ديسيس** أي الصغير ومن أعماله انه حارب الروس وأخذ منهم بلاد البلغار ثم تقدم الى سوريا لالامداد جنوده حيث كانوا هزموا (٩٧٢ م) واسترد بلاد فلسطين ما عدا مدينة اورشليم ومع ذلك فلم يبق فلسطين في قبضته غير أيام قليلة ومات ببلاد كيليكيا أثناء رجوعه وقد اتهموا الخصى **باسيلوس** بدسه السم له (٩٧٦ م)

وقام بعده بايلوس الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) وهو ابن رومانوس الثاني وكان يحكم بالمشاركة مع أخيه قسطنطين وفي أول الامر كان قسطنطين المذكور ضعيفا جامدا القريحة منهم كما على الملاذ بخلاف أخيه الذي انتصر في حروبه مع البلغار وأهل خوارزم (١٠١٦ م) وضم بلاد البلغار الى الدولة البيزنطية وأسمر من البلغار ١٥٠,٠٠٠ أسير وقد ارتكب في حقهم أشد القذائع حيث أنه أمر فقلعت عيونهم جميعا الا واحدا في المائة ليكون دليلا بقود الأخرين الى بلادهم ثم مات (١٠٢٥ م) بينما كان يستعد لمحاربة الاسلام وحكم خمسين سنة

وقام من بعده أخوه قسطنطين التاسع (١٠٢٥ - ١٠٢٨ م) ولما كان ضعيف العزيمة منكب على الشهوات ثارت الامة عليه ولم يحكم الا بعض سنوات بعد موت أخيه (١٠٢٨ م) وليس له من الاعمال ما يستحق الذكر

وخلفه رومانوس الثالث ارجير (١٠٢٨ - ١٠٣٤ م) وكان من الاغنياء وعضوا من مجلس الشيوخ انتخبه قسطنطين التاسع لان يكون خليفته وصهره وفي أول أيامه أظهر الجدارة بالمرتب من حيث لانه أحسن السيرة ثم حارب الأتراك فانتصر وعلية عدة مرات وهزموا جيوشه سنة (١٠٣٠ م) فاستولت عليه الأحران ثم أساء السيرة وأظهر الغلظة والشدّة على رعاياه كأنه يريد أن ينتقم منهم على ما حصل به من الهزيمة امام الأتراك ثم ان زوجته الاميرة زوا تعشقت ميخائيل بلافلانغونيان أمين أموال الحكومة وصممت على تنصيبه ملكا وأخذت تسير في هذا الطريق فدمت السم الى زوجها لكنها لم تدر ان فعل السم بطى قبضت عليه وهو في الحمام وخنقته

وقام بعده ميخائيل الرابع المتقدم المذكور وكان قبل ذلك يتعاطى حرفة الصرافة (١٠٣٤ - ١٠٤١ م) ولما كانت الامبراطورة زوجته واتحبه اتخذته وسيلة لتخلص به من الامبراطور وزوجها فأجلسه على التخت الا انه كان ضعيف العزيمة ولهذا ترك الاعمال يديرها الخصى يوحنا وأخوه وقد انتصر هذا الامبراطور على المسلمين والبلغار بعض نصرات ثم استولت عليه الأحران وأخذته سريره بما ارتكبه من قبيح الاعمال فاعتزل المالك وأقام يدير الى أن مات سنة (١٠٤١ م) وخلفه ميخائيل الخامس القلاطي (١٠٤١ - ١٠٤٢ م) ولما جلس على التخت وأخذ يدير الاعمال داخله الخوف من مكائد الامبراطورة ووافنها الا أن الامة قامت عليه ثم قبض عليه وسملت عيناه وحبسوه في دير

وقام بعده قسطنطين العاشر الملقب بالمصارع جلس على التخت بمساعي زوا المذكورة (١٠٤٢ - ١٠٥٦ م) ولما كان لا يهتم الا الانصبا على الملاهي ترك الاعمال يتصرف فيها العمال والنواب كاي رغبون فعظم شأن السلاجقة (١) واستولوا على كثير من أرض الدولة الرومانية وليس له من الاعمال شيء يذكر وفي زمنه انفصلت الكنيسة اللاتينية عن الارثوذكسية انفصالاتا

(١) دولة السلاجقة من أقوى دول الاسلام نشأت في عهد بني العباس وسيأتي الكلام عليها في أول تاريخ الدولة العثمانية

الفصل السادس

المدة الخامسة

(١٠٥٦ - ١٢٠٤ م)

هذه المدة تمتد من جلوس اسحق الاول كومانينوس على سرير الدولة الى سقوط الدولة الاغريقية الاولى واستيلاء الصليبيين على القسطنطينية (١٢٠٤ م) اماملو كهفهم اسحق الاول كومانينوس (١٠٥٧ - ١٠٥٩ م) وكان ابن أحد الحكام ولما يكن أهلا للحكم لضعفه تنازل الى قسطنطين دو كاس بعد أن حكم قليلا ثم دخل أحد الاديرة زهدا وأقام به الى أن مات سنة (١٠٦١ م) وجلس قسطنطين دو كاس الحادي عشر المذكور (١٠٥٩ - ١٠٦٧ م) وكان من صفاته الاقدام وطهارة الاخلاق الا انه كان ينقصه الاستعداد لساوى المملكة التي كانت في غاية من الضعف والاضطراب وفي حكمه أعارت القبائل السيتية على الدولة وخربت بعض جهاتها ولم يوقف تقدمها الا ظهور الطاعون بينهم واستولى النورمانديون تماما على جهات كلابريا وامتد نفوذ الدولة السلجوقية التي كانت آخذة في الارتفاع وزيادة النفوذ بمساعي سلاطينها ووزرائهم الذين كانوا يؤدون النصيحة في الخدمة كما تفرضه عليهم الواجبات الدينية والمالية ولما مات قسطنطين المذكور ترك الدولة لاولاده الثلاثة ومنع زوجته الزواج من بعده في وصيته

وقام بالامر من بعده رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٧ - ١٠٦٩ م) وهو صهر رومانوس الثالث وكان حكمه عليه بالموت لكونه تأمر على الامبراطور السابق فرأته الملكة اوديكسيا فعشقتة ومالت اليه ثم تزوجته غير ماتفئة لليمين الذي أقسمته بين يدي زوجها قسطنطين الحادي عشر عند موته من أنها لا تزوج من بعده وفي زمنه قامت الحرب بينه وبين السلجوقيين وكانت في أولها هجلا ثم انه وقع بينه وبينهم واقعة نهائية (١٠٦٩ م) دارت فيها الدائرة على عسكري الروم ووقع رومانوس أسيرا في يد ألب أرسلان الذي عامله بالرفق والشفقة كما تقضيه مكارم الملوك ثم أطلقه بعد أن أخذ عليه الموائيق بأن لا يقيم في وجهه سلاحا وفي أثناء غيابه خرج سكان القسطنطينية عن طاعته ونادوا بمخائيل السابع بن أودوكسيا ملكا ولما أتى رومانوس سعى بكل ما يقدر عليه في استرداد التاج فلم يوفق في عمله الى أن وقع أسيرا في يد مخائيل الذي قلع عينيه وسجنه مات في سجنه بعد أيام قليلة

وقام بعده ميخائيل السابع دو كاس (١٠٦٩ - ١٠٧٨ م) وكان تصيبه امبراطورا بالقسطنطينية في نفس السنة التي تولى فيها سلفه لانه عند ذهابه الى الحرب مع السلجوقيين عصت عليه الاهالي وانتخبوا ميخائيل هذا ونادوا به ملكا كما قلنا وكان ضعيف الرأي حاوى العزيمة تأمر عليه نيقفور بورتونياتس أحد قواده وخلعه من الملك وسجنه بأحد الاديرة ثم عينوه مطرانا للمدينة أفسوس وفي زمنه استطهر السلاجقة على أكثر أسيا الصغرى وقام بعده نيقفور بورتونياتس المتقدم الذكر (١٠٧٨ - ١٠٩٥ م) وفي تلك الاثناء

نادت الجنود بيلادا بليريا بنيقوفور برينوس امبراطورا ولما بلغ خبر ذلك الى الامبراطور القسطنطيني أرسل على عدوه جيشا تحت قيادة الكسيس كومنينوس فقبض عليه وقلع عينيه وأخذ في تعذيبه الا ان هذا القائد بعد أن أدخل البلاد في دائرة الطاعة رأى انه مهده هو أيضا من بوتونياتس وان سيناله مانال نيقوفور برينوس من الجزاء فشق عصا الطاعة وانضمت اليه الجنود ونادوا به ملكا (١٠٨١ م) ثم انه أرسل نيقوفور برينوس الى أحد الاديرة ليقتضى فيه ما بقى من أيامه

وجلس الكسيس كومنينوس المذكور على تخت قوة واقتدارا (١٠٩٥-١١١٨ م) وهو ابن خنا كومنينوس أخى الامبراطور اسحق كومنينوس اختلس الملك من نيقوفور بوتونياتس المتقدم وانتصر على السلاجقة في بعض وقائع خفيفة وقد قهر النورمانديون جيوشه وكانوا تحت قيادة ملكهم غيسكارد وقد اشتهرت أيام هذا الامبراطور لتعلقها بالحروب الصليبية التي كان من أسباب حصولها هذا الامبراطور حيث طلب من الدول الغربية مساعدة على المسلمين الذين كانوا استولوا على جميع أقاليم الدولة الرومانية تقريبا فأنذ البابا رافاوس الثاني بأقامة الحملة الصليبية الاولى

ولما شاهد جيوش الصليبيين تمر من وسط بلاده غير مراعية للعقوق المليية ولا الاحساسات الانسانية لم يراع نصوص المعاهدة المعقودة بينه وبينهم ورد جيوشه التي كان أمدهم الصليبيين لمحاصرة انطاكية ومع ذلك فانه اقتدى النصارى الذين أسرهم السلاجقة في الوقائع التي حصلت بينهم وبين الصليبيين اما في الحملة الصليبية الثانية فكان الوفاق أكثر منه في الحملة الاولى بينه وبين الصليبيين وكان من بنود المعاهدة ان يقسم الكسيس بتجهيز عديمين من العساكر وكان للصليبيين حق المحافظة على الايلات التي يستخلصونها من بدالاسلام كقطاعات من الامبراطورية ولكن لم يرقم أحد الفريقين بما تعهد به للآخر وقد استرد هذا الامبراطور بمساعدة الفرنسيس مدينة نيقية وجميع الجزاء الغربية من آسيا الصغرى ولمامات كتبت ابنته تاريخ حياته

وملك بعده يوحنا الثاني كومنينوس (١١١٨ - ١١٤٣ م) وهو ابن الكسيس المتقدم وكان حصل بينه وبين أمه ايريني بغضاء أنزلته بسببها عن التخت وعينت ابنتها أمكانه ومع ذلك فقد تمكن من الجلوس على التخت ثانية بدون ان يرق لذلك تقطعة دم ثم جهز الجنود وحارب الفرس فهزمهم وطردهم من بلاد فرجييا وأخرج السبيتين أيضا من بلاد تراس واسترد بعد ذلك قسما من آسيا الصغرى ومد حدوده الى بلاد سوريا وكان يتصف بالطيبة والشفقة لم يأمر مدة حكمه أصلا بإعدام أحد ومات بينما كان يتصيد

وخلفه ابنه مايكل كومنينوس (١١٤٣ - ١١٨٠ م) وفي حكمه سنة (١١٤٧ م) غدر بالصليبيين الذين كانوا تحت قيادة كونراد ملك المانيا ولويس الشاب ملك فرنسا وساعد كثيرا بالتحارب مع السلاجقة على خيبة مساعدهم فاعتاظ الصليبيون وأمره النصرانية من ذلك حتى ان روجير ملك صقلية المخالف للصليبيين حمل على بلاده ودخل بلاد اليونان ونهب مدينة طيبة وكورنثه وكثيرا ما حارب هذا الامبراطور المجر والصرب وغيرهم من الامم العاصية وفي (١١٧٦ م) أوقع جيش السلاجقة بجيشه فأباده عن آخره باسبب الصغرى تحت قيادة السلطان عز الدين سلطان

قونية ومع ذلك فإنه تمكن بعد قليل من السنين من قهر السلطان عز الدين المذكور قريمان نهر
مياندروكذا استولى على جزيرة قورقو انتقاما من روجير ملك صقلية لا غارته على بلاد اليونان وكانت
وفاته سنة (١١٨٠ م) وكان ملكا محاربا بالاله فاسد الاخلاق قليل الصلاح

وقام بعده ابنه الكسيس الثاني اندرونيكوس (١١٨٠ - ١١٨٤ م) تولى المملكة
وهو في سن ١٢ سنة تحت وصاية والدته ماريه التي أحدثت بها لها من سوء الاخلاق ثورة عليها
فخلعوهما من الوصاية ونصبوا مكانها اندرونيكوس كومنينوس فاجتمعت في تنويج هذا الامبراطور
الشباب واشترك معه في الحكم بأمره بالاله خنقه بعد ذلك بقليل (١١٨٤ م) وكان الكسيس
المذكور متزوجا بامرأة فرنساوية وهى ابنة لويس السابع

وخلفه اسحق الملقب بالملك (١١٨٤ - ١٢٠٤ م) نادى به الامة امبراطورا
وأجلسته على التخت في نفس الوقت الذى كان اندرونيكوس أمر فيه بقتله ويرمى هذا الامبراطور
بقبايحها الكثيرة وعدم لياقته للمنصب الملوكي ولهذا خلعه أخوه الكسيس وقلع عينيه وفى أيامه
حاول ملك صقلية الاستظهار على الامبراطورية (١٢٠٣ م) فلم يفلح واسترجع البلغار ما كان
لهم من الاستقلال

وجلس مكانه أخوه الكسيس الثالث المذكور الآن الصليبيين ساعدوا اسحق المتقدم
وأجلاسوه على التخت ثانية ومع ذلك فلم يرض عليه ستة شهور حتى خلعه أخوه ثانية وأمر به بقتل
وقام بالامر بعده الكسيس الخامس دوكاس الملقب مورزوفل أى كيف الحواجب ولم

يحكم غير بضعة شهور ثم خلعه الصليبيون لانه كان أشهر عليهم الحرب فاستولوا على القسطنطينية
مرة ثانية (١٢٠٤ م) وانتخبوا مكانه بودوان قونت بلاد فلاندر وكان يقود جيش الصليبيين ولما
قبض بودوان على الكسيس أمر به فألقى من أعلى سارية بالقسطنطينية بسبب تأمره على سيده
وفى عهد الامبراطور بودوان (بلدوين) قسمت الاملاك الامبراطورية الاوروپاوية

الى أربعة أقسام أولها الاملاك الامبراطورية وهى تشمل ربع مدينة القسطنطينية (وأما الثلاثة
الارباع الباقية فقسمت بين الفرنسيين والبندقيين والثرقيين) وبعض قلاع على ساحل آسيا
والجزائر القريبة من الدردنيل والسيادة على الولايات الخاصة بالامبراطورية وثانها ملكة سلاتيك
وكانت تشمل مقدونيا وقسمان اغريقية وثالثها ساحل الاراضى الواقعة على بحرى الادرياتيك

وإيجي وقسم من موره وكثير من جزائر سيكلاده وأسبورا وجزيرة كريدونغر يمونت وبلاد
كيبولى وهذا القسم أعطى لجمهورية البنادقة ورابعها اقطاعات كثيرة أعطيت للفرسان
الفرنساويين من أهمها دوقية أيناويونيوا وإمارة أخائية ومورة

أما أملاك الامبراطورية بآسيا فكانت لاتزال بعد هذه القسمة قائمة بآسيا يحكمها تيودوروس
لاسكريس الذى انتخبه مجلس الاعيان بالقسطنطينية امبراطورا وانتخب مدينة نيقية عاصمته
وقامت امبراطورية طرابزون على الشواطىء الجنوبية الشرقية من البحر الاسود لان أميرين من
عائلة كومنينوس وهما الكسيس وداود أعلنوا استقلالهما عند سقوط الامبراطورية البوزانطية
باستيلاء الصليبيين عليها ولقب أحد خلفائهم نفسه امبراطورا

الفصل السابع

استيلاء الصليبيين على القسطنطينية

قبل ان ننقل الى ذكر المدة السادسة وما جرىاتها من الضرورى ان نذكر اسماء وأعمال
الفرنساويين الذين استولوا على القسطنطينية مدة الحروب الصليبية وان كانت جرت عادة المؤرخين
عدم اعتبار تلك المدة البالغة نحو نصف قرن من تاريخ الدولة السفلى فنقول
ان أولهم بودوان الاول وكان قوتها بمقاطعة فلاندر احدى مقاطعات فرانساقديما ولما قامت
الحروب الصليبية انضم اليها جيشه مع غالب أمراء أوروبا ولما أتى القسطنطينية اذ كانت طريقه
الى الشرق أجلس على تختها الكسيس الرابع بن اسحق الملك المعزول بعد أموره بطول شرحها ولما
خالت تحت القسطنطينية من المستحق جلس هو على التخت وصار امبراطورا للدولة الشرقية
(١٢٠٤ م) فكان عمله هذا سببا في اغار صدور الاغريق عليه فاستغاثوا بملك البلغار بين المدعو
يوانيس وقد كان يوانيس المذكور يتمنى ذلك لرغبته الزائدة للتدخل في أموره القسطنطينية فأتى
بجيش عظيم وهجم على بودوان بينما كان يحاصر مدينة أدرنه لعصيانها عليه فقهره وأخذ أسيراته
أمر بقتله بعد أن أذاقه من العذاب ألوانا (١٢٠٦ م) ومع ذلك فقد وقع الشك في موته لانه بعد
مضى نحو العشرين سنة على هذه الحادثة ظهر شخص ينادى بفلاندر مدعيانه بودوان المذكور
ومن بعده قام على تخت القسطنطينية أخوه هنرى دوهينوت (١٢٠٦ - ١٢١٧ م)
وذلك انه لما وقع بودوان أسيرا في يد البلغار كما تقدم انتخب هنرى هذا تابعا عنه ثم استقل امبراطورا
وبعد ان حارب البلغار ومالوك الاغريق الذين باسبعا عدة محاربات انتصر في أغلبها مات مسموما
بينما كان يستعد للسير على ميخائيل طاغية بلاد الصرب (١٢١٧ م) وقد اشترك هذا الملك في
الجملة الصليبية الرابعة

ومن بعده جلس بطرس دو كورتيني وروبرت دو كورتيني (١٢١٧ - ١٢٢٨ م)
بانخبا الجنود الفرنسية وبعده جلوس الاول منهما بقليل أسره تيودوروس أمير لايروس بينما
كان يحاصر مدينة دوراز وتخلي البندقيين عنه ومات ماسورا سنة (١٢١٧ م) وبعده أسره
استمرت زوجته بولاندر تحكم بالنيابة عنه ثم بعد فترة أى بعد تحقق موته خلفه ابنه الاصغر روبرت
دو كورتيني (١٢٢١ - ١٢٢٨ م) ولم يهتم بشؤون الدولة أصلا بل انكب على شهوته
النفسانية حتى ان امبراطور نيقية المدعو ناسيوس استولى على أقاليم آسيا الصغرى وأخضع
طاغية لايروس مدينة ادرنه (١٢٢٤ م) ولما رأى ان رعيته غضت عنه الطرف ولم تبادر باسعافه
هرب الى بلاد الغرب وسعى باطلا في الحصول على مساعدة ولما لم ينجح عاد ومات في مورده وقام من بعده
بودوان الثاني (١٢٢٨ - ١٢٦١ م) وهو ابن بطرس دو كورتيني وكان عمره لا يتجاوز ١١
سنة ولهذا أقاموا له حنادور يان وصيا لادارة الاحكام باسمه الى ان يبلغ رشده وفي عهده عقد

ملك البلغار المسمى أسان مع دو كاس فأناسيوس امبراطور نيقية مخالفة وتهدد الامبراطورية
اللاتينية بالدمار ثم وقع بين البلغار والاغريق عداوة أدت الى القتال فلم ينتهز بودوان المذكور تلك
الفرصة لتقوية بلاده بل سافر عدة مرات الى أوروبا ويطلب من أهلها رجالا وسلاحا ومالاً للمساعدة
لان ملوك أوروبا لم تلتفت اليه فارتبكت أموره وكانت النتيجة ان ميخائيل باليولوغوس
امبراطور نيقية استولى على القسطنطينية (١٢٦١ م) وهرب بودوان المذكور الى ايطاليا
حيث مات (١٢٦٣ م) وهو آخر امبراطور فرانسواى جلس على تخت القسطنطينية

الفصل الثامن

المدة السادسة

(١٢٦٣ - ١٤٥٢ م)

لما رجعت الدولة الى ملوك الاغريق باستيلاء ميخائيل المذكور على القسطنطينية جلس على تختها
الملوك الاتية أسماءهم وهم

ميخائيل الثامن باليولوغوس (١٢٦١ - ١٢٨٢ م) وعائلته من أشهر العائلات الشرقية
وهو رأسها وكان قبل نائب الدولة مدة صغر سنه حينما سكرت امبراطور نيقية ثم أراد ان يستقل
بالامر فهدأ أسبابه وقلع عيني يوحنا السكريس المذكور كما جرت عادتهم بذلك ولم يخرج في الاستيلاء
على القسطنطينية واسترد هامن بودوان الثاني كما تقدم نقل اليها عرش السلطنة وقام بعدة محاربات
في بلاد اليونان وبحر الارخبيل انتصر في أغلبها وها دن الاتراك العثمانيين والبلغار وبذل كل
مجهوداته في ايجاد التوفيق والالتئام بين الكنيسة اليونانية والكنيسة الغربية لانه لافصالهما عن
بعضهما تماما كما سبق القول وكان ذلك سببا في حقد القساوسة والامة عليه ثم مات بينما كان
يحارب أهل تراسه ولما كان أهل جنوه ساعدوا بسنة منهم اغريق القسطنطينية مدة ميخائيل هذا
على طرد اللاتين وارجاع الدولة لهم كأفوههم بامتيازات تجارية مهمة

وقام من بعده ابنه **اندرونيكوس الثاني** (١٢٨٢ - ١٣٢٨ م) وكان مشاركا لوالده ميخائيل
المتقدم في الحكومة قبل موته ولما جلس على التخت مستقلا ظهرت عليه علامات الارتباك في الاعمال
وعدم الاستعداد في السياسة ففرق الكنيستين الاغريقية واللاتينية عن بعضهما وأثقل كاهل
الامة بالضرائب التي فرضها عليهم لتجديد الجنود من الكتلائين لايقاف تقدم العثمانيين الذين كانوا
يهددون أملاكه بأسيا وقلل عيار النقود المتداولة وأضعف التجارة والصناعة جدا ثم تآمر عليه
حفيد اندرونيك الثالث وخلعه (١٣٢٨ م) فذهب وأقام في دير حتى مات (١٣٣٢ م)

وقام من بعده **اندرونيكوس الثالث** باليولوغوس الملقب بالشاب (١٣٢٨ - ١٣٤١ م)
وهو ابن ميخائيل باليولوغوس وحفيد اندرونيكوس المتقدم ولما نزل أخاه خطأ في على رأس جيش
طالباً ان يشركه جده في الحكم ولما نال بغيته تغلب على جده وأبقاه داخل القصر وقبض هو على

زمام السلطة ولما كان العثمانيون لا يزالون يفتخون أملا كما سبوا وغيرها ويهددون الدولة الشرقية بقرب الزوال ولا تمكن جيوشها من الوقوف امامهم لا تنظام جنود العثمانيين وتدريبهم على القتال وشجاعتهم ومهارة قوادهم استغاث بملوك أوروبا وعقد ذلك مخالفة مع كثير منهم أخصهم بالذكر ملك فرنسا فيليب وملك نابولي والبابا فلم يأت ذلك بشأئذ وافتتح العثمانيون نيقية ونيقوميديه وأغاروا على سواحل أوروبا وقد هاتمت هذا الامبراطوراهما ما أكيد في رفاهية أمته فقلل الضرائب وأزال غيرهما كانت الامة تتضرر منه ومع ذلك فلم يتمكن من التغلب على الموانع التي كانت تعوق مقصوده فمات غموا حزنا (١٣٤١ م)

وخلفه ابنه يوحنا الخامس باليولوغوس (١٣٤١ - ١٣٩١ م) وكان اصغر سنه تحت وصاية امه ووصاية يوحنا كاتنا كوزين ثم إن أعمال الامبراطورة اضطرت يوحنا كاتنا كوزين المسد كورلسعي في التقبض على السلطنة من غير مشاركة الامبراطورة فتمكن من ذلك مشاركا الامبراطور في الحكومة وزوجته من ابنته ثم تنازل عن حق المشاركة (١٣٥٥ م) مضطرا ولما استقل يوحنا الخامس بالحكم منفردا حصلت بينه وبين اولاد كاتنا كوزين عدة وقائع لسبب مدعياتهم الغير الحقة وكذلك حصل بينه وبين ابنة المدعو اندرونيكوس محاربات وبذلك افتتح العثمانيون اولا بعض اراضي باررو وبافاستولوا على غلبولي (١٣٥٧ م) وفتح السلطان الغازي مرادادريه (١٣٦١ م) واتخذها عاصمة له فاستغاث يوحنا بالبابا بالمساعدة وعرض عليه اتحاد الكنيستين ومع ذلك فلم يقرب بما كان يفتي ثم استولى السلطان مراد على مقدونيا وقسم من البانيا ولهذا اضطرت يوحنا حينئذ لان يوقع على معاهدة يعترف فيها بخضوعه للسلطان مراد متعهدا بدفع جزية سنوية ولما تولى السلطان بايزيد بعد مراد استولى على كثير من مدن آسيا ومع كل هذه المصائب التي أحاطت بالدولة الشرقية في مدة هذا الامبراطور خصوصا يقال انه كان يعيل الى اللهو والتخلاء لا يهتم باصلاح دولته الا قليلا ثم مات بعد ان حكم زمانا طويلا

وقام بعده بالامر ابنه مانويل الثاني باليولوغوس (١٣٩١ - ١٤٢٥ م) وكان لمامات أبوه رهيته عند السلطان مراد ايراققه في حروبه فهرب من بلاد السلطان عندما بلغه موت أبيه وبجهد وصوله الى القسطنطينية نادوا به ملكا وفي زمنه حاصر السلطان بايزيد القسطنطينية غير انه اضطر لرفع الحصار عنها بخارجة المجر ولما عاد اليها بعد انتصاره عقد مع امبراطوراهما صلحا أملاه عليه ولم يحاصرها خوفا من حصول بعض حركات في ممالكة (١٣٩٧ م) غير انه في (١٤٠٠ م) حاصرها حصارا شديدا وضيع على سكانها وكاد يفتقها الا ان اغارة تيمورلنك على السلطنة العثمانية اضطرت بايزيد الى الرجوع الى آسيا مسرعا فخرجت بذلك القسطنطينية من الضيق الى الفرج موقتا واسترد مانويل بعض ما خسره من البلدان منتهزا فرصة اشتغال اولاد السلطان بايزيد بالمنازعات طلبا للسلطنة وفي سنة (١٤٢٢ م) مدة حكم السلطان مراد الثاني ساق على القسطنطينية جيشا عظيما واستعمل المدافع في حصارها وكان ذلك أول استعمال المدافع في الحروب بين بلاد الشرق ولولا حصول نزاع بين أعضاء العائلة الملوكية العثمانية لمارجع عنها السلطان مراد الا بعد الفتح وقبل أن يرفع الحصار عنها عقد مع امبراطوراهما صلحا كان منه احداث

محلة خاصة بالمسلمين واقامة قاض مسلم ليحكم بين اهل ملته وشيخها جامعوا وكان ما تويل في كل هذه
الحوادث يستغيث باورو وبابلا فائدة

ولمات قام من بعده ابنه يوحنا السابع والثامن بالبولوغوس (١٤٢٥ - ١٤٤٨ م)
ولما رأى ضعفه أمام العثمانيين كتب الى البابا يستجده ويصف له حالته و يعرض عليه توحيد
الكنيستين الشرقية والغربية بشرط أن البابا ينادى في أهم أورو بان تجهز حملة صليبية جديدة
لمساعدته حتى ذهب بنفسه الى مجمع فلورانس المعقود تحت رياسة البابا أو جانيوس الرابع وتوسل
بذلك لاعضائه فنودي في ذلك المجمع باتحاد الكنيستين الا أنه لم يحصل في الشرق فعلا وحصل سنة
(١٤٤٤ م) أن السلطان مراد خان حاصر القسطنطينية وكانت هي الباقية فقط لمولك الدولة
الشرقية ولما ضيق عليها الحصار تضرع اليه الامبراطور والمذكور مجيبا كل ما يسأله فانصرف
السلطان عنه كرامته وحلمه بشرط أن يقوم بأداء الجزية كلعناد ولم تتمكن أورو بان اسعافه
مع تحريض البابا لهم على ذلك لاستغالهم بالفتن الداخلية ثم مات يوحنا المذكور من الغم الذي اعتراه
من قرب سقوط مملكته وتشرىق عائلته

وقام من بعده أخوه **مظفر الثالث** **عشردار كويس** (١٤٤٨ - ١٤٥٣ م) وهو
آخر امبراطور لهذه الدولة لان السلطان محمد الفاتح خامس سلاطين ال عثمان افتتح القسطنطينية
في عصره وكانت الدولة عند قعوده على تخت المملكة على شفا جرف هار ولم يبق لها الا القسطنطينية
وقطعة صغيرة من الارض حولها وكان السكان لفسادا أخلاقهم وتفشى الترف بين أمرائهم واستيلاء
الفرنج على جنودهم يتظرون الى تقدم العثمانيين بلا كبير اهتمام

أما الامبراطور فانه استجذب أمراء أورو بأوامير الكرج وكان تزوج بابنته فلم يجبه أحد الى
مطلوبه وكان كل ما تحصل عليه من تلك التوسلات والتضرعات هو أن أحد أشرف الجنوزيين
المدعويون حيا يستنيان في أن يجده بنحو أني جندي من الجنوزيين والبنادقة وأربع سنن حربية وتمكن
بذلك من الدخول الى القسطنطينية ويقال ان حرس القسطنطينية اذذاك كان لا يتجاوز اثني عشر
ألف جندي وزحف العثمانيون بجيش مؤلف من (٤٠٠,٠٠٠) مقاتل وكان يدخل المينا سلسلة
ضخمة من الحديد تنفتح دخول سفن الهاجين وتحميمها قلاع ترمى بالنيران الاغريقية وغيرها من آلات
الدفاع على كل من قرب منها ولمالم يتمكن السلطان محمد الفاتح من رفع تلك السلسلة أمر فصنعوا
طريقا كسوه بالخشاب ودهنوها بالشحم لسهولة الانزلاق وسحبوا عليها عدة أساطيل الى أن أنزلوها
أمام القسطنطينية داخل المينا وهو عمل من أعجب وأعظم الأعمال التي وردت في التاريخ وبعد
حصار دام ٥٣ يوما سقطت القسطنطينية (١٤٥٣ م) ومات الامبراطور وموت الإبطال
مدافعا عن السور وسيأتى كل ذلك مفصلا في تاريخ العثمانيين

وكان لقسطنطين هذا أخوان وهما ديميتريوس وتوماس بقيا بعد الفتح في بلاد مورة في حال
استقلال الى ان خضع امع باقي الامارات اللاتينية (١٤٦٠ م) وكذا سقطت دولة طرابزون
(١٤٦١ م) وكان آخر ملوكها يدعى داود وبذلك زال ما بقي من تلك الدولة الرومانية القديمة
الجسمية بعد أن مضى عليها (٢٢٠٦) من السنين بعد تأسيس رومية و (١٤٩٨) سنة بعد
توطيد الدولة بمساعي قيصر

وانا لم يجزنا الا ن عن درجة تأثير الدولة السفلى على احوال الامم الحديثة وعلى ما كان لها من القوة في ارتفاع العقل الانساني لا نجد لها عملاً كبيراً من تشريع الشرائع التي سنها اوستينيانوس وجمعت في عدة قوانين وصارت فيما بعد عبارة عن مجموع القوانين الرومانية وقد اعتبرت هذه القوانين أصلاً لجميع الشرائع الوضعية تقريباً ولا تزال تدرس في المدارس الأوروبية ويمكن أن يضاف الى الفوائد التي عادت من الدولة الشرقية على بني الانسان بعض الاختراعات والتطبيقات الحديثة كجلب دود القز وتكثيره بالبلاد واتخاذ الانسجة منه وطواحين الهواء التي نقلت الى بقية أوروبا في نهاية القرن الثاني عشر من الميلاد أما من خصوص السيران الاغريقية التي كانوا يستعملونها فقد فقدت فلازوم للكلام عليها ولم يشتهر بهذه الدولة في علوم الادب الا تاليف عالمين من علماءها وهما سقراط وفوكاس أما من جهة البناء والعمارة فكان لهم فيه اليد الطولى حتى ان فن العمارة الغوطية ما خوذ عنه غير أن أعظم مجد للاغريق في الازمنة الوسطى هو حفظهم لاهل أوروبا بعض المؤلفات المهمة من التاليف اليونانية القديمة ونقلهم أسرار لغة هوميروس وميناندر وغيرهما ومن الثابت أن هذا اللسان وان اعتراه التبديل والتغيير وطرا عليه الدخيل بين طبقات الامة الا أنه كان على نقاوته متمكلم به بين الطبقات العالية ولما نشئت الاغريق بافتتاح القسطنطينية وغيرهانشروا بأوروبا بالغتهم وأخذ كثير منهم يدرسه في كثير من المدن العظيمة ولا ننسى انه نجح عن مجادلاتهم الدينية التي استمرت زمن طوبى لاطريق الامتحان والانتقاد وهما الشيطان الضروريان للحرية الانسانية

أما الادب والسياسة فاعمالها فهم لم تأت بفائدة لانطفاء نور جميع الافكار العالية والاحساسات الشريفة التي أوجدها تسلطن الحرية في جمهوريات الاغريق ورومية حتى ماتهم نسوا أسماء مواطنهم وانحمت من جميع النفوس محبة الوطن التي أنتجت كثير من الشعبان لانه كيف يمكن أن يتعلق الانسان بمحبة أرض يولد فيها عبداً خاضعاً لسيدي ليس له من السيادة والعظمة في الحقيقة الرسم الزائل وقوته الوقتية كان زمامها في قبضة طائفة من الجنود وما مات لهم ولهذا كان يلزم عدة قرون لاصلاح الانحطاط الذي طرأ على الافكار بسوء تصرف هذه الدولة وخرابها عن جادة الحق في أحكامها

الباب الثامن

تاريخ العرب القدماء

(الفصل الاول)

جغرافية بلاد العرب

حدود بلاد العرب

تحد بلاد العرب شمالاً بالشام وفلسطين والجزيرة وشرقاً بالعراق والجزيرة أي البلاد الواقعة بين الدجلة والفرات المسماة عند قدماء اليونان باسم ميزوپوتاميا وعند العرب بين النهرين والجزيرة

وتخليج العجم وخنوباً بالمحيط الهندي وغرباً بالخليج ومضيق باب المندب والبحر الأحمر وترعة السويس ويبلغ مسطحها ٣٠٧٠٠٠٠ من الكيلومترات المربعة ولا يعلم عدد سكانها بالضبط ويؤخذ من روايات المؤرخين والجغرافيين أنهم يزيدون عن ١٥ مليوناً من الانفس ودخلها عبارة عن نجد عظيم يتركب من سهول وصحارى حارة المناخ جداً أما سواطها فبعضها عظيم الخصوبة من أشهر محاصيلها البن المنسوب الى بلاد اليمن ويعرف عند أهل أوروبا بين مخا ولا تطير له في الجودة ومن حاصلاتها أيضاً القطن والسموغ والمر والعود وقصب السكر والتارجيل والطيب والحناء والزنجبيل والظرفاء والنخل وهو كثير ببعض جهاتها عظيم الفائدة والخنطة والشعر والقوة والफल والرمان واللوز والفسق والمشمش والسفرجل والتفاح والليمون والتين والورد والتربسج والبنفسج والنيلة وأنواع القثاء والبطيخ واللبن وغيرها كثير وأخصب أراضيها وأجودها الجهات الجنوبية أي بلاد اليمن المسماة عند الرومان واليونان ببلاد العرب السعيدة تميزها بينا وبين الجهات الشمالية التي سموها ببلاد العرب الصخرية

ومن حيوانات بلاد العرب الخيل المطهمة الشهيرة والجمال ويعتمدون عليها كثير الشدة الحاجة اليها ولصبرها على الجوع والعطش زمناً طويلاً والحمار والبقر الوحش والضأن والغزلان وهي كثيرة في البراري والاسد والضبع والنمر والذئب والوعل والثعلب وابن آوى والبرقع وغيرها ومن طيورها النعام والقطا والحجل والصقر والحبارى والحمام واليمام والنسر والبازي والعقاب والغراب والهدهد والرنم وكثير من الطيور المائية على شاطئ البحر وغيرها ويكثر الجراد في بعض السنين فيتلف من زروعها
أما معادنها فكثيرة لا يستخرج منها الا القليل وقد كان لها سابقاً في ذلك شهرة عظيمة خصوصاً بلاد اليمن وليس بها أنهر كثيرة تصلح للملاحة بل ينحدر من بعض جبالها بعض جداول تغوص في الرمال وكانت تجارة هذه البلاد في الأزمنة القديمة واسعة جداً وحتى في الايام المتأخرة قبل خرق برزخ السويس

(الفصل الثاني)

أقسام بلاد العرب

تنقسم بلاد العرب الى عدة أقسام اختلف المؤلفون في عددها أشهرها اليمن والحجاز ومكة ونجد واليمامة وبلاد البحرين ويعددها البعض من بلاد العراق وتنقسم بلاد اليمن الى خمسة أقسام حضر موت وشحر ومهرة وعمان ونجران ويقال ان سبب تسمية حضر موت بهذا الاسم هو أن حضر موت بن قحطان كان أول من نزلها وكان اسمه عامراً واذا حضر حراً بكثرت من القتل فصاروا يقولون عند حضوره حضر موت فأطلق هذا الاسم على الارض التي كانت تسكنها قبيلته ثم أطلق بعد ذلك على جهة متسعة شرقي عدن بالقرب من البحر كثيرة الرمال ويقال ان بها قبره وعليه السلام ويقال ان اليمن سمي بذلك لوقوعه عن يمين الكعبة اذا استقبلت المشرق

ومن أشهر مدن اليمن صنعاء وهي قاعدته وكانت قديماً عاصمة ملوك اليمن وبقربها معادن للفحم الحجري لم تستغل لآن وهي حسنة الاسواق واسعة التجارة وبقربها موقع مدينة مأرب المسماة سبأ نسبة إلى سيد شمس الملقب بسبأ يقال انه بنى هناك سداً عظيماً وساق اليه السيول من مكان بعيد وشيد جانبها كبيراً من المدينة على السد المسمى كوروفي بعض السنين تراكت الامطار فدفعت السد وهلك خلق كثير فسميت هذه الحادثة سبيل العرم (١) وفي تلك النواحي كتابات بالحرف المسند المعروف بالخط الحيري ومن مدنه أيضاً صعدة الى الشمال الغربي من صنعاء وتشتهر بالحدود وبها مداخل كثيرة ورزيد الى الغرب من صنعاء وبيت الفقيه واقعة وسط الارض التي ينبت بها البن والى الجنوب من زبيد حصن تعز كان مقام ملوك اليمن

وبلاد الحجاز وهي واقعة في شمال اليمن شرقي البحر الاحمر وتمتد الى خليج العقبة وعلى ساحلها جله جزائر صغيرة تلججها مياه صغار السفن عند الحاجة وسمى حجاز الوقوع بين نجد وتهامة وأشهر بلاد مكة المكرمة المسماة قديماً مكورابا ولا تخفى شهرتها وأهميتها والمدينة المنورة المسماة أيضاً يثرب وبها قبر نجر الكائنات عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام وفي شمالها جبل أحد المشهور ويقال لها طيبة أيضاً والطائف وهي بلدة خصبة طبيعة المناخ كثيرة البساتين والعيون والحدول واقعة شرقي مكة ومن أشهر بلادها أيضاً خيبر وهي واقعة بالشمال الشرقي من المدينة على طريق قوافل الشام وكان بها سبعة حصون مشهورة عند العرب وهي ناعم والقنوص حصن أبي الحقيق وحصن الشق وحصن النطاظ وحصن السلام وحصن الوطيج وحصن الكنيبة وتوصف بكثرة الجميات وكان للعرب فعلة مستغربة يفعلونها عند دخول تلك المدينة تحفظان الحمى كما قالوا

وقسم تهامة وهو على ساحل البحر الاحمر بين اليمن جنوبا والحجاز شمالا وسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها وهو من التهم وقيل سميت بذلك لتغير هوائها في كل وقت

وبلاد نجد وهو جنوبي الشام وغربي العراق وشرقي الحجاز وشمال اليمن وأراضيها جيدة الخصوبة وقد لهجت بها الشعراء كثيراً وفيها أرض عالية التي حماها كليب وائل بن ربيعة وأفضى ذلك الى حرب البسوس التي بضر بها المثل وتشتهر بالخيال المطهمة وقاعدتها مدينة الرياض وهي مربعة الشكل محاطة بأسوار منيعة حولها البساتين الجميلة وكانت مركز الوهابيين وهدمها المرحوم ابراهيم باشا ثانياً ولاية العائلة المحمدية العلوية المصرية والى الشمال منها جبل شمرأى جبل طى قصبته مدينة الحائل وأشهر مدنها أباناه وهي التي ولد فيها محمد بن عبد الوهاب شيخ مذهب الوهابية

وقسم اليمامة أو العروض وهو بين نجد واليمن ويتصل بالبحرين شرقاً والحجاز غرباً ومن مدنه اليمامة وكانت مدينة عظيمة ذات مياه ونخل وهي مدينة مسيئة الكذاب

(١) العرم السيل الذي لا يطاق دفعه وعلى هذا يكون سيل العرم من باب إضافة الشيء الى نفسه لاختلاف اللفظتين

(الفصل الثالث)

الثغور البحرية ببلاد العرب

من أشهر ثغور بلاد العرب عدن وهي على الساحل الجنوبي من بلاد العرب واسعة التجارة والاراضي التي حولها مجدية لا تنبت شيا وهي الان بيد الانكليز من (١٨٣٩ م) ومخا وهي من المين الشهيرة على البحر الاحمر والمركز الاصلى لتجارة البن ومنها يصد الى جميع الاقطار والحديد وهي من أشهر مدن اليمن أيضا واقعة على البحر الاحمر على بعد مائة ميل الى الشمال الغربي من مخا وترسو عليها امرا كب حجاج الهند وحده على ساحل الحجاز على بعد ٦٥ ميلا من غربي مكة وهي أحسن ثغور البحر الاحمر ويبلغ عمق المياه عيناها الى ١٧ قامة وقد اهتمت الدولة الان بتحصين مينائها ولها تجارة واسعة خصوصا في زمن الحج ويتردد عليها كثير من مراكب الدولة العثمانية والحكومة المصرية والدول الاوروپاوية وبها الملاهي كثير من السفن الشراعية لا يتجاوز محمول أكبرها ٨٠ طنا ويبيع بشمالى جده ويميناها صخور كثيرة وهي ثغر المدينة المنورة وتروج بضاعتها في زمن الحج وأكثر أهلها من قبيلة جهينة

ومن الثغور الثانوية التي على البحر الاحمرية وهي ثغر بلاد اليمن قليل العمق واقع على البحر الاحمر على بعد ٢٩٠ كيلومترا من الشمال الغربي من مخا ولها تجارة في البن والحبوب مع القاهرة عن طريق جده ويبلغ عدد سكانها ٦٠٠٠ نسمة وليث وقنفذة والمويط والوجه وضبا وغيرها ولا أهمية لها ومن ثغور بلاد العرب الشهيرة مدينة مسقاط وهي مدينة حصينة ببلاد عمان وربما كانت هي موسكا القديمة وهي ثغر مهم على جون صغير من الخليج الفارسي وقاعدة امام مسقط وسكانها نحو ٢٠٠٠٠ نفس وتحمل اليها جميع حاصلات شواطئ أفريقيا الشرقية وبلاد الهند وسومطرة وجاوه وغيرها كالارز والسكر والقطن والتمر والصمغ والجلود والعاج وغيرها وهي سوق تباع بها اللآلى المستخرجة من جهات هرمز وبياتني أحسن السفن الموجودة بثغور بلاد العرب وكان البورقغال استولوا عليها سنة ١٥٠٧ م ثم طردهم العرب منها سنة ١٦٤٨ م ولامام مسقاط وهو أغنى التجار ببلاد العرب أزيد من ٧٥ سفينة تجارية والقظيف وهي ببلاد الاحساء ويقربها في خليج العجم جزائر البحرين بها مغاص لؤلؤ ليس له مثيل في العالم وظفار وهي قبة بلاد شحر وبينها وبين الهند تجارة ويكثر باراضها النارجيل والى شمالي ظفار مال الاحقاف وهي بلاد عاد

وبالسواحل العربية كثير من المراسي للسفن الشراعية الصغيرة خصوصا في خليج فارس وخليج عمان وبعد الدخول من مضيق هرمز تكون الاجوان الصغيرة التي على ساحل جزيرة العرب صالحة لمرسى السفن الشراعية وكذا الطال بالجهات القريبة من جزائر البحرين

﴿ الفصل الرابع ﴾

الامة العربية

قال العلامة ابن خلدون اعلم ان العرب منهم الامة الراحلة الناجعة انخيام اسكناهم وانليل

لر كوبيهم والانعام لكسبهم يقومون عليها وبقناتون من البانهاو يتخذون الدف والاثاث من أوبارها وأشعارها ويحملون أنقالهم على ظهورها يتنازلون حلالا متفرقة ويتخذون الرزق في غالب أحوالهم من القنص وتخطف الناس من السبل ويتقلبون دائما في المجالات فرارا من حجارة القمظ تارة وصبارة البرد أخرى وانجاء الراعي عنهم وارتياح المصالح اليهم الكفيلة بمعاشهم وجل أنقالهم ودفقهم ومنافعهم فاختصوا بذلك بسكنى الاقليم الثالث فعمروا اليمن والحجاز ونجد وتهيمة وما وراء ذلك لاختصاص هذه البلاد بالمال والقفار المحيطة بالارياف الاهلة بمن سواهم من الامم في فصل الربيع وزحف الارض لرى الكلا والعشب في منابها والتنقل في نواحيها الى فصل الصيف لميرة الاقوات في سنتهم من حبوبها وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرات من اضرارهم بافساد السابلة ورى الزرع مخضرا وانتهاه قائما وحصيدا اما حاضته الدولة وذاذت عنه الحامية في الممالك التي للسلطان عليهم فيها ثم ينحدرون في فصل الخريف الى القفار لرى شجرها ونواجذ بلهم في رمالها وما احاط به علمهم في مصالحها وفرار بانفسهم وطمعائهم من أذى البرد الى دف مشائنها فلا يزلون في كل عام مترددين بين الريف والصحراء ما بين الاقليم الثالث والرابع صاعدين ومنحدرين على عمر الايام شعاعهم لبس الخيط في الغالب ولبس العمائم ايجانا على رؤسهم لقنوا من أمم البربر في حمل السلاح اعتقال الرماح الخطية وهجر واتسكب القسي

اما اشتقاق اسمهم فقال قوم انه اشتق من الابانة لقولهم اعرب الرجل عما في ضميره اذا بان عنه وقال آخرون ان بعض اولاد سام بن نوح استوطنوا العراق وطردهم من هناك بنوحا فذهب بعضهم شمالا الى بلاد آشور وبعضهم ذهب غربا وتسموا عربا بهذا السبب لان اللغة السامية الاصلية لا عين فيها فلفظة عرب بمعنى غرب ولعله الاصح وقال آخرون بل الاصح أنهم نسبوا الى عربية (١) ودعى جيلهم جيل الجاهلية لما كانوا عليه من الجهل بالله وشرائع الدين والكبر والتعير

شعوب العرب وأصلهم اعلم أن العرب أقدم الامم بعد الطوفان وأشدهم بأسا وأعزهم نفسا وتنسب الى يقطان أو قحطان بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرخشذ بن سام بن نوح عليه السلام وورد في التوراة أن قحطان رزق بثلاثة اولاد وهم المزادومعربه المضاض ومنه تشعبت أهل اليمن من حمير والتبابعة وكهلان وهمدان ومات أي حضر موت ثم لما كثر عددهم سكنوا البراري والقفار كما تقدم ثم بعد ذلك افتقرت منهم طائفة سكنت في جهات مختلفة انتخبها وصار لهم فيها المدن والقرى ولذلك عددهم المؤرخون فرقتين قالت على الاولى عرب البادية وعلى الاخرى عرب الحضر وصار لبعضهم دول وقبائل اشتهرت بالعزم والحزم وقدامتاز العرب عوما بالقوة والشجاعة واختصت بالسالمة والبراعة وكان دينهم شدة البأس وترعت القبائل في ذلك بريق الاشعار يذكرونها في معرض الفخار فاكتسبت هذه الشعوب شهرة عظيمة خصوصا بعدما شنوا الغارة على الممالك المجاورة لهم وغزوها وأغاروا على فراغسة القطر المصري (٢٠٠٠ ق م) وانتصر واعلهم وامتلكوا منهم بلادهم وأقاموا لهم بهادولة قوية اشتهرت ملوكها بالاراعة والمالقة ودام ملكهم نحو خمسة قرون وهذا أقوى دليل على شدة بأس هذه الامة وقدمها في تلك الاعصار

(١) قال صاحب القاموس والعربية ناحية قرب المدينة اطلقت ترش بها فنسبت العرب اليها اه

وقد قسم المؤرخون العرب الى ثلاثة أقسام بأئدة وعاربة ومستعربة أما البائدة فهم العرب الاولى الذين ذهب عنا تفاصيل أخبارهم لقدم عهدهم وانقطاع أسباب العلم بأخبارهم وهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الاولى وكانت مواطن عاد باحفاف الرمل بين اليمن وعمان الى حضرموت والشحر ولما اتصلوا بعبادة الاصنام أبادهم الله وأما ثمود فكانت ديارهم بالجحر ووادي القرى بين الحجاز والشام وكانوا يكتفون بيوتهم في الجبال وكانوا أهل كفرة وبني وأما جديس وطسم فكانت ديارهم باليمامة وهي اذناك من أخصب البلاد وأعرها وأكثرها ثمارا وحدثا وقصورا وأما جرهم الاولى فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعبرانية فكانوا على عهد عاد وكانوا يعاصرون بعضهم بعضا وبعد أن سالتهم الايام احقبا قبلت لهم ظهر المن كما هو الحال في جميع الامم البائدة فاندثر وابتاهمهم وأما جرهم الثانية فهم من ولد قطان وبهم أقصل اسمعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام وكانت مساكن بني قطان بالحجاز ولما أسكن ابراهيم الخليل ابنه اسمعيل عليهما السلام في مكة نشأ بينهم وتزوج منهم وصار يطلق على أولاده العرب المستعربة لان أصل اسمعيل عليه السلام وأسانه كان عبرانيا ولذلك قيل له ولولده العرب المستعربة

وأما العرب العاربة فهم بنوسيا واسم سبأ عبد شمس وقالوا انه لما كثرت الغزى والسبي سمي سبأ وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان لسبأ عدة أولاد منهم حمير وكهلان وعمر وأشعر وعاملة بنوسيا وجميع قبائل العرب باليمن وملوكها التبابعة من ولد سبأ المذكور وجميع تبابعة اليمن من ولد حمير بن سبأ خلا عمران وأخيه موزيقا فانما ابنا عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن نعلب بن مازن بن الازد والازد من ولد كهلان من سبأ وفي ذلك خلاف وقيل لهم عاربة لثروا لهمم بالبادية مع العرب البائدة وتخلقهم بأخلاقهم

أما من حيث المعتقد في الجاهلية فكانت العرب أصنافا فصنف أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع الخبي والدهر المقتنى كما أخبر عنهم التنزيل (وقالوا ما هي الاحيائية الدنيا توت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر) وصنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث وهم الذين أخبر عنهم الله بقوله تعالى (أفعبينا بالخالق الاول بل هم في لبس من خلق جديد) وصنف عبدوا الاصنام وكانت أصنامهم مختصة بالقبائل فكان ودل كلب وهو بدومة الجندل وسواع لهبديل وبغوث لمذبح ولقبائل من اليمن وتسر لذي الكلاع بأرض حمير ويعوق لهمدان واللات لثقيف بالطائف والعزى لقريش وبني كنانة ومناة للاوس والخزرج وهبل أعظم أصنامهم وكان على ظهر الكعبة وكان إساف ونائلة بين الصفا والمروة

وكان منهم من يعيل الى اليهودية ومنهم من يعيل الى النصرانية ومنهم من يعيل الى الصابئة ويعتقد في أنواع المنازل اعتقاد المجنمين في السيارات حتى لا يتحرك الابنوه (١) من الأنواع ويقول

(١) النوء النجم مال للغرب والمطر وأصل النوء سقوط نجم بالغد في المغرب وسقوط نجم بجباله من ساعته في المشرق في كل ليلة الى ثلاثة عشر يوما وهكذا كل نجم منها الى انقضاء السنة ما خلا الجهة فان لها أربعة عشر يوما وانما يكون ذلك النجوم الاخذ وهي منازل القمر وهي ثمانية وعشرون تماما فلكل نجم رقيب هذا هو الاصل ثم هموا كل نجم منها باسم فعمله ثم قالوا استقبينا بنوء كذا واستمطر به ثم كثر حتى هموا الاثر الذي يحدث بسقوط كل منها أو عند سقوطه نوا ولا يفرقون بين أن يقولوا نوء نجم كذا وان يقولوا مطر نجم كذا وهم يضيفون الامطار والرياح والحر والبرد الى الساقط منها وقال الاصمعي الى الطالع منها في سلطانه فيقولون مطر بانوء كذا

مطر نابتوه كذا وكان منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الجن وكانت علومهم علم الانساب والاقواء والتواريخ وتفسير الرؤيا وكانت الجاهلية تفعل أشياء جاءت شريعة الاسلام بها فكانوا لا ينكحون الامهات والبنات وكان أقبح شيء عندهم الجمع بين الاختين وكان يعيبون المتزوج بامرأة أبيه ويسمونه الضيزين وكانوا يحجون البيت ويعتصرون ويمرحمون ويطوفون ويسعون ويقفون المواقف كلها ويرمون الحجارة وكانوا يكبسون في كل ثلاثة أعوام شهرا ويعتسلون من الجنابة وكانوا يدومون على المضضة والاستنشاق وفرق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الاظفار وتنف الابط وحلق العانة والختان وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى وغير ذلك مما يعلم من المفصلات

(الفصل الخامس)

دول العرب قبل الاسلام

ملوك القبايلة

وهم بنو حير وقيل لهم تبابعة لانه يتبع بعضهم بعضا كما هلك واحد قام آخر ولم يكونوا يسمون الملك منهم يتبع حتى يهلك البين والشكر وحضرموت ومن لم يكن له شيء من هذا يسمى ملكا ولا يقال له يتبع كما قاله المسعودي

واعلم ان أعظم دول العرب في الازمنة القديمة التبابعة ملوك البين وأول من ملك منهم محطان ابن عابر بن شالح المتقدم ذكره وكان أول من لبس التاج (٢٠٣٠ ق م) وقام من بعده ابنه يعرب وهو من أعظم ملوك العرب ويسمى عينا وقيل به سميت اليمن وهو أول من حياه ولده أبيت اللعن وأنعم صباحا وقيل انه أول من نطق بالعربية ثم ملك بعده ابنه يسجب وكان واهي العزيمة استبد عماله بما في أيديهم من المسالك وملك من بعده ابنه عبد شمس ولما أكثر من لغزو والسبي سمي سبأ كما تقدم وكانت قاعدة ملكه مدينة صنعاء وبني مدينة مأرب على ثلاثة مراحل منها وهو الذي بنى في مأرب السد المشهور

وتحز برخبير السد على ما قاله العلامة بن خلدون ان سبأ اتخذ سدما بين جبلين بالهضر والقار فحقن به ماء العيون والامطار وساق اليه سبعين واديا وترك فيه خروقا على قدر ما يحتاجون اليه في سقيهم وهو الذي سمي العرم ومات قبل اتمامه فاتته ملوك حير من بعده فأقاموا في جناته عن اليمن والشمال ودولتهم يومئذ أفرعها كانت وأترف وأبرز وأعلى يداؤها ظهر فلما طغوا وأعرضوا بحضهم السيل وأغرق جناتهم وخربت أرضهم وغرق ملكهم وصاروا أحاديث اه (١)

وملك من بعده حمير ولده وقيل هو أول من تنوج بالذهب وأخرج حمود من اليمن الى الحجاز ثم ملك بعده ابنه وائل ولم يزل ملكهم على اليمن حتى مضت قرون وصار الأمر الى شداد

(١) ولان هذا السد بقية لآل وهي من أغرب الآثار ولا يقصها الاصلاح قليل لتعود الى ما كانت عليه

فغزا البلاد الى ان بلغ أقصى المغرب وبني المبانى والمصانع وأبقى الآبار العظيمة ثم اضطربت أحوال حمير وصار ملكهم طوائف الى أن استقر في الحرث وهو تبع الاول ومن بنيه التبابعة وقد لقب الحرث بالرائش لانه راس النعام بالعباءة مما كان أصابه في غزواته من الغنائم والسلب ثم ملك أبرهة ذو المنار ثم أفرقيش أو أفريقس (١٠٩٨ ق م) وذهب بقبائل العرب الى أفريقيا ويقال انها سميت به وساق البربر اليها من أرض كنعان فأزلهم همها ثم ملك بعده أخوه عمرو ذو الأذعار ولم يحسن السيرة في الرعية ولم يعبأ بوضاياه أبية أبرهة وكان أنشده عند وفاته

يا عمرو وإنك ما جهلت وصيتي * إياك فاحفظها فاناك ترشد
يا عمرو ولا والله ما ساد الورى * فيمضى الالمعين المرقد
يا عمرو من بشرى العلى بنوالة * كرم ما يقال له الجواد السيد
كل امرئ يا عمرو وحاصد زرعه * والزرع شئ لا محالة يجصد

ولما دعت حمير من حوره خلعت طاعته وقلدت الملك شرحبيل جعري بين ذى الأذعار وشرحبيل قتال شديد قتل فيه خلق كثير واستقل شرحبيل بالملك ثم ملك بعده ابنه البرباد (١٠٦٥ ق م) ثم ملكت بعده بلتميس ابنة الهداد وكانت على عهد سليمان عليه السلام ووفدت عليه بنفيس الهدايا وبقيت في ملك اليمن ٢٠ سنة وقام بعدها مالك ناشر النعم لانه قد أعيان رعيته أطواق الانعام والمن ويقال انه سار غازيا الى المغرب فبلغ وادى الرمل ولم يجد فيه مجاز الكثرة الرمل وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا فأمر بصنم من نحاس نصب على سفير الوادى وكتب في صدره بالخط المسند هذا الصنم لناشر النعم الحميرى ليس وراءه مذهب فلا يتكلف أحد في عطف ثم قام بعده ابنه شمر عرش سمي بذلك لارتعاش كان به وهذا هو التبع الأخير وهو المشهور من ملوك التبابعة وذو المغازى والآبار البعيدة فكان من أشد ملوك العرب نكابة في الأعداء وأبعدهم مغارا (٨٠٠ ق م) ويقال انه سار بجيش مؤلف من ٣٠٠ ألف مقاتل فوطئ أرض العراق وخراسان وفتح مدائنهم وخرّب مدينة الصغد وراجهيكون وبني هنالك مدينة سميت باسمه هذا وعربته العرب فصار سمرقند ثم شخص من اليمن غازيا مرة ثانية ومربا لخيرة فتحير عسكره فقيل لتلك البلاد الحيرة ثم رجع الى اليمن وهابته الملوك وهادقوه وأخذ بندين اليهودية باغراء بعض أحبار اليهود من بني قريظة ثم عاد الى غزو بلاد فارس فوطئ الممالك وذللها وعمد الى الصين وكانت مدة ملكه ٣٧ سنة وملك من بعده ابنه أبو مالك وهلك في بعض غزواته وتعاقت الملوك على اليمن دهر اطو يلا حتى ملك عمرو بن عامر الأزدي وقيل له مزية بما لانه كان يلبس كل يوم بدلة فاذا أراد الدخول الى مجلسه رى بها فرق لتلاي جدها حتى ما يلبسه وقيل انه على عهده صار سيل العرم سنة (٣٠٢ م) فانفجرت مياه سد مأرب فاحتمل السيل أنعامهم وخرّب ديارهم فتفرقت القبائل المجاورة له أيدي سبا

ولم تزل تتوالى الملوك على حمير حتى صار الملك الى ذى نواس (٤٨٠ م) واسمه زرعة ولما تغلب على ملك ابائه التبابعة تسمى يوسف وتعصب للدين اليهودية وجعل عليه قبائل اليمن

فاستجمعت معه هجيرة على ذلك وأراد أهل نجران عليها وكانوا من بين العرب يدينون بالانصرانية وكان هذا الدين وقع اليهم قديما من بقية أصحاب الحوارين ولما كان ذونواس يدين ويتعصب لليهودية اتخذ احدودا مضطرا ما وكان كل من لم يتهود القاه في الاخذود فقيل له صاحب الاخذود ويقال ان رجلا من أهل نجران أقبلت من القتل وسار حتى قدم على قيصر صاحب الروم يستنصره على ذى نواس

(الفصل السادس)

استيلاء الحبشة على اليمن

لما قدم ذلك الرجل على قيصر مستنصر خاضع استجد بهت قيصر الى ملك الحبشة يا امره بنصره فجهز النجاشي السفن والعساكر من الحبشة وأمر عليهم رجلا منهم يدعى أرباط وعهد اليه بقتل اتباع ذى نواس وسبيهم وتخريب بلادهم فركبوا البحر وزلوا ساحل اليمن فلقبهم ذونواس فمن معه فانهم لم يراى ذونواس ما نزل به وبقومه وجه بفرسه الى البحر فكان آخر العهد به وانقرض أمر التبابعة (٥٢٩ م) ووطئ من ثم أرباط اليمن بالحبشة وأذل رجالات حير وهدم حصون الملك وعلى ذلك انتهى ملك حير من اليمن مدة ذى نواس المذكور

وقال بعض المؤرخين ان اغارة الحبشة على اليمن كانت في عهد ذى حدن (١) آخر ملوك حير فعليه يكون آخر ملوكهم وقد اختلف المؤرخون في أسماء ومدد ملوك اليمن اختلافا عظيما لانه ليس في جميع التواريخ أسقم من تاريخ ملوك حير وملك من بعدهم اليمن أربعة من الحبشة وعثمانية من الفرس ثم صارت اليمن للاسلام

ولما استتب الامر لارباط خرج عليه أحد رؤساء جيشه وحرب معه راع الحبشة وانجاز الى أرباط عظما الحبشة وغطار بنهم فلما اقتتلوا دارت الدائرة على أرباط فقتله خصمه فأقاموا أرباط ملكا وهو الملقب بالانمرم ولما بلغ النجاشي قتل أرباط اغتاض جدا وحلف بالمسيح ان يظا أرض أربة ويجز ناصيته وير يوقمه فلما بلغ أربة ذلك جز ناصيته وجعلها في حق وجعل شيئا من دمه في قارورة ووضع قلبه من تراب اليمن في جراب وأنفذ ذلك الى النجاشي ملك الحبشة مع هدايا كثيرة واطائف جزيلة وكتب اليه يعترف له بالعبودية ويخلف له انه في طاعته وانه بلغه بين الملك أنفذ اليه ذلك لكي يبرقسه فاستحسن النجاشي ذلك وعفاه عنه وأقره في ملكه

ولما كان موسم الحج أخذ الناس يتجهزون له فرأى ذلك أربة وسأل عن الامر فقيل له انهم يحجون الى بيت الله بمكة قال فما هو قالوا بيت من حجارة قال لا بين لكم بيتا خيرا منه فكتب الى قيصر بالصناع وأنواع الرخام والفسيفساء وبني بصنعا كنيسته يقال لها القليس (٢) الى جانب

(١) واسمه علس بن الحرث الحميري قيل له ذو حدن لانه أول من غنى باليمن والحدن حسن الصوت

(٢) كان القليس مر بعام مستوي التراب وجعل طوله في السماء ستين ذراعا وحوله سور يئنه وبين القليس ما كنا ذراعا مطبقه من كل جانب وجعل بين ذلك كله حجارة تسمى أهل اليمن الجروب منقوشة مطابقة لا يدخل بين أطرافها الا جزء مطبقه به وكان له باب من نحاس يقضى الى بيت في جوفه طوله ثمانون ذراعا في أربعين ذراعا معلق العمل بالساج المنقوش وسامير الذهب والفضة وعقود مضر وبه بالفسيفساء مشجرة بين أصنافها كواكب الذهب ظاهرة ثم يدخل من البيت الى قبة جدرانها بالفسيفساء وفيها صلب منقوشة بالذهب والفضة وفيها رخامة بمائل مطلع الشمس من البلق مر بعة تخشى عين من نظرا اليها من بطن القبة تؤدي ضوء الشمس والقمر الى داخل القبة وكان تحت الرخامة منبر من خشب اللبغ وهو الابنوس (كذا) مفصل بالعاج ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهب وفضة اه لابن اسحق

عُمدان^(١) لم ير أحسن منها في زمانه وأمر الناس بحججها وكتب إلى النجاشي أني قد بنيت لك كنيسة لم ير مثلها واستبنته حتى أصرف إليها حجاج العرب وتبطل الكعبة

فلما تحدثت العرب بذلك غضب رجل من النساء^(٢) من بني فُقيم فأتى وأحدث في الكنيسة وخلق بأرضه فأخبر أبرهة بذلك وأن الرجل الذي فعل ذلك هو من البيت الذي يحج إليه فغضب عبدا ودعا الناس إلى حج القليس وحلف ليسيرن إلى البيت فيهدمه وأمر الحبشة فتجهزوا وخرج بثلاثة عشر فيلًا يقال لا كبرها محمود وسار قاصدا الكعبة فسمعت العرب به فرأوا جهاده حقا عليهم فخرج عليه رجل من أشرف اليمن يقال له ذونفر وقاتله فهزم ذونفر وأخذ أسيرا ثم حبسه ثم مضى على وجهه فخرج عليه نفيل بن حبيب الخثعمي فأخذ أسيرا وضمن لأبرهة أن يده على الطريق فتركه وسار حتى إذا مر على الطائف خرج عليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف فأوثقه بالطاعة وبعثوا معه دليلا يقال له أبو رغال فلما نزلوا المغمس بين الطائف ومكة هلك أبو رغال فرجعت العرب قبره من بعد ذلك وهذا ولا شك لأنه خان وطنه وباع أمته لأجنبي ثم بعث أبرهة إلى مكة خيلا من الحبشة عليهم رجل يقال له الاسود بن مقصور فساق أموال أهلها وأصاب فيها مائتي بعير لعمد المطلب بن هاشم سيد قريش يومئذ فهموا بقتال الاسود ثم علموا أنهم لا يقدرون عليه فأجمعوا وبعث أبرهة حنظلة الحيرى إلى مكة وقال له سل عن سيد قريش وقل له إنى لم أت لخر بكم وإنما جئت لهدم هذا البيت فإن منعتم فالحرب بيني وبينكم فلما بلغ عبدا المطلب ذلك قال البيت لله ونخليله إبراهيم فان عنعه الله والأفاننا من يدافع فانطلق حنظلة بعبدا المطلب إلى أبرهة فأدخل عليه وكان عبدا المطلب جليلا عظيما وسيما فأجله أبرهة وأكرمه ونزل عن سريره وجلس معه على بساط وأجلسه بجانبه وقال لترجانه قل له ما حاجتك فقال عبدا المطلب أن يرد على أبا عري فقال أبرهة بلسان الترجان قد كنت أعجبتي حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني أتكلمنى في إبلتك وتترك بيتنا هوديناك ودين أبائك قد جئت لهدمه فقال عبدا المطلب أنار بالابل ولا بيت رب ينعهه فقال أبرهة ما كان ليمنع منى ثم أمر بردا بله فلما أخذها قلدها وجعلها هديا وبثها في الحرم وانصرف عبدا المطلب إلى قريش وأمرهم بالخروج من مكة والتجوز في رؤس الجبال ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله جل وعلا ويستنصرونه سبحانه وتعالى على أبرهة وأنشد عبدا المطلب أياتا يدعو بهم الله سبحانه وتعالى لخلاص الكعبة الحرام

ثم انطلقوا فلما أصبح أبرهة تهيأ للدخول مكة وهيا فيله وهو مجمع على هدم البيت والرجوع إلى اليمن

(١) العمدان قصر باليمن بناء يشق بار بعد توجهه وأحمر وأصفر وأبيض وأخضر وبنى داخله قصرًا بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعًا

(٢) وهم نساء المشهور من كنانة كان من نساء المشهور منهم يقف عند جرة العقبة ويقول اللهم انى نأبى المشهور وواضعها مواضعها ولا اعاب ولا احب اللهم انى قد أحلت أحد الصغرى وحرمت صغرى المؤخر وكذلك فى الرجيين يعنى رجبا وشعبان نفر واعلى اسم الله تعالى وذلك قوله تعالى انما النسي زيادة فى الكفر ويقال ان يسئل ذلك القلم اه

فلما وجهوا القيل ألقى القيل نفسه الى الارض فضر بوجهه فأبى فوجهوه الى اليمن فقام بهرول ووجهوه الى الشام ففعل كذلك ووجهوه الى المشرق ففعل مثل ذلك فوجهوه الى مكة فنسقط الى الارض وأرسل الله جل جلاله عليهم من البحر طيرا أبابيل (٢) أمثال الخطاطيف مع كل طير منها ثلاثة أشجار واحدي في مقدار الطائر واثنان في رحليه فقد فتهم بها وهي في مثل الحص والعس لا تصيب أحدا منهم الا سقط وأصابه في موضع الحجر من جسده كالجدرى والحصبه فهلك وأرسل الله جل جلاله سميلا ألقاهم في البحر وخرج من سلم مع أبرهة هاربا يبتدون الطريق الذي جاؤا منه ويسألون عن نقييل ليدهم على الطريق فقال نقييل في ذلك من أبيات

حمدت الله إذ عاينت طيرا * وخفت حجارة تلقى علينا

وكل القوم يسأل عن نقييل * كان على الجحشان دينا

وأصيب أبرهة في جسده فسقطت أعضاءه وأعضاءه حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ثم انصدع صدره عن قلبه ومات ويلقب أبرهة أيضا بصاحب القيل وذلك العام يعام القيل وهو مولد سيدنا ونبينا عليه أفضل الصلاة وأتم السلام

ولمات أبرهة نوبى بعده ابنه كيوم (٥٧١ م) وبه كان يكنى واستفحل ملكه وأذل حير وقبائل اليمن فقتل رجالهم واستخدم أبناءهم ثم هلك وقام من بعده أخوه مسروق وهو ابن ربحانة بنت علقمة التي كان انتزعاها أبرهة لما أساء السيرة من زوجه ألي مرة ذى زين وتزوجها فولدت له ابنه هذا وابنته السباسة وكانت ولدت لذي زين من قبل ولدا يقال له سيف بن ذى زين واسمه معدى كرب فترى عند أبرهة وكان آخر من ملك اليمن من الحبشة سبي السيرة كثير العسف

قال ابن خادون ولما طال البلا من الحبشة على أهل اليمن خرج سيف ذى زين الجهرى من الاذواء ببقية ذلك السلف وعقب أوائك الملوكة وقدم على قيصر بوسنة نياقوس يستجده على الحبشة فأبى وقال الحبشة على دين النصارى فرجع الى كسرى أفوشروان وقدم الخيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الخيرة وما يليم من أرض العرب فشكى اليه واستتمه النعمان الى حين وفادته على كسرى ثم أوفدمعه وسأله النصر على الحبشة فشاو ركسرى أهل دولته فقالوا فى سحقونك رجال حبستهم للقتل ابعثهم معه فان هلكوا كان الذى أردت بهم وان ملكوا كان ملكا ازددته الى ملكك فاحصوا بنات ثمانية وقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتاوا كرمهم نسبا وكان وهز را الديلى فتوافقوا للحرب وأمر وهز را بنه أن يناوشهم القتال فقتلوه وأحفظه ذلك وقال أرونى ملكهم فارواه اياه على قيل عليه تاجه وبين عينيه ياقوتة جراء فرماه بسهم فصك الباقوتة بين عينيه وتغلغل فى دماغه فتكس عن دابته ودار وابه فملى القوم عليهم وانهمزم الحبشة فى كل وجه وفى ملكهم من اليمن بعد أن توارثته منهم أربعة فى ثنتين وسبعين سنة (٦٠١ م) وانصرف وهز را الى كسرى بعد ان خلف سيف قاعلى اليمن فى جماعة من الفرس ضمهم اليه على فرضة يؤديها كل عام وجعله لنظر ابن ذى زين وأنزله بصنعاء وانقر دابن ذى زين بسلطانه ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان ولما استوثق لذي زين الملك جعل يعتسف الحبشة ويقتلهم حتى اذا لم يبق الا قليل جعلهم خولا واتخذ منهم طواير يسعون بين يديه بالحرب فخرج يوما وهم يسعون بين يديه فلما انقر دوابه عن الناس رموه بالحراب

(٢) قيل معنى أبابيل كثيرة وقيل متتابعة وقيل مختلفة الالوان وقيل أفاطيع كالابل المتقطعة جمعا بعد جمع وقيل هى مرض الجدرى والدمامل وهذا مذهب بعض علماء الافرنج ويستفاد من كلام بعضهم أن أول ظهوره مرض الجدرى انما كان فى بلاد العرب فى سنة القيل اه

فقتلوه فارسل كسرى عاملا على اليمن واستمرت عماله الى أن كان آخرهم باذان فأسلم وصارت
اليمن للإسلام

(الفصل السابع)

ملوك العرب في غير اليمن

خبر ملوك المناذرة بني كهلان بالعراق

أما أخبار العرب بالعراق في الجبل الاول فلم يصل اليها تفاصيلها وشرح حالها لانه لما حدث سيل
العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب الى العراق والشام فكانت تنوخ وقضاة وهما حيان من
أحياء الأزديين بني كهلان ممن تمزقوا الى العراق فقال مالك أو ملك بن فهم الأزدي لمالك بن القضي
تقيم بالبحرين وتخالف على من ناوانا فخالفا وذلك في أيام ملوك الطوائف فنظروا الى العراق وعليها
طائفة من ملوكها وهي صاغرة فخر جواعن البحرين وسارت الأزدي الى العراق مع ملك بن فهم
الأزدي وسارت قضاة الى الشام مع القضي وأول من تملك على تنوخ في العراق مالك بن فهم
(١٩٥ م) وكان منزله بالانبار (١) ثم ملك بعده أخوه عمرو بن فهم ثم ملك بعده ابن أخيه جديمة
الابرش وهو أشهر ملوك الحيرة (٢) (٢٥١ م) وكان نائب الرأي بعيد المنار شديد النكاية
ظاهرا الخرم وهو أول من غزا بالخيوش وشن الغارات على قبائل العرب وأول من نصب المجانيق في
الحرب وكان مجيبا بنفسه مفرط في التيمه وكان به برص فأكبرته العرب على أن تنعته به اعظاما فسمته
جديمة الابرش وجديمة الواضح واستولى على السواد ما بين الحيرة والانبار وسائر القرى المجاورة ببادية
العرب وكان يجبي أموالها وغزاهما وجديسا في منازلها في اليمامة وطال ملكه الى أن أدرك ملك
سابور بن أشك وكان جديمة ملك معدو وبعض اليمن وغزاه في آخر عمره الشام فقتل عمر بن حسان

(١) الانبار هي قير و زسابور (Peris apour) مدينة شهيرة في العراق يولايه بغداد بينها وبين بغداد
عشرة فراسخ وهي الى غربها على الفرات قرب مخرج شهر عيسى قيل سميت بذلك لانه كان يجتمع بها أنبياء الخنطة والشعر
والتين وهي جمع انبار ومعناه الاهراء وكان دخول العرب من تنوخ هذه المدينة في أيام ملوك الطوائف قيل أول من
بني الانبار سابور بن هرم من المعروف بذي الكاف وقال ابن الاثير بنيت الحيرة والانبار أيام تخنصر ثم تحول أهل الحيرة
الى الانبار وفحصت الانبار في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه سنة ١٢ هـ على يد خالد بن الوليد وحصلت بها واقعة
حيث سُميت ذات العيون وكانت الانبار منزلا لابي العباس السفاح انتقل اليها من الحيرة سنة ١٣٤ هـ وبني بها
القصور و بها توفي وينسب الى الانبار جماعة من أهل العلم

(٢) قال ياقوت وغيره الحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له الخنزير عوان البحر فارس
يتصل به وكانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية في زمن نصر بن ربيعة ثم بنى الخنم وتوصف بالبيض الحسن عمارتها
و حيطانها وكان من تنصر من لحم بعد النعمان بن المنذر قد نوافها الكنائس المنظمة والقصور الجليلية والحصون المنبجة
وكانت في تلك الايام وما بعدها الى ما بعد الفتح الاسلامي ذات زروع وأشجار وأثمار وصناعة جميلة وكفاية في
الارزاق والحاصل والآلات والصناعات من كل ما يحتاجون اليه في معيشتهم والمشهور ان سبب تسميتها بالحيرة أن
تبعها أقبل بجيشه وبلغ موضع الحيرة فسل دليله وتغير فسميت الحيرة وكان فتحها على يد خالد بن الوليد سنة ١٢
هجريه اه

العمليقي ابن أديسة والد الزباء المسماة نائلة ملكة الطوائف فانطوت له الزباء على أخذ الثار وأخذت في الحيلة على جذيمة وأطعمته بنفسها حتى اغتروا قدم اليها فقتلته وأخذت بثمار أبيها وكان ملكة نحو ستين سنة وكان يقال لجذيمة نديم الفرقدين وهما نديمان كانا له اذا شرب قد صاحب لهما قدحين ولا ينادم غيرهما حتى ضرب بهما المشل فقالوا كنديمى جذيمة

وورث الملك من بعده ابن أخته عمرو بن عدى (٢٦٨ م) وأمهم رقاش وهو الذي استهوت به الجن كما ورد في أخبار العرب وكان أول من اتخذ الخيرة منزلا من ملوك العرب اللخمين وأول ملك بعده الخيريون في كتبهم من ملوك عرب العراق وملوك العراق اليه يتسبون

ثم هم عمرو وبطلب الثار من الزباء بخاله جذيمة واستشار عمرو وقصير بن سعد وهو ابن جارية بلجذيمة وكان أديسانا صحبا فخرضه على الأخذ بالثار عاجلا فقال كيف لي بها وهي أمتع من عقاب الجحش وكانت الزباء قد سألت كهنتها عن أمرها وكيف يسه موتها فقالوا لها انزى قتلك يكون على يد عمرو بن عدى فخذرت عمر من ذلك اليوم واتخذت لنفسها سرايا من مجلسها الى حصن لها داخل مسدين ثم احتج اذا فاجأها أمر دخلت السرب وضمت الى الحصن ثم دعت برجل مصور طاق في صناعته وأرسلته الى عمرو بن عدى متنكرا وقالت له صوره قائما وجالسا ومنفصلا ومتنكرا ومسلما بهيئته وألوانه وذلك حتى اذا رأته في أية حالة كانت فيها تعرفه ففعل المصور ما أمرته به وأتى اليها بالصور

وأما قصير فقال لعمر واجدع أنفي واضرب ظهري ودعني وياها ففعل به عمرو ذلك وخرج قصير حتى قدم على الزباء فأدخل عليها فلما رأته أجدع قالت لا مر ما جدع قصير أنه قد هبت مثلما قالت ما الذي أراه بك يا قصير قال زعم عمرو أني غدرت بخاله وزينت له المسير اليك ومالاتك عليه ففعل بي ما ترى فاقبلت اليك وقد عرفت أني لأكون مع أحدهم أو نقل عليه منك فاكرمه وورأت ما أعجبهم من حرمه وحذقة ودرايته ومعرفة بأمور الملك فلما عرف أنهم أو نقت به قال إن لي بالعراق أموالا كثيرة ولي بها طرائف وعطري فابعثني لاجل مالي وأجل اليك من طرائفها وصنوف ما يكون به من التجارة فتصيبين أرباحا وبعض ما لا يكون غنى للملوك عنه فسرحتهم ودفعت اليه أموالا وجهزت معه الدواب فسار حتى قدم العراق وأتى عمرو بن عدى متخفيا وأخبره الخبر وقال جهزني بالزباء والطرف لعل الله يمكثنا من الزباء فتصيب منها ثارك فأعطاء ما طلب وعاد به الى الزباء فاجبهم بذلك كثيرا وزادت ثقتها بقصير ثم جهزته بعد ذلك باكثر مما جهزته في المرة الاولى فسار الى العراق ولم يدعها طرفة الا قدم بها عليها حتى تعجبت منه ثم عاد الثالثة وقال لعمر واجمع لي ثقات أصحابك وجندك وهي لهم الغرائر وهي كالصناديق فلما هيأت جعل كل رجلين في غرارين على ظهر بعير وجعل معقد رؤسهم ما في باطنهما وقال لعمر اذا وصلنا أقتك على باب السرب ثم أخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة فن قائلهم قاتلوه وان أقبلت هي الى سر بها قتلتها أنت فلما تم ذلك سار قصير مجد حتى اذا قرب سبقت اليها وبشرها بكثر ما سجل اليها من المال والخف والسياب وكان يسير بالليل ويكن في النهار لراحة القوم فاشرفت الزباء من قصرها وأبصرت الابل مثقلة بالاحمال تسير الهوينا وتكاد قوائمها تسوخ في الارض فقالت يا قصير

ما للجمال مشيها وثيدا * أجندي لا يحملن أم حديدا

أم صرقانا باردا شديدا * أم الرجال جثما قعودا

ثم دخلت الابل المدينة فلما توسطتها انبخت وخرج الرجال من الغسائر ودل عمر وعلى باب السرب ثم وضعوا السيف في أهل البلد وأقبلت الزباة تريد انخر ورج من السرب فلما أبصرت عمرا عرفته بالصورة فصت مما كان بجناحتها وقالت بيدي لا يسد عمرو وتلقاها عمرو بالسيف فقتلها وأصاب ما أصاب من المدينة

ثم عاد الى العراق وجلس على سرير الملك بعد خاله جذيمة وبقي ملكا مدة عمره منفردا بملكه مستبدار بأبيه وأمره بغزى والمغازى ويصيب الغنائم وتنجي اليه الاموال وتفد عليه الوفود ودهره الاطول لا يدين لملوك الطوائف بالعراق حتى قدم ازدشير بن بابك في أهل فارس أرض العراق فضبطها وقهر من كان له معاديا حتى جعلهم على ما أراد مما يوافقهم ومالا يوافقهم فكره كثير من تنوخ بمجاورة العراق على الصغار فخرج من كان منهم من قبائل قضاة فكان أناس من العرب يحدثون أحدا نافي قومهم أو تضيق معيشتهم فيخرجون الى ريف العراق وينزلون الحيرة فكان ذلك على أكثرهم هجنة ومرت الحيرة أيام ملك عمرو بن عدى بانخاضه اياها منزلا وعظم شأنهم الى أن وضعت الكوفة ونزلها عرب الاسلام

وملك بعده ابنه امرؤ القيس البداء أى الاول ومن بعده ملك ابنه عمرو وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر وعمال الفرس وكان ملكه في أيام سابور ذى الاكشاف ثم ملك بعده اوس بن قلام العمليقي (٣٦٣ م) ثم ملك آخر من العماليق يدعى حاجباً أحد بني فاذان ثم رجع الملك الى بنى عمرو بن عدى بن نصر اللخمين وملك منهم امرؤ القيس الثاني (٣٩٠ م) ويعرف بالمنذر والمحرق لانه أول من عاقب بالنار

ثم ملك بعده النعمان الاعور السامع وهو بنى الخورنق (١) والسدير (٢) وكان النعمان هذا في أيام يزيد ملك الفرس فدفع اليه ابنه بهرام ليربيه وأمر بينا الخورنق مسكنا لابنه فاسكنه اياه وأحسن تربيته وتأديبه وجاءه بمن يلقنه الخلال من العلوم والآداب والفروسية حتى اشتمل على ذلك بما رضيه وكان النعمان من أشد ملوك العرب نكايه في الاعداء وأبعدهم مغارفة في الشام حرازا كثيرة وأكثر المصائب في أهلها وسبى وغنم وكان ملك فارس يتقدمه كنيستين الشهباء وأهلها الفرس ودوسر وأهلها تنوخ فكان يغزوهم من لا يدين له من العرب وكان صار ما حاز ما ضابطا للملكة قد

(١) الخورنق قصر في العراق يقال ان سبب بناء يزيد الانيم له أنه كان لا يبق له ولد فسأل عن منزل يرى صحيح فدلوه على ظاهرا الحيرة فدفق ابنه بهرام جورا الى النعمان وأمره ببناء الخورنق مسكنا له وأمره بانخاضه الى بوادي العرب وكان الذى بنى الخورنق رجلا اسمه سمر فلما فرغ من بنائه تعجبوا منه فقالوا علت أنكم توفونى أجرى اعلمته يدور مع الشمس فقال له النعمان وانك لتقدر على ما هو أفضل منه فالتقى من رأس الخورنق فهلك قصر بت العرب بجزائه المثل وقد ذكرت العرب هذا القصر في أشعارها ورضت به الامثال فى أخبارها ويرى أن سمارا بنى الخورنق فى ٦٠ سنة فكان بينى الستين والثلاث ويغيب الخمس ستين وأكثر من ذلك وأقل فلا يوجد ثم باني فيمنع فلم يزل يفعل هذا العمل ٦٠ سنة حتى فرغ من بنائه فصعد النعمان على رأسه ونظر الى البحر تجاهه والمر خلفه قرأى الحوت والضب والظبي والتخل فقال ما رأيت مثل هذا البناء قط فقال له سمارا فى أعلم موضع آجر لوزالت اسقط القصر كله فقال له النعمان هل يعرفها أحد غيرك قال لا قال لاجرم ادعها وابعرفها أحد ثم أمر به فتدف من أعلى القصر فقطع قصر بت العرب به المثل (٢) والسدير قصر بناه النعمان أيضا

اجتمع له من الاموال والخول والرفيق ما لم يملكه أحد من ملوك الخيرة وتوفي في الملك ٣٠ سنة ثم تزد
 وخرج عن الملك في زمن بهرام جور بن يزجرد و يقال إن سبب زهده في الدنيا وتركه الملك ما روى
 أنه أشرف يوما على الخورنق فأعجبه ما أوتي من الملك والسعة ونفوذ الامر واقبال الوجوه عليه فقال
 لا صحابه هل أوتي أحد مثل ما أوتيت فقال له حكيم هذا الذي أوتيت شي لم يزل ولا يزل أم شي كان لمن
 قبلك زال عنه وصار اليك قال بل شي كان لمن قبلي زال عنه وصار الي وسيزول عني قال فسرت
 بشي تذهب عنك لذته وتبقى تبعته قال فإين المهرب قال إما أن تقيم وتعمل بطاعة الله أو تلبس مسوحا
 وتطعن بجبل تعبد ربك فيه وتفر من الناس حتى يأتيك أجلك قال فإذا فعلت ذلك فإني قال حياة
 لا موت وشباب لا يهرم وصحة لا تسقم وملك جديد لا يبلى قال فإي خير فيما يقني والله لا طلبن عيشا
 لا يزل أبدا فالتخلع من ملكه ولبس المسوح وساح في الارض وتبعه الحكيم وجعل لا يسبحان
 ويعبدان الله تعالى حتى ماتا

ولما تزد النعمان تولى الامرانه المنذر الاول (٤٢٠ م) وكان أهل فارس ولوا عليهم شخصان من
 ولد أزدشير وعدلوا عن بهرام جور لترتيبه بين العرب وخلصوه عن آداب العجم فاستجد بهرام بالعرب
 فجهز المنذر العساكر ليهرام اطلب ملكه وحاصر مدينة الملك فأذغنت له فارس وأطاعوه واستوهب
 المنذر ذنوبهم من بهرام ففعا عنهم واجتمع أمره ورجع المنذر الى بلاده وشغل بالله والى موته
 وملك مكانه النعمان الثاني وكان زاهدا ثم ملك بعده أخوه الاسود وهو الذي انتصر على غسان عرب
 الشام وأسرعده من ملوكهم و يقال إن الاسود قتله غسان وانتصرت عليه وكان ملكه في زمن فيروز
 وملك بعده أخوه المنذر الثاني ثم ابن أخيه النعمان الثالث ثم ملك بعده عظمته الذي مبي (٢٥٠٣ م)
 وذميل بطن من تخم ثم ملك بعده امرؤ القيس الثالث وهو الذي بنى قصرى العذيب والصبر ولما
 هلك امرؤ القيس هذا ملك المنذر الثالث ابنه ويقال له ذوالقرنين لضفرتين كانتا له من شعره وأمه
 يقال لها ماء السماء غلبتها واسمها ماوية واشتهر المنذر المذكور بامه فقيل له المنذر ابن ماء السماء ويقال
 إن مرة بن كلثوم قتله ثمانين سنة من ملكه وقيل إن كسرى قبضه فطرده عن ملك الخيرة وملك موضعه
 الحرث بن عمرو الكندي الملقب بكل المرار وكان شديد السلطان ثم ولي بعده عمر ومضطرب الحرارة
 وهو ابن المنذر ابن ماء السماء ولثمان سنين مضت من حكمه كان مولد النبي عليه الصلاة والسلام
 ثم ملك بعده أخوه قابوس (٥٧٨ م) وكان في زمن أنوشروان وكان فيه لين وضعف قتله رجل من
 يشكر وسلبه ثم ملك بعده المنذر الرابع ثم النعمان الرابع أبو قابوس وهو الذي تنصر وتنصر معه أهل
 الخيرة وبنى في حاضرة ملكه الكنائس وملك اثنتين وعشرين سنة وقتله كسرى بوزين وسبب مقتله
 كانت وقعة ذى قارين العرب والفرس وهو صاحب النابغة الذبياني وهو الذي بنى الغريين (١) ومن

(١) كان المنذر ابن ماء السماء قد نادى من جلان من بني أسد أحدهما خالد بن المضلل والآخر عمرو بن مسعود فأنضبا في
 بعض المنطق في مجلس شربه فأمر بأن يحفر لكل واحد حفرة ثم يجعل في تابوتين ويدفنان في الحفرتين ففعل بهما
 ذلك حتى إذا أصبح سأل عنهما فأخبر بهما فكهما فقدم على ذلك وعنه ثم ركب حتى نظرا اليهما فمبنى الغريين عليهما
 فبنيا وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس فأول من يطلع عليه
 يوم نعيمة يعطيه مائة من الابل سودا وأول من يطلع عليه يوم بؤس يعطيه رأس ظر بان أسود ثم يومه فيذبح ويغري
 بدمه الغريين ولبث على ذلك بربع من دهره ولم يترك هذه العادة الوحشية الا لما تنصر اه

بعده اتقل الملك عن النخمين الى ابي بن قبيصة الطائي وفي زمنه بعث النبي عليه الصلاة والسلام
ثم ملك بعده آخر ثم عاد الملك الى النخمين فتولى المنذر بن النعمان بن المنذر وسمته العرب
المغرور واستمر ملكا بالحيرة حتى افتتحها خالد بن الوليد (١٢ هـ) وكانت المناذرة آل نصر بن ربيعة
في آخر أمرهم عمال لأكاسرة على عرب العراق

(الفصل الثامن)

الغساسنة ملوك الشام

ومن ملوك العرب ملوك غسان آل جفنة وكانوا عمال لالقياصرة على عرب الشام وأصلهم من اليمن
والازدي بن كهلان لان الازد لما أحست بأرب انتقاض العرم وخشيت السيل تفرقت فنشام قوم
فتزلوا على ماء يقال له غسان ففسير ومشر بهم فسموا غسان ثم أنزلهم نعلبة بن عمرو والغساني بادية
الشام والملوك بهم من قبل القياصرة كانوا يدينون بالنصرانية ولما نزلت غسان بأرض الشام كان
لها قوم من سلج فضر بوعلى الغساسنة الاتاوة ثم وقعت الحرب بين سلج وغسان فأخرجت غسان
سلج من الشام وصاروا ملوكا واستقر ملك الغساسنة نحو أربع مائة سنة

وأول من ملك من غسان حنفة بن عمرو بن نعلبة ودانت له قضاة ومن بالشام من الروم وملك بعده
ابنه عمرو بن بالشام عدة أديرة ثم ملك بعده ابنه نعلبة ثم ابنه الحرث ثم جيلة واشتهر بكثير من المباني
ثم ملك بعده ابنه الحرث وكان يسكن البلقاء وملك بعده ابنه المنذر الأكبر ثم ملك بعده أخوه
النعمان ثم ملك بعده جيلة ثم أخوه الأيهم واشتهر بالمباني أيضا ثم أخوه عمرو بن الحرث ثم حنفة
الاصغر وهو الذي أحرق الحيرة وبذلك سموا ولده آل محرق ثم ملك بعده أخوه النعمان الاصغر ثم
النعمان الثاني ثم جيلة وهو الذي حارب المنذر بن ماء السماء وكان ينزل بصقين ثم ملك بعده النعمان
الثالث ثم ملك أخوه الحرث ثم ابنه النعمان الرابع وهو الذي أصل صهاريج الرصافة وكان قد
خر بها بعض ملوك الحيرة النخمين ثم ملك بعده المنذر الثاني ثم ملك أخوه عمرو ثم أخوه حجر ثم ابنه
الحرث ثم ابنه جيلة الرابع ثم ابنه النعمان ويكنى بأبي كرب ثم الأيهم بن جيلة وهو صاحب تدمر وله
عدة مبان ثم بعده أخوه المنذر ثم أخوه شراحيل ثم أخوه عمرو ثم أخوه جيلة الخامس ثم جيلة
السادس بن الأيهم بن جيلة وهو آخر ملوك غسان وأسلم في خلافة عمر رضي الله عنه ثم تنصر كما
سند كره

(الفصل التاسع)

ملوك كنده

ومن مشاهير ملوك العرب أيضا كنده وهم من بني كهلان وكنده لقب لاحد آبائهم^(١) وكانت بلادهم
في شرقي اليمن ومدينة ملكهم تدعى دمون وكانت التبابعة يصاهر ونهم ويولونهم على بني معد بن

(١) وهو نور بن عفيق أبو يحيى من اليمن لانه كندأبأ النعمة أي كفر بها ولحق بأخواله اه

عدنان بالحجاز وأول ملوكهم يدعى حجر آكل المرار وكانت كندة قبل أن تغلب حجر عليهم بغير ملك فأكل القوى الضعيف حتى ملك حجر وكان تبع حين أقبل سائر إلى العراق استعمله عليهم فسدد أمورهم وساسهم أحسن سياسة وانتزع من اللخمين أرضهم وبقي وحده في مملكته مطاعا أحسن السيرة (٢٥٠٣)

وبعد ملك ابنه عمر ويقال له المقصور لانه اقتصر على ملك أبيه ثم ملك بعده ابنه الحرث وكان قوى الملك وافق كسرى بن فيروز على الزندقة والدخول في مذهب الجوس ويقال ان قباز طرد المنذر ابن ماء السماء اللخمي عن ملك الحيرة وملك الحرث المذكور ووضعه فعظم شأن الحرث فلما ملك أنوشروان أعاد المنذر وطرد الحرث المذكور فهرب وتبعته عدة قبائل فظفر بأمواله وبعض من بني حجر فقتلهم المنذر عن آخرهم وهرب الحرث إلى ديار كلب ومات بها وكان الحرث المذكور ملك ابنه حجر على بني أسد كما ملك باقي بنيه على قبائل العرب ثم إن حجر المذكور بقي أمره في بني أسد حتى تنكر وأعليه فقاتلهم وقهرهم ثم هجموا عليه بغتة وقتلوه غيلة بموضع يقال له دمون من أرض اليمن فلما بلغ امرؤ القيس الخبر حلف ان لا يقرب لذه حتى يدرك ثأره من بني أسد فاستجد ابنه المذكور الشاعر الطائر الصيت يكر وتغلب على بني أسد فأفجده وهربت بنو أسد منهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموعه خوفا من المنذر فسار إلى مؤثر الخير بن ذي جدن من ملوك جيزصر يحا بنصره بخمسمائة رجل من جيزر ويجمع من العرب سواهم وجمع المنذر لامرئ القيس ومن معه وأمه كسرى أنوشروان يجيش من الاساورة فأنهم من امرؤ القيس وفرت جيزر ومن كان معه ونجا بدمه وصار يدخل على قبائل العرب وينقل من قبيلة إلى أخرى حتى قصدا السموأل بن عادي فأكرمه وأزله وأقام عنده امرؤ القيس إلى ما شاء الله ثم سار امرؤ القيس إلى القيصر يوستينيا نوس ملك الروم بالقسطنطينية مستجدا وأودع دروعه عند السموأل وعند عودته خائباً من عند قيصر مات عند جبل يقال له عسيب وهو آخر ملوك كندة على ما يعلم ومن بني كندة بطون كثيرة كان منهم بالاندلس بنو صمادح وبنو ذي النون وبنو الافطس من ملوك الطوائف

ولمات امرؤ القيس سار الحرث بن أبي شمر الغساني إلى السموأل وطالبه بدروع امرئ القيس وماله عنده وكان امرؤ القيس لما تفرقت عنه جموعه التجأ إلى السموأل بقصره المسمى بالابلق وترك عنده مائة درع وأموالاً وترك أيضاً بنته حتى يرجع من عند قيصر فامتنع السموأل من تسليم ذلك إلى الحرث وكان بين تلك الدروع خمسة شهيرة مسماء كانت لبني آكل المرار يتوارثونها وكان الحرث قد أسرا بن السموأل فلما امتنع من تسليم ذلك إلى الحرث قال الحرث لا مأتى تسلم الدروع ولم اقتلت ابنك فقال السموأل لست أخفر ذمتي فاصنع ما شئت فذبح ابنه بمرأى منه فضرب به المثل في الوفاء لذلك

(الفصل العاشر)

ذكر عدة من ملوك العرب

منهم عمرو بن لحي بن حارثة من ولد كهلان بن سبأ كان ملكا على الحجاز كثيرا ذكر في الجاهلية واليه

تسب خراطة وهو أول من جعل الاصنام على الكعبة وأقام هبل أعظم أصنامهم وحمل العرب على عبادتها وطاقعتها

ومن ملوك العرب أيضا زهير بن جباب بن هبل الكلبى وكان يسمى الكاهن لصحة رأيه وكان مأمون النقيصة واجتمعت عليه قضاة فغزاهم غطفان لانهم بنوا حرام مثل حرم مكة فلما بلغ زهير ذلك قال لا والله لا يكون ذلك أبدا وأنا حى ثم نادى في قومه وأبلغهم ما بلغه وقال إن أعظم ما ثرة نذر هابين العرب أن تمنعهم من ذلك فأجابوه الى مراده وجرى بينهما قتال شديد نظر فيه زهير وأبطل حرمهم وأخذ أموالهم وكان زهير المذكووفدا اجتماع بارهة الاشرم الحبشى صاحب القيل فأكرمه وفضله على غيره من العرب وأمره على بكر وتغلب فاستمر أميراعليهم حتى خر جواعن طاعته فغزاهم وقتل فيهم وأسرو جوههم مثل كليب ومهلهل وغيرهما وأخذ الاموال والسبايا وعاد وله حروب يطول شرحها ولما أسن وثقلت همته وكف بصره استخلف على القوم ابن أخيه عبد الله بن حكيم وقال يوما ألا إن الحى ظاعن فقال عبد الله ألا إن الحى مقيم فقال زهير من هذا المخالف على فقالوا ابن أخيك فقال أعدى الناس للرا ابن أخيه ثم شرب الخمر صرفا حتى مات

ومن ملوك العرب أيضا كليب بن ربيعة بن الحرث بن وائل وكان ملكا على بني معدوقا تل جموع اليمن وهزمهم وعظم شأنه وبقى زمانا من الدهر ثم داخله زهو شديد وبقى على قومه فصار يمنعهم مواقع السحاب فلا يرى جماءه ويقول وحش أرض كذا من جوارى فلا يصاد ولا تردابل مع ابله ولا يوقد نار مع ناره وبقى كذلك حتى قتله حساس بن مرة فى حرب شهيرة تدعى حرب البسوس ولما كانت هذه الحرب من الحروب التى اشتهرت بين العرب أحببت ذكرها هنا مفصلة بقدر ما يحتملها المقام نقلا عن ثقات المؤرخين فأقول

البسوس امرأة من العرب ضربت المثل فى الشؤم فقتل أشأم من البسوس لانه بسبها نارت الحرب بين بكر وتغلب فسدات أربعين سنة حتى كادوا يفتنون بعضهم بعضا وسبها أن هذه المرأة كانت نازلة على حساس ابن أختها فنزل بهار جل يقال له سعد بن شهر بن طوق الجرمى وكان له ناقة اسمها سراب ترى مع ابل حساس وكان كليب قد حى أرضا بالعالية (وهى من جهات نجد) فلم يكن يسمح أن يرى فيها مع ابله غير ابل حساس لانه كان متزوجا بجديلة بنت مرة أخت حساس فخرج كليب يوما يتعهد الابن ومر اعيا ف رأى بها سراب فأنكرها فقال له حساس هذه ناقة جارنا الجرمى فقال لا تعد هذه الناقة الى هذا الحى فقال حساس لا ترى ابل مرعى الا وهذه معها فقال كليب لئن عادت لاضعن سنن سهي فى ضرعها فقال حساس لئن وضعت سهمك فى ضرعها لاضعن سنن رعى فى لبتك ثم تفرقا وخرج كليب أيضا الى الحى فرأى سراب فرماها فاصاب ضرعها فولت تعج حتى بركت بفناء صاحبها وضرعها يشخب لبنا ودما فلما رأى ما بها صرخ بالذل وسمعت البسوس صراخ جارها فخرجت اليه فلما رأت ما ناقته وضعت يدها على رأسها وصاحت واذلاه وكان حساس يسمع صياحها فسكها وسكت الجرمى وقال له - ما انى سأقتل جلا أعظم من هذه الناقة سأقتل غلا لا وقيل عليان وكان قتل ابل كليب لم يربى زمانه مثله وقيل انما أراد حساس بمقاتله كليب ابلغ كليب قوله فقال ما يتمنى حساس من عليان ودونه خرط القتاد فى الليلة الظلماء وقد ظن أنه يقتصر على قتل هذا الجمل

ثم أصابت القوم سماء فر وابتهر فارادجساس نزوله فامتنع كليب قصدا للمخالفة ثم مروا على مكان
 فارادجساس النزول فامتنع كليب أيضا ثم مروا بآخر فجرى الامر على ذلك حتى نزوا مكانا يقال له
 الذنائب وقد كانوا عموما وعطشوا فأغضب ذلك جساسا فجاء وقال لكليب أطردت أهلنا من المياه
 حتى كدت تقتلهم فقال كليب ما منعناهم من ماء الا ونحن له شاغلون فقال له هذا كفعلك بنا فاقه
 جار خالتي فقال له أؤذ كرتها أماني لو وجدت في غير ابل مرة لاستحلت تلك الابل فعطف عليه جساس
 وطعنه فالتاه مشرفا على الموت ثم أتم قتله فنارت بعد ذلك تلك الحروب الهائلة بسبب تلك الناقه
 حتى قالوا أيضا أشأم من سراب ثم قام أخوه مهلهل وجمع قبائل تغلب واقتتل مع بني بكر وجرى
 بينهم عدة وقائع مشهورة ومن ملوك العرب زهير بن جديمة وكانت له إناوة على هوازن بأخذها
 كل سنة في عكاظ أيام الموسم وكان يسوم هوازن الخسف فكان في قلوبهم منه عداوة ثم قتله

ومن ملوك العرب قيس بن زهير العبسي وله حروب وأيام مشهورة ويقال إنه بعد
 حروبه انفرد عن بني عيس وتاب وتنصر وساح في الارض حتى انتهى الى عمان فترهب بها زمانا ويقال
 إنه تزوج لما انفرد عن بني عيس وولده له ولدا اسمه فضالة بقي حتى قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وعقد له
 على من معه من قومه وللعب غير ذلك ملوك كثيرة لا حاجة لذكرهم لتشئت أخبارهم وتفرق أيامهم

(الفصل الحادى عشر)

ذكر علوم العرب وآدابهم

فاما علم العرب الذى كانوا يتفخرون به فعلم لسانهم وأحكام لغتهم ونظم الاشعار وتأليف الخطب
 وكانوا موسومين بين الامم بالبيان فى الكلام والفصاحة فى المنطق والذاقة فى اللسان وكان لهم مع هذا
 معرفة باوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بانواء الكواكب وأمطارها حسب ما أدركوه بفرط العناية
 وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لاعلى طريق تعلم الحقائق وكان الشعر
 ديوان خاصة العرب ومنتهى حكمتها والمنظوم من كلامها والمقيد لا يامها والشاهد على حكمها
 به يأخذون واليه يصيرون وكانوا لا يهتدون الا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنبج
 قال الصنفدى ما كان للعرب ما تفخر به الا السيف والضيف والبلاغة وكانوا كل حول
 يتقاطرون على سوق عكاظ (١) ويتبايعون ويتناشدون ويتعاكظون ولقد بلغ كلف العرب

(١) عكاظ قرية بالصعراء بين النخلة والطائف على ثلاث مراحل من مكة المشرفة وكان فيها سوق أسبوعية يوم الاحد
 وسوق سنوية كانت تقوم هلال ذى القعدة ويستمر مومته عشرين يوما يتجمع فيها قبائل العرب فباعتها كظنون أى
 يتفخرون ويتناشدون وكان من فوائدها أن العرب يتعارفون فيها ويتحاورون وكانت فرسان العرب اذا كان أيام عكاظ
 فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا يتقنعون حتى لا يعرفوا وان كانت هذه السوق يدعون فيها ويشترون الا أن
 الغرض الحقيقى منها اجتماع غول الشعراء والقصاص والبلغاء من أهل العربية لابتداء نتائج أفكارهم وانظها وحاسن
 فصاحتهم وبلاغتهم وأول ما يبرز الشاعر فى الميدان يظهر الشجاعة والحماس ويتمائى قبل أن ينشد الشعر شبيهة
 التيه والاعجاب وليس عليه من الملابس ما يبدل على شعار مرتبة ولادنا شرف ولا يجد بين قومه فسلا تكاد تنقل تشخص
 اليه أبصار الحاضرين وتحشد به الاعين وتأمل فى مشيته حتى يصعد الى محل الخطابة فينشد بصوت جهورى

بالشعر وتفضيلهم له الى أن عمدت الى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبت بها ماء الذهب في القبايطي
 المدرجة فقيل لها مذهبيات ويقال لها معلقة لانها علفت في أستانر الكعبة أما الكتابة فمكروا أن
 ثلاثة نفر من طي كانوا على دين عيسى فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية
 فتعلمه قوم من الانبار وجاء الاسلام وليس أحديهم كتب بالعربية غير بضعة عشر انسانا ولقبة
 القرطاس عندهم عدوا الى كتف الجمون فكتبوا عليها وكان الناس فرقين أهل كتاب والاميين
 والاميين من كان لا يعرف بالكتابة فكانت اليهود والنصارى بالمدينة والاميون بمكة
 أما من جهة الملاحاة فلم يقف لهم في ذلك العهد على أخبار قومية يعتد بها بل غاية ما نعرفه انه
 كان لبعض القبائل منهم عدة سفائر اتخذوها على منال ما عند مجاورهم من الامم المتعدنة فكان لهم
 منها التعاطي التجارة بين بلادهم وسواحل افر بقة وجهات الهند ثم توسعوا في الملاحاة قليلا حتى
 بلغوا زنجبار وجزائر القمر وما بعد من شواطئ الهند وبذلك انتشرت بعض عوائدهم وتوطن منهم
 نفر في بعض الجهات حتى كثرت لهم وامتن نفوذهم

الباب التاسع

(الفصول الاول)

دول العرب بعد ظهور الدين الاسلامي

لما ولد سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وترعرع حفظه الله من رجس الجاهلية فشب على
 حميد الخصال وممدوح الفعال حتى بدت عليه مظاهر النبوة ودلائل الرسالة وهو في سن الحلم يعلم
 ذلك من طالع سيرته الشريفة ووقف على أخلاقه المنيفة صلوات الله عليه وسلامه
 ولما بلغ سن الاربعين بعثه الله سبحانه وتعالى رسولا ونبيانا جنابا بشر بعته المطهرة شرائع
 الماضين من الانبياء عليهم السلام فأخذ صلى الله عليه وسلم يدعو العرب اولاً الى الاسلام وعبادة خالق
 الانام وترك الضلال والاخذ بحميد الخصال وكانت العرب اذئذ لا تعبد الا صنم ولا تعرف الحلال
 من الحرام يصرفون أوقاتهم بالغارات ويحاربون بعضهم بعضا على أقل الهفوات فسق عليهم
 الامر واستعظموه وتجهروا عليه وآذوه فأوحى الله اليه بترك مكة والهجرة الى المدينة فهاجر
 اليها في السنة الحادية عشرة من البعثة (١٦ يولييه سنة ٦٢٢ م) وهذه الحادثة هي مبدأ
 التاريخ عندنا معاشرا الاسلام وكانت ولادته عليه الصلاة والسلام عام الفيل ١٢ ربيع الاول

قصيدته بتماها بدون أن يقطعها عليه أحد فتارة تكون مرجلة على البدنية وتارة يكون قد نظمها بالروية قبل ذلك
 وهما ما ينشد في المجمع ولكن الغالب على قول الشعراء أنهم كانوا يتولون الشعر بدون روية فأتوا فيه بما لا يقدر
 غيرهم على الاتيان به في حول كامل ومنهم من كان بخلاف ذلك ومثل عكاظ في ذلك سوق ذي المجاز خلف جبل عرفات
 وسوق بجنة وغيرها وكانت هذه الاسواق بسيطة مجردة عن الزينة والزخرفة لكنها هبة محترمة يزدحم فيها
 الشعراء من جميع جهات بلاد العرب ويقوم الشاعر وأز باب المجلس يعود فينشدا الاشعار من قريضه وهم
 يصغون الى سماعها منه ويحرمون على التقاطها من فمه بمجرد انطق بها وكانت العرب اذا أتت في الموسم يصحون
 سلاحهم عند أهل السدانة من قريش قبل الدخول في السوق ومن لم يضع سلاحه عندهم عرض نفسه للقتل اه

سنة احدى وخمسين قبل الهجرة (دمبر سنة ٥٧١ م) وقد اتشردن الاسلام بقسم عظيم من بلاد العرب وتسامعت به العرب فأقبلت على اعتناقه لخصه على الفضائل وطغنه في الرذائل الا أن بعض المتعصين للوثنية قاوموه أشد المقاومة فحصلت بينهم الغزوات المشهورة التي من أعظمها بدر الكسبرى وغزوة بنى قينقاع وأحدو بنى النضير وذات الرقاع وبدر الثانية والاحزاب وقرينة وبنى المصطلق وخيبر وكان النصر في جميعها للاسلام

وفي السنة العاشرة للهجرة حج النبي عليه الصلاة والسلام حجة الوداع وعلم الناس مناسك الحج والسنن ونزل قوله تعالى (اليوم يكفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) فبكى أبو بكر رضى الله عنه لما سمعها فكأنها ستشعر أنه ليس بعد الكمال الا الله صان وانه قد نعت الى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس خطبة بين فيها الاحكام منها

يا أيها الناس إنما النسي زيادة في الكفر فان الزمان استدار كهيئة يوم خلق الله سبحانه وقمالي السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا وتتم حجه وسميت حجة الوداع لانه لم يحج بعدها ثم وعدك ومرض صلى الله عليه وسلم ولما تزايد به المرض أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ثم توفي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر وكان عمره ثلاثا وستين سنة ودفن بالمدينة في حجرته صلى الله عليه وسلم حيث قبض وكان دفنه صلى الله عليه وسلم على الاصح ليلة الاربعاء وبنى ثلاثا ليدفن وكل أولاده عليه الصلاة والسلام من خديجة الابراهيم فانه من مارية القبطية وأولاده المذكور من خديجة القاسم وبه كان يكنى والطيب والطاهر وعبدالله ما توأصغارا والاناث أربع فاطمة وزوج على وزينب وزوج أبي العاص ورقية وأم كلثوم تزوجهم ما عثمان رضى الله عنه واحدة بعد أخرى وتزوج صلى الله عليه وسلم خمس عشرة امرأة وتوفى عن تسع غير مارية القبطية سريته

قال ابن خلدون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نُس من اسلام قومه في أول الامر يعرض نفسه على وفود العرب ويحاجهم أيام الموسم أن يقوموا بدين الاسلام وينصروه حتى يبلغ ما جاء به من عند الله وقريش يصدونهم عنه ويرونه بالحنون والشعر والسحر كما نطق به القرآن العظيم وينماهم في بعض المواسم عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج فقال لهم من أنتم قالوا نفر من الخزرج قال أمن موالى يهود قالوا نعم قال ألا تجلسون أكلكم فجلسوا معه فدعاهم الى الله وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن فقال بعضهم لبعض تعلموا والله انه النسي الذي تعدكم به وبدبه فلا يسبب تنكم اليه أحد فاجابوه لم دعاهم وصدقوه وآمنوا به وأرجؤا الامر في نصرته الى لقاء قومهم وقدسوا المدينة فذكر والقومهم شأن النبي عليه الصلاة والسلام ودعوهم الى الاسلام ففسق فيهم فلم تبق دار من دور الانصار الا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثم وفي الموسم في العام المقبل اثنا عشر منهم فوافوه بالعقبة الاولى فبايعوه على الاسلام ببيعة النساء وذلك قبل أن يفترض الحرب ومعناه انه حينئذ لم يؤمر بالجهاد وكانت البيعة على الاسلام فقط كما وقع في بيعة النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يبرقن ولا يرتين ولا يقتلن أولادهن الا بية وقال لهم فان وفيتم فلكم الجنة وان غشيتم من ذلك شيئاً فأؤخذتم بحمد في الدنيا فهو كفارة

له وان سترتم عليه في الدين الى يوم القيامة فأمركم الى الله سبحانه وتعالى ان شاء عذب وان شاء غفر
 وبعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويقفهم في الدين فكان
 يصلي بهم وكان منزله على أسعد بن زرارعة وغلب الاسلام في الخزرج وشافهم وبلغ المسلمون من
 أهل يثرب ٤٠ رجلا ثم أسلم بعض الاوس وأوعب الاسلام بنى عبد الاشهل وأخذ من كل
 بطن من الاوس ثم رجع مصعب الى مكة وقدم المسلمون من أهل المدينة معه فوعدوا رسول الله
 صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشرية فبايعوه وكانوا ثلثمائة وسبعين رجلا وامرأتين
 بايعوه على الاسلام وان يمنعوه عن أراده بسوء ولو كان دون ذلك القتل وأخذ عليهم النقباء اثني
 عشر تسعة من الخزرج وثلاثة من الاوس

ولما علمت قريش بذلك خرجوا في طلب القوم ولم يكتفهم الله مما أرادوا ثم كانت بيعة الحرب
 لما قدم المسلمون المدينة فبايعوه على السمع والطاعة بالعسر واليسر والمنشط والمكره وأثرته عليهم
 وأن لا يتزعوا الامر أهله وأن يقوموا بالحق أينما كانوا ولا يخافون في الله لومة لائم ولما تمت بيعة
 العقبة وأذن الله لنبيه في الحرب أمر المهاجرين الذين كانوا يؤذون بمكة أن يلحقوا باخوانهم من الانصار
 بالمدينة فخرجوا أرسالا وأقام هو بمكة ينتظر الاذن في الهجرة فهاجر من المسلمين كثير وكان عمر بن
 الخطاب فيمن هاجر هو وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعثمان بن عفان ثم أذن لرسول
 الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فهاجر وصحبه أبو بكر ثم نال حق به المهاجرون واستوعب
 الاسلام سائر الاوس والخزرج وسموا الانصار يومئذ بانصره من دينه وخطبهم النبي عليه الصلاة
 وأتم السلام وذكروهم وكتب بين المهاجرين والانصار كتابا وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على
 دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم ثم كانت الحرب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين
 قومه فغزاهم وغزوه ثم كان الظهور والتظفر له كما تقدم وصبر الانصار في المواطن واستشهد من
 أشرافهم ورجالهم كثير هكذا كوفي سبيل الله

ولما فتحت مكة سنة ثمان من الهجرة ظهر أمر الاسلام وعظمت سطوته ولما قسم رسول الله
 صلى الله عليه وسلم الغنائم بعد فتح مكة وغزوة حنين فحين كان يستألفه على الاسلام من قريش
 وسواهم وجد الانصار في أنفسهم وقالوا سيوفنا تطرم من دمائهم وغنائمنا تقسم فيهم مع أنهم كانوا
 ظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فتح بلاده وجع على الدين قومه أنه سيقم بارضه وله غنية
 عنهم وسمعوا ذلك من بعض المنافقين وبلغ ذلك كله رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم وقال
 يا معشر الانصار ما الذي بلغكم عنى فصدقوه الحديث (فقال ألم تكونوا ضللا فهداكم الله بنى وعالة
 فأغناكم الله ومتفرقين فجمعكم الله فقالوا والله ورسوله آمن فقال لو شئتم لقلتم جئنا نطربا فإنا
 ومكذبا فصدقتك ولكن والله انى لا عطى رجلا استألفهم على الدين وغيرهم أحب الى الآرضون
 أن يتقلب الناس بالشاه والبعير وتتقلبون برسول الله صلى الله عليه وسلم الى رجالكم أما والذي نفسى
 بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار الناس دنار وأنتم شعاع ولوسلك الناس شعبا وسلكت
 الانصار شعبا لسلكت شعبا الانصار) فخرجوا بذلك ورجعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم الى
 يثرب فلم يزل بين أظهرهم الى أن قبضه الله سبحانه وتعالى اليه

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمره الله سبحانه وتعالى بالدعوة العامة كتب الى الاقبال

والمولوك يدعوهم الى الاسلام وذلك في سنة سبع من الهجرة فأرسل الى كسرى (١) پرويز بن هرمز
عبدالله بن حذافة ففرق كسرى كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وقال يكاتبني بهذا وهو عبيدي ولما بلغ
النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال عزق الله ملكه فاستجاب الله منه وأسلم باذان عامل كسرى على
اليمن وأسلم معه أناس كثير من فارس وأرسل دحية بن خليفة الكلبي الى هرقل ملك الروم فأكرم
هرقل دحية ووضع كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مخدة ورد دحية ردا جسيلا وأرسل
حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس صاحب مصر المسمى جوريج بن متى فأكرم حاطبا وأهدى الى
النبي صلى الله عليه وسلم هدية وأرسل عمرو بن أمية الى النجاشي ملك الحبشة وأسلم على يد جعفر
ابن أبي طالب حين كان عنده في الهجرة وأرسل غيرهم الى ملوك العرب يجيزونهم ففهم من أطاع
وممنهم من عصى فأخذهم الله أخذًا وويلًا

(الفصل الثاني)

دولة الخلفاء الراشدين

١١ - ٤٠ هـ

أبو بكر الصديق رضي الله عنه (١١ - ١٣ هـ) لما انتقل نبينا محمد صلى الله عليه
وسلم الى الدار الآخرة تفقت كلمة المسلمين على مبايعة أبي بكر الصديق وكان النبي لما اشتد به
المرض أمره بالصلاة بالناس والصلاة عماد الدين كالأختفي فتمت له البيعة سنة ١١ هـ وهو من
سادات قريش وأشرفها وفي مبدأ خلافته ارتدت عدة قبائل من العرب عن الاسلام وتوقف بعضها

(١) صورة المکتوب الذي أرسله عليه السلام الى كسرى بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى
عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وأمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده
ورسوله أدعوك فاني رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا ويحيى القوم على الكافرين أسلم تسلم وان توليت
فعليت اتم المجوس والسلام

وصورة ما كتبه الى الملك الروم هذا كونه عند الكلام على هرقل فلتراجع
وكتب الى المقوقس يقول

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبده ورسوله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني أدعوك
بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتلك الله أجره مرتين فان توليت فعملت اتم القبط بأهل السكك تعالوا الى كلمة سواء
بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان قولوا قولا شريفا وانا
مسلمون - فكتب اليه المقوقس بسم الله الرحمن الرحيم محمد عبده من المقوقس عظيم القبط أما بعد فقد
قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعوا اليه وقد علمت ان نبي اتي وكفت أظن ان يخرج من الشام وقد أكرمت
رسولك وبعثت لك بجزارتين هما مكان من القبط عظيم وبكسوة وأهديت لك بغلة لتركبها والسلام

وكتب الى النجاشي بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشي الاضخم ملك الحبشة سلام عليك فاني
أحمد اليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة
الحصينة فحملت بعيسى عليه السلام فخلقه من روحه ونفخه واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاتة على
طاعته وان تتبني وتؤمن بي وبالذي جاءني فاني رسول الله وقد بعثت اليكم ابن عمي جعفر اومعه نفر من المسلمين فاذا جاؤك
فأقرهم ودع البحر فاني أدعوك ووجدوك الى الله وقد بلغت وصحبت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى اه
منشأته يكون بك

عن دفع الزكاة فاهتم أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه بما تلتمهم وأنفذ لذلك الجيوش يقودها كبار الصحابة وأبطال المجاهدين فانتصر عليهم ثم بعد أن بدت مثل جيوشهم ومن الحوادث التاريخية المهمة ادعاء قوم ببلاد العرب النبوة وكان يتزايد شهرهم في خلافة أبي بكر بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وهم الاسود العنسي واهمه عبيد بن كعب ويقال له ذوالخمار وكان استولى على اليمن واستفعل أمرهم فاقتمله المسلمون بمالاً زوجه بصنعاء قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم يوم ولده ودام أمره أربعة شهور ومنهم مسيلمة الكذاب ادعى النبوة أيضاً ببلاد اليمامة وكان يؤذن له ويشهد له بالرسالة وكان يسبغ لقومه اسجاجاير عم انها قرآن يأتيه وكان في أول أمره ادعى النبوة استقلالاً ثم شاركه مع النبي عليه الصلاة والسلام فبعث إليه أبو بكر الجيوش تحت قيادة خالد بن الوليد واستقرت الحرب بينهما بجبال ثم تغلب المسلمون وظفر واسيلمة فقتلوه ومنهم سجاح بنت الحرث ادعت النبوة في بني تميم وتغلب وبني ربيعة ولما كانت ضعيفة قليلة الاتباع لم يهتم أبو بكر بأمرها بل التفات لها هو وأهم من ذلك في إعلاء كلمة الدين بتوسيع نطاق الاسلام فكتب الى خالد بن الوليد بالزحف على العراق فسار اليها وافتتح الحيرة صلحاً سنة (١٢ هـ) فكانت أول مكان افتتح من العراق وكان أبو بكر وجه قبيل ذلك أباعبيدة بن الجراح في زهاء عشرين ألف مقاتل الى الشام ولما بلغ هرقل ملك الروم دخول العرب بلاد الشام ووجه الجيوش لمقاتلتهم وكتب أبو بكر الى خالد بن الوليد بعد فتح الحيرة بأمر بالمسير لتجدة أبي عبيدة وحصل بين المسلمين والروم عدة وقائع أشهرها واقعة أجنادين واليرموك سنة (١٣ هـ) وكاتاسيبا في فتوح بلاد الشام ثم فتح المسلمون بصرى (١) وكانت قوية منسعة وفي تلك الاثناء توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه في جمادى الثانية سنة (١٣ هـ) وعمره ٦٣ سنة

ومن أعماله رضي الله عنه أيضاً أنه أمر بجمع القرآن من أفواه الرجال وجر يد النخل والجلود وترك ذلك المكتوب عند حفصة بنت عمر زوج النبي عليه الصلاة والسلام وذلك لما رأى كثرة من قتل من المسلمين في حرب مسيلمة من القراء والمهاجرين والانصار

عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣ - ٢٣ هـ) بويع بالخلافة يوم مات أبو بكر الصديق وأول خطبة خطبها على الناس قال أيها الناس والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ولا أضعف من القوى حتى آخذ الحق منه وكان جيش المسلمين لما تولى الخلافة يحاصر دمشق وعزل خالد بن الوليد عن إمرة الجيش وولى مكانه أباعبيدة لخوفه افتتان الناس بخالد

(١) ويسمى الانزاله اسكن شامه قصبة كورة حوران بسور بالجنوب الشرقى من دمشق واقعة في بسط من الارض وقد كانت من أجل المدن واعظها محيط أسوارها أربعة أميال وكان لها رباتين وعمارات وقوى بها أسواق والمخوفون حارة واسعة وفي جنوبها قلعة منسعة وفيها آثار مريض بديع وكثير من المساجد والمعابد القديمة وأسوارها الآن وأبنيتها خرابه فيها نحو ستين بيتاً للمسلمين وجامعاً من آثارها القديمة بيت ينسب الى الراهب بحرا وأثره يكل للارواح متقن البناء وكانت قلعتهما من أعظم معاقل الشام ومنعها وكان لهذه المدينة شهرة عظيمة في أيام الملوك المقدونيين وملوك الرومان وافتتحها الاسكندر ثم تغلب عليها ملوك سوريا ثم الرومان وهموها طر أبو بصرى وكانت مقاما لجنودهم مدناً اسكندر شهره وسورها والاميراطور زفيلس العربى وحازت أهمية كبيرة منذ قسطنطين الكبير وزادت عمارتها منذ دولة تدمر افتتحها العرب سنة ١٣ هـ من صاحبها رومانوس صلحا بعد أن اقتحموا المدينة ولهذه المدينة ذكر في أخبار الحروب الصليبية وذكر ما تورق كتب العرب وأشعارهم اه

وكتب اليه ما بذلك بالسبب الحامل له على ذلك (١) ولما فتحت دمشق بعد حصارها سبعة أشهر اضطرت أحوال دولة الروم جسدوا واستولى القلق على هرقل فصار ينزح أمام المسلمين حتى خرج من الشام فاصدا القسطنطينية ويقال انه التفت الى الشام وقال السلام عليك يا سوريا السلام لاجتماع بعده ثم فتحت بعليكم وحلب (٢) وانطاكية (٣) والقدس وطال حصاره وامتنع على المسلمين امره وطلب نائب هرقل به وكان يدعى صفرونيوس من أبي عبيدة أن يصالحهم على صلح أهل

(١) وهذه صورة كتابه الى أبي عبيدة عامر بن الجراح بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد وليتكم أمور المؤمنين فلا تستحي من الله لا يستحي من الحق وانني أوصيتك بتقوى الله العظيم الذي لا يقضى ويقضى سواء الذي استخرجك من الكفر الى الايمان ومن الضلالة الى الهدى وقد وليتك على جند خالد فاقبض الجيش منه ولا تنفذ المسلمين الى الهلاك رجاء غنمة ولا تبع سرية الى جمع كثير ولا تغفل في أرجولكم النصر والياكم والتغريرو والقاء المسلمين الى المهلكة وأنغض عن الدنيا عينيك وانه عنها قبلت وياك ان تهلك كما أهلكت من كان قبلك فقد درأت مصارعهم واختبرت سرائرهم وبيئتك وبين الآخرة بيت كالحمام وقد تقدم اليه سلفك فتنتظر سيرا أو سفراطو بلان دار قد مضت نضارتها وذهبت منها زهارتها فأحرم الناس الخارج الى غيرها واتق الله في سرك ونجواك وتفكر في زاد التقوى وراع المسلمين ما استطعت وأما الخنظة والشعير التي وجدتها في دمشق وكثرت من أجزائكم عليها فهزم للمسلمين وأما الذهب والقضية ففقهها الخمس والسلام اه

(٢) لما نزل أبو عبيدة وخالد بن الوليد مدينة حلب من أعمال قنسرين كان بها جمع عظيم من الروم فخرى بينهم قتال شديد انتصر فيه المسلمون ثم بعد ذلك طلب أهلها الصلح فأجابهم أبو عبيدة الى ذلك غير ان قلعتها امتنعت عليه وبها جمع من الروم كثير فلما أعبأ أمرها المسلمين كتب أبو عبيدة الى عمر القاروقى رضي الله عنه يستأذنه في ترك قلعة حلب والانصراف الى الجهات التي لم تقع بعد فورد له منه الكتاب الآتي وهو

بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلى على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد فقد ورد كتابك على مع رسلك فسر في ما سمعت من الفتح وعلت من قتل من الشهداء وأماما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب الى النواحي التي قربت من انطاكية فهاذا بشي الرأي أنت ترك رجلا ملكك ديار ومدينته ثم رحل عنه وتسمع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه فتاهذا رأى فيضعف رأيك ويعلوه كره بما صنع ويطمع من لم يطمع فترجع اليك الجيوش وتكتب ملوكها اليك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فبت الجبل في السهل والسعة واكفها في المضائق والجبال ومن المعدات الى حد الدر وبمن صالحك منهم فاقبل صلحه ومن سالك فساله والله خليفك عليك وعلى جميع المسلمين وقد أنقذت اليك كتابي هذا ومع أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ورسوله ورفق في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموالي رجال وفرنسان والمدد بآتيك متواليان شاء الله تعالى اه

(٣) ولما فتح انطاكية بعث الى الخليفة يعلمه بذلك وانه لم يرد الاقامة بانطاكية لطيب هواها مخافة أن يخلد العسكر الى الراحة فورد اليه منه الكتاب الآتي وهو

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلى على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واشكر مليا على ما وهب من النصر للمسلمين وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل معينا لطيفا وأما قولك انك لم تقم بانطاكية لطيب هواها فانه عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات فقال تعالى في كتابه العزيز يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم وكان يجب عليك ان ترجع المسلمين من تعهم وتدعهم برغدون في مطعمهم ويرميون الابدان النصبية في قتال من كفر بالله وأما قولك انك تنظر أمرى الذي أمرت به أن تدخل الدر وبخلف العدو فأت الشاهدوا نا الغائب والشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت بحضرة عدوك وعمونك بأنوك بالاخبار فان رأيت الدخول الى الدر وبصوابا فبعث اليهم سرايا ودخل معهم بلادهم وضيع عليهم مسالكهم وان طلبوا منك الصلح فصالحهم وأما قولك

دمشق بشرط أن يكون الخليفة عمر بن الخطاب متوليا أمر الصلح فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك فقدم وفتحها واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وفتحت جميع مدن فلسطين وكذلك مصر وغيرها سنة ١٦ هـ

ومن الفتوحات التي تمت في خلافة عمر رضي الله عنه فتح بلاد الفرس فبدأ بالعراق أولا لأنه لما ولي الأمر لم يكن له هم إلا العراق فعد لابن عبيد بن مسعود على زهاء ألف رجل وأمره بالمسير إلى العراق فالتقى مع الأعاجم ثم حارب العرب حربه رجل واحد فانهزم العجم لاحقين بالمدائن وقتل مهران قائدهم في الواقعة ثم انعموا به سعد بن أبي وقاص على بلاد الفرس وكانت له بها وقائع عظيمة وأعمال جسيمة وما زالوا ينقدمون ويفتخون بالبلدان والحصون حتى تم لهم فتح بلاد العجم وازالة ملكها وكانت الاموال والغنائم والانبية الذهبية والفضية التي غنمها المسلمون من تلك البلاد خصوصا من دار ملكهم السامرة عند العرب بالمدائن وعند الفرس نجاكتين يفون تفوق حد الوصف وكان كسرى يزجر دملك الفرس في ذلك الوقت بساط طوله ٦٠ ذراعا في ٦٠ ذراعا وكان على هيئة روضة قد صورت فيه الزهور بالجواهر على قضبان الذهب ولما قطع عمر هذا الساط وقسمه بين المسلمين أصاب على بن أبي طالب منه قطعة باعها بعشرين ألف درهم فعلى هذا تبلغ قيمة هذا الساط الملايين من الدراهم أما يزجر دملك الفرس فما زال يتقهقر أمام الاسلام من مكان إلى مكان بعد أن استغاث بالبين والصغد وغيرها مما تم التجأ أخيرا إلى ملك الترك بفرغانة فاقام هناك مع حاشيته زمن عمر كله ثم مات أما ما بقي من عسكره فأنهم صالحوا المسلمين وبعد فتح سوريا حدث بجيش المسلمين طاعون شديد اشتهر بطاعون عواس وهي قرية كان أول ظهور الطاعون بها ومات به أبو عبيدة بن الجراح واستخلف على الجيش معاذ بن جبل الانصاري مات أيضا بالطاعون واستخلف عمرو بن العاص ومات من المسلمين في هذا الطاعون ٢٥ ألف نفس فضعف أمرهم وطمع فيهم العدو ولما ارتفع الوبا سارعوا إلى الشام فقسم مواريت الذين مالوا بالطاعون ثم رجع إلى المدينة

(فتح بلاد مصر ١٨ - ٢٠ هـ)

لما قدم عمر بن الخطاب في تلك السنة لقسمة المواريت اختلى به عمرو بن العاص وقال له ائذن لي أن أسير إلى مصر وقال له ان فتحناها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهي أكثر الارض أموالا وأعجزهم عن القتال والحرب فتخوف عمر بن الخطاب من ذلك وقال هذا تغرير بالمسلمين لان قدمهم لم ترسخ بعد في البلاد التي فتحوها حديثا وكانت جيوشهم موزعة في أنحاء سوريا والعراقين وبلاد الفرس وأرمينيا وغيرها وقد مات منهم بالطاعون عدد عظيم وما زال عمرو بن العاص يحرضه على فتح مصر ويعظم أمرها لديه ويهون فتحها عليه حتى ركن إلى قوله وأذن له في المسير ويقال ان عمرو بن العاص كان ذهب إلى مصر في الجاهلية وعرف موقعا وبلادها وقوة أهلها ولما استوثق عمر بن الخطاب رضي الله عنه

إن العرب أبصرت نساء الروم فزادوا التزويج فمن أراد ذلك فدعه ان لم يكن له في الجواز أهل ومن اراد ان يشتري الاماء فدعه وذلك أصون لفروجهم والسلام عليك وعلى جميع من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته اهـ منشآت السلاطين اقر يدون بك

من قوله عمده على أربعة آلاف رجل كلهم من قبيلة عك وقال لهر وأنا مستخيرا لله في سيرك
وسياتيك كتابي سريعا ان شاء الله تعالى فان أدركك كتابي أمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن
تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن
بالله واستنصره فسار عمرو بن العاص في جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس

ثم إن عمرو بن الخطاب استخار الله سبحانه وتعالى فكأنه يخوف على المسلمين فكتب الى عمرو بن
العاص أن ينصرف عن مصر من المسلمين فأدرك الكتاب عمرو وهو بقرية يقال لها رفح^(١) ففتخوف عمرو
ابن العاص ان هو أخذ الكتاب وفتحته يجذبه الانصراف كما عهد اليه عمرو فلم يأخذ الكتاب من
الرسول وصار يدافعه حتى نزل العريش فسأل عثم وعنه أي أرض تكون قبيل له لمنهم من مصر
فدعا بالرسول وقرأ الكتاب على المسلمين ثم قال هي ائمة اطاعة لامر أمير المؤمنين وما زالوا يجدون في السير
حتى بلغوا القراما^(٢) وكانت معقلا حصينا على حدود مصر فقاتل الروم بها قتالا شديدا نحو ما من شهر
ثم فتح الله عليه ثم تقدموا وكافوا الايداعون الابالمر الخفيف حتى أتوا بلبليس وكانت حصينة
فافتحوها بعد قتال شديد وكان بهم البنة المقوقس وهو نائب الروم على مصر السفلى ولما قبض المسلمون
عليها أرسلها عمرو الى أبيها عزرة مكرمة فوقع له بذلك أحسن موقع وكتب عمرو بن العاص الى عمرو
يخبره بالفتح ويطلب منه المدد فأمد به أربعة آلاف رجل فسار عمرو بن العاص الى حصن قوى
على شاطئ النيل من الضفة الشرقية يقال له بابل أو بابلون شيده القرس قديما وقت استيلائهم على
مصر وهذا الحصن كان أمام مدينة منفيس أو منف التي على الضفة الغربية وكانت مقر المقوقس
وأخذ عمرو في مقاتلة الروم قتالا شديدا يصحهم ويسبهم فلما أبطأ عليه الفتح كتب الى عمرو بن الخطاب
بستمدد فأمد به أربعة آلاف رجل على كل ألف رجل وكتب اليه اني قد أمددتك بأربعة آلاف
رجل على كل ألف منهم رجل مقام ألف وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت
ومسلمة بن مخلد واعلم أنه صار معك اثنا عشر ألفا ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة اه وكان الروم
قد خندقوا عليهم وألقوا بالخنادق حسك الحديد ولما امتنع الحصن على المسلمين لئنه وتيقظ الروم
قال الزبير اني أهبط نفسي لله سبحانه وتعالى وأرجو ان يفتح علي فوضع مسلما الى جانب الحصن وصعد

(١) مدينة قديمة حصينة على تخوم سور يوم مصر الى جنوبي غزة انصر فيها بطليموس الرابع على انطوخوس
الكبير (٢١٧ ق م) وأخذ منه فلسطين وأرض البقاع قبل ياقوت ففتح منزل في طريق مصر بعد الدارم وبينه وبين
عسقلان يومان لتقاصد مصر وهو أول الرمل خرب الآن تنسب اليه الكلاب وقال المهلب بعد ان ذكره فتح وانها
عامر ان كلابهم اضر كلاب الارض بسرعة ما يسرق مثله الكلاب ومن رفع الى غزة ١٨ ميلا اه

(٢) قال في تقويم البلدان انها بلدة على شاطئ بحر الروم خراب وهي بالقرب من قطية على بعد يومين من حوطل
وبها قبر جالينوس وعن ابن سعد ان القرما يقرب بحر الروم من بحر العزم حتى يبقى بينهما نحو سبعين ميلا ويقال انها
قريبة من ام السعدي بن ابراهيم عليهما السلام قال المقريزي وكانت القرما على شط بحيرة تنيس وكانت مدينة حصينة
وبها قبر جالينوس الحكيم بن المتوكل على الله حصنا (٢٣٩ هـ) وقال غيري بذلك كراهل بمصر انه كان منها
طريق الى جزيرة قبرص في البرف قلب عليه البحر ويقولون انه كان فيما غلب عليه البحر المقطع الرخام الابلق وفي سنة
٥٠٩ هـ وصل وفد من اليعاقبة القرما فبيرا اليه الافضل بن أمير الجيوش العساكر فلما علم بتواصلها وتحقق
عدم إمكان الاقامة أمر أصحابه بالنهب والتخريب والاحراق وهدم المساجد فخرق مساجدها وجميع البلدون وعودته
مات في الطريق وأخرا مراهنة خرب الاميرشاو والمخرج منها تولىها أخوضر عام فاستمرت خرابا لم تهر بعد اه

عليه وتبعه كثير من العسكر حتى كاد السلم ينكسر ولم يكن الروم يعلمون بشئ من ذلك فلم يشعروا الا وقد دهمهم العرب فاخذوا في الفرار وعاد الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه وافتتح المسلمون الحصن فخاف المقوقس على نفسه فهرب هو وجماعة من أكبر القبط لمارأوا حرص المسلمين على فتح الحصن ولحقوا بجزيرة وسط النيل وأمروا بقطع الجسر الذي يوصل بينها وبين الحصن وكان مصنوعا من سفن متلاصقة بجانب بعضها ولم يتركوا في الحصن غير الحامية ومعهم بعض السفن راسية في النيل يتخبرون به مع المقوقس أو يهربون بها اذا استولى العرب على الحصن وكان مكث المسلمين على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر

ولما استولى المسلمون على الحصن أرسل المقوقس الى عمرو بن العاص يوبخه على فعله ويخوفه من جيوش الروم وان النيل قد أحاط بهم فاصبحوا أسرا في أيديهم وطلب منه أن يرسل اليه قوما من عنده لتقرير أمر الصلح فرد عمرو بن العاص رسل المقوقس ردا جميلا وأرسل معهم من يتكلم في أمر الصلح وكانت طلبات عمرو وتخصر في ثلاثة شروط وهي إما الدخول في الاسلام فيكونوا للمسلمين اخوانا ويكون لهم مالهم وعليلهم ما عليهم وان أبو الفخز يته والاقبال حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين

فلما جاءت رسل المقوقس اليه قال كيف رأيتموهم قالوا رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة والتواضع أحب اليهم من الرفعة ليس لاحدهم رغبة في الدنيا ولا نعمة وانما جلوسهم على الارض وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضعهم ولا الخرفيع من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنهم منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون في صلاتهم فقال عند ذلك المقوقس لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم اذا أمكنتهم الارض وقدرنا على الخروج من موضعهم

ثم بعد أن شاؤا رسل المقوقس أصحابه طويلا ونظروا في الأمر مليا لم يجدوا لهم وسيلة أحسن من طلب الصلح ودفع الجزية وأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول اني لم أزل حريصا على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت الي بها فأبى ذلك من حضرة من الروم والقبط فلم يكن لي أن أفنات عليهم وقد عرفوا نصحى لهم وحبى صلاحهم ورجعوا الى قولي فأعطني أمانا أجمع أنا وأنت في نفر من أصحابي ونفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا تم ذلك لنا جميعا وان أبيتتم رجعتنا الى ما كنا عليه فاستشار عمرو وأصحابه في ذلك السؤال فقالوا لا تجيبهم الى شئ من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير كها فينا وغميمة كما صار القصر وما فيه فقال عمرو قد علمتم ما عهد الى أمير المؤمنين في عهده فان أجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التي عهدت الي فيها أجبهم اليها وقبلت منهم مع ما قد حال من الماء بيننا وبين ما تريد من قتالهم فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين عن كل نفس شريفهم ووضعهم من بلغ الحلم منهم انيس على الشيخ القاني ولا على الصغار الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ وعلى أن للمسلمين عليهم منزلا لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحدا من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام وان لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم في شئ منها فشرط

هذا كله على القبط خاصة وأحصوا عدد القبط يومئذ من بلغ منهم الجزية فرض عليهم الدينارين
رفع ذلك عرفاؤهم بالايان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بصر فيما أحصوا وكتبوا
أكثر من ستة آلاف ألف فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر مليوناً من الدينارين كل سنة وشرط
المقوقس للروم أن يتخيروا في أحب منهم أن يقسم على مثل هذا أقام عليه لازماله منتزعا عليه
ومن أقام بالاسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ومن أراد الخسر وج منها إلى أرض
الروم خرج على أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعمله بما فعل فان قبل
ذلك ورضيه جاز عليهم والا كانوا جميعا على ما كانوا عليه وكتبوا به كتابا ولما تم الصلح أرسل عمرو بن
العاص إلى الخليفة بعلمه (١) بما حصل وكتب للمقوقس إلى ملك الروم يعلمه وجه الامر كله
فكتب إليه ملك الروم يعجز رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول في كتابه انما أتاك من العرب
اثنا عشر ألفا وبصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا
أداء الجزية إلى العرب واختاروه هم علينا فان عندك بصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر
من مائة ألف معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قدرت فمجزت عن قتالهم
ورضيت أن تكون من معك من الروم في حال القبط أن لا تنذرتهم أنت ومن معك من الروم حتى
تموت أو تظفر عليهم ومثل ذلك من كلمات التوبيخ والتأنيب وكتب ملك الروم مثل ذلك إلى جماعة
الروم فلما ورد كتاب هرقل بذلك إلى المقوقس لم يرض أن يخرج مما دخل فيه من الصلح وقال لعمرو
انما سلطانى على نفسى ومن أطاعنى وقد تم الصلح فيما بيننا وأنا متملك على نفسى والقبط متمولك
على الصلح الذى صالحتهم عليه ثم طلب من عمرو بعض أمور منها أنه إن مات يأمر بدفنه في كنيسة أبي
حنس بالاسكندرية فاجابه عمرو إلى ما طلب

ثم أتت جيوش الروم نجدة لمن بصر من الجنود والتوأمع العرب مرارا فكانت النصر للعرب
وماز الوابقات الروم حتى أدخلوهم الاسكندرية فتحصنوا بها وكانت عليهم حصون مبنية لآترام
حصن دون حصن وكان القبط يمدون المسلمين بما يحتاجونه من الاطعمة والعلوفة ولما كانت مدينة
الاسكندرية واقعة على ساحل البحر كانت سفن ملك الروم تختلف اليها بحلب الذخيرة والجنود

(١) لما ورد كتاب عمرو بن العاص إلى الخليفة بفتح مصر أجابه منشطا داعيا وسأله أن يصف له مصر فكتب
اليه بعد الديباجة

ورد إلى كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء وشجرة
خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتب فيها جبل أعبر ورميل أعفر يخط وسطها نهر مبارك الغدوات ميمون
الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان يدرحله ويكثر عجاجه وتعتظم أمواجه
فتفيض على الجنابين فلا يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض الا في صغار المراكب وخفاف القوارب
وزوارق كانهن الخائل أو ورق الاصائل فاذا تكامل في زيادته نكبص على عقبه كاول ما به أي جريته وطى
في دونه فعند ذلك تخرج جملة مخفورة وذهمة مخفورة يمرقون بطون الارض ويسذرون بها الحب يرحون بذلك
التماء من الرب لقمهم ما سعوامن كدهم قتاله عنهم بغير جدهم فاذا أحرق الزرع واشرق سقانا انداغذمان
تحت الثرى فيبئمه مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذهى عنبر سوداء فاذا هي زمردة خضراء فاذا هي ديباجة
زرقة فتارك انما الخالي لما يشاء والذي يصلح هذا البلاو يقرظونها فيها ان لا يقبل قول خبيثها في رديتها
ولا يستأدى خراج ثمر الا في أوانها وأن يصرف ثلث ارتقاءها في عمل جسورها وزرعها فاذا تقرر الحال مع العمال
على هذه الاحوال تضاعف ارتقاء المال والتدبير في الرحمن المآل اه

والعدد ويقال ان ملك الروم أراد الحضور بنفسه الى الاسكندرية ليقوم بالمدافعة عنها وبينما كان يستعد لذلك مات (سنة ٢٠ هـ) وبذلك رجع كثير من الروم عن قدوجه الى الاسكندرية وما زال العرب يواقعون الروم ويشددون الحصار ويعملون كل حيلة ممكنة حتى استولوا على تلك المدينة العظيمة التي كانت معدودة من أوائل مدن العالم ثروة وسكانا وكان فتحها يوم الجمعة شهر محرم (٢٠ هـ) (٢٢ ديسمبر ٦٤٠ م) بعد ان حاصروها أربعين شهرًا

ثم ان عمرو بن العاص ترك العدد الكافي من الجنود وأخذ يتعقب من هرب من الروم في البر وكان الروم تراجعوا بسفنهم الى الاسكندرية وقتلوا حاميتها من المسيحيين الامن هرب منهم وبلغ عمرو بن العاص فكر راجعوا وفتحها ثانية وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب ان الله قد فتح علينا الاسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد فكتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره ان لا يجاوزها ويقبح رأيه في اتباعه من هرب ويقال انه كان بالاسكندرية وقت الفتح أربعة آلاف جنم وأربعون ألف يهودى وأربعمائة مملهى للملوك وكان بينهما وقت الفتح أكثر من مائة مركب من المراكب البكار حملوا فيها ما قدروا عليه من الرجال والمال والمتاع والاهل وقد أحصى سكانهم ايو مئذ فكانوا كالجبال وستمائة ألف سوى النساء والصبيان

وقد روى بعض المؤرخين خطأ ان عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية الشهيرة بموجب كتاب وصله من أمير المؤمنين لما استأذنه في ذلك والحقيقة ان تلك المكتبة الشهيرة كان احترق معظمها سابقا في حروب كايو باثره ونقل كثير من كتبها الى القسطنطينية ورومية وغيرهما كما حققه أشهر مؤرخى الاورپا وبين وغيرهم

ثم عاد عمرو بن العاص الى المكان الذى كان نزله المسلمون عند محاصرتهم لخصن باب الينون وكان عمرو ترك به فسطاطه منصوبا بنفى المسلمون حوله يوتوا واخطوا وخططوا صارت فيما بعد مدينة أطلق عليها اسم الفسطاط وهى مصر العتيقة ونجى بها جماعة المشهورين والآن وقد تقدمت بها فيما بعد العمارة وكثرت بها الاسواق والامكنة حتى كانت من أكبر مدن الاسلام ومن الاعمال المفيدة التى أجزاها عمرو بن العاص بمصر أن فتح خليجا يوصل النيل بالبحر الاحمر لسهولة المواصلة مع بلاد العرب ونقل الغلال وما ماثلها الى تلك البلاد وبه تمكن من نقل الحبوب الى بلاد العرب فى اوقات القحط وكان ذلك الخليج يسمى بخليج أمير المؤمنين وأبطل عادة قبيحة كان يجرى عليها أهل مصر من القديم وهى أنهم يلقون فى النيل عند زيادته يتتابعدان يزنوها بانقر زينة وغير ذلك من البسدة القبيحة ثم أرسل عمرو بن العاص جيشا لفتح بلاد بركة فصالحهم أهلها وعمر بن الخطاب هو أول من وضع التار يخ وذلك أنه أتاه صدق له شعبان فقال لأدرى أشعبان هذا أم غيره فلما استشار أصحابه فى ذلك أشاروا عليه بوضع مبدئ يورخون به الكتب فانفقوا على جعل سنة الهجرة تاريخا لانها من أشهر حوادث الاسلام وبها علت كلمته وازدادت سطوته وكان قبل ذلك العرب فى اليمن والحجاز تواريخ كثيرة يتعارفونهم اخلفا عن سلف وكانوا يسمون كل سنة بما يقع فيها من الحوادث المهمة فكانوا يورخون بعام الفيل وموت اوى وغير ذلك ولما قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة أمر بالتاريخ فكانوا يورخون بالشهر والشهرين من قدومه

وكان عمر رضى الله عنه حسن السيرة كثير الغزو والجهاد بابتناص بوراقتنوعا ففتحت في زمنه الفتوحات البكار والاقليم الشاسعة وهو أول من سمي بأمرير المؤمنين وكان أبو بكر يدعى بخليفة رسول الله فلما تولى عمر كانوا يقولون يا خليفة خليفة رسول الله فقال هذا أمر بطول كلبا جاح خليفة قالوا يا خليفة خليفة خليفة . . . بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم فلزمه من ذلك الوقت وصار لقبه بالخلفاء بعده وقيل بل دعا به الصحابة فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به وعمر أول من عس في عمله ليل لا لفظ الدين والناس وهابه الناس هبة عظيمة وزاد في الشدة في مواضعها والدين في مواضعه وهو أول من وضع الديوان في الدولة الاسلامية أي ترتيب الجرائد لولاية والقضاة والجنود وغيرهم

ويقال ان سبب ذلك مال أتى به أبو هريرة من البحر من فاستكثره وتبعوا في قسمته فسبعوا الى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رأيت ملوك الشام يدنون فقبل به عمر وقيل بل أشار عليه به الهرمزان لما رأى بيعت البعوث بغير ديوان فقال له ومن يعلمه بغيبة من يغيب منهم فان من تخلف أدخل مكانه وانما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديوانا وسأل عمر عن اسم الديوان فعبروه له ولما اجتمع ذلك أمر عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتدأ من قرابة النبي عليه الصلاة والسلام وما بعدها الاقرب فالاقرب وكان ذلك في محرم سنة ٢٠ هجرية

وفي خلافة عمر بنيت البصرة (١٤ هـ) واخذت الكوفة (١٧ هـ) وتحوّل اليها سعد بن أبي وقاص ومن معه من الجنود وكان معاوية وهو من قواد الجيوش بالشام كتب الى عمر في شأن جزيرة قبرس وغزوها يقول ان قرية من قري حص يسع اهلها اناح كلاب قبرس وصياح ديوكهم ليحمله على الاذن له بغزوها البحر فكتب عمر الى عمرو بن العاص يستوصفه البحر (١) فلما وصفه له هاله الامر وكتب الى معاوية يقول من كتاب والذي بعث محمد بالحق لا أجل فيه مسلما أبدا والله مسلم واحد أحب الى مما حوت الروم فاياك أن تعرض لي في ذلك فقد علمت ما لي العلاء منى ٥١

ثم مات عمر بن الخطاب رضى الله عنه مطعونا طعنه أبو لؤلؤة فغير وزعه بد المغيرة بن شعبه بنحجر في خاصرته وتحت سترته (٢٣ هـ) وكانت مدة خلافته عشرين سنة وستة أشهر وأياما ودفن عند النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر الصديق رضى الله عنه وعهد بالخلافة الى نفر الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وهم على عثمان وطهمة والزبير وسعد بعد أن عرضها على عبد الرحمن بن عوف فابى وكان عمر رضى الله عنه طويل القامة أبيض أصمغ أشيب وكان عمره ٦٣ سنة وكان له من الفضل والزهد والعدل والشفقة على المسلمين ما ضربت به الامثال وسارت به الركبان عثمان بن عفان رضى الله عنه (٢٤ - ٣٥ هـ) لمات عمر اجتمع نفر الذين عهد اليهم بالخلافة فانتخبوا عثمان بن عفان رضى الله عنه والبايعوه سعد المنبر وقام خطيبا فحمد الله وتشهد ثم أرتج عليه فقال ان أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا وان أول كل أمر

(١) لما ورد كتاب عمر الى عمرو بن العاص كتب له يقول بعد الدنيا جنة هو خلق كبير يركبه خلق صغير ليس الا السماء والماء ان ركبا فلق القلوب وان تحرك أراغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة وراكبه دود على عودان مال غرق وان نجافرق ٥١

صعب وان عشت فسا تيكم الخطب على وجهها ثم نزل ولم يغير من العمال أحدا لوصية عمر أوصى ببقاء عماله سنة اثنا عشر المغيرة بن شعبة عن الكوفة ولاها سعد بن أبي وقاص عمه ليقول عمر أوصى الخليفة بعدى أن يستعمل سعدا فاني لم أعزله عن سوء ولا خيانتة

وفي أوائل خلافة حالف أهل الاسكندرية ونقضوا صلحهم وكان ذلك ببحر يرض الروم من القسطنطينية لانه عظم عليهم فتح المسلمين للاسكندرية لانها كانت غير القسطنطينية بالغلل والاقوات وسار من القسطنطينية جيش عظيم عليه قائد حصي يدعى منوبل ومعهم اسطول عظيم فلما أرسوا على الاسكندرية قابلهم سكانها بالترحاب فسار اليهم عمرو بن العاص لمابلغه الخبر فالتقوا واقتلوا وقتلوا اشديدا فانهزم الروم وتبعهم المسلمون وقتلوا منهم في المدينة مقتلة عظيمة واستولوا على السفن التي أنت بهم وهدم عمرو سور الاسكندرية وتركها بغير سور قائلا والله لاجعلها كبيت الفاجرة يؤتى من كل مكان وكان عثمان رضى الله عنه عزل عمرو بن العاص عن مصر قبيل ذلك ولاها عبد الله بن سعد بن سرح أخاه من الرضاة فلما نزلت الروم بالاسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمر حتى يفرغ من قتال الروم فان له معرفة في الحرب وهيبة في قلوب الاعداء ففعل

وبما غنمه المسلمون في هذه الواقعة من السفن وبالسفن التي غنموها عند فتحهم بلاد الشام تمكنوا من الغزو في البحر فغزا عبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن نافع بن عبد القيس الاندلس فأتياها من قبل البحر وغزما معاوية في خلافة عثمان أيضا في البحر بعد أن استأذنه وألح عليه فأذن له وقال لا تنتخب الناس ولا تفرع بينهم بل خيرهم فمن اختار الغزوطا فاجله وأعنه ثم سار المسلمون من الشام الى قبرس وكذا عبد الله بن أبي سرح من مصر اليها فاجتمعوا عليهم افصلحهم أهلها على الجزية كل سنة بعد قتل وسبي كثير من قبرس (٢٨ هـ) وفي هذه الغزوات أم حرام بنت ملحان الانصارية كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال لها إنها في أول من يغزو في البحر كما في صحيح البخاري

وغزما معاوية الروم في البحر أيضا بعد الاغارة على بلاد افرقيصة وذلك أن قسطنطين بن هرقل خرج في جمع لم يجمع الروم مثله منذ كان الاسلام فخرجوا في ستمائة مركب وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية وعلى أهل مصر عبد الله بن أبي سرح فاجتمعوا في القريقان وربطوا سفنهم بعضها مع بعض واقتلوا بالسيف والخنجر وصبر القريقان صبرا لم يصبر قط في موطن مثله ثم أنزل الله النصر على المسلمين وانهزم قسطنطين جريحا ولم ينج من الروم الا الشريد ثم قصد قسطنطين صقلية وكانت تابعة للروم فسأله أهلها عن حاله فلما أخبرهم حنقوا عليه وأضرموا له الشر وبينما كان في الحمام هجموا عليه وقتلوه ورجع من كان معه الى القسطنطينية (٣١ هـ) وكان قسطنطين يقصد بما جمعه من الجنود والاساطيل افتتاح مدينة الاسكندرية وتسمى هذه الواقعة بواقعة السوارى وفتح في زمن عثمان رضى الله عنه أيضا خراسان وكرمان (١) وسجستان (٢) وكابل وافرقيصة

(١) وتسمى قديما كرمانيا مقاطعة من بلاد الفرس بالجنوب الشرقي بين كوهستان شمالا وفارستان ولارستان غربا ومضيق هرز جنوبا وبلوخستان (سجستان ومكران) شرقا ومن أشهر مدنها كرمان وكانت هذه البلاد تابعة للسلطنة ٥١

(٢) معرب سبستان وكانت قديما تسمى ساقستان أي بلاد الساق وهي ولاية بالجنوب الغربي من أفغانستان يتبعها قسم داخل حدود بلاد العجم وهي على مجرى نهر الهند من الاسفلها كثير من خرائب المدن القديمة ٥١

ولما بلغ عثمان رضى الله عنه ما وقع في أمر القرآن الشريف من أهل العراق فأنهم يقولون قرأتنا أصح من قرآن أهل الشام لا تناقرا ناعلى أبي موسى الأشعري وأهل الشام يقولون قرأتنا أصح لا تناقرا ناعلى المقداد بن الأسود وكذلك غيرهم من الأمصار فأجمع رأيهم ورأى الصحابة على أن يصم الناس على المصحف الذى كتب في خلافة أبي بكر رضى الله عنه وكان مودعا عند حفصة زوج النبي عليه الصلاة والسلام كما تقدم ويحرق ما سواه من المصاحف التى بايذى الناس ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف حملت الى الأمصار وقال عثمان لمن تولوا نسخ المصاحف ان اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم (٣٠ هـ)

وفي سنة (٣٥) من الهجرة تكلم قوم من الكوفة في حق عثمان رضى الله عنه ورموه بالتشيع الى أقاربه وأصدقائه قائلين بأنه يولى الولايات لمن لا يصلح منهم لها وتكلم غيرهم بهم على ذلك فلما بلغ عثمان رضى الله عنه ما يقال أرسل من عنده من يكشف له الخبر ويوقفه على نظم المسلمين فرجعوا اليه بعد حين وأخبروه برضا الناس عنه وعن أعماله وأن القائم بتلك الأقوال نفر قليل لغايات ومع ذلك فما زالت الفتنة تنسج ويتشتر أمرها حتى عمت عدة أقاليم وفي آخر الأمر قدم جمع من مصر وجمع من الكوفة وجمع من البصرة وكان هوى المصريين مع علي وهوى الكوفيين مع الزبير بن العوام وهوى البصريين مع طلحة

ثم ان عثمان رضى الله عنه بذرهم الفتنة فلم يسمعوا له وحصبه الناس وهو على المنبر حتى وقع مغشيا عليه فأدخل داره وتكاثر الجوع ومنعوا الصلاة ولم أهل المدينة يوتهم وعثمان رضى الله عنه محصور في داره ودام ذلك أربعين يوما وفي آخر الأمر تسوروا عليه داره ونزلوا عليه فقتلوه وكان صاعما يتلوى المصحف سنة (٣٥ هـ) ومدته خلافته اثنتا عشرة سنة الأياما وعمره نيف وثمانون سنة ومكث ثلاثة أيام لم يدفن وكان عثمان رضى الله عنه معتدل القامة حسن الوجه وبقتل عثمان رضى الله عنه انفتح باب الشر والفتن وزالت مهابة الخلافة من قلوب الناس حتى أدى ذلك الى ما حصل بعد من الحروب الداخلية التى كانت وبالاعلى الامة الاسلامية

وكان سبب حنق الناس على عثمان رضى الله عنه زعمهم انه ولى الاعمال قوما لا يصلحون لها كما تقدم وقبضوا على كتاب مزور عن لسانه الى عبد الله بن أبي سرح عامله على مصر بقتل محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه وغير ذلك مما هو مبوط في التواريخ فمن شاء فليراجعها

علي بن أبي طالب رضى الله عنه (٣٥ - ٤٠ هـ) لما مات عثمان كما تقدم اجتمع المهاجرون والانصار وفيهم طلحة والزبير وتواعلما بيا يعونه فأبى وقال أن أكون وزير لكم خير من أن أكون أميرا ومن اخترتم رضيتهم فالحو اعليه وقالوا لا نعلم أحق منك بها حتى غلبوه في ذلك ويقال ان الزبير وطلحة رضى الله عنهم اذ عيا فيما بعد الاكرام على البيعة وعمالا على نقض اماره على فلق علي رضى الله عنه بهم وناجزهم الحرب وقتل الزبير وطلحة بعد ما داموا ريطول شرحها وسميت هذه الواقعة واقعة الجمل لان السيدة عائشة رضى الله عنها كانت مع المتأبسين على علي وكانت في الواقعة راكبة جلا

ولما بلغ معاوية والى الشام اذ ذلك خبر الواقعة دعا أهل الشام الى القتال فاطاعوه وانضموا اليه على علي رضى الله عنه الذى اتهموه بقتل عثمان أو التحريض على قتله بسكونه و آخر الأمر خرج

على من الكوفة واقتتلا وقتا لا شديدا دام أياما ما سالت فيها الدماء أنهر في مكان يقال له صقيين (١) (٣٧ هـ) ثم هادنا وافترقا وفي النفوس حزازات لان التحكيم لم ينصف عليا رضى الله عنه ومن ذلك الوقت استقل معاوية رضى الله عنه بملك الشام وكان على بحر من بقي له من الاتباع والنصراء على قتال أهل الشام فتقاعدوا عنه وكان يخطب فيهم الخطب البليغة وبقى عليهم الاقوال التي تشجع الجهاد فلم ينفع ذلك لامر أراد الله سبحانه وتعالى

ولما استمرت المخاصمات بين أمراء الاسلام زمنات تعاهد ثلاثة من الخوارج وهم عبد الرحمن ابن ملجم وعمر بن بكر التميمي والبرك بن عبد الله التميمي وكانوا من الخوارج الذين قاتلهم علي بالنهر وان (٢) وقالوا لوقتلتنا أئمة الضلالة أرحننا منهم البلاد فقال ابن ملجم أنا كفيكم عليا وقال البرك أنا كفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر أنا كفيكم عمرو بن العاص وتعاهدوا وأن لا يفر أحد منهم عن صاحبه الذي توجه اليه واستحجموا سيفا مسموما وتواعدوا لسبع عشرة ليلة تضي من رمضان (٤٠ هـ) ان يثب كل واحد منهم بصاحبه واتفق مع ابن ملجم المذكور رجل من أشجع يقال له شيب وكناله في المسجد فلما خرج علي ونادى بصلاة الصبح علاه شيب بالسيف وضر به ابن ملجم على مقدم رأسه فأنهال الناس على ابن ملجم وقبضوا عليه وأحضره مكشوفاً في يدي علي رضى الله عنه ودعا علي قبل موته الحسن والحسين ابنيه رضى الله عنهما ووصاهما قائلاً أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ولا تأسفا على شئ زوى منها عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم وكونا للظالم خصما وللظالم ناصر اولاً تأخذ كما في الله لومة ولما حضرته الوفاة رضى الله عنه كتب وصيته العامة ثم قبض رضوان الله عليه أما البرك فوثب على معاوية تلك الليلة وضر به بالسيف فأخطأ وأمسك البرك فقال له إنى أشرك فلا تقتلنى فقال بماذا قال ان رفقتي قتل عليا هذه الليلة فقال معاوية لعلم يقدر فقال بلى ان عليا ليس معه من يحرسه فقتله معاوية وأما عمرو بن بكر فانه جلس تلك الليلة لعمرو بن العاص فلم يخرج عمرو الى الصلاة وكان قد أمر خارجة بن أبي حبيبة صاحب شرطته أن يصلى بالناس فخرج خارجة المذكور للصلاة فشد عليه عمرو بن بكر وهو يظن انه عمرو بن العاص فقتله فأخذته الناس وأتوا به عمرو فقال من هذا قالوا عمرو فقال من قتلت أنا قالوا خارجة فقال عمرو اردت عمرا فأراد الله خارجة فذهبت مثلاً ولما مات علي رضى الله عنه أخرجه عبد الرحمن بن ملجم من الحبس فقتلوه وكان علي رضى الله عنه كما وصفه بعض أصحابه بعيد المدى شديد القوى يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من فواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها وأنس بالليل ووحشته غزير العبرة طوبى للفكرة يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما حشب قال الواصف كان فينا كأحدنا يجيبنا اذا سألناه وبأيتنا اذا دعوانه ونحن مع تقر يسهلنا نكاد نكلمه هيبته لا يطمع القوى في باطله ولا يأس الضعيف من عدله اهـ وكانت مدة خلافته رضى الله عنه خمس سنين الاثلاثة أشهر وعمره ثلاثا وستين سنة وقيل غير ذلك واختلف في موضع قبره فقيل دفن بمبالي قبلة المسجد بالكوفة وقيل عند قصر الامارة وقيل حوله ابنة الحسن الى المدينة ودفنسه بالبيع والاصح وهو الذي عليه الجمهور ان قبره بالمكان المشهور بالنجف من أعمال بغداد الذي يزار اليوم

(١) مكان قرب الرقة بنشاط القران اهـ (٢) ثلاث قرى أعلى وأوسط وأسفل بين واسط وبغداد اهـ

الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٤٠ - ٤١ هـ) لما توفي على بايع الناس ابنه الحسن وكان علي رضي الله عنه قبل موته يتجهز لقتال معاوية فاتفق مقتله ولما بايع الحسن بلغه مسيراً هل الشام الى قتاله مع معاوية فتجهز الحسن وخرج من الكوفة ووصل الى المدائن واستقر بها خمسة أشهر وأرسل جيشاً لقتال معاوية ولما رأى المناوشة بين أصحابه قال لا حاجة لي في هذا الامر وقد رأيت ان أسلمه الى معاوية فيكون في عنقه تباغته وأوزاره فقال له الحسين أخوه أنشدك الله أن لا تكون أول من عاب أباه ورغب عن رأيه فقال لا بد من ذلك وقد اخترت العار عن النار وبعث الى معاوية بتسليم الامر اليه واشترط عليه شتر وطا وقال ان أجبت اليها فأنا سامع مطيع فأجاب معاوية اليها ثم دخل معاوية الكوفة فبايعه الناس وكتب الحسن رضي الله عنه وأرضاه الى قائد جيشه بأمره بالدخول في طاعة معاوية ثم لحق الحسن وأهل بيته بالمدينة لانه رأى المصلحة في جمع الكلمة وترك القتال ونعم ما فعل وكانت خلفته بضعة شهر ولما تخلى الحسن رضي الله عنه عن الخلافة صارت ملكاً عوضاً كما ورد في الحديث الشريف وأقام الحسن رضي الله عنه الى أن توفي وبه انقضت خلافة الخلفاء الراشدين ويسمى هذا العام بعام الجماعة لاجتماع المسلمين فيه على خليفة واحد

(الفصل الثالث)

دولة بني أمية

(٤١ - ٢٣٢ هـ)

اعلم أن الامويين وبني هاشم هم من روابط العرب حياً وواحداً ينتمون لعبد مناف وهم من أشرف عرب قريش وساداتها وكانت بنو أمية أكثر عدداً من الهاشميين وكان لهم قبل الاسلام شرف وغر وشهرة عظيمة ولما قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو من بني أمية حدث بين بني أمية وبني هاشم خلاف بخصوص خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لانه هاشمي وتحدث الناس بالعصية الطبيعية الغربية في العالم ولما كانت أحزاب علي أقوى وميل العناية اليه أرجح لفضله ومنزله ثبت له مركز الخلافة رغم ان بني أمية وغيرهم وفي خلال الحروب الداخلية التي سبق ذكرها تمض معاوية بن أبي سفيان الاموي وكان والى الشام يطلب الرياسة لنفسه والاخذ بنار عثمان المقتول ظملاً ورفض حق علي في الخلافة وانضم اليه نفر من الصحابة والتابعين اجتهاد منهم وطلباً للحق من وجهه حسب ما أدى اليه اجتهادهم رضوان الله عليهم جميعاً ولما انتهت الحروب الداخلية المتقدمة بين علي ومعاوية وانتهى أمر التكبير على ما هو معلوم ومات علي رضي الله عنه على الصفة المتقدمة فوبت شوكة معاوية وانحطت منزلة الحسن رضي الله عنه حتى انه لما رأى ذلك خلع نفسه من الخلافة خوفاً من تفاقم الامر وتجديد الحروب وحقن الدماء المسلمين وسلم الامر الى معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية وكانت البيعة العامة لمعاوية في ربيع الثاني (٤١ هـ) (٦٦١ م) فدانت له البلدان واتخذ مدينة دمشق مركزاً للخلافة وامتدت أحكامه على مصر والجزيرة وخراسان وغيرها

من البلدان التي دانت للإسلام وقد اهتم كثير في إصلاح الامور ورأب الصدوع وولى الولايات من بسدله أمر السلطنة ويؤكد كدله الملك منهم عمرو بن العاص وولاه مصر طول حياته لانه كان وعده بأن تكون مصر له طعمة ان هونال الخلافة لانه كان له أعظم مساعداً وأقوى عضداً في فواله الخلافة

ثم التفت معاوية لتوسيع نطاق الاسلام ومد كلمته فجهز الاساطيل والجيوش لغزو القسطنطينية وكانت الاساطيل في زمن معاوية كثيرة لاهتمامه بأمرها وساعده على ذلك كثرة الغايات بجبال لبنان حتى بلغت أساطيله ١٧٠٠ ألفا وسبع مائة سفينة كلمة العدد والعدد وصار يسيرها في البحر فترجع غائمة ظافرة وافتتح بها عدة جهات من ذلك جهات مضيق الدردنيل وجزيرة قبرس وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس وغنم المسلمون من هذه الجزيرة ثمنائها الشهير (١) وكان فتحها على يد جنادة بن أبي أمية الأزدي وزوالها للمسلمون وهم على حد من الروم وكانوا أشد شتى على الروم بعرضونهم في البحر وأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم فلما توفي معاوية أقلهم ابنه يزيد وأخذ الجزية والخراج من أهلها وكان معاوية رضي الله عنه يقصد بكل هذه الغزوات البحرية تهديد ملوك الروم وإيقاع الخوف في قلوبهم ليتم له الاستيلاء على مدينة القسطنطينية لانه في (٤٨ هـ) جهز جيشا كثيفا تحت قيادة سفيان بن عوف وأرسل أيضا الاساطيل العديدة التي يزيد عددها عن ١٣٢٠ سفينة فأوغل الجيش في بلاد الروم حتى وصل مقابل القسطنطينية وأخذوا في محاصرتها برا وبحرا وكان في ذلك الجيش ابن عباس وعمار بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري يزيد بن معاوية رضي الله عنهم واستمر المسلمون يحاصرون القسطنطينية الى (٥٠ هـ) ولم يتمكنوا من فتحها لثانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الاغريقية (٢) بسفنهم وفي أثناء الحصار مات أبو أيوب الأنصاري ودفن بالقرب من سور المدينة

(١) يقال ان هذا التمثال صنعه الروميون (٣٠٣ ق م) بعد انتصارهم على ابن لانتيقوس السخي ديمتر بوس الملقب بلموكر بقس أي الفاتح الذي أعار عليهم (٣٠٤ ق م) عندما حاصر بأساطيله لمخاربه بطليموس الاول فباعوا الأدوات الحربية التي اغتصبوها بعد انتصارهم على ديمتر بوس المذكور وصنعوا بتمثال ذلك التمثال من النحاس الاصفر ووضعوه فوق مدخل المينا وكانت السفن الداخلة والخارجة تجري بين ساقيه ويقال ان علوه كان ٧٠ ذراعا وبين قدميه مسافة تبلغ ٥٠ قدما واستمر ذلك التمثال قائما حتى حدثت زلزلة (٢٢٣ ق م) فأوقعته وبقى مطروحا في مكانه مدة ٧٩٨ سنة الى أن فتح العرب الجزيرة في خلافة معاوية (٦٧٥ م) وبعده لرجل يهودي من أورفا كسره وحمله على تسعمائة جمل كما يقال

(٢) النار الاغريقية مركب مخصوص يخرج منه دخان كثيف ولهب يحرق يستمر مدة ولم يكن يؤثر على خط مستقيم فقط بل كان يحرق عينا وثملا وأعلى وأسفل وكان الماء لا يطفئه بل يزيد اشتعالا وكان الروم يسمون هذه الحرارة بق النار المائعة وكانوا يستعملونها في حروبهم البرية والبحرية وفي الحصار بقذفون بها من أعلى الاسوار بالاسجار وقطع الحديد والحرايب والنبال ويلقونها في الكتان المنغمس بالزيت ويضعونها أحيانا في قوارب من حديد ويشعلونها ثم يترك كون تلك القوارب تسير على المراكب بقوة الريح فتحرقها وتحرق أي شيء صادفته وأحيانا يرشونها في مكعبات حديدية مركزية تجعلين أفواء تلك المكعبات أشبه برؤس تقذف من أفواهاها الحرايب الساذكون ويقال ان الذي اخترعها مهندس رومي يقال له كلينيكوس أصله من مدينة هلبو بوليس في مصر ويقال انها كانت مركبة من مخلوط من أجزاءه النفط والقطران والكبريت وقال البعض انها من اختراع الصينيين وقال آخرون انها اختراع الهنود وقال غيره ذلك وبقيت هذه النار سرا محفوظا بغاية الكتمان عند ملوك القسطنطينية وكنيتها وكانوا يقولون انها سرا أوحت به الملائكة الى أحد كهنتهم والنابان العرب عرفوا هذا المركب فاستعملوه في حروبهم فيما بعد ٥١

ولا يزال قبره بالقسطنطينية يزار الآن وعليه مسجد مشيد ثم اضطرت المسلمون الى العودة وقد فقدوا
أكثر أساطيلهم وعددا عظيما من جيوشهم

ومن الفتوحات العظيمة التي تمت زمن معاوية فتح بلاد افر بيقية وكانت بلاد افر بيقية قبل فتحها
تماما تابعة لمصر فلما تولى معاوية بالخلافة كان عليه اعقبته بن نافع الجهني من طرف عمرو بن
العاصر والى مصر وكان عمرو وأوغزاليه بفتح البلاد فأوغل فيها وبني مدينة القيروان (٤٥ هـ)
ثم ان معاوية تولى عقبته المذكور بلاد افر بيقية وأمدته بجيش قوى مؤلف من ١٠٠,٠٠٠
مقاتل (٥٠ هـ) فسار عقبته بهذا الجيش مع من التحق به من الاقربقيين وقاتل جيوش الروم
في عدة وقائع الى أن انتصر عليهم في واقعة عظيمة كانت فيها جيوش الروم تزيد عن ٣٠٠,٠٠٠
مقاتل وأسرى منهم ثمانين ألفا وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم وبذلك تهدمت قوة الروم في تلك
الجهات وبعدها نزل فرقة الغنائم واستراح بجيشه الزمن الكافي تقدم جهة الغرب بطريق طنجة لما كان
لها من الذكر العظيم والصيت عند العرب ولما نزل على طنجة قابله ما كها وكان يدعى بليان (جوليان)
فاهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه وكانت طنجة وما والاها من المدن تابعة للملوك الغوط
بالاندلس ثم ان عقبته سأل بليان عن الاندلس فعظم الامر عليه فسأله عن البربر فقال لهم كثير
لا يعلم عددهم الا الله سبحانه وتعالى وهم بالسوس الاذنى وهم كفار لا يدخلوا في النصرانية ولهم بأس
شديد فسار عقبته اليهم وقتل منهم كثيرا وبعث خيله في كل مكان هربوا اليه وما زال سائرا
منصورا حتى بلغ ساحل بحر الظلمات (٦٢ هـ) ولما وصله دفع بجواده في بحيرة الماء وصاح قائلا
والله لو علمت بعده ارضا السررت مغازيا في سبيل الله ثم قفل راجعا بعد أن ضرب الجزية على أمم البربر
وفي عودته قتله البربر غيلة لانه كان أرسل معظم جيشه الى القيروان وبقي في نفر قليل ثم حضر البربر
بعد ذلك تحت قيادة كسيلة أحد أمرائهم وحاصروا القيروان وافتتحوها وتخلص بذلك ظل المسلمين
من تلك الاطراف وبقيت عاصمية حتى قوى أمر عبد الملك بن مروان بعد فتنة ابن الزبير فأنفذ الى
زهير بن قيس البلازي بجيش وولاه افر بيقية فأتى وافتتحها ثانية (٦٩ هـ)

وفي تلك الغزوة أي قبل توغل عقبته بن نافع الجهني في بلاد افر بيقية بني مدينة القيروان
(٤٥ هـ) المذكورة لتكون معقلا لسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من
أهل البلاد وجعلها مقرا ولا تفر بيقية وكان مقام الولاية قبل ذلك بزويلة وبرقة وكان عقبته المذكور
في أثناء عمارة المدينة المحكي عنها يغزو ويرسل سرايا فتغير وتنهب ودخل كثير من البربر في دين
الاسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هنالك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا
واطمأنوا على المقام فثبت الاسلام فيها

وقد أكرم الناس على معاوية رضي الله عنه بعض أمور منها استلحاقه زياد بن عبيد وكان
زياد عاملا لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه على فارس وقصة استلحاقه مبسوطة في التواريخ
ولما تولى معاوية الخلافة امتنع زياد بفارس ولم يدخل في طاعة معاوية وأهدم معاوية أمره
وخاف أن يدعوا الى أحد من بني هاشم ويعيد الحرب وما زال معاوية يستعمل الخيل حتى أحضره
اليه واستلحقه ثم ولاه البصرة والكوفة (٤٥ هـ) فجرد السيف وأخذ بالظنن وعاقب على الشبهة
نفاقه الناس خوفا شديدا ومنها أنه استخلف ابنه يزيد (٥٦ هـ) وبايعه أهل الشام والعراق

وامتنع من البيعة لما الحسين رضى الله عنه وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير
وامتنع سكان المدينة لامتناعهم وكذا غالب أهل الحجاز غير أنهم بايعوا في آخر الامر وأصر المذكورون
على الامتناع ولم يطلب معاوية البيعة لابنه يزيد الا بعد موت زياد سنة (٥٥٣) فلم يزل يروض الناس
ليبيته عدة سنوات ويشاور ويعطى الاقارب ويدانى الابعاد حتى استوتق له من أكثر الناس
وكتب له بذلك عهدا وكانت وفاة معاوية سنة (٥٦٠) ومدة خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر
وأياما وكان عمره ٧٥ سنة وكان معاوية مملج الشكل عظيم الهيبة وافر الشمة يلبس الثياب
الفاخرة ويركب الخيل المسومة وكان كثير البذل والعطاء حسنا الى رعيته وهو أول من اتخذ المقاصير
وأقام الحرس والحجاب وأول من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالخراب وله في الحلم أخبار كثيرة
واعلم أن معاوية كان مهربى دول وسائس أمم وراعى عمالك ابتكر في الدولة أشياء لم يسبقه
أحد لها منها أن وضع البريد^(١) لوصول الاخبار بسرعة واختراع ديوان الخاتم فصارت التواقيع
تصدر منه مخنومة لا يمكن أحد من تغييرها

يزيد الاول بن معاوية (٦٠ - ٦٤ هـ) لما تولى يزيد الخلافة لم يكن له هم
الا أخذ البيعة من الذين امتنعوا عن البيعة له في خلافة والده خصوصا سيدنا الحسين
رضى الله عنه فلذلك كتب الى عامله على المدينة بالزام سيدنا الحسين رضى الله عنه وعبد الله
ابن الزبير وعبد الله بن عمر بالبيعة فامتنع الحسين رضى الله عنه وابن الزبير وخلق جمعة ولم يبايعا
واجتمع أهل مكة وما والاها من القرى على ابن الزبير وتحصنوا بمكة وهزموا جيشا العامل المدينة
أرسله عليهم وشق أيضا أهل الكوفة عصا الطاعة وخرجوا على يزيد وكانوا الحسين في ذلك فأرسل
سيدنا الحسين رضى الله عنه الى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل ليأخذ البيعة عليهم فلما وصل الى
الكوفة بايعه بها ثلاثون ألفا منهم النعمان بن بشير الانصارى والى الكوفة فأرسل يزيد عبيد الله
ابن زياد فقدم الكوفة ورأى ما عليه الناس فخطبهم وحثهم على طاعة يزيد ثم تفرق الناس عن
مسلم ولم يبق معه غير ثلاثين رجلا ثم قبض على مسلم وضرب عنقه وبعث عبيد الله برأسه الى يزيد
سنة (٥٦٠)

ثم استعد سيدنا الحسين رضى الله عنه فممن بايعه وخرج يريد الكوفة وقد نهاه عن ذلك قوم فلم
يقبل وبعد ذلك تفرق عنه غالب من خرج معه وقابله في الطريق الحرس صاحب شرطة عبيد الله بن
زياد فى أنى فارس وما زال به حتى قبل الذهاب الى ابن زياد بعد أن كان أراد الانصراف الى حيث أتى
فلم يقبل منه وما زالوا سائرين حتى نزل الحرمع سيدنا الحسين رضى الله عنه على مكان ليس به ماء بناء
على ما ورد اليه من عبيد الله ثم أقبل من الكوفة عمر بن سعد بن أبي وقاص بأربعة آلاف فارس
أرسله ابن زياد لحرب الحسين رضى الله عنه فسأله الحسين في أن يمكن المأمون العود وإما أن يجهز الى
يزيد بن معاوية وإما أن يمكن من اللحاق بالثغور فكتب عمر الى ابن زياد يسأله في ذلك فلم يقبل ابن زياد
شيئا من ذلك وأرسل مع شهر بن ذى الجوشن الى عمر بن سعد وإما أن تقا تل الحسين وتقتله وإما أن تعتزل

(١) البريدان يجعل خيل مضمرات في عدة أما كن فاذا وصل صاحب الخبر المراسع الى مكان منها وقد تعب فرسه ركب
غيرها فرس مستريحا وكذلك يفعل في المكان الآخر والاخر حتى يصل بسرعة ومعناه الغوى اثنا عشر ميلا
وهي الغاية التي قدرها بين يزيد وآخر فوائده حفظ الاموال وسرعة وصول الاخبار ومجددات الاحوال
وسياق من البريد كلام أكثر تفصيلا اه

ويكون الامير على الجيش شمر وفي آخر الامر حصل القتال بين الحسين رضى الله عنه وأصحابه وكانوا
اثنين وثلاثين فارسا وأربعين راجلا وبين عمر بن سعد ومن معه من الجنود وقد أظهر الحسين رضى الله
عنه وأتباعه في هذه الحرب جسارة وإقداما لا يوصف ولما اشتعلت نيران الحرب وحجى وطيسها اشتد
بالحسين العطش فقدم ليشرب فبصرى بسهم فوقع في فيه ثم تكاثرت عليه القوم واحترقوا رأسه
الشريفة سنة (٦١ هـ) قيل ان الذى نزل واحترق رأسه هو شمر وقيل هو سنان بن أنس
النجفى وقتل مع الحسين رضى الله عنه من أولاد على أربعة العباس وجعفر ومحمد وأبو بكر ومن
أولاد الحسين رضى الله عنه أربعة وقتل عدة من أولاد عبد الله بن جعفر ومن أولاد عقيل وأهينت
النساء ووطئت الاجسام ثم بعث عمر بن سعد الرؤس والنساء والاطفال في حالة غير مرضية الى عبد الله
ابن زياد الذى جهز النساء والاطفال بما يصلحهم وأرسلهم الى المدينة وكانت هذه الواقعة المشؤمة في
مكان يدعى كربلاء

واختلف في موضع الرأس الشريف فقيل جهز الى المدينة ودفن عندهم وقيل دفن عند باب
الفراديس وقيل ان خلفاء مصر نقلوا من عسقلان في وزارة طلائع بن رزيك في خلافة القواطم رأسا
الى القاهرة ودفنوه بما يغاية التعظيم والتجليل وبنوا عليه مشهدا فآخر او هو المعروف الآن بمشهد
الحسين وكان عمر الحسين رضى الله عنه لما قتل ٥٥ سنة وأشهرها

ولما حدثت هذه الواقعة المشؤمة وانتشر خبرها في ممالك الاسلام غضب الناس غضبا شديدا
وكرهوا يزيد وانضم كثير منهم الى الذين خرجوا عليه وقوى أمر عبد الله بن الزبير والتف عليه
كثير وانفق أيضا أهل المدينة على خلع يزيد بن معاوية وآخر حواريه عثمان بن محمد بن أبى سفيان
سنة (٦٣ هـ) ولما علم يزيد بذلك اضطربت أحواله وجهز جيشا مع مسلم بن عقبة وأمر به بقتال
أهل المدينة فسار مسلم في عشرة آلاف فارس من أهل الشام حتى نزل على المدينة من جهة مكان
يدعى الحرّة وكان أهل المدينة استعدوا للقتال وخذقوا عليهم ثم إن مسالم طلب منهم الكف عن
القتال فلما لم يقبلوا حاربهم مسلم حرا شديدا حتى افتتح المدينة وأباحها للجنس ثلاثة أيام يقتلون
وينهبون وأخذ على من بقى البيعة ليزيد على أنهم خول وعبيد له ويقال ان قتلى الحرّة كانوا زهاء
عشرة آلاف نفس ولما فرغ مسلم من المدينة سار بالجيش الى مكة (٦٤ هـ) فبات في الطريق
قبل أن يصل الى مكة وأقام يزيد على الجيش مقامه الحصين بن نمير السكوني فقدم الحصين مكة وحاصر
عبد الله بن الزبير أربعين يوما وبينهم كذا ذلك إذ ورد الى الحصين الخبر بموت يزيد فأرسل الى ابن الزبير
يسأله الموادة فأجابته الى ذلك وكان الحصين رعى البيت الحرام بالمنجنيق (١) وأحرقه بالنار ويقال

(١) المنجنيق آلة ترمى بها الحجارة وغيرها من بعيدة (من جهتيك) بالفارسية ومعناها ما جعلنى استعمالها القدماء كثيرا
في حروبهم وورد ذكرها في مؤلفاتهم وهي مؤلفة من عمود طويل قوى موضوع على عربة ذات عجلات وفي رأسها
حلقة أو بكر تمر بها حبل متين طويل في طرفه الاعلى شبكة على هيئة كيس توضع فيه الحجارة أو براميل بها مواد
نارية مستعالة ثم يحرك ويرفع العمود على جرارة بواسطة دواليب وحبال فيندفع من الشبكة ما وضع فيها من
المسذوبات ويسقط على الاسوار المرتفعة بين جيوش الاعداء فيقتل ويحرق كلما القبه وبعدها استعماله مندطوب بله
على هيئته الاصلية وجدوا ان الذين يذهبون به لا ضرامه يظنون عرضة لنيران الاعداء وسهاهم لانهم لا يأتون
بفائدتها لم يقتربوا من الاسوار على امتدق يرب لتصل قذائف المنجنيق وآلاته والرميل المنقذ منه والابراج التي ترافقه
لوقاية رجال المنجنيق ولصمود بقية الجنود على الاسوار وقد بطل استعمال هذه الآلة بعد اختراع البارود والاسلحة
النارية اه

ان الحصين قال لعبد الله بن الزبير لما علم موت يزيد من الرأي ان ندع دماء القتلى بيننا وأقبل لأبائك
واقدم الى الشام فامتنع عبد الله بن الزبير من ذلك ولوقبل لثم له الامر لحق الناس على يزيد
واستخفافهم بخلافته بعد ان صدر منه ما صدر وكان يزيد موفرا لرغبة في اللهو والقنص وقد
اتهمه بعض المؤرخين بشرب الخمر والنسق وغير ذلك عامله الله بما يستحق وكانت خلافته ثلاث
سنين وستة أشهر وأياما وعمره ثمان وثلاثون سنة وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية أقام يزيد معها
بين أهلها في البادية وتعلم الفصاحة ونظم الشعر وقد كان يزيد شاعرا بليغا

معاوية الثاني بن يزيد وولّى بعده ابنه معاوية الثاني ولم تكن ولايته غـير ثلاثة أشهر ثم تخلى
للعبادة ومات بالطاعون أما عبد الله بن الزبير فقد قويت شوكته وعظم أمره بعد موت يزيد وادعى
الخلافة وأطاعه العراق والحجاز وخراسان واليمن ومصر والشام الا بلاد الاردن فانها بايعت مروان
ابن الحكم

خلافة مروان بن الحكم (٦٥ هـ) لمات معاوية ولم يعين من يخلفه أجمع رأى بنى
أمية على تولية مروان بن الحكم وكان من أعرههم بمسألة الملك ولم يدخل الشام أذعن أهلها له
بالطاعة وقاتل من يها من شيعة ابن الزبير فهزمهم ثم ان ابن الزبير أرسل عليه الضحالك بن قيس
وافترق الناس بالشام فمروان بن معاوية وقيسية ثم جرت أمور يطول شرحها وآخر الامر التقى
الفرقيان بغوطة دمشق واقتتلوا وكانت الهزيمة على الضحالك وقتل الضحالك وقتل معه جمع كثير
وعند ذلك دخل مروان دمشق ونزل في دار معاوية وبذلك استوثق الشام مروان بن الحكم وفر منها
كل من تظاهر بالميل لابن الزبير ولما جات بيعة الاجناد قال له أصحابه لا يتخوف عليك الامن خالد بن
يزيد فتزوج أمه فانك تكسره بذلك فتزوجها مروان

ثم ان مروان خرج لمصر وبعث أمامه عمر وبن سعيد بن العاص بجيش فدخل مصر وقهر
عامل ابن الزبير عليها وبيع مروان ثم ان مروان عاد الى الشام (٦٤ هـ) وبذلك صار مروان
خليفة بالشام ومصر وابن الزبير خليفة بالحجاز والعراق واليمن وكانت وفاة مروان مخنوقا (٦٥ هـ)
وهو ابن ثلاث وستين سنة وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوما وسبب موته أنه لما أراد
الخروج الى مصر قال لخالد بن زوجته أعرني سلاحا ان كان عندك سلاح فأعاره سلاحا ولم يرجع
من مصر وقد قدم الشام قال له بن يزيد رد على سلاحى فابى عليه فألح عليه خالد فشمته مروان بالقفاظ
فبيحة ليحط من شأنه في أعين الناس فدخل الى أمه باكيًا وشكى اليها ما قاله مروان على رؤس أهل
الشام فقالت له لا عليك فانه لا يعود اليك بمثلها فلبث مروان بعد ما قال لخالد ما قال أياما ثم جاء الى أم
خالد فرقد عندها فامرته جواريم فطرحن عليه المخاض ثم غطته حتى قتلتها ثم خرجن فصحن وشققن
نساءهن يأمر المؤمنين بأمر المؤمنين فقال عبد الملك ابنه والله لولا أن يقول الناس انى قتلت بابي امرأة
اقتلتك بأمر المؤمنين وهو الرابع من خلفاء بني أمية عندهم بجعة له من خلفائهم والاول من دولة
بني مروان

خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) بويغ له بالخلافة بعد موت أبيه
مروان بن الحكم وفي أوائل خلافته خرج عليه المختار بالكوفة واجتمع عليه خلق كثير وباعوه

على المطالبة بدم الحسين رضى الله عنه لان الناس لم يكن ذهب من فكرهم ما لحق باهل البيت رضوان الله عليهم من الهوان والصغار سيما وان الفستن كانت لا تزال ضاربة اطنابها وابن الزبير مستقل بجهات الحجاز ومعه جمع كثير

ثم تجرد المختار لقتال قتلة الحسين رضى الله عنه بعد ان استولى على الكوفة وظفر بشمر بن ذى الجوشن وعمر بن سعد بن أبي وقاص وخولى الاصمعي وابن عمر بن سعد بن أبي وقاص وغيرهم من الرؤساء الذين خضوا أيديهم بدماء أهـل البيت وقتلهم وبعث برؤسهم الى محمد بن الحنفية بالحجاز (٦٦ هـ) ثم ان المختار لما سقاه الوقت ادعى دعاوى باطلة واتخذ كرسيا وادعى ان فيه سرا وأنه لقومه مثل التابوت لبني اسرائيل ثم بعث الجنود لقتال عبيد الله بن زياد وكان الموصل فاقتملوا قتالا شديدا وانهم زمت أصحاب بن زياد وقتل هو في المعركة وأحرقت جثته وانتقم الله سبحانه وتعالى لسيدنا الحسين رضى الله عنه بالمختار وان لم تكن نيته حميدة

ثم ان ابن الزبير ولى أخاه مصعبا بالبصرة فقاتل المختار بالكوفة وقتله لخر وجهه على ابن الزبير ولفساد مدعياته بعد ان فرق جموعه (٦٧ هـ) واستولى مصعب على العراقيين ونال غرضه فساد اليه عبد الملك بن مروان في جيش كثيف وقاتل مصعب حتى قتله وبعد ذلك استقام أمر العراق لعبد الملك ثم ان عبد الملك أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي الى عبد الله بن الزبير لما آمن نفاذه وجمادته وحسن رأيه وبعد ان نازل ابن الزبير زمنا ورمى البيت الحرام بالمنجنيق تسلل غالب من كان مع ابن الزبير وأبي ابن الزبير ان يسلم نفسه أنفة منه وفي آخر الأمر تغلب الحجاج على ابن الزبير وقتله ثم صلبه ودامت محاصرة الحجاج لابن الزبير سبعة أشهر (٧٣ هـ) وكانت خلافة ابن الزبير تسع سنين لانه يبيع له (٦٤ هـ) لمسات يزيد بن معاوية وبعد ذلك اجتمع الناس على طاعة عبد الملك بن مروان ولما تقلص ظل الفتن من البلدان واستوثق أمر الخلافة لعبد الملك التفت الى بعث البعث للجهاد وكان بنو أمية أبطالوا ذلك منذ تولى يزيد الخلافة لما هم فيه من الفتن الداخلية والحروب القومية فارسل الى عامله على أفر ببيعة زهير بن قيس البلوي وكان مقبلا ببيعة منذ مهلك عقبة بن نافع كما تقدم فبعث اليه عبد الملك بالمدد ولاحرب البربر وأمره باستنقاذ القبروان ومن بهامن المسلمين من يدكسيلة المتغلب عليها وحضه على الطلب بدم عقبة فراجع زهير يعلمه بكثرة الفريخ والبر بر فأمدته بالمال ووجوه العرب وفرسانهم فزحف زهير في عدد عظيم (٦٩ هـ) والتقى مع كسيلة في جهة القبروان واشتد القتال بين الفريقين ثم انهزمت البربر بعد حروب دموية وقتل كسيلة ووجوه من معه من البربر وبذلك ذل البربر وقتبت فرسانهم واضمحلت أمر الفرنجية أيضا وخاف البربر من زهير خوفا شديدا واستقر جمهورهم بديار المغرب الاقصى

ثم ان زهير اترك القبروان ورجع الى برقة فوجد اسطول الروم على قتالها في جوع عظيمة من قبل ملك الروم ومعهم أسرى من المسلمين فاستغاثوا به وكان في فئة قليلة من أصحابه فهجم على الروم وقتلهم حتى قتل وقتل معه جماعة من أشرف أصحابه ونجا الباقون الى دمشق فاخبر والخليفة بما وقع وبعد ذلك اضطر بت بلاد المغرب واشتدت بهم انيران الفستن فبعث عبد الملك الى عامله على مصر حسان بن النعمان الغساني وبعث اليه بالمدد فزحف اليهم (٦٩ هـ) في أربعين ألف مقاتل وبعد ان

استراح سارقا صدام مدينة قرطاجنه وهى المدينة العظمى قريه قروميه وضرتها وكان بها يومئذ من
 جوع الافرنج ما لا يحصى فصمد اليها وافتتحها ونجها فلهبهم فى المراكب الى صقلية والاندلس ثم أمر
 بتخريب قرطاجنه لعهصيانهم اعليه بعد ذلك واعفاء ربهما وكسرقنواتها فذهبت كأن لم تغن بالامس
 ثم قاتل الافرنج ببلاصطفورة ونزرت وهزمهم وقاتل امرأه الكاهنة كانت صاحبة نفوذ عظيم
 انحاز اليها غالب البربر وأطاعوها وكانت تدعى داهية وقد قتل من المسلمين فى وقائعها جمع كثير
 ولم تزل الكاهنة والبربر يتعقبون حسان والعرب حتى أخرجهوهم من جهات قابس وطوق حسان
 بطرابلس فلقبه هناك كتاب عبد الملك بأمره بالمقام حيث يوصله كتابه ثم ان الكاهنة أمرت بتخريب
 المدن والضياغ والمرامى والمزارع اصدأ طماع العرب وكانت المدن والضياغ من طرابلس الى طنجة
 ظلا واحدا فى قرى متصلة كبار واه المؤرخون فخرت الكاهنة كل ذلك ومحت جماله فسق ذلك على
 البربر واستأمنوا الى حسان وكان عبد الملك قد بعث اليه بالمدد فآمنهم واستعمل الخيلة فى قتلها
 وأخيرا التقي معها وقتلها شر قتله وبذلك استأمن اليه باقى البربر وشرط عليهم حسان أن يكون معه
 منهم اثنا عشر ألفا لا يفرقونه فى مواطن الجهاد فاجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم فانصرف حسان الى
 القيروان مؤيدا منصورا ووثب ملكه واستقام أمره فدون الدواوين وكتب الخراج على عجم افر ببيعة
 ومن أقام معهم على النصرانية من البربر ثم أوعز اليه الخليفة باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء
 السفن والالات البحرية حرصا على مراسم الجهاد فبنى بها ما يزيد عن ٧٠٠ سفينة ومنها كان
 فتح صقلية أيام زيادة الله الاول من بنى الاغلب على يد أسد بن القرات كما قلناه فى المقدمة ثم ان حسان
 استخلف على المغرب رجلا من جنده اسمه صالح وارتحل الى المشرق بما جمعه من الاموال والذخائر
 وأهدى الى أمير مصر عبد الله مائتي جارية من بنات ملوك الفرنج والبربر فلم يقنعه ذلك وانزع
 كثيرا مما بيده ولما قدم على الخليفة بدمشق وهو يومئذ الوليد بن عبد الملك شكى اليه ما صنع به
 عمه عبد الله فأكر ذلك ثم أهدى اليه حسان من غرب النفائس ما استعظمه الوليد وشكره
 عليه ووعده برده الى عمله خلف حسان أن لا يلبى عملا يبنى أمة أبدا وكان عبد الملك ولى الحاج
 النقفى العراق بعد مقتل ابن الزبير فلما ذهب اليها أخش فى الظلم وأخذ بالظنة وقتل كثيرا فخرج
 عليه الخوارج من كل جهة واستفحل أمرهم وكافوا سببا فى تعطيل الفتوحات الاسلامية زمنا
 طويلا وتوفى عبد الملك (٨٦ هـ) وكانت مدة خلافته بلا منازع منذ قتل ابن الزبير ثلاث عشرة
 سنة وأربعة أشهر وكان بخيلا حازما قلاقيا فقيها عالما دينا الأأن الدنيا استهوت به بخلافته وعمره
 ستون سنة وهو أول من ضرب السكة فى الاسلام وكانت الصوائف وهى الجيوش التى كانت تجوز
 فى أوان الصيف لسد الثغور وقاتل العدو وتعطلت من الشام منذ وفاة معاوية لحدوث الفتن بين
 المسلمين واستمر ذلك التجهير من صدر الاسلام الى أواخر الدولة العباسية ولما اشتدت الفتنة بين
 ابن الزبير وعبد الملك اجتمعت الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين فصالح عبد الملك ملكهم
 على أن يحمل اليه كل جمعة ألف دينار خوفا منه على المسلمين ولم يستمر هذا العهد زمنا طويلا لانه
 بعد ذلك بقليل انتصر المسلمون على الروم فى وقائع عديدة وفتحوا من بلادهم كثيرا

خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان (٨٦ - ٩٦ هـ) وهو من أكبر خلفاء بنى أمية
 همة وأعظمهم قدرا وشهرة لان فى أيامه امتدت فتوحات العرب الى داخل افر بيقية وتوغلت

الجيوش الاسلامية في سهولها ونجودها حتى وصلوا الى جبال الاطلس القصى وخضعت لهم جميع القبائل البربرية النازلة بالشمال والجنوب واستولوا على مدنها وقلاعها ونفشت الديانة الاسلامية بين شعوبها وقبائلها وفتح في زمنه ايضا الفتوحات الكثيرة ببلاد ماوراء النهر وبلاد الترك وفتح مسلمة بن عبد الملك الفتوحات الكثيرة ببلاد الروم وفتح محمد بن القاسم الثقفي بلاد الهند وغير ذلك من الفتوحات

وكان لما رحل حسان بن النعمان الى المشرق كما تقدم وكثرت الفتن ببلاد البربر ونطت أكثر البلاد والوليد بن عبد الملك موسى بن نصير (٨٧ هـ) افرقية والمغرب وكان موسى عاقلا كريما شجاعا وراعا تقيالمهمزم له جيش قط ولما قدم أخذ في رفق الفتق ولم الشعب وبعث ان تمهدت له الديار المغربية وحسنت احوالها واصلح نظامها باقامة قسط العدل فيها بعث ابنه عبد الله غازيا في البحري جزيرة سيورقه ومنورقه فغزاهما ورجع بالسبي الكثير وبعث ابنه مروان كذلك وتوجه هو الى ناحية فغنموا وسبوا وعادوا وبلغ الخس من الغنم سبعين ألف رأس من السبي حتى قال بعضهم انه لم يسمع في الاسلام بمثل سبايا موسى بن نصير ثم تقدم الى مدينة سبتة فصانعه صاحبها يليان (جوليان) الغوطي باللهدايا وأذعن للجزية وكان نصرانيا فآقره عليها واسترهن ابنه وأبناء قومه على الطاعة فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا موسى فقبل منهم (٨٨ هـ) ثم ولي طارق بن زيال الليثي مدينة طنجة وأنزل معه سبعة وعشرين ألفا من العرب واثني عشر ألفا من البربر وأمرهم باقامة العدل وهدم معالم الجور والظلم وان يعلموا البربر بالقرآن والفقهاء

ولما استقرت القواعد لموسى بالمغرب كتب الوليد يعلمه بذلك فورد عليه جوابه يأمره فيه بغزو الاندلس وفتحها فكتب الى طارق وهو بطنجة يأمره بذلك (٩٠ هـ) بعد ان يخضها بالسر يا ويعلم عورتها ونورها وشواطئها حسب أمر الخليفة فجهز طارق الجيوش والاساطيل وعبر الى الاندلس في اثني عشر ألفا من البربر وخلق يسير من العرب من سبته الى الجزيرة الخضراء وصيرهم جيشين أحدهما على نفسه ونزل به جبل القتيق فسمي جبل طارق به والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف فسميت به وأداروا الاسوار على أنفسهم للتحصن (٩٢ هـ) فلما علم ملك الغوط باسبانيا المدعو لوزريق (رودريك) أمر أحد قواده المدعو أوريكوس فالتقى مع العرب وطارق فمهمزم فعرض الامر على الاهالي القسر بين ان يدار الملك فجمع رودريك حكام الولايات والداكرو والاساقفة والاشراف ونحوهم وقر رأى الجميع على محاربة العرب بقوة لطردهم من البلاد وكانت عساكر رودريك نحو مائة ألف أما أصحاب طارق فكانوا زهاء اثني عشر ألفا كما تقدم ومعهم بعض الجنود الذين أرسلهم بصحبته يليان ماكم طنجة وسبته لان يليان كما روى بعض المؤرخين كان يتقم على رودريك ملك الغوط فعلة فعلها زعموا بانته الناشئة في داره على عادتهم في بنات بطارقهم وذلك أنه كان من عادة كبار العجم بالاندلس ان يبعثوا اولادهم الذين يريدون التنويه بهم الى دار الملك الاكبر بطليطلة ليصيروا في خدمته ويتأدبوا بآدابها وينالوا من كرامته حتى اذا بلغوا أنسج بعضهم بعضا وتحمل صدقاتهم وتولى تجهيز ثيابهم استئلا فالآباء ثم فاتفق ان فعل ذلك يليان فبعث بآبنة له جميلة تكرم عليه الى دار رودريك فوقع عليها عينه فأعجبته وأحبها ولم يتالك ان استكرها فافتضها فاحتالت حتى أعلمت آباها سرا فأحفظه ذلك وقيل غير ذلك من

الاسباب التي ينتحلها بعض المؤرخين لبيان اسباب الفتوحات والحقيقة على ما نظن أن الامر بعيد عن ذلك كله وان العرب لم يتوسعوا في فتوحاتهم ويخضعوا الممالك ويستعبدوا الملوك الا بعامل القوة التي منحهم الله سبحانه وتعالى اياها وأراد أن تعلق قدمهم في البلدان والا فإن العرب من قوة الروم وشدة بأسهم واتساع ملك فارس ونظامهم وسياستهم ومولوك الهند وجيوشهم وأمراء الترك وشجاعة جنودهم اذا لم يكن في سابق علمه تقدست ذاته أن هذه الامة انظاملة الذكر المنفرقة القبائل المتعددة على الرحلة وشطف العيش تدين لها القياصرة وتغنوا الامرها الا كاسرة

ولما رأى طارق كثرة جيوش الاعداء وانتظامهم وحسن ملابسهم واختلاف أزيائهم وهم بالعدة الكاملة والصلاح الجيد وما عليهم من الخوذ والحديد السابغ هاله الأمر وخاف على جيشه القليل فأمر بإحراق السفن التي كانت تقلهم ليقطع عن قومه كل أمل في العودة ثم قام فبهم خطيباً مشجعاً منشطاً وقال ان العدو أمامنا والبحر وراءنا فاختاروا أيهما شئتم ثم التقى مع جيوش الغوط ودارت رحى الحرب ساعة انقضت في أشائها ابطال العرب وصناديد البربر على جيوش الغوط وأمرائهم المطرفين فبددوا شملهم وجندلوا أمرهم فولوا الادبار وقتل منهم عدد عظيم وترك رودريك من كتبه وكانت من العاج الناصع يجرها بغلان أبيضان وعرب ولم يعلم أين ذهب وقد وجدوا جواده وتاجه ورداءه ويظن انه مات غريبة في نهر قرقيب من هناك واتصلت الحرب بين الفريقين ثمانية أيام وكانت بفحص شريش (كيسريس) ويقال انه بعد هذا النصر المبين أشار إليه ان على قائد العرب بأن يتقدم على الفور ويكمل فتح البلاد قائلاً ان الملك قد هلك والامراء تفرقوا والعساكر تبتددوا والشعب في وجل عظيم فأرسل رجالك تستولى على ما قرب من المدائن واذبح أنت الى طليطلة دار الملك ولا تقسح لهم في الوقت فيختاروا ملكاً وكتب طارق الى موسى بن نصير يعلمه بالفتح والغنائم فخر كتمه الغيرة وكتب الى طارق بتوعده ان توغل بغير إذنه ويأمره ان لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج في عسكر ضخيم (٥٩٣) من وجوه العرب والموالي وعرفاه البربر فوافى خايج الزقاق (مضيق جبل طارق) ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز الى

الاندلس

أما طارق فرأى من حسن تدبيره اتباع نصيحة بليان وتقدم بجيوشه نحو الشمال وافتتح أحد قواده قرطبة (كوردو) بعد أن حاصرها ثلاثة أشهر وسار هو نحو طليطلة تحت الملك فوجدها مغلقة الابواب حصينة الاسوار والابراج فخاضها زمننا وقطع القوات عن سكانها حتى اضطر والى طلب الصلح فقدم معهم صلحاً أباح فيه حرية الخروج لمن أراد من السكان وترك للنصارى سبعة كنائس وحرية الدين والشرائع وأبقى لهم قضائهم وكذلك فعل مع اليهود ثم تقدم نحو الشمال وفتح ما مر به من المدن بجهات قسطيلة (كاستيل) وغيرها وغنم أموال الجزيله فغن ذلك المائدة النفيسة الطائفة الصيت في مؤلفاتهم المسماة بمائدة سليمان وهي التي كان الروم أتوا بها من المشرق وأخذها الغوط منهم حين غارتهم على رومية قال بعض المؤرخين ان تلك المائدة المنسوبة الى سليمان بن داود عليهم السلام لم تكن له فيما زعم رواية العجم وانما في أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم اذا مات أحدهم أوصى بحاله للكنائس فاذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات من الذهب والفضة وكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ من ذلك وكانت من أنفخ الادوات قيمة وترصيعاً ثم عاد طارق الى

طيطلة بطلب من موسى بن نصير لانه حسده وخاف أن لا يترك له بلادا يفتحها ولا يشاطره الشهرة ورفعة الصيت وتقدم موسى فافتتح جهات وادي يانه وغيرها ولما تلاقى مع طارق بطيطلة وبخه على ما كان منه من عدم اطاعته ولم يسمع منه قولا ويقال انه ضرب به وسجنه ثم أطلقه بناء على ما ورد له من الخليفة ولما خرج من السجن سار بجيش فافتتح بلاد طركونة وسرقسطه و برشلونة وغيرها وأخذت بعد ذلك سفن الاسلام تتردد بكثرة على هذه الثغور ولم يزل العرب يطاردون الغوط الى أن أجاز وهم جبال البرانس أو البرنات وكان في تلك الاثناء عبد العزيز بن موسى يحاصر مدنا بجزيرة جهة الجنوب

ويقال إن موسى بعد أن تم له فتح الاندلس كان أجمع أن يأبى المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز ذر وب الاندلس الى الشام ويخوض اليه ما بينهما من بلاد الاعاجم مجاهدا فيهم ومستلخما لهم الى أن يلحق بدار الخلافة في دمشق ونما الخبر الى الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين في دار الحرب ورأى ان ما هم به موسى تغرير بالمسلمين فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف وأمر الى سفيره أن يرجع بالمسلمين ان لم يرجع هو وكتب له بذلك عهدا منه ففت ذلك في عزم موسى وقفل عن الاندلس بعد ان أزل الرابطة والحامية بثغورها واستعمل ابنه عبد العزيز عليها وجهاد عدوها وأزله بقرطبة فاتخذها دارا مارة وولى على طنجة ابنه عبد الملك ورجع موسى الى القيروان (٥٩٥) ثم ارتحل الى المشرق (٥٩٦) تاركا ابنه عبد الملك على افر يقية وبذلك صارت الاندلس والمغرب بين أولاده واندرجت ولاية الاندلس يومئذ في ولاية المغرب فكان صاحب القيروان ناظرا في الجميع وقدم موسى على الوليد بن عبد الملك قبل وفاته بثلاثة أيام بما كان معه من الغنائم والذخائر والاموال على العجل وانظهر يقال ان من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي منهم أربع مائة أمير غوطى عليهم التيجان والمناطق الذهبية ودفع اليه ما معه من الذخائر والاموال فغاف ذلك سليمان وأساء مكافأته حتى أفضى الامر اليه فنسكبه ونكب أهل بيته أجمع وعزل ابنه عبد الله عن المغرب وولى مكانه محمد بن زيد مولى قريش وأمره باستئصال آل موسى بن نصير واصطلام نعمتهم فأقن على ذلك وكان سبب غضب سليمان على موسى انه لما توجه الى المشرق وانتهى الى مصر وبلغه الخبر بعرض الوليد و وافاه كتابه يستحثه على القدوم وافاه كتاب آخر من أخيه سليمان يثبته فأسرع موسى للحاق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته كفلنا فلما تولى سليمان الخلافة غضب عليه لما كان منه ونفاه الى المدينة المنورة وبها كانت وفاته (٥٩٨) ثم نارت عساكر الاندلس بابنه عبد العزيز فقتلوه لسنتين من ولايته ويقال ان ذلك كان باغراء الخليفة سليمان لانه خاف أن يخرج عليه متى علم بما حصل لابيه ويقال ان الجنود ناروا به من تلقا أنفسهم لما تزوج أجيالون تزوجة الملك رودريك وانه كان يحدث نفسه بلبس تاج ملوك الغوط

وكان عبد العزيز زنجيرا قاضلا افتتح في ولايته مدائن كثيرة ويقال ان رأس عبد العزيز لما أحضرت بين يدي سليمان أمر فاحضر وهما الى موسى وكان بالسجن فلما رأى الرأس قال ان الله لقد قتلتم رجلا صواما قواما ثم بكى بكاء شديدا وأرسل سليمان على الاندلس من قبله محمد بن زيد البحر وكان عادلا حسن السيرة أما طارق فانهم وان لم يهينوه لم يكافؤوه على ما قام به من الفتوحات العظيمة واعلام شأن الاسلام وهذه وصمة في تاريخ سليمان بن عبد الملك لا تنسى أبدا

وبدخول الاندلس في قبضة الاسلام انتظمت أحوالها وتحسنت حالتها وعم العدل ربوعها وانتشرت المدينة في بلدانها وأمنت سبلها وثمرت زراعتها وتجارتها وصناعاتها فزادت مداخيلها وقويت شوكتها وهايتها الامم المناخة وتقربوا الى ولايتها وأولادها وكما تانيا بالهدايا النفيسة والطرف الفاخرة استجلبوا بالموادتهم وطمعوا في مهادنتهم وبلغ ايرادها في زمن الولاة نحو اثني عشر ألف ألف وخمسة وأربعين ألف دينار معددا الجبايات وأموال الفتوحات ونحوها مما لا يحصى وكان هذا المبلغ في ذلك العصر أعظم من كل مداخيل ملوك أوروبا

وقد نبغ من هذه البلاد العدد الذي لا يحصى من العلماء والفقهاء والشعراء والادباء وراج فيها سوق العلوم واتسع بها نطاق الحضارة حتى صارت تتطاح السحاب رفعة وتقابل الجبال قوة ودامت على ذلك دهر اطوي لا ثم أخذت نجمها في الافول وبدرها في الخحاق الى أن استردها الاسيا سول سكانها الاصليون حينما استنام حكامهم المسلمين وهذه سنة الله في انطلق ولن تجدل سنة الله بتبديلا وكان الوليد مشغورا بالبناش شيد المباني الفاخرة والقصور الشاهقة فن ذلك مسجده الشهير بدمشق أنفق عليه أموالا طائلة وطلب من ملك الروم بالقسطنطينية فحمل اليه الفسيفساء المذهبة والاصباغ والصناعات وبقال انه جعل به ستمائة سلة من الذهب لتعليق القناديل وكان العرب يسمون هذا المسجد ببلاد الوليد ووسع أيضا مسجد المدينة المنورة ووضع المنابر بالبلدان وأعطى المحرورين حتى أغناهم عن سؤال الناس وأعطى كل مقعد خادما وكل ضريفة قائدا

وفي زمن الوليد امتد حكم الاسلام مسافة مائتي يوم من المشرق الى المغرب من بلاد التتار الى بحر الظلمات لانهم تملكوا العرب والعجم والشام والهند والسند وأفر بيقية وسردنيا واسبانيا ونحوها وفي زمنه أيضا ضربت النقود بصورة جديدة وبالغوا في تخليص الذهب والفضة من الغش وأمر أيضا بعدم استعمال اللغة اليونانية وأرقامها في الحسابات وجعل الدواوين بالعربية وكان الوليد لسانا لادب والده عبد الملك كان تراخي في تأديبه لشدة حبه لياه فلم يوجهه الى البادية ليتعلم الفصاحة والشعر وكانت وفاة الوليد سنة (٩٦ هـ) بدير ممران وكانت خلافته تسع سنين وسبعة أشهر

وفي زمن الوليد أتى أحد الروم مظهرا الاسلام وبعد أن نال ادى الوليد حظوة أظهر له أن له معرفة بالدقائق والكنوز فصدق الوليد وأحبه به من يلزمه في بعض جهات الشام وأظهر عدة دقائق مما حل الوليد على أن صدقها من تحت منارة (١) الاسكندرية أموالا عظيمة فجهزه مع جماعة من ثقاته الى الاسكندرية فهدم ثلث المنارة وأزال المرأة ثم فطن الناس أنهم مكيدة فلما استشعر بذلك هرب في مركب كانت معدة له ثم انهم بنوا متهدم بالبحر والاجر وركبوا المرأة كما كانت الان عملها كان بطل

خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) لسامات الوليد كان سليمان

(١) هذه المنارة المشهورة كانت مشيدة بجوزة صغيرة تدعى قاروس قرية من الاسكندرية وصلت بالمدينة سنة (٢٨٥ ق م) بجسر من الاحجار وكانت من المرمم الابيض ارتفاعها ٣٠٠ ذراع (١٨٥ متر) وكان لها عدة طبقات تأخذ في الصغر كلما ارتفعت والذي شيدوها هو وسطرات المهندس الشهير بأمر بطليموس فيلادلف وكانت تقاد النيران في راس تلك المنارة لمدة الليل لهداية السفن وقد بلغت تكاليفها ما يساوي من القرنين

بالرسالة فلما وصل له الخبر بعد سبعة أيام سار مسرعاً إلى دمشق فدخلها وسمت له البيعة على أحسن ما يكون وكان من أول أعماله أن أخذ في تجهيز الجيوش والأساطيل لغزو القسطنطينية وذلك في مدة انسطاسيوس قيصر ولما ثبت قدمه في الخلافة سير تلك الجيوش (٩٨ هـ) مع أخيه مسلمة بن عبد الملك وكانت قوته البحرية مؤلفة من ١٨٠٠ سفينة كل سفينة تحمل مائة نفر سلاحهم وسبب ذلك أن ملك الروم كان مات وتنازع الملك من بعده عدة وأتى أحد أقارب المدعولين وأخبر سليمان بن عبد الملك بموته وضمن له فتح بلاد الروم لوقوع المناقشات والمشاحنات بين سكان القسطنطينية وفتح مسلمة في طريقه عدة مدائن وبعد أن عبر بوزاغ كليبولي من المكان المسمى عمر العرب أخذ في حصار القسطنطينية

وكان انسطاسيوس لما علم من جواسيسه بمسير العرب أخذ في تحصين المدينة وتقوية أسوارها وشحن المخازن والساحات بالقوات والذخائر وركب المنجنيقات على الأسوار وغيرها من الآلات لقتل النيران الأخرى واستمر العرب في الحصار حتى ولي الخلافة عمر بن العزيز وكانوا في تلك الأشياء يزرون ويقلعون واتخذوا بيوتاً من خشب لأقامة العسكر مدة الشتاء ثم إن الروم لما اشتد بهم الحال ولم يجدوا لهم نصيراً أرسلوا إلى مسلمة يطلبون دفع الجزية عن كل رأس دينار فلم يقبل ثم إنهم تحايلاً على ليون الذي كان شجع العرب على محاصرة القسطنطينية ووعده بمال وضمنوا له أن يولوه المملكة إن هو صرف عنهم المسلمين فلما استوثق منهم بذلك وجلس على سرير الملك تحايلاً على مسلمة حتى نبط عزيمته فوقع الفشل في جيش المسلمين وأخذهم الروم من كل جهة وكادوا يهلكون عن آخرهم بعد أن أكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب ولم يتمكن سليمان من إمدادهم لدخول الشتاء وتراكم السلوج في الطريق فلما ولي عمر بن العزيز أرسل لهم الخيل والقماش والطعام الكثير في عمارتين جديدتين الواحدة ٤٠٠ سفينة مشحونة قحمان الإسكندرية والثانية ٣٦٠ سفينة من أفريقيا وكان مضى على مسلمة من حين خروجه إلى أن عاد ثلاثة عشر شهراً وأمرهم بالانصراف عن القسطنطينية وفي زمنه أيضاً أغزى مسلمة بن عبد الملك جهات بلاد الترك ففتح وغنم وغزاً أيضاً عامل خراسان سعيد بلاد الصغد والخزر وغزاً أيضاً جهات الغور والاندلس وسمرقند وما وراء النهر وغير ذلك

وكان سليمان بن عبد الملك عادلاً فصيحاً جليلاً وسميماً ناشأ بالبادية عند أخواله بني عبس وكانت ولايته عينا وركفاً ففتحها بخير وفتحها بخير فأما فتحها بخير فرد المظالم وأخرج المسجونين وأما ختمها بخير فاستخلافه عمر بن عبد العزيز ولم يقم المورخون عليه شيئاً إلا تكية موسى بن نصير وكانت وفاته سنة (٩٩ هـ) متخوماً لأنه كان شراً كولاؤه في ذلك حكايات غريبة وكانت ولايته ستمين وعشرة أشهر ونصفاً وهو ابن ثلاث وأربعين سنة

٤١٧٣٢٣٨٤ وقد زعمت الزلازل ببيتها عدة مرات حتى إن ارتفاعها لم يكن إلا نحو ٢٣ متر في سنة (١١٨٢ م) ثم سقطت تماماً سنة (١٣٠٣ م) وفي عهد أحمد بن طولون بنى في أعلاها قبة من خشب فهدمتها الرياح وبنى الملك الكامل صاحب مصر مكانها المسمى مسجداً وأمامه رواقين والعرب مخصوص هذه المنارة والمرآة التي كانت بأعلاها فلم يقطع بصحة وقد تقدم الكلام على المرآة المحرقة عند كراخيميدس بصحيفة ٩١ فلترجع اه

خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) ولى الخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك وخطب الناس في أول ولايته فقال أيها الناس والله ما سألت الله هذا الأمر قط في سر ولا علانية فمن كان كراهة شيء مما وليته فالآن اه فقال بعض الحضور سبحان الله وليها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ولم يقولوا هذا ويقولوه عمر وقد اشترى رضاه الله عنه بالعدل وطبق ذكره الأرض في ذلك وهادته الملوك وأذنت له بالطاعة تقر باليه واستجلا بالعهد وفي عصره امتد الإسلام في ديار البربر كثير لأنه استعمل على المغرب اسمعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر وكان خيرا أمير وخيرا وال لم يزل حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى تم إسلامهم على يده وبث فيهم من فقههم في الدين وكان عمر لا يأخذ من بيت المال شيئا ولا يجرى على نفسه من النفي عذرهما فقبل له لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال ان عمر بن الخطاب لم يكن له مال وإنما لي يغني

واعلم أن العرب وان كانت مساعيم ذهبت أدراج الرياح في حياتهم هذه المرة على القسطنطينية ونحسروا الكثير من الرجال والسفائق الآن جيوشهم كانت لا تزال منصوره بشمال الأندلس فان فواجب في تلك الاطراف كانوا لا ينفكون عن الاغارة صيفا وشتاء على جنوبي فرانسوا ساعدتهم على ذلك سقوط الدولة المرورية وانجية (١) وقد كان عمر رضي الله عنه بما تصف به من القناعة والزهد يعيل الى تقليل الفتوحات خوفا من تشتت أمر الإسلام بالممالك حتى يقال انه لو أفسح الله له في الاجل لكان رد المسلمين الذين باسبانيا الى هذه الجهة من افرريقية ورد من كان ذهب منهم الى جهات الصين وفرغانة والخزر وهو رأى حكيم غاية في الاصابة ومن محاسنه أنه أبطل سب على من المنابر وقد كان بنو أمية يسبون عليا عقب كل صلاة من عهد معاوية لما كان بينهما مما مر ذكره بك وأمر فابدلوا السب بقراءة قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان ويتناهى القربى الآية ومرض عمر بن عبد العزيز بارض حصص ومات بدير سمعان واشترى من صاحب الدير موضع قبره باربعين درهما ويرى الناس أن يزيد بن عبد الملك دس اليه السم مع خادم كان يخدمه لان بنو أمية علموا من أفعاله أنه ان امتدت أيامه أخرج الامر من أيديهم وأنه لا يعهد بعده الا لمن يصلح للخلافة ويقال ان مسلمة بن عبد الملك دخل عليه في مرضه فوقف عنده رأسه وقال جزاك الله يا أمير المؤمنين عناخيرا فلقد عطف علينا قلوبنا كانت نافرة وجعلت لنا في الصالحين ذكرا وكانت وفاته سنة (١٠١ هـ) وولادته بجبلوان بارض مصر

خلافة يزيد الثاني بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) وقام بالامر من بعده يزيد الثاني ابن عبد الملك بناء على ما وصى به سليمان بن عبد الملك وفي أيامه خرج يزيد بن المهلب بن أبي صفرة واجتمع اليه جمع كثير وقوى أمره وشاع ذكره فارس يزيد عليه أحد مسلمة فقاتله حتى قتله هو وجميع آل المهلب وكانوا مشهورين بالكرم والشجاعة وفي زمنه غزا المسلمون جهات الصغد واقتتلوا مع التركان القفجاق فغنموا غنائم كثيرة ولم يحصل في زمنه من الفتوحات العظيمة ما يقتضى التدوين وكانت وفاته ميلاد البقاء من أرض الشام وهو ابن أربع وثلاثين سنة وكانت ولايته أربع سنين وشهرا وكان به ميل الى اللهو والطرب والاسراف كتب الى عمال عمر بن

(١) اسم العائلة الملوكية الاولى التي حكمت بلاد فرانسوا وخربلو كما يدعى شيلدير بك الثالث (٧٥٢ م) اه

عبد العزيز أما بعد فان عمر كان مغرورا أغررقوه أنتم وأصحابكم وقد رأيت كتبكم اليه في انكسار الخراج والضريبة فاذا أتاكم كتابي هذا فادعوا ما كنتم تعرفون من عهده وأعيدوا الناس الى طاعتهم الاولى أخصبوا أم أجدبوا أحبوا أم كرهوا حيا أم ماتوا والسلام اه وقبل موته عهده بالخلافة من بعده لاتبه هشام ثم من بعده لابنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك

ثلاثة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٣٥ هـ) لمات يزيد بن عبد الملك كان هشام بالرصافة (١) فجاءته الخلافة على البريد فركب من ساعته وسار الى دمشق وبيع بالخلافة من يومه

وفي زمنه كانت الحروب لا تزال مستعرة بين المسلمين والترك وحصل أن قوى المسلمون عليهم فانتصروا وغنموا الاشياء كثيرة وقتلوا من الاترك مقتله عظيمة وقتلوا ملك الترك وكان المتولى للحرب الترك أسدين عبد الله القسرى ودخلوا في هذه الغزوة وبلاذ فرغانة ونحو قندأ وخجندة وأصابهم تعب شديد وقتل منهم كثير (١٠٦ هـ) وغزاهم له أيضا نصر بن سيار بلاد ما وراء النهر ففتح وغنم

ولما كانت بلاد المغرب لا تزال محط اللقن والاضطرابات وكان البربر يقتلوا عاملها بشر بن صفوان ولي هشام على المغرب عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (١١٠ هـ) ولما قدم القيروان نظر في أمر المغرب والاندلس معا وولى من قبله على الاندلس أربعة ولاة الواحد بعد الآخر وهم عثمان ابن أبي نسعة وحذيفة بن الاحوص والهيثم بن عبيد ومحمد بن عبد الله الانجعي ولما حدث من هذا الولى ما أغضب الخليفة عزله وولى مكانه عبيد الله بن الحجاب وكان رئيسا نبلا وأميرا جليلا وخطيبا موقعا وكان قبل ذلك على مصر (١١٤ هـ) فولى الولاية على الاقاليم واستعمل على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي وكان عبد الرحمن هذا من أصحاب الهمم العالية غزا في بلاد الغالة غزوات كثيرة رجع منها منصورا غائما وتقدم حتى وصل الى مدينة بوردو (٢) بفرانسا (١١٤ هـ) ودخل كثير من تلك البلاد في الاسلام ولما رأى النصر مع قود بلوائه عزم على فتح بقية بلاد الغالة فقطع جبال البرانس وفتح الحصون والمدن وامتدت عسكر الاسلام ببلاد اkitانية وبورغونية ولما رأى الغاليون أى القرنا ويون ما حبل بهم من الخراب والدمار انتخبوا فارسا منهم يقال له كرلوس من حاشية ملكهم وكان مقدما اذاداهم وفضة محمودا عند أصحابه وهو المسمى في كتب العرب قارله وعند الفريج (شاول مارتيل) ويقال انه أمر الاهالى أن

- (١) الرصافة اسم لعدة أما كنيذ كرها ياقوت وغيره أشهرها - (١) رصافة بغداد وكانت بجانب الشرق اتخذها المنصور معسكر الجنود وامتدت عمارتها في خلافة المهدي بنيت سنة ١٥٩ هـ وينسب اليها جماعة من أهل العلم - (٢) رصافة هشام قال القرز وبنى وهي مدينة في البرية قرب الرقة احدتها هشام بن عبد الملك لما وقع الطاعون بالشام وكان هشام يفرع اليها في بعض الاوقات ويؤخذ من كلام ياقوت انها بنيت قبل الاسلام وان هشام امرها ولعله الاصح (٣) رصافة قرطبة أنشأها عبد الرحمن الداخل وسمها بذلك تشبيها لها برصافة هشام وينسب اليها جماعة من أهل العلم والادب - (٤) رصافة أبي العباس موضعها بالانبار - (٥) رصافة البصرة بلدة صغيرة - (٦) رصافة الحجاز ويقال لها أيضا عين الرصافة - (٧) رصافة الكوفة احدتها الخليفة المنصور - (٨) رصافة تيسابور - (٩) رصافة واسط قرية بالعراق - (١٠) رصافة بلنسية بلدة من أعمالها ذكرها ابن خلكان اه
- (٢) وتسمى في كتب العرب برديسل أو بردال

لا يعارضوا العرب ولا يخاطروا بانفسهم قائلا ما معناه الرأى عندى أن لا تعترضوهم في خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل ما يصادره فهم في اقبال أمرهم ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ولكن أمهالوهم حتى تمتلى أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتناقسوا في الرياسة ويستعين بعضهم بعضا فينبغي ان تمكنون منهم بأيسر أمر فكان كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضربة واليمانية وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بن يحاورهم من الاعداء وذلك في ولاية عبد الملك بن قطن على الاندلس

ثم جمع شارل جنوده وما أتاه من جنود جرمانيا وغيره للمساعدة وتقابل مع العرب بين مدينتي طور وپواتية وكان وصوله اليهم بغتة ثم تلاقي الجيشان واشتبك المغرب مع المشرق وبقى الحرب سبعة أيام وفي آخرها انجلت عن هزيمة العرب وقتل عبد الرحمن وفر من بقي الى بلادهم (١١٤ هـ) وقد انتشر خبر هذا الانتصار في كل أوروبا وباقتللت الوجوه واطمأنت القلوب وكان ذلك آخر ما تفكر العرب في فتح فرنسا وكانت هذه الواقعة في مكان يسميه العرب بيلاط الشهداء

وقد أضحى عبيد الله بن الحجاج أمور المغرب حتى تمكن سلطانه وهو الذي بنى جامع الزيتونة بتونس واتخذهم ادار صناعة لانشاء المراكب البحرية وذهبت جنوده غازية الى الجنوب حتى جاوزوا السوس الأقصى ودخلوا بلاد السودان ورجعوا منها بالغنائم الوافرة وهو الذي غزت أساطيله جزيرة صقلية (١٢٢ هـ) وضرب على أهلها الجزية وانتشر المسلمون في سائر الجزيرة وفي هذا الوقت انتقض البربر لان العمال أساؤا السيرة وساعدتهم على ذلك خروج العسكر الى صقلية وكانت بدعة الخارجية يومئذ قد سررت في البربر وتلقنهار رؤسهم عن عرب العراق الساقطين الى المغرب نزعوا بهم الى الاطراف داعين ان يمار الامم اليها عسى أن تكون لهم دولة فاستحكمت صبغتها في طعام البربر وشجبت فيهم عروقها فكان ذلك من أقوى البواعث والاسباب في خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب ومن اجتمعت لهم في سلطنتهم ولما بلغ الخبر بذلك الى الخليفة هشام عزل عبيد الله عن المغرب وكتب اليه بالقدوم (١٢٣ هـ) وعين كلثوم بن عياض ووجه معه جيشا كثيفا لقتال الخوارج يبلغ ٨٠ ألف مقاتل على ما قيل وبعد قتال شديد مع البربر هزم جيش الخليفة وتفرق أيدي سببا ولما سمع الخليفة ما جرى على كلثوم وأصحابه قامت قيامته ووجهه حنظلة بن صفة وان الكلبي واليساعلي المغرب (١٢٤ هـ) والتسقى مع العصاة بظاهر القيروان بمكان يدعى الاصنام فهزمهم بعد قتال صعب واستلمهمهم وأحصيت القتلى في ذلك اليوم فكانوا ١٨٠ ألفا وكتب حنظلة بذلك الى الخليفة فذرح فراحا شديدا ثم ولى حنظلة بن الخطار حسام بن ضرار الكلبي من قبله واليساعلي الاندلس (١٢٥ هـ) فاستقام لها الامر حينئذ من الدهر ولم يرل حنظلة على المغرب في أحسن حال الى أن تطرق الخلل الى الخلافة بالمشرق وخفت صوتها الماحدث في بني أمية من فتنة الوليد وما كان من أمر الشيعة مع مروان الحمار آخر خلفائهم

وفي زمن هشام (١٢٢ هـ) خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ودعا الى نفسه وبايعه جمع كثير وكان الوالي على الكوفة يوسف بن عمر الثقفي يجمع العسكر وقاتل زيدا فاصاب زيد منهم مات منه ثم صلبوا جثته وبعثوا رأسه الى هشام فأمر بصب الرأس بدمشق ولم ترل جثته مصلوبة حتى مات هشام وولى الوليد فأمر باحراق جثته فأحرق ولم يكن في بني مروان أعطر

ولأبس من هشام يقال انه خرج حاجا فحملوا ثيابه على ستمائة جمل وكانت وفاة هشام (١٢٥ هـ)
بالرصافة بمرض الذبحة وعمره ٥٥ سنة وكان هشام حازما سديدا رأى غزا العقل عالما بالسياسة
ويوصف بالجل والحرص يقال انه جمع من الاموال ما لم يجمه خليفة قبله

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦ هـ) قام بالخلافة بعد موت
هشام وكان الوليد بالبادية مع أصحابه خوفا من هشام ولما اشتد به الضيق أتاه الفرج بموت هشام وأول
شيء نظر فيه أن كتب الى عامله أن يأتي الرصافة يحصى ما فيها من أموال هشام وولده وكان الوليد
عاقفا على البطالة وحب القيان والملاهي والشراب ومعاشقة النساء وغيرها من أنواع الفسوق
وكتب الى المدينة فحملوا اليه المغنين ولما ثقل ذلك على الرعية والجنود وموه بالكفر دعا يزيد بن
الوليد بن عبد الملك الى نفسه واجتمعت عليه اليمانية ولما اجتمع أمره وكان مقيما بالبادية لوجه
دمشق سار في نفر قليل حتى نزل على دمشق ودخلها السلا وكان يابيع له أكثر أهلها الذين كانوا
ارتحلوا عنها لمجيء الوالي ثم اجتمع يزيد فقبض على عبد الملك بن محمد بن الخجاج عامل الوليد على دمشق
ثم جهز جيشا الى الوليد وجرى بينه وبين الوليد قتال كثير وكان الوليد هرب الى حصص ثم تفرق
الناس عنه فركب عن يمينه وقاتل قتالا شديدا حتى انهزم عنه أصحابه ثم دخلوا عليه قصره
واحتزوا رأسه ووضع الرأس على الرمح وطيف به في دمشق (١٢٦ هـ) فكانت خلافته سنة وثلاثة
أشهر وعمره ٤٢ سنة

وفي زمنه خرج عبد الرحمن بن حبيب من آل عقبه بن نافع في بلاد الاندلس وكان حاول التغلب
عليها فلما قدم أبو الخطار والبا عليها من قبل حنظلة بن صفوان أمير إفريقية أيس منها وركب البحر
الى المغرب واحتل تونس ودعا نفسه فأجابوه ثم قوى أمره وخافه حنظلة فارتحل الى المشرق
(١٢٧ هـ) ودخل عبد الرحمن القيروان فتمكن منها واستولى على المغرب فكان أول متغلب
عليه ولما ولي مروان بن محمد الحجاز ان خلافة بعث اليه بعهدده وكان أمر البربر يومئذ تفاقم
ورأى انخارجية قد أعضل وتواشوا على الامر بكل مكان داعين الى بدعتهم ولما عظم الخطب واقعه
عبد الرحمن بن حبيب (١٣١ هـ) فظفر بهم وقتل جمعهم ولما استتب له الامر غزا صقلية
وسردانية فاتخذ جيشه في سكانها حتى أدعوا الى الجزية ودوخ عبد الرحمن أمر المغرب وكان
مهيبا عظيما جليل القدر

خلافة يزيد الثالث ابن الوليد (١٢٦ هـ) بويع له بالخلافة بعد قتل الوليد وأمه فارسية
ابنة يزيد بن كسرى ولما قتل الوليد قام يزيد بن الوليد خطيبا لخدمته وأثنى عليه ثم قال أيها
الناس اني والله ما خرجت أشرا ولا بطرا ولا حرصا على الدنيا ولا رغبة في الملك وما بي اطراء نفسي ولا
تركية على واني اظلم ان نفسي ان لم يرجني ربي ولكنني خرجت غضبا لله ودينه وداعيا الى كتاب الله
وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم حين درست معالم الهدى وأطقت نور أهل التقوى وظهر الجبار العنيد
المستحل للجرمة والراكب للبدعة والمغير للسنة فلما رأيت ذلك أشفقت ان غشيتكم ظلمة لا تطلع
عنكم على كثرة من ذنوبكم وقسوة من قلوبكم وأشفقت ان يدعو كثير من الناس الى ما هو عليه
فيحسبه من أجهل منكم فاستخرت الله في أمرى وسألته أن لا يكلني الى نفسي ودعوت الى ذلك من
أجانب من أهلي وأهل ولايتي وهو ابن عمي في نسي وكفني في حسي فأراح الله منه العباد وطهر منه

البلاد ولاية من الله وعوناً بالأحوال ولا قوة إلا بالله وحول الله وقوته ولا يتسه وعونه أيها الناس ان
لكم على ان وليت أموركم أن لا تضع لينة على لينة ولا حجر على حجر ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد
حتى أسد ثغره وأقدم بين أهله ما يقرون به فان فضّل رددته إلى أهل البلد الذي يليه ومن هو
أحوج إليه حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء ولا أحد يعوزكم فتقتنوا قننة
أهاليكم فان أردتم بيعتي على الذي بذات لكم فأنالكم به وان ملت فلا يبعثني عليكم وان رأيتم
أحدًا هو أقوى عليها مني فأردتم بيعته فأنأول من بايع ودخل في طاعته أقول قولي هذا وأستغفر الله
لي ولكم ثم نزل اه

ولما ولي يزيد الخلافة لم يبايعه مروان بن محمد والى الجزيرة ولم يحصل في مدنه القصيرة من
الفتوح ما يستحق الذكر وذلك لان البلاد كان هب عليها عاصف الثورة والاضطرابات وأخذت
أر كان دولة بني أمية في التزعزع بخروج كثير من الخوارج وقيام الشيعة لأهل البيت وغير ذلك
مثل عصيان أهل حص وأهل فلسطين وامتناع نصر بن سيار بخراسان ومخالفة مروان
ابن محمد وغير ذلك وسمي يزيد الناقص لانه نقص الناس العشرات التي كان زادها الوليد وقرههم
على ما كانوا عليه أيام هشام وكان دينار وعا وكان موته بدمشق بعد خمسة أشهر واثني عشر يوماً من
خلافته وعمره ٤٦ سنة

خلافة إبراهيم بن الوليد (١٢٦ - ١٢٧ هـ) يقال ان الوليد بايع له بالخلافة من
بعده ويقال ان قوما افتعلوا عهدا عن لسان يزيد بالبيعة له ثم من بعده لعبد العزيز بن الوليد وأشهدوا
عليه وكانت أمه بربرية ولم يتم له الامر وكان يدخل عليه قوم فيسلمون بالخلافة وقوم يسلمون
بالامارة وقوم لا يسلمون بخلافة ولا بامارة وجماعة تبايع وجماعة يأبون أن يبايعوا فبكت أربعة
أشهر حتى قدم مروان بن محمد والى الجزيرة فخلع إبراهيم وولى الامر بنفسه ثم سار إبراهيم فقتل
الرفعة على شاطئ الفرات واستقامت بعد ذلك الخلافة لمروان بن محمد

خلافة مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٣ هـ) وهو آخر خلفاء بني أمية وكان أحزمهم
وأعجبهم وأبلغهم ولكنه ولي الخلافة والامر مدبر عنهم وفي زمنه اتسع خرق الثورات وعمت
الاضطرابات فتلافاها بما أمكنه ولولا أمر الله سبحانه وتعالى لتمكن من قطع شأفتها وقد أرسل
(١٢٨ هـ) محمد بن يزيد بن هبيرة إلى العراق لقتال من به من الخوارج وكانت الدعوة تجددت
بخراسان لبني العباس وقوى حزبه (١٢٩ هـ) وذلك انه من عهد يزيد الاول (١٠١ هـ)
كان محمد بن علي بن عبد الله بن العباس يدعى الخلافة فأرسل اثني عشر نقيباً إلى العراق وخراسان
وما وراء النهر ليجزوا الناس إليه ويدعون إلى بني العباس ويظعنون في بني أمية لاغتصابهم الخلافة
وكان محمد المذکور قوى حزبه مدة يزيد الاول وفي زمن مروان هذا ظهر أبو مسلم الخراساني وكان
أبو مسلم يختلف إلى إبراهيم بن محمد ليوقفه على ماجريات الاحوال وبمساعيه بايع أهل خراسان
لابراهيم ولما حج إبراهيم ومعه أخوه أبو العباس وأبو جعفر وولده وعنه شهره أهل الشام
واليوادي والحرمين وبلغ ذلك مروان وكان قد وقع بين أبي مسلم داعية آل العباس ونصر بن سيار
أمير خراسان مكاتبات طويلة بخصوص ما قام به أبو مسلم من الدعوة لآل العباس انتهت

بقتال قتل فيه أبو مسلم بعض عمال نصر المذكور واستولى على مابأيديهم وكتب نصر بن سيار الى مروان بن محمد يعلمه بالخال وان أبا مسلم يدعوا الى إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكتب في آخر الكتاب

أرى تحت الرماد وميض نار * ويوشك أن يكون لها ضرام
فان لم يطفها عتلاء قوم * يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري * أأبقاظ أميسة أم نيام

وكان إبراهيم الامام وأهله يقيمون بالشرارة من الشام بقرية يقال لها الحميمية (١) فأرسل مروان الى عامله باللقاء أن يسير الى إبراهيم بن محمد المذكور فشدوا ناقة وبعث به اليه فأخذه مروان وزجه في الحبس بجران (٢) حتى مات

وفي (١٢٠ هـ) قوى أمر أبي مسلم واستولى على مدينة مرو ونزل قصر الامارة وهرب نصر ابن سيار ومات بعد ذلك بسنة ثم سار قنطرة وهو من شيعة ابراهيم بن محمد في جيش كثيف من خراسان طالباً يزيد بن هبيرة أمير العراق من جهة مروان فلما التقيا انهزم ابن هبيرة وعدم قنطرة ثم بويع أبو العباس السفاح بالكوفة بعد مجيئه من الحميمية لان ابراهيم الامام لما قبض عليه مروان كان أوصى بالخلافة الى أخيه السفاح وبقي مستخفياً في الكوفة زمناً ثم ظهر وسلم عليه الناس بالخلافة ودخل دار الامارة بالكوفة (١٣٢ هـ) ثم خرج الى المسجد وخطب وصلى بالناس وبايعه الناس ثم ولى الولاية وبعث بالبعوث

وكان مروان بن محمد لما استتدت وطأة بني العباس خرج من حران يطلب أبا عون عبد الملك المستولى على شهر زور من جهة بني العباس ثم تلاقيا على نهر الزاب (٣) وكان مروان في مائة ألف وعشرين ألفاً ولما دارت رحى الحرب بين الطرفين داخل عسكر مروان الفشل وصار لا يريد أمراً الا وكان فيه الخلل حتى تمت الهزيمة على عسكره وكان مع مروان ابراهيم بن الوليد الخليفة المخلوع (١٣٢ هـ) ولما انهزم مروان أتى الموصل فطرده أهلها فأتى حران فأقام بها أياماً

(١) الحميمية بليدة بالقرب من أرض الشام اهـ

(٢) حران قال باقوت مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أثور وقصبة ديار مصر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان وهي على طريق الموصل والشام والروم قبيل مميت بهاران أخى ابراهيم عليه السلام لانه أول من بناها وقال قوم انها أول مدينة بنيت بعد الطوفان وكانت منازل الصابئة وفتح في أيام عمر بن الخطاب على يد عياض بن غنم قال ابن حوقل وبها سدنة الصابئة السبعة عشر وفيها نيل عليه مصلى للصابئة يعظمون قدره وينسب الى ابراهيم وكان للصابئة فيها هيكل على اسم هرمس أما المدينة فخراب الآسن وبها طلال مبان قديمة وينسب الى حران جماعة من أهل العلم والادب

(٣) الزاب اسم عدة أنهر بالعراق قبيل ان الذي حفرها ملك من ملوك الفرس القديما اسمه زاب وأشهرها الزاب الاعلى أو الاكبر ويقال له المجنون لشدة جريه واسمه القديم ليكوس أو زابون أو زابا أو زابيس ونجرجه من جبال كردستان غربي بحيرة أورميا ويصب في الدجلة جنوبي الموصل والزاب الاسفل أو الاصغر واسمه القديم كبروس ونجرج من جبال قرب اذربيجان وعليه كان مقتل عبيد الله بن زياد بن أبيه وبين بغداد وواسط زابان آخران يسميان الزاب الاعلى والزاب الاسفل أيضا ويوجد بلاد المغرب من افريقية نهر وصقع يقال لهما الزاب قال باقوت والزاب كورة عظيمة ونهر جراب أرض المغرب على البر الا اعظم عليه بلاد واسعة وقريه تواقنة بين تلسان وجعلها سنة والنهر متسلط عليها

ثم حل أهله وخيله ومضى منهزم الى حصن لما دنا منه عسكر السفاح ومن حصن الى دمشق ومنها الى فلسطين وكان السفاح كتب الى عمه عبد الله بن علي باتباع مروان فسار عبد الله في أثره ثم أرسل السفاح في أثره أخاه صالح بن علي بن عبد الله فسار وراه حتى نزل مصر ومروان ينهزم أمامه حتى أدركه في كنيسة بقرية بوضيرة وانهزم أصحاب مروان عنه فقتل قتله رجل كوفي (١٣٢ هـ) المذكورة

ثم رجع صالح المذكور من الشام بعد أن تركها حامية وواليا ولما وصل الرأس الى السفاح وهو بالكوفة سجد لله شكرا ثم أخذت نساء مروان وبناته الى صالح بن علي فأمر بحملهن الى حران أما ولدا مروان عبد الله وعبيد الله فأنهما هرا بالى أرض النوبة ومنها الى الحبشة ثم عبر عبد الله مضيق المسدب الى أرض العرب في خلافة المهدي وكان عمر مروان لما قتل اثنتين وستين سنة وأمها كردية وكان يلقب بالجمار لقوته وصبره على القتال وبالجمدي لانه تعلم على جعد بن درهم وكانت مدة خلافته خمس سنين وأشهرها ومات معه كاتبه عبد الحميد بن يحيى الكاتب الشهير وجر وان انقضت دولة بني أمية وكانت مدة خلافته ٩٠ سنة وثلاثة أشهر وثلاثة أيام منذ اعتزل الحسن رضى الله عنه عن الخلافة وخرج منهم أربعة عشر خليفة وامتد ملكهم من بحر الخزر الى المحيط الاطلسي ومن نهر الكانج الى شمالى اسبانيا

الفصل الرابع

الدولة العباسية

(١٣٢ - ٦٥٦ هـ)

سلافة السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) لما اضطرب جبل بني أمية انتقل الملك الى آل العباس واعلم ان الدولة العباسية كانت دولة ذات خداع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والخداع فيها أوفر من قسم القوة والشدة والنجدة الا أنها كانت دولة كثيرة الخاسن بحسب المكارم أسواق العلوم فيها قائمة وبضائع الآداب فيها نافقة وشعائر الدين فيها عظيمة والخيرات فيها إدارة والديبا عامرة والحرمات مرعية والثغور محصنة حتى كانت أواخرها فانترا خير واضطرب الامر كما سيجيء

وأول من تولى الخلافة منهم أبو العباس السفاح وكان كريمًا وقورًا عاقلاً كثير الحياء حسن الاخلاق تحول لما بويع بالخلافة الى الأنبار وولى أقاليمه الولايات ولما استوثق له الامر ودانت له الجهات تتبع بقايا بني أمية ورجاله فوضع السيف فيهم وكان اجتمع من بني أمية عند عبد الله بن علي بن عباس نحو تسعين رجلاً فلما اجتمعوا عند حضور الطعام دخل سديف الشاعر فأنشده

لا يفتك منك ماترى من رجال * ان تحت الضلوع عدا دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهركها أمويا

ثم أمر عبد الله بهم فضر بواب المدح حتى وقعوا وبسط عليهم الانطاع ومد عليهم الطعام وأكل

الناس وهم يسمعون أنهم حتى ماتوا جميعا وبالغ بنو العباس في استئصال شأفتهم حتى نبشوا قبورهم
بدمشق فنبت قبر معاوية ونبت قبر يزيد بنه ونبت قبر عبد الملك ونبت قبر هشام فوجد صحبها فأمر
بصلبه فصلب ثم أحرقة بالنار وذراعه وصار يقتل بنى أمية حيث وجدوا فلم يفلت منهم غير رضيع
أو من هرب إلى الأندلس واستصقوا أموال من صحبهم أو خدمهم ولم تطل مدة السفاح ثبات بالانبار
(١٣٦ هـ) واستوزر السفاح حفص بن سليمان بأسلمة الخلال وكان سمحا كريما فصحا عالما
بالاخبار والشعر والسير والجسد حاضر الحجة ذابار ومروءة ظاهرة وكان لما استوزره فوض
الامر اليه وسله الدواوين ولقب وزير آل محمد ويقال ان بأسلمة المذكور تغير على بنى العباس
لماراهم يفعلون خلاف ما يوعا عليه فسعى في قلب دولتهم ومبايعه آل علي قلماء لم السفاح بذلك
تغير عليه وكتب إلى أبي مسلم يعله بما عزم عليه أبو سلمة المذكور من نقل الدولة عن بنى العباس
فلما قرأ أبو مسلم الكتاب فطن لغرض السفاح فأرسل قوما من أهل خراسان قتلوا بأسلمة وفي خلافته
استولى قسطنطين ملك الروم على ملاطية (١٣٣ هـ) وكان عمر السفاح لممات ٦٣ سنة ومدة
خلافته أربع سنين وخمسة أشهر

خلافه المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) كان السفاح قبل موته عهد بالخلافة من
بعده إلى أخيه أبي جعفر المنصور ثم من بعده إلى ابن أخيه عيسى بن موسى وجعل العهد في ثوب وختم
عليه ودفعه إلى عيسى بن موسى وكان أبو جعفر المنصور في الحج لممات السفاح فأخذ له البيعة على
الناس عيسى بن موسى وأرسل يعله بذلك وموت السفاح وكان أبو مسلم الخراساني في الحج مع أبي
جعفر فبايع أبو مسلم أباجعفر وبايعه الناس ولم ترض هذه البيعة عبد الله بن علي بن العباس عم
المنصور فبايع لنفسه وشق عصا الطاعة فأرسل أبو جعفر أبو مسلم اقتال عمه وكان بأرض نصيبين
وطال القتال بينهما وواجهت أبو مسلم بأفواج الخداع والحيل حتى هزمه هو وأصحابه ففر إلى جهة العراق
واستولى أبو مسلم على عسكره وكتب بذلك إلى المنصور ثم ان المنصور قبض على عمه المذكور وكان
مستخفيا عند أخيه سليمان بن علي من حين هرو به وأعدمه وكان المنصور تغير خاطره على أبي مسلم
وحقد عليه أفعالا مغارة ثم قتله وللورخين في سبب ذلك أقوال كثيرة متخالفه قالوا انهم لما سجا كان
أبو مسلم يظهر الكبر ويكسوا الأعراب ويصلح الآبار والطرق وينشي المصانع فاشتهر بذلك وعلاصيته
وعند رجوعهما كان أبو مسلم يتقدم المنصور ولذلك أراد بعد هزيمة عمه أن يبعده عن مركز الخلافة
فولاه مصر والشام فلم يرض أبو مسلم ويقال أيضا ان أبو مسلم لما استولى على معسكر عبد الله بن
علي وجد به أموالا كثيرة فأخذها لنفسه ولم يظهر منها شيئا للمنصور وقيل غير ذلك مما هو مبسوط في
التواريخ ثم ان المنصور أرسل إلى أبي مسلم يدعو اليه فلم يجيب معتذرا بأعذار واهية وطالت بينهما
المكاتبات في ذلك وآخر الامر تحايلا على أبي مسلم حتى حضر المداين وكان بها المنصور فلما دخل
عليه قبل يده وقابله المنصور بالترحاب ثم أمره بالانصراف لاختذ الراحة ولما كان من الغدأ كن
المنصور له بعض حراسه فلما حضر اليه أخذ المنصور يعدد سقطاته وأبو مسلم يعتذر ثم خرج الحرس
بإشارة من المنصور فقتلوا بأسلمة سنة (١٣٧ هـ) وكان أبو مسلم كما علمت هو الذي مهد لبني العباس
الجلوس على تخت الخلافة وهو الذي جذب إلى خزيم أهل خراسان وغيرها وبمساعيه الغربية
وأعماله العجيبة وخطبه البليغة ترابع بنو العباس في دست الخلافة الإسلامية وكان أبو مسلم ذار رأى

وتدبير ومروءة وكان فتاكاً قاسياً القلب سوطه سيفه وفي خلافة المنصور (١٣٩ هـ) سار جيش عظيم ليعمر مدينة ملاطية ويصلح أسوارها وقلاعها من تخريب الروم ولما علم ملك الروم بجريه جيش العرب أراد ملاقاةهم فلم يقدر على ذلك

وفي خلافة المنصور تأسست الدولة الاموية بالاندلس وذلك أن السفاح لما قتل بني أمية لم ينج منهم الا الرضيع ومن هرب الى الاندلس كاتقدم وكان من الهارين عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك فانه سار من جهات القرات الى جبال المغرب وكان والياً هناك عبد الرحمن بن حبيب من آل عقبة بن نافع وبعد أن هاجم على وجهه زمناً في قفار آفريقية آواه بعض شيعة بني أمية بالمغرب الاقصى وما زال مستخفياً حتى مكنته الفرصة وسكنت عنه العيون فعمبر في نفر قليل الى الاندلس فلقاه أهلها بالترحاب وأقاموه ملكاً عليهم (١٣٩ هـ) واستقام أمره بالاندلس وبني بقرطبة المسجد الجامع وغيره من المباني الفاخرة وقد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان في أول أمره يدعو للمنصور العباسي ثم قطع دعوته ومهد الدولة بالاندلس وأثل بها الملك العظيم لبني مروان ومن يومئذ خرجت الاندلس عن نظر صاحب القبر وان بل وعن نظر الخليفة بالمشرق

ومن الحوادث المهمة التي حصلت في خلافة المنصور خروج الراوندية عليه وهم قوم من خراسان من أتباع أبي مسلم يقولون بالتنازع وكان المنصور حبس قوما منهم لانهم ستم أموراً مخالفة بالدين فغضب الراوندية وأخذوا تعشا وحلوه ومشوا به كأنهم في جنازة حتى بلغوا باب السجن فرموا بالتعش وكسروا باب السجن وأخرجوا كبرهم ثم طلبوا المنصور وهم نحو ٦٠٠ رجل فتنادى الناس وأغلقت الابواب وخرج المنصور ماشياً واجتمع عليه الخلق وحاربوا الراوندية حتى بددوهم

وبعد ثوراة الراوندية كرم المنصور الاقامة بالهاشمية لجوار أهل الكوفة فانه كان لا يأمن على نفسه منهم وخرج برتاله موضعاً يسكنه وكان أهل الحدق أشاروا عليه بأن تكون اقامته على نهر الصراة^(١) لانه بين أنهار لا يصل اليه عدوه الاعلى جسراً فذا قطع الجسر لا يمكنه الوصول ويكون هو متوسطاً بين البصرة والكوفة ووسط الموصل والسواد وتكون الدجلة والفرات والصراة خنادق مدينة تحيئه الميرة من البحر والبر فوق اختياره على مكان اسمه بغداد ولما أراد البناء جعل عليه أربعة من القواد وأمر أن يكون عرض أساس القصر من أسفه خمسين ذراعاً ومن أعلاه عشرين (١٤٥ هـ) وكل بناؤه سنة (١٤٩ هـ) وفي أيام المنصور قامت العائلة البرمكية واشتهرت بالسخاء والمروءة وكان السفاح قد استوزر بعد أبي سلمة خالد بن برمك من رجال الدولة العباسية وكان خالد فاضلاً جليلاً كريماً حازماً يثق خف على قلب الخليفة وكان عظيم المنزلة عنده كثر عليه الواقدون ومدحه الشعراء واتبعه الناس فلما تولى المنصور الخلافة أقره على وزارته وأكرمه واستشاره

وفي زمن المنصور وبهيمته أخذ العرب في دراسة علوم الفلك والطب وغيرهما وأمر المنصور أيضاً بترجموا له من اللغات الاجنبية عدة مؤلفات من الفلسفة والطب والفلك وكانت وفاة المنصور سنة (١٥٨ هـ) يترك ميراثاً عظيماً على أميال من مكة وهو محرم بالحج وعمره ٦٣ سنة وكان رجب الجبهة

(١) الصراة نهر بالعراق

الابل والبغال وصارت الاخبار والمراسلات تأتيه متواصلة (١٦٦ هـ) وفي زمنه ظهر المقنع الخراساني وكان رجلا غريبا ادعى النبوة والربوبية واستمال اليه جماعة فجهز المهدي عليه الجنود فقتلوه ويقال انه هو الذي قتل نفسه بيده لما حاصروه ووفى المهدي بما سبذان وكانت خلافته نحو عشرين سنين وعمره ٤٣ سنة ويقال انه مات مسموما

خلافه موسى الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) لما توفي المهدي كان الرشيد معه في ماسبذان فكتب الي الهادي يعلمه بذلك والبيعة له وتبوع الهادي الزنادقة كما به وكان الهادي يحارب أهل طبرستان فلما بلغه الخبر بادر بالسير الى بغداد فوصلها بعد عشرين يوما فوجد آخاه أخذ البيعة له وفي السنة الاولى من خلافته ظهرت دعوة الحسين من اولاد علي ومعه جماعة من أهل بيتهم واشتد أمر الحسين المذكور فقاتله عامل الهادي في المدينة عمر بن عبدالعزيز وآل الامر بينهما الى انه هزم عمر ومبايعة الناس الحسين وأقام الحسين في المدينة مع أصحابه يتجهزون ثم لحقوا بمكة واتفق أنه كان حج تلك السنة جماعة من بني العباس وشبهتهم فلما علموا ذلك انضم اليهم جماعة منهم وقوادهم واقتتلوا مع الحسين فقتل الحسين وانهزم قومه وأفلت من المذكورين ادريس بن عبد الله بن الحسن فذهب الى مصر مختفيا ومنها الى المغرب الى أرض طنجة وبقى هناك الى أن تملك تلك البلاد ومنه جاءت الدولة

وكان البريد أيضا مستعملا عند الدول الاسلامية التي أتت بعد بني العباس فكان له في كل مركز أمير الخوروشاد ورجالات بهم احضار المعاليم والخيل وعليها التشاهير أي الطقومة وفي كل بريد صفايح من الخناس أو من القضة بقدر كف اليد على احد وجهها لاله الا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وعلى الوجه الثاني مناقب حاكم الوقت فان كانت بلاد الشام يكتب عليها اسم نائب السلطنة في الولاية التي منها ابتداء السير وتسمى الصفحة بشراية من حرير أصفر ويلقها البريد في رقبته بحيث تكون الشراية بين كتفيه وكانت تسلم لكاتب السر فاذا تعين أحد لرئاسة البريد أعطاه كاتب السر صفحة من هذه الصفايح ومكتوبا بخط يده ويرسله الامير أخور لاستلام الخيل اللازمة واسم ذلك النخص يكون مكتوبا في سطرين من آخر التذكرة فاذا رجع رد الصفحة له وكان للبريد عدة طرق مسلوكة بين القاهرة ودمشق وقدرت الملك الظاهر بيبرس البندقداري البريد بين القاهرة ودمشق حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل الى دمشق في اربعة ايام ويعود في مثلها فصارت اخبار الممالك ترد اليه في كل جمعة مرتين ويتحكم في سائر ممالكه بالعزل والولاية وهو مقسم بالقلعة (٦٥٩ هـ) وكان البريد يمشي بمصر في اربع جهات الاولى الى قوس واسوان والثانية الى حدود الاسكندرية والثالثة الى نجر دمياط والرابعة الى جهة القرات وهي حد المملكة الشرق وتقسم هذه الاخيرة الى جملة فروع

وما زال أمر البريد مستمرا فيما بين القاهرة ودمشق وله بكل مركز عدة من الخيول مع ما يلزمها من السواس والسواقين وغيرهم حتى استولى تيمورلنك على دمشق (٨٠٣ هـ) فغزبت مراكز البريد واختل بانتطاعه الامن في طريق الشام وغيرها وكان لا يركب خيل البريد احد الا بمرسوم سلطان وكان الطريق بسببه عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج اليه المسافر ولكثرة الامن كانت المرأة تسافر من القاهرة الى الشام بفردا راكبة او ماشية وما زال امر البريد بين انتظام واختلال حتى أتت البرد الحديثة (البوسطة) فحمت اثره تماما الا في بعض الممالك فانه لا يزال مستعملا منتظما كما في دولة المغرب الاقصى وقد تقدم كلام عن البريد ايضا بصحيفة ١٩١ هـ

الادريسية ثم المغربية ثم المهديية ثم المراكشية (٤٦٣ هـ) كما سبقت ذلك بتاريخ مصر كما كسولم يحصل في زمن الهادي القصير حوادث أخرى تستحق الذكر وسبب وفاته كما روى أهلنا في الخلافة كانت أمه الخيزران تستبد بالأمور دونه وكتبته يوم ما في أمر لم يجدها إلى أجايبها سيديلا فقالت لا بد من الأجابة إليه فغضب الهادي وقال والله لا قضيتها لك قالت اذا سألتك حاجة أبدا قال لا أبالي فقامت مغضبة فقالت مكانك والله لأن بلغني أنه وقف في بابك أحد من قوادى لا ضربن عنقه ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك أمالك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك فانصرفت وهي لا تعقل من الغضب وكانت تتصرف في أمور الدولة حتى صار معظم العقد والحل بيدها ويقال ان الهادي لما مرض وضعت عليه جوارحها فقتلوه بالجلوس على وجهه وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر

خلافة هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) جلس هرون الرشيد بن محمد المهدي على تخت الخلافة وعمره ٢٢ سنة وأشهر واستوزر يحيى بن خالد وألقى إليه مقاليد الأمور وهو من أعظم ملوك الإسلام همة ونجدة وشهرة فاضت بناييع العلوم في خلافته وتفجرت أنهر الحضارة في عصره وعمل أعمالا فاق بها من تقدمه من ذلك أنه أمر بعزل الثغور (١) كلها عن الجزيرة وقتسرين وجعلها عمالة واحدة وسمها العواصم (٢) واجتهد في ترميم الثغور وإقامة معالم الإسلام وتشييد المعقل والحصون وفي أوائل حكمه مات بقرطبة عبد الرحمن الأموي المشهور بالداخل بعد أن ملك بالاندلس ٣٣ سنة وخلفه ولده هشام وخرج الرشيد حاجا (١٧٣ هـ) وقسم في الحرمين أموالا كثيرة وكان حجه ماشيا على البود تغرش له من منزل إلى منزل وفي أوائل خلافته (١٧٥ هـ) ظهر يحيى بن عبد الله بن الحسين والتف عليه كثير من الديلم (٣) فجهز عليه الرشيد الفضل بن يحيى وما زال به الفضل يلاطفه ويبدل له الامان حتى استرضاه وأتى به إلى الرشيد فأكرمه ثم حبسه حتى مات وظهرت فتنة في دمشق بين المضربيه واليمانية انتهت بالمصالحة بين الطرفين بمساعي عامل الرشيد على دمشق بعد أن قتل من الطرفين جمع كثير وفي (١٨٠ هـ) توفي هشام صاحب الاندلس وكانت خلافته سبع سنين وسبعة أشهر وخلفه ولده الحكم ولم يستقر له الملك الا بعد قتال عنيف حصل بينه وبين عمه سليمان وعبد الله بن عبد الرحمن الداخل وفي تلك الفتنة اغتتم الفريخ فرصة القتال فذهبوا إلى الاندلس وفتحوا مدينة برشلونه كما سياتي بتاريخ الاندلس ثم ظهرت عدة اضطرابات في بعض الجهات فتمكن الرشيد بحكمته من قمعها وفي (١٨١ هـ) غزا الروم ففتح وغنم وولى ابراهيم بن أغلب افرقيسية وهو رئيس دولة الاغالبة كما سياتي الكلام عليهم في

(١) الثغور في الاصل مواضع المخافة من فروع البلدان وكانت مدن بين الاسلام والروم أشهرها مطية والحلث ومرعش والهأرونية نسبة إلى هرون الرشيد وعين ذر به واذنة وطرسوس والمصبصة وغيرها اه
(٢) والعواصم بلاد قصبتها النطاكية

(٣) أمم قديمة متعاصرة للترك في أيام الفرس القدماء ولهم في التواريخ أخبار كثيرة كالترك وقد خرج منهم بعض دول كبيرة بالشرق وفي الخلافة العباسية كانت دولة بني بويه بالعراق منهم وكانت أيضا قبلها دولة بني مردويه بخرجان وأخيه وشمكير بعدهم أولاد بعدهم وقد ذكر ابن خلدون وابن الأثير شيئا كثيرا من أخبار الديلم وبلادهم بالفتن الشمالية الغربية من فارس يجدها شماليا لمحبة ناليس الروسية وجنوبا بسلسلة البرزاقاصلة بينهما وبين اذربيجان وعراق الجهم ومازندان وشماليا بشرق بحر قزوين وهي بلاد جيلان أيضا ومن أحسن عمالات فارس

تاريخ تونس وفي (١٨٢ هـ) خرج الخزر من مدينتهم باب الابواب (١) (در بند) وأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا أكثر من مائة ألف وانهم كوا أمر اعظيم لم يسمع بمثله وسبب ذلك انبثة خاقان الخزر التي كانت جملت الى الفضل بن يحيى البرمكي وماتت في الطريق بقوم مدينة برذعة (٢) وفي تلك السنة غزا المسلمون الصائفة وبلغوا أفسوس (٣) مدينة أهل الكهف الشهيرة وقد أراد هرون أن الامر يستمر في أولاده من بعده بدون أن يحصل بينهم نزاع أو خلاف يؤدى الى ما لا تحمد عقباه فبايع لولده الامين بولاية العهد وأعطاه العراق والشام الى آخر المغرب وولى المأمون العهد بعد الامين وضم اليه من همذان الى آخر المشرق وسلمه الى جعفر بن يحيى البرمكي وبايع لابنه القاسم من بعد المأمون واقبله المعتصم وجعل خلعه واثباته للمأمون وجعله في حجر عبد الملك بن صالح وضم اليه الخزرية والتغور والعواسم ثم في (١٨٦ هـ) قصد الرشيد الحج واستعجب معه أولاده الثلاثة وفرق بالمدينة أمرو الاطائلة ثم سار الى مكة فأعطى العطايا وأحضر الفقهاء والقضاة والقواد وكسب كتابي العهد وأشهد فيهما بالوفاء على الامين والمأمون وأخذ عليهما الايمان المغلظة وأشهد على ذلك من حضر من أرباب الدولة وعلق الكتابين في الكعبة ايشهد جميع المسلمين على ذلك ومع ذلك فكان الرشيد لا يزال يتفكر في أن تسيل الدماء بعد موته فجدد البيعة للمأمون وأرسل الى المأمون في بدله العهد على الامين لانه كان اذالك في طبرستان (١٨٩ هـ)

ومن الحوادث الشهيرة التي ألفت فيها المؤلفات وأفردها المؤرخون لها الفصول والابواب حادثة الايقاع بالبرامكة وحاصلها أن الرشيد أوقع بالبرامكة لتكبرهم وعظمتهم واثباتهم ما يحل بسياسة الدولة ونظاماتهم او كرامتها فقتلهم عن آخرهم واستصنى أمواليهم وكانت شيئا يحجل عن الوصف وقد تحامل بعض المؤرخين على الرشيد بسبب هذه الفعلة الشنعاء ولكن لو تدبر والامر لو وجدوا أن الحق ييسده ولا يصح أن يوجه اليه اللوم الامن جهة أنه كان من المروءة وحسن الصنيع أن يخفف عنهم ما أصابهم من العذاب ولما كانت مسألة الايقاع بالبرامكة من المسائل الطويلة العريضة ضربنا عن أمر التفصيل فيها صفحا فن شاء فليراجعها في المطولات

(١) باب الابواب أو در بمدينة تبسة حصينة ببلاد طاعستان واقعة على الشاطئ الغربي من بحر الخزر أهلها مسلمون وأرضين ويهود و يهاصور يتدفق باعلى مسافة ١٣٠ ميلا مارا بطبرستان ان أقامه القرس لحماية أنفسهم من غزوات البرابرة الشمالية ولا يعرف بانها بعضهم ينسبه لاسكندر والبعض لكسرى الاول وسنة ١٧٢٨ م استخلصها الغربيون الخزر واستولى عليها القرس والترك والمغول وهي الآن للروس من سنة (١٧٩٥ م)

(٢) مدينة بأقصى آذربيجان وهي قصبه تلك البلاد بناها قباذ الملك وليس بين العراق وخراسان بعدا يرى مدينة أكبر ولا أنصب ولا أحسن موضع من أفقر برذعة كما قاله الاصطخري

(٣) كانت احدى المدن الايونية لا تبتقى عشر موقعا على الجانب الجنوبي من نهر قسطنطية على مسافة ٦٠ كيلومترا من ازير قال استرابون ان الذين عمروها هم السكاريون ثم تداولها القرس والمقدونيون والرومانيون وعند وفاة اسكندر استولى عليها السيماخوس وهما ارسيناوى وكانت مدة الرومان محط التجارة ويقال انها مسقط رأس أميروم الشاعر الشهير وكان من أعظم وأنغربانها هيكل ديانه الذي يصد من بحاث الدنيا السبع وكان يقال ديانه الذي بهن العاج من يانيقوش ذهبيته غاية في الاتقان وقد أحرقت هذا الهيكل أرسطراط يوم ولادة اسكندر الاكبر ويقال انه أضرم فيه النار لشهرايمه ولكن أهل افسوس فهو ان ينطق أحدا باسمه ليكون ذلك جزاء له وعقابا وقد التأم في تلك المدينة عدة مجامع نصرانية أهمها مجمع أساقفة آسيا (١٩٦ م) وليس للدينة المذكورة الا من الآثار الابعث اطلال شيدت فوقها عدة قرى وموقعا الا ان باحية اياسلوغ من ولاية آيدين

وكان هرون الرشيد معاصر الشerman الكبير ملك فرنسا وقد ترددت بينهما السفراء وتهاديا وكان من ضمن هدية الخليفة اليه أشياء نفيسة من صنائع المشرق منها ساعة دقافة يقال إن أهل فرنسا لما رأوها داخلهم الدهول والحيرة حتى ظنوا أن ذلك سحر ومنها شطرنج بديع الصنعة وغير ذلك مما يدل على بقر الصنائع وتقدم الحضارة في الشرق وتأخر الغرب ويقال إن هرون الرشيد كان يقصد من مخالفة شارلمان إغراءه على الهجوم على بلاد الاندلس نحو أنار بنى أمية أعدائه من تلك الاطراف ثم ضم الاندلس الى عمالات هرون الرشيد

وكان الروم خلعوا ملكتهم أربى (١٨٧ هـ) وملكوا عليهم نيسو وفورس المعروف في كتب العرب باسم نيقوفور فكتب الى هرون الرشيد كتابا يقول فيه أما بعد فإن المملكة التي كانت قبلي أقاتمت رعا وأقامت نفسها يد فأجعلت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بجمل أضعافه اليها وما ذلك الا من ضعف النساء وجقهن فإذا قرأت كتابي فاردد علينا ما سلبته من أموالنا والافالسيف يقضى بيننا فلما وصل الكتاب الى هرون الرشيد وقرأه اغتأظ جدا وكتب من ساعته من هرون الرشيد أمير المؤمنين الى نيقوفور رزيعيم الروم فهمت كتابك والجواب ما تراه لا ما تسمعه ثم ركب من ساعته حتى نزل على هرقله في مائة ألف وخمسة وثلاثين أنقمان المرتقة سوى من لا ديوان له من الاتباع والمتطوعة ففتح وغنم وأرسل القواد بالجيوش فعاثوا وغنموا وهزمت جيوش الروم شرهزيمة وأذعن ملكهم لدفع الجزية كما كانت أربى من قبل ولما تقضى أهل قبرس العهد استعمل الرشيد حميد بن معيوب قائد اعلى الاساطيل التي بسواحل الشام ومصر فسارت الى قبرس ونزلتها وهزمت الثوار وخربت وسبت وبلغ سبي أهل قبرس ١٧ ألفا وكان من بينهم أسقف قبرس ولما عقدت الهدنة بين الروم والمسلمين وكان أقبل فصل الشتاء وانصرف المسلمون عنهم خرج ملك الروم بجيوشه وعاث في تلك الجهات فركب عليهم الرشيد ثمانية ولم تنعه ثلوج الجبال وجرح نيقوفور في هذه الحار بة بجروحها بليغة ولم يزل العرب يخربون ويفتحون ويسلبون ولايات اليونان في البحر الاسود الى قبرس حتى رجع نيقوفور عن العيصان وطلب الصلح فمخ الحاء على أن تبقى مدينة هرقله خربة وعلى أن يكون المال المدفوع مسكوكا عليه اسم نيقوفور واسم أولاده الثلاثة وكان الرشيد يسير على خطة المنصور في بذل الاموال فلم يرحل خلية قبله أبذل منه وكان لما يقعد عن الغزو بغزو بالصائفة كبار أهل بيته وقواده

ومن الذين خرجوا على الرشيد في خلافته رافع بن الليث قميلا وراه النهر (١) وكان من أعظم الثوار وأشدهم بطشا ومن الليث هذا خراج الدولة الصفارية ثم في (١٩٣ هـ) اشتد المرض على الرشيد فمجران (٢) فسار الى طوس (٣) ومات فيها وكان قد سير ولده المأمون الى مرو وكان عمره

(١) يطلق هذا اللفظ عند العرب على البلاد والجهات الواقعة بآسيا الى ما وراء نهر جيحون المشتملة على بلاد الصغد الشمالية وتقسيم من بلاد بلخ وتسمى عند الفرس بخراسان وكسيان اه

(٢) قال ياقوت هي مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان فبعضهم يعدها من هذه وبعضهم يعدها من تلك وهي من أعمال ما زلنا نخرج منها كثير من الادياء والعلماء والفقهاء ولها مياه كثيرة وضياع عن بضعة فتمت سنة ٢٢ هـ على يدسو بن مقرن صلح على الجزية أما الآن فهي بلاد لا أهمية لها

(٣) طوس كانت قديما عاصمة لبلاد خراسان واقعة على النهر المضاف اليها وقد نخر بها التار ولم يبق منها الا بعض اطلال بالقرب من مدينة مشهد

٤٦ سنة وولايته نحو ٢٣ سنة وأشهر وكان الرشيد عاقلاً مهيماً على الهمة حليماً يحسن التدبير ميالاً للعلماء والشعراء حتى قيل إنه لم يجتمع على باب ملك أو سلطان من العلماء والشعراء مثل ما اجتمع على باب هرثون الرشيد وكانت زوجه زبيدة وهي التي أخرجت الماء إلى مكة من عين قريبة منها وصرفت على ذلك أموالاً طائلة ولا تزال تلك العين للآن تدعى بعين زبيدة ومنها شرب أهل مكة وقد تعهدوا الملوك والسلاطين بعد ذلك بالإصلاح إلى يومنا هذا

سنة ١٩٣ - ١٩٨ هـ) لما توفي الرشيد بويع للأمين بالخلافة في عسكر الرشيد وكان المأمون حينئذ بخر و وكان الأمين ببغداد ولما وصله خاتم الخليفة والبردة والقضيب ببغداد أخذت له البيعة وتحول إلى قصر الخلافة ثم قدمت عليه أمه زبيدة وكانت بالرقبة ومعها خزانة الرشيد فقتلها بها الأمين بالانبار ومعه وجوه أهل بغداد ولم يرض على جالوس الأمين على تخت الخلافة زمن طويل حتى دبت عقارب السعيا بينه وبين أخيه المأمون وهذا ما كان يخشاه الرشيد رحمه الله ويريد تجنبه ولذلك أخذ على أولاده وأوثق اليهود وأغلظ الإيعان باتباع ما اشترط في وصيته كما تقدم ولكن ما الحيلة وقد أراد الله وقوع الحرب بين الأخوين واقتراق أهل الدولة إلى فرقتين متعاديتين مما عاد بالو بال على جسم المملكة الإسلامية وهذا الو بال وان لم يظهر له أثر محسوس في خلافة المأمون لكنه سيؤثر إلى نتيجة سيئة يظهر فعلها مدمرة من ولى الخلافة من بعد الأمين

وكان أول ظهور العداوة والبغضاء بين الأخوين أن أبطل الأمين اسم المأمون من الخطبة وكان يخاطب لهم إلى سنة (١٩٥ هـ) وأمر الأمين نخبط لابنه موسى ولقبه الناطق بالحق وكان موسى المذكور طفلاً صغيراً وأمر أيضاً بإبطال ما ضرب به المأمون من الدراهم والدنانير بخراسان فتمى الشر بينهما ثم تقاتلا وجهز كل منهما الجيوش على صاحبه وكانت الحرب بينهما سجالاً ولما انتصرت جيوش المأمون سار طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين من قواد المأمون وحاصر الأمين ببغداد (١٩٧ هـ) وتراموا بالجنائيق ودام الحصار مدة سنة ومنع طاهر دخول الميرة إلى بغداد فقلت بها الأسعار ووقع بها النهب والحريق فتضايق الأمر على الأمين وفارقه أكثر أصحابه وخصيائه وأخذ الأمين أمه وأولاده إلى مدينة المنصور وتحصن بها وكتب طاهر إلى وجوه أهل بغداد سرا بعدهم أن أعاقوه ويتوعدهم أن لم يدخلوا في طاعته فأجابوه ونادوا بجمع الأمين فنجبا الأمين نفسه وركب حراقة أعداه هو وكان وعده بالامان وحفظه سليماً فلما سار الأمين في الحراقة بنهر الدجلة خرج عليه أصحاب طاهر من مكن فرموا الحراقة بالحجارة فانقلبت عن فيها فتق الأمين ثيابه وسبح إلى بستان فأدركوه وحملوه إلى طاهر فبعث إليه جماعة من العجم وأمرهم بقتله فاحتزوا رأسه فأمر طاهر بنصبه على برج من أبراج بغداد فلما رآه الناس سكنت الفتنة ثم جهزه طاهر إلى المأمون وصحبته خاتم الخلافة ودخل طاهر المدينة ونادى مناديه من لزوم بيته فهو آمن ثم صلى بالناس وخطب للمأمون (١٩٨ هـ) وكانت مدة خلافة الأمين أربع سنين وثمانية أشهر وكان عمره ٢٨ سنة وكان الأمين كثير اللهو واللعب منقطعاً إلى ذلك مشتغلاً به عن تدبير مملكته حتى أرسل إلى جميع البلدان في طلب أصحاب الملاهي وضمهم إليه وأجرى عليهم الأرزاق وفرق على أهل بيته نحو وخواصه وخصيائه أموالاً عظيمة وكان له خمس حراقات في الدجلة على صورة الأسد وعلى صورة الفيل

وعلى صورة العقاب وعلى صورة الحية وعلى صورة الفرس وأنفق في عملها ما لا عظيمها وقد ذكرها أبو نؤاس في شعره ولما قتل الأمين استوثق الأمر بالمشرك والمغرب للمأمون

سلافة المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) لما أفضت الخلافة إلى المأمون اجتهد في رآب

الصدوع وسد الفتوق واصلاح ما تشعبت من بنيان الدولة الا ان الايام لم تسالمة تماما ولم تصف له كما يجب فخرج عليه في أول خلافته ابن طباطبا العلوي من أولاد علي بن أبي طالب بالكوفة يدعوا إلى الرضا من آل النبي عليه الصلاة والسلام ويابعه أهل الكوفة واستوثق له أهلها فوجه الخليفة إليه جيشا فهزمه ابن طباطبا وبذلك اشتد ساعده ثم يابعه غير أهل الكوفة وامتدت حروبه زمانا وسالت فيها الدماء أنهر واوهمت الخليفة بأمره حسدا وقلق له حتى مكنته الله منه وهزمه هرثة قائد الخليفة وبدد جيوشه وقتل أبا السرايا وكان القائم بأمر طباطبا ثم استبد بالامر من بعد ابن طباطبا ولم تكذنا هذه الحرب تخه لا وظهر ابراهيم بن موسى بن محمد العلوي باليمن واشتد به أمره وكان فتنا كالكب بالجزار لكثرة من قتل وظهرت أيضا بغداد ثورة واشتد أذى فساقها وشرطارها على الناس حتى قطعوا الطريق وأخذوا النساء والصيدان علانية ونهبوا القرى مكابرة وبقى الناس معهم في بلاء عظيم حتى قام بعض أهالي بغداد وتعرضوا لنوارق بددوهم حتى استقامت الامور

ولما رأى المأمون كثرة النوارق وخروج الكثير من آل البيت طلبا للخلافة واجتماع الناس عليهم وأن ذلك رجما أدى إلى ضعف الدولة الاسلامية وملاشاتها جعل عليا الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر ولي عهد المسلمين والخليفة من بعده وأخذ البيعة له بذلك على الناس فلما رأى بنو العباس ذلك صعب عليهم الأمر وكان أشدهم حنقا المنصور و ابراهيم ابنا المهدي و امتنع أهل بغداد عن البيعة وأظهر والرغبة في البيعة لابراهيم بن المهدي بالخلافة وخلع المأمون لانهم نقموا عليه أشياء منها جعله الخلافة في آل علي بن أبي طالب وإخراجها عن بنو العباس وأظهر العباسيون لذلك غضبا شديدا وأخذوا يبغضون عن الطرق المؤدية إلى جعل الخلافة في بنو العباس حتى إن أهل بغداد يابونه وبالخلافة لابراهيم بن المهدي (٢٠٢ هـ) وخلعوا المأمون وكانت كل هذه الفتن أثناء غياب المأمون بخراسان ولما سمى الخبر إليه سار إلى العراق ولما قرب من بغداد فر التوارق واختنق ابراهيم بن المهدي وشيعته وعادت الخطبة باسم المأمون وما زال ابراهيم محتفيا حتى ظفر به ومع ذلك لم يؤاخذ به بل أحسن إليه واتفق أيضا موت علي بن موسى الرضا الذي يابعه المأمون بولاية العهد ولم يمانت كتب المأمون إلى أهل بغداد يعلمهم بذلك ولما دخل المأمون بغداد انقطعت القتن بقدمه وفر أصحاب الفساد كما سبق وكان المأمون من أفضل الخلفاء وعلماهم وحكمتهم وأتم رجال بنو العباس عزما وحرما وقراسة وفهما وكان أخذ من العلوم بقسط وضرب فيها بسهم وتأدب ونفقة وبر عفي فنون التاريخ والأدب والنجوم ولما كبر اعنى بالناسفة وعلوم الاول وهو الذي استخرج كتاب اقليدس وأمر بترجته وتفصيله وعقد المجالس في خلافته للنظر في الاديان والمقالات وفي خلافته ترقى العلوم ونفشت بين العرب وهو أول من قاس الدرجة الارضية وعرف مقدارها وكان عظيم العفو جوادا بالمال وكان يقول لو يعلم الناس ما أجبت في العفو من اللذة لتفرقوا إلى الذنوب وكان يمهدها وسياسة وله غزوات بجهات بلاد الروم والنغور غنم فيها وفتح

وكان المأمون لعلوه منه يجب الوقوف على أحوال رعاياه بنفسه فكان كثير التنقل من إقليم إلى آخر فانه جال في بلاد الشام ومصر (٢١٦ هـ) ونفر على آثارها فأعجبه ما رأى وهو الذي فتح الفتحة الموجودة الآن بالهرم الأكبر وفي خلافته مات الامام الشافعي وهو محمد بن ادريس ابن العباس رضى الله عنه ودفن بمقامه المشهور بمصر (٢٠٤ هـ)

ومما عابه الناس على المأمون تكليفه الخلق بالقول بخلق القرآن وكان يكتب الى عماله بالامصار فن قال من العلماء بخلق القرآن أطلق سيده ومن لم يقل به ضرب ورجم وقتل وكان من النفر الذين لحقتهم الاهانة من ذلك الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه صاحب المذهب المشهور وكانت وفاة المأمون (٢١٨ هـ) بمجيء اصابته ولما مرض المأمون أوصى الى أخيه المعتصم بحضرة ابنة العباس يتقوى الله سبحانه وتعالى وحسن سياسة الرعية في كلام حسن طويل ثم قال للمعتصم عليك عهد الله وميثاقه ودمعة رسوله لتقوم بحق الله في عباده وتؤثرن طاعة الله على معصيته وكلام من هذا القبيل وكانت وفاته بطرسوس (١) وخلافته ٢٠ سنة وخمسة أشهر وأياما وكان شديد الميل الى العلويين والاحسان اليهم

تألف المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) لمبايعة المعتصم تشعب الجنيد ونادوا باسم العباس بن المأمون فأرسل المعتصم الى العباس وأحضره فبايعه العباس ثم خرج العباس الى الجنيد فقال لهم قد بايعت عنى فسكتوا وانصرف المعتصم الى بغداد ومعه العباس بن المأمون وتلخوفه من أن توقع به الجنود استخدم نحو خمسين ألفا من التركان واتخذ منهم لنفسه حراسا ولا هم بمحافظه الثغور والحدود وكانوا يزادون يوما عن يوم ومن هذا الوقت أخذت شوكتهم في النمو وبأسهم في الظهور حتى صاروا أصحاب الحل والعقد خصوصا في أيام من تولى الخلافة بعده فكانت القوة بأيديهم وليس للخلفاء معهم الا الاسم فقط كما استقف عليه وكان المعتصم يقول كأخيه المأمون بخلق القرآن وكان يغاظ التسيكيل عن لم يقل بخلقه ومن ذلك الامام أحمد بن حنبل فانه لم يجب الى القول بخلق القرآن جلده حتى غاب عقله وتقطع جلده وقيدته وحجسه

وحديث في خلافته (٢٢٣ هـ) ان توفيل ملك الروم خرج في جمع عظيم وأغار على بلاد الاسلام فقتل وسبي ومثل بن وقع في يده من المسلمين ولما بلغ المعتصم ذلك وأن امرأته هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم وامعتصمها استعظمه ونمض من وقته وجمع العساكر وجهزها بما لا يمانه أحد من السلاح والآلة والعدد وخرج قاصدا مدينة عمورية لانها لادى الروم أشرف من القسطنطينية ولم يتعرض لها أحد منذ كان الاسلام فلما وصلها (٢٢٣ هـ) جعل جيشه ثلاث فرق بين كل فرقة وفرقة قرخان وساروا بخربون وبحرقون حتى وصلوا عمورية وجرى بين المسلمين والروم عليها قتال شديد يطول شرحه آخره استولى المسلمون على المدينة المذكورة بالقوة ووضعوا السيف في أهالها وهدموها عن آخرها وبينما كان في الطريق عند جوعه بلغه ان العباس بن

(١) قال أبو الفداء طرسوس مدينة مشهورة كانت تغرب من ناحية بلاد الروم على ساحل البحر الشامي اه وكانت قديما عاصمة بلاد كيليكيا وهي مولد بولس الحواري وسكانها الآن نحو ٣٠٠٠٠٠ نسمة وتضاهي اسكندرونه في رداء المناخ وهي من أعمال ولاية اطنه اه

المأمون بابعه جماعة من القواد وان يريد الوثوب عليه وبأخذ الخلافة منه فقبض المعتصم عليه وحبسها
ومنعه عنه الماء حتى مات

وكان الرشيد ابتداء في تشييد مدينة السامرة (١) القديمة فلما أتى المعتصم أم كلثها
وجدد بناءها (٢٢٥ هـ) ومما أسمر من رأى خرفها الناس إلى سامر اوصارت دار الملا من لدن
المعتصم وفي خلافة المعتصم خرج عليه كثير من الثوار وأصحاب الاقوال والمدعيات فحكاه الله
من رقابهم جميعا وكانت وفاة المعتصم بسر من رأى (٢٢٧ هـ) وكانت خلافة عثمان سنيين
وغنمية أشهر وهو أول من أضيف إلى لقبه اسم الله تعالى من الخلفاء وكان المعتصم بالله طيب
الاخلاق لكنه اذا غضب لا يبالي بمن قتل وما فعل وكان سيد الرأى قويا يقال انه كان يحمل ألف
رطل ويعشى به اوتنشا عاميا يكتب كتابة معشوشة ويقرأ قراءة ضعيفة وهو أول من أدخل التتار
والاتراك الداووين وكان يتشبه بملوك الاعاجم وبلغ علمه الاثر ثمانية عشر ألفا وألبسهم
أطواق الذهب والديباج

خلافة الواثق بأمر الله (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) لما جلس الواثق على تخت الخلافة نارت
القيسية بدمشق وعانوا وأفسدوا وحصر وأمرهم بدمشق فبعث الواثق اليهم جنودا قاتلهم
بمرج راهط حتى انهزموا واصلح أمر دمشق وأرسل عبارة بجزيرة تحت قيادة أسد بن القرات لفتح
جزيرة صقلية ففتحها (٢٢٨ هـ) وأرسل أيضا زيادة الله ابراهيم بن الاغلب أمير افر ببيعة جيشا
إلى الجزيرة المذكورة في أسطول جسيم ولما وصل إليها التقي بأسطول الروم في تلك المياه فحمل عليه
جملة منكرو قتل فيها جنود الروم وأخذ أساطيلهم ثم التقي بأسطول آخر فهزمه وغنم ما فيه ونفرق
المسلمون في الجزيرة بغمون ويسيون ويقتحون وكانت لهم وقائع شهيرة بجهات جبل النار الذي
بتلك الجزيرة وكان بنو الاغلب يسمون كسيرا في انشاء الاساطيل ونسبها بالبهار والجار ويقال انه في
تلك المسدة استعمل العرب بيت الابرية في الاسفار البحرية وسهل بها السور خارج باب المنسند

(١) هي بلدة كركضاء بولاية بغداد الآن واقعة في الشمال الغربي من بغداد على تل بجانب الدجلة بمقبر الامام
على الهادي والامام حسن العسكري ويعتقد الشيعة ان المهدي يخرج منها في آخر الزمان وياتيها منهم سنويا اكثر
من عشرة آلاف زائر لزيارة الامامين المذكورين بالقرب منها برج قديم مرتفع وقبورها اقصور وروها من قبور الخلفاء
قبور الواثق وقبور المتوكل وابنه المنتصر وأخيه المعتز والمهتدي والمعتد بن المتوكل قال ياقوت سامر انه في سر من رأى
مدينة كانت بين بغداد ونكريث على شرف دجلة قبل انها كانت مدينة عتيقة من مدن الفرس وقال الشعبي ان اسمها
سامراء ومعناها طربق سام لان سام بن نوح كان يمر بها عند سيره وقد جدها المعتصم العباسي ونزلها سنة (٢٢١ هـ)
ومما أسمر من رأى وقالوا ان هذا الاسم مختصر من سرور ومن رأى وماخرت وتشوهت سميت سامر من رأى وسبب
بناء المعتصم لها انه لما شاق بغداد عن جنوده وأراد استحداث مدينة تبنى سر من رأى ثم أمر عسكريا بالبناء فعمر الناس
حولهم حتى صارت بلدة عظيمة وكانت وقته بهاسنة (٢٢٧ هـ) وقام بعد ذلك الواثق بها حتى مات ولما أتى المتوكل
زاد في عمارتها واشتق لها من دجلة ثناتين وبنى المتوكل بسمر من رأى عدة قصور والعروس والقصر المختار والوحيد
والجفري والمحدث والغريب والشيدان والبرج والصبح والمليح وغيرها ولم تر لسمر من رأى في صلاح وعمارته منذ أيام
المعتصم والواثق إلى آخر أيام المنتصر بن المتوكل ولما استبد الاثر بالعمل وفسدت دولة بني العباس أخذت سر من
رأى في التناقص إلى أن كان آخر من انتقل إلى بغداد من الخلفاء وأقام بها وترك سر من رأى بالكلية المعتصم ديانته
ثم خرجت حتى لم يبق منها الا مواضع المذكورة بعد ان لم يكن في الارض احسن ولا اعظم ولا اجمل ولا اوسع مكانا
منها اه

وبخليج فارس ووصلت سفنهم الى زنجبار وجنوب افريقية وتمكنوا من التجول في بحر الظلمات حتى وصلوا الى جزائر الخالدات ومن ههنا الوقت أيضا جعلوا جزيرة الحديد احدى تلك الجزائر مبدا لخطوط الاطوال

وكان الواثق من افاضل خلفاء بني العباس ليبيافنا فصيحا شعرا وكان يتشبه بالأمون في حركته وسكاته وكان يبائع في كرام العلويين والاحسان اليهم وفرق في الحرميين أموالا عظيمة حتى انه لم يبق في أيام الواثق بالحرمين سائل ولما بلغ أهل المدينة موته كانت تخرج نساؤهم كل ليلة الى البقيع ينشدن الواثق لفرط احسانه اليهم وقد سلك مذهب أبيه المعتصم وعمره المأمون في امتحان الناس والزاهم القول بخلق القرآن وكان موته بدءا الاستسقاء (٢٣٢ هـ) و٤٠٦ هـ وفي خلافة الواثق أغار النورمانديون على بلاد الاندلس وامتد شرهم كثيرا وزحفوا حتى دخلوا إشبيلية ثم تقوى المسلمون عليهم وزحفوا عليهم جنود صاحب الاندلس فهزموهم وأخذوا منهم عدة سفن

خلافه المتوكل على الله جعفر بن المعتصم (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) كانت البيعة له بالخلافة بمدينة سرمن رأى وعمره ٢٦ سنة وفي أول خلافته عقد البيعة لابنيه الثلاثة بولاية العهد وهم المنتصر والمعتز والمؤيد وولى كل واحد منهم قسما من المملكة وكان المتوكل شديد البغض لسيده ناعلى ابن أبي طالب رضى الله عنه ولاه لبيته ولذلك أمر بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله من المنازل ومنع الناس من إتيانها وله في كراهة على رضى الله عنه وأولاده حكايات ولولا ذلك لكان من أحسن الخلفاء سيرة سيما وانه منع الناس عن القول بخلق القرآن وفي خلافته (٢٣٧ هـ) فتح العباس ابن الفضل أمير صقلية بها الفتوحات العظيمة واستولى على قصر يانة وكانت دار الملك بها وكان ملكها يسكن قبل ذلك بسرقوسة فلما أخذها المسلمون انتقل الملك الى قصر يانة وتوفي في خلافته (٢٤١ هـ) الامام أحمد بن حنبل وكان مجتهدا ورعا زاهدا صادقا وكان المتوكل عزم على الإقامة بدمشق واتخاذها دار ملك لولائه استنقل ماءها فرجع الى سرمن رأى

ولما استولى المسلمون على جزيرة صقلية كما علمت وافتتح جالسة الاندلس اقر يطش اغتاط الروم جسدا وجهزوا نحو ٣٠٠ مراكب عليها ثلاثة أمراء فأخذت بالبحولان في عرض البحر المتوسط الايض وكانت تنهز الفرص للايقاع بالمسلمين في كل مكان فمن ذلك أنهم في (٢٣٨ هـ) انتهوا الى مدينة ديمياط بنحو مائة مراكب وخر جوامعها على غرة من أهلها وكانت ديمياط فارغة من الجنود فأحرقوا وسبوا وتقدموا حتى وصلوا مصر ثم رجعوا ويقال انه لم يعرض لهم أحد في طريقهم

وكان المماليك من الأتراك والديلم والتتار أكثر عددهم وعظمت سطوتهم منذ أن قبضوا على زمام الجيش والولايات من عهد المعتصم وانتشر وايبغداد حتى استولوا على المملكة فصار يبيدهم الخذل والعقد والولاية والعزل الى أن جعلهم الطغيان على العداوان وسطوا على الخليفة بانفاق مع ابنه المنتصر وبغافأندهم فدخلوا عليه في مجلس أنسه وعنده الوزير الفتح بن خاقان فصاح الفتح وملكهم هذا سيدكم ورمى بنفسه عليه فضر بهم ابغافا باجمعا (٢٤٧ هـ) وفي خلافته افتتح بغافأند

جنوده مدينة تفلح بعد أن حاصرها وادعاب النفاطين فضرر بالمدينة بالنار وكانت منازلها من الخشب فاحترقت واحترق بها نحو خمسين ألفاً وحصلت في خلافته زلازل هائلة (٢٤٢) ٥٠٥ م جمع لها أصوات منكورة يقومون ورسانيها حتى تهدمت الدور وهلك خلق كثير وامتدت إلى الشام وفارس وخراسان واليمن وحسف الجبل الاقارع وسقط في الجرفات أهل اللاذقية من ذلك ومن الحوادث التي حدثت في خلافة المتوكل اغارة الجيعة (١) على أرض مصر وكانت بين أهل مصر والجيعة همدنة من لدن الفتح وكان في بلاد الجيعة معادن الذهب يؤدون منها الخمس إلى مصر فامتنعوا أيام المتوكل وقتلوا من وجدوه من المسلمين بالمعادن وكتب صاحب البر يدبلك إلى المتوكل فاستشار في غزوهم فقالوا له انهم أهل ابل وان بين بلادهم وبين المسلمين مسيرة شهر ولا بد فيهما من الازواد وان فنيت الازواد هلك العسكر فامسك عنهم ثم ولى المتوكل محمد بن عبد الله التقي اسوان وقفت والاقصر واسنوا وأرمنت وأمر بهجرب الجيعة وكتب إلى عامل مصر عيسى بن اسحق بتجهيز العساكر معه فسيره في ٢٠ ألفاً من الجنود والمتطوعة وحملت المراكب من القلزم دقيقا وقرأ أودما إلى السواحل بلاد الجيعة وانتهى إلى حصونهم وقلاعهم ثم فرحف إليهم ما كلفهم في اضعاف عسكر التقي على المهارة وطاول الاسلام عليه أن تقبى أزوادهم ثم جاءت المراكب وفرقها التقي على أصحابه فمأجزهم الجيعة الحرب وكانت ابانهم نفوروا وأمر التقي عسكره بانحازوا لاجراس بخيلهم ثم جعلوا عليهم فانهم موأوا سائما وعلى أداء الخراج كما كانوا

وفي خلافته غزا المسلمون الروم عدة مرات فغنموا وقتلوا وغزا الفضل بن خاقان الاساطيل فافتتح حصن انطاكية وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وعمره نحو أربعين سنة

خلافة المنتصر بالله (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) لمجلس المنتصر على تخت الخلافة لم يتمتع بالاستيلاء المالميك على ادارة المملكة وضر بهم على يده فندسوا إلى طبيه ليسه فقصده بمبضع مسموم فمات لسته أشهر من مبايعته ويحكى أنه بات ليلة في وعكبه وانتبسه فزعا بيكي فسألته أمه ما بيكيك قال افسدت ديني ودنياي رأيت أبي الساعة وهو يقول قتلتني يا محمد لاجل الخلافه والله لا تتمع بهم الا أياما ثم صيرك إلى النار فاستمر وهو ما من هذا المنام فباعاش بعد ذلك الاياما قلائد وفي خلافته افتتح المسلمون عدة مدائن في صقلية وكان عمره ملامات ٢٥ سنة وخلافته ستة أشهر ويقال إنه مات بالذبحه

خلافة المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) وهو أحمد بن محمد بن المعتمد بايعه الامراء وأكابر المالميك ولم يولوا أحدا من أولاد المتوكل لثلايطالب بدمه وكانت أيامه أيام فتن ومحن وحروب ونحو ح خوارج وكان المستعين مستضعفا في رأيه وتديره وعقله وكانت أيامه شديدة الاضطراب والشغب بين العامة والأتراك ببغداد خصوصا وفي آخر أيامه اتفق اثنان من المالميك

(١) ويقال بجاعة وجماعة وتسمى بلاد البشار به أيضا وهي بلاد بالجهة الشرقية من النوبة واقعة بين البحر الاحمر والنيل متصلة بأعلى صحراء عيذاب وتمتد من صعيد مصر إلى ساحل البحر الاحمر مما يلي بحر برتسواكن ويانع ودهلك وأول بلاد الحبشة وقصبتها سواكن وفيها معدن الزمرد وقد سكن تلك البلاد قوم من العرب من ربيعة بن زرار والجماعة اخبار طوبى له في التواريخ ٥٥

المقدمين وهما بغا الصغير ووصيف فقط لاباغر التركي فشتغبت الترك وحصروا المستعين وبغا الصغير ووصيف في القصر بسامر افرحب المستعين وبغا ووصيف في حراقة وانحدر والى بغداد واستقر بهم المستعين فاخرجوا المعتز من الحبس وولوه على أموال المستعين بسامر او أموال أمه ففرق على الجنود وعقد المعتز لاجبيه أبي أحمد طلمحة بن المتوكل وجهزه مع خمسين ألفا من الترك لحرب المستعين وتمكن المستعين ببغداد وجرى بين الفريقين قتال كثير ثم اتفق الامراء على خلع المستعين والزموه بذلك (٢٥٢ هـ) وخلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر وعمره ٣٤ سنة

خلافة المعتز بالله (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) لما استولى المعتز على الخلافة كانت الثورات عت تقر ببا جميع أطراف الدولة وكان المعتز صحيح العقل جيد السيرة الا أن المماليك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملوك وصار منصب الخلافة ألعوبة في يدهم واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفة في يدهم كالاسيران شاؤا أبقوه وان شاؤا اخلوه وان شاؤا قتلوه ثم بعد مبايعة المعتز أخرج المستعين من قصر الرصافة الى مكان آخر واستلموا منه البردة والقضيب والخاتم ونفوه الى البصرة وكاوا به من يحفظه ثم أمر المعتز أحد خواصه فقتله وفي خلافة المهدي استبد بعض العمال بعمالهم وقطعوا ما كان يحمل من الخراج الى دار الخلافة فتغلب يعقوب الصفار على جهات هراة وكرمان وفارس وغيرها وأقطع المعتز أحمد بن طولون ببلاد مصر فبقيت له ولاولاده من بعده بعد أن استقل بهم ازمنة وكانت لهم به اذلة عظيمة قوية لها اخبار يطول شرحها سياتي ذكرها في الكلام على تاريخ مصر ثم تأمر المماليك الاترك على المعتز وخلعوه (٢٥٥ هـ) وسبب ذلك انهم طلبوا أن راقهم منه فلم يكن عند المعتز مال يعطيهم فاسل الى أمه في ذلك فقالت ما عندي شيء فاتفق الاترك والمغاربة والفرعنة على خلع المعتز فساروا الى بابه واستأذنوا فامر بعضهم بالدخول فلما دخلوا هجوموا عليه وجره برجله الى باب الحجره وضربوه بالديابيس وأقاموه في الشمس بعد ثوبونه ثم أدخلوه سردابا وحصوه عليه فمات وكانت خلافته أربع سنين وسبعة أشهر تقريبا

خلافة المهدي بالله (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) لما جلس المهدي على كرسي الخلافة كانت الثورات لا تزال تنزق جسم الدولة العباسية حتى استقل كثير من العمال بعمالهم فنقص الخراج ونضبت الخزائن فأدى ذلك لتكرار الثورات من الجنود وغيرهم فزالت مهابة الدولة من النفوس وتقلص ظل سلطان الخليفة ونطاول كثير من السوق على شق عصا الطاعة حتى انه من أشهر الحوادث في تاريخ بني العباس ظهور صاحب الزنج (١) كان في هذه المدة (٢٥٥ هـ) وله وقائع كثيرة وقد قتل ونهب وحرق كثير حتى خافه الناس وفرت من امامه الجنود

(١) صاحب الزنج يدعى علي بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه في عبد القيس ولما ظهر جمع اليه الزنج الذين كانوا يسكنون السباح جهة البصرة وادعى انه علي بن محمد بن أحمد من ذرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ولما صار له جمع وقوة بالتفاف الكثير عليه ممن عيل الى الخرج على الدولة عبر نهر الدجلة وأخذ في شق العار وكان صاحب الزنج المذكور قبل ذلك متصلا بمناشبة المنتصر في سامرا بعد حسم ويستمنحهم بشعره ثم انه شخص من سامرا (٢٤٩ هـ) الى بلاد البحرين وادعى نسبه في العلويين كما تقدم وأقام في الاحساء ثم سار الى البصرة (٢٥٤ هـ) وخرج بعد ذلك بسنة واستفحل أمره ووث أصحابه في الجهات الاغارة والنهب ثم تقدم ومالك الابله عنونوه وقتل فيها خلقا كثيرا ثم استولى على عبادان فالاهوار بالسيف (٢٥٦ هـ) ثم تقدم وحاصر البصرة واستولى عليها وأخر بها وقتل من

وكانت أم المعتز بالله الخليفة السابق اختفت لما هجم الجنود على ولدها يريدون قتله وكان طلب منها خمسين ألف دينار يدفعها للجنود اتقاء شرهم ومنعها ما أصابه من ضرر بهم فقالت إنه ليس لديها من النقود شيئا ولما ظهرت في أوائل خلافة المهدي وكان اسمها قبيصة (١) ظهر لها يغداد أموال عظيمة تجل عن الحصر

أما المهدي فلم يتمكن من فعل شيء أصلا لان الجنود الاترك لم تهمله وبجلبت بقتله وسبب ذلك انه كان أراد أن يقتل أحد مقدي الاترك المسمى موسى بن بغال قتله صالح بن وصيف وكان موسى المذكور في حرب مع بعض الخوارج فكتب المهدي الى بليكيال من مقدي الاترك أيضا بأن يقتل موسى ويكون مكانه فكانت النتيجة اتفاق الاثنين عليه وتآمرهما على خلعه وقتله فسار بليكيال الى سامرا ودخل على المهدي فخبسه المهدي وقتله وركب من ساعته لقتال موسى فانهمز الاترك الذين معه وانضموا الى موسى فلما رأى المهدي ذلك هرب واختفى ثم انتهى الامر بخلعه وقتله وكانت خلافته أقل من سنة وعمره ٣٨ سنة وأمه رومية وكان ورعا كثيرا العبادة يتشبه كثيرا بعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

خلافه المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) لما خلع المهدي اجتمع كبار الدولة وأخر جوا أبا العباس أحمد بن المتوكل من السجين وبأيعوه بالخلافة ولقب المعتمد على الله وكانت الفتى لا تزال قائمة وأشدها فتنة صاحب الزنج واشتداد أمر الحسن بن زيد العلوي بطبرستان (٢) واستيلائه على جرجان وخروج الروم على الثغور وقتل يعقوب الصفار بجهات بلخ وكابل وظهور أمر بني سامان وتفشي قوتهم وخروج خابري مجهول الاسم يسلا دال الصين التابعة للدولة

وجدها (٢٥٧ هـ) وتقدم سنة (٢٦٥ هـ) حتى صار على مقربة من بغداد ودخل النعمانية وغيرها من ضواحي بغداد وفر أهل السواد الى بغداد والتجؤا بها ثم ان المعتمد جهز أخاه الموفق في جيش عظيم وسير لمقاتلة صاحب الزنج فلم تدت الحرب بينهما زمانا ثم ان الموفق تمكن من قهر صاحب الزنج وطرده عن الاهواز وسار سرا فاصدمدينة صاحب الزنج وكانت حصينة للغاية واسمها المختار فلما اشتد الحصار بأهلها خرج أكثرهم بالامان وضعف الباقون عن حفظها فسلموها (٢٦٧ هـ) وما زال الموفق يقتل أصحاب الزنج حتى قتلته وفرق غالب أصحابه وقطع رأسه وطيف به على ربح في المدن وكثر ضجيج الناس بالتحميم وعاد الموفق منصورا والرأس بين يديه وراى عالم كثير من الزنج على الموفق يطلبون الامان فأمنهم وكانت أيام صاحب الزنج من يوم خر وجهه الى أن قتل ١٤ سنة وأربعة أشهر وأياما اه

(١) قال المؤرخون ان الاموال التي وجدت لقبصة أم المعتز بعد ظهورها بلغت ألف ألف دينار كانت في مطمورة تحت الارض ووجد لها في سقط قدر مكيوك زمردوني آخر قدر مكيوك لؤلؤ ومقدار كيلجة يا قوت أمير لا مثيل له وغير ذلك من النفاس فنبش ذلك كله وأعطى الى صالح بن وصيف فقال صالح قبح الله قبصة قد عرضت ابنها للقتل لاجل ٥٠ ألف دينار وعندها هذا كله والمكيوك هو نصف الويعة والكيلجة من وسبعة أثمان المن والمن رطلان والرطل اثنتا عشرة أوقية والاقية أستار وثلثا أستار والاسطار أربعة مثاقيل ونصف المثقال درهم وثلاثة أسباع الدرهم والدرهم ستة دانق والمدانق قيراطان والقيراط طسوجان ولطسوج جبتان والحيصة شعيرتان والشعير ستة خردال وأعرض ست شعرات من شعر بقل فوضع بجانب بعضها اه

(٢) بلادوا عمن بلاد الفرس شمالا فاعتدها دماوند وتقسيم الى الدامغان شرقا وطبرستان الحقيقية غربا وكانت هذه البلاد قد عييا سكنها أقوام يقال لهم تاير ومن مدنها قومس اه

العباسية (٢٦٤ هـ) ولما اشتغل المعتد باطفاء كل هذه الثورات ورتق جميع هذه الفتوق انتهز الاجناد تلك القرصة وتغلبوا على الامر وقل خوفهم من القصاص لاشتغال المعتد بماذا كروا وما تضايق المعتد من تلك الاحوال سيما وان اخاه الموفق كان يحسد له ويحبط من مقامه اذ اراد المعتد الذهاب الى مصر للاستعانة باحمد بن طولون على اخيه فلم يتمكن من ذلك حتى ان الموفق اضطره لان يأمر الخطباء بلعن أحمد بن طولون على المنابر لكونه قطع خطبة الموفق لان المعتد كان جعله ولي العهد من بعد ابنه المفوض

ومن الحوادث التي وقعت في خلافة المعتد حصول واقعة بين ابن الموفق وهو المعتضد وبين خنارويه بن طولون آخرها ان المعتضد انهمز هو واصحابه (٢٧١ هـ) ثم صفت الاحوال بعد ذلك للمعتد بوفاة الموفق بالله (٢٧٨ هـ) بداء الفيل ولما مات بايعوا ابنه المعتضد بولاية العهد بعد المفوض واجتمع عليه اصحاب ابيه وتولى ما كان ابيه يتولاه ومن الحوادث المهمة ايضا في خلافة المعتد ظهور القرامطة ^(١) وهم قوم خرجوا من سواد الكوفة لهم مذهب مخصوص يخالف مذهب أهل السنة ولهم في تاريخ الاسلام شهرة بما ارتكبوه من الفظائع كالقتل والنهب والحريق وغير ذلك وكان الروم لما علموا بقيام الفتن واضطراب الاحوال بالدولة العباسية ارادوا الاغارة على الثغور ورد ما فقدوه من المدن والضيعات ومع ذلك فان الجنود الاسلامية الموكلة بها حفظ الثغور كانت لا تنفرت عن مناجرتهم والفتك بجيوشهم حتى اضطروهم لطب الهدنة مرارا وغنموا منهم غنائم كثيرة جدا وفي (٢٦٦ هـ) لقي اسطول المسلمين اسطول الروم عند صقلية فنظر الروم بهم ولحق من سلم منهم بصقلية وكانت وفاة المعتد (٢٧٩ هـ) وكان منهم كافي اللهو والقصف وكانت خلافته ٢٣ سنة

(١) القرامطة قوم يعرفون بهذا الاسم وكان الشخص الذي دعاهم الى مذهبهم يدعى قدمريض بقر يهمن سواد الكوفة فغلبه رجل من أهل القرية يقال له كرميته ومعناه بلغة البتية أحمرا العين لخر عينية فلما تعاقب شيخ القرامطة المذكور سمي باسم ذلك الرجل ثم خفف فقالوا قرامط ودعا قوما من أهل السواد والبادية ممن ليس لهم عقل ولا دين الى دينه فأجابوه اليه وكان مداهم اليه انه جاء بكاتبه بسم الله الرحمن الرحيم يقول الفرج بن عثمان وهو من قرية يقال لها انصرانة انه داعية المسج وهو عيسى وهو الكلمة وهو المهدي وهو أحمد بن محمد بن الحنفية وهو جبريل وان المسيح تصور في جسم انسان وقال انك الداعية وانك الحجة وانك الناقية وانك الدابة وانك يحيى بن زكريا وانك روح القدس وعرفه ان الصلاة اربع ركعات ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان قبل غروبها وان الاذان في كل صلاة ان يقول المؤذن الله اكبر ثلاث مرات أشهد ان لا اله الا الله مرتين أشهد ان آدم رسول الله أشهد ان نوح رسول الله أشهد ان ابراهيم رسول الله أشهد ان عيسى رسول الله أشهد ان محمد رسول الله أشهد ان أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله وان القبلة الى بيت المقدس وان الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شيئا ويقرأ في كل ركعة الاستفتاح وهو المترجل على محمد بن أحمد ابن الحنفية وهو

الجمدة بكلمته وتعالى باسمه المجد لا يائه بأوليائه قل ان الالهة سوا قيت للناس ظاهرها يعلم عدد السنين والحساب والشهور والايام وباطنها الاوليات الذين عرفوا عبادى سبيلي واتقوا في اولى الالباب والى الذي لا أسئل عما أفعل وأنا العالم الحليم وأنا الذي ابلو عبادى وامتن خلق فمن صبر على بلائى وعبتى واختبارى أدخلته في جننى وأخلدته نعمى ومن زل عن امرى وكذب رسلى أدخلته مها ناعذابى وأتمت أجلى وأظهرت امرى على ألسنة رسلى وأنا الذى لم يعمل جبارا لأوضاعته ولا عز برا لأذلتته وبئس الذى أصر على أمره ودام على جهالته وقال لن نبخ عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون ثم ركع ومن شرائه أن يصام يوما في السنة وهه المهرجان والنيروز وان النبيذ حرام والمخمر حلال ولا غسل من جنابه لكن الوضوء كوضوء الصلاة وان يؤكل كل ذى ناب وكل ذى مخلب اه

وأيا ما و كان أخوه الموفق قد سخركم عليه و ضيق عليه فكان للمعتد الخطبة و السكة و التسمي بأسيير المؤمنين و لانيه الموفق الامر و النهي و قود العساكر و محاربة الاعضاء و مرابطة الثغور و ترتيب الوزراء و الامراء

خلافة المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) بويع له بالخلافة ثاني يوم وفاة المعتد و كان خوارويه بن طولون خاف منه جدا لانه تقم منه فاستعمل كل الحيل لمرضاة و أخذ يتحفه بالهدايا العظيمة و النفائس ذات القيمة و اجتهد حتى ان الخليفة خطب منه ابنته قطر الندى كما سيأتي في سيرة بني طولون و كان المعتضد شهما عاقلا فاضلا حدث سيرته و ولي و الدنيا خراب و الثغور مهملة فقام قياما مريا حتى عمرت مملكته و كثرت الاموال و ضبطت الثغور و كان قوى السياسة شديدا على أهل الفساد حاسما لا يطامع عساكره عن اذى الرعية و كانت أياما مافتوق و خوارج كثيرين منهم بنوا الصغار و كان عظيم أمرهم و نغم شأنهم و استولوا على أكثر بلاد الحجاز فقام المعتضد في اصلاح المشعب من مملكته و اقامة العدل في رعيته حتى مات و كان يرسل السرايا و يجهز الطوائف بما يمكن من جيد السلاح و الكراع فتغير على بلاد الروم و تفتح و تعود نطاقره و في خلافة قتل خوارويه ذبحه بعض خدمه على فراشه (٢٨٢ هـ) و قتل أيضا ابنه جيش لاختلاف الجند عليه لصباه و تقربيه الاراذل و تهديده قواديسه فقتلوه و نهبوا داره و نهبوا مصر أيضا و أخرجوها و اختل حال هرون بن خوارويه من بعده و انحل نظام مملكته (٢٨٤ هـ) و استولى الخليفة على كثير من البلدان التي كانت في قبضته و كان المعتضد يبيع الطعن و الامن على معاوية و ابنه و أبيه و كتب بذلك الى الاقطار و مات المعتضد (٢٨٩ هـ) و كانت خلافة تسع سنين و تسعة أشهر و اياما و كان شهما مهيبا عند اصحابه يتقون سطوته و يكفون عن المظالم خوفا منه و كان عفيفا

خلافة المكتفي بالله (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) و كان المعتضد أخذ له البيعة من الجنود و كبراء الدولة قبل موته بثلاثة أيام و كان بالرقعة (١) لمات أبوه في أوائل خلافة اشتدت شوكة القرامطة و حصر وادمشق بعد ان هزموا جيش أميرها طغج بن جف ثم ان أهل دمشق لما رأوا من قوة القرامطة صالحوهم على مال دفعوه اليهم فانصرفوا عنهم و استولوا على حصص و غيرها و كانوا يرجون صيبا و الامراء و ولا شيئا ثم ان الخليفة خرج بنفسه الى حرب القرامطة فأوقع بهم قرب حماه (٢٩١ هـ) و تبعهم العسكر بقتلهم و هرب رئيسهم صاحب الشامة ثم قبضوا عليه فقتله المكتفي و طيف برأسه ببغداد ثم تقدمت جيوش المكتفي الى مصر و صاحبها هرون بن خوارويه فانهمز عنه غالب قواده و انضموا الى عسكر الخليفة ثم حدث بينه و بين جيش الخليفة عدة وقعات الى ان حدث في معسكر هرون خصومة أدت الى قتله و لما قتل قام عمه شيدان بالامر فطلب الامان

(١) مدينة مشهورة على نهر الفرات بينها و بين حران ثلاثة أيام و تعد من بلاد الجزيرة و يقال لها الرقعة البيضاء و كانت قاعدة ديار مصر و فتحت صلحا (١٧ هـ) و هي قعدة العهد جدا بناها اسكندر المقدوني و استوطنها الرشيد (١٨٠ هـ) و بن فيها قصر اجملا آثاره باقية للآن و هي الآن من ولاية ديار بكر و بها آثار رومانية و ينسب اليها جماعة من العلماء و يسمى بهذا الاسم لانه تمدن رقعة و اسط او الرقعة السوداء و مدينة قوهستان و مدينة من مدين بن بحر القلزم و جبل الطور كان بها عند ما خرج سيدنا موسى من مصر بنى امراييل قومه من لحم يعبدون البقر و آثارها باقية فيما بين من قاران و القلزم و مدين اه

من قائد الخليفة فآمنه ثم هرب ليلا فلم يوجد واستولى قائد جند الخليفة وهو محمد بن سليمان على مصر وقبض على بني طولون واستصفي أموالهم وجملهم إلى بغداد (٢٩٣ هـ) وبعد فتح مصر استولى القرامطة على دمشق ثانية وأوقعوا بجيش الخليفة وغنموا منسه غنائم وافرة تقربوا بها وبذلك اشتد ساعدهم وأغاروا على الجبل في طريق العراق وقتلوه عن آخرهم وكانت عدة القتلى عشرين ألفا (٢٩٤ هـ) فجهز الخليفة العسكر فهزم موهم وقبضوا على رئيسهم المدعو ذكرويه وقتلوه وكانت وفاة المكنفي بالله (٢٩٥ هـ) وخلافته ست سنين وستة أشهر وأياما وعمره ٣٣ سنة وأمته تركية

خلافه المقتدر بالله (٢٩٥ - ٢٩٦ هـ) بويع بالخلافة يوم مات المكنفي وليس له من الاعمال ما يؤثر في هذه المرة لانه ولي الخلافة ثلاث مرات كإسياني وضعف أمر الخلافة في أيامه وكان سمعا كثيرا لانفاق فتغلب الجند عليه وانفقوا على خلعه لانهم كانوا ينكرون عليه استيلاء النساء والخدم على الامور وكثرة ما أخذوا من الاموال والضياع ونهبت دار الخلافة وأخذ منها أموال عظيمة وبايعوا مكانه ابنه المعتز بالله

خلافه الراضى بالله (٢٩٨ هـ) لما بايعوا المعتز لقبوه الراضى بالله فلم تطل أيامه لان المرينين لمقتدر تغلبوا على شيعته وخلعوه من الخلافة فلم يتولاها الا يوما واحدا ثم قبض عليه وقتل في حبسه وقالوا انه مات حتف أنفه وكان ابن المعتز أكثر العباسيين فضلا وأدبا ومعرفة موسيقى وأشعر الشعراء مطلقا في التشبهات المستكرة الغربية وكانت خلافته يوما واحدا كما مر

ولما قتل ابن المعتز استقام الامر للمقتدر بعد الاضمحلال وهذه خلافته الثانية ثم جرت بين المقتدر وبين مؤنس المظفر أمير الجيوش منافرة أدت إلى خلع المقتدر ومبايعه أخيه القاهر ثم أعيد المقتدر ثالثة وجه الجند على أعناقهم إلى دار الخلافة فجلس على السرير وصفح عن أخيه القاهر وقال قد علمت انه لا ذنب لك فشكر احسانه ثم وقع بينه وبين مؤنس الخادم حرب فتوغل المقتدر في المعركة فضر به أحد البربر فسقط إلى الارض فقال لضاربه ويحك أنا الخليفة فقال له أنت المطلوب وذبحه بالسيف (٣٢٠ هـ) واحتزوار أسه ورفعوه على خشبة وهم بكبرون ويلعنونه وأخذوا ما عليه حتى سراويله وكان المقتدر قد أهمل أحوال الخلافة وحكم فيها النساء والخدم وكانت خلافته كلها أربعة وعشرين سنة واحد عشر شهرا وأياما وعمره ثمانية وأربعون سنة

وفي زمنه ظهرت الدولة العلوية الفاطمية باقر بيقية (٢٩٦ هـ) وهي التي انتقلت فيما بعد إلى مصر وأسست القاهرة وهي من دول الاسلام الكبيرة وسيأتي ذكرها في تاريخ تونس ومصر وكان العلويون يتطلعون إلى مصر فجهزوا عليهم ا جيشا فاستولوا على الاسكندرية والقيوم فسير المقتدر إليهم جيشا مع مؤنس الخادم فاجلاهم عن ديار مصر (٣٠١ هـ) وبعد ذلك بقليل أي في (٣٠٦ هـ) جهز المهدي العلوي جيشا كثيفا مع ابنه القائم إلى مصر مرة ثانية فوصل إلى الاسكندرية بحرا واستولى عليها ثم تقدم حتى دخل البحيرة وبعض جهات الصعيد فبعث المقتدر وئسا الخادم وجرى بينه وبين القائم عدة وقعات ووصل إلى الاسكندرية من اقر بيقية ثمانون من كنانجة للقائم وأرسل المقتدر مراكب من طرسوس إلى قتال مراكب القائم وكانت خمسة وعشرين من كبا

فالتقت المراكب بالراكب على رشيدوا وقتلوا واقتلت العساكر في البر وكانت الهزيمة على عساكر المهدي ومراكبه فعادوا الى افر بقية بعد ان قتل منهم وأسر

وفي عهد المقتدر أيضا انقرضت دولة الادارة العلويين من المغرب (٣٠٧ هـ) وسيأتي الكلام عليها على حديثها عند ذكر دول مرا كس وفي زمنه أيضا امتد أمر القرامطة جدا وصاروا يقتلون السابلة والحجاج واستولوا أيضا على البصرة والكوفة ورئيسهم اذالك أبو طاهر وأخذوا منهما أموالا عظيمة وكفوا يهبون ثم يعودون الى بلاد هجر (١) موطنهم بالغنائم وفي (٣١٧ هـ) أتوا مكة يوم التروية فنهبوا أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام ودخل الكعبة وقتلوا الحجر الأسود من الركن وقتلوه الى هجر وقتلوا أمير مكة وأصحابه وقتلوا باب البيت الحرام وطرحوا القتلى في بئر زمزم وأخذوا كسوة البيت فقسموها بينهم

خلافة القاهرة بالله (٣٢٠ - ٣٣٢ هـ) لما جلس هذا الخليفة على تخت لم تستقم له الامور بل تكدر صفوه ثم قبض عليه ومملت عيناه فكان يسر تعطى في شوارع بغداد وسبب ذلك أنه كانت حصلت بينه وبين مؤسس وحشة بسبب ان مؤنسا كان حنق على القاهرة ومنع دخول أى امرأة الى دار الخلافة حتى يعرف من هى وكان القاهرة استمال اليه جماعة في الباطن للقبض على مؤسس ثم قبض عليهم بتهمة انهم اتفقوا على خلعه فثغب الخندس أصحاب مؤسس وكانوا غالب العسكر وثاروا بسبب ذلك وطلبوا الطلاقه فقتل الخليفة مؤنسا وغيره من المقبوض عليهم من مقدمى الاتراك وطيف برؤسهم ببغداد ونودي هذا اجرام من يخون الامام ثم جعلت تلك الرؤس في خزائن الرؤس على جارى عادتهم في ذلك

وفي خلافة القاهرة كان ظهر ورردولة بنى بويه (٢) وهى من الدول العظيمة المتفرعة عن دولة

(١) مدينة واقعة على جبال العارض ببلاد العرب وكانت قاعدة البحرين وقيل ناحية البحرين كلها هجر وهو الصواب ويكثر بها التمر وفي المثل كمن يتبضع التمر الى هجر

(٢) بنو بويه دولة من الديلم ملكت العراقيين والاهواز وخراسان وسامت الرعية احدث سياسة وعظم شأنهم وعلا قدرهم في الخلافة العباسية حتى تغلبوا على الخلفاء وقطعوا البر بدخقوا عن الخليفة اخبارهم وحركاتهم ببغداد وكان ابتداء ظهورهم سنة (٣٢٢ هـ) في خلافة الراضى بانما العباسى فاستطاع ملكهم ١٢٦ سنة ثم صاروا لاسلاجقة وكان أبوهم يدعى أبى شجاع بن بويه بن فناخسرو والذى ساق نسيبه ابن ماکولا الى ساور دى الاكتاف الفارسى وكان رجلا جليلا متوسط الحال فماتت زوجته ونقلت له ثلاثة اولاد وهم أبو الحسن على الذى لقب عماد الدولة وأبو على الحسن الملقب ركن الدولة وأبو الحسن أحمد الملقب مع الدولة وكان خرج من بلاد الديلم جماعة من القواد وانتشروا في البلاد ليلسكوها وخرج جمع كل واحد منهم خلق كثير من الديلم وخرج اولاد بويه في جملة من خرج ثم التحقوا بمر داو بيج صاحب جرجان وقروين والرى وهمدان وطبرستان وغيرها فاحسن وفادتهم وخلع على بنى بويه وقلد كل واحد من هؤلاء القواد ناحية من نواحي الجبل وكتب لهم بذلك العهد وقلد على بنى بويه وهو عماد الدولة بلاد الكرج وكان عماد الدولة كرميا حليما ثم قدم مر داو بيج على قزوين اولئك القواد فكتب ان عمله يمنعهم عن السير وان كان بعضهم قد خرج نليرد وكان عماد الدولة خرج الى عمله فلما أتى عماد الدولة بلاد الكرج أحسن الى الناس وانفتح قلاعا وظهر منها بنضائر كثيرة فشق ذلك وقصد الناس وأحبوه وكتبوا الى مر داو بيج يشكرون وفضلوا الدولة ثم حصل بين مر داو بيج وعماد الدولة وحشة فكتب الى عماد الدولة والى نواحي الكرج يستدعهم اليه ولطف بهم فدافعه عماد الدولة واشتغل بأخذ العهد عليهم وخوفهم سطوة مر داو بيج فاجابوا جميعهم فبعي مال الكرج وقويت بذلك نفسه وسار الى اصفهان فاستأمن اليه علمها المظفر بن باقوت لما بلغه من كرمه ثم حصل بين عماد الدولة والمظفر المذكور قتال شديدا نهمز فيه باقوت واستولى عماد الدولة على اصفهان وعظم في عيون الناس لانه هزم بجيشه القليل جيش المظفر الكثير ولما علم

بني العباس وفي (٣٢٢ هـ) خلع القاهر بماتظهر منه من الغدر وغشه في اليمن بالامان
الذين قتلهم فاجتمعوا عليه واحد قوا بالدار واوثقوا الابواب فهرب القاهر الى سطح حمام ثم
قبضوا عليه وجلسوه وسملوا عينيه وكان كل ذلك باغراء الوزير ابن مقله وكان مختلفيا خوفانه وكانت
خلافته سنة وستة أشهر

خلافة الراضي بنائه (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) وهو ابن المقتدر وفي أيامه ضعف
أمر الخلافة العباسية فكانت فارس في يد ابن بويه والموصل وديار بكر ومضرو وبيعة في يد بني
حمدان ومصر والشام في يد الأخشيدي والاندلس في يد بني أمية والمغرب وافر يقية في يد القائم
العلاءي بن المهدي والبصرة في يد بن رابق وخوزستان في يد البريدي وكرمان في يد أبي علي بن
اليسر والري وأصفهان والجيل يتنازعها ركن الدولة بن بويه وأخو مر داويج وخراسان وماوراء
النهر في يد بن سامان^(١) وطبرستان وجرجان في يد الديلم^(٢) والبحرين واليمامة في يد القرامطة
لم يبق في يد الراضي سوى بغداد وما والاها فبطلت دواوين المملكة ونقص قدر الخلافة وعم
الخراب وفي خلافة الراضي سار الدمشقي^(٣) الى بلاد الاسلام ففتح ملاطية وغيرها وعظم

الخليفة بذلك استظمه وبلغ خبر هذه الواقعة مر داويج يخاف على ما يبده من البلاد وأخذ يعمل الخيل في القبض على عماد
الدولة فلم يفلح ثم استولى عماد الدولة على ارجان وغيرهما من المداين وعظم أمره واشتدت سطوته ثم ملك شيراز وقهر
المظفر في وقعة عظيمة وأرسل له الخليفة الراضي الخلع واللواء سنة (٣٢٢ هـ) ولما قتل مر داويج انضمت ساكنة
الى عماد الدولة فعظم أمره واستولى على بغداد سنة (٣٣٤ هـ) وتغلب على الخليفة المطيع ثم ملك غيرهما من المدن
وولى إمارته بغداد لخاله معز الدولة وامارة أصفهان لركن الدولة ثم توفي سنة (٣٣٨ هـ) وكان قبل ذلك جعل ابن
أخيه ركن الدولة السمي عضدا للدولة وفي عهده لأنه لم يكن له ولد وكان عماد الدولة أمير الامراء فصار ركن الدولة أمير
الامراء بعده ومعز الدولة مستوليا على العراق والخلافة كما قلنا واشتهر عضد الدولة اشتها را عظيما واشتدت شوكته
ونفذت كلمته وكان أطول بني بويه مدة في الملك وأقواهم سلطة وأشهرهم ذكرا وهو الذي استوزر للصاحب بن
عماد المشهور واستولى على ممالك أبيه ركن الدولة بعد وفاته سنة (٣٦٦ هـ) وعلى ملك بني حمدان سنة (٣٦٧ هـ)
وفتح ديار مصر سنة (٣٦٨ هـ) ثم وقع بينه وبين اخوته وقائع واستولى على غالب ما بأيديهم من الممالك ووقعت
أيضا الوقائع بين الاخوة وبعضهم وبين اولادهم وما زالت جهات العراق وفارس وجرجان وخوزستان وما يتبعها من
الممالك تتقلب في أيدي هذه العائلة ويخطب لهم ببغداد الى سنة (٤٤٧ هـ) حينما توفي أبو كالجار وملك ابنه الملك
الرحيم ببغداد وانزعها منه طغرل بك السلجوقي وفي ظل هذه المدة كان آل بويه أصحاب الحل والعقد بالدولة العباسية ولم
يكن للخليفة معهم الا الاسم فقط فبعضهم من لا يزال ملكه اه

(١) سامان هو جد دولة ملك ماوراء النهر للدولة العباسية قال ابن خلدون أصل بني سامان هؤلاء من الجهم وكان
جدهم أسد بن سامان من أهل خراسان ويوتها ويتسمون في الفرس الى بهرام خشفتش الذي ولد كسرى ثور وان
مرزبان أذر بيجان وأصل دولتهم فيما وراء النهران المأمون لما ولي خراسان اصطنع بني أسد هؤلاء وعرف لهم حق
سلفهم واستعملهم ولما انقضى أمر بني طاهر واستولى الصفار على خراسان عقد المعتدل نصر بن أحمد الساماني على
أعمال ماوراء النهر واستمر واجتمعون تلك الجهات اذ مات أحد هم قام الآخر مكانه بهمد من الخليفة الى ان تغلبت
عليهم الدولة الغزنوية سنة (٩٩٩ م) اه

(٢) الديلم هم من الدول المتفرعة عن الدولة العباسية وكان ابتداء ملكهم في القرن الثالث وهم من المهاجرين النازلين
على الامام علي تزحوا الى جبال كيلان ومازندران ثم ساروا الى بغداد وملكوها وجعلوا الخليفة في قبضتهم من لدن
المشكفي (٣٣٠ - ٤٢٠ هـ) وكانت دولتهم من أعظم الدول الى ان تغلبت عليهم سلطنة غزنة اه

(٣) دمشق هو داتوس بطريق الصرقام بأمر الامراطور قسطنطين بن لاون والدمشقي هذا وقعات مع جنود

أمره على المسلمين ومن الحوادث المهمة في خلافة الرازي فتنة الحنابلة ببغداد وذلك انه عظم أمرهم فصاروا يكسبون دور القواد والعامية فان وجدوا نبيذا أراقوه وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا في البيع والشراء ونحو ذلك فمناهم صاحب الشرطة عن ذلك فلم يفتد ثم انه هتدهم بالسيف ان لم يرجعوا فقتل أذاهم وفي خلافة الرازي (٣٢٣ هـ) تولى الاخشيدي مصر وضم اليها البلاد الشامية واستقر بمصر وكانت للذرية الاخشيدي بمصر الدولة المشهورة وسياق ذكرها

وفي زمنه ضعف أمر القرامطة و وقعت بينهم الفتن فاستقر وافي بلاد هجر وكانت وفاة الرازي سنة (٣٢٩ هـ) وخلافته ست سنين وعشرة أيام وعمره اثنتين وثلاثين سنة وكان يعمل الى الفضلاء والأدباء مخلصا شعرا وهو آخر خليفة له شعر يدون وآخر خليفة جالس الجلساء وآخر خليفة كانت نفعته وجرانياته وخزائنه ومطابجه وأموره على ترتيب الخلفاء المتقدمين

خليفة المتقي بالله (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ) لمسامات الرازي اجتمع كل من تقلد الوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة والعباسيون ووجوه البلاد فانتخبوا للخليفة إبراهيم بن المقتدر وعرضوا عليه الالقب فأختار المتقي بالله وفي أول خلافته حصل ببغداد فتن وثورات أعقبتها غلاء عظيم وفي سنة (٣٣١ هـ) أرسل ملك الروم يطلب من المتقي منسديه لارغم ان المسيح مسيح به وجهه فصارت صورة وجهه فيه وان هذا المنديل في بيعة الرها (١) وانه ان أرسله أطلق عددا كثيرا من اسراء المسلمين فاستفتى المتقي القضاة والنقهاء في ذلك فاختلفوا فقال بعضهم دفعه اليهم واطلاق الاسرى أولى وقال بعضهم ان هذا المنديل لم يزل في بلاد الاسلام ولم يطلبه ملك الروم منهم فبدفعه اليهم غضاضة وكان في الجماعة علي بن عيسى الوزير فقال ان خلاص المسلمين من الاسر والضنك أولى من حفظ هذا المنديل فأمر الخليفة بتسليمه اليهم وأرسل من يتسلم الاسرى فاطلقوا

وفي خلافته (٣٣٢ هـ) خرجت طائفة من الروس في البحر الى فواح أذربيجان وركبوا في البحر الى نهر الكرفانتهو الى مدينة برذعة فخرج اليهم نائب ملك الديلم بأذربيجان فلقوا الروس فلم يكن الا ساعة حتى انهزم المسلمون وقتلوا عن آخرهم ثم دخل الروس البلد وحصل بينهم بعد ذلك وبين المسلمين وقائع كان النصر فيها لهم ثم بعد أمور يطول شرحها وضعوا السيف فيمن بقي برذعة حتى

بنى العباس خصوصا في زمن بنو بويه والعرب يطلقون هذا اللفظ على كل من يلبى بلاد الروم التي هي شرقي خليج القسطنطينية اه

(١) مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام كقوله باقوت وكانت مدينة عظيمة واسعة الاقطار طامة الديار وتتصل ببحران والغالب على أهلها دين النصرانية وبهذه المدينة أكثر من مائتي كنيسة ودير ولم يكن للنصارى أعظم منها وبكثيبتها العظمى منسديل للمسيح كان واه ابن الاثير وأخذها كسرى من يد الروم وكان فتحها صاعدا على يد صياض بن غنم سنة (١٧ هـ) وفي الحروب الصليبية دخلت في يد الفرنج فاسترده منهم عماد الدين زنكي بن آقس قمر سنة (٥٣٩ هـ) وبعد قتل آقس قمر استولى عليها جوسلين ملك القدس ثم طرده منها نور الدين محمود بن زنكي ثم فتحها صلاح الدين الايوبي سنة (٥٧٨ هـ) واماها الآن أو رقاوهي قاعدة تلواء الى جنوبي ديار بكر وشرقي حلب لولاية حلب وكانت تسمى قديما ايذسا أو اذسا وسميت أيضا كالرهيوي ثم الرها عند العرب قيل انها نبت ايام السلوقيين وبها الآن جامع جليل ينسب للخليل ابراهيم عليه السلام ومقام لا يوب الصديق واضرحة الجابر الانصاري وابي عبيد بن الجراح والبديع الحمداني وغيرهم وبها آثار برج قديم يقال انه قصر التمرود اه

أفوههم عن آخرهم ولم ينج الا الشريد وغنموا الاموال واستعبدوا السبي ثم ان المرزبان بن محمد ملك
الديلم استنفر الناس وقاتل الروس وقتل أميرهم وما زال بهم حتى طردهم
ولما اشتد الامر بالمتقى وضايقت له الحال جدا وخاف على نفسه كتب الى الاخشيدي صاحب مصر
يشكرو اليه حاله فسار الاخشيدي من مصر الى الرقة واجتمع بالمتقى وحمل اليه هدايا عظيمة واجتهد
بالمتمقى أن يسير معه الى مصر والشام ليكون بين يديه فلم يفعل ثم أشار عليه بالقيام من الرقة وخوفه
من تورون أمير الامراء فلم يفعل ثم عاد الاخشيدي الى مصر وسار الخليفة الى بغداد بعد أن أخذ
اليمن على تورون بأن لا يخونه ثم قبض تورون على المتقى وسمه له ودعا منه من الخلافة وحبس
(٣٣٢ هـ) وكانت خلافته ثلاث سنين وخمسة أشهر وأياما

خلافته المستكفي بالله (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) لما قبض تورون على المتقى بايع المستكفي
بالله ثم بايعه عامة الناس ولم تزل مدته لان الديلم قبضوا عليه بدعيته معز الدولة بن بويه الذي كان
قدم بغداد وقابله الخليفة بالتكريم والتعظيم وأمر أن تضرب ألقاب بني بويه على الدنانير
والدراهم تعظيما لشأنهم ونزبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء وكانت مدة خلافة المستكفي سنة
وأربعة أشهر وفي خلافته اشتدت شوكة أبي زيد الخارجي الاباحي بأثر بقيته وهزم جيوش
العلويين

خلافته المطيع لله (٣٣٤ - ٣٣٣ هـ) لما تولى الخلافة كما أراد معز الدولة والديلم
سلموا اليه المستكفي فسمه له وبقى بمجوسا الى ان مات وفي خلافته ازداد امر الخلافة إديارا ولم
يبق لها من الامر شيء وتسلم نواب معز الدولة العراق بأسره ولم يبق في يد الخليفة غير ما أقطعه اياه معز
الدولة مما يقوم ببعض حاجته ثم حصل قتال بين بغداد وبين ناصر الدولة بن حمدان ومعز الدولة بن بويه
وانحط مقام الخليفة جدا واشتد الغلاء ببغداد وعدم القوت حتى أكل الناس الخيفة وكثر فيهم الموت
وفي خلافته أهمل أمر الثغور وزيادة عما كان عليه لوقوع الاضطرابات داخل الدولة وبذلك
وجد الروم فرصة فأغاروا على بلاد الاسلام وافتتحوا حلب والمصيصة وانطاكية وطرسوس وغيرها
من المدن وغنموا وسبوا شيا كثيرا وخلق عسكر الاسلام هزيمات كثيرة ثم تقوى المسلمون ودخلوا بلاد
الروم وأوغلوا تحت قيادة سيف الدولة وقتلوا الدمستق وهزموا جيشا عظيما كان جمعه الروم من
الروس والصقالبة والبلغار (٣٤٠ هـ) وحصل ببغداد فتنة عظيمة (٣٥٢ هـ) بين أهل
السنة والشيعة سبها ان معز الدولة أمر أن يغلق الناس دكاكينهم عاشر يوم من محرم ويمسكوا عن
البيع والشراء ويلبسوا المسوح ويعلموا بالنياحة وتخرج النساء مسجلات الشعور ومسودات
الوجوه قد شدة قن ثيابهن واطمن خدودهن على الحسين ففعل الناس كذلك ولم يقدر أهل السنة
على منعه

وفي خلافته انشأ معز الدولة السعاة ببغداد لاعلام أخيه ركن الدولة بالاحوال سر يعاقتشا
في أيامه فضل وحر عوش وفا فاجمع السعاة وكان كل واحد منهما يسير في اليوم نيفا وأربعين
فرسخا هكذا قاله أبو الفداء وغيره وتعبت لهما الناس وكان أحدهما ساعي السنة والاخر ساعي
الشيعة وفي خلافته أرسل المعز لدين الله العبيدي قائد جيشه أبا الحسن جوهر غلام والده
المنصور بجيش كثيف الى الديار المصرية فامتلكها بعد موت كافور (٣٥٦ هـ) كما سأتى ذكر

ذلك وقتل الزوم ما كهم بنقوفور وكان ذلك لخير المسلمين لان بنقوفور جلب على مملكتهم مدة ملكه ما لا يقدر من البلاء والخراب وقصد القرامطة بلاد مصر فهزمهم العلوية بمدينة عين شمس (المطرية)

ولما رأى سبكتكين أمير الامراء المتغلب على بغداد عجز المطيع من ثقل لسانه لسقوط فالح عليه وتعذر الحركة له وهو يستر طلب اليه ان يخلع نفسه ويسلم الامر الى ولده الطائع فأجاب المطيع لتسع وعشرين سنة وكسر من خلافته (٢٦٣ هـ)

خلافة الطائع سنة (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) لما تولى كانت الخلافة في اضطراب وفتن كما كانت أيام سلفه وكان مغلوبا عليه من قبل أمرائه وما كان له الا العظمة الظاهرة وكان شديد القوة في خلقه حدة كريمة شجاعا بلا جوادا الا أن يده كانت قصيرة وفي خلافته ابتدأت دولة آل سبكتكين (١) ملوك غزنة (٢٦٦ هـ) وفي خلافته (٣٧٥ هـ) قصد القرامطة الكوفة مع نفرين من ساداتهم فقتلواهم وهاجهم عليهم صمام الدولة جيشا فانهمز القرامطة وكثر القتل فيهم وانخرقت هيبتهم وأرسل العزيز صاحب مصر العلوي (٣٧٨ هـ) عسكرامع قائده منير الخادم فاستولى على دمشق وطردهمنا بكجور واستقر منير في اماره دمشق وأحسن السيرة في أهلها وحدث في زمنه أوصاف عظمة ببغداد بين الاتراك والديلم ودام القتال بينهم أياما حتى أدى الى ضعفهم وفي خلافته أيضا ابتدأت دولة بنى مروان (٢) (٣٨٠ هـ) ثم انبها الدولة بن عضد الدولة قبض على الطائع لله طمعا في أمواله فهدس اليه من جنبيه عن تخته من الديلم وأشهد عليه بالخلع (٣٨١ هـ) وكانت خلافته سنة وثمانية شهور ولما تولى القادر جعل اليه الطائع فبقى عنده مكرما الى أن توفى الطائع (٣٩٣ هـ) ولم يكن للطائع في ولايته من الحكم ما يستدل به على حاله

خلافة القادر بالله أحمد (٣٨١ - ٤٢٣ هـ) لما خلع الطائع لله كان القادر بالله مقيما بالبطيحة (٣) محتميا بها عندهم مذهب الدولة صاحب البطيحة وكان موسعا عليه ولما حضر الى بغداد

(١) ويقال لهم الغزنوية أيضا وذلك ان نصر الدين محمود بن سبكتكين أسس دولة في شرقي بلاد الهيم (٣٦٦ هـ) واتخذ غزنة عاصمة له وكان له ولدين من بعده دولة هناك دامت الى سنة (٥٧٨ هـ) وكان سبكتكين من علمان امحق صاحب جيش غزنة للسامانية وكان سبكتكين مقدا عندهم لاد أبي اسحق المذكور لقتله وشجاعته فلما مات أبو اسحق ولم يكن له ولد اتفق العسكر وولوا سبكتكين عليهم لكمال صفات الخير فيه وحلفوا له وأطاعوه ثم عظم شأن سبكتكين وارتفع قدره وفتح في بلاد الهند فتوحات جليلة اه

(٢) جددهم هو أبو علي بن مروان تقلد الامارة من الخليفة العزيز بالله العلوي صاحب مصر وكان في قبضته ولاية حلب وغرناطة ولما قتل قام بعده أخوه محمد الدولة وأضاف في زمنه الى امارته عدة بلاد وبقيت دولتهم الى سنة (٤٥٣ هـ) اه

(٣) البطيحة أرض واسعة بين واسط والبصرة وكانت قديما قري متصلة وأرضها غامرة تفتق في أيام كسرى أبرويز ان زادت دجلة زيادة مفرطة وزاد القرات أيضا بخلاف العادة فجز عن سد ما فتبضع الماء في تلك الديار والعمارات والمزارع فطردها عنها فلما نقص الماء وأراد العمان أدركته المنية وولى بعده شيرويه فلم تطل مدته ثم ولى نساء لم يكن فيهن كفاءة ثم جاء الاسلام فقتلوا بالحرب والحلاد ولم يكن للمسلمين درية بعمارة الارضين فلما لقت الحرب أوزارها واستقرت الدولة الاسلامية قرارها استعمل أمر الطائع واقصدت مواضع البشوق وتقلب الماء على النواحي ودخلها العمال بالسفن فأرأفها مواضع عالية ليرصل الماء اليها فبنوا قراها وسكنها قوم وزرعوها الارز وتقلب عليها في أوائل أيام بني بويه أقوام من أهلها أو تخصصوا بالماء والسفن وخرجت تلك الارض عن طاعة السلطان وصارت تلك المياهم كالمعاقل الحصينة الى ان انتقضت دولة الديلم ثم دولة السلجوقية فلما استبدت بالعباس عليهم ورجع الحق الى نصابه رجعت البطيحة الى أحسن النظام وجباها عماله هم كما كانت في قديم الأيام اه يا قوت

خرج الامراء والكبراء والعلماء الملتقاه وفي أول خلافته غزا ملك الروم بلاد الشام ففتح وغنم وشغبت الجنود أيضا ببغداد كما هي عادتهم وتترددوا واطغوا ولم يسكتوا الا بنوالهم ما يطلبون واستولى ملك الترك هرون بفرخان على بلاد بخارى وهزم نوح منصور الساماني وكان هرون المذكور دينا حسن السيرة عادلا

وفي خلافة القادر توفى العزيز بالله الفاطمي صاحب مصر وتولى ابنه الحاكم (٣٨٦ هـ) وهو الذي ادعى الربوبية كما هو المشهور وقتل عند عين حلوان بعصر (٤١١ هـ) وفي خلافته كان ابتداء دولة بني حنبل ملك بجاية بافريقية (٣٨٧ هـ) وانقراض الدولة السامانية من وراء النهر (٣٨٩ هـ) ازالها اللتخان ملك الاتراك بعد ان قبض على عبد الملك ابن نوح آخر امرائها وسمي باقي بني سامان وكانت دولتهم قد امتدت وطبقت كثيرا من الارض وكانت من أحسن الدول سيرة وكان ابتداء دولتهم (٢٦١ هـ) وانقراضها في هذه السنة المذكورة

وكانت الفتن في بغداد قائمة على قدم وساق حتى هاجر كثير من الامراء والعلماء من تلك المدينة الزاهرة وتخرّب بها مبان كثيرة وعاث المفسدون بجوانبها حتى صارت مهتدة في كل لحظة ولما علا شأن الدولة الفاطمية وتحدثت الناس بها وكثر ضررها بما كان يجاهر به عمالها وشيعتها من الاقوال المخالفة لمعتقد أهل السنة والجماعة رأى الخليفة والقضاة والفقهاء ببغداد ضرورة إعلام الناس باصل تلك الدولة وما ينتج لهملو كهاف كتب محض ببغداد يتضمن القدر في نسب العلويين خلفاء مصر وكتب فيه جماعة من العلويين والقضاة وجماعة من الفضلاء وغيرهم يقولون ان هذا الناجم في مصر (يريدون الحاكم) هو وسلفه كفار وفساق زنادقة مهذون معطلون وللإسلام جاحدون أباحوا القروج وأحلوا الخجور وسبوا الانبياء وادعوا الربوبية وغير ذلك (٤٠٢ هـ) وفي خلافته أيضا كان انقراض الدولة الاموية من الاندلس وقيام الدولة العلوية بها (٤٠٧ هـ) وكانت وفاة القادر بالله (٤٢٢ هـ) وقد امتدت خلافته حتى أنافت على احدى وأربعين سنة وفي أيامه تراجع وقار الدولة العباسية وغمار ونقها وأخذت أمورها في القوة وذلك لاسباب أعظمها تلاشى سطوة المدبر ببغداد وقيام الناس عليهم

خلافة القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) وكان والده القادر عهدا له بالخلافة قبل موته بسنة فلما توفى أتت له ذلك وبايعوه بالخلافة وفي السنة الاولى من خلافته قدم ملك الروم رومانوس الى الشام وفتح أماكن وكان ذلك بدسيسة بعض المسلمين الذين كثر دخولهم تحت طاعة ملك الروم في تلك المدة ممتدة الثورات والاضطرابات الداخلية عليهم أن يتالوا بسبب ذلك بعض المناصب والولايات وفي (٤٢٦ هـ) انحط أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وعظم أمر العيارين واعتدوا على الناس بأموالهم وجمال الدولة أمير الامراء عاجز عنهم والخليفة أعجز وابت العرب في البلاد ونهبوا الاطراف ووصلت الروم الى حلب فالتقاهم صاحبها شبل الدولة وهزمهم

وفي خلافته ابتدأت الدولة السلجوقية (٤٣٢ هـ) وسياق ذكرها على حدتها وانقرضت دولة بني بويه (٤٣٥ هـ) وأسلم من الترك خلق كثير من تلقاء أنفسهم وتفرقوا في بلاد الاسلام ولم

يتأخر عن الاسلام سوى الخطا^(١) والتار بنواحي الصين ولما رأى آل باديس بافر بقية شناعة معتقد العلويين بمصر قطعوا الخطبة لهم وخطبوا للقائم العباسي خليفة بغداد فكان ذلك سببا في ارتقاء شأن الخلافة العباسية ثانية بافر بقية ولما علم القائم بذلك أرسل للعز بن باديس الخلع والاعلام على طريق القسطنطينية في البحر وكان الغلاء كثيرا لوقوع من وقت ماضى فامر الخلافة العباسية لحصول الثورات المتتابعة والاضطرابات المتوالية التي كانت تخرب السواد وتشتت الزراع ومن ذلك حدث (٤٣٩ هـ) بالعراق غلاء عظيم حتى أكل الناس الميتة وخلت أسواق بغداد عن الماء كولات بالمرّة وأعقب ذلك (٤٤١ هـ) حصول الفتنة ببغداد بين السنة والشيعة وقد تكرر وحدوثها عدة مرات وعظم الامر حتى بطلت الاسواق وتوقفت الاعمال وشرع أهل الكرخ^(٢) في بناء سور عليهم وشرع السنة ومن يجري مجراهم في بناء سور على خطتهم وكان الأذان بما كن الشيعة بمجي على خير العمل وكتبوا في مساجدهم محمد وعلى خير البشر وبما كن السنة الصلاة خير من النوم وفي (٤٤٢ هـ) جهز المستنصر الفاطمي جيوش العرب بالاموال فساروا واستولوا على برقة وهزموا جيوش المعز بن باديس ثم عاتوا في الارض وما زالوا يهزمون جيوشه حتى التجأ الى المهديّة (٤٤٩ هـ) ونهب العرب البلدان وسب ذلك قطع المعز بن باديس خطبة العلويين كما تقدم

وفي خلافته ظهر شخص يقال له البساسيري كان يملكو كآر كيامن بمالك بهاء الدولة واسمه ارسلان وهو منسوب الى مدينة بسابغارس وكان يتعصب للفاطميين بمصر وجرت بينه وبين عسكر الخليفة وقائع عظيمة وأهوال كبيرة ودخل بغداد بالقوة وطر الخليفة منها ثم تغلبوا عليه وقتلوه وشتموا شمل جيوشه (٤٥١ هـ) وفي خلافته أيضا (٤٦٢ هـ) حصل القحط الشديد بمصر الذي أكل فيه الناس الميتة والجلود وغيرها حتى ان الخليفة المستنصر العلوي باع كل ما يملكه ودام هذا القحط زمنا طويلا حتى خربت البلاد وعفت الآثار وحدث في تلك السنة ان ملك الروم المدعو ارمانوس خرج في جوع كثيرة من الروم والروس والشركس وأغار على بلاد الاسلام فقباله ألب أرسلان وقل جوعه وأخذه أسيرا ثم ان الروم توسلوا الى ألب أرسلان فاطلقه بعد ان أخذ عليه شروطا من حمل المال سنويا واطلاق الاسرى وغير ذلك وكانت وفاة القائم (٤٦٧ هـ) وخلافته ٤٤ سنة وثمانية أشهر وأياما

خلافة المقتدى بأمر الله (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) لما فاربت الوفاة القائم بأمر الله

عهد بالخلافة من بعده لحفيده المقتدى بأمر الله هذا جلس على تخت الخلافة وكانت الاحوال مختلفة والنظامات معتلة وكان الامر في الدولة يسدأ مرء الاقطاعات الذين تغلبوا من زمن مسديد على اجزاء الخلافة الاسلامية هذا في الشرق أما في جهات الغرب أي بلاد الاندلس فان الافريج كانوا قد استطالوا على بلاد الاسلام لضعف شأنهم وتفرق كلمتهم وان كان يوسف بن تاشفين هزم الافريج في عدة وقائع واسترد للاسلام ما كان استولى الفريج عليه الا ان هذا التطرف لم يدم زمنا طويلا لان الدولة كان سرى في جسمها الدخيل وأصبحت بتشتت الاهواء حتى ان بلاد الاندلس لم تلبث بعد ذلك زمنا طويلا فتغلب عليها الفريج تماما وبته الامر من قبل ومن بعد وراكض الفريج أيضا الى

(١) أمه قديمه بشمال آسيا لعالم الروس

(٢) هو الجانب الغربي من مدينة بغداد

الجزائر التي كانت في تصرف المسلمين بالبحر المتوسط الابيض وتغلبوا عليها ومن ذلك انه في (٤٨٤ هـ) استولوا على جزيرة صقلية بعد ان حاصروها مدينة مدينة ولضعف الاسلام في ذلك العصر للاسباب التي ذكرناها لم يتمكن من امداد تلك الجزيرة المهمة وكان الذي استولى عليها هو الملك روجر الاول بن تانكريد بعد ان بقيت في يد الاسلام مدة مائتي سنة

وكانت وفاة المقتدي بامر الله (٤٨٧ هـ) وكان من نجبها بنو العباس قوى النفس على المهمة دينيا صالحا ومن صلاحه ان السلطان ملكشاه من آل سبكتكين قصد ان يظهر الحق والحيث عليه بقوله له اخرج من بغداد فتلطف به المقتدي فابى فاستمهل به عشرة ايام فامهله فصار الخليفة يصوم ويتضرع الى الله فنقذ دعاؤه وهو مظلوم فهلك السلطان ملك شاه قبل مضي عشرة ايام بحمى محرقة (٤٨٥ هـ) وعدت هذه كرامة للخليفة المقتدي وكان ملكشاه المذكور من اعظم الامراء واحسنهم طارذ كره وخطب له من حدود الصين الى آخر الشام ومن اقايدى بلاد الاسلام شمالا الى آخر بلاد اليمن وحملت له ملوك الروم الجزية ولم يفتسه مطلب وكانت ايامه ايام عدل وسكون وامن فعمرت البلاد ودرت الارزاق وله اخبار كثيرة وكانت وفاة المقتدي بامر الله فجأة وخلافته ١٩ سنة واشهرها وأمه أرمنية الاصل

خلافته المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) لما جلس هذا الخليفة على تخت الخلافة كانت الاضطرابات والتقلبات لا تزال سائدة هذا الامير يقتل ذلك وهذا السلطان يتترع ما يبدا وثلث وهكذا من الفتن والحمن والاحن التي كانت سببا في نطلع الفرنج الى بلاد المشرق وقيامهم بدوا واحدة لتخليص بيت المقدس من ارجاس الاسلام كما يدعون وان كان القصد من ذلك خلاف ما به يجاهرون فابتدأت تلك الحروب ذات الذكر الشهير المسماة في التاريخ بالحروب الصليبية التي استمرت زيادة عن الاربعة قرون وكان ابتداءها في خلافة المستظهر بالله هذا (٤٩٠ هـ) وقد كانت الممالك الاسلامية في ذلك العصر يتنازعها خلافتان اسلاميتان العباسية ببغداد والعلوية بدمصر والدول المتفرعة عنهم وقيام الباباوات وعظماء النصرانية وكبر اؤها يحرضون أهل أوروبا على الرحيل متجندين متسلحين لخلاص بيت المقدس من يد الاسلام وسيأتي ذكر ذلك على حدة

وفي خلافته كان ابتداء الدولة الخوارزمية ^(١) (٤٩١ هـ) وفي (٤٩٠ هـ) عبر الفرنج خليج القسطنطينية وأغاروا على مملكة آل سلجوق واستولوا على قونية وغيرها وقتلوا كثيرا ونهبوا وكثيرا وانهم زمت جنود فرنج أرسلان أمامهم ثم أغاروا على بلاد الاسلام واستولوا على انطاكية وغيرها وملكوا ايضا بيت المقدس (٤٩٢ هـ) بعد حصاره زمنا ولبثوا يقنلون في

(١) اولهم محمد خوارزم شاه بن اوشتكين وكان اوشتكين مملوكا اشتراه ملك من السلاجقة ولما كان حسن الطريقة كرم مقامه وعلاجه وصار مقدم امر جوعا اليه ولله محمد خوارزم شاه المذكور فر باه والده اوشتكين واحسن تأديبه فانقش محمد عارفا دينا وتقدم بالعناية الازلية واشتهر بالكفاءة وحسن التدبير ثم تولى محمد بن اوشتكين المذكور بلاد خوارزم فأحسن السيرة ورد المظالم وقصر اوقافه على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب اهل العلم والدين فعلاذ كره وعظم عمله عند السلطان سنجر ولما تولى خوارزم شاه محمد المذكور ولوى بعده ابنه السمي التمرقند ظلل الامن وافاض العدل وكانت دولة آل خوارزم من الدول العظيمة واستولت على ممالك سلاجقة ايران ودامت الى غزوات التتار اه

المسلمين بالقدس اسبوعا وعموما ايا يقع عليه الاحصاء وفر من بقي من السكان الى بغداد ومصر فعظم الخطب وفي خلافته أيضا عظم أمر الباطنية (١) وخافهم الناس وكان ملوك الفريج يغيرون على

(١) ويقال لهم الامم اعلمية هم فرق من غلاة الشيعة أصلهم من بلاد فارس ظهر وافي القرن الثالث من الهجرة ثم انتشر وافي بلاد العرب وسورية وافر يقية و ينسبون الى اسمعيل بن جعفر الصادق لقولهم باملته ويقولون ان الامامة انتقلت من اسمعيل الى ابنه محمد المكتوم وهو أول الائمة المستورين لان الامام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر وتكون دعائه ظاهر من اقامة الحججة على الخلق وان كان له شوكة ظهر واظهر دعونه ولما كانوا يعتقدون بقاء الامامة في العلويين هموا الائمة الذين لم يظهر وابعدا اسمعيل بالمستورين أو المكتومين وهم ثلاثة محمد المكتوم ثم ابنه جعفر المصدق ثم ابنه محمد الحبيب وبعده ظهرا ابنه عبيد الله المهدي الذي أظهر دعونه أبو عبد الله الشيعي في المغرب فهو من الائمة الظاهرين ولا تخلوا الارض عندهم من امام اما ظاهرا بذاته أو مستورا كأن تقدم ويدور عددا لائمة عندهم على سبعة ولذلك سمو بالسبعة ثم عزم ان النطقاء بالسر بعة سبعة آدم ونوح و ابراهيم وموسى وعيسى وسيدنا محمد عليهم أفضل الصلوات وأر كى السلام واسمعيل بن جعفر سابع النطقاء وقيل غير ذلك وبين كل اثنين من النطقاء سبعة ائمة يتمون شريعتهم فكل من النطقاء غير شريعتهم قبله فيتم شريعتهم سبعة ائمة بعدد سيمون بالمستورين ولهم في ترتيب رؤسائهم ترتيب غريب وأصل دعوتهم كانت على يد رجل يقال له ابن ديسان ثم انتشرت قليلا ببلاد فارس وافر يقية والبحرين ومنهم القرامطة السابق ذكرهم وجميع تعاليمهم تقر بها مخالفة للشر بعة الاسلامية وقد أنشأ الحاكم بأمر الله العبيدي مدرسة للدرس تعاليمهم وسمها دار الحكمة وكان أساسها التعليم بقلب الدولة العباسية بالمشرك وكان من أكبر دعواتهم بالمشرك رجل يقال له ذكرويه بن مهرويه ولما قتل (٢٩٤ هـ) انحلت عقدهم وضعف أمرهم قليلا غير ان مذهبهم بقي منبثا في الاقطار ثم اذنتهم في الامصار وامتدت شوكتهم وكافوا يخربون ويفسدون ويستبيحون الدماء لاسيما أيام تدهورهم بابل الخرمي حين سمو بالبابكية والخرمية والقرامطة ولما عجز خلفاء بني العباس عن تحصين امامتهم وكف الغوائل عنها انتشر الاسماعيلية واستولوا على القلاع وعظم ضررهم خصوصا في أيام السلطان ملكشاه السلجوقي وكان امتداد شوكتهم في أواسط القرن الخامس الهجري حيث انبثت دعوتهم في حلب وبغداد وفارس وكثرت شيعتهم وكان لهم بلاد جيلان من فارس قلعة حصينة تسمى الموت جعلها سيدهم أورئيسهم الحسن بن الصباح مركز الدولتهم وكان يقال له أيضا شيخ الجبل وبه يعرفون في كتب الفريج وكان الحسن المذكور شهيا طالما بالهندسة والحساب والجر وغير ذلك وقويت شوكة الحسن جدا حتى استولى على هوى أتباعه كل الاستيلاء وكان قسم طائفتهم الى ثلاث رتب الدعاء والرفاق والقدا وبه وهؤلاء الاخيرون هم الذين كان يستعملهم الملوك في قتل أعدائهم غدرا وبذلك يأخذون فدية أنفسهم على الاستماتة في مقاصد من يستعملهم ومن ذلك اسمهم وللقدا وبه ذكر كثير في فوارج الحروب الصليبية ولما كانوا يتعاطون المحبشة للاسكار وكان ذلك من قواعدهم مذهبهم سمو بالحشاشين ثم ان الصليبيين أفسدوا هذا اللفظ وقالوا أساسين Assassins وبسبب ما كان يد ومن هذه الطائفة من الاعمال الدموية صارت تدل عند الفريج على كل قوم يقتلون غيرهم قبلة سواء كانوا من الحشاشين أو غيرهم

وأما التعاليم الدينية التي وضعها ابن الصباح لطائفته فأساسها هذا المبدأ ليس شيء صحيحا وكل شيء مستحل ومنها ان جميع الرتب يجب ان تكون مختارين قليلين وان روح القدس يحل في الرئيس وان أوامر الرئيس آتية من لدن الله وقد وضع لدعائه قوانين يسلكون بموجبها تسمى مراتب وهي الرزق ثم التأنيث ثم التشكيك ثم العهد أو القسم ثم التسليم ثم التأنيث ثم الخلع ثم التأويل ويقال له السلخ وفي عهد ابن الصباح قتل تبعته كثيرين من الملوك والوزراء والمقربين كالمرشد باقر العباسي والأمر بحكام الله العبيدي ونظام الملك الوزير وابنه فخر الملك أو المظفر وبعض ملوك الاقربنج وللإسماعيلية أخبار وقائع مذكورة في فوارج العرب فمن أراد مفصلا عنها فليطلبها بها ثم انه في (٦٥٠ هـ) لما استعمل التتار سار هلا كومن بغداد وخرب قلاعهم وقتل رئيسهم وكان يدعى ركن الدين وزحف بعد ذلك الملك الظاهر بيبرس الى قلاعهم التي بالشام فغرب كثيرا منها ثم تبعت الملوك هذه الطائفة في جميع الاقطار وجعلوا يقتلونهم حيث وجدوهم وبذلك سقطت سلطتهم التي كانت تضطرب لها الممالك وتفرقت بملكهم وكانت تمتدة

النواحى فيقتلون وينهبون ويفتحون ومن ذلك انهم استولوا على عكا بعد حصارها برا وبحرا وكانت
لخلفاء مصر وفعولوا باهلها افعالا شنيعة (٥٤٩٧ هـ) وكان ملوك الاسلام اذذاك مستغلين بقتال
بعضهم بعضا وقد تفرقت الآراء واختلفت الاهواء وتمزقت الاحوال وتبتمت العمال وكانت وفاة
المستظهر (٥٥١٢ هـ) وخلافته ٢٤ سنة وثلاثة اشهر واياما

ثلاثة اشهر شديدا (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) وهو ابن المستظهر وكان ولي عهد خطب
له ثلاث وعشرون سنة في حياة ابيه وفي السنة الاولى من خلافته مات بلدين الاول ملك القدس
وكان قصد بلاد مصر (٥٥١١ هـ) فانتهى الى الفرما ودخلها واحرقها واحرق جامعها ومساجدها
ثم رحل عنها راجعا الى الشام وهو مريض فهلك في الطريق قبل وصوله الى العريش ولا يزال يسمى
باسمه لان سجنه هناك فيقال سجنه بردويل او بغدويل او بلديون وخلفه قريسه بلديون ديورغ
وفي خلافته كان ابتداء دولة الموحدين بالمغرب على يد محمد بن تومرت وسيأتي ذكر دولتهم وانقرضت
دولة المرابطين وفي خلافته ايضا مات الامير باحكام الله العلوي قتله الباطنية بجنونته له (٥٥٢٤ هـ)
وقد حصل خلاف كثير بين المسترشد والسلطان مسعود بن ملكشاه واقتتلا فانهزم المسترشد واصر
(٥٥٢٦ هـ) ولما اسره السلطان جعله في خيمة ووكل به من يحفظه فقصده جماعة من الباطنية
فدخلوا عليه وقتلوه ومثواه به (٥٥٢٩ هـ) وكان عمره لما قتل ٢٣ سنة وثلاثة اشهر وخلافته
سبع عشرة سنة وستة اشهر واياما وكان شهما فصيحعا على الهمة

ثلاثة اشهر شديدا (٥٢٩ - ٥٣٠ هـ) وهو ابن المسترشد بالله وكان ابوه قد بايع
له ولاية العهد في حياته ثم بعد قتله جددت له البيعة وفي اول خلافته افتتح الفرنج جزيرة قبرص من
اعمال افريقية وهرب من بقي بها من المسلمين

وكان السلطان مسعود لما بايع الراشد خلفه ان لا يحاربه ولا يجند عليه جنودا وانه متى فعل
شيئا من ذلك خلع نفسه فحصل اختلاف بين مسعود وابن اخيه داود وقتل فكان الراشد من تدخل
في شئ من ذلك فاستفتى مسعود فيه العلماء وذكروا لهم اشيئا توجب الخلع فافتوا بخلعه (٥٥٣٠ هـ)
وليس في خلافته ما يستحق الذكر سوى ان المحاربات كانت قائمة على قدم وساق بين امراء المسلمين
وملوك الفرنج الصليبيين واعلم انه بعد خلع الراشد وخلافة المقتفي دخل جماعة من الباطنية على
الراشد ممن كانوا يجندونه فقتلوه وكان مهيبا شديدا بطيش (٥٥٣٢ هـ) وكانت مدة خلافته
احدى عشر شهرا واحدى عشر يوما

ثلاثة اشهر المقتفي الامراء (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) وهو ابن المستظهر وكان عالما دامت
الاخلاق خلية بالامارة كامل السؤدد بيده ازمة الامور كان لا يجرى في خلافته امر وان صغرا الا
بتوقيعه وجرى في ايامه قتل وحروب بينه وبين سلاطين العجم كانت الغلبة فيها له وثار في ايامه العيارون

من سواحل البحر المتوسط الى داخل تركستان وكان مدة تلك هذه الطائفة نحو ١٥٠ سنة على اتمهم لم يقرضوا اتاناما
فقد بقي منهم الى الان ثرذمات بلاد فارس وعلى سواحل نهر السند وفي ناحية القدموى من جبل النصيريق وناحية
الحواري من قضاء جبلة وغيرهما حتى في نفس حماة بلاد حلب ونفس دمشق ولهم حتى به مشق يعرف بحارة الحنساين
ولهم لادن رئيس روجي اسمه وانه الداعي مقر باليمن او الهند اه

والمفسدون فنقض بقمعهم أممهم فوض وفي خلافته افتتح المسلمون كثيرا من الحصون والقلاع والمدن التي كانت بيد الأفرنج واستظهروا عليهم في عدة مواقع وأغار ملك الروم (٥٣١ هـ) فحارب الأرمن والفرنج ثم سار إلى الشام وحاصر عدة مدن منها حلب لأنه لم يزل منها ما كان يؤمل وفي خلافته افتتح الفرنج طرابلس الغرب (٥٤١ هـ) بسبب اختلاف كان بين أهلها واستولوا على المهديّة بأفر ببيعة وكان حصل بأفر ببيعة فحط شديد حتى أكل الناس بعضهم بعضا ففارق الناس القرى ودخل أكثرهم في صقلية فاعتنم بچار (روجير) صاحب صقلية هذه الفرصة وجهاز أسطولاً مؤلفاً من نحو ٢٥٠ مركباً وشحنها بالسلاح والمقاتلة وجعل عليها مقدماً يقال له جورج وساروا من صقلية إلى جزيرة قوصرة وهي ما بين المهديّة وصقلية وساروا منها وأشر فو على المهديّة ولما علم أهلها بذلك ورأوا ضعف حالهم وقلة المؤنّة عندهم اتفقوا على إخلاء المهديّة وكان أميرها حسن ابن علي الصنهاجى وأخذوا معهم ما خف حمله وبقى الأسطول في البحر تمنعها الرجح من الوصول إلى المهديّة ثم دخل المهديّة وليس بها أحد ودخل جورج مقدم الأفرنج إلى قصر الأمير حسن فوجده على حاله لم يعد منه إلا ما خف حمله ووجد الخزانة مملوءة من الذخائر النفيسة وغرائب التحف مما يقل وجود مثله وبقى الأمير المذكور ينتقل من بلد إلى بلد حتى ظهر عبد المؤمن وافتتح المهديّة فجعله فيها والياً وحصل في خلافته أيضاً فحط شديد وغلاء عمّ خراسان والعراق والشام والمغرب (٥٤٣ هـ) وفي خلافته كان ظهور الدولة الغورية (١) (٥٤٣ هـ) وفي خلافته (٥٤٨ هـ) ظهر أمر الغز (٢) وعانوا في البلاد وقتلوا كثيراً من العلماء والصالحاء والقضاة بنيسابور وخرابوا المدارس وعملوا كل عظيمه وفي خلافته أيضاً لما اشتد ظلم الأفرنج بأهل أفر ببيعة ناروا وقتلوا

(١) كان ابتداءها في آخر دولة بني سبكتكين وملوكها هم الذين دعوا بها وابتدأ ملكهم سنة (٥٤٣ هـ) وأول من ملك منهم رجل اسمه حسين بن الحسن ملك جبال الغور في بلاد النجم وكانوا عمالاً لبني سبكتكين وكانت لهم شهادة وشوكة ورعباً نسبوا إلى بهرام شاه آخر ملوك سبكتكين وامتدت الدولة الغورية إلى الهند والسند ومن أشهر ملوكهم غياث الدين الغوري وتلقب بتقسيم أمير المؤمنين وله فتوحات كثيرة (٥٤٩ - ٥٩٩ هـ) ومحمود ابنه وهو آخرهم قتله بعض جنود خوارزم شاه سنة (٦٠٤ هـ) وكانت دولتهم من أحسن الدول سيراً وأعدتها وأكثرها جمالاً إلا أنهم لم تطل اه

(٢) الغز هم طائفة من الترك كانوا عمالاً وراء النهر فلما ملكه الخطا قبيل ذلك أخرجوهم منه فقصدها خراسان وكانوا كفاراً وكان من أسلم منهم وخالط المسلمين يصير ترجماناً بين الفريقين حتى صار من أسلم منهم قبل عنه أنه صار ترجماناً ثم قبيل ترجماناً بالكاف المجمة وجمع على تراكمين ثم أسلم الغز جميعهم فقبيل لهم تراكمين ولما قدموا إلى خراسان أقاموا بنواحي بلخ مدعواً بطلبه من الأمير قباچ مقطع بلخ أن يخرجهم من بلادهم فمتمنعوا بخاربهم فمتمنعوا بقتلهم وقبيلهم وبأسروا وكانوا قبيل ذلك تضرعوا إليه أن يكف عنهم ويتركهم في مراعيهم في مقابلته مال يحملونه إليه فلم يقبل وبعد هزيمته عانوا في البلاد فجمع السلطان سنجر السلجوقي عساكره وسار إليهم في مائة ألف فارس فاعتذر إليه الغز بموقع منهم وبذلوا له الأموال الكثيرة ليكف عنهم فلم يجيبهم ولما وقعت الحرب بينهم انهمز سنجر وعساكره وتبعهم الغز يقتلون وأسرا السلطان سنجر ومعه جماعة من الأمراء فغضب الغز اعناقهم ما عدنا سنجر فأنهم احترموه وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا نحن عبيدك لا نخرج من طاعتك ثم دخلوا معه مرو وهي كبرى خراسان ثم حصل بين سنجر والغز أمور انتهت بأن نزل سنجر من مر الملك سنة (٥٥١ هـ) ولحق بخانقاه مرو واستولى الغز على البلاد ثم قام بعض مماليك سنجر واستقلوا بعض البلاد ووطردوا الغز عنها اه

من الفرنج عددا عظيما وسار عسكره بمدا المؤمن فلك عناية وخرجت جميع افر بقيه عن حكم
الافرنج ما عدا المهديه وسوسه ثم افتتحهما بعد ذلك بقليل

وكانت وفاة المقتدى لامر الله (٥٥٥ هـ) وكانت خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر وأياما
وكان حسن السيرة وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه وكان يبذل الاموال
العظيمة لاصحاب الاخبار في جميع البلاد حتى لا يقوت منها شي وقد تمكن بجهارته من ازالة تغلب بنى
سلجوق عليه حتى انه في (٥٥١ هـ) امتنع من الخطبة للسلطان محمد بن محمود السلجوقى فخاه بعسكره
وحاصر بغداد ثم انصرف من غير طائل

خلافه المستجيب بالله (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) وفي أول خلافته تأمر عليه بعض الجوارى
بديسة أمه يردن قتله فلما فطن لذلك قبض على أم أخيه أبي علي وحبسها وهو وقتل الجوارى
المتأمرات وفي خلافته سنة (٥٥٨ هـ) ضعفت الدولة الفاطمية بمصر بما كان من القتال بين
شاوور وضرغام وآل رزبك ووزراء العاضدين الله العلوى وقتل ضرغام كثيرا من أمراء المصريين لما
تمكن من الوزارة لتخلوه البلاد وما زالت هذه الدولة آخذة في الانحطاط حتى خرجت البلاد من يد
القواطم بإرسال نور الدين محمود بن زنكي عسكر الى مصر مقدمهم أسد الدين شيركوه ومعهم شاوور
وزير العاضد وكان قد سار من مصر هاربا من ضرغام فلحق شاوور بنور الدين وبذله ثلث أموال
مصران هو أعاده الى الوزارة فأرسل نور الدين شيركوه الى مصر فوصل اليها وقتل ضرغام عند قبر
السيدة نفيسة رضى الله عنها وأعاد شاوور الى الوزارة (٥٥٨ هـ) ومع ذلك فقد غدر شاوور ولم يف
بما شرط على نفسه فقصده نور الدين واستولى على بليس والشرقية فأرسل شاوور واستجذب الفرنج
فسار الفرنج واجتمع معهم شاوور بعسكر مصر وحصر واشيركوه ببليس ودام الحصار ثلاثة أشهر
ولما بلغ الفرنج حركه نور الدين عليهم راسلوا اشيركوه فى الصلح وفتحوا له نخرج من بليس بالجنود
ووصل الشام سالما

وكان أمر الفرنج الصليبيين قد ترزع وضعف بأسهم ووقع في يد المسلمين كثير من مدنهم
وأمراتهم وجيوشهم ثم عاد اشيركوه الى مصر وافتتح منها عدة بلاد مثل الجسيرة والاسكندرية ثم أتى
الملك الشهير والعضنفر الكبير صلاح الدين الايوبى صاحب المواقف الشهيرة والاعمال الخطيرة
في حروب الصليبيين بلاد مصر (٥٦٤ هـ) وهو رأس الدولة الايوبية وكان أتى مصر لتخليصها
من يد الفرنج على ما سئذ كرمه مصلاني تاريخ هذه الدولة

وكانت وفاة المستجيب بن المقتدى سنة (٥٦٦ هـ) وسبب موته ان عضد الدين استأذنه كان خاف
منه هو وقطب الدين فيما ذاك كبر أمراء بغداد فانفق مع الطبيب على ان يصف له وهو مريض
ما يكون سببا فى هلاكه فوصف له دخول الحمام فلما دخله أغلقوا عليه الباب فمات وكان المستجيب
حسن السيرة شهما أطلق كثيرا من المكوس وكان شديدا على أهل العيب والفساد وكانت خلافته
احدى عشرة سنة

خلافه المستضى بالله (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) وكان اسمه الحسن ولم يبل الخلافة من تسمى
بهذا الاسم غيره وفي أول خلافته امتد نفوذ صلاح الدين بمصر وانتظمت له الاحوال وانتصر على

أعدائه بها و قطع الخطبة للعاضدين الله العالوي وجعلها باسم الخليفة العباسي وكان ذلك بناء على أمر نور الدين ولم يحصل من ذلك بمصر ما كان صلاح الدين يخافه ثم بعد ذلك بتقليل مات العاضد بعد ان اشتد مرضه (٥٦٧ هـ) وبه انقرضت دولتهم وجميع من خطب لهم منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة فسبحان من لا يزول ملكه ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر الى بغداد اضطربت لها البشائر أياما وسير الخليفة الخلع الى نور الدين وصلاح الدين والخطباء وسيرت أيضا الاعلام السود شعار بني العباس ومن هذا الوقت كثرت أعمال حمام البطاقة أو الرسائل (١) وصار له منزلة عظيمة لشدة الحاجة اليه في نقل الاخبار السريعة فالتخذوا له أمكنة معلومة من القلاع واعتموا بأمره من يد العناية

وفي خلافته لما مات نور الدين محمود وهو من أعظم ملوك الاسلام قويته سلطة صلاح الدين واستبد بالامور وخضعت له البلاد وأطاعة الامراء وكانت وفاة المستضي* (٥٧٥ هـ) وخلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر وأمه أرمنية وكان عادلا حسن السيرة كريم النفس كثير الثناء الخلق عليه وأظهر من العدل أضعاف ما عمل له أبوه وأعطى أموالا جزيلة وكان شديدا على أهل الفساد

(١) حمام الرسائل هو نوع مشهور برسمة طيرانه وكثرة هدايته وحمله للرسائل ويرتبه بصفة مخصوصة وهذا الحمام كان يستخدم في الحروب والمحاصرات والتجارات وغيرها لئلا يخبر العدو عن النوع الذي ورد في الاشارة لئلا يطلع عليه السلام ارسلها من القلاع وقت الطوفان تأتيه بخبر الارض وقد ورد ذكره في التاريخ وقد ثبت ان مصارعا كان يأخذها الى الالعب الاوليصة بلاد اليونان حمامة فكان اذا تغلب على مصارعيه يعلق في عنقها قطعة من الارجوان و يلقها فتبلغ بيتها في نفس يوم اطسلاقتها فيعرف ذلك أهل وأهل البلد وكان الذين لا يقدرون على الذهاب الى سباق الجملات برومية قديرا يرسلون اليه أصدقاؤهم أو علمانهم ومعهم حمامات الرسائل فكانوا عند نهاية السباق يطلون ومصوبون الجملات فترجع اليها كما يعرف أصحابها من اللون هل ربحوا أو خسروا وفي سنة (٤٣ ق م) حاصر انطونيوس مدينة سويدية ببلاد ايطاليا فأرسل رئيس الحكومة الى حاكم احدى المدن رسالة مبروطة بخيوط عنق حمامة فأجابها برسالة معلقة برجاها ويقال ان هذه أول مرة استخدم فيها الحمام في الحروب ولم يعرف المسيحيون هذا الحمام الا (١٠٩٨ م) لما حاصر وأورشليم فكان القائد العربي في قلعة الحصار بين انطاكية وأورشليم يميل الى التسليم فمخبر قومه بواسطة الحمام وعند ذلك شاع خبر الحمامة التي انقض عليها طير جراح فسقطت بين عساكر الصليبيين فمخبر قوما صابرا بالاطلاع على الرسالة التي وجدوها تحت جناحها واستعمل السلطان صلاح الدين الأيوبي حمام البطاقة في حصار عكا (١١٨٩ - ١١٩١ م) فحملت اليه خبر وصول الملك لور التاسع الى مصر وأخبار حرب المنصورة التي دارت فيها الدائرة على الصليبيين ولما افتتح السلطان نور الدين الاقاليم الكثيرة ورأى انه لا بد له من الوقوف على اخبار سلطنته سر يعاربت حمام الرسائل لاسيما في مصر وشبهها في كل جهاتها أبراجا وأقام لها انظارا وحراسا يقبون وصولها لئلا ينكشف ذلك أو الاطمانلة وجعل بين كل برج وآخر ١٢ ميلا ومتى حصل أمر ذوال كان يعلم في عنق حمامة فارورة صغيرة من الذهب الرقيق جدا كالورق داخلها رسالة ورقها رقيق جدا سمى ورق الطير كانوا يذكرون فيها تاريخ اليوم والساعة التي طارت فيها الحمامة وكان يطلق حمامة أخرى حاملة نفس الخبر خوفا من فقدان الاولى وكان أكثر هذا الحمام من حمام العراق المطوق العنق بالبياض لانه يدجن سر يعا ويتعلم في برهة قصيرة وكان يبلغ عن الزوج منه ألف دينار وقد استخدم الاورو وياويون من الصليبيين حمام الرسائل أيضا وقال قنصل فرانسوا بالشرق بالقرن السابع عشر ان خدمة حمام البطاقة كانت حاصلة في أيامه في اسكندر ونه لتيايغ أهالي الداخلية خبر وصول سفن التجار واستمرت عادة ارسال الاخبار مع الحمام في اسكندرونه الى القرن الثامن عشر ويقال انه لا يزال يوجد لآن في بعض قرى حلب حمام أشقر من بقايا حمام سلطين مصر وسوريا وأمراءها والبطاقة مأخوذة من لفظه بنا كيون باليونانية ومعناه ورقة أو رسالة اه

خلفه الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) وكان من أفاضل الخلفاء وأعيانهم بصيرا بالامور متوقفا ذلكا والفظنة طالته مدته وصفاله الوقت والملك نوعا وأحب مباشرة أحوال الرعية بنفسه حتى كان يتمشى في الليل في دروب بغداد ليعرف أخبار الرعية وما يدور بينهم وفي أيامه كان ظهور صلاح الدين واستيلائه على مصر واستخلاصه بيت المقدس من الصليبيين (٥٨٥ هـ) بعد أن تقاتل الفريقان أشد قتال يكون وكان بيت المقدس في يدا الصليبيين من سنة (٤٩٢ هـ) وازالة دولة الفاطميين وفي خلافته أراد الصليبيون المسير الى المدينة المنورة للاستيلاء عليها فجمع عز الدين فرخشاہ الايوبي جيشا وقصد ذلك الجيش الذاهب الى المدينة فاتصر عليه ومزق شمله واستولى صلاح الدين على اليمن بعد موت توران شاه ووقوع الخلاف بين نوابه (٥٧٧ هـ) وفي خلافته كان انقراض دولة سلاجقة ايران (٥٩٠ هـ) وكان آخرهم طغرل بك بن أرسلان شاه وأولهم طغرل بك ملك العراق (٤٣٢ هـ) وقد ترقى شأن الخلافة نوعا كما تقدم بمساعي هذا الخليفة فإنه استولى على بلاد خوزستان من أولاد شمله واستولى أيضا على عدة مدن منها مدينة تَستَر (٥٩١ هـ) وهمذان وأصفهان وغيرهما من بلاد العجم وفي خلافته اتسع ملك أمراء الغور أصحاب غزنة بما فتحوه من بلاد الهند وبعد موت الملك العظيم والبطل الشهير صلاح الدين الايوبي واستقرار ملك مصر والشام في يديبيه ثارت عوامل الشكنا والبغضاء بينهم حتى أتى ذلك الى وقوع القتال بين بعضهم وبذلك استرد الفرنج كثيرا من البلدان التي كان استخلصها صلاح الدين من أيديهم كما استراهم مفصلا في حروب الصليب ودولة بنى أيوب

ولما استقر الملك العادل أخو صلاح الدين بدمشق (٦٠٤ هـ) وصل اليه التشریف (١) من الخليفة الامام الناصر والملك الاشرف والملك المعظم بنى الملك العادل ولوزيره صفى الدين بن شکر صحبة شهاب الدين السهروردي ووصل من الخليفة للملك العادل أيضا تقليد بالبلاد التي تحت حكمه وخو طب الملك العادل فيس ملك الملوک (شاهنشاه) خليل أمير المؤمنين فقابل الملك العادل الرسول بغاية الاكرام وأنزله أعظم منزلة تكون ثم توجه الشيخ شهاب الدين المذكور بعد ذلك الى مصر فخلع على الملك الكامل بها وجرى فيها نظير ما جرى في دمشق من الاحتفال ثم عاد السهروردي الى بغداد مكرما معظما

وفي خلافته أيضا قصد الصليبيون مدينة دمياط واستولوا عليها (٦١٤ هـ) بعد أن قتلوا وأسروا فلما رأى الملك الكامل ملك مصر ذلك أتى مدينة المنصورة ونزل فيها بعسكره وتقدم الفرنج لحصارها وكانت بين المسلمين والصليبيين عدة وقائع في آخرها طلب الصليبيون الامان فاجابهم الملك الكامل الى ما طلبوا وكتبت معهم شروط الصلح وأخذوا من الفرنج على ذلك رهينة لتنفيذ ما شرطه المسلمون ثم تسل المسلمون دمياط وكان الفرنج حصنوها جدا (٦١٨ هـ) ومن الحوادث الشهيرة

(١) كان ذلك التشریف أو الخلع عبارة عن جبة أطلس أسود بطراز مذهب وعمامة سوداء بطراز مذهب وطوق ذهب مجوهر فطوق به الملك العادل وسيف جميع قوا به ملابس ذهبا تقلده وحصان أشهب بعرك ذهب وعلم أسود مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة هذه كانت خلع بنى العباس على الملوک لانهم مسودة وكانت خلع ابنى الملك العادل ووزيره عبارة عن عمامة سوداء ونوب أسود واسع الكم اه

في خلافة الناصر ظهور التتار وعلوهم في المدة القريبة أكثر بلاد الاسلام ولم تفجع المسلمون منذ ظهر الاسلام بمثل هذه الفجيعة (٦١٦ هـ) وكانت وفاة الخليفة الناصر لدين الله (٦٢٢ هـ) وخلافته نحو سبعة وأربعين سنة وعمره في آخر عمره والتصف في آخر أيامه بصبغ السيرة والظلم وقد تحرب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد وكان ينشيع وكان منصرف الهمة الى رعي البندق والاشتغال بأفواج الطيور ويقال انه هو الذي كاتب التتار وأطمعهم في البلاد بسبب ما كان بينه وبين خوارزمشاه محمد بن تكش من العداوة ليشغل خوارزمشاههم عن قصد العراق

خلافة الظاهر بأمر الله (٦٢٢ - ٦٢٣ هـ) لما توفي الامام الناصر بويع ولده الظاهر بأمر الله فأظهر العدل وأزال المكوس وأخرج المحبوسين وظهر للناس وكان الناصر ومن قبله لا يظهر ون الأتادرا ومدته تسعة أشهر ولم يجز فيها ما يسطر وكان متواضعا محسنا الى الرعية جدا قيل انه فرق ليلة عيد النحر على الفقراء مائة ألف دينار فلامه الوزير على ذلك فقال دعني أفعل الخير فاني لأدرى كم أعيش فلم يلبث أن توفاه الله وأباه على عمله الصالح ولم ينشيع كآبئه

خلافة المستعصم بالله (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) وكان المستعصم شهما جوادا يبارى الريح كراما وجودا وكانت هبته وعطاياه أشهر من أن يدل عليها وأعظم من أن تحصى وله الأتار الجليلة منها وهي أعظمها المدرسة المستنصرية بناها بيغداد على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخليفة وجعل لها أوقافا جليلة وكان المستعصم يقول اني أخاف أن الله لا يثيبني على ما أهبته وأعطيه لان الله سبحانه وتعالى يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وأنا والله لا فرق عندي بين التراب والذهب وكانت أيامه طيبة والدينا في زمانه ساكنة والخيرات دارة والاعمال عامرة وفي خلافته كانت الواقعة المشؤمة على الاسلام بالاندلس قرب طليطلة انهزمت فيها المسلمون هزيمة قبيحة وهذه الواقعة هي التي هدت دعائم الاسلام بالاندلس (٦٢٤ هـ) وذلك أيام العادل عبد الله بن يعقوب وفي خلافته أيضا طغى التتار واستولوا على كثير من البلدان وعادوا الكفرة على بلاد جلال الدين بن خوارزمشاه (٦٢٥ هـ) وغيره من بلاد الاسلام وسفكوا وخرّبوا وكانت وفاته سنة ٦٤٠ وخلافته سبع عشرة سنة الأشهر

خلافة المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) لما مات المستعصم بالله اتفق أرباب الدولة على تقليد الخلافة لولده عبد الله ولقبوه المستعصم بالله وكان المستعصم ضعيف الرأي قليل الخبرة واعى العزيمة فاستبد كبار دولته بالامر خصوصا وزيره ابن العلقمي فإنه كان عدوا له يداريه في الظاهر وينافقه في الباطن ولما كان تدبيره على ازالة الخليفة من عي العباس أذن للجنود بالتفرق والذهاب الى حيث شاءوا فاعظم الهرج بيغداد ووقعت القتل فصار ابن العلقمي يكاتب هلا كوخان ملك التتار (١) ويستحثه لقصده بغداد ويخبره عن صورة أخذها وضعف الخليفة وانحلال العسكر فزحف هلا كوخان بجيش جرار الى بغداد والمستعصم ومن معه في غفلة عنه لاخفاء ابن العلقمي عنه سائر الاخبار الى أن وصل الى بلاد العراق واستأصل من به اقتلا وأسرا ثم تقدم قاصدا بغداد

(١) التتار اسم عام لقبائل عديدة تظهرت في أواسط آسيا وأخذت الشهرة العظيمة في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر من الميلاد وأول ما عرف اسمهم في أواخر القرن الثاني عشر وهم أمة عظيمة من أمم التتار

وأرسل الى الخليفة يطلبه اليه فاستيقظ الخليفة من نوم الغرور وندم على غفلته حيث لا يتفقه الندم
 وجمع من قدر عليه وبرز زقته الباربعين ألف مقاتل فثبتوا مع رفههم على حد السيوف من اقبال
 الفجر الى يدبار النهار حتى عجز واعن الاصطبار وولوا الادبار بالادبار وأعقبهم التتار ووضعوا السيوف
 فيهم وقتلوا من المسلمين في ثلاثة أيام ما ينيف عن ثلثمائة وسبعين ألف نفس وسواو رموا كتب
 مدارس بغداد في بحر الفرات فكانت لكثيرتها جسر ايجرون عليها ركبنا ومشاة وكانت هذه الفتنة
 من أعظم مصائب الاسلام وأخذوا المستعصم وأولاده وأتباعه وجماعته وأتوا به الى هولاكو
 فاستبقاه أياما الى ان استصفي أمواله ودقائمه ثم جرى رقاب أولاده وأتباعه وأمر أن يوضع الخليفة
 في غرارة ويرفس بالارجل الى ان يموت ففعل به ذلك سنة (٦٥٦ هـ) وانقطعت خلافة بني
 العباس وهم سبعة وثلثون خليفة أولهم السقاح وآخرهم المستعصم
 ويقال ان مؤيد الدين بن العلقمي وزير المستعصم كان رافضيا وكان أهل الكرخ روافض
 أيضا وحصل في وزارته أن حدثت الفتنة بين السنة والشيعة كما كانت تقع في غالب الاحيان

ينقسمون الى عدة فروع وقيل ان هذا اللفظ صيغ معناه الامم العاربة وكان خروجهم من حدود الصين ثم انتشر وا
 في آسيا الوسطى وزال بهم اسم المغول مع ان المغول كانوا أولي بالذكر لانهم تسلطوا قبل التتار على البلاد مفتوحات
 خانهم الاعظم جنكيزخان فميران التتار ما دخلوا بكثرة في جيوش جنكيزخان وكان لهم اليد الطولى في الفتوحات
 تسلطوا على التتار على القوة المغولية واشتهر وادونهم وقد اتصل بعض الباحثين عن أصل المغول والتتار فبعضهم من
 أصل واحد و زعم ان المغول من سلالة رجل يقال له ترك وان المغول والتتار والترك جميعا قبائل عرفت قديما باسم عام
 وهو مساجيت أوسيت ثم انقسمت هذه الامم وسميت فرعا بأسماء مختلفة حسب الظروف والامكان والعادات
 والطباع وقد فصل مطبرون بين أمم التتار والمغول فصلا بينا وقسم كل أمم منهما الى عدة طوائف مختلفة

وكان أول من خرج من ملوكهم جنكيزخان عام عشر وستمائة للهجرة واستقلوا بالمال التي افتتحوها بجيحات
 خوارزم وخراسان وكرمان وعراف النجم وقراس وأذربيجان وعراف العرب والجزيرة وغير هاتم انقسمت دولته بين بنيه
 فكان لبي وشرخان بلاد القفقاق ولسني هلاكو بن طولي خان خراسان وعراف وقراس وأذربيجان والجزيرة والروم
 ولبنى جغتاي خوارزم وما يليها واستمرت هذه الدول الثلاث نحو مائة وثمانين سنة الى ان انقرضت ملك بني هلاكو
 (٧٤٠ هـ) بوفاة أبي سعيد ملك بغداد آخرهم واقترق ملكه بين جماعة من أهل دولته وما زالت تلك الاملاك في
 يدهم حتى ظهر في القرن الثامن للهجرة تيمور كستان وبخارا أمير اسمه تيمور لانسكي جوع من المغول والتتار ينسب
 هو وقومه الى جغتاي فميرالى خراسان وملكها ثم ملك أذربيجان وأعمالها (٧٨٧ هـ) ثم ملك أصفهان وبغداد
 ثم ملك سائر البلاد ثم كانت السيادة للدولة العثمانية فبها انقرضت دول التتار الى الآن

وأما تفصيل حوادتهم من أول ظهورهم فقد ذكرنا كثيرا في الاثني عشر النصف الاول من القرن السابع للهجرة
 وكان ظهورهم في بلاد الاسلام (٦١٧ هـ) ولما ظهر واخربوا البلاد وقتلوا العباد وشقوا بطون الحوامل
 وقتلوا الاجنبى ولم يبقوا على رحل ولا امرأه ولا صبي ولا صبية وخربوا المدن وحرقوا المدارس والزوايا والقصور
 والحنانات وغيرها وقتلوا كثيرا كثيرا المعمرين الارض وأحسنه عازرة وأهلها في نحو سنة وكانوا يحتاجون الى عميرة
 ومدد يأتهم ففعلهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يكون لحومها لاغير وأمدادهم التي يركبونها فكانت
 تحرق الارض بحوافرها وتاكل عروق النبات فهم ان زلوا منزلا يحتاجون الى شئ من الخارج وكانت يأتهم قبل
 اسلامهم عبادة الشمس بسجدون لها عند طلوعها ولا يحرمون شيا فكانوا يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنزير
 ولا يعرفون كحابل المرأة يأتها غير واحد من الرجال فاذا جاء الولد لا يعرف أباه وقيل ان سبب طردهم بلاد الاسلام
 ان خوارزم شاه قتل منهم قتيلا كانوا أنوا الى بلادهم لذلك أغاروا على بلادهم ودخلوا بخارا (٦١٦ هـ) وما زالوا
 يستولون على البلاد والاصقاع والديسا كرى بخرون ويحرقون وينهبون ويبددون الى ان انقرضوا كما تقدم اه

في أوخر خلقاء الدولة العباسية ولما وقعت الفتنة أمر ابن الخليفة ودو يداره العسكر فمهبوا الكرخ وسبوا النساء وربوا منهن الفواحش فعتظم ذلك على الوزير ابن العلقمي فكاتب التتار وأطمعهم في بغداد كما قتلنا وكان عسكر بغداد يبلغون مائة ألف فارس فحسن العلقمي للمستعصم طرق الاقتصاد حتى تمكن من تقليل تلك الجيوش ثم أرسل أخاه إلى التتار يستخفهم فساروا فاصدين بغداد ولما بلغ الخليفة ذلك أخرج جنوده القليلة لقتالهم تحت قيادة ركن الدين الدويدار فالتقى بالتتار على مرحلتين من بغداد ولما دارت رحى الحرب انهزمت جنود الخليفة ودخل بعضهم بغداد وقصد بعضهم الشام ثم تقدم هلاكو نحو بغداد ونزل عليها من الجانب الشرقي وأرسل فرقة من جيشه نزلت بالجانب الغربي وحاصروا بغداد ثم خرج مؤيد الدين العلقمي إلى هلاكو قوتوق منه لنفسه وعاد إلى الخليفة المستعصم قائلاً ان هلاكو يبيدك في الخلافة كما فعل بسطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر وحسن لما خرج إلى هلاكو فخرج المستعصم في جمع من أكبر أصحابه فأنزل في خيمة ثم استدعى الوزير باقي فقهاء وقضاة وأما نبل بغداد فاجتمع هناك منهم غالبهم ولما تكاملوا هجمت عليهم التتار وقتلوهم عن آخرهم وكان منهم ابن الجوزي وأولاده ثم عبر التتار البحر ودخلوا بغداد (١) ووضعوا السيف في أهلها وهاجموا دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف ودام القتل والنهب والسلب أربعين يوماً ثم نودي بالأمان واستولوا من قصور الخلافة

(١) بغداد مدينة نهر بالعراق قاعدة ولاية تسمى باسمها عدد سكانها ١٥٠,٠٠٠ نفس بين عرب وترك وبمجم وأكراد وهنود وهي واقعة على جاني نهر الدجلية وعرضه هناك ٧٠٠ قدم لثلاث على ضفته اليمنى وهو الجانب الغربي المسمى بالكرك والثلثان الآخران على اليسرى وهو الشرق المسمى بالرافقة ويصل بين الجانبين جسر من القوارب طوله ٢٥٠ متراً وللمدينة قلعة حصينة مهمة وبالمدينة أسواق كثيرة وخانات عديدة وقهاوى وحمائم ومساجد وجوامع حسنة مقر وش داخلها القاشان وعلى نصف فرسخ من الجانب الشرقي مسجد وقبر الامام موسى الكاظم والجانب الغربي بمعمل لبناء السفن ومدرسة للصناعة ويمتد من المدينة إلى ظاهرها طريق حديدية مسيرة نحو ساعتين أما موقع المدينة فيجمل تحفها البساتين والحدائق وهو أدهى في الصيف شديد الحرارة جدا حتى يقيم أهلها نهارة في سراديب تحت الأرض وفي الشتاء يتبدل البرد جدا بها آثار من دور الخلفاء وقصورهم ومن المقابر المشهورة ببغداد قبر الامام أبي حنيفة وقبر الامام ابن حنبل وقبر أبي بكر الشبلي وغيرهم وكانت هذه المدينة قديماً جليلة الشأن عظيمة المشهورة باسمها جميع أنحاء العالم المتمدن واسعة التجارة والعمارة والزخرفة وقد ساء العلم فيها زماناً طويلاً وعلت قديماً سيمى في أيام الرشيد والمأمون فأنشأ المأمون فيها مرصداً فلكياً وأمره فاستخر جواله كتب الحكمة من اليونانية والسريانية وغيرهما فأتبع بذلك نطاق العلوم وكثرت العلماء والفضلاء وقد خسر من بغداد فطاحل الأئمة في كل العلوم والفنون وبلغ سكانها في تلك الأيام نحو مليونين من الأتقس وأطعت بها الدولة العباسية المصانع الجليلة والتصوير النيقية سيمى دار الخلافة فقد كان بها من الأثام والمعاون والمعادن النفيسة ما يحل عن الوصف وقد زارها كثير من السياحين ووصفوها وصفاً يختلف باختلاف زمن ورودهم عليها قال ابن جبير في رحلته إلى بغداد أنها وإن لم تزل حاضرة الخلافة العباسية فقد ذهب أكثر رممها فلا حين فيها يستوقف البصر الأدجلة وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم الأمن يتصنع التواضع رياء فيزدرون الغرباء ويطهرون لمن دوتهم الانفة فقد تصوروا ان الدنيا تصغر دون بلدهم ويطنون ان أسماء القمار في سحب الأرائس لهم وروح ولا ذمة في البيع والشراء الا ان الفقهاء والوعاظ يحلون عن مثل ذلك ولكنهم يبصر بون وعظم في حديد بارد ثم قال بعد ان ذكر خطط بغداد وحمائم بغداد كثير تقبل بين الجهة الشرقية والغربية نحو ألفي حمام وجميعها مملية بالقار الصقيل فتظهر كالرخام الأسود النقي وأما المساجد ببغداد فلا يأخذها التقدير والمدارس بها نحو الثلاثين كلها بالجهة الشرقية وهي كالقصور وأشهرها النظامية التي ابتناها

وذخاؤها على ما ليحصىه العدد والضبط والقيت كتب العلم التي كانت في خزائهم بدجلة فعبرت عليها الجنود معاملة بزعمهم لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن وعزم هو لا كوعلى احراق بغداد فلم يوافقوه مستشاروه وأما ابن العلقمي فلم يتمتع بالخطوة لدى هلا كوالأياما قلائل ثم اطرحة بعد ان وقف منه على أسرار الدولة وأحوالها وخزائنها وغير ذلك فصار ابن العلقمي عرضة لعذابين وهدف الثالث لقاءين تنغيص السرية على ما أتاه من الفعل القبيح وغض نظر هلا كوعنه هذا زيادة في سبيل ايقبه يوم الحساب من شديد العقاب ثم ساءت حالته وعض يد الندم ولات حين مندم ثم مات غميا في أوائل سنة (٦٥٧ هـ)

وبعد دخول التتار بغداد انقطعت الخلافة ثلاث سنين ونصف سنة الى ان ذهب بعض من سلم من القتل من بني العباس الى مصر ونزل على ملكها الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩ هـ) وأقيمت الخلافة بمصر كما سياتي ذلك مفصلا بتاريخ مصر فمدوا الخلفاء العباسيين من بيعة أبي العباس السفاح الى قتل المستعصم خمس مائة سنة وأربع وعشرون سنة

الوزير نظام الملك ولهذا المدارس وأوقاف عظيمة وعقارات محبسة وبالجملة فشان هذا المدينة أعظم من ان يوصف وأن هي بما كانت عليه وقد بنيت بغداد في فواحي مدينة سلفكة القديمة بناها الخليفة أبو جعفر المنصور شرع في تخطيطها سنة (١٤٥ هـ) وأتم بناءها سنة (١٤٩ هـ) وجعلها مدورة لثلاثيكون بعض الناس أقرب اليه من بعض وبما همد مدينة السلام وسمى القسم الذي بناه الى الجانب الغربي بالزوراء وقيل بل الزوراء اسم لكل بغداد لان أبي جعفر جعل أبواب المدينة الداخلة منوراة عن الابواب الخارجة وقال يا قوت والزوراء اسم لدجلة بغداد سميت بذلك ليلها وانعراجها

أما اسم بغداد ففيه أقوال مختلفة منها انه كان في موضع بغداد سوق تقصدها تجار الصين فيرجعون ويقولون بلغ داد أي عطية بلغ وبلغ اسم ملكهم وقيل بل بلغ اسم صم وداد بمعنى أعطى والفقهاء يكرهون هذا الاسم من أجل ذلك وقيل انه كان في موضع بغداد قرية تسمى باسمها وبماها المنصور مدينة السلام لان دجلة كان يقال له وادي السلام وفي لفظ بغداد لغات بغداد وبغداد وبغداد وبغداد وبغداد وبغداد وبغداد وبغداد وبغداد

قالوا ولما عزم المنصور على ابقاء المدينة شاور بعض من كان يقيم بمكانها فحسن له رأيه في البناء وقاله يا أمير المؤمنين انك تكون على نهر الصرافة تحيئك الميرة في السفن من الشام والرقعة والغرب وطولها خمس وعشرون ميلا من الصين والهند والبصرة وواسط وديار بكر والروم والموصل وغيرها في دجلة وتحبيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها فأنت بين أنهار لا يصل اليك عدوك الاعلى جسر أو قنطرة فاذا قطعت الجسر وأخربت القنطرة لم يصل اليك ودجلة والفرات والصرافة تحيئك هذه المدينة وأنت متوسط بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد وقرية بين البر والبحر والجبل فزاد المنصور على الزول في ذلك الموضع وقيل غير ذلك ولما شرع المنصور في البناء كتب الى البلدان يطلب الصناع والفعلة وأمر باختيار قوم من ذوى العدالة والفضل وقوم من ذوى الامانة والعرفه بالهندسة وكان من جملتهم الحاج بن رطاه وأبو حنيفة نخطط المدينة وحفر الاساس وضرب اللبن وطبج الآجر فكان أول ما بدأ به منها انه أمر بخططها بالرماد فدخلها من أبوابها وفصلها عنها ورحابها وطاقاتها وهي مخططة بالرماد ثم أمر أن يجعل على الرماد حب القطن ويشعل بالنار فعملوا فنظر اليها يلا وهي تشتعل فحسبها وعرف رسمها وأمر أن يحفر الاساس على ذلك الرسم ووكليها أربعة من القواد وكل أباحنيفة بعد الآجر واللبن وجعل المنصور عرض أساس السورين أسفله تسمين ذراعا ومن أعلاه عشرين ذراعا وجعل في البناء القصب والخشب ووضع يده أول لبنة وقال باسم الله والحمد لله والارض لله يومئذ هما من عباد الله ثم قال انواهي بركة الله ونقل أبواب مدينة واسط وغيرها فجعلها على بغداد

الفصل الخامس

تاريخ الاندلس

وصف الاندلس

الاندلس إقليم عظيم من مملكة إسبانيا واقع في جنوبها وهو كرم البقعة جيد التربة متفجر العيون كثير الانهار منها نهر الوادي الكبير ويمر في ذلك الاقليم أجل منه منظر اولاً أقوى اندفاعاً ويمتد في هذا الاقليم جبال سيرانيا قد اجنوبا وسيرامورنا شمالاً وأوديته كثيرة البساتين الانيقة والجنان النضرة وهو معتدل الهواء أكثر الايام لا يزيد القيظ به زيادة تضر بالابدان وكذا سائر فصوله في أعم السنين تأتي على قدر من الاعتدال والقواكه تنصل طول الزمان فلا تكدت عدم لان الساحل وفواحيه يبادر بها كوره كما أن الثغر وجهاته والجبال يكون بها بارد الهواء وكثافة الجو تستأخر بما فيها من ذلك حتى يكاد طرفاً كتهه يلتقيان

وللاندلس المدن الحصينة والمعاقل المتبعة والقلاع الحربية والمصانع الجليلة والبر والبحر والسهل والوعر والضياع والبقاع شتى كثيرة وكان في أول أمره قليل العمران ولكن عقب أن دخله

وعمل لسورين السور والداخل أعلى من الخارج وبني قصره في وسطها والمسجد الجامع بجانب القصر وكان البن الذي بينه ذراعان ذراع وكان مقدار النفقة على بناء بغداد والمسجد والقصر والاسواق والفصلان والخنادق والابواب أربعة آلاف ومائتان وثلاثون ألف درهم وروى بعضهم أكثر من ذلك ولما أكمل المنصور بناء المدينة أقطع أصحابه القطائع فعمروها وسميت بهم ثم بني قصره الكبير المعروف بالخلد وحول الاسواق إلى الكرخ وقد زارها بغداد وعمرها مدة الرشيد ثم قوت عليها الاخن فخر بقسم عظيم منها بما حدث فيها من الفتن والاضطرابات والحريق والغرق والزلازل فلما أتى عضد الدولة من آل بويه عمرها (٣٦٩ هـ) فعمر مساجدها وأسواقها فقربت به بغداد وقرت عيون أهلها وازدادت رفعة وتحسنت كل أحوالها ثم بعد ذلك اضجبل أمرها بما كان يحدث فيها كل وقت من الفتن والمشاغبات التي أبحرت الخليفة ووزراءه وجنوده من قعها وكانت من الاسباب التي ساعدت طغرى بل السجوق على الاستيلاء عليها في (٤٤٩ هـ) حدث بها غلام شديد حتى أكل الناس الميته والكلاب وكثر الويله حتى عجز الناس عن دفن الموتى ثم وقع بها حريق (٤٥١ هـ) فأحرق الكرخ وغيره وأحرق خزانه الكتب التي وقفها أردشير الوزير ونهب بعض كتبها وكان بها عشرة آلاف وأربع مائة مجلد منها مائة مصحف بخطوط بني مقله وبعد ذلك نتاجها الحريق مرة وفيضان دجلة مرة أخرى فتهدم قسم عظيم منها وترح كثير من سكانها ورغب الناس عن سكنها في (٦٥٦ هـ) دخلها النار واستولوا عليها وقتلوا المستعصم آخر خلفاء بني العباس وكثير من العلماء والفضلاء والوجهاء وقصدوا التار بها من الاموال والنخار والتحف والنقائس ما قضاوا به غنياً وبقيت بغداد يدين هولاء كوال (٧٣٦ هـ) فكان آخرهم أبو سعيد بن خلفا بنده ثم اضطربت دولتهم وهلك مكانها دولة من أسباطهم فولوها إلى (٧٩٥ هـ) التي قدم فيها تيمورلنك ملك المغول فاستولى عليها ونهبها وصادر أغنياءها وأكثرت فيها من التخريب والتخريب ثم استولى عليها احمد بن اويس حاكمها الذي كان بها قبل مجيء المغول بمساعدة الظاهر برقوق سلطان مصر (٧٩٧ هـ) ثم استرد تيمورلنك ثانية (٨٠٤ هـ) وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ثم استنق أمواليها وخر بها وبقيت بغداد بيد بني تيمورلنك (٩٠٦ هـ) التي فيها استولى عليها الشاه اسمعيل الصفوي ملك ايران ثم استولى عليها العثمانيون سنة (٩٤١ هـ) وما زالت تنتقل في يد العجم والعمانيين إلى ان استقرت بيد الدولة العلية العثمانية (١٠٤٨ هـ) استولى عليها المرحوم السلطان مراد الرابع ومن ذلك الوقت استراحت من الاضطرابات والحروب واخذت في التقدم ويدا رويدا وهي الآن مركزهم للتجارة اه

العرب أخذ يتسع بكثرة الابنية ووفور السكان ومد العمران والمارة حتى لم يكن له مثيل في جميع
أقاليم المعمور

واعلم ان كلمة اندلس مأخوذة من اندلوشيا بالاسبانية واصل هذه فاندلوشيا نسبة الى القنديل
أو الوندال وهم أمة خشنة نزلت في القرن الخامس للميلاد وقد أطلق العرب هذا اللفظ على جميع البلاد
المعروفة الآن باسم إسبانيا والبرتغال فهو عندهم عبارة عن شبه الجزيرة الشاملة لهاتين المملكتين
من باب اطلاق البعض واردة الكل وقد بلغ الاندلس في مدة دول العرب من المدينة والحضارة
والثروة ما لم يبلغه إقليم آخر ومن أراد زيادة البيان فعليه بالمؤلفات الكبيرة وسيأتي وصف هذه البلاد
وصفا جغرافيا عند الكلام على تاريخ مملكة إسبانيا

أمراء بني أمية بالاندلس

(٩٢ - ١٣٨ هـ)

اعلم انه لما فتحت الاندلس على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير كما تقدم الكلام على ذلك مفصلا
في خلافة الوليد الاموي ونكب موسى بن نصير ومولاه طارق كما علمت صار خلفاء بني أمية يولون عمالا
على الاندلس الى ان انقرضت دولتهم بظهور بني العباس أما الولاة الذين حكموا الاندلس مدة بني أمية
فهم طارق بن زياد ثم الامير موسى بن نصير وكلاهما لم يتخسرا بالسلطنة ثم عبد العزيز بن موسى
ابن نصير وسريه إشبيلية ثم أيوب بن حبيب الخمي وسريه قرطبة ثم الحر بن عبد الرحمن
الثقفى ثم السبع بن مالك الخولاني ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ثم عنبسة بن نجيم الكلبي ثم
عذرة بن عبد الله الفهري ثم يحيى بن سلمة الكلبي ثم عثمان بن أبي نعة الخثعمي ثم حذيفة بن
الاحوص القيسي ثم الهيثم بن عبيد الكلابي ثم محمد بن عبد الله الأشجعي ثم عبد الملك بن قطن
الفهري ثم بلع ثم بشر بن عياض القشيري ثم ثعلبة بن سلامة العاملي ثم أبو الخطار بن ضرار الكلبي
ثم ثوبان بن سلامة الجذامي ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري وبه انتهت الولاة الذين تولوا الاندلس من
غير موارثة افراد عددهم عشرون ولم يتعدوا في السمة لفظ الامير ومدتهم منذ تاريخ الفتح وهو
يوم الاحد خمس خلون من شوال سنة (٩٢ هـ) الى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن
الفهري وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سريه الملك بقرطبة وهو يوم عيد الاضحى
لعشر خلون من ذي الحجة (٩٣٨ هـ) ستة وأربعون سنة وخمسة أيام ثم كانت دولة بني أمية

أما الوقائع المهمة التي حدثت منذ الفتح الى ظهور دولة بني أمية بالاندلس فقد تقدمت لك
متفرقة في أوقاتها من خلافة الخلفاء من بني أمية وغاية الامر في المدة المذكورة أنها كانت عبارة
عن توثيق قواعد الملك وتمكين سطوة العرب بتلك الاطراف من فتح معاقل واخضاع أمم وانشاء مدن
وحصون وتسهيل مواصلات وشق أنهر وغير ذلك من عوامل الحضارة

الفصل السادس

خلفاء بني أمية بالاندلس

(١٣٨ - ٤٢٢ هـ)

انه بعد ان زالت دولة بني أمية من دمشق وانتقل الملك الى آل العباس ووتلى الخلافة منهم أبو العباس السفاح (١٣٢ هـ) كما تقدم أخذ هذا الخليفة ومن أتى بعده في استئصال الامويين وبادتهم قتلوا وتشريدوا فلم يفلت منهم الا الرضيع وعبد الرحمن الاول الملقب بالداخل وهو ابن معاوية ابن هشام بن عبد الملك ثم هرب من وجه بني العباس الى مصر ومنها الى برقة فنزل على أخوال له هناك بطرابلس فلما شعر به عبد الرحمن بن حبيب الفهري عامل بني العباس فزمنه عبد الرحمن الاموي المذكور الى قوم يمكناسة من البربر ثم لحق بعليلة وأرسل بدرامولاه الى جماعة من موالي المروانيين بالاندلس وأشياعهم فاجتمع بهم وبشواله في الاندلس دعوة ونشر والهدى كراو وافق ذلك قيام فتنة بين المضربة واليمانية فاجتمعت اليمانية الى أمره ورجع اليه مولاه بدر بالخبر فركب السفن واجتاز البحر (١٣٨ هـ) في خلافة أبي جعفر المنصور ولما وصل بايعه قوم من اشيلية وشذونة وقرطبة ووصل خبره الى يوسف بن عبد الرحمن الفهري أمير الاندلس فأتى اليه وحاربه فهزمه عبد الرحمن الاموي ومملك القصر منه ثم اشده ساعده وبايعه أهل مالقة وشريش وسائر الجهات واستقام له الامر تماما (١٤١ هـ) فاستقر بقرطبة وقطع الخطبة عن العباسيين وبه تجددت خلافة الامويين بالاندلس واستلحم الثوار بالبلاد ووداه جماعة من المشرق من أهل يثمه لما علموا بقيام دولتهم منهم عبد الملك بن عمار المرواني وقد ساعده في كثير من الحروب

ولما استقر قدم عبد الرحمن الاموي بالاندلس أخذ في بناء المسجد الجامع والقصر بقرطبة وأنفق عليه أموالا عظيمة وبني أمما كن وقصورا ومساجدا أخرى وكانت وفاته (١٧٢ هـ) ولم يكن له سوى لقب أمير وعليه جرى بنوهم بعده ولم يدع أحد منهم بأمر المؤمنين تأديبا مع الخلافة الكبرى في مقر الاسلام وامتدى العرب حتى عبد الرحمن الناصر ثامنهم بالاندلس فتلقب بأمر المؤمنين لضعف خلفاء بني العباس وغلبة الاعاجم عليهم وتوارث أولاد الناصر لقب أمير المؤمنين واحدا بعد الآخر الى ما بعد المائة الرابعة من الهجرة وكان لما اشتغل مسلمو الاندلس بعبد الرحمن الداخل وقتن اليمانية والمضربة وغير ذلك قوى أمر الجلالة وعدم ملكهم ابن أدفونش وهو القونوس الكاتوليكي ملك استورى الى الثغور فأخرج المسلمين منها وعمل مدينة لك^(١) وبرتقال^(٢) وسمورة^(٣) وقشتالة وشقوبية وصارت للجلالة حتى استردها المنصور بن أبي عامر آخر الدولة

وكان عبد الرحمن وجد الاندلس ثغرا فاصيا عا طلاع عن حلية الملك فأرهب أهله بالطاعة السلطانية وأخذهم بالاداب فأكسبهم المروعة وأقامهم على الطريقة ودون الدواوين وفرض الاعطية وأعطى الالوية وجند الاجناد وأوثق الاوتاد حتى اعترف له بذلك كأبر الملوك وحذروه ولم

(١) Luque مدينة باسبانيا من قسم الاندلس بمقاطعة قرطبة

(٢) مدينة بورفو Porto احدى مدائن البرتقال وعاصمة ولاية منهو ونغر تجارى عظيم على الشاطئ الايمن من نهر دور وبالقرى من مصبه وهي ثاني مدينة بالبرتقال ومدنية العلم عندهم وكانت قاعدة هذا المملكة حتى سنة (١١٧٤ م) وقال القاضى المحقق أحمد ذكى أفندى في رحلته وبها يسمى هذا القطر برتقال كما يقول نحن الان طرابلس وحاضرتها طرابلس ونونس وحاضرتها تونس وبني سويق وبندر هابني سويق الى ان قال ولكن العرب لم يخلقوا فيها شيئا يذكر لانهم كانوا يجيئونها فاجتمعتهم بجوز ونها الى غير هانن البلاد ولم تر من فيها قادمهم اه

(٣) Zamora مدينة اسبانية قاعدة ولاية يثمه إضافة اليها واقعة على الشاطئ الايمن من نهر دور ولا يزال بها اطلال مباني عربية وقد بقيت زمنا تنتقل من يد الاسبانيين الى يد العرب

يلبت ان دانت له بلاد الاندلس واستقام له امرها فانقاد له عصيها وذل له أيها واستولى على أربكنه ملكا قاهر العدو وحاويا الذمارة وكان عبد الرحمن يبعد للناس ويسمع منهم ويقضى بينهم ويتوصل اليه من أراد

وفي زمنه أرسل أبو جعفر المنصور العلاء بن مغيث الى الاندلس في جيش داعيا الى جعفر المنصور واجتمع اليه خلق فقاتله عبد الرحمن وقتله وهزمه ثم قتله وكانت لعبد الرحمن مع الفرنج غزوات ترجع منها ظفرا وخلافته نحو ٣٣ سنة ومن أعماله الحسنة ادارة قرطبة بسور

هشام بن عبد الرحمن (١٧١ - ١٨٠ هـ) لمات عبد الرحمن قام بالامر بعده ابنه هشام وكان هشام لمات أبو عمدة ماردة واليا عليها وكان أبوه يوليه في صباه ويرثه للامر وكان الداخل كثيرا يسأل عن ابنه سليمان وهشام فيذكر له ان هشاما اذا حضر مجلسا امتلا أدبا وتاريخا وذكرا الامور والحرب ومواقف الابطال وما أشبه ذلك واذا حضر سليمان مجلسا امتلا سخفا وهذيانا فيكبر هشام في عينه بقدر ما يصغر سليمان وكان هشام عالما تقيا جوادا زاهدا يذهب بسيرة مذهب عمر بن عبد العزيز وكان يعث بقوم من ثقافته الى الكور فيسألون الناس عن سير عمله ويخبرونه بحقايقها فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أو وقع به وأسقطه وأنصف منه ولم يستعمل بعد وفي أيامه فتح مدينة أربونة الشهيرة (١) (١٧٧ هـ) واشترط على المعاهدين من أهل جليقية (٢) من صعاب شروطه انتقال عدد من أجمال التراب من سور أربونة المفتوحة بحملونها الى باب قصره بقرطبة وبخمنه مسجد هناك وقاسى من المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروبا ثم كانت الدائرة له واتشرت جيوشه ببلاد الغالة الغربية حتى وطئت أرض برتانيا الصغرى (١٧٧ هـ) وله بقرطبة وغيرها من المباني العمومية شيء كثير وهو الذي جدد القنطرة التي يضرب بها المثل بقرطبة وكان بناها السمع الخولاني عامل عمر بن عبد العزيز وأكمل جامع قرطبة الذي كان شرع أبوه فيه ثم توفي (١٨٠ هـ) وكان من أهل الخير والصلاح كثير الغزو والجهاد وعمره أربعون سنة وأشهر

الحكم بن هشام بن (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) لما انقضى عهد هشام قام بالامر بعده ابنه الحكم بعهد منسه وفي أول حكمه استكثر من المماليك وارتبط الخيل واستفعل ملكه وباشر

(١) أربون بلد في طرف النجر من أرض الاندلس قال ياقوت بينها وبين قرطبة على ما ذكره ابن الفقيه ألف ميل وقال ابن خلدون انها قاعدة البسائط من البر الكبر التي كانت في يد الغوط قبل الفتح ولذلك قال بعضهم انها ليست من مدن الاندلس وقال أبو الفداء ان موسى بن نصير انتهى اليها في الفتح وبقيت أقصى نفور المسلمين من الاندلس وخرجت من يد المسلمين سنة (١٣٠ هـ) مع غيرها وعلى ذلك كانا الغالب عندنا ان مدينة أربونة هي أربون الحالية (Narbonne) من أعمال قرانسا

(٢) Galice اقليم واقع بالشمال الغربي من جزيرة اسبانيا بين المحيط الاطلسي شمالا وبلاد البرغال جنوبا وقشتالة القديمة شرقا وكان يسكنها اقوام اشتهروا بالحسار والاقدام ولذلك تمكنوا من حفظ بلادهم من الرومان والقرطاجينين ثم بعد أن دخل العرب بلاد اسبانيا واستولوا عليها دخلت جليقية في حكمهم الا انهم لم يستقر واما طوبلاجلدب أرضها وقلة سكانها وتوحشهم بل كانوا يترددون عليها بالغزوات من وقت الى آخر ومن أمهات مدنها ستيافو وقيديسميها الغرب غليبية اه

الأمور بنفسه وفي خلال قسنة حدثت بينه وبين بعض أقاربه اغتحم الفرنج فرصة واستولوا على
 نجرش لوفنة (١٨٥ هـ) وتأخرت عساكر المسلمين الى مادونه وكانت له الواقعة الشهيرة مع أهل
 الرض من قرطبة لانه في صدر ولايته كان قد انهمك في اللذات وترك الحكم لوزرائه فاجتمع أهل
 العلم والورع بقرطبة فناروا به وخلعوه وبايعوا بعض قرابته واجتمع اليهم خلق كثير فقاتلهم الحكم
 وغلبهم وشتتهم في البلاد وهدم دورهم ومساجدهم ولحق من بقي منهم بأرض فاس وبالسكندرية ثم
 نارواها فزحف اليهم عبد الله بن طاهر عامل المأمون على مصر وغلبهم وأجازهم بسفهم الى جزيرة
 اقريطش (كريد) فلم ير الوابغ الي (٣٥٠ هـ) التي هاجمهم فيها أرماتوس بن قسطنطين ملك
 القسطنطينية باسطول حسيم مركب من ٧٠٠ سفينة وملكها من يد عبد العزيز بن شعيب
 صاحبها الذي كان بها من أولاد أبي جعفر البلوطي وهم الذين أدخلوا أنوار التمدن الاسلامي الى تلك
 الجزيرة وشيدوا بها المعقل والحصون والمدن متناقدية وكان يقال لها الخندق وله مع الفرنج حروب
 كثيرة منذ كورة في التاريخ انتصر في أغلبها والحكم هو أول من جند الاجناد واتخذ العدة وكان من
 أفضل بني أمية بالاندلس وأشدهم إقداما ونجدة وكان يشبه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس
 في شدة الملك وتوطيد الدولة ووقوع الأعداء وكانت له عيون يظالعونه بأحوال الناس وكان يقرب
 الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذي وطأ الملك لعقبه بالاندلس ومدة ملكه ٢٦ سنة وقد رماه بعض
 المؤرخين بما ينافي حسن السيرة

عبدالرحمن الاوسط أو الثاني بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) لمات الحكم قام

بالامر بعده ابنه عبدالرحمن بعهد منه وفي أول حكمه جهز الجيوش الى بلاد الفرنج فانتخروا فيهم
 وفتحوا قلاعاً وانتسفوا حصوناً وأوغلت جيوشه حتى انتهت الى أرض بريطانيا (١) واقتح ابنه محمد
 ببلونة (٢) وقتل غرسية صاحبها وكان من أكبر ملوك تلك الجهات وهو غرسية الاول كسيمينيس
 ملك نافار وفي أيام عبدالرحمن ظهر الجيوس (النورينديون) (٣) ودخلوا لإشبيلية فأرسل عليهم
 عبدالرحمن العساكر من قرطبة فزحل الجيوس من مراكبهم وكانت لهم مراكب صغيرة عديدة
 يسيرون بها في البحار والانهار بمهارة عجيبية وقتلهم المسلمون فهزمهم بعد مقام صعب ثم أتت
 العساكر مدداً من قرطبة فقاتلهم الجيوس فهزمهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها
 ورحل الجيوس الى شذونة (٤) ثم أتى الامر الى صاحب الاسطول فجهز وأتى الى إشبيلية فأفزع الجيوس
 بعد أن أغاروا وسبوا ثم ذهبوا الى أشبونة (٥) فأوقعوا بها فتعقبهم الاسطول ثم انقطع خبرهم بعد

(١) مقاطعة قدعة من فرانس واقعة بالجنوب الغربي منها

(٢) أو ببلونة مدينة حصينة باسبانيا قاعدة ولاية نافار وبها آثار عظيمة يقال ان الذي أسسها هو بومي الروماني
 وقد حكمها المسلمون اثني عشر سنة فقط (Pampélune)

(٣) كان يطلق هذا الاسم في القرون الوسطى على قرصان أهل اسكندرية الذين أغاروا على كثير من جهات اور وبا
 ثم استقر والخير في بلاد انكلترا وسيأتي ذكرهم مفصلاً في تاريخ فرانس وانكلترا

(٤) شذونة مدينة بالاندلس من اعمام إشبيلية ينسب اليها جماعة من أهل الفضل

(٥) اشبونة أو لشبونة مدينة كانت من مدن الاندلس سابقا وهي الآن قاعدة بلاد البرتغال وينسب اليها جماعة

من أهل الفضل عند العرب (Lisbonne)

طرقهم اشبونة وسكنت البلاد (٢٣٠ هـ) وكان النورمانديون لما أغاروا على البلاد خربوا بعض المدن والحصون والمباني فأصلحها عبد الرحمن بعد ذهابهم وفي ملكه حاصر المسلمون مدينة ليون (١) واستولوا عليها

ولما ضيق المأمون والمعتمد من خلفاء العباسيين على ملوك القسطنطينية وهزموا جيوشهم وعانوا في بلادهم أرسل ملكها (٢٢٥ هـ) هدية فاخرة الى الامير عبد الرحمن يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه من المشرق حتى اذا تورط عبد الرحمن في حرب مع بنى العباس هذب بالملك القسطنطينية واسترد ما استولى عليه المسلمون بالمشرق من بلاده الا أن عبد الرحمن لما علم ذلك امتنع عنه وخافه ثم كافأه عن الهدية وبعث اليه رسولا يدعى يحيى الغزال من كبار أهل الدولة وكان مشهورا في الشعر والحكمة فأحكم بينهما الوصلة وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند مناعيه من بنى العباس ثم توفي سنة (٢٣٨ هـ) لاحدى وثلاثين سنة من إمارته وكان عالما بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدم وسكون وكثرت الاموال عنده واتخذ القصور والمنزهات وجلب اليها المياه من الجبال وأقام الجسور وبنيت في أيامه الجوامع بكورا الاندلس وزاد في جامع قرطبة وترك من الاولاد ١٥٠ من الذكور و ٥٠ من الاناث وكان عبد الرحمن مولعا بالسماع مؤثراله على جميع لذاته ولما قدم عليه (٢٠٦ هـ) ذرياب المغربي من العراق مولى المهدي ومتعلم ابراهيم الموصلى ركب بنفسه لتلقيه على ما حكاه ابن خلدون وبالغ في اكرامه وأقام عنده بخير حال وأورث صناعة الغنم بالاندلس

محمد بن عبد الرحمن الاوسط (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) لما مات عبد الرحمن ولى مكانه ابنه محمد وأول حكمه استمد أهل طليطلة الذين خالفة وملكى جليقية والبشكنس (٢) فلقبهم الامير محمد على وادى سلبطة وأوقع بهم وقتل من أهل طليطلة والقرن فخرج عددا عظيما وظهرت مرابك الجوس مرة ثانية ببعض جهات الاندلس وعانوا وأسر وافقبا بلتهم أساطيل الامير وغنموا منهم مرابين وقتل من المسلمين جمع كثير وله في بلاد الفرنج غزوات كثيرة فاد بعضا بنفسه وكانت وفاته (٢٧٣ هـ) لخمس وثلاثين سنة من إمارته

المنذر بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) لما حكم بعد أبيه لم تطل مدته وأقام في الملك سنتين الا نصف شهر وخلفه أخوه وليس له من الاعمال ما يدونه التاريخ

عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) وفي أيامه نارت الثوار بنواحي الاندلس وخرج المغلبون في ثلاث السنين حتى قل الخراج وتعطل الغزو وكان من الخوارج في أيامه ابن مروان

(١) كان يطلق هذا الاسم قديما على مقاطعة عظيمة ببلاد اسبانيا واقعة بين بلاد استوري شمالا وقشتاله القديمة شرقا واستيرا مادورا جنوبا وقلبيسية والبرتغال غربا اما المدينة فيها آثار ومقابر لعدة أمراء وملوك وقد أسس الرومان هذه المدينة في القرن الاول من الميلااد وافتتحها العرب (٧٢٢ م)

(٢) هم أمة البسك (Basques) أمة غربية كانت منذ عصر قديم ساكنة على سفوح جبال البرانس وقد استمر ومخاطفين على استقلالهم ولم يكن للقرطاجنيين ولا الرومان ولا الغوط ولا العرب ولا الفرنساويين ولا الاسبانول احداث تغيير في سقاتهم وأخلاقهم وكان الرومان يسمونهم قنطبر ولهم لغة خاصة بهم وقد اشتهروا في كل عصر بالشجاعة ومحببة الحرية

ببطلينوس (١) وابن تاكيت بجماردة (٢) ولب ابن محمد بسرقطة (٣) وطباطبة (٤) ومطرف
ابن موسى بن ذى النون الهوارى بشانت ماري (٥) وابن حفصون في شبستر ومالقة ورندة (٦)
وغيرهم وكانت وفاة عبد الله سنة ٣٠٠ ومدة ملكه نحو خمس وعشرين سنة وخلفه أخوه
عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وكانت ولايته من الغرب لانه كان
شابا وأعمام أبيه حاضر وقت صدق اليها واحتازها دونهم ووجد الاندلس مضطربة بالبخالفين
محتربة بنيران المتغلبين فأطفا تلك النيران واستنزل أهل العصيان واستقامت له الاندلس في سائر
جبهاتها بعد نصف وعشرين سنة من أيامه واستفحل في زمنه ملك بني أمية بالاندلس وهو أول من

(١) مدينة حصينة بأسبانيا اسمها القديم ياكس أو غسطا حرقها العرب الي بطلينوس ومنها اسمها الحالي عند
الاسبانيول وهي قاعدة ولاية مضافة اليها بها آثار قلعة عربية وآثار أخرى عربية من جملتها جامع ولما كانت
واقعة على الصوموم بها حصون متباعدة كانت مطعما العين العدو وغرض الحروب كثيرة وكانت في أيام العرب من
مدن الاندلس الخليفة المشهور بنو الأندلس الماني الخليفة ولما وقعت الفتنة بالاندلس بقيت في يد ساجو والفتى
المعروف ثم دخلت في ولاية بني الأندلس واستولى عليها منهم يوسف بن تاشفين ثم أخذها القونن التاسع ملك لاون
سنة (١٢٣٠ م) وينسب لبطلينوس جماعة كثيرة من أهل العلم (Badajoz)

(٢) ماردة وكانت تسمى قديما ميرينا أو غوسطا (Mérida) مدينة إسبانيا ببلا داسترامادور من إقليم
بطلينوس واقعة على الشاطئ الأيمن من وادي ياب أسبها أغسطس وبها آثار قديمة كثيرة بين ميرة ورومانية
استولى عليها العرب سنة (٧١٥ م) ثم استردها القونن الحادي عشر ملك ليون سنة (١٢٢٨ م)

(٣) Saragosse) مدينة من إسبانيا كانت تسمى قديما سيزاريا أو غسطا وكانت قاعدة بلاد أراغون واقعة
على نهر ابرو وقد أسسها أغسطس سنة (٢٧ ق م) وقيل بل أنشأها القينيقيون استولى عليها العرب سنة
(٧١٢ م) قال باقوت سرقطة بلدة مشهورة بالاندلس أعمالها متصل بأعمال تطيلة انفردت بصناعة السمور
ولطف تدبير والثياب الرقيقة المضافة اليها استردها الفرنج سنة (٥١٢ هـ) وينسب اليها كثير من العلماء
والمشاهير وكان بها منزهات كثيرة أشهرها قصر السرور ومجلى الذهب ولما انقسم الاندلس انحسب الاطراف
والرؤساء وتغلب كل انسان على شئ منه كانت سرقطة والتغرا على يديهم من يحيى التجيبي سنة (٤٠٧ هـ)

(٤) (Tolède) وقد زارها الفاضل المحقق أحمد ذكي أفندي قال في سياحته انها مدينة عربية محضنة لم
يعتورها الى الآن أدنى تغيير ولا أتدكر ان مدينة في مصر حفظت هذا الشكل العربي اليهود كاتي فيها الى الآن
مع نوالى الأزمان وتبدل الاحوال الى ان يقول وقد رأيت فيها من آثار العرب ما ينطق بفضلهم ويخرس كل متعصب
عليهم وقال أيضا انها كانت تسمى عند العرب مدينة الاملاك أى الملوك لكون اللاتينيين كانوا يسمونها بذلك أيضا
وكانت تسمى عند الرومانيين كذلك ويقول مؤرخو العرب ان معناها بلسان قيصرا أنت فارح وهي قاعدة ولاية
مضافة اليها وقد اشتهرت بسيوفاها في أيام العرب ولما تفرقت لاندلس استقل بها ابن يعيش ثم اسمعيل بن ذى النون
ثم استردها القونن الحادي عشر وصيرها قاعدة قشتاله ثم صارت قاعدة لجميع إسبانيا

(٥) شانت ماري وربما كانت هي شانت برة والتي ذكرها باقوت بقوله مدينة متصلة بجوزمدينه سالم بالاندلس
وهي شرق قرطبة وهي مدينة كبيرة كثيرة الخيرات لها حصون كثيرة اه وربما كانت سانت ماري الحالية

(٦) رندة (Ronda) مدينة ولاية مالقة من إسبانيا ولها ذكر في دولة العرب بالاندلس قال باقوت رندة
معقل حصين بالاندلس من أعمال ناكرنا وهي مدينة قديمة وينسب اليها جماعة من أهل العلم والفضل ولها ذكر في
دولة بني حفصون وبها الآن آثار مريية قائمة افتتحها الاسبانيول سنة (١٤٨ م)

تسمى منهم بالاندلس بأمير المؤمنين عذما الثالث أمر الخليفة بالشرق واستبدموا الى الترك على بني العباس وبلغه ان المقدرة له مؤنس المظفر مولاه (٣١٧ هـ) فلقب بالقاب الخليفة وكان كثيرا لجهاد بنفسه والغزوا الى دار الحرب الى أن هزمه روم ميم ملك الخلافة (٣٢٧ هـ) فقعد عن الغزو بنفسه وصار يردد الطوائف في كل سنة فإوطأ عساكر المسلمين من بلاد القربى ما لم يطره قبل في أيام سلطته ومدت اليه أمم الخلافة وغيرهم من وراء الدروب يدا الأذعان وأوفدوا عليه رسلاهم وهذا يوم من رومية والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلام والاعتماد فيما بين في مرضاته ووصل الى سدة الملوك من أهل جزيرة الأندلس المناجمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة (كستيلة) وبنبلونة وما ينسب اليها من الثغور الخوفية فقبلوا يديه والتسوارضه واحتقبا حواجزه وامتنطوا مرصكبه ثم سما الى ملك العدو فتناول سبته وأطاعه بنو ادريس أمره العدو وملوك زنافة وبربر وأجاز منهم اليه الكثير وبدأ أمره أول ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا ولما وفدت اليه رسل قسطنطين ملك الروم احتفل بهم احتفالا شائقا فأتى الوصف يليق بمقام هذه الخلافة الضخمة حتى انهر الرسل من هول المجلس وأكبر واما رأوه

وفي خلافته صارت مدينة قرطبة عاصمة الأندلس مركز العلوم والآداب وكثرت فيها العلماء من كل فن فكانت قرطبة تناظر بغداد وبعدها أن أذعن لعبد الرحمن الناصر تلك الأقاليم ونفذت كلمته وارتفع سلطانه شرع في تشييد المباني والقصور الفاخرة كجده وأبيه إلا أنه فاق عليه ما فن قصوره العجيبة الفخيمة الروضة جلب الماء اليه من الجبال واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر حتى من بغداد والقسطنطينية والناعورة وساق اليها المياه من أعلى الجبل على بعد المسافة وجرها في أقبية غريبة الصنعة عدها بنو خلدون من عجيب الآثار التي يحتاج في عملها الى بذل الاموال وتكاتف الرجال وقد ذكرها المقرئ في تاريخه وعدها من غرائب المباني وكان ينهى الماء الى بركة عظيمة عليها أسد يدع اله نعمة يجوز الماء الى عجزه فيمجه في بركة من فيه فيمهر الناظر وتسقي من مجابه جنات هذا القصر على سعتها ويستفيض على ساحاته ومنها مدينة الزهراء واتخذها دار الملك وأنشأ بها من القصور والمباني المختلفة والبنائين ما يجمل عن الوصف واتخذ فيها الجمالات الوحش فسجحة البناء متباعدة السياج ومسارح الطير وظلاله بالشباك واتخذ فيها دار الصناعة والآلات السلاح والحرب والحلى الزينة وغير ذلك من المهن مما ذكره المؤرخون وأبدعوا في وصفه فن شاء فليراجعه وكان في الزهراء ثلثمائة سارية من الرخام النفيس وأكثر من خمسة عشر ألف باب غربية الصنعة وبنى بناؤها أربعين عاما وجلبوا رصاصها المسلون من أفر بقية وقرطاجنة وسفاسس والقسطنطينية والشام وغيرها واتخذ له مجلسا يدعى بالمؤنس جمع فيه من غريب الصنعة والزخرفة والاصباغ ما لا يمكن للقلم وصفه ومنها قصر الزهراء وكان متناهيا في الجلالة والفخامة أبوابه من خشب الارز الملبس بالذهب والفضة منقوشا نقشيا بحير الابواب وكان أشرف هذه المجالس وأجملها مجلس قصر الخلافة وصفه المقرئ في نفع الطبيب فن شاء فليراجعه وكان غاية في ابداع الصنعة

وكان الناصر كفا بعمارة الارض واقامة معالمها وانسباط مجاهلها واستجلاها من أبعدها مقامها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك واستقام السلم والعدل في أيامه واتسع نطاق الحضارة وامتد العمران وراجت أسواق الزراعة والتجارة ففاضت الأندلس بينا يسع التعم وأحدثت بها بحار

الثروة وكان عدد مدنها ثمانين مدينة كبيرة وثلاثمائة مدينة صغيرة وزاد عدد قراها وازدهارها عن اربع مائة
اثنى عشرة ألف قرية وعمر رتبة واتصلت العمارة في مباني قرطبة والزهرام والزهرة بحيث انه كان
يشي فيها بضوء السرج الممتدة عشرة أميال

والناصر أول من اهتم بأمر البحرية فأكثر من بناء السفن الحربية ورتب الاساطيل على مثال
اساطيل الافرنج وأتقن صناعتها وعدتها وفي أيامه تقوت الاساطيل بالاندلس وزاد عددها عن مائتي
سفينة وكان لها جلة مرافق الا انها ترد في الكثير على بجاية والمرية وكان أمر الاساطيل يعهد لأمير
من عظماء الدولة يدبر أمرها ويأمر بجزائها في السواحل والمين واليه يرجع أمرها وقد تمكن
الناصر بهذه الاساطيل من الاستيلاء على كثير من تغور وسواحل الفرنج وكانت بجاية بالاندلس
في أيامه خمسة آلاف وأربعمائة ألف هذا من الكور والقرى ومن السوق والمستخلص سبعمائة
ألف وخمسة وستون ألف دينار أما أخماس الغنائم فلا تحصى ولمسات الناصر خلف في بيت المال
كل روي بعض المؤرخين خمسة آلاف ألف ألف (ثلاث مرات) وكان يقسم الجباية اثلاثا
ثلث للجنود وثلث للبناء وثلث مدخر ومع ما وصلت اليه أيام الناصر من العظمة والغنى والصفاء يحكى
انه وجد بخطه ان أيام السرور التي صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا يوم كذا
من كذا وعدت تلك الايام فكانت أربعة عشر يوما وكان للناصر من الوزراء والمجانب من ارتفع
ذكرهم وعلا قدرهم وخلافة حسون سنة

الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) لما توفي الناصر لدين الله تولى الخلافة
بعده ولده وولى عهده الحكم المستنصر بالله فجرى على رسمه ولم يقدم من ترتيبه الا شخصه وفي أول
ولايته طمع الخلافة في التغور فغزى الحكم بنفسه واقطم بلاد الفرنج واستولى على مدينة شانت
اشتاين (١) وغيرها فبادر والى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه ثم أرسل الجنود بعد ذلك
الى بلاد الخلافة والبشكنس وجهات برشاوية وقشتالة فغتمت وسبت وعظمت فتوحات الحكم
وتقوت التغور في كل ناحية وكان من أعظمها فتح قلرية (٢) من بلاد البشكنس على يد غالب
مولاه فعمرها الحكم واعتنى بها (٣٥٢ هـ)

وكان النور مانيون لا يزالون يعيشون في الجهات الغربية والجنوبية من أور وباينقزون على
البلاد كلما مكنتهم الفرصة وفي (٣٥٤ هـ) ظهر وافي مرا كهمم بالبحر المحيط وأفسدوا بسائط
أشبونة وناوشهم الناس القتال فرجعوا الى مرا كهمم وأخرج الحكم القوادح لراسة السواحل
وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بتجهيل حركة الاستطول ثم وردت الاخبار بأن العساكر
نالت منهم في كل جهة من السواحل ووقد عليه في خلافة بعض ملوك الفرنج فقابلهم بما يليق
بمقامه وهادنه الامر او الملوكة فهادنهم وقبل هداياهم ورسم لبعضهم بهدم الحصون والابراج القريبة
من تغور المسلمين ففعل ثم ان الحكم مدسلطانه على بالعدوة فواطعها كره بلاد المغرب الاقصى
والاوسط وتلقى دعوة ملوك زناته من مغراوة ومكناسة فبشوها في أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم

(١) Saint-Sébastien مدينة واقعة شمالي اسبانيا على لسان من الارض وهي تغرب تجارى عظيم

(٢) إحدى مدن بلاد البرتغال وهي دار العلوم ومحط القنون ببلادهم

وزاجوابها دعوة الشيعة فيما بينهم واستنزل بنى ادريس من ملكهم بالعدوة وأجازهم البحر الى قرطبة ثم جلاهم الى الاسكندرية وكان الحكم محبا للعلوم مكرمالا هلهاجعا للكتب بأنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله روى قيم خزانه كتبه أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرست وفي كل فهرست عشرة ونورقة ليس فيها الاذكر أسماء الدواوين لا غير وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت اليه بضائعه من كل قطر وكان يبعث في شراء الكتب الى الاقطار رجالا من التجار ويرسل اليهم الاموال لشراؤها حتى جلبوا له منها الى الاندلس ما لم يعهدوه وكان ذا غرام بهما فقد آثر ذلك على لذات الملوك وكان عددها فيما قيل أربع مائة ألف مجلد وانهم لما نقلوها أقاموا سنة أشهر في نقلها وجمع يداره الحدائق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزانه من الكتب لم تكن لاحد من قبله ولا من بعده الا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى ان بيع أكثرها في حصار البربر مدة المنصور بن أبي عامر الا آثر ذكره ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم اياها عنوة

ومما يذكر محيى أردوان بن أدفونش الى المستنصر بالله دون أمان بقصد له أو ذمة تعصمه فأمر المستنصر فنلقوه بالترطب وأتزلوه في قصر من آخر قصر الخلافة وجلس له الخليفة في يوم معين وقابله وأكرمه ثم قام الامير للانصراف لايولى الخليفة ظهروه وقد تكلفه الفتيان فأخرجوه وقد علاه البهر وأذله النظر وجلالة ما عاينه من نخامة الخليفة وبهاء العزة ثم صبت عليه الخلع التي أمر له بها الخليفة وكانت من غالى المنسوجات وثمين الاقشة مما لا يوجد له نظير عند أحد من ملوك أوروبا ولما عاد كان لسانه لهجاء كراما رأى من عظمة الملك ونخامة الدولة مما لم يسمع بمثله أبدا وكل ذلك مفصل في كتب التواريخ كابن خلدون ونفع الطيب وغيرهما وكانت وفاته (٣٦٦ هـ) مدة ملكه ست عشرة سنة

هشام بن الحكم (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) لما تولى هشام الملك كان صغيرا سنة تسع سنين

وكان الحكم قبل موته استوزر له محمد بن أبي عامر ونقله من خطة القضاء الى وزارته وفوض اليه أموره وترقت حال ابن أبي عامر عند الحكم الذي تلقب بالمويد ثم سما بعد ذلك لابن أبي عامر أمل في التغلب على هشام لكانته في السن وناب له رأى في الاستبداد ففكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضا وبعض وكان عظيم في قومه وكان له في الفتح أثر وعظم أمر ابن أبي عامر هذا وغلب على المؤيد ومنع الوزراء من الوصول اليه الا في النادر من الايام يسلمون وينصرفون وأرضخ للجنس في العطاء وأعلى مراتب العلماء ووقع أهل البدع وكان ذا عقل ورأى وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين ثم تجرد رؤساء الدولة ممن عانده وزاجه حال عليهم وحطهم عن مراتبهم وقتل بعضا ببعض كل ذلك عن هشام وخطة وتوقيعه حتى استأصلهم وفرق جموعهم ثم لما خالاه الجوع من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة من أولياء الدولة من العرب وغيرهم رجوع الى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وغيرهما فتغلب على هشام واستولى على الدولة وملا الدنيا وهو في جوف يئسه من تعظيم الخلافة والخضوع لها

لهاورد الامور اليها وترديد الغزو والجهاد فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستعداد بالامور وبني
 لنفسه مدينة سماها الزاهرة ونقل اليها خزائن الاموال والاسلحة وقعد على سرير الملك وأمر أن يجي
 بتحية الملوكة وتسمى بالحاجب المنصور ونفذت الكتب والمخطبات والاوامر باسمه وأمر بالدعاء
 على المنابر عقب الدعاء للخليفة ومحى رسم الخلافة بالجملة ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر
 من الدعاء على المنابر وكتب اسمه في السكة والطرز وخدم البرابرة والمالكية واستكثر
 من العبيد للاستيلاء على الرتبة وقهر من تطاول اليها من العلية فظفر من ذلك بما أراد وغز استنا
 وخسين غزوة في سائر أيام ملكه لم تنكس له فيها راية ولا نفل له فيها جيش ولا أصيب له بعث وأجاز
 عساكره الى العدو وضرب بين ملوك البرابرة وضرب بعضهم ببعض فاستموتت له ملك المغرب
 وخضعت له ملوك زناته وانقاد والحكمه وأطاعوا سلطانه ثم هلك المنصور أعظم ما كان ملكا
 وأشد استيلاء (٣٩٤ هـ) بمدينة سالم (١) عند منصرفه من بعض الغزوات ودفن بها وزارته
 ٢٧ سنة

وكان المنصور في أول أمره يجلس يد كان عند باب القصر يكتب فيه لمن يعن له من الخدم
 والمرافقين للسلطان الى أن طلبت السيدة أم المؤيد من يكتب عنها فرفها به من كان يأنس اليه
 بالجلوس من فتيان القصر فترقى الى أن كتب عنها فاستحسنته ونهت عليه الحكم ورغبت في
 تشريفه بالخدمة فولاه قضاء بعض المواضع ثم ترقى الى الزكاة والمواريث باشيعة وتمكن من
 قلب السيدة بما سمعها به من التحف والخدمة ثم ترقى به الحال الى أن وصل الى مرتبة الوزارة
 كما تقدم وقد قام المنصور وغير ذلك بإنشاء كثير من المباني العمومية كالمساجد والقناطر وغيرها وقد
 انصف بحماها الخصال كالعدل والبروة واثانة الملهوف والخوف من الله والبعد عن الظلم وغير ذلك
 وقد وطئت خيل الاسلام في وزارته أراضى وبلدان لم تظأها من قبل منها مدينة شانتياقو (٢) قاصية
 غليسية وبها كنيسة معظمة جدا عند أهل الاندلس ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام في قصدها
 ولا الوصول اليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكنها وبعد شقتها (٣٨٧ هـ) وكان المنصور لما عزم
 على غزوه هذه المدينة تقدم في انشاء اسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي دانس من ساحل غرب
 الاندلس وجهازه برجاله البحرين وصنوف المترجلين وحمل الاقوات والاطعمة والعدة والاسلحة
 استظهارا على نفوذ الغزوة الى أن خرج بموضع على نهر ديرة (٣) فدخل في النهر الى المكان الذي عمل

(١) مدينة بالاندلس تتصل باعمال باروشة وكانت من أعظم المدن وأشرفها وأكثرها تجرا وماء وكان طارق بن زياد
 وجدها خرابا فعمرت في الاسلام والاسبانيون يسمونها الآن (Medina Celi) وهي من أعمال سوريا
 على الضفة اليسرى من نهر سالون

(٢) أو شنت يا قب مدينة شهيرة ببلاد غليسية من اسبانيا باقليم كرونيا وقد اشتهرت بكنيستها العظيمة الشهيرة التي يجع
 اليها كل سنة آلاف من الناس وبها قبر القديس يعقوب استولى عليها العرب (٩٩٧ م) وأخذوا من كنيستها
 أموالا طائلة وتسمى عند الفرنسيين (Saint-Jacques de Campostelle) وعند الاسبانيون
 (Santiago de Campostelle)

(٣) نهر فظيم اسبانيا وبلاد البرتغال منه من بلاد سوري ياروي بالاسود ياورغش وبلد الوليد وزامورة وليون
 ولسنة وغيرها ويصب بالمحيط الاطلنطي وسمى عند الاسبانيون (Duero)

المنصور على العبور منه فعقد هناك من هذا الاستول جسرا بقرب الحصن الذي هنالك ووجه المنصور ما كان فيه من الميرة الى الجند فتوسعوا في التزود منها الى أرض العدو

ولما توفي المنصور قام بالامر بعده في الوزارة ابنه عبد الملك المظفر أبو مروان جفري على سنن أبيه في السياسة والغزو والحجر على الخليفة وكانت أيامه أعيادا دامت سبع سنين الى ان مات سنة (٣٩٩ هـ) ثم قام بالامر بعده أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام ولما تم له الاستبداد على الخليفة والاستقلال بالملك دونه كايه من قبل نائبه رأى في الاستئثار بما بقى من رسوم الخلافة فطلب من هشام المؤيد ان يولي به عهدا فأجابته وأحضر لذلك الملا من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد فكتب عهدا الى الناس عامة (٣٩٨ هـ) وشهد الوزراء والقضاة وسائر الناس على ذلك وتسمى بعد هابولى العهد وكان هذا العمل سببا في زوال النعمة عن بيت ابن أبي عامر لان أهل الدولة تقموا عليه وكان أسرع الناس لذلك كراهة الاموية والقرشيين فغصوا بأمره وأسفوا من تحويل الامر لجملة من المضربة الى اليمانية فاجتمعوا لثأرتهم وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور في بلاد الجلالة في غزاة من صوائفه وخلعوا هشاما المؤيد بعد ان قبضوا وقتلوا كثيرا من أرباب الدولة (٣٩٩ هـ) وبايعوا محمد ابن هشام

محمد بن هشام المهدي (٣٩٩ - ٤٠٠) لما طار الخبر الى عبد الرحمن المذكور

بما حصل وتسامع الجند انفض جمعه وفضل الى الحضرة حتى اذا قرب منها تسلل عنه الجند ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدي لما رأوا من سوء تدبيره وانتفاض أمره وأغروه بسبيدهم ثم قبض عليه وقتل وحمل رأسه الى المهدي وذهبت دولة العامرين كأن لم تكن وكانت الاموية تعتدى على رؤساء البربر وزنانة لما كان من مظاهرهم العامرين وتنسب تغلب المنصور على الدولة اليهم فسخطتهم القلوب وكرهتهم العيون ولولا ما لهم من العصية لاستأصلهم الناس ولفظت أسنة أهل المدينة بكرهتهم وأمر المهدي ان لا يركبوا ولا يتسلحوا وامتنع عن مقابلة رؤسائهم وانتهت العامة دور بعضهم وكان المهدي يظهر لهم المحبة في حضورهم وفي قلبه منهم حزازات وكان يجاهر بسوء الثناء عليهم ولما بلغهم انه يريد الفتك بهم غمست رجالهم وأسروا نحواهم واشتورا في مبايعة هشام بن سليمان بن الناصر وفسا في الخاصة حديثهم فعرجوا عن مرامهم وأغرى بهم السواد الاعظم فثاروا بهم وطردوهم من المدينة ثم قبض على هشام وأخيه أبي بكر وأحضر ابن يدي المهدي فضرب عنقهما ولحق سليمان ابن أخيها الحكم بجنود البربر وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة وتآمر وبايعوه ولقبوه المستعين بالله وذهبوا به الى طليطلة فاستجاش بابن أدفونش (القونس الخامس ملك قسطنطية) فأمدته ثم نهض في جوع البرابرة والنصارى الى قرطبة وبرز اليه المهدي في كافة أهل البلد وخاصة الدولة فكانت الدائرة عليهم وقتل منهم ما يزيد على عشرين ألفا ودخل المستعين قرطبة (٤٠٠ هـ) أما المهدي فانه لحق بطليطلة واستجاش بابن أدفونش ثانية فنهض معه الى قرطبة وهزم المستعين والبرابرة ودخل المهدي قرطبة وملكها وخرج المستعين مع البربر وتفرقوا في البساط ينهبون ولا يبقون على أحد ثم ارتحلوا الى الجزيرة الخضراء فخرج المهدي ومعه بن أدفونش لاتباعهم فسكروا عليهم فانهم المهدي وابن أدفونش ومن معهما وتبعهما

المستعين الى قرطبة فأخرج المهدي هشام المؤيد للناس وبيع له وقام بأمر حجابته (٤٠٠ هـ) فلم ينفعه ذلك وحاصره المستعين والبربر ولما خشى أهل قرطبة من اقتحام البربر المدينة أغروا أهل القصر وحاشية المؤيد بالمهدي وأنه سبب الفتنة فقتلوا المهدي (٤٠٣ هـ) واجتمعوا على علي المؤيد ومع ذلك لم يغب هذا عن أهل قرطبة شيئا الى ان جهدهم الحصار وعدمت المرافق ولم يزل الامر حتى دخل المستعين قرطبة ومن معه من البربر عنوة (٤٠٣ هـ) وقتل هشام ولما ظن المستعين ان قد استحكم أمره توارثت البرابرة والبيد على الاعمال فولوا المدن العظيمة وتقلدوا البلاد الواسعة وافترق شمل الجماعة بالاندلس وصار الملك طوائف في آخرين من أهل الدولة مثل ابن عبد باشبيلية وابن الافطس بيطليوس وابن ذى النون بطليطلة وابن أبي عامر ببلنسية وابن هود بسرقة ثم خرج على المستعين المذكور سنة (٤٠٧ هـ) شخص من القواديدعى خيران العامري وكان من أصحاب المؤيد وترك قرطبة لما ملكها المستعين هو وجماعة كبيرة من العامريين وكان اذذاك على ابن جود العلوي يملك سبتة وأخوه القاسم بن جود أميرا على الجزيرة الخضراء من الاندلس فلما رأى الامير على العلوي خروج خيران على المستعين عبر البحر ونزل مالقة وقدم عليه خيران وغيره من الثغور وكان أمر هشام المؤيد قد خفي عليهم منذ استولى سليمان على قرطبة فبايعوا على بن جود المذكور على طاعة المؤيد ان ظهر خبره (٤٠٦ هـ) ثم قصدوا سليمان بقرطبة وقامت بينهم حروب أخذ فيها سليمان أسيرا فقتلوه هو وأخوه وأبوهما الحكم (٤٠٧ هـ) وملك بن جود قرطبة وقتلوا في القصر فلم يجدوا المؤيد فيه وكان اختفاه أمر المؤيد من أعظم الاسباب في نوال ابن جود الملك لانه عقب ذلك أشاع موت المؤيد ودعا الناس الى نفسه فبايعوه وتلقب بالمتوكل على الله وقيل الناصر لدين الله

أما خيران فانه لما لم يجد المؤيد خرج عن طاعة ابن جود وترك قرطبة باحشاع واحد من بني أمية يبايعه الى ان حظى بعبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن الناصر وكان مستخفيا بمدينة جيان (١) فأخذه وبايعه ولقب بالمرتضى

خلافة عبدالرحمن المرتضى (٤٠٨ - ٤١٣ هـ) لما بايع خيران ومن انضم اليه المرتضى انفق على ذلك أيضا كثر أهل الاندلس مثل أهل شاطبة وبلنسية (٢) وطرطوشه (٣) وغيرها فلما بلغ ذلك ابن جود جمع الجوع بقصد الانطلاق اليهم وكان دخل الحمام قبل ذهابه ليغتسل فوثب عليه غلماناه (٤٠٨ هـ) وقتلوه وكانت ولايته سنة وتسعة أشهر أما المرتضى فانه لم ينتظم أمره مع

(١) مدينة ببلاد الاندلس من اسبانيا قاعدة ولاية مضافة اليها وكانت في مدة العرب زاوية زاخرة خصوصا بعد سقوط قرطبة وتسمى عند الفرنج (Jaen)

(٢) بلنسية كورة ومدينة مشهورة بالاندلس متصلة بحوزة كورة تسمى وهي شرق تدمير وشرق قرطبة وهي برية بحرية ذات اشجار وأنهار وتعرف بمدينة التراب وتتصل بمادند تعدى جملتها وبينها وبين تدمير أربعة أيام ومنها الى طرطوشه ايضا أربعة أيام ملكها الفرنج سنة (٤٨٧ هـ) واستردها المثلثون الذين كانوا ملوكا بالغرب قبل عبدالمؤمن سنة (٤٩٥ هـ) واهلها خيران اهل الاندلس يسمون عرب الاندلس بينها وبين البحر فرمضو ينسب اليها جماعة وافرن من اهل العالم بكل فن وتسمى عند الفرنج (Valence) اه

(٣) قال ياقوت مدينة بالاندلس متصل بكورة بلنسية وهي شرق بلنسية وقرطبة قرية من البحر متقنة العمارة

كل ذلك لانه لما علم العسكر بقتل بن حمود دخلوا البلد ثانية وبايعوا مكانه أخاه القاسم بن حمود ولقبوه
بالمأمون فبقى ملكا على قرطبة وغيرها الى سنة (٤١٢ هـ) وفي هذه السنة سار القاسم الى أشبيلية
فخرج عليه يحيى بن أخيه وودعا الناس الى نفسه فأجابوه وخلعوه وأقام بقرطبة حتى قفل عنه فنهض
الى مالقة والجزيرة الخضراء واستولى عليهما (٤١٣ هـ) ودخل القاسم قرطبة وحصل بينه
وبين أهلها قتال شديد دام نحو شهرين وأخيرا انتصر الاهلون وأخرجوه ففرق عنه عسكره وانهمز
الى شريش^(١) فتبعه يحيى بن أخيه وقبض عليه وسجنه حتى مات بالسجن سنة (٤٣١ هـ)
بعد موت يحيى المذكور ولما جرى ذلك خرج أهل أشبيلية عن طاعته وطاعة ابن أخيه يحيى وولوا
عليهم قاضيههم أبا القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد اللخمي فانفرد بأمر أشبيلية وكانت ولاية القاسم
نحو ثلاث سنين

عبد الرحمن المستظهر بالله (٤١٤ هـ) لما انتصر أهل قرطبة على القاسم بن حمود وقع
اختيارهم على رجل أموى اسمه عبد الرحمن بن هشام وهو هذا ولقبوه بالمستظهر الأله لم يمكث في
الملك طويلا لان محمد بن عبد الرحمن بن الناصر لدين الله فار عليه بعد شهرين من خلافته فاتبعه
الغوغاء وقتل بالمستظهر وتلقب بالمستكني

محمد بن عبد الرحمن المستكني (٤١٤ - ٤١٦ هـ) لما قتل المستظهر بألقه بايعوا
بالخلافه لمحمد هذا ولقبوه بالمستكني فلم تطل مدته أيضا فأقام سنة وأربعة أشهر وخلع فقفر
ومات مسموما وهو والد الاديبة المشهورة ولادة بنت المستكني وبعد ذلك لم يبايع أهل قرطبة
أموىا لمدة بل اجتمعوا على طاعة يحيى بن علي حمود وكان بمالقة يحطبه بالخلافه ثم خرجوا
عن طاعته (٤١٨ هـ) ثم قتل بعد ذلك يحيى المذكور في حرب بينه وبين القاسم بن عباد حاكم
أشبيلية (٤٢٧ هـ)

هشام بن عبد الرحمن الناصر المعتمد على الله (٤١٨ - ٤٢٢ هـ) لما خرج أهل
قرطبة عن طاعة يحيى العلوي بايعوا هشام بن عبد الرحمن ولقبوه المعتمد على الله وكان هشام
بالثغر مقيما عند ابن هود وأقام مترددا في الثغر ثلاثة أعوام ولما اشتدت الفتن بين رؤساء الطوائف
اتفقوا على أن ينزل دارا لخلافه بقرطبة فاستقدمه ابن جهور عميد الجماعة وكبير قرطبة فقدم
وأقام بها يسيرا ثم خلعه الجند (٤٢٢ هـ) فسار نحو الوادي سليمان بن هود وأقام عنده الى أن
مات (٤٢٨ هـ)

أمية بن عبد الرحمن (٤٢٢ هـ) لما خلع أهل قرطبة المعتمد على الله طلب أمية
هذا البيعة فقالوا لا نخشى عليك أن تقتل فان السعادة تولت عنكم يا بني أمية فقال بايعوني اليوم

مبنية على نهر ابرو لها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد في حملتها تجارها ويسافر منها الى سائر الامصار استولى
الفرنج عليها (٥٤٣ هـ) وكذلك على جميع حصونها وتسمى عند الفرنج (Tortose)
(١) مدينة بسبانيا من قسم الاندلس بمقاطعة قادس بالقرب من الشاطئ الايمن من الوادي الكبير بها اثار صرية
وهذه المدينة كان انتصار طارق على ملك الغوط المدعور ودياك (الذريق) حيث قتل وتسمى عند الفرنج
(Xerès)

واقتلوا في غدا فبايعوه ثم لما اشتدت الفتن في هذه السنة اختفى ولم يظهر خبره وقيل قتل وهو آخر خلفاء بني أمية بالاندلس وبه انترسلت الخلافة بالاندلس وقامت الطوائف بعد الخلائف والبقاء لله وحده ومدة ملكهم كاهاماتان وأربع وعشرون سنة لان أول ملكهم بالاندلس كان سنة (١٣٨ هـ) وعدهم ستة عشر خليفة وكانت دولتهم من أعظم الدول شأنا وأضخمها سطانا كثرت جنودهم وامتدت سطوتهم وعلا ذكرهم وطا راجعهم وارتقت في زمنهم المعارف والفنون والصنائع وعم الامن وانبسط الرخاء وكثرت الاموال يشهد بذلك العمائر والمباني والمدن والساكن التي شيدها أو أصلحوها فان بها من عجائب الصنعة ودقة النقوش واحكام البناء ما يبهر العقول ولا يمكن أن تقوم به أمة من الامم الا اذا بلغت النهاية في الارتقاء ومن أراد الوقوف على تفصيل أحوالهم فعليه بالمطولات ثم خلفهم الدهر ومال عليهم الى أن سقطوا سنة الله في عباده ولن يجبد لسنته تبديلا

(الفصل السابع)

دولة العلويين بالاندلس

(٤٠٧ - ٤٦٠ هـ)

لابأس أن نلم بعض اللام هنا بدولة العلويين التي قامت بالاندلس لانهم من الدول التي كان لها السلطان بهذه البلاد كما مر بك فنقول ان أول ملوكهم بالاندلس هو علي بن جوداد ادرسي كان دخوله الاندلس للسبب المتقدم ولما بايعوه تلقب بالناصر لدين الله ومكث في الحكم أقل من سنة ثم قتل في الحمام كما علمت قتله بعض موالي بني أمية باغراء منهم لانهم رأوا أن الخلافة ستذهب من أيديهم بوجوده وبعده بايع جماعة يحيى المعتلى وبايع جماعة معه القاسم ولقبوه الواثق وانتشرت الفتنة بينه وبين عمه القاسم الى أن قبض على عمه (٤١٥ هـ) ثم حبسه ثم قتله (٤٢٧ هـ) وخلع يحيى المعتلى (٤١٧ هـ) وقتل (٤٢٩ هـ) اغتاله بعض أصحابه وعند خلعها استدعى أهل مالقة أحياه ادرسي ولقبوه المتأيد وكانت وفاته (٤٣١ هـ) ولما قبض على القاسم لحق ولده محمد ببلنجة بالخضراء فملا بها وتلقب بالمعتصم ومات (٤٤٠ هـ) وقام من بعده ولده القاسم بالمدينة المذكورة

وبعد يحيى المعتلى بويع ادرسي بن الناصر على (٤١٩ هـ) واستمر الى أن توفي (٤٣١ هـ) وبويع بعده الامير يحيى وخلع (٤٣٢ هـ) ثم بايعوا حسن المستنصر العالى وخلع (٤٣٨ هـ) وبويع بعده خلع محمد بن ادرسي المهدي فزحف عليه العالى المخلع ففرقبايعوا محمد المستنصر بعد وفاة العالى (٤٤٦ هـ) وتغلب عليه باديس بن حبوس (٤٤٩ هـ) فسار الى مليلة فبايعه أهلها وكانت وفاته (٤٦٠ هـ) ثم اشتد الامر بالعلويين وصارت الخلافة أضحوكة لا اعتبار لها فكان يحكم في بقعة من الارض لا تزيد عن ثلاثين فرسخا أربعة كلهم يسمى بأمر المؤمنين ثم انقسم ملك الاندلس الى طوائف الى أن استولى عليهم يوسف بن تاشفين كاسياني في تاريخ دولة المماليك عند الكلام على دول المغرب الاقصى ومدة حكم العلويين بالاندلس (٥٣)

وكان ملوك الطوائف يتباهون في أحوال الملك حتى في الالتفاف لأمهم الى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء وترفعوا الى طبقات الساطنة العظمى وذلك بما في جزيرتهم من أسباب الترف والخصب والغنى التي توزع على ملوك شتى فتكفيهم وتنض بهم للباهة وقد كان بنو حمود ولد ادريس العلوي الذين توارثوا على الخلافة في أثناء الدولة المرورية يتعاطمون ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس وكان اذا حضرهم منشد لم يدح أو من يحتاج الى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب والحجاب واقف عند الستر يجاوب بما يقوله الخليفة قال ابن شرف الشاعر

مبارزه دني في أرض أندلس * أسماء معتصم فيها ومعتصد

ألقاب مملكة في غير موضعها * كالهر يحكي انتفاخ صولة الاسد

ولندكر أسماء ملوك الطوائف المذكورين الذين اقتسموا الاندلس قبل ظهور دولة يوسف ابن تاشفين فنقول كان باشبيلية (١) وأعمالها محمد بن عباد وأولاده من بعده وببطلوس وأعمالها محمد بن عبد الله المعروف بالافطس وأولاده من بعده وببليظة وأعمالها ابن يعيش ثم اسماعيل بن ذى النون وبسرقطة وأعمالها سليمان بن هود الجذامي وأولاده من بعده وبطرطوشة وأعمالها اليب العامري وبيلنسية وأعمالها المنصور المغافري وبالسهله وأعمالها عبود بن رزين البربري وبدانية (٢) وأعمالها الموفق العامري وبمرسية (٣) وأعمالها بنو طاهر ثم

(١) أشبيلية مدينة باسبانيا قاعدة عمالة مضافة اليها واقعة على شاطئ الوادي الكبير وهي المدينة الرابعة باسبانيا بميدية وسط سهل خصب جميل محاطة بسورين بناء الرومان بنحو ١٦٦ برجاً وبها مبان فاخرة وآثار عظيمة وقصر من بناء العرب وهي من أقدم المدن استردها الملك سان فرديناند من المسلمين سنة (١٤٤٨ م) وقال ياقوت أشبيلية مدينة كبيرة عظيمة وليس بالاندلس اليوم أعظم منها وتسمى حصن أيضاً وبها قاعدة ملك الاندلس وسررود وبها كان بنو عماد ولقاهم بها خربت قرطبة وعلمها متصل بعمل البلنسية في قرطبة وبينهما ثلاثون فرسخاً وكانت قديماً قبايزعوا قاعدة ملك الروم وبها كان كرسيم الاكبر من أن قال ويطل عليها جبل الشرف وهو جبل كبير القواكه وبمما فاقته على غيرها من النواحي زراعة القطن فإنه يحمل منها الى جميع بلاد الاندلس والمغرب وينسب اليها خلق كثير من أهل العلم وقال القرزوني إن من محاسنها اعتدال الهواء وحسن المبانى وأن المديعة على نهرها ٧٢ ميلاً وقال آخرها أسواق وتجارات رابحة أما الشرف فهو تل طال من تراب أحمر مسافة ٤٠ ميلاً في مثلها يمشى به السائر في ظل الزيتون والتين وبأهلها يضرب المثل في الخلاصه وانتهاز فرصة الزمان وبلغت جباية اشبيلية أيام الحكم بن هشام (٣٥١٠٠) دينار وكان استيلاء بني عماد على اشبيلية سنة (٤٢٤ هـ) ثم أخذها يوسف بن تاشفين سنة (٤٨٤ هـ) واستولى عليها عبد المؤمن سنة (٥٤١ هـ) بعد حصار وتسمى عند الفرنج Seville

(٢) دانية مدينة باسبانيا إقليم البكانت حصينة واقعة على البحر المتوسط أسسها القوسيون الذين أسسوا مرسيليا وكان بها هيكل على اسم المعبود ديان ومنها اسمها ولها تجارة واسعة قال ياقوت دانية مدينة بالاندلس من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرق مرساها عجيب يسمى الشمان ولها سائق واسعة كثيرة التين والعنب واللوز وأهلها أقرأ أهل الاندلس لان مجاهد العامري أميرها كان يستحب القراءة يفضل عليهم وينفق عليهم الاموال فكفوا بقصدونه ويقومون عنده فكثروا في بلاد وتسمى عند الفرنج Dénia

(٣) مرسية مدينة باسبانيا قاعدة عمالة مضافة اليها واقعة بالجنوب الشرقي من مدريد وهي مدينة جميلة في مكان خصب جميل لطيفة المناخ وقد كانت قليلة الاهمية في الأزمنة القديمة ثم لما استولى عليها العرب حازت شأناً عظيماً

استولى عليها ابن عماد وبالمرية (١) وأعمالها خيران العامري وبمالقة (٢) وأعمالها بنو حمو
وبغرناطة (٣) وأعمالها جنوس الصنهاجي

وبهذه الصفة تفرقت ممالك الاندلس بعد أن كانت مجتمعمة خلفاء بني أمية وكان لكل هذه
المدائن العظيمة قري كثيرة وبساتين وضياع وخراجات وكل ملك من ملوكها تحت أمره أمره وعمل
وقد كان استرداد اسبانيا لبلادهم من يد المسلمين بالتدريج شيئا فشيئا وذلك لما مال المسلمون الى
الخصارة ومسجد وأمام هيكل الترف فأخذت يرحمهم في السكون وبعسارتهم التي ضربت بها الامثال
في الانكماش بحيث قد صدق عليهم قول شارل مارتيل حينما فرغ اليه سكان فرنسا يستشيرونه
فما يفعلونه مع العرب عندهما جتهد لبلادهم وقد سبق ذكر هذا القول في صحيفة (٢٠٣) من هذا
الكتاب وكان جرثومة هذا الخذلان والتقهقر البقية التي أبقاها المسلمون في أول الفتح بناحية من شمالي
اسبانيا لانهم لما استولوا على البلاد أجلا عنها سكانها المعاندون لهم الى الشمال الامن بقى مسالم لهم
كأهل المعلوم قال عيسى بن أحمد الرانزي في أيام غنيسة بن سحيم الكلبي قام بأرض جليقية على خبيث
يقال له بلاي (Pélagie) - (Pélayo) من واقعة أخذ النصارى بالاندلس وجد الفريخ في
مدافعة المسلمين عابقي بأيديهم وقد كانوا لا يطعمون في ذلك ولقد استولى المسلمون بالاندلس على
النصرانية وأجلوهم واقتحووا بلادهم حتى بلغوا اربونة من أرض الفريخ واقتحووا بليوننة من جليقية
ولم يبق الا الصخرة فانه لانها ملك يقال له بلاي فدخلها في ثلاثين رجلا وعشرين نسوة ولا طعام لهم الا
العسل يستارونه من خروق بالصخرة فتموتون به حتى أعيى المسلمين أمرهم واحتقروا بهم وقالوا
ثلاثون علما عسى أن يحيى عندهم فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة ما لا يحق ابعه وفي (١٣٣هـ)
أهلك الله تعالى بلاي المذكور ومات بعده ابنه الى أن قال واتصل ملكهم الى اليوم فأخذوا ما كان
المسلمون أخذوه من بلادهم اه

وكان أول ما استرده الفريخ من مدن الاندلس العظيمة مدينة طلمطله من يد صاحبها القادر بالله
ابن المأمون بن يحيى في سنة الفونس السادس ملك قشتالة وليون بعد حصارها سبع سنين وقد نتأ

و بلغت درجة سامية لما غرقت خلافة قرطبة واستردها الفونس العاشر ملك قشتالة من العرب سنة (١٢٦٥ م)
وتسمى عند الفريخ Murcie

(١) المرية مدينة باسبانيا على شاطئ البحر المتوسط قاعدة عمالة مضافة اليها استردها فرد بنند الكاتوليكي من يد
المسلمين سنة (١٤٨٩ م) وتسمى عند الفريخ (Almeria) قال ياقوت المرية مدينة كبيرة من كورة البيرة
وكانت هي وبيانة بابي الشرق منهار كعب التجار وفيها تحل مراكب التجار وفيها مرسى للسفن والمراكب يضرب
مياه البحر سورها ويعمل بها الوثني والديباج فيجاد عمله ودخلها الفريخ من البر والجزر سنة (٥٤٢ هـ) ثم
استرجعها المسلمون سنة (٥٥٢ هـ) وفيها يكون ترتيب الاسطول الذي للمسلمين ومنها يخرج الى غرناطة والفريخ
ونسب اليها جماعة من أهل العلم اه

(٢) مالقة مدينة باسبانيا قاعدة عمالة مضافة اليها وهي نقر حصين على البحر المتوسط جنوبي مدريد وقد حستها
الاسبانيون حديثا ولا يزال بها لآل نومان عربية قديمة منها قلعة ودار صناعة يسميها الاسبانيون Atarzana
وهو ولا شك محرف من لفظة ترسانة و بها أيضا مسجد لطيف وكل هذا الاثار مخربة الا نوبها أيضا مكان حصين
من بناء العرب تسميها الاسبانيون Alcazaba أي القصية وهي خربة أيضا وغير ذلك من المباني العربية
وهي مدينة واسعة التجارة وقد أسسها الفينيقيون وكانت مشهورة زاوية مدينة القرطاجين والرومان وقد استردها
الملك فرد بنند الكاتوليكي سنة (١٤٨٧ م) قال ياقوت مالقة مدينة طامرة بالاندلس من أعمال بيسوسورها
على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية وواصل وضعها قديم ثم عمرت بعدو كثر قصد التجار والمراكب اليها
فتضاعفت عمارتها حتى صارت أرسودونه وغبرها من بلدان هذه الكورة كالنادية لها أي الرستاق وقد نسب اليها
جماعة من أهل العلم ويسمونها الفريخ Malaga

(٣) غرناطة سباني ذكرها في دولة بني الاحمر

عن أخذها واقعة الزلافة المشهورة ثم استولوا على بلنسية صلحا (٦٣٢ هـ) والرية عنوة بعد أن
تلكها ابن الاحمر (٦٢٦ هـ) واستولوا على شرقي الاندلس وأجلوا عنه العرب (٦٤٥ هـ)
وعلى قرطبة^(١) (٦٤٥ هـ) وعلى مرسية صلحا (٦٣٦ هـ) ثم حاصروا فرديند ملك قشتالة مدينة

(١) قرطبة مدينة بلاد اسبانيا وقاعدة العمالة المضافة اليها واقعة ببلاد الاندلس على الشاطئ الايمن من نهر
الوادى الكبير وهي مؤسسة على سفح جبال سيرامور بنا وسط اراض خصبة جميلة هو اؤها جديدا لغاية وقد بلغت
في العز والحضارة مبلغا لم تبلغه مدينة أخرى بالدول الاسلامية غير بغداد وقد اجمعت كثيرا بعد استيلاء
الاسبانول عليها وهما سور عظيم بناه الرومان ثم اكمله العرب وحسنوه وبها كثير من البساتين النضرة وكنبستها
الكتندراتية الجميلة الشهيرة أصلها المسجد الجامع الذي أسسه عبد الرحمن الاول الاموي سنة (٧٩٢ م) وهي
من أعجب المباني وأعجزها طولها ٢٠٧ أمتار وعرضها ١٤٧ مترا وبها ٨٥٠ اسطوانة من المرمر
النفيس والزخام الصقيل النادر الموجود في بايوس عشرة قبة ومن مبانيها الباقية من آثار العرب القنطرة
الجميلة التي على نهر الوادى الكبير المعروفة بالبحر التي أسسها عمر بن عبد العزيز وقلعة حصينة وبها قصر من قصور
الخلفاء كان اتخذه الاسبانول قصر الجمعية التحكيم القيسي وقد أسس الرومان هذا المدينة سنة (١٥٢ ق م)
ثم استولى الغوط عليها سنة (٥٧٢ م) ثم العرب سنة (٧١١ م) وكانت في زمنهم عاصمة الخلافة العربية
وكان عدد سكانها يزيد اذ ذلك عن ٤٠٠٠٠٠٠ نفس وقد اشتهرت بمدارسها شهرة عظيمة ببلاد أوروبا
وخرج منها كثير من فقهاء العلماء في كل فن وكان بها دار كتب تشتمل على أربعين ٦٠٠٠٠ مجلد وغيرها
من دور الكتب الخصوصية حتى قال بعض العلماء ان قرطبة أكثر بلاد الله كتباً وذلك لاشتغال طلبة أهلها
بالعلوم و٩٠٠ حمام عوى و٦٠٠ مسجد وكان استيلاء الاسبانول عليها سنة (١٢٣٦ م) على يد الملك
فرديند الثالث ملك قشتالة وكان بهذه المدينة كثير من المعامل والمصانع خصوصاً معامل الجلود والبسطوقها يقول
بعض علماء الاندلس

بأربع فافت الامصار قرطبة * منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء نالته * والعلم أعظم نبي وهو رابعها

قال في المسهب كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الاسلام وجميع اعلام الانام بها استقرس بر الخلافة
المروانية وفيها محضت خلاصة القبائل من المعدية واليمانية واليهما كانت الرحلة في الرواية اذ كانت مركز الكرماء
ومعدن العلماء وهي من الاندلس غزلة الرأس من الجسد ونهرها من أحسن الأنهار مكتشف بديناج المروج مطرز
بالازهار وقال السلطان يعقوب المنصور إن ملوك بني أمية حين أخذوها حضرة تملكهم لمعلى بصيرة الديار المنقحة
الكبيرة والشوارع المتسعة والمباني الضخمة المشيدة والنهر الجاري والهواء المعتدل والخارج الناضر والمحرت
العظيم والشعراء الكافية والتوسط بين شرقي الاندلس وغربها اه وكانت قبة الاسلام وحضرة الامام ودار صوب
القولوبستان ثمرا لخواطر ومجرد ر القرائح ومن أفتها طلعت نجوم الارض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر
وبها أنشئت التاليفات الرائقة وصنفت التصنيفات الفائقة والسبب في تبرز القوم حديثا وقد عا على من سواهم
أن أفتهم القرطبي لم يشتمل قط الاعلى البحث والطلب لأنواع العلم والادب قال ابن سعد ولا يلهو راسة ووقار
لا تزال سمه العلم والملك متوارثة فيهم لأن عامتها أكثر الناس فضولا وأشدهم تشفيا ويضرب بهم المثل ما بين أهل
الاندلس في القيام على الملوك والتشجيع على الولاة وقلة الرضا بما يورهم وقال أيضا واتصلت العمارة بقرطبة أيام بني
أمية ثمانية فراسخ طولا وفرسخين عرضا وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادى الكبير الى أن
قال ولمزل قرطبة في الزيادة منذ الفتح الاسلامي الى سنة أربع مائة فانتحط واستولى عليها الخراب بكثرة الفتن الى أن
كانت الظامة الكبرى عليها بأخذ العدو لها سنة (٦٢٣ هـ) قالوا وانتهت جيلية قرطبة أيام ابن أبي عامر الى
ثلاثة آلاف ألف دينار وقد أسس بها الخلفاء من المباني الضخمة والقصور المنيفة والمساجد العظيمة ما سارت
بها الركب الى كل البلدان خصوصاً ما شيد منها بها عبد الرحمن الناصر وقد قات على ذكرها صاحب فتح الطيب
قال ابن حوقل التاجر الموصلي وكان طريق تلك البلاد أهل قرطبة متولون تحصصون وأكثر كونهم البغلات من

اشيلية الى أن فتحها (٦٤٥ هـ) بعد أن حاصرها ستة وخمسة أشهر ثم بعد ذلك انجاز المسلمون الى غرناطة والمرية ومالقة وغيرها ووافق الملك بعد اتساعه وبقوا هناك الى أن حصل لهم ما سئفصه عليك ملخصافي تاريخ بني الاحمر

أما بنو الاحمر ملوك الاندلس فكانت دولتهم بعد ملوك الطوائف ولما كانت دولتهم من أكبر دول ملوك الطوائف ولها مع الاسبانول وملوك المغرب الاقصى وقائع شهيرة أردنا ذكرها هنا مفصلة بعض التفصيل ليكون المطلاع على بصيرة من تسلسل الحوادث الاندلسية فنقول

(الفصل الثامن)

دولة بني الاحمر

(٦٢٩ - ٨٩٧ هـ)

كانت هذه الدولة آخر دولة اسلامية يبلاد الاندلس ومنها استرجع الاسبانول ما كان في يد المسلمين باسبانيا وباستيلاء الاسبانول على ملك بني الاحمر انقضت الدولة الاسلامية من اسبانيا

وأصل بني الاحمر هؤلاء من ارجونة من حصون قرطبة ولهم فيها سلف من أبناء الخندو يعرفون ببني نصر وينسبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج وكان أول أمرهم في آخر دولة الموحدين بني عبد المؤمن وكانوا قبل ذلك تحت أمرهم وذلك أنه لما فشل الموحدون وضعف أمرهم وكثر الثوار بالاندلس وتنازل ملوك عن حصونه للعدو استقل بأمر الجماعة هناك محمد بن يوسف الثائر بمرسية وقام بدعوته للعباسيين وتغلب على شرقي الاندلس جميعه عند ذلك خرج الشيخ محمد بن يوسف بن نصر ابن الاحمر على ابن هود بويوع له (٦٢٩ هـ) على الدعاء للامير أبي ذكرى الحفصي صاحب افر بقية حين بويوع بالخلافة وأطاعته جيان وشريش (٦٣٠ هـ) وكان محمد الشيخ يلقب بابي دوس وقد استظهر على أمره وألابقرا بته من بني نصر وباصهاره بنو اشقبولة ثم بعد ذلك بايع محمد الشيخ لابن هود (٦٣١ هـ) عند ما وصله كتاب الخليفة البغدادي ثم نار باشيلية أبو مروان الباجي عند خروج ابن هود عنها وعودته الى مرسية فراسله محمد بن الاحمر في الصلح على أن يزوجه من ابنته فأطاعه ودخل اشيلية (٦٣٢ هـ) ثم قتل بالباجي وقتله ثم ان أهل اشيلية دعوا لابن هود وأخرجوا ابن الاحمر عنهم فتغلب على غرناطة (٦٣٥ هـ) بطلب أهلها ثم استولى أيضا على جيان وغيرها وكان القونس ملك قشتالة قد تغلب على النواحي بعد هزم جيوش ابن الاحمر ثم تغلب على قرطبة (٦٣٣ هـ) ثم نازل اشيلية (٦٤٦ هـ) ومعه ابن الاحمر فدخلها صلحا بعد سنتين من حصارها واستولى أيضا على طليطلة وشلب وطليطية (٦٥٩ هـ) ثم ملك مرسية (٦٦٥ هـ) ولم يزل العدو

خوهم وجنهم أجنادهم وطائهم و يبلغ من البغلة عندهم ٥٠٠ دينار وأما المائة والمائتان فكثير الحسن شكلها وألواها وقدودها وعلوها وحمية توائمها اه وتسمى عند الفرنج Cordoue وعند الاسبانول Cordoba ومنه الاسم العربي

يستولى على الاندلس شيئا فشيئا الى ان اجبا المسلمين الى سيف البحر ما بين زنده غربا والبيرة شرقا ولم يبق للمسلمين غير سيف البحر البالغ عرضه من رحلة ولما رأى ابن الاحمر ذلك تفكر في الامر مليا واتخذ في الاستعداد طمعا في استرجاع جزيرة الاندلس فلم يمكنه ذلك وتلاحق به غزاة من زناة وتوجين ومغراوة وبنى مرين وكان أعلاهم كعبا وأكثهم غزواً بنى مرين وفي (٦٠٦ هـ) عقد الغزاة يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب وأجازهم في نحو ثلاثة آلاف مقاتل فتقبلهم ابن الاحمر مسرورا واتفق بهم من دفع العدو واسترداد بعض الحصون والمدن وكانت وفاة محمد بن يوسف ابن الاحمر (٦٧١ هـ)

وقام بالامر من بعده ابنه محمد الفقيه وكان عالما فقيها فاضلا وأوصاه أبوه قبل موته باستصراخ زناة من بنى مرين ملوك المغرب وان يوثق بهم عهد وفي (٦٧٢ هـ) أجاز محمد الفقيه الى يعقوب بن عبد الحق سلطان بنى مرين عندما تم له الاستيلاء على بلاد المغرب والتغلب على مراکش مستصرا فاجاب صريحا وأجاز عساكر المسلمين من بنى مرين وغيرهم الى الجهاد ثم أتى هو على أثرهم واستولى على الجزيرة الخضراء وكانت لابن هشام أحد الثوار فنزل بها وجعلها راجبا للجهاد ومقرا بلبيشه ثم استبد ابن الاحمر بملك ما بقى من الاندلس وأورثه عقبه واستولى على جميع ما بأيدي المسلمين من ملكها مثل الجزيرة الخضراء وطريف وزنده التي كانت بيد بنى مرين وكانت وفاة الفقيه (٧٠١ هـ)

وقام بالامر من بعده ابنه محمد الملقب بالخلوع وكان ضعيف العزيمة استبد عليه وزيره ابن الحكم اللخمى من مشايخ زنده فخره واستولى على أمره الى أن ثار به أخوه أبو الجيوش نصر فقتل الوزير المذكور واعتقل أخاه (٧٠٨ هـ) وكان أبوهما محمد الفقيه استعمل على مالقة الرئيس أباسعيد بن عمه اسمعيل بن نصر وطالت فيها أمارته وهو الذى تملك سبتة وغدر بنى العز في بها على عهد المخلوع وبدعونه وكان أشهر اليه بابتسامة وكان له منها ابنه الوليد اسمعيل فلما استولى أبو الجيوش على غرناطة واستبد بسطانها ساءت سيرته وسيرة وزيره ابن الحاج وكان بنو ادريس بن عبد الله ابن عبد الحق أمراء على الغزاة بمالقة وكان كبيرهم عثمان بن أبي العلاء فدخل أبو الوليد في الخروج على السلطان أبي الجيوش نصر وتناول الامر لضعفه وضعف بطانته وأقربائه فعزم أبو الوليد على ذلك واعتقل أبو الجيوش وبايعه الناس وثار أهل المدينة بأبي سعيد وأحيط به وصالحه فزحف اليه من غرناطة أبو الوليد وهزم عساكره وثار أهل المدينة بأبي سعيد وأحيط به وصالحه على الخروج الى وادى آش فلقق بها وجدد بها ملكا الى أن مات سنة (٧٢٢ هـ) أما أبو الوليد فإنه دخل غرناطة وأثل بها نفسه ولبنيه ملكا جديدا وسلطانا فسيحا ونزل الفونس بغرناطة سنة (٧١٨ هـ) فكسر جيشه وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم تردد على بلادهم مرارا كثيرة غازيا وقد بلغ أبو الوليد من الغزو والشوكة مبلغا عظيما ثم غدر به بعض قرابته (٧٢٧ هـ) طعنه غدره عندما انفض مجلسه بباب داره

وقام بالامر من بعده محمد بن الاحمر وفي زمنه حدث اضطراب بمملكة غرناطة فتقوى الاسبانيون من ذلك وعزموا على مهاجمة الثغور فاستصرخ ابن الاحمر بالسلطان أبي الحسن المريني فجهز له العساكر (٧٢٣ هـ) ثم استراب بنو أبي العلاء رئيس الغزاة زناة بعد اخلة

أبي الحسن قنشا ورواى أمر محمد وغدر وابه يوم رحيله عن الجبل الى غرناطة وقتلوه وطعنا بالرمح
(٥٧٣٣)

ولما قتل محمد قدم بنو أبي العلاء أخاه أبو الجحاج يوسف ولما أخذت له البيعة واستقر في الملك سعى
في الاخذ بنار أخيه فنكب بيني أبي العلاء وغربهم الى تونس وقدم على الغزاة يحيى بن عمران بن عبد
الحق ثم استدعى السلطان أبو الحسن لان طاغية الاندلس لما رأى اشتغال السلطان بقتال أهل
تلسان اعز على المسلمين ونازل ابن الاحمر بغرناطة مرارا ووضع عليه جزية فقبلها العدم قدرته
على قتاله فأجاز السلطان ابنه أبا مالك عندما تم له فتح تلسان وأوعز اليه بالدخول الى دار الحرب وعقد
له على كثير من زناتة والمتطوعة فحارب الاسبانول وتوغل في بلادهم وأكثرت القتل والسيب وغنمت
عساكره غنائم وافرة وعند منصرفه دهمنه الاعداء بجنود كثيرة لعدم تبصره بالحروب وأدركوه
قبل أن يركب على فرسه فقتلوه وقتلوا كثيرا من قومه واحتوا على معسكره وما فيه من الاموال
ولما اتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن شرع في ايجازة العساكر للجهاد وتجهيز الاساطيل ثم بعد أن
أزاح علل الجنود ارتحل الى سبتة فتسامعت أمم الاسبانول باستعداده فاستعدواهم أيضا للدفاع
وأخرج أيضا طاغية الاسبانول أسطوله الى بحر الزقاق لمنع السلطان من الاجازة واستحث السلطان
أساطيل المسلمين من مراسى العدو وبعث الى مالوك بنى حفص بأمر يقية بتجهيز أسطولهم اليه
فبعثوا اليه عشرين أسطولا مملوءة بالعساكر وتوافت الاساطيل بسبتة فكانت تريد عن المائة
ثم أفلعوا نحو أسطول القرنج الذى بالزقاق فهزموه شرهزيمة واستطعموا جنوده بالسيف وقتلوا قائدهم
واستاقوا أساطيلهم الى سبتة فعمم الفتح وكثرت الغنائم والاسرى واستبشر السلطان بذلك ثم لما
استكملت اجازة العساكر أجاز هوفى أسطوله مع حاشيته (٥٧٤١) ونزل على مدينة طريف وكانت
بيد الاسبانول فأحاط بها عساكره ووافاهم ابن الاحمر بعسكر الاندلس ثم استعد ملك الاسبانول
وبت أساطيله في بحر الزقاق ووافاه المدد من بلاد البرتقال ولما انتشب القتال كان للعدو جيش كبير
خلف عسكر المسلمين فخرج عند انتشاب القتال وعد الى محلة السلطان فانتهبها بعد أن قتل من بها
من الحراس والخدم والنساء ثم أضرمو النار بالمحلة فلما أحس المسلمون بذلك نظنوا ان قد أحيط
بهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم وكثرت فيهم القتل والاسر وفر السلطان ناجيا بنفسه وخلق
ابن الاحمر بغرناطة كرسى مملكته ثم ان الطاغية طمع في السباين بعد ذلك ونازل قلعة بنى سعيد
نغر غرناطة على مرحلة منها فاستولى عليها بعد أن حاصرها ومنع القوت عن حاميتها (٥٧٤٢)

اما السلطان أبو الحسن فانه لما عاد الى مملكته كان يحدث نفسه بالعودة الى الجهاد فبعث في
المدائن حاشرين للاستفار وأخرج قواده الى سواحل البحر لتجهيز الاساطيل حتى كمل منها عدة وافرة
ثم ارتحل الى سبتة لمشارفتها وأرسل الجنود الى الجزيرة الخضراء مع وزيره ولما بلغ الطاغية ذلك جهز
أساطيله وسيرها الى بحر الزقاق ثم قبل الطاغية من أشبيلية في جنود عديدة وأناخ على الجزيرة
الخضراء مر فأساطيل المسلمين مؤملا أن يستولى عليها كما استولى على طريف وأقبل السلطان
أبو الجحاج بن الاحمر بعساكر الاندلس ومع ذلك لم يفلح المسلمون في هذه الحرب واشتد الحصار على
حامية الجزيرة الخضراء وأصابهم الجهد فساوا من الطاغية الامان على ان يتزوا عن البلد فبذل لهم
الامان ونزحوا فوفى لهم وأجازهم الى المغرب (٥٧٤٣) فأنزلهم السلطان أبو الحسن ببلاد

خير منزل وأكرم منواهم ثم مات ابن الاحمر مقتولا طعنه أسود مدسوس عليه في الصلاة يوم عيد
القطر سنة (٧٥٥ هـ)

وقام بالأمر من بعده ابنه محمد الغني بالله واستبد عليه رضوان الحاجب فقام بأمره وغلب عليه
وحبسه وكان اسمعيل أخوه مسجوناً ببعض قصور الجراء وكانت له ذمة ومصاهرة مع أبي يحيى محمد
ابن عبد الله بن اسمعيل بن محمد بن الرئيس أبي سعيد بن الاحمر ووجه محمد هو الذي دعاه عثمان أبو العلاء
للملك كما تقدم فدخل أبو يحيى الرئيس بالميلة إلى رضوان وقتله وأخرج صهره اسمعيل ونصبه للملك
(٧٦٠ هـ) أما محمد الذي خلع فلحق بوادي آش وسار إلى السلطان أبي سالم المريني ولحق به
كذلك رئيس الغزاة يحيى بن عمر خوفه على نفسه فأكرمه ما أبو سالم غاية الاكرام وقام أبو يحيى
الرئيس بأمر اسمعيل ودير ملكه ثم دبت بينهما السعيات فأل الأمر إلى ان غدر أبو يحيى باسمعيل
وقتل هو وجميع اخوته (٧٦١ هـ) واستبد بملك الاندلس ونكث اليهود التي كانت بين أسلافه
وملك الاسبانول وامتنع عن دفع الجزية المرتبة له فأتى ملك الاسبانول لخر به فانصر عليه المسلمون
انتصاراً باهراً بوادي آش وكان أبو سالم ملك بني مرين أرسل إلى ملك الاسبانول في أمر محمد المخلوع
ورده إلى ملكه فوعده بالمساعدة ثم أجاز له اليه فلقبه بالاكرام وشرط له الاستئثار بما يفتح من حصون
المسلمين الا انه نقض عهده وخالف قوله ففارق المخلوع ورجع إلى بني مرين ثم تمكن المخلوع
من مدينة رينده وزحف منها إلى مالقة (٧٦٥ هـ) فافتتحها وفر الرئيس أبو يحيى من غرناطة
ملتجئاً إلى ملك الاسبانول ثم تقدم السلطان محمد المخلوع فمينا انضم اليه ودخل غرناطة بعد أن قتل
حاجب الرئيس المذكور واستولى على ملكه وقدم على الغزاة يحيى بن عمر الذي كان معه واختص
ابنه عثمان ثم نكبه ما بعد سنة وقد علا اسم هذا السلطان وامتد نفوذه وسادت كلمته حتى دخل
بنو مرين في طاعته وصار هو الذي يولاهم ويعزلهم وارتفع شأنه وقوى سلطانه حتى فاق ملوك عصره
واسترجع من يد الاسبانول كثيراً كانوا أخذوه من أسلافه بكيان وأبداه وغيرهما من المعاقل
وكان له في الجهاد مواقف مشهورة ودخل قرطبة فعات في فواحشها وخر بها ورجع ظافراً غنائم ومنع
الجزية التي كانت تحصل للملوك الاسبانول بعد أن قهرهم ولما رأى الاضطرابات بين أمراء
الاسبانول اغتتم تلك الفرصة وقوى ثغور بلاده وهو الذي استوزر لسان الدين بن الخطيب
المشهور ولما تشوق إلى استرجاع الجزيرة الخضراء إلى ملكه كاتب ملك مراکش وفاس وكان يومئذ
السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن واتفقا على ان يزحف ابن الاحمر بعساكره ويؤتاه
ملك المغرب بالمال والاساطيل تعذر جمع العسكر عليه اذ ذلك وأعرض صاحب المغرب إلى أساطيله
فجرت وسارت وبعث فيها مالا كثيراً وذاخر وافر ثم زحف ابن الاحمر وحاصر الجزيرة ولما يقن
سلطانها وحاميتها بالهلكة لبعدهم عن الصريح سألوا النزول على حكم السلم فأجابهم السلطان
ابن الاحمر اليه ونزلوا عن البلد (٧٧٠ هـ) ولم تزل الجزيرة تحت نظره إلى أن رأى من المصلحة هدمها
خشية استيلاء القرينج عليها فهدمت (٧٨٠ هـ) وأصبحت خاوية كأن لم تكن بالامس وكانت وفاة
الغني بالله (٧٩٣ هـ) ومن بعده ضعف ملوك بني الاحمر

وقام بالأمر من بعده ابنه يوسف وفي زمنه اختلفت دولة بني الاحمر واستولى القرينج على
كثير من مدنها وقراها وحصونها وجرت فتن وخطوب بين بني الاحمر بطول شرحها وتضعفت أيضا

أركان دولة بني مرين وخرج عليها الثوار من كل ناحية واستطال الاسبانيول والبرتقال على مدن المغرب الساحلية فاستولوا على بعضها وما زال أمر بني الأحمر في تناقص وسطوتهم في انكماش الى أن كانت دولة السلطان أبي الحسن على منهم قنازعه أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المدعو بالزغل لانه لما قدم من بلاد الاسبانيول وكان التجأ اليهم وتمت له البيعة بمالقة ومكث بهامدة اشتد الخلاف وعظمت الفتن بما هو حاصل بين هذين الاخوين عند ذلك وجد العدو فرصة الى تفرق كلمتهم والتمكن من فسخ ذمتهم (٥٨٨٠) وفي آخر الامر انقاد أبو عبد الله لابي الحسن بتوسط رجال الاسلام فسكنت أحوال الاندلس بعض السكون ثم خرج عليه ولده أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن وانضم اليه كثير من أهل الاندلس وأشياخها ولما أسره الاسبانيول في بعض الوقائع تراجع الناس الى طاعة أبي الحسن ثم نزل لآخيه أبي عبد الله الزغل عن الامر لما كف بصره ثم ان ملك الاسبانيول عدلا سيره أبي عبد الله بن أبي الحسن فوعده ومناه كذبا وبهتاناً وأرسله للتشبيب على عمه طلباً لتفريق دولة بني الأحمر وأمدّه بالمال والرجال كي يتم له بذلك ما يريد من الاستيلاء على مملكة المسلمين في تلك الاطراف ثم طالت الفتنة بين العم وابن الاخ وافترق الناس فرقا واضطرب الحبل فكان ذلك من أعظم الاسباب التي أعانت الاسبانيول على التمكن من مملكة غرناطة والتهاهما ثم ان ابن الاخ استولى على غرناطة بينما خرج العم عنها محاربة الاسبانيول وكان ذلك سبباً في خذلان العم الذي احتسب بوادي آس ثم أتى الاسبانيول وحاصروا مالقة ولم يجد أهلها مقدره على القتال نزولاً على الامان فاستولى العدو عليها في أواخر شعبان (٥٨٩٢) ثم استولى بعد ذلك على وادي آس وأعمالها صلحا ودخل في طاعته صاحبها أبو عبد الله العم بعد أن استولى العدو وقواده بالاموال الجزيلة ثم ان ملك الاسبانيول وهو فردينسدا الكاتوليكي راسل أبا عبد الله بن أبي الحسن صاحب غرناطة وعرض عليه الدخول في الخطة التي دخل فيها عمه من النزول له عن البلاد على أموال جزيلة يبدلها له ويكون تحت حكمه وله الخيار في أي بلاد الاندلس شاء ولما شاور رعيته اتفق الناس على الامتناع ومحاربة العدو بكل الممكنات ولما علم الاسبانيول بذلك ضاعفوا استعداداتهم وقوا وجيوشهم وعزموا على منازلة غرناطة بعد أن استولوا أثناء هذه الفتن على حصون كثيرة بحيث لم يبق لبني الأحمر الا غرناطة وأعمالها وفي (٥٨٩٦) أقبل العدو الى خارج غرناطة بالعدد والعدد وكان جيشه يتألف من جيوش قشتاله وأراغون غير المدد الكثير الذي أمدته به أوروبا فافسد الزرع وقطع الاشجار وهدم القرى وكان الناس في أول الامر يظنون انه عازم على الانصراف فاذا به قد صرف عزمه الى الحصار والاقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة أشهر واشتد الحصار بالمسلمين ومع ذلك كان الاسبانيول على بعد من المدينة والطريق بين غرناطة والبشرات متصل بالمرافق والطعام يأتي من ناحية جبل شلير الى أن تمكن فصل الشتاء ونزل الثلج وانسد باب المرافق وانقطع الجلب وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الاماكن خارج البلد وضع المسلمين من الحزن والسبب وضاق الحال (٥٨٩٧) ثم طمع العدو في غرناطة (١) بسبب الجوع والغلاء دون

(١) غرناطة مدينة اسبانيولية بنعم الاندلس قاعدة عمالة مضافة اليها واقعة عند ملتقى نهر شيل بنهر دارو وسط سهل واسع خصب وبكنيستها قبر الملك فردينسدا الكاتوليكي وزوجته ايزابيلا وهو الذي فتح هذه المدينة من يد بني الأحمر كما تقدم في تاريخهم وكان تأسيس هذه المدينة في القرن العاشر قبل الميلاد وكان يسمى هذه المدينة وقت محاصرة

الحرب والقتال وفر ناس كثير من الجوع الى البشرات ثم اشبهت الامرو قتل الطعام وتفانم الخطيب فاجتمع الناس مع من يشار اليه من أهل العلم والوجاهة وتكلموا مع السلطان أبي عبد الله وان العدو يزداد كل يوم وهم لا مدد لهم ولا طعام يأتهم وكانوا يظنون انه ينصرف عنهم فخاب ظنهم فانفق الرأي بعد أخذ ورد على ارتكاب أخف الضررين وشاع ان الكلام في الصلح وقع بين رؤساء الجندين فانفقوا على شروط عقدت بها الطرفين بين (٢) الوثائق ثم قرئت على أهل غرناطة فانقادوا اليها ووافقوا عليها وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم ونزل سلطان غرناطة أبو عبد الله عن الجراء وذهب بعد ذلك الى مراکش فأقام بمدينة فاس في سلطنة السلطان محمد الشيخ الوطاسي كما ذكر في دولة الوطاسيين ولما دخل الاسبانيون المدينة عينوا لها حكاما ومقدمين من طرفهم ثم دخل أهل البشرات أيضا في هذا الصلح وبقي الاسبانيون يراعون الشروط التي اشترطوها على أنفسهم مدة

فريدند وينزابلها مسور حصين به أنف وثلاثون برجاً وكان بها من السكان ما يربو على أربع مائة ألف نفس وكان بها معامل كثيرة لصناعة الأقمشة الحريرية الفاخرة وبعدها استردوها الاسبانيون وطردوا المسلمين منها ثانياً سنة (١٦٠٩ م) فقدت ما كان لها من الأهمية التجارية والصناعية التي كانت حازتها منذ الاسلام ومن الآثار العربية الباقية بهذه المدينة قصر الحمراء وكان مسكن الملوك بني الأحمر وكان غاية في الجمال والزخرفة قال بعض علماء الفرنج انه ليس في إمكان العقل الانساني ان يتخيل أو يبدع أحسن من النقوش والاصباغ التي احتوى عليها قصر الحمراء قال الشيخندي أماغرناطة قلنا دمشق بلاد الاندلس ومسرح الابصار ومطبخ الانفس ولم نخش من أشرف أمثال وعلماء اكبر وشعراء أفاضل ولولم يكن لها الا ما خصها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شنبيل لكفهاها اه ولما استولى الفرنج على معظم بلاد الاندلس انتقل اليها أهلها فصارت المصير المقصود والعقل الذي تنصوي اليه العساكر والمجنود وفي قلبها جبل شلير وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفا ولا شتاء وينسب اليها كثير من أهل العلم ولولم يكن منها الا لسان الدين بن الخطيب لكفهاها خراؤها قال باقوت غرناطة وقيل أغرناطة قال الانصاري وهي أقدم مدن كورة اليريم من أعمال الاندلس وأعظمها وأحسنها وأحصنها يشقها النهر المعروف بنهر قلم في القديم ويعرف الآن بنهر حدارة يلبق منه مصالة الذهب الخالص وعليه ارجى كثيرة في داخل المدينة وقد قطع منه ساقية كبيرة تخترق نصف المدينة فتم حماملتها وسقايتها وكثيرا من دور الكبراء وتسميها الفرنج (Grenade) والاسبانيون (Granada)

(٢) الشروط كانت سبعة وستين شرطاً منها تأمين الصغير والكبير في النفس والاهل والمال وبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورجوعهم وعقارهم ومنها إقامة شربعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشرعته وأن تبقى المساجد كما كانت والوقوف كذلك وان لا يدخل النصراني دار مسلم ولا يغصبوا أحدًا وان لا يولي على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم وان يقتل جميع من أسرى في غرناطة حيث كانوا وخصوصاً أعياناً نص عليهم ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه للملكه ولا لغيره والسلطان يدفع ثمنه للملكه ومن أراد الجواز الى العدو لا يمنع ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد ذلك المدة يعطون عشر ما لهم والكراء وأن لا يؤخذ أحد بدين غيره وأن لا يجبر من أسلم على الرجوع للنصراني فان أبي الرجوع الى الاسلام فعادى على ما أراد ولا يعاتب على من قتل نصرانياً أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصراني أيام العداوة ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصراني ولا يسفر لجهة من الجهات ولا يزدون على المغارم المعتادة وترفع عنهم جميع المطالب والمغارم المحدثة ولا يطلع نصراني السور ولا ينطلع على دور المسلمين ولا يدخل مسجداً من مساجدهم ويسير المسلم في بلاد النصراني آمنًا في نفسه وماله ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدين ولا يمنع مؤذن ولا صائم ولا يصل ولا غيره من أمور دينه ومن ضحك منهم يعاقب ويتركون من المغارم سبنتين معلومة وان يوافق على كل الشروط صاحب روضة ويضع خط يده وأمال هذا مما ركنا ذكره اه

عمر فقال لهم من أنتم قالوا نحن بنو مازيغ وقد ذكر كثير من مؤلفي الفريخ وغيرهم ان مازيس أمية كانت تسكن هذه الجهات

وقال ابن خلدون وأما شعوب هذا الجبل و بطونهم فان علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس و مازغيس ويلقب مازغيس بالابتر فلذلك يقال لشعوبه البسترو يقال لشعوب برنس البرانس وهما معا أبناء بر وشعوب البرانس يجمعهم سبعة أجدام وهي أزداجة ومصمودة وأوربة وعجيسة وكامة وصنهاجة وأدرغية وزاد بعضهم لمطة وهسكورة وكركلة وقد تناسل من هذه الاجدام بطون كثيرة وقسمهم ابن رشيقي الى خمس قبائل وهي غمارة وهوارة وزناتة وصنهاجة ومصمودة

وكان الرومان يسمونهم كذلك وهذه القبائل تنقسم الى أكثر من ستمائة بطن ونفذ أمان مرجع أنساب هذه الامة فقد اختلف فيه المؤرخون قالوا أنهم من العرب وقيل ان البربر أخلطوا من كنعان والعماليق وانهم من بقية قوم جالوت الجبارين الذين قاتلهم داود وطالوت فلما قتل جالوت دخلوا المغرب فخالوا في جبالها وقاتلوا أهلها ثم صالحوهم على شيء يأخذونه منهم من أهل البلاد وقيل لما قتل طالوت وكانت منازلهم في فلسطين تفرقوا في البلاد ونقلهم أفر يقش من سواحل الشام وأسكنهم أفر يقية وسماهم بر براوقيل غير ذلك مما يطول شرحه والاربع على ما ذكر مؤرخو اليونان والعرب واليهود أنهم من فلسطين أو جالية هاجرت من آسيا على طريق أفر يقية الى المغرب وقد أنكر ابن خلدون كل هذه الأقوال وقال أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام وان اسم أبيهم مازيغ وكان البربر قبيل الاسلام دينهم المجوسية شأن الاعاجم كلها بالشرق والمغرب الا في بعض الاحيان يدبون بدين من تغلب عليهم من الامم فان الدول العظيمة كانت تتغلب عليهم وغزتهم ماولك اليمن مراراً فداؤبا بينهم ولما غزاهم أفر يقش اختطوا على الارياف مدناً عظيمة وثيقة المبانى شهيرة الذكرونها المسلمون عند الفتح وكان البربر في الضواحي وراء ملك الامصار المرهوبة بالحامية ماشاء الله في قوة وعدة وعدد ومولوك رؤساء وأقيال وأمرأؤها لا يتالون بذل ولا يتألمهم الروم والفريخ وربما كان بعض هؤلاء البربر يتدبوا بين اليهودية عند استفحال ملك بنى اسرائيل لقرب الشام وسلطانه منهم فلما انجحد ادريس الاكبر بالمغرب محاجب جميع ما كان في نواحيه من بقايا الاديان وقد نال عمال خلفاء بنى أمية من هؤلاء القبائل مشقات عظيمة وطال المنخرجوا على الخلفاء وقتلوا الجيوش ونهبوا الامصار مما هو منذ كور في المطولات وانتشرت بينهم النحل والبذع فتدبوا بها واملوا اليها كما استتف على بعضه ولما ظهرت الدولة العبيدية (٢٩٦ هـ) بظهور أبي عبد الله الشيعي كان ذلك آخر عهد العرب بالملك والدولة بافر يقية وصار الملك للبربر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى وجيلاً بعد آخر داعين تارة للامويين بالاندلس وتارة للعباسيين بالمشرق الى أن استقلوا بالدعوة لأنفسهم كما سيأتي عند ذكر كل دولة من دولهم

أما اخلاقهم فقال ياقوت البربر أجنح خلق الله وأكثرهم طيشاً وأسرعهم الى الفتن وأطوعهم لداعية الضلالة وأصغاهم لثمن الجهالة ولم تخل أجيالهم من الفتن وسفك الدماء قطولهم أحوال عجيبية واصطلاحات غريبة فكهم من ادعى فيهم النبوة فقبلاهم وكم زاعم فيهم انه المهدي الموعود به فاجابوا

دعوته ولذذهب انتحلوا وكم ادعى فيهم مذهب الخوارج فالى مذهبه بعد الاسلام انتقلوا ثم سفكوا
الدماء المحرمة واستباحوا المنكرات ونهبوا الاموال وغير ذلك من القبائح

﴿ الفصل الثانى ﴾

دولة المغرب الاقصى أو مرا كس

وصفها الطبيعي

هذه البلاد واقعة بين الدرجة ٢٨ و ٣٦ من العرض الشمالى والدرجة ٣ و ١٤ من الطول
الغربى وتحد شمالا بالبحر المتوسط الابيض ومضيق جبل طارق وغربا بالمحيط الاطلسى ومن
الجنوب الشرقى بالصحراء الكبرى ومن الشمال الشرقى بوادى ملوية وجبال نازة ويبلغ مسطحها
٨١٥٠٠٠ كيلومتر مربعاً ويزيد عدد سكانها عن ثمانية ملايين وهم أخلاط بين عرب وبربر
وعبيد ما البربر ففهم من المصامدة وعوالم من صنهاجة ومضغرة واوربة وغيرهم لكنهم قليل بالنسبة
الى المصامدة ويساكنهم فيها أيضاً عالم من العرب أهل الخيام انتقلوا من جزيرة العرب الى افرىقية ثم
انتقلوا من افرىقية اليها وأخر المائة السادسة أيام الخليفة يعقوب المنصور الموحدى وهم اليوم
قبائل عديدة يرجعون فى نسبهم الى رياح وجشم فأما رياح ففهم من بنى هلال بن عامر بن صعصعة
وأما جشم ففهم بنو جشم بن معاوية بن بكر وكلهم ينتهى نسبهم الى مضر ويضاف اليهم قبائل أخرى
وتخترقها من الغرب الى الشمال جبال أطلس التى من ضمنها جبل درن وهو أرفعها ويرويها عادة
أنهار منها نهر ملوية وسبو وتنصيف ودرعة وغيرها وهى حارة المناخ صيفاً فى الاودية والسهول ويوجد
بجبالها الحديد والنحاس ومن حاصلاتها الوافرة الحبوب والارز ولاهلها عناية خاصة بتربية الخيل
كعناية أهل المغرب عامة ويكثر فيها الضأن وأصوافه جيدة ناعمة وبها كثير من الاشجار المثمرة كالبوط
والفلين والصنوبر والقسق والارز والخيل وقصب السكر وكثير من منسجها معامل واسعة لا بدغ
الجلود المعتبرة ونسج الاقشة الصوفية الجيدة وديانة السكان هى الاسلام وبينهم كثير من اليهود
استوطنوها بعد أن طردهم الاسبانيون من بلادهم وهى تنقسم الى جملة عمالات لكل عمالة حاكم
مخصوص ولها جيش يبلغ نحو ٢٠,٠٠٠ جندي غالبهم من السودان وكلهم خيالة تقرباً وملكها
مستقل مطلق التصرف فى الامور السياسية وكانت هذه البلاد تدعى قديماً موريتانياً أخضعها
على التعاقب القرطاجنيون والرومان والوندال والاعراب ثم العرب

وقد اشتهرت هذه المملكة قديماً بالاعمال البحرية أثناء الدولة العلوية والاموية ودولة المرابطين
والموحدين والاشراف وكانت سفنهم تجول على الدوام بجهات المحيط الاطلسى وتردد على
جزائر الخالدات (قناريا) وافتتحت أساطيلها خصوصاً أساطيل الموحدىن جزائر مورقورقة ومنورقة
وقورسقة ومدينة جنوة وهددت كثير من سواحل أوروبا واستولت مراراً على ثغر الاسكندرية
وحاربت فى وقائع بحر شهيرة بسواحل بلاد الاندلس وغيرها ولما تهاقرت صارت ثغورها البحرية
مأوى لكثير من سفن القرصان الذين طالما غزوا فى البحار وهددوا تجارة أوروبا بالبحر الابيض
المتوسط خصوصاً

﴿ الفصل الثالث ﴾

ثغور مراکش البحرية

أشهر الميناء بهذه المملكة الآن هي طنجة واقعة على الخليج المضاف إليها على بعد مائتي كيلومتر من جنوبي جبل طارق وبها قلعة وقصر عظيم وبعض بطاريات مدفعية لاداء الرسوم المتبعة وهي مقر قناصل الدول الأجنبية ولها تجارة واسعة وقد شيد هذه الفرضة القرطاجنيون مدة دولتهم وسلا وهي فرضة حصينة على المحيط الاطلانطي عند مصب نهر بورغرب على ضفته الشمالية

تجاه مدينة الزباط أهلها يبلغون عشرة آلاف أكثرهم من نسل إسلاام اسبانيا وهي مسورة وأهم صادراتها الصوف وميناء صغيرة لاتج فيها السفن الكبيرة وكانت في أواخر القرن الثامن عشر من الميلاد ملجأ للقرصان ودمرها الفرنسيون (١٨٥١ م) وخرّبوا أكثرها ومنها الى مراکش عشر مراحل وكان بها في دولة الموحدين دار صناعة عظيمة بناها المعلم أبو عبد الله محمد بن علي من أهل اشبيلية وكان من العارفين بالبحل الهندسية ومن أهل المهارة في نقل الاجرام ورفع الاثقال بصيرا باتخاذ الآلات الحربية الجافية واصملا أو أزيله أو أرسلا (بولياز بليس القديمة) واقعة على بعد ٤٤ كيلومترا من طنجة الى الجنوب الغربي عدد سكانها عشرة آلاف وهي الآن محصنة وكان لها أهمية في مسدة الرومان خربها الاسبانيون (١٨٦٠ م) بمدافعهم وعرفت قديما ببصرة المغرب وقال ابن خلدون انها كانت معرضا للغزاة من ملوك البربر

وسبتة أوسوتا وهي الآن لاسبانيا محصنة على السواحل الشمالية تجاه مدينة جبل طارق تبعد عنها ١٧ ميلا سكانها نحو عشرة آلاف وهي على شبه جزيرة متصلة بمرراکش ببرزخ ضيق حصين وهي جيدة البناء وبها يقوم حاكم عسكري ورئيس لسجون اسبانيا بسواحل أفريقيا أما مرفؤها فغير أمين وتجارها قليلة استولى عليها فيليب الثاني ملك اسبانيا (١٥٨٠ م) وقد حاصرها أهل مراکش مرارا فتعسرت فتحها عليهم وفي أوائل القرن التاسع عشر استولت عليها الجيوش الانكليزية مدة قصيرة ثم ردوها لاسبانيا وكانت مرساهة في صدر الاسلام أجود مرسى على البحر كما قاله ياقوت وينسب إليها جماعة من أعيان أهل العلم وكانت حين فتح الاسلام لهذه البلاد منزل يليان ملائمة فآبوه عليها بعد أن عاهدتهم ولما هلك بليان استولى العرب عليها صلحا من أيدي قومه فحرقوها

وتطوان وهي فرضة بولاية فاس في الطرف الغربي من البحر المتوسط على بعد ٣١ ميلا من سبتة الى الجنوب الغربي وعدد سكانها نحو ٢٠٠٠٠ نفس وهي على بعد سبعة فراسخ من جبل طارق ويحيط بها سور يعاونه أبراج ولها قلعة حصينة وبها ميناء جميلة وجوامع فاخرة يبلغ عددها نحو أربعين جامعاً وميناءها مكشوف ليس بهما بقيقه من جهة الشرق ولا يصلح الا للسفن الصغيرة وفي البلدة معامل للجادو والسيوف والاسلحة النارية ولها تجارة واسعة بداخل البلاد وتأخذ منها مدينة طارق كل ما يلزم لها من الاقوات استولى عليها الاسبانيون عنوة (١٨٦٠ م) الأنهم تركوها في السنة التالية

وأغاديروهي أقصى فرض مرا كش الى الجهة الجنوبية واقعة على المحيط الاطلا نطيق ببلاد السوس وسكانها نحو ستة آلاف نفس ومرفؤها أحسن مرفأى مرا كش استولى عليها البورتقاليون مدة طويلة وسموها ساتا كروس ثم غلبهم عليها المغاربة (١٥٣٦ م) فطردوهم منها وكانت كبيرة محصنة لأنها نارت على السلطان محمد (١٧٧٣ م) ففتحها وخر بها ونقل سكانها الى مغادور

وميلاهي فرضة صغيرة على البحر المتوسط الابيض تبعد عن فاس ٢٢٥ كيلومترا وعن سبتة بنحو خمسين كيلومترا وسكانها لا يزيدون عن ألفي نفس بما في ذلك حاميتها من الاسبانول وتشتهر بالعل الجيد وهي تابعة لاسبانيا من (١٤٩٦ م) وقد جعلوا منقيا لاصحاب الجرائم عندهم وكانت تسمى قديما روساديركولونيا

ومغادور وهي مدينة حصينة لها مرفأ جيد على المحيط الاطلا نطيق تبعد عن مرا كش بنحو ٢١٨ كيلومترا وسكانها يبلغون ١٨٠٠٠ نفس بينهم كثير من اليهود وبها قصر للملك ومعامل للجلود والاقشة الصوفية والحربية ومعامل للأسلحة ومن صادراتها زيت الزيتون واللوز والصوف والجلود والشمع وريش النعام وغيرها أسسها السلطان محمد بن عبد الله سنة (١١٧٤ هـ) (١٧٦٠ م) وقد حارب الفرنسيون بعضها (١٨٤٤ م) ويوجد ببلاد مرا كش مرفأى وثغور بحرية أخرى لكنها قليلة الأهمية مثل نغراسني وأزمور والممور وغيرها

الفصل الرابع

ملخص تاريخ مرا كش قبل الاسلام

علم الفينيقيون هذه البلاد قبل الميلاد بنحو ١٥٠٠ سنة وكان انذاك يحكمها ملوك مستقلون من أهاليها من منذ العصر القديعة ومن أشهرهم ذ كرافي التاريخ جو غورطاو في سنة (٣٠٠ م) أعطى أغسطس قيصر لملكها جوبا بلاد الجيتول وهم أمم بربرية كانت تسكن تلك الجهات قديما ولما استولى عليها أهل قرطاجنة كان لهم بثغورها عدا أساطيل وعمدتها جنود للحفاظة والحماية ولما اتسع نطاق الدولة الرومانية بالتغلب على أملاك قرطاجنة دخلت مرا كش في قبضة الدولة المذكورة (٤١ م) وكان ذلك في عصر الامبراطور فلوديوس وتحت قيادة سويتونيوس بولينوس وسموها موريتانيا وكانوا يقسمون القسم الخاضع لهم منها انذاك الى ثلاثة اقسام وهي موريتانيا القيصرية وقاعدتها قيصرية (شيرشيل بجمالة الجزائر) وموريتانيا السينيقيانية وقاعدتها سينيقيس (ستيف) بجمالة قسطنطينية وموريتانيا الغربية أو موريتانيا التانجيتانية وقاعدتها تيجيس (طنجة) وفي القرن الرابع من الميلاد لما انقسمت دولة الرومان الى قسمين ضموا القسمين الاولين الى ابريشية افرريقية والقسم الثالث الى ابريشية اسبانيا وحدث بها بعد ذلك عدة ثورات متوالية بقصد التخلص من رق عبودية الرومان ثم أعار عليها الوندال (٤٢٩ م) وذلك انه لما حصل النفور بين ايسوس وبونيفاس وهما من مشاهير الرومانيين وأصحاب النفوذ والكلمة بالدولة وشي ايسوس بخصمه عندا يلا كيديا النائبة في السلطنة عن ابنها الصغير فالتنينا نوس الثاني

وكان بونيفاس حينئذ حاكماً أفريقيّة فلما أرسلت الملكة تدعوه إليها أرسل اليه ابيميوس سرّاً يعلمه بأن الملكة عزمت على الايقاع به وبغيره بالتخلص من ذلك بشق عصا الطاعة فكبر هذا الامر على بونيفاس وأعلن العصيان لكن لما لم يكن عنده العدد الكافي من الجنود للمدا فعمهم استعان بالونداليين غير ملتفت لنصيحة من نصحه بان ذلك فيه الوبال على الدولة وكان ملك تلك الامّة يدعى اذذاك جنسريك فكان هذا الامر أشهى ما يتبعه وبادر باقتنাম الفرصة للدخول في ذلك الاقليم الغني فاجتاز هو وجنوده وكانت عدتهم ٤٠ ألف محارب مضيق هرقل (جيسل طارق) واستعانوا بأقوام من الالهالي وانضم الي جيشهم كل مبعوض للرومان

ولما علمت ابلا كيديا بان ما فعلته خطأ أرسلت الي بونيفاس تعفوه عنه أما هو فاجتهد في رد تلك المصيبة عن بلاد افريقية بالصلح والمسالمة فذهبت مساعيه أدراج الرياح ثم أرسل الي جنسريك يتوعده ويتهدده ان رفض الصلح فاحتقر جنسريك تهديده وتحصن بونيفاس في احدى المدن المنيعه وصد الوندال عن قصدهم نحو أربعة عشر شهراً وفي تلك الاثناء أرسلت القسطنطينية عمارة بحرية وجنود المساعدة بونيفاس على حرب هؤلاء المتوحشين وكان على تلك الجيوش قائدان اشترا بالشجاعة وحسن الرأى ولكن تلك المعاونة لم تفد فائده ولم تأت بالنجاح المطلوب فلم يمكن لهؤلاء الابطال الثلاثة الذين كانت أعمالهم منصرفة لحماية الدواتين تحليص الاقليم فترك بونيفاس افريقية (٤٣١ م) وبعد ذلك بقايل اضطر فالنتيانوس على ترك هذا الاقليم للوندال (٤٣٥ م)

ثم أغار جنسريك على المدن والبلدان التي كانت تابعة للرومان في افريقية واستولى عليها ودخلت افريقية الرومانية كلها تحت تسلط الوندال ومخرت سفنهم العديدة في البحر المتوسط الابيض وبحر الظلمات وافتتحت أهم جزره وتناولت على أساطيل القسطنطينية نخشى بأسهم الدولتان لان جنسريك حث الويزيغوط على مقاتلة رومان المغرب والاستروغوط على رومان المشرق ولما استحكمت العداوة بين الوندال والرومان أغار الوندال تحت قيادة جنسريك على رومية واستولوا عليها ومكث النهب بها مدة خمسة عشر يوماً وأسروا من أهلها نحو ستين ألفاً منهم زوجة فالنتيانوس وبتناها ومكث جنسريك أكثر من عشرين سنة قاهراً منصوراً حتى ارتعدت منه فرائص سلطنة المغرب والمشرق وحرقت وشتت الاساطيل التي أرسلت لمقاتلته ولمامات (٤٧٧ م) صارت مملكة الوندال دائماً الاضطراب بثورات المغاربة وبجشهم على خلع طاعة الوندال الى أن أعاد القائد الشهير بليزيا فرريقية الغربية الى حكم قياصرة القسطنطينية (٥٤٤ م) وما زالت بلاد افريقية تابعة لدولة القسطنطينية حتى ظهر الاسلام وفتحت جيوشه معظم الاقطار وأخضعت لحكمه الملوكة والقيصرة

(الفصل الخامس)

دخول الاسلام بلاد مراكش

الدول الاسلامية التي قامت بمراكش لما تقدمت جيوش العرب بالفتح الاسلامي في خلافة عمر رضى الله عنه وفتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية وفرغ منهم ماسارفي (٥٢١ هـ)

وافتح برقة المسماة انطا بوليس أو بنطا بوليس وصالحه أهلها على الجزية ثم تقدم إلى طرابلس واستولى عليها بعد أن حادرها وافتتح صبرة ولما فرغ من ذلك استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التقدم إلى افر بيقية فتمعه فامثل وعاد إلى مصر فكان عمرو بن العاص أول أمير للمسلمين وطئت خيله أرض المغرب لكنه لم يصل إلى افر بيقية ولا كان من البربر اسلام ولما كانت خلافة عثمان رضي الله عنه وتولية عبد الله بن أبي سرح على مصر سار إلى افر بيقية (٢٦ هـ) لغزوها بأمر من الخليفة الذي قال له ان فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم فاستعد عبد الله في جيش يبلغ ١٠٠٠٠ مقاتل وخرجوا إلى افر بيقية وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يتسددوا على التوغل فيها الكثرة أهلها ثم ان عبد الله بن أبي سرح استأذن عثمان رضي الله عنه في ذلك واستمه فاستشار عثمان رضي الله عنه المحبابة فأشاروا به فجهز العساكر في المدينة وفيهم جماعة من الصحابة ثم ساروا مع عبد الله ابن سعد (٢٦ هـ) ولقيهم عقبة بن نافع فمين معه ببرقة ثم ساروا إلى طرابلس فأوقعوا بجيش للروم عندها ثم تجاوزوها إلى افر بيقية وبنوا السرايا في كل ناحية وكان على تلك البلاد حاكم من طرف مالوك القسطنطينية يقال له جرجير يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل إليه الخراج فلما بلغه الخبر جمع ١٢٠٠٠٠ من العساكر ولقيهم قريمان من سبيطة دار ملكهم وأقاموا يقتلون ودعوه إلى الاسلام أو الجزية فاستكبر ثم كانت الدائرة على الروم فانهزموا وقتل منهم كثير منهم جرجير ثم حاصر ابن أبي سرح سبيطة ففتحها بعد وقائع يطول شرحها صالحه أهل افر بيقية على ألف وخمسمائة ألف دينار فعلت كعب الاسلام في تلك الجهات وانساحوا في البسائط بالغارات ثم رغب الفريق والبربر في السلم وسألوا الصلح وشرطوا لابن أبي سرح ثلثمائة قنطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب ففعل ثم رجع المسلمون إلى المشرق بعد مقامهم بافر بيقية سنة وثلاثة أشهر ولما بلغ هرقل ملك الروم أن أهل افر بيقية صالحوا المسلمين بذلك القدر الجسيم من المال غضب وبعث بطر يقا يأخذ منهم مثل ذلك فامتنعوا فخار بهم وهزمهم وطرد الملك الذي ولوه عليهم بعد جرجير

ثم ان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ولى المغرب معاوية بن حديج السكوني وأرسل معه جيشا ضمما (٤٥ هـ) فقاتل الروم وقهرهم رغا عن الامدادات التي أتت لهم بطريق البحر من القسطنطينية وافتتح معاوية أيضا سوسة وغيرها ثم وجه جيشا في البحار إلى صقلية في مائتي مركب فأئخنوا فيها ثم فتح نيزرت وظهر الاسلام في البربر ثم عاد إلى مصر بعد أن تاراح سنة ثم عزله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عن افر بيقية وأقره على مصر فقط وولى افر بيقية عقبة ابن نافع الفهري (٥٠ هـ) استقل لا وبعث معه عشرة آلاف فارس فدخل عقبة افر بيقية بعد رجوع معاوية بن حديج عنها وانضاف اليه من أسلم من البربر فكثرت جمعه ووضع السيف في أهلها لانهم كانوا اذا جاءت عسكر المسلمين أسلموا فاذا رجعوا عنها ارتدوا كما قلناه فيما تقدم

ثم رأى عقبة أن يتخذ مدينة يعتصم بها جيش المسلمين من البربر ويقام بها الجمع والاعياد فاستشار من معه فقالوا نحن أصحاب لبل ولا حاجة لنا بجواردة البحر فتسوط علينا الا فرنج فانظرنا

بنظر الله ثم شرع في بناء القبر وان وقال هذه أوسع لابلتكم وآمن عابكم من روم القسطنطينية
 وافرنج الجزيرة وبنى بها المسجد الجامع وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم وكان دورها ثلاثه
 آلاف باع وستمائة باع وكتبت في خمس سنين (٤٥ - ٥٥) ثم عزله معاوية عنها وولى على مصر
 وافريقية مسلمة بن مخلد الانصاري فاستعمل مسلمة على افريقية مولداً بالمهاجر دينار (٥٥٥)
 فقدم القبر وان ولم يرض أن ينزلها لشيء كان بينه وبين عقبه ثم حصل بين أبي المهاجر وكسيلة
 الأريبي أحد عظماء البربر وقد تقدم خبره في زمن الفتح حرب فهزمه أبو المهاجر حول تلمسان وعسكر
 من البلاد وظفر بكسيلة فأظهر الاسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه وهو أول أمير للمسلمين
 وطئت خيله المغرب الاوسط

ولما توفي معاوية بن أبي سفيان وولى بعده ابنه يزيد بعث عقبه بن نافع والباع على المغرب (٦٢)
 مرة ثانية ولما قدم القبر وان استخلف زهير بن أبي قيس البلوي على القبر وان وخرج في جيش
 كثيف ففتح وغزا وفتح بلاد البربر ففتحاً ثانياً وصالح أهل فزان وسار الى الزاب وتاهرت فشتت جموع
 البربر ومن انضم اليهم من القرينج ثم تقدم الى المغرب الاقصى فأخذ في أهله الى أن وصل الى البحر
 المحيط فكان عقبه أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الاقصى وأذعن له بلدان أمير غمارة ولاطفه
 وهاداه ودله على عورات البربر وبلاد المصامدة والسوس فتوجه عقبه نحوهم وكانوا كاليها ثم على
 دين المجموسية فنزل على مدينة وايلجى (قصر فرعون) وهو يومئذ من أكبر مدن المغرب فاقتحمها
 ثم توجه الى بلاد السوس وهزم البربر واتبعهم الى صحراء المتونة ثم عطف عقبه على ساحل البحر
 المحيط فأنتهى الى بلاد أسنى وأدخل قواهم فرسه في البحر ووقف ساعة ثم قال لأصحابه ارفعوا أيديكم
 ففعلوا ثم قال اللهم اني لم أخرج بطرا ولا أشرا وانك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين
 وهو ان تعبد ولا يشرك بك شيء اللهم اتمامدافعون عن دين الاسلام فمكن لنا ولا تمكنا علينا
 يا ذا الجلال والاكرام ثم انصرف راجعا

وكان كسيلة الأريبي المتقدم الذي ذكر في جيش عقبه قد استعجمه في غزواته وكان يستعين به
 ويتهتمه بمخالفات ودية أبي المهاجر فلما قفل من غزواته هذه صرف العساكر الى القبر وان أفواجا
 ثقة بعداد وخ من البلاد وأذل من البربر حتى بقي في قليل من الجند فطمع فيه أعداؤه وراسلوا كسيلة
 واجتمعوا واتبعوا أثر عقبه وأصحابه حتى إذا لحقوهم ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم وما
 زالوا يقاتلون البربر حتى قتلوا عن آخرهم وكانوا زهاء الثلاثمائة من الصحابة والتابعين ولا تزال مقابرهم
 لئلا ينبت تلك الجهات من المزارات المباركة وبعد الواقعة زحف كسيلة على القبر وان وكانت دار
 الامارة بالمغرب يومئذ وبها جمهور العرب ووجوه الاسلام فبلغهم الخبر وعظم عليهم الامر
 فقام زهير بن قيس البلوي فيهم خطيبا مشجعا محرضا خالفه حنسن بن عبدالله الصنعاني لانه
 لما رأى ان لا طاقة للمسلمين على مدافعة البربر وان التجاة أولى نادى في الناس بالرحيل فاتبعوه
 الاقليتهم منهم وبقي زهير في أهل بيته ثم اضطر الى الخروج وسار الى برقة فأقام بها مطلقا على المغرب
 ومنتظر المدد من الخلفاء

أما كسيلة فاجتمع عليه جميع أهل المغرب من البربر والفرنجية وعظم أمره واستولى على
 القبر وان (٦٤) وفر منها بقية العرب فلحقوا بزهير ولم يقيم بها إلا أصحاب الذراري والانتقال

فأتمهم كسيلة وثبت قدمه بالقيروان واستمر أميراً على البربر ومن بهامن العرب خمس سنين ووافق ذلك مهلك يزيد بن معاوية وقتنه الضحالك بن قيس وحروب آل الزبير واضطراب أمر الخلافة بالمشرق وما زال الأمر على ذلك حتى استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة وأذهب آثار القنتمن المشرق فالتفت إلى المغرب وتلافي أمره فبعث إلى زهير وكان لا يزال مقيمًا بقرعة فمذمه لك عقبة كما مر بالمدد وولاه حرب البربر وأمره بامتخاذ القيروان من يد كسيلة المتغلب وحضه على الطلب بدم عقبة وكان أمده بالمال ووجوه العرب وفرسانها فزحف زهير إلى المغرب (٦٩ هـ) وجمع له كسيلة سائر البربر والتقى معه بمكان يقال له ممس من نواحي القيروان ثم انهزمت البربر بعد حروب شديدة وقتل كسيلة ومعه وجوه من البربر ومن لا يحصى من عامتهم واتباعهم العرب إلى وادي ملوية وفي هذه الواقعة ذل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم وبادت شوكتهم واضمحلت أمر الفرنجة وحظف البربر من العرب خوفًا شديدًا فالتجؤا إلى الحصون وقلل الجبال واستقر جمعهم بديار المغرب الأقصى وملكوا مدينة ويلي ولم يكن لهم بعدها هذه الواقعة ذكر إلى أن قدم عليهم ادريس بن عبدالله فقاموا بدعوته

وفي اثنا عشر رجوع زهير إلى المشرق وجد أسطول الروم يقاتل برقة وبأيديهم أسرا من المسلمين فاستغاثوا به وهو في قليل من أصحابه وقاتل الروم حتى قتل وقتل معه جماعة من أشرف أصحابه ونجا الباقون إلى دمشق فأخبروا الخليفة عبد الملك بما وقع وبذلك اضطربت أحوال المغرب وقامت بها الفتن وافترق أمر البربر وتعددت سلطنتهم وكان من أعظمهم شوكة ملكة يقال لها داهية كانت تدعى التكهين وعلم الغيب فبعث عبد الله بن مروان إلى عامله على مصر حسان بن النعمان الغساني بأمره بجهاد البربر وبعث إليه بالمدد فزحف إليهم (٦٩ هـ) في ٤٠,٠٠٠ مقاتل ولما دخل القيروان واستراح بها هو وجنوده من عناء السفر خرج يريد قرطاجنة وكانت أعظم مدن المغرب فاقتحمها وكانت منبوعة بها مالا يحصى من جموع الفرنج والروم وقتل أكثر من بها ونجا فلهم في المراكب إلى صقلية والاندلس ثم أمر بتخريبها واعفأ رسمها ثم تقدم وتقابل مع الفرنج والبربر عند بنزرت وهزمهم ثم قصد بعد ذلك الكاهنة داهية وزحفته إلى فافتتلوا أمام جبل أوراس حيث مسكنها قتالا شديدا ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير ولم تنزل الكاهنة والبربر في اتباع حسان والعرب حتى أخرجوهم من عمل قابس ولحق حسان بعمل طرابلس فلقية هنالك كتاب عبد الملك بأمره بالمقام حيث يصله كتابه فأقام ببرقة وبنيها قصوره المعروفة وأخذت الكاهنة في اخراج العرب عن بلاد المغرب وأمرت بتخريب المدن والحصون والمزارع والمرعى لقطع أطماع العرب وكانت شيأ يفوق الحصر والوصف كما قاله ابن خلدون وغيره فخربت ديار المغرب ومحت جماله فسحق ذلك على البربر واستأمنوا إلى حسان ولما أتى المدد إلى حسان وجد السبيل إلى تفريق أمرها ثم دس عليها من أعلمه بجهاها ثم زحف إلى الغرب (٧٤ هـ) فأوقعها ويجمعها وقتلها واقتحم جبالها عنوة واستأمن إليه من سلم من القتل ثم أسلموا وحسن إسلامهم ثم انصرف حسان إلى القيروان مؤيدًا منصورًا وثبت ملكه واستقام أمره فدون الدواوين وكتب الخراج على عجم أفريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر وفي هذا الوقت أوعز إليه الخليفة عبد الملك بالتخاذل الصناعة حرصا على مرام الجهاد كما سبق في المقدمة واستمر حسان واليساعلى المغرب

الى أن عزله عبد الله بن مروان صاحب مصر وكان أمر المغرب اذذاك اليه فاستخلف على المغرب رجلا من جنسده وارتحل الى المشرق بما جمعه من نفائس الذخائر ورائع السبي ثم قدم على الخليفة بدمشق وهو يومئذ الوليد بن عبد الملك

ولما ارتحل حسان بن النعمان الى المشرق اختلفت أيدي البربر فيما بينهم فكثرت الفتن وخلت أكثر البلاد فكتب الخليفة الوليد بن عبد الملك الى عمه عبد الله بن مروان وهو على مصر أن يبعث موسى بن نصير الى أفريقيا فبعثه عبد الله فقدم القيروان وبها صالح خليفة حسان فعزله ورأى أن البربر قد طمعت في البلاد فوجه بالبعوث الى النواحي وبعث ابنه عبد الله في البحر الى جزيرة ميورقة فغتم وسبي ثم خرج موسى غازيا وتبع البربر وتوغل في جهات المغرب حتى انتهى الى السوس الأدنى ثم تقدم الى سبتة فصانعه صاحبها يلبان وأذن للجزية وكان نصرانيا فأقره عليها واسترهن ابنه وأبناء قومه على الطاعة ثم غزا طنجة وافتتح درعة (١) وصحراء تافيلت (٢) (٥٨٨) وولى على طنجة طارق بن زياد الليثي وأزله معه ٢٧٠٠٠ من العرب ١٢٠٠٠٠ من البربر ثم كان بعد ذلك خيرا ففتح جزيرة الاندلس كما تقدم لك في خلافة الوليد من بني أمية أما حال البربر فلم يستقر اسلامهم وبهدأ بالهم حتى عبر موسى بن نصير البحر الى الاندلس وأجاز معه كثيرا من رجالات البربر برسم الجهاد فاستقر واهناك حينئذ استقر الاسلام بالمغرب وأذن عن البربر لحكمه وتناسا والردة ثم نبضت فيهم عروق الخراجية كما سيأتي ولما ارتحل موسى بن نصير الى المشرق ونكبه الخليفة سليمان وعزل ابنه عبد الله عن المغرب وكان ولده إياه بعد عودته وولى مكانه محمد بن يزيد (٩٧ ٥) وكان الخليفة قد أمره باستئصال آل موسى بن نصير واصطلام نعمتهم فأتى على ذلك

وكان محمد هذا عاد لاحسن السيرة قاتل المخالفين بشغور المغرب ولم يزل واليا عليها حتى مات في ولايته وبعدها صارت بلاد الاندلس تابعة في الحكم لعامل افرريقية وبعده ولى عمر بن عبد العزيز على المغرب اسمعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر فقدم القيروان (١٠٠ ٥) وكان خيرا أمير وخيرا وال أسلم على يده البربر جميعهم وبث فيهم من علمهم أمور الدين ولما تولى الخلافة يزيد ابن عبد الملك ولى على المغرب يزيد بن أبي مسلم مولى الخجاج الظالم المشهور فأساء السيرة ووجه عنبسة بن سحيم الكلبي واليما من قبله على الاندلس ثم نار أهل المغرب بأبي مسلم فقتلوه (١٠٢ ٥) ولولا عليهم محمد بن يزيد ثابته وكان غازيا بصقلية وكتبوا الى الخليفة يعلمونه بما فعله يزيد الثقفى وما فعلوه به فأقرهم على ذلك ثم ولى عليهم بشر بن صفوان الكلبي وكان واليا على مصر (١٠٣ ٥) فهدم المغرب وسكن أرجاءه واستصطفى بقايا آل موسى بن نصير ثم وفد على

(١) قال ياقوت هي مدينة صغيرة بالقرب من جنوبي الغرب بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ ودرعة تغريبها واكثر تجارها يهود وأكثر غمرها القصب اليابس جدا ينسحق اذا دق وينسب الى درعة محمد بن ناصر الدرعي العربي النحوي مجدد الطريقة الشاذلية وله عندهم شهرة عظيمة وغيره من العلماء والفضلاء

(٢) أو تافيلت أو طفيلات قسم من مراكش واقع في الجهة الجنوبية الشرقية من جبال أطلس خصيب الاراضي يرويه نهران وقلما يقع فيه مطر وأهم حاصلات سكانه التمر ومن مدنه أبوان ورساني وبين تافيلت ومراكش والجزائر والسودان تجارة مهمة وربما كانت هذه البلاد هي مملكة سجلماسة القديمة

فأتمهم كسيلة وثبت قدمه بالقيروان واستمر أميراً على البربر ومن بهامن العرب خمس سنين ووافق ذلك مهلك يزيد بن معاوية وقتنة الضحالك بن قيس وحر و آل الزبير واضطراب أمر الخلافة بالمشرق وما زال الأمر على ذلك حتى استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق فالتفت إلى المغرب وتلافى أمره فبعث إلى زهير وأمره فبعث إلى زهير وكان لا يزال مقيمًا ببرقة منذ مهلك عقبة كما مر بالمقدون وولاه حرب البربر وأمره باستنقاذ القيروان من يد كسيلة المتغلب وحضه على الطلب بدم عقبة وكان أمده بالمال ووجهه العرب وفرسانها فزحف زهير إلى المغرب (٦٩ هـ) وجمع له كسيلة سائر البربر والتقى معه بمكان يقال له عس من نواحي القيروان ثم انهزمت البربر بعد حرب شديدة وقتل كسيلة ومعه وجوه من البربر ومن لا يحصى من عامتهم واتبعهم العرب إلى وادي ملوية وفي هذه الواقعة ذل البربر وفيت فرسانهم ورجالهم وبادت شوكتهم واضمحلت أمر الفرنجة وخاف البربر من العرب خوفاً شديداً فالتجؤا إلى الحصون وقلل الجبال واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى وملكوا مدينة ويلي ولم يكن لهم بعد هذه الواقعة ذكر إلى أن قدم عليهم ادريس بن عبد الله فقاموا بدعوته

وفي اثنا رجوع زهير إلى المشرق وجد أسطولاً للروم يقاتل برقة وبأيديهم أسرا من المسلمين فاستغاثوا به وهو في قبيل من أصحابه وقاتل الروم حتى قتل وقتل معه جماعة من أشرف أصحابه ونجا الباقون إلى دمشق فأخبروا الخليفة عبد الملك بما وقع وبذلك اضطربت أحوال المغرب وقامت بها الفتن وافترق أمر البربر وتعددت سلطنتهم وكان من أعظمهم شوكة ملكة يقال لها داهية كانت تدعى التكهين وعلم الغيب فبعث عبد الله بن مروان إلى عامله على مصر حسان بن النعمان الغساني بأمره بجهد البربر وبعث إليه بالمدد فزحف إليهم (٦٩ هـ) في ٤٠٠٠٠ مقاتل ولما دخل القيروان واستراح بها هو وجنوده من عناء السفر خرج يدقرطاجنة وكانت أعظم مدن المغرب فاقتحمها وكانت متبعة بها ما لا يحصى من جوع القرص والروم وقتل أكثر من بها ونجا فلهم في المراكب إلى صقلية والاندلس ثم أمر بتخريبها واعفاه رسمها ثم تقدم وتقابل مع الفرنج والبربر عند بنزرت وهزمهم ثم قصد بعد ذلك الكاهنة داهية وزحف إلى الكاهنة فقتلها وأوراس حيث مسكنها قتلاً شديداً ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير ولم تزل الكاهنة والبربر في اتباع حسان والعرب حتى أخرجوهم من عمل قابس ولحق حسان بعمل طرابلس فلقبه هنالك كتاب عبد الملك بأمره بالمقام حيث يصله كتابه فأقام ببرقة ونجا بقصوره المعروفة وأخذت الكاهنة في اخراج العرب عن بلاد المغرب وأمرت بتخريب المدن والحصون والمزارع والمراعى لقطع أطماع العرب وكانت شياً يفوق الحصر والوصف كما قاله ابن خلدون وغيره فخرت ديار المغرب ومحت جماله فشق ذلك على البربر واستأمنوا إلى حسان ولما أتى المدد إلى حسان وجد السبيل إلى نفيهم أمرها ثم درس عليها من أعلمه بمجالها ثم زحف إلى المغرب (٧٤ هـ) فأوقع بها ويجموعها وقتلها واقتحم جبلها عنوة واستأمن إليه من سلم من القتل ثم أسلموا وحسن إسلامهم ثم انصرف حسان إلى القيروان مؤيداً منصوراً وثبت ملكه واستقام أمره فدون الدواوين وكسب الخراج على عجم أفريقيا ومن أقام معهم على النصرانية من البربر وفي هذا الوقت أو عزاليه الخليفة عبد الملك باتخاذ الصناعة حرصاً على مراسم الجهاد كما سبق في المقدمة واستمر حسان والياعلى المغرب

الى أن عزله عبد الله بن مروان صاحب مصر وكان أمر المغرب اذذاك اليه فاستخلف على المغرب رجلا من جنسده وارتمل الى المشرق بما جمعه من نفائس الذخائر ورائع السبي ثم قدم على الخليفة بدمشق وهو يومئذ الوليد بن عبد الملك

ولما ارتحل حسان بن النعمان الى المشرق اختلفت أيدي البربر فيما بينهم فكثرت الفتن وخلت أكثر البلاد فكتب الخليفة الوليد بن عبد الملك الى عمه عبد الله بن مروان وهو على مصر أن يبعث موسى بن نصير الى أفريقيا فبعثه عبد الله فقدم القيروان وبها صالح خليفة حسان فعزله ورأى أن البربر قد طمعت في البلاد فوجه البعوث الى النواحي وبعث ابنه عبد الله في البحر الى جزيرة ميورقة فغتم وسبي ثم خرج موسى غازيا وتبع البربر وتوغل في جهات المغرب حتى انتهى الى السوس الأدنى ثم تقدم الى سبتة فصانعه صاحبها يليان وأذن للجزية وكان نصرانيا فآقره عليها واسترهن ابنه وأبناه فومه على الطاعة ثم غزا طنجة وافتتح درعة^(١) وصحراء تاغلبت^(٢) (٥٨) وولى على طنجة طارق بن زياد البليبي وأنزل معه ٢٧٠٠٠ من العرب ١٢٠٠٠٠ من البربر ثم كان بعد ذلك خيرا ففتح جزيرة الأندلس كما تقدم لك في خلافة الوليد من بني أمية أما حال البربر فلم يستقر اسلامهم وهمسأبالهم حتى عبر موسى بن نصير البحر الى الأندلس وأجاز معه كثيرا من رجالات البربر برسم الجهاد فاستقر واهتلك حينئذ استقر الاسلام بالمغرب وأذن البربر لحكمه وتناسا والردة ثم نبضت فيهم عروق الخارجية كما سيأتي ولما ارتحل موسى بن نصير الى المشرق ونكبه الخليفة سليمان وعزل ابنه عبد الله عن المغرب وكان ولاة إياه بعد عودته ولى مكانه محمد بن يزيد (٩٧) وكان الخليفة قد أمره باستئصال آل موسى بن نصير واصطلام نعمتهم فأقى على ذلك

وكان محمد هذا عاد لاحسن السيرة قاتل المخالفين بشعور المغرب ولم يزل واليا على ما احتج مات في ولايته وبعدها صارت بلاد الأندلس تابعة في الحكم لعامل افرريقية وبعده ولى عمر بن عبد العزيز على المغرب اسمعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر فقدم القيروان (١٠٠) وكان خيرا أمير وخيرا وال أسلم على يده البربر جميعهم وبث فيهم من علمهم أمور الدين ولما تولى الخلافة يزيد ابن عبد الملك ولى على المغرب يزيد بن أبي مسلم مولى الخجاج النظام المشهور فأساء السيرة ووجه عنبسة بن يحيى الكلبى واليما من قبله على الأندلس ثم نار أهل المغرب بأبي مسلم فقتلوه (١٠٢) وولوا عليهم محمد بن يزيد ثانية وكان غازيا بصقلية وكتبوا الى الخليفة يعلمونه بما فعله يزيد التفتي وما فعلوه به فأقرهم على ذلك ثم ولى عليهم بشر بن صفوان الكلبى وكان واليا على مصر (١٠٣) فهدم المغرب وسكن أرجاءه واستصنى بقايا آل موسى بن نصير ثم وفد على

(١) قال ياقوت هي مدينة صغيرة بالقرب من جنوبي الغرب بينها وبين مجملها ستة أربعة فراسخ ودرعة تغربها واكثر تجارها يهودا أكثر ثمرها القصب اليابس جدا ينسحق اذا دق وينسب الى درعة محمد بن ناصر الدرعي العربي النحوي بعدد الطريقة الشاذلية وله عندهم شهرة عظيمة وغيره من العلماء والفضلاء

(٢) أو تاغلبات أو طفيليات قسم من مراكش واقع في الجهة الجنوبية الشرقية من جبال أطلس خصيب الاراضي يرويه نهران وقلما يقع فيه مطر وأهم حاصلات سكانه التمر ومن مدنه أبوان ورساني وبين تاغلبات ومراكش والجزائر والسودان تجارة مهمة تورعما كانت هذه البلاد هي مملكة تجملها اسم القديعة

يزيد بن عبد الملك فوجده قدمات و بويغ هشام فرده هشام الى عمل من المغرب فاستقر
بالقيروان

ثم غزا بشر بن صفوان صقلية بنفسه (١٠٩ هـ) ولما مات بشر بن صفوان ولي الخليفة هشام
على المغرب عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (١١٠ هـ) وكان له النظر في أمر المغرب والاندلس معائم
عزل عبيدة لاربع سنين وستة أشهر من ولايته وتولى بعده عبيد الله بن الحجاب وكان رئيسا نبلا
وأمر اجلب لا وخطيبا مصقعا وكان قبل ذلك والى مصر فقدم القيروان (١١٤ هـ) واستعمل
على طنجة والمغرب الاقصى عمر بن عبيد الله المرادي وعلى السوس وماوراءه ابنه اسمعيل وكان
عبيد الله محمودا السيرة ولما تمكن سلطانه بنى جامع الزيتونة بتونس وقيل انه هو الذي أعنه فقط لان
أول مخطط له حسان بن النعمان وجعل بتونس أيضا دار الصناعة لانشاء المراكب البحرية وله
غزوات في بلاد السودان وكذا بجزيرة صقلية (١٢٢ هـ) فافتتح سرقوسة وكان واليه على
طنجة قد أساء السيرة في برابرة المغرب الاقصى وكثر عيشه في أحوال البر بر فشقوا عصا الطاعة وجرأهم
على ذلك مسير العساكر الى صقلية وكانت بدعة انظار جية يومئذ قد سرت في البر بر وتلقنهم قسهم
عن عرب العراق الساقطين الى المغرب فكان ذلك من أقوى البواعث في خرق حجاب الهيبة على
الخلفاء وانتقاض السبر بر على العرب ومن اجتمعت لهم في سلطانهم وكان رئيس الخوارج بتلك الجهات
يدعى ميسرة المضغرى المعروف بانخفير جمع اليه الجوع وزحف الى عمر بن عبيد الله بطنجة فقاتله
وقته (١٢٢ هـ) وولى عليها من قبله عبد الاعلى بن جريح الافريقي ثم قتله عامل السوس اسمعيل
ابن عبيد الله وكان ميسرة المذكوولما استولى على طنجة والمغرب الاقصى قد بايعه بالخلافة البر بر
وظاطبه بامير المؤمنين واضطرب الجبل بالمغرب وفشت بدعة الخارجية بين جميع قبائله ولم
يتمكن ابن الحجاب من ملاءمة أمر ميسرة ثم إن ميسرة أساء السيرة في البر بر فقتلوه وولوا عليهم
مكانه خالد بن حبيب الزناتي وقوى أمره فارسل عليه عامل المغرب جيوش الخليفة فانهزمت في
واقعة سميت واقعة الاشراف وبعد ذلك انتقض البر بر جميعه على ابن الحجاب وانتهى الخبر بذلك الى
الخليفة هشام فعزل ابن الحجاب (١٢٣ هـ) وولى مكانه كاثوم بن عياض القشيري ووجه معه
جيشا كثيفا فقاتل الخوارج بلغ عدده مع من انضم اليه سبعين ألفا فزحف بذلك الجيش بعد أمور
يطول شرحها هو وحبيب بن أبي عبيدة والقيام مع البر بر على وادى سبو (١) من أعمال طنجة
فاشتد القتال بينهم وقتل كاثوم وحبيب بن أبي عبيدة وكثير من الجند واقتربت العساكر الى الاندلس
ومصر والقيروان

ولما سمع الخليفة هشام بما حصل لكاثوم وأصحابه قامت قيامته ووجه حنظلة بن صفوان
الكبي والبايع على المغرب (١٢٤ هـ) ولما استقر حنظلة بالقيروان لم يلبث الا يسيرا حتى زحف اليه
الصفرية وعليهم عكاشة وعبد الواحد ومن تبعهم من البر بر فقاتلهم حنظلة بظاهر القيروان فهزمتهم
واستلهمهم وقتل رؤساءهم وكتب بذلك الى الخليفة ثم تعقب البر بر في كل مكان واستقامت له الامور
واطفا الفتن من الاندلس ولم يزل على المغرب في أحسن حال الى أن طرق الخلل الخلافة الاموية

(١) ويقال له الحمود وهو نهر ببلاد مراكش يروى مدينة قاس وينبع من أطلس ويجرى الى الشمال ثم الى الغرب
ويصب في المحيط عند المهدية

ونحفت صوتها بما حدث في بني أمية من فتنة الوليد الفاسق وما كان من أمر الشيعة والخوارج مع مروان الحمار وفي هذا الوقت كان ظهور صالح بن طريف البرغواطى (١) الذى ادعى النبوة وكان من أهل العلم والخبر

ثم ان عبد الرحمن بن حبيب من آل عقبته بن نافع استولى على المغرب قهرا وهرب حنظلة الى المشرق (١٢٧ هـ) وكان عبد الرحمن أول من تغلب على بلاد المغرب ولماولى مروان الحمار الخلافة بعث اليه بعهدده وكان أمر البربر يومئذ قد تفاقم فانقضوا من جميع البقاع وتوالتهم من اطراف بكل مكان فزحف اليهم عبد الرحمن وقل جوعهم واستأصل الثوار وانقطع أمر الخوارج من أفريقيا (١٣٥ هـ) ثم أغزى جيشا فى البحر الى صقلية وآخر الى سردينيا فاختنوا فى أمم الافرنج حتى أذعنوا للجزية وهو الذى أراد قتل عبد الرحمن الداخل الاموى لما تلاشت الخلافة الاموية فلم يتمكن من ذلك وهرب منه وكان من أمره ما كان وما زال أمر عبد الرحمن مطاعا بالمغرب حتى انتظم أمر الدولة العباسية بالمشرق وبويع المنصور وكتب الى عبد الرحمن بالطاعة والبيعة فاجاب ودعاه ثم تآمر عليه الجند لما كان من خلعه طاعة العباسيين وقتلوه على فراشه (١٣٧ هـ) ومن بعده تغلب الياست بن حبيب أخوه على المغرب الى (١٣٨ هـ) ومن بعده استولى حبيب بن عبد الرحمن على المغرب وفي هذه السنة خرجت الاندلس عن طاعة أمير المغرب واستقل بها عبد الرحمن المروانى ثم قتل حبيب عبد الرحمن المذكور (١٤٠ هـ) وبموتها انقرض أمر آل عقبته من المغرب

(١) كان الضلال الذى شرعه لهم أنهم يقرؤن نبوته ويصومون شهر رجب ويأكلون شهر رمضان وفرض عليهم عشر صلوات نهارا وليلا وخمس بالنهار وان الاضحية واجبة على كل شخص فى الحادى والعشرين من محرم وشرع لهم فى الوضوء غسل السرة والخصرتين وأمرهم أن لا يغتسلوا من جنابة الا من حرام وصلاتهم ايماء لا موجود فيها الكنتهم يسجدون فى آخر ركعة خمس سجداً ويقولون عند تناول الطعام والشراب باسمك يا كسرى وزعم أن تفسيره باسم الله وأمرهم أن يخرجوا العشرة من الثمار وأباح لهم أن يتزوج النساء ماشاء ولا يتزوج من بنات عمه ويطلقون ويراجعون ألف مرة فى اليوم ولا تحرم المرأة عليهم بشئ من ذلك وأمرهم بقتل السارق حيث وجد وزعم أنه لا يظهر من ذنبه الا السيف وان الدية تكون من البقر وحرم عليهم رأس كل حيوان والدجاجه مكروه أكلها وقدوتهم فى الاوقات الديكة وحرم عليهم ذبحها وأكلها ومن ذبح ديكاً أو أكله أعق رقبة وأمرهم أن يمسوا بصاق ولا يتم على سبيل التبرك فكان يصبق فى أكفهم فيمسونه ويحملونه الى مرضاهم يستشفون به ووضع لهم فرايا يقرؤنه فى صلواتهم ويتلونه فى مساجدهم فزعم انه نزل عليه واته وحى من الله تعالى اليه ومن شئت ذلك فهو كافر والقرآن الذى شرعه لهم ثمانون سورة مما لهم باسماء النبيين وغيرهم منها سورة آدم وسورة نوح وسورة فرعون وسورة موسى وسورة هرون وسورة بنى اسرائيل وسورة الاسباط وسورة أيوب وسورة يونس وسورة الجمل وسورة الديك وسورة الحجل وسورة الجراد وسورة هاروت وماروت وسورة البليس وسورة الخنزير وسورة غرائب الدنيا وفيها العلم العظيم زعمهم حرم فيها وحل وشرع وفصل وتسمى فيهم يصلح المؤمنين وقال أن يصلح المؤمنين الذى ذكر الله فى كتابه الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم وكان ظهور صالح فى خلافة هشام سنة (١٢٧ هـ) وزعم أنه المهدي الاكبر الذى يخرج فى آخر الزمان وأن عيسى يكون صاحبه ويصلى خلفه وأن اسمه فى العربى صالح والسراني مالك وفى الجيمى عالم وفى العبراني روييل والبربرى واريا ومعناه الذى ليس بعد نبي ثم خرج الى المشرق بعد أن ملكهم سبعاً وأربعين سنة ووعدهم أنه يرجع اليهم فى دولة السابع منهم وأوصى بنيه بالتسلق بدية فتواروا بفضاله من بعده الى أن جاءت دولة المرابطين فنجحوا وأبديتهم اه

وكان لهم وجاهة معروفة بين أهلها المكان أيهم عقبه من جهاد العدو وما فتح الله على يده من الاقطار
واختطاطه مدينة القيروان كرسى الامارة فكان ما منح الله أهل المغرب من الاسلام والدين كله في
صحيقته فناوذا بذلك شرفا خاصا زادة على شرف القرشية فكان يكون لهم الشرف في بعض الاحيان
حتى على الولاة فضلا عن غيرهم

واستولى من بعده على المغرب عبد الملك بن أبي الجعد وتعب العرب يقتلهم واستطال البر على
أهل القيروان وقتلوا من بهم من قريش وسائر العرب حيث وجدوا واستحلوا من المحرمات ما لم يستحل
فاتح قبله واشتد البلاء على أهل القيروان واقتروا في النواحي فرار بانفسهم وشاع خبرهم في الآفاق
فقام حينئذ عبد الاعلى بن السمح الماعري من رجالات العرب وكان على رأى الاباضية منكر الفعل
السير وشايعه على ذلك برابرة طرابلس ثم زحف بهم على طرابلس فلكها وكذلك ملك القيروان
(١٤١ هـ) فعظم شأنه وتسامع به العرب فاتوا النجدة وكان الخليفة المنصور بما حصل يستحبه على
ارسال الجنود وفي خلالها ظهرت دولة بني مدرار (١) ووجد جماعة على الخليفة المنصور
واستصرخوه على الخوارج وشكوا اليه تسليتهم على كرسى الامارة بالقيروان فوجه المنصور محمد بن
الاشعث الخراساني واليا على مصر وأمره باستنقاذ أفر ببيعة من البر بفوجه محمد بن الاشعث أبي
الاحوص عمر الجبلي (١٤٢ هـ) فهزمت جنوده ثم خرج محمد بن الاشعث بنفسه الى المغرب في
أربعين ألفا وتلاقى مع أبي الخطار قريبا من طرابلس فوقع به ابن الاشعث وقتله واستلم جموعه
(١٤٤ هـ) وضبط المغرب أحسن ضبط وظافه البر ثم ناز عليه الجنود فقلل الى المشرق (١٤٨ هـ)
وفي ولايته قامت بمدينة ناهرت (٢) دولة ابن رستم واستقلت عن نظروا المغرب وكان يسلم

(١) دولة بني مدرار (١٤٠ - ٣٦٦ هـ) لما حصل هذا الاضطراب بالمغرب اجتمعت الصفريفة من
مكناسه فنقضوا طاعة العرب وولوا عليهم عيسى بن يزيد الاسود واخطوا مدينة سجلماسة (١٤٠ هـ)
ودخل سائر مكناسه من أهل تلك الناحية في دينهم واقتطعوا سجلماسة وأعمالها عن نظروا بالقيروان ثم انهم
مخطوا على عيسى وقتلوه (١٥٥ هـ) وولوا عليهم بعده كبيرهم أبو القاسم المكناسي الخان هلك (١٦٧ هـ)
وكان يخبط المنصور ثم لهدي من بني العباس والمهلك وولوا عليهم ابنه الياس ثم قام من بعده عدة أمراء الى أن كانت
إمارة اليبس من المنتصر (٢٧٠ هـ) وفي أيامه قدم عبيد الله المهدي أول خلفاء العبيديين وابنه أبو القاسم من
المشرق فدخلا سجلماسة متنكرين وكان الخليفة المعتضد بالله العباسي قد أعزى الى اليبس هذا القبض عليها فنقب
عليها وأدعها السجين الى أن افسكها مقيم دولتها أبو عبد الله الشيعي فانه اتهم سجلماسة وأخرجهما من السجن
وقتل اليبس (٢٩٦ هـ) ومن أشهر أمراءهم أيضا الشاكر بالقرنفة الخارجية ونادي بالدعوة العباسية
وأخذ يذهب أهل السنة واتخذ السكة باسمه وكان في غاية العدا لواستمر الى أن زحف جوهر الكاتب فأتى المعز
العبيدي على المغرب الاقصى (٣٤٧ هـ) فتغلب على سجلماسة وفر الشاكر بالله هذا ثم قبض عليه بسجلماسة
متنكرا ثم لما انتفض المغرب على الشيعة ودانت زبانه لطاعة الحكيم المنتصر صاحب الاملس خرج بسجلماسة
شخص من ولد الشاكر بالله وتلقب بالمنتصر بالله ثم قتل (٣٥٢ هـ) وما زال الامراء من بني مدرار يتولون عمل
سجلماسة الى أن انقرضوا (٣٦٦ هـ) وآخرهم أبو محمد المعز كان معاصر المنصورين أي علمه اه
(٢) فرضة حصينة بعمالة وهران من بلاد الجزائر قال عنها ابن حوقل انها قسمان قديمة وحديثة وقال ابن خلدون
ان الذي أسسها عبد الرحمن بن رستم اختطها سنة (١٤٤ هـ) في سفح جبل كزول وقال ياقوت ناهرت اسم
لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لاحدهما ناهرت القديمة والاخرى ناهرت الحديثة وكانت قديما تسمى عراق
المغرب اه وينسب اليها جماعة من الافاضل وكانت هذه المدينة مقاما لرئيس الاباضية والصفريفة والواصلية
وبقيت عاصمته لبني رستم (١٣٠) سنة

على امرائهم بالخلافة ثم انقرضت على يد العبيدين أو آخر المائة الثالثة ولما رجع ابن الأشعث الى المشرق واتصل بالمنصور ذلك أرسل الى الأغلب بن سالم التميمي بعهدته على المغرب (١٤٨ هـ) وهو جد الأغلبة ملوك أفر بيقية وكان من ذوى الشجاعة والرأى ومن أصحاب أبى مسلم بنجراسان وكان لما أتاه عهد الخليفة والياعلى طنبه من بلاد المغرب وولاه عليها ابن الأشعث فانتقل الى القيروان واستقام أمره وما زال يقاتل الخوارج الى أن قتل (١٥٠ هـ) ولما بلغ الخليفة المنصور مقتله وجسه عمرو بن حفص أخا المهلب بن أبى صفرة واستقام له الامر فى أول ولايته ثم ثار البربر عليه بافر بيقية وعمت الثورة أطرافها وبغت رؤس الفتنة فى كل جهة وحاصروا عمرو بن حفص بالقيروان ولما بلغه أن المنصور وجه لاستنقاذه ابن عمه يزيد بن حاتم أتف من ذلك وقال لا خير فى الحياة بعد أن يقال يزيد أخرجه من الحصار انما هي رقدة ثم أبعث الى الحساب وخرج فقاتل حتى قتل (١٥٤ هـ) وكان عمرو هذا بطلا سمعا يلقب هزاز مرد ومعناه بالفارسية ألف رجل

ثم قدم يزيد بن حاتم بن المهلب فى ستين ألفا ولما بلغه خبر عمرو بن حفص عزم على الاستماتة والتقى مع البربر بنواحي طرابلس فهزمهم وشردهم وقتل رؤسهم (١٥٥ هـ) ودخل القيروان فهدمها ورتب أسواقها وأفر لكل صناعة مكانا وجدد بناء جامعها وضبط الامور أحسن ضبط وفى ولايته ركزت ریح الخوارج من البربر وتداعت بدعتهم الى الاضمحلال واستمر يزيد بن حاتم ضابطا لامر افر بيقية والمغرب الى أن توفى (١٧٠ هـ) فى خلافة هرور الرشيد وكان يزيد من السجاء الاجناد والفضلاء الاجناد ولما بلغ الرشيد وفاته ولى على المغرب أخاه روح بن حاتم فقدم القيروان (١٧١ هـ) وكان يزيد قبله قد أذل الخوارج ومهد البلاد فكانت أرض المغرب ساكنة وفى أيامه اجتاز الامام ادريس بن عبد الله ييلاد افر بيقية ومصر ناجيا من واقعة فنج التي كانت بمكة ولم يزل روح والياعلى افر بيقية الى ان مات (١٧٤ هـ) ثم ولى المغرب من بعده حبيب بن نصير المهلبى ثم الفضل بن روح بن حاتم وقتل (١٧٨ هـ) وبه انقرضت دولة آل المهلب من المغرب ثم ولى هرور الرشيد هرثة بن عيسى ولما رأى ما بالمغرب من كثرة الثوار استعفى الرشيد فاعفاه ثم ولى الرشيد على افر بيقية محمد بن مقاتل العكي فاضطرت عليه افر بيقية وبلغ الرشيد ذلك وطلب أهل افر بيقية من ابراهيم بن الأغلب وكان من عمال محمد بن مقاتل أن يكتب الى الرشيد فى الولاية عليهم فكتب الى الرشيد فى ذلك على ان يترك المائة ألف دينار التي كانت تحمل من مصر الى افر بيقية اعانة للولاة بها وعلى ان يحمل هو من افر بيقية الى الخليفة أربعين ألفا وبلغ الرشيد غناه وكفاهته فاستشار فيه أصحابه فاشاروا عليه بولاية فكتب له بالعهد على افر بيقية (١٧٤ هـ) وسيأتى ذكر دولتهم عند الكلام على تونس وفى هذه المدة انقسم المغرب الى ثلاث ممالك فكان بنو الأغلب بافر بيقية والقيروان وبنو خزرا المغرا وبنو المغرب الاوسط وتلسان وبنو ادريس بالمغرب الاقصى

﴿ الفصل السادس ﴾

دولة الادارسة بالمغرب الاقصى

(١٦٩ - ٣١٣ هـ)

اعلم أنه لما كانت (١٦٩ هـ) في خلافة موسى الهادي العباسي خرج بالمدينة الحسين بن علي ابن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضی الله عنه وكان معه جماعة من أهل بيته منهم ادریس ويحيى وسليمان بن عبد الله بن الحسن المثنى وهم اخوة محمد النفس الزكية فاشتد أمر الحسين المذكور بالمدينة وجرى بينه وبين عامل الهادي على المدينة عمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب قتال فانهزم عمر المذكور وباع الناس الحسين المذكور على كتاب الله وسنة نبيه للرضي من آل محمد وكانوا يكتنون بذلك عن الامام المستور الى أن يقدر على اظهار أمره وأقام الحسين وأصحابه بالمدينة يتجهزون أياماً ثم خرجوا الى مكة في ذي القعدة من السنة المذكورة فانتهى الحسين الى مكة وانضم اليه جماعة من عبيدها وكان قد حج تلك السنة جماعة من وجوه بني العباس وشيعتهم فمهم سليمان بن أبي جعفر المنصور ومحمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد بن علي وانضم اليهم من حج من قوادهم ومواليهم واقتتلوا مع الحسين المذكور يوم التروية فانهزم الحسين وأصحابه وقتل فاحتزوا رأسه وأحضرها أمام بني العباس ثم جعلت رؤس أصحابه فكانت مائة وثيها واختلط المنهزمون بالحاج فذهبوا في كل وجه وكان مقتلهم بموضع يقال له فوج أو فوج علي ثلاثة أميال من مكة ثم حمل رأس الحسين ومعه باقي الرؤس الى الهادي فأنكر عليهم حمل رأس الحسين ولم يعطهم جوائزهم غضبا عليهم أما يحيى أخو محمد النفس الزكية فانه فر من الواقعة المذكورة الى بلاد الديلم من جهة المشرق ودعا الناس الى بيعته فبايعوه واشتدت شوكته ولما خاف الرشيد أمره وحلف اليه فحضر الى بغداد فأكرمه الرشيد ووصله بأموال كثيرة ثم حبسه حتى مات في السجن

أما ادریس أخوه فانه لما فر من الواقعة المذكورة لحق بارض مصر فحمله واضح مولی صالح ابن المنصور عامل البريدي ومثالي بلاد المغرب وكان واضح يتشيع لآل البيت ولحق ادریس بالمغرب الاقصى فقتل بمدينة ولبلي (١) (١٧٢ هـ) فأجاره اسحق بن محمد بن عبد الحميد أمير البربر وأكرمه وجمع البربر على القيام بدعوته ونزع الطاعة العباسية وكشف القناع في ذلك وانتهى الخبر الى الرشيد فأفعله واضح مع ادریس فقتله وصلبه ولما بايع البربر ادریس خطب الناس فقال بعد الحمدلة والصلاة لا تمدن الاعناق لغريبا فان الذي تجددوه عندنا من الحق لا تجددوه عند سوانا ثم وفدت عليه قبائل زنانة وغيرها من كافة البربر بالمغرب الاقصى فبايعوه أيضا ودخلوا في طاعته فتمكن سلطانه وقويت شوكته ثم اتخذ جيشا عظيما من وجوه البربر وخرج غازيا الى بلاد تامسان ثم زحف الى بلاد تدلأ ففتح معاقلها وحصونها وكان أكثر هذه البلاد يدينون بين اليهودية والنصرانية والاسلام بها قليل فأسلم جميعهم على يده (١٧٢ هـ) ثم غزا في السنة التالية من كان تحصن منهم في المعاقل والجبال حتى دخلوا في الاسلام طوعا وكرها ثم خرج بعد سنة أيضا لغزو مدينة تلمسان ومن يها من قبائل البربر فبايعه صاحبها محمد بن خزرقا من ادریس وقبل بيعته وبني مسجد تلمسان وأتقنه (١٧٤ هـ) ثم عاد الى مدينة ولبلي منصورا

ولما نال ادریس ما نال من التمكين والقوة واتصل خبر ذلك بالخليفة العباسي هرون الرشيد

(١) هي قاعدة جبل ذرهون وكانت مدينة متوسطة حصينة كثيرة المياه والغرس والزيتون وكان لها سور عظيم من بنيان الاوائل يقال انها السمرة اليوم بقصر فرعون اه

و بلغه ان ادريس قد استقبل امره وكثرت جنوده وانه عازم على غزوه افر بريمة خاف الرشيد عاقبة ذلك وانه ان لم يتدارك الامر الا ان ربما عجز عنه في المستقبل وشاور الرشيد نصحاءه فاشاروا عليه بن يقتله غيلة ووقع اختيار الرشيد في ذلك على رجل من موالي والدا الرشيد اسمه سليمان ويعرف بالشمخ فاحضره واعلمه بما يريد منه ووعدته على قتل ادريس الرفعة والمنزلة العالية وزوده مالا وطرفا يستعين بها على امره واصحبه الرشيد كتابا الى واليه على افر بريمة ابراهيم بن الاغلب وقيل الى روح بن حاتم عاملها ثم قدم الشمخ على ادريس مظهرا النزوع اليه فبين نزوع مئثر ثمان الدعوة العباسية منتحلا للدعوة الطالبية فاختصه ادريس وعظمت منزلته لديه وكان الشمخ ممتلئامن الادب والبلاغة والظرف عارفا بصناعة الجدل فكان اذا جلس الامام ادريس الى رؤساء البر يرتكلم الشمخ فذكر فضل أهل البيت وعظيم بركتهم على الامة ويقر بذلك ويحجج لامامة ادريس وانه الامام الحق دون غيره فكان ذلك يعجب ادريس فاستولى الشمخ عليه حتى صار من ملازميه ولا ياكل الا معه وكان راشدا موليا لادريس فلما ينفرد عنه لانه كان يخاف عليه لكثرة اعداء آل البيت يومئذ وكان الشمخ يترصده الغرة من راشد ويتربق الفرصة من ادريس الى ان غاب راشد ذات يوم فدخل الشمخ على ادريس فجلس معه كالعادة وتحدث مليا ولم يلم بر الشمخ راشد بالخضرة انتهاز الفرصة في ادريس وكان ادريس يشتكي وجع الاسنان واللثة فأعطاه سما في سواك يستاك به وقيل سمه بطريفة أخرى ولم اعلم الشمخ ان السم تمكن من ادريس خرج مسرعافارا الى الشرق ومات ادريس (١٧٧ هـ) ويقال ان راشدا لحق بالشمخ في هربه وطمعته فقطع عناه وشج رأسه وقيل ان الشمخ هرب منه ورؤي بعد ذلك في بغداد مقطوع اليد

ادريس بن ادريس (١٧٧ - ٢١٣ هـ) لما توفي ادريس لم يترك ولدا الاجلا من أمة بر بريمة فاتفق وجوه البر على جعل مقاليد الامور لراشد موليا لادريس لعل منزلته عندهم وفضل ودينه حتى تلد الجارية فقام راشد بأمر البر بر تلك المدة ولما تمت الجارية أشهر رحلها وضعت غلاما أشبه الناس بأبيه ادريس فخرجه راشد الى رؤساء البر بر حتى نظروا اليه فقالوا هذا ادريس بعينه فسماه راشد ادريس وبايعه البر بر وكفله راشد موليا أبيه وقام بأمره أحسن قيام فأقرأه القرآن ثم علمه الحديث والسنة والفقهاء في الدين والعربية ورواه الشعر وأمثال العرب وحكمها وأطلعته على سير الملوك وعرفه أيام الناس ودر به على ركوب الخيل والرمي بالسهام وغير ذلك فلم يرض عليه مقدار من العمر يبلغ احدى عشرة سنة الا وقد ترشح للامر فبايعه البر بر عن طاعته واخلاص بجامع وليه (١٨٨ هـ)

وكان ابراهيم بن الاغلب عامل افر بريمة للرشيد قدس الى بعض البر بالاموال واستمالهم حتى قتلوا راشد مولاه (١٨٦ هـ) وقام به كنهة ادريس من بعده أبو طالب بن زيد بن الياس العبدى ولم يزل على ذلك الى ان بايعوا الادريس وقد أظهر ادريس من صغر سنه من وفور عقله ونباهته وفصاحته ما أذهل عقول الخاصة والعامة ولما استقام أمره وعظم سلطانه وكثرت جيوشه وفدت عليه الوفود من البلدان ووفود العرب من افر بريمة والاندلس فجعل لهم منهم بطانة وأدنى منزلتهم وكان ابراهيم بن الاغلب لا يتنك عن التضرب بين البر بر واستفسادهم على ادريس فلم ينجح

ولما كثرت الوفود على ادريس وضاقت بهم مدينة ولى اردادان يبنى لنفسه مدينة فركب يومافى حاشيته وتخير بقعة واخط مدينة فاس الحالمية (١٩٢ هـ) وجعلها بلدين لكل بلد منهما سور يحيط به وباب تختص به وانهر فاصلة بينهما ولمافرغ من بنائها اتخذها دار ملكه وصار يغزو منها قبائل البر بالعاصية والخارجية وغيرهم وكانت وفاته (٢١٣ هـ) ودفن بفاس وقد استطعت له كلمة البر ومحاوذة الخوارج وقطع المغرب عن دعوة العباسيين وضرب السكة باسمه

محمد بن ادريس (٢١٣ - ٢٢١ هـ) لمات ادريس قام بالامر بعده ابنه محمد بعهد منه ولما تولى قسم المغرب بين اخوته باشارة جده فاختص القاسم منها بطبقة وسبته وقصر مصمودة وقلعة حجر النسر ونطوان وما انضم لذلك من القبائل والبلاد واخص عمر بقبائل صنهاجة ونمارة وغيرهما واخص داود ببلاد هوارة وتازة وقبائل مكناسة وغيرها واخص يحيى بأصيلة والعرائش وبلاد ورغة وغير ذلك واخص عيسى بسلوان وما سنا وما انضم اليهما من القبائل واخص حزة بمدينة ولى وأعمالها واخص أحمد بمدينة مكناسة وغيرها واخص عبد الله بانعامت وجبال المصامدة والسوس الاقصى وبقيت تلمسان لولده سليمان بن عبد الله واستمرت بأيديهم الى أن تلاشى أمرهم بها بدخول العبيديين ثم أقام محمد بن ادريس بدار ملكه من فاس واخوته ولاة على بلاد المغرب قد ضابطوا أعمالها وسدوا نغورها وأمنوا سبلها ثم حصلت الفتن بعد ذلك بين الاخوة فاقتروا وتجاروا ثم صفا الامر لمحمد بعد ذلك الى أن مات بمدينة فاس (٢٢١ هـ) بعد ان عهد بالامر لابنه على ابن محمد المعروف بجيدرة وقام من بعده

علي بن محمد بن ادريس (٢٢١ - ٢٣٤ هـ) لمات محمد بن ادريس كان على ابن محمد صغير السن فقام بأمره الاولياء والحاشية من العرب والبربر وأحسنوا كفالته وطاعته وسار بسيرة أبيه وجده في العدل فكان الناس في أيامه في أمن ودعة وكانت وفاته (٢٣٤ هـ) وعهد بالامر لاختيه يحيى

يحيى بن محمد بن ادريس (٢٣٤ - ٢٥٠ هـ) لما جلس يحيى على تخت بني ادريس امتد سلطانه وعظمت دولته واستمر عمران مدينة فاس وبنيت بها الجماعات والفتادق للتجار وبنيت خارجها الرياض ورحل اليها الناس من البلاد البعيدة وفي زمنه بنى مسجد القرويين الشهير بمدينة فاس وقام من بعده

يحيى بن يحيى (٢٥٠ - ٢٩٢ هـ) لمات يحيى الاول قعد يحيى الثاني على تخت الادارسة فاساء السيرة وكثر عيئه في الحرم فثاروا عليه وأخرجوه من قصره وأشارت عليه زوجته بالاختفاء بعدوة الاندلس بقاس ريثما تسكن الفتنة فتوارى بها فمات من ليلته أسفا على ما صنع بنفسه وكتب زوجته الى أبيها على بن عمر بن ادريس صاحب الريف والسواحل تعلمها الخبر وتستدعيه واستدعاه أيضا أهل الدولة من العرب والبربر والموالي فجمع حشمه وجيشه وجاء الى فاس فاستولى عليها وانقطع الملك من عقب محمد بن ادريس وصار بعد هذا تارة يكون في عقب عمر ابن ادريس صاحب الريف وتارة يكون في عقب القاسم بن ادريس ولما دخل على بن عمر مدينة

فأس بايعه الناس ودخلت الكافة في طاعته ونخطب له بجميع المغرب الى ان ثار عليه عبدالرزاق
 الفهري من الخوارج الصقرية وحصل بينه وبين علي بن عمر حرب شديدة كان الظفر في آخرها لعبد
 الرزاق فانهمز على وفتر بنفسه ودخل عبد الرزاق مدينة فاس وملك عدوة الاندلس وخطب له بها
 وامتنع عنه أهل عدوة القرويين وبعثوا الى يحيى بن القاسم المتقدم ويعرف بالعوام فوصل اليهم
 فبايعوه وولوه على أنفسهم ثم قاتل عبدالرزاق حتى أخرجه من عدوة الاندلس فدخلها وبايعه أهلها
 وكان للمير يحيى بن القاسم حروب كثيرة مع الصقرية ثم اغتاله الربيع بن سليمان (٢٩٢ هـ)
 وفي زمنه حدث حط شديد ببلاد المغرب وغالبا بالاندلس والمغرب وافر بقبيلة ومصر والحجاز حتى
 رحل الناس عن مكة الى الشام وحدثت زلزلة عظيمة تهدمت منها المباني وانحطت منها الصخور من
 الجبال وعت هذه الرحفة بجميع بلاد الاندلس وجميع بلاد العدوة واستمرت الجماعة والوباء الى
 (٢٨٥ هـ) ولما قتل يحيى العوام والى الامر من بعده يحيى الثالث بن ادريس وخطب له بفاس
 وامتد ملكه على جميع أعمال المغرب وخطب له على سائر منابره وكان يحيى هذا واسطة عقد البيت
 الادريسي أعلاهم قدرا وأبعدهم ذكرا وأكثرهم عدلا وأغزرهم فضلا وأوسعهم ملكا وكان فقيرا
 حافظا للحديث ذافصاحه وبيان بطلا شجاعا ذا دين وورع لم يبلغ أحد من الادارسة مبلغه في الدولة
 والسلطان الى أن طمعا على ملكه عباب العبيدين القائم بفر بقبيلة فاغرقه وذلك ان عميد الله المهدي
 أول الخلفاء العبيدين لما استولى على افر بقبيلة أراد تلك المغرب الاقصى فاغزاه قائده مصالة بن
 حبوس فزحف الى المغرب الاقصى (٣٠٥ هـ) وانتهى الى فاس فبرز اليه يحيى بن ادريس لمدا فعتته
 في جوع العرب والبربر والنقباء بقرب مكناسة فانهمز يحيى وعاد الى فاس ثم تقدم مصالة الى فاس
 وحاصرها الى أن صالحه يحيى على مال يؤديه اليه وعلى البيعة لعميد الله المهدي فقبل يحيى الشرط
 وأبقى عليه مصالة في سكن فاس وعقد له على عملها خاصة وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية
 المكناسي على ماسوى ذلك من بلاد المغرب وبذلك دخل المغرب الاقصى في يد العبيدين واندرجت
 دولة الادارسة في دولتهم (٣٠٧ هـ) ثم ان موسى أوغرز مدر مصالة على يحيى فقبض عليه
 وقيد به بالحديد واستنقى أمواله ثم نقاه الى أصيلا ثم ساءت حالته بعد ذلك وافتقر ومات بالمهدية
 (٣٣٢ هـ) ثم خرج من الادارسة شخص يقال له الحسن بن محمد ويعرف بالنجاشي وطرد عامل
 العبيدين على المغرب واستولى على فاس فاجتمع الناس على بيعته ودخل في طاعته أكثر قبائل
 البربر وكانت دولتهم أخذت في الانحلال ودولة عميد الله المهدي في الاقبال فلك الحسن المذكور
 عامين ولم يتم له مطلب وانقرضت دولتهم في جميع المغرب الاقصى وحل أغلب الادارسة الى المهدي
 المذكور وولده الامن اختفى بالجبال (٣١٣ هـ) وبعد (٣٤٠ هـ) ثار ادريس من
 ولد محمد بن القاسم فاعاد الامامة لهذا البيت ثم تغلب على بالعدوة عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر
 الاندلسي وخطب في تلك البلاد لبني أمية بالاندلس ثم رجح عبد الملك الى الاندلس فاضطربت
 دولة العدوة فتغلب على فاس بنو أبي العافية الزناتيون حتى (٣٦٣ هـ) ثم ظهر يوسف
 ابن ناشفين أمير المسلمين واستولى على تلك البلاد واستأصل ذرية ابن أبي العافية بالمغرب وكانت
 دولة ابن أبي العافية بالمغرب ١٤٠ سنة (٣٠٥ - ٤٤٥ هـ) وكلاهما تمسكين بدعوة الشيعة
 فكانوا كتب عنهم بالمغرب الاقصى

في قسلا الماء وأرسله الى مولاه المعز ثم انصرف راجعا بعد ان دوخ البلاد وانشق فيها وقطع دعوة
 المروانين منها ووردها الى العبيدين فخطب لهم على جميع منابر المغرب ثم عاد الى المهديّة غائما ظفرا
 ولم ياتكث بعض عمال العبيد بين دعوتهم وتساك بدعوة المروانين بالاندلس خوفا منهم لقرب
 بلاده من بلادهم وأخذت الدعوة للامو بين تراجيح بالمغرب الأقصى أرسل المعز لدين الله العلوي
 بلكين بن زيري الصنهاجي فقاتل زناته لانهم أول من جاهر بدعوة المروانين وملك المغرب بأسره وقطع
 منه دعوة الاموية وقتل أولياءهم وأخذ البيعة على جميع أهل المغرب وانصرف ثم استفتح الحكم
 المستنصر الاموي ثانية ببلاد المغرب الأقصى على يد قائده غالب الاموي الطائر الصيت المعروف
 بالشهامة والنجدة والدهاء وجهزه في جيوش وافرة وقال له عند وداعه يا غالب سر مسير من لا اذن له في
 الرجوع الا حيا منصورا أو ميتا معذورا ولا تشخ بالمسال وابسط يدك به يتبعك الناس فقدم غالب
 ببلاد المغرب بيجيوشه فافتحه حتى دان له جميعه وغرب آل ادريس الى الاندلس ووطئ جميع بلاد
 المغرب ودوخ ملوكه وفرق العمال في نواحيه وقطع دعوة بني عبيد من جميع جهاته وورد الدعوة الى
 الامويين (٣٦٤ هـ) وفي (٣٦٩ هـ) زحف بلكين بن زيري الصنهاجي عامل العبيد على افر بقة
 الى المغرب الأقصى وافتتح مدينة فاس فاستصرخ بعض الامراء المنصور بن أبي عامر الذي خرج في
 عساكره الى الجزيرة الخضراء وأنت اليه ملوك زناته فلما رأى بلكين الصنهاجي ذلك كرا جاعا على
 عقبه وعاتب ببلاد نامسنا من جهات المغرب وقطع منها ومن غير هاد دعوة بني أمية وبعد موته رجعت
 الدولة لهم وعفا عنهم المنصور بن أبي عامر وبقيت في عقبهم الى أن ظهرت دولة الملمتين أو المرابطين

(الفصل الثامن)

دولة الملمتين بالمغرب الأقصى

(٤٦٢ - ٥٤٢ هـ)

ويقال لهم أيضا المرابطين وهم من صنهاجة وكان لصنهاجة بالمغرب دولتان عظيمتان احدهما دولة
 بني زيري بن مناد الصنهاجيين بافر بقة ورتوا ملكها من يد الشيعة العبيد وقد سبقت الاشارة
 اليهم والاخرى دولة الملمتين بالمغرب الاوسط والاندلس وكان موطن هؤلاء الملمتين أرض الصحراء
 والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البر وبلاد السودان وهم أمم وقبائل كثيرة وانما قيل لهم الملمتون
 لانهم يتلمتون ولا يكشفون وجوههم أصلا وقد اختلف المؤرخون في سبب التمام وكان دينهم في
 أول الامر المجوسية الى أن أسلموا بعد فتح الاندلس وكانت الرياسة فيهم للتونة وكان لهم ملك ضخم عند
 دخول عبد الرحمن بن معاوية الى الاندلس ثم افترق أمرهم بعد ذلك وما زال لصنهاجة أمراء يتولون
 الملك حتى ابراهيم بن يحيى الكدالي الذي ارتحل الى المشرق برسم الحج (٤٢٧ هـ) ولم يفضى حجه فقل
 الى بلاده فمرفى عوده بالقيروان فلقى بها فقيها يقال له أبو عمران الناسي فحضر درسه وتأثر بوعظه وتعرف
 به فسأله الشيخ المذکور عن بلاده وما ينتحل أهلها من المذاهب فعلم منه أن الجهل سائد فيها وأن
 دينهم جيدة في تعلم العلوم فارسل معه شخصا يقال له عبد الله بن ياسين الجزولي وكان من حذاق الطلبة
 وأهل الفضل والدين والسياسة ثم شرع النقيه يعلم القوم القرآن ويقيم لهم رسم الدين ويسوسهم

بآداب الشرع وبأمرهم بالمعروف وبنهاهم عن المنكر ويكجهم عن كثير من مآلوفاتهم الفاسدة
ويستميلهم الى الخير حتى تمكن حبه من قلوبهم فلم يقر عليه الزمعة يسيرة حتى اجتمع له من التسليمة
نحو ألف رجل فسماهم المرابطين للزومهم رابطة ثم حارب بعض القبائل لعدم تسكها بقواعد الدين
بعد أن نجحهم كثيرا فانصر عليهم فعلاذ كره في جميع بلاد الصحراء وما والاها من بلاد السودان
وطارله ذكرفي العام وأحبيته الناس واسلمات يحيى بن ابراهيم جمع عبدالله بن ياسين رؤس القبائل
من صنهاجة وولى عليهم يحيى بن عمرو والمتونى وعبدالله بن ياسين هو الامير في الحقيقة لانه صاحب
الامر والنهى واستقام الامر يحيى وظهرت دولته واتسع ملكه وذلك بحسن نظر عبدالله بن ياسين
ثم اجتمع فقهاء سجلماسة وغيرها وكتبوا الى عبدالله بن ياسين ويحيى بن عركنا بابرغبون اليهم
في الوصول الى بلادهم ليظهر وهما ما هي فيه من المنكرات وشدة الفسق من الامراء فخرج يحيى
وعبدالله في عسكر عظيم من المرابطين (٤٤٧ هـ) وحصل بينهما وبين أمير مغراوة قتال كان النصر
فيه لهما ثم تقدموا ودخلوا سجلماسة فأقاما بها حتى أصلها شأنها ثم انصرا الى بلادهما ولما توفي يحيى
ابن عمر المذكور في بعض غزواته في بلاد السودان تولى مكانه أخوه أبو بكر بن عمر سنة
(٤٤٨ هـ) وكان له حروب عظيمة انتصر في غالبها وكان على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين
ثم قويت شوكة أبي بكر وتسمى بأمر المسلمين ومات (٤٦٢ هـ) فانفتحت كلمة أشياخ المرابطين
على يوسف بن تاشفين لما يعلمونه من فضله ودينه وشجاعته ونجده وورعه فبايعوه ثم سار الى
المغرب واقتحم مدينة مدينة وحصنا حصنا واتسع ملكه وقوى أمره وطلب تقليدا من
خلفاء بني العباس وبعث في ذلك الى الخليفة المستظهر بالله العباسي عبدالله بن محمد العربي
الاشبيلي ووالده القاضي أبابكر بن العربي الامام المشهور فلتطفا في القول وأحسن في البلاغ وطلبا
من الخليفة ان يعقد لامير المسلمين بالمغرب والاندلس فعقد له واناب اليه بتقليد الخليفة وعهده
على ما لى نظره من الاقطار والاقاليم ولما ورد عليه التقليد من الخليفة ضرب السكة
بأمره (١) ولما استعجل أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب ودوخ بلاده واستنزل ثواره وعظم صيته
عزم على بناء مدينة ياوى اليها يشمه وجنده وتكون حصناله ولا رباب دولته فاستترى موضع
مدينة مراكش من كان يملكه (٤٥٤ هـ) فاختمها يوسف وبنى بها القصور والمسكن
الايقة واتخذها عاصمة للرابطين ثم جنسدا الجنود واستكثر من القواد وافتتح مدينة فاس وغيرها
وامتد ملكه وعظم شأنه وضحخم أمره وتلقب بأمر المسلمين وعليه جرى خلفاؤه من بعده

وفي ٥٥٠ هـ كان ملك الاسلام بالاندلس تضعف واقترق الى ملوك كثيرين كما تقدم ولما
ظهر أمر يوسف بن تاشفين أرسل اليه المعتمد بن عباد أمير أشبيلية يعلمه بحال بلاد الاندلس وما آل
اليه أمرها من تغلب العدو على أكثر ثغورها وبأله النصر والاعانة فأبأ عليه يوسف لانه كان
مشغولا بفتح بعض البلاد الساحلية كسبتة ومليلية وغيرها ولهدأ ذهب المعتمد بن عباد بنفسه الى

(١) كان نقش دينار لاله الا الله محمد رسول الله تحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وعلى العائنة ومن يتبع
غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين وكتب على الصفحة الاخرى عبدالله أحمد أمير المؤمنين
العباسي وعلى الدائرة تاريخ حضر به وموضع سكتته اه

المغرب لاستنصار يوسف الى الجهاد ولما التقيا أخبره ابن عماد بحال الاندلس وما هو عليه من الضعف وشدة الخوف فقال له يوسف ارجع الى بلادك وجهز حالك فاني على أثرك فرجع ابن عماد الى الاندلس ونزل ليوسف بن تاشفين عن الجزيرة الخضراء لتسكون رباط الجهاده ثم دخل يوسف سبتة ونظر في أمرها وأمر ببناء الاساطيل بها وقدمت عليه الجنود فشرع في إيجازتها الى الاندلس (٤٧٩ هـ) ثم عبر هو في أثرها في موكب عظيم من قواد المرابطين وأتباعهم واجتمع اليه عسكر الاندلس وجرى بينه وبين الادفونش وهو الفونس السادس ملك قشتاله قتال شديد نصر الله فيه المسلمين وانهمز الفرينج وقتل منهم ما لا يحصى وهذه الواقعة المسماة بواقعة الزلاقة هي أكبر وأشهر وقائع المسلمين بالاندلس وبعده ذلك ملك يوسف غرناطة وأخذها من صاحبها عبد الله بن باديس الصنهاجي ثم غلب على ملوك الطوائف بعد أن استفتى العلماء في ذلك لانحراف ملوك الطوائف عن الاستقامة ومساعدة بعضهم الاسبانول وعدم نجدهم له في حر وبه معهم فصار له ملك الاندلس والمغرب كله وله سيرة طويلة مذكورة بالتواريخ واستمر نافذ الكلمة الى ان توفي (٥٠٠ هـ) فكانت مدة ملكه ٣٨ سنة وكان حازما سائلا للامور ضابطا لمصالح مملكته مؤثرا لاهل العلم والدين كثيرا المشورة لهم حتى ان الامام الغزالي لما سمع بسيرته عزم على التوجه اليه فبلغه خبر وفاته وهو بالاسكندرية ويقال انه وجد في بيت ماله بعد وفاته ثلاثة عشر الف ربع من الورق وخمسة آلاف وأربعمائة من مطبوع الذهب وكان مع ذلك رجه الله زاهدا في الدنيا وزيتها وزهرتها متشفا لباسه الصوف لم يلبس قط غيره وما كاه الشعر ولحوم الابل والباها

وقام بالامر من بعده أمير المسلمين علي بن تاشفين بعهد منه وكان له غزوات بالاندلس ووقائع كثيرة وملك من البلاد ما لا يملكه أبوه لانه صادف البلاد ساكنة والاموال وافرة والاعايق آمنة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة فسار في طريق أبيه واهتدى بهديه وتوفي سنة ٥٣٥ هـ فمدته ملكه ٣٥ سنة وفي زمنه استولى الفرينج على كثير من حصون المسلمين ومدنهم من ذلك سرقسطة لعدم تناصرهم وتحالفهم وفي زمنه كان ظهور المهدي صاحب دعوة الموحدين واستفحال أمرهم عند ما فشت كلمتهم في عموم البربر بالمغرب

وقام من بعده ابنه أبو المعز تاشفين بعهد من أبيه ثم قتل سنة (٥٣٩ هـ) في الحرب التي كانت بينه وبين عبد المؤمن بن علي رئيس الموحدين في واقعة يقال لها واقعة كهف الضحالك بالقرب من جبل تطري وهرب تاشفين في حماية محمد بن ميمون قائد البحر للرابطين وبوصوله الى وهران لحقته الموحدون وقتلوه سنة (٥٤٢ هـ)

وقام بعده في مراکش ابنه ابراهيم فخلعوه لجهله بتدبير الملك ثم ملك عمه اسحق بن علي بن يوسف ابن تاشفين وفي أيامه كان انقراض دولة المرابطين أو الملمين على يد عبد المؤمن خليفة محمد بن تومرت صاحب دولة الموحدين فكانت مدة دولتهم نحو ثمانين سنة وكانت دولتهم مدة سطوتها تمتد من مدينة أفرغة من قاصية شرق الاندلس الى مدينة أشبونة على البحر المحيط من غرب الاندلس وبيرا العدة من جزائر بني مزغنة الى طنجة الى آخر السوس الاقصى الى جبال الذهب من بلاد السودان

الفصل التاسع

دولة الموحدين بالمغرب الأقصى

(٥١٤ - ٦٦٨ هـ)

ظهور محمد بن تومرت المعروف بالمهدى

كان للمصامدة وهم من أكبر قبائل البر في صدر الاسلام يجيال درن بجرا كش عند دوقوة وطاعة للدين ومخالفة لآخوانهم برغواطة في تحلة كفرهم وكان منهم قبل الاسلام ملوك وأمراء ولهم مع لتونة ملوك المغرب عروب وقتن سائر أيامهم حتى كان اجتهتاعهم على المهدي وقيامهم بدعوته وكانت لهم دولة عظيمة من لتونة بالعدونين ومن صنهاجة بافريقية وأصل المهدي من هرغه من بطون المصامدة يسمى أبوه عبد الله وتومرت وزعم كثير من المؤرخين ان نسبه في أهل البيت وكان أهل بيته أهل نسل ورياط وكانت ولادته (٤٨٥ هـ) وشب المهدي قارنا محبا للعلم ثم ارتحل لطلبه الى المشرق على رأس المائة انطلماسة ومر بالاندلس ودخل قرطبة وهي يومئذ دار العلم ثم لحق بالاسكندرية فوج ودخل العراق ولحق به جماعة من فحول العلماء وأفاضلها واسعا وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده ولحق أباه حامدا الغزالي وفاوضه بما في صدره فأراه عليه ولما حج أقام بمكة مدة مديدة وحصل قدرا صالحا من علم الشريعة واخذ بالنبوي وأصول الفقه والدين وكان ورعا ناسكا متقشقا كثيرا اطراق مقبلا على العبادة وكان شجاعا فصحا في اساني العرب والبربر ثم خرج من مكة الى مصر ومنها الى الاسكندرية وركب البحر متوجها الى بلاده ولما انتهى الى المهديبة وكانت يومئذ ليجي بن باديس وهناك علاذكره وقصده الناس ثم انتقل الى بجاية ووجد فيه بعض قراها عبد المؤمن صاحب دعوته وغيره من التف عليه ثم توجه من معه الى مراکش وبها يومئذ أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين فشرع محمد بن تومرت في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى حسن ظنون الناس فيه ثم بلغ أمير المسلمين عنه انه يقول هو وأصحابه بتغيير الدولة ولما أرادوا القبض عليه فرّ وخرج من مراکش الى بلدة انعمات ومن هناك ذهب هو وطائفة الى جبل تينمل فأكرمهم أهلها من المصامدة وأجابوا دعوته وتبعوا أمره على القيام بالدين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وابعوه على انه المهدي المنتظر ثم انتشر ذكره وجاءته الناس من كل فج وسما أتباعه الموحدين وكان ابن تومرت يذكرهم بأيام الله ويذكر لهم شرائع الاسلام وما غير فيها وما حدث من الظلم والفساد وانه لا تجب طاعة دولة من هذه الدول ثم أرسل عليهم علي بن تاشفين جيشا فهزموه ثم آخر أخضعهم منه (٥١٩ هـ) فحاصروهم في جبلهم وضميق عليهم وكادوا المصامدة يتخذون عنه فاعمل الحيل الغربية في ذلك هو وأصحابه حتى مالوا اليه واستماتوا في صحبته ثم نازل جيش أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين سنة (٥٢٤ هـ) وبعده أن أوقع به جمع جيشا آخر وسار لحصار مراکش وفي تلك الاثناء مرض المهدي ومات (٥٢٤ هـ) وكان أوصى بأن الامر من بعده لعبد المؤمن ابن علي رفيقه ووزيره

ولما بويع عبد المؤمن تسمى بأمر المؤمنين ولم يزل يقوى ويعاوم أمره حتى صار له جيوش كثيرة

ووقع بينه وبين المرابطين حروب يطول ذكرها قتل فيها من الطرفين أكثر من مائة ألف ثم ملكت فاس
ومراكش وغيرها ما أتسع ما ملكه واستولت جيوشه على نغورسبته وسلاوطنجة ودخل في زمرة
رجال الموحدين وفي (٥٤٠ هـ) من ملكة تزوج على بن عيسى بن ميمون قائد أساطيل المرابطين
طاعتهم وانحاز إلى الموحدين فتقوى الموحدون بذلك وأخذوا في الاكثار من بناء السفن
والاساطيل بجميع النغور ثم ان عبد المؤمن جهز في السنة المذكورة كورة يوسف بن مخلوف بجيش
عظيم من الموحدين وأرسله بالاساطيل لفتح الاندلس من يد عمال المرابطين وصار به ذلك يرسل
الجيوش تباعا إلى الاندلس إلى ان استولى عليها تماما (٥٤٥ هـ) وأزال منها دولة المرابطين ثم تقدم
بعد ذلك عبد المؤمن بنفسه إلى أفريقيا وساق أسطولين بجرات تحت قيادة يحيى بن عبد العزيز
فتح الجزائر وتونس والمهدية ثم استولى على كثير من نغور الاندلس وبلادها التي كانت وقعت في
يد الاسبانيول وانتصرت انتصارا عظيما على الملك الفونس ملك طليطلة وبينما كان عبد المؤمن يستعد
لغزو الفرنج بالجيوش الكثيرة والاساطيل العديدة وافته منيته (٥٥٨ هـ) وكان فصحا
فقيها عالما بالاصول والجدل والحديث مشارك في كثير من العلوم الدينية والدنيوية ذا حزم وسياسة
ولإقدام في الحرب ميمون النقيب لم يقصد قط بلاد الاقحمة ولا جيش الاهزمه محبا لاهل العلم والادب
مكرما لو فادتهم مروجا لبعضعتهم ومن آثاره بناء مدينة جبل طارق (٥٥٥ هـ) ومن أعماله أيضا
أنه أمر في هذه السنة بتكسير بلاد أفريقيا والمغرب فكسر من رقة من جهة الشرق إلى السوس
الاقصى من جهة الغرب بالفراسخ والاميال طولا وعرضا ثم أسقط من التكسير الثالث في الجبال
والغياض والانهار والسيابح والخزون والطرق وما بقى قسط عليه الخراج
وكان عبد المؤمن كثير الاهتمام بحماية بلاده من العدو وجرأ فانه لما تهدده ملك المغربين
وأفريقية والاندلس وأطاعته سائر الاقطار تفرغ لشأنه وتاقت نفسه للجهاد فعزم على غزو بلاد
الفرنج برا وبحرا فأمر (٥٥٧ هـ) بإنشاء الاساطيل في جميع سواحل ممالكة فانشأ الله منها
٤٠٠ قطعة منها بخلق الوادي والمهدية ١٢٠ قطعة ومنها بطنجة وسبته وبادس ومراسي
الريف ١٠٠ قطعة ومنها ببلاد أفريقية ووهران ومراسي هينين ١٠٠ قطعة ومنها ببلاد
الاندلس ٨٠ قطعة ونظر في استجلاب الخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح وأمر بضرب
السهام في جميع ممالكة فكان يضرب له منها كل يوم نحو عشرة قناطير
وقام بالامر من بعده أكبر اولاده محمد بعهد منه ولم يتم له الامر لانه كان على أمور لا يصلح
معها للملكة من إدمان شرب الخمر واختلال الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس فاضطر بأمرة
واختلاف الناس عليه فخلع وكانت ولايته ٤٥ يوما (٥٥٨ هـ)
وقام بالامر من بعده أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن فبايعه الناس وأول شئ فعله بعد البيعة
ان سرح الجيوش المجتمعة للجهاد إلى بلادهم وقيائلهم وكان والده جمعهم بقصد الغزو كما سبق
وكتب إلى البلاد بتسريح السجون وتفريق الصداقات ثم أتته البيعة من جميع بلاد أفريقية
والاندلس ما خلا قرطبة وبجاية فان ولاتهم ما وهما انخواه توقفا عن ذلك ثم قدما عليه فاجبن وفادتهما
ولما استقام له الامر وثبت قدمه أرسل الجيوش إلى جزيرة الاندلس فأخذوا عدة مدائن كان يحاصرها
الاسبانيول وفتحوا غيرها عنوة وصلحما ثم ناقت نفسه للغزو والعبور إلى بلاد الاندلس بقصد اصلاح

حاله واجهاد العدو بها فغير اليها في مائة ألف من العرب والموحدين (٥٦١ هـ) وتسلم جميع بلاد شرق الاندلس من اولاد محمد بن مردنيش ثم خرج قاصدا الغز وفاتحن في بلاد العدو ورجع الى اشبيلية وبنى بها مسجدا عظيما وصنع على وادي اشبيلية جسرا من القوارب وحصن سورها وجلب اليها ماء غزيرا ثم تجهز على مدينة قفصة من أفر بريقية واقتحمها (٥٧٦ هـ) ولما بلغه منزلة أدفونش بن شانجة مدينة قرطبة عبر بالجيوش من سبتة وتقدم نحو الشمال يريد حصار شنترين وينما هو على حصارها وقد فارقه جيوشه لئلا يغلطه قواده خرج عليه المحصورون لما رأوه في نفر قليل وقتلوه حتى جرح جرحا بلغا ثم مات في عودته الى مراکش (٥٨٠ هـ) وكان رقيق الطباع حلوا الالفاظ طيب المجالسة أعرف الناس وأحفظهم بآيام العرب الجاهلية والاسلام وكان فقيها حافظا لان آباءه ذنبه وقرن به وباخوته أكل رجال الحرب والمعارف فنشأ في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان ومن قراءة العلم بين أفاضل العلماء وكان ميلا الى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله الى الادب وبقيقة العلوم وكان له دار كتب جمع فيها كثيرا من المؤلفات المهمة وكان ممن صحبه من العلماء الوزير أبو بكر محمد بن الطفييل الفيلسوف الشهير ومنهم ابن رشد المعروف بالحفيد وغيرهما من فحول الادياب والعلماء وكان يوسف بعيد المهمة ضابطا للملكة عارفا بالسياسة جوادا ومدة ملكه سنة ٢٢

لما توفي الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بويع ابنه يوسف يعقوب وفي أول دولته أغار ابن غانية المسوفي صاحب جزائر ميورقة ومنورقة وياسة بأسطولها على بجاية على حين غفلة من أهلها سنة (٥٨١ هـ) فافتحمها ثم استولى على الجزائر ثم على مليانة فأرسل عليه يعقوب بن يوسف الجيوش ففصر ابن غانية الى الصحراء في أخبار طويلة ثم عاود ابن غانية الاغارة على بلاد أفر بريقية وظاهره على ذلك قره قوش الغزي من موالى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان قد تغلب على طرابلس وما والاها ولما بلغ يعقوب الملقب بالمنصور ذلك نهض بنفسه ثم تلاقي مع جيوش ابن غانية الذي كان يساعده قره قوش الغزي واتشب الحرب فكانت الهزيمة أخيرا على ابن غانية وأقلت من المعركة بنفسه ومعه خليله قره قوش ثم سار يعقوب الى مدينة قابس وكانت لقره قوش فافتحمها واسترد غيرها من المدن التي كان اقتحمها ابن غانية سنة (٥٨٤ هـ) وبعد ذلك بسنة تحرك الى الاندلس رسم الغز وفعبر من قصر المجر الى الجزيرة الخضراء ومنها حتى نزل شنترين (١) وشن الغارة على أشبونة وأبلغ في النكابة بها ثم انصرف الى برا العدو بسبب كثير وقبيل اغارته على أشبونة كان وصل اليها أسطول مؤلف من ٦٠ سفينة عليه عشرة آلاف من جنود المانيا وجهات الرين السفلى وبلاد اللورين وكانوا آتين من زيارة بيت المقدس فأنزل هذا الأسطول تلك الجنود على شواطئ غاليسيا بجهات سان چال (سانت ياقوب) بقصد زيارة كنيسة فانتشر الخبر بين السكان بأن هؤلاء القوم أتوا السرقة رأس القديس ونهب الاموال المسخرة بكنيسة تلك المدينة فحملوا السلاح جميعا وأتوا الصدهم حتى اضطر وهسم للزول في سفنهم ثانية وفي هذا الوقت أيضا أتبل أسطول آخر للانسكلز والقلامان الى مدينة أشبونة فتعاهد معهم سانشو ملك البرتغال على

(١) شنترين مدينة ببلاد البرتغال من مقاطعة استرامادورة واقعة على الشاطئ الايمن من نهر راجه استردها القونين الاول من بد المسلمين سنة (١١٤٧ م) وتسمى عند الفرنج (Santarem)

محرقة المسلمين ويقال أيضا ان الاسطول الاول الذي صده أهالي غاليسيا أتى وانضم الى هذا الاسطول وبذلك صار ملك البرتغال معضداً بأسطول جسيم فلهذا أرسل جيشاً على مدينة بيجا (١) وياورة (٢) للاستيلاء عليهما وكان الموحدون أخذوهما منه في السنة الماضية فلما سمع المنصور بذلك وباستيلائهم على بعض مدنه وقتلهم غالب من يها من السكان والحامية أرسل عليهم جيشاً قويا تحت قيادة والي قرطبة ومازالوا ينزلونهم حتى استردوا منهم جميع ما استولوا عليه من المدن وأخذوا منه عددا عظيماً من الاسرى ومقدارا وافرا من الغنائم سنة (٥٨٧ هـ)

وكانت الفريخ في الحروب الصليبية قد ملكوا سواحل الشام في آخر الدولة العبيدية فلما استولى السلطان صلاح الدين على ديار مصر والشام وأخذ في منازلة الفريخ وقوى عليهم أتت الامدادات من أوروبا وبالاساطيل واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لضعفها يومئذ فبعث صلاح الدين الى المنصور سنة (٥٨٥ هـ) يطلب اعانته بالاساطيل لمنازلة عكا وصور وطرابلس الشام وأقد عليه أبا الطرث بن منقذ من بيت ملوك شيرطال بالمدد الاساطيل التحول في البحرين أساطيل الفريخ والامدادات المتواصلة اليهم وبعث معه الى المنصور بهدية نفيسة

ولما وقف المنصور على كتاب صلاح الدين ورأى تجافيه عن خطابه بأمر المؤمنين لم يجبه ذلك وأسرها في نفسه وحمل الرسول على مناهج البر والكرامة ورده الى مرسله ولم يجبه الى حاجته وهذا دليل عظيم على تفرق كلمة الاسلام في ذلك الوقت فان المنصور أخذته العزة لانه لم يخاطب بالقباب العظمة والحلالة حيث كانت عنده أعز من ضياع بلاد المسلمين وزوال مملكتهم عامله الله بما يستحق ولما علم الفريخ بالاندلس اشتغال المنصور بأمر أفر بقبية وحروب ابن غانية قام الفونس وهنرى كيز ملك البرتغال ووسع حدوده من جهة الجنوب واستولى على عدة حصون في تخوم مملكة الموحدين واستعد أيضا فردينند ملك ليون للانارة على جهات وادي يانه واستولى على بعض المدن وكان يرسل الامداد لمحمد بن سعد بن مردنيش ليشجعه على مناضلة الموحدين فكتب المنصور الى قواده بالاندلس يوجههم على ذلك فخر جوا في جيوش كثيرة واستردوا ما فتحه الا فريخ بعد حصار واستولوا على غيره ثم عادوا بالسبي الكثير ثم لما انتهى الخبر بأن الفريخ عاثوا في بلاد الاندلس عيثا فظيما تجوز لقتالهم في جيش عرمرم وعبر البحر (٥٩١ هـ) واتصل الخبر بالفونس التاسع ملك قشتالة فجمع خلقا كثيرا وأقبل بهم نحوهم وجرى بين الطرفين قتال يقال له الارك (٣) وبعد أن دارت رحى الحرب زمنا بين الطرفين انهزم الفريخ وقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة واحتوا على جميع ما كان لهم من الاموال والذخائر وأنواع السلاح التي تفوق الحصر ورجع أمير المؤمنين ومعه من السبي والاسرى والغنائم شيء كثير مبسوط في التواريخ وهذه الواقعة من أكبر وقائع الاسلام بالاندلس ثم تلاقي الموحدون والفريخ بعد ذلك (٥٩٢ هـ) قرب طليطلة فانهمز الفريخ أيضا وغنم المسلمون ما معهم من الاموال

- (١) بجامدنة صغيرة ببلاد البرتغال كانت تسمى قديما بكس جوليا لها أسوار قديمة عليها أبراج (Beja)
 (٢) مدينة حصينة ببلاد البرتغال كانت تسمى قديما أيوراها من رومانية قديمة بقايا هيكل للعبودية كان استولى عليها العرب عند فتح أسبانيا سنة (٧١٥ م) ثم استردها الفريخ منهم سنة (١١٦٦ م) وتسمى عند الفريخ (Évora)
 (٣) هي مدينة ببلاد قشتالة الجديدة تسمى عند الفريخ (Alarcos) اشتهرت بالواقعة المذكورة

والسلاح ثم تقدم بعد ذلك وفتح عدة حصون بجهات طليطلة مثل قلعة رباح ووادي الحجرة (١) ومجريط (مدريد) وجبل سلين وبينهما كان المنصور يجهز على الفرنج بلغه خبر علي بن اسحق المعروف بابن غانية وانه دخل افريقية ثانية يريد الاستيلاء عليها ففت ذلك في عزمه وهادن ملوك الفرنج ولواراد لافتح في هذه الغزوة طليطلة لولا خروج والده ادفونس وبناته ونسائه بايكات بين يديه وسألته ابقاء البلد عليهن فرق اليهن ومن عليهن بهن ثم تمكن المنصور من قهر ابن غانية وطرده من افريقية وقد شيئا المنصور بالاندلس والمغرب كثيرا من المباني الفاخرة كالمساجد والمدارس والمارستانات والحصون والصوامع والقناطر والآبار وحسن عدة مدن بالاندلس والمغرب وكان المنصور ذراى وحزم ودين وسياسة وهو واسطة عقد ملوك الموحدين وكانت ايامه ايام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وقد أخذ المنصور البيعة لولده ابي عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله فلما تمت جلس في محل الخلافة وحرث الاحكام والاوامر باسمه وعلي يديه في حياة ابيه ثم دخل المنصور قصره فلزمه (٥٥٩٥ هـ) وقد اختلفت الروايات في أمره فن الناس من يقول انه ترك ما كان فيه وتجرد وساح في الارض حتى انتهى الى بلاد المشرق وهو مستخف لا يعرف ومات خاسلا ومنهم من يقول انه لما رجع الى مراكش توفي بها وقيل توفي بمدينة سلا وقيل انه دفن بعد موته بالقرب من قرية الجدل من أعمال البقاع العزيزي القرية من دمشق

لم مات يعقوب المنصور جددت البيعة لولده محمد الناصر لدين الله بن يعقوب

في اليوم الذي مات فيه ابيه ولما تمت له البيعة أخذ في اصلاح مدينة فاس وتحسينها وكان أمر ابن غانية لما هلك المنصور قوي واستولى على طرابلس والمهدية وبلاد البحر يدونوس (٥٥٩٩ هـ) فأطاعه أهل البلاد وانتظمت له أعمال افريقية وفرق العمال وخطب للخليفة العباسي ولما اتصل هذا كله بالناصر امتعض من ذلك وخرج لحرب ابن غانية (٥٦٠٠ هـ) فبعث الاسطول في البحر تحت قيادة يحيى بن ابي زكريا وسار هو على الجيش البري ولما قرب الناصر من افريقية استعد ابن غانية لملاقاة ثم أخذ يفر من أمامه من مدينة إلى أخرى ثم التقت به جيوشه فهزمته وفتح الناصر المهدية بعد حصار طويل (٥٦٠٢ هـ) ثم تحرك الناصر الى المغرب بعد أن رتب أموره وسدد ثغوره واستخلف على افريقية ثقتة ووزيره ابا محمد عبد الواحد ابي حفص بعد الملوك الحفصيين ثم بعث جيوشه واسطوله على جزيرة ميورقة التي كانت ابني غانية المسوقين وكان امتنع فتحها على والده فافتتحها واستمرت في يد عماله حتى أخذها الفرنج (٥٦٢٧ هـ)

وكان الفونس ملك قشتاله دخل اقليم الاندلس مع جيش عظيم وأخذ في التخریب والنهب والاسر ولما امتلأ يده من الغنائم رجع الى بلاده ثم تقابل مع ملكي نافار وأراغون وعقد معهما عهدا حريبا ليجوعنه العار الذي لحقه بهزيمة الارل ثم أخذ في الاستعداد وجمع الجنود وأغار على اقليم الاندلس وتقدم حتى وصل أبواب مرسية ثم رجع الى طليطلة بالغنائم الوافرة ولما اتصلت الاخبار بالناصر وهو بمراكش بمصنعه الفونس ومحالفيه واستطاعته على ثغور المسلمين أهمه ذلك

(١) مدينة باسبانيا بقاطعة قشتاله الجديدة وقامه عماله مضافة اليها استولى العرب عليها سنة (٧١٤ م) عند فتح اسبانيا ثم استردها منهم الفونس السادس ملك قشتاله سنة (١٠٨١ م) وتسمى عند الفرنج (Guadalajara)

وأقلقه وأخذ في الحركة للجهاد ففرق الاموال على القواد وكتب الى جميع بلاد افر بقمية والمغرب
يستنفر المسلمين للجز وفأجابهم خلق كثير وتسارع الناس اليه من البوادي والامصار فلما تكاملت
لديه الجنود عبر الى الاندلس واحتل مدينة طريف فلتلقاه هناك قواد الاندلس ورجالها ثم تقدم
بهذا الجيش الذي كان يبلغ عدده (٦٠٠) ألف مقاتل كبار واما المؤرخون وأمر كل فرقة من جيشه
ان تنزل ناحية فاهتزت جميع بلاد الفرنج لذلك وخافوه فأخذوا في تحصين بلادهم واخلاء ما قرب
من المسلمين من قراهم وحصونهم وكتب اليه أكثر أمرائهم يسألونه السلام ويطلبون منه
العفو (٦٠٨ هـ)

ثم زحف القونس ملك قشتالة ومن انضم اليه من ملوك أراغونية ونافار وغيرهما من أمراء
أوروبا وكان نأدي فيهم أنوسان الثالث بباروميسة بحرب المسلمين لان ملك قشتالة كتب له قبيل
ذلك يستجده ويعلمه بما صارت اليه حالة الاسبانيول من الضعف وقلة المعين وأرسل أيضا القونس
عظما كهنته الى بلاد فرنسا وأسطأورو وبالطلب الجبدة وتلاقى الجيشان فكان يعرف بخصم
العقبان (١) ثم ضرب المصاف ونصبوا الناصر قبته الحرا المعدة للقتال على رأس ربوة وقعد امامها
على درقته وفرسه قائم بازائه ودارت العبيد بالقبعة من كل ناحية ومعهم السلاح التام ووقفت
الساقات والبنود والطبول امام العبيد مع الوزير ابن جامع وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها
الجراد المنتشر ثم تناوش الفريقان زمنا ولم تكن الاساعة حتى انهزم عسكر الاندلس وتبعهم قبائل
البربر والموحدون والعرب وركبتهم الفرنج بالسيف ثم فر الناصر وامامه ككبكة عظيمة من العبيد
محيطه به والفرنج في أعقابهم تقتل وتأسر حتى أقبل الليل وكانت هذه الهزيمة المنكرة خامس عشر
صفر (٦٠٩ هـ) فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والاندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية مع
الفرنج الى ان تدارك الله سبحانه وتعالى الامر بالسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني
كاسم آق وكان السبب في هذه الهزيمة المنكرة نصارى الاندلس الذين أظهروا الاسلام خصوصا وزيره
أبا سعيد بن جامع لانه كان تمكن من الناصر وأقصى شيوخ الموحدين وأعيانهم وذوى الرأي منهم
عن بساطه وانفرد هو به فكان يشير على الناصر في غزوه هذه بما رآه كانت سبب الضعف جلبت
الكرة على المسلمين كما بسط ذلك مؤرخو العرب وبعده من قليل تراجعت الفرنج الى الاندلس
بعده هذه الكائنة للاغارة على بلاد المسلمين فلقيم أبو بكر بن أبي حفص وزير الناصر قريبا من
اشبيلية فهزموهم وانتعش المسلمون بذلك ولما قدم الناصر منصرفا من وقعة العقاب أو العقبان أخذ
البيعة لولده يوسف الملقب بالمنتصر فبايعه كافة الموحدين (٦٠٩ هـ) ولما تمت له البيعة دخل
الناصر قصره واحتجب فيه وانفس في لذاته حتى مات مسموما بتدبير وزيرائه عليه (٦١٠ هـ)
وقال ابن الخطيب ان الناصر صرف همه بعد تلك الواقعة المشؤمة الى غز والاندلس للاخذ بالثأر في
عزم لم يبلغ اليه ملك قبله ولما احتل رباط القمح من سلازل به الموت (٦١٠ هـ) فانحل العزم
وقد سرفت الجموع قد دمه ملكه خمس عشرة سنة

لمامات الناصر بويوع ابنه يعقوب يوسف (٦١٠ هـ) وقام أمراء الموحدين بأمره

(١) وهو حصن باسبانيا شمال جيان اشتهر بهذه الواقعة التي انهزم فيها الناصر (١٦ يولييه ١٢١٢ م)
وتسمى هذه الواقعة أيضا بواقعة لورقة (Lorca) أما الحصن فيسميه الفرنج (Navas-de-Tolosa)

واستبدوا عليه لانه ولي أعمامه وأقارب العمالات وكان جميعهم يطمع في الملك وفي زمنه فشل
أمر الموحدين وأشرفت دولتهم على الهرم واستولى القونش التاسع ملك الاسبانيول على الحصون
التي أخذها المسلمون وهزم حامية الاندلس وكان يوسف في أثناء ذلك يشتغل عن تدبير
الامر والجهاد بما يقتضيه الشباب وظهر في مدته أيضا نومر بن بجهة فاس (٦١٣ هـ) ولم
يتمكن من منع تقدمهم بل استطالت يدهم على كثير من النواحي بعد ان هزموا عدة جيوش وفي
عصره أيضا انهزم المسلمون هزيمة منكرة بالاندلس فضعف أمرهم جدا وتسمى هذه الواقعة بواقعة
قصر أبي دانس (٦١٤ هـ) وفي عصره أيضا استبد الحفصيون بملك افر بقيه واقتطعوها
عن نظري بن عبد المؤمن وكانت وفاته من نطحه بقرة شرود في بسطانه لانه كان مولعا باستنتاج
الحيوان (٦٢٠ هـ)

وبعد وفاته اجتمع الموحدون وبايعوا عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن وكان في سن
الشيخوخة فاستقام له الامر نحو شهرين ثم اتحد الموحدون وبعض عمال الاندلس على عبد
الواحد فخلعوه ثم قتلوه (٦٢١ هـ) وهو أول من خلع وقتل من بني عبد المؤمن
ثم قام بالامر من بعده أبو محمد عبد الله العادل بن المنصور بويوع له البيعة الاولى بترسية من
بلاد الاندلس ثم الثالث عليه الامر بعد امور يطول شرحها فانحرف عنه الموحدون وبايعوا
أخاه أبا العلاء ادريس بن يعقوب صاحب الاندلس (٦٢٤ هـ) وكان العادل خيرا
فاضلا وبعد ذلك ندم الموحدون على مبايعتهم أبي العلاء فنقضوا بيعته وبايعوا يحيى بن الناصر
ابن المنصور وكان شابا غزا ليكون أطوع لهم وبعد ذلك بقليل اضطررت الاحوال على يحيى
وانتقضت البلاد وعم الفساد ببلاد المغرب واستحوذ بنومر بن علي ضواحيه واقتضوا حاجياته وكان
من أشهر الثوار في زمنه محمد بن أبي الطواحين الكناحي وكان ينتحل صناعة الكيمياء ثم ادعى النبوة
وشرع الشرائع وكثر تابعوه ثم نبذوا طاعته لما علموا بأمره ثم قتلوه

أما بلاد الاندلس فانه لما ضعف أمر الموحدين بالمغرب فسدت من أجل ذلك ضمائر أهل
الاندلس وقام على رأس الثوار به رجل من أعقاب بني هود الجذامين وكسر جيوش الموحدين
بالاندلس وخطب الخليفة المستنصر العباسي صاحب بغداد ثم دانت الاندلس جميعها لابن هود
(٦٢٩ هـ) ثم استقر الامر بالاندلس بين ابن الاحمر وابن هود ونجاذبا حبل الملك بها زما وفي
تلك الاثناء استولى القونش المتقدم المذكور على كثير من حصون الاندلس ومدائنه ثم استقر
ابن الاحمر في الملك وأورثه بنيه من بعده

ولما علم أبو العلاء المأمون ان الموحدين نقضوا بيعته وبايعوا ابن أخيه يحيى كتب الى ملك
قشتالة يستنصره على الموحدين فأرسل له جيشا من الفرنج على شرط أن يعطيه عشرة حصون مما
بلى بلاده يختارها هو وان يبني في مراكش اذا دخله جيش النصارى الذين معه كنيسة يظهر
بها دينهم وان من أسلم منهم لا يقبل منه اسلامه ويرد الى اخوانه فيحكى فيهم بأحكامهم وغير ذلك
فرضى المأمون بجميع ما طلب عامه له الله بما يستحق فكان بذلك أول من أدخل عساكر الفرنج
أرض المغرب واستخدمهم بها ثم تقدم يحيوشه الى أن التقى بجيش يحيى فانهمز يحيى ودخل المأمون

مرا كش عنوة ويابعه الموحدون وأمر بعد ذلك بتغيير السنن التي ابتدعها المهدي للوحدين ومحا
كذلك اسم المهدي من السكة والخطبة ثم انتقم من أشياخ الموحدين على ما فعلوه معه فقتلهم جميعا
ومع ذلك فإن الأيام لم تسلمه فخرت عليه الثوار من كل جهة فمات غما (٦٢٩ هـ) فكانت
أيامه أيام شقاء وعناء افتقرت دولة الموحدين فيها فرقتين فرقة معه وفرقة مع يحيى بن الناصر وقد
ذهبت نخوة دولة الموحدين على يده وكان فصيح اللسان فقيها حافظ الحديث عارفا بالقراآت مقدما
في علم اللغة والعربية والادب وأيام الناس كاتباً بليغا

لمامات المأمون بويع ابنه عبد الواحد ولقب بالرشيد (٦٣٠ هـ) بمساعي أمه وكانت من
دهاة النساء ثم اقتتل جيش الرشيد مع جيش يحيى فانهزم يحيى وما زال الرشيد يحارب جوع يحيى
حتى بدد شملهم وقتل يحيى أخيرا (٦٣٣ هـ) ويابعه غالب الموحدين الذين كانوا مع يحيى وكانت
أحوال دولة الموحدين في زمنه مضطربة الحبل كاهي العادة في أواخر الدول لتفرق الأهواء وتشتت
القلوب وانحلال العزائم ومن الوقائع الشهيرة في زمنه منازلة فرنج جنوة بمدينة سبتة بسفن
لا تحصى ونصيبهم عليها المنجنيقات وآلات الحصار حتى استولوا عليها ولم يمكن الموحدون من
تجديتها منهم فيه من الفتن والشغب صالح أهل سبتة الفرنج في الإفراج عنهم فقبولوا وأقلعوا وبسفنهم
وفي زمنه أيضا انتشر بنو مرين ببلاد المغرب وامتد نفوذهم وقهر واجيوش الرشيد مرارا ثم مات
الرشيد غريبا في بعض صهاريج بستانه بمراكش (٦٤٠ هـ)

لمامات الرشيد بايع الموحدون أخاه لابيه أبي الحسن علي العميد وفي أول حكمه استفحل الخطب
واتسع الخرق ويابع كثير من مدن المغرب أبازكر بالحفصي صاحب أفرقية واما حصل ذلك جمع
السعيد الجوع العديدة وسار بها نحو أعدائه الحفصيين وغيرهم فسامته مدن كثيرة وأذعن له بالطاعة
في مسيره عدة قبائل ومع ذلك فلم تساعده الأيام حيث قتل بينما كان يتطلع أخبار العدو (٦٤٦ هـ)
ولما قتل السعيد اجتمع كبراء قواده ويابعوا عبد الله ابنه الا انه قتل في الطريق ثم انقل
الموحدين بمراكش بايعوا عمر المرتضى عامل مدينة باطفاستقام أمره وقاتل بنو مرين فهزمهم
واستخلص منهم عدة مدائن الا انه لما أراد ان يستخلص من يدهم مدينة فاس هزمت جنوده فقرا إلى
مراكش في جمع قليل من الأشياخ والفرنج وأقام بها معرضا عن بنو مرين طول حياته وفي زمنه
خرج عليه ثائر شهير يدعى بأبي دبوس واستولى على مراكش وغيرها من المدن (٦٦٥ هـ) ففر
المرتضى منهزما والتجأ إلى أحد عماله فلم يجره وقبض عليه لحزارة في نفسه منه وسلمه إلى الثائر المذكور
فقتله في السنة المذكورة وكان متصوفا زاهدا فاضلا عفيفا

وبعد مقتل المرتضى اجتمع كافة الموحدين وأهل الحل والعقد والفقهاء وغيرهم ويابعوا
أبادبوس بملكته مراكش وأعمالها وتلقب بالواثق بالله والمعتمد على الله فنظر في راحة الرعايا
وبذل العطاء ورفع المكوس ثم تقاتل أبو دبوس بجيوش الموحدين مع عبد الحق أمير بنو مرين فانتصر
عبد الحق على خصمه وقتله وبذلك تم له الاستيلاء على جهات فاس ومراكش باجمعها (٦٦٨ هـ)
وفر الموحدون الذين بمراكش إلى جبل تيممل (١) فبايعوا اسحق بن ابراهيم أخا المرتضى

(١) قال ياقوت تيممل جبال بالمغرب بيهما قري ومزارع يسكنها البرابرة بين أولها ومراكش نحو ثلاثة فراسخ منها كان

فبقى هنالك الى (٦٧٤ هـ) ثم قبض عليه وحبس به الى السلطان يعقوب بن عبدالحق هو وغيره من أقاربه فقتلهم جميعا وانقرضت دولة بني عبد المؤمن من الارض وكانت مدة ملكهم مائة وأربعة وسبعين سنة

وقد كانت دولة الموحدين من أعظم الدول وأقواها وأخمسها وقد نالت الشهرة العظيمة في الاعمال البحرية وكانت مملكتها واسعة الاطراف حصينة الاكفاف نالت من السلطة وارتفاع الشأن ما لم تتسله دولة المرابطين فكانت تحدد جنوبا بالبحر الكبري وغربا بالبحر الطلمات وشرقا بالمال الفاصلة لها عن مصر وشمالا بالبحر الروم ومضيق طارق الواقعة بشماله بلاد الاندلس التي كانت الغرض التي ترمى اليه فتوحات الموحدين وكانوا يملكون جميع القسم المسمى الآن ببلاد الاندلس يتبعه مدن اشيلية وقرطبة وغرناطحة ومالقة والرية بحيث كانت جميع شواطئ الوادي الكبير تابعة لهم وكان يفصل مملكتهم بالشمال الشرقي عن مملكتي قشتالة وابن سعد الذي كان يحكمهم بالنسبة ومرسية المعاهد لنصاري اسبانيا بجبال شاهقة وحصون منيعة ووديان ضيقة وكان للموحدين غير ما ذكره عدة مدن على الشاطئ الايمن من وادي بانه الذي كانوا يملكون جميع شاطئه الايسر وكان لهم أيضا جميع القسم الجنوبي من بلاد البرتغال الحالية المسماة باقليم الغرب وبذلك كانت دولة الموحدين عرضة من هذه الجهات لاغارات أعدائهم

(الفصل العاشر)

دولة بني مرين بالمغرب الاقصى

(٦١٤ - ٨٩٠ هـ)

اولية هذه الدولة وأصلها اعلم ان بني مرين هم من جبل زناتة بالمغرب وكانوا قبل استيلائهم على ملك المغرب احياء طواعن بمجالات القفر من فجج الى سجلماسة الى ملوية وربما يتخطون في ظعنهم الى بلاد الزاب ويتصل نسب مرين جدهم بزنانة ابن يحيى أبي الجليل والنسابين أقوال مختلفة عن أصلهم ضربنا عنها صفحا ولما هم يعقوب المنصور ملك المرابطين بغزو وفرنج الاندلس استنفرهم الى غزوة الارك فشهدوها وأبوا فيها بالسلا الحسن وكان رئيسهم اذذاك محيوي بن أبي بكر اصابتة في تلك الواقعة جراحات هلك منها (٥٩٢ هـ) أما سبب دخولهم بلاد المغرب فانه لما كانت وقعة الهقاب بالاندلس (٦٠٩ هـ) وهزم الناصر وهلك الجمهور من حامية المغرب حتى خلت البلاد من أهلها وحدث عقب ذلك الوباء العظيم الذي أهلك الناس الا قليلا ومات الناصر بايع الموحدون ابنه يوسف المنتصر وهو يومئذ صبي حدث لا يحسن التدبير وشغلته مع ذلك أحوال الصبا واذات الملك عن القيام بأمر الرعية كما تقدم فتضافرت هذه الاسباب على الدولة الموحدية فاضعفتها حينها وأمرضتها المرض الذي كان سببا في ملامتها وكان بنو مرين يومئذ يتنقلون بين قفار المغرب وسحار به لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا تتألمهم الدولة بضميمة ولا يؤدون اليها ضريبة ولا يعرفون تجارة ولا حرفا انما شاغلهم الصيد والغارات على أطراف البلاد وكانوا يترددون على منابت الكلاصية فأتهم برحلتهم عنها شتماء ولما كانت (٦١٠ هـ)

أول خروج محمد بن قمرت المسمى بلهدي الذي أقام الدولة ومات فصارت لعبد المؤمن ثم لولده اه ويجعل يتأمل آثار جارية وأخبار وزروع والطريق اليه صعب فلاجبل أحصن منه

أقبل ينجعهم على عادته لليرة فلما أطلوا على المغرب أنوه قد تبدلت أحواله وبادت خيسله ورجاله فاعتموا الفرصة وأقبل من كان منهم لا يزال في وطنه وانتشر في نواحي المغرب واقتسموا بالغايات والنهب بسببه وبلحات الرعايا من ذلك إلى الحصون والمعازل وكان رئيسهم لم يداخلوا المغرب عبدالحق ابن محيو ولما كثرت عليهم وتضاعف على الرعية بلاؤهم رفعت الشكايات إلى خليفة مرا كاش وهو يومئذ يوسف المنتصر بن الناصر فجهز لهم جيشا كثيفا وأمر عماله باستئصالهم ثم لما التقى الجمعان كان الظهور لبني مرين على الموحدين (٦١٣ هـ) وزحف الأمير عبدالحق إلى بعض المدن فاقتحمها وفرق جميع الأسلاب والغنائم على جنوده بحيث لم يسد لنفسه منها شيئا فكان ذلك من أكبر الأسباب في اجتماع القلوب عليه ثم تضافر الموحدون مع كثير من عرب المغرب على قتال بني مرين وطردهم من البلاد ولما علم بنو مرين بذلك اجتمعوا إلى أميرهم عبدالحق فصبرهم وقال لهم يا معشر مرين امامادتم في أمركم بجمعين وفي آرائكم متفقين وكنتم على حرب أعدائكم أعوانا وفي ذات الله انخوانا فلا تخشى ان التي بكم جميع أهل المغرب وان اختلفت أهواؤكم وتشتت آراؤكم ظفر بكم عدوكم ثم بايعوه على السمع والطاعة وعدم الاختلاف ثم ضوامع أميرهم لاقاه عدوهم فكانت بينهم حرب دموية قتل فيها الأمير عبدالحق وكبير أولاده ادريس (٦١٤ هـ) ولما رأيت بنو مرين ما وقع بأميرها وابنه جيت وغضبت وأقسمت أن لا يدفن حتى يؤخذ بثأره ثم استأنفوا القتال وصبروا صبرا جميلا فنصرهم الله على عدوهم وشردهم في الشعاب والوادية واحتوا على أموالهم وكان عبدالحق مشهورا بالتقى والفضل والدين موصوفا بالعدل والانصاف وكان لقومه فيه اعتقاد غريب

ولما قتل عبدالحق بايع بنو مرين ابنه الأمير أبو سعيد عثمان ولما رأى الأمير أبو سعيد ما عليه دولة الموحدين من الاضمحلال وما نزل بالمغرب من الجور والعسف سار على رأس جيش فاختضع المدن والحصون وضرب عليها الاتاوة في كل سنة وما زال ذلك دأبه حتى مات قتيلا (٦٣٨ هـ) ولما هلك الأمير أبو سعيد قام بالامر بعده أخوه أبو معروف محمد بن عبدالحق فاقتنى طريق أخيه في تدوير بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وباديته وحصل بينه وبين الرشيد بن المأمون حرب كان النصر فيها له ثم ان الموحدين جمعوا جوعهم ونازلوا بني مرين فهزموهم وقتل أميرهم أبو معروف (٦٤٢ هـ)

وقام بالامر بعده الأمير أبو بكر بن عبدالحق وهو الذي رفع شأن بني مرين وأوصل مملكتهم إلى مرتبة الدول القوية وهو أول من جند الجنود منهم وضرب الطبول ونشر البنود وأول شئ بدأ به تقسيمه بلاد المغرب وقبائله بين بني مرين وأقطع كلامهم ناحية جعلها له طعمة وكان هذا الأمير في أول أمره يدعولابن زكريان أبي حفص صاحب أفر بقة وباعه افتتح مدينة مكناسة (٦٤٣ هـ) ولما انتهى الخبر إلى السعيد صاحب مرا كاش تغلب الأمير أبي بكر على البلدان وجم لذلك وفواض وزراء وأعاضم دولته وأراهم كيف أن بني مرين اقتطعوا الأمر عنه شيئا فشيئا حتى لم يبق للموحدين غير مدينة مرا كاش وما حولها بعد ان امتد ملكهم على المغريين وأفر بقة والاندلس كما سبق شرح ذلك في آخر دواتهم ولما تجوز السعيد لحرب أبي بكر والحفصيين وخرج في جمع كثيف علم الأمير أبو بكر

أن لا طاقة له بلقائه ففر وتحصن في قلعته أما السعيد فانه تقدم الى مكناسة وفاس واستولى عليهما ثم
 حاصر الامير ابا بكر بقاعته فعند ذلك طلب الامير ابو بكر الامان وأرسل له بديعته فقبلها وكتب له
 ولقومه بالامان ولما هلك السعيد أثناء محاصرته تلمسان انتزها الامير ابو بكر الفرصة في فل الموحدين
 وانتزع منهم ما بأيديهم واتخذ من يومئذ المركب الملوكي ثم صار الى مكناسة فدخلها بالامان (٥٦٤٦ هـ)
 ثم بايعه أهل فاس على شرط الذب عنهم وسلوك طريق العدل فيهم وبعدها انفتح غيرهما من المدن
 رجع الى فاس فأقام بها واستقامت له الاحوال فعمرت القرى وأمنت الطرقات وسارت التجار وصلح
 أمر الناس وما زال الامير ابو بكر يفتح البلدان ويقهر القبائل حتى طار ذكره وارتفع أمره ولذلك
 أجمع المرتضى ملك الموحدين النهوض بنفسه الى بنى مرين (٥٦٥٣ هـ) في جمع كتيّف ولما التقى
 الجمعان وصدقهم بنو مرين الجلال اختل مصاف الموحدين وانهمزت عسا ك المرتضى فرجع الى
 مرا كش متهوا وراواستولى بنو مرين على معسكره وانتهبوا أمواله وامتلأت أيديهم من الغنائم
 وكانت وفاة أبي بكر بمدينة فاس (٥٦٥٦ هـ)

وقام بالامر من بعده الامير أبو حفص عمر الآن كبراء بنى مرين وأهل الحل والعقد فيهم
 مالوا الى مبايعة عمه يعقوب بن عبد الحق ثم انتهى الامر بعد جدال بينهما على أن يقتطع يعقوب
 ابن عبد الحق لنفسه قسما من البلاد وبذلك خلص الامر لعمر واستمر بفاس أشهر الى ان غلب
 عليه المذكور

أما الامير يعقوب بن عبد الحق فانه لما انفصل عن الامير عمر بولاية الجهة التي أخذها لنفسه
 اجتمع عليه كافة بنى مرين ولا موه على ما كان منه من التخلي عن الملك وعوده من أنفسهم
 المظاهرة الى أن يتم أمره فأجاب وياي عود ولما خرج بجيشه يريد مدينة فاس قابله الامير عمر بمجموعه
 ولما تراءى الجمعان خذل عز جنوده وأسلموه مقادا الى فاس مغلوبا ثم انعمه عفائه وأقطعته
 مدينة مكناسة (٥٦٥٧ هـ) واستبد يعقوب بالامر ونفذت كلمته ببلاد المغرب خصوصا بعد
 قتل الامير عمر واقتفى مذهب أخيه الامير أبي بكر في فتح أمصار المغرب وتدوخي جهاته وكان من
 أعظم أعماله انقاذه مدينة سلامن أيدي الاسبانيول وكانوا استولوا عليها (٥٦٥٨ هـ) ولما انتهى
 السلطان يعقوب من أمر الثوار عليه من أهل عشرينه صمم على منازلة الموحدين في دار ملكهم
 فشد الجيوش لذلك وخرج قاصدا حصار مرا كش (٥٦٦٠ هـ) فقابلتهم جنود الموحدين خارج
 مرا كش وكان بينهم حرب بعد العهد بجملها ولم تكن غير ساعة حتى هزمت عسا ك الموحدين
 هزيمة منكرة وأخيرا تم الامر لبنى مرين بفتح مرا كش عساعة أبي دبوس ابن عم المرتضى خليفة
 الموحدين وقائده ولما فر المرتضى من مرا كش نزل على صهره ابن عطوش فقتله كما تقدم ثم ان
 أبادبوس نقض عهد الوفاء للمعقودين منه وبين السلطان يعقوب واستبد بحكم مرا كش ثم كان بين
 يعقوب ونصراء أبي دبوس حرب شديدة اتصرف فيها بنو مرين (٥٦٦٦ هـ) وآخر الامر تمكن يعقوب
 من فتح مرا كش لنفسه خالصة وقتل أبادبوس في ساحة القتال (٥٦٦٨ هـ) ثم أغزى أولاده وقواده
 البلدان ففتحوها ودخلوا أقطارها ومحيط من وقتئذ آثار الموحدين وزالت دولتهم والامر لله وحده

ولما رحلت قدم يعقوب بالمغرب واتسع سلطانه قطع دعوة الخفصيين أصحاب تونس وقرية
 بعدان كان يدعو اليها هو واخوته من قبله وكان بنو أبي حفص يفرحون لذلك ويهادون بنى مرين

ويعدونهم بالمال والسلاح وغير ذلك ولما أراد السلطان يعقوب اقتتاح سجلماسة بعد ان انتظم في ملكه جميع بلاد المغرب وانستزعاها من أيدي بني عبد الواد المتغلبلين عليها ثم ض اليها (٦٧٢ هـ) في جوع بني مرين وقبائل المغرب ونازلها ونصب عليها آلات الحصار من الجانيق والعلل^(١) وادات وغير ذلك قال ابن خلدون ونصب عليها هندام النقط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزائن امام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدره بارئها وهو يدل على ان البارود^(٢) كان

- (١) واحدها عرادته من آلات الحرب اصغر من الخنبيق ترى بالحجارة المرى البعيد قبل هي من التعر يد بمعنى العدو
 (٢) البارود مزيج من كبريت نترات البوناس والفحم والكبريت يستعمل دافعا وتاريخ اختراعه ومخترعه مجهول
 ومن العبارة الآتية تعلم السنون التي استعمل فيها البارود وحسب رواية بعض نقات المؤرخين وهو انه في سنة (٢٨٠ م) كان الصينيون بحسب رواياتهم قد أخذوا عن الهند استعمال البارود في سنة (٢١٥ م) ذكر بوليوس أفريقيانوس طريقة تحضير البارود وفي سنة (٦٦٨ م - ٤٨ هـ) أوضح كلينيكوس من هاليوبوليس (بعلبك) للميناطين استعمال النار الاغريقية والمظنون انها كانت مخلوطا كالبارود محتويا على راتنج وبتروولومين المحقق انها لم تكن سائلا كما ذكر في حقيفة ١٨٩ من هذا الكتاب لانه في رأى بعض المؤلفين انها كانت تستعمل لدفع كرات حجرية من الانابيب وربما كانت مع ذلك مخلوطا كخيلوط الاسهم النارية أو الكرات المحشوة وفي سنة (٧١ هـ - ٦٩٠ م) استعمل العرب على مكة المكرمة سلاحا ناريا أخذوا استعماله عن الهند وفي سنة (٨١١ م - ١٩٦ هـ) استعمل الامبراطور لاون الخامس الارمني سلاحا ناريا وفي سنة (٨٤٦ م - ٢٣٢ هـ) ذكر مرقس غراخوس أحد المؤلفين اليونانيين في كتابه (خطي يقال انه موجود في ايسفورد) مخلوطا من كبريت ليره (١) من الكبريت وايره (٢) من الفحم ولييره (٦) من ملح البارود وفي سنة (٨٨٠ م - ٢٦٧ هـ) صنع لاون الملقب بالفيلسوف أسهما ناريا لعساكر الامبراطور ريبه الرومانية الشرقية وفي سنة (١٠٧٣ م - ٤٦٦ هـ) حاصر سليمان ملك المجر مدينة بلغراد وأطلق عليها المدافع وفي سنة (١٠٨٥ م - ٤٧٨ هـ) جرت موقعة بحرية بقرب طليطلة فطلقت سفن فرنس نارا كالعرد وفي سنة (١٠٩٨ م - ٦٣٠ هـ) استعملت السفن اليونانية المدافع في حربهم مع البيزنين (جمهورية من ايطاليا) وفي سنة (١٢٣٢ م - ٦٣٠ هـ) استعمل التتار في محاربة الصينيين أنابيب ناريا وفي سنة (١٢٣٨ م - ٦٣٦ هـ) استعمل دون جايم (Jayme) الاول ملك الاراغون عند حصار مدينة بلنسية كرات ناريا كانت تنشق وفي سنة (١٢٤٧ م - ٦٤٥ هـ) أطلقت الاسبانول على اسبيلية المدافع وفي سنة (١٤٤٩ م - ٦٤٧ هـ) لما زحف الملك لويس التاسع ملك فرنسا على دمياط عندما كان الملك الصالح بن الكامل مريضا فدافت جيوشه عن نفسها بكرات ناريا محشوة وكان الصليبيون في تلك الموقعة وغيرها يخشون الكرات المذكورة كثيرا وفي سنة (١٢٨٠ م - ٦٧٩ هـ) توفي البرنس مانوس في ايطاليا وكان راهبا واعطاء ذكر بعض المؤلفين القدماء انه وضع باللاتينية بعض الفاظ بمعنى اطلاق المدافع وما أشبه ذلك وفي سنة (١٢٩٤ م - ٦٩٤ هـ) توفي روجر باكون وهو الذي أشار في تأليفه اشار واضحة الى صفقات البارود الخربة وما يجده من الرعد والبرق أمر مشهور ويوجد الآن في معمل الاسلحة بامبرغ من بافاريا مدافع قديم مؤرخ في سنة (١٣٠٣ م - ٧٠٣ هـ) وفي سنة (١٣٠٨ م - ٧٠٨ هـ) كان للاسبانول مدافع امام جبل طارق وفي سنة (١٣١١ م - ٧١١ هـ) أطلق هنري السابع امبراطور المانيا على براشيا المعروفة الآن باسم برازا (جزيرة في الادرياتيك) بقرب ساحل دالماشيا مدافع ذات صوت كالرعد وفي سنة (١٣١٢ م - ٧١٢ هـ) كان لعرب الاندلس مدافع امام بازا المسمتة عندهم بسطة (مدينة في ولاية غرناطة) ولم يزل فيها الى الآن بعض مدافع من المدافع التي استعملها العرب وقتها وفي سنة (١٣٣٦ م - ٧٣٧ هـ) أطلقت المدافع على مونس (من أعمال الاندلس) وقد زعم بعض المؤرخين ان الصينيين عرفوا خواص البارود وكانوا يستعملونه للدافع في حروبهم قبل الميلاد بقرون متعددة غير انهم لم يأتوا على ذلك ببراهين جيدة أما تاريخ استعماله في الهند فلا يزال مجهولا ونسب بعضهم اكتشافه الى كيمابو خلط أجزاء في هاوون بوجه الاتفاق في نجات متوافقة

موجود في ذلك التاريخ وان التامس كانوا يستعملونه في حروبهم وبعدها أقام السلطان على حصار المدينة المذكور حولاً كاملاً فتحها (٦٧٣ هـ) وكل بفتحها فتح بلاد المغرب جميعها حيث لم يبق فيه أهل حصن يدينون بغير دعونه

وكانت ملوك الأيبانيين بالاندلس اقتطعوا من يد المسلمين غالب حصونهم واستولوا على مدينتي قرطبة واشبيلية فاعدت أهل الاندلس والتجانب الأخرى من معه من المسلمين إلى سيف البحر معتصمين بمعاقله وحصونه واتخذ ابن الأحمر مدينة غرناطة قاعدة له وابتنى بها السكناء حصن الجراء فلما ضايقهم العدو عز موا على ارسال وفده منهم إلى السلطان يعقوب يستنصره فوافدوا ذلك جميع مشيخة الاندلس عليه فلقمهم أحسن ملتقى وأكرم مشواهم وأمر من وقته بتجهيز الجنود وحشد العساكر وجهز أسطولاً عظيماً لنقلهم (٦٧٣ هـ) وعقد راية الحرب لآبته على خمسة آلاف فارس فتوغلوا في ديار العدو ثم عادوا وقد امتلأت أيديهم من الأموال والسلاح وهي أول نصره انتصر فيها المسلمون على الأيبانيين بعد واقعة العقاب المتقدمة المذكور ثم انه لما علم السلطان بان العدو أخذ في الاستعداد للخروج على بلاد المسلمين عزم على الخروج بنفسه إلى دار الحرب ثم كانت بينه وبين قائد الفونس ملك قشتاله المدعو في توار يخ العرب بالدون تونه واقعة عظيمة انتصر فيها بنومر بن نصر امبينا (٦٧٤ هـ) وغنم بنومر بن من الأيبانيين أموالاً لا تحصى وفي (٦٧٥ هـ) دعا السلطان جميع قبائل العرب إلى الجهاد لغز وفرج الاندلس فغزل على اشبيلية فانتصف أربابها بعد ان هزم طاميتها وافتتح عدة معاقل وبعدها استراح أياماً مندب الجنود إلى غز وقرطبة (٦٧٦ هـ) ثم ارتحل عنها بعد ان استولى على بعض

وغنى الهامون بحجر فلما استعمل الخلو ط اندنع الحجر إلى مسافة بعيدة وذهب كثير من أن اكتشفه يدعى بارفوك شورس وهو راهب من هرتس أور يندندو بعدا اكتشافه اطلع عليه أهل البندقية سنة (١٣٨٠ م - ٧٨٢ هـ) في أثناء الحرب التي كانت حاصلة بينهم وبين الجنوز بين فقاظ ذلك ممالك إيطاليا الخالفته قوانين الحروب العادلة وقال غيره من المؤرخين انه لما حاصر الفونس التاسع ملك قشتاله العرب سنة (١٣٤٣ م - ٧٤٤ هـ) أطلقوا عليه بعض هواوين من مدافع كان يسمع لها صوت كصوت الرعد القاصف ونبت هذه الرواية ما ذكره بدروس أسقف لاون في تاريخ الملك الفونس المذكور وقال غير ذلك والحاصل ان مخترع البارود لم يزل مجهولاً والظاهر ان العلماء مختلفون فيه وفي زمن اختراعه وقد تبين انهم ربما خلطوا باختراع البارود بازمان معرفته التي امتدت من قطر إلى قطر والمظنون انه لم يحصل لاستعماله أهمية في الحرب قبل أوائل القرن الرابع عشر لئلا تم استعملت المدافع بعد ذلك وامتد استعمالها عند الامم شيا فشيأ وكان للانكليزية سنة (١٣٧٨ م - ٧٨٠ هـ) مدفع امام سانت مالو وفي سنة (١٣٩٧ م - ٨٠٠ هـ) قمت بعض المعادن بالبارود واستعمله العثمانيون في حصار قينا الغاملسنة (١٥٢٩ م - ٩٣٦ هـ) وكانت دولة انكلتره تتباع البارود من اسوج وغيرهما من البلدان التي انشرفت معاملها بصناعتها في سنة (١٥٦٠ م - ٩٦٨ هـ) وما زال أهل أور وبايتوسعون في عمل البارود والمدافع الضخمة ويحيدون صناعتهم للمال من القوائد العظيمة في الحروب حتى توصلوا إلى اختراع أنواع كثيرة من البارود منها يصنف للحرب وصنف للصيد وصنف للاعدام وصنف للتجار الخارجية ومن أحسن أصناف البارود المخترع وأنواعها النوع المسمى بارود القطن وهو شديد القرمة جدا ويحصل من القطن ببعض عمليات كيميائية ويستعمل في الانعام البحرية وخلافها وصناعة البارود يبيع في فرنسا وانكلترا وكثيراً ما كان أور وبايتوسعون في الحكومة وبعض الدول تمنع دخوله لبلادها من بلاد اجنبية وفي هذا الوقت الاخير توصلوا من طول البحث ودقة المراقبة إلى اختراع أنواع كثيرة من بارود لا دخان له وقد كاد استعماله يكون عموماً في سائر الممالك ومن البارود أيضاً نوع هائل القرمة شديد الصوت العظيم التأثير يسمى بالديناميت ويبيع هذا النوع وصنعتة ممنوعان في كل الممالك لما يحدث منه من الاخطار المرعبة اه ملخصاً من دائرة المعارف

حصونها كل ذلك والعدو لا يجسر على ملاقاته ثم ان الفونس جئ الى السلم وبعث القسيسين والرهبان
للساطة فأحالهم السلطان يعقوب على ابن الاجر ليرى في ذلك رأيه ولما وصلوا الى ابن الاجر قالوا
جئناك لتقدمك صلحاً مؤبداً لا يعقبه غدر ولا حرب وأقسموا له الايمان المغلظة فأجابهم ابن الاجر
الى مطلوبهم بعد عرضه على أمير المسلمين فانه قد الصلح وقفل السلطان يعقوب من غزوه جاعلاً
طريقه على غرناطة احتفاءً بابن الاجر وخرج له عن الغنائم كلها ثم عاد السلطان غانماً منصوراً بعد
أن استولى على مالقة برضا محمد بن اشقيولة أميرها (٦٧٧ هـ) وقد اهتزت الدنيا بعقدته واثلاث
القلوب سروراً بنصرته ثم وقعت بعد ذلك الفتنة بين السلطان وابن الاجر واستحكمت البغضاء وعاهد
ابن الاجر الادفونش على نصرته فنكث لذلك الادفونش عهد السلطان يعقوب ونقض السلم
وأعلن بالحرب وأغزى أساطيله الجزيرة الخضراء واتفق ابن الاجر والادفونش على منع السلطان
يعقوب من عبور البحر ورأسه أيضاً أعداء السلطان يجهت الغرب للخروج عليه وانزال العوائق
الممانعة له من حركته وكان السلطان هم بالجواز الى أرض الاندلس لولا خروج الثوار عليه فإرسل
لذلك ولي عهده بجيش لانقاذ أهل الجزيرة الخضراء مما هم فيه من الضيق (٦٧٨ هـ) وكان السلطان
قد كتب الى الثغور بأعداد الاساطيل وعسارتهم لاجل الجيش ورأى ابن الاجر ما نزل به أهل الجزيرة فقدم
على فعلته وأعد أساطيل من المنكب والمرية ومالقة فبعثها مدداً للمسلمين حتى بلغت أساطيل
المسلمين بعد ذلك ٧٢ أسطولا واجتمعت كلها بمر فأسبنت في أحفل زى وأكمل استعداد ثم أقبلت
حتى أتت الجزيرة الخضراء وأساطيل العدو يومئذ تناهز الأربعمائة أسطول ثم التحم القتال بين الطرفين
فإر يكن غير قليل حتى اختل مصاف الأعداء فقتلوا في البحر واستولى عليها المسلمون وأسروا
فأندها ولما رأى الباقيون من الجنود البرية ما حل بالاساطيل داخلهم الرعب وفروا والخيمهم

وفي (٦٨١ هـ) قدم على السلطان يعقوب كتاب من ملك قشتالة المدعو هراند مع وفد
من بطارقه مستصرخاً به على ابنه شانجة (١) الخارج عليه في طائفة من الاسبانيول وانهم غلبوه على
أمره زاعمين انه شاخ وضعف عن تدبيرهم فاستنصره عليهم ودعاه لحربهم وأمله لاسترجاع ملكه
من يدهم فاعتزم السلطان هذه الفرصة وسار في الحال معهم حتى احتل الجزيرة الخضراء ودعا
بالتفكير الى الجهاد فاجتمعت عليه مسالاة الثغور بالاندلس ثم قدم عليه هراند فأكرم السلطان وفادته
قال ابن خلدون لما اجتمع هراند بالسلطان يعقوب قبل يده أعظما ما قدره ثم التمس من السلطان أن
يئمه بشئ من المال يستعين به على حرب أعدائه فأسلفه السلطان مائة ألف دينار من بيت مال المسلمين
رهنه الطاغية فيها تاجه الموروث عن سلفه ثم تقدم السلطان مع الطاغية ودخل دار الحرب حتى
نزل قرطبة وبها شانجة الخارج عليه مع شيعته فقاتلها أياماً ثم رحل الى جيان وطليطلة ومجربط
ثم عاد بعد أن خرب حصون تلك المدن ودك أسوارها وانتسف مزارعها وامتلأت أيدي الجنود
من الغنائم وهذا هو الجواز الثالث للسلطان يعقوب الى الاندلس ثم تقرر الصلح بين السلطان وابن الاجر
ففرح الناس بذلك وتجددت عزائم المسلمين ثم عزم السلطان (٦٨٣ هـ) على الجواز الى الاندلس
برسم الجهاد مرة رابعة فافتتح حصوناً وغنم أموالاً التحصى وعاد بعد ذلك الى بلاد المغرب بعد عرض

(١) هو سانشو الرابع (Sancho) ملك قشتالة وليون وهو الابن الثاني للفونس العاشر ملك قشتالة وعلى ذلك
يكون هراند المذكو هو الفونس العاشر

الاستطول بالجزيرة الخضراء ولما رأى شانجة ملك الاسبان مول ما حل ببلاده وقومه من النهب والقتل والصغار أوفد وزراعه على أمير المسلمين وهو بالجزيرة الخضراء يطلبون منه السلم والمهادنة فقبل السلطان منهم واشترط عليهم ما قبلوه من مسألة المسلمين كافة من قومه وغير قومه والوقوف عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم ورفع الضريبة عن تجار المسلمين وعدم الدخول بينهم في فتنة فقبل شانجة ذلك وأكد في الوفاء بهذه الشروط ثم رغب شانجة في الوفاة على أمير المسلمين لعرض الصلح عليه وكان السلطان قد أمر الناس بالاحتفال للقاء شانجة وقومه فاحتفلوا وتأهبوا (٦٨٤ هـ) ثم تقدم شانجة فلقبه أمير المسلمين بأحسن مسبة وأتم كرامة وقدم له شانجة بين يديه هدية من طرف بلاده وكمل عقد السلم وقبل شانجة سائر الشروط ثم انقلب إلى قومه وسأله السلطان أن يعث إليه بكتب العلم التي بأيدي الاسبانول منذ استلامهم على مدن الاسلام فبعث إليه ثلاثة عشر رجلا ثم مرض السلطان يعقوب ولم يزل ألمه يشتد وحاله يضعف إلى أن توفي بقصره من الجزيرة الخضراء بأرض الاندلس (٦٨٥ هـ) وقد كان رحمه الله حليما متواضعا جوادا منصورا راية صواما قواما مقربا للعلماء ولما استقام له الامر بنى المباني الخيرية كالبيمارستانان للجائنين والمجذومين والمعبي والفقراء وأجرى على السكك المرتبات والنفقات وبنى المدارس لطلبة العلم وأوقف عليها الاوقاف الكثيرة

لمامات السلطان يعقوب يابغ الوزراء والاشياخ لولده وولى عهد الناصر لدين الله يوسف (٦٨٥ هـ) ولما استتب له الامر فرق الاموال في الناس وأجزل صلوات الجنود وأزال المكوس وكف أيدي الظلمة واعتنى كثيرا بتأمين الطرق لتمهيد أمر التجارة ثم اجتمع مع ابن الاحمر وعقد معه صلحا دائما وتنازل له عن الثغور الاندلسية التي كانت لابيه ما عدا الجزيرة الخضراء وزينة وطريف ثم نفر على أحسن ما يكون من المصافاة ثم وفدت عليه وفود شانجة ملك الاسبانول مجددين عقد الصلح الذي أعطاه لهم السلطان يعقوب ومن أول ملكة تآمر عليه بنو ادريس وبقايا الموحدين فأبادهم قتلا وتشريدوا في (٦٩٠ هـ) بلغه وهو عائد من حصار تاسان ان شانج قد انتقض ونبذ العهد وتجاوز التحوم وأغار على الثغور فأوعز السلطان إلى قائد المسالحو بالاندلس أن يوطئ الخيل أرض الاسبانول ويحاصر مدنها ويحرب ديارهم ثم التحق به السلطان يوسف وأخذ في إجازة البحر مع جنوده وكان شانج يبعث أساطيله إلى بحر الزقاق لتمنع جيوش المغرب من العبور فأمر السلطان يوسف قواد أساطيله بالسواحل بعمارته بالمقابلة أساطيل العدو ففعلوا ولما قدمت تلاقى مع أساطيل العدو ببحر الزقاق وكانت الهزيمة على المسلمين وقتل قواد الاساطيل فأمر السلطان باستئناس العمارة ثم أغزاهم ففر وامن وجهه وملكت أساطيله ببحر الزقاق وبذلك تمكن من العبور ثم دخل دار الحرب وأثنى في الاعداء وردد الاغارات على اشبيلية وشريش وغيرهما ولما أقبل الشتاء رجع إلى الجزيرة الخضراء (٦٩١ هـ) ثم إن ابن الاحمر اتحد مع شانج على منع السلطان من الجواز مرة أخرى ولذلك ساعده على الاستيلاء على مدينة طريف لأنها أعظم ثغور بحر الزقاق واليهما تلجئ أساطيل السلطان العديدة فتقدم شانج وحاصر طريف برا وبحرا شديدا وكانت الاقوات والمدد من الرجال والسلاح تصله من ابن الاحمر ولما أصاب أهل طريف الجهد راسلوا شانج في الصلح فصالحهم (٦٩١ هـ) ولم يوف لهم شرطه

على نفسه لابن الاجر فقدم ابن الاجر على فعلا ورجع الى التمسك بالسلطان يوسف فأوفد عليه وزيره في وفد تجديد العهد ونا كيدا المودة ولما عاد اليه الوفد بما يرغب طار فرحا وعزم على الحضور بنفسه الى السلطان لتأكيد العقد وطلب مساعدته في نصرة بلاد الاندلس فقبله السلطان وأكرم وفادته وأحفه ابن الاجر بهدية كان من أحسنها موقعا لدى السلطان المحصف الكبير الذي يقال انه محصف عثمان بن عفان رضى الله عنه وكان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة

وكان السلطان يعيل لفتح باب المراسلة والمهادنة مع ملوك مصر لیساعدا وركب الحج المغربي على قضاء الفريضة براحة تامة بما أنهم أصحاب الحرمين الشريفين ففي سنة (٧٠٣ هـ) بعث السلطان مع ركب الحاج المغربي هدية الى ملائكة مصر لعهدده وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون استكثر فيها من الخيل والمطايا الفارضة وغير ذلك من تحف المغرب وأرسل له صاحب مصر هدية عظيمة من الثياب والحيوانات الغريبة وغيرها وكانت وفاة السلطان (٧٠٦ هـ) مطعونا طعنه خصي اسمه سعادة وكان السلطان يوسف مهيبا جوادا مشققا على الرعية يتفقد أحوالها بنفسه شجاعا هماما وهو أول من هذب ملك بني مرين وأكسبه رونق الحضارة وعزة السلطان وفي عصره كان ظهور البارود واستعماله في الحرب وهو أول من جعل المولد النبوي عيدا من الاعياد في جميع بلاده وفي زمنه أيضا (٦٩٣ هـ) كانت الجماعة الشديدة والوباء العظيم الذي عم بلاد المغرب وأفر ببقية ومصر

وقام بالامر من بعده السلطان أبو ثابت عامر بن عبد الله وفي زمنه ظهر كثير من الثوار ببلاد المغرب وكانت وفاته (٧٠٨ هـ) وليس له من الاعمال ما يستحق الذكر

وقام بالامر من بعده السلطان أبو الربيع سليمان وفي زمنه استراح الناس وكثرت الارزاق وتنافس الناس في البناء واستفعل العمران وفي زمنه أيضا خرج أهل سبتة على بني الاجر ورجعوا الى طاعة بني مرين (٧٠٩ هـ) تخاف ابن الاجر وهو أبو الجيوش نصر بن محمد شوكة بن مرين لاستيلائهم على فريضة سبتة فبادر الى عقد السلم مع السلطان أبي الربيع وأوفد لذلك رسلا متبرعا بالزول عن الجزيرة الخضراء وورندة وحصون ما ترغيبا للسلطان في الجهاد فقبل منه ذلك وبعث اليه أبو الربيع بالمدد أموالا وخبولا واتصلت بينهما المسالمة الى أن توفي السلطان المشار اليه وكانت وفاته (٧١٠ هـ) بعد أن أثنى في حاشية الخوارج عليه وشيعتهم بالقتل والسلب

وقام بالامر من بعده السلطان أبو سعيد عثمان وكان من أهل العلم والحلم جوادا متواضعا غير ميال لسفك الدماء ولما بايعه وسرح الكتب الى النواحي في طلب البيعة وقام بالامر أحسن قيام واستوثق له الملك ونفق الدواوين وحط المغارم فصلح حال الناس في أيامه وأنشأ كذلك الاساطيل العديدة بدار الصناعة من مدينة سلا (٧١٠ هـ) ثم خرج عليه الامير أبو علي ابنه وهزم بجيوشه وحاصره بمدينة تازا ثم سمى الخواص بين السلطان وابنه على أن يخرج له السلطان عن الامر ويقتصر على تازا وجهاتها فرضى السلطان بذلك وشهدا لوزراء والقواد عليهم ثم عادت اليه الدولة من حيث لا يحتسب ورد عليه حقه المسلوب ببلادنا تكلف ثم أقطع ابنه الناظر بجملماسة (٧١٥ هـ) فقام بهادولة عظيمة وافتتح كثيرا من جهاتها ولما كانت (٧١٨ هـ) أغار دون بدر (بطره) ملك قشتالة على مدينة غرناطة لانه قطع غزو بني مرين عن الاندلس واشتغال من أتى بعد السلطان

يوسف بن يعقوب بحصار تلسان وبالطواريب بلاد المغرب عازما على استئصال بقية المسلمين بالاندلس ولما رأى أهل الاندلس ذلك وأن لا قبل لهم على مقاومة جيش العدو البالغ مائة وخمسة وثلاثين ألفا بين مشاة وفرسان بعثوا بصري يخبرهم إلى السلطان أبي سعيد وقدم عليه وقد هم بمدينة فاس إلا أنهم لم يفلحوا وأخفق سعيهم ورجعوا إلا أن عثمان بن أبي العلاء شيخ غزاة الاندلس من بني مرين أنفجسد غرناطة فشتت شمل ذلك الجيش وخلص أهل غرناطة من ضيقهم ووقعت في يدهم غرناطة وحيثه كثير من الاموال والاسرى مما لا يحصى وكان من جملة الاسراء امرأة دون بطرقة وأولاده ووردت البشائر بهذه النصر العظيمة إلى جميع البلاد وبعد ذلك طلب الفريخ الهدنة فعدت لهم وكانت هذه الواقعة من أشهر الوقائع وكانت وفاة السلطان أبي سعيد (٧٣١ هـ) بينما كان يستعد لزواج ابنته وولي عهده بفاطمة بنت السلطان أبي بكر بن زكريا الخفصى

وقام بالأمر من بعده السلطان المنصور بالله أبو الحسن علي وكان أخفهم مسلولك بنى مرين دولة وأضعفهم ملكا وأعظمهم أمة وأكثرهم آثارا بالمغربين والاندلس وبعد عقد البيعة له من عموم الطبقات وروس خ قدمه في الملك حدث بينه وبين أخيه أبي علي قتال كان آخره مقتتل أبي علي المذكور بعد أن دام ملكه بسجل مائة وستة عشر سنة وأشهرها وكان الاسبانيون استولوا على جبل الفتح منذ (٧٠٩ هـ) وزاحم الفريخ به ثغور المسلمين حتى صار شجبا في صدر الدولتين المرينية والجرية وبقى الحال على ذلك إلى مبايعة السلطان أبي الحسن وكان له رغبة في الجهاد اقتداء بجدته يعقوب فبادر السلطان محمد بن اسمعيل من بني الاجر إلى الزفادة عليه والمفاوضة في أمر الجهاد فقدم عليه (٧٣٢ هـ) فاعظم السلطان أبو الحسن مقدمه وأركب الناس إلى لقائه وفأوضه ابن الاجر في شأن المسلمين بالاندلس وكيف أن الاعداء استولوا على جبل طارق ومع أن السلطان أبو الحسن كان مشغولا يومئذ بفتنة أخيه أبي علي إلا أنه أمدده بالجنود من بني مرين وأنفذهم لمنازلة جبل الفتح وأمر قائد الاساطيل بالسير مع ذلك الجيش وأرسل ابن الاجر في الاندلس حاشرين فأقبل الناس عليه من كل جهة وأحاطوا بجبل الفتح وضيقتوا عليه الحصار إلى أن فتحوه (٧٣٣ هـ) وشحنوه بالمقاتلة والسلاح بعد أن أحكوا حصونه وكان بين السلطان أبي الحسن وصاحب مصر والشام والحجاز الملك الناصر محمد بن قلاوون مراسلة ومصاحبة وأرسل له السلطان هدية عظيمة ذكرها ابن خلدون وغيره

ولما كان السلطان أبو الحسن يميل إلى الجهاد أعزى إلى ابنه أبي مالك أمير الثغور والاندلسية بالدخول في دار الحرب (٧٤٠ هـ) وجهز اليه العساكر وأنفذ اليه الوزير فشتخص أبو مالك وتوغل في الغزوات وعاد بالسبي والغنائم وفي أثناء عودته دهمه جيش الاسبانيون على حين غفلة فقتل وقتل الكثير من جنوده واحتوى الاسبانيون على المعسكر بما فيه ولما بلغ الخبر بذلك والده أبا الحسن أمر وزيره بتجهيز الاساطيل وعرض الجنود واستنقار أهل المغرب كافة ثم رحل إلى سبتة يريد البحر ولم يعلم ملك الاسبانيون بذلك استعدوا للدفاع وأخرج ملك قشتالة الفونس الحادى عشر أسطوله إلى بحر الزقاق لمنع السلطان من الاجتياز أما السلطان فإنه استحث أساطيل المغرب وبعث إلى أصهاره الخفصيين بتجهيز أسطولهم فأرسلوا اليه بسبته ١٦ اسطولا وتوافقت أساطيل المغرب بسبته حتى ناهزت المائة ثم حرقوا إلى اسطول الاسبانيون وتوافقوا مليا ثم قرىوا الاساطيل

بعضها من بعض فلم يرض الا القليل حتى ظفر المسلمون بعدوهم وحاطوهم في أساطيلهم واستلمهم وهم طعنوا وضربوا وأخذوا جميع ما بقي من أساطيلهم مجنوبه الى سبتة فبرز الناس لمشاهدتها (٥٧٤٠) وهذه الواقعة من أشهر الوقائع البحرية التي انتصر فيها بنو مرين وكان من نتائجها امتداد سلطانهم في البحر كما تمده في البر وانه ما شرفوس أهل غرناطة ومسابقتهم الى ميدان القتال لرد ما سلبه الاعداء عنهم ثم أخذ السلطان في اجازة العساكر وانتظمت الاساطيل لسلسلة واحدة من العدو الى العدو ثم أجاز هو في اسطوله مع خاصته ونازل طريف وكانت بيد الاسبانول وبعد أن حاصرها هو وسلطان الاندلس من بني الاجر طويلا فانتصر أزوادهم واحتلت أحوالهم وكان في أثناء الحصار يرسلان السرايا للاغاثة والتخريب حتى وصل بعضها الى أبواب مدينة شريش وشذونة وكادت تفتح حصن الارك لولا ايقاع حاميتها ببعض تلك السرايا وما طلب حامية الحصن المذكور من ملك قشتالة ارسال الميرة والجنود اليهم تعذروا عليه ذلك لان شارب بنو مرين فرأى من المواقف أن يمنع المدد عن بنو مرين فإرسل لذلك اسطولا جديدا قدم له أغلب سفنه أهل جنوة ليجول في بحر الزقاق وينبع جيوش بني مرين من العبور ويقطع كل مواصلة بين الاندلس والمغرب فكان نصيب هذا الاسطول من الهزيمة نصيب الاسطول الاول ثم تجامع ملوك الاسبانول وملك البورتغال وبعد ان تعاهدوا وازحفوا على المسلمين وناشبوهم القتال فاقتتل عسكر بني مرين بعد قتال امتد من أول النهار وأغار الاسبانول على فسطاط السلطان وقتلوا حراسه وأسروا نساءه ثم قتلوه ومنتوا بهم وأضرموا المعسكر نارا فلما أحس المسلمون بذلك اختل نظامهم وارتدوا على أعقابهم وأسروا من بني مرين وغيرهم عدد عظيم (٥٧٤١) وولى السلطان أبو الحسن منزه ما الى الجزيرة الخضراء وكانت هذه الواقعة أعظم واقعة حصلت بين جيوش الدولتين ثم ان ملك الاسبانول عاد بعد ذلك بقليل واستولى على قلعة بني سعيد بغرناطة وكان السلطان أبو سعيد الغرناطي يريد معاودة الكرة فشد لذلك أساطيله فتلاقت مع أساطيل الاسبانول ببحر الزقاق فكانت الدائرة على أساطيل المسلمين لان ملك أراغون وملوك ايطاليا واسبانيا كانوا أمدا وملك قشتالة بأساطيل عديدة وتغلب الاسبانول على بحر الزقاق ثم أقبلت جنود عظيمة عليها كثير من قواد الاسبانول وأناخت على الجزيرة الخضراء مرافق أساطيل المسلمين وفرضة الجواز وطاولتهم الحصار ولم يتمكن السلطان من اغائة الجزيرة الخضراء لوفرة أساطيل الاعداء اذ ذلك ببحر الزقاق ولما اشتد الامر بحامية الجزيرة الخضراء وقلت أقاتهم سألوا ملك قشتالة الامان على أن ينزلوا له عن البلد فبذله لهم وأجازهم الى المغرب (٥٧٤٣) وخضع السلطان لماجرت به المقادير ثم بعد ذلك حصل بينه وبين أولاد أبي بكر الحفصي فتن أدت الى استيلائه على تونس وأعمالها (٥٧٤٨) وبذلك امتدت ممالكهما بين مسراته من طرابلس الى السويس الاقصى من هذه العدو والى زنده من عدوة الاندلس فدخل المغرب بأسره في طاعته وأقطع بني مرين البلاد والضياع وخفت الاصوات وانقضت أيدي أهل الفساد وانقرض أمر الحفصيين في هذه المدة ثم خرج عليه ابنه أبو عثمان واستولى على المغرب وبقي أبوه بتونس يرجو الايام ويأمل الكرة والاطراف تنتفض والخارج يتجدد ثم حسن له بعض وزرائه النهوض من تونس الى المغرب (٥٧٤٩) لان أحداً وولاد أبي بكر الحفصي خرج عليه أيضا واستولى على كثير من الجهات بتونس حتى انه هم بمحاصرة مدينة تونس نفسها فجمع أمواله وشحن أساطيله بالاقوات

(٧٥٠ هـ) ولما أفلعوا هبت عليهم ريح شديدة أغرقت غالب سفنه واحفانه وغرق الكثيرين بطائمه وقذف الموج بالسلطان فاقاه على صخر قرب الساحل وهو في آخر رمق من الحياة ثم أدركته سفينة من بقية السفن كانت سملت من الغرق فاخذته وأنزله بمدينة الجزائر وقال صاحب نفع الطيب إن أساطيل السلطان أبي الحسن كانت نحو ستمائة سفينة غرقت كلها ونجا هو على لوح ثم قصد بعد ذلك موطنه ودار ملكه بالمغرب الأقصى في حالة رديئة ومعها بعض الأهل والاتباع وكانت بلاد المغرب الأقصى استولى على جميعها بنه أبو عنان كما تقدم ولم تساعد المقادير السلطان أباه الحسن بل ولت الديناعنه وانتقل الملك إلى يد ابنه بعد أن صرف أبو الحسن كل مجهوده في الحصول عليه ثمانية فلم يفلح ثم مات طريدا (٧٥٢ هـ) وكان السلطان أبو الحسن من أكبر الملوك وأعظمهم هبة وكان يحتفل بالعلم وأهله وقد شيد بمراكش وغيرها عدة مدارس وأوقف عليها الأوقاف الجليلة وله غير ذلك من المباني العمومية شئ كثير

ولمات السلطان أبو الحسن استقل ابنه أبو عنان بالملك تماما (٧٥٢ هـ) بلا منازع وافتتح كثيرا من جهات المغرب الأوسط ثم خرج عليه أخوه أبو الفضل ببلاد السوس باغراء ملك الاسبانيول الآن بأعنان قبض عليه أخيرا وقتله (٧٥٥ هـ) وبذلك انفض أمر الخوارج وتمهدت له الدولة أياما وكانت وفاة السلطان أبي عنان (٧٥٩ هـ) قيل خنقه وزيره وكان أبو عنان فارسا ساقيا عالما بالنطق وأصول الدين حافظا للحديث كتابيا بليغا وله كثير من الآثار كالمدراس والزوايا وغيرها

وقام بالأمر من بعده ابنه السلطان التميمي بالله أبو بكر وكان وزيره يستبد عليه بالأمر لا يملك معه ضرا ولا نفعا ولم يمكث في الملك طويلا بل خلع بعد تسعة شهور من ولايته وكان نازعه في الملك أحدا فأرهبه المدعو منصورا فلم يتم لهم الأمر وانصرفت وجوه أهل المغرب عنهما إلى المستعين بالله الذي سالم (٧٦٠ هـ) وكان الناس قبل ظهور أمر أبي سالم يتحدثون بتوليته المغرب وإن الملك صائر إليه بعد وفاة أبي عنان وكان في زمن حكم أخيه أبي عنان يقيم ببلاد الاندلس ولما مات أخوه استأذن بني الأحمر في العودة إلى بلاده فنعوه فتوسل في ذلك الملك قشتاله وطلب منه أن يجعله إلى بالعدوة يطلب ملك أبيه فأسعه فلبا أتى وعرفه الناس نسيابوا إليه من كل فج و تزكوا أمر المنصور والسعيد و بايعوا أبي سالم (٧٦٠ هـ) وفي أول ملكه التجأ إليه الغني بالله بن الأحمر و وزيره ابن الخطيب الشهير مخلوعين (٧٦١ هـ) فأجل السلطان قدمهما وركب للقائهما وبالغ في إكرامهما ورتب لهما من الجزايات ما يقوم بحاجتهما وما زال السلطان أبو سالم في ملكه حتى خرج عليه بعض وزرائه وأغروا عليه الجنود فخلعه بسبب تقديمه بعض الوزراء وابتدأه لهم على الآخرين ولما أراد عقاب أعدائه أنسل عنه الجنود فوجاهه مدفوح فطلب النجاة بنفسه ثم قبضوا عليه أخيرا وقتلوه وأحضر رأسه بين يدي الوزير الثائر عمر بن عبد الله (٧٦٢ هـ) وكان رحمه الله دمث الاخلاق بعيدا عن الشرور

وبايعوا من بعده السلطان أبو عسر تاشفين الآن الوزير الثائر عمر بن عبد الله استبد بهم الدولة ونصب هذا السلطان يومه على الناس ثم حرت خطوب بطول شرحها مثل قتل جنده

الاسبانيول الممك و رئيسهم غرمسية بن أنطون ومن هذا الوقت ظهر الاختلال والفتور في جسم دولة بني مرين وأخذت الثوار تظهر في كل مكان ولما علم الوزير عمر بن عبد الله أن الامر لا يستقيم له بتولية هذا السلطان بادرا فاستقدم أبازيان محمد بن أبي عبد الرحمن يعقوب ابن السلطان أبي الحسن فقدم وخلع الوزير المذكور السلطان أبا عمر (٧٦٣ هـ)

وكان هذا السلطان الملقب بالتموكل على الله محجوب بالوزير عمر بن عبد الله المذكور وكان قبل ولايته النجا الى ملك قشتالة خوفا على نفسه ولما طلبوه من ملك قشتالة سمح به بعد عقد شروط محجفة بحال بني مرين ومذهبية لسطوتهم أمضوها معه وبذلك يعلم حال ملوك المغرب وقتها وما وصلوا اليه من الضعف أمام ملوك الاسبانيول بعد أن كان الامر النافذ لهم والسلطان الضخم للملكهم وقد زاد في زمنه اضعافا كثيرة الى أن قتله وزيره عمر بن عبد الله المذكور لما أحس منه بالفتك به وذلك لانه كان مستبدا بامرهم وضع عليه الرقبا والعيون حتى من حرمة وأهل قصره (٧٦٨ هـ)

ولمات أبوزيان أخرج الوزير عمر بن عبد الله عبد العزيز بن الحسن وكان في بعض القصور محتاطا عليه من قبل الوزير المذكور فأجلسه على سرير الملك وابعه ثم فتحت الابواب لسائر الوزراء والنواب والقواد للبيعة فتم أمره وثبت ملكه وجرى الوزير معه على عادته من الاستبداد ومنعه التصرف في أمور المملكة فانف السلطان عبد العزيز من ذلك ولم يرضه لنفسه وعزم على الفتك بوزيره ثم قبض عليه وبعد أن وبخه أمر الخصيان بقتله فهيروه بالسيف ثم تتبع السلطان حاشية الوزير بالاعتقال والقتل حتى أتى على الجميع واستبد بالملك منفردا ثم جهز الجيوش لفتح البلدان الثائرة وعقب بعض الخوارج فتم له أمره ثم أراد ان يجتمع الجزيرة الخضراء من يد الاسبانيول بعد أن مهد أمر الثوار فكتب الى ابن الاحمر أن يزحف اليها بعساكره وعليه عطاؤهم وامدادهم بالمال والاساطيل فأجاب ابن الاحمر وأمدده السلطان بالمال وأوعز الى قائد أساطيله بسبته بالتجهيز فأقاعت حتى رست أمام الجزيرة الخضراء ثم زحف ابن الاحمر بجنوده وآلته وبعد حصار بقي أياما قليلة أيقن الاسبانيول بالهلاك ان لم يسلموا فأسأوا الصلح فأجابهم ابن الاحمر ونزلوا عن البلد (٧٧٠ هـ) ولم تنزل تلك المدينة بيد ملوك غرناطة الى أن رأوا من المنفعة هدمها خشية استيلاء الاسبانيول عليها مرة أخرى فهدمت (٧٨٠ هـ) ثم ان السلطان عبد العزيز يفتح تلمسان وغيرها وكانت وفاته (٧٧٤ هـ) وهذا السلطان هو الذي أنعش دولة بني مرين بعد تلاشيها وأعاد اليها شياها بعد الهزم وأزال عنها وهمة الحجير والاستبداد وهو الذي ألف المؤرخ الشهير العلامة بن خلدون تاريخه الكبير باسمه وقد وفد عليه تلمسان الدين بن الخطيب وزير بني الاحمر فآكرم وفادته (٧٧٣ هـ) وغمره بجليل النعم والعطايا

وقام بالامر من بعده السلطان العبد بالله أبوزيان محمد (٧٧٤ هـ) تولى الامر وهو وصي وان ذلك استبد عليه وزيره أبو بكر واستقل بالامر ابراما ونقضا الآن هذا الوزير لم يهنا باستقلاله اذ خرج عليه بعض مدعي السلطنة باغراء ابن الاحمر ملك غرناطة لما كان بينه وبين الوزير المذكور من الحقد وقد تم لابن الاحمر ما يريد حيث خلع السعيد بالله (٧٧٦ هـ) وغر به الى بلاد الاندلس

وقام بالامر من بعده السلطان المستنصر بالله أبو العباس أحمد وبتال له ذوالدولتين لانه ولى الملك مرتين وكان الغالب عليه في أموره وزيره محمد بن عثمان وفي زمن هذا السلطان استحسنت المودة والالفة بينه وبين ابن الاجر وزاد نفوذ ابن الاجر في بلاد المغرب حتى صار له بذلك تحكم في دولة بني مرين وأصبح المغرب كانه من بعض ايلات الاندلس وذلك بما كان لابن الاجر من تقليد الامر لهذا السلطان وبما كان تحت يده من أبناء ملوك المغرب المرثخين للامر فكان أبو العباس وشاشيته يصانعون بني الاجر لذلك وفي زمن هذا السلطان تمكن ابن الاجر من قتل الوزير ابن الخطيب الشهير لانه كان بلغه عنه أنه كان يغري السلطان عبدالعزیز وغيره على تلك أرض الاندلس وقطع دعوة بني الاجر منها فتم له ما يريد بأن ادعوا على ابن الخطيب كلمات من الرندقة زعوا انها صدرت منه في بعض تأليفه فاحصوها عليه ورفعوها الى القضاة وبعد أن حجنوه أياما دخل عليه ليفي من أهل الاندلس فقتلوه في محبسه (٧٧٦ هـ) وفي عهد هذا السلطان كانت بلاد المغرب مقسومة الى قسمين قسم له وقسم لأمير مراکش عبد الرحمن بن أبي يفاوس ثم حصل بين السلطان ابن الاجر و السلطان المغرب أبي العباس عداوة أدت الى خلع أبي العباس (٧٨٦ هـ) وأرسل أبو العباس مقيدا الى ابن الاجر بعد خلعه فبقي عنده محتاطا عليه

وقام بالامر من بعده السلطان المتوكل على الله أبو فارس موسى بويج بعد خلع أبي العباس وقام بامر الدولة وزيره مسعود بن ماساي مستبدا عليه في يده كل الامر والنهر ولما اتبه السلطان بعد ذلك لامره ورأى استبداد الوزير عليه استسكف من ذلك وأسر الى بطانته بالفتك بالوزير ولما علم الوزير بذلك دس عليه من قتله بالسهم (٧٨٨ هـ) فكانت دولته سنتين وأربعة أشهر وقام بالامر من بعده السلطان المقنن بالله أبو زيان محمد ولم يمكث في السلطنة الا أياما ثم خلع وغرب الى الاندلس مع أهله وقام بالامر من بعده السلطان الواثق بالله أبو زيان محمد بن أبي الفضل وكان قبل ولايته عند ابن الاجر بالاندلس وكان وزيره مسعود يستبد بالامر عليه فلما أراد هذا الوزير استرداد مدينة سبتة من يدي ابن الاجر الى بني مرين كما كانت استشاط ابن الاجر غضبا وأطلق لذلك السلطان أبا العباس من اعتقاله وبعثه الى المغرب في طلب ملكه وللتشغيب على مسعود المذکور الجاحد لاجل حاله ثم عبر السلطان أبو العباس البحر في جيش وتقدم به الى مراکش وهرع الناس الى الدعول في طاعته ثم خلع الواثق بالله بشرط أن يبقى ابن مسعود وزير السلطان أبي العباس فقبل ذلك منه وغرب الواثق الى الاندلس (٧٨٩ هـ)

ولما تم الامر على ما ذكرنا جلس على تخت المغرب الاقصى السلطان أبو العباس بن ابي سالم مرة ثانية فلما رخصت قدمه في الملاء قبض على الوزير ابن مسعود وعلى شاشيته وأقاربه فهلكوا من العذاب ثم التفت الى تنظيم ملكه وتوسيع دائرته فاستولى على تلمسان وغيرها وشرد كثير من الثوار وكانت بينه وبين سلطان مصر اذ ذلك الظاهر برفوق مودة فتراسلا وتمهادا وكانت وفاة هذا السلطان (٧٩٦ هـ) وكان شاعرا مجيدا وقام بالامر من بعده السلطان المستنصر بالله أبو فارس عبد العزيز وكان شفو قارقيق القلب لا يميل الى سنك الدماء فارسا شاعرا وليس له من الاعمال ما يدون وكانت وفاته (٧٩٩ هـ) ودولته ثلاث سنين وشهرا

وقام بالامر من بعده السلطان المستنصر بالله ابو عامر عبدالله وليس له كذلك من الاخبار ما يذكر وكانت الامور والتصرفات في هذه المدة والتي قبلها يسدالو زراء الاستبداد هم بأمر الدولة من عهد طويل مضى لاختلالها وضعف سلاطينها وكانت وفاته (٨٠٠ هـ) ودولته سنة وخمسة أشهر

وقام بالامر من بعده أخوه السلطان ابو سعيد عثمان وسنة ست عشرة سنة وكانت جميع التصرفات في دولته بالوزراء والحجاب والسلطان منكسب على لذاته لا يعلم من أمور الدولة شيئاً كما هي الحالة الغالبة في أواخر الدول وحصل في زمنه خصام بينه وبين السلطان أبي فارس الحفصي صاحب تونس فحدثت بينهما وقائع كادت توقع مدينة فاس في يد الحفصي لولا أن السلطان أبو سعيد جنح إلى السلم ثم تصالحا وتمهدا وفي مدة هذا السلطان استولى البرتغال مدة ملكهم جان الاول (٨١٨ هـ) على مدينة سبتة بعد أن حاصروها وطويلا واستمرت في ملكهم مدة تزيد عن مائتي سنة إلى أن ملكها منهم الاسبانيول عند استيلائهم على بلاد البرتغال وكان ذكر البرتغال في هذا الوقت انتشر في الآفاق وانتبهوا بسفنتهم إلى البعيد من سواحل أفريقيا وقد هم هذا السلطان بالاستيلاء على جبل طارق بطلب أهل الذين ستموا وحكومة ابن الأحمر وتحققوا أن سلطان بني مرين أقوى منه شوكة وأقدر على خلاصهم مما عساه أن ينالهم من يد الاسبانيول فلم يفعل وهزمت جنوده وأسر أخوه رئيس الجيش الذي أرسل لذلك ثم ابن الأحمر اغتاز من فعله السلطان المريني فانفق مع أخيه عبدالله وأسده بالمسال والجنود وأرسله إلى المغرب فتبعه عبيد وافر من القبائل الذين كانوا يستقلون حكم أبي سعيد فنقض أبو سعيد لمحاربتة فكانت الدائرة عليه ورجع مغلوباً في قليل من جنوده إلى مدينة فاس فقبض عليه أهلها إلى أن سلموه لأخيه عبدالله فزجه في السجن إلى أن مات (٨٢٣ هـ) ولما استقل عبدالله بأمر المغرب هدأت الامور ونوعاً واستقامت الاحوال ولم يكن لاهل المغرب منغص غير استيلاء البرتغال على سبتة ولم تطل مدة هذا السلطان حيث تآمر واعليه وقتلوه (٨٢٤ هـ)

وبعد قتله تنازع المملوك بعده اثنان من اخوته وكثرت الثوار والخوارج بالبلاد وانتشر عقد بني مرين ووصل الضعف والانحلال إلى جميع أجزاء دولتهم ونادت أهلها إلى كل جهة بقائم يحكمهم وهكذا إلى أن اتفق بعض أهل الحل والعقد من أصحاب العقول على تولية شخص من بني مرين لينتظم الشمل ويقوى الأمل بعودة هذه الدولة المحترقة فانتخبوا السلطان عبد الحق بن أبي سعيد (٨٦٠ هـ) وهو أطول سلاطين بني مرين مدة وأعظمهم شقاء ومحنة وكانت أمه اسبانيولية وفي زمنه ضعف أمر بني مرين جدا وتداعى إلى الانحلال وكانت جميع تصرفاته يسدالو زراء والحجاب وقبل ذلك أي (٨٤١ هـ) أراد البرتغال الاستيلاء على طنجة وبعد أن حاصروها وضيقوا عليها أعمار عليهم سلطان فاس وسلطان مراکش ومنعاهم عن فتحها وأوقع بهم وأسرا فاند جنودهم المدعوفرد ينندو وغيره من الوجوه والاعيان ولذلك طلب البرتغال الصلح فسالمهم السلطان على أن يردوا إليه سبتة بعد أن يطلق أسراهم فرفضوا بذلك ثم حصل ان مات فردينند في سجن فاس فاستمرت سبتة في يدهم

ولما كانت الوزراء والحجاب يستبدون بأعمال السلاطين كإقلاء حين صار سلطان بني مرين

أما بلاجم وكان السلطان عبدالحق على الهمة ولم يرق في عينه استبداد وزرائه وحقابه عليه
 أوقع بني وطاس وكانوا يحجاب الدولة ووزراءها وهم مبدأ الشرور وجرؤومة الفتن حتى ان يحيى
 ابن يحيى منهم لما تولى الوزارة واستقل بها أخذ يغير ويبدل في مراسم الملك وعوائد الدولة ويزيد
 وينقص في عديد الجنود ويتقص ما يرمه الوزراء من قبله ولو كان صالحا وعامل الرعية بالنظم وعزل
 الرؤس وقدم الاذئاب عزم السلطان على استئصالهم لما شاركهم له في الملك بلاحق فأوقع بهم حتى
 نخلص البلاد منهم ثم صفا الوقت للسلطان بعد ذلك الا أنه لم يستمر زمانا طويلا لانه بتقريره اليهود
 اليه أعاظ أهل دولته فقاموا عليه وخالعوه ونادوا ببيعة الشريف ابى عبد الله الخميد وكان يلى نقابة
 الاشراف بفاس والتف عليه كثير من خاصة الناس وعامتهم ثم أوقعوا باليهود فقتلوا منهم عددا عظيما
 بمدينة فاس خصوصا وكان السلطان عبدالحق غائبا في بعض النواحي فلما اتصل به الخبر أقبل مسرعا
 الا أن نيات الجنود اضطرت عليه وصاروا يتسللون عنه ثم قبض عليه الخوارج أخيرا وبعد أن أهانوه
 ضربوا عنقه (٥٨٦٩ هـ) وبه انقضت دولة تبنى مرين من المغرب وكانت مدتهم مائتين وتسع وثمانين
 سنة من قيام عبدالحق أولهم وكان بنو مرين أنفسهم يعظمون هؤلاء الاشراف الادارسة ويدعون
 الله سبحانه وتعالى برفع منزلتهم لما فاتهم من رتبة الخلافة التي كان يجب أن تكون لهم بطريق
 الاستحقاق الشرعي فكان بنو مرين يرون في أنفسهم كأنهم متغلبون مع وجود هؤلاء الاشراف
 فلذا كانوا يخضعون لهم ويتأدون معهم ما أمكن وبقي هذا الشريف في الملك بمدينة فاس
 وابنه وزيره الى أن خلعه أبو الحجاج يوسف الوطاسي (٥٨٧٥ هـ) وقام من بعد دولة تبنى مرين
 بالمغرب الاقصى دولة تبنى وطاس

واعلم أنه في أواخر دولة تبنى مرين استولى البرتغال على غالب ثغور المغرب الاقصى التي كانت
 محفوظة منذ عهد الفتح الاسلامي من طرف أمم الفرنج وغيرهم الى القرن التاسع الهجري ولم تكن
 أمة من الامم تحدث نفسها بغزو شئ من بلاده بل أهلهم الذين كانوا يغزون الفرنج وغيرهم في
 بلادهم ويحامون عن بلاد الاندلس وسواحل أفريقيا وغيرها ولما تداعت دول المغرب من بني
 حفص بأفريقية وبني زيان بالمغرب الاوسط وبني مرين بالمغرب الاقصى وبني الاجر بالاندلس
 وأشرفت على الهرم حدثت الفتن بين المسلمين واشتغلوا بأنفسهم دون الالتفات الى بلاد من يتربصون
 الفرصة لاكرة عليهم ولما استفحل أمر الاسبانيول والبرتغال خصوصا وكثرت أسفارهم البحرية
 واستولوا على عدة جزائر بالبحر المحيط وكشفوا بعض سواحل السودان وغيرها ما لوالتملك سواحل
 المغرب الاقصى فاستولوا على سبتة (٥٨١٨ هـ) بعد حصارها ست سنين وعلى قصر المجاز وأقصر
 مصمودة (٥٨٦٢ هـ) وعلى طنجة (٥٨٦٩ هـ) وعلى أصيلا (٥٨٧٦ هـ) وعلى مدينة آني
 وبعض جهات السوس في السنة المذكورة وغير ذلك من الثغور العديدة بحيث لم يبق من ثغور
 المغرب الاقصى بيد أهله الا القليل

(الفصل الحادي عشر)

دولة تبنى وطاس ونسبهم وأوليتهم

(٨٧٦ - ٩٦١ هـ)

قال صاحب الاستقصاء ان بنى وطاس فرقة من بنى مرين غير انهم ليسوا من بنى عبد الحق ولما دخل بنو مرين المغرب واقسموا أعماله كما تقدم كان لبني وطاس هؤلاء بلاد الريف فكانت ضواحيها تزولهم وأمصارها ورعاياها الجبايتهم وكان بنو الوزير منهم يسمون الى الرياسة ويرومون الخروج على بنى عبد الحق وقد تكرر ذلك منهم ثم أذعنوا الى الطاعة وراضوا أنفسهم على الخدمة فاستعملهم بنو عبد الحق في وجوه الاعمال والولايات واستظهروا بهم على أمور دولتهم فحسن أثرهم لديهم وتعدد الوزراء منهم فيها وقال ابن خلدون ان بنى الوزير هؤلاء يرون أن نسبهم دخيل في بنى مرين وانهم من أعقاب يوسف بن تاشفين المتوفى لحقوا بالسدو وزلوا على بنى وطاس ووشجت فيه عرفهم حتى لبسوا جلدتهم ولم يزل السرمر بعاين أعينهم لذلك والرياسة شامخة بأنوفهم ٥ وكان لكثير من بنى وطاس المراتب العالية والوظائف العظيمة في دولة بنى مرين فممن من ساعد على ارتقائها وتنظيم أحوالها ومنهم من امتدت يده الى العبث بها واردة الاستبداد بسلطنتها كما هو مذكور في المطولات

وأول من ولي السلطنة من دولة بنى وطاس هو السلطان ابو عبد الله محمد الشيخ (٨٧٦ هـ) بعد قهره للحفيد وكان قبل ذلك يملك مدينة أصيلا وضواحيها ولما رأى زوال دولة بنى مرين واضطراب الأمور وطمع كل من كانت توسوس له نفسه بالاستيلاء عليها وحيازة ابن الاخر لجميع نغور الاندلس التي كانت لبني مرين وقيام الفريخ للتغلب على المغرب جمع جنودا عظيما واستولى على مدينة فاس بعد أن حاصرها ووضيق عليها ولما تمت له البيعة التفت لندو حجاج القبائل فدخلوا في طاعته وفي زمنه استولى الاسبانيول تحت رئاسة ملكهم فردينند الخامس الكاتوليكي ملك أراغون وزوجته ايراييله ملكة قشتاله على مدينة غرناطة (٨٩٧ هـ) وحجبت دولة بنى الاخر من الاندلس ولم يبق لها للمسلمين سلطان وتفرق سكانها أيدي سببا فذهب غالبهم الى بلاد المغرب الاقصى والى تونس وطرابلس ومصر وغيرها ولما سقطت غرناطة قدم على السلطان محمد الشيخ سلطانها أبو عبد الله بن الاخر فاستوطن فاس تحت رعاية السلطان محمد الشيخ بعد أن خاطبه بقصيدة طنانته من انشاء وزيره أبي عبد الله محمد العربي يقول في مطلعها

مولي الملوك ملوك العرب والعجم * رعي الماشله رعي من الذم

بنا استجرنا ونعم الحار أنت لمن * دار الزمان عليه دور متمم

وهي طويلة وأصحها رسالة في هذا المضمون غاية في البلاغة وأقام ابن الاخر بمدينة فاس بأهله وأولاده وحاشيته معز زامكرما الى ان أدركته الوفاة (٩٤٠ هـ) وفي عصر هذا السلطان (٩٠٧ هـ) استولى البرتقال على ساحل البريجة بين أزموور وتيط وشيدوا بهامدنية جديدة حصينة ولم يتمكن بنو وطاس في تلك المدة من مقاتلة هؤلاء البرتقال لاشتغالهم مع برتقال سبتة وطنجة وغيرهما ولم يكتم البرتقال أيضا بذلك بل استولوا على سواحل السوس فاحتلوا مدينة أكادير وكانت وفاة السلطان محمد الشيخ (٩١٠ هـ)

وبعد وفاته بايعوا ابنه محمد الملقب بالبرتقالى وفي عصره استولى البرتقال على غالب الثغور وضائق المسلمين أشد المضايقه وقد أتم هذا السلطان بأمرهم كثيرا ورد عليهم الجيش بعد الجيش حتى شغل بمقارعتهم عن النظر في أحوال البلاد المرأكشية فكان ذلك من أكبر الاسباب لظهور

دولة الاشراف السعديين كما سيأتي (٩١٥ هـ) وكان البرتقال استولوا على نغرا أصيلا مدة والده
فلما ولي هذا الملك حاصرهم بها (٩١٤ هـ) ثم تمكن من دخولها وقتل البرتقال وسط الازقة يومين
ثم جاء المدد الى البرتقال فتقهقرا المسلمون لكنهم لم يتركوا المدينة الاخر باليس بها حجر على حجر ثم
جد البرتقال في اصلاحها وبقيت في يدهم الى أن استردها المسلمون فيما بعد وفي تلك السنة أيضا
استولى البرتقال على نغرا زمرور وبعدها افتتحوا أيضا نغرا المعمورة (٩٢١ هـ) الا أنهم لم يقروا
على البقايمها حيث استردها هذا السلطان وفي عصره هذا السلطان أيضا استفحل أمر الاشراف
السعديين بجهات السوس وطردهم سلطانهم أبو العباس الاعرج البرتقال من تلك الجهات ودخل
في طاعته أهل مرا كس فاستقل اليها (٩٣٠ هـ) بعد أن اتزعهما من يد بني وطاس وكانت وفاة
هذا السلطان الوطاسي (٩٣١ هـ) وقام بالامر من بعده أخوه السلطان ابو حسون ثم قبض عليه
أحد أقاربه وخلعه في السنة المذكورة

وقام بالامر من بعده السلطان ابو العباس احمد (٩٣٢ هـ) وحصل بينه وبين السعديين
وقائع انتهى الامر فيها بالصلح بين السلطان الوطاسي وبين أبي العباس السعدي سلطان مرا كس
وقسمت بينهم البلاد حقتا الدماء وتقرر الصلح بينهم ما بذلك (٩٤٠ هـ) ولم يمكث الحال على هذا
زمن طويلا بل تغيرت الاحوال بين الوطاسيين والسعديين فانتشبت القتال بينهم ودام أياما الى أن
كانت الهزيمة على الوطاسيين (٩٤٣ هـ) ثم إن السلطان أبا العباس أراد الاخذ بالشار من
السعديين فعقد مع برتقال أسنى والجديدة وأزمور هـ مدينة بثلاث سنوات وكس البرتقال بذلك
للملكهم ثم حدث القتال بين الوطاسيين والسعديين فكانت النصر في هذه المرة أيضا للسعديين
(٩٥٢ هـ) وبذلك استولى سلطانهم محمد الشيخ السعدي على مكاسة (٩٥٥ هـ) ثم افتتح فاس بعد
حصارها وأسر سلطانها أبا العباس الوطاسي (٩٥٦ هـ) ثم قبض على الوطاسيين أجمع وبعث بهم
مقيدين الى مرا كس وكانت وفاة أبي العباس الوطاسي بمرا كس (٩٦٠ هـ) وبذلك استقل الشيخ
السعدي بأمر المغرب

وقام بالامر من بعده السلطان ابو حسون الوطاسي مرة ثانية وكان لما قبض الشيخ السعدي
على بني وطاس عند استيلائه على فاس فرز أبو حسون هذا الى الجزائر واستنجد بالعثمانيين الذين
كانوا استولوا على المغرب الاوسط واتزعه من يد بني زيان وما زال أبو حسون يحضهم على مساعدته
للاستيلاء على المغرب الاقصى ويعددهم بالنظر والغنائم والاموال الجزيلة الى أن أجابوه الى مطلبه
وأقبلوا معه في جيش كثيف تحت قيادة صالح باشا المعروف بصالح رئيس النائب عن خير الدين باشا
بربروس الذي كان وقتها بالقسطنطينية واستولوا على فاس بعد حروب عظيمة وفر منها الشيخ
السعدي (٩٦١ هـ) ففرح الناس بأبي حسون فرحاشديدا ثم إن أبا حسون جمع بجنود
العثمانيين الذين نصره وأجاسوه على كرسي آباءه مبلغا من المال وصر فاهم من فاس لشكايه
الناس منهم وتخلف منهم نفر يسير

أما السلطان محمد الشيخ السعدي فانه بعد فراره وصل الى مرا كس واستقر بها وأخذ في
استنفار القبائل وبقية الجنود لقتال أبي حسون ولما اجتمع له ما أراد نهض الى فاس فقابله السلطان

أبو حسون ثم دارت الحرب بينهما فكانت الهزيمة على أبي حسون ثم استولى السعدي أخيراً على فاس (٩٦١ هـ) وبعث السلطان أبي حسون انقضت دولة الوطاسيين أو الدولة المرينية الثانية من المغرب

وقد كان البرتغال بعد قيام دولتهم وتقدمها في الفتوحات والاكتشافات تمدد أنظارها للاستيلاء على بلاد مراکش خصوصاً المرات اختلال دولة بني مرين وقيام الثوار عليها في كل جهة وانتشار عقدها الأثمن لما كانت مهتمة بالأكتشافات البحرية الجديدة وتوسيع نطاق مستعمراتها بجهات الهند خافت من ان الاشتغال بذلك يصرف قوتها عن بلاد المغرب فبعث ملوكها في ايقاع العداوة والبغضاء بين بني حفص ملوك أفريقيا وبين بني مرين ملوك المغرب وساعدتها الفرص والاقدار على ما أرادت وتمكنت من دسيستها هذه بوقوع الخصام بين الطائفتين المذكورتين وقد ساعدت هذه الاحوال أيضاً الاسبانيون على مرغوبهم الا وهو طرد ما بقي من المسلمين بارض الاندلس واستئصال سلطانهم منها فهاجموا مدينة غرناطة بحجة تمنع ملوكها من دفع الجزية المضروبة عليهم لملوك إسبانيا وذلك بعد ان استولوا على ما يتبعها من الحصون والمعاقل ولما تم لهم ذلك كما سبق في تاريخ بني الأحمر طمعت نفوسهم الى الاستيلاء على ما خلف البحر من ثغور المغرب الادنى والوسط فاستولوا على بجاية (٩١٠ هـ) ووهران (٩١٤ هـ) وغيرهما وضعف بنو زيان عن مقاومتهم ثم أرادوا التغلب أيضاً على مدينة الجزائر لولا ان صددهم عنها خير الدين باشا وأخوه أوروج وطردهم مما من تلك الاطراف تماماً كما سيأتي مفصلاً في تاريخ الجزائر والدولة العثمانية

(الفصل الثاني عشر)

دولة الاشراف السعديين وأوليتهم ونسبهم

(٩١٥ - ١٠٦٩ هـ)

كان هؤلاء السعديون يدعون أن أصل سلفهم من ينبع النخل من أرض الحجاز وأنهم أشراف من ولد محمد النفس الزكية بن الحسن السبط بن علي رضي الله عنهم قالوا والسبب في قدوم سلفهم من الحجاز الى المغرب أن أهل مدينة درعة من مدن المغرب الاقصى كانت لا تصلح ثمارهم وتعتبرها العاهات كثيراً فقبل لهم لو أتيتهم بشر يف الى بلادكم كما أتى به أهل سجلماسة لصحبت ثماركم كما صحبت ثمارهم فأتى أهل درعة بالمولي زيدان بن أحمد مضاهاة لأهل سجلماسة فعادت عليهم بركته وهذا القول هو المعروف المتداول عند الكافة وان خالفه بعضهم وأما سبب تسميتهم بالسعديين فمن قبيل التفاؤل بأيامهم لا غير

وأول ملوكهم القائم بامر الله ابو محمد عبدالله بن عبد الرحمن وكان مبدأ أمره بالسوس وقت أن احتاطت به البرتغال واستولت على شواطئه وقد استحكمت شوكته وقتئذ لعدم وجود أمير تجتمع عليه كلمة الاسلام في تلك البلاد لان بني وطاس كانت فشلت ريجهم ببلاد السوس ولم يكن لهم من الملك والتفوذ الا في حواضر المغرب مع ما فيه من الضعف فلذلك اجتمع الناس على أبي محمد هذا وبإيده وفانتدبهم لقارة البرتغال فقاموا معه جميعاً (٩١٧ هـ) فكسبه الله من التغلب على البرتغال

وطردهم من البلدان فقويت شوكتة وعظم ساطاته وزادت محبة الناس فيه وعظم قدره وكانت وفاته (٩٢٣ هـ) وكان صالحا نشأ على عقاف ووج البيوت الحرام وكان مجاب الدعوة تلقى جماعة من العلماء الاعلام في وفادته على الحرمين الشريفين ويقال انه كان يعلم بالدعوة فيقول في كل محفل بلا خوف انه سيملك البلاد ويكون له شأن عظيم وذلك لرؤيا رآها كما قالوا

وقام بالامر بعده ولده السلطان ابو العباس احمد الاعرج وكان ولي العهد لايه مدة حياته واجتمع الناس على بيعته من سائر الاقاف بلا تردد فلما استقام له الامر بذل المجهود في جمع العساكر وتعبية الجيوش الى الثغور وشن الغارات على العدو وكان البرتقال قد اناخوا بشواطئ البحر وعاثوا في مدن السوس الساحلية فما زال يقرعهم حتى أجلاهم عن تلك البقاع ولما طارصيته لذلك ودخلت في طاعته سائر البلاد السوسية كاتبه أمراء مرا كشيرومون الدخول في طاعته فسار اليهم ودخل مدينتهم (٩٣٠ هـ) واستولى عليها فأتى اليه ملك فاس أبي عبد الله الوطاسي المعروف بالبرتقال الى أن كان منهم ما مر في تاريخ الوطاسيين وكان لابي العباس أخ يدعى أبي عبد الله محمد الشيخ وكان السلطان أبو العباس يستشير في كل أمره ويقاوضه في المهمات فكانت كلمتهما واحدة ورأيهما متحد الى أن دخلت بينهما الوشاة فتنافرا ثم تقاطعا لزمان طويلا وكان معظم قبائل السوس يميل الى الشيخ لما كان له عندهم من جليل المنزلة ورفيع القدر فعظم أمره ببلاد السوس وغلب على أخيه أبي العباس وقبض عليه وعلى أولاده وأتباعه وأودعهم السجن فأصبح ملكا مستقلا بعد أن كان وزيراً تابعا (٩٤٦ هـ) وفي سلطنة أبي العباس أحمد الاعرج هذا هاداه ملك فرنسا المدعو فرنسيس بهديا فاخرة وأتحاف عالية غالية (٩٤٠ هـ) لتحسين العلاقات بينه وبين فرنسا ولكي يعامل الشريف المذكور بأسراء الفرنسيين معاملة حسنة فحصل ملك فرنسا فرنسيس على مرغوبه بذلك وتراجعت التجارة بين بلاد المغرب وفرنسا

ولما استقل السلطان أبو عبد الله الشيخ ببلاد السوس واجتمعت عليه الكامة من سكانه صرف همته الى جهاد العدو الذي كان لا يزال له بعض الجهات الساحلية والحصون البحرية فانصر عليهم واستأصلهم من تلك النواحي تماما (٩٤٨ هـ - ١٥٤٢ م) ولما استقل بالامر ببلاد السوس هاجم مرا كشيرو كانت توقفت عن بيعته لهذا الوقت مخافة من الوطاسيين فاقتحمها وبايعه أهلها وخلص له بذلك ما كان يبدأ أخيه المخلوع (٩٥١ هـ) ولما تم له الاستيلاء على مرا كشيرو طمعت نفسه للاستيلاء على بقية المغرب وأمصاره وودسا كره وقطع دابر الوطاسيين بجمع الجوع وما زال يستقحمها بلادا حتى أتى على أعمالها فاستولى على مكاسة بعد حصار وقتال (٩٥٥ هـ) ثم ألح بعد ذلك على فاس فامتنعت عليه زمان طويلا الى أن فتحها (٩٥٦ هـ) ولما دخلها قبض على الوطاسيين أجمع وبعث بهم مكبلين الى مرا كشيرو عدا بأحسنون منهم فانه فر الى الجزائر مستجير بالعثمانيين فاعانوه كما مر ثم ناقت نفسه لاختضاع المغرب الاوسط فحاصر مدينة تلمسان وكان استولى عليها حسن باشا ابن خير الدين بارباروس الشهير وانقضت منها دولة بني زيان (٩٥٢ هـ) فتمكن من فتحها (٩٥٧ هـ) الا أنه لم يتمتع بالبقاء فيها زمان طويلا لان العثمانيين بعد ان استجاشوا كروا عليها وأخرجوه منها عنوة فعاد الى مقره من فاس ولما استولى أبو حسون بمساعدة العثمانيين على مدينة

فاس كما روفرت منها أبو عبد الله الشيخ ثم عاد إليها ثانية واستفتحها عنوة صفا له أمر المغرب ودانت له أقطاره (٩٦٠ هـ) ولما كان هذا السلطان يحدد على الاتزان لاستيلائهم على المغرب الاوسط وانهم أغراب ليسوا من سكان هذه البلاد وكان يطيل لسانه بالتدق في حق السلطان سليمان القافوني ويترصد الفرص للايقاع بهم واخراجهم من تلك البلاد ولم تغد وساطة الامام أبي عبد الله الخروبي الذي أرسله والى الجزائر للتوسط في الصلح وعقد المهادنة أضمر له العثمانيون الشر حتى أوقعوا به في ملكته وقتلوه في خبر طويل (٩٦٤ هـ) وكان السلطان عبد الله هذا مولعا بتدبير أمر الرعية حاز ما يقطما مضى العزيمة قوى الشكيمة كثير الغزوات على الهمة لقب بالهوى وكان من أئمة عصره عني بالعلم صغيرا وتعلق بأهله كثير حتى بلغ فيه الى درجة الرسوخ وكان يقول ينبغي للملك أن يكون طويل الامل فان طول الامل وان كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح لان الرعية تصلح بطول أمه وكثيرا ما كان ينشد

الناس كالناس والايام واحدة * والدهر كالدهر والدين المن غلبا

ولما بلغ خبر مقتله الى خليفة مرا كس بادر فقتل أبا العباس الاعرج المخلوع وأولاده جميعا مخافة أن يبايعه أهل مرا كس

وقام بالامر من بعده ولده السلطان ابو محمد عبد الله الغالب بالله وكان ولي عهد أبيه ولما أتته الاخبار بقتل أبيه وهو بفاس بايعه عامة أهلها (٩٦٤ هـ) ثم بايعه أهل مرا كس فاستوثق له الامر وتم له ملك أبيه (٩٦٥ هـ) ولم تطمع نفسه في الزيادة على مملكته أبوه من قبل بل التفت الى مملكته يحصنها ويقوم ما عوج من أمورها وفي السنة الاولى من حكمه أغار عليه حسن باشا ابن خير الدين باشا كما تلمسان الا انه رجع مهزوما وبعد ذلك صارت عمارة العثمانيين تتردد دائما على مدينتي حجر باديس وطنجة ولما تخوف منهم تفق مع الاسبانيول على العثمانيين وتنازل لهم عن مدينة حجر باديس ليحتلواها وبذلك يقاطع الاسبانيول على العثمانيين البحر فاخلاههم وفي سنة هذا الشريف قصدا لبرتقال الاستيلاء على بعض سواحل مملكة المغرب الاقصى وحضر والذالك باسطول حربي عظيم وبينما كانوا يحاولون الاقتراب من الشاطئ ظهرت زوبعة شديدة قالقت بسفهم على الشاطئ فانكسرت وبذلك استولت المغاربة على ما كان بذلك الاسطول من الاموال والذخائر وكان من ضمنها ١٥٠٠ مدفع فتقروا بها وركبوا في معاقلهم (٩٨٠ هـ) وكانت وفاة هذا الشريف (٩٨١ هـ) وكان حسن السياسة خبيرا بأحوال الملكين الجانب صلحت الرعية في ملكه الا انه يؤاخذ لما كان من تنازله عن حجر باديس للاسبانيول اذ بذلك جعل لهم المدخلة في أمور المغرب الاقصى بعد ان انقطت مادتهم عن تلك الاطراف وله غير ذلك من الامور التي لا تليق بملوك الاسلام لخالفها الشرع الشريف قال بعضهم من كلام الأأن المسلول لا يستغرب في حقهم أن يدموا أساس الشريعة لينبوا منار رياستهم ويستهنوا عظام الامور وتطيعهم الرعية ساعة كيف لاوشراع أفسدتهم تلعب به رياح الشهوات فتلقى سفينة قلوبهم على ساحل بحر القنوط من رحمة الله تعالى والله تعالى يساع الجميع ويتجاوز عن كافة عصاة هذه الامة بمنه وفضله ٥١

وقام بالامر من بعده الشريف ابو عبد الله محمد المتوكل على الله (٩٨١ هـ) وكان ولي عهد أبيه

واستمر أبو عبد الله هذا منتظماً الحاله الى أواخر (٥٩٨٣) ثم قدم عليه عمه عبد الملك بن الشيخ بجيش من الترك فبذل ملكه وسبب ذلك اضماره الفتنك لعيمه أجدد وعبد الملك وكانا مقيمين بسجلماسة مدة أيام أبيهما فلما توفي وولى الامر بعده ابنه الغالب بالله فر عبد الملك وأجدد الى تلسان خوفاً على أنفسهم ما منه وأقاما عند واليهما حسن باشا بن خير الدين بارباروس ثم لحق بهما أخوهما عبد المؤمن ثم انتقلوا بعد ذلك الى الجزائر ومنها ركب عبد الملك وأخوه البحر الى القسطنطينية مترايين على السلطان سليم الثاني بن السلطان سليمان وكان في ذلك الوقت بالقسطنطينية أيضاً رسول أبي عبد الله محمد المتوكل كان حضر اليها يحمل هديه فاخرة للسلطان سليم الثاني وكان تصادف وفاته وجلس السلطان مراد الثالث الذي لما علم بالتجاه الشريف عبد الملك اليه طالب بالمساعدة له لنوال سلطنة مرا كش والقيام بها بدعوتها لانه أحق بهما من غيره رضى لخاله ووعده بالمساعدة سيما وانها تتبع المسألة التامة مع الدولة بينهما كان فليخ على باشا بالجزائر وعلى ذلك كتب الى رمضان باشا والى الجزائر بالتوسط بين الشريف عبد الملك والسلطان محمد المتوكل ليحمل المتوكل على أن يتنازل لعبد الملك عن بعض المقاطعات من بلاد المغرب يستغلها ويحكمها بالاستقلال فلما عرض ذلك الوالى على المتوكل رفضه رفضاً قطعياً فعند ذلك جهز الوالى المذكور سنة (٥٩٨٣) جيشاً قوامه ثلث مائة مقاتل وانضم معه شعبة عبد الملك وقبيلته وزحف الجيش يريد مرا كش وكان عبد الملك يكتب حاشية المتوكل ورؤس أجناده ويهدمهم ويمينهم ويعد حروب يطول شرحها وفرار المتوكل واستيلاء عبد الملك للمغرب بالمعتمصم على فاس ومرا كش وغيرهما ورجوع المتوكل ثانية واستيلائه عليهما استجاش أبو عبد الله محمد المتوكل المخلوع بسبستيان ملك البرتغال وشكاليه ماناله من عمه المعتمصم وطلب منه الاعانة فقبلي ملك البرتغال دعوته واشترط عليه في مقابلة ذلك أن يكون له سائر سواحل المغرب فقبل أبو عبد الله ذلك والتزمه وللحال جمع ملك البرتغال جوعه وأساطيله المركبة من ألف مراكب وخرج من بلاده يريد بلاد المغرب وكان كباراء دولته حذروه عاقبة هذا الخروج فلم يسمع قولهم وبلغ في آرائه وملك الطمع قلبه ثم خرج من طنجة في جيش عدده ١٢٥,٠٠٠ مقاتل (١٥٧٨ م - ٥٩٨٦) فاغتاز لذلك أهل المغرب لاستعانة ملكهم باعدائهم الذين يطعمون بابصارهم من زمن طويل للاستيلاء على بلاد المغرب خصوصاً ان سبستيان هذا كان يجار بهم في (١٥٧٥ م) بجيهاً طنجة وقد كان ذلك من أكبر الاسباب في هزيمة المتوكل ثم انضم المتوكل بمن معه من الاجناد والحاشية الى جيش سبستيان وخرج على غلام الالهة والاستعداد من مدينة طنجة وكانت للبرتغال وتقدم الى الشرق فالتقيا بعد مدة بجيش عبد الملك وأخيه أحمد ثم دارت رحى الحرب بين الطرفين وعند الصدمة الاولى توفي عبد الملك في محنته ولم يعلم أحد بوفاة غير صاحبيه وأخيه خوفاً انتثار عقد الجنود وصار الحاجب يتردد بين المحفة والقواد ويقول السلطان بأمر كم يكذبا ويريد منكم كذا تقدم يا فلان وتأخر يا فلان وهكذا كأن السلطان على قيد الحياة ثم أراد الله وانتهصر جيشه نصراً عظيماً ووقع في يدهم الغنائم ما لم ير أهل المغرب مثله قبل ذلك ثم فتشوا بين القتلى فوجدوا سبستيان غريقاً في النهر وكذا المتوكل وغيرهما من حاشيتهما وقد كان المتوكل فقيهاً ديباقوى العارضة الا أنه

كان مع ذلك متكبيرا تباها غير مبال بأحد عسوف على الرعية وكانت مدة سلطنة عبد الملك أربع سنين
وكان يتزايى الاتراك ويجرى مجراهم في كثير من شؤنه

وقام بالأمر من بعده الشريف ابوالعباس احمد المنصور بالله (٩٨٦ هـ) وبعد أن
استوثق له الأمر كتب الى السلطان مراد ابن السلطان سليم وإلى سائر ملوك الاسلام المجاورين
لبلاده يعرفهم بانتصاره فأرسل السلطان مراد رسلا معهم هدية وهي سيف محلى لم ير مثله مضاء وصفاء
متن وغير ذلك وهاداه أيضا كثير من ملوك أوروبا وكان المنصور لما تربع في دست الملك كأنه نسي
أو تناسى ما للسلطان العثمانيين عليه من اليد لانه هو السبب في اقعاده هذا المقعد فحدث عن ذلك نفرة
بين المنصور والسلطان مراد ودبت بينهما عقارب الوشايات حتى كادت تضطرب بينهما نيران الحرب
وبالفعل أمر السلطان قائد العساة أن يتجهز للذهاب الى بلاد المغرب فلما اتصل الخبير بالمنصور
من بعض قناصل الانكليز ارناع قلبه وأرسل رسلا يعتمد عليهم بهدية جلية الى القسطنطينية تلافيا
لما فرط واعتذارا عما سلف فتوصل الرسل الى مخاطبة السلطان بتلطف حتى زال ما به صدره
واعتذر والله عن تأخر المنصور عن الجواب فقبل السلطان مراد الاعتذار وتقبل الهدية وكتب الى
القبودان باشا بالرجوع عن منازلة بلاد المنصور وأرسل السلطان أيضا رسلا الى المنصور يلوومه على
التراخي في أمور الملوك فلما قدموا عليه أكرم وفادتهم وأحسن نزلهم وردهم مكرمين وأرسل معهم
بعض كبراء دولته فصفت القلوب وزال ما بالنفس (٩٨٩ هـ) وقد ناسع ملك المنصور وامتد
نفوذ حتى استولى على بلاد تنبكتو وكاتم وكاغو وغيرهما من بلاد السودان الاوسط وهادته ملوك
التكر ورمثل ملك برنو وغيره وقد كان المنصور من أجل ملوك الغرب يتنى المباني العظيمة من ذلك
القصر الشهير المسمى بالبديع صرف عليه من الاموال ما لا يحصر وفرشه بافواح الرخام والفسيفساء
والطنافس والحراير مما يحير الابصار ويستوقف العقول وكانت وفاته (١٠١٢ هـ) بالوباء الذي كان
انتشر في تلك السنين وعم بلاد المغرب تقريبا وكان حسن السياسة حازما يقظا مشاورا في مهمات
الامور ومن حسن فكره أنه اخترع أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها الى عماله
فإذا سقط الكتاب في يد عدو أو غيره لا يدري ما فيه ولا يعرف ما شتم عليه وكان يعطى ذلك العامل خطا
يفك به رسائله اليه وهذا يدل على ان هذه العلامات التي تسمى الفريخ الآن بالشفرة قد يمة
الاستعمال استعمال العرب قبلهم بقرون

وقام بالأمر من بعده ابنه السلطان الشريف أبو المعالي زيدان باتفاق أهل الحل والعقد
وكان المنصور استخلفه في حياته لأن أهل مراکش لما كتب اليهم بالبيعة لزيدان امتنعوا وبايعوا أبا
فارس أخاه لانه خليفة أبيه بنار ملكه التي هي مراکش ولان الخاصة من حاشية أبيه كانت تميل الى
أبي فارس لمعرفتهم بأخلاقه وأطواره أكثر من معرفتهم بأحوال أخيه المذكور ولما علم زيدان بذلك
جهز لقتال أخيه جيشا كثيرا وأعطى قيادته لآخيه المدعو بالشيخ وكان مسجونا في سجونه بعد أن
أخذ عليه العهود والمواثيق بالطاعة وعدم شق العصا ثم انحرف الناس عن زيدان الى أخوه أبي
فارس والشيخ وتسلت عنه الجنود اليهم فاقوى حزبهم ما ولما رأى زيدان أن لانجاة الا بالفرار فررت النجاء
الى فاس متحصنا بها فأنحرف عنه أهلها أيضا مع أنهم كانوا بايعوه عن رضا وقلبه واله ظهر الجنح فلما
رأى منهم ذلك قرأ الى تلسان نار كابلاد مراکش الى أخوه أبي فارس والشيخ وكانت أمهما واحدة

أمة من إمام المنصور (١٠١٢ هـ) وصفت البلاد بعد ذلك إلى الشيخ واستبد بالامر وانقرض بالسلطنة ثم ظهر منه سوء السيرة ونجس السريرة وصادر المال واستصق أموال الاغنياء وغير ذلك مما حجل الناس على كراهته ثم جهز جيشا للقتال أخيه أبي فارس عراكش وأمر عليه ولده عبد الله ولما وقعت الحرب بين الطرفين تمت الهزيمة على أبي فارس ففر بنفسه ودخل عبد الله بن الشيخ مرا كاش فأباحها لحيوشه فنهبت دورها واستبيحت محارمها واشتغل هو بالفساد من شرب الخمر والانعكاف على اللذات متجاهرا بالمعاصي (١٠١٥ هـ) وعند ذلك ندّم أهل مرا كاش على ما كان منهم من العصيان على زيدان فكاتبوه بتلمسان يطلبون نجيشه ولومنفردا وكان زيدان يستمد مساعدة إلى الجزائر فلم يفلح في مراده ثم ذهب زيدان ودخل مرا كاش فقباله أهلها بالترحاب والتهليل وتحزبوا معه وقتلوا حاكم المدينة الذي ولاءه عليهم الشيخ وخرج عبد الله ابنه فارتجف من أهل فاس بعد أن قتلوا منهم مقتله عظيمة (١٠١٥ هـ) وقدم عبد الله بن الشيخ على أبيه بفاس في أسوأ الاحوال ثم ان الشيخ جهز ابنه عبد الله بجيش عظيم لاسترداد مرا كاش ولما بلغ خبره السلطان زيدان بعث إليه قائدا بجيشه المدعو مصطفى باشا في جيش عظيم (١٠١٦ هـ) فالتقى الجمعان فكانت الهزيمة على مصطفى باشا بعد أن قتل من جيشه عدد عظيم ثم تقدم عبد الله إلى مرا كاش وبرز إليه أهلها في جيش عظيم ثم انهم زموا ودخل عبد الله مرا كاش وفر زيدان إلى المعقل المنيعه والجبال الشاخنة ولما دخل عبد الله مرا كاش أخس في القتل والتضييق على السكان فرحل جانب عظيم منهم إلى الجبال وانفقوا فيما بينهم على تولية محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان الشريف محمد الشيخ وكان له من جيد الخصال ما عطف القلوب عليه ثم التفوا عليه فخرج عبد الله لقتالهم لما علم بذلك والقبض على أميرهم هذا ولما التقي الجمعان انهزم عبد الله وولى أصحابه الادبار (١٠١٦ هـ) ونشتوا على وجوههم في البلاد حتى وصلوا فاس في حالة سيئة أما محمد بن عبد المؤمن فإنه لما دخل مرا كاش صفح عن الذين تخلفوا من جيش عبد الله بن الشيخ فكان ذلك سببا في اغار الصدور عليه وكاتب أهل مرا كاش سر الشريف زيدان فاتاهم وخيم بظاهريتهم وامتنع أهل مرا كاش من مساعدة ابن عبد المؤمن فانهزم ودخل زيدان مرا كاش وصفح هو أيضا عن الفئة المتخلفة عن عبد الله بن الشيخ

وقد ذكرنا فيما سبق ما كان من استيلاء الاسبانيول على غرناطة وأعمالها (٨٩٧ هـ) والتزام أهل غرناطة طاعة فرديندو والبقاء تحت حكمه على الشروط التي ذكرناها وكان الاسبانيول قد نقضوا تلك الشروط عروة عروة ولهذا كان أهل الاندلس كثيرا ما يهاجرون إلى بلاد الاسلام أثناء هذه المدة غير ان عامتهم كانوا تخلفوا باخلاق الفريخ وأثر ذلك فيهم أثر ظاهر الطول صحبتهم لهم ونشأت أعقابهم بين أظهرهم وكان الملوك السعديون قد جمعوا منهم جنودا كبيرا وبعثوا منهم قسما إلى السودان واستمر الحال على ذلك إلى أن كانت (١٠١٦ هـ) فهاجر جميع من لم يتنصر منهم إلى بلاد المغرب وغيرها وقال صاحب نفع الطيب خرجت ألوف بفاس وألوف آخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس فسلط عليهم الاعراب ومن لا يخشى الله سبحانه في الطرقات ونهبوا أموالهم وهكذا كان يبلاد تلمسان وفاس ونجا القليل منهم من هذه المضرة ١٠١٦ هـ ولما أتوا تونس أوسع لهم عاملها التركي

عثمان داي الكرامة وأباح لهم بناء القرى في مملكته فبنوا نحو العشرين قرية واغتيبهم أهل الحضرة وتعلموا حرفهم وقلدوا حرفهم ووصل جماعة منهم أيضا إلى القسطنطينية وإلى مصر والشام وغيرهما من بلاد الاسلام

ثم إن الشيخ المنصور لما ملته النفوس من قساوته وكان بعث ابنه عبده الله مرة ثالثة إلى حرب السلطان زيدان بجرا كس وأعمالها خرج عبده الله من فاس ولما التقى الجمعان كانت الهزيمة على عبده الله (١٠١٦ هـ) وفرت نفوس أصحابه ووقعت محلته في يد السلطان زيدان وانضم إليه جيش عبده الله فعفاه عنهم واستفحل أمر السلطان زيدان ومالت إليه قلوب أهل المغرب جميعا فعند ذلك خاف الشيخ ففر في أهله وحشمه إلى العرائش فاحتل في القصر الكبير ولحق به ابنه عبده الله مهزوما وبعد أن استولى على فاس نهض إلى القصر الكبير وانقض على الشيخ وخر به ولما اتصل خبر ذلك بالشيخ فر إلى العرائش ومناكب البحر إلى فيليب الثالث طاغية الاسبانيول مستصر خابه على السلطان زيدان (١٠١٧ هـ) ولما استقر زيدان بفاس بلغه خبر قيام بعض الثوار عليه بناحية مرا كس فخرج إليه مسرعا واستخلف على فاس مولا مصطفى باشا ولما علم عبده الله بذلك زحف إلى فاس فبني انضم إليه فيروز اليه مصطفى باشا (١٠١٨ هـ) والتقى الجمعان ثم أجلت الحرب عن مقتل مصطفى باشا وهزيمة جنوده فدخل عبده الله بن الشيخ فاس مع عمه أبي فارس في السنة المذكورة ومع ذلك فإن عبده الله لم يتمتع طويلا بهذا الفتح لأن زيدان لما سمع بمقتل وزيره واستيلاء عبده الله على فاس أقبل مسرعا وحاصرها وكان عبده الله يستعد لقاتله الاسبانيول الذين كانوا نزوا على مدينة العرائش ثم انهزم الناس عن عبده الله ففر واستتب الأمر لزيدان الذي أهان أهل مرا كس اهانة فاضحة وفعل عسكريه بالمدينة أفعالا منكورة (١٠١٩ هـ) ثم وقعت الحرب بين زيدان وعبده الله بعد ذلك بأيام فانهزم زيدان ورجع إلى فاس وأعرض عن التطلع لها وصرف عنايته إلى ضبط مرا كس وأعمالها وتوارث بنوه السلطنة من بعده وبقى عبده الله بن الشيخ إلى أن هلك وقام بأمر فاس من بعده ثوارها

وقد تقدم فرار الشيخ المأمون من العرائش إلى ملك الاسبانيول مستصر خابه على أخيه السلطان زيدان لأن ملك الاسبانيول لم يقبل ان يمده فعرض عليه الشيخ ان يترك أولاده عنده رهنا ويعينه بالمال والرجال حتى اذا ملك أمره بذل له ما شرطه عليه فاشتراط عليه ملك الاسبانيول تخليته مدينة العرائش وتخليتها ليه فقبل الشيخ ذلك وتعهده ثم خرج قاصدا بلاد المغرب (١٠١٨ هـ) ولما سمع أهل فاس خافوا من شوكتهم وذهب اليه جمع من علماء فاس وأعيانهم التفتت به بالقدوم ففرح بهم وأطلق لهم المدافع تعظيما وإرهايا وحقن الناس من ذلك كثيرا ولما مو العلماء على تم نيتهم لرجل استعان باعداء بلادهم عليهم سيما وانه اشتراط لهم التنازل عن قسم من بلادهم وقسام أهل المغرب كافة بما كان من استنصار الشيخ بالاسبانيول فقاموا وقعدوا وأنكروا ذلك أشد الانكار خصوصا حينما أخرج الشيخ أهل العرائش منها ليقى ملك الاسبانيول بما وعده ثم قامت العلماء تحض الناس على خلع الشيخ والاستعداد لقاتله الاعداء واسعاف سكان العرائش وكان الشيخ لما خاف الفضيحة وانكار الخاصة والعامة عليه أفعاله وتنازله طوعا وعن بلد من بلاده إلى الاعداء احتمال في ذلك وكتب سؤالا إلى علماء فاس وغيرها يذكروا لهم فيه أنه لما دخل بلاد الاسبانيول بأهله

وأولاده منعوه من الخروج من بلادهم حتى يعطيهم نعر العرائش وانهم ماتر كوه يخرج بنفسه حتى ترك لهم أولاده رهنا على ذلك فهل يجوز له ان يفدى أولاده من أيدي النصارى بهذا الثغرام لا فاجابوه بأن فداء المسلمين سيما أولاد أمير المؤمنين سيما أولاد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم من يد العدو وباعطاء بلد من بلاد الاسلام له جائزا وانما وافقون على ذلك وكانت هذه الفتوى بعد ان وقع ما وقع وامتنع جماعة كثيرة من مشاهير العلماء عن الفتوى ثم ان الشيخ بن المنصور اجتمع عليه جمع من أهل الفساد فعاث بهم في البلاد فقلته القلوب لما رأوا من انحلال عقيدته ورقه ديانتهم وتعليكه نعران نغور مر اكش للاعداء ثم اجتمع الناس عليه وقتلوه وسط محلته (١٠٢٢ هـ) وكان زيدان من لدن مات أبوه المنصور وبويع هو بفاس في محاربات مع اخوته وأبنائهم ومقاتلة مع القائميين عليه من الثوار ولم يحل قط من سنة من سني دولته من هزيمة عليه ووقعة باحماه وحدث بينه وبين اخوته معارك شديدة وكان زيدان فقيها متضلعا في العلوم وله تفسير على القرآن وكانت وفاته (١٠٣٧ هـ)

وبويع من بعده ابنه عبد الملك ولما تمت له البيعة خرج عليه أخواه الوليد وأحمد فوقعت بينه وبينهما معارك وحروب الى ان هزمهما واستولى على ما كان بيدهما وقرأ أحمد فدخل حضرة فاس واتسم بسمية السلطان وضرب السكة باسمه ثم توفي قتيلا (١٠٥١ هـ) وكان عبد الملك ابن زيدان فاسد السيرة مدمن على شرب الخمر متمسكا وما زال على ذلك حتى قتل وهو سكران (١٠٤٠ هـ)

وقام بالامر من بعده أخوه الوليد بن زيدان وكان مقتصر على ما كان لآخيه وأبيه من قبله ولم يجاوز سلطانه مر اكش وأعماله وأعظم الفتن بفاس واقسم المغرب في أيامه وأولاد زيدان طوائف فكان حاله كحال الاندلس أيام طوائفه وتضعفت أحواله وضعفت جيوشه وفترت همته وتلاعب الاسبانيول والبرتقال بسياسته أياما وبذلك ضاعت الفتوحات السودانية وفتقد المغرب سطوته بتلك الاطراف ولما استفحل أمر النوار استقل جزء عظيم من بلاد السوس واقطعه عدة خوارج كابي حسون السملالي وغيره وكان الوليد دمتواضع العين الجانب دينارضيته الخاصة والعامية وقد فتن بكثير من الاشراف من اخوته وبني عمه وكان يكرم العلماء ثم نار عليه جنده ولكن له أربعة منهم فقتلوه غدرا (١٠٤٥ هـ) ولما قتل الوليد أجمع رأى أرباب الدولة على مبايعة أخيه محمد الشيخ فاخرجوه من سجينة حيث كان سجينة أخوه فلو فوه منه الخروج عليه فسار في الناس سيرة حميدة ولأن الجانب للكافة وكان خصوصا لا يميل الى سفك الدماء محبا للراحة مقبلا على فعل الخير وكانت وفاة السلطان محمد الشيخ (١٠٦٤ هـ)

ولما توفي السلطان محمد الشيخ بويع ابنه ابو العباس جهم ولم يستقر له أمر لان أخواله قويت شوكتهم في أيامه ووثبوا على الملك وراموا الاستبداد به فاصروه وضايقوه بما اكش أشهر ولما ذهب اليهم اطلب الصلح قبضوا عليه وقتلوه غيلة وأقبلوا الى مر اكش مسرعين (١٠٦٦ هـ) وولوا عليهم أميرهم عبد الكريم بن أبي بكر الشيباني وبقته السلطان أبي العباس أحمد انقرضت دولة السعديين من آل زيدان وانطوى بساطها فسبحان من لا يزول ملكه ومدة ملكهم مائة وخمسون

سنة وبعد انقراض دولة الاشراف السعديين قام عمرا كش دولة صغيرة تعرف بدولة الشبانات وأولها الرئيس عبد الكريم الذي لما دخل مرا كش دعا الناس الى بيعته فبايعوه (١٠٦٩ هـ) فانتمت له مملكة مرا كش وأعمالها وسار في الناس سيرة حسنة ولم يزل على ذلك الى أن مات (١٠٧٩ هـ) ومن الحوادث التي ظهرت في زمنه الغلاء المفرط وبايع الناس ولده أبا بكر بن عبد الكريم وبقي في مرا كش الى أن قدم المولى الرشيد وقبض عليه وعلى عشيرته فقتلهم ثم تتبع الشبانات فأفناهم قتلا

﴿ الفصل الثالث عشر ﴾

دولة الاشراف السجلماسيين

قال النسايون ان نسب هذه الدولة متصل برسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بعض العلماء يقول ما ولي المغرب بعد الادارسة أصح نسبا من شرفاء تافيلت أي سجلماسة وأصلهم من يبيع النخل من أرض الحجاز وكان أول من دخل منهم المغرب المولى حسن بن قاسم في أواخر المائة السابعة في أوائل الدولة المرينية وقيل ان سبب مجيئه الى سجلماسة إعلاء قدر الدولة المرينية لانهم المأنت رفعت قدر الاشراف واحترمتهم ولم يكن بسجلماسة أحد من آل البيت الكريم وكان حسن المشار اليه متصفا بالصلاح والزهد وله مشاركة حسنة في كثير من العلوم وبقي بين أهل سجلماسة يعظهم ويهديهم الى طريق الرشاد حتى وافته منيته ولم يخلف الا ولدا واحدا كان يدعى المولى محمد بقي مكرما منظورا اليه بعين التقدير والاحترام هو وأولاده من بعده الى أن كان منهم المولى أبو الحسن على الشريف الذي دعاه أهل غرناطة لما ضايقهم الاعداء يلتمسون منه العون اليهم ليكون شيئا للفرزاة والنجاهدين وتنازلوا له ولمن يحضر معه عن أموال جزيلة برسم الجهاد ومن أولاده السيد على المشنى وهو جد الاشراف الحاليين الحاكمين بمملكة مرا كش وكان له ولدي يدعى الشريف محمد وهو أول من تولى الرياسة منهم وكان يقول ان هذا الامر لا بد ان يصير الى يته ولما تالشي أمر المغرب في أواخر دولة الاشراف السعديين وكثر به الثوار استصرخ الشريف محمد يابى حسون السملالى صاحب بلاد السوس اذذاك فأتى اليه مسرعا على رأس جيش عظيم (١٠٤٣ هـ) ولما رأى أعداء الشريف ما بينه وبين أبي حسون من الصداقة والوصلة مالوا بكليتهم الى أبي حسون وصدقوا المحبة والخدمة كل ذلك ليفسدوا ما بينه وبين المولى الشريف وما زالوا يجتدون في ذلك حتى استحسنت العداوة بين الشريف وبين أبي حسون ثم ان أبا حسون كتب لعامله على سجلماسة فقبض على الشريف وأرسله اليه مكبلا فاعتقه له أبو حسون الى أن افتكه ولده محمد بعال جزيل (١٠٤٧ هـ) وأقام بسجلماسة الى أن توفى (١٠٦٩ هـ) وبينما كان الشريف في حبسه كان ابنه محمد يسعى في تأليف القلوب عليه وجمع جيشا يريد به أخصامه فتم له ذلك جيدا لما كان انصف به عمال أبي حسون من سوء السيرة والتضييق على الناس حتى ملتهم النفوس ثم أوقع بعدهم من بلادهم بعد قتال شديد ولما اشتد ساعده وقوى أمره عزم حربه على البيعة له فبايعوه (١٠٥٠ هـ) في حياة أبيه ووافق على بيعته أهل الحل والعقد بسجلماسة

فاستتب أمره وطارذ كره واذا أراد الله أمرها هيا أسبابه ثم شمر المولى محمد لمضايقة أبي حسون وأهل السوس وجرى كل منهما على صاحبه ثم انتصر المولى محمد وانهمز أبو حسون إلى بلاد السوس واستولى محمد على درعة وأعمالها فانتسعت آياته ونوفرت جموعه وعظمت جبايته ثم وقعت الحرب بينه وبين صاحب فاس ومكناسة الرئيس عبد الله محمد الحاج الدلائي فكانت الهزيمة أولاً على محمد الشريف ثم تصالحا ثم تحاربا فكانت الهزيمة هذه المرة على صاحب فاس واستيلاء محمد ابن الشريف عليها بمساعدة أهلها (١٠٦٠ هـ) ثم خرج منها قهورا واستولى عليها محمد الحاج ثانية وجعل عليها ابنه أحمد أميراً ولما رأى المولى محمد أن لاطاقة له بالاستيلاء على فاس صرف عنايته إلى جهات تلمسان فأخضع قسماً من بني تزناسن وهزم جيش العثمانيين كان خرج لقتاله من تلمسان (١٠٦٠ هـ) وصار يشن الغارات على القبائل والقرى والدسا حتى اضطرت أحوال المغرب الأوسط وهتم سكانه بخلع طاعة العثمانيين ثم ان والى الجزائر عثمان باشا جهر عليه جيشا عظيماً فخاف المولى محمد لقاؤه ففكر راجعاً إلى سجلماسة بعد أن فرق العرب الذين كانوا معه ولما رجعت عسكر العثمانيين إلى الجزائر أخسروا واليهما بحال الرعايا وما نالها من صاحب سجلماسة المذكور فأجمع رأيه ورأى ديوانه على إرسال رسالة إلى المولى محمد فلم تأت بالمطلوب ورددها المولى محمد أشنع رد ثم ان المولى الرشيد ابن الشريف على أنحو المولى محمد خرج عليه بعد وفاة أبيه ولما وقعت الحرب بينهما كانت أول رصاصته في فخر المولى محمد فكان فيم احتفه (١٠٧٥ هـ) وكان المولى محمد شجاعاً لا يبالي بالعظام ولا يخطر بباله الأوجال

ولما قتل المولى محمد ابن الشريف على أقبلت جميع جنوده وأتباعه إلى المولى الرشيد بن الشريف فبايعوه البيعة العامة وخضع له قسم عظيم من أعراب البادية فعظم أمره وعلا كعبه ثم أرسل الرسل والرسائل لأهل الطاعة والعصيان ثم تقدم ففتح نازا (١) وسجلماسة بعد أن حاصرها تسعة أشهر إلى أن فرغ منها ابن أخيه المولى محمد الصغير وفي (١٠٧٦ هـ) استولى على مدينة فاس بعد حصارها فاستقام له أمرها ووصلت أحوالها بعد أن قتل من أهلها عدداً عظيماً ثم مال على كثير من الثوار والخوارج فأفناهم قتلًا وتشريداً ولما فرغ من ذلك خرج يقصد مراکش (١٠٧٩ هـ) فاستولى عليها وقتل رئيسها أبا بكر بن عبد الكريم الشيباني ولما تسع ملكه واستقر له الأمر ضرب السكة باسمه ولما كان أمر بلاد السوس يهيمه جداً الاستقلاله ووجود طائفة معاندة له به وهم بنو حسون سار إليهم (١٠٨١ هـ) فافتتح ديارهم وقلاعهم واستولى على بلادهم وكانت وفاة المولى الرشيد (١٠٨٢ هـ) جمع به فرسه في بستان فاصابه فرع شجرة فهشم رأسه يوم عيد الاضحى وفي زمنه (١٠٧٩ هـ) تنازل ملك البرتقال مدة ملكتهم كارلوس الثاني ليدرو والثاني ملك الاسبانياول عن مدينة سبته معها مدة وقعت بينهم مدينة أشبونة ولا زالت في يدهم إلى الآن والرشيد أول من ضرب فلوس النحاس المستديرة وكانت قبل ذلك مربعة وله من الآثار عدة مبان كالقناطر والمدارس والآبار وكان محبا للعلماء مؤثراً لأغراضهم مولعاً بما عجا لسنتهم حتى كثر العلم في أيامه واعتزأه وظهرت عليهم أئمتته وكانت أيامه أيام سكون ودعة ورخاء

(١) نازا بلدة حصينة من مراکش على وادي سبو على بعد نحو ٦٠ ميلاً عن فاس إلى الشرق بها عدة جوامع من أخصها وأجملها وأمتنها الجامع الكبير وهي مركز التجار بين الجزائر وتلمسان وفاس وبينها وبين فيجيج وناقيلت طرق القوافل

وقام بالامر من بعده أخوه المظفر بالله أبو النصر الشريف اسمعيل (٨٢ ٥١) وكان
سنه يوم يوع ستا وعشرين سنة وفي أول سلطته خرج عليه ابن أخيه المولى أبو العباس أحمد
والتف عليه طوائف من بلاد السوس ودخل أيضا في طاعته أهل مراکش فخرج اليهم وقتلهم
وهزمهم ودخل مراکش عنوة (١٠٨٣ ٥) فغفعا عن أهلها ثم عصى عليه أيضا أهل فاس وقتلوا
قائدها وأعلموا بدعوة أبي العباس أحمد ثم التقي بأبي العباس أحمد وظفر به وقتله (١٠٨٤ ٥)
ثم حاصر فاسا فاذعن أهلها إلى الطاعة وخرجوا إليه تائبين فغفعا عنهم (١٠٨٤ ٥) وكانت مدينة
مكناسة الزيتون وهي من المدن القديمة ببلاد المغرب بناها البربر قبل الاسلام ولما جاء الموحدون
حاصروها زمانا طويلا ثم اقتتحوها عنوة في أواسط المائة السادسة وخربوها ثم بنوا بدلا لها مكناسة
الجديدة المسماة تاركرا وتعتبها بنو موحدين من بعدهم وشيدوا بها المساجد والمدارس والزوايا
وكانت في مسدهم كبرى الوزارة كما كانت فاس كبرى الامارة ولما كانت مكناسة الجديدة طيبة
الهواء عذبة الماء اتخذها المولى اسمعيل عاصمة له وبنى بها قصوره وجعل لها سورا حصينا وفرض العملة
على القبائل مناوبة وفرض الصناعات وأهل الحرف على الحواضر وبينما كان بهم بأمر مكناسة خرج
عليه كثير من الثوار فتغلب عليهم ولما تم له بناء مكناسة الجديدة (١) اتخذ له جيشا من السودان

(١) مكناسة مدينة ببلاد مراکش إحدى المدن الثلاث التي يقم بها ملك مراکش واقعة على سفح جبل ولها ثلاثة
أسوار خلف بعضها عليها أبراج وهي كثيرة المصانع والمعامل خصوصا مصانع الحديد المعتبرة ابتداء المولى
اسمعيل في بنائها سنة (١٠٨٤ ٥) واستمر قائما على بناء حضرتها بنفسه وكلما أكمل قصر أسس غيره ولما
ضاق مسجد القصبه بالناس أسس الجامع الأخضر وجعل له بابين وجعل بهذه القصبه عشرين بابا عادية في غاية السعة
والارتفاع مقبوتين أعلاها وفوق كل باب منها برج عظيم عليه من المدافع النحاسية العظيمة الاجرام والمهاريس الخرسانية
الهائلة الاشكال ما يقضى منه العجب وجعل في هذه القصبه بركة عظيمة تسير فيها الفلك والزوارق المتخذة للترهفة
والانبساط وجعل بها هجر عظيم لا يختران الطعام من قمع وغيره مقبوا يسع زرع أهل المغرب وجعل بحوارس وواق
للماء في غاية العمق مقبوا عليها وجعل في أعلاها برج حامي مستدير الشكل لوضع المدافع الموجهة إلى كل جهة وجعل بها
اسطبلا عظيما لربط خياله وبغاله مسيرة فرسخ في مثله مسقف الجوانب على أساطين وأقواس عظيمة في كل قوس مربوط
فرسين وبين الفرسان والفرس عشر ون شرا يقال انه كان مربوطا بهذا الاسطبل اثنا عشر ألف فرس مع كل فرس سائس
من المسلمين وخادم من أسرافه ثلثون خدما وفي هذا الاسطبل ساقية من الماء دائرة عليه مقبوة الظهر وأمام كل
فرس منها نقب لشربه وفي وسط هذا الاسطبل قباب معدة لوضع سرج الخيل على أشكال مختلفة وفيه أيضا هجر عظيم
مربع الشكل مقبوا الأعلى على أساطين عظيمة وأقواسها ثلاثة لوضع سلاح الفرسان أصحاب الخيل وينفذ إليه الضوء
من شبابيك في جوانبه الأربعة كل شبابيك ينفذ وزنه على قنطرة من الحديد وفوق هذا الهجر من أعلاه قصر يقال
له المنصور ولا يقصر ارتفاعه عن مائة ذراع تحسون في الأسفل وتحسون في الأعلى وفيه عشرون قبة في كل قبة طاقة
عليها شبابيك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسط مكناسة من الجبل إلى الجبل وكل قبة مسقفة بالأحجار وغير ذلك
ثم أربع قباب منها مقابلة سعة كل واحدة منها سبعون شبرا في مثلها وبقا العشر بن أربعون ويجاور هذا الاسطبل
بستان على قدر طوله فيه من شجر الزيتون وأنواع الفواكه كل غريب طوله فرسخ وعرضه ميلان ويتخلل هذه القصور
التي في داخل القلعة شوارع مستطيلة تسعة وأبواب عظيمة مقابلة بين كل ناحية وبين الأخرى ورحاب عظيمة مربعة
التي غير ذلك مما لا يحيط به الوصف قال بعضهم وقد شاهدنا آثار الأقدمين في المشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما
رأينا مثل ذلك في دولهم ولا شاهد له في آثارهم بل لواجتمع آثار دول ملوك الاسلام جميعها ما بناه السلطان المولى
اسمعيل في قلعة مكناسة دار ملكه ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجمال ولم تخلقها ووصف الرياح
ولا كثرة الامطار والتلوج ولا آفات الزلازل التي تخرب المباني العظام والهياكل الحسام ومن يوم مات المولى اسمعيل

وجعله فرقا وطوائف مرتبة منظمة ترتيبا عجيبا يخالف بترتيبه وأحكامه ما رآه أهل المغرب إلا أن
وبذلك استغنى عن الانتصار بالقبائل ثم ان المولى إسماعيل قصد المغرب الاوسط بجيش عظيم وأقبل
اليه من عرب تلك البلاد عدده عظيم فبايعوه وساروا في خدمته ولما علم والى الجزائر بذلك وربحانه
يؤدى الى العصيان أرسل جيشا عظيما من الترك لصدده فسار هذا الجيش حتى نزل أمام محلة
السلطان على وادى شاف ولما رأى الاعراب وغيرهم من الذين اجتمعوا على المولى إسماعيل عظم
جيش الترك وضخامة مدافعه وجوده تسليحه تسلاوا عنه ايلاب بحيث لم يبق معه الا عسكره الذى جاء
بهم من المغرب ففقل راجعا الى بلاده دون قتال وترك للعثمانيين ما كان استولى عليه من المغرب
الاطوسط (١٠٨٩ هـ) وصار الحد بينهما وادى تافناو بعد ذلك خرج عليه اخوته الثلاثة فأوقع
بهم (١٠٩٠ هـ) ثم التفت الى محاربة الاسبانيول واخراجهم من البلدان التى استولوا عليها ببلاد
المغرب فافتتح العمورة المسماة بالمهدية عنوة بعد حصارها مدة (١٠٩٢ هـ) ثم التفت بعد ذلك
الى مدينة طنجة وكان أخذها الانكليز من البرتقال ووجهه عليها جيشا تحت قيادة علي بن عبد الله
الريفى فضيقوا عليها وشددوا الحصار الى أن تركها الانكليز وركبوا سفنهم وهرؤوا فى البحر
(١٠٩٥ هـ) بعد أن خربوا المدينة وهدموا أسوارها وأبراجها وفتح أيضا مدينة العرائش وكانت
بيد الاسبانيول (١١٠٠ هـ) بعد أن حاصرها مدة خمسة أشهر ويروى ان لوزى الرابع عشر
ملك الفرنسيس أعان المولى إسماعيل على فتح هذه المدينة وحاصرها بجزيرة الخمس فراقط وقطع عنها
الزاد ثم بعد ذلك كان الفتح ووقع حامية باباجهم فى يد أهل مراکش وأخذ منها المولى إسماعيل
مقدارا عظيما من البارود ونحو مائة وثمانين من المدافع ولما فرغ من أمر العرائش وجهه جيشا
لمحاصرة مدينة أصيلا وكانت بيد الاسبانيول أيضا ولما اشتد الحصار بالاسبانيول وتضايقوا طلبوا
الأمان فأمّنوهم ثم تمكنوا من الفرار فى سفنهم ليلادو دخل جنود مراکش فلكوها (١١٠٢ هـ)
ثم سار ذلك الجيش بهيئة الى سبتة فنزل عليها وحاصرها وأمدده السلطان بعسكر من عبيده وحرصهم
على الجسد والاجتهاد ودام القتال أياما حتى ان السلطان اتهم القواد الذين كانوا على حصارها بعدم
النصح فى اقتناحها ومع ذلك لم يتيسر فتحها ثم ان المولى إسماعيل رأى من المصلحة تقريب بلاد المغرب
على أولاده فى حياته ليستقر وعلى ذلك ولا يتنازعو ابعده موتة وكانت وفاة المولى إسماعيل (١١٣٩ هـ)
وقدمت فى الملك زمانا فقد كان خليفة ونايبا عن أخيه المولى الرشيد سبع سنين وملكا مستقلا
سبع وثمانين سنة حتى كان جهلة الاعراب يعتقدون أنه لا يموت وكان بعض أولاده يعبرون عنه
بالخى الدائم وقد استوفى مدة الساطنة بثمتم الاله ولها فى إبان اقتداره عليها ولم يستبد عليه أحد ولا
تعرض له منغص خلاف بعض الثوار من أولاده وغيرهم وفى مدة سلطنته (١٠٩٢ هـ - ١٦٨١ م)
أراد لويس الرابع عشر ربط الوصله بينه وبين السلطان إسماعيل لعقد معاهدة يستفيد منها وأراد
المولى إسماعيل أيضا الارتباط مع لويس ليساعده على العثمانيين بالجزائر والاسبانيول المستولين على

والملك من بنه وحفده يخرىون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم وينون بانقاضها الى وقتنا هذا
وبنيت من انقاضها مساجد ومدارس وورباط بكل بلد من بلدان المغرب وما أنواعا على نصفها مدة مائة سنة
وأما الحدران فلما زالت ماثلة كالجبال الشوامخ وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك والرؤساء عظمته
ويقول ليس هذا من عمل بنى آدم ولا يقوم به مال اه

بعض ثغوره وحصلت الخبارة بين الطرفين وأرسل المولى اسمعيل من طرفه وفد الملك فراسماعه كتاب بتفويض حق الخبارة في أمر المعاهدة لرئيس ذلك الوفد كما أن له الحق في التصديق على الاتفاقية وأوصى السلطان أيضاً رئيس ذلك الوفد في أن يفتح ملك فرنسا في أمر اقتراجه بأحدى أميرات العائلة الملوكية الفرنسية وهي الاميرة ديكونتي تايدالروابط المحببة وتمكيننا للوصلة بين الطرفين الآن هذا الوفد لم يصادف نجاحاً فاعادوا أغلقت أبواب الخبارة وبذلك ضعف ما كان لفرنسا من النفوذ القليل الذي كانت حازته بالبلاط المرأكشية وكانت دولة المولى اسمعيل واسعة الاطراف امتدت جنوباً الى تخوم السودان وانتهت الى ما وراء النيل السودان وهو نهر النيجر وشرقاً الى بسكرة (١) من بلاد الجريد من نواحي تلمسان وكان شغفاً بالعمارة والمباني وكان ملكاً جليلاً عظيم القدر لا تزال آثاره للآن قائمة بالبلاط المرأكشية ويقال انه ترك خمسة مائة وثمانين الف دينار من البنات مثل ذلك وكان يدبرهم مدة حياته على أعمال الزراعة والفلاحة والقرسية لسداد رأيه ووجوده نظره لتدوم لهم معيشتهم بعده فكان ذلك صنواً لهم من نكبات الدهر وفضيحة الخاصة بعد موته وزوال رداء الملك الساتر لهم بين العامة قال صاحب الاستقصا ما مباناه بقلعة مكناسة وقصوره ومساجده ومدارسه وبساتينه فشيء فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول القديمة والحديثة من الفرس واليونان والروم والعرب والترك فلا يلحق ضخامة مصانعه ما شاهده الا كاسرة بالمدائن والافراعنة بمصر ولا ملوك الروم ورومة والقسطنطينية واليونان بانطاكية والاسكندرية ولا ملوك الاسلام وودولهم العظام كبنى أمية بدمشق وبنى العباس ببغداد والعباسيين بقرية ومصر والمرابطين والموحدين وبنى مرين والسعديين بالمغرب اهـ وقد أوقف على الحرمين الشريفين شيئاً كثيراً

وقام بالأمر من بعده السلطان المولى أبو العباس محمد المعروف بالذهبي اجتمع القواد والرؤساء والاعيان والقضاة فبايعوه بعد وفاة أبيه (١١٣٩ هـ) ولم يكن أبوه عهد اليه بالأمر من بعده ثم قدم عليه قواد القبائل وأعيان الامصار مبايعين ومؤيدين الطاعة لجلس للوفود وأباز كلا على قدر مرتبته وافتتح أعماله بقتل عمال أبيه وأركان دولته ولم يتم هذا الشريف بأمر الدولة كآبائه وقد استبدت عليه في كثير من الاحوال العبيد الذين كان والده ألف منهم الجيش العظيم الذي مرزكوه ولم يقتل من قتل من رؤساء الدولة الا باشارتهم وغمرهم باحساناته وفرق عليهم الاموال والعطايا ففرحت به الجنود وتسكوا بمجبل ولأته وبعد قليل من مدته خرج عليه الثوار فاغضى عنهم لانعكافه على لذاته وترك الناس وشأنهم فأنحطت هيبته السلطنة وانفك نظامها لاسيما مع ما أصيبت به من قتل أساطينها القائمين بأمرها وكان ذلك منتهى مراد العبيد حيث انطلقت أيديهم في الفساد واستولوا على جميع مناصب الدولة فعم الفساد وامتدت أيدي النهب في الطرقات وكثرت الشكايات بباب السلطان ثم اتفق أهل فاس مع عبيد الديوان على خلع هذا الأمير وتولية

(١) بسكرة مدينة عظيمة من بلاد المغرب بقرية كانت قاعدة بلاد الزاب واقعة على مرحلتين من قلعة بني حماد على مرحلة من طينة وبطل عليها جبل أوراس وكانت مسورة منيعة تحصينة جدا كثيرة الخيل والشجر والعشب وكانت تعرف ببسكرة الخيل وكانت هذه المدينة أول الأغالبة ثم الشيعة ثم صنهاجة ثم صارت قصبه بنى مرين ولها في أهمهم أخبار مهمة وهي الآن في ولاية قسطنطينية من بلاد الجزائر امتلكها الفرنسيون سنة ١٨٤٤ م وبساتينها مشهورة بكثرة نباتها واتساع فلاحتها وهو أوجها جديلاً للغاية اهـ

أخيه المولى عبد الملك فاجابوهم الى ذلك وحالفوهم على الوفاء وفاوضوا القواد والكبراء في ذلك فوحدوا منهم ميلا لمرادهم وتحققوا سؤ تدبيرهم في انتخابهم المولى أحمد هذا ثم خلعهوه وسجنوه (١١٤٠ هـ) وكان قد عزم على تطهير الحضرة وبسطا الدولة من افتيات العبيد وتحكمهم على اعيانها الا أنه لم يحكم التدبير في ذلك فعاجلوه قبل أن يعاجلهم ثم اجتمع امراء الجيش والاعيان وبادعوا المولى ابامروان عبد الملك وكتبوا ببيعةته الى الآفاق الا أنه أساء السيرة فاختل أمره وفسدت عليه القلوب وكان من أكبر الاسباب في ذلك أن منع العطاء عن العسكروالوفود كما جرت به العادة فأضمر وا له الشر وترقبوا وقت الفرصة للايقاع به ولما ما أخبر ذلك اليه أخذ حذره وصار يكتب قبائل العرب ويعددهم ويحسبهم لينفعوه يوما ما ظن انمنه انهم يقاومون العبيد واجتهد في التضرب بين البربر والعبيد لئلا من شر الاثنين الا أن العبيد اطلعوا على مكنون ضميره فاحترسوا منه وصمموا على عزله ورد أخيه المولى أحمد لسخائه وبسط يده فيهم وقد اجتمع المولى أبو مروان في ردهم عن مرادهم وبعث لهم بالوعاظ والنصحاء لوعظهم ونههم عن الثورة فلم يزدتهم ذلك الا نفورا ثم خلعهوا وشعار الطاعة ونادوا بالمولى أبي العباس سلطانا وفر المولى أبو مروان الى فاس محتسبا باهلها فوعدوه الدفاع عنه والقيام بأمره (١١٤٠ هـ)

أما المولى أبو العباس أحمد الذهبي فإنه قد قدم من سجلماسة مسرعا فبايعوه وكتبوا ببيعةته الى الآفاق وفرق الاموال والسياب على العسكروالعلماء والاشراف وبالغ في ذلك وقد تختلف عن بيعة أهل فاس ولم يقدم عليه أحد منهم لانهم كانوا يكرهونه فلما عادت الدولة اليه ثانية تخوفوا منه جدا وجدودا البيعة للمولى عبد الملك المتحجي اليهم وأعلنوا بئصره ثم ان المولى أحمد كتب اليهم بأمرهم بتسليم أخيه اليه وان يدخلوا فيم يدخل فيه الناس أو يأذنوا ببحر بجاهر وابطال الخلاف وأغلقوا الابواب فبعث اليهم المولى أحمد من يعظهم ويخوفهم أمر الفتنة فلم يصغوا له وقتلوه وصلبوه فجرد عليهم المولى أحمد الجيوش (١١٤١ هـ) وحاصرها فاصاب عليها المدافع والمهاريس والآلات الحصار وأغار الجنود على بسببها فانتسفوا ثمارها وخرى بوا من ارعها وأمر الرماة بموالاة اطلاق المدافع ورمي الحجارة ليسلاونها را حتى عمها الخراب وتمدم قسم عظيم من دورها وهلك عدد وافر من رجالها ثم اضطر أهل فاس في آخر الامر بعد أن ضعفوا عن القتال لطلب الصلح وتسليم المولى عبد الملك ففعلوا وانتهى الحرب وقبض المولى أحمد على أخيه عبد الملك وغيره الى مكناسة وعاد السلطان اليها فرض بها ولما أحسن من نفسه بالموت أمر بأخيه تفتق (١١٤١ هـ) قالوا وكان المولى أحمد أشبه الناس بالامين بن هرون الرشيد العباسي في زيه ولهوه وانكباه على الشهوات وتضييع الخزم والجذ حتى فسدت الاحوال وتراكت الاهوال

وقام بالأمر من بعده المولى عبد الله بن اسمعيل وكان بسجلماسة يوم وفاة المولى أحمد فكتبوا اليه بالبيعة ونادوا باسمه وأعلنوا بئصره ثم أقبل المولى عبد الله مسرعا حتى قدم مدينة فاس فقباله الاعيان من العلماء والاشراف والقواد وغيرهم وسلموا عليه ولما استقر بكرسي المملكة سعى الوشاة بينه وبين أهل فاس وأفسدوا نيته عليهم فضع أعطيتهم وجاهر بعداوتهم لعدم حسن سياسته فنادوا بخلعه فعند ذلك سار اليهم بقود جيشا عظيما حتى ألقى الحصار على مدينتهم وأمر

الجنود بالخراب والفساد وقطع الاشجار وطم النهر الذي يستقون منه فأنحبس عنهم ماءه وأمر
 بإطلاق المدافع والرماية بالمنجنيقات لئلا تنهار احتي اشتد الأمر وانعدمت الاقوات (١١٤٢ هـ)
 فبعثوا في الصلح وتوسلوا اليه بعلمائهم وأشرفهم وبعد ذلك نهض لقتال البربر وكانوا خروا عليه
 فتمكن من الايقاع بهم ثم مال بعد ذلك على أهل فاس فقتل كثيرا من أبطالهم وهدم مدينة الرياض
 من حضرة مكناسة وكانت تحوى كثيرا من المنازل الفاخرة والقصور العامرة بأن أمر الجنود فهدموا
 البيوت على الناس وهم نيام فلم يستيقظوا الا والبيوت تنساقط عليهم فن أسرع وخف بجمل
 مناعه وأناهته نجوا من لامعين له أو تراخي في حمل مناعه ضاع تحت التراب وتفرق سكانها في الضياع
 والمدن بحيث لم تمض عشرة أيام حتى صارت مدينة الرياض تلامن التراب لم يبق بها غير الاسوار
 والجدران فكان كل ذلك سببا في النفرة منه وافساد الدولة عليه ثم أمر جنوده أيضا فقتلوا من الناس
 خلقا كثيرا وعند ذلك كتب اليه أهل الديوان يشكرون عليه قتله الناس ظلمابلا موجب ولما رأى
 كثرة التشغب عليه أمر الناس بالاستعداد للحرب القبائل العاصية فشن غلهم بذلك عن الخروج
 عليه وولى على فاس عاملا وأمره بضايقة أهل فاس وتغريمهم وفر الناس الى البوادي والجدال
 وهاجر كثير منهم الى السودان وتونس ومصر والشام حتى لم يبق بفاس الا النساء والذرية ومن
 لا عبرة به من الرجال (١١٤٥ هـ) ثم وقعت العداوة بين هذا السلطان وبين العبيد لاسرافه
 في قتلهم حتى كاد يأتى على عظمائهم ويقال انه قتل منهم أكثر من عشرة آلاف فأجمعوا على
 خلعته وقتله ولما رأى ذلك منهم فر من مكناسة لئلا يلاى بلاد السوس فأقام بها نحو ثلاث سنين
 (١١٤٧ هـ)

ولما فر المولى عبد الله من مكناسة اجتمع العبيد واتفقوا على بيعه المولى أنى الحسن بن اسمعيل
 المعروف بالاعرج وكان بسجلماسة فأقدموه عليهم (١١٤٧ هـ) ثم باعوه أهل فاس ومكناسة
 ثم قدمت عليه الوفود يبيعهم وهداياهم فأجازهم وفرق الاموال على الجنود حتى أرضاهم ثم انتقض
 عليه أهل فاس فتوسط العلماء في ذلك حتى أزالوا الخلاف الذي بين الطرفين وفي (١١٤٩ هـ)
 قام السلطان المنصور المولى عبد الله يريد القبض على زمام السلطنة وساعده على ذلك طائفة من
 الجنود وأعلنوا ببيعة المولى عبد الله فعند ذلك فر أبو الحسن الى بعض قبائل العرب ونزل بديارهم
 فأكرموه وقام بينهم عدة سنين معرضا عن الملك وأسبابه الى أن رجع الى مكناسة فاستوطنها
 بإشارة أخيه السلطان المولى عبد الله (١١٦٩ هـ) ثم وثب عليه العبيد وقبضوا عليه وبعثوا به
 الى أخيه المولى عبد الله بدعوى أنه أفسد عليهم بلادهم فأخذوه وأرسله الى سجلماسة فأقام بها الى
 ان مات ولما فر السلطان المولى أبو الحسن من مكناسة اجتمعت كلمة الجنود على بيعه السلطان عبد الله
 فبايعوه وتبعهم في ذلك أهل فاس وسائر القبائل ثم انه أوقع بأعيان فاس ومكناسة فخلعوا طاعته
 وخرجوا عليه وأخذوا في نهب الطرقات ثم اجتمعوا واتخافوا على خلعته فخلعوه (١١٥٠ هـ)

ولما خلع الناس الشريف المولى أبا الحسن بايعوا أخاه المولى محمد بن عربي وكان محتفيا
 بفاس فاخر جوهه وأخذوا عليه العهد وهبوا له كل ما يحتاج اليه من آلة السلطنة ثم بايعه عبيد
 الديوان فتم أمره وعند ذلك فر المولى عبد الله الى بلاد البربر وأقام هناك ثم قدمت الوفود من سائر

الاقطار على المولى محمد فأكرمهم وأجازهم وفرق ما كان عنده من المال على العبيد الا ان ذلك لم يقنعهم واسترادوه وشددوا عليه في الطلب لانهم السبب في توليه مركز السلطنة ولانهم أصحاب الخيل والعقد في المملكة حيث أصبحوا بها كجنود التركان بالدولة العباسية فاضطر المولى المشار اليه الى اطلاق يده في النهب واستخراج الجيوب والاقوات من دور أهل مكناسة غصبا وصار كلما علم عن عنده قمح أو شعير قبض عليه وصادره الى أن يظهر ما عنده فكثير الهرج وعمت الفتنة وفر الناس وانقطعت السبل ونبغت الثوار فامتنع الخراج ولذلك أخذ السلطان في مصادرة الاغنياء من أهل فاس ومكناسة فعظمت الخنة وندست الطرقات بالصوص حتى أصبح أهل المدن لا يجسرون على الخروج الى ضواحيها كل ذلك والسلطان معرض عنه لا يلتفت اليه وهلاك في تلك المدة من الناس جم غفير وبالجملة فقد كانت أيام المولى محمد بن عريبة هذا أيام فحس و وبال كل ذلك من استبداد العبيد بالامور واقتياتهم وتحكمهم في الدولة حسب أغراضهم وأهوائهم وعمت المجاعة حتى مات خلق كثير ولولا أن الله سبحانه وتعالى سخر الاسبانول والبرتقال والقرنيس وغيرهم لطلب الاقوات للتجارة به المات أهل البلاد جوعا ثم نار العبيد على المولى محمد بن عريبة وقبضوا عليه وقيده و وكوا به من يحفظه في دار منفردة واستقدموا أخاه المولى المستضي من اسمعيل من سجلماسة سنة (١١٥١ هـ)

لما قبض العبيد على المولى محمد بن عريبة نادوا ببيعة أخيه المستضي ، وكتبوا بذلك الى الآفاق وفرح الناس واستبشروا ولما قدم بايعوه واستقر بمكناسة دار المملكة واستتب له الامر وأول شئ بدأ به تغريب أخيه مقيدا الى سجلماسة فسجن بها الا ان الاحوال كانت لا تزال على ما هي عليه من الاضطراب والفساد ولا تقطع الخراج اقتقرت الدولة في أيام هذا السلطان واحتاج الى المال ليرضى به العبيد ولما لم يمكنه الحصول عليه مع ما فرضه من المغارم أخذ في بيع التافه من محفوظات السلاطين حتى أبواب المنازل والقباب الخاسية والشبايك ورخام القصور وغير ذلك ثم ان المولى المستضي أسرف في القتل والعسف ثم شغب العبيد عليه (١١٥٢ هـ) ففر الى مراكش وكان أهلها بايعوه ثم استنفر شيعته للقتال فقعدوا وتسلاوا عنه ولم يبق معه الا القليل وما زال مقيما بمراكش الى (١١٥٥ هـ) حتى بايعوه ثانية بمكسياتي

لما فر المستعين من مكناسة بايع العبيد المولى عبد الله (١١٥٣ هـ) ثم بايعه أعيان الدولة وخطبوا له على منابرهم وزينت لذلك مدينة فاس ولم يرض المولى عبد الله دخول مكناسة فلو فقه من القيام عليه فتولى العبيد النقض والابرام واستبدوا على الدولة وكثر قطاع الطريق فعم الضيق ثم أقبل السلطان الى مكناسة (١١٥٣ هـ) وقتل من أهلها خلقا كثيرا فبايعهم على ما فعلوه وأطلق العبيد بمكناسة يفعلون الافاعيل الشنعاء ومن اشكى عوقب وسجن وكان هذا الملك يعلم بما سيلبه من العبيد لاستيلائهم على الدولة وتحكمهم في أمور هائل يدخل دار المملكة ثم شغبوا عليه (١١٥٤ هـ) ففر الى فاس ومنها فر الى بلاد البربر ولما فر المولى عبد الله استقدم عبيد الديوان المولى زين العابدين بن اسمعيل وكان بطنجة فبايعوه (١١٥٤ هـ) وقد مدت عليه وفود القبائل والامصار فقبلهم بما يجب وتم له الامر الا أن أهل فاس لم يبايعوه ولما كان لا يجب التعرض الى الناس في

أموالهم ولا يعيل الى العسك والمظالم ولم يردان يمد يده الى مال أحد فنقص رواتب العبيد قليلا فكان ذلك سبب انحرافهم عنه وامتنعوا عن محاصرة مدينة فاس لما عصت عليه ثم طالبوه بالرواتب وشددوا في اقتضاها واول ما لم يكن عنده ما يرضيهم به شغبوا عليه وعصوا أوامره وكان السلطان المولى عبد الله مقبلا بجيالك البربر مطلا على الحضرة متحفزا للوثبة فلما علم بما فيه المولى زين العابدين من الاضطراب نزل من الجبل ودخل فاس (١١٥٤ هـ) ولما اتصل خبره بالمولى زين العابدين خشعت نفسه وضاقت صدره وترك مكناسة الى حيث يأمن على نفسه فكان ذلك آخر العهد به لما فر السلطان المولى زين العابدين واجتمع العبيد وانفقوا على ارجاع المولى عبد الله وبعثوا اليه في ذلك طائفة من قوادهم فسرّ بقدهم ووجدت له البيعة وزينت له مدينة فاس الا أن العبيد لطغيانهم وعمردهم وعي بصيرتهم كانوا لا ينفكون عن الثورة والخروج على السلاطين لكل أمر يرون فيه عدم الملازمة لمصلحتهم ولذلك فاتهم لما رأوا ان المولى عبد الله لا يزال يقسم بجبال البربر بعد أن يابعوه ولم ينتقل الى مكناسة دار الملك اربابا من ذلك وقبلوا له ظهرا المجرى على عادتهم واستدعوا المولى المستضى من مرا كس ليبايعوه ولما تهي خبر ذلك الى المولى عبد الله أخذ المقيم المقعد وشمر عن ساعد الجند وألف بين قبائل العرب والبربر وأهل فاس وجمع منهم جيشا قويا حالفه على الموت دونه ثم أقبل المستضى (١١٥٥ هـ) ودخل مكناسة في جيش العبيد وغيرهم ثم أقبل بعد ذلك المولى عبد الله بجزء خلفه أم البربر في عدد لا يحصى ولما تراهي الجمعان وعلم العبيد وشيعة المستضى أن لا طاقة لهم على حرب عبد الله فر والى الانجواب بأنفسهم فشكر الناس الله على ذلك وفي السنة التالية لهذا التاريخ استجاب المولى المستضى على المولى عبد الله بالباشا أبي العباس الريني فأمدته بجيوش لا تحصى كاملة العدة فدهش أهل فاس بذلك وارتجت الارض واستجاب أيضا المولى عبد الله بقبائل البربر وأهل فاس ثم دارت رحى العرب بين الطرفين فانهزم المستضى ووزيره الريني وغنم منهما أعدادا هائلة وغانم نفسه وكثيرا من المدافع والبارود وكان أمر هذه الواقعة فتحا عظيما على المولى عبد الله وشيعة ثم راجع طائفة من العبيد المولى عبد الله وأقبلت عليه قبائل المغرب بالهدايا من كل صوب فرحب بهم وألان لهم القول (١١٥٦ هـ) ثم ان أحمد الريني استعد بعد ذلك هو والمستضى وأقبل في جوع عديدة للاستيلاء على فاس والقبض على المولى عبد الله فتلاقوا جميعا قري فاس فكانت الهزيمة في هذه المرة أيضا على المستضى ووزيره الذي قتل في المعركة ووقعت جميع أموال وسلاح وأمتعة جيش الريني في يد المولى عبد الله وكان الريني هذا ممن اشتهر وابعوا الهمة له آثار كثيرة بطنجة ونطاوين وغيرهما ولما انتهى المولى عبد الله من أمر الريني ذهب قاصدا بطنجة فاستولى عليها وعقاعن سكانها وخصعت اليه قبائل تلك الجهات وبينما كان المولى عبد الله منصرفا من طنجة اعترضه أخوه السلطان المستضى في نحو ثلاثين ألفا من الجنوديين فرسان ومشاة فكانت الدائرة على المستضى أيضا (١١٥٦ هـ) ثم ان أهل مرا كس تأمروا على المولى المستضى ومنعوه دخول مدينتهم ورفضوا دعوته وأعلنوا بصر السلطان المولى عبد الله (١١٥٨ هـ) وما زالت البلاد تلتفظ بالمستضى الى ان أقام أخيرا بطنجة فاعان من الغنمية بسلامة المهجة ثم دخل أهل مرا كس بعد ذلك في طاعة الشريف المولى عبد الله ثم ان المولى عبد الله ارتكب بعد ذلك من الاعمال ما قبض عنه

قلوب الناس خصوصاً البربر الذين كانوا نضروه وآووه فلذلك زحفوا عليه بمجموعهم ففر منهم الى
مكناسة (١١٥٩ هـ) ثم بعد ذلك جرت أمور يطول شرحها بين السلطان المولى عبد الله
وبين أهل فاس وغيرهم ثم ان العصاة راجعوا طاعته ثم قلب له العبيد ظهر الجن وبابيه واولده
محمد (١١٦٢ هـ) بمكناسة وبعثوا اليه بيمعتهم وهو عمرا كس الآن محمد اريديعتهم
وعاتبهم على ما ارتكبوه في حق والده وتألفهم بشئ من المال وأعرض عن الخوض في أمر البيعة
فرجع وفد العبيد من عند محمد وقد أيسوا من اجابته اياهم ولما رأى المولى عبد الله ان القلوب
قد نفرت عنه وأن العبيد والبربر قد امتدت عيونهم الى ولده محمد تلافى أمره وأخذ في استصلاح
الريعية وتألفها وفرق على العبيد أموالاً ثم ان محمد أقبل الى مكناسة ولما وجد العبيد لا يزالون
يخطبون باسمه على المنابر عاتبهم على ذلك وقال لهم اني بري منكم ومن فعلكم هذا وانما أنا خديم
والذي فترسكو والخطبة وجددوا البيعة للسلطان وتلافوا أمرهم في طاعته وكانت هذه هي
البيعة السابعة للعبيد مع المولى عبد الله لانهم خلعوه قبل ذلك ست مرات (١١٦٣ هـ) ثم
انحرفوا عنه ثانية فصالحهم بواسطة ولده السيد محمد وكانت وفاة المولى عبد الله (١١٧١ هـ)
ودفن بفاس ولما كان يتصف به من الشدة والبطش نفرت عنه قلوب الجنود والريعية لما شكك
من دمائهم بغير سبب ظاهر وقد عقد بينه وبين الفلنك معاهدة بها اقصرح للفلنك بتنصيب
قناصل في بعض مدن المغرب الاقصى وان يكون الصلح والامان بين المملكتين أما أخوه المولى
المتضى فأنه كاتبه بعد قراره منه كما تقدم مسترضياً سائلاً عفوه فرسم له بالاقامة بمدينة
أصيلا (١١٦٤ هـ) فاشتغل هناك بالتجارة ثم حمل الى سجلماسة فاستوطنها الى أن توفي
بها (١١٧٣ هـ)

لما توفي المولى عبد الله بن اسمعيل كان الناس قد سئموا المهرج والفنن وملوا الحرب وعلمتهم
وكانت حال الريعية مع المولى عبد الله مثل الفوضى الذين لا وازع لهم فكان ذلك من أقوى الاسباب
التي صرفت وجوه أهل المغرب كله الى بيعة السلطان سيدي محمد وجمعت كلمتهم عليه لاسيما مع
ما كان قد ظهر منه أيام ولايته من حسن السياسة وكال النجدة وجوده الرأى وعمام المعرفة بادارة
الامور على وجهها حتى أحبته القلوب وعلقت به الامل فلما قضى الله بوفاته والده بادراً أهل فاس
الى عقد البيعة له من غير توقف وحضرها العلماء والاعيان وغيرهم وبابيه أيضاً أهل مرا كس حيث
كان مقبلاً وقد تمت عليه الوفود بما اياهم من كل فج من الجبال والسهول بحيث لم يتخلف عنه أحد
من أهل بلاده ثم خرج يريد مدينة فاس فعرج على مكناسة وبعد أن قوم ما عوج من أمورها
ارتحل الى فاس فدخلها على أصوات التجميل والتهليل وهش للناس ولأن لهم جانبته واختلط بهم
وفرغ على الفقهاء والاشراف وطلبة العلم وأهل المدارس والأئمة والمؤذنين والفقراء والمساكين
والجنود وأزاح علل الجميع ولم يحرم أحداً ثم عاد الى مكناسة مقر السلطنة وبعد أن مهد ما يجب
تمهيده وأصلح ما يلائم اصلاحه خرج الى الثغور البحرية متمتقداً أحوالها (١١٧٣ هـ) فنزل تطاوين
وبقي بها راجحاً صيناً ومنها ذهب الى طنجة جاعلاً طريقه على سبته وكانت لاسبانياول كما تقدم ووقف
عليها ونظر في حصونها وأبراجها ولما تحقق أن لا مطمع فيها إلا بالجدسار الى العرائش بعد أن نظرت في
أحوال طنجة وأترل بها حامية ومنها توجه الى سلا فبقي بها راجعاً على البحر وأمر التجار فاشترى له أدوات

المراكب القرصانية وأرسل الى بلاد السويدن يشتري له بعض لوازم السفن والبارود وأرسل أيضا غيره الى بلاد الانكليز يشتري له منها سفنا وعددا للمراكب وغيره من المدافع ولما كان له ولوع في الجهاد بالبحر اتخذ له مراكب حربية تكون في غالب الأوقات تجرسي العدو وتجرسي العرائش وكان سفره في البحر مقصودا على شهرين في السنة لعدم صلاحية المراسي في غير هذا الوقت فلهذا فكر في طريقة يتأني بها سفر سفنه في سائر أيام السنة فبنى ثغر الصورة واعتنى به لسلامة مرساه وليكون ثغرا لتجارها وحصنه بالمدافع وجعل به أبراجا على ضوور داخل البحر وشحنه بالعدد والجنود فصار القاصد للمرسى لا يدخلها الا تحت رى المدافع من هذا البرج وغيره وقد عمرت هذه المدينة في زمن قريب ولما كان هذا السلطان كثيرا لولوعه بامر الجهاد بالبحر كما سبق وكانت سفنه كثيرة التردد على ثغور الفريج فحبوس خلال سواحلهم فقتل وتأسر ونغم وتسي أسرع كثير من أمم الفرنجة في مهاداته وقد تعرضت سفنه عدة مرات لسفن الفرنسيين فغمت منها وأسرت فأغناظ الفرنسيين من ذلك وهاجموا ثغر سلابقهم (١١٧٨ هـ) وأطلقوا عليها مدافعهم فهدموا كثيرا من الدور وفر السلطان الى خارج البلد وكانت حصون سلابق عليهم من مدافعها ما اضطرتهم لترك المدينة بعد ان لحق بهم ضرر عظيم ثم هجموا على ثغر العرائش وأطلقوا عليها مدافعهم فهدموا دورها ومسجدها (١١٧٩ هـ) ثم اقتحموا المرسى في خمسة عشر قارا بمشكوة بنحو ثلاثة آلاف من العسكر معهم ما يلزمهم من الميرة والسلاح والذخائر ونصاعدوا على مجرى الوادي الى مراكب السلطان التي كانت هناك فحرقوا سفينة منها وكان المسلمون غنموا منهم قبل ذلك وعمدوا الى أخرى فكسروها بالمعاول ثم تكاثر عليهم الجنود والاهالي وقتلواهم حتى ردوهم على أعقابهم ولما رجعوا وجدوا العرب قد سدوا عليهم فم المرسى وأقاموا لهم على شجرة هناك ومنعواهم الخروج وهبت ريح شديدة فكانوا اذا توسطوا الوادي ليخرج جواردهم الريح واذا انحازوا الى أحد الشطين رماهم الجنود والسكان بالرصاص حتى قتلوا معظمهم ثم سجدوا اليهم وأخذوا منهم احد عشر قارا ونجأ أربعة وبعد ذلك عقدت شروط الصلح مع الفرنسيين أما الاسرى فقد توسط ملك الاسبانيول في فدائهم ففقدوا افعال عظيم وكان تقرب الصلح بينه وبين الفرنسيين سنة (١١٧٩ هـ) على يد الرئيس أبي الحسن علي مارسيل الرباطي أرسله السلطان الى بلاد الفرنسيين لهذا القصد ولقبض مال أسارى العرائش

ولما كان يريد تجديد المواصلات بينه وبين السلطان الاعظم سلطان آل عثمان السلطان مصطفى بعث اليه بالفقيهين السيد الطاهر السلاوي والسيد الطاهر الرباطي في سفينتين وأحجبهما هدية نفيسة فيها خيل عناق وسروج مرصعة وأساف محلاة بالذهب مرصعة بالياقوت وحل من عمل المغرب فقبل السلطان العثماني الهدية وأكرم وفادة الرسولين ثم كان المولى محمد علي ذلك بمركب موسوق من الآلات الخربية والمدافع والمهارييس والبارود وعدد كثيرة للمراكب القرصانية ولما كان يخاف معاودة الكفرة من الفرنسيين أو غيرهم على ثغر العرائش شحنه بالآلات الجهاد واعتنى بامرهم جدا وشيد به المعافل والابراج ورتب به جماعة من رؤساء البحر وقوم امن أهل الاجادة في رى المدافع ومن حسن بصيرته أيضا جهاده في تجنيد الجنود المختلفة الطبقات واعادة فرق العبيد بعد ان تمحل نظامها وركدت ريجها وما ذلك منه الاستعدادا لما ظن حصوله من أمم أوروبا وباسيما وقد كانوا في ذلك

الوقت يسعون بغاية الجِد والنشاط للتدخل في أمر الممالك الاسلامية خصوصا المغربية منها ولما كانت المصافاة لم تستقر بعد تماما بينه وبين الفرنسيين عقد معهم معاهدة مؤلفة من عشرين شرطا مرجعها الى المهادنة والصلح والمخالطة بالبيع والشراء مع التوقيع والاحترام من الجانبين (١١٨٠ هـ) ولما وردته هدية السلطان مصطفى العثماني فرح لذلك كثيرا وأرسل الى الاستانة خديمه الرئيس عبد الكريم التطاوي وأحجبه بهدية تنبؤية في مقابلة هديته اليه فعاد من الاستانة العلية يحمل مولاه هدية أعظم من الاولى وهي مركب موسوفة بالمدافع والمهاريس النحاسية مع عددها و عدد مرابك قرصانية أخرى من سواري ومخاطيف وقلوع وقن (نغمات) وجبال وبراميل وغير ذلك من الآلات البحرية وفيها ثلاثون من مهرة المعلمين الذين لهم المعرفة بصب المدافع والمهاريس والكور والجب وبصناعة المراكب القرصانية و بينهم معلم مجيد في الرمي بالمهراس ولما وصلوا اليه فرح بهم جدا وفاوضهم وأراد أن يحيي آرادار الصناعة التي كانت بسلا على عهد الموحد بن يحيى ثم فرق هؤلاء المعلمين على الثغور فخرج على أيديهم نجبا من أهل المغرب توارثوا هذه الصناعة منهم

ومن الامم الاوروباء الذين عقد معهم المولى السلطان محمد معاهدات أمة الدانيماركة عقد معاهش و طائر جمع الى تمام الصلح والامن من الجانبين أيضا وتعهده في ملك الدانيماركة للسلطان كل سنة بدفع خمسة وعشرين مسدفا من المعدن وزن كورتها من ثمانية عشر رطلا الى ٢٤ رطلا وأن يدفع معاهش غير ذلك من أدوات السفن والريالات شيئا كثيرا وعقد مثل هذه المعاهدة أيضا مع ملك السويد الا أن قدر المال الذي يدفع من جانبه أقل من المبلغ الذي يدفعه ملك الدانيماركة وكان ذلك في مقابلة التصريح بالتجارة التجارية بين الامتين ببعض ثغور بلاد المغرب (١١٨١ هـ) ولما كان هذا السلطان يعيل الى الفخر وحب الرفعة وانتشار الصيت صاهر شريف مكة الشريف سرور وبعث اليه مع ركب الحج المغربي ابنته وأحجبه ابولده الاكبر وخليفته الاشهر المولى على ومعه شقيقه المولى عبد السلام وأحجبهما بهدية لا مير طرابلس الغرب وأخرى لا مير مصر والشام وهدية عظيمة لاهل الحرمين الشريفين ومالا كثيرا يفرق على أشرف الخجاز واليمن وجوارسنية للعلماء والنقباء وغيرهم بمكة والمدينة وبعث معهما عدة من وجوه أهل المغرب وكان في جهاز ابنته ما يزيد على مائة ألف دينار من الحلوى واليوافيت والخواهر وكان يوم دخولها يوما مشهودا حضره عامة أهل الموسم الاعظم من الآفاق ولما كان هذا السلطان متصفا بالانفة والشهامة كان لا يقوله قرار من أجل استيلاء البرتغال على مدينة من بلاده وهي الجُدَيْدَة (١) ولذلك فانه بعد أن استشار أهل الرأى حاصرها

حاصرا شديدا (١١٨٢ هـ - ١٧٦٨ م) وركب عليها المدافع فخرت دورها وأسوارها وكتب حاميتها الى الملك البرتغال بذلك فوردت عليهم بعد مدة مركب من أسبونة ظنوه مدد لهم فاذا بها قد أتت بكاب ملكهم يأمرهم بالخروج وترك البلد للمسلمين فخرجوا بعد أن اشتراط السلطان عليهم أن لا يخرجوا الا بنسبهم التي على أبدانهم ولا يحملون معهم شيئا غير هافا مثلوا الا انهم قبل

(١) الجُدَيْدَة تسمى عند الفرنج مارغان أو ماز كان وهي مدينة بمملكة ماكش واقعة بالشمال الغرب من مدينة مراكش وتغرص على بحر الطلمات قربا من مضب وادى أم الربيع وقد اضمحلت الا أن أسسها البرتغاليون سنة ١٥٠٠ م وكانوا يسمونها كاستور ريال Castro - Reale

خروجهم منه وبالمدينة لغمان البارود أوقده رجل منهم تبرع لهم بذلك بقي بالمدينة فلما دخل
 المساون أشعل اللغم فانفجر وقتل به من الجنود نحو خمسة آلاف وتم دم قسم من سورها وكان الفضل
 في هذا الفتح لعلم الرمي التركي المسمى الحاج سايمان أحد الذين أرسلهم السلطان مصطفي كما تقدم
 ولا ريب ان المودة بين هذا السلطان وملك الاسبانبول أرسل له ملك الاسبانبول يرجوه في التوسط بينه
 وبين باي الجزائر في فكالك أسرى الاسبانبول الذين عند أهل الجزائر وأن يفك في مقابلتهم من
 عنده من أسرى المسلمين الجزائريين فقبل السلطان ذلك وتم الامر على ما يجب (١١٨٢ هـ)
 ثم تطلع لعزته نفسه وشرف محتده وسعيه في لم تشمل بلاده ومنه هامن تسلط الاجانب عليها ان
 يحاصر مدينة مليبية وكانت للاسبانبول فاحاطت بها عساكره ونصب عليها المدافع والمهاريس
 وشرع في رميها (١١٨٥ هـ) فكتب اليه ملك الاسبانبول يعاتبه على حصارها ويذكره
 مهادنة الصلح الذي انعقد بينهما على يد كاتبه السيد الغزال فاجابه السلطان بان ما عقد بينهما من
 الصلح والمهادنة خاص بامر البحر وأما المدن التي بالانتاف للمهادنة فيها فكيف يحق له ادعاء المهادنة
 وكان الغزال لما ذهب الى بلاد الاسبانبول بهذا الصدد خذعه في الكتابة لعدم مهارته في الامور
 السياسية وجعلوه يوقع على صلح عام في البر والبحر ولما بعث ملك الاسبانبول عقدا للصلح للسلطان
 فاذا هو عام في البر والبحر فكف عن حربها وأفرج عنها وشرط على ملك الاسبانبول حمل الآلات
 الحربية من مدافع ومهاريس وحب وكور وبارود وغيرها من الاشياء التي تركها حول مليبية
 وان يحملها في البحر ويردها الى الثغور التي جلبت منها الماء في جرها في البر من المشقة فقبل ذلك
 وحمل بعضها الى تطاوين وبعضها الى الصويرة ثم ان السلطان عزل الغزال عن كتابته ووجه
 على عدم التفاته لما وقع منه ثم ان العبيد خرجوا على السلطان محمد بن عبد الله وابعوا ابنه المولى
 يزيد وعظمت فتنتهم جريا على مذهبه القديم فلما علم السلطان بخبرهم أرسل عليهم فيدئ شملهم
 وقبض على رؤسهم ثم عقابن ابنه يزيد وكان انضم اليهم (١١٨٩ هـ) ثم تفكر في أمر ثورات
 العبيد وأفعالهم المتكررة المتكررة فأخذ في تشييت قوتهم وتبديد عصبيتهم فقرههم على الثغور
 والباطات والمعاقيل ليأمن شرهم ومع ذلك فاتهم ناروا بالثغور وأضروا بأهلها في مزارعهم
 وأموالهم وأعراضهم ولما رأى السلطان أمرهم وان تأديتهم بالتفرقة لم يقدر عليهم عزم على حسم
 بلائهم وقطع عروقهم فخرج من مراكش للايقاع بهم فتم له ما يريد وذلك انه بعد أن جمع أكثرهم
 في مكان معين دعا اليه رؤساء القبائل فلما حضر وقال لهم إني قد أعطيتكم هؤلاء العبيد بأولادهم
 وخیلهم وأسلمتهم وكل مالهم فاقسموهم الآن وكل واحد منكم يأخذ عبدا وأمة وأولادها
 فوثبوا على العبيد من غير ان تكون منهم وقفسة واقتسموهم في أسرع من لمح البصر وتوزعوا وهم
 وصيروهم عبر قتل اعتبر وقد كان قيام هؤلاء العبيد سبب الافتراق الكلمة وانحلال نظام الملوك
 بالمغرب فسرى فسادهم في القبائل كلها عريا وبرا وبعداً من مهد الجهات الجنوبية خصوصاً جهات
 سجلماسة خرج الطواف في أنحاء مملكته للترهسة وتفقد العمال بنفسه لكثرة عنايته بأمر الرعيصة
 ثم عاد من شر حاسر ورا بعد مدة الى عاصمته

ولما أتى ميعاد الحج هيا الركب بما يلزم وأرسل فيه رسلا من أقاربه وجملهم قدر اعظيما من المال
 على وجه الامانة لاشراف مكة والمدينة وسائر الحجاز واليمن وصلات أخرى لناس معينين ولما كان يدأب

دائماً في توثيق عرا المحبة والمواصلة بينه وبين القسطنطينية دار الخلافة الاسلامية أمر رسله المذكورين بالذهاب أولاً الى القسطنطينية حتى يكون مسيرهم الى الجزائر مع أمين الصرة الذي يخرج كل سنة من دار الخلافة الى الجزائر وكان سفرهم الى القسطنطينية في السفن العثمانية وأرسل معهم كتاباً الى السلطان عبد الحميد الاول فلما وصلوا الى القسطنطينية (١١٩٧ هـ) وجدوا أن الصرة قد سافرت الى الجزائر فاضطر والاقامة بها الى العام القابل ثم سافر واصحبه الراكب وأرسل السلطان عبد الحميد الاول الى المولى محمد جواب (١) مكتوبه اليه وخوف المولى محمد على رسله من ابنه المولى يزيد العاصي عليه احتياط لهذا الامر كثيراً ومع ذلك فإن المولى يزيد لم يقمهم وهم بمدينة جدّة وهجم عليهم وقت القبول في جمع من أصحابه وهم بدر شيخ الراكب فانتزع منهم ما قدر عليه الا ان أمير مكة الشريف سرور أحضر اليه المولى يزيد وألزمه برد المال وتم سدده فرد البعض وبخس البعض ولهذا السبب تبرأ السلطان المشار اليه من ولده وكتب بالبراءة منه مناشير بعث بها الى الآفاق فعلق أحداهن بالكعبة والآخرة بالحجرة النبوية والثالث ببيت المقدس والرابع بضرخ الامام الحسين بمصر وكتب الى السلطان العثماني يرجوه ان لا يقبله عنده اذا التجأ اليه (١١٩٩ هـ)

ولما كانت مملكة فرانسوا من زمن طويل احكام الصلات بينها وبين مملكة المغرب الاقصى كانت تترافق اليها بكل ما في وسعها من حسن القول والفعل حتى تمكنت من عقد معاهدة تجارية بينها وبين السلطان محمد علي يدس فيهما جراً كش المسدود والكونت دي بونبون فأفادت كثيراً ثم ان المولى يزيد لما لم يتمكن من نوال غرضه بالخروجه على أبيه عاد من المشرق وقصد بجلماسة ثم التجأ الى ضرخ الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه وأخذ في استعطاف والده وما زال الامر بينهما حتى تردد حتى توفي السلطان محمد (١٢٠٤ هـ)

وقد كان السلطان محمد محباً للعلماء وأهل الخير مقرراً بهم لا يغيبون عن مجلسه في أكثر الاوقات جماعة للكتب جلب منها من بلاد المشرق كتباً نفيسة ولما فاته الاشتغال بفنون العلم في حال الصغر عكف أولاً على سرد كتب التاريخ وأخبار الناس وأيام العرب ووقائعها حتى بلغ في ذلك الغاية القصوى ولما تولى الامر بعد وفاة أبيه زهد في التاريخ والادب بعد التطلع منهم أو قبل على سرد كتب الحديث والبحث عن غريبها ورتب لذلك أوقاتاً ماضية لانتزاعه وكان على اللهمة يحب الفخر ويركب سنامه ويخطب السلوك ويهاديهم حتى عاصيته وطارد كره وكان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ويضع الاشياء مواضعها فيعرف مقادير الرجال ويؤدى حقوقهم ويتجاوز عن هواتهم ويراعى لاهل السوابق سوابقهم ويتفقد أحوال خدامه في الصحة والمرض ولا يغفل عن كان يعرفه قبل الملك وكان من الشجعان المذكورين في وقته يباشر الحروب بنفسه وكان يقتنى الرجال ويصطفهم ويعتدهم ليأتم الكرمية وقد خلد آثاراً كثيرة بالمغرب من مدارس وأضرحة ومساجد وجماعات وقلاع وحصون وبساتينات وكانت عطاياها متواصلة لاهل الحرمين الشريفين وكان كثيراً الاعتناء بالاساطيل وجلب الآلات الحربية والمعدات البحرية وكان لديه من المراكب عشرون كباراً وثلاثون صغاراً وبلغ رؤساء البحر كلها مستقنين رئيساً جدياً بها

(١) قد ذكر المرحوم جودت باشا في هذا الجواب في الجزء الثاني من تاريخه المشهور بصيغة ٣٢٢ فمن شاء

و بحريتها وبلغ عسكر البحرية في وقته ألفا من المشاركة و ٣٠٠٠ من المغاربة ومن الطوبجية
 ألفين وقد هابتها ملك الفرينج ووفدت عليه رسلهم بالهدايا والتحف يطلبون مسالمة في البحر
 وقد سالمهم جميعا الأمة المسكوف فانه لم يسالمها ولم يقبل هداياها فحاربها العثمانيين وكان بعد أن
 استقرت المودة بينه وبين العثمانيين يخطب للسلطان عبد الحميد الاول على المنابر وكانت تلك أول
 خطبة خطبها مسلول المغرب الاقصى لسلطين آل عثمان ولو ألهم الله الذين جلسوا بعده على سرير
 مملكة المغرب الاقصى واستمر واعلى الخطبة للخليفة العثماني الذي يعترف بخلافته جميع الاسلام
 في الممالك المتفرقة لازدادت اللفة وتلاصقت القلوب وتم الاتحاد بين هاتين الامتين العظيمتين وصارنا
 يدا واحدة على أعدائهما وكان اقتدى بذلك غير مملكة مراکش من الممالك الاسلامية الاخرى
 نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهم الامتين ما فيه الصالح العام

ولما توفي السلطان محمد وبلغ منعه المولى يزيد وهو بالحرم المشيخي بايعه الاشراف ثم بايعه
 أهل تطاوين وطنجة والعراش وأصيلا وما يجاور هذه البلاد من القبائل ثم قدم عليه وفد أهل فاس
 فبايعوه ثم أتت الوفود من كل جهة فاستتب له الامر ولم يدخل مكناسة قدمت عليه قبائل المغرب
 كلها فبايعته وقد كان هذا السلطان شديدا لعناية جدا باخراج الاسبانيول من مدينة سبتة لانه كان
 يشق عليه أن يرى نغرا من أهلهم نغوره في بدأ أعدائه فكان منه المولى الامران أن أظهر معاداة
 الاسبانيول وهم على حربهم فتفادى ملكهم من حربه بكل وجه وبعث بسفينة عليها رسول من
 أعظم قوادلتهننته بالملك والتملق له فاعرض عنه ولم يحفل به ولا بهديته بل عد الى من كان بشغوره
 من الاسبانيول تجار وغيرهم وقبض عليهم وكتب لهم بالسلاسل وساقهم الى سجن طنجة
 فاستمر بهم الى أن ظفر مركب الاسبانيول بمركب مراكشية وأسرها بين فيها ولذلك وقع التفادي
 بينه وبين ملك الاسبانيول في أولئك الاسرى بأسرى طنجة ثم استعد لمحاصرة مدينة سبتة واستنفر
 الناس لحربها والمرابطة عليها ثم سار هو بجيشه فحاط بها وركب عليها المدافع والمهاويس وأقام
 على حصارها مدة وكاد يفتقها لولا عصيان قبائل بلاد الحوز عليه وبيعتهم لاختيه المولى هشام
 لانه لما اتصل به خبير ذلك وهو على حصار سبتة أقنع عنها التدويج القبائل العاصمية فاسترد
 مراکش وهزم جيش المولى هشام وتبعهم المولى يزيد فاصيب برصاصه في خده فعاد الى مراکش
 جريحا وتوفي من جرحه بعد أيام قلائل (١٢٠٦ هـ) وقد كان من السعاه الابطال أصحاب
 النجدة والهم العالية

وبعد وفاته انفق الجميع على مبايعة المولى سليمان لما كان عليه من العلم والدين والفضل
 وسائر الاوصاف الحميدة التي تفردها عن غيره ولما تمت له البيعة ووفدت عليه وفود القبائل من العرب
 والبربر فبايعوه الآن بعض أهل رباط الفتح انحرف عن بيعته وكان أول ما ابتدأ به من الاعمال بعد
 البيعة أن بعث بجريدة من الخيل الى رباط الفتح ليقال له أهلها المنحرفين عنه الى التمسك بدعوة المولى
 مسلمة الآن تلك التجريدة قتل قائدها فغضب بذلك أمر المولى مسلمة الذي أرسل بجيشه يشن
 الغارة على بلاد المولى سليمان ولما كثر عيبتهم في الرعايا سار السلطان المولى سليمان لصد جيش مسلمة
 فالتقى معهم على نهر سبو وأوقع بهم وقعة شعاة وفر من بقي على قيد الحياة من قواد جيش مسلمة فلقوا
 به ثم أوقع أيضا بجيش آخر كان يقوده المولى مسلمة بنفسه ففرق عن المولى مسلمة من كان معه من

العرب والبربر وما زال مسلمة يفر من طلب أخيه له من مكان الى مكان حتى نزل تلمسان وأقام بها وكان يودا الالتجاء الى الجزائر فلم يمكنه ثم عاد الى سجلماسة ففعا عنه المولى سليمان ولما لم يظب له مقام به سار الى المشرق فنزل عند حدوده باشا ابن علي باي صاحب تونس فرحب به وبالغ في بره ثم قصد مصر ومنها توجه الى مكة ثم عاد الى مصر ثانية وساء حاله وضافت عليه الارض بما رحبت ثم طلب من والي تونس أن يشفع له عند أخيه المولى سليمان ففعل ورسم له أخوه بالاقامة في سجلماسة بعيدا عن الفتن فلم يقبل وما زال يتردد في بلاد المشرق حتى مات فاستراح من تعب الدنيا

أما السلطان المولى سليمان فانه تفرغ بعد فرار أخيه الى ادخال الجهات الخارجة عليه في دائرة طاعته فتم له مراده وولى أخاه الطيب أمر الثغور وأزله طنجة فهدله الامر بتلك الاطراف (١٤٠٨ هـ) الآن مدينة مراکش وما يتصل به من البلاد كانت في يد المولى هشام كما تقدم وقد استقام به امره وخطب له على منابرها الى أن انخرق أهل مراکش عن طاعته وبايعوا المولى حسين بن محمد فدخل مراکش واستولى عليها (١٤٠٩ هـ) أما هشام فانه فر ونزل على أحد وزرائه فاكرم مشواه وسار في طاعته وبذلك افرقت الكلمة بعمالة مراکش واتقدت نار الفتنة بين قبائلها من كل ذلك والسلطان المولى سليمان مقيم بفاس معرض عن الخوز ومراکش مترتبص الفرصة الى أن ملوا الحرب وملتهم وكان ذلك من سعادته فصاروا يتسللون اليه ويسألونه الذهب الى بلادهم لمبايعته ولما فرغ من أمر بعض الثوار قصد مراکش فبايعه أهلها (١٤١١ هـ) أما سلطانها المولى حسين فانه فر عنها فاستقامت أمورها وصلح حالها ورتب بها حامية ثم عاد الى فاس ظافرا منصورا وبعد ذلك أخذ في غز و الجهات التي كانت لا تزال خارجة عن طاعته فتم له غالب ما أراد

وباستيلاء المولى سليمان على ثغور المغرب البحرية انقطعت منها أعمال القرصان وتشتت شملهم ورأى أن من المناسب ربط علاقات المودة بينه وبين دول أوروبا بالتسع نطاق التجارة وقد مدحه مؤرخو أوروبا وبين على ذلك وأرسل أيضا سفارة مخصوصة الى نابليون الاول مدة أن كان امبراطورا فقابلها أحسن مقابلة وأوسع لها الكرامة للغاية ولما هاجت الفتنة بين عرب تلمسان وواليها العثماني لاخر فافه عن أصحاب الطرق والمنتسبين اليهم وسوء اعتقاده فيهم وقتله لبعض منهم (١٤٢٠ هـ) سار أتباع الطائفة الدرقاوية واجتمعوا على شيخهم أبي محمد عبد القادر الشريف ونزلوا بجهات الصحراء وأخذوا في الاغارة على نواحي تلمسان وقتلوا كل من وجدوه من عساكر العثمانيين وبعث باي الجزائر والي وهران العسكر وأمره بقتال العرب فنهض اليهم الا أنه عاد مهزوما فكتب عند ذلك الباي المذكور الى المولى سليمان يعرفه بما ناله منهم ويطلب منه ان يبعث اليهم شيخهم الاكبر أبا عبد الله محمد العربي ليعظهم ويردهم عما هم عليه فبعث السلطان المشار اليه الشيخ المذكور ومعه بعض العلماء الا أنه لم يتمكن من ردع العرب بل زادوا في تطاهرهم فاتهم الباي السلطان بأنه هو الذي يغريهم ولما لم يتمكن والي الجزائر من حسم هذه النزلة بالسلم قابلهم بعساكره ومدافعه فانهم زموا شريعة وأبعدوا المفر ثم زحفوا بعد ذلك الى تلمسان فنزلوا عليها وحاصروها وكان أهل تلمسان سلطان المغرب الاقصى يطلبون منه الدخول في طاعته وفتحوا أبواب المدينة وقابلوا المحاصرين بالترحاب وبايعوا السلطان المولى سليمان وأرسلوا له وفدا منهم أما

حامية تلمسان من الاتراك فانهم التجؤا الى قلعتهما وكتبوا الى والي الجزائر يعلمونه بما حصل أما المولى سليمان فانه ردا الوفاء وأرسل معه من يسعى في الصلح بين الطرفين وكتب الى الباي بما أزال شكه وأبطل وهمه متبرئاً من أن يكون السبب في الحرب ولما تم الصلح بين والي تلمسان وبين رعيته عادت رسل المولى سليمان ومع ذلك فان العثمانيين لم يتمكنوا من اخضاع تلمسان تماماً وانظر في أحوالها لسبب القحط الذي كان عم تلك الاطراف حتى عدت الاقوات وجلا أهل تلمسان عنها الى بلاد المغرب وكذا عر بها بين بادية وحضر فكاتب الباي الى المولى سليمان بذلك يرغب اليه ان يرد أهل تلمسان فاقبلوا وما زالوا مقيمين ببلادهم من ثبات من طرفه حتى ارتفع القحط واخصبت البلاد ورخصت الاسعار فترجعوا حينئذ الى اوطانهم وبهذه الوقائع اطمانت البلاد المغربية ورثع سكانها في بجموحه الامن وانخصب الرخا والسمر ورثي كانت هذه المدة غرة في جبين ذلك العصر الا انها لم تدم زمنا طويلا كسبل المسرات فانه عكست الاحوال وترا كمت الاحوال واتسع نطاق الذنته وتم هذا على السلطان في آخر عمره ما لم يتم على أسد من ملوك دولته وذلك بفتنة البربر التي كان ابتداءها سنة (١٢٢٦ هـ) وفي تلك المدة كان انتشر مذهب الوهابية واستولى ابن مسعود الوهابي على الحرمين الشريفين ووصلت رساله وكتبه الى جميع بلاد الاسلام بدعوة الناس الى دعوته والتمسك بذهبه وما أتى كتابه الى بلاد المغرب أجاب عليه علماء فاس بالاستحسان اذ الفتوى كما يقال على قدر السؤال وأرسل الجواب مع المولى ابراهيم ابن السلطان سليمان حين سافر الى الحج (١٢٢٦ هـ) فكان سببا في تسهيل الامر على المولى ابراهيم وكل من معه من الخجاج حتى قضاوا مناسكهم بالامن والامان والبر والاحسان

ولما رأى هذا السلطان عدم القدرة على مجاراة الفرنج في البحار وان ايجاد السفن يبلاده لا تسبب له الا المعرة والمشاكل بينه وبين دول أوروبا التي اتسعت أعمالها البحرية وانفجرت مسائل أساطيلها في المياه أمر فابطلوا الجهاد في البحر ومنع رؤساءه من التلصص فيه وفرق بعض سفنه القرصانية على الايلات المجاورة له مثل الجزائر وطرابلس (١٢٣٠ هـ) وما بقي منها أنزل منها المدافع وغيرها من آله الحرب وأعرض عن أمر البحر رأسا بعد أن كانت سفن المغرب الاقصى أكثر وأحسن من سفن صاحب الجزائر وتونس

ولما اشتدت فتنة البربر وخذت عدة جيوش للسلطان ومحا القوة البحرية سست هيبته وزال وقعه من القلوب وسرى الفساد الى الجند الذين قتلوا قائدهم الاعظم وكان من أكبر أخصاء السلطان ولما نالت الفتنة على السلطان وانفتقت عليه الفتوق صار الناس كأنهم فوضى لا وازع لهم وقام عامة أهل فاس على عاملهم وأرادوا عزله فصبته له طائفة أخرى حتى أتى ذلك الى الحرب وسفك الدماء وما بلغ ذلك السلطان وهو بمكناسة ينظر في أمر فتنة البربر زاده ذلك وهما على وهن وكتب الى أهل فاس كتابا شجونه بالوعظ والعتاب فامتثلوا وقد تطاول البربر على الطرقات فسد وهوا على أموال التجار فنهبوهوا وعلى الاعراض فزقوها حتى ان السلطان نفسه لم يأمن من شهره حين مات ترك مدينة مكناسة قصدا لاقامة بمدينة فاس (١٢٣٥ هـ) وكذا عمث الثورة غالب الامصار وارتكب بهم البربر والجند أفسس الاعمال وبقى المولى سليمان مقيما بمرابكش والفتن بفاس وسائر بلاد المغرب قد تجاوزت الحد وعم آذاها وخرج أهل فاس عن طاعة المولى سليمان

وبابعدوا بنه ابراهيم (١٢٣٦ هـ) على كره منه الا أنه لم يبق بعد ذلك طويلا حيث مات بمدينة تطاوين فاخفى حزنه بموته ثم دعا أهل تطاوين الى بيعته أخيه المولى السعيد بن يزيد فاختلفت كلمتهم وبينتاهم في ذلك اذ ورد عليهم الخبر بجي السلطان من مرا كس نخافوا وهر بوا الى فاس ولما تراكت هذه المحن على المولى سليمان سئم الحياة وأراد ان يترك أمر الناس لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام ويتخلى هو للعبادة وكان يقول ذلك مرارا ثم لما ساورته الهوموم اعتراه المرض الذي كان سبب وفاته ولما انقله أعاد العهد للمولى عبد الرحمن بن هشام وبعث به الى فاس اذ كان خليفته بها وكانت وفاته سنة (١٢٣٨ هـ) وقد كان عادلا يرفق بالرعية والضعفاء والمساكين وأبطل كثير من الجبايات الغير العادلة التي كانت مضروبة على حواضر المغرب وبلاده وقد اتفق أهل عصره على أنه أحلم الملوك في زمانه وأملكهم لنفسه عند الغضب ومذهبه درء الحدود بالشبهات والتماس التأويل وقبول العذر وكان متمسكا بأداب الدين ومحافظا عليه وكان يعيل الى العلم والعلماء ويؤثر المعتنين بالعلوم يميز بالبر حتى تنافس الناس في أيامه في اقتناء العلوم وانتحال صناعتها لاعتزاز العلم وأهله في دولته وسعة أرزاقهم وكان كثيرا لاهتمامه بأمر ما تصدع من المباني العمومية أو يتخرب منها فأصلح منها عددا عظيما وجددها وغيرها ولا تزال باقية للآن وقد حصن أيضا غالب الثغور وختم حماه بأعظم عمل يعمل الملوك قبل وفاتهم وهو العهد للمولى عبد الرحمن دون أبنائه ولخونه لكمال فضله وحراره خلال الخير وتبرزه فيما على من عداه من بني أبيه وعشيرته

وقام بالأمر من بعده ابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام وكان المولى سليمان قدمه على جميع أولاد السلاطين حتى على أولاده كما سبق لما انصف به منذ نشأته من الصيانة والعفاف وترك ما لا يعنى والجد في الأمور كلها والورع والدين وفي حياة المولى سليمان وولاه نغرا الصورة وأعمالها فقام بذلك أحسن قيام ثم استخلفه على مدينة فاس أم أمصار المغرب وكان لما حضرته الوفاة جدد له العهد (١٢٣٨ هـ) ولما وصله العهد وهو يقاس بايعه القضاة والقواد والاعيان وعامة الناس وسروا به وكتبت البشائر الى البلدان فأنت بيعات أهل الامصار وهما ياهم ولم يتوقف عن هذه البيعة الشرعية أحد منهم واستبشر أهل المغرب بولايته ثم أنته قبائل البر التي كانت عصت على المولى سليمان وتجمعت وأقرت فيما بينها على مداومة الحرب وقتل كل من يتكلم بالعريضة بالمغرب ولما قدموا عليه بهما ياهم ووفودهم قابلهم السلطان بغاية الاحسان ولما فرغ المولى عبد الرحمن من أمر الوفود التفت الى النظر الى أحوال المملكة وتثقيف ما عوج من أحوالها لان فتنة البربر وغيرهم التي استمرت زمانا طويلا في أواخر سلطنة المولى سليمان كانت جرت على البلاد أنواع الرزايا وأوقعت الخراب في غالب مدن المغرب وأمصارها نخرج من فاس في جيش عظيم بعد ان نظم أمورها ونزل رباط القمح (١٢٣٨ هـ) وزار كذلك مكناسة ومرا كس وغيرهما وما زال يتفقد ثغور بلاده ومدنها ويعتنى بأمرها ويخضع القبائل العاصية ويذلل النواصي المتشاحجة حتى دان له المغرب وصار طوعا وعيية

وكان المولى عبد الرحمن لما طاف على نغور المغرب ومراسيه (١٢٤٣ هـ) رأى من الموافق احياء سنة الغزو في البحار التي كان أبطلها المولى سليمان لان في ذلك تقوية لسلطنة مرا كس ونهوضا

بذكريها بين الدول البحرية فأمر بإنشاء الاساطيل وضمها الى ما كان باقية امنها من آثار جسد المولى محمد ثم أمر لرؤساء البحر بشغري سلا وروباط أن يخترجوا في السفن الحربية ويطوفوا حول بلاد المغرب وما جاو رها فإلما خرجوا صادفوا سفن تجارية تابعة لمملكة أوستوريا (النمسا) فقبضوا عليها وأخذوها غنيمته بحجة أنه ليس لدى ربا بينها ورقعة التصريح (باسپورت) حسب الشروط المقررة بينهم وبين دول أوروبا ووضعوا بعض تلك السفن بالعرائش وبعضها بطنجة ولما بلغ الخبر لدولة استوريا تجهزت ست سفن حربية أعاروا على مرسى العرائش (١٢٤٥ هـ) وأخذوا في القنابل عليها طول النهار حتى خربوا كثير من أسوارها ودورها ثم أنزلوا نحو خمسمائة من الجنود الى البر وتمكنوا من إحراق عدة سفائن خاصة بالسلطان كانت راسية بالمينا وكانت تحميهم قنابل المدافع التي تطلق من سفنهم ومع ذلك فإن الالهالي والحراس انقضوا عليهم وقتلوا منهم عددا عظيما وأسروا جملة منهم ثم عاد الباقيون الى سفنهم وكانت هذه الواقعة سببا في اعراض المولى عبد الرحمن عن الغزو في البحر لانه رأى أنه يستحيل عليه مجاراة شوكة الفرنج في البحار ولان الغزو في البحر صار يثير الخصومة والمدافعة والتجادل والتزاع بين دولة مراکش ودول أوروبا حتى كاد عقد المهادنة ينقص بين الطرفين وكذلك استيلاء الفرنسيين على ثغر الجزائر مع ما كان عليه من المنعة سيما وان الانكليز والفرنساويين كانوا ينقمون على دولة مراکش لما كان يأتيه قرصانها من الاعمال المغيرة للنظامات الدولية وبعد الواقعة المذكورة عقد المولى عبد الرحمن الصلح مع دولة استوريا على شروط مضمونها المخالطة في البيع والشراء مع الامان والاحترام من الجانبين والصلح الدائم بين الدولتين لا يفسده أمر يحدث بعده ولا يقع فيه زيادة ولا نقصان وكان عقده هذا الصلح بواسطة دولة الانكليز حيث أصبحت مأمورا واستوريا بما هو من طرفها اقدم على السلطان بكناسة (١٢٤٦ هـ) ولما استولى الفرنسيون على الجزائر (١٢٤٦ هـ) ووقع بأهلها ما وقع للأسباب التي سنذكرها مفصلة بتاريخ بلاد الجزائر اجمع أهل تلمسان وتفاوضوا في شأنهم وانفقوا على الدخول في بيعه المولى عبد الرحمن وأقبلوا الى عاملة بمدينة وجدة (١) وعرضوا عليه التوسط لهم في قبول بيعتهم ليأمنوا جانب الفرنسيين ثم أرسلوا وفد منهم يقدم على السلطان بكناسة ولما أخبروه بمرادهم استفتى العلماء في ذلك فافتي جلهم بنقيض المقصود وهو عدم الاقرار على بيعتهم لأن في رقبتهم بيعه للخليفة العثماني ومع ذلك فانهم لما ألحوا عليه بطلب الدخول في بيعته استزمتها وعقد عليهم لابن عمه المولى علي بن سليمان وأصحابه بكتيبة من الجنود وأرسل له أخرى في امرامة البندق والطوبجية فلما دخل المولى علي تلمسان فرح به الناس وقدمت عليه وفود القبائل والنواحي للبيعة للمولى عبد الرحمن الذي اعتنى بأمر هذه الناحية وبذل الجهد في إمدادها وحصن تلمسان وادخر بها شيئا كثيرا من البارود والمدافع ومع ذلك فقد افرقت كلمة العرب الذين هنالك لقله هممتهم ومال معظمهم للدخول في طاعة الفرنسيين عندما استولوا على مدينة وهران في تلك الأيام ووقع الاختلاف أيضا بين قواد جيش السلطان فتحاسدوا فلما علم السلطان ذلك رأى من المصلحة استرجاع

(١) وجدة مدينة من مملكة مراکش على حدود الجزائر بالقرب من نهر مضاف اليها تصب في وادي مسلوية وبالقرية منها كانت الواقعة الشهيرة بين الفرنسيين حين استيلائهم على بلاد الجزائر والمراكشيين (١٨٤٤ م) واعتبرت حدا بين المغرب الأقصى والمغرب الاوسط بعد استيلاء العثمانيين على بلاد الجزائر اه

تلك الجيوش وبعدهم رجوعها قامت في البلاد ثورة فحاصره فاس وأذل عصاته ووعقاعهم وفي تلك
الاشاء انتخب أهل المغرب الاوسط الفقيه المرابط محي الدين عبد القادر واختاروا ليكون أميراً عليهم
ويقاتلهم الفرنسيين الذين استولوا على بلادهم فتمنع من ذلك لكبر سنه وولى عليهم ابنه الحاج عبد
القادر فقبضوه فقام الحاج عبد القادر بما عهد اليه أحسن قيام وانتصر على الفرنسيين في عدة وقائع
حتى أنشأ له دولة مستقلة بقيت عدة سنين مهيبة الجانب الى أن وقع له ما وقع مما سيأتي ذكره بتاريخ
بلاد الجزائر وما تم استيلاء الفرنسيين على جميع بلاد الجزائر (١٢٥٩ هـ) صار الحاج عبد
القادر ينتقل في أطرافها نارة بالحجارة ونارة ببني بزناس ونارة بوجدة والريف وغير ذلك وربما استعجب
في هذه التنقلات من هو من رعية المولى عبد الرحمن أو جنده فغضب الفرنسيون من ذلك وأخذوا
في شن الغارة على بلاد المولى عبد الرحمن واستولوا على مدينة وجدة التابعة لمرآكش فحججوا بامداد
المولى عبد الرحمن عبد القادر بالخيول والسيوف والمال المرة بعد المرة وهجوم جيش السلطان الذي
على الحدود وعلى جيش الفرنسيين وغير ذلك ولما رأى المولى عبد الرحمن ان الجيوش الدينية قد دبّت
في رؤس رعيته غضباً لما حل باخوانهم أهل الجزائر ونعدى الفرنسيون على بلاد المغرب الاقصى
أمر بالاستعداد وارهاف الحتلماعسى ان يحدث ووجه ابن عمه المأمون بن الشريف في كتيبة الى
مدينة وجدة ثم عزه بكتيبة أخرى وأخذ السلطان في الاستعداد وحشد الجنود فجمع جيشاً من
الفرسان مؤلفاً من ثلاثين ألف فارس عقد عليه لولده وخليفته المولى محمد الذي سار حتى نزل بوادي
إسلي من أعمال وجدة فأقبل اليه الامير عبد القادر وكان انخط أمره وتضعفت قوته ولم يبق معه
الا القليل من الجنود واجتمع بين السلطان وتكلم معه في أمر الفرنسيين وأعلمه بكيفية قتالهم
واستعداداتهم ونبهه الى أمور مفيدة جدا وملاحظات سيديدة لواتبعها العادت عليه بالنفع والظفر
الآن بعض من كان بالجلس من حاشية المولى محمد انتهره بالفاظ تقيله ولم يصغ محمد لنصيحته
استكبراً وامنه وجهلاً بمواقف القتال فتركه عبد القادر وانصرف ثم وقعت الحرب بين الفرنسيين
وجيش سلطان مرآكش فكانت الهزيمة على جيش مرآكش وفقد معظمه وتشتت من بقي منه في
الصحارى واستولى الفرنسيون على غالب مامعه من العدة الحربية والاموال وذلك لرداءة انتظام
هذا الجيش وعدم مهارة قواده وجهلهم بالفتون الحربية وتخاذلهم وفساد نياتهم فاصابهم الله بما
أراد (١٢٦٠ هـ - ١٨٤٤ م) وفر ابن السلطان حتى انتهى الى مدينة تازا فاقام بهار يوماً فاجتمع
عليه الفارون ولما اتصل خبر هذه الواقعة بالمولى عبد الرحمن اغتم لذلك جداً وتحمير في أمره وكان يرباط
الفتح فنفض الى فاس وما زاد غمه وصول الخبر اليه بهجوم الفرنسيين على طانجة والصويرة واطلاق
مدافعهم عليهم ما وقع النهب والقتل بمدينة الصويرة من الغوغاء الذين بالبلد والقبائل المجاورين
لها لانهم لما رأوا العدو وظنوا أنه سيدخل المدينة قدوا أيديهم بالنهب والسلب والقتل وغير ذلك مما زاد
حيرة السلطان وأقامه وأقعدوه وخبر ذلك كبار واه مؤرخ فرنساوى أن الحكومة الفرنسية فهمت
أن الضرورة تدعوها لان انضم لاجمالها الحربية بمجدود مرآكش أعمالاً بحرية أخرى تقوم باجرائها
على سواحل مرآكش فجمعت اسطولاً حروبياً وعقدت لواءه للفرنس جواثيسيل Joinville
فقصدها الاسطول مدينة طانجة وخرب حصونها كما مر ومع ذلك فكان هذه التأديبات لم تكن

كافية ردع أهل مرا كس عن غيهم فان السلطان أمر بجيش عديده أخرى من فاس وضواحيها وكانت فرنسا أرادت أن تسوى ذلك بطريق المراسلات والصلح فلم تنجح وخرج ابن السلطان يقود بنفسه جيشا مؤلفا من ٢٠٠٠٠ مقاتل قرأ القائد الفرنسي العام عند ذلك أن من المصلحة شروع حالاً في مقاتلة هذا الجيش مخافة أن عراقب الامهال تجعل للقبائل النازلة بقاطعة وهران الوقت الكافي لاشق عصا الطاعة على الفرنسيين ولذلك فإنه في يوم ١٣ أغسطس (١٨٤٤) في الساعة الثالثة بعد الظهر تحرك الجيش الفرنسي وفي يوم ١٤ منه في الساعة الثانية صباحا سار قاصدا معسكر المرا كشين وفي الساعة الثامنة شاهدوا معسكر المرا كشين ممتدا على أكثر من أربعة كيلومترات على الشاطئ الايمن من وادي أسلى وسعى أهل مرا كس في منع الجيش الفرنسي من العبور فصدته رجالهم وبجهد ما استعد جيش الفرنسيين للقتال على الشاطئ الآخر هجم عليه من جناحيه ومؤخرته خيالة المرا كشين الأتمة عادوا مهزومين بمقابلة رجاله الفرنسيين لهم بالبنادق وبعد قليل وقع الاختلاط في جيش المرا كشين الغير المنتظم وفر امام الفرنسيين بسبب اطلاق المدافع عليه ثم تقدم الجيش الفرنسي وبعد أن قاومه جيش المرا كشين وقتا قليلا استولى على المكان الذي نزل به ابن السلطان وعند ذلك اتجه المارشال بوجود الفرنسيين يقصد محلة المرا كشين فاستولى بعد هجوم عنيف على المدافع التي كانت تحمي خيام ابن السلطان وغنم الفرنسيون غنائم وافرة وتشتت شمل المرا كشين ففروا الى كل وجهة ولذلك تلقب المارشال بوجود (Bugeaud) بلقب دولك أسلى وفي نفس مساء يوم الهزيمة اطلق البرنس جوانفيل مدافع اسطوله على مغادور بحيث خربها بتمامها فأصبحت في اليوم الثاني تلامن الانقراض فلذلك طلب السلطان عقد الصلح فعقد على الشروط الآتية وهي ان الفرق العسكرية الكثيرة من الجيوش المرا كشية النازلة على حدود الجزائر والتي في فواحي وجدة تحمل وتفرق عساكرها في الحال وأن يعاقب الذين كانوا السبب في المخاصمات التي ارتكبتها المرا كشيون في أرض الجزائر وأن ينق الامير عبد القادر من أرض مرا كس أو يحجر عليه فيها وأن لا يعطيه بعد ذلك السلطان قوما من رعيته الخاضعة له ولا يمد يدها وانه ما من أي نوع وان تحدد الحدود وتحديدات امام منتظمين البلادين وبذلك حصلت السكينة وضرب السلام أطنا به على جميع بلاد الجزائر ثم صار تحديد التجوم بعد ذلك بين المملكتين كما تنقضى به شروط الصلح فتم ذلك ١٢٦١ هـ (١٨ مارث ١٨٤٥ م) ٥١

ولقد كان انتكسار سلطان مرا كس في هذه الوقائع سببا في امتناع ملكتي الدانمارك والسويد من دفع ما كانا يؤديانه كل سنة من الاموال الى سلطنة مرا كس في مقابلة عدم التعدي على سفنهما التجارية وكثير تردد تجار الافرنج على مراسي المغرب وازدادت مخالطتهم وممازجتهم لاهله وكثرت تجارتهم في السلع التي كانوا ممنوعين منها وانفتح لهم باب كان مسدودا عليهم من قبل ومن وقتئذ زادت علاقات الدول الاورباوية فتدناخت بسياستها المشهورة مع حكومة مرا كس حتى وصل كل منها الى نقطة النفوذ المعينة لها لذلك الوقت وقد كان من أسباب تراحم دول أوروبا وياؤها اعهم الظاهرة وتحاسدهم بقاء الجامعة المرا كشية واستمرار استقلالها لحد الان

وقد أراد الامير عبد القادر الجزائري أن ينتقم بعد ذلك من المولى عبد الرحمن لتخليه عن اعانته مع القدرة عليها لانه منع رعيته من الانضمام لجيشه مساعدة له فأخذ يرسل الجواسيس والعيون الى

مملكة مراکش ويكتب حاشية السلطان قسداً نارة القنن فوجه عليه عند ذلك المولى عبد
الرحمن جيشاً عظيماً جعل قيادته لولده المدعو المولى محمد وأخذ هذا الجيش بطارد الأمير وجيشه
حتى شتمهم وهزمهم بعد أن قتل كثير منهم وحنام جنودهم وقدر أمانه ومن جنوده من الأقدام والمهارة
والصبر على القتال ما قضاؤه عجباً وضررت به الامثال أما الأمير عبد القادر فإنه لما هزم رأى أن
الأحسن له مسالمة الفرنسيين سيما وانهم كانوا يعدونه بحسن المعاملة والاكرام وعدم الضيم فقر
ملتجئاً اليهم وترك محلته وما به الجيش سلطان مراکش فاستولى عليها (١٢٦٤ هـ) وستأتي بقية
أخبار المرحوم عبد القادر مفصلة عند الكلام على تاريخ الجزائر

ولما اشتدت المجاعة (١٢٦٨ هـ) وأكل الناس كل موجود من النبات وأكلوا الخيف
والميتة وكان تجار الفريج يترددون على الثغور البحرية يجلبون الحنطة للتجارة بما تصادف في تلك
الاشياء وصول مركبين للفرنسيين فيهما حنطة فارتطمتا بساحل سلا فتسارعت العامة اليهما وانتهبوا
ما بهما ثم كسروهما وأخذوا ألوأحهما وعددهما فقتلهم عند ذلك قتل الفرنسيين مع والى سلا
على المركبين المذكورين يطلب التعويض لأصحابهما ومعاقبة الجانين فأطلع الحاكم المولى عبد
الرحمن على طلب القنصل منكر الحصول تعدى أهل سلا على المركبين المذكورين ولما لم يحصل
الفرنساويون مع المولى عبد الرحمن بالكلام على طائل هجموا (١٢٦٨ هـ) على مدينة سلا
بأسطول مؤلف من خمس سفن حربية وقباق كبير به نحو ستين مدفعا ولما قرب من المدينة أخذ
في اطلاق النيران عليها فاطاها نلامدة تسع ساعات حتى تخرب قسم عظيم منها وان ذلك غالب
حصونها ما قلاع المدينة فانهم تقو على اطلاق النيران الزمنا سير الضعفها وعدم جود مدافعها
فتقهق الحامية وتركوا القلاع أما الفرنسيون فانهم ألقوا اليلا ولم يشعر بهم أحد وبه هذه
الواقعة أمر المولى عبد الرحمن فخصنوا هذه المدينة تحصيناً جيداً وبنى بها قلعة منيعة لا تزال باقية
للاّن ووضع بها عدة مدافع اشتراها من بلاد الانكليز وكانت وفاة المولى عبد الرحمن بن هشام
بمدينة مكناسة (١٢٧٦ هـ) وكان عظيم السيرة تقياً ورعاً عالماً عادلاً صرف همته منذولى الامر
في اصلاح ما اخلت من أمور هذه الدولة حتى تمكن من غالب ما يريد له بالمغرب آثار كثيرة مشي
المراسي والقلاع والاسوار والمساجد والجوامع والبيمارستانات

وقام بالامر من بعده ابنه المولى محمد وكان يتميز عن باقي اخوته بالبر بابيه ويتصف بالسكينة
والوقار والتقوى ولما رأى منه والده ذلك فوض اليه الامر وألقى زمام مملكته بيديه ولم يدخر عنه شيئاً
من أمور الملك فكان له مدة أبيه منزلة عالية ودرجة رفيعة ونفذ تام ولما جلس على التخت أخذت
له البيعة من كل الطبقات والبلدان ولم يتخلف عنها أحد الا ما كان من المولى عبد الرحمن بن سليمان
ابن محمد فإنه لما توفي المولى عبد الرحمن بايعه بعض أبناء عمه بقاس ومكناسة وبعض البربر والجنود
الا انه لم يتم له الامر واضمحلت أمره وفي أول حكمهم هذا السلطان انتشبت الحرب بينه وبين
الاسبانيول أصحاب مدينة سبتة وسبب ذلك ان العادة كانت جارية مع أهل سبتة من الاسبانيول
وأهل البلاد المجاورة لها أن يتخذ كل من الفريقين محلاً للحراسة على الحدود التي تفصل أرض
سبتة عن بقية المملكة وكان الاسبانيول يتخذون هنالكا بيوتاً صغيرة من الاخشاب وأهل البلاد
المكثفون بالحراسة يتخذون اخصاصاً من البردى ونحوه فلما كان آخر دولة السلطان المولى عبد

الرحمن بن الاسبانيول على الحدود بيتان الحجر أو قلعة في رواية أخرى ووضعوا فوق بابه علامة ملكتهم فقال لهم الحراس لا بد من هدم هذا البيت لان العادة لم تجر بينائه وتخذوا بيوتان من خشب فامتنع الاسبانيول من ذلك فعمد الاهاالى ذلك البيت وهدمه ووزنوا العلامة وأهانوها وحرقوها وقتلوا من الاسبانيول أناسا وضيقوا وشنوا على سبته الغارات فرفع أهل سبته أمرهم الى سفيرهم بطنجة فكلم هذا نائب السلطان فيها وشكا اليه ما نال أهل سبته من عيب الاهاالى فدافعه النائب بكلام وطمن خاطره بما عاقبة المعتدين فلم يقبل السفير وقال لا بد من حضور اثني عشر رجلا منهم بطنجة وسماهم باسمائهم ولا بد من قتلهم جزاء فعلهم فعظم الامر على النائب وتخبر في أمره وأبلغ الامر الى سفير الانكليز هناك فطمن خاطره ووعدته بالمساعدة وانه لو حضر الاشخاص المذكورون لانيالهم شئ فقوى عزم النائب ولما علم الاهاالى بمطالب سفير الاسبانيول وانه سيكتب الى السلطان في تساميم الاثني عشر رجلا منهم التجوا الى شريف وزان السيد الحاج عبدالسلام بن العربي وسأله اخبار السلطان بما عزم عليه النائب وطلبوا منه نصر يحاسب سلطان القبائل المجاورة ليساعدتهم وهم يكفونهم أمر القتال وفي تلك الاثناء مات المولى عبدالرحمن وولي ابنه المولى محمد ولما قدم مكناسة بعد اجتماع الكلمة عليه كتب له الشريف المذكور بمطوب أهل ريف سبته فشاور السلطان في ذلك بعض حاشيته فحال الى الحرب وكان ذلك هو الرأى الرابع عند السلطان لانه رأى من العار عليه ان يسلم للاسبانيول في مطالبهم مع ان رعاياهم هم المعتدون ولم يكن ذلك من حسن السياسة في شئ لضعف ملكته عن محاربة الاسبانيول ثم ان المولى محمد أرسل رسولا مفوضا من طرفه الى طنجة لمخاطبة سفير اسبانيا في تلك المسئلة وزوده بالتعليمات اللازمة فلم تنته مأموريته بالسلم وشدد المأمور المذكور في عدم اجابته مطلوب سفير اسبانيا وعند ذلك خرج السفير من المدينة وأخذ معه حاشيته وخدمه وخضع علامة مملكته ورايته وركب البحر الى بلاده وأخبر الرسول السلطان بما وقع فكتب السلطان الى الثغور يخبرهم بقطع العلائق بينه وبين الاسبانيول ويشدد عليهم بأخذ الائمة وأن يكونوا على حذر ثم أخذ في أهبة الحرب وتعبية الجنود وارسالها الى جهة سبته وبعد أيام برز الاسبانيول من سبته في جيش عظيم كامل العدد والاستعداد يبلغ ٢٠٠٠٠ مقاتل (١٢٧٦ هـ) وعند ذلك قام أهل الريف جميعا لمقاومة هذا الجيش البري بسير في البحر في محاذاة الجيش البري يحمل له السلاح والذخيرة والاقوات ويدافع عنه عند اللزوم ولولا ما تصف به أهل المغرب من الجسارة والاقدام والصبر على القتال وتحمل المشاق والذب عن بلادهم لفشلوا في أول مصادمة حصلت بينهم وبين الاسبانيول لما كانوا عليه من حسن التعام وجودة النظام والاسلحة وتوفر الاقوات والملابس وكثرة الاساطيل التي كانت تسارهم في البحر وفي آخر الامر تفهق جيش المراكشيين وتغلب الاسبانيول واستولوا على مدينة تطاوين (١٢٧٦ هـ ١٨٥٨ م) وكان جيش الاسبانيول لما دخل تطاوين يبلغ ٧٠٠٠٠ كاهما قتاله بغاية الاستعداد وبكال الشوكة واستولى

الاسبانيون على ما بالمدينة من الاموال ولم يكن بها غير مدفع واحد وقليل من البارود أما المدفع فنقله الاسبانيون الى بلادهم وأما البارود فانهم أعدموه وعمد الاسبانيون الى مسجد سيدي عبدالله البقال فحولوه الى كنيسة ثم ان الاسبانيون أخذوا أول أمرهم في معاملة السكان بالحسنى ولم يسيئوا لهم حسفا ولا كلفوهم عملا لئلا يفوهم بذلك وفي أثناء الحرب ذهب أسطول اسبانيا وأطلق نيرانه على نغراسيا لانهم وأتلف كثيرا ثم ان المولى العباس قائد الجيش العام كاتب القائد الاسبانيون بأمر الصلح ففرح العسكران بذلك لأنه بالنسبة لتشيديا الخيال أو دونيل في مطالبه لما اجتمع بالمولى العباس تأخر عقد الصلح لان السلطان لم يقر على تلك الشروط ثم كانت بعد ذلك عدة وقائع كان النصر في جميعها للاهل مرا كش ومع ذلك فان أمر الصلح انقضى على ما طلب الاسبانيون تقر بيا ولم يخفف منه الا القليل وان عقدت المعاهدة في ٢٦ ابريل (١٨٦٠ م) ٤ شوال (١٢٧٦ هـ) وأهم شروط هذا الصلح هي ان يدفع السلطان اليهم مائة مليون من الفرنسكان والتنازل لهم عن قطعة أرض جنوبي سبتة وأن يكون لهمم فرضة بحرية على المحيط وهي المسماة عندهم سانتا كروز وان يكون لهم الحق في اقامة وكيل في مرا كش والتصريح لقسمهم بإنشاء المدارس والاديرة وعلى ذلك يخرجون من تطاوين وما استولوا عليه من الارض التي بين تطاوين وسبتة وان يكون لاسبانيا نفس الامتيازات والحقوق التي منحت لاعظم الدول الاوروباية الاخرى وبعدها من تاريخ الصلح خرج الاسبانيون من نغراسيا وبقية مدن مكنوا فيها سنتين وثلاثة أشهر ونصفا وواقعة تطاوين هذه هي التي أزال حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال الفرج بها وانكسر أهلها انكسارا لم يعد لهم مثله وكثيرا بلادهم حماية الدول الاوروباية للرعايا فانشأ عن ذلك ضرر عظيم واختلاط واختباط لازالت هذه الدولة تتعثر في أذياله الى الآن فنسأل الله ان يصلح حالها ويقوم ما عوج من أمورها وان يولي عليها من يصلح من شأنها

وكان هذا الانكسار سببا في أن المولى محمد التفت الى التنظيمات العسكرية الاوروباية فادخلها في بلاده ورتب له عسكرا على الترتيب الحديث وكان ابتداء فيه مدة بيه بعد هزيمة ايسلي حيثما شاهد جنود الفرنسيين وما هي عاينه من حسن النظام وكال الاستعداد ثم جدد فيه في هذه الايام فرتب منه ما يسر وفرض لذلك ضرائب على العقارات والمتاجر ليتمكن القيام بمصاريف هذا النظام الحديث (١٢٧٧ هـ) وكتب الى الامصار منشورا يخبرهم فيه بعزمه على ذلك وبما يفرضه من المكوس^(١) ورتب من طرفه سفرا في أكبر دول أوروبا ليكثروا واسطة بينه وبين الدول ولما

(١) ضمن ذلك ما كتبه لامناء مرسى الدار البيضاء بعد ما لما أخذنا في جمع النظام المصلحة المتعينة الواضحة المينة المقرر أمرها لدى الخاس والعام واجتمع منه عدد يسير واختبرنا ما صير عليه بشهر واحد فاجتمع فيه عدد كثير فكيف ان جمعنا منه عددا معتبرا يحصل به المراد ويكون قدي في عين أهلها اعتمادا تقتضى الحال ذلك لكبراء التجار لينظر وافهموا يستعان به على أمرهم ادلا بمن كفايتهم والا انحل نظام جمعهم ومن ذلك ما لا يجهل من له أدنى عقل وبخمة في الدين فأنشروا بفرض اعانه لاضرر رغبنا على الرعية وسطره ما في ورقة وهي كلاشي بالنسبة لترتبة الملوك في مثل هذا للاستعانة به على المصالح المرعية وللضروة أحكام تخصها كلهم معلوم مقرر ومستطرف غير ما دون محور تمام اقتضى نظرا أن نسند الامر في ذلك لاهل العلم ليقروا والناس حكمه تقررات تنسج له الصدور ويعمل بمقتضاه في الورد والمسدور وان كان جملهم يعلم هذا فمن المعلوم أن الرعية لا يستقيم أمرها الا بمجد قوى بانه ولا اجتهد الاعمال وهو لا يكون الا من الرعية على وجه لاضرر رغبه وقد أخذ الناس هذه منة محضرتنا العلية بانه ومكناسة ونازاو العدوتين

كانت واقعة تطاورين ورأى اليهود أنهم عوملوا معاملة سيئة من طرف الاهالي والقبائل رأوا ان من
 المصلحة لهم طلب مساعدة بعض دول أوروبا فكتب بعضهم الى تاجرهم المشهور بليوندره وهو
 الموسيوروتشليديطابون وساطته الى الدولة الانكليزية لماله من الوجاهة والاعتبار فسمى روتشليدي
 لدى حكومة الانكليزية في ذلك لتخاطب ساطن المغرب في أمر اليهود فقبلت الحكومة الانكليزية
 هذا الطلب بكل نشاط وأرسلت الى سفيرها لدى الدولة الشريفة يسذل المجهود في ذلك ومساعدة
 الشخص الذي أرسلته في هذه المهمة بكل ما يقدر عليه من الطرق السلمية الودادية فقام السفير بهذه
 الأمور به أحسن قيام ولما قدم ذلك الرسول على السلطان عمرا كس وقدم له مامعه من الهدايا بأسأله
 تنفيذ مطلبه فقبجا في السلطان عن رده مخفقا وأعطاه ظهيرا (١) تمسك به الرسول المذكور وكان
 يهوديا يتضمن صريح الشرع وما أوجب الله اليه ومن حفظ الذمة وعدم الظلم والعسف ولما أخذ
 اليهود هذا الظهير كتبوا منه نسخا وفرقوها على جميع يهود المغرب ثم ظهر منهم تطاول وطيش وتعد
 على الناس لاسيما سكان الثغور منهم حتى أنهم هموا بالحصول على بعض الاستقلال فلهذا المأحسن
 ملك مرآ كس بذلك عقب ذلك الظهير بكتاب آخرين فيه المراد وأن ذلك الايضاء انما هو في حق
 أهل المروءة والمساكين منهم المشتغلين بما يعينهم وأما صاعاليكهم المعروفون بالفجور والتطاول
 على الناس والغلوض فيما لا يعنى فيعمالون بما يستحقونه من الادب فسكن طيش اليهود لذلك الا
 ان كثير منهم تم تحييل بقوة الدراهم لدى قناصل الاورروبا وبين حتى نال منهم حياية وقد صارت هذه
 الحيايات الآن بدولة المغرب من الاسباب المريرة لاسيما استه الماذعة لها في كثير من الاحوال عن
 تنفيذ أحكامها وان كانت لا تعترف بهارهما

وقد كان المولى محمد بن عبد الرحمن رأى في سفير فرنسا وعماله جففاء في الالفاظ وتدمير الخرج
 أحيانا عن حد الادب وعدم تأن وتمسك بالتأفة من الاقوال فاراد مخابرة ملك فرنسا وبين نابليون
 بونابرت الثالث في ذلك فارسل له قائده جيشه محمد بن عبد الكريم وعماله صلاح محمد بن سعيد السلاوي
 ليخاطباه في شأن هؤلاء النواب الذين يعينهم الى المغرب وان يكون انتخابهم من بيوت الاعيان وعم

ومرا كس في ذلك وسلكوا في تربيته أحسن المسالك ولان تلك ان بركة ذلك تعود عليهم في أموالهم وأولادهم
 وأنفسهم فوصول هذا اليكم قوموا على ساق الجدي القبض من الناس بالباب نحو ما في الورة المشار اليها ولا دخل
 للنصارى في ذلك والله أسأل ان يبارك للمسلمين في مالهم ويعوضهم خلفا آمين والسلام في الثاني والعشرين من رجب الفرد
 عام سبعة وسبعين ومائتين وألف اه من الاستقصاء

(١) ونص الظهير المذكور بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم نأمر من يقف على كتابنا
 هذا أمما لله وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي تسمه المنيرة ويديره من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا
 ان يعاملوا اليهود الذين بسائر الامتاعا أو جبه الله تعالى من نصب بران الحق والنسوية بينهم وبين غيرهم في الاحكام
 حتى لا يلحق أحد منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضياع ولا يتألمهم مكر وولا اهتمام وان لا يتعدوا وهم ولا غيرهم على
 أحد منهم لاق نفوسهم ولا في أموالهم وان لا يستعملوا أهل الحرف منهم الا عن طيب أنفسهم وعلى شرط فوقيتهم
 بما يستحقونه على عملهم لان الظلم ظلمات يوم القيامة ونحن لا نوافق عليه لاق حقهم ولا في حق غيرهم ولا رضانا لان
 الناس كلهم عندنا في اخن سواء ومن ظلم أحد منهم أو تعدى عليه فانا نأمره بحول الله وهذا الامر الذي قرره
 وأوضحناه وبيناه كان مقررا ومعروفا محمرا لكن زناه هذا المسطور نقره برأوتنا كيدا وعيدا في حق من يريد
 وتشديد البز باليهود أمنا على أنفسهم ومن يريد التعدى خوفا الى خوفهم صدر به أمرنا المنعز بانته في ٢٦ شعبان

يتصف بالتأني وحسن السيرة والوقوف عند الحدود وأصحهم ما بكتاب وهدية ولما بلغ الرسولان مدينة باريس وأديا المأمورية انما يوليون قائلهما بما لا مزيد عليه من البر والكرامة وعين لهما ما يلزم من الخدم والحشم ثم عادا بعد أن أقاما نحو الشهر بباريس (١٢٨٢ هـ)

ولما عازمت فرانس على إنشاء المعرض الدولي العام وخطبت دول الارض ليشاركوا في ذلك أخبرت دولة المغرب الأقصى في هذا الامر فأرسل المولى محمد وفدا من طرفه ومعه كل شئ غريب مما اختص به قطر المغرب وكانت وفاة المولى محمد بن عبد الرحمن (١٢٩٠ هـ) بدار بمرآكش في البستان المسمى بالنيل وكانت أيامه في أولها شديدة بمواقع الجيوشه من الهزيمة وما أعقبها من الغلاء والموت ثم اتسع الحال وحصل الامن وأمنت الطرقات ونخضعت قبائل العرب ورخصت الاسعار وفي زمنه لاحت على الناس سمة الحضارة الاورواوية وقد كان يبنى أمره على الشرع الشريف لا يشذ عنه وله بالمغرب آثار عظيمة منها فبriques لعل السكر وأخرى لعل البارود وهو أول من أمر ببناء فتارات على ساحل البحر قرب طنجة

وقام بالامر من بعده ابنه المولى حسن وكان غائباً عن الحضرة فكتب اليه رؤساء الدولة بما حدث من موت أبيه واجتماع الناس على بيعته فقدم مسرعاً ولما استقر بدار الملك قدمت عليه الوفود من جميع الامصار يبيعتمهم وهديتهم وفي أول حكمه خرج بيمينه ووزرائه وكتابه وحاشيته بقصد رؤية الامصار الكبيرة وبعض الثغور البحرية لينظر في أمورها ويدخل في دائرة الطاعة بعض من سؤلت له نفسه الخروج عن الجامعة المليية ولما نزل مكناسة أثناء تجوله أقام بها مناطويلا لفتح ثورة بعض القبائل العاصية ثم شرع المولى حسن في جمع العسكر الجديد وتنظيمه وتدريبه زيادة على ما كان في حياة والده واهتم بأمره حتى كان يستعرضه ويرتبه بنفسه واعتنى أيضا بتشديد الحصون والمعقل وجلب الاسلحة المدينة الكثيرة وأرسل عدة من شبان بلاده الى بعض مدارس فرانس والمائيات لتعلم الفنون العسكرية والعلوم الرياضية وأرسل أيضا سفارة الى بلاد أوروايا بقصد الذهاب الى بلاد فرانس وبلاد الانكليز وبلاد ايطاليا وبلاد الجليقا وأرسل معها هدايا نفيسة المولك هذه الممالك وكان الغرض منها زيادة تمكين العلاقات الودادية بين دولته والدول المذكورة ثم عادت بعد تأدية الغرض على أكمل وجه (١٢٩٣ هـ)

وقد كان المولى حسن لما رأى ضعف حكومته أمام دول أوروايا والساعية على الدوام في الحصول على المنافع التجارية والسياسية في بلاده والبحث على ما يكون به زعزعة أركان هذه الدولة أشار رؤساء دولته عليه بتجديد العلاقات الودادية بينه وبين الدولة العثمانية ليكون في اتحادهما معا مأمناً له ولقومه سيما وان الاسبان يول وغيرهم من أهل أوروايا كانوا يشددون في نوال بعض الامتيازات فأرسل من طرفه (١٢٩٣ هـ) السيد ابراهيم السنوسي وكيل حكومته في الديار المصرية الى الاستانة العلمية للخبارة بهذا الشأن وعقد اتفاقية بين الطرفين فسافر هذا المأمور السياسي وبينما كان يتخبر مع الحكومة العثمانية ظهرت علامات الحرب الروسية العثمانية التي سبقها قيام بعض الايالات التابعة للدولة فكان ذلك من الاسباب التي حالت دون بلوغ المرام وعاد المأمور المذكور الى بلاده

وحصل انه في أوائل (١٢٩٧ هـ) أن قام المسلمون على اليهود في بعض جهات مراكش

لما وقع منهم من التعدي وتظاهرهم بعدم احترام أوامر الدولة المرأ كشيبة وقبض بعض القبائل
الثائرة على الحكومة على يهودى وأحرقه حيا فاضطر بذلك اليهود وهاجر كثير منهم الى اسبانيا
والى غيرهما من الممالك الاوروبوية ثم عادوا بعد أن حصلوا على حيايات من الدول المذكورة ولما
كانت دولة المغرب الاقصى لا تقبل هذه الحيايات ولا تقر عليها رسميا كما سبق أرادت دولة اسبانيا
التداخل لتعصيدهم اليهود وكانت تنتظر هذه الفرصة من زمن بعيد فلم يقبل المولى حسن ذلك واستفحل
الامر بين المملكتين حتى كانت تفزع الحرب بينهما الا ان اسبانيا لما كانت تخاف من مناظرة
الدول الاوروبوية الاخرى ذات المصالح التجارية والسياسية بما كاش طلبت منهن عقد مؤتمر فى
مدريد عاصمة اسبانيا (١٢٩٧ هـ - ١٨٨٩ م) ولما عقد المؤتمر أظهر مندوبو فرنسا
وانكلترة مساعدة دولة المغرب أمام مساعدة فرنسا المملكة مرا كاش فلما تجاوزت لاملا كها
بالجزائر وتخاف من حصول ثورة ببلاد الجزائر ان هى ساعدت اسبانيا واما انكلترة فليسعى للحصول
على مر كسياسى لدى حكومة مرا كاش ومخافة أن يعزلوا قدم بعض الدول الاوروبوية بما كاش
فيكون فى ذلك خسارة عليها وتمديد البحر الزقاق لما تم اتمتلك عليه مدينة جبل طارق الحكمة على
المضيق المذكور الذى هو الطريق المهم لاملا كها الهندية ولذلك ضاعت مساعي اسبانيا هدر اولم
تستقدم من عقد المؤتمر الا القليل

وقد سعى المولى حسن من أول ولايته فى ترقية شأن بلاده وادخال ما يفيد من المنظمات
الاوروبوية فاستفاد بعض الشئ لتقوم رعيته عن قبول العوائد الافرنجية التى عم شيوخها فى بلاد
المشرق ولان الغالب منهم لا يزال على الحالة البدوية ينزلون السهول والوديان وينجعون منابت الكلال
ومن حسن تبصره أيضا انه لما رأى ان بلاد السوس الاقصى مضى عليها زمن طويل لا تعرف لاحوال
ملك المغرب الاقصى هيبه ولا تشهره بنفوذ وبعدهم سكانها باجراء الاحكام فيما بينهم من غير اليها غازيا
(١٢٩٩ هـ) وأمر القبائل بحمل الاقوات والذخائر الى مرسى الجديدة ومرسى الدار البيضاء
(١) ليحمل منها فى المراكب الى ساحل السوس الاقصى وسبب ذهابه بنفسه الى تلك البلاد ان
الاسبان يول كانوا يتطلعون لتملك بعض المراسى السوسية وكثيرا ما كانت مرا كهم التجارية والتجارية
تتردد الى تلك النواحي فتستوى أهلها باسباب التجارة ورؤساءها بالهدايا ونيل الارباح وكانوا
يسكنون اليهم ولا ينفرون منهم ولما تكلم المولى حسن فى هذا الخصوص مع سفيرهم فى طنجة احتج
بأن صلح تطاوين كان منعقدا على فتح بعض المراسى السوسية فلذلك رأى المولى حسن النهوض الى
تلك البلاد ليباشرا أمرها بنفسه ولما احتلتها جنوده أنشأ مرسى للسفن فى مكان يسمى أسا كا
وبعد أن مهد أمرها وولى عليها الولاية والقضاة وأبقى بهم الحراس تجاورها الى صحراء فيليم
فوقدت عليه هناك أشياخ القبائل وكبرائها خاصة عين مطيعين وفرحوا بمقدمه لانهم لم يكونوا هم
ولا يأتوهم من قبل رؤا يأتوهم منهم مملكة من ملوك المغرب وسبب ذهابه الى تلك البلاد أن الانكليز
كانوا استولوا على احدى مراسيمه المسماة طرفاية فلما وصلها أمر جنوده فطمسوا آثار الانكليز
بهم او فر من كان بهم تجارهم وشيدهم أسا كا المذكورة ووضع بها حامية لحفظها ثم

(١) نقر حصين أيضا من بلاد مرا كاش على البحر المحيط

قفل راجعاً الى بلاده أما الانكليز فأنهم أقاموا الحجية على ذلك وطلبوا تعويضا لما لحق تجارهم من
 الاضرار والنسأ فرفضها المولى حسن كطلبهم وبذلك انقضى الامر بين الطرفين
 وفي زمنه أيضاً بعد هذه الغزوة المذكورة أصدر امرًا بمنع جلب التبغ الى بلاده بعد أن استفتى
 العلماء وحث الناس على عدم تعاطيه ولم يصرح بإدخاله الا في مدينة طنجة بشرط ان يكون بقدر
 احتياجها سكانها من الفرنج لا غير وبينما كان المولى حسن غازياً بصحراء تانيلت (١٣١٠ هـ)
 الواقعة بالجنوب الشرقي حدثت حرب بين زناتة الريف و بين الاسبانيين من أهل مليلة وما والاها
 فتحقتهم زناتة محقا ووردوا بهم من خلفهم استنصالا وقتلا وكان السبب في ذلك أنهم اقترحوا
 على المولى حسن ان يزيدهم في مساحة أرض مليلة على عاداتهم في كثرة الاقتراحات والطلبات كلما
 رأوا فرصة خصوصا ان وجدوا تاساهلا وانما ضافا أسعفهم وزادهم من أرض زناتة نحو الغلوة وصار
 الحد المشترك بين الطرفين قريبا من تربة ولى الله وارى باش وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر شهير
 الذكر يتركون به ويدفنون عندهم موتاهم ثم ان الاسبانيين لبوا بمخاض فر عساكرهم بحل يشرف
 على تربة ولى المذكور فزادهم أهل الريف عن التخلي عن ذلك الموضوع والبناء بغيره فأبوا وأصرواعلى
 الامتناع وربما سعوا بهم بما حفظهم من الكلام المولم على عاداتهم في ذلك لان الاسبانيين منذ كانت
 لهم الغلبة في حرب تطاوين وأهل المغرب منهم في عناء شديد من كثرة ما يتعنتون ويتجنون عليهم
 ويسمعونهم من محفظات الكلام وصریح الملام لاسيما وباشهم ورعاهم واذارفت الشكاية
 بهم الى أكابرهم فغصوا بالحق وجادلوا بالباطل فلما سلكوا هذا المسلك ونحوه مع أهل الريف حصل
 بينهم وبينهم ما حصل فلما قدم المولى حسن من هذه السفارة وقد عليه سفيرا لاسبانيين يطلب
 الانصاف من أهل الريف في هذه المنازلة ودار الكلام بين الاسبانيين والمولى حسن في هذا
 الخصوص وحكم فيها من لم يكن ذا بصيرة ببعضلات التوازل من غافل أو متغافل فوقع الفصل على
 أن يدفع المولى حسن عن دماء قتلاهم أربعة ملايين من الفرنكات خلاف المصاريف العسكرية
 التي قامت بها اسبانيا ولما تم عقد المصالحة بهذه الكيفية بين الاسبانيين وملكه مراکش مما
 ظهر منه ضعفها وعدم بصيرة رجالها بالامور السياسية أرادت دولة انكليز في أواسط سنة
 (١٣١١ هـ - ١٨٩٣ م) أن تنال امتيازاً يحوها حق المداخل في مملكة مراکش فارتأت
 لذلك أمورا من طرفها يدعى السرشارل ايوان سمث وهو من رجال السياسة المبرزين لدى حكومته
 وأصبحت بلائحة يقدمها للمولى حسن الآن هذا الأمر لم يقرب بطولب حكومته وأخفق سعيه
 مع ما استعمله من أنواع التهديد والحقاء في القول زيادة عما في اللائحة المذكورة من الشروط (١) التي

(١) كانت اللائحة المذكورة تشمل المواد الآتية أولا - تخفيض تعريفات تصدير القمح والشعير
 ثانيا - حرية تصدير بهائم الركوب والنقل كالجمل والحمير والخيول والبغال الخ ثالثا - دخول
 السفن التجارية بجميع مراسي مراکش وحرية نقل التجار لمخضولات هذه السلطنة منها رابعا - انشاء المحاكم
 المختلطة خامسا - ابطال الرقيق سادسا - تحويل اتفاقية ندر يد المبرمة في (١٨٨٠ م) وتعديل
 المادة (١١) منها المتعلقة بالتصريح للاجانب بشراء الاراضي الزراعية سابعا - انشاء وكالة تفصلية
 بمدينة طنس ورفع العلم البريطاني عليها ثامنا - اعطاء امتياز بانشاء خط تلغراف بين طنجة ومغادور يتصل
 بالمدائن الموجودة على ساحل البحر ثامنا - أن يخول لشركة انكليزية الحق في انشاء سبل باسم الحكومة

لاتقبلها الادولة انحطت عن مصاف الدول بالمرّة ولا نظن الامر وصل بما كثر الى هذا الحد فرفض الشرف المولى حسين تلك اللامحة فرفضاً باتاً ومن وقتئذ فازالكونت دوييني رئيس السفارة الفرنسية او ببطحجة بترويج سياسة دولته في حكومة مراکش وكانت وفاة المولى حسين بن محمد (١٣١١ هـ) ومدة سلطنته احدى وعشرون سنة وخمسة أشهر وكان من خيار الملوك وله بالمغرب آثار باقية

وقام بالامر من بعده ابنه المولى عبدالعزيز وهو الملك الحماكم الآن على تلك البلاد نسأل الله أن يعيده بقوته وبوقته الى ما فيه صلاح أمته وكان ارتقاءه على سرير المملكة يوم الخميس ثالث ذى الحجة من شهر رعام احدى عشر وثمثة وألف وهو في وسط الشبيبة من عمره حائراً لذلك فائق ومعارف وافرة وفي أول حكمه سعى بعض أقاربه في نوال الملك وحركوا بعض القبائل فانتشرت الثورة في بعض جهات مملكته كما يحصل ذلك في أول حكومة كل ملك يحكم هذه البلاد وما ذلك الا لتقص في النظام وتأخر في تدبير الاحكام ودلالة على ميل قبائل هذه المملكة للثورة وشق عصا الطاعة عند كل فرصة مما كان سبباً في تأخرها عن مجاراة الدول في الوقت الحاضر وفتح الهن باباً للدخلة والقييل والقال حتى انه عند حدوث الثورة المذكورة بادرت انكلترة وفرنسا والمانيا وايطاليا واسبانيا والبرتغال وأرسلوا سنهم الحربية الى مياه طنجة للمحافظة على رعاياهم وحقوقهم ولما رأى عبدالعزيز ذلك وخاف اتساع الخرق اهتم بتلافي الامر سرعاً والقبض على المحركين للثورة من رعاياه وبث جنده في الجهات العاصية حتى أذعت القبائل الى الطاعة وعند ذلك عادت سفن الدول المذكورة الى بلادها واعترفت أوروبا رسمياً بسلطنته ثم قامت اسبانيا تطالب بالقسط الاول من التعويضات الحربية التي تعهد المولى حسين التوفي بدفعها بسبب حوادث مدينة مليبية أو مليلة كما تقدم وحضر لذلك من اسبانيا ما مور يدعى بالكونت دي مناوينو فدفعت اليه مراکش مطلوبه ثم سعت فرنسا بعد ذلك في نوال الحق بأن يكون لها بمدينة فاس وكيل سياسي فنالت غرضها في ذلك ولم يكن قبل ذلك لدولة من الدول الاوروية وكيل سياسي بقاس بل كانت القناصل لا يصرح لها بالاقامة في غير مدينة طنجة ولما ثبت قدم المولى عبدالعزيز اراهم كثيراً في تحسين علاقته مع الدول الاوروية وفي تنظيم جيش قوى للمملكة وادخال المنظمات التي تساعد على حالة البلاد وقد ظهر منه هذا الميل عند ما اشرف مندو بودول أوروبا بما قبلته بعاصمته حتى الله له ما يريد وأعانته على وقته

أما من خصوص القوة العسكرية له هذه البلاد فان لها جيشاً دائماً من تيمان حرس منهم خيالة يقال لهم مخزنية يبلغ عددهم أربع مائة فارس وهم يتألون مرا كزهم بالورائة وجيش من الرجالة يؤخذ من بين الاهالي بالقوة يسمى بالعسكر يبلغ عدده ١٠٠٠٠٠ رجلاً وفرقة من الخيالة الغير المنتظمة يبلغ عددها ثمان مائة ألف من الرجالة و ٨٠٠٠٠

المراكشية عاشر - انشاء فرق من البوليس بمدينة طنجة برأسها الضابط الانكليزي المستر آلن مكليين الحادي عشر - اعطاء امتياز عمياء طنجة الثاني عشر - انشاء سوق عمومي ومذابح عمومية بمدينة طنجة الثالث عشر - اعطاء الحق للانكليز بتشييد الحصون الحربية على هضبة جبل مارشاق الرابع عشر - اعطاء امتياز قطع ثمر الجبلين الموجود بظاوين والعراش لاحد رعايا جلالة الملكة الخامس عشر - التنازل للدولة الانكليزية عن عدة اراضي تشيد فوقها ماء البريد الانكليزي ومكاً للسفارة هذه الدولة بطنجة السادس عشر - اعتراف السلطان بسيادة دولة الانكليز على رأس جوني التاسع لمرأكش ٨٥ عن المؤيد الصادر في ٢٤ م سنة ١٣١٠ عدد ٧٦١ تقلاع عن جريدة بقظة مراکش

من الخيالة وعلى ذلك يكون مقدار الجيش بأجمعه في وقت السلم نحو ٣٠,٤٠٠ نفر وهذه الجنود معقاة من جميع الاداء للدولة وهم مع غيرهم من القبائل القاطنون بمحايطها مع اعطاء الدولة اليهم المعاشات والسلاح والخيول وعلى بقية القبائل زيادة عن الزكاة والعشراين يدفعها للدولة بمقادير معينة من الخيل أما عند حدوث الحرب فيلزم جميع المملكة أداء ما يحتاج اليه من الكراع والذخيرة ولا زال سلاحهم على الطرز القديم وكذلك حركاتهم العسكرية الا انه منذ نحو ثلاثين سنة ابتدؤا بتنظيم العسكر على الطرز الجديد كما سبق ذكر ذلك والفواجيشا يتحوى على ١٦,٠٠٠ نفر وكان معلوم من عساكر تونس وليكنه تبديدهم وبأغلبه لكن المولى حسن أخذ في تنظيم جيش آخر على مقتضى الطرز الجديد وهو الجيش المذكور في أول هذه الفقرة

أما القوة البحرية فقد انحطت كثيرا بهذه المملكة حتى لم يعد لها الا من هاشى أصلا خلاف طراد طر يمدى من الفولاذطوله سبعون مترا وعرضه عشرة أمتار وجولته ألف ومائتا طنوبيلاطة وقوته البخارية تعادل ألفين وخمسة مائة حصان وسرعته في الساعة ثمان عشرة عقدة وبه أربعة مدافع من عيار اثني عشر ساينتيترا ولها مركب أخرى من ذوات الرفاس طولها سبعة وثلاثون مترا وعرضها احد عشر مترا وجولتها ألف ومائة وأربع وستون طنوبيلاطة وقوة آلاتها تعادل مائة وأربعين حصانا وسرعتها نحو عشر عقدة في الساعة وتسمى احسانية أما الإهالي فلاشغالهم بالتجارة في جميع أقطار الدنيا تقريرا كان لكثير منهم مراكب شرعية تجارية وقد امتدح مؤرخو الفريج وكاتبهم نشاط أهل مراکش واستعدادهم القطري للسير في البحار واقتحام أهوالها وهذه ولاشك صفات ورثوها من أجدادهم الذين نالوا الثمرة النامية في سير البحار والغز وفيها ولولا التقت هذه البلاد بتوفيق الله الى حالها البحرية لا مكنها أحداث قوة بحرية عظيمة تعيد بها مجدها السابق وعزها القديم وما ذلك على الله بعزيز خصوصا وان بلادها واقعة على بحر ين عظيمين من أكثر بحار الدنيا مواصله وتجارة سيما وبشواطئها مرافئ وفرضات عظيمة آمنة للسفن وبجبالها غابات ومعادن كثيرة بما تكون كافية لها من أن تحتاج الى البلاد الاخرى لولا استغلتها

الباب الحادي عشر

بلاد الجزائر

(الفصل الاول)

وصفها الطبيعي ونغورها البحرية

وصفها الطبيعي - تحدها هذه البلاد شمالا بالبحر المتوسط الابيض وشرقا بتونس وغربا بمراكش وجنوبا بالصحرى الكبرى وحدودها على العموم ليست معينة جيدا وتخترقها جبال الاطلس من الغرب الى الشرق وأهم أنهرها وادي شلف وطوله نحو مائتي ميل وهو يصب في البحر المتوسط وأما

الانهر التي تجري من الجهة الجنوبية من جبال أطلس فتغور في الصحراء وليس منها ما يصلح لسير السفن وتتضب مياهها تقريرا في الصيف الا انها تنفيض في الربيع وتكسب الارض خصوبة وأكث من نصف هذه البلاد صحار بها واحات كثيرة خصبة وقد زاد عددها واحات بالآبار التوازية التي حفرها الفرنسيون وهواء الجزائر على الاكثر حارا لأنه لا يشتد الا متى غلبت ريح السموم التي تهب من الصحراء ومن حاصلاتها الحبوب بأنواعها والتمار والازهار وتكثر بها الحيوانات الالهلية من جميع الأنواع وبها كثير من الحيوانات المفترسة أشهرها الاسد والفهد والثور ويستخرج من شواطئها بالقرب من مدينة بونة المرجان وتنقسم هذه البلاد اداريا الى ثلاث مقاطعات وكل مقاطعة الى عمالات أما المقاطعات المذكورة فهي الجزائر ووهران وقسطنطينة ويبلغ مسطحها (١٥٠٥٦٨) ميلا مربعا ويبلغ عدد سكانها أربعة ملايين من النفوس تقريرا غالبيتهم أهل اسلام وبينهم كثير من الاوروبيين واليهود البالغ عددهم نحو (٢٥٠٠٠) وهم أكثر طبقات الاهالي غوا ولا يزال بداخمية هذه البلاد آثار قديمة كثيرة خصوصا بولاية قسطنطينة وكانت ادارة هذه البلاد سنة (١٨٥٩ م) بيد وزارة خصوصية الا انها ألغيت سنة (١٨٦٠ م) ثم جعل لها حكم عام عسكري تخضع له جميع الحكام الملكيين والعسكريين ولما قامت الجمهورية بفرناس سنة (١٨٧٠ م) جعلت لها حكم ملكيا وقد كان لسكان هذه البلاد شهرة عظيمة في التلصص البصري حتى أوقفوا الرعب في قلوب ممالك أوروبا والبحرية ولذلك كان كثير منهم يدفع لاهلها مبلغا كل سنة في مقابل عدم التعرض لسفنههم التجارية وغيرها التي تجول في البحر المتوسط الايض فكانت بذلك في الاعصر الوسطى وأول الحديثة من أشهر الممالك البحرية كما سيأتي ذلك

تغورها البحرية - مدينة الجزائر وهي أهم وأعظم مدن هذه البلاد يبلغ سكانها ٧٥٠٠٠ نفس وكانوا مدة العثمانيين مائة ألف وهي مدينة حصينة مبنية على هيئة مدرج وأهم ثغر للحظ والترحال بتلك البلاد يتردد عليها كثير من السفن التجارية وهي عاصمة بلاد الجزائر ومقر الحاكم العمومي ورأس المقاطعة المنسوبة اليها مبنية على السفح الشمالي من جبل بوجادين ولذلك كان منظرها جميلا جدا ومما يزيد جمالا يابض بيوتها الباهر فانهما قائمة على مساطب على جانب الجبل ويقال ان أول من اختط الجزائر الامير بلكين بن زيري وفي المدينة منارة للسفن ومسلحة ودار صناعة وكثير من الجوامع والحمامات والمعاقل ومرساها أمين جدا وأول من أنشأ خير الدين باشا باروس (١٨٣٧ هـ) وقد أصلحه الفرنسيون (١٨٦٢ م) ثم انشئت طريق حديدية من الجزائر الى مدينة البليدة طولها ٣٠ ميلا وسلك برقي بين الجزائر وفرنسا وقد صارت مدينة الجزائر الآن من أعظم مراكز التجارة حاصلاتها الحبوب والصوف والجلود والتبغ والحديد والنحاس والمرجان والوارد اليها البن والسكر والخمر والارواح والاقشة وقد ذكر ابن خلدون هذه المدينة وقال انها كانت من أعمال صنهاجة ومختطها بلكين بن زيري فنزلها بنوه من بعده ثم صارت للموحدين وانتظها بنو عبد المؤمن في أمصار المغريين واقر بريمة ولما استبد بنو أبي حفص باهر الموحديين وبلغت دولتهم بلاد زناتة وكانت تلسان ثغر الهم واستعملوا عليها ولاتهم كان العامل على الجزائر من الموحديين أهل الحضرة وقال ياقوت كانت من حواضر بني حماد بن زيري بن مناد الصنهاجي وتعرف بجزائر بني من غنان أو من غنة

وهو هيران وهي نغر حصين وقاعدة المقاطعة المضافة اليها بينها وبين مدينة الجزائر طريق حديدي واقعة في منتهى خليج وسكانها نحو ٦٠٠٠٠ نفس غالبهم من الاور وباوين وقد بنى مينائها التجاري (١٨٥٧ م) وكانت السفن ترسو قبل ذلك على المرسى الكبير الذي يبعد عن هيران بنحو ثمان كيلومترات الى الشمال الغربي وبقربها معادن عظيمة لاستخراج الرصاص وقد أسس هذه المدينة عرب الاندلس حينما طردهم الاسبانيون على اطلال مدينتين قديمتين واستولى الاسبانيون على هذه المدينة من (١٥٠٥ - ١٧٩١ م) وحصنها تحصينا عظيما

وفيليب فيل وهي مدينة حصينة واقعة عند مصب الوادي الكبير وسكانها نحو ١٩٠٠٠ نفس ويكثر بزواحيها غابات شجر الفلين ومقالع حجر الجرانيت وتصل مع مدن بلاد الجزائر العظيمة بطريق حديدي وكان تأسيسها من الملائكة لويس فيليب الاول (١٨٣٨ م) على اطلال مدينة قديمة رومانية

وبونيه او عنابة وهي واقعة بمقاطعة قسنطينة على البحر المتوسط وكانت تسمى قديما هيون أسست في أواخر القرن السابع للبلاد وكان لشركة افرريقية الفرنسية بيه هذه المدينة زلة تجارية من زمن لويس الرابع عشر (١٧٨٩ م) وينسب اليها جماعة من أهل العلم منهم أبو عبد الملك مروان بن محمد الاسدي البوني فقيه مالكي أصله من بلاد الاندلس له كتاب في شرح الموطأ توفي (٤٤٠ هـ) قاله ياقوت وبهذه المدينة عند حديد وهي من بلاد الجزائر المشهورة واقعة على مسافة كيلومتر واحد من نهر كبير يصب في خليج باسمها ولها تجارة واسعة في الحنطة والجلود والعناب فلذلك أطلق عليها عنابة أيضا وموقعها حسن لانه مركز حربي عظيم الاهمية فانها شبيهة بقضية عظيمة بين رأسين ممتدين في البحر الى مسافة بعيدة لكنها ليست برفأ أمين للسفن وقد تعطل بها (١٨٣٥ م) أربع عشرة سفينة منها ابريق حربي وهو أوها غير جيد للصحة وماؤها رديء وكان يهاني أيام الاتراك سبع عيون ولم يبق منها الا الآن العين واحدة ويستعين أهلها بأمعاء المطر يخزنونه في الصحاري والبعض يجلب الماء من مسافة بعيدة وسكانها نحو ٢٢٠٠٠ نفس

وارزف وهي نغر بحري بمقاطعة وهران على خليج مضاف اليها وتسمى قديما پورتوس ديوييني وكذا ارسيناديا وتعتبر أحسن نغر طبيعي في بلاد الجزائر وبقربها ملاحات مهمة وتخرج منها طريق حديدي ومن صادراتها الخلفاء ويبلغ سكانها ٦٠٠٠ نسمة وتسمى الفرنسية يون أرزو وبها آثار رومانية جميلة وصهاريج متسعة وهي مركز للجيش الفرنسي

متغانم وتسمى قديما كارتا وهي من أعمال وهران واقعة على مسافة قليلة من البحر قريبا من مصب شلف يبلغ سكانها ١٢٠٠٠ نفس ولهذه المدينة قلعة حصينة ويقسمها نهر عين صفرة الى قسمين ولها تجارة واسعة في الثمار الجافة والحبوب والجلود استولى عليها الفرنسيون (١٨٣٣ م)

تمس أو تتر نغر صغير على البحر المتوسط لا يزيد سكانه عن ٤٠٠٠ نسمة وهي بمقاطعة الجزائر وبقربها كثير من الاطلال الرومانية احتلها الفرنسيون (١٨٤٣ م) وبقربها مناجم

تحاس يستغل الآن وتنس الحديدية وهي على مسافة كيلومتر من القديمة وقال أبو عبيد البكري بين تنس والبحر ميلان وهي آخر افرقية مما يلي الغرب بينها وبين وهران ثمان مراحل والى ميلانة في جهة الجنوب أربعة أيام والى تاهرت خمس مراحل أوست وهي مدينة مسورة حصينة داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة وهي على نهر يأتيها من جبال على مسيرة يوم من جهة القبلة ويستدير بها في جهة الشرق ويصب في البحر وتسمى تنس الحديدية وعلى البحر حصن ذكر أهل تنس أنه كان القديم المعمور قبل هذه الحديدية وتنس الحديدية أسسها وبنائها الملاحون من أهل الاندلس (٢٩٢ هـ) وسكنها فريقان منهم من أهل البيرة وأهل تدمير وأصحاب تنس من ولدا إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وكان هؤلاء الملاحون من أهل الاندلس يشتون هناك اذا سافروا من الاندلس في مرسى على ساحل البحر فيجتمع اليهم بر ذلك القطر فرغبوهم في الانتقال الى قلعة تنس وسألوهم أن يتخذوها سوقا ويعملوها سكنافن وقتئذ زادت ثروتها واصلح لهم فيها أربعة مائة بيت وهي الآن أجمع عما كانت عليه قبلا وبها اقلناة رومانية أصلحت وجر فيها الماء في مسافة خمسة كيلومترات وفيها منابع ويقال ان أهلها القدماء اشتهروا بالسحر وان منهم كان صحرة مصر في أيام فرعون موسى عليه السلام

وشرشيل وتسمى قديما إيول وجوليا كوساريا وكانت قاعدة قسم من أقسام موريتانيا وقد خربها الوندال ثم العرب ثم أعاد بناءها عرب اسبانيا المهاجروا بلادهم وقد بلغت اذذاك درجة عظيمة استولى عليها اندريادوريا الاميرال الاسباني في الشهر (١٥٢١ م) ثم الفرنسيون (١٨٤٠ م) وبقرها اطلال رومانية عظيمة ويبلغ سكانها ٦,٠٠٠ نفس وريلي وهي نغر صغيرة على البحر المتوسط سكانه نحو ١١,٠٠٠ نفس وبقرها اطلال رومانية وقد حصنها الفرنسيون الذين احتلواها (١٨٤٤ م) ومن صادراتها الجيوب والثمار

بجيلة وهي مقاطعة قسطنطينية واسعة المرفأ أمينة لها جون يدعى سيدي يحيى من أحسن مرفأ الجزائر عمقه من اثني عشر الى عشرين مترا واقع بين رأسى كالفالو وكاريون قرية من مصب نهر صمام أو وادي الساحل يشقه نهر يقال له وادي الابرارز وللمدينة عدة قلاع لحمايتها ولها تجارة واسعة في الزيت والحبوب والشع والاصواف وكانت ذات أهمية عظيمة زمن الرومان ووصلت في القرون الوسطى مدة العرب الى درجة سامية وحصنها تحصينا منيعا ثم استولى عليها الاسبانيون (١٥٠٩ م) وبقيت في يدهم ٤٥ سنة وحصنها شارلكان (١٥٤١ م) ثم استولى عليها العثمانيون (٩٦٣ هـ) ثم دخلت في حوزة الفرنسيين (١٨٣٣ م) وسكانها يبلغون الآن ٥,٠٠٠ نسمة وورد في كتب العرب أنها بنيت سنة (٤٥٧ هـ - ١٠٦٤ م) بناها الناصر بن حماد بن زيري بن مناد بن بلكين وكانت قاعدة بني حماد وسميت الناصرية بقصد هدا الناس برا وبحرا حتى أترى أهلها واشتهروا في التجارة بالغرب والشرق وكان يهادر صناعة لكثرة أخشابها وكان من صادراتها الحديد المستخرج من معادنها والادوات اللطيفة والثمار والحبوب والزيت والشع المسمى بالفرنسوية باسمها (بوجي) (Bougie)

وكول ويسمى الفرنسيس كولو وتسمى قديما كلويس ماجنوس وهي نغر بجري بمقاطعة قسطنطينة ولها مرسى جيد وبقربها مناخ مهممة لاستخراج الحديد وكانت مدينة زاوية زاخرة مددة الرومان والوندال واستمرت زمانا طويلا مستقلة بين أمراء تونس وقسطنطينة وكان لها تجارة مع البندقية وجنوة وغيرهما استولى عليها العثمانيون (١٥٢٠ م) ثم الفرنسيس (١٨٤٣ م) وسكانها يبلغون ١٢٠٠ نسمة

جيجلي بلدة حصينة بمقاطعة قسطنطينة شرقي بجاية وتسمى قديما بجيجياس وكانت من كرا مهممة للتجارة ونخر بها الزلازل (١٨٥٦ م) ولها قلعة حصينة ذات أسوار وأبراج وحول مرفأها خط من الصخور ممتد من الشرق الى الغرب يحميه من رياح الشمال وينتهي هذا الخط بصخور مرتفعة على احدها منارة لهداية السفن وقد شرعوا في سد الفتحات الكائنة بين هذه الصخور وتشيد رصيف عليها يمكن للسفن العظيمة أن ترسو في فرضتها البالغ عمقها عشرون مترا وكان استيلاء الفرنسيس عليها سنة (١٨٣٩ م) ولها تجارة واسعة وبسواحل الجزائر مرسى أخرى ليست مهمة مثل مرسى الزيتون وغيرها

(الفصل الثاني)

تمهيد تاريخي

كانت هذه البلاد الى (١٨٣١ م - ١٢٤٧ هـ) قسما من أقسام المملكة العثمانية وهي واقعة في شمالى قارة افرىقية بين تونس شرقا ومرزا كش غربا قال المؤرخون ان أقدم أهالى الجزائر الذين وصلت اليها أخبارهم هم من النور مننديين والمغاربة من قبائل زناتة وصنهاجة وغيرهم ممن بطون البربر والاولون منهم كانوا يسكنون المقاطعات الجبلية من الشرق والمغاربة كانوا يسكنون في الغرب حيث شيدوا لهم مدنا كثيرة زاخرة في السواحل كان بينها وبين أوروبا تجارة عظيمة وفتح الرومان هذه المملكة بعد استيلائهم على قرطاجنة (١٤٦ ق م) ثم شيدوا فيها عدة حصون لصيانتها من القبائل الجبلية البربرية التي كانوا يخشون بأسها في تلك الأزمان ولا يزال يوجد لآن بعض اطلال هذه الحصون وبعد أن تقلص ظل الرومان من تلك الجهات استولى الوندال عليها وبقيت في يدهم الى (٥٣٤ م) ثم افتتحها القائد الشهير بليزير أو بليسار بوس للإمبراطورية الشرقية وفي خلال ذلك كان يصيبها من الضعف والقوة والفشل ما يصيب دولة القسطنطينية وما زالت على ذلك حتى خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى أذن لعبد الله بن سعد عامله على مصر أن يتقدم بالفتوحات الافريقية فزحف اليها (٧٨ هـ) بقوة مركبة من نحو عشرين ألف مقاتل وبعد وقائع دموية استولى عليها كما تقدم بيانه في تاريخ العرب ومرزا كش وفي ولاية عقبه ابن نافع افتتح المسلمون غيرها من ممالك تلك الاطراف وقد اتخذ العامل المشار اليه مدينة القيروان من أعمال تونس حصنا يحمي به وقت الحاجة ويحفظ به الاموال والذرارى وغيرها

ومن تاريخ الفتح الاسلامي المذكور أخذ أهالى تلك البقاع في السير في طريق المدينة فحسنت أحوالهم وتمذبت طبائعهم واستنارت قرائعهم وعلت مداركهم باعتناقهم الديانة الاسلامية أما طوائف البدو والرحل فبقوا في الجبال على حالهم البربرية الى أن اتسعت فتوحات الخلفاء من بني

أمية بدخولهم اسبانيا التي شيدوا فيها دعائم حكومة من أضخم الحكومات غزوا ثروة وحضارة وبقيت هذه البلاد من أطوار بلاخاضعة لسلطنة الخلفاء الامويين الى أن ظهرت الدولة العباسية التي في عهدها صارت بلاد الجزائر بلادا مستقلة تحت سلطنة الدولة الزيرية المنسوبة الى يوسف بليكين بن زيري بن مناد الصنهاجي وهي الدولة التي استبدت فيها من (٩٧٠ م - ١٠٣٦ هـ) الى (١١٤٨ م - ٥٤٣ هـ) ثم استظهر على الجزائر روجير الثاني النورماندي ملاك صقلية وفي (١١٥٩ م - ٥٥٤ هـ) استولت على الجزائر دولة الموحدين المرابطينية وفي أيامها كانت سواحل الجزائر مملوءة بالاساطيل القوية الشهيرة وكان لها شأن عظيم في البحر المتوسط الابيض وكانت تجتمع بغمر بجاية وبقيت الجزائر تحت سلطنتهم الى سنة (٦٦٩ هـ) حيث تغلبت دولة بني زيان أصحاب فاس عليها وطردها الموحدين منها ونزلوا تلمسان واتخذوها دار الملكهم وكرسوا سلطانهم فشيدها فيها القصور وغرسوا الرياض والبساتين وأجر واليهام المياه الوفرة فأصبحت من أعظم أمصار المغرب ثم أخذت نيران الحرب تشتعل بين دولة بني زيان الصنهاجيين المذكورة وبين الاسبانيول الذين توالت انتصاراتهم في المقاطعات الاندلسية وفي خلالها هاجر كثير من عائلات المسلمين واليهود من الاندلس وسكنوا الجزائر (١٥٠٦ هـ) وبالتحديد مع أهلها المشهورين في سلك البحار أخذوا في تعقب سفن النصراري خصوصا الاسبانيول منهم لما أتوهم معهم من الاعمال الوحشية والافعال البربرية وبذلك تكدر صفو البحر المتوسط الابيض واستحال السير فيه على سفن أهل أوروبا وانتشر التلصص في جميع جهاته ولذلك استولى الاسبانيول على مدينة بونة (١٦٧ هـ) لحمايتها تجارهم وفي سنة (٩١٥ هـ) استولى الكرديتال كسيمينيس الاسبانيول على وهران ثم على مدينة الجزائر وبذلك صارت كل البلاد خاضعة للاسبانيول وقد أنشؤا هناك معاقز وحصونا ولكن قبل موت ملكهم فردينند بقليل (٩٢٢ هـ) استدعى أمير بلاد متيجة (١) لمساعدته أروج بارباروس رئيس القرصان الذي اشتهر وقتئذ بأعماله في البحر المتوسط فطرده هذا الرئيس الاسبانيول من مدينة الجزائر كما هو في الفصل الآتي

(الفصل الثالث)

عائلة بارباروس واستيلاؤها على الجزائر

انه بعد أن ظهرت هذه العائلة وعلازكرها واشتهر اسمها كما سيأتي في تاريخ الدولة العثمانية قصد أروج قبودان أخو خير الدين مدينة تونس باسطول عظيم فعقد مشروطا مع سلطانها محمد الحفصي ليتنازل له عن ثغر بجزيرة قايه سفنه وأن يعطيه في مقابله ذلك الخمس ما يعتق منه من حروبه البحرية فقبل الحفصي ذلك ثم لحقه أخوه خير الدين بسفائن أخرى بعد قليل نخرج الاثنان وأخذنا في التجول في البحار والغزو يهددان السفن الاسبانيولية واليتاليانية وغيرها ويستولون عليها وعلى ما فيها كلما سمحت لهم الفرص فوقع الرعب في قلوب الاسبانيول خصوصا وفي (٩١٨ هـ) تقدم

(١) متيجة سهل عظيم بمقاطعة الجزائر جنوبي سلسلتي جبال اطلس ولشهرته بالخصوصه والابيات سماه العرب أم القبر وبه عدت مدن منها بونابو وبن مريد وجوانفيل وغيرها

أوروج قبودان المذكور باربعة سفائن واستولى على قلعة بجاية من يد الاسبانيول الا انه جرح في الحرب فأرسله أخوه خير الدين الى تونس للعلاج وتأس هو على الاسطول بتفردته ثم قصد سواحل اسبانيا فهاجمها وخلص منها عددا عظيما من مهاجري العرب وضمهم الى قوته وبذلك تقوت عساكره ثم قصد جزيرة منورقة وضرب قلعتها واستولى على ما بها من الآلات والاموال وعلى كثير من السفن الاسبانية ثم عاد بالجميع الى تونس ظافرا غنائما وزاد سرورهما وجدأه شقي من جراحاته فتم تقاسم الاموال بعد اخراج ما يخص أمير تونس حسب المشاركة وفي اثناء ذلك أعدت جمهورية جنوة اسطولاً عظيماً وأرسلته للتجول في البحار فالتاقي مع خير الدين المشار اليه ولما اشتبك القتال بين الاسطولين انتصر اسطول خير الدين على الاعداء واغتنم منهم ستة سفائن بما فيها وأحرق لهم قدرا وافرا من سفنهم ثم عاد بغنائمه الى ميناء جربة للاستراحة واصلاح ما لحقه الضرر من سفنه (١٥١٣ م - ٩١٩ هـ) وفي التي بعدها خرج أوروج قبودان وأخوه باسطولهما وهددا كثيرا من الجهات وأخيرا هاجما قلعة جيبلي بسواحل بلاد الجزائر وكانت بيد الجنويزيين وساعدتهم قبائل العرب بالحنقههم من سوء معاملة حاميتهم فتمكنوا من فتحها واغتنام جميع ما بها ثم ان خير الدين انتخب من الغنائم ثنائس مما يليق تقديمه للملوك وشحنها في سفينة وأرسلها الى الاستانة مع مفتاح القلعة المذكورة هدية الى السلطان سليم وفي خلالها مات أوروج قبودان واستقل أخوه خير الدين بالامر وبلقب بارباروس وبعده هذه الانتصارات اتفق القبودان المذكور مع قبائل من العرب والرئيس سليم التمي الشهير أمير بلاد متيجة على الاستيلاء على مدينة الجزائر وكانت بيد الاسبانيول فتقدم بسفنه بجرا بعد أن أخرج منها بعض الرجال الى البر وهاجم المدينة المذكورة من كل جانب وبعده محاربة دموية استولى على قلاعها عنوة ثم سلبت له المدينة صلحا وفي خلال ذلك مات سليم التمي المذكور مسموما مخاف ولده من الهيجان الذي كان حاصلا اذ ذلك وهرب الى اسبانيا ومن هذا الوقت صارت الجزائر في قبضة خير الدين المشار اليه

وروي مؤرخو الافرنج انه في (١٥١٦ م - ٩٢٢ هـ) أي قبل موت فردينند ملك اسبانيا هاجم أوروج بارباروس مدينة الجزائر وطرده الاسبانيول منها ثم قتل أمير متيجة سليم السابق ذكره واستولى على المدينة المذكورة والبلاد التابعة لها ولم يرض الا القليل حتى استطهر على تونس وتلمسان (١٥١٧ م) ثم قهره الاسبانيول وقتلوه (١٥١٨ م) فطلب أخوه خير الدين الذي خلقه مساعدة السلطان سليم الاول بعد أن اعترف له بالطاعة فأقامه السلطان سليم وزير المدينة الجزائر وأرسل لمساعدته فرقة من العساكر العثمانية واسطولا من الاساطيل التي كانت تجوب البحار تحت امارة قواد عثمانيين وبذلك تمكن خير الدين من دفع قوة الاسبانيول ومن جعل نفسه صاحب الكلمة النافذة ببلاد الجزائر وكان خير الدين اوفر حظا من أخيه لانه لم يقع في أيامه ما وقع في أيام أخيه من الاضطرابات بجرب الاسبانيول لاشغاعهم اذ ذلك بجرب في أوروبا فتمكن خير الدين من ترتيب أمر السياسة والضبط والربط ببلاد الجزائر ترتيبا غريبا ووصفاله الجوفي الغزو وفي البحار بالعزم الزائد والقوة التامة وزاد في فتوحاته ووسع في مملكة الجزائر بداخل أفريقيا فاختد شهرته تترايد وصيته ينمو

الفصل الرابع

خضوع سواحل البربر للعثمانيين

لم تدخلت بلاد الجزائر (١٥١٧ - ١٥٢٣ هـ) في قبضة السلطان سليم وانتشر خبر ذلك بين شعوب العرب بتلك الاصقاع أخذ عرب الاندلس يسترحمون من الدولة العثمانية مساعدتهم على الاسبانيول وانفق في تلك الاثناء وفاة السلطان سليم (١٥١٩ - ١٥٢٦ هـ) وجلس السلطان سليمان اناطوني بعده على التخت ولما عرضوا عليه الاسترحام المذكور رفق لحال المسترحمين وصمم على ارسال حملة لمساعدتهم وتخليصهم من ضيقهم ولما تم الخبر الى حكومة اسبانيا أخذ شارلكان ملكها يسعى في محالفة امراء البربر ونسبانات أعدائه ومحالفة فرانسوا وكانت من الأدخه ومعه ذلك فان السلطان سليمان أرسل من قبله القبودان سنان باشا للاستطلاع رأى خير الدين في ذلك ودعوته الى الحضور الى الاستانة فاشاعت اسبانيا عند ذلك قصدا أنها عزمت على مهاجمة الجزائر وكان بليمان الجزائر سبعة آلاف من أسرى الاسبانيول وغيرهم فلما علموا بهذا الخبر طاروا فرحوا وهاجوا وماجوا وترددوا وكانت اسبانيا تقصد من ذلك منع خير الدين من الذهاب للاستانة ليقع الخلل في المناسبات والروابط التي تجمع خير الدين بالدولة العثمانية ولكن خير الدين أطاع الامر ورأى أن من المصلحة العمومية اعدام أولئك الاسرى لئلا من غائلتهم وكان من ضمنهم ابن ملك جزيرة رودس ولما تم ما عزم عليه أخذ يقوى استحكامات الجزائر ويزيد في قلاعها يظهر أتم الطاعة للسلطان ثم عين أميراً يقوم مقامه أثناء غيابه يدعى حسن أغا الطواشي وكان من مشاهير الرجال خافته سكان شواطئ أوروبا وكسر للفرنج عدة أساطيل قوية أما خير الدين فانه بعد أن أوصى وكيله هذا بما يجب اتباعه ضمن أربعين سفينة بالهدايا وأقلع بها بقصد الاستانة وفي أثناء ذهابه عرج على صقلية لأخذ الميرة منها وغزا بعض السواحل التابعة للجنوزين وضبط بعض سفن قرصانية للفرنج ثم عرج على فرضة ناوارين حيث قابل القبودان أحمد باشا أمير الاساطيل العثمانية المرسلة لامداد قلعة قورون ثم أقلع منها ولما وصل القسطنطينية عرض خضوعه على السلطان سليمان وسلم له مفاتيح مدينة الجزائر فأكرم السلطان وفادته وبالغ في اكرامه وأسكنه بسراى أحمد باشا الكائنة في أت ميدان وأنعم عليه بلقب باشا وأخذ خير الدين باشا يفاوض وزراء الدولة في أمر الاسبانيول وصدر له الامر بمقابلة الصدر الاعظم ابراهيم باشا لهذا الخصوص وكان الصدر بمدينة حلب فذهب اليه وفاوضه ثم عاد الى الاستانة وأمر السلطان بأن يجهز وخير الدين باشا أسطولاً عظيماً حاربياً ليضمه الى سفنه ولم يرض زمن طويل حتى تجهزت السفن المذكورة وما يلزمها من الاسلحة والجنود وكانت إحدى وستين سفينة

ضميمة شارلكان في حطمة على الجزائر - بينما كان خير الدين باشا بالاستانة انتهز شارل الخامس أي شارلكان الفرصة للاستيلاء على الجزائر ثانياً لانه عاد مهزوماً في خبر طويل وقدرى بعض مؤرخي الفرنج ذلك بما معناه قال لسنوات انتهات خير الدين ووكيله حسن أغا بالجزائر على أساطيل الفرنج بالبحر المتوسط وامتدت اغاراتها على جميع شواطئ أوروبا والجنوبية بنقل صل ظل

الفرنج وخافوا على تجارتهم وأساطيلهم وتعددت الشكايات من رعاياها لكان مضمونها ان
مصالحه وشعائر المروءة توجب عليه ان يجمع أهل الجزائر التي صارت منذ محاربة شارل كان
لتونس مأوى لارباب الصيال وان يقطع دابر هؤلاء المتغلبين أشد أعداء الفرنج وبناء على ذلك
أوطم عامنه في ازدياد خاره الذي حازه بانتصاره في المرة الاولى على بلاد أفريقية أصدراً أمره قبل
سفره من مدريد الى بلاد هولاندة واطاليا وغيرهما بتسليح الاساطيل وجمع جيش قوى ولم تقتر
همته ولم يصغ لقول نصحاؤه من ان الواجب عليه الاهتمام بالمدافعة عن بلاد الامبراطورية
ولا استهزاء أعدائه به حيث كانوا يقولون انه لعدم اقتداره على مقاومة السلطان شرع في الذهاب
الى بلاد أفريقية وغير ذلك فمؤثر فيه هذه الاقوال وان كان في الحقيقة دون السلطان شوكة
وقوة ولم يلتفت أيضاً الى نصح البابا له ولا الى نصح الامير اندريادور بالقائد البحري الشهير الذي كان
يلج عليه بعدم السفر وبفهمه انه يخشى على الاساطيل اذا دنت من سواحل الجزائر لاشتداد أرياح
فصل الخريف الا انه لما كان من طبعه عدم العدول عما صمم عليه لم يلتفت الى قول البابا ولا الى
قول اندريادور لم ينشأ عن ذلك كله الا زيادة التصميم على هذا الغرض وكان عدداً للجيش الذي أخذه
شارل كان ٢٠,٠٠٠ راجل ومن الخيالة ٢,٠٠٠ مابين اسبانية واطالية والمانية وكان أغلب
هؤلاء الجنود قد مارسوا الحروب وعر كوا الخطوب وبرعوا في الخيل الحربية والدقائق العسكرية
وكان مع الامبراطور أيضاً ٣,٠٠٠ من أعظم أشراف اسبانيا واطاليا اختاروا السفر معه بمحض
ارادتهم ليقاسموه الفخر ولما كانت طائفة فرسان مالطة تود بحقوة الاسلام براو بجزاير تدأب
في ذلك ليلاً ونهاراً أمدت الامبراطور لما علمت بتجريدته هذه نحو ألفين من جنودها معهم نحو
المائة من أبطال هذه الطائفة ولما دنا الامبراطور باسطيله البالغ عددها ٣٧٠ سفينة
اشتدت الرياح وهاجت العواصف وبعدهم كعبدة المشاق سكن الهوا مئة يسيرة فانهز
الامبراطور تلك الفرصة وبادر باخراج عساكره الى البرقر ببا من مدينة الجزائر ولم يمانعهم أحد
في خروجهم وللحال سارت تلك الجيوش تقصد مدينة الجزائر ولم يكن عند أميرها حسن أعان التقدم
الذكر من العساكر سوى ثمانمائة من البيكجيرية و ٥٠٠ من الاهالي نصفهم من الجزائر
والنصف الآخر من غرناطة ومع ذلك فانه رد طلب الامبراطور بالتحجير والكبر باع حينما طلب
منه التسليم ثم ان حسن أعان مهارته وتبذره ونشاطه خرج مع عساكره ولما التقى مع عسكر الفرنج
قاتلهم وبعده من قليل هزمهم وبدد منهم وقاتل منهم عدداً عظيماً وأودع في قلوب الباقي الرعب
ثم عاد وعساكره في غاية الانتظام والترتيب وقد أعقب دمار الجيش بالبر دمار الاساطيل بالبحر حيث
قامت زوبعة شديدة فاقطعت السفن من مراسيها وتكسرت بتصادمها مع بعضها أومع الصخور
وقذفت الامواج كثيراً منها الى البر وابتلعت بعضها وبذلك ضاع من السفن الحربية العظيمة خمس
عشرة سفينة ومن سفن النقل مائة وأربعين سفينة وغرق من الرجال ثمانية آلاف كانوا هم ومن
حاول النجاة منهم وعام حتى وصل الى البر ذبحه العرب ولم يرئوا حاله أما الامبراطور فكان يتظر الى هذه
الاحوال بعين الحيرة والدهشة ولم يتمكن من فعل شيء سوى انه نخلص بعض الجنود الذين وصلوا الى البر
من قبضة العرب ثم اضطر للرحيل لنفاد الاقوات وكثرة الجرحى والمرضى في الجيش وضياح أغلب
جنوده لان أهل الجزائر وجيش البيكجيرية كان يجمع عليهم في كل وقت ولم يصلوا الى المكان الذي

ينزلون منه الى السفن الباقية الا بشق النفس وقد أظهر الامبراطور في هذه المصائب الكبيرة صبرا عظيما وتجلدا غريبا ولما أفلعت بهم السفن من رأس تامند فوست^(١) (١٥٤١ م - ١٥٤٨ هـ) هبت عليهم ريح عاصفة شنت السفن عن بعضها بحيث ذهب بعضها الى اسبانيا وبعضها الى ايطاليا وانتشر بذلك خير خبيبة الامبراطور وعودته مهزوما أما الامبراطور فانه بعد أن كابد مشقات عظيمة من تلك العاصفة اضطر الى الوقوف بشعر بجاية عدة أسابيع ثم سافر الى اسبانيا مكسور القلب

خير الدين باشا في خدمة الدولة وابتداء تعيين الولاية من قبلها للجزائر - انه بعد وصول خبر هذه الحوادث الى الاستانة وجه السلطان سليمان مسند القبودانية أي رياسة البحرية الى خير الدين باشا وأسسند ولاية الجزائر للرئيس صالح بك الذي أخذ في تقوية الحصون وتوسيع مرافق الجزائر وبناء الاستحكامات وفي تلك الاثناء فتح شارل كان حربا على فرنسا والاول ملك فرنسا فاستجده هذا بالدولة العلية فعقدت معه اتفاقا فاضد الامبراطور شارل كان وامضت معه أول معاهدة تجارية بينها وبين فرنسا وكانت تلك المعاهدة تشتمل على شرط مضمونه عموم سريانها في جميع الممالك العثمانية ومن ضمنها الجزائر وبذلك اعترفت فرنسا من وقتها ان بلاد الجزائر من أملاك الدولة العثمانية ثم أخذت فرنسا تمد تجارتها مع أهل الجزائر طبقا لمطوق المعاهدة المذكورة ثم لما عقدت باقي الدول المعاهدات التجارية مع الدولة العلية ذكرت فيها الجزائر ضمن ولايات الدولة حتى ان جميع المنا كل التي حدثت بعد ذلك بين الدول المذكورة وبين أهل الجزائر صارتسويتها بمبادلة التغيرات مع خارجية الدولة العلية على الصورة المذكورة في كثير من أبواب هذا التاريخ وبعد ارتباط الدولة مع فرنسا بالمعاهدة التجارية المذكورة طلبت فرنسا من الدولة ان تصرح لاثنين من تجار مرسيليا بان يحذوا لهم ما في جهة عنابة من أعمال الجزائر بناء مخصوصا لاستخراج المرجان في مقابلة دفع رسم عليه بين الطرفين فرخصت لهما الدولة العلية بذلك وأمرت عاملها هناك بمساعدتهم عند الحاجة وقد امتدت تلك التجارة الى (١٧٩٩ م - ١٢١٤ هـ) ولغاية التاريخ المذكور لم يكن لفرنسا فصل مدينة الجزائر

وفي تلك الاثناء كانت انتقلت طائفة فرسان رودس المسماة بفرسان سان جون الى مالطة لاستيلاء العثمانيين على رودس فاهتموا بامر الاساطيل ولما أخذت سفنهم تغرق في البحار ظهرت المنازعات بينهم وبين حكومة الجزائر واستفعل أمرها حتى صارت مترادفة بدون انقطاع ومن ذلك انتشر أمر التلصص في البحر المتوسط الابيض حتى أمسى السير فيه تحت أخطار جسيمة وتمددت التجارة البحرية بما كان من العدا بين الطرفين وكان لقرصان الجزائر جسارة غريبة ومهارة عجيبة لما كانوا يفعلونه من الاعمال الهائلة التي أرعبت أكثر الامم الساكنة على سواحلهم وقد ذكر كثير من المؤرخين بعض تلك الاعمال الدالة على ما كان لهم من الاقدام والحيل التي لا تكاد تصدق لغرابيتها ولذلك اهتم الفرنج بأمرهم يريدون محوشوكتهم خصوصا الاسبانول منهم لأنه منذ رجوع تجار يديه شارل كان بالخبيبة لم يتصدد الاسبانول للجزائر بين حتى اتهم بعد ذلك فقد واجه جميع مستعمراتهم بأفريقية

(١) Temendfust تمنندفوست أو منيفر المسمى أيضا رأس تمنندفوست وهو بشمال أفريقيا واقع في نهاية فرضة مدينة الجزائر وعليه حصن الآن

فأخذت منهم بحماية سنة (١٥٥٢ م) وهران والمرسى الكبير سنة (١٧٠٨ م - ١١١٩ هـ) وقبض الجزائر يون، منهم على نحو اثني عشر ألف رجل ولم يتمكّن الاسبانيون من نوال غرضهم نصدي للجزائر دول أخرى لتبعها في ذلك انه في (١٦٥٥ م - ١٠٦٦ هـ) هاجمها أسطول انكليزي تحت قيادة الاميرال بلاك فلم يزل مقصده مناعة قلاعها في ذلك العهد ومقاومتها متذوقات السفن وبعده ذلك أتى الدور لدولة فرنسا وكان أول تجرّيدة وجهتها على الجزائر مدة لوي الثالث عشر تحت قيادة الاميرال بوليو (Beaulieu) الا انها لم تأت بنتيجة تذكروني في زمن لوي الرابع عشر أرسلت تجرّيدة عظيمة جداً بقصد تاديب قرصان الجزائر تحت قيادة الدوق بوفور (Beaufort) (١٦٦٣ م) وقد اهدت لوز به هذه التجرّيدة هاتما ما زاندا وكان اسطولها يتألف من ست سفن وست شواني وكان تحت قيادة هذا القائد الكومندور بولاس (Paul) من فرسان مالطة وكان له شهرة عظيمة معروف السطوة والافتداع عنده ولاء القرصان ولم يخرج هذه العمارة أخذت تتعقب سفن القرصان بكل نشاط حتى تمكنت من أن تغرق من سفنهم نحو العشرين سفينة واضطرتهم الى عدم مبارحة نغورهم مدة أشهر ولمّا شجع لوي الرابع عشر بهذا النجاح صم في السنة التالية على ان يحتل بساحل الجزائر نقطة احتسلا لاداعيا لتمكّن سفن الفرنسيين من معاينة قرصان الجزائر في أي وقت شاءت ويمكنها أيضا من اقبسة حركتهم وصددهم كلباهم واللاغارة على سواحل فرنسا فاحتلوا نغور جيبي ومن هذا الوقت طمعت الحكومة الفرنسية في انشاء مستعمرة دائمية على هذا الشاطئ واذا ساعدتها الظروف تندجناح سطوتها على تلك الجهات وتحدث لها المستعمرات التي لم تمكّن اسبانيا من ايجادها وان ذلك لوي الرابع عشر بعد ان نظرت في هذا الامر طويلا وعلم بالفوائد التي تعود عليه منه اناط الدوق بوفور المتقدم بقيادة أسطول مؤلف من ١٦ سفينة عليها ٦٠٠٠ مقاتل وسافرت هذه العمارة في شهر ذي الحجة (١٠٧٤ هـ - ١٦٦٤ م) ونجرت منها الجنود الى نغور جيبي بدون مقاومة تذكر الا ان النغور الذي حدث بعد ذلك بقليل بين رؤساء الجيش الفرنسي وقلعة الاموال التي خصصت لهذا المشروع اضطرتهم لتترك هذه التجرّيدة التي كانت سعيدة الطالع في اولها ولم يتيسر لفرنسا بعد ذلك تجديدها هذا المشروع بالنسبة للحجارات التي اشتبكت فيها بعد ذلك بقليل ومع ذلك فان هذا المسعى الاولي والخسائر العظيمة التي أصابت أساطيل الجزائر بين من أساطيل بوفور المذكور (١٦٦٥ م - ١٠٧٥ هـ) أوقعت الرعب في قلوب الجزائريين واضطرتهم لعقد صلح مع فرنسا في السنة المذكورة الا أنه لم يستمر طويلا

ومن منذ ما صارت حكومة الوجاقات بالجزائر يديرها كما يطلق عليه لفظ داي ظهر نوع من الخد ضد بلاد فرنسا حتى انها اضطرت لارسال عدة أمور الى بلاد الجزائر يطلبون من حكامها تنفيذ المعاهدات المعقودة بين الطرفين بالدقة والصدقة وكانوا يبالغون من حكامها وعود اصريحة بذلك الا أنه بمجرد سفرهم من الجزائر تشرع القرصان والحكام في نقض ما صار الاتفاق عليه حتى انه في سنة (١٦٨١ م - ١٠٩٢ هـ) بلغت الخدوة والحسرة بوالى الجزائر المدعو بابا حسن باعلان الحرب على فرنسا فاغتاز من ذلك لوي الرابع عشر وأمر بتجهيز قوة عسكرية عظيمة جدا لارسالها على مدينة الجزائر وكان القائد على هذه التجرّيدة الاميرال دوكنس (Duquesne)

والاميرال طور فيل (Tourville) وكانت العمارة التي وجهت لهذا القصد مؤلفة من إحدى عشرة سفينة حربية من نوع القليلون وخمس عشرة ثانية من نوع الغالي وخمس أخرى من نوع الغالنا المدفعية وحراقتين وغيرهما من سفن النقل ولمارس هذه العمارة امام الجزائر أخذت في اطلاق نيرانها عليها (٢٠ شعبان سنة ١٠٩٣ هـ - ١٦٨٢ م) فاحترق من ذلك ثلاث سفن جزائرية كانت بالمينا وقتل من السكان أكثر من خمسمائة من فرقة المقدوفات التي كان استعمالها في البحرية لأول مرة في هذه التجربة حتى ان عسكر اليكبرية اعتراسهم الفرع لما شاهدوا ما تفعله هذه المقدوفات الخفيفة ومع هذا فلم يكن الهجوم على المدينة بسبب هبوب الرياح الشديدة الممثلة للاخطار والتي يكثر حدوثها في هذه الجهات القريبة من المدايرين وعند ذلك أمر الاميرال بالاقلاع والعودة الى نغرتولون ولم يترك أمام الجزائر الا بعض سفن لمهاصرتها وفي السنة التالية أقبل الجيش البحري ثانية في شهر يونيو وعاودت المدفعية الفرنسية العديدة اطلاق نيرانها على المدينة وكان بها في هذه المرة طائفة من مهرة الطوبجية وبها أهوان جديدة تقذف مقدوفات على بعد ١٧٠٠ تواز (التوازي ستة أقدام) وكان مقدار البب الذي أطلقته على المدينة في ليلتين ويوم ٢٢٠ عبة سقطت كلها في داخل المدينة وفي مينائها فالتف بعضها عدة من المباني وقتل بعضها أقواما وعند ذلك هاج السكان واضطربوا ووقع الزعب في قلوبهم وتضرعوا الى الحاكم المذكور بعد الصبح فارسل لذلك قنصل فرنسا معه آخرين الأمان الاميرال دو كسن لم يقبل الا بعد عدة طلبات أيضا ان يسلموا له جميع الاسرى من النصارى فسلم له الذي منهم ٥٤٦ فقط معتذرا بان ليس لديه الوقت الكافي لجمع الاسرى الاخرين المتفرقين في الجهات وفي المدن المتباعدة الساحلية وبذلك يطلب اطالة زمن الهدنة فتقبل الاميرال بشرط ان يسلموا له كثيرا من اعيان القوم بحجزهم بطرفه رهينة حتى يأمن صدق الحكومة معه ثم طلب دو كسن أيضا انه لا يعقد صلح الا اذا قبلت منه الشروط الثلاثة الآتية وهي اخلاء سبيل جميع اسرى الفرنسيين وغيرهم من الامم النصرانية وثانيها تعويض يعادل قيمة جميع ما أخذته القرصان من الفرنسيين أو رد تلك الاشياء بعينها أو ثلثها ان يرسل الذي من طرفه مأمورين الى باريس يطلبون العفو من ملكها عما فعله الجزائر بون في سنن الفرنسيين ولما ناعت هذه الاخبار هاج جنود الجزائر ورفضوا رضائا تقبل هذه الشروط خصوصا المتعلقة منها بردم اسلحوه من سفن الفرنسيين وكان من بين الرهائن شخص من الابطال يقال له الحاج حسين ويعرف عند الفرنج باسم ميزومورتو (Mezzomorto) أي نصف ميت وأصله نصراني فطلب هذا الشخص من الاميرال ان يطلق سبيله ليسي في جعل الذي والجنود يقبلون طلبات الاميرال الآن ذلك كان حيلة منه للخلاص لانه بمجرد ما صار في المدينة ترأس على الجنود وحضهم على دوام المقاومة بدعوى ان الذي جبان لا يصلح للاحكام ونتج من ذلك ان قتل الذي وناذى العسكر والاهالي بتنصيب الحاج حسين المذكور فانقطعت محاربات الصلح وتفرق الجنود على القلاع لصدا لاعداء وأخذ الاميرال الفرنسي باطلاق مدافعه وصب على المدينة مقدوفات هائلة قتلت وأحرقت عدة منازل في النجاة متعددة ولما رأى الجنود ما حل بهم بنبتهم من الدمار قبضوا على القنصل الفرنسي وأسرى الفرنسيين وربطوهم على أقوا المدافع وأطلقوا النيران عليهم حتى وصل كثير من أعضائهم الى سطح السفن الفرنسية ولولا ان المقدوفات فرغت من السفن^{١٥}

الفرنساوية لما ترك الفرنسيون بالجزائر بيتا قائما كما قال أحد مؤرخيهم وعند ذلك اضطردوكسن للعودة الى تولون وهو في غاية التحسر والغيظ وترك أمام الجزائر رقبته من العماره لمحاصرتها على نية العودة في السنة المقبلة وقد لحق بالجزائريين من ذلك أضرار لا تحصى وفي العام التالي أتى الاميرال طورثيل ومعه عماره عظيمه فاضطر عند ذلك الادي حسين المذكور الى التوقيع على المعاهده لتقيام ثورة داخلية (١٦٨٤ م - ١٠٩٥ هـ) وعين ديوان الجزائر سفراء للتصديق على معاهده الصلح ولكن هذا العقاب الذي لحق بالجزائريين لم يرد عنهم عن غيرهم وتعرضهم للسفن الفرنسية لانه في سنة (١٠٩٩ هـ) أغاروا على أسطول فرنساوي وأسروا بعض سفنه بعد ان ألحقوا الهوان بين فيه قصد الامر اذذاك للارشال استري (Estrée) بالذهاب واطلاق المدافع على الجزائر وكان تحت قيادته عماره مؤلفة من ١١ سفينة من سفن الخط و ٨ شواني و ١٠ مسدفيات وكثير من السفن الخفيفة فوصل اليها في رمضان سنة (١٠٩٩ هـ - ١٦٨٨ م) وأخذ في اطلاق المدافع عليها ليلانها حتى أطلق أزيد من عشرة آلاف قنبلة وأغرق خمس سفن حربية كبيرة وهدم غالب البطاريات وبرج القنار وقتل من السكان عددا عظيما وجرح نفس الوالي فتضرع الجنود عند ذلك الاليرال بطلبون منه الصلح فقدمهم شروطا وقع عليها الطرفان في شهر الحجة (١١٠٠ هـ - ١٦٨٩ م) وكان ذلك أكبر صلح مستديم استمر بين الحكومتين بحيث انه من هذا الزمن الى سنة ١٨٣٠ م لم يحدث بين الجزائر وفرنسا عداوات مستطيلة وبعد ذلك يضع سنوات أي سنة ١٦٩٤ م اعترفت حكومة الجزائر بشروط خصوصية بما للفرناس من حق التملك على الساحل الممتدين مدينتي عنابة وطبرقة زيادة عمالها من حق استخراج المرجان وحق المتاجرة بين عنابة وبجاية فهذه على وجه الاختصار أشهر حوادث ناريج الجزائر في المدة المذكورة قد قلنا فيما سبق انه في سنة ١١١٩ هـ (١٧٠٨ م) استولى دايات الجزائر على مدينتي وهران والمرسى الكبير وكانا لاسبانيا ولم تتمكن اسبانيا من عمل شيء لاشغالها اذ ذلك بحرب الوراثة ولما تمكن فيلب الخامس ملكها من سرير ملكه (١٧٣٢ م - ١١٤٥ هـ) تفكر في أن يرد لاسبانيا هذه المستعمرة المهمة وأرسل لذلك الكونت دومون تار فقام بهذا الامر أحسن قيام له من حسن الطالع والاستعداد وكمال العقل والنشاط والاقدام وورد لاسبانيا المدينتين المذكورتين وكان ذلك مسددا لادي على الذي لما رأى انكساره امام الاسبان اول اعتراه انجل وخاف من بقية الجنود ومعرفة الهزيمة فهرب الى داخلية البلاد مع عائلته وأمواله

خروج الكيكرية عن حدودهم - لما استفعل أمر البكجيرية في كافة الممالك العثمانية باظهارهم التمرد والعصيان امتد ذلك ايضا الى وجاقهم بالجزائر وأخذوا يتداخلون في كل أعمال الحكومة حتى أضروا بسطوة الدولة العثمانية في الولاية المذكورة ولم يقفوا عند ذلك الحد بل أخذوا يتعدون على الولاة الذين تعينهم الدولة حتى انهم في سنة ١٧٠٥ م (١١١٧ هـ) طردوا الادي ابراهيم باشا الذي عينته الدولة العلية واليا وصاروا بعد ذلك يقيمون الولاة بانتخاباتهم ويطلبون لهم السيف والبراهة من الاستانة بحجة انهم معينون بانتخاب الشعب هناك ثم بعد ذلك يشورون على الولاة فيقتلونهم لاقبل سبب حتى انهم في سنة ١١٤٥ هـ انتخبوا خمسة من الولاة الواحد بعد الآخر وقتلوه وبذلك اضطربت الاحوال والنات الامور وعظم الخطب وارتبكت سياستهم كما علمت وستعلمه

وكانوا متى احتاجوا الأشخاص لادخالهم ضمن زميرتهم أرسلوا سفنهم من الجزائر وعلمها من أعوانهم من ينتخب لهم كل من اتصف بالشجاعة وقوة البنية وشراسة الاخلاق من أى مكان أرادوه من أقطار الدولة ومن الغريب ان الامتيازات الممنوحة للجزائر من الدولة كانت تبيع لكل فرد من الناس الالتجاء الى سفن الجزائر فكان يخترط في سلك اليكجيرية لهذا السبب كل سارق ومارق وقتاك وأقاله وبهذا تعلم ما كانت عليه هذه الزمرة الخبيثة من الاخلاق والنظام هذا اخلاف من كان يهاجر من نفسه الى الجزائر بقصد الاستغلال بظلمها وكانت الانتخابات لمنصب الولاية وغيرها من الخطط السامية تحصل من بين هؤلاء الأشخاص الذين مرو وصفهم ولم يكونوا يسمعون لاحد من أهالي الجزائر الدخول في زميرتهم ولو كان ابن انكشارى متى كانت أمه من أهل البلاد وكان الداي يجرد انتخابه للمنصب يرسل الى الاستانة هدايا معلومة علامة على خضوعه للسدة السلطانية وكانت شكايات الاهالي متواصلة الى الاستانة لما هم فيه من الحيف والتظلم من هذه الطائفة المارقة وكانت الدولة تود ولو تخفيف تلك النوازل بما تقدر عليه من الوسائل لأن ظروف الاحوال لم تكن تساعدها لاستغلالها بالمحاربات المنصلة مع دولة الروسيا خصوصا وكان يود ناذ كر الولاة الذين عينتهم الدولة العثمانية اتلمت الولاية بعد خيرا الذين باشاوا واحدا فوا احدا الا ان لم نقف على أسمائهم فيما علمناه من التواريخ وقد عثرنا على أسماء من انتخبهم الانكشارية من الدايات وسند ذكرهم مع ذكر أشهر ما حصل في أيامهم من الحوادث الى ان احتل الفرنسيون تلك البلاد

(الفصل الخامس)

دايات الجزائر

(عبدى باشا) (١١٦٤ - ١١٦٦ هـ) وكان جاهلا غشوما لم يات باعمال تستحق الذكر وعزل بعد سنتين من ولايته

(على باشا) (١١٦٦ - ١١٧٦ هـ) وكان يتصف بالاقدام وحسن الرأى وفي ولايته التى استمرت عشر سنوات جرد حملة على ولاية تونس وحاربها حتى قهرها وألزمها الخضوع لحكومة الجزائر وضرب عليها اخراجات حمله سنويا ثم عزله

(بابا محمد باشا) (١١٧٦ - ١٢٠٦ هـ) وكان عاقلا شجاعا بصيرا بالامور ذا حظ عظيم وشهرة مدوحة امتدت ولايته ٢٧ سنة وفي ولايته (١١٨٤ - ١٧٧٠ م) أرسل الدانمارقيون عمارة حربية الى الجزائر لمعاينة قرصانه الذين أضروا جدا بتجارهم وتعدوا امراراه على سفنهم الا أن اسطولهم لم يثر أدنى تاثير لانه استمر مدة ثمانية أيام يغدو ويروح امام الفرضة والاستحكامات ولم يعمل عملا فاحتقره الجزائريون ولم يطلقوا عليه مدفعا واحدا اما انكثرة وهولانده فأنهم ما تجنبا أسباب العداوة وقبلان يذفعون للقرصان كل سنة قدر من المال لاتقاء شرورهم وفي (١٧٧٥ م - ١١٨٩ هـ) قامت اسبانيا بحملتها الاخيرة العظيمة على الجزائر قصد الانتقام واعلاء شأنها تلك البلاد فأرسلت أسطولا كبيرا مؤلفا من ٤٤ سفينة حربية و ٣٤٠ سفينة نقل تحت قيادة الاميرال كسنيجون وجيشا من ٣٠٠٠٠ مقاتل معه مائة مدفوع تحت قيادة الجنرال أوربيلي

(O'Reilly) ولما وصلت هذه القوة الى مياه الجزائر عين الوالى بابا محمد باشا المذكور صالح بك أمير قسطنطينة قائد اعلى جيش لمواجهة الاسبانيول وصدتهم فعبى صالح بك المذكور جيشه تعبئة جيدة ووضع امامه ابلا كثيرة تكون له كبتاريس تقيه مقدوفات الاعداء ولما استعد الجيشان اطلق الاسبانيول مقدوفاتهم فأصابت الابل ولم تؤثر في الجيش وعقب ذلك انقض صالح بك وجيشه بسرعة غريبة على الاسبانيول فكسروهم بعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة وهرب الباقي الى السفائن وبذلك خابت هذه الحملة التي كان أرسلها شارل الثالث البوربونى ملك اسبانيا واعد من بقي من جيوشه وأساطيله بالخبية أما الجزائر بون فقد فرحو بهذا الانتصار الباهر فرحاشديد ومدح العربان صالح بك بالقصائد الطنانة وغنم المنصورون من هذه المحاربة غنائم لا تحصى لان الاسبانيول لما نهزموا تركوا جميع الذخائر والمهمات والاموال التي كانت معهم وبذلك امتلأت خزائن البلاد بالاموال الوافرة ثم ان الاسبانيول عاودوا الكرة مرة أخرى فحضروا أمام الجزائر بأسطولهم فى سنى (١١٩٨ و ١١٩٩ هـ) وأطلقوا قنابلهم على المدينة فلم يأت عمالهم بثمره أصلاً ثم أنت سفينة من أسطولهم تحمل علم المملكة (١٢٠٠ هـ) وطلب الصلح من الداى فقبله الا انه تعهد لهم بدفع ١٤٠٠٠٠٠٠ من الفرنكات فى مقابلة ماتراضيا عليه ولما علمت دول أوروبا بخيبة هذه الحملة رضيت بمال نابولى والدينياركة والاسوج ومدن الاتحاد الثلاثى بدفع جزية سنوية للحكومة الجزائرية لحماية سفنهم من تعدى الجزائر بين ومع كل ذلك لم تمنع هذه الجزية تعدى القرصان على سفن تلك الدول لان سفن القرصان بالبحر المتوسط كانت عديدة متنوعة ولا تم تمكن كلها تابعة لاهل الجزائر فقط بل كانت تأتى من عدة جهات من سواحل أفريقيا وغيرها وكانت وفاة بابا محمد باشا (١٧٩١ م - ١٢٠٦ هـ) فتأسف على وفاته جميع أهل الجزائر لما كان له من الاعمال الحسنة والمشروعات المفيدة وبكفيه نحر احياية البلاد من تسلط الأجنبي عليها وتولى من بعده

(حسن باشا) (١٢٠٦ - ١٢١١ هـ) ولما قبض على زمام الولاية سارع على طريقة سلفه بالتمام فاهتم باصلاح ادارة البلاد وتقويتها وفى أيامه زادت جراءة القرصان حتى غنموا غنائم وافرة وكثرت شكى دول أوروبا من التعدى الذى يقع على سفنها التجارية ولم تكن دولة انكلترة تداخلت لغاية ذلك الوقت فى هذه التشيكات لان الاضرار التي ألتمت بسفن تجارة الدول الاخرى لم يصل منها شئ الى سفنها التجارية لعدم ترددها على البحر المتوسط ولما أوجدت فرانسافى البحر المتوسط سفنا كبيرة حربية لما سعد نابليون الاول على تحت الامبراطورية بعد الثورة الفرنسية الشهيرة كان ذلك سببا لضعف حركات القرصان فى ذلك العهد وفى السنة الثانية من حكمه تنازل الاسبانيول للجزائر عن نغرى وهران والمرسى الكبير وكانت الزلازل قد خربتها فقبيل ذلك ولما حدث القحط بالاقليم الجنوبية الفرنسية (١٢٠٨ هـ - ١٧٩٣ م) واحتاجت فرانساجلب الميرة لجنودها التمس من هذا الباي التصريح بتصدير الغلال من الجزائر فقبل وتعهدهم للتاجران اليهوديان بقبرى وبشناق بتوريد الغلال الى فرانسوا وكانت تصفية حسابات هذا التعهد ودفع قيمة الغلال التي وردها بلغت مبلغا عظيما جدا

وصارت السبب الاول لحدوث المشاكل والخصومات بين الجزائر وفرنسا ونجسهم عنها السبب وهو ما
على الجزائر وفي أيام حسن باشا المذكور زادت عمارة الجزائر وتقدمت تقدمًا عظيمًا وتوفي بعد ان
حكم سبع سنوات (١٧٩٨ م - ١٢١٢ هـ) وقام من بعده

(مصطفى باشا) (١٢١٢ - ١٢١٨ هـ) واستمرت ولايته سبع سنوات ولم يحصل فيها
من الحوادث ما يستحق التدوين الا انه لما احتلت العساكر الفرنسية ولاية بلاد مصر في أيامه
(١٢١٣ هـ) أمره الباب العالي باعلان الحرب على فرنسا فأطاع الامر وطرد رعايا الفرنسيين
من عنابة وغيرها وقبض على قنصل فرنسا بالجزائر وأقامه في السجن وغير ذلك من الاعمال التي
أغاضت الفرنسيين ومع ذلك فان هذا العداء لم يستمر زمانًا طويلا لان الفرنسيين تغيروا حتى
عقدوا مع الجزائر صلحا (١٢١٦ هـ - ١٨٠١ م) وكان من ضمن شروطه التي طلبها الباشا
ان القرصان لا يتعرضون فقط لسفن فرنسا بل لكل سفن الممالك الداخلة تحت سيادة فرنسا
أو المحالفة لها فقبل الادي هذا الشرط وتعهد بجرائمه ومع ذلك فان الاختلالات السياسية والحروب
التي كانت وقعت والتفرقة بين ممالك أوروبا بامدة عشرين سنة أو وقت الاعمال العدوانية ضد
الجزائر فاستفادت الجزائر من ذلك وحصنت نغورها وحصونها تحصينا جيدا وملاّت خزائنها من
الاموال التي كانت تغتنيها القرصان ولما كان هذا الادي متصفا بالسخاء أخذ يهدى الهدايا ويجود
بالانعامات الكبيرة من خزينة المملكة على حاشيته والمقر بين اليه فقامت عند ذلك اليكبرية
وهاجوا وماجوا قائلين ان سخاء الباشا مضرب بخزينة الدولة ولما لم يرتدع عن ذلك عزموا على الفتك
به ثم هاجوا قصره ليلا (١٢١٨ هـ - ١٨٠٣ م) وقتلوه وقطعوه اربا ونهبوا ما به من
الاموال ثم ولوا مكانه

(أحمد باشا) (١٢١٨ - ١٢٢١ هـ) وكان المذكور في سعة من المال ورفاهية من الحال
وكان متزوجا بينت السيد قدور الذي يتصل نسبه بسيدى عبد الرحمن النعالي الوالي الشهير بالجزائر
وكانت تجارة السيد قدور هذا أوسع تجارة في الجزائر وأكثرها راجا فلما كلفوه بالولاية خاف العقاب
فرفضها مدعيًا أنه عزم على السفر الى الجزائر لتأدية الفريضة فأغلظوا عليه في الطلب ولما لم يمكنه
التحى قبلها مكرها وهذا الوالي هو رأس عائلة القائد عمر قائد بنى سليمان الشهير الذي اتخذ نغر
الاسكندرية وطنا له أقي اليه مع عائلته بعد الاحتلال الفرنسي وكان الغرض الاصل من تنصيب
اليكبرية لاجد باشا هو نهب تجارة صهره المتقدم الذكر وذلك انه بعد قبضه على زمام أحكام الجزائر
استعمل الشدة الضرورية اذ ذلك وأخذ يبحث عن اليكبرية الذين قتلوا سلفه فاستأصلهم قتلا
ونشر يد اقتذمها باقي اليكبرية من ذلك وطابوا منه صدور الامر يقتل اليهود القاطنين بمدينة
الجزائر اربعة مكانا على تمه لا أصل لها بقصد مصادرة أموالهم فنعمهم من مرغوبهم بالفتاوى التي
استصدرها من مفتي الجزائر فاذا دغضهم وفاض حنقهم لانهم صدوا بصورة قهريه

ولما وصلت سفن القرصان بالغنائم التي غنموها من سفن التجار الاجانب أراد أحمد باشا أن يوزع
الغنائم التي استحضرتها على الارامل ويزوج بها أبناء وبنات الايتام من الفقراء فقدم اليكبرية
حتى لم يعودوا يقدرون على إخفاء خبثهم فاضروا له الشر من هذا الوقت وفي اليوم التالي لوصول
القرصان دخل الباشا الحمام حسب المعتاد في كل أسبوع فهاجم عليه فئة منهم وقطعوه اربا

وألقوا أعضائه في الطريق ثم هجموا على قصره ونهبوه ولم يقتصر واعلى ذلك فقط بل هجموا على جميع مخازن تجارة صهره السيد قدور ونهبوها أيضاً ولم يبقوا له الا ما كان مستورا عنهم ومدة ولايته ثلاث سنون وانخبوا بدله

(على باشا) (١٢٢١ هـ) وكان في أول أمره غسالا فقيرا ثم ترتقت به الحال ولذلك يلقب بعلي باشا الغسال ولم يحكم غير ستة شهور حدث في أثناءها مشا كل واضطرابات عديدة لضعفه وجهله ووصلت أضرار الكجر به بكثير من الافاضل والمعتبرين ثم عزله وانخبوا بدله

(الحاج علي باشا ميت المال) (١٢٢١ - ١٢٢٨ هـ) وفي مدة ولايته التي بلغت ست سنون ونصفاً أراد حجارة تونس فجهز عليه اجيشا الا أنه لم ينجح وعاد الجيش بالحمية وكان أشهر رجال القرصان في ذلك الزمن ببلاد الجزائر رجل يدعى جيمدون قبودان خرج مرة ببعض السفن وجاس خلال البحر المتوسط فكان يأخذ كل سفينة غصبا وبذلك استولى على غنائم وافرة ثم عاد بعد زمن غائما ظافرا ولما علم الوالي المذكور بقدمه استعد لزيارته فلبس ملبسه الرسمية وزاره زيارة أظهر له أثناءها كل تल्प وتودد فتعجب رجال الجزائر من ذلك وكان جيمدون المذكور على جانب عظيم من الجراءة والاقدام حتى ان كثيرا من العائلات الاسبانية ولية كانت تخوف اولادها بذلك ولما كان هذا الوالي يخشى باس سكان وادي الزيتون لتمردهم وهم من قبيلة قول أو غلومون من أصل عثماني وخطر في فكره انهم ربما شقوا عصا الطاعة يوما ما وامتلكوا حكومة الجزائر دعا عمر أغا نأى العرب وأمره بالتوجه مع رجاله لمحاربة القبيلة المذكورة فجمع عمر أغا كثيرا من جنود العرب وقصد الوادي المذكور لانه فاعدا ما أمر به الا أنه كان يحقد على الوالي سراو بمجرد وصوله الى ذلك الوادي اتحد مع تلك القبيلة على قتل الوالي وقرر والذالك مكيدة يقومون بعملها فاتحدوا مع خادم الوالي لتنفيذ غرضهم واتفقوا معه على أن يغلق باب الحمام عند دخول سيده غلقا محكما وهم يقومون بعملهم فلما دخل الباشا الحمام وأغلق خادمه بابه كما امر عند المنام آثرون الحمام وأشعلوه لدرجة شديدة فاشتدت حرارته فاراد الباشا خروجه فلم يقدر فمات خنقا وبعد ذلك كلفوا عمر أغا المذكور بقبول الولاية فرفضها لمكره وأشار بتعيين محمد باشا الخزنه دار

(الخرننه دار الحاج محمد باشا) (١٢٢٨ هـ) وكان عمره لما تولى ٩٠ سنة فلذلك سلم مصالح الولاية لولده الاكبر مصطفى بك وكان نبيها ما هرا فقدم عمر أغا على غلظته في تعيين الخزنه دار لانه لم يكن يخطر ذلك بفكره ولكنه بعد سبعة عشر يوما برمكيدة أخرى وهو انه توجه بنفسه الى نكتة العساكر وقال لهم تعلمون أيها الرفقاء اننا اجلسنا الخزنه دار الحاج محمد باشا على كرسي الولاية لما نعهد فيه من الصفات الحسنة ولكنه سلم مقاليد دولته لولده مصطفى بك الشاب المتصف بالتبذير فانه بعد ان يقضى أموال الخزنه يدعى حق الولاية خصوصا وانه تجل معتوق مثلنا فلان تقدر على رفضه بعد ذلك فتملك جميع الاتراك تحت يده فلم يكديتم كلامه حتى هاجت العساكر وماجت وهجموا على السراي وقتلوا محمد باشا الهرم المذكور وولده مصطفى بك البرقي ونهبوا أموالهما ثم نصبوا في هذا المنصب المحفوف بالانظار

(عز باشا) (١٢٢٨ - ١٢٣٣ هـ) وهو عمر أغا المارالذ كراغات العرب وامتدت ولايته أربع سنون وفي خلالها أصدر أمرا الى جيمدون قبودان الشهير بالخروج بالسفن لترقب سفن

التجار واحضار الغنائم كعادته فامتنع بحجة أن الامر يكانيين يتجولون بسفنهم الحربية الجسسية في البحر فاذا خرج لاشك انهم بها جونه ورمبما وقع هو ومن معه في أيديهم فأغلظ عليه عمر باشا وقال له أما كنت تخرج في زمن علي باشا وتأتي بالغنائم الكثيرة ولم تكن تخرج بهذه الاقوال وبعد أخذ ورد كثير خرج حميدون مغضبا وقد كان الامر يكانيين بحسب الشروط بتقديم قدر من المال في السنة الماضية لادى الجزائر لتأمين سفنهم التجارية من تعرض القرصان الا انهم أبوا دفع ذلك القدر وقرر وافي (١٢٣١ هـ - ١٨١٥ م) ارسال اسطول الى مياه الشرق تحت قيادة الاميرال ديكاتور (Decatur) للمحافظة على تجارتهم فكان هذا الاسطول هو المتجول اذ ذلك في البحر المتوسط الابيض ووصل خبره حميدون قبودان وأخبر عنه الادي عمر باشا كما قلناه ولم يخرج حميدون قبودان بالسفن السابق ذكرها واتجه نحو تونس هاجمه الاميرال المذكور قبل أن يصل الى موقع قرطاجنة باسطولها وأسمر منه فرقاطة وابر بقا بعد محاربة دموية قتل فيها حميدون قبودان وتمكنت باقي سفنه من الفرار أما الاميرال فانه سار بالاسطول الى جون مدينة الجزائر وخابر الادي وطلب منه تسليم الاسرى الكان والتنازل عن الاموال التي كان الامر يكانيون يدفونها للحكومة الجزائر وبعد أن تداول الادي مع كبراء قومه ورأوا انه لا يمكنهم مقاومة الامر يكانيون أدعوا عليهم وأمضوا الشروط المتضمنة ذلك لان جميع السفن الجزائرية كانت خرجت الى عرض البحر وليس بالثغور من السفن ما يكفي لحمايتها ولما كانت انكثرة وهو لانه يصحقدان على الجزائر بين أيضا اتحاد تاسوية لما علمنا بذلك وضممة اقوتهم ما عاقبه سد نوال ترضية وجعلنا ملتقى سفنهم ماجبل طارق ثم أقبل اللورد كسموث (Exmouth) (١٨١٦ م) بقوداسطولوا عظيما مؤلفا من ٣٣ سفينة انكليزية وست فرقاطات هولندية ورسابها أمام مدينة الجزائر على مقرب منها وأحاطت سفن الاعداء بالمدينة من الشمال الى الجنوب الشرقي وأرسل الاميرال الى الادي كتابا يتضمن الشروط الاتية ويطلب منه التوقيع عليها وهي

أولا تسليم جميع الاسرى من النصارى بالافدية ثانيا أن يرد جميع المبالغ التي دفعتها حديثا ملك كاسردينيا وناپولي لقسدية أسراهما ثاشا ابطال الرقيق رابعا اجراء الصلح مع هولاندة بنفس الشروط التي ستكون للانكليز ولما اطلع الادي على هذه الشروط القاسية الغريبة لم يجاب عليها وأصدر أمره للبطاريات الامامية فأطلقت نيرانها على سفن الاعداء وكان ذلك اشارة هجوم عام واستمرت المعركة التي كانت مريعة الى ما بعد الغروب وقد تمكنت السفن المتحدة من تدمير بعض البطاريات الجزائرية واحراق بعض السفن التي كانت راسية في داخل المينا وفي اثناء الليل قذفت الارياح بعض السفن المشتعلة الى خارج المينا وتقدمت هذه السفن نحو الاسطول الانكليزي الذي لما رأى سير هذه السفن نحوها ألق سريعا التجنب أخطارا الحريق وفي اليوم الثاني كتب اللورد اكسموث الى الادي وعرض عليه عين الشروط التي كان عرضها عليه قبل القتال فالتم الادي عند ذلك بقبولها ووقع في نفس ذلك اليوم على المعاهدة وكان ذلك نغرا عظيما للامانة الانكليزية أمام أوروبا أما الاساطيل المتحدة فقد لحق بها اضرار عظيمة وقتل من الاساطيل الانكليزية ٨٨٣ نفرا وفقد الهولنديون مائتي نفس وجرح منهم ثلثمائة الا ان عمر باشا وان كان أظهر في هذا القتال عزمه وشجاعته فان الوجاهات حنقت عليه لما ارتكبه من اخطا الخجل بالتوقيع على شروط

الصلح فتعصبوا عليه ورموه بسوء التصرف لعدم قبوله نصائح حديدون قبودان الذي فقدته البلاد هو وغيره من الابطال وبضيا عما كان لحكومة الجزائر لذلك العهد من النفوذ البحري فهجموا عليه في قصره وقتلوه شرقتله ونصبوا بعده

(قوجه على باشا) (١٢٣٣ - ١٢٣٤ هـ) ولما كان من أفاضل القوم ومتمز وجابنة مفتي المالكية بمدينة الجزائر كان له تأثير كبير في النفوس خصوصا وأنه سعيد الطالع فكان ينجح في كل مشروعة الحسنة التي يقوم بها وكانت عموم الاهالي عدله بالمساعدة كلما هم باجراء أمر وأول عمل أجراه نقل دار الحكومة وأموالها الى داخل القلعة لتسكون في مأمن من الغوائل والتعديات ورتب له حرسا من البدو والعبيد ولهذا صار يظهر ما عزم عليه من حصر الولاية في أولاده وأعقابهم وملاشاة عسكريا ليكرهه ويقتله كما كان يهدد السبيل لذلك لم تهله الايام بل عاجله المنون في الوباء الذي ظهر ببلاد الجزائر بعد مضي ستة شهور من توليته فخرن عليه الكثير من الناس وكان يشتهر بالعلم ومحبة العلماء وكان سقا كالدماء يميل للخلاعة ونصبوا بدله

(حسين باشا) (١٢٣٤ - ١٢٤٦ هـ) وكانت وظيفته قبل تنصيبه ناظر الاسطبلات الوالي ولما دعي للولاية طلبوا له حسب المعتاد من الاستانة السيف والقنطاز علامة اقرار السلطنة العثمانية له على ولايته وفي الثلاث سنوات الاولى من حكمه هابه الناس واحترموه احتراما كبيرا فدخله من ذلك تكبر وعتو واستبد بالامور كما حتى صار لا يقبل اشارة أى فرد من كبار رجال حكومته فظهر الاختلال في البلاد وكثر العيث ببعض جهاتهم وسببه هذا التعاطف الفارغ ثم بعد قليل عادت تعديات قرصان الجزائر وزادت جراتهم حتى انهم أسروا بعض سفن اللطيلانيين من البحر المتوسط الايض وامتدت أعمالهم الى البحر الشمالي فكثرت التشيكات من ذلك وفي تلك الاثناء حصل فتور في العلاقات وتكديري في المناسبات بين الجزائر وفرناسوسيه ان تاجر ايدى يعقوب كوهين بقري اليفورنى أحدث بعة دولة ايتاليا تاخر في دفع رسوم ما يستخرج من المرجان لحكومة الجزائر في الميعاد المعين ولما تكررت مطالبته ادعى بان ليس لديه دراهم وان له عند بعض تجار فرنساو بين ديونا ومتى أدوا له سدد المطلوب منه وهو أحد الاثنين الذين كانوا وردا محبوبا الى جيش فرانساء عند ما طلب ملكها من حسن باشا ذلك (١٢٠٨ هـ) كما تقدم فلما سمع منه الوالي هذه الاقوال كتب مکتوبا الى ملك فرنسا يطلب منه ان يامر فرنساو بين المذكورين بتسديد ما عليهم للطليلاني المذكور حتى تأخذ حكومة الجزائر حقها وطلب سرعة الجواب وأرسل الوالي مکتوبا المذکور الى الموسيو دو فال (Duval) قنصل جنرال فرانساء بمدينة الجزائر ليقوم بتوصيله (١٨٢٣ - ١٢٣٩ هـ) ثم بعد ان مضى على ذلك شهر ذهب القنصل لزيارة الوالي في عيد الفطر مع كثير من الاوروبين وبدخوله عليه سأله الوالي قائلا اني طلبت سرعة الجواب لتحصيل المطلوب من بقري اليهودى وقد مضى شهر على ذلك ولم أحصل على المراد فإبوا به القنصل المذكور بغلظة وأنفة على مسمع من بعض حاشيته ان ملكنا عند جملة باشاوات مثل جنبايك جميعهم ينتظرون جوابات كجوابك والمعتاد عندنا أن كل الجوابات تخرج بالدور فعند ما أتى دور جوابكم يصلكم

ولما كان القنصل لا يتكلم باللغة التركية وترجمت أقواله للوالي بالفاظ جافية شديدة وكانت

الخدمة ظاهرة على القنصل وقت كلامه اغتاط الذي لذلك جدا وضرب القنصل بدمية (منشدة) كانت في يده وأخذ الباي يرغى ويزيدو يطعن في حكومة فسرنا سوا ملكها أما القنصل فانه يادر بالخروج وقد كان في ذلك الوقت يوجد دأعابها الجزائر سفينة حربية من كل دولة من دول أوروبا واستعدة لانفاذ أوامر قنصلها وبخروج قنصل فرنسا من سراي الباي سارا الى سفينته ثم أفلعت به بعد أيام وأشيع في الجزائر اعلان الحرب على فرنسا وبين ولما بلغ الاهالي هذا الخبر تكدر واوحسبوا له ألف حساب لتيقنهم من ضعفهم ولما سافر القنصل وأخذ الباشا ورجال حكومته يفكرون فيما عساه يحدث من ذلك أشار أحد أصحاب الرأي والفكر وهو والد علي رضا باشا مؤلف تاريخ حوادث الجزائر على الباشا بزيادة الاهتمام بالتجهيزات الحربية واصلاح الفلاح وتقوية الحصون وجمع الجنود واعداد الاساطيل بحيث تكون مستعدة للقاومة عند الزوم لانه شاهد حين ما كان بفرانسالاتجارتها ما هي عليه جنود فرنسا واساطيلها من الاستعداد وحسن النظام والكثرة ومع تأكيده لهم ذلك لم يهتموا بقوله كما يجب بل خدعتهم أفكارهم الفاسدة وآراؤهم العقيمة بل جعلهم يعاها عايسه ممالك أوروبا والذالك من التقدم والعدو في طريق الارتقاء

وقد روى صاحب صفوة الاعتبار هذه الحادثة كما يأتي ولما كانت مخالفة من بعض الوجوه لما رويناه أردنا نقلها هنا ليكون المطالع للمباكل ما قيل في هذه الحادثة الشهيرة التي تسبب عنها انصلاح بلاد مهمجة من الدولة العثمانية كبلاد الجزائر قال اعلم ان الدولة الفرنسية لما ترفت في المعارف والقوات سيما في العصر الاخيرة لازمها حب الظهور وعدم تحمل الهوان وكانت الدولة العثمانية في شغلها الشاغل من أعمال اليكبرية وحروب الروسية وثورات اليونان وضم الى ذلك طغيان ولاية الاقاليم وعدم امتثالهم للاوامر وكان حسين باشا والي الجزائر مستبدا ظلوما مر تشيا قليل التدبر وحصل منه اهانة لقونصل فرنسا وذلك على ما في تاريخ ابن الضياف أن أحد التجار اليهود الاغنياء الجزائريين الملقب بيقرى أبو جناح له خطة مالية مع تجار من الفرنسيين وتداعوا في خسائر من الجهتين وانتمصر حسين باشا رعيته بالالاحاح على قونصل فرنسا في انصافه وآل الامر الى صلح يدفع على مقتضاه التجار الفرنسيون الى التاجر الجزائري مالا وافرا وأضمر حسين باشا أخذ المال لنفسه لمارة ذريعا وراجعه رعيته وتلك عادة القوهار ولما قرب دفع المال واذا بتجار آخر فرنساو بين قاموا على بقرى المذكور بدين أوقفوا عليه المال الذي يريد قبضه فاستاء حسين باشا من ذلك وطالب من القونصل رفع الايقاف وقال ان أرباب الدين الفرنسيين الطالبيين لرعيته يتبعون ذمة المدين بعد قبضه للمال بحيث لا يكون للطالبيين حق في المال الذي يدفعه الفرنسيون فامتنع من ذلك القونصل مستندا الى أن المال المعروف مال المدين والغرماء لهم حق فيه الا إذا ضمنه من رضون بذمته وكان المدين نفسه مغرى بهذا التدبير خوفا على ماله من الضياع باستيلاء الباشا عليه فأعرض الباشا عن القونصل وكاتب دولة فرنسا في غرضه فالرسلت المكتوب الى القونصل وأمرته بالجواب عنه ولما قدم القونصل الى الباشا البعض ما رتب خاطبه الباشا في استنباط جواب مكمته به المشار اليه الى دولة فرنسا فقال له القونصل ان المكتوب أرسلته الدولة الى وأمرتني بالجواب عنه فسأله عن سبب عدم اجابة الدولة له فاجابه بما فهم منه

احتقاره وكانت بيد الباشا منسوبة بطردهم الذباب فضرب بهم اوجه القونصل وطرده وبقى آسفا على ما فاتته من مال بقري وتمهدت فرانسوا الوالى المذكور على اهانة نائبها وأخت عليه بان يطلب منها الرضا ويعترف بالخطأ فبى وأصر مع أمر الدولة العثمانية له بذلك والنصائح المتتابعة له من الدول الاجانب وخواص الاهالى وقد كانت فرانسوا في شغل من داخلها في ذلك الوقت لان ذلك كان لمرحوب نابليون الاول وكانت أيضا متوقفة المشاهدة مع العرب ومع الدولة العثمانية حتى رضيت فرانسوا بان يكاف الباشا أى انسان كان في باريس بطلب الترضية لكي تسدفع عنها المعرفة ولا تلحقه هومذلة بارسال أحد من موظفيه الى القونصل لاولا الى باريس وكان قصده بذلك كله اجتناب الحرب ما أمكن لاشتغالها بحروبها وأحزابها الداخلية فاصرا الوالى على رأيه وأرسلت فرانسوا أسطولها وحاربت ببلد الجزائر وأستولت عليها وجعل ذات الوالى الى باريس ثم مات في الاسكندرية وقد نسب المؤرخ المذكور منشأ أعمال الباشا المشار اليه الى كونه لا غير له على الوطن من حيث كونه لم يكن من أبناء ترابه ولذلك خاطر به الى ذلك الحد مع علمه بالضعف وانحلال عرى عصييته ونفرة الاهالى من جوره اه

الارتباك التي منعت الدولة العثمانية من التدخل في مسألة الجزائر بالقوة

اعلم أن الدولة العثمانية وقت حدوث مسألة الجزائر كانت مشغولة بتبع عصيان اليونان (١٢٣٦ هـ - ١٨٢٠ م) الذين ساعدتهم دول أوروبا وخصوصا فرانسوا منهم على نوال استقلالهم وكانت الدولة أشرفت على التمكن مع ذلك من اخضاع الثورة واعادة النظام للبلاد بما بذلته من المساعي الجمة ثم قامت دولة روسيا مناصرة الى اليونانيين وأدخلت في دائرة اتفاقها (١٨٢٦ م - ١٢٤١ هـ) كلاما من انكلترا وفرنسا وانفق الجميع على تدخلهم حربيا في مسألة اليونان وأرسلوا أساطيلهم تهديد للعثمانيين ثم أمضوا في سنة ١٨٢٧ م وفاقا في لوندرة لاجبار الدولة على الاعتراف باستقلال اليونان وقد تم الامر بان أحرقت أساطيل الدول المتحدة اسطولى الدولة العثمانية والحكومة المصرية وسفن الجزائر وتونس بمياه مدينة نافرين (١٢٤٣ هـ) كما ساقى مفصلا في تاريخ الدولة العثمانية ولما تم ذلك طلبت الدول الاور وباوية من الدولة العثمانية الافرار على استقلال اليونان فعارضتهم الدولة بالطرق السياسية فانفردت دولة روسيا بتنفيذ مطالب اليونان معضدة من الدولتين الاخرتين ثم انتهى الامر باعلان روسيا الحرب على الدولة (١٨٢٨ م - ١٢٤٣ هـ) ولما كانت جيوش الدولة في وقتها مشغولة بانحاء كثيرة للحفاظ على سلامة المملكة العثمانية وقد أصابها الضعف من طول زمن المحاربات لم تكن من توقيت سير الروس فاستولوا على كثير من القلاع والحصون بآسيا وأروبا ثم لمدا نوا من دار الخلافة العثمانية التزمت الدولة أن تطلب الصلح فاجيب طلبها (١٢٤٥ هـ - ١٨٢٩ م) وعقدت معاهدة ادرنة الشهيرة التي أبحج فيها الروسية حق السير من البحر الاسود الى الابيض المتوسط بالسفن الحربية واعترفت الدولة باستقلال اليونان

وفي خلال ذلك ظهرت مسألة الجزائر المذكورة وبعد تمام الصلح بين الدولة والروسياً أخذت الدولة تهتم بمسألة الجزائر بقدر ما تسمح لها به الظروف فتخبرت مع فرانسوا مع محمد علي باشا والى الديار المصرية وحسين باشا والى الجزائر وقد اتفق انه لما حاصر اسطول فرانسوا وحل الجزائر كان اسطول الولاية المذكورة المركب من عشر فرقاطات وسفینتين من نوع القرويت خارج الميناء فلم يتمكن من العودة الى ميناء الجزائر والتجأ منه فرقاطة وقرويت الى نغرا الاسكندرية فضعهما المرحوم محمد علي باشا والى الديار المصرية الى أساطيله وفي تلك الاثناء طلبت فرانسوا من محمد علي باشا وساطته في مسألة الجزائر فتعهد لها باخضاعها بشرط أن تمده بعشرین سفينة حربية تتركها له بعد تسوية المشكلة ويقوم بدفع الجزية المعينة على الجزائر للسلطنة الا أن هذا الاتفاق لم يتم لاسباب سياسية منها أن مر كز محمد علي باشا في ذلك الوقت كان يقضى عليه بان يحافظ على نفوذه الذي لم تستقر قواعده بعد في القطر المصري وان اتفقا مع فرانسوا ضد اسلام الجزائر يكون سبباً لا قول التي كان يجب عليه تجنبها الا أنه قبل التوسط السلمي فقط وأرسل سفينة حربية الى الجزائر عليها أمور يحمل كتاب نصيحة لوالها حسين باشا وطالب منه الجواب فيما يراه ولمارست السفينة بلغ ذلك المأمور رسالته وكان جواب حسين باشا عليها الرفض ولما قبل المساعدة دقت الطبله للجنود (الترميطة) اذ كانت هي المستعملة في الجيش المصري اذ ذلك ولماسمعها حسين باشا ارتاب في أمرها وقال إن هذه الطبله من مستعملات الفرنج وأمر بمنع دفعها ثم أرسل لربان السفينة بمبارحة الجزائر حالاً واللاحق به العذاب فالترم القبودان المصري بالعودة الى الاسكندرية وعرض الكيفية على المرحوم محمد علي باشا ولما علم ملك فرانسوا شارل العاشر بخيبة وساطة محمد علي باشا أرسل من طرفه الى الجزائر ثرغليوناً كبيراً ولما وصل الى الجزائر رفع العلم الابيض اشارة الى طلب المكالمة مع حكومتها ورساق في محل قريب من المينا وخرج منه بعض ضباط مع الموسيو بريتونيير M. de la Bretonnière ومعهم الموسيو بيانكي صاحب القاموس المعروف ترجماناً الى البر وأخبروا بانهم حضر والمكالمة مع الباشا والى فاذن لهم بذلك ولما صاروا بالمضرة قالوا له ياسيدنا ربمان فصلنا ووقع منه بعض أمور مخلة بالآداب ولكن لا يليق بجبنابكم أن تضر بوجه مثل المنشة ومع كل ذلك فانتا حضرنا نطلب منكم الصلح وقد حضرنا معنا في هذه السفينة كثير من الاموال برسم تقديمها لجنابكم ورجاؤنا منكم أن ترسلوا معنا شخصاً الى فرانسوا لنظهر للاهالي هنالك كأنكم أنتم الذين طلبتم الصلح ليسكن هياجهم وبعد ذلك نتفق على ما ترغبونه لان ملكنا يميل دائماً للصلح وتظن أن هذا الرأي يفيدكم جداً فلما سمع الباشا منهم هذه الاقوال ظن أن طلب دولة فرانسوا لهذا الصلح هو والخوف من الجزائر ثم ادس الاقوال الظاهر العنف والشدة فائلاً بما حقه زائدة لا تقبل الا الحرب فلطف الترجمان المذكور كلام الباشا لما ترجمه للضباط وتأسف من معاملة الباشا وأخذ يتلطف بالباي قائلاً يا سيدي انك ستأسف كثيراً على هذه التصميحات المضرة فاصر الباشا على أقواله وكررها فعاد الموسيو بريتونيير مع الضباط الى سفينتهم كما أتوا ولم يكف الباشا بذلك بل أمر السفينة الفرنسية بالاقلاع حالاً وأمر حراس القلعة باطلاق القنابل عليها اذ قربت من القلعة فلما أقلعت هبت عليها الریح حتى اضطرتها للدنو من القلعة فقال جللة من مشاهير قبودانات بحرية الجزائر للباي يا مولانا ان قريه من القلعة هو بحكم الریح فلم يلتفت لاقوالهم وأمر بالریح عليها فقواله ياسيدنا ان السفينة لازالت

ناشرة العلم الابيض الدال على المكاملة وان نظمات البحرية عموما لا تتجوز ذلك فاطهر الباشا الغضب وقال ان كل من يتأخر عن الرمي عليها يقطع رأسه فالتزمت العساكر باطلاق القنابل على السفينة التي لم تتخلص من جانب القلعة الا بشق الانفس فلما وصلت الى تولون وأخبرت بما حصل صمم ملك فرنسا على ارسال جملة جسيمة لاختضاع الجزائر وصدرت الاوامر الى دور الصناعة بتجهيز المراكب والجيوش بالاستعداد ولما انتشر خبر ذلك أخذت قنصل القنصلية بحكومة الجزائر ينصح الحكومة بانخذ التسديرا اللازمة للدفاع لانه كما يروى كان يجب الجزائر بين وقال ليحيى أغا اغاة العرب وكان وقتئذ قابضاً على القوة البحرية في الجزائر ربحان فرنسانم باجم الجزائر من طريق سيدي فروج فيلزم الاهتمام باقامة الاستحكامات في النقطة المذكورة فقبل يحيى أغا هذه النصيحة لما راهاصوا بابا وابتدأ بشييد قلعة على النةطة المذكورة لتمنع نزول عساكر العدو عنها فلما بلغ الباشا الوالى خبر تشييد هذه القلعة غضب على يحيى أغا وعزله من وظيفته ونصب عليها بده صهره ابراهيم أغا وكان من أجهل رجال عصره خصوصا بالامور الحربية ثم أصدر أمر ابني يحيى أغا المذكور وأرسل خلفه من قتله في الطريق فتأسف عليه غموم الجنود والعربان لكونه كان من أمهر رجال الحرب في الجزائر له معرفة بالخدع العسكرية فضلا عن كونه كان محبوبا عند الناس كافة

الفصل السادس

استيلاء فرنسا على الجزائر

لما صممت فرنسا على اخضاع الجزائر جهزت عليها قوة مؤلفة من ثلاثين ألفا رجل وأربعة آلاف خيال تحت قيادة الجنرال بورمون Bourmont الذي اشتهر بجميحاته لنايليون بونابارت في واقعة وترولو واسطول جسيم من كعب من خمس وخمسين سفينة نقل و ٣٤٠ من بكاوستين بارجة حربية تحت قيادة القيس اميرال دوييري Duperré والكوتتر اميرال روزاميل Rosamel ثم خرجت العمارة المذكورة من نغربولون (٢٥ مايو ١٨٣٠ م الحجة ١٢٤٥ هـ) وقت الظهر عند هبوب نسيم لطيف ثلما أفلتت سارت في هيئة عجيبة وتنظيم غريب وكانت المرتفعات المحيطة بمرسى تولون بها من الخلائق عدد لا يحصى أتوا من كل الجهات للتفرج على هذا الاستعداد العظيم وكان بين رجال هذه التجريدة كثير من العلماء والادباء والكاتب والمصورين وغيرهم ولم يأت المساء حتى كانت جميع السفن على ظهر البحر مصطفة على خط عودى تحفظ كل سفينة المسافة المعينة لها حسب أوامر الاميرال وفي أثناء السير هبت ريح شديدة فرقت الاساطيل عن بعضها ثم اجتمعت أخيرا بجزيرة ميورقه حيث اضطرتهم الارياح المخالفة الى البقاء لغاية ١٠ من شهر يوليو ولما تحسنت الريح تركت مياه ميورقه واتجهت في البحر على ترتيبها المعتاد وفي الثالث عشر من الشهر المذكور شاهد الملاحون الارض عند الصباح فابتهج الجنود وظهرت عليهم علامات السرور ولما صارت العمارة على بعد قليل من الشاطئ جمع الاميرال السفن المنحصلة للعصاروعى سفن القتال ومر بها على مرأى من قلاع مدينة الجزائر وأشار لجميع العمارة بالدخول من رأس سيدي فروج ولم يرض ذلك اليوم حتى رست كل السفن في جون شبه جزيرة سيدي فروج وباتت العساكر تأخذ أهبتها

للتزول الى البر عند الصباح وكانت تلك الليلة مقمرة لطيفة الهواء وفي اليوم التالي الموافق ١٤ من الشهر المذكور ابتدأ نزول الجنود من السفن في الساعة الثالثة من الصباح وقد كان القواد يظنون أن رأس سيدي فروج وعلى الأقل طرف ذلك الرأس به من الحصون ما يصددهم ولهذا كانوا يتفكرون في أنه لو وجد به بعض مدافع من ذوات العيار الكبير أصرت النزول متعذرا مخفوقا بالاختطار فاستولى القاتي على الضباط وصاروا يعملون الفكرة فيما يجب لذلك من الخيل وقد ارتكب أهل الجزائر أعظم الغلط لعدم تحصينهم تلك النقطة لأن خلوهما من الاستحكامات كان من أعظم الاسباب في نجاح تلك التجربة نجاحا عظيما وكان قصد أهل الجزائر من عدم تحصين هذه النقطة هو ترك ميدان خال للفرنساويين ليسهل الفتك بهم والاستيلاء على ما معهم من الذخائر عقب خروجهم من السفن كزعيمهم كأنهم وانفقوا من الاتصاف وقد اقتصر وعلى وضع أربع بطاريات على المرتفعات الموازية للشاطئ تركب الواحدة منها من مدفعين أو ثلاثة ومن بعض الهوانات وبذلك تمكن الفرنسيون من النزول الى البر بكل ترتيب وانتظمت جيوشهم للقتال واستعدت مدافعهم واستولت فرقة من بحارتهم على برج سيدي فروج ثم تقدم الجيش الى الامام وشرع الجزائريون يرمون عليه ببنادقهم ثم بعد قليل وقع الرعب في قلوب بعض العربان الذين كانوا يطلقون المدافع من بعض المرتفعات ففر واوقع الهرج بينهم وبذلك تركوا مواقعهم التي كان يتأني لهم منها الفتك ببقية الجنود التي لازالت تخرج من السفن بلا ممانع

وفي أثناء هذه الحرب كانت تمكن جميع البياددة والطوبجية من الخروج الى البر وأزلت بعدهم الذخائر والاقوات والخيول وكان خروجها بسرعة عجيبه وترتيب تام لأن من أسباب نجاح هذه التجربة اخراج هذه الاشياء الى البر بسرعة سالمة لانه ربما اضطرت العمارة لرفع مراسيها على حين خفاء لوجودها في خليج معرض لهبوب جميع الارباح وكان من الضروري ان يكون في يد الجيش أقواته والذخائر الضرورية للدفاع ومما ثبت هذا القول تكبد اسبانيا الخسائر العظيمة التي خسرتها سابقا في هذه الجهات للاسباب المذكورة وبينما كانت الجنود الفرنسيون يتخرج الى البر كانت طائفة أركان حرب الجيش الفرنسيون تشغل في انشاء خط استحكام ليحتمى شبيه جزيرة سيدي فروج من جهة البر لان الفرنسيين أرادوا جعلها مستودعا عاما للمهمات الجيش أثناء حصار مدينة الجزائر وقد تم لهم ذلك في مدة قريبة ووضعوا بها ٢٦ مدفعا من مدافع العمارة وسكن القائد العام مع جميع أركان حرب في المباني التابعة لزاوية سيدي فروج وفي الخامس عشر من الشهر المذكور أخذت جميع خطوط الاستحكامات الامامية في اطلاق نيرانها الظهور والجزائر بين أمامهم وفي هذه المناوشات تمكن الفرنسيون من معرفة حالة الذين يحاربونهم فوضع لهم مقدار الصعوبات والاختطارات التي تهددهم في هذه الحرب وشاهدوا فرقا من العربان كثيرة على بعد عظيم لا يمكن لبنادق الفرنسيين لاصابتها أما بنادق العربان الطويلة فكانت مقذوفاتها تصل الى العساكر الفرنسيين وكانوا مهرة جدا في استعمالها والاصابتها ولما كان بعضهم مختلفا خلف الاشجار والبعض يركب خيلا سريعة العدو ولا يثبتون في حرا كزعم كانوا بذلك يفرون من كل هجوم منتظم ويقبضون على كثير من الجنود الفرنسيين ولهذا اضطرت الجيش الفرنسي في ما بعد الى ترتيب فرقة مخصوصة وتسليحها بالقربينات ذات المرمى البعيد للتغلب

على هذا الفوقان الذي كان للعرب عليهم وفي الصباح يوم ١٦ منه قامت زوبعة شديدة على حين جافة فكانت الارياح تهب من البحر بقوة عظيمة فوقع الاختسلاط والهريج بين السفن التي قطع بعضها راسها الان هذه الزوبعة لم تمكث طويلا ولو بقيت بضع ساعات لكان قضى على العمارة الفرنسية وربما كانت خابت هذه التجربة أيضا مفاعيلها كما خابت فيما قبل تجر يده شارل كان بنفس هذه الحوادث ولما هدأت الريح بعد ذلك أخذت السفن من مركزها ولم يفقد منها الا بعض سفن النقل وغيرها من السفن الخفيفة ولهذا امر الاميرال باخراج جميع ما بالسفن سريرا مخافة حدوث حادث آخر يعوقهم عن اخراج ما بها وبعد أيام قلائل تحولت شبه جزيرة سيدي فروج الى مدينة فرنساوية وكانت حركات الجيش الفرنسية قاصرة لهذا الوقت على الاستكشافات وحفظ المراكز حتى ظن الجزائريون الضعف فيه وكان الجزائريون نازلين في معسكرهم الواقع على بعد أربعة كيلومترات من النقطة الامامية الفرنسية تحت قيادة ابراهيم القائد العام للجيش الجزائري وكان جيشهم يتألف من نحو ٤٠٠٠٠ بين عربان وبكجيرية وغيرهما من رجال القبائل وكان الادي امر أن لا يعطى للعرب الا القليل من البارود والرصاص خوفا من تمردهم وفي التاسع عشر من الشهر عند انبلاج الصباح هجمت الفرقة الاولى من جيش الاتراك على الجيش الفرنسي وأعارت جيوش قسطنطينة وهران على الجناح الايمن منه للاحاطة به واعملوا سيوفهم وبنادقهم وفر الفرنسيون امامهم وبعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة أتت لهم نجدة كبيرة فتمكنوا من رد جيش الاتراك في جميع النقاط التي هجم منها وأخذت مدافعهم السريعة الاطلاق في القاء القنابل على جيش الجزائر حتى اضطره للتقهقر وأخذوا في تعقبه حتى أخرجوه من خطوطه المستحكمة واستولوا على ما بها من المدافع والخيام والذخائر وغيرها وقد كانت هذه المقاتلة عظيمة أظهر فيها الطرفان جراءة وإقداما غيريين وكانت خسائر الجزائر بين أضعاف خسائر الفرنسيين وبعد هذا الانتصار قوى أمل الفرنسيين في الاستيلاء على الجزائر وتشجعت جنودهم وبقى الفرنسيون في مركزهم لا يخطون الى الامام الى يوم ٢٤ يونيه لانهم كانوا ينتظرون وضع المدافع الجسيمة وغيرها من آلات الحصار فوق المرتفعات التي منها يحاصرون المدينة ولما رأى ابراهيم أن عدم تحرك الفرنسيين ظن ان ذلك لضعفهم فهاجمهم في يوم ٢٤ من الشهر المذكور وعند الصباح بقوة أعظم من المرة الاولى ومع ذلك ارتد حاتبائهم أخذ العرب يطلقون مدافعهم من المراكز المرتفعة التي احتلوا فكانت تسبب للفرنسيين أضرارا جمة وزيادة على ذلك فان طوائف مسلحة كثيرة كانت تهاجمهم من وقت الى وقت فتم قتل منهم وتنبه وكانت المرتفعات التي لهم أعلى من المرتفعات التي احتلها الفرنسيين ولهذا كانت نيران العرب تؤثر في الجيش الفرنسي تأثيرا خطرا حتى كان يتعين على الفرنسيين احتلال تلك النقطة وفي يوم ٢٩ عند الصباح استعد الجيش لمهاجمة الجزائريين ثم سارت صفوفهم لمهاجمتهم فهاجموهم وبعد مقاومة قليلة أخرجوهم من مواقعهم واستولوا عليها وبذلك احتلوا النقطة المرتفعة التي منها يشاهدون مدينة الجزائر وقللا عنها ووضوا حياها الآن الفرنسيين رأوا من الضرورى لهم قبل حصار مدينة الجزائر الاستيلاء على قلعة حصينة هناك يقال لها قلعة الامبراطور والمعروفة بقلعة مولاي حسن وهي القلعة التي استولى عليها الجزائريون بالخدع الحربية من يد الاسبانول عندما هاجموا الجزائر

وعادوا بالخبيثة وهي واقعة على بعد ٨٠٠ متر من المدينة فوق مكان مرتفع يحكم على
 ما حواله من الجهات ولما أراد الفرنسيون أن ينشؤا لهم بالمرتفع الذي احتلوه استحكاما أطلق
 عليهم الجزائريون من تلك القلعة نيرانا قوية متواصلة فلم يتمكنوا من بناءه إلا بعد زمن ومشقة وفي
 تلك الاثناء كانت الجنود تخرج من القلعة المذكورة وتهاجم الجنود الفرنسيين بجحمة
 وبينما كان الجيش البري يجرى هذه الاعمال والمناوشات كانت العمارة البحرية تحت قيادة
 القيس أميرال دو بيري تجتهد في تخريب البطاريات الموجودة على الميناء والحصون البحرية لتتفرق
 قوة الجزائريين في الدفاع عن بلادهم وفي اليوم الرابع من شهر يوليو أخذت جميع البطاريات
 الفرنسية تطلق نيرانها من البر والبحر بشدة على المدينة فتخرب من ذلك بطاريات واستحكامات
 وحصون الجزائريين فكانت القنابل المفرقة تسقط وسط الاستحكامات فتقتل من الجنود عددا
 عظيما ومع ذلك كانت نيران الجزائريين قوية متواصلة حتى ان البطاريات الفرنسية لم تتمكن من
 التغلب عليها إلا بعد زمن طويل

ولما علم الادي بهذه الاخبار المحزنة وان غالب الطوبى بجحمة قتلوا أو هربوا أمر من بقي في القلعة
 بوضع النيران في مستودعات البار وبعد خروج الجنود منها مؤثرا بذلك قتل الفرنسيين تحت
 انقاضها وبينما كان الفرنسيون يطلقون نيرانهم اذ سمعوا مرة واحدة صوتا هائلا ارتجت له الآفاق
 وأظلمت منه السماء وأرأى في الجوف مدافع وقنابل وأحجارا وأخشابا طائرة كانت تساقط عليهم من كل
 جهة ودخانا كثيفا غطى منظر المدينة والبحر ثم ان الفرنسيين ذهبوا الى تلك القلعة للاستيلاء عليها
 فوجدوها خالية خاوية وكان الجزائريون أخلاوها قبل ذلك وأخلوا أيضا الاستحكامات الصغيرة
 القريبة منها وذلك تمكن الفرنسيين من وضع بطارياتهم قريبا من أسوار المدينة وقد كان الادي
 حسين باشا يظن أن هذه القلعة تصد الفرنسيين وتقاومهم الى محجى فصل الامطار فيكون قهرهم من
 أبسط الامور

ثم ان الاهالي ازداد غضبهم وحنقهم على الادي الذي حلت به المصائب من كل جهة لجهله
 وجبروته واضطروا له لاكماله في أمر الصلح فإرسل أحد وزراءه المسمى سيدي مصطفى الى القائد العام
 الفرنسي ووزده بالتعليمات الاتية وهي أن الادي يتنازل عن جميع حقوقه التي له على فرنسا
 ويدفع مصاريف الحرب ويطلب السماح من ملك فرنسا ويرد للتجار الفرنسيين جميع الامتيازات
 التي كانت لهم وينزدهم أخرى كل ذلك بشرط أن يترك الفرنسيين البلاد فقال القائد الموسمي
 دو بوزمون انه لا يمكنه فتح باب الخبايا أصلا قبل أن يحتل المدينة التي لا بد وأن تسلم اليه ثم ان الادي
 لما وصله جواب القائد الفرنسي أرسل له مندوبين آخرين أحسد همدعي سيدي محمد بوداريه
 والثاني سيدي محمود وكانا يحسنان اللغة الفرنسية وجدوا اشتغالهما بالتجارة بحمد سيديا فقبلا
 القائد وتكلم معه وأظهر له صعوبة شروطة خصوصا الشرط الذي فيه ان المدينة تسلم له بلا شرط
 يفعل فيها كيف شاء وقال له ان الاهالي يفضلون الموت على التسليم بهذه الكيفية وما زالوا حتى
 تنازل القائد المذكور قليلا عن مطالبه الشديدة وبعد تبادل الخبرات بين الطرفين قرر القائد
 شروط التسليم^(١) بمعااهدة وقع عليها الطرفان في صباح ذلك اليوم وهو الخامس من يوليو وفي الساعة

(١) أولا ان يسلم للجيش الفرنسي في الساعة العاشرة حصن القصبة وجميع الحصون الأخرى التابعة لمدينة

المعينة دخل الجنود الفرنسية المدينة بلا مناع ولما رأى قائد العمارة العلم الفرنسي يتوج على قلاع المدينة أتى بسفنه ودخل المرسى وبعد أن استقر قدم الفرنسيون في المدينة سلم الداي حسين باشا بنفسه للقائد العام مفتاح خزائن الامتعة وكان بها من الذهب والفضة والخلى على ما يروى ما تزيد قيمته عن ٤٨٠٦٨٤٠٥٢٧ فرنكا ولما أضيفنا الى ذلك قيمة الاصواف والحبوب التي وجدت بمخازن الولاية وأثمان السبعائة مدفوع من البرونزا التي كانت بقلاعها بلغت قيمة ذلك ٥٥٠٦٨٤٠٥٢٧ من الفرنكات وهذا المبلغ يزيد عن مبلغ المصاريف التي صرفت على تلك التجريدة التي بلغت قيمتها حسب التقدير الرسمي ٤٨٠٥٠٠٠٠٠ فرنك هذا بخلاف ثمانمائة مدفوع أخرى من الحديد ومقدار عظيم من المقدوفات والبارود والذخائر الحربية وقيمة الاملاك العمومية التي كانت تشتغل في العاصمة على نصف المنازل التي تبلغ قيمتها وحدها أكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠ من الفرنكات وقد أرسل الفرنسيون الى بلادهم مقدار عظيم من الاموال التي وجدوها منها ١٠٠٠٠٠٠٠ من الولايات نقدا واستولى الفرنسيون ايضا على ١٧ سفينة بحرية بجميع أسلحتها ومهماتهما ولما كانت اقامة الداي والكبرى بمدينة الجزائر مضررة بصالح الفاتحين وكانت حياة الداي حسين باشا غير مأمونة في وسط قومه الغاضبين عليه الذين كان بعضهم يبل معظمهم ينسب اليه ما أصابهم من الجبروت وتكبره وبعضهم اضعفه حتى ان الفرنسيين رأوا من الضرورة أن يرتبوا له فرقة تقوم بحراسته اضطرره حيثئذ لبارحة المدينة وجعلوا له حق اختيار المكان الذي يريد الذهاب اليه وبعد أن توقف قليلا رضى بالسفر الى مدينة نابولي فرضى القائد العام بذلك أيضا وخصص له فرقاطة من العمارة الفرنسية تدعى جاندارك سافرت به واتباعه وحرمه وأمواله الوافرة الى تلك المدينة وبصحبة ابراهيم أغا صهره ورئيس جيوشه وبعد أن أقام بتلك المدينة زمنا انتقل منها الى مدينة ليفورنو ثم قصد الاسكندرية فقبله فيها محمد علي باشا والى الديار المصرية وخصص له معاشا واستقر مقيما بتلك المدينة الى أن مات (١٨٢٨ م - ١٢٥٤ هـ) أما الجنود الكبارية العزب الذين كانوا يحتلون ثكنات الجزائر وعددهم ١٥٠٠ فمأهم الفرنسيون الى ازميرهم وغيرهم من الجنود المترجمين ومنحوا كل واحد منهم قدرا من المال قبل سفرهم وبعد ذلك ألف القائد العام لجنة للنظر فيما تقتضيه الترتيبات الحديثة التي أراد الفرنسيون ادخالها في تلك البلاد ليستقر لهم بها المقام

وباستيلاء الفرنسيين على هذه البلاد تخلصت أوروبا من الضرائب الخنزيرية التي كانت

الجزائر وكذا أبواب تلك المدينة ثانيا يتعهد قائد الجيش الفرنسيون لسمو الداي الجزائر بأن يترك له أمواله الخصوصية وأملاكه يتصرف فيها كيف شاء ثالثا تعطى للداي الحرية التامة في النهاب مع عائلته وأمواله الى المكان الذي يختار ومادام مقيما بالجزائر يكون هو وعائلته تحت حماية القائد العام للجيش الفرنسي ويخصص له حرس يقوم بحراسته وحراسة عائلته رابعا يتعهد القائد الفرنسيون باعطاء جميع العساكر نفس الرطابة والحماية التي تكون للداي خامسا تسبق حرية القيام بشؤون الدين الاسلامي ولا يلحق بحرية جميع طبقات السكان وديانتهم وأملاكهم وتجارتهم وصناعاتهم أدنى ضرر ويحترم نسأؤهم ويتعهد القائد العام بشرفه بإجراء ذلك سادسا يكون التوقيع على هذه الاتفاقية قبل الساعة العاشرة صباحا وتدخل الجيوش الفرنسية به عقب ذلك الى

تدفعها سنويا للحكومة الجزائرية في مقابلة عدم التعرض لسفنها التجارية (١) ولما استولى الفرنسيون على الحاضرة وضواحيها أصرت بقية الجهات على الامتناع من الطاعة لفرنسا لانها انما أرادت الانتقام من الوالي حسين باشا وقد حصل فانقرت بالحكم في الجهات الشرقية من القطر الحاج أحمد باي باي قسطنطينية والجهات الجنوبية والغربية تفرقت تحت رؤساء القبائل ورام الفرنسيون محاولة الاستيلاء عليهم بالرفق بأن يتولى الامر في وهران والي تونس حسين باي بارسال أحد عائلته أو أحد موظفيه ليقوم مقامه وعلى ذلك أرسل الوالي المذكور عاملا من جهته معه شريطة من الحرس فلم ينفذ أمره في مدينة وهران فضلا عن خارجها ورجع من حيث أتى ثم اجتمعت الجهات الغربية والجنوبية بعد ذلك على مبايعة الامير الجليل صاحب الذكر الشهير السيد عبد القادر بن محي الدين الحسيني فقام بالمدافعة عن البلاد كما يجب ولازمه النصر مدة طويلة الى أن كان من أمره ما امر بك بعضه في تاريخ مراکش

وفي خلال ذلك أخذت فرنسا في محاربة الدولة العثمانية قاصدة كما تدعى تسليم مدينة الجزائر اليها بموجب شروط يتفق عليها وبينما كانت الاخبار جارية والمحركات تتردد بين الطرفين لتسوية هذه المسئلة قامت في فرنسا الثورة التي خلع فيها شارل العاشر وتولى بعده لويز فيليب (٢٢ يوليو ١٨٣٠ م) فعزم هذا الملك الجديد على ابقاء الجزائر في قبضة فرنسا وأرسل الجنرال كلوسيل (Clausel) قائدا عاما للجيش التي بها عوضا عن المارشال بورمون ولما وصل هذا الجنرال الى مدينة الجزائر أبعد جميع الجنود العثمانية وأمورى الاتراك الذين كانوا لذلك الوقت مباشرين الاحكام من مراكهم وأعلن بدخول البلاد في حكم الفرنسيين نهائيا فقامت عند ذلك جميع قبائل العرب والبربر على الفرنسيين واشتعلت نيران الخلاف وهاجر كثير من الامراء وأمورى البلاد منها وقصدوا الشرق فاختار بعضهم الاقامة في جزيرة كريد والبعض في ازمير والبعض في نجر الاسكندرية والبعض بنفس مدينة الجزائر بشرط ملازمة السكنية واتباع أوامر وقوانين الفرنسيين بها ولما بلغ الدولة العثمانية ذلك أقامت الحجعة على فرنسا

القضية ويستولون على قلاع المدينة وقلاع البحرية اه الامضات حسين باشا الكونت دو بورمونت اه من صحيفة ١٨٣٣ من تاريخ الجزائر تأليف روي (J. J. E. Roy)
 (١) كانت مملكة السيليين تدفع ضريبة سنوية قدرها ٢٤٠٠٠ غرش اسبانيولي وتقدم هدايا بقيمة ٢٠٠٠٠ غرش ولم تكن سردينيا تدفع جزية سنوية الا انها عندما تغيرت قنصلها كانت تدفع قدرا عظيما وذلك بمساعدة انكلتره واما مالكة الكنيسة التي تحميها فرنسا فلم تكن تدفع لجزيرة ولا هدايا تفصيلية وحكومة البرتغال كانت تدفع القدر الذي تدفعه حكومة السيليين واسبانيا كانت تقدم هدايا فاخرة عند تغيير قنصلها أما أستراليا فانها كانت معاقبة من الجزيرة والهدايا بواسطة الدولة العثمانية وكانت انكلتره تدفع ٦٠٠ ليرة انكلترية كل ما غيرت قنصلها رغم ان الاتفاق المعقود بين الجزائر وبينها سنة ١٨١٦ م حينما هاجم الورد اسبانيول تلك البلاد وكانت هولانده تدفع هدية تشمل انكلتره وكذا الممالك المتحدة الاميركانية ومملكة هانوفر وبريم وكانت بلاد السويد والدينمارك تقدمان سنويا مواد حربية ووذخائر تبلغ قيمتها ٤٠٠٠ غرش اسبانيولي وهذه الممالك الاخيرة كانت تدفع زيادة من ذلك كل عشر سنوات ١٠٠٠٠ غرش اسبانيولي ويقدم كل منها هدية عند تجديد قنصلها وكانت فرنسا تقدم الهدايا هدية عند تعيين قنصلها الجديد والقرش اسبانيولي المذكور يزديقه الامن الربالي المصري اه من تاريخ الجزائر تأليف روي صحيفة ١٨٥

لاستيلائها على بلاد نابعة لها فلم تنل شيئا ومن وقتئذ ضاعت ولاية الجزائر من يد الدولة العلية باستبداد حاكما وعدم تبصره في الامور فلا حول ولا قوة الا بالله ومع كل ذلك فقد استمدت دعيمان العرب زمتا طويلا قام في خلاله المرحوم الامير عبدالقادر المشار اليه بمجرب المشهورة مدافعا عن البلاد وأصر العرب على عدم الرضوخ لحكم الاجنبي كما هي صفتهم فالتزمت فرنسا بسوق جيوش عديدة وضاعت همتها لاختضاع أولئك العرب وقد استمرت تلك الحرب الى سنة ١٨٤٨ م - ١٢٦٤ هـ

الامير عبدالقادر الحسيني - (١٢٤٦ - ١٢٦٤ هـ) لما استولى الفرنسيون على ثغر الجزائر وما حوله وقعت الفوضى وهاجت الفتن بين قبائل العرب واستقلت الجهات تحت رؤسائها فانفرد بالحكم في الجهات الشرقية الحاج أحمد باي باي قسطنطينة والجهات الجنوبية والغربية استقل بالحكم فيها رؤساء قبائلها وبايع أهل تلمسان وما حوله المولى عبد الرحمن ملك المغرب الاقصى فقبل بيعتهم كما مر في تاريخ مرآة كاش وكان الفقيه المرابط محي الدين عبدالقادر الحسيني نازلا ووسط حلة الخشم عند المشاشيل وكان متظاهرا بالخير والصلاح وتدريس العلم واتخذ زاوية لطلب العلم وقراءة القرآن فاشتهر عند أولئك القبائل واعتقدوه فلما قدم العدواهل تلك البلاد وجاشت فيما بينهم الفتن اجتمع الخشم وبعض بني عامر وتفاوضوا فيما نزل بهم واجمع رأيهم على بيعته الشيخ محي الدين المذكور فذهبوا اليه وعرضوا عليه ما في أنفسهم فنجاني عن منصب الرياسة وأظهر الورع واعتذر بأنه قد شاخ فتطارحوا عليه فاشار عليهم بولده الحاج عبدالقادر وكان له يومئذ عدة أولاد ليس الحاج عبدالقادر أكبرهم ولا أعلمهم ولا أصلحهم وانما كان فيه مضاء وإقدام فأسغفوه بشرط أن يكون نظره منسجبا عليه ومشير بما تدعو الضرورة اليه ولما تم أمر الحاج عبدالقادر جمع كتيبة من بني عامر والخشم وزحف الى وهران وكان الفرنسيين قد استولوا عليها منذ سبعة أشهر فوقع بهم وقعة شنعاء قتل فيها أو أسر وأبلغ في النكابة ورجع مظفرا منصورا فتميموا به وأحبوه وتمسك منسجما ناموسه ومع ذلك لم يتمكن من فتح المدينة الا أنه اضطر الجنرال ديميشيل (Desmechels) لان يعقد معه معاهدة يعترف له فيها بالاستقلال والامارة وسلم له حتى احتكار التجارة بجميع اقليم وهران وبعد ذلك في سنة ١٨٣٥ م - ١٢٥١ هـ انتصر على الجنرال تريزل (Trézel) نصره عظيمة بالقرب من بلدة مكنة كانت سيبيا في ازدياد نفوذه ولما جرد عليه الفرنسيون جيشا تحت قيادة المارشال كلوزل (Clauzel) لم يستفيدوا من ذلك شيئا يذكروا غير احتلالهم مدينة مسكرا احتلالا موقتا ولم يسمع أهل تلمسان بانتصارات الامير عبدالقادر وهم أخرجوا ما كانوا الى من يقوم بامرهم وقد وادع عليه وأخبروه بما كان منهم من مبايعة المولى عبدالرحمن صاحب مرآة كاش وفاس وانهم يبايعونه على بيعته فأجابهم الحاج عبدالقادر الى ذلك وأخذ عليهم البيعة وأظهر الطاعة والانقياد للمولى عبدالرحمن وخطب به على منابر مملكته وكتب اليه يعلمه بأنه من بعض خدمه وقائدهم قواد جنده فاستقام أمر الحاج عبدالقادر وثبت قدمه في جهات تلمسان ثم انحرف عليه بعض القبائل لانهم كانوا معادين لقبيلة الخشم وازدادت عداوتهم ونفرتهم منه لما قرب اليه الخشم فساروا الى وهران ودخلوا في حماية الفرنسيين وحصلت بسببهم حروب صعبة وكان

رئيس تلك القبائل رجلا يقال له مصطفي بن اسمعيل كان هو السبب الاكبر في استيلاء الفرنسيين على بلاد المغرب الاوسط وكانت جل الحروب التي حدثت بين الجزائر بين والفرنساو بين في تلك المدة على يده الى أن قتل (١٨٤٣ م - ١٢٥٩ هـ)

ولما اتصل الخبر بالمولى عبد الرحمن وما عليه الحاج عبد القادر من جهاد العدو ووجاهة بيضة المسلمين أعجبه حاله وحسنت منزلته عنده لانه رأى أنه قام بنصرة الاسلام حين لا ناصر له في تلك الجهات فصار المولى المشار اليه عنده بالجميل والسلاح والمال وطالت الحرب بين الامير وبين الفرنسيين حتى انه أخرجه من تلمسان صاغرين بعد أن كانوا استولوا عليها ولما خاف الفرنسيين منه على مستعمرتهم الجديدة عقد معه الجنرال بوجود (Bugeaud) معاهدة تعرف بمعاهدة تفنا (اسم لنهر ببلاد وهران) (١٨٢٧ م) وكان القصد منها تعيين حدود بين المستعمرة الفرنسية وبين ممالك الامير عبد القادر وقد قوبلت هذه المعاهدة في فرنسا بغاية التحقير لانها احطت بمقام الفرنسيين جدا ولذلك اجتهدوا في نقضها حتى نقضها الامير (١٨٣٩ م - ١٢٥٥ هـ) بتعديده على الاملاك الفرنسية لانه بينما كان يتخبر مع الحاكم العام الفرنسي ويرسل وزيره رافرمق ضاعنه الى باريس كان يستعد استعدادا تاما للثبوت ثورة عمومية كادت توقع الخراب والدمار بفرنسيين الجزائر ولما انتشرت هذه الثورة وأغارت جيوش عبد القادر على المدن الفرنسية استمدت المارشال بوجود دولته فلما أمده تخرج بجيش عظيم وأخذ في مطاردة جنود عبد القادر وانقض عليهم بالآغات المتتابعة حتى تمكن من ان يفرق عن الامير غالب القبائل المنضمة اليه بما كان يملكه من الاموال والهدايا وقابلها أيضا الدوق دوماال (Daumal) وهزم جيشه واستولى على مملكته وكان الامير في كل هذه المدة يكتب ملك المغرب الاقصى وعلماءه بطلب مساعدته فكان المولى عبد الرحمن يمدد بالمال والرجال الى ان استولى الفرنسيون (١٢٥٩ هـ - ١٨٤٣ م) على جميع بلاد المغرب الاوسط وصار الامير عبد القادر يتنقل في أطرافها فتارة بالبحر وتارة بين يني ترانسون وتارة بوجدة والريف وغير ذلك وربما استكثر في هذه التنقلات بين هو من رعيه السلطان أو جنده فاستطال الفرنسيون لذلك على أراضي المغرب الاقصى وكان ما كان من هزيمة جيش المولى عبد الرحمن باسلى وهى التى تقدم ذكرها باوفى بيان عند الكلام على سلطنته ببلادهمرا كس ولما هزم جيش المولى عبد الرحمن واتزم بهدم امداد عبد القادر حسب الشروط التى عقدت بينه وبين الفرنسيين غضب عبد القادر وطمع على المولى عبد الرحمن لعدم نجده له في هذا الوقت الذى ليس فيه للمسلمين ناصر ولذلك فسدت نية الامير على المولى عبد الرحمن واشتد الامر بينهما حتى تحاربا وهزم الامير عبد القادر (١٢٦٤ هـ - ١٨٤٨ م) ولما ضاقت السبل بالامير استأمن للفرنسيين على يد الجنرال لاموريسير (Lamoricièr) (١٨٤٨ م) المذكورة ثم جعل الى تولون معززا مكرما وفي سنة ١٨٥٣ م - ١٢٦٩ هـ أطلق سراحه نادليون الثالث فذهب الى الاستانة ثم الى بروسه ثم الى دمشق وله فيها أعمال بيضاء ثم زار بعد ذلك مدينة باريس (١٨٦٧ م) فقوبل فيها بغاية الترحاب والتكريم وكانت وفاته بدمشق الشام سنة ١٣٠١ هـ - ١٨٨٣ م وولادته سنة ١٢١٦ هـ - ١٨٠١ م بمسكرة من أعمال

الجزائر وله عدة ناليف معتبرة رجة الله عليه وقد أظهر هذا الامير في الوقائع بينه وبين الفرنسيين شجاعة لا توصف ومهارة وتديرا وإقداما وحيلا حربية دلت على علوم مكانته وعظيم قدرته وقد أفي في بعض الوقائع بما هو خارق للعادة حتى عده البعض من الكرامات كطفر فرسه الازرق به ستين متراجين أحاطت به العساكر الفرنسية كما كالحاقه وراموا القبض عليه باليد فطفر به فرسه على رؤس العساكر وأسلمتهم ذلك المدى ونجارا كضالى منعه ودام محاربا بهم نحو سبع عشرة سنة واستقامت له حكومة اعترف بها الفرنسيون وبنوا فيها السكة باسمه وانشأ مصانع المدافع والبنادق والبارود وغيرها من الادوات الحربية وكان في أول أمره دعا الحاج أحمد باي باي قسطنطينة ليتداعا ويكونايدا واحدة فامتنع تجبرا وطغيانا وخذل الامة الى أن وهن أمره لانفراده واستولى الفرنسيون على ما كان تحت يده أما الامير عبد القادر فيقي مدافعا ومهاجرا الى ان سوت الغلطات النفسانية المخالفة للديانة والسياسة لسطان المغرب الاتحاد مع الفرنسيين على محاربة الامير المشار اليه وقطع عنه سلطان المغرب خط التجانه الى جهات الصحراء فاضطر الى التسليم كقلناه وكان اذ ذلك نابليون الثالث مقبوضا عليه يساريس حين مجي الامير اليها فحصلت منه مودة للامير ويقال انه وعده بالمساعدة لو أفضى اليه ملك فرنسا والمساعدة الايام واستولى على منصب الامبراطورية أراد تنفيذ وعده فلم تساعده رجال دولته على انجاز قصده من تولية الامير المشار اليه على الجزائر

ولما خرج السيد عبد القادر من الجزائر خف الخطب جدا على فرنسا الا أن جبل الزاوة بقي نائرا عليها ولم تتمكن من تسكينه الا بجدع الرؤساء بالاموال والهدايا والموا عيسد ولا زالت الثورات بعد ذلك تتوالى الى الآن ومن أشهرها ثورة المرابط السيد أبي زيان (١٨٤٩ م) وثورة السيد لالا التي حصلت سنة ١٨٦٤ م وغيرهما وقد تمكنت فرنسا بما لها من الدهاء وحسن السياسة من قمع كل هذه الثورات ولما عادت الراحة الى ربوعها يبلا الجزائر اراهمت فرنسا في مدا الخطوط الحديدية والتلغرافية لتمكين قدمها وسنت للبلاد قوانين ونظامات مناسبة لحالتها وأصلحت جميع ثغورها وحصنت ماراته واجب التحصين منها وانشأت بداخلها القلاع والمعازل والطرق العسكرية وكل ذلك احترازا من ثورة تقوم بالبلاد

وقد كان نابليون الثالث يهتم باهر الجزائر جدا حتى انه في سنة ١٢٧٣ هـ - ١٨٥٦ م قال في كتاب منه الى حاكم الجزائر العام ان الجزائر ليست مستعمرة فرنسية بل مملكة عربية وانه لا يجوز ان يصادر الاهالي في شئ من ملكهم بل يجب ان تكون القبائل أصحاب الاملاك في البلاد التي يقطنونها وان يسن نظام دقيق للملك الشخصي وغير ذلك ولما زار الجزائر بعد ذلك (١٨٦٥ م - ١٢٨٢ هـ) أعلن أيضا هناك الاهالي شفاها بنفس ما تضمنه الكتاب المذكور ثم أخذ في تطمينهم وتسكين حدمهم وازاحة كثير من غلهم وكان يركن للعرب كثيرا حتى انه توغل في داخل الجزائر وأواسط القبائل الجسيمة ذات السطوة منفردا عن الخامية الفرنسية معتمدا على وفاء العرب وصدقهم وقد تعهدوا له بذلك وقاموا له حق القيام من عامتهم وخاصتهم ورفحوا بخدمته وماوا اليه الى انصافه وأظهروا له من الطاعة والتعظيم ما عاده به مسرورا موقنا بانصاف مطلبهم ومجبا خالصا واطفا حنوا عليهم

واختص منهم في باريس قسمان العساكر لحراسة ذاته وأكرم مقامهم ورفع شأنهم واتخذ كوكبة من فرسانهم وصحبونه في ركوبه بجلبابهم العربية والحاصل انه من وقت ماتم لفرانسوا اخضاع عموم ولاية الجزائر وضعت ادارتها في يد حاكم عام وفي سنة ١٨٥٨ م - ١٢٧٥ هـ أصدر الامبراطور نابليون الثالث أمرا جعل فيه البرنس نابليون رئيسا لوزارة خصوصية تشكلت لادارة أشغال الجزائر فصلت المقاطعات الملكية عن البلاد العسكرية وأقيمت مجالس عمومية ولما اتضح ان هذا الترتيب غير وافي بالمراد جعلت الادارة سنة ١٨٦٠ م - ١٢٧٧ هـ بيد حاكم عام عسكري يخضع له جميع الحكام الملكيين والعسكريين وتعين لها والامارشال بليسير (Pélissier) (١٨٦٠ - ١٨٦٤ م) ثم المارشال ماكاهون (Mac-Mahon) (١٨٦٤ - ١٨٧٠ م) ولما قامت الجمهورية في السنة المذكورة جعلت الادارة تحت حاكم ملكي وتعين لها الموسيو دوبوزي (du Bouzet) والموسيو اليكسيس لامبير (Alexis Lambert) بلقب قوميسير فوق العادة ثم الاميرال جيدون (Gueydon) (١٨٧١ - ١٨٧٣ م) ثم الجنرال شانزي (Chanzy) (١٨٧٣ - ١٨٧٩ م) وفي مسدنه أدخلت المسدن الجزائرية وبعض القرى تحت الحكم المدني ثم خلفه الموسيو البيرغريفي (Albert Grévy) (١٨٧٩ - ١٨٨١ م) ثم الموسيو تيرمان (Tirman) (١٨٨١ م) وجعلت له الرياسة على الادارة الملكية والعسكرية معا وتطمت الادارة وقتئذ على هيئة النظام الاداري المعمول به في فرانسوا وبلغ عدد سكان ولاية الجزائر في السنة المذكورة (٣,٣١٠,٤١٢) نسمة وقد كانت سفن الجزائر التجارية في سنة ١٨٦٨ م مؤلفة من ١٤٧ سفينة شراعية مجموعها ٤٠٩٨ طناوا كثر ملاحيا وרבانا منهم من الوطنيين الذين لبثوا حائزين لشهرتهم في سلاحة البحار الى يومنا هذا

الباب الثاني عشر

تاريخ تونس

(الفصل الاول)

وصفها الجغرافي

تسمى هذه البلاد في كتب العرب والرومان بافريقية وهي واقعة في الدرجة ١٥, ٧, ٣, ٣ من العرض الشمالي والدرجة ٩, ٣, ٥ من الطول الشرقي من خط نصف نهار باريس وتحد شمالا بالبحر المتوسط الابيض وشرقا بالبحر المذكور وطرابلس الغرب وجنوبا ببلاد الصحراء الكبرى وغربا ببلاد الجزائر ويبلغ مساحتها نحو ٧٠٠٠٠ من الاميال المربعة ويزيد سكانها الاثنان عن ٣,٠٠٠,٠٠٠ نسمة أكثرهم عرب وبربر أما سكان السواد فهم خليط من الاتراك والمغاربة واليهود والتليانيين والفرنساويين وغيرهم من أجناس أخرى مختلفة وقد عرف الفينيقيون

هذه البلاد وأهميتها منذ أني عام قبل المسيح عندما كانت سفنهم تخمر بالبحر الابيض المتوسط لتأسيس المستعمرات ويوجد بسواحل هذه البلاد جلة تخليجان أشهرهما خليج أو بحيرة بنزرت التي حصنها الفرنسيون حديثا وخليج أو بحيرة تونس وخليج قابس والجهات الغربية من هذه البلاد جبلية كثيرة الغابات يبلغ ارتفاع بعض جبالها إلى ألفي متر ومن جبالها جبل أوريس بجهة الجنوب ومن أنهارها نهر مجردة والوادي الكبير وزوارا ومليانة وجميعها لا تصلح لسير السفن ويوجد بداخلها بحيرات مالحة أشهرها بحيرة القيروان وبحيرة الحرير أما مناخها فيقرب من مناخ بلاد الجزائر صحي بالجهات القريبة من البحر شديد الحرارة كثير التغيرات الفجائية بجهات الصحراء ولا تزال الفلاحة بهما متأخرة جدا مع جودة أراضيها وكثرة محصولاتها التي منها الخنطة والخضراوات والتمر والتين والزيتون والتوت والبرتقال والعنب والقطن والنيلة والرغفران وقصب السكر والتبغ ويستخرج المرجان بشواطئها وبها الخيول الجيدة ومن حيواناتها الاسود والفهود والضباع وغيرها ومن معادنها الفضة والنحاس والرصاص والزنبق والملح وبها مياه معدنية كثيرة ولها تجارة جيدة مع بلاد السودان بداخل افريقية وكانت هذه البلاد عند استيلاء الفرنسيين عليها مقسومة إلى ١٨ عمالة تسمى بالاطن يحكمها عمال يقال لهم قواد ينوب عنهم خلفا ومشايخ مكلفون بجباية الاموال وكانت ايراداتها سنة ١٨٨٤ م (١٤٩٥٧,٠٠٠) فرنك ومصاريفها تقرب من ذلك وكانت ديونها الخارجية (١٨٠,٠٠٠,٠٠٠) من الفرنكات وشواطئها غير منتظمة كثيرة التلسنات والرؤس التي منها الرأس الابيض الذي هو أبعد نقطة إلى الشمال بافريقية وقد اشتهرت هذه البلاد بالعمارة بعد ما أسس فيها أهل فينيقية مستعمرة قرطاجنة التي أتى سكانها من مدينة صور (٨٨٦ ق م) على الصورة المشروحة في صحيفة ٨٧ من هذا الكتاب ثم زادت العمارة في أيام العرب خصوصا بعد ان شيد فيها عقبه بن نافع مدينة القيروان (٥٠٠) كما تقدم في تاريخ المغرب ولما احتل أمر دول العرب فتحت الدولة العلية العثمانية تونس (٩٨١ هـ) ومن وقتها صارت معدودة من ضمن ولاياتها الافريقية ومع توالي السنين والايام واشتغال الدولة العلية بالحروب التي فتحت عليها في أوروبا في القرن السابع عشر والثامن عشر نال ولايتها الاستقلال الاداري وحدث في القرن التاسع عشر من الولايات الممتازة وأخذ حيل تعلقها السياسي بالباب العالي يتراخي عن خطته المرسومة له من عهد الفتح العثماني حتى صارت كأنها ولاية مطلقة التصرف في كافة شؤونها فأخذت الدول الأوروبية من وقتئذ تجتهد في امتداد نفوذها والتدخل في شؤونها حتى تمكنت فرنسا من نوال الفرصة واحتلت جيوشها البلاد (١٨٨١ م) في زمن قنصلها الجنرال الميسور روستان كما سيأتي مفصلا في هذا التاريخ

(الفصل الثاني)

ثغور تونس وملخص أخبارها البحرية

مدينة تونس وهي العاصمة وسكانها يبلغون ١٥٠,٠٠٠ نسمة ويقال ان مرافئها الخالي كان سابقا أراضي كثيرة الجنات والمياه والزرع والفاكهة فغلب عليها ماء البحر المالح فصارت المدينة

في منتهى جون يعرف بجون أبي سعيد على بحيرة طولها ستة أميال وعرضها ثمانية ولهافهم يتصل
 بالبحر يعرف بقم أو حلق الوادي وكانت حصينة ولما نزل عليها احسان بن النعمان الازدي في أيام
 عبد الملك لاقتحاجها كما مر سأل الروم ان لا يدخل عليهم وان يضع عليهم الخراج فاجابهم الى ذلك
 وكانت لهم في المرسي المذكور جلة سفن فركبها ونجوا بأنفسهم وتركو المدينة خاوية على عروشها
 فدخلها احسان عنوة (٧٠ هـ) وبني فيها مسجدا واحكام بناءها وأصلح مينائها ومد على مدخلها
 سلسلة من الحديد وجعلها رباطا للمسلمين تمنع الدخول اليها والخارج منها الا بأمر الوالي وفي سنة
 ١١٤ هـ بني بها عبد الله بن الحجاب جامع ودور للصناعة فاشتهرت بصناعة السفن الحربية
 وقتئذ وقال ياقوت ان بها قبر المؤدب محرز يقسم به ملاحو المراكب واذا جاش عليهم البحر يحملون
 من تراب قبره معهم وينذرون له ولهذا المدينة قلعة عظيمة منيعة تشرف على البحر وعدة حصون
 أخرى ومرفؤها حسن جدا اهـ وكانت تسمى قديما ترشيش وروى بعض مؤرخي العرب في
 سبب تسميتها تونس قولاً بعيداً عن الصحة وبهذه المدينة معامل كثيرة لنسج الاقشة الصوفية والحربية
 المعتبرة وغيرها وهي حصينة

ومناستير وهي قاعدة ولاية ولها سور وحصون مرساها تجارى وسكانها نحو ١٢٠٠٠
 نسمة وهي دون سوسة في الحضارة والمعارف ومن صادراتها الاقشة الصوفية والبرانس وزيت
 الزيتون والصابون ينتموا بين تونس ومرسيليا مواصلا لبحرية
 وقابس وسكانها ٩٠٠٠ نسمة وهم على البداوة ولها مرسي قليل التجارة وبها آثار قديمة
 رومانية

وكركتة وهي جزيرة واقعة بالبحر المتوسط بجليج قابس على بعد ١٥ كيلومترا من
 الشاطي تحله الاراضي قليلة السكان وكانت تسمى قديما سيرسينا وترسو بها بعض السفن الشراعية
 وبجزيرة جربة التابعة لتونس والقرية من قابس عدة ممرات صغيرة صالحة لان تلجئ اليها السفن
 الصغيرة وقت الزوابع أما الجزيرة فيسكنها قوم من البربر وبها بساتين كثيرة بينها وبين البرالكبير مجاز
 طولها من المغرب الى المشرق ستون ميلا وعرضها من ناحية الغرب عشرون ميلا ومن ناحية الشرق
 ١٥ ميلا وقد اختلف أهلها بالنسج وعمل أبواب الصوف الجيدة وكان أهلها قديما على رأى
 الخوارج ففحمت سنة ٤٧ هـ ولما غلبت العرب منهاجحة على الضواحي وصارت لهم أخذ أهل جربة
 في انشاء الاساطيل وغزو الساحل ثم غزاهم على بن يحيى بن باديس (٥٠٩ هـ) بأساطيله الى أن
 انقادوا وضمنوا قطع الفساد ثم تغلبت النصارى عليها (٥٢٩ هـ) عند تغلبهم على سواحل أفريقيا
 ثم أخرجهم أهلها منها (٥٤٨ هـ) ثم غلبوا عليها ثانية وسبوا أهلها ثم عادت للمسلمين ولم تزل مستردة بين
 المسلمين والاسبانول وغيرهم الى أن غلب عليها عبد المؤمن بن علي فاستقام أمرها الى أن استبد
 امرأته حفص بأفريقية ثم افترق أمرهم باستبداد أبي زكريا بن احمق بالناحية الغربية واشتغل
 صاحب الحضرة بشأنه فتغلب عليها حينئذ أهل صقلية (٦٨٨ هـ) ونوابها حصن القشتيل ولم تزل
 عساكر المسلمين تتردد عليها الى أن فحمت أيام السلطان أبي بكر واستضافها ابن مكي صاحب قابس
 فأضافها اليه ثم وقعت في يد السلطان أبي العباس (٦٧٤ هـ) ثم استولى عليها الاسبانول (١٣١٠ م)

ثم أخرجوا منها عنوة (١٣٣٦ م) ثم استردوها (١٥٥٨ م) بخلاصهم عنها العثمانيون في نفس هذه السنة بعد معركة شديدة قتل فيها من الاسبان بول خلق كثير وبقيت معدودة من أملاكهم تابعة لولاية تونس الى أن احتلها الفرنسيون عندما متلاكهم تونس وبلغ مسطح هذه الجزيرة ٤٦ كيلومترا مربعاً وعدد سكانها ٤٥٠٠٠ نفس ولهم مهارة في الصناعة والتجارة وبها آثار رومانية وقوس نصر على اسم انطونيوس وفيروس

وصفاقش وهي نغر تجارى من أشهر نغور تونس واقعة على خليج قابس على بعد ٢٢٥ كيلومترا من الجنوب الشرقى لتونس وسكانها يزيدون عن ١٦,٠٠٠ نسمة ومن صادراتها الزيت والمنسوجات والصوف والقطن والتمر والامبار والعنب والرياحين ويسر عليها كثير من البواخر التي تقصد تونس ومرسيليا استولى عليها الفرنسيون عندما استيلاهم على تونس بعد ان أطلقت أساطيلهم القنابل على قلاعها وكانت تأوى الى مرساها سفن الحكومة في الشتاء لانها آمنة وقال ياقوت عن صفاقس انها مدينة من نواحي أفريقيا اذا خرجت من قابس تريد الغرب جئتها الى المهديّة والغالب على غلتها الزيتون وهي منبوعة ذات سور من حجر بينها وبين المهديّة مرحلتان ومرقوها غير آمنة اه

المهريّة وتدعى أفريقيا وهي مدينة عظيمة من أعمال تونس بناها رأس دولة العبيديين عدد نفوسها ٨٠٠٠ أكثرهم من أبناء الترك الذين استوطنوا تونس وهي واقعة على بعد ١٥٠ كيلومترا من الجنوب الشرقى لتونس ولها مرسى عظيم على ساحل البحر المتوسط الايض وكانت قديما منبوعة جدا استولى عليها شارل كان وغيره وأخيرا استخلصها العثمانيون وبقيت الى ان احتلها الفرنسيون (١٨٨١ م)

سوسة وهي نغر تجارى حصينة ثلاث قلاع عظيمة وهي واقعة على البحر على بعد ١١٠ كيلومترا من الجنوب الشرقى من تونس عدد نفوسها ١٠,٠٠٠ نفس ومن صادراتها الزيت والصوف ويمتد منها طريق حديدى الى خيرون احتلها الفرنسيون (١٨٨١ م) ولاهلها حضارة توبة ايام العلوم

بنزرت وهي مدينة حصينة ونغر عسكري بها قلاع شيدت على الطرز الجديد واقعة على بحيرة داخل الجون المضاف اليها عدد أهاليها ١٠,٩٠٠ ولها تجارة رائجة بينها وبين جميع المدن التي بساحل أفريقيا وكانت تسمى قديما في زمن الرومان هيبيوزاريتوس استولى عليها الفرنسيون (١٨٨١ م) وقد صارت الآن من أعظم الموانى الحربية تسع أكبر الاساطيل ويوجد في سواحل هذه المملكة جملة مراس أخرى للسفن ضرب بنا عن ذكرها صفحاً القلة أهميتها لان المتردد عليها هي السفن السراعية الصغيرة فقط مثل مدينة الحمامات وغيرها

أخبار البحريّة قد اشتهرت هذه البلاد من القديم في الاعمال البحرية ودامت لها هذه الشهرة مدة القربانين وكذا من الوندال والبنونظيين ولما فتحها العرب شيد فيها حسان بن النعمان دار الصناعة (٥٨٠) فكثرت السفن في مرافقها واشتهرت أساطيلها بالغزوات البحرية وفي ١١٤ هـ شيد أيضا عميد الله بن الحجاب بهادور الصناعة فزادت أساطيلها قوة وصار لها الشأن العظيم في فتح جزائر البحر المتوسط الايض والغزوى سواحل أوروبا وامتدت شهرة أساطيلها في زمن دولة الاغالبة لان

أساطيلهم كانت تجول في البحر المتوسط وفروعه بحيث أرعبت أساطيل الأوروپا وبين حتى امتنع يومئذ الفرنج من ركوب البحر خشية ملاقات الأساطيل الأغلبية ثم أن أساطيل بني الأغلب صارت تهاجم سواحل أوروپا وخصوصا ساحل مقاطعة بروفانس من أعمال فرنسا، ولما قامت الدولة العبيدية شيد المهدي بمدينة المهدي دار صناعة حسيمة خرج منها أساطيل حازت أهمية وشهرة فائقة في تاريخ البحر بفتحها وبهاجوة وسواحل إيطاليا وغنموا منها غنائم وافرة ولما أتت دولة بني زيري الصنهاجيين بقيت الأساطيل والأعمال البحرية في تونس على شأنها واستمرت شهرتها أيضا في زمن دولة الموحدين إلا أنه في أواخر دولة الحفصيين أهمل أمر الأساطيل وقل الاعتناء بها فضعف أمرها جدا حتى تمكن الأسبانيون والبرتغال من الاستيلاء على أكثر سواحل شمالي أفريقيا ثم لما فتح العثمانيون ولاية تونس اهتمت أعمال الدولة فيها بأمر الأساطيل فاشتهرت في تونس الأعمال البحرية والغزوات ثانية وتزايد عدد سفنها حتى صارت في زمن المدايات أعمال الدولة صاحبة الشهرة الفائقة والاقدام الغريب في غزو البحار وعدد ملاحوها من أكبر رجال التلصص البحري وبهذا ارجعت سفن التجارة الأوروپاوية وسدت المسالك البحرية في وجوهها ولما عم الرعب وكثرت التشكيات أرسلت دولة انكلترا أسطولا (١٦٥٤ م) تحت قيادة الاميرال بلاك لردعهم واقتدت بهم فرنسا في ذلك فأرسلت أسطولا آخر (١٦٨٦ م) تحت قيادة الاميرال جان ديستري وأرسلت هولاندة أيضا أسطولا ثالثا فأتت هذه الأساطيل بعقب بعضهم البعض وانتصفت من تونس ثم استقرت أساطيل فرنسا ثم دوتونس بعد ذلك كلما احت لها الفرصة وأخيرا اضطر التونسيون (١٨١٦ م) لتترك الأعمال القرصانية بالبحار

(الفصل الثالث)

تاريخها القديم

(٨٨٦ ق م - ٦٤٧ ق م)

اعلم ان تاريخ ولاية تونس وشعوبها يرتبط ارتباطا كبيرا بتاريخ المغرب من القديم وقد شرحنا ذلك مفصلا في أول تاريخ دولة مراكش ولما أسس القينقيون (٨٨٦ ق م) مدينة قرطاجنة زادت العمارة في تلك البلاد وأخذت تتقدم في الرفاهية لان أهل قرطاجنة اهتموا بتوسيع نطاق نفوذهم بالجهات المتصلة بمسعرتهم هذه ثم أخذوا في تشييد الأساطيل وجعلوا ملاحين من العبيد وعلهم رؤساء من أهل قرطاجنة ونظموا لهم جيشا كبيرا عساكره من الأعراب وقواده من أشرف قرطاجنة وبهذه الطريقة تقدمت الجمهورية المذكورة بالتدريج فصارت مهيبه الجانب في القرن السابع قبل الميلاد لما كان لها من الجيوش والأساطيل التي صيرتها قوية الشوكه فوسعت أملا كلها بالاستيلاء على شمالي أفريقيا فحصدت لها جميع البلاد من أول بنطاوليس^(١) (بلاد برقة) الى

(١) كانت تسمى هذه البلاد قديما (Cyrénaïque) سريناثين وهي واقعة على ساحل البحر المتوسط الأبيض بين خليج سدره غربا ومصر شرقا وجزيرة ليبيا جنوبا وكانت قاعدتها سيرين ويقال لها الآن قرين وهي خربة

أعمدة هرقل (جبل طارق) ثم بعد ذلك استولت على جميع التراتل والمستعمرات التي كانت لفينية قية في البحر المتوسط الأبيض ولذلك زادت في سفنها وأساطيلها المحافظة على تجارتها التي أخذت في الاتساع فتمكنت من ذلك حتى صار لقوة قرطاجنة البحرية الشأن الاول ولم يبق في امكان دولة أخرى من دول البحر المتوسط مقاومتها وفي القرن الخامس قبل الميلاد انشأت قرطاجنة أساطيل جديدة كثيرة فزادت بذلك قوتها البحرية وبها أمكنها أن تضيف الى أملاكها جزائر منورقة وميورقة وقورسقا وسردانية ومالطة وكثيرا من سواحل اسبانيا وشيدت فيها المستعمرات والمدن التي منها مدينة ماهون المسماة باسم الجنرال القرطاجني ماهون أو ماغون (١) بجزيرة منورقة فزادت تجارتها وثررتها وتقدمت بحربها وهدت أسفارها الى بحر الظلمات باكتشافات هملكون (٢) الشهير وقد استمرت قرطاجنة على هذه الدرجة من القوة زمانا طويلا حافظت أثناءه على شأنها واتساع تجارتها ومد نفوذها الى أقصى البلاد وكان الفضل في ذلك لحسن قوانينها التي سنتها لتوطيد دعائم جمهوريتها وتدير مجلس أعيانها المؤلف من مائة عضو

ولما زادت قرطاجنة قوتها العسكرية والبحرية ساقمت الاطماع كلها العادة للاستيلاء على جزيرة صقلية فأرسلت لذلك أساطيل جسيمة وجيوشا جارية فتمكنت بعد القتال الطويل من الاستيلاء على الجزء الغربي من الجزيرة المذكورة وكان معظم ما بقي من البلدان بتلك الجزيرة مستعمرات للاغريق الذين لما قامت بينهم وبين دولة الفرس الحروب في أوائل القرن الخامس اتخذت قرطاجنة ذلك فرصة مناسبة لاجراء الاغريق من أملاكهم التي بصقلية فساقمت جيشا تحت قيادة القائد الشهير هملكار (٣) الأناجيلي وقائد الاغريق انتصر عليه وردده مقهورا حتى التزمت قرطاجنة أن تنحضع للمعاهدة التي عقدتها بينها وبين الاغريق (٤٨٠ ق م) وكانت هذه المعاهدة مضرة بصالحها ثم ان قرطاجنة أعادت الكرة على الجزيرة المذكورة بعد ان قوت أساطيلها (٤٠٩ ق م) ففاز قائد جيوشها انيبال (٤) وهملكو واتصر على الاغريق فخاف ديونيسيوس ملك سرقوسة وطلب الصلح من قرطاجنة فعهده معه الا انه بعد ذلك أخذ يستعد لمحاربة القرطاجنيين ونقض المعاهدة التي بينه وبينها (٣٩٧ ق م) فاشتعلت نيران الحروب بين الطرفين وبعدهة وقائع انتصر ماغون (٥) قائدا أساطيل قرطاجنة على اغريق صقلية (٣٩٦ ق م) ثم تقدم وحاصر

وكانت تسمى هذه البلاد أيضا بنطا بوليس أي المدن الخمس لانها كانت تشتمل على خمس مدن يونانية وهي سيرين أو قرين وهسيريس أو برينيس وبرسي أو بطوليمابيس وأرسنوي وابولوني وكانت عظيمة الخصوبة جيدة الفلاحة اه (١) ماهون أو ماغون أميرال قرطاجني استول على جزائر الباسار باسم ملكته سنة ٧٠٢ ق م وأسس بمنورقة احداهما تقرأ وهو المسمى الآن بور ماهون

(٢) هملكون هو ملاح قرطاجني يقال انه أول من دخل الى الجهات الشمالية من المحيط الاطلنطي واكتشف جزائر كستر يد السماء الانسون والنج أو سيللي الواقعة امام عمالة كورنواي من بلاد الانسكلز (٣) هملكار قائد قرطاجني فهدر جيولون بصقلية في نفس يوم واقعة سلامين (٤٨٠ ق م) (٤) انيبال بن جسكون قائد قرطاجني أراد ينقم لجهده هملكار بسبب هزيمته بمدينة همير من صقلية فغرب المدينة المذكورة وغيرها ومات بالطاعون عندما كان يحاصر مدينة جرجنت من صقلية (٤٠٦ ق م) (٥) ماغون قائد قرطاجني فهدر ٣٩٦ ق م لبتين أخاطاغيسه سرقوسة في واقعة بحرية وقد تمكن الطاغية بنفسه من قهره فيما بعد في وقتين قتل في الثانية منهما (٣٨٣ ق م)

سرقوسة براوجرا وقد استقرت هذه الحروب في صقلية مدة طويلة وكان النجاح في معظمها لقرطاجنة ثم كان الفوقان لملك سرقوسة أخيراً يخاف سكان جنوبي إيطاليا منها والتجأ قوم منهم إلى الرومان واستعانوا بهم على هيرونيوس طاغية سرقوسة إذ ذلك فاضطر ملك سرقوسة المذكور لطلب المساعدة من أهل قرطاجنة على الرومان فأعانوه إلا أن الرومان انتصر وأعلى جيش سرقوسة وقرطاجنة معاً وأخيراً خاف ملك سرقوسة من اطماع القرطاجنيين فتعاهد مع الرومان على طرد جيوش قرطاجنة التي كانت تعدها الرومان خصماً شديداً لها وبسبب ذلك قامت الثلاثة حروب البونيقية السابق شرحها في تاريخ الرومان وانتهت باستيلاء الرومان على مدينة قرطاجنة واحراقها (١٤٦ ق م) وصارت أراضيها ولاية رومانية

ومن ذلك الوقت أخذت دولة الرومان في التقدم بتلك الاطراف فاستولت على جميع البلاد التي كانت لقرطاجنة بالكيفية السابق ذكرها في تاريخ رومية والغرب وأخذت أساطيلها تجول في البحار بلا منازع إلى ٤٢٩ م حينما كان بونيفاس حاكماً من قبل الرومان على افريقية فحصل إذ ذلك أن أحد القواد الرومانيين المدعو بانيوس طعن في سيرة بونيفاس عند اطلاقه بانائبة السلطنة الرومانية فلما طلبته هذه إلى الحضور أوعز اليه بانيوس سرا ورضه على العصيان بحجة ان نائبة السلطنة المذكورة تصدقته فاستعان بونيفاس بالوندال فلبى ملكهم المدعو جنسريك طلبه ومن هذا التاريخ دخلت الوندال بلاد البربر بافريقية تحت قيادة ملكهم المذكور ولما تمكن من بلاد البربر عسر على الرومان اخراجه منها وفي ٤٣٥ م فتح جنسريك مدينة قرطاجنة وجعلها تحت مملكته الجديدة ومن وقتها اتسعت مملكة الوندال خصوصاً بعد ان أخضعت جميع بلاد موريتانيا الجديدة وموريتانيا القديمة (الجزائر وتونس) ثم اهتمت في بناء السفن حتى صار لها أساطيل عظيمة في تلك البلاد تمكنت بهما من ضم جزائر سردانية وقورسقة وجزائر بليار إلى مملكتها وصارت سفائن الوندال بعد ذلك ترعج سواحل بحر الظلمات وبحر الروم وتناولت على جيوش القسطنطينية وأساطيلها ولم يكن جنسريك بذلك بل انه بعد ان أكثر من بناء الاساطيل وتوحيها أرسل في ٤٥٥ م عبارة عظيمة ودخل بها نهر تير وأخرج جيوشه وافتتح رومية وبقية عساكره تنهب المدينة المذكورة مدة خمسة عشر يوماً واغتم الوندال منها غنائم وافرة وقتكوا بالسكان وقتلوا منهم مقالة عظيمة ولم يبق قلب جنسريك لتضرعات البابا لاون الاول الكبير الذي سعى بكل الوسائل في تخفيف مصاب رومية ثم مكث جنسريك أكثر من عشرين سنة قاهر منصوراً مهيباً ترخيف من ذكره سلطنتا المشرق والمغرب وقد شنت أساطيله وأحرقت عمارات الدولتين الشرقية والغربية وبعدهمونه (٤٧٧ م) أخذت مملكة الوندال في الانحطاط حتى سنة ٥٣٣ م التي أرسل فيها الامبراطور يوستينيانوس القائد الشهير بيليساريوس قائداً عاماً على جيش بربليانغ ٣٥٠٠٠ مقاتل وعماراً مؤلفة من ستمائة سفينة واستولى القائد المذكور على قرطاجنة وأسر جلبيير ملك الوندال واسترد جميع البلاد التي كانت خضعت للوندال إلى مملكة بوزنطية وبقية هذه البلاد خاضعة لملك الروم بالقسطنطينية إلى أن فتحها العرب (٥٢٧ - ٦٤٧ م)

(الفصل الرابع)

تونس بعد الفتح الاسلامي

البحرية في عهد عمال الخلفاء

(٥٢٧ - ٥١٨٤ هـ)

لما تقدمت الجيوش الاسلامية لفتح افريقية تحت قيادة عبد الله بن أبي سرح في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه (٥٢٧ هـ ٦٤٧ م) وتقدم بها حتى وصل الى مدينة سقيتوله المسماة سبيطلة وعاد منصورا صارت حوادث وأخبار دول المغرب جميعها مرتبطة ببعضها لان الولايات الذين كان يعهد اليهم ادارة شؤونها كانت لهم السلطة العامة على عموم ولايات افريقية فلهذا ذكرنا مجمل أحوالها ومدة ولاية ولايتها في تاريخ دولة مرآكش ورأينا أن نقتصر في هذا الفصل على ذكر ما وصلت اليه القوة البحرية في تونس في عصر الولاية المشار اليهم فنقول

لا يخفى ان الجيوش الاسلامية لما كانت تغزو البلاد افرريقية كانت تجد في بعض ثغورها وسواحلها سفائن من سفن الروم فاستولى عليها وبذلك تمكن معاوية بن حديج السكوني في مدة ولايته من العبور ببعض الجنود الى جزيرة قبرية القريبة من ساحل تونس وغزوها فتم له فتحها (٥٤٧ هـ) ثم جهز جيشا في أسطول مركب من مائتي سفينة وأغزى به جزيرة صقلية فعاد بالغنائم الوافرة ولما تولى عقبة بن نافع النهري اهتم بتشييد مدينة القيروان (٥٥٠ هـ) لتسكون لها جيوش العرب عند الحاجة فزادت بها عمارة البلاد التونسية ولكن عندما اضطرت الخلافة بالمشرق بعدم قتل سيدنا الحسين رضى الله عنه وقامت الثورات ارتد البربر وأخرجوا العرب من افرريقية فضعف شأن الاسلام فيها زمانا زالت مهابته حتى كاد يتقلص نظله ولما جلس عبد الملك ابن مروان على تخت الخلافة وعزم على اعادة فتحها عين لذلك حسان بن النعمان الغساني وأمره بالجيوش (٥٧٣ - ٦٩٢ م) ففتح مدينة قرطاجنة وجميع المدن التي على البحر ما عدا مدينتي هيبيونة (بون) وهبوزا ريتوس (بنزرت) فقدمت عليه لانه لم يكن تحت يده اذ ذلك قوة بحرية تساعد على الفتح كما سبق بيانه في تاريخ المغرب الاقصى ولما آناه أمر الخليفة عبد الملك بن مروان المشار اليه بالتخاذار الصناعة في تونس اجتمعت في تشييدها فتم له ذلك (٥٧٦ - ٦٩٥ م) فكانت أول دار صناعة شيدت في البلاد الاسلامية كإرواه ابن خلدون وأبو الفداء وغيرهما من المؤرخين وابنتيها نحو سبعمائة سفينة مع ما يلزمها من الآلات والادوات الحربية كما سبق في المقدمة وبهذه الاساطيل تمكن من حفظ الفتوحات الاسلامية بسواحل افرريقية من هجمات أساطيل الدولة الرومية خصوصا وقد صارت هذه الاساطيل فيما بعد أكبر مساعدا لولاية افرريقية على فتح جزيرة صقلية وارتفع للعرب بها شأن عظيم في البحار حتى انه في عهد الخليفة سليمان ابن عبد الملك لما غزت جيوشه القسطنطينية وفقد العرب معظم قوتهم في حصارها وامتنعت عليهم العودة لما ألهمهم من الضنك وشدة البرد تمكنت افرريقية باساطيلها من امداد تلك الجيوش (٥٩٩ هـ)

بالميرة والذخائر وذهب ليجرتهم عمارة مركبة من ٣٦٠ سفينة ولما وصلت تلك السفن الى القسطنطينية ارجعت الروم وانعشت الغزاة المذكورين وعادت بن بقي منهم سالموا وقد أفادت هذه الاساطيل أيضا موسى بن نصير عندما تعين واليا على افر بيقية فاغزى بها ولده عبد الله جزيرة منورقة (٨٧ هـ) وساعده أيضا عند فتح الاندلس على نقل الجيش الذي وجهه لفتحها وكذا لما هم بالذهاب الى بلاد الاندلس بنفسه وجد لده من الاساطيل ما تمكن به من عبور بحر الزقاق وقد كان لهذه الاساطيل منفعة أخرى عظيمة في نقل أخبار الجيش المحارب ولولا تلك الاساطيل لتعذر بل استحال عليه تنفيذ هذا الفتح العظيم في الزمن القليل كما تقدم في تاريخ الامويين

ولما تولى عبيد الله بن الحجاج على افر بيقية انشأ في تونس دار صناعة أخرى (١١٥ هـ) وشيد بها عدة سفن فازدادت بها قوة بحرية العرب وأمكنه فتح سرقوسة من أعمال صقلية (١٢٢ هـ) وقد استمرت دور الصناعة في البلاد التونسية تبني بها المراكب فتزديدهم القوة البحرية حتى انهم تعين عبد الرحمن بن حبيب عاملا على افر بيقية تمكن بتلك الاساطيل من غزو جزيرة صقلية وسردينيا واستولى عليهما وأذعن أهلها للجزيرة ولما كان منتصف سنة ١٨٤ هـ وجه الخليفة هرون الرشيد ولاية القيروان الى ابراهيم بن الاغلب رأس دولة الاغلبة الذين اكتسبوا الشهرة في الاعمال البحرية بسواحل جزر أوروبا وكانت ولاية افر بيقية لغاية الوقت المذكور تنتخب من عائلات مختلفة الا أنه بعد ابراهيم الاغلب انحصرت في عقبه ولاية البلاد المذكورة فاستبدوا بأعمال تونس ونحوها من لدن الفتنة أى من ١٨٤ هـ الى ٢٩٦ هـ كما سيأتي مفصلا في هذا الباب

الدول الاسلامية التي حكمت الديار التونسية

(الفصل الخامس)

دولة بني الاغلب

(١٨٤ - ٢٩٦ هـ)

هذه الدولة تنسب الى الاغلب بن سالم وقيل سوار بن عقاب بن خفاجة بن عبد الله بن عباد ابن محمرث والاعلب هو ممن قام مع أبي مسلم الخراساني في دعوة العباسيين وفي عهد المنصور ولي الاغلب افر بيقية فقدم الى القيروان (١٤٨ هـ) وقتل في حروبه مع حسن بن حرب الكندي (١٥٠ هـ) وسعى الشهيد وليه من بنيه أحد من بعده الا في عهد الخليفة هرون الرشيد حيث كان ابراهيم بن الاغلب واليا على بلاد الزاب فلما رأى أن أهالي افر بيقية تميل الى ولايته عليهم وتبغض محمد بن مقاتل الذي كان واليا على افر بيقية وقتئذ لظلمه كاتب ابراهيم المذكور الرشيد يطلب الولاية لنفسه بشرط أن يترك المائة ألف دينار التي كانت ترد لافريقية من خراج مصر اعانة لها وغير ذلك فكتب له الرشيد بعهد (١٨٤ هـ) ففرح أهل افر بيقية بذلك جدا ولما كانت سنة ١٨٦ هـ خرج عليه رجل يقال له حديس من رجال العرب فارس عليه ابراهيم بن الاغلب جيشا تحت قيادة ابراهيم بن عمران فهزم حديس وجوعه بعد أن قتل منهم عددا عظيما ثم اهتم ابن الاغلب

بتمهيد أمر المغرب الأقصى وكانت ظهرت فيه دعوة العلو به لادريس بن عبد الله الذي لما توفي نصب البربر ابنه مكانه وقام راشد مولى أبيه بكفالتهم ولما كبر ادريس واستتب أمره واطاعته البر برخافه ابن الاغلب قدس على راشد من قتله وأتى له برأسه كما سبق شرح ذلك بتار يخ مرا كش ثم خالف أهل طرابلس ابراهيم (١٨٩ هـ) فساق عليهم جيشا وكان من قواده ولده عبد الله فخار بهم وأعاد إلى طرابلس السكينة وعسكن أيضا من اطفاء ثورة عمران بن مجد الدار بنى الذي قام بها على ابراهيم في تونس (١٩٥ هـ) وبذلك جمع الكلمة في البلاد ووطد الامارة وتوفى (١٩٦ هـ) وبخى في أيامه مدينة العباسة قرب القيروان فصارت دارا لأمر ابنى الاغلب وفي أيامه (١٩٥ هـ) أغزى أساطيله جزيرتي قورسقة وسردانية فاستولى عليهما

وقام بالأمر من بعده ابنه ابو العباس عبد الله بعهد منه (١٩٦ - ٢٠١ هـ) وكان بطرابلس الغرب في حرب البربر بفصالح البربر على أن يكون له البلد والبحر وما كان خارجا عن ذلك لهم وكان ابراهيم أوصى واده الآخر زيادة الله أن يبائع لآخيه بالامارة ففعل وأخذ له البيعة على الناس بالقيروان وكتب له يستقدمه فقدم (١٩٧ هـ) وكانت أيامه أيام هده وسكون وفي عصره هاجم المسلمون بأساطيلهم مدينة نيس وغيرها وعادوا بالغنائم الوفيرة والاسلاب الثمينة (٢٠٠ هـ) وقد تكدر من ذلك شادلمان جدا ولم يقدر على فعل شيء ثم انه كان تمكن من التغلب على بعض أساطيل العرب أولا لأنهم بعد ذلك نالوا من سفنه مناعا عظيما وأغاروا على جملة بلاد من أملاكه وفي خلال ذلك كانت سفن سردانية لا يمكنها أن تجتاز البحر الذي بين هذه الجزيرة واطاليا من غير أن تكون عرضة للخطر من سفن عرب أفريقيا وأساطيل الاندلس فخرج بونيفاس من أمره وتوسكاته مع أخيه بيرارد باسطول جسيم فنزلا ولا يجزيه سردفوجدا فيها جماعة من أصدقاؤهما البحر بين فكانوا أدلاء لهما في توجيههما إلى الساحل الاقريقي فلم يزالا حتى جابعا معهما من الفرنج بين أوتيكه^(١) وقرطاجنة فلما أحس المغاربة بهم وكانت سفنهم في وقتها ضعيفة لم يقدموا على البعد من الساحل وحصل بين الفرنجيين خمس وقائع كان الظفر في أكثرها للفرنج وكانت وفاة أبي العباس سنة ٢٠١ هـ

وقام بالأمر من بعده زيادة الله بن الاغلب (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) بتقليد من قبل المأمون العباسي وفي أوائل ولايته خرج عليه بعض الثوار من أطراف البلاد فتمكن من قمعهم واسترداد بجاية والزاب وطرابلس (٢٠٩ هـ) ممن كان استولى عليها من الخوارج الذين كدروا صفو الراحة في أول ولايته وبعدها استقام له الأمر فاهتم بتشييد الاساطيل والاكتناز من القوة البحرية ثم أرسل اسطولا قويا وجيشا عظيما (٢١٢ هـ) تحت قيادة أسد بن القيران قاضى القيروان إلى جزيرة صقلية وكان الروم تغلبوا عليها منذ ما طرد والوندال من شمال أفريقيا فلما وصل أسد إليها نازلها وفتح جزأ

(١) مدينه قديمه في افريقيه قرب جون قرطاجنه على مسافه وجبزه من تونس الحاليه الى الشمال الغربي وفي موقعها الآن قرية يقال لها بوشطرو يقال ان بناءها كان قبل بناء قرطاجنه نحو ٢٨٧ سنة وان الذين اختطوها هم الصوريون ولمسقط قرطاجنه أخذت أوتيكه قسمين أرضها وجعلت مركزا للبحار الروماني وقد ورد ذكرها في الوقائع التي حصلت بين سيلا ومرنوس وبين قيصر و بوميه مما يدل أنها كانت بلدة عظيمة ولما افتتحها العرب في أواخر القرن السابع من الميلاد دكوا بنيتها ولا تزال اللاتن بعض آثارها باقية اه

منها ثم حصلت بعد ذلك غزوات بين عمال ابن الاغلب وبين الروم بتلا الاطراف أشهرها التي حصلت في سنتي ٢١٣ و ٢١٤ هـ وكانت الحرب فيها مجالا وفي سنة ٢٢١ هـ حصلت واقعة بجزيرة بين اسطول العرب واسطول الروم في مياه صقلية انتصر فيها العرب وغنموا من الروم تسع سفائن ثم ولّى الروم الادبار بعد ان غرق منهم عدة سفائن أخرى وكانت وفاة زيادته (٢٢٣ هـ) و لقد كانت اطماع أمراء أفر ببقيا في صقلية أشد منها في جزيرة سردينية وقرسقه أما كون هذه الجزيرة الحصنة لم تقع في أيديهم الا بعد هاتين الجزيرتين في ذلك الا ان قياصرة اليونان اعتنوا بشأنها وعدوا التملك عليهما من أهم الامور لان دولة القسطنطينية كانت تستعين بها على قمع المدن البحرية من بلاد ايطاليا وكان عند الولاة الذين يحكمون عليها وسائل قوية لاسيما سفنهم العديدة التي كانت تزيد في قوة هذه الوسائل

وقام بالامر من بعده اغلب بن ابراهيم بن الاغلب (٢٢٣ - ٢٢٦ هـ) ويكنى بابي عقال وكان محسنا عادلا أزال المظالم وزاد في أرزاق العمال والجنود فكف أيديهم عن الرعية وأرسل سنة ٢٢٤ هـ سرية الى صقلية ففتحت وعادت ظافرة وفي السنة التالية أرسل اسطولاً قويا وجيشا عظيما الى جزيرة صقلية أيضا فانتصر انتصارا باهرا وافتتح عدة حصون منها حصن البلوط وفسلورة ثم قصد اسطول المسلمين بعد ذلك قلورية (١) ففتحها ثم التقى باسطول صاحب القسطنطينية فهزمه وفي سنة ٢٢٦ هـ سارت سرية للمسلمين بصقلية الى قصر يانة ففتحت وأحرقت وسببت فلم يخرج أحد لصدهم فسارت الى حصن الغيران وكان به أربعون غارا فغنمتها جميعها وتوفي الاغلب (٢٢٦ هـ)

وقام بالامر من بعده ابنه ابراهيم بن الاغلب (٢٢٦ - ٢٤٢ هـ) ودانته البلاد وبني مدينة بقرب ناهرت سماها العباسية (٢٢٧ هـ) فاحرقها فأخرج بن عبد الوهاب بن رستم عند قيامه بالثورة وثار على أبي العباس أخوه أبو جعفر ثم اتفق على أن يستوزر أبو العباس الا أنه لما نال المنصب استبد عليه وحصل بينهما ما وقع الى أن ظفر محمد بأخيه ونفاه الى مصر (٢٤٢ هـ) وفي أيامه حصلت عدة حروب بحرية منها أنه في سنة ٢٢٨ هـ غزا في البحر الفضل بن جعفر الهمداني ثم قصد صقلية ونزل مسيني (٢) باسطوله وبث السرايا وحصرها برا وبحرا وغنم غنائم كثيرة

(١) قلورية هي بلاد واقعة بإيطاليا الجنوبية بالنهاية الجنوبية الغربية مكنونة لشبه جزيرة يغمرها البحر المتوسط غرباً ومضيق مسيني جنوباً وخليج طرنت شرقاً وكان يسكنها قديما طوائف من الاغريق ثم انتقلت الى حكم الرومان ثم الى العرب ثم استولى عليها النورمانديون حينما قهروا المسلمين بصقلية (١١٣٠ م) وهي عرضة للزلازل قال ياقوت قلورية جزيرة في شرق صقلية وأهلها أفرينج ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة ينسب اليها فيما أحسب أبو العباس القلوري ومن مدن هذه الجزيرة قبوة ثميش ثم نامل ثم ملف ثم سلوري قال ابن حوقل وهي جزيرة داخلية في البحر مستطيلة أو لها طرف جبل الجلالة اه وتسمى عند الفرينج كلابره (Calabre)

(٢) مسينا او مسيني مدينة حصينة بصقلية في الطرف الشمالي الشرقي منها وهي تفرح في تجاري وأول مدينة من ايطاليا الجنوبية واقعة على المضيق المنسوب اليها وهي عاصمة مدارس علمية ويحيطها سور وقلة عظيمة حديثة وعدة حصون أخرى وهي عاصمة قديمة شهيرة من صادراتها الخبز والاصواف والانمار والانبذة والزيت والزعفران قال ياقوت مسيني ببلدته على ساحل جزيرة صقلية بمالي الروم مقابل ريو وهو يادق بالقسطنطينية الواقعة في مسيني بريا من فيريو اه

واستأمن اليه أهل نابل من أعمال ايطاليا و صاروا معه واستمر الفضل يحارب الروم في تلك المياه مدة سنتين والحصار مستمر على مسيني ولما أعمته الحيل في فتحها أرسل بعض الجنود فصعدوا على جبل مطل على المدينة ثم انحدروا منه اليها وأهل المدينة مشتغلون بقتال الفضل بن جعفر ومن معه فلما رأى أهل البلدان المسلمين قد دخلوا عليهم من خلفهم انهمزوا وتم للفضل الاستيلاء على المدينة بهذه الحيلة ثم فتح أيضا مدن أخرى ها في سنة ٢٢٩ هـ خرج أبو الاغلب العباس بن الفضل في سرية فقبضه الروم في جمع عظيم وبعده قتال شديد انهمزت الروم بعدهم فقام صعب وفي سنة ٢٣٢ هـ عصت مسيني واستجدت ببطريرقهم العظيم فوعدهم بالساعدة ولما علم المسلمون بذلك شددوا الحصار على المدينة حتى فتحوها وكانت وفاة هذا الأمير سنة ٢٤٢ هـ

وقام بالامر من بعده ابو ابراهيم احمد بن محمد بن الاغلب (٢٤٢ - ٢٤٩ هـ) فاحسن السيرة وأكثر العطايا الى الخندو وكان يعيل الى البناء وما يعود على المملكة بالعمارية والرفاهية فبنى بارض أفر بيقية حصونا كثيرة بلغت عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد وأكثر من شراء العميد وادخالهم ضمن جيوشه وفي ولايته (٢٤٤ هـ) فتحت مدينة قصر يانة (١) التي يها دار الملك بصقلية وكان قبل ذلك بسرقوسة (٢) وذلك ان العباس والى صقلية من قبل الاغلبة سير الجيوش عليها وعلى سرقوسة وسير جيشا آخر مع الاساطيل ببحر افريقية فبعثوا ثلثين ألفا (نوع من السفن) من سفن الروم فحصلت بينهما واقعة بحرية شديدة انتهت بانهمز الروم وأخذ المسلمون منهم عشرة ثلثين ألفا بما فيها من المقاتلة والاسلح وعاد العباس الى التشديد في حصار قصر يانة فبث السرايا وأرصد العيون الى ان قبضوا على بعض الروم فدلوه على الموضع الذي يملك منه المدينة ونصب العرب عليه السلام وصعدوا اليها حتى وصلوا الى أعلى سور المدينة عند انشقاق الفجر والحراس نيام لا يدرون فوضعوا السيف فيهم وفر من بقي منهم حيا ووقع الرعب في قلوب السكان ثم فتحت الابواب ودخل العرب فاستولوا على المدينة وأرسل الخبر بالفتح الى أفر بيقية ففرح ابن الاغلب بذلك جدا وأرسل فبشر المتوكل على الله العباسي بهذا الفتح ولما بلغ ملك الروم خبر استيلاء المسلمين على قصر يانة أرسل (٢٤٥ هـ) أسطولاً مراكباً من ٣٠٠ ثلثين وعساكر تحت قيادة بطريق من بطارقه فلما وصل بأساطيله الى سرقوسة حضر اليه العباس من بلرم (٣) وحاربه وشتت شمله فولى

(١) قصر يانة مدينة من صقلية في وسطها على جبل شاهج بها بقايا برج كان مشيده الامبراطور روبرت الثاني و بها مغارة قديمة لدفن الموقوت قصر يانة اسم لمدينة كبيرة بجزر صقلية على سن جبل ا. وتسمى هذه المدينة عند الفرنج كاستر وجيو فاني Castro-Giovanni

(٢) سرقوسة هي قاعدة ولاية بجزر صقلية وفرصة بحرية على الشاطئ الشرقي منها تبعد عن قطانية الى الجنوب نحو ثلاثين ميلا وهي محصنة بها آثار قديمة كثيرة ولها تجارة واسعة وكانت قديماً أكبر مدينة في صقلية وكانت مؤلفة من خمس مدن متلاصقة ولذا كانت تسمى نظام ليس استولى عليها الرومان واليونان والروم والعرب و بها مدن متسعة تحت الارض دفن فيها كثير من اليونان والرومان والمسيحيين والاسلام ولهذا المدينة ذكر شهير في التواريخ القديمة ويقال ان الذي أسسها هو اريخاس الكوراني (٧٣٤ ق م) وقال باقوت انها أكبر مدينة بجزر صقلية وكان بها سرب ملك الروم قديماً اه ويسمى الا فرنج (Syracuse)

(٣) بلرم قصبه ولاية بجزر صقلية واقعة في الجانب الشمالي منها على جون عميق في سهل خصب جميلة المناظر جدا ميناها رحيب بها قلعة وحصون لحمايتها وقد اشتهرت بكثرة كنائسها وجمالها وهذه المدينة أقدم المستعمرات

منهزمًا باق من سسفته وغتم المسلمون منه مائة ثلثندى وفي سنة ٢٤٦ هـ نكث كثير من قلاع صقلية العهد فخار بهم العباس وهزمهم وأعاد السكينة ثم حصن قصر بانه وغيره من مدن الجزيرة وكانت وفاته (٢٤٧ هـ) ثم نبش الروم قبره وأخرجوه وأحرقوه لكثرة ما قتل منهم وقل من جوعهم وكانت ولايته احدى عشرة سنة وبعده انتخب مسلمو صقلية ابنه عبد الله الا انه في سنة ٢٤٨ هـ وجه صاحب أفريقيا اماره صقلية الى خفاجة بن سفيان فأكثر الغزو فيها وفتح عدة حصون وكانت وفاة أبي ابراهيم أحمد بن الاغلب هذا سنة ٢٤٩ هـ

وقام بالأمر من بعده أخوه زيادة الله بن الاغلب (٢٤٩ - ٢٥٠) وجرى على سنتين سلفه ولم يحصل في أيامه ما يستحق الذكر لقصر مدته حيث توفي بعد سنته من ولايته

وقام بالأمر من بعده أخوه محمد بن احمد الاغلب ويعرف بابي الغرائيق (٢٥٠ - ٢٦١ هـ) وكان صاحب لهو وطرب ملازمًا مجالس الشراب وفي أيامه (٢٥٥ هـ) لمات خفاجة بن سفيان والى صقلية تولاها ابنه محمد بعد من ابن الاغلب ولما كان الروم يحاصرون جزيرة مالطة أرسل عليهم أسطولاً (٢٥٦ هـ) فلما سمع الروم بقدوم أسطول الاغالبة رحلوا عنها فاحتلها المسلمون وأضافها الاغالبة الى مستعمراتهم ثم قتل محمد بن خفاجة (٢٥٧ هـ) وقام مقامه ابنه محمد باقرار صاحب أفريقيا محمد بن أحمد المذكور وبعث اليه بعهدته وفي زمنه تغلب الروم على بعض أماكن بصقلية وبني محمد الاغلبى هذا عدة حصون ومحارس على ساحل البحر على مسير خمسة عشر يوماً من برقة الى جهة المغرب وكانت وفاته (٢٦١ هـ)

وقام بالأمر من بعده أخوه ابراهيم بن احمد الاغلبى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) وكان محمد عهد بالأمر قبل وفاته لولده أبي عقاب فاختار الناس بعد موته أخاه ابراهيم هذا وكان عادلاً عاقلاً حازماً أقام الحصون والمحارس على ساحل البحر وزاد في عدد الاساطيل فامتت البلاد ورتب الاشارات النارية في الحصون فكان اذا ظهر عدو توقد النار بساحل سبته نذيراً يفصل خبره من حصن الى آخر في ليلة واحدة الى الاسكندرية فكان ذلك من أحسن الاختراعات وأفيد الترتيبات وبني حول مدينة سوسة سوراً منيعاً (٢٦٥ هـ) وفي ولايته كثرت غزوات العرب على سرقوسة وكانوا يوقعون بأهلها ويحرقون زرعها ويسلبون حاصلاتها الى أن تملكوها في ١٤ رمضان سنة ٢٦٤ وكان سبب

الفيديقية بصقلية وأول ما كثر قوتهم بها فتحها أهل قرطاجنة ثم الرومان ثم القوط ثم الروم وكانت عاصمة للجزيرة منذ استيلاء المسلمين عليها وهذا المدينة ألف الجغرافى الشهير الشريف الادريسي كتابه المسمى بنزهة المشتاق للذكر جارانور مندى قال بن حوقل بلم مدينة كبيرة سورها شاهق منبع منى من حجر وجامعها كان بيعة وفيها هيكل عظيم وفي بلم وخالصة والحارات المحيطة بها ومن وراء سورها من المساجد ثمان وثلاثمائة مسجد وهي محال كانت تلاصقها وتتصل بها الى ان قال وقد رأيت في بعض الشوارع في بلم على مقدار رمية سهم عشر مساجد بعضها اتجاه بعض وبينها عرض الطريق فقط فسألت عن ذلك فقيل لى ان القوم لشدة تنافسهم وقلة عقولهم يجب كل واحد منهم أن يكون له مسجد على حدة لا يصلى فيه غيره ومن يختص به وربما كان اخوان وداراهما متلاصقة وقد عمل كل واحد منهما مسجداً لنفسه خاصاً به يفرده عن أخيه والاب عن ابنه وبعدها وصف سكانها بما يشين من الصفات قال ولهذا ترى في صقلية عالماً لا عاقلاً بالحققة بقن من العلوم ولا ذامراً مؤدياً بل الغالب عليهم الرقاعة والضعفة وقلة العقل والدين اه وتسمى عند الفريج (Palerme)

ملكها ان جعفر بن محمد أمير صقلية غزاها فأفسد زرعها ووزع قطانية وطبرمين ورمطه وغيرها من بلاد صقلية التي يسد الروم ونازل سر قوسه وحاصر هبارو بحر او ملك بعض أرباضها ووصل من ملك الروم نجدة لها ناسير اليها أسطولاً فأصابوها فتمكنوا حينئذ من حصرها فأقام العسكر محاصراً لها تسعة أشهر وفتحت وقتل من أهلها عدة ألوف وأصيب فيها من الغنائم ما لم يصب بمدينة أخرى ولم يخرج من رجالها الا الشاذ القذو وأقاموا فيها بعد فتحها شهرين ثم هدموها ثم وصل بعد هدمها من القسطنطينية أسطول فالتقوا بهم والمسلمون قطفقروهم المسلمون وأخذوا منهم أربع قطع قتلوا من فيها وانصرف المسلمون الى بلدهم آخر ذى القعدة ولما نار العباس بن أحمد بن طولون على أبيه صاحب مصر تقدم فبين معه واستولى على برقة من يداين موهب قائدا لاغلبة ثم تقدم وحاصر طرابلس وكان أشرف على فتحها لولا المدد الذي أتى للقائد المذكور من افرريقية فهزم العباس وعاد الى مصر مغلوباً (٢٦٧ هـ) ثم انه في سنة ٢٨١ هـ انتقل ابراهيم الاغلبى الى تونس واتخذها دار ملكه وبني بها القصور ثم وقعت حرب بينه وبين ابن طولون صاحب مصر فكان النصر له (٢٨٣ هـ) ولما رجعت عساكر مصر مهزومة نفر غلما كان يتنمها وهو اتمام فتح جميع صقلية فبعث ابنه عبد الله اليها (٢٨٧ هـ) يقود أسطولاً مراكب من ١٦٠ سفينة فحاصر طبرنة (١) ثم أغار عليه أهل بلرم بحراً فحاصر مدينتهم برا وبحراً فانهم زموا ونهبت أموالهم وهرب كثير منهم الى القسطنطينية ومملك أبو العباس المدينة وأرسل عدة من رؤسائهم الى أبيه بافرريقية ثم حاصر قطانية (٢) فلما امتنعت عليه تركها ثم في سنة ٢٨٨ هـ تجهز لغزو فبني الاساطيل وسار بها ونزل على ديمونة ونصب عليها الجنايخ وأقام أياماً ثم أقطع عنها الى مسيني وغزاها وفتح بعدها ريو (٣) عنوة وغنم من ذلك شياً كثيراً وشن المراكب بالغنائم ورجع الى مسيني فهدم سورها ثم جاء المدد اليها من القسطنطينية فهزمه واستولى منه على ثلاثين سفينة وأقام بها الى سنة ٢٨٩ هـ ثم دعاه أبوه الى افرريقية لانه في تلك السنة كان قدم عليها رسول المعتضد بعزله من أعمال افرريقية لشكوى

(١) طبرنة مدينة حصينة من صقلية رأس عمالة مضافة اليها واقعة في الطرف الغربي من الجزير على رأس وتشتهر بصناعة أشياء صغيرة من المرجان والعاج وبقايا آثار قديسة منها آثار هيكل الزهرة وتسمى عند الفرنج (Trapani)

(٢) قطانية مدينة حصينة من صقلية واقعة على الشاطئ الشرقى لجزيرة البحار وهي سفح جبل اثنو رأس عمالة مضافة اليها وهي ظر بقعة جيدة المبانى واقعة وسط سهل خصب سمي هري ايطاليا وهاهنا كان يجتمع به الكهنة الذين يترأسون على طائفة قرسان مالطة وقد أسس هذه المدينة السبياد في القرن الثاني قبل الميلاد وهي آثار قديسة وقد خربتها الزلازل عدت مرات قال باقوت قطانية أو قطالية مدينة على سواحل جزيرة صقلية وهي مدينة كبيرة على البحر من سفح جبل النار وتعرف بمدينة الفيل وهي قديمة البناء فيها آثار عجيبة وكنايس مفروشة بالخام الحجري وفيها صورة فيل بالحجارة وبه سميت مدينة الفيل اه وتسمى عند الفرنج (Catane)

(٣) ريو مدينة حصينة من مملكة ايطاليا قاعدة إقليم مضاف اليها وهي تقع على مضيق فارمسيني امام جزيرة صقلية تبعد عن مسيني نحو ساءة بالسقمية البحار يسكنها ٢٤٠٠٠ نسمة وهي فنية جيدة المبانى بها معامل للاقمشة الحريرية والروائح العطرية وصادراتها التمار والزيت وغيرها انتقلت من يد الرومان الى القوط ومنهم الى العرب ومن هؤلاء الى النورمان الذين مدتهرهم وبن عسكار وضممت الى مملكة نابلى في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي وأغار عليها ونهبها خير الدين باشا بارباروس الشهير (١٥٤٤ م) وأغار عليها آخر يدعى في كتب الفرنج مصطفي (١٥٥٨ م) وقد خربتها تماماً زلزلة (١٧٨٣ م) وتسمى عند الفرنج (Reggio de Calabre)

الاهالى منه ولما وصل أبو العباس عهد اليه أبوه بولاية أفر بقمية وارتحل هو الى صقلية ونزل على طرنبنة ثم تحول عنها الى بلرم ثم قصد دمشق وحاصرها ثم فتح أيضا طرميس (١) ثم عبر الى عدوة البحر وخرج في ساحل ايطاليا ودخل قلورية عنوة ثم عاد الى صقلية وقصد كنة وحاصرها فاستأمن له أهلها ولم تطل بعد ذلك أيامه فمات (٢٨٩ هـ)

وقد نال ابراهيم المذكور فخرا إتمام فتح جزيرة صقلية باستيلائه على سرقوسة وغيرها من الاماكن المهمة في وقت كانت فيه دولة القسطنطينية قد استرجعت شوكتها ووصلت ابرا وبجرا بما صدر عن القيصر بازيل المقدوني من السطوات البحرية قال بعض مؤرخي القرنين بنبغي أن يعد فتح الاسلام لسرقوسة من أكبر المصائب المذكورة في التاريخ فان هذه المدينة لحقها ما لحق مدينة صور وقرطاجنة وقوراثنة التي كانت مثلها من حيث كان البحر سبيبا في عظمةها وثورتها وقد تكلم على ذلك راهب شاهد استيلاء العرب عليها بعبارة مؤثرة تدل ألفاظها على تعصبه للدين والوطن وقد تأسف أيضا الامير قسطنطين ابن القيصر بازيل غاية الاسف في التاريخ الذي كتبه على أبيه وعداد أخذها من أكبر التكبكات التي خدشت عرض هذا القيصر المنصور في زمن هرمة وقد ترتب على فتح سرقوسة ان صار عرب صقلية يتفكرون في الاستقلال عن الاغالبة ولما تم فتح صقلية ذهب اليها ابراهيم بن الاغلب بعمارة عظيمة وفتح بعض الحصون القليلة التي كانت لا تزال للروم وعاقب مدينة قلورية (كلابره) لمخالفتها أعداءه كل ذلك ولم يتمكن أساطيل القسطنطينية القوية من المعارضة أصلا وبينما كان ابراهيم يوسع نطاق نفوذه بجنوب ايطاليا أتاه سفراء مسدن ايطاليا يخطبون منه الصلح فأمرهم باستئالة أهل بلادهم الى الدخول في طاعته وأظهر لهم استعدادهم لفتح مدينة رومية وقد وقع تهديد ابراهيم الاغلبى لمدينة رومية الرعب في قلوب السفراء المذكورين لان أهل تلك البلاد كانوا يعلمون منذ مدة طويلة ما ينشأ عن مجاورة العرب من المخاوف سيما وان امبراطورة اليونان وغيرهم لم يكنهم حمايتهم من اغارة العرب على بلادهم فأى شئ يرجون من الدول الصغيرة الاخرى التي كانت تتنازع الامر في الاستيلاء على بلادهم ولما استولى المسلمون على بلرم جعلوا بها دار صناعة عظيمة واتخذوها ملتقى لاساطيلهم العديدة التي كانت تتردد على سواحل تلك البلاد ولولا التفات باباوات رومية لحفظ هذه المدينة لتم للعرب الاستيلاء عليها اه

وقام من بعده ابو العباس عبدالله بن ابراهيم الاغلب (٢٨٩ - ٢٩٠ هـ) وكان حازما عاقلا رؤوفاً اول عمل أجره انه نشر على العمال منشورا أظهر فيه مقاصده الجميلة نحو الامنة ووعده بالعدل والرفق والجهاد ثم عزل ابنه زيادة الله عن ولاية صقلية لما بلغه عنه انه مكب على اللهو والطرب واللذات واضمار الغدر لابيه وولى مكانه محمد بن السرقوسى وفي أيام أبي العباس هذا عظم أمر أبي عبد الله الشيعي القائم بالدعوة للرضامن آل محمد في الظاهر ليستميل اليه الناس وفي الباطن كان يدعو عبادة الله المهدي ولكن لم تطل أيام أبي العباس فقتله بعض الخدم وهو نائب باغراء ولده في شعبان ٢٩٠ هـ وأحضر رأسه الى ابنه زيادة الله فسر من ذلك

(١) طرميس مدينة حصينة من صقلية باقليم بلرم واقعة على مصب تهر بضاف اليها سكانها ٢٣٠٠٠ نسمة وبها مدرسة للاطلاع ومدارس اخرى وبها معدنية تحارة كان لها شهرة قديمة تتجرى التمار والحنطة والوز وغيرها وبضواحيها آثار قديمة وتسمى عند الفرنج (Termini)

وقام بالامر ابنه المذكور وهو ابو مضر زيادة الله بن عبد الله بن ابراهيم بن أحمد
 (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ) بعد قتل أبيه وكان أول ما بدأ به ان قتل الثلاثة خصيان الذين قتلوا ابا
 خوفه منهم على نفسه وان كان هو الذي جرأهم على ذلك ولما استبد بالحكم انعكف على اللذات
 وأهمل الملك وقتل من الاغالبه كل من قدر عليه من أعمامه واخوته وفي أيامه قوى أمر أبي عبد الله
 الشيعي القائم بدعوة العميديين بالمغرب وساعده على بث دعوته حالة أبي مضر فارس زيادة الله عليه
 جيشا مؤلفا من أربعين ألف مقاتل عقد عليهم اقا ئد يدعى ابراهيم من بني الاغلب فهزمهم أبو عبد الله
 الشيعي في عدة مواقع ولما رأى زيادة الله هزيمة جيوشه وعدم مقدرته على مقاومة أبي عبد الله
 الشيعي جمع ما قدر عليه من الاموال وسار يقصد الشرق حتى انتهى الى طرابلس فأقام فيها أياما
 ومعه ابراهيم القائد المذكور ثم لما انتهى اليه عنه انه يريد الاستبداد بالقيروان بعد خروجه زيادة الله منها
 نبذته واقصاه ثم قدم زيادة الله حتى وصل مصر الا أن عاد لها عيسى النوشري منعه عن دخولها حتى
 يأذن الخليفة المقتدر بالله فعاد زيادة الله الى برقة وكتب الى الخليفة بأمره فامر المقتدر بالعودة
 الى المغرب لقتال أبي عبد الله الشيعي وكتب الى النوشري عامل مصر بامداد زيادة الله بالمال والرجال
 وفي خلال ذلك أصاب زيادة الله علة سقط شعره منها و يقال انه سم فسار الى بيت المقدس للقيام به
 فمات بالمرلة ودفن بها (٢٩٦ هـ) وهو آخر الاغالبه وبعده تفرق بنوا الاغلب وانقطعت أيامهم
 والبقاء لله وحده

(الفصل السادس)

دولة العميديين أو العلويين بأفريقية

(٢٩٦ - ٣٦١ هـ)

أصل هذه الدولة فرق من غلاة الشيعة السمائة بالاسماعيلية السابق ذكرها في صحيفة
 ٢٣٥ من هذا الكتاب ولما قام أبو عبد الله الشيعي بالدعوة في بلاد المغرب كان يدعوا الى محمد
 والدا المهدي الذي بمدينة سلمية قرب حلب ولما توفي أوصى الى ابنه عبيد الله المهدي وأطلععه على حال
 الدعاة وشاع ذلك في خلافة المكتفي بالله فطلب عبيد الله المهدي فهرب هو وابنه أبو القاسم محمد
 وتوجه نحو المغرب في زى التجار ولما وصل عبيد الله المهدي الى مصر وكان عامل مصر وقتئذ عيسى
 النوشري وقد كتب اليه الخليفة بأمره بالقبض على المهدي الا أنه تمكن من الهرب حتى لحق
 بسجلماسة فأقام بها ينتحل مهنة التجار وكان صاحبها اليسع ثم وصل كتاب زيادة الله بن الاغلب
 الى اليسع يعلمه ان هذا الرجل هو الذي يدعوه عبد الله الشيعي فقبض اليسع على عبيد الله المهدي
 وحبس به بسجلماسة وأقام بالسجن حتى ملأ أبو عبد الله أفريقية كما تقدم في آخر دولة الاغالبه ولما
 لقيه أخوه أبو العباس منطلقا من عقالة استخلفه على القيروان وترك معه أبا بكر كى تمام بن معارك من
 قواد كامة وسار الى المغرب ففرت القبائل من طريقه وخافته زناته فدخلوها في طاعته ولما قرب

من سجلماسة أرسل اليسع الى المهدي بمعبسه يسأله عن حاله فانكر ثم سأل ولده أبا القاسم فانكر
 وضرب رجاله فانكر واوغما الخبر الى أبي عبد الله تخاف عليهم وأرسل الى اليسع يتلطفه فقتل الرسل
 فاغذا أبو عبد الله السير وحاصر اليسع ثم هرب اليسع في الليل هو وأصحابه وخرج أهل البلد الى
 أبي عبد الله يستعطفونه فجاه الى سجن المهدي فاخرجه منه هو وابنه أبا القاسم واركبهما ومشي
 مع رؤساء القبائل بين يديه ما هو ويقول هذا مولاكم ويبي من شدة الفرح ثم أنزله بالمعسكر وبعث
 في أثر اليسع فحفي به فجلد ثم قتل وأقام بسجلماسة مدة شهر ونصف ورجع الى افر بيقية ووصل الى
 رقادة (٢٩٦ هـ) ووجدد البيعة للمهدي واستولى على ملك بني الاغاب بافر بيقية وتلقب بالمهدي أمير
 المؤمنين وقال ابن الاثير انه لما استقر قدم عبيد الله في المملكة باثر الامور بنفسه ولم يبق لابي عبد الله
 الشيعي ولا اخيه أبي العباس شيأ من الامر فاغضب ذلك أبا العباس وأخذ يعنف أخواه عبيد الله
 ويقول له أخرجت الامر عنك وسلمته لغيرك وعبد الله ينهاه عن هذا القول وكان يبلغ المهدي ذلك
 فيسكت وأخير المساجهر أبو العباس بهذا القول وأعلن على رؤس القبائل بأن هـذ ليس المهدي
 الذي دعوناكم اليه طلبهما المهدي وقتلها (٢٩٧ هـ) وبذلك صفاله الجوف قويت شوكة
 العبيديين ثم بعث العمال في النواحي وعين على جزيرة صقلية الحسن بن محمد بن أبي خنيز من رجاله
 كامة فوصل الى مازر (٢٩٧ هـ) ثم شغب عليه الناس وشكوا أهل صقلية سوء سيرته وكتبوا
 الى المهدي معتذرين فقبل منهم وولى عليهم أحمد بن قهر ب وبوصوله بعث سرية الى أرض قلورية
 فدونهاها ورجعت بالغنائم ثم قامت دعوة العباسيين في صقلية وبعث الاسطول الى افر بيقية وتقا
 أسطول المهدي وقائده الحسن بن أبي خنيز فقتلوه وأحرقوا الاسطول وسار اسطول بن قهر ب الى
 صفاقس فخر بها وانتهوا الى طرابلس ولما بلغ المقتدر العباسي ذلك أرسل الخلع الى ابن قهر ب القائم
 بدعوته وبعده حروب بطول شرحها قامت أهل كبر كيت على ابن قهر ب (٣٠٠ هـ) وحبسوه
 ورأسلوا المهدي فأمر بقتله على قبر ابن خنيز وولى على صقلية أبا سعيد بن أحمد وأعاد الهادوة
 العبيديين وأخذ يحارب الروم بها

ثم ان المهدي أراد فتح الديار المصرية لتضع دولة الانخشيديها وازالة سلطة بني العباس أعدائه
 منها فأرسل ابنه أبا القاسم اليها ومعه أسطول مؤلف من مائتي مركب (٣٠٠ هـ) فسار نحو
 الاسكندرية وافتتحها ثم أرسل جيشا معه عليه حباسة بن يوسف فلما برقة ثم الفيوم فساق عليهم
 المتدرا العباسي جيشا تحت قيادة سبكتكين ومؤنسا فاجلوهما عن مصر ثم ان المهدي أعاد الكفرة
 فأرسل (٣٠٢ هـ) حباسة المذكور على جيش في البحر فأخذ الاسكندرية ثم سار طالبا مصر
 فقابله مؤنس الخادم بجيش الخليفة العباسي وجرت بينهما أربع وقعات بين مصر والاسكندرية
 استظهر فيها العباسيون ورجع حباسة الى المغرب فقتله المهدي لعدم نجاحه ولا تمام بعض الجنود
 له بما يقدر في أمانته ثم ان المهدي أراد تشييد مدينة تكون عاصمة له فاختر بيقية على ساحل البحر
 كشيبة جزيرة متصلة بالبر كهيئة كفت متصلة بزنفأسس بها مدينة دعاها المهدي (٣٠٣ هـ)
 وجعل لها سوراً محبكا وأبوابا عظيمة ووزن كل مصراع من مصارعها مائة قنطار ولما تم بناؤها اطمان
 قلبه على نفوذ القواطم واستمر العمل فيها ثلاث سنوات واتخذ فيها دار صناعة لانشاء السفن ولما تم له
 ما أراد جهز جيشا عمر ما وأرسله مع ولده أبي القاسم الى مصر فوصل الى الاسكندرية واستولى عليها

ثم تقدم حتى وصل الحيرة ومالك أشمون وجسلة بلاد من الصعيد فأرسل المقتدر جيشا مع مؤنس الخادم وجرى بينه وبين العلويين عدة وقعات وفي خلال ذلك وصل الى الاسكندرية من المهدي أسطول مؤلف من ثمانمائة مركب منجدة للقاسم وأرسل المقتدر العباسي أسطولا من باكم من خمس وعشرين سفينة من طرسوس فالتقت المراكب بالمرابك على رأس رشيد ثم تحاربوا واقتتل العساكر في البر فكازت الهزيمة على جيش المهدي وأساطيله فعادوا الى افريقية بعد ان قتل منهم وأسروا والمير المهدي نجحا يهلادم مصر وجهه نظره الى بلاد المغرب فافتتح بها عدة جهات وكان من ذلك ان أرسل ولده أبا القاسم (٥٣١٥) في عسكر كتامة الى الغرب ففتح بلد مزانه ومطماطة وهوراة وسائر بلاد الاباضية والصفيرية وجهات تاهرت ودوخ المغرب وعاد ظافرا و كانت وفاة المهدي عبد الله العلوي بالمهدية (٥٣٢٢) وأخفى ولده أبو القاسم محمد مونة سنة كاملة لينتظم له الامر وينفذ كل ما عزم عليه وكانت ولايته ٢٤ سنة ويقال انه كان للمهدي مذهب يخالف مذاهب أهل السنة وكان يقول ان العالم موجود من الازل وقد تقلب في صور مختلفة عديدة وان لا شئ ثابت فيه وكان يقول خيرا للحياة ما صرفت بالتمتع والتعيم وان لا شئ يجب أن يوقف الانسان عن الذات لعدم القدرة عليها

وقام بالامر من بعده ابنه القاسم أبو القاسم محمد (٣٢٢ - ٥٣٣٤) وبايعه الناس لما أظهر وفاة المهدي وفي أوائل حكمه كثرت الثورات فخرج عليه ابن طالوت القرشي في طرابلس وادعى انه المهدي وحاصر طرابلس ثم قتله البربر له دم ثبوت دعواه وأغرى القائم المغرب وأقام على فاس أحمد بن بكر بن أبي سهل ثم أنزله ميسور الخصى بعدما استولى على فاس واستمرت جيوشه تحارب حتى ملك المغرب كله ما عدا فاس وأقام دعوة الشيعة في سائر البلاد وفي سنة ٥٢٢٤ جهز أبو القاسم أسطولا ضخما لغز وساحل أوروبا وعقد عليه يعقوب بن إسحاق فافتتح جنوة بعد قتل كثير من أهلها ثم مره ذال اسطول على جزيرة سردانية فأثنى فيها ثم على قرقيسيا من سواحل الشام وأحرق مراكب العباسيين فيها وعاد بالغانم الى المهدي ثم بعث خادمه زيران بالجيوش والمراكب على مصر فملك الاسكندرية ولكن جيش الانحشيدى أجلاها عنها ولما أساء عامله على صقلية السيرة (٥٣٢٥) وكان اسمه سالم بن راشد عصت عليه جرجنت فكتب الى أبي القاسم بذلك فجهز اليه عسكر او حاصر جرجنت (١) فاستجد أهل جرجنت ملك القسطنطينية رومانوس الاول فأنجدهم وبينما كانت الاساطيل آتية تلاققت مع أغربة المسلمين في جون هنالك فأحرقت منها عدة ودام حصار جرجنت الى (٥٣٢٩) ولما لم يتمكن الروم من نجدها تزح

(١) جرجنت مدينة قديمة على الشاطئ الجنوبي من صقلية وهي قاعدة عمالة مضافة اليها وتبعد عن البحر نحو أربعة كيلومترات ولها ميناء تجارية مهمة جدا وسكانها يبالغون ١٩,٠٠٠ نفس وبها كنائس شهيرة قديمة ويستخرج من جوارها الكبريت وزيت البترول والى الجنوب الشرق منها كانت مدينة جرجنت القديمة التي كانت مستعمرة لدورين (٥٨٢ ق م) واشتهرت بالتجارة والزراعة وقد حكها احكامهم شهرة في التاريخ وهدمها القرطاجيون (٤٠٥ ق م) ثم قامت ثانية واستولى عليها الرومان (٢١٢ ق م) ثم وقعت في قبضة العرب (٨٢٧ - ١٠٨٦ م) ثم أخضعها الكونت روجير وكانت مشيدة على عدة تلال وكان بها ما كل دورية بدية لانزال اطلالها الآن

عنها بعض أهلها ونزل الباقون على الامان الا ان القائد العربي أخذ عظماءهم وأرسلهم للقائم بالهدية فلما توسطوا البحر أمر مقدم القائم فأغرق بهم السفينة وكان من خرج على القائم شخص يدعى بأبي زيد (٣٣٣ هـ) واستفحل أمره وتقدم الى رقادة (١) يريد فتحها فأخرج القائم جيشا لحفظ رقادة والقيروان معافهم منهم أبو يزيد واستولى على تونس ثم على القيروان و رقادة ثم سار أبو يزيد يريد القائم فجهاز اليه القائم جيشا وجرت بينهم محروب كثيرة وآخرها ان جيوش القائم انهزمت وولت وسار أبو يزيد وحاصر القائم بالهدية وضايقتها واستمر على حصارها الى سنة ٣٣٤ هـ ولم يتمكن من فتحها المنعة حصونها فرحل عنها الى القيروان وتوفي القائم في تلك الاثناء (٣٣٤ هـ)

وملك ابنه سميس المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) فجهاز العساكر الملاقاة الثائر الذي قوى أمره وسار بنفسه الى القيروان واستردها من أبي زيد (٣٣٥ هـ) وهزم جيشه وسار المنصور في أثر أبي زيد وهو يهرب منه من بلد الى آخر ثم عاد المنصور الى بلاد صنهاجة ولما بلغ الى موضع يسمى قرية عمرة اتصل به هناك الامير زيري الصنهاجي جدم ملوك بني باديس الذين سياتذ كرههم لان شاء الله فأكرمه المنصور ثم استمر المنصور في تعقب أبي زيد حتى أدركه في قلعة كتامة فخاصرها ثم ملكها عنوة ولما أراد أبو يزيد الفرار من القلعة قبضوا عليه وجاوه الى المنصور فكبله في الحديد وبقى عنده أسيرا الى أن مات من جراحه (٣٣٦ هـ) وكان أبو يزيد على مذهب النكارية وهو تكفير أهل الملّة واستباحة أموالهم ودمائهم وأراح الله أهل المغرب من فاسد بدعته

وكان لما توفي القائم بأمر الله كتم ولده اسمعيل المنصور الخبير خوفا من تزايد قنمته أبي زيد المذكور ولم يعلمه حتى فرغ من أمره وبعد ذلك التفت المنصور لامر الملك فوطيد أركانه وقوى بنيانه وولى على صقلية الحسن بن علي بن أبي الحسين المكابي الذي افتتح عدة أماكن عاصية في تلك الجزيرة مدة حكمه وكانت وفاة المنصور سنة ٣٤١ هـ وعمره ٣٩ سنة وكان خطيبا بليغا وفارسا مقدما وعهد الى ابنه أبي تميم معد بولاية العهد

المعز لدين الله تميم معد لما جلس المعز على تخت العلويين (٣٤١ - ٣٦٥ هـ) بعد وفاة والده وعمره أربع وعشرون سنة أخذ يسوس الامور بحكمة ونشاط ومهارة ولما بلغ الخبر الى صقلية استخلف اليها الحسن بن علي ولده أبا الحسين أحمد وسار هو الى افر بيقية وبوصله كتب المعز لولده المذكور يقره على صقلية وقد حصل بين المعز لدين الله العلوي وبين الناصر لدين الله الاموي الاندلسي وقائع بحرية وبرية نشأ عنها تأخير فتوح العبيدين لبلاد مصر وسببها ان عبد الرحمن الناصر لشغفه بانشاء الاساطيل واستطلاع أحوال الامم البعيدة واجتهاده في نشر متاجر الاندلس وتوسيع نطاقها

(١) قال باقوت رقادة بلدة كانت باقر بيقية بينها وبين القيروان أربعة أميال وكان دورها أربعة وعشرين ألف ذراع وأكثرها بساتين ولم يكن باقر بيقية أطيب هواء ولا أعسل نسجا ولا أرق تراب منها ويقال ان من دخلها لا يزال مستبشرا من غير سبب بناها ابراهيم بن أحمد بن الاغلب وانتقل اليها من مدينة القصر القديم وبنيها قصورا عجيبة وجامعا وعمرت الاسواق والحمامات والقنادق فلم تزل بعد ذلك دارا لا غالبه الى أن هرب عنها زياد الله الاغلب من أبي عبد الله الشيعي القائم بالدعوة العبيدية وسكنها عبيد الله المهدي الى أن انتقل الى المهديّة قد دخلها الوهن وانتقل عنها سكنها ولم تزل تخرب شيئا فشيئا الى أن ولى المعز العلوي فحرب ما بقى من آثارها ولم يبق غير بساتينها وكان تأسيسها سنة ٢٦٣ هـ وحملها المهدي بها سنة ٢٩٧ هـ وتخرب بها سنة ٤٤٦ هـ

كان اتخذ (٣٤٤ هـ) سفينة عظيمة لم يعمل مثلها في دول الاسلام ولا في غيره في ذلك الوقت وشحنها بالبضائع النفيسة والتحف الغريبة وأرسلها لتردد على جميع ثغور البحر الابيض المتوسط لتبليغها وتعتاض عنها من مصنوعات البلاد الاخرى فانفق ان تلاق تلك السفينة بسفينة يها رسول من صقلية الى المعز العلوي معه كتب اليه فقاطع المركب الاندلسي على مركب المعز وأخذها بما فيها ولما علم المعز بذلك اغتاظ جدا وعده اهانة عظيمة فجهز اسطولا كبيرا لغزو الاندلس واستعمل عليه قائد يدعى الحسن بن علي فسار هذا الاسطول حتى وقف امام مدينة المرية وأحرق ما في مينائها من المراكب وأخذ تلك المركب العظيمة التي لعبد الرحمن وكانت عادت من الاسكندرية وخرج من بالاسطول من الجنود على حين غفلة فعاثوا في البر وقتكوا وسبوا ثم عادوا الى المهدي ولما علم الناصر بذلك أرسل اسطولا تحت قيادة غالب أمير البحر الى ساحل افر بيقية فلم يتمكن من عمل شيء لتيقظ الحامية من الجنود الا أنه في سنة ٣٤٥ هـ أرسل الناصر اسطولا آخر مؤلفا من سبعين سفينة فدخل بعض المرافئ وعاث في جهات سوسة وغيرها وعاد ظافرا ولما رأى المعز جوده أساطيل الاندلس التفت الى أساطيله فأنقتهن أو أكثر منها وجعلها لتردد بالبحر وعلى سواحل البحر المتوسط حتى صار لها فيما بعد الشوكة التامة ثم ان المعز جهز بأبا الحسين جوهر الصقلي خادمه في جيش عظيم وأرسله الى أقصى المغرب (٣٤٦ هـ) حتى انتهى الى البحر المحيط وجال في أكثر بلادهم ثم عاد الى فاس ففتحها عنوة وكان مع جوهر زيري بن مناد الصنهاجي وكان شريكه في الامر واستمر المعز بغزو الجهات فأتت أملاك العلويين اتساعا عظيما ولما رأى اضطراب احوال مصر وكان ينتظر تلك الفرصة الثمينة من زمن وذلك بعد موت كافور الانحشيمي جهز جيشا عظيما يبلغ مائة ألف وأرسله تحت قيادة جوهر (٣٥٥ هـ) الى النصار المصرية فاستولى عليها بالاحرب وأقام فيها قائم العلويين ثم ان المعز سار من افر بيقية فاصادى بمصر (٣٦١ هـ) بطريق البحر واستعمل على افر بيقية يوسف بلدين بن زيري بن مناد الصنهاجي وجعل على بلاد صقلية أبا القاسم علي بن الحسن بن علي وعلى طرابلس الغرب عبد الله بن خلف الكاشي واستعجب المعز معه أهله ووزرائه وفيها أموال عظيمة ولما وصل الى الاسكندرية آخر شعبان سنة ٣٦٢ هـ أتاه أهل مصر وأعيانها فاقبهم وأكرمهم ثم دخل مدينة القاهرة التي اختطها جوهر (٣٥٨ هـ) وقامت فيها دولتهم الفاطمية وسيأتي ذكرها في تاريخ مصر مفصلا

وفي هذا الزمن تقريبا كانت انتقلت حكومة بلاد اللومباردية الى امراء مدينة قبوة (١) فبذلوا غاية

(١) قبوة مدينة من مملكة ايطاليا من اقليم كاسر ناسكانها نحو ١٢٠٠٠ نسمة وبها كنائس عظيمة أسسها اللومبارديون (٨٥٦ م) من انقاض قبوة القديسة لتقوم مقام مدينة كاسيلينوم الواقعة على بعد أربعة كيلومترات منها وكانت هذه المدينة أي قبوة القديسة من أعظم مدن ايطاليا قديما أسسها قبيلة الازروسك وصارت قاعدة اقليم كفاانيا استولت عليها طائفة السمنند وكانوا جنودا للذي الازروسك ثم ارتقت جدا حتى صارت معادلة لرومية ولما أغار نيبال على رومية فتحت قبوته ابوا بها فاحتلها تمضية فصل الشتاء بها هو وعساكره بعد واقعة كان ولما استردها الرومان (٢١١ ق م) انتقموا من أهلها أشد الانتقام وجعلوا المدينة وما يتبعها ملكا ومانيا ثم انها ارتقت مدة القياصرة وكان لاهلها شهر في صناعة الجلود والجلوخ وصيغ الارجوان وقد خربها جنسريك ملك الوندال واللومبارديون وكان بها في عصر الرومان مبان فاخرة ولا يزال يشاهد بعض أطلالها الا أن تم احتلالها الفرنسيون سنة (١٧٩٩ م) و (١٨٠٦ م) وجيش غاربيالدي (١٨٦٠ م) وتسمى عند الفرنسيين (Capoue) أو (Capua) ومنه اسمها عند العرب

مجهودهم في إخلاء العرب النازلين بجوارهم فلم ينجو مع اعانة كثير من أمراء بلاد ايطاليا لهم ولما رأى البابا يوحنا العاشر ما يتهدد قاعة النصرانية من وجود هؤلاء العرب دعا المغرب والمشرق لحمل السلاح لطرده هذه العصابة الحربية فبعث القيصرقسطنطين فرقة يقودها قائد يدعى بسانجلي وبينما هي ذاهبة انضمت اليها جمهوريات اللومباردين الثلاث واعانتها باساطيلها او قدم البابا أيضا وحاصر الكل العرب الذين استقروا يدافعون عن أنفسهم ثلاثة أشهر مع الشجاعة العظيمة والصبر التام ثم لما رأوا الكثرة عليهم تركوا حصونهم بعد ان سلموها للنيران ومع ذلك لم تنجح هذه الانتصارات ببلاد ايطاليا من العرب لان قسم اعظم منهم بقي ساثدا يجلس غرغانو ومدنتي ريو وكوزنسة مع تحريض البابا يوحنا الرابع عشر الاهالي والامراء على طردهم (٥٣٥٩ هـ)

(الفصل السابع)

دولة بني زيري الصنهاجيين في تونس

(٣٦١ - ٥٤٢ هـ)

تنسب هذه الدولة الى صنهاجة وهي قبيلة من قبائل البربر اصلها من حير وكانت لهم في افريقية مدة دولة العبيديين دولة ضخمة فكانوا ١٤٠٠ العبيديين ثم تغلبوا واتسع ملكهم واستفحل أمرهم في افريقية وأول من استعمره لهم المعز لدين الله العلوي عندما سار الى مصر (٥٣٦١ هـ) يوسف ابن بلكين بن زيري بن باديس وأوصاه المعز قبل سفره الى مصر بامور كثيرة وأكد عليه القيام بها ثم قال له عندما أراد الانصراف الى عمه ان نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء (١) ان ترفع الجباية عن أهل البادية والسيوف عن البربر وأن تولى أحد من اخوتك وبني عمك فاتهم يرون أنهم أحق بالامر منك وافعل مع أهل الحاضرة خيرا) فعاد يوسف بن بلكين وأحسن النظر في أحوال الدولة والرعية وغزا المغرب في جموع صنهاجة وبدد شمل الخوارج فيها ثم ان ابن بلكين طلب من المعز العلوي أن يضيف اليه ٤٠٠ طرابلس (٥٣٦٧ هـ) فاجابه الى ذلك ثم عاد لحرب المغرب فلك فاس وسجلماسة وأرض الهبط من يد عمال بني أمية بالاندلس وبدد شمل أمراء تلك الاطراف فبعثوا بالصرح الى المنصور بن أبي عامر بالاندلس فأمدهم على حرب ابن بلكين وليكنه استقر بحاربهم حتى أذهب دعوة بني أمية من نواحي المغرب وفي خلال ذلك (٥٣٧١ هـ) سار الامير أبو القاسم بالاساطيل من صقلية يريد الجهاد ولما بلغه ان ملكا من ملوك الفريج يقال له بردويل (١) خرج بالاساطيل والجموع يقصد محاربة صقلية فحاصر قلعة مالطة (٢) وملكها وأصاب سريتين للمسلمين فعزم أبو القاسم

(١) هو بغدوين أو بردويل الرابع ملك بلاد فلاندر (Baudoin IV)

(٢) مالطة جزيرة عظيمة مهمة واقعة بالبحر المتوسط الايض بين تونس وصقلية فتحها العرب في أول القرن العاشر من الميلاد وكانت ليونان وبعدها دافعت عن نفسها مناسلت عنوة وعاملوا سكانها بالرفق والحسن وأطلمقوا الهسم حربية الدين كجملها عادتهم في جميع البلدان التي اقتنصوها وقد اختلط سكانها بالفاطميين اختلاطا تاما حتى نسوا لغتهم وعوائدهم ولا زالت لآن لغتهم أكثر لفاظها عربية وكان مر كنهذا الجزيرة معا فبالعرب لان مرافئها الكثيرة كانت ملجأ لسفنهم العديده بقوا مستولين عليها مدة ٢٢٠ سنة ثم في ابتداء القرن الثاني عشر من الميلاد استولى

على اخراجه منها ولو كنسه لما قارب الجزيرة تخاف وجبن فرجع فلما رأى الفرنج رجوعه اقتفوا أثره
باساطيلهم ولحقوه والتكسّم الحرب بينهم فحمل الافرنج على المسلمين فاتصروا أولا في الصدمة
الاولى وقتل أبو القاسم ثم عاود المسلمون الكرة فظفروا وانتصروا وافرردو بل في رجوعه وفي سنة
٣٧٣ هـ توفي يوسف بلديكين بن زيري ونخلفه ولده المنصور وكان صاحب عهد أبيه

وقام بالامر من بعده ابنه المنصور (٣٧٣ - ٣٨٦ هـ) وفي أول حكمه بعث للعزير بن
المعز بهدايا نفيسة يقال ان قيمتها تزيد عن ألف ألف دينار وكان على طريقة أبيه وخرج عليه بعض
التوارفتك بهم واتسعت مملكته وتوفي (٣٨٦ هـ) وكان أميرا كريما شجاعا

وقام بالامر من بعده ولده باديس بن المنصور (٣٨٦ - ٤٠٦ هـ) وعقد له
يطوفت على ناهرت وسرح عساكره تحت قيادة عميه يطوفت وجماد الحرب زناة فانهزم ما ثم ولى
باديس عمه يطوفت على ناهرت وبعد ذلك وقعت فتن وحروب بين باديس وعمه حماد بن يوسف بلديكين
يطول شرحها ثم الامر باستقلاله فقامت من سنة ٣٨٧ هـ دولة بني حماد ملك بجاية وأخذت
ولايته في الاتساع وقتئذ واستبد بنوه فيها الى أن ظهر عبد المؤمن وملك بجاية (٥٤٧ هـ) ثم توفي
باديس (٤٠٦ هـ) وكان من أعظم الملوك حازم الرأي متوقدا الذهن بهم كثير باصلاح امر
جيشه والقيام على تدبيرها بنفسه ويقال ان سبب موته ما عتراه من الفرح الشديد حينما عرضت
عليه جنوده ورأى جودة نظامها وحسن هيئتها حتى كاد يطير قلبه فرحا * فن فرح النفس ما يقتل *
فانت في تلك الليلة

وبويع ابنه المعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٣ هـ) وعمره ثمان سنوات ثم وصات
اليه اطلع والتقاليد من الحاكم العلوي ولقبه مشرف الدولة وكان المعز منتحلا للسنة فأعلن مذهبه
لاول ولايته والمعز هو الذي حمل أهل المغرب على مذهب الامام مالك وكانوا قبله على مذهب أبي
حنيفة رضى الله عنهما ولما كان يعمل لاهل السنة نار الناس بالشيعة بأفريقية وقتلوهم وسبوا
انه مررا بكبا القير وان فاجتاز بجماعة فسأل عنهم فقيل له عنهم رافضة يسجون أبابكر وعمر فقال
المعز رحمة الله عليهم ما ورضى الله عنهم ما فثار بهم الناس وكانت فتنة عظيمة (٤٠٧ هـ) وفي
سنة ٤١٦ هـ خرج الروم الى جزيرة صقلية في جمع كثير وملكوا ما كان للمسلمين في شبة جزيرة
قلورية الواقعة شرقي صقلية وشرعوا في بناء المساكن ينتظرون وصول مراكبهم مع ابن أخت
الملك فلما بلغ المعز بن باديس ذلك جهز أسطولا كبيرا مر بكم أن أربع مائة مركب وحشد فيه الجنود
والتطوعين للجهاد وأفزع هذا الاسطول ولما وصل الى جزيرة قوصرة (١) وهي قريبة من برافريقية
خرج عليه نوع عظيم فأغرق أكثر سفنه ولم ينج منه الا القليل ولما كان بكره الشيعة قطع خطبة

عليها و جيرا نور منسدى حينما فتح صقلية وقد شيد بها العرب عدت مبانى ومسكن وقلاع وسباني ذكرها مفصلا عند
الكلام على دولة الانكليزان شاء الله

(١) جزيرة صغيرة بالبحر المتوسط الابيض تابعة لاطاليا تبعد عن شواطئ افريقية بنحو ستين كيلومترا أرضها
جبلية خصبة السهول وهي منقلا لاصحاب الجرائم من مدينة تابل تسمى الآن عند الفرنج (Pantellaria)
وقديما (Csoyra) ومنه اسمها لدى العرب

العلويين وخطب للقائم العباسي بخاءنه الخلع والهدايا والمراسيم على طريق القسطنطينية بحرا وتلاشت لهذه الاسباب دولة العبيديين من أفريقيا فعظم ذلك على المستنصر العلوي وأرسل الى المعز باديس يهدده فاغلظ ابن باديس في الجواب واتفق المستنصر ووزيره الحسن بن علي البازوري على ارسال قبيلتي زغبة ورياح من العرب للتشغب وأمدوهم بالاموال فساروا الى أفريقيا وهزموا جيوش المعز بن باديس عدة مرات ونزل بأهل أفريقيا من ذلك بلاء عظيم واستقلت بعض الايلات ثم توفي المعز (٤٥٣ هـ) وكان كريمةا حلما شاعرا أدبيا وللمعات المعز طمعت نفوس أصحاب البلاد في الاستقلال كما تقدم بسبب اغارة العرب وتغلبهم على بلاد أفريقيا

وقام بالامر من بعده ابنه ابراهيم تميم بن المعز (٤٥٣ - ٥٠١ هـ) ولم يكن له الا ماضيه السور من مدينته وكان يخالف بين العرب ويسلط بعضهم على بعض واستمر يحاربهم ففتح سوسة وأرسل الجيوش على تونس فاستقام له أمرها ثم نزلت الحروب وملك بعض أمصار أفريقيا وهزم العرب بقرب المهدي (٤٧٦ هـ) وأخرجهم من القيروان وفي سنة ٤٨٠ هـ نزل على المهدي أسطول مركب من ٣٠٠ مركب وثلاثون ألف مقاتل من الثوار واستولوا عليها وعلى (١) زويلة فبذل لهم تميم التزول عنها مائة ألف دينار واستخلصها من أيديهم بعد ما نهبوها

ضياح جزيرة صقلية - اما أحوال جزيرة صقلية في الوقت المذكور فكانت مرتبكة والثورات قائمة في كل جهة فتضايق أهلها وخاف المسلمون من اغارة الفرنج الذين يتربصون الفرص لذلك وحضر بعضهم الى أفريقيا (٤٢٧ هـ) وعرضوا أحوالهم على المعز بن باديس وطلبوا منه المساعدة على خلع عاملهم أسد الدولة الكلبى المشهور بالاكل فإرسل المعز بن باديس الى صقلية جيشا مع ابنه عبد الله فحاصروا الاكل في الخاصة وقتلوه وحل رأسه للجز ثمان عسكر المعز ارتكبوا أفعالا شنيعة فكبرهتهم الناس وتحزبوا عليهم حتى هزموهم بعد ان قتلوا منهم ثمانمائة جندي فعاد من بقي منهم في المراكب الى أفريقيا وولى أهل صقلية عليهم حسن الصمصام بن يوسف أخوا الاكل فاضطربت في ولايته أحوال صقلية واستولى الاراذل على الاحكام ثم ثار أهل بلرم على الصمصام وأخرجوه وقدموا عليهم ابن الثمنة من رأس الاخير وتلقب بالقادر بالله واستبدت بمدينة مازر ثم انفرد كل انسان في الجزيرة ببلد فانفرد القائد عبد الله بن منكوت بمازر وأطربنش (٢) وغيرهما وانفرد القائد على بن نعمة المعروف بابن الحواش بقصر يانة وجر جنت وغيرهما وانفرد ابن الثمنة بمدينة سرقوسة وقطانية ثم وقع القتال بين هذين الرئيسين واستنصر ابن الثمنة بالفرنج الذين بمدينة مالطة مدة ملكهم رجارور وجر النور مندى وهون عليهم أمر أهل صقلية فساد الفرنج وابن الثمنة الى البلاد التي بأيدي المسلمين (٤٤٤ هـ) واستولوا على مواضع كثيرة من الجزيرة وفارق الجزيرة حينئذ خلق كثير من أهلها من العلماء والصالحين وسار جماعة الى المعز بن باديس الى أفريقيا مستصرحين ثم استولى الفرنج على غالب بلاد صقلية وحصونها بالامناع ولم يثبت امامهم غير قصر يانة وجر جنت

(١) هي زويلة المهدي لا زويلة فزان التي ذكرها اقول فالزويلة المهدي مدينة بأفريقيا بناها المهدي الى جانب المهدي بينهما مية منهم فقط وأسكن بها العامة وسكن هو وعسكره المهدي

(٢) هي مدينة طنجة المتقدمة المذكور

وقاومت قصر يابته بعد سقوط بحر جندت مدة ثلاث سنين ثم أذعن أهلها أخيرا ثم ملك رجار جميع الجزيرة (٤٦٤ هـ) فأحسن السيرة ولم يتعرض للمسلمين بأذى وسمح لهم بان يكتبوا على الدنانير والدرهم على الوجه الواحد منها إلا إله إلا الله محمد رسول الله وعلى التامى الملك رجار وهو الذى أدخل الديانة النصرانية الى صقلية وكانت وفاته بمدينة ملبطو بأرض فلورية (٤٩٠ هـ) وتولى بعده ولده رجار الثانى وسلط على طريقة ملوك المسلمين من الخنائب والحجاب والحراس وغير ذلك وأسكن فى الجزيرة الفريخ مع المسلمين وأكرم المسلمين ومنع من التعدى عليهم وقربهم واليه أئف الشريف أبو عبد الله الادريسي كتاب زهرة المشتاق فى احتراق الآفاق الا انه بسبب الحروب الصليبية التى اشتعل لهيبتها فى الوقت المذكور أخذت العرب تم اجر من الجزيرة شيئا فشيئا حتى خلت منهم تماما وفى سنة ٥٠١ هـ توفى تميم بن المعز بن باديس وكان حليما شاعرا وعمره ٧٩ سنة وولايته ٤٦ سنة وخلف من الاولاد مائة ولدين ذكور واثنا وكان شجاعا ذكيا محبا للعلم وله شعر حسن وكان محبا للعلماء وأهل الأدب

وقام بالامر من بعده ابنه يحيى بن تميم (٥٠١ - ٥٠٩ هـ) وكان عمره حين ولى الامر ٤٣ سنة وفتح أمره بافتتاح امكيسة ثم غلب عليها ابن محفوظ النائريها وثار أهل صفاقس على ابنه أبى المفتوح فلطف الحيلة فى تفريق كلمتهم ثم راجع يحيى طاعة العبيدين لما رأى ضرورة ذلك ووصاته بالمخاطبات والهدايا من الخليفة الفاطمى وقد صرف ٥٠٠٠٠ مته الى غز والفريخ بالبحار فاستكثر من الاساطيل البحرية واقتنى عددا كثيرا من السفن وردد البعوث الى دار الحرب حتى هابته أم الفريخ وأغارت أساطيله على جنوة وسردانية وكان له فى ذلك آثار ظاهرة ثم مات فجأة فى قصره يوم عيد الاضحى (٥٠٩ هـ) وخلف ثلاثين ولدا

وقام بالامر بعده ابنه علي بن يحيى بعد ان استقدم من صفاقس (٥٠٩ - ٥١٥ هـ) وبعد ما استتب له الامر نهض الى حصار تونس حتى استقام له النائريها وساق الجيوش لردع التوار ووصل اليه من مصر الخلع والمخاطبات على العادة ثم نهض لمحاربة المغرب (٥١١ هـ) ففتح وغنم وفى خلال ذلك أى بعد ما استتب قدم الفريخ فى صقلية طمعا فى تلك أفر بركة فخر جوا فى أسطول كبير وجم غفير من مشهورى فرسان الفريخ فحاصروا جزيرة جربة ونزلوا بساحتها وأداروا المرابك بجهاتهم فاجتمع أهلها وقتلوا قتلا شديدا فقتل منهم عدد كثير ثم انهزموا وملك الفريخ الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا نساءها وهلك كثير رجالها ومن بقى منهم أخذوا لانفسهم أمانا من صاحب صقلية المذكور واقتكروا أسراهم وسبيهم وجرى بهم ثم حدثت الفتنة بين رجار صاحب صقلية وبين أهل طرابلس فارسلى عليهم (٥١٤ هـ) أسطولين فأتارا عليهم وانتهبوا عابا بالغنمة ثم هم على بن يحيى بانشاء الاساطيل لمعاينة رجار على فعله ولكن عاجلته المنية (٥١٥ هـ) وفى رواية أخرى ان أسطول صقلية الاؤل بعد ان حاصر طرابلس وعلق رجاله الكلاب فى سور البلد ونقبوه ووصل فى خلال ذلك جماعة من العرب فجدوا لاهل البلد فتوى أهل البلديهم فخر جوا الى الاسطول الصقلية المذكور وجلا على رجاله لاهل منكرة فهزمهم هزيمة فاحشة وقتلوا منهم خلقا كثيرا ولحق الباقون بالاسطول وتركو الاسلامة والانتقال والدواب والالات

فاغتتمها العرب وأهل طرابلس ورجع الفريخ الى صقلية مهزومين والاسطول الثاني قصد المغرب فوصل الى جيجل من مدن الجزائر فلما راهم أهلها هربوا الى البراري والجبال فدخلها الفريخ وسبوا من أدركوه فيها وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذي بناه الأمير يحيى بن عبد العزيز بن حماد للترهة ثم عادوا الى صقلية بالغنمة

وقام بالأمر من بعده ابنه الحسن بن علي (٥١٥ - ٥٥٥ هـ) وعمره اذذاك اثنتا عشرة سنة بعهد من أبيه وقام بتدبير دولته ومولاهم القائد صندل الخصى ولمامات تولى تدبير الدولة القائد أبو عزم موقوق وكان والد الحسن قبل وفاته أرسل الى رجار صاحب صقلية عند وقوع الوحشة بينهم يهدده بالمرابطين ملوك المغرب واتفق في خلال ذلك ان غزا أحمد بن ميمون قائداً أسطول المرابطين صقلية وافتتح قرية فسباها وقتل أهلها (٥١٦ هـ) فلم يشك رجار في أن ذلك باغراء الحسن فساق أساطيله الى المهديّة وعليها عبد الرحمن بن عبد العزيز ورجعي بن مختايل الانطاكي وكان قبل ذلك قائداً بجزيرة عند الأمير عيسى بن المعز وكان يحيى يشاوره في مهام الامور ولمامات تميم أعمل جرجي الخيلة في المحاق برجار فطهق به فاستعمله على اسطوله وبعثه لحصار المهديّة في ٢٥٠ سفينة وعدد وافر من الجيوش ولما وصل الى جزيرة قوصرة افتتحها وكان الحسن قد استعد لطردهم فلما وصلوا نزّلوا الى الساحل وأخذوا في التخريب والتحريق وملكوا قصر الدهانين وجزيرة الاملس وتكرر القتال بين الطرفين الى أن غلبهم المسلمون فاقبلوا راجعين الى صقلية وفي سنة ٥٤١ سير رجار أورجار الثاني كوث صقلية اسطولا تحت قيادة جرجي مختايل الى طرابلس الغرب فاحاط طوايها برا وبحرا فخرج اليهم أهلها وأنشبو القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع وقع اختلاف بين أهل طرابلس الامر فيه الى قتال المسلمين بعضهم بعضاً فانتهز الفرصة فرنج صقلية ونصبوا السلام وطلعوا على السور واشتد القتال فلذكت الفريخ البلاد عنوة وسبوا نساءهم ونهبوا أموالهم وهرب من قدر على الهرب ملتجئاً الى البر وبالعرب ثم نودى بالامان في كافة الناس فرجع من هاجر منها وأقام الفريخ ستة أشهر حتى حصنوا سورها وحفر واحقادها ولوا عليها رجلا من أهلها وأخذوا منه الرهائن وتركوها في ساحلية ورجعوا الى صقلية وألزم ملكهم المذكور أهل صقلية والروم بالسفر اليها وعمرت سير يعاوب بعدها تقدم محمد بن ميمون قائداً المرابطين باسطوله فعات في نواحي صقلية فعزم رجار على إعادة غز والمهديّة ثم وصل اسطول يحيى بن العزيز بصاحب بجاية لحصار المهديّة مع قائده مطرف بن علي بن حمدون الفقيه فصالح الحسن بن علي رجار صاحب صقلية واستمده فامده رجار باسطوله ثم عادت الفتنة بين رجار والحسن بن علي ثانية وأرسل رجار (٥٤٣ هـ) اسطولا كبيراً مؤلفاً من ٣٠٠ سفينة تحت قيادة جرجي بن مناسل فطلب الحسن المساعدة من ملوك الاسلام ولمالم يجيبوه رحل عن المهديّة واتبعه الناس ودخل العدو المدينة فاستولى على ما بها من الذخائر الملوكية التي تركها الحسن في قصوره ثم بعث رجار اسطولا الى صفاقس فملكها وأخذ سوسة ثم طرابلس واستمر رجار يحارب حتى ملك بلاد الساحل الا فريقي كلها وصارت في حوزته أما الأمير حسن فإنه ذهب لمقابلة عبد المؤمن شيخ الموحدين وخليقة امامهم المهدي في بجاية (٥٤٧ هـ) فآكرم وفادته واستمر في خدمته وفي سنة ٥٤٨ هـ ثار أهل جربة على فريخ صقلية وتمكنوا من

طردهم منها ثم عادوا باساطيلهم وغلبوا عليها ثانية وسبوا أهلها واشتموا على الرعية وأهل العلم ثم عادت للمسلمين ولم تزل مترددة بين المسلمين والفرنج الى أن فتحها عبد المؤمن باسطول الموحدين ولما علم عبد المؤمن بما حل بالمسلمين تقدم بجيوش الموحدين واستخاص أفريقيا من يد الافرنج وفتح المهديّة (٥٠٥٥ هـ) صلحا وأسكن بها الحسن فأقام بها ثمان سنوات ثم استدعاه الامير يوسف بن عبد المؤمن فارتحل باهله يدمرا كس فمات في تامسنا وبه انقرضت دولة الصنهاجيين من تلك الاطراف وعدتهم غنمية ومدة ملكهم مائة واحد وثمانون سنة وذلك من حين ذهاب المعز الى مصر الى أن انقرضت دولتهم وان اعتبرنا أول دخولهم في الامارة واستعمال العبيدين لهم فانه كان من سنة خمس وثلاثين وثلثمائة فان المدة تكون مائتين وسبع سنين

(الفصل الثامن)

دولة الموحدين بتونس

(٥٥٥ - ٦٠٣ هـ)

قد سبق لنا شرح أخبار دولة الموحدين وأوليتهم بتاريخ المغرب الاقصى ولهذا سنلخص في هذا الفصل حكمهم في تونس فقط الى أن قامت بهادولة الحفصيين فنقول انه لما قام أمير المؤمنين عبد المؤمن الكومي القيسي بجيوش الموحدين قصد اخضاع بلاد المغرب الاوسط وتغلب على بجاية وقسطنطينة وعاد الى مرا كس انتهت اليه شكوى أهل افريقية مما نزل بهم من العرب فبعث اليها ابنه عبد الله في عساكر الموحدين ففتح البلاد وأخضع بعض القبائل ثم نازل تونس (٥٥٢ هـ) فامتعت عليه أولا ثم انضم الى أهل المدينة محرز بن زياد وقومه من العرب وبرزوا للموحدين فاوقعوا بهم ثم ان عبد المؤمن زحف الى تونس بجيش عظيم ففتحها ثم نازل المهديّة وبها جمع من فرنج صقلية وبعد حصارها أياما فتحها صلحا (٥٥٥ هـ) كما سبق ذكر ذلك في آخر دولة الصنهاجيين ثم استنقذ جميع البلاد الساحلية مثل صفاقس وطرابلس من أيدي الفرنج وبعث ابنه عبد الله الى قابس فاستخلصها من يدي كامل واستخلص قفصة من يدي الوادو وزغنة من يدي بروكس وطبرية من يدي ابن علال وجبل زغوان من يدي حماد بن خليفة وسقنيارية من يدي عماد وما زال يفتح البلاد حتى استولى على غالب جهات المغرب الادنى والاوسط وبعدها تم الفتح وانتفى راجعا الى المغرب بلغه أن الاعراب بافريقية ناروا عليه فسير عليهم العساكر من الموحدين فنهضوا الى القيروان وأوقعوا بالعرب وهزموهم هزيمة منكورة فعادت السكينة الى افريقية وكانت وفاة عبد المؤمن (٥٥٨ هـ) وقام بالامر من بعده الامير يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) فاستوزر السيد باحفص وكان وزير الابيه وكان لب بن ميمون قائد الاساطيل بايعة للموحدين فعينوه قائدا لاساطيلهم ولما أصلح شأنها تم بالرجالة وخرج للغزو وفي البحار وكان يبعث بالغنائم وبالاسرى والمال للخليفة أبي يعقوب الى أن هلك (٥٧٩ هـ) ولا مير المؤمنين يوسف هذا وقائع وغزوات برية وبحرية سبق ذكرها في تاريخ المغرب الاقصى والاندلس وكانت وفاته سنة

٥٨٠ هـ وكان عالما بالحدِيث طيب الجمالسة أعرِف الناس بسياسة الملك وأحفظهم بتاريخ العرب في الجاهلية والاسلام

وقام بالامر من بعده ابنه المنصور يعقوب (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) فاستوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص واستعد للجهاد فجاز بجيوشه من بالعدوة الى الأندلس وحارب فيها محاربات ذات شأن عظمت فيها فتوحاته خصوصا بعد واقعة الأرك السابق ذكرها في تاريخ المغرب الأقصى وبعد موت لب بن ميمون قام أولاده على سيرة أبيهم في غز و البحار ومن ذلك أنهم في سنة ٥٨١ هـ ركبوا البحر في اسطولهم فكانت لهم وقائع شهيرة بساحل البربر خصوصا بعد استيلائهم على بجاية وفي خلال ذلك حضر أحمد الصقلي قائداً لاساطيل صقلية مغاضبا لأميرها وقدم خضوعه للمنصور فعينه قائدا على الاساطيل فأحسن ادارتها وقوى سفنها وأقلع بها الى بجاية وملكها وله وقائع بحرية كثيرة سبق ذكر بعضها بتاريخ مراکش وكانت وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بمدينة سلا سنة ٥٩٥ هـ وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية معرضا عن مذهب الامام مالك

وقام بالامر من بعده ابنه محمد بن يعقوب (٥٩٥ - ٦٠٣ هـ) وثلة بالناصر واستوزر أبا محمد بن الشيخ أبي حفص وعقد السيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص على بجاية وفوض اليه شؤونها ولما بلغه (٥٩٦ هـ) استفحال ثورة ابن غانية ورجوع السيد أبي الحسن من قسطنطينة منهزما امام ابن غانية المذكور أرسل السيد أبا زيد بن أبي حفص الى تونس في عسكر من الموحدين لصد تغورها وفي تلك الاثناء تغلب ابن غانية على حصن المهديّة وثار بالسوم (٥٩٨ هـ) ثارا آخر من قبيلة كزولة يعرف بأبي قفصة فأرسل الناصر بن المنصور اليه عساكر الموحدين فشتوا وجوعه وقتل أبو قفصة في الواقعة وفي خلال ذلك بعث الناصر أسطولا آخر مع عمه السيد أبي العلاء والشيخ أبي سعيد بن أبي حفص ونازلوا ميورقة وامتدكوها من يد عبد الله أخي على عامل قسطنطينة فولى الناصر عليه أعمه السيد أبا زيد وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر ولما تكالب ابن غانية وأتباعه على أفريقية واستولى على أمصارها وحاصر تونس وملكها وأسر السيد أبا زيد أميرها منض الناصر من المغرب (٦٠١ هـ) لما وصله خبر كثرة الهرج بافريقية وتقدم بالجيوش بعد أن بعث الاسطول في البحر لئلا ينظر أبي يحيى بن أبي زكريا بالخزرجي فبعث ابن غانية ذخيره وحرمه الى المهديّة مع أحد خواصه وانتقض أهل طرابلس على ابن غانية وأخرجوا عامله تاشفين بن الغاني فقصدهم ابن غانية فافتتحها وخرّبها ووصل أسطول الناصر الى تونس فدخلوها وقتلوا من كان بها من أتباع ابن غانية ونهض الناصر في اتباعه يحارب ابن غانية وأتباعه حتى استرجع جميع البلاد من أيديهم وشردهم عن نواحيها وخيم على المهديّة يحاصرها فأجلب ابن غانية جوعه خلال ذلك على قابس فساق عليه الناصر الشيخ أبا محمد الحفصي في عساكر الموحدين وزحف اليهم بتاجرا من جهات قابس فهزّمهم واستولى على معسكرهم وما كان بأيديهم وأخذ فيهم بالقتل والسبي واستنقذ السيد أبا زيد من أسرهم ورجع الى الناصر بمعسكره من حصار المهديّة فظاهر اظافرا ولما عين أهل المدينة قدمه بالغنائم والأسرى بهتوا وسقط في أيديهم وسألوا النزول على الامان فكفل فتح المهديّة ورجع الناصر الى تونس فأقام بها حولا تمكن فيه من تدوين باقي الثائرين

فما وراء طرابلس وأثنى في بني طمطامة ونفوسة وتبع الموحدون ابن غانمة حتى التجأ الى صحراء
برقة وانقطع خبره ثم اعتزم الناصر على العودة الى المغرب وقد أفاء على افريقية ظل الرضا
وضرب عليهم سرادق الحماية ولما بداه ان ابن غانمة سيخالفه اليها وأن مرا كس بعيدة عن
الصرىخ وانه لا بد من رجل يسكن فيها مدة الخلاف ويقسم بها شؤون الملك وقع اختياره على
أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص وكان لهذه العائلة منزلة كبيرة عند بني عبد المؤمن والماسار الخبر بذلك
الى أبي محمد امتنع وشافهه الناصر به اعتذر فبعت اليه ابنته يوسف فاكرم موصله وأجاب على
شرطة اللحاق بالمغرب بعد قضاء مهمات افريقية في ثلاث سنين وأن يختار عليهم من رجالات
الموحدين وأن لا يتعقب عليه في تولية ولا عزل فقبل شرطه ونودي في الناس بولايته ورفعت
بين الموحدين رايته وارتحل الناصر الى المغرب ورجع عنه الشيخ أبو محمد من بجاية ففقد
مقعد الامارة بقصبة تونس (٦٠٣ هـ) وقد كرت باقي أخبار دولة بني عبد المؤمن في تاريخ
مرا كس فليراجعها من يشاء

(الفصل التاسع)

دولة بني حفص وتصاريق أحوالهم

(٦٠٣ - ٩٨٢ هـ)

الحفصيون ينسبون الى أبي حفص عمر بن أبي يحيى الهنتاني وكان من أصحاب المهدي
محمد بن تومرت وخواصه المقرين فلما توفي ابن تومرت وبايع الموحدون عبد المؤمن بن علي كان
أول من بايعه أبو حفص عمر الهنتاني هذا جعله عبد المؤمن رئيس وزرائه وبعد ذلك صارت بنو
عبد المؤمن على طريقتهم يولون بني أبي حفص الوزارة ويقلدونهم الولايات العظيمة وكان الحفصيون
يزعمون أنهم قرشيون من بني عدي بن كعب رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأول من تولى
منهم الديار التونسية عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص عمر الهنتاني ولاة الناصر بن المنصور كما
تقدم في تاريخه ولما استقامت الاحوال لعبد الواحد باقر بريمة ونفذت بها أوامره ونواهيها عاد ابن
غانمة الى نواحي طرابلس وجمع أجزابه وأتباعه من العرب وأخذ يعيث في البلاد فأرسل عليه عبد
الواحد الحفصي قائدا يدعى بأبي محمد (٦٠٤ هـ) على عساكر الموحدين فخاربه وانصر عليه
وتفرقت جموعه فتبعهم الموحدون والعرب واكتسحوا أموالهم وأفلت ابن غانمة جريحا ثم رجع
أبو محمد الى تونس ظافرا وخطب الناصر بالفتح فبعث الناصر اليه بالمال والخلع والخيل والكنسي
للاذفاق والعتاء للجنود فزادت بذلك قوة الحفصيين ولما توفي عبد الواحد (٦١٨ هـ) افترق
أمر الموحدين فممن يولونه بعده فكانت مع ابنته عبد الرحمن ابن الشيخ أبي محمد فرقة وفرقة مع
إبراهيم بن عم إسعيل ابن الشيخ أبي حفص فترددوا مليا ثم اتفقوا على الامير أبي زيد عبد الرحمن
ابن المتوفى

فقام ابو زيد بالامارة بعد أبيه (٦١٨ - ٦٣٤ هـ) وأعطوه صفقة أيمانهم وأقعدوه

بجلس أبيه في الامارة فسكن الثائرة وشمر للقيام بالامر عزاءه وأفاض العطاء وخطب المستنصر ابن الناصر فيما عن له وخرج في عساكر الموحدين لتمهيد النواحي وحماية الجوانب ثم وصل كتاب المستنصر بعزله لثلاثة أشهر من ولايته ووجه ولاية تونس الى أبي العلاء من بني عبد المؤمن ولكن لم تطل أيامه فتوفي وعادت افريقية الى ولاية الحفصيين و بعد منازعات يطول شرحها توفي أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص (٦٢٣ هـ) ولما تربع في دست الامارة التونسية ولي أخاه أبا بكر يحيى قابس وأخاه أبا إبراهيم اسحق بلاد الجسريد ثم خرج على عبد الله وهو على قابس أصحابه ورجوه وطرده (٦٣٤ هـ) وولوا موضعه أخاه أبا بكر يا ابن عبد الواحد

أبو بكر يحيى بن عبد الواحد (٦٣٤ - ٦٤٧ هـ) وكان يبيع له أولاً بعد موت أبيه بالقيروان (٦٢٥ هـ) ثم لما جاء الى تونس اجتمعوا عليه ووجدوا له البيعة وقد اتسع ملكه وعلت كلمته وفي خلال ذلك كان أمر بني عبد المؤمن هوى الى الهبوط وأخذ يرحلهم في الفشل ورأى أهل المغرب تقدم أمر بني حفص بافريقية فبايعوهم بالخلافة ٦٣٥ وكان شأن بني عبد المؤمن بالاندلس أخذوا في الخلود والزوال أيضاً وخرج عليهم ابن هود وقام ابن الاحمر بالثورة في أرجونة واضطربت الاندلس بالفتنه كما تقدم وزحف الاسبانول الى ثغور الاندلس من كل جانب وتقدم ملك أرغون جاك اوجايم الاول الى بلنسية فحاصرها وكانت حروب الفريج ممتدة في شاطبة وجيان وبلطيرة ومرسية وغيرها وأهل جنوة من وراء ذلك على سبته ثم غلبت طاغية قشتالة وهو فرديناند الثالث مدينة قرطبة (٦٣٤ هـ) وظفر طاغية أرغون المذكور بكثير من حصون بلنسية فاعتزم زيان بن مردنيش أميرها عند ذلك على غزو من بقي بها من عساكر الفريج وحصلت حروب استشهد فيها كثير من المسلمين ثم زحف اليها الطاغية المذكور بعد ان استباح (٦٣٥ هـ) وحاصرها فعند ذلك بايع أهل الاندلس الحفصيين وأرسل ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبيد الله ابن الابار صريحا الى أبي بكر يا فاجلهم الى ذلك وبعث اليهم أسطولاً مشحوناً بمعدد الطعام والاسلحة والمال تحت قيادة أبي يحيى بن يحيى الشهيد ابن اسحق بن أبي حفص وجاءهم الاسطول بالمدد وهم في هوة الحصار فتزلج برسي دانية واستفرغ المدد بها وفي أثناء ذلك سلمت بلنسية الى ملك أرغون (٦٣٦ هـ) وخرج ابن مردنيش الى جزيرة شقرف فأخذ البيعة على أهلها الحفصيين ورجع ابن الابار الى تونس فتزلج على أمر السلطان أبي بكر يا واستمرت القلاقل في الاندلس وأبوزكريا يرسل المدد الى أن توفي (٦٤٧ هـ) وكان ملكاً جليلاً وملكه ٢٢ سنة وانشأ في تونس أبنية عظيمة شامخة وكان عالماً بالادب

وتولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) وتلقب بالمستنصر ودعى بأمير المؤمنين ومن ثم سار لقب أمير المؤمنين مع اللقب الخاص كالناصر والمستنصر وأمثالهما جارية عليهم كما كان لغيرهم من الخلفاء وعند هاسي عمه أبو إبراهيم في خلعه فخلع وبايع لآخيه محمد الليثاني الزاهد على كرهه منه لذلك فجمع أبو عبد الله محمد الخلوغ أصحابه في يوم خلعه وشد على عيبه فقهرهما وقتلها واستقر في ملكه كما كان ومن أشهر الحوادث التي حصلت في أيامه زحف الفريج على تونس

قال ابن خلدون انه في سنة ٦٦٨ هـ أرسل لويس بن لويس (لوي التاسع) ملك فرنسا الى ملوك النصراري يستنصرهم الى غزوتونس وأرسل الى البابا كليميوس الرابع فأوعز الى ملوك النصرانية لمظاهرة فاجاب جماعة من ملوك الفرنج لغزو بلاد المسلمين فشاخ خبر استعداد النصراري للغزو وهم المسلمون بترميم الثغور وأمر المستنصر بسائر عمالاته بالاستكثار من العدة وأرسل الى الثغور بذلك وباصلاح الاسوار واختزان الحبوب وأوفد السلطان على ملك الفرنسي رساله ومشارطته على ان يكف عزمه فإبرض وجع الطاغية حشده وركب أساطيله الى تونس (٦٦٨ هـ - ١٢٧٠ م) فاجتمعوا بسردانية ونادى السلطان المستنصر بالندب بالعدو والاستعداد له والنفير الى قرب المراني وبعث الشواني في البحار لاستطلاع الخبر فتوالى بعد مدة الاساطيل بمصرى قرطاجنة فزولوا بالساحل وكانوا هاء ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل وأساطيلهم تبلغ ثلثمائة سفينة بين صغيرة وكبيرة وكانوا سبعة يعاسب فيهم الفرنسي وأخوه صاحب صقلية والعلمجة زوج الطاغية وتسمى الرينة وأزولوا عساكرهم بالمدينة القديمة من قرطاجنة وكانت مائة الجدران فوصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بالواح الخشب ونفذوا شراقاتها وأداروا على السور خندقا بعيد المهوى وتحصنوا وأقاموا تحرسين بتونس ستة أشهر والمدد يأتيه في أساطيله في البحر من صقلية والعدو وبالرجال والاسلحة والاقوات وبعث السلطان في ممالكة حشدا فوافقه الامدادات من كل ناحية من المغرب والاندلس وقبائل العرب فانصلت الحرب ومات من الفريقين خلق كثير وفي خلال ذلك هلك ريدفرنس (أي سان لويزا لوي التاسع) يقال أصابه مرض الزوباء ولما توفي اجتمع النصراري على ابنه فبايعوه ثم بعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح مع الفرنج بمال دفعه لهم صاحب تونس فرجع الفرنسي الى عدوتهم وتفرقت تلك الجموع وبقي المستنصر الى ان توفي (٦٧٥ هـ) ٥١

وقام بالامر من بعده ابنه يحيى بن محمد بن أبي زكريا (٦٧٥ - ٦٧٨ هـ) وتلقب الوائى بالله وكان ضعيف الرأي فقترك عليه عمه أبو اسحق ابراهيم وكان هرب مدة المستنصر وأقام بتلمسان وغلب على الوائى فلحق أبو زكريا نفسه واستقر أبو اسحق ابراهيم في المملكة (٦٧٨ هـ) وخطب لنفسه بالامير المجاهد وترك زى الحفصيين مقيمين على زى زناته وعكف على الشراب والملاذ وفرق نواحى المملكة على أولاده فوئدت أولاده على الوائى المنحوع وذبحوه وذبحوا معه ولديه الفضل والطيب وسلم للوائى ابن صغير يلقب بابي عصيدة ثم ظهر انسان ادعى انه الفضل بن الوائى الذى ذبح مع أخيه واجتمعت عليه الناس وقصد أبو اسحق ابراهيم وقهره فهرب أبو اسحق الى بجاية وبها ابنه أبو فارس عبد العزيز فترك أبو فارس أباه وسار بناخويه وجعله الى الداعي بتونس والتقى الجمعان فانهم عسكر بجاية وقتل أبو فارس وثلاثة من اخوته ونجى أخ اسمه يحيى ولما هزم الداعي عسكر بجاية وقتل المذكورين أرسل الى بجاية من قنصل أبو اسحق ابراهيم وجاء برأسه ثم تحدث الناس بدعوة الداعي واجتمعت العرب على عمر بن اني زكريا بعد هربه من المعركة وقوى أمره وقصد الداعي ثانيا بتونس وقهره واستر الداعي في دور بعض التجار بتونس ثم أحضر واعترف بنسبه وشرى بعتقه وكان الداعي المذكور من أهل بجاية واسمه أحمد بن مرزوق بن أبي عمار وكان

أبوه يتجر إلى بلاد السودان وكان الداعي المذكور فظننا من أهل الخيل والخداع وكان من أمره انه سار إلى مصر واجتمع على بعض علمائهم عاد إلى المغرب ولما مر على طرابلس قابل بها شخصاً سودياً يسمى نصيراً كان خصياً للوائق المخلوع وكان هرباً لمجري للوائق ماجرى وكان في أجداد الداعي بعض الشبه من الفضل بن الواثق فدمر مع نصير المذكور الأمر وشهد له بذلك وحصل ما حصل حتى قتل وأخذ أبو حفص منه الملك

ولما استقر رأي حفص عمر الملك (٦٨٣ - ٦٩٤ هـ) تلقب بالمستنصر بالله أمير المؤمنين وهو المستنصر الثاني وبادر الناس إلى الدخول في طاعته وبعث القاصية بيعتهم من طرابلس وتلسان وما بينهما وعقد للشيخ أبي عبد الله الفازازي على عساكره لاختضاع الضواحي وكان من أعظم الحوادث تكاليف العدو في أيام هذا السلطان على الجزر البحرية فاستولت أساطيلهم على جزيرة جربة (٦٨٨ هـ) وكانت المراكب صاحب صقلية قريديريك الاراغوني وكانوا في ما قبل سبعين اسطولاً من غربان وشواني وضابقوا الجزيرة مراراً ثم تغلبوا عليها ونهبوا أموالها ووجعوا أهلها أسراً ثم بنوا بساحلها حصناً وشحنوه بالمقاتلة والسلاح واستمرت مرابهم في تلك المياه إلى رأس المائة السابعة وبقيت الجزيرة في ملك الفريخ إلى سنة ٧٤٠ هـ ثم استخلصها العرب وكانت أساطيل الحفصيين في العهد المذكور ضعيفة بسبب حدوث الفتن الداخلية ولم يرزل السلطان أبو حفص على أكمل حالات الظهور إلى أن توفي (٦٩٤ هـ) وأوصى بالملك من بعده لولده عبد الله وكان صغيراً فلم يرضه الفقهاء فلكوا بأبوعصيدة بن يحيى الواثق

وقام بالأمر من بعده أبو عبد الله محمد بن يحيى الواثق المعروف بابي عصيدة (٦٩٤ - ٧٤٧ هـ) وتلقب بالمستنصر بالله وهو المستنصر الثالث وانشرت الصدور ببيعتيه ورضيته الكافة وافتتح أمره بقتل عبد الله ابن السلطان أبي حفص وقلد وزارته محمد بن بزيكش من مشيخة الموحدين وتوفي في أيامه صاحب بجماية المنتخب يحيى بن ابراهيم بن أبي زكريا وملك بعده بجماية ابنه خالد بن يحيى وبعده ان استقرت له الامور وتمهد ملكه أصابه مرض الاستسقاء فمات به ثم مات على فراشه (٧٠٩ هـ) ولم يخلف ابناً فأوصى بالأمر من بعده إلى أبي يحيى الشهيد الأمان الموحدين بايعوا شخصاً من الحفصيين يقال له أبو بكر بن عبد الرحمن فأقام في الملك ثمانية عشر يوماً ثم وصل خالد بن المنتخب صاحب بجماية ودخل تونس وقتل أبابكر المذكور ولما حصل ذلك كان زكريا اللحياني بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب ابن تومرت بمصر فسار مع عسكر السلطان الملك الناصر قلاوون إلى طرابلس الغرب وبايعه العرب ثم سار إلى تونس فخلع خالد بن المنتخب وقبض عليه وجبسه ثم قتله قصاباً بابي بكر بن عبد الرحمن المتقدم الذكر واستقر اللحياني في ملك افريقية (٧١١ هـ) ثم بعد ثمانية أيام من ملكه تحرك على اللحياني أخو خالد وهو أبو بكر بن يحيى المنتخب فهرب اللحياني إلى ديار مصر وأقام بالاسكندرية وملك أبو بكر المذكور تونس ونخصت له البلاد خلاطرابلس والمهدية

وبعد هرب اللحياني بايع ابنه محمد أبوخر به لنفسه واقتتل مع أبي بكر المذكور ففهرز منه أبو بكر واستقر أبوخر به بالمهدية وله معها طرابلس ثم وردت على اللحياني وهو في الاسكندرية

مكاتبات من أهل تونس (٧١١ هـ) يذكرون فيها أن أبا بكر ممتلك تونس المذكور قد هرب وترك البلاد وان الناس قد اجتمعوا على طاعة اللحياني وبايعوا نائبه محمد بن أبي بكر من الحفصيين وهو صهر زكريا اللحياني المذكور وهم في انتظار وصول اللحياني الى مملكته وكانت القلاقل في افريقية شديدة واستقر الامر بها على مبايعة أبي يحيى أبي بكر بعد خلع ابن خربة بن اللحياني (٧١١ هـ) فساق جيوشه لاختضاع البلاد فانهزم جنده عن بجاية واستولى عليها ابن عمير وكان السلطان أبو يحيى اللحياني مع تقدمه في السن بصيرا بالسياسة مجربا بالامور وكانت الاحوال مضطربة فتمكن من اطفاء نار الثورات ولما قام بنوعبدالواد بالثورات ساق عليهم جيوش الموحدين من كل جهة (٧٣١ هـ) ففر بنوعبدالواد وعاد الاطمئنان الى الثغور وبينما كان الناس في غفلة من الدهر وظل ظليل من العيش وأمن من الخطوب ونحت سرادق من العز وخدمة وافيسة من العدل اذا فاجأهم خبر وفاة السلطان أبي يحيى أبي بكر بتونس فجأة (٧٤٧ هـ) وكانت ولاية العهد لابنه أبي العباس الفضل ولكن تغلب حزب أخيه أبي حفص بتونس ودعوا المشيخة من الموحدين والموالي والهند وأخذوا الخاجب عليهم البيعة للامير أبي حفص

وقام بالامر من بعده أبو حفص عمر (٧٤٧ - ٧٥٣ هـ) وكان أخوه الامير أبو العباس أكبر منه سنا وكان عاملا بلا دالجريد فلما بلغه خبر وفاة أبيه وما كان من أهل الحضرة من بيعة أخيه شق عصا الطاعة وجرده على أخيه فهزموه وفي خلال ذلك كان السلطان أبو الحسن المريني ملك فاس استولى على تلمسان بقصد التقدم لملك افريقية فانهزم ذلك فرصة وفاته السلطان أبي بكر والخلاف الواقع بين الاخوين بتونس وزحف بجيوشه واستولى عليها (٧٤٨ هـ) وانتزعها من يد أبي حفص وقتله واستولى على مملكة الحفصيين الا أن حزب الحفصيين قوى فيما بعد وانتصفت افريقية على السلطان أبي الحسن من أطرافها فخرج في أساطيله الى المغرب الاقصى (٧٥٠ هـ) وحدث له ما تقدم ذكره في تاريخ بنى مرين ومضى المولى أبو العباس الفضل الحنصلي الى تونس وبها أبو الفضل ابن السلطان أبي الحسن كان أبوه قد عقد له عليها عند درج حيله الى المغرب فلما ظهرت ريايات المولى الفضل على تونس نبضت عروق التشيع للدعوة الحفصية وأحاطت الغوغاء بالقصر ورجوه بالحجارة فهرب أبو الفضل المريني الى وطنه بالمغرب الاقصى ودخل أبو العباس الفضل الى الحضرة وجلس على كرسي آبائه (٧٥٠ هـ) واستقبلت مملكها ثم قامت أحزاب أخيه ودسوا الدسائس حتى تمكنوا من خلعها (٧٥٣ هـ) ومبايعة ابراهيم المستنصر بن أبي يحيى وكان يومئذ غلاما

ولما قام بالامر ابراهيم المستنصر (٧٥٣ - ٧٧٠ هـ) بعد خلع أبي العباس الفضل بايعه بؤكعب واستقام أمر بنى بملول أصحاب توزر على الطاعة وبعثوا بالجباية والهدية واتبعهم صاحب نفطة وصاحب قفصة وفي أيامه حصلت حادثة طرابلس المغرب وكانت الدول منذ القدم تعتنى بامر هذا الثغر فكان فرنج صقلية كثيرا ما يتحدثون أنفسهم بتملكه وكان ميخائيل الانطاكي صاحب اسطول رجار قد تملكه من أيدي بنى مرزوق من مغراوة آخر دولتهم ودولة صنم اجسة كما سبق ذكره ثم استرده ابن مطروح من يد الفرنج ودخلت طرابلس في دعوة الموحدين ثم هربت عليها

الايام الى أن استبدها ابن ثابت ووليامن بعده ابنه (٧٥٠ هـ) منقطعاً عن الحضرة وكان تجار
جنوة يترددون اليها فاطلعوا على عوراتهم وصمموا على غزوها والاستيلاء على مر ساها فوافوها
بأساطيلهم (٧٥٥ هـ) وملكوها عنوة ثم داخلهم أبو العباس بن مكي صاحب قابس في فدائها
فقبوا ذلك فافتداهما ببلغ خمسين ألفاً من الذهب فتنازوا له عنها ورحلوا بأساطيلهم بعد ان شخنها
بالغنائم التي اعتموها منها عند فتحها وفي عهد هذا السلطان انتقض الامير أبو يحيى زكريا بالمهدية
ودخل في دولة السلطان أبي عنان المريني وطلب منه المساعدة فجهز له الاسطول وشخصه بالمقاتلة
والرجال وساقه الى المهديّة لحماية أبي يحيى من جيوش الحفصيين فلما وصل الاسطول وجد هاقداً
رجعت الى ايلة الحضرة ثم قصد السلطان أبو اسحق ابراهيم ادخال بجايه في الدعوة الحفصية فتقدم
اليها بجيشه فدخلها سنة ٧٦١ هـ وفي سنة ٧٦٣ هـ ساق السلطان أسطولا على جزيرة قطعت
عساكره فيها وضايقوا القشتيل بالحصار وهو الحصن الذي ابتناه بها أهل صقلية حين الاستيلاء عليها
كأن تقدم الى ان تغلبوا عليه وملكوه ودخلت الجزيرة في حكم الحفصيين واستعمل عليها محمد بن أبي
القائم بن أبي العيون من المقريين وكانت الحروب مستمرة بين السلطان أبي اسحق هذا والسلطان
أبي العباس وتوفي في خلالها (٧٧٠ هـ) بعد أن حكم ١٨ سنة

وقام بالامر من بعده ولده ابو القاسم (٧٧٠ - ٧٧٢ هـ) وكان صياليماً شاهر الحلم وكانت
الاحوال في تونس غير مرضية فتقدم السلطان أبو العباس بجيوشه الى الحضرة فتلقته وفوداً فر ببيعة
جميعاً بالطاعة ولما انتهى الى البلد خيم بساحتها أياماً يغادها القتال ويروحها ثم كشف عن
مصدوقه وزحف الى أسوارها ففر عنها المقاتلة وبعدها دخل البلد ودخل السلطان القصر وخلا
بما ظفر من ملكاً آباءه (٧٧٢ هـ) وبعث بالامير أبي البقاء خالد بن المستنصر ابراهيم في الاسطول
الى قسطنطينة فعصفت بهم الريح وانخرقت السفينة وترادفت الامواج الى أن هلك

وقام من بعده السلطان ابو العباس احمد (٧٧٢ - ٧٩٦ هـ) ولما استبد بالامر عقد
لاخيه الامير أبي يحيى على سجانية وأرسل الجيوش ففتح سوسة والمهدية وأرسل أسطوله الى طرابلس
ثم فتح جزيرة جربة بأسطوله من يد الثوار الذين استولوا عليها واحتاطت بهم الجيوش براً وبحراً
وقبض على محمد بن أبي العيون صاحبها وسجنه الى ان هلك في سجنه (٧٧٦ هـ) ومن أهم
الحوادث التي حصلت في أيامه منازلة نصارى الفرنج المهديّة مدّة حروب الصليب قال العلامة
ابن خلدون ان أمة الفرنج كانت وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم تغلب ودولة بعد انقراض
دولة الروم فملكوا جزائرهم وسردانية وميورقة وصقلية وملاّت أساطيلهم فضاء الله ونخطوا الى
سواحل الشام وبيت المقدس فلكوها وعادت لهم سورة الغلب في هذا البحر بعد أن كانت سورة
المسلمين فيه لا تقاوم الى آخر دولة الموحدين لكثرة أساطيلهم ومرابكة فغلبهم الفرنج وعادت السورة
لهم وأزاحتهم أساطيل المغرب أياماً ثم فشل ريح الفرنجة واختل من كزدياتهم بفرنسا وافترت
طوائف في أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية وأصبحوا دولاً متعدّدة
فتمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل أفريقيا لغزو بلادهم وشرع في ذلك أهل بجاية منذ
ثلاثين سنة فيجتمع النفي والطائفة من غزاة البحر ويصطنعون الاسطول ويخبرون له أبطال

الرجال ثم ركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيختطفون منها ما قدر واعليه
ويصادمون ما يلقون من أساطيل الفرنج فيظفرون بها غالباً ويعودون بالغنائم والسي والاسرى
حتى امتلات سواحل الثغور القسرية من بحاية باسراهم تضيح طرق البلاد بضجة السلاسل
والاغلال عندما يتشرون في حاجتهم ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه أو يكاد يشق ذلك
على أمم الفرنجة وملاً قلوبهم ذل وحسرة وعجز واعن الثارة به وصرخوا على البعد بالشكوى الى
السلطان بأفريقية فصم عن سماعها وتظارحوا ساهمهم ونكلهمم وتدا عوازل المسلمين والاخذ
بالتار منهم وبلغ خبر استعدادهم الى السلطان أبي العباس أحمد فسرح ابنه الامير أباقارس
ليستغفر أهل النواحي ويكون رصداً للاسطول هنالك واجتمعت أساطيل جنوة وبرشافة ومن
وراءهم وبجاورهم من أمم النصرانية وأقلعوا من جنوة فخطوا بعيسى المهدي منتصف ٧٩٢ هـ
وطرقوها على حين غفلة وهو على طرف البر داخل في البحر كأنه لسان دالع فارسوا عندها وضربوا
عند أول الطرق سوراً من الخشب بينه وبين البر حتى صار المعقل في حكمهم وعالوا عليه بالابراج
وشعروها بالمقاتلة لئلا يتمكنوا من قتال البلد ومن يأتيهم من بلد المسلمين وصنعوا برجاً من الخشب في
جهة البرج يشرف على أسوار المعقل لتعظم نكايتهم وتحصن أهل البلد وقاتلواهم صابرين
محتسين ونوافت اليهم الامداد من نواحي البلد فحال بينهم الفرنجة وبلغ الخبر الى السلطان فاهمه
أمرها وسرح العساكر تترى الى مظاهرتهم ثم خرج أخوه الامير أبو يحيى زكريا وسائر
بنيه فبين حضره من العساكر فأنطلقوا بجهاد هذا العدو واستنفروا مقاتلة من الاعراب وغيرهم
فاجتمعت بساحتها بينهم وبين المسلمين جولة جلأ فيها بناء السلطان وكاد الامير أبوقارس منهم ان
يتورط لولا حياية الله التي وقته ثم تداركت عليهم الحجارة والسهام والنقطة من أسوار البلد فاحترق
البرج المطل عليها من جهة البحر فوجوا الحريقه ثم ركبوا من الغد أسطولهم وأقلعوا الى بلادهم
وخرج أهل المهديه يتباشرون بالحجارة ويتنادون بشكر الامراء على ما اعتمدوه في نصرهم ٨٥ وفي
أيامه انتقض أهل قفصة فساق السلطان عليهم الجيش وحاصرها فاطاعت ثم مات السلطان
أبو العباس (٧٩٦ هـ) بداء النقرس

وقام بالامر من بعده ابنه ابوقارس عبدالعزیز (٧٩٦ - ٨٣٧ هـ) بمساعدة اخوته لان
٤٤ زكريا كان يطمع في تلك تحت الحفصيين فيبينما كان يزور أخاه في مرضه قبضوا عليه قبل وفاة
أيهم وحبسوه فلما تمت البيعة لآخيم أبي فارس وقبض على الاحكام أمر بنقل ماني بيوت عمه المذكور
من الاموال والذخيرة الى قصره حتى استوعبها ووضيق عليه في محبسه وقام بتدبير ملكه أحسن قيام
وولى اخوته العمالات واستمر في سياسة أجداده الى أن توفي (٨٣٧ هـ) وكان عين قبل وفاته
ابنه أباعبدالله لولاية العهد ولكنه توفي في حياة أبيه

وقام بالامر من بعده أخوه ابو عبدالله محمد بن أبي فارس (٨٣٧ - ٨٣٩ هـ) وكانت
مدنه قصيرة لم يحصل في خلالها من الحوادث ما يستحق الذكر

وقام بالامر من بعده أخوه ابو عمر وعثمان (٨٣٩ - ٨٩٣ هـ) واستمر سالكام ملكاً
أجداده وخلف من البنين اثنين الاول يدعى أباعبدالله محمد المسعود وكان ولي عهد أبيه ولكن

المنية عاجلته في حياة أبيه والثاني يسمى ابراهيم بن عثمان ولكنه لم يملك لاسباب سياسية وطالت مدة
أبي عمرو عثمان نحو ٥٤ سنة

وقام بالامر من بعده ابو زكريا يحيى بن أبي عبد الله المسعود (٨٩٣ - ٨٩٩ هـ) وفي
مدته خرج عليه ابن عمه عبد المؤمن بن ابراهيم ووقعت بينهما حروب طويلة قتل في خلالها عبد المؤمن
المدكور وكانت الاختلافات قائمة في دول المغرب فاضطربت أحوالها وأخذت الامراء
في المقاطعات تستبد بالاحكام وتميل الى الاستقلال عن حكومة تونس واستمرت هذه الحالة مدة
طويلة توفي في خلالها أبو زكريا يحيى المذكور (٨٩٩ هـ)

وقام بالامر من بعده ابو عبد الله محمد بن الحسن (٨٩٩ - ٩٣٢ هـ) وكانت سياسة
المملكة الحفصية في الخطط مستمرا حتى لم يبق في يد محمد بن الحسن هذا الامنية تونس وعنايته وما
ينهما بعد تلك المملكة الواسعة والسلطة النافذة واستمر في ملكه الى أن توفي (٩٣٢ هـ) ويقال ان
الذي قتله هو ابنه مولاي حسن حتى لا يعدل عنه الى غيره من اخوته الاربعة والثلاثين

وقام بالامر من بعده ابنه الحسن بن محمد (٩٣٢ - ٩٣٦ هـ) فاساء السيرة في البلاد وقتل
من اخوته جملة فاضطربت عليه المملكة وخرج بعضها عن طاعته وتغلب الاعراب على أكثرها
وكان أخوه السلطان المسمى بالامير رشيد فر من القتل والتجأ عند العرب في البادية فاعانه بعض
المشايخ وأغار عدة مرات بن انضم اليه ليستولى على كرسى أبيه لانه حقه حيث كان أكبر اولاده
لكنه لم ينجح

وكان وقتئذ خير الدين بابا باروس حاكما على بلاد الجزائر وأحواله ناجحة وقد رتب أمر
السياسة وال ضبط وال ربط في داخل بلاده ترتيبا يجييا مستمرا على الغزو والصيد في البحر مع العزم
الزائد والقوة التامة في توسيع فتوحاته بافريقية ولما علم أن قوته لا تثبت الا بالدخول تحت حماية
السلطنة العثمانية التمس من السلطان سليمان القانوني ذلك فامدته بمقدار عظيم من العساكر
والذخائر الحربية وعند ذلك عزم على أن يتغلب على بلاد تونس لجوده موقعها وكثرة حاصلاتها وأمن
مراقبتها لوقاية أساطيلها فانتزعت لذلك فرصة القتن والحروب الداخلية التي كانت قائمة بتلك البلاد كما
قلنا وصادف فرار الرشيد السابق ذكره من عند عرب البادية خوفا من أن يسلموه لآخيه ملتجئا
لحكومة الجزائر وطلب من خير الدين حمايته فقابلته بالترحاب وأظهر له مزيد الرعاية والاحترام وكان
خير الدين بارباروس عازما على السفر الى الاستانة العلية لأتول بين يدي السلطان سليمان القانوني
فكان ذلك من أحسن الاسباب ليطلب منه التصريح والمساعدة في فتح تونس وأخذ معه الامير
الرشيد ولما وصل عرض على السلطان مرغوبه وانه سيفتح البلاد باسم الرشيد ثم يضمها الى
المملكة العثمانية فآذنه السلطان بما طلب (١٥٣٠ م - ٩٣٦ هـ) وأمد به بالرجال
والمال والاساطيل ثم أقطع بعارة مؤلفة من ٢٥٠ سفينة الى أفريقية وبعدها انغار على
ساحل إيطاليا تقدم الى تونس وأخرج عساكره اليها ففر الحسن منها الى اسبانيا تاركاً أمواله وخزائنه
وكانت الاهالي تميل الى الرشيد فانضموا سرىا الى العثمانيين (٩٣٦ هـ) وحدثت مقتلة عظيمة بين
الاحزاب وبعضها ثم بعد دخول الاهالي في طاعة العثمانيين أخذ خير الدين باشا يحصن ثغور تونس

لتدافع عن نفسها عند الحاجة وتولى على تونس أحمد حميدة بن الحسن المذكور

وكان المولى حسن بعد خلعها وطرده من تونس استعان بامبراطور اسبانيا لكان فائجه
 باسطول فيه ٣٠٠٠٠ مقاتل من عساكر اسبانيا وهولاندة والمانيا وناولي وصقلية وكانت سفن
 الاسطول مركبة من ٥٠٠ سفينة وركب الامبراطور والبحري الاسطول من مينابرشاونة ولما
 رست سفنه امام تونس قامت الحروب وبعده معركة شديدة انهزم خير الدين باشا وفر الى المغرب فدخل
 المولى حسن المدينة وفاجأهم جيوش الفرنج ونهبوا الدكاكين وسبوا كثيرا وتفرق من سلم من
 الناس في الشعاب والبراري فسلط عليهم رئيس جيوش الفرنج عرب البادية وأعطاهم الاموال
 فامسكوا منهم جمعا وافر و كانت هذه الحادثة تعرف بمخطرة الاربعاء وأباح المولى حسن المدينة
 ثلاثة أيام (٩٤١ هـ ١٥٣٤ م) ثم أمر بالكف عنها واستقر بها وتراجع الناس الى البلد ثم أراد
 الفتك ببعض النواحي العاصية فخرج من الحضرة ولما سمع ابنه أحمد حميدة بخبر وجهه وكان بعناية
 أتى تونس ودخلها فباعه أهلها وماوا اليه وخلصوا أباه الذي فر ثانية الى اسبانيا ولما جاء باسطول
 كبير فكانت بينهم وبين أهل تونس وقعة شديدة دارت فيها الدائرة على اسبانياول وكان أحمد بكافئ
 جنوده على الفتك بالاسبانياول حتى صرف في ذلك أموالا كثيرة ثم قبض على والده وحبسه وسمل
 عينيه وقد طال ملكه وانتشرت بالعدل أحكامه ولما ولي الملك لم يجد بالخرائن أموالا لان أباه كان
 قد أتلفها وكان شجاعا مقداما نشيطا حتى قيل انه لم يضع رجلا في ركاب عند كرهه وجرت بينه
 وبين خصومه وقائع استظهر فيها عليهم ولم يزل على ذلك الى أن أخذ العثمانيون البلاد تحت قيادة
 علي باشا (٩٧٨ هـ) فاستولى على القصبه (١٥٧٠ م) فهرب منها الامير أحمد واستمد
 الاسبانياول فأتى اسطول عظيم الى حلق الوادي على مال اشترطه إلا أن قائد الاسطول لم يقبل المال
 وأراد الحصول على أراض فلم يرض أحمد بذلك فخلعه وأقام أخاه محمدا مقامه فقبل محمد بمطالبة
 الاميرال أما الامير أحمد فانه سافر الى صقلية وأقام بمدينة بلرم وبقى بها الى أن مات وأدخل محمد
 الفرنج البلاد وشار كوه في الامر وكثر الفساد لما انتشر وبالبلاد فخاف أهل تونس وهربوا
 متشتتين واخفى منهم كثير بالدواميس بناحية جبل الرصاص ولذلك عرفت هذه الواقعة بمخطرة
 الدواميس وحصل للناس ضيق عظيم فأرسل اليهم محمد الامان فرجعوا وكان الفرنج قد استولوا على
 أكثر بيوتهم وقد نهبوا أيضا خزنة الكتب التي بالجامع الاعظم ونهبوا المدارس ومن قوا كتب
 العلم واستفعل أمر التصاري على المسلمين وقعت بينهم الفتن وتمكن قبطنهم من الامر والنهي
 في الحكومة التونسية مشار كالسلطان محمد بن حسن فوصل الخبر بذلك الى السلطان سليم
 ابن سليمان العثماني الذي لما خاف من أن الفرنج يدون أيديهم الى سواحل أفريقيا فجهز الاساطيل
 والرجال وسيرها تحت قيادة سنان باشا (٩٨١ هـ - ١٥٧٣ م) وانتزع الملك من الحفصيين بعد
 قتال شديد وأخذوا محمد بن الحسن أسيرا وانقض ملكهم فدمه ملك الحفصيين ثلثمائة وتسع
 وسبعون سنة لان ابتداءه كان سنة ٦٠٣ هـ

وقد كانت أيام بني حفص في ابتداء أمرهم من غررا الايام وعمت بلاد الاسلام بأفريقية وأوروبا
 وأنتمهم البيعة من الاندلس وغيرها من البلاد وارتفع مقامهم وتلقبوا بالقاب الخلفاء وكان أسلوبهم
 أسلوب العرب وعدتهم الرماح والسيوف والنبال ولم تكن البنادق ظهرت في أول مسدتهم لكن

ظهرت في أواخرها وكان عساكرهم يدعون بالموحدين لانهم من أتباع محمد بن تومرت المعروف بالمهدى وامتد سلطان الطبقة الاولى من الحفصيين من لسان الى طرابلس الغرب ولما تفهقت دولة بنى عبد المؤمن من بلاد المغرب وكثرت الفتن تسمى الحفصيون بالخلفاء وجاءتهم البيعة من الاندلس ومكة لعدم الخلافة بالمشرق ولم يزل أمرهم على أحسن حال حتى وقع بينهم التحاسد واقتراق الكلمة فأخذت دولتهم في الادبار الى أن كان ما كان من حضور العساكر العثمانية الى تونس واستيلائهم عليها مدة السلطان محمد بن الحسن كما تقدم

الفصل العاشر

استيلاء العثمانيين على تونس وقيام الدايات والبايات

قد سبق ذكر الاحوال التي وصلت اليها الديار التونسية بعد حروب خير الدين باشا بباروس والقائد علي باشا والاتفاق الذي حصل بين أميرال أساطيل اسبانيا وبين الامير محمد بن حسن واستمرت الاحوال غير هادئة والاضطرابات مستمرة وكثراضطهاد الفرنج للمسلمين بتونس وزادت الفتوق واستفعلت الثورات ولما سئم الناس من أعمال الامير محمد المذكور لتواطئه مع أميرال الاساطيل الاسبانية على جر المنفعة للاسبانيول فقط تدمروا واشتد غيظهم وتمنوا الفرج ولما وصل خبر هذه الثورات والتعديات الحاصلة بتونس الى دار الخلافة العثمانية أصدر السلطان سليم أمره الى الوزير سنان باشا وبقبودانه فنجح علي باشا بالاستعداد للتوجه الى تونس وقتحها نهائيا واعادة نفوذ الدولة العثمانية اليها فاستعدت الاساطيل وشجنت المراكب بالذخائر وآلات الحرب والرجال وأقلعت من القسطنطينية في غرة ربيع الاول سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) وكانت مؤلفة من ١٥٠٠ سفينة ولما وصل هذان القائدان الى مياه تونس ورأى الامير محمد كثرة الجيوش والاساطيل سقط في يده سيما وان قلعة المدينة كانت غير حصينة والمدينة كذلك فتحصن هو ومن تبعه بمكان جعلوا عليه سورامن رمل وخشب وشجوه بآلات الحرب والميرة وبعد ان نازلت الاساطيل العثمانية أساطيل الفرنج التي كانت مجمعة في تلك المياه وانتصرت عليها انتصارا تاما باهر ادخلت العساكر العثمانية تحت قيادة سنان باشا مدينة تونس فاستولت عليها وعلى حصونها ودارت الدائرة على الامير محمد وحاشيه وكانت مستدة الحصار والقتال ٤٣ يوما وبه انتهت دولة الحفصيين كما سبق

وبعد ان دخل سنان باشا تونس أمن أهلها وفرض على أهل الصنائع منهم الاعمال وأشغلهم بعمل المدافع والتحصينات ثم رتب القوانين وسن النظامات وأصلح الاحوال واهتم في تقوية الثغور وتنظيم الادارة ومن ذلك اليوم دخلت البلاد التونسية في قبضة الحكومة العثمانية وأقيمت الخطبة في البلاد باسم السلطان العثماني ثم رجع سنان باشا بالاساطيل الى الاستانة العلمية وأبقى بها جنودا من الكجسرية وولى عليها واليا يدعى حيدر باشا وأوصاه بالتيقظ والسهر وهو أول وال عثمانى تولى عليها وأمره سنان باشا أن يصرف من أموال الجباية ما يلزم لتقوية القلاع والحصون الموجودة بالقطر وادارة المنصالح الضرورية ولما وصل الى الاستانة بالغنائم قابله السلطان بمقابلة حسنة وأنعم عليه انعامات ملوكية وافرة

استبداد الدايات بجم تونس (٩٩٩ - ١١١٧ هـ) اعلم ان حكم الدايات اى ولاية تونس من اليكجيرية ابتدا بعد الثورة التي قامت بها رؤسائهم وصاروا من ذلك الوقت يتلقبون بالدايات وتارة بالبايات وتارة بالباشوات وقد اشتهر وامدته حكمهم بلاد تونس بالغز وفي البحار والتلصص بها حتى قطعوا الطريق البحرى على سفن اورويا بحيث تسبب عن ذلك مهاجرة اساطيلهم لتونس عدة مرات كما سافى اما خبر الثورة المذكورة فهو كما تراه

لما عزم سنان باشا فاتح الولاية التونسية على العودة الى دار الخلافة العثمانية رتب بتونس (٩٨٢ هـ) جيشا من عساكر اليكجيرية يبلغ عدده اربعة آلاف مقاتل وجعل لكل مائة نفر منهم رئيسا (يوزباشى) ولكل خمسة رؤساء رئيسا (بكاشى) ويكون مرجع الجميع الى الوالى حيدر باشا الذى نصبه على الولاية كما سبق ثم بعد ان سافر بالاسطول مع قلعج على باشا استمرت الاحوال هادئة نوعا مائة ١٦ سنة امكن اثناءها ايجاد عدة اساطيل واصلاح القلاع وتقوية الثغور الا ان البكاشية الذين كانوا نصبوا للاحكام استعملوا القوة والعنف والشدة والاستبداد لا يعرفون شرعا الا ما تولى عليهم اراذلهم الشريفة حتى ستمت منهم العساكر والاهالى معا فاعتاد العساكر على الفتك بالبكاشية المذكورين وتواعدوا على يوم معين للايقاع بهم ثم دخلوا عليهم وهم فى الدوان ووضعوا فيهم السيف وتبعوهم الى منازلهم حتى افنؤهم (٩٩٩ هـ) ثم تحزبت العساكر احرابا واتخذ كل حزب منهم رئيسا يدعى بالداى وكان عدد الدايات اذ ذلك يقرب من ثلثائة وكان اذ انزل بهم امر تجتمعوا فى القصبه وتشاوروا الى ان يتفقوا على رأى واحد ولكن قل ان يتم لهم لكثرة الدايات واختلاف الاهواء وكان اكبرهم يدعى ابراهيم داي اشتهر بالشجاعة وكثرة الاتباع غير انه لما رأى دوام الفتن فارق البلاد الى الحج وقام مقامه حين خروجه موسى داي واراد ان يستبد بالحكم فلم يتم له ذلك من شدة الاضطرابات التى ازمته ان يخرج هو ايضا للحج ولم يعد ثم تابعت فيهم الرؤساء وصار كل واحد منهم يريد الاستقلال واخيرا قام بينهم اثنان وهم قره صفر داي وعثمان داي وكان عثمان داي هذا اقل الدايات جمعا وشهرة الا ان الوقت والظروف ساعداه على مرغوبه ثم وقع بينه وبين الداى قره صفر نزاع فسبق عثمان داي الى القصبه واحتج بها ولما اراد قره صفر داي الدخول خلفه منعوه بالقوة فخاف بعد ذلك وهرب وانفرد عثمان داي بالسلطة (١٠٠٧ - ١٠١٩ هـ) ولما تم الامر لعثمان داي اخذ فى تشييت باقى اكابر اليكجيرية ورؤساءهم الذين يخشى باسهم فهرب كثير منهم خوفا من بيشه فصفا له الجحوق وكان عثمان داي هذا صاحب رأى وتديرو وشجاعة وقد اهتم بشرا الامن فى انحاء البلاد بحيث لم يعض القليل من الزمن حتى انقطعت جرثومة الشرور من داخلية تونس وتلاشت الفتن فاشتهر اسمه وقد سمي بعض الرؤساء للايقاع به مرارا ولكن حببت مساعدهم وعكبن من الفتك بهم وكسر شوكتهم وابعده عن تونس اهل جزيرة جربة لانهم كانوا وقتئذ تحت رعاية حكم ولاية طرابلس الغرب واكثر هذا الداى بعد ذلك من صناعة السفن وانتقاء الرجال الاشداء لها وصار يرسلها للغزو والسيال فى البحار فكثر فى ايامه ورود الغنائم البحرية

ولما باغ السلطان اجد الاول خبر هذه الثورات ارسل (١٠١٣ هـ) الدونما العثمانية تحت قيادة القبودان مصطفى باشا قباد زاده لتفقد حالة القطار التونسي ولما اقبل ارسى بحلق الوادى فخرج عثمان داي فى جماعة من كبراء الجند وتفاوضوا معه فى حالة البلاد ولما تحقق قبودان باشا المذكور

من انقياد الداى وجماعته لطاعة الدولة العثمانية وعدم اقتدار خزينة تونس على اداء الوير كولو كثيرة ما صرفته فى قمع الفتن اقلع عائد الى دار الخلافة العثمانية وعرض الكيفية على الاعتاب الشاهانية ثم فرضت الدولة على ولاية تونس بعض شروط منها اعانة الدولة فى زمن الحرب بالسفائن الحربية مع ما يلزمها من الاالات وأن يرسل كل وال عند ولايته هدايا مخصوصة الى دار الخلافة تكون من حاصلات البلاد كالتخيل وغيرها والمنسوجات الصوفية والحريرة وماشا كلها وفى السنة المذكورة انتشر بتونس وبافعلت الاسعار واصاب البلاد الاحوال الاأن عثمان داى المذكور تمكن من اصلاح الحالة وسن القوانين والنظامات وأمر عماله باتباعها حتى صارت تعرف به فيما بعد وفى عهد هذه حضر الى تونس كثير من مهاجرى عرب الاندلس فقبلهم بالترحاب وأمدهم بالمال والزاد فكثرت بهم - أهل البلاد التونسية وعمر وعشرين بلدا وكانت وفاة عثمان داى المذكور سنة ١٠١٩ هـ

وقام بالامر من بعده يوسف داى (١٠١٩ - ١٠٤٧ هـ) واستقام له الامر ودانت له البلاد بلا مز يد مشقة لان سلفه كان مهذله البلاد ورشحه للولاية وعقد له على ابنته الاأنه عدل عن زواجها بعد وفاة ابيها وفى أيام يوسف داى هذا كثرت العمارة فى البلاد وامتدت الحضارة وكان مغرما بتجهيز السفن للغزو والصيد فى البحار فكان لمرآ كبه هيبسة عظيمة فى الخارج وشيد فى تونس ابنية جليلة منها فنادق ومدارس وأسواق وجلب الماء العذب الى العاصمة وبني قنطرة عظيمة على وادى مجردة فصارت منزها جيللا وفى سنة ١٠٣١ هـ قامت حروب هائلة بينه وبين الجزائر انهزم فيها التونسيون وعانت العرب فى البلاد فعقد صلحا مع الجزائر وأعاد النظام وكانت وفاته سنة ١٠٤٧ هـ وقد اشتهر ببذل الصدقات واسداء الخيرات والمبرات

وقام بالامر من بعده مراد داى بن عبد الله الشهير بالاسطى (١٠٤٧ - ١٠٥٠ هـ) وأصله من أسرى الفرنج فأمر باقتال التجارات التى بين الازقة ونظر فى أمر الارزاق والمعاش فكثرت فى أيامه الخيرات ورغد العيش وكان لهذا الداى صولة وهيبسة شديدة تأمر عليه جماعة فلما علم بهم قبض عليهم وقتلهم عن آخرهم ليوقع الرعب فى قلوب أعدائه ومن أعماله أيضا انه شيد مدينة عند المكان المدعو غار الملح وأسكنها الاندلسيين

وقام بالامر من بعده احمد خوجرداى ويقال له أوزون خوجره (١٠٥٠ - ١٠٥٧ هـ) وكان لين الجانب شفوقا بالريسة خصوصاعلى يتامى منهم وحدث فى أيامه غلاء شديد فلم تأت السفن التونسية بأعمال بحرية ذات شان ولم تطل مدة هذا الداى لانه مات بالوباء الذى ظهر عقب القحط المذكور (١٠٥٣ هـ) ودام سبع سنوات وكان هذا الداى مطاعا فى جيوشه لدمائة أخلاقه وقام بالامر من بعده الحاج محمد لاط داى (١٠٥٧ - ١٠٦٣ هـ) وكان حازما حصل فى زمنه راحة للبلاد التونسية وامتد نطاق الامن بها الى أن توفى

وقام بالامر من بعده الحاج مصطفى لاط داى (١٠٦٣ - ١٠٧٥ هـ) وكانت أيامه أيام هناء وراحة فى الديار التونسية وكان على جانب عظيم من لين العريكة يكره سفك الدماء وما خرجت فى أيامه السفن للصيد والغزو فى البحار كالمعتاد سنويا (١٠٦٥ هـ - ١٦٥٤ م) صادفت أسطولا

لانكثرة وكان تحت قيادة الاميرال روبرت بلاك فارادت السفن التونسية التعرض له فلم تزل
مطلوبها ثم حضر الاميرال المذكور امام حلق الوادي وهدد بالحكومة وطلب من الداي منع سفن
القرصان من تعديتها فاجيب طلبه وامتنعت بذلك الاعمال البحرية مدة الا انه في سنة ١٠٦٦ هـ
(١٦٥٥ م) خرجت السفائن القرصانية التونسية لعرض البحر كالمعتاد فصادفت أسطول هولانديا
وكان تحت قيادة الاميرال مشيل أدريان روتير الشهير ولما التحم الحرب بين الممارتين انهزمت
مراكب تونس شرهزيمة بعد ان ضاع معظمها وفي هذه السنة أيضا انهزمت سفن قرصان
تونس والجزائر امام هذا الاسطول الهولاندي بقرب السواحل الافريقية وتوفي هذا الداي
(١٠٧٥ هـ)

وقام بالامر من بعده الحاج مصطفى قره كوزداي (١٠٧٥ - ١٠٨١ هـ) وكان أول
أعماله ان تعقب أهل الجرائم والمفاسد وقتلهم عن آخرهم فاشتدت هيبته من وقتئذ وحات تونس
من أهل الشر والفساد وانقطعت السرقة من البلاد ومع ذلك فانهم تأمروا عليه ودس له البعض
السم فاحتلت أحواله فخلع

وأقيم مكانه محمد حاج او علي داي وفي أيامه حضر أسطول هولاندي تحت قيادة الاميرال روتير
الشهير المتقدم الذكر وطلب من الحكومة منع سفائن قرصانها من التعدي على سفائن تجار
الفلنك فتعهدت بذلك وأطلقوا له جملة من أسراهم ثم تلاعبت الايدي بالاحكام لسوء تدبيره وكان
أساء السيرة فخلع (١٠٨١ هـ)

وقام بالامر من بعده الحاج شعبان خوجرداي (١٠٨١ - ١٠٨٣ هـ) وفي أيامه أغراه
أصحاب الفساد بالفتك بالبايات وهم الباشوات ولاة تونس المنصبين من طرف الدولة وكان تنصيب
البايات برأيهم وانتقاهم بدعوى انهم يثيرون الفتن ضد البايات فلم يتمكن من ذلك وعلم أمره وتسبب
عن عمله هذا ان نكب وخلع ثم مات (١٠٨٣ هـ)

وقام بالامر من بعده الحاج محمد فتش داي (١٠٨٣ - ١٠٨٤ هـ) ولما كان بليدا وكلا
تحولت الامور لريسة البايات وكان يساعدهم على أغراضهم لجهله وأخيرا خلعوه بعد مضي سنة من
تنصيبه وبايعوا الحاج علي لاط وحصلت بسبب ذلك فتنة كبيرة كانت نتيجتها قيام الاهالي عليه
خلعه ولوا عوضه محمد أغاداي ونهب أصحاب علي لاط دور البايات وكان الخطب في تونس
جسيما ثم ظفر أصحاب الباي ولوا الحاج مامي فقتل كل المفسدين وحصل بالحضرة عيث كثير
وكان مامي هذا يظهر العفاف في أول حكمه ولما قوى أمره بمساعدة البايات تغير حاله فخلعه
(١٠٨٨ هـ)

وقام بعده بالامر الحاج محمد بيچاره وكان فيه طيش وأحكامه من الغرائب فخلع بعد قليل
وأعيد الحاج مامي فضيق على أهل مدينة تونس ثم اضطر الى الفرار خوفا من بطش الاهالي به وولى
بعده أوزون أحمد فلم يرض بالمنصب وهرب بعد يومين فتمولى محمد رئيس طاباق وكان من رؤساء البحر

المحكين وله أسفار وأعمال في الصيال البحري يطول شرحها فباشرا الامور بشهامة ونبي جماعات من الاكابر وشنت شمل المخالفين له وحصلت في أيامه فتنة شديدة احترقت فيها ابواب الحضرة وتعطلت المساجد وكثر الاضطراب وغلث الاسعار وحوصرت المدينة فعظم البلاء وبقي ذلك ٢٤ يوما والناس في ضيق الى ان حصل الفرج وعادت الامنية ولكن لم تطل فوقع الخلاف بين الداى والبايات بسبب حق الرياسة العامة فقتل الالهالى من ذلك وأخيرا قتل كل من الباي والداى المذكورين

البيايات - اعلم ان البيايات هم الحكام أصحاب الولاية من قبل الدولة العثمانية على بلاد تونس وكان كل واحد منهم طائرا للرتبة باشا ولما دخلت تونس في قبضة الدولة العثمانية تقسمت البلاد بين القواد وصاروا أعظمهم بخرج بالحملة وكان الاعراب في قوة واستحوذوا على جبل البلاد وكان صاحب الحملة يعاملهم بالرفق والقواد يتعاقبون في التزامات المحال فكانت أحوالهم مضطربة وكثرت الحكام بالمدينة فكانوا في جهه مدع الرعية وكان العرب أشد شوكة في أول الامر فكان يعسر الخلاص معهم وأول من سما وأظهر ناموسا لهذه الطريقة وتسمى بهذا الاسم على الحقيقة القائد رمضان من الاعلاج وأصله من أهل الجزائر انتقل الى الديار التونسية وتحصل على هذه الرتبة وكانت فيه سياسة وتدبير فاقتنى المماليك وعلت همته وتخرج من مماليكه عدة رجال أخذوا المناصب في حياته وتسمى بهذا الاسم قبل مماته فتمهم مرادباى ورمضان باى وحسين باى هؤلاء مشاهير مواليه وكان أعظمهم همة وأبعدهم صيتا وكان فيه حذق زائد وعلم بتدبير الرعية وجباية خراجها استولى في حياة استاذة على الولاية واستخلفه في حياته وكان يتفرس فيه النجاسة عن غيره وعن أخيه رجب أيضا ولم يزل مرادباى ترقى الى ان صار بعد استاذة في هذه الرتبة وما زال يعلو بعد موت استاذة ويعظم شأنه حتى ان فرد بالكلمة وجاءه التقليد من الباب العالى (١٠٤١ هـ)

ولمات في تلك السنة قام من بعده ولده محمد باى (١٠٤١ - ١٠٧٢ هـ) فانفرد بالامر وباشرا الولاية بجنان قوى وأحسن الى الرعية وتخرج من مواليه عدة رجال وكان حسن الاخلاق لين العريكة أبى النفس مفرط الذكاء فاعلا للخير الكثير مقر بالعلماء والفضلاء محسنا الى الفقراء والمساكين له الحال تجرد لحر وب عرب أفريقية الذين كثروا فسادهم فابادهم ثم فتح مدينة الحمامة (١٠٤٥ هـ) وكانت مدينة حصينة جدا وخرجهام آمن من هرب من أهلها وأحسن اليهم فلما همت البلاد العاصية بذلك جاءته الوفود مستأمنين ثم مهدت له الابلاد بالاقطار الافريقية بما لم يبلغه أحد من سلفه وقد صفاله الدهر وسادت الراحة في أيامه فلما طار صيته في الآفاق جاءته الهدايا من ملوك الروم ومصر وغيرهما ووردت له التشاريف السلطانية وازدجت على يابه العلماء والأدباء لانه استعفى من منصبه (١٠٧٢ هـ) طالب الراحة لنفسه وقد قسم البلاد بين أولاده وتلقبوا كلهم في حياته بلقب باى وله في تلك البلاد ما أثر جليله ومبان شهيرة وكان وفاته سنة ١٠٧٦ هـ

وقام من بعده ابنه مرادباى (١٠٧٢ - ١٠٨٦ هـ) وكان من الرجال المعدودين في مكارم الاخلاق والتدبير جرى على سنن والده ودانت له البلاد الا أن شعبان داى أغرى عليه نخلعه وتولى مكانه ثم قامت فتنة عظيمة (١٠٨٥ هـ) فظفر الباي باعدائه وقتل منهم مقتلة عظيمة ولما عاد لمنصبه ثانية أمن الطرقات والعباد بقتل أهل الفساد وكانت وفاته سنة ١٠٨٦ هـ

وقام بالامر من بعده ولده عبد الله محمد وهو الأكبر وأبو الحسن علي ثم دخل المفسدون بينهما فافتروا ووقعت بينهما الفتن ثم اتفقا على تولية عمهما عبد الله وهو محمد الحفصي ثم وقعت الفتن والاراجيف وانقسمت الناس فخرج عند ذلك عبد الله الم عن الحكم خوف اراقة الدماء وتولى عبد الله محمد باي ثانية ثم وقع بينه وبين أخيه قتال فانكسر محمد باي وتولى علي باي البلاد ولم يزالا يتنافسان الى أن انفرد بالامر أبو الحسن علي باي بعد موافق شديدة بينهما (١٠٨٨ هـ) قتل فيها الباي محمد والداي محمد رئيس طاباق كما سبق فقام بالحكم أحسن قيام وباشر الاعمال الجليلة ونشر لواء العدل وقرب اليه أكمل الرجال وهذا الباي هو والد الباي حسين بن علي تركي أصل الدولة الحسينية الحالية في تونس وكان اغاثة وحاقي باجة (١) ولما كانت السفائن القرصانية تخرج سنويا الى البحر للغزو والصيد وقع منها تعديات على سفائن تجار فرانسافارسلت حكومة فرانس ذلك اسطولا جسيما (١٠٩٨ هـ - ١٦٨٦ م) تحت قيادة الاميرال جان دستري لمطاردة قرصان الجزائر وتونس وطراباس فطارد هم الاسطول وأغرق بعضهم ثم حضر الاميرال امام حلق الوادي وهذا قد الحكومة التونسية ان لم تمنع سفنها عن التعدي فصالحته وعقدت معه شروطا تمنع القرصان عن التلصص واخلاء سبيل اسراء الفرنسيين وغير ذلك ثم أقطع الاسطول وهذا أحوال ثم قامت حروب بين تونس والجزائر انهم زمت فيها جيوش علي باي التونسي ووقع أسيرها هو وأخوه في قبضة الجزائر بين (١١١٧ هـ) وعند ذلك بايع الاهالي ولده المدعو المولى حسين وهو أول الدولة الحسينية الآتية

الفصل الحادي عشر

الدولة الحسينية الحالية

اعلم ان أول ولادة هذه العائلة هو المولى حسين بن علي باشا المتقدم المذكور (١١١٧ - ١١٥٣ هـ) قال صاحب صفوة الاعتبار ما محصله لما انتخب الاهالي بطبيب نفس واختيار منهم حسين بن علي المذكور وسلموا له الامر أقرت الدولة ولايته ولا زالت الولاية متوارثة في عائلته كبيرا عن كبيرا الماندر وأمضت الدولة العثمانية له ذلك في حياته ومن ذلك التاريخ استقرت الرئاسة العامة للباي وصار هو الذي يولي الداي الى أن انقطع هذا اللقب وعوض برئيس الضابطية في سنة ١٢٧٧ هـ في ولاية الصادق باشا غير أن استقرار الولاية على نحو ما مر لم يكن يتعهد من الدولة رسميا بالكتابة وإنما اقتضاه جريان العمل وذلك ان الدولة العلية كانت عاداتها في الولايات اطلاق التصرف للوالي بحيث يكون له التفويض المطلق لانساع أطراف المملكة مع صعوبة المواصلة الابعدمتة مديدة لاسيما في مثل الاماكن التي طريقها البحر من مقر الخلافة كتونس وغيرها ومن كمال الاطلاق الذي اضطر اليه البعد اختيار الوالي لانه اذا مات الوالي أو وقع ما يوجب عزله بتغلب غيره أو بشورة عامة يسلم أهل الحل

(١) لما طرد سنان باشا الاسبانيول من تونس واستولى عليها باسم الدولة العثمانية ترتب بها جنودا من البيكجارية قدس أربعة آلاف وكان مرجع ذلك الجيش الى الوالي الذي تعينه الدولة وكانت هذه الجنود منقسمة الى سبعة أوجاقت لكل أوجاق مركز معلوم من القطر

والعقد في تلك الجهة بواحد منهم لاجراء ما لا بد منه وما يصل الخبر للدولة الابد ممددة وحيث لم يكن من قصدها الاراحة للممالك الاسلامية واجراء الشرع فيها والادلاء للخضوع للخلافة والانتقاد اليها واداء الواجب لها من مال أو غيره لم يكن من فائدتها مخالفة ما يراه أهل الحل والعقد في الصنيع الواقع به الواقعة لان ذلك لا يوجد لها فائدة بل ربما توقع حصول غير فائدتها المارذ كرها ولذلك تولى هي من ارتضوه لحفظ أمورهم وحفظ حقوقها وعلى ذلك جرى العمل ببلا دتونس اه

ولما اطمانت قلوب الناس بعد تولية هذا الباي ولى منصب الداى محمد الاصغر واجتهد في مداركة الاستعدادات الحربية لصدا غارة الجزائر بين الذين كانوا يتقدمون نحو العاصمة التونسية فتمكن من ايقافهم بل وأزهمهم القهقري بعد ان لحقتهم خسائر جسيمة وكانت رجعتهم على أسوأ حال والبدو تنهب أطراف جيشهم ثم بعد ذلك أخذ الداى يستبد ويسى المعاملة فعزله حسين باشا وعين قومه مصطفى دايا ثم قامت العسكر وقتلوا محمد الاصغر المذكور من غيظهم منه وبعد عودة الباي من حرب الجزائر أخذ في تنظيم الادارة وتشييد المباني واصلاح الطرق وتأمينها ولما أراد أن يجعل حكم البلاد محصورا في أعقاب بخرج عليه ابن أخيه المدعو على بن محمد واستعان بمملكة الجزائر فساعدته (١١٤٨ هـ) بجيش قوى حارب به عمه وانتصر عليه فقهر الباي مع بنه الى القيروان فاقتفى على أثرهم وبعد حروب طويلة قتل الباي المذكور (١١٥٣ هـ)

وتولى بعده الباي على باشا انتخبه الجنود والاهالى بعد فرار حسين باي الى القيروان (١١٤٨ - ١١٦٩ هـ) وبعد ان استتب له الامر عادت عساكر الجزائر بين الى بلادهم بعد ان كانوا هموا باحداث القلاقل ليستولوا على المال الذي وعدهم به الباي لما استعان بهم ولما صفت له الايام أخذ يصادر أحراب عمه ويستصفي أمورهم وفي زمنه سنة ١١٥٣ هـ أذنت الدولة العثمانية حكومة تونس بالتنازل عن جزيرة طبرقة التي هي من أجزاء القطر الى الجنويزيين تحت شروط عينتها الدولة منها أن لا يكون للجنويزيين الحق في اقامة حصون بها ولا يتجاوزون في بناء بلد هناك حدا محددا وعلى ذلك احتلها ولما خالفوا شروط المعاهدة المذكورة قام على باشا وارثهم من الجزيرة ثانية وفسخ المعاهدة ولما كان هذا الباي محبا للعلوم والمعارف شيد جملة مدارس وأوقف عليها أوقافا واعنى بتحصين البلاد والثغور بآلات الدفاع وأرسى بها جملة سفائن حربية وشيد جملة مبان عظيمة في جهة بلدة باردو ثم تعصب عليه أبناء عمه واتحدوا مع حسين باشا باي الجزائر الذي أمددهم بجيش (١١٥٩ هـ) ولما وصلوا بالجيش الى جهة يقال لها الكاف خانهم أميره فجزوا من عدم النجاح ومات من الاسف أحدهم المدعو محمود باي ولما أخبر واحا كم الجزائر بما حصل أرسل لهم كتيبة ثانية تحت رياسة حسن باي وبها تغلبوا على جيش تونس وأسروا الباي على باشا ثم أرسلوه الى الجزائر فقتلها كما هانت ١١٦٩ هـ التي دخل فيها محمد الرشيد باي أخو محمود المتوفى الحاضرة منصورا بجيش الجزائر بين وقبض على الاحكام بلا معارض

الباي محمد الرشيد (١١٦٩ هـ - ١١٧٢ هـ) لما دخل الرشيد الحاضرة منصورا هرعته اليه الخاصة والعامة وبايعوه واطمأنت الاهالى وبعد ما أقام بجيش الجزائر بين أياما

في تونس رحل عنها راجعاً الى بلاده ولما كان هذا الباي حليماً كريماً عاد لامنصفاً اجتمعت عليه القلوب وعقدت على محبته وكانت أيامه أيام رخاء ندرت فيها الارزاق وامتد الامن بجميع البلاد وكان محباً للمعارف والعلم فاهتم بنشرها ولم يعرطو بلا فادر كنه المنية في أواسط سنة ١١٧٢ هـ وخلفه أخوه

الباي علي باشا الثاني (١١٧٢ - ١١٩٦ هـ) بويح ثاني يوم وفاة أخيه وقد أبقى كافة العمال الذين كانوا قابضين على الادارات في مدة أخيه وأقر جميع الامور على حالها وكان عالماً محباً للمعارف لم تخل مجالسه من المناظرات العلمية والمجارات الادبية وكان مع ذلك بيقظة حتى انه لما قامت الثورة بالبلاد تحت رياسة ابن عمه اعجيل بن يونس أخذ نارها بكل سرعة وشتت شمل الثائرين وأعاد السكينة الى ربوعها وفي سنة ١١٨٤ هـ (١٧٧٠ م) حصلت وحشة بين حكومة تونس والدولة الفرنسية من خلاف وقع في مسألة الاسراء الذين أسرهم سفن تونس من جزيرة قورسقة قبل استيلاء فرنسا عليها وبسبب حق استخراج المرجان الذي كان أبيع للفرنساوين لمدة سنتين بعدد معلوم من القوارب نظيراً ما معلوم فلما استفحل الامر حضر اسطول فرنساوي تحت قيادة الاميرال سوثيران الى سواحل تونس وأطلق القنابل على بعض حصونها وتصادف في وقتها قديم مندوب من قبل المرحوم السلطان مصطفى خان الى تونس لطلب السفن منها لاعانة الدولة العثمانية على محاربة الروسيا حسب العادة المتبعة من قديم فلما وجد المندوب هذا الخلاف قائماً بين الحكومتين بدا خلل حتى أصح ذات بينهما ثم أبرمت معاهدة الصلح تحت شروط منها أن تعترف حكومة تونس بامتلاك فرنسا لجزيرة قورسقة وان ترد الاسراء الذين أخذتهم منها بعد استيلاء فرنسا عليها وأن تبيع لاثني عشر زورقاً فرنساوي استخراج المرجان لمدة خمس سنوات مستقبلية وان يصرح لهم بشراء ثلاثة آلاف قفيز من القمح بدون نادية عوائد جركية عليها وان يدفع فرنساويون ما جرت به العادة من الهدايا عند عقد الصلح وبذلك عادت الصلات كما كانت قبلاً بين فرنسا وتونس على يد مندوب الدولة العثمانية وفي سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) أرسلت حكومة تونس خمس سفائن حربية بجميع أدواتها لاعانة الدولة العلية في حرب الروسيا المذكور وقد استمر هذا الباي على نشر المعارف والعلوم في البلاد وشيّد دعائم العمارة فيها وبينما كانت الاحوال سائرة على ما يرام مرض مرضاً لم يتجمع فيه دواء فأدر كنه المنية في أواسط سنة ١١٩٦ هـ وكان درب أولاده على الحكم في المهلكة فكان يوليهم الاحكام على التناوب وله كثير من الآثار الخيرية كالمدراس والتكايا والسقايات وغير ذلك وقد عطل الخور وهدم حاناتها وأقام الجسور وبني المباني الباذخة بباردو وكان عالماً عادلاً ذا صيانة وعفاف وفروسية وقدرة وثقة وحلم وكرم وأقام سوق العلم والادب ولما شاخ قدم ولده جوده باي على ابن أخيه محمود باي فجعل ولده ولي عهد وأجلسه لتعاطي الحكم بين يديه والسفر بالجمال وطلب له من السلطان سليم الثالث الاقرار بالحكم بعده فأجيب ووجهت اليه الخلع العثمانية سنة ١١٩١ هـ

الباي حموده باشا (١١٩٦ - ١٢٢٩ هـ) كان هذا الباي من ذوى المعارف والاطلاع على السياسة ولما توفي والده استقل بالملك وأخذ يسعى في فك أسرار البلاد من سلطة الجزائر عليها مدة

والهايايا محمد باشا فأول عمل أجراه لذلك انه بنى سوراً للعاصمة (١٤١٧ هـ) وأقام حوله الابراج والابواب وشيد السكنات وأسكن فيها عساكره التركية وأقام هو بينهم وكانت تباع أحد عشر ألف مقاتل واهتم بعمل المدافع والبارود وأحضر الاسلحة الجيدة وأرسل وزيره يوسف صاحب الطابع الى الاستانة العلية فأحكم بذلك وابطه مع دار الخلافة العثمانية (١٤١٠ هـ) وفي سنة ١٤١٣ هـ (١٧٩٨ م) أصدر اليه السلطان سليم خان الثالث فرماناً يأمره بحرب نابليون بونابارت حينما استولى على الديار المصرية فامتثل الباي الامر وقطع في الحال العلائق وانخلطه مع قنصل فرنسا وأرسل أسطولاً حربيًا للمساعدة الدولة العثمانية وأصدر أوامراً لعماله بالمحافظة على أموال تجار فرنسا وبين الموجودين بالولاية ولم يتعرض لسفقتهم التجارية حتى قالت تجار فرنسا اذ ذلك نحن الآن بدون قنصل أفضل حالاً مناب وجود القنصل ثم أعلم الباشا الدولة بالاسباب التي دعته الى هذه المعاملة فإلان السبب في ذلك اشتباك مال التونسيين مع مال الفرنسيين فلو حصل التعرض لاهو الهم يكون ذلك مضراً بمال التونسيين ومع هذا فقد لامه الكثير على فعلته هذه بلا حق منهم ونشأ من ذلك انه بعد عقد الصلح واعدة العلائق اعترف له نابليون الاول بالجبل وتبودلت بينهما الهدايا وفي سنة ١٤٢١ هـ فتح الوالي صاحب الترجمة حرباً على الجزائر لانه كان يسعى كانه تقدم في التخلص من السلطة التي لوالى الجزائر على تونس وجهز لذلك جيشاً أرسله لحصار قسطنطينة وأرسل عمارة جسيمة هدد بها السواحل وكان الجيش تحت قيادة وزيره سليمان كخداو لكنه انهزم بعد أن حاصره قسطنطينة أربعة شهور وجهز جوده باشا المشار اليه جيشاً أخرجه تحت قيادة صاحب طابعه فاتصر على الجزائر بين انتصاراً عظيماً وبذلك خلصت تونس من سلطة الجزائر بين واستمر الخلاف بينهم مامدة ثم عقد معهم صلحاً واهتم صاحب الترجمة أيضاً بتشييد كثير من السفن لتعزير أسطولها وغزائها وسبى كثيرًا وحارب بها الجزائر بين عندما أتت سفنتهم الى حلق الوادي (١٤٢٨ هـ) فعطب كثيرًا من سفن أسطولهم العظيم وصدهم ولما التجأ اليه ولد اعلى باشا القره مانلى حاكم طرابلس (١٤٠٩ هـ) أمدهما بجيوشه كما سيأتي بتاريخ طرابلس فقهر أعداءهما وأجلسهما على كرسي امارة طرابلس وعقد لهما البيعة ورجع غانما ثم استمر باذلاً أعظم الجهودات لخير بلاده الى أن فاجأته المنية في شوال سنة ١٤٢٩ هـ (١٨١٣ م) وخلفه أخوه الباي عثمان باشا (١٤٢٩ - ١٤٣٠ هـ) لما توفي جوده باشا جمعت رجال الحكومة للشورة فيمن يقدمونه للولاية من العائلة الحسينية فتم الامر على تولية عثمان باشا هذا فلما تولى استبد بالامر عليه بعض الاعيان الذين ساروا البيعته ولما رأى ابنا عمه أن البلاد قد أشرفت على الخطر والانحلال بعدما كتسبت قوة في زمن سلفه جوده باشا أجمعوا على خلعهم ثم تعصبوا عليه وقتلوه ليلاً وذلك في أوائل سنة ١٤٣٠ هـ وقتلوا أيضاً ولديه ودفنوا الجميع في مقبرة واحدة ويا عوامن بعده

الباي محمد وداشا (١٤٣٠ - ١٤٣٩ هـ) تولى الحكم وهو طاعن في السن ولما كان محبوباً متصفاً بالخلال الجيدة لم يتوقف أحد في مبايعته ولما قبض على زمام الاحكام باشر الامور بالعدل والرفق الا انهم لما كان ضعيفاً طاعن في السن وكان ذلك يمنع من القيام بهام الحكومة ففوض

الامر لابنه حسين باي فاستبد ببعض الامور فنارت عليه الجنود التركية (١٢٣١ هـ) فاجتهد في تسكين غضبهم بما قدر عليه ثم عادت الحروب مع الجزائر ولما كان ذلك يوجب اهتمام الدولة ونظرها أرسلت سنة ١٢٣٦ من قبلها امورا لتسوية الخلاف الواقع بين البلادين فتم لها الامر كما أرادت وتصلح الطرفان وحفظت الوحدة بينهم بما بالشروط المرضية وفي سنة ١٢٣٧ هـ أرسلت حكومة تونس من قبلها أسطولاً مشكلاً من سبع سفائن حربية وعززته باثنتين آخرتين لمساعدة الدولة في حرب اليونان وكان هذا الباي مشهوراً بالحلم ولين العريكة كريماً للمباين الشعر بني ابيه باذخه وأقام كثيراً من المشاهد والزوايا وقد قضى مدته في أمن وورع وعيش وسرور الى أن أدركته الوفاة وقام بعده

الباي حسين باشا (١٢٢٩ - ١٢٥١ هـ) لما استقل بالحكم في السنة المذكورة وفدت عليه الوفود من كل الجهات لبيعته وتهنئته وبمجرد جلوسه أصدر الاوامر المشددة الى رئيس البحرية بالاسراع في انشاء الاساطيل لاهتمامه بامرها وفي سنة ١٢١٣ هـ أرسل من سفنه عدة لاعانة الدولة العلية في حرب اليونان وذلك علاوة على الاسطول الذي أرسله والده وقد احترق هذا الاسطول مع أسطول الدولة ومصر والجزائر في مينا ناوارين لما اتحدت أساطيل الروسية وانكثرت وفرنسا على اغتيال أسطول الدولة كما سيأتي شرح ذلك في تاريخ الدولة العثمانية وبعد ذلك قامت جملة ثورات في تونس فتمكن هذا الباي من كبح اعمالها

وقد كانت فرنسا مشغولة في هذا الوقت بالاستيلاء على الجزائر وبمجرد ما تم لها الاستيلاء عليها قدمت فرقة من الاسطول الذي كان بسواحل الجزائر وطلب رئيسها بامر حكومته من والي تونس ان يزد على الشروط المعقودة بين فرنسا وتونس عقود ميثاق لا تختص الحكومة التونسية بمخبر بل ولا تجبر ومنها البطلان التلصص بسفنها على السفن التجارية وابطال ملك الاسرى وابطال ما كان يقدم من الهدايا وأن يكون للفرنسا وبين حق التعامل في القطر التونسي كما يتعامل أهلها فقبل الوالي المذكور من قائد الاسطول ما طلب على كره منه ثم سجد وأرسل الى ديولة فرنسا التي أخبرها الباي بمكتوبه ان هذه الشروط أخذت عليه غضباً عنه ولما كانت فرنسا وقتئذ مذبذبة بثوراتها الداخلية على ملكها لوزي العاشر عدلت تلك الشروط ببعض التعديل وبهذه الاسباب لزم فرنسا ما اعاد مصالحها ومدخلاتها في حراسة سياسة تونس ولما أقبل المهاجرون من الجزائر في أوائل سنة ١٢٤٦ هـ بعد دخول الفرنسيين اليها فأقبلهم الباي بفضله واحسانه وأحلهم محل الامن ثم اتخذ العساكر النظامية من أهل المملكة ووفدت عليه الخلع (١٢٤٧ هـ) من قبل الدولة العلية وابتنى لسكنى العساكر النظامية تكنة عظيمة وكان شهواً ما عالى الهممة كريم النفس شجاعاً مهيئاً خيراً ارتقت في أيامه البلاد وكانت وفاته في شهر محرم سنة ١٢٥١ هـ وكان محبوباً بالديرعيتة محافظاً على شارات الملك وقد منع هذا الباي القبولان العثماني جنك أوعلى طاهر باشا من النزول الى بلاد تونس عندما أرسلته الدولة العثمانية للذهاب منها بالخلع داي الجزائر الذي أعلن الحرب على الفرنسيين وسبب امتناعه ان دولة فرنسا كانت أنذرت له لما أعلنت الحرب على الجزائر بأنه اذا أعان بشيء أعلنت عليه الحرب وحاصرت بلاده فخشي والي تونس المذكور من ان مرور قبودان باشا من بلاده بعد اعانة للجزائر لانه لا يمكن مروره بلا حامية فاذا دخل الجزائر

بجمامية من تونس بعدتها الفرنسيين اعانة وأيضا ذات اسمعت العربان بمسور وباشتركي في وسط
الولاية هاجوا الماني طباعهم من التشكي من الوالي كيفما كانت سيرته ظنا ان الجديد يساعدهم على
مرادهم كيفما طلبوا وقد كان ذلك من الغفلة التي سبق بها القدر لانفاذا الامر في الجزائر وحلقة أخوه
الباي مصطفى باشا (١٢٥١ - ١٢٥٣ هـ) يابعه الناس البيعة الخاصة بمجر د وفاة أخيه
ولما قبض على الاحكام لم يغير أحدا من رجال الدولة بل أبقى كلامهم في مركزه وفي سنة ١٢٥١ هـ
أرسل هديه مفضرة للقبودان خليل رفعت باشا عند قدومه من دار الخلافة العثمانية على طرابلس
الغرب لتزعمها من أيدي يوسف باشا من آل قرمان ثم طلب القبودان المذكور من تونس اعانة حربية
للدولة فارسلت في السنة المذكورة ثلاث سفن حربية ثم أتبعها بتسع سفائن تجارية تحمل ثلثمائة
من الخليل وفي هذه السنة أرسلت فرانساً أسطولاً الى حلق الوادي حذرا من قدوم الاسطول
العثماني المذكور الى تونس عند عودته من طرابلس فتحوف والي تونس المذكور من أن يتهم بالسعي
في ذلك فكتب لقتل جنرال فرانساً بتونس معتذرا متصلا من تبعة حضور الاسطول (١) العثماني
ورد عليه القنصل بجواب يعلم من خواه المطالع ما تضمنه فرانساً (٢) لتونس وفي شهر شعبان من
سنة ١٢٥١ هـ وقد رسول من الدولة العثمانية يحمل نيشان أمير الامراء وسيفاً مرصعا فلبسها بالباي
فكان أول من لبس النيشان المذكور ووضعت له الموسيقى النظامية لأول مرة وقصد الدولة من ذلك
ظاهر خصوصا بعد الامر الذي حصل من حضور الاسطول العثماني وقد اعتمد الباي في أعماله على

(١) بعد الديباجة فان الدولة الفرنسية الفخيمة قد وجهت أحقا نهالمرسي ولا يتعالى مقتضى المحبة والمودة
وقابلناهم بالاكرام لان شقوفنا في مراسي الفرنسيين كانه في مراسي ولا يتناقف كذلك سفن فرانساً عندنا وأما إقامة
الاجفان في هذا الوقت بحلق الوادي و دونته مولانا السلطان بقرنا وفيها السيد قبودان باشا بما نتج لنا مضرة
في الحال أو في المستقبل من جهة الدولة العثمانية أدام الله سبحانه وتعالى لنا وجودها لانهما تظن في جنابنا ظنا
يضرنا وعلومنا تحت طاعة مولانا السلطان في أمره ونهيه وباسمه نخطب في جوامعنا وعلى سكتنا فلا يخطب بآلتنا
اننا نعصيه أو نخالف أمره أو نعارضه بشئ فلما راد ان تعرف الاميرال بهذه المضرة التي تتوقها والاعتماد على كمال
عقلكم في حسن التبليغ وسفن الفرنسيين مهم ما نمر بنا أو تأتي لرسا بأمر جنابها ونقبلها بالاكرام على مقتضى
قوانين المحبة ولا زائدا لا الخير والعافية وكتب في ١١ جمادى الثانية سنة ١٢٥٢ هـ

(٢) انه بلغنا ووصلنا المكتوب الذي تشرفتاه من عند السيدات وأعلمنا به الاميرال لالند وعلما جميع ما تضمنه
وجوابا عليه هو ما سنذكر وهو ان جنابكم العالي برى وأجني وخارج من الاتفاق الذي اقتضاه نظر الدولة
الفرنسية في ارسال هذا الاسطول لسواحل تونس وأنتم لا يمكنكم أن تمنعوا دولة فرانساً من ذلك وهو ارسال سفنها
لسواحل تونس ولاجل ذلك لا يوجد عليكم لوم ولا عتاب من جانب الدولة العثمانية لانه لا وجه لذلك والدولة
الفرنسية تعلم حقيقة حالكم مع الدولة العثمانية وحاشي جناب دولتنا أن ترضى بما يوجب لكم نفوراً مع دولتكم
وانما راد انك أن يبقى جناب دولتكم مع الدولة العثمانية على العهد القديم السابق من غير تبديل ولا تغييرا لكن الدولة
العثمانية لا يمكن لها أن تخترع أمرا جديدا تضر به مصلحة الفرنسيين في الناحية التي تحت يده في أفريقيا ولاجل أن
يمنع ما سبى أن يقع من المضرة أرسل الملك اسطوله لتونس ليمنع به قدوم القبودان باشا لاجل التعرف بما هو مأور به
والاميرال لما بلغه أن القبودان باشا أتى لطرابلس وأعلم أن مراده الاتيان لتونس في ذلك الحين أرسل الاميرال سفينة
من سفنه هناك ليعلم القبودان باشا أن حبيب السلطان الصافي وهو ملك فرانساً لا يمكنه أن يفعل هذا التعدي بوجه
من الوجوه في المملكة التي تحت يده في أفريقيا لان قدوم دونته المسلمين الى تونس بتقوىها قلب باي قسطنطينية
التي عندنا معه في التاريخ مكانه تورما كان بيننا وبينه حرب فلاجل ذلك نعلم قبودان باشا ان لا يقدم ويرجع للعمل
الذي جاء منه فان صمم وعزم على القدوم فان الاميرال واجب عليه ان يصدده بالدافعة القهرية ١٥ من صفوة الاعتبار

الوزير مصطفى صاحب الطابع وصهره مصطفى أغا وهذا الوالي هو أول من صاغ نيشان الافتخار ونقش عليه اسمه بالماس وشيد عدة مبان مفيدة واعتنى بالعسكر النظامي وكانت أيامه أيام راحة وهناء وقد توفي في رجب سنة ١٢٥٣ هـ وخلفه ابنه

الباي المشير أحمد باشا (١٢٥٣ - ١٢٧١ هـ) لما توفي والده تقدم للولاية فاجلسه على كرسيها بن عهده واخوته وتمت له البيعة في اليوم بعينه فقام بعباءه الحكم أحسن قيام وفي سنة ١٢٥٥ هـ أنعم عليه السلطان محمود بالخلع السنية ورتبة المشير به وزاده نيشانا آخر يوضع في عظام الرأس والآن بطل هذا النيشان من الدولة العلية العثمانية ولكنه كان مستعملا في ولاية تونس ثم وُظف صاحب الترجمة رجلا من ركن اليهم في الاعمال وجمع كثير من العساكر فنظم بهم جيشا وشيد الابراج وثكنة للطوبجية وفي سنة ١٢٥٦ هـ أمرته الدولة العلية بالعمل في البلاد التونسية بسبب التنظيمات الخيرية التي صار العمل بها في كافة الممالك العثمانية فقرأ الوالي المذكور أمر الدولة في موكب مشهور وأعلن فيه بالامتنان غير أنه طلب وقت العمل مع مراعاة ما يلزم من التغيير بسبب عادات البلاد ثم ألحت عليه الدولة في اتباع السير على ذلك سرعاً فامتل مبادرا بإرسال هدية فاخرة (١٢٥٨ هـ) منها سفينة حربية و ٢٥٠٠٠٠ فرنك وطلب منها مهاله في التنظيمات حتى يعهد لها الاسباب وفي سنة ١٢٥٩ هـ جمع من العساكر النظامية جيشا يتجاوز عدده ٣٠٠٠٠ مقاتل وكان يحضر بنفسه لتعليمهم واعتنى كل الاعتناء بتنظيم القوانين العسكرية وجهاز تغرغار الملح بالعدد والعدد وقوى البلاد بالأسلحة النارية والمدافع وبذلك انتظمت له الامور وفي السنة المذكورة تعكر كاس السياسة بينه وبين دولة سردانية حتى كادت تقع الحرب وذلك بسبب منعه اخراج الميرة من البلاد التونسية الى سردانية لقطع حصولها فقامت سردانية بمدعية ان المنع مخالف للعهد فارسلت الدولة العثمانية من قبلها مأمورا فوق العادة ليبحث عن السبب ولما تطر هذا المأمور في هذه النازلة دعا الوالي الى الصلح وبقياما كان على ما كان ودفعت حكومة تونس تعويضا لتجار سردانية نظير ما خسروه وقد كان هذا الوالي يحدث نفسه بالاستقلال فلهذا سافر الى باريس عليه بذلك مسوغا ومعينا

وقال في صفوة الاعتبار بعد كلام على تونس والذي استقر عليه القرار من الدولة الفرنسية واية من ذلك التاريخ الى الآن هو ما يشير اليه ما رايت به بخط أمين أسرار الحكومة أبي العباس الوزير أحمد بن أبي الضياف ونصه لما اجتمع أحمد باشا بملك فرنسا الوزير فيليب في خلوة قال له ان كنت تروم الاستقلال فلا سبيل اليه والذي تعتمد مني ان فرنسا تحمي سياستها حالك التي أنت فيها الآن بحيث لا يتعدى عليك أحد من جهة البحر وأما البر فبدر أمرك فيه من جهة طرابلس وأساس حمايتك هو التجب الى الرعية والرفق بهم معنا ذلك منه مشافهة رجحه الله اه وقد سافر الوالي الى باريس لمقاصد سياسية ولما عاد منها أرسلت له الدولة العلية من قبلها مأمورا مخصوصا (١٢٦٣ هـ) ليزيل من فكره جميع ما توهمه وصرفت النظر عن مطالبته بالويركرو وأيدته في الولاية مدة حياته فاجاب الدولة بالفرح والسرور ولكنه طلب منها بقاء الامتيازات وانتقال الولاية لاولاده بعد موته وأصر على ذلك ولما كانت الدولة تخاف أن يحصل بينها وبين والي تونس المذكور ما يحمله على طلب

مساعدة فرانساً مرت عباس باشا الأول والى مصر ان يخاطبه فى هذا الخصوص (١٢٦٥ هـ)
 فارس له محزرا واداديا ينصحه به ان يترك الاوهام التى قامت به ويقول له انه قد ذهب هو بنفسه
 للاستانة العلية ونال رتبة مع ان اياه واخاه قد فعلا ما لم تخم حوله ولاية تونس وانه لو بساعفه على اللقاء
 فى بلد معين ويصطحبهما مع الاستانة يكون له الحظ الاوفر فاجابه بانه عبد الدولة العثمانية ولم يخطر
 بفكره شئ مما يتهم به وان قصارى امره التمسك بالامتيازات السابقة القديمة ثم ارسل عباس
 باشا رسلا من العلماء وآخرين من التجار للتفاهم مع الوالى فى مقصود الدولة فظهر لهم غاية آماله
 من ازدياد الحممة الاسلامية والخضوع للدولة العلية على ما جرى من الامتياز للولاية ومن عدم
 وجوب قدوم الوالى للاستانة وبذلك اطمان خاطر الدولة نوعا وان كانت لا تزال تحسب له فى الحقيقة
 ألف حساب سيمابعد ان علمت بمدار بينه وبين ملك فرانس من الاقوال وفى سنة ١٢٦٣ هـ
 (١٨٤٦ م) تعكرت الصلات بين فرانس وولاية تونس بخصوص قبيلة نهد من بلاد باجة لان
 القبيلة المذكورة منقسمة الى فخذين فخذ تابع لتونس والاخر تابع للجزائر فاستولت فرانس
 على القسمين فاعترض الوالى محزر كبة الى قنصل فرانس فاجابه القنصل ان فرانس مسعدة ان
 تعطى لتونس أرضا أخرى عوضا عن قسم باجة وذلك عند تعيين الحدود فاجابه الوالى ان التغيير
 والتبديل متوقف على مشورة الدولة العثمانية صاحبة التفوذ ولو ان لنا التصرف المطلق فى
 الولاية الآن التغيير والنقص منها فلاننا احسننا بغير رضامولانا السلطان الاعظم واخيرا تم
 الامر بتدخل الدولة العلية فى ذلك ولما حصلت حرب القريم (١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣ م)
 ارسل والى تونس هذا ١٤ ألف جندى بجمع لوازماتهم الحربية تحت قيادة القريق رشيد
 باشا وزير الحرب واسطولا مشكلا من فرقاطة حربية شرعية وست سفن أخرى منها بخران
 تحت قيادة محمد باشا رئيس البحر لساعدة الدولة العثمانية فانشرح من هذا الاهتمام السلطان
 عبد الحميد خان حتى كاد يزول معلق بفكره من جهة الوالى المشار اليه وقد اعتمى هذا الوالى بجمع
 كثير من الكتب النفيسة ووقفها لجامع الزيتونة بعدما وضعت فى عشرين خزانة واقام بالجامع
 المذكور ثلاثين مدرسا من أشهر العلماء بالتناصف بين حنفية ومالكية وشيئ بذلك منار العلم فى بلاد
 تونس وكان شهما حاز ما ذاصولة عظيمة على الهمة كثير العطايا مدحه العموم وفى آخر حياته أصيب
 بداء الفالج وتعطل بسببه عن أداء الاحكام أشهر ثم توفى فى حلق الوادى يوم ١٦ رمضان سنة
 ١٢٧١ هـ وخلفه محمد باشا

الباى المشير محمد باشا (١٢٧١ - ١٢٧٦ هـ) بويع له يوم وفاة سلفه المذكور ثم
 وفدت عليه الوفود من كل جانب للتهنئة وأقر الوالى وزراة فى وظائفهم بلا تغيير ثم أخذهم فى اصلاح
 أمور المملكة الداخلية وأرسل أربعة آلاف جندى وكثيرا من الخيل والمهمات الحربية
 لتعزيز القوة التى أرسلت مدة الوالى المتوفى من تونس لحرب القريم ولما انتهى الحرب وعادت العساكر
 الى تونس فرح بهم الباي وتلقاهم بأعظم البر ووجه التفاهة لقايتهم القريق رشيد باشا ثم أسقط
 المكوس عن البلاد والاعراب لتضرر الاهالى منها وعرض خزينة الحكومة عن ذلك بقرض ضريبة
 أخرى هينة على الاهالى وفى سنة ١٢٧٢ هـ أطلق الجنود النظامية فاطمأنت بذلك القلوب

وأقبلت الامة على الزراعة والتجارة وغيرهما ومن محاسنه أيضا انشاء المجلس البلدى للتطريف وتنظيم البلاد وفي المصالح العمومية وشيد في المرسي الابنية الفاخرة وجعلها مقرا لسكناه وفي زمنه زار القطر التونسي ولى عهدا للحكومة الانكليزية فأكرم الباي مقدمه وبالغ في تعظيمه وأهداه هدايا كثيرة متنوعة من النقائس وأراه من عز الملك وخفامة الدولة شيئا كثيرا وكانت وفاته يوم السبت ٢٦ صفر سنة ١٢٧٦ هـ وكان مولعا بالصيد في الجبال وقام من بعده

المشير محمد الصادق باي (١٢٧٦ - ١٢٩٩ هـ) انتخبه رجال الدولة والاهالي يوم وفاة أخيه فابقي رجال الحكومة في مناصبهم ثم وردت اليه التشرىفات العثمانية بحملها وزير البحرية خير الدين باشا فتلقاها بما يليق من التكريم والتعزير وبعد ذلك أخذ في اتمام قانون تونس العام الذى كان سلفه شرع في سنه واستعمل فيه ألفاظا وتعبيرات سياسية لم يسبق استعمالها كنعيره عن ايلة تونس بدولة تونس وعن الولى ملك البلاد ثم وزع منه نسخا على سائر الدول ليكونوا شهودا عليه ولقب بكارمه بالوزير راعى مكانبائه مع الدولة العليسة ولما تبهه لذلك بعض رجاله قال ان للدولة علمنا حق السيادة وطاعتها واجبة علينا ولكن لانهم انفسنا ثم صنع نياشين جديدة تقلدها هو ورجال حكومته وبذلك أوجد لتونس شكلا سياسيا آخر

ولما قدم الامبراطور نابليون الثالث الى الجزائر سار الباي اليه للملاقاة واحكام العلاقات بين البلدين وسلم له بيده نسخة من القانون المذكور (١٢٧٧ هـ) وبعد عودته ابتدأت المجالس التى أنشأها في العمل ولما كانت احياجات الحكومة التونسية قد ازدادت بسبب هذه التنظيمات أصدر الباي أمره بفرض ضريبة جديدة ولما صدرت بها الاوامر حاجت الاهالي وقامت الاعراب وقطعوا الطرق وأفسدوا ساقط عليهم الحكومة حيث اتحت قيادة فرحات أنغا وبعد ملاقاته مع الثائرين هزم جيشه وقتل هو فتشجع الثائرون بذلك ونادوا بطلب الغاء القوانين الجديدة فلم يسع الباي سوى اصدار الاوامر بتوقيف العمل بها ثم خرج اسمعيل صاحب الطابع بقوة عسكرية مؤلفة من خمسة آلاف عسكري اتسكين الثائرين وأمره الباي باستعمال الملايشة والرفق وقد كادت مساعيه تأتى بالمرغوب لولا اشتداد المرض به فعين مكانه الوزير رسم باشا إلا أنه لم يحسن التصرف فعادت الثورة الى حالتها وانتخب العصاة عليهم علي بن عزا فجعل لنفسه وزرا ولقب نفسه بالباي فالتزمت حكومة تونس حينئذ بسوق جيشين آخرين أحدهما مع وزير الحرب أحمد زروق وعدده خمسة آلاف والثاني تحت قيادة الامير علي باي وعدده خمسة عشر ألفا وبذلك أمكن تشتيت شمل الثوار والقبض على رئيسهم المذكور فقبضوه في قلعة حلق الوادي ثم مات في سجنه ولما عادت الجيوش في أواخر سنة ١٢٨١ هـ وزع الباي عليهم نشانا جديدا أحدثه للذين قاموا بالحرب المذكور وأحدث نشانا آخر يقال له عهد الأمان ثم أخذ الباي يقوى حصون البلاد وتغورها ولما أراد انفاذ القانون خاف من اعتراض بعض الأمراء فسجن نحو عشرة منهم بمنزلهم ثم قتل الفريقين رشيد باشا والفريق اسمعيل السنى وآخرين فارتجت البلاد من هذه الاعمال لعدم وقوع تهمة عليهم ولم تحصل محاكمتهم وقامت القناصل بالاعتراضات الرسمية (١٨٦٤ م) فاعتذر الولى ووعدهم بعدم وقوع مثل ذلك في المستقبل ولكن استمرت القلاقل

وقلت الإيرادات وكثرت المصروفات فالتمت الحكومة أن تستقرض من أوروبا بقرض بعد قرض بدعوى تسوية الديون السابقة فزادت الحالة اشكالا وفي تلك الاثناء اشترت الحكومة أسطولاً مؤلفاً من سبع سفائن حربية بأثمان عالية منها فرقاطة سميت الصادقية وكانت من نوع القرويت أولاً ثم جعلوا لها طبقة علوية فصارت شنيعة المنظر لا تصلح للطبلة ولا للطار وقد أشيع أن الوزير مصطفى باشا الخازندار كتب من ابتياع هذا الاسطول مبلغاً وافراً إلا أن سوء التصرف الذي كان حاصلًا اذذاك في حكومة تونس وسعيها مع عرجهما في التشبه بالدول العظيمة اضطرها لبيع سفن الاسطول المذكور ثمانية بأثمان قليلة لا تذكر وذلك في نظارة رستم باشا على البحرية والحربية وباعت الحكومة أيضاً كثيراً من المدافع والمهمات الحربية لتنظيم ماليتها ومع هذه التصرفات المتخجلة لم تحصل الحكومة على فائدة وأخيراً شكل الوالي قوسيوناً محتطاً للمداواة الاحوال المعتلة (١٢٨٦ هـ) ونصب عليه خير الدين باشا رئيساً ولما استشعر الباي عيلاً أتمه عنه ونفقو رهامنه لسوء تصرفه التجأ إلى دار الخلافة فأرسل سنة ١٢٨٧ هـ خير الدين باشا السعي في طلب تجديد فرمان بحفظ الامارة وجعلها كالامارات الممتازة في الدولة العثمانية ولاحكام الوصلة وربط العلائق الحسنة بينه وبين الدولة العلية فتمكن الوزير المذكور بحسن مساعيه من نوال المطلوب ووجدت الدولة الفرمان (١) وأرسلته لصاحب الترجمة مع سيف ونشان مجيدي مرصع صحبة

(١) الدستور المكرم المشير المنعم نظام العالم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمهمات الأنام بالزأى الصائب مهيديان الدولة والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال المحفوف بصتوف عواطف الملك الاعلى الوالي بتونس الاثنان الحائر الحامل للنشان المجيدي الشريف من رتبته الاولى مع النيشان الهماوي العثماني المرصع وزير محمد الصادق باشا ادم الله تعالى اجلاله أمين ليكن معلوماً عند ما يصل توقيعي الزئيق الهماوي انه منذ وجهت وأودعت من جانب سلطنتنا السنية ادارة الولاية التونسية التي هي من ممالك دولتنا العلية المحروسة المتوارثة الى عهدك ذات اليباقه والاهلية كجوهت سابقا الى عهدنا اسلافك لم ترل تظهر حسن السيرة والخدمة ونهسى الى طرفنا الموكى الاشراف خلوص النية والاستقامة حتى صار ذلك قريناً لعلمنا المنضى بالعالم فأمولنا السلطاني على مقتضى الشيم المرضية التي جبلت عليها هو الدوام في ذلك المسلك المرضي والجد والاجتهاد في كل ما يفي بمران مملكتنا الشاهانية وسعادتها أيها تبعه دولتنا العلية ورعايةهم وواجبهم حتى تستديم بذلك استحقاق عنايتي الشاهانية واعتمادى السلطاني المبينين في حقل آفاقاً لتعرف قدرتك العناية والاعتناء وتشكرهما ولما كان المقصود الاصلى والمراد القطعي لسلطنتنا السنية هو ارتقاء طمأنينة الولاية المهمة الراجعة لدولتنا العلية ونحو عمرانها وتأسيس أبنية الامن والراحة لسكانها بما يقبوا ما كان من البداهات أن السلطنة العزيرة لا يعزها ولا يؤدها صرف الهمة والعناية العامدة الى حقوقها الاصلية لتمام استحصال هاته المطالب وورد الطلب المتدرج بكتابك المخضوض الموجه من طرفك أخيراً الى جناب الخلافة العلية قررت وأبقيت الولاية تونس المحدودة بمحدودها القدية المعلومة بمهدتك بضم امتياز الورائة وبالشرائط الاتية وحيث ان مرغو بنا السلطاني على ما تقدم بيانه انما هو ترايد عمران تلك المملكة الشاهانية ورتوة أهاليها وهي الاثنان في حاله مضايقة وتأخر في الواردات لكل من الحكومة والاهالي وقد سمحت السلطنة السنية بعدم ارسال ما كان يرسل باسم معلوم من الولاية لطرف دولتنا العلية عوجب التبعية المقررة المشر وعدهم لاهالي تلك الولاية ولما كانت الولاية المشار اليها من الاجزاء التمتعة لما لكاننا الموكية صدرت ارادتنا السنية بان يكون الوالي بتونس مرخصاً له في تولية المناصب الشرعية والعسكرية والمملكية والمالية وهما السياسية لمن يكون متأهلاً لها وفي العزل عنها يقتضى قوانين العدل وفي اجراء المعاملات المعلومة مع الدول الاجنبية كما كانت سابقاً فيما عدا المواد السياسية العائدية الى حقوقنا المقدسة الموكية ونعني بهما ما كان كعقد الشر وط المتعلقة باصول السياسة والحرب وتغيير الحدود ونحوها وما يكون اجراءه ارجاعاً الى حقوق سلطنتنا

خير الدين باشا وعند وصوله أقام له الوالي احتفالا شاقا جدا وتلى الفرمان في جمع عظيم من الناس
وتقدّم الباي النيشان (١٢٨٨ هـ) وأقامت الاهالي زينة شائقة استمرت أياما عديدة وفرحت
جميع الطبقات لاحكام العلاقات مع الدولة وعادت لذلك السكنية في داخلية القطر إلا أن فرانسوا
لم تفر على ذلك رسميا أسوة بباقي الدول لما كانت تنويه لتلك الولاية الاسيفة من النوايا التي عادت بفقد
استقلالها وفي سنة ١٢٩٠ هـ عزل الوزير مصطفى الخازندار من رئاسة الوزراء ووجهت
لخير الدين باشا مع بقاير ياسة القومسيون في عهده ولما جلس السلطان مراد على تخت الخلافة
(١٢٩٣ هـ) أرسل الباي وزير حريته وبجريته رسم باشا الى الاستانة بالنيابة عنه لتقديم واجب التهانى
ولما وقعت حروب الصرب وولايات البلقان فتح الباي كتابا للاعانة التطوعية ودفع هو ورجاله
مبالغ وافرة ليقدم بهم الاحالي ولما صعد مولانا السلطان المعظم عبد الحميد خان على تخت الخلافة
العظمى بعث نايبا رسم باشا الى الاستانة لينوب عنه في أداء فريضة التهنئة ولما وقعت الحرب بين
الدولة والروسيا طلبت الدولة الاعانة العسكرية من تونس حسب المتبع الا أنه لم يكن لدى تونس اذ ذلك
من العساكر ما يكفي لحفظ النظام في داخلية البلاد فعقد الباي مجلسا للبحث في طلب الدولة الذي هو
من احكام الدين من جهة ومن منطوق فرمان سنة ١٢٨٨ هـ من جهة أخرى وبعد المداولة
استقر الرأى على اعانة الدولة بالمال فشكل الباي لذلك لجنة جمعت مبلغا عظيما من المال وأرسلته
الى الدولة ثم طلبت الدولة نحو ستمائة بغل للاجمال فتطوع بها الاعيان وحملتها السفن العثمانية
لان حكومة تونس كانت تخشى من ارسالها بالسفن التجارية لانه لا يؤمن عليها من تعرض سفن
الروسيا سميائه كان أشيع حضورها الى البحر المتوسط الابيض لمنع بلاد تونس من الاشتراك
في الحرب وفي مبدا الحرب حذرا حذوا بالدول الاوروپاوية الباي من التداخل في حرب الروسيا

السنية وعند حلول القدر المحتوم في الولاية وتقديم المعروض بطلب الفرمان الشريف من الوارث الاكبر من عائلته
لطرف سلطنتنا السنية يرسل له الفرمان الشريف بفتح مع منشور الوزان والمشيريه الهمايونى كما استمر العمل بذلك
الى الآن بشرط أن تستمر الخطبة باسمنا السلطاني وترتب به السكة التي تضرب هناك ملامه تعلقه بالارتباط القديم
الشرعى لايالة تونس لمقام الخلافة الجليل وان يبقى السحق على لونه وشكله ومهما وقع حرب لسلطنتنا السنية مع
أجنبي يرسل العسكر من تلك الايالة الشاهانية بقدر الاستطاعة طبق ما جرت به العادات القديمة في الجميع ومع تلك المواد
يكون أمر الولاية بطريق الوراثة مخصوصا بعائلته على ان تمسق سائر المعاملات الارتباطية مع دولتنا العلية جارية
مربية كما كانت سابقا وان تجرى الادارة الداخلية لتلك الايالة مطابقة للشرع الشريف وموافقة لقوانين العدل
التي يقتضيهما الوقت والحال الكافلة بتأمين السكان في النفس والعرض والمال فعلا للملأ كما أصدره هذا الفرمان
الشريف الجليل القدر من ديواننا الهمايونى وأرسل موشحا أعلاه يخطنا النيمون السلطاني فخلاصه بياننا الشاهانية
انما هي اصلاح حالة تلك الايالة المهمة ومالآل بيتكم وتقوية ذلك حالا وما لاواستكمال أسباب السعادة والرفاهية
والامنية لصنوف تبعتنا المستظلين بظل عدلنا السلطاني ومأمولنا القطعي المملوك أن يبذل من جهته الجهد في
حصول ما ذكر ثم حيث كان تمام المحافظة على حقوق سلطنتنا السنية المحققة بتونس من قديم الزمان وعلى أمانة
الاهالي القاطنين بتلك الايالة المودعة بعهده صدها اقتل من حيث النفس والعرض والمال وسائر الحقوق العمومية شرائط
امتياز الوراثة الاساسية المقررة فيقتضى أن تتأكد محافظتها عن تطرق الخلل دائما سدا وبتباعه عن وقوع
الخلل والحركة على خلفها اذا علمت ذلك فلا بد أن تعرف أنت ومن يقام في أمر الولاية بالتوازي من أعضاء عائلته
قدرها من النعمة العلية الشاهانية وتشكروها فعلى ذلك تسمى لتحصيل رضاي السلطاني بالغيرة ومزيد الاهتمام باجراء
هذه الشرط المؤسسة حر في اليوم التاسع من شهر شعبان سنة ثمان وعشرين وألف اه من كثر لرغائب

وخوفه قدوم الاسطول الروسي الى مرسى تونس وهدمها بالقنابل وسعى في ذلك أيضا قنصل روسيا وطلب الوعد من الباي في ذلك فقال الوزير خير الدين باشا ان الولى لا يستطيع أن يربط نفسه بالكلام من عدم التدخل في الحرب ثم سعى أخصام الوزير خير الدين باشا بالوشايات في حقه عند الباي وفي مقدمتهم مصطفى بن اسمعيل قصد اسقاطه من الوزارة ولم يقوا شيئا من المقترحات إلا رموه به فلما علم الوزير ذلك وأن أقوالهم صادفت أذنا صاغية قدم استعفاءه (١٢٩٤ هـ) فحقد عليه الباي وبث خلفه العيون ومنع رجالة من الاجتماع بالوزير المسد كور ولما انتشر هذا الخبر سأل وزير فرنسا الولى عن سبب استقالة خير الدين باشا فقال له ان السبب هو خلاف سياسى وقع بيني وبينه لميله للدولة العلية في هذه الظروف الحرجة ثم طلب خير الدين باشا السفر الى أوروبا بقصد التداوى فأذن له الباي وبعد ان أقام بهما بعض شهر واستأذن في العودة فأذن له ولما عاد الى تونس طلبته الحضرة السلطانية الى الاستانة فأراد الباي منعه فعارضت القناصل الباي بعدم أحقيته في منعه فسافر اليها في رمضان سنة ١٢٩٥ هـ فأكرمه الحضرة السلطانية ثم رقى الى مسند الصدارة العظمى فيها وبعد استقالة خير الدين باشا من وزارة تونس تعيين بدله الخازن دار محمد باشا ولكنه كان وزيراً بالاسم فقط أما النفوذ فكان بيد غيره ومع ذلك لم تطل مدة حكمه لأنه أسقط منها (١٢٩٥ هـ) وانتخب بدله مصطفى بن اسمعيل ويقال انه من عائلته وضيعة ساعده الظروف حتى دعى الى معية الولى محمد الصادق باشا ثم اهل حتى صار لا يعمل شيئاً حتى بداخل قصره الابدشورية وكان هذا الوزير يتصف باخلاق غريبة منها انه كان محباً للتجمل بالملابس المفتخرة المرصعة بالجواهر ويضع في يده عدداً وافراً من الخواتم النفيسة ولما قبض على رياسة الوزارة أخذت مطامعه تتزايد فظهرت مشاكل عديدة منها مسألة وصل سكة حديد تونس بالجزائر ومسئلة صانسى الذى منخ قطعة من الاراضى ثم ادعى انه لحقته بعض خسائر فاستفحل الامر بطلبائه وتداخل فيها قنصل جنرال فرنسا وهو الميسور وستان الذى لما رأى ان الوزير مصطفى بن اسمعيل يسعى لدى حكومة فرنسا فى استبداله بغيره وكان يعلم مطامع الوزير المذكور قابله سرا وعرض عليه المساعدة لنواله الامارة التونسية بعد الولى الخالى الصادق باشا اذا سعى الوزير فى ادخال ولاية تونس تحت حماية فرنسا فصدق هذا الوزير المغربور المغفل أقوال القنصل وتعاهد على ذلك ثم أخبر القنصل دولته بالكيفية وشرح لها مطامع الدول المزاجين لتنفوذ فرنسا فى الولاية المجاورة للجزائر فصرحت له الحكومة الفرنسية بانواع الطرق السياسية المناسبة اللازمة لعلها الحصول على المطلوب بواسطة الوزير المذكور

﴿ الفصل الثانى عشر ﴾

دخول تونس تحت حماية فرنسا

لما اغتر الوزير مصطفى بن اسمعيل بوعود قنصل فرنسا أخذ من وقته يطلع القنصل على جميع أسرار حكومة تونس ثم اتفق مع القنصل على الاعمال التى يجزى بها يتمكن فرنسا من التدخل فعلا فى المسئلة وصار فى الظاهر يعاكس سياسة فرنسا ويميل الى الدولة العثمانية حتى انه طلب منها

ابتدأت القساقل ارسال أسطول عثمانى لاستتاب الراحة ومنع التداخل الاجنبي الا أن الدولة لم تجب طلبه لانها كانت مطلعة على كنه الامور والحاصله في تونس ولم تكن أيضا الظروف تساعد على ٤- على شئ ما بالقوة لانتهال قواها العسكرية في حرب الروسية ولما رأى الوزير مصطفى بن الممعل أن الدولة غير مستعدة لاجابة مطالبه الخبيثة أخذ يضاد السياسة الطليانية وبعكس أصحاب الحقوق من الظلمان فاصد ابذل ابغار الصدور حتى يوجد لابطالها سببا شرعيا للعرض للحكومة التونسية بالقوة واعلان الحرب عليها فتدخل حينئذ فرانس الا أن ايطاليا استعملت الحكمة والرزانة لعلها بنتيجة ما يحصل من تعكير السياسة بينها وبين فرانس وكان الوزير المذكور أخذ من قنصل فرانس في خلال تلك الاحوال صورة مشاركة بسط حماية فرانس على تونس وصار كلما يقابل الباي يعرض عليه أقوالا من خرفة وبين له حسن نتائج الحماية الفرنسية فكان الباي يقابلها بالرفض طبعا وعند ذلك يسعى في خلق الارتباك والمشاكل حتى يضطر الباي لقبول ما يقصد الوزير فانفاذه ولما رأى الوزير أن مساعيه كاذت تذهب أدراج الرياح لم يبر وسيلة لذلك سوى التصديق على بعض القبائل التونسية النازلة بمجدود الجزائر لتسحق عصا الطاعة على الحكومة وبذا يتيسر لفرانس المداخلة فسلقت مساعيه لسوء الحظ نجاحا وادعت فرانس أن وجود الثورة على حدودها غير مأمونة العواقب لانها ربما امتدت منها الى الجزائر فسأقت جيشها حينئذ على حدود تونس بدعوى توطيد الامن وهي الوسيلة التي كثيرا ما تستدرع بها دول أوروبا عند قصد المداخلة في احوال الدول الشرقية وكان جيشها على قدم الاستعداد لا ينتظر الا صدور الاوامر له بالسير ولم يرض على ذلك الا القليل من الايام حتى ظهرت مسألة الحماية المذكورة وقبلها الباي ثم قابله مسيو روستان قنصل فرانس وعرضها عليه رسميا فصدق عليها في شهر ما يوسنة ١٨٨١ م مع أن الباب العالي منعه قطعيا عن التصديق على شئ من هذا القبيل وحالة كلما تطلبه فرانس على الدولة وكما هو أيضا منطوق فرمان سنة ١٢٨٨ هـ وغيره فلم يكثر بذلك ولمسأاته الدولة هل صدق على المعاهدة كما أشيع أجاب بالاجاب وأنه مكره على ذلك ولهذا اتهم كثير من الكتاب هذا الباي بتواطئه مع الحكومة الفرنسية وكانت المعاهدة المذكورة تشمل على عشرة بنود (١) جعلت

(١) لما كانت جمهورية فرانس وحكومة باي تونس يريدان حسم القساقل المخربة التي وقعت في حدود المملكتين وفي سواحل تونس أراد أن يبطا مخالطتهم القديمة التي هي مخالطة مودة وحسن جوارف اعتمادا على ذلك وعقد معاهدة تعود بالمنفعة على الجهتين المذكورتين ولذلك فقد عين رئيس الجمهورية الفرنسية بالجزائر بيار وكيلاعته ليتفق مع سمو الباي على الشروط الآتية

أولا - ان المعاهدات الصلحية والودادية والتجارية وغيرها المعقودة بين الجمهورية الفرنسية والباي يتعمم تقررها واستمرارها ثانيا - لاجل وصول حكومة الجمهورية الى الطرق المؤدية الى المقصود الذي هم الطرفان المتعاهدان قبل سمو الباي بأن حكومة فرانس تضع العساكر الفرنسية في المواضع التي تراها لازمة لتقرر الراحة واعادة الامنية في الحدود والسواحل ولا تترك العساكر تلك الجهات الاعند ما يتحقق للقوة العسكرية الفرنسية والالتونية ان الحكومة التونسية قادرة على تقرر الراحة ثالثا - تتعهد الجمهورية بحماية سمو الباي والمدافعة عن جميع ما يتخوف منه لضرر ما امانى نفسه أو في عائلته أو فيما يخص بحكومته رابعا - تتعهد الجمهورية الفرنسية بالقيام بالمعاهدات الموجودة الا أن بين حكومة تونس والدول المختلفة الاوروبية خامسا - نصب حكومة الجمهورية بملدى سمو الباي وزير المنتظر في انقادهم هذه المعاهدة ويكون الواسطة بين الحكومة الفرنسية

فيها تونس تحت حماية فرنسا التي يكون لو كقيامها المقسم بالولاية حق القيام بجميع الاعمال الخارجية وتتعهد الحكومة الفرنسية بحماية تونس من جميع الطوارئ وأن يكون لها أكبر نفوذ وما أشبه ذلك من الامتيازات التي جعلت تونس وأهلها في قبضة فرنسا تماما وتسمى هذه المعاهدة بعاهدة باردو ولما اعترضت الدول على هذا العمل المغاير للقوانين نشرت الحكومة الفرنسية في ٩ مايو نشرة ادعت فيها أن ولاية تونس مستقلة من القديم لانها عاهدت الدول بدون وساطة الباب العالي وأصدرت قوانين عبرت فيها عن نفسها بلفظ دولة وعن واليها بلفظ ملك ولم يذكر بتلك القوانين شيء عن الحقوق السلطانية ولم تعترض دولة من الدول على ذلك حتى ولا الباب العالي نفسه وقد اعترض أيضا ناظر خارجية الدولة العثمانية على تلك الحماية بلائحة (١) مثبتا فيها بالبراهين القوية الدامغة جميع حقوق الباب العالي في ولاية تونس منها على جميع الصرمانات والمعاهدات السابقة عقدها مع الدول الوارد فيها اسم تونس وعدها من ولايات الدولة ولكن نفذ القضاء وانكرت فرنسا على الدولة العثمانية قولها ان تونس من جملة أجزاء مملكته بدعوى أنهم لم تعترض على أعمال

وذوى الامر والنهي التونسيين وفي كل الامور المشتركة بين المملكتين سادسا - يكون للثواب السيليين وللقناصل الفرنسية بين الممالك الاجنبية النظر والوكالة في أعمال تونس وأعمال رعييتها وتعهد سمو الباي في مقابلة ذلك بان لا يعقد معاهدة عوممية بدون علم الحكومة الجمهورية وبدون ان يحصل على موافقتها من قبل سابعا - قد ألفت حكومة الجمهورية الفرنسية وحكومة حضرة الباي لانفسهما الحق في تأسيس نظام المالية التونسية ليتمكنها دفع الدينون التونسية العمومية ويشمل هذا النظام حقوق أصحاب الدين التونسي ثامنا - تخير القبائل العاصية بالحدود والسواحل على دفع الغرامة الحربية وتتفق حكومة الجمهورية مع حضرة الباي فيما بعد على شرطها وكيفية دفعها وقد ضمن حضرة الباي ذلك ثاسعا - يتعهد سمو الباي بمنع ادخال السلاح والات الحربية ببلاد الجزائر بان يمنع دخول تلك الاشياء اليها من جزيرة مرسى قبس وسائر المنات الجنوبية في المملكة عاشرًا - يكون العمل بهذه المعاهدة بعد قبولها من الحكومة الجمهورية وترد في أقرب مدة ممكنة لسمو الباي بخرى في ١٢ ماي سنة ١٨٨١ بالقصر السعيد

الامضاء

الامضاء

الجنرال بربار

محمد الصادق باي

(١) هالك تعريب اللائحة التي أرسلها وزير خارجية الدولة الى سفرائها في الخارج بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٨٨١ م ان اعلاما في المختلفة عرفت قطاعة حكم الواقع التي صارت في المسئلة التونسية وقد تسببت بهجوم بعض القبائل البدوية بجهة الجزائر ولهذا الهجوم ظلم الحكام التونسيون أعلنوا بأنهم حاضرون ليضبطوه من غير تراخ للدولة الفرنسية بحكمت بأنه يلزمها ارسال عدد واقر من العساكر الذين قد استولوا على جزء كبير من الولاية ولم يبعدها عن المركز الا بعض فرائخ فمن غير التفات الى ما كنا أكدناه على حضرة الباشا الأخذ التدايرا اللازمة لتمهد الراحة في المواضيع الشارفة لدولة الجمهورية لا تريد أن تنظر للعناطية الاقترانية بتونس مع السلطنة العثمانية التي هي محسوبة بجزءا مما للسلطنة المسد كورة وأظهرت بانها لا تقبل قولنا الاتفاق الودادي معها القطع الاختلاف الذي وقع وترتيب حقوق الباب العالي مع منافع فرنسا في ذلك المحل وترتيب الاشياء الموجودة من زمن قديم ولا نقدر أن نزيد في ايضاحها كما يلزم وهي سيادة السلطان التي ليس فيها اختلاف على هاته الولاية وهي سيادة لانسكارها ولا دولة عوموا وهذا الحق بقي الى الآن صحيحا ولم ينقطع من زمن فتحها وهو اذ ذلك سنة ١٥٣٤ م بخير الدين بلشاق سنة ١٥٧٤ م بقلنج على اشاوسنان باشا وكانت الدولة العلية أرسلت الى تلك المواضيع قوة عظيمة برا وبحرا ومن زمن ذلك الفتح فالتأسيسات التي فعلها الباب العالي هي ان جميع ولايات تونس بتوارث الولاية بمن ذريته الى الولى المسمى من السلطان وتقلدون الى الآن المنصب منه وفرمات الولاية تنسب في خزنة الديوان وكذلك جميع المكاتب التي تأتي

الباى عند سنه القانون النظمى المتقدم الذى كرونشاع هذا الانكار فتور وقتى فى العلاقات الودية بين فرنسا والدولة العثمانية وبذلك ضاعت هذه البلاد بجنيان رجل كصطفى بن اسمعيل وأمثاله وداست فرنسا القوية على حقوق الدولة العثمانية صاحبة الحق والتي لم تجد لها نصيرا من أوروبا التي تفخر بعداتها بأنهم عينه المظلومين الأقاتل الله القوة كما قاتل الله الضعف ولما دخلت عساكر فرنسا بلاد تونس هاج الأهل والى وقامت الثورات بكل جهات البلاد فوجهت فرنسا عليهم العساكر بحر اوبرا

وقد اشتركت فى الحملة التونسية القوة البحرية لفرنسا وبوجوده بالبحر المتوسط الابيض وكانت وظيفتها اعانة الجيش البرى بهجومها على المدن الحصينة الساحلية التابعة لتونس التي أظهرت الامتناع وقد كان اطلاقها القنابل على حصن طبرقة والاستيلاء على بنزرت وقايس من الاعمال القليلة الالهية لعدم وجود التناسب بين قوى المتحاربين مما سهل النجاح للفرنسيين الآن هجوم هذا الاسطول على مدينة صفاقس يستحق الذكر والتنويه بسبب مقاومة العرب من سكانها مقاومة شديدة وبسبب ما أظهرت الاساطيل من حسن الترتيب والقوة وكان القائد العام لها هو الاميرال غارنول Garnault وقد كانت القوة البحرية التي اشتركت فى ضرب مدينة صفاقس تترب من تسع مدرعات وطرادتين وكشاف واحد وأربع مدفيعات وكان عمق المياه على السواحل التونسية يعرقل الاعمال البحرية ويحجب السفن على الابتعاد عن الساحل بنحو ٦٠٠٠ من الامتار ولا يمكنها أن تخفى زوارق البحارة من الدنو الى الشاطئ إلا أن المدفيعات لما كان يمكنها أن تدنومن الشاطئ على بعد ٢٠٠٠ متر كان فى امكانها حامية نزول العساكر الى الشاطئ ولما بدأ الفرنسيون فى اطلاق القنابل فى يوم ١٦ يولييه سنة ١٨٨١ كانت هذه السفن تخرج الى البر بنحو ٣٠٠٠ من الجنود بين بريه وبحرية ولما كسر الفرنسيون أبواب المدينة المذكورة تعين عليهم محاصرة

منهم للباب العالى فانها تارة تكون فى شأن مخالطتهم مع الدول الاور وبابوية وتارة تكون فى شأن أحوالهم الداخلية والتي لها فى المدة الاخيرة فان الباب العالى من استحقاقه على حقوقه زيادة على كونه يسمى الوالى العام فله يرسل من القسطنطينية الى تونس قاضيا وياش كاتب الولاية ولم يكن الامن زحمة الدولة العلية ان منحت الوالى أن يسمى هو نفسه هذين المتوظفين وأيضا قناصل الذهب وخصوصية سيادة السلطان فان الخطب يد كرفها اسم جلالته ويضرب على السكة وأيضا فى وقت الحرب يرسل تونس الاعانة الى تحت وعلى حسب العادة القديمة يأتي الى القسطنطينية دائما أناس رعييون ليقدموا تعظيمات الوالى وخضوعه لاعتاب السلطنة وليقبلوا أيضا الاذن اللازم من الباب العالى لأمور عظيمة فى الولاية ثم ان الباشا الموجود الآن والاهاى التونسيين طلبوا زيادة فى التفضل وأعطى ذلك الحضرة السامية بالقرمان المؤرخ فى سنة ١٨٧١ وتعترف به جميع الدول والان قد استغاث الوالى بمجهود سيده الحق ليعينه على الحالة الرديئة التي وقعت فيها تونس الآن وهاته الاشياء التحقيق لا يشكرها أحد فهل تريدون أن تعرفوا الآن تقريرها بالتاريخ وبالكانبات الرسمية هو سهل لكن تقتصر على المهم منها لئلا يطول الكلام فى هذا التلغراف فى المعاهدات القديمة التي بين تركيا وفرنسا تعدد ألقاب الحضرة السلطانية ويكون منها لقب سلطان تونس (فانظر مثلا) معاهدة ١٠ صفر سنة ١٠٨٤ هـ ١٦٦٨ م وفى هاته المعاهدات أيضا يوجد بان كل المعاهدات بين الدولتين تجرى أيضا فى تونس وفى نصف القرن السابع عشر أى فى ١٥ صفر سنة ١١٦٦ هـ أرسل السلطان فرما للباى والحاكم الكبير بالولاية فى رضى الباب العالى بان قنصل فرنسا يجمع خدمات قنصل الدول الذين لم يكن لهم اذذاك نواب بالقسطنطينية كالبرتغال وكستالوني واسبانيا وفينيسيا وفرنسا وغيرهم والقنصل وكالته هى حماية السفن تحت الراية الفرنسية

القصبة ثم محاصرة كل بيت التجأ اليه العرب وقد بلغت خسائر الفرنسيين بعد استيلائهم على المدينة في مساء اليوم المذكور سعة قتلى وأربعين جريحاً

قال بعض المؤرخين ان ثورة القبائل على جيوش فرنسا هي لاعتبارهم أن ماصارين الباي وفرنسا مخالف للحقوق المقدسة العثمانية ومحل بالعلاقات الدينية والسياسية المرتبطة بها أهالي تونس بالسلطة العثمانية منذ خمسة قرون ولولا رداة الاسلحة الموجودة بمحسون الولاية وبأيدي الاهالي والعربان وعدم تعرض أوروبا وبالتال التونسيون منزلة أشرف مما نالوا الا الآن وزيادة عن ذلك فلم يكن للولاية من الجنود المسلحة غير نحو ثلاثة الاف جندي وهكذا أنعمت الدول الاوروبية بصاحبة المصالح في القطر المذكور بالنظر عن كثرة الاعتراضات تاركة ذلك الى ظروف الاحوال وطوارئ الازمان ومنهم الدولة العثمانية صاحبة السيادة وبعده هذه الحوادث المحزنة لم يعمر الباي محمد الصادق مدة طويلة فانه توفي يوم السبت ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٨٢ الموافق ١٦ ذي الحجة سنة ١٢٩٩ جلس مكانه ولي عهده وأخوال امير المعظم علي باي وكانت ولادته سنة ١٢٢٣ هجرية لما توفي محمد الصادق باي ركب الامير علي باي في الموكب الخاص حسب العادة المألوفة وكان مؤلفا من الوزراء واعيان الحكومة التونسية وحضره المسيو كامبون وزير الجمهورية الفرنسية

في المراسم المشهورة بالولاية والقرمان منع تدخل قناصل الانكليز والهولنديين وغيرهم من التدخل في خدمة نائب فرنسا وذلك سئد منع التعدي بين الباب العالي والتمسالمؤرخ في ٩ رمضان سنة ١١٩٧ هـ المتقرر بمعاهدة ستوف في ١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٠٥ قاهه يأذن بحكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بأن يجمعوا على اسم السلطان السفن التجارية بسلطنة الرومان الفخمة وأيضاً فان الاتفاق الذي تقدم هذا السند وتم في ١٥ شوال سنة ١١٦١ هـ بالاذن من السلطان وكان هذا الاتفاق وقع بين الحكام المذكورين والسلطنة المذكورة فان الوالي العام بتونس وهو اذناك في رتبته بكثر بل ونال اسم على باشا يد كرفي مقدمه كل مكتوب ممضى عليه منه هاته الكلمات بعينها وهي (مولانا السلطان الغازي محمود) وعلى ذكر واقعات ذلك الزمان أستطر ذلكم الاذن الصادر من الباب العالي في ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٤٥ ١٨٢٧ م لحكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب قاهه يأمرهم ان لا يتدخلوا في الخلاف الواقع بين سلطنة النمسا ومملكة المغرب وكذلك الاذن الصادر من التسطنظمية لتوالي تونس في ١٤ صفر سنة ١٢٤٧ هـ ١٨٣٠ م قاهه يأمر بترتيب العسكر النظامي بالولاية على غط الترتيب العسكري النظامي العثماني وأيضاً قد أتى مكتوب معين بالظاعة من الباشا التونسي لجلالة السلطان في سنة ١٨٦٠ م وذلك الباشا هو الذي سماه السلطان والبايعا ما وقد نشر هذا المكتوب في جميع صحف أوروبا وبمن غير ان يعارض ولا من جهة واحدة وزيدكم شيئاً آخر وهو انه في سنة ١٨٦٣ م في واقعة القرض التونسي الذي وقع في باريس من غير رضا الباب العالي كان مسيو دو ران دولويس وزير خارجية الامبراطور نابليون الثالث قد أعلن رأيه بناء على شكايات الدولة العثمانية وقال انه يلزم ما الباشا بتونس أو الصراف الذي يدعق القرض معه أن يطلب رضا الباب العالي ليصح هذا القرض ولدا دفعه عن حقوق الباب العالي فان الوزير الفرنسي اوى أرسل يقول هذا الكلام للصراف المشار اليه وهانحن نضع ثبات الكلام السابق لدى ميزان العدل والحق الذي للدول الممضين على معاهدة تولين وانما نتحقق بان فكر الدول محيط بدلائل كثيرة في الواجبات العمومية التي يقتضيها المؤتمر المحترم وانهم يريدون أن يفصلوا بالعدل قولنا الذي قدمناه وانهم يتحققون على حقوق الباب العالي الاخرى المحفوظة بالمعاهدة المذكورة ويصلحون الحال بين الدولتين فرنسا وروسيا في علاقتهما التي لها في عاثة الولاية المرؤفة بها التونسية انتمعة للسلطنة العثمانية والمرغوب من جنابكم أن تتكلم مع وزير الخارجية في مضمون هذا التلغراف وتشرح له ما تراء فاعا ولكم الاذن بان تعطوا نسخة من هذا الجواب الوزير اذا طلبكم اه الانضاء مصطفي نقلنا عن صفحوا لاعتبار

عاصم

لدى الباي وقرأ خطبة عظيمة باسم دولته أظهر فيها التعزية والتهنئة وبين الارتباط الموجود بين
فرانسا وتونس وقلد الباي في الحال نيشان الليجون دونور من الصنف الاول وأطلقت المدافع ايذانا
بالرسوم المعتادة وبايع الباي جميع الحاضرين وأعلن المسيو كامبون جميع نواب الدول وقناصلها
بوفاء محمد الصادق وتولية ولي عهده على بلاد تونس فأقبلوا في الحال على اسمهم الرسمية لتقديم رسوم
التهنئة والتعزية ومن يوم جلوسه وهو مهمتهم بمساعدة رجال فرانسا في إصلاح شؤون البلاد واتمام
ما يسمونه بالاصلاحات ليس له المعارضة أصلاً فهدوا الخطوط الحديدية والسلوك التوغرافية وشيدوا
المباني المفيدة وسعوا نطاق التجارة وأصلحوا المرفأ العظيم بمخلق الوادي وغيره حتى صار من أحسن
المرفأ وأخذت المواصلات التجارية تتزايد بين الجزائر وتونس وجعل الفرنساويون الادارات
في الحكومة مشابهة للجاري في حكومة الجزائر وأصبح الاهالي يرغبون تقدمهم وإصلاح شؤونهم
أما البحرية في الحكومة التونسية فليست ذات شأن الآن وقد ورد بالتقويم السنوي البحري
الذي يضعه الوردبروس فوراً أن لها من البوارج ثنتين فقط

(الباب الثالث عشر)

تاريخ طرابلس الغرب

(الفصل الاول)

وصفها الجغرافي

اعلم ان البلاد المسماة طرابلس هي ولاية تابعة للدولة العثمانية رأسا وهي تتركب من بلاد
طرابلس الحقيقية وواحة غدامس وجهات برقة وفزان وواحات غات وعتد شواطئها على البحر
المتوسط الأبيض على طول ١٥٠٠ كيلومتر تقريبا وهي محصورة بين بلاد تونس غربا ومصر شرقا
والبحر الكبري جنوبا وحدها ليست معينة تماما الا من جهه البحر ومسطحها يبلغ
٣٠٠٠٠٠ كيلومتر مربعة

أما جبالها فهي عبارة عن هضبات صخرية وتلال رملية منها جبال برقة شرقا وهي كأنها
الجزر الصخرية محصورة بين البحر المتوسط وخليج بومبه وخليج سدر وتلك الجهة منخفضة عظيم
يظن البعض انه خليج قديم من بحر به كثير من البحيرات المالحة والخفيات البحرية وقد أشار السائح
رولف (Rohlfs) بأنه لو أجرى الماء الى هذا المنخفض ثانيا لا يمكن لأعظم السفن السير حتى تصل
بلاد فزان أما هضبة برقة المكونة من الصخور الجيرية فترفع نقطة بم تعلق عن سطح البحر المتوسط
بنحو ٣٠٠ متر وبها مرفأ تبروك العظيم وخليج بومبه وهو معرض للرياح ومن أشهر جبال برقة
الجبل الاخضر ويزيد ارتفاع بعض قممها عن ألف متر وبالجهة الغربية من بلاد طرابلس الاصلية
يوجد كثير من الهضبات الحجرية التي تمكده حتى تصل البحر وهي هناك مرتفعة ارتفاعا عظيما حتى
انها تشاهد كالاسوار وأشهر هذه الهضبات هضبة تسمى حصنة الجراء وفي نهايتها من جهة البحر جبل

الدويرات وجبل نفوسه والجبال السوداء أما المنطقة الشاطئية التي يختلف عرضها ما بين ٦٠ الى ١٠٠ كيلومتراً فانها منخفضة رملية تكثر بها المستعمرات المالحة وبها بعض مرفأى بضواحي مدينة طرابلس أما المسافة الكائنة بين بلاد طرابلس الاصلية وبرقة وهي الكائنة على طول الساحل الجنوبي من خليج برقة فليس بها من الجبال شئ يذكر وأرضها مهله رملية تمتد تحت مياه البحر فتحدث في قاعه تلاامضة بالسفن التي تلقى عليها رياح الشمال

أما مناخها فيختلف حيث بالشمال منها يعتدل الهواء في بعض الفصول بخلاف الجنوب ومتى هبت رياح الشمال جلبت معها بعض الرطوبة أما بقية الجهات فهو أؤها شديد الحرارة لأن جبالها قليلة الارتفاع وبها جهات في الجنوب تعرض لها السمنون ولا تنزل بها الامطار أصلاً وهو أؤها على العموم شديد البرودة ليلاً وشتاءً شديد الحرارة نهاراً وصيفاً ويصل الى درجة لا تطاق من الحرارة متى هبت رياح السهموم الجنوبية وليس بها من الانهار الا بعض وديان تجرى زمن الامطار ويشرب أهلها من الآبار ومما اخترنوه من المياه في الصحاريج اذا فهمت ذلك علمت ان النباتات تكون ولا شك قليلة جداً في بلاد كهذه خصوصاً في المناطق المتباعدة عن البحر وجهاتها الشمالية تشبه جهات ايطاليا وبلاد اليونان وغيرهما من البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط الأبيض ويوجد بالجهات المنخفضة منها وعلى سفوح الجبال حيث تحفظ الارض الرطوبة من مياه الامطار زمناً طويلاً أشجار ونباتات مختلفة تستمر خضراء طول السنة فن ثمارها البرتقال والليمون والخوخ والتفاح وهو كثير والشعير والحنطة وأنواع القنأه وبعض الخضراوات والتبغ وغيرها مما يزرعه سكانها هذا بالجهات الشمالية منها أما قطارها الجنوبية فانها تختلف عن ذلك اختلافاً كثيراً حيث تكثر الصخور والرمال وتقل النباتات جداً فهى الصحراوية بعينها حتى يصعب على القوافل اختراقها لانه لا يوجد بها غيراً بار على مسافات متباعدة أغلبها ردىء الماء وليس بها من الامكنة الصالحة للسكنى غير الواحات التي من أشهرها غدامس وفزان وكفرة وغيرها ولهذا كان سكان هذه البلاد قليلين لا يتجاوزون المليون والمائة ألف عدواهم في الشمال أكثر منهم في الجنوب طبيعة وسكانها خليط بين بربر وهم أصل السكان وعرب وسودان ومن بينهم قبائل لاتزال تسكن في كهوف من الجبال خصوصاً بالجبل المسمى لهذا السبب جبل الغيران

وكانت طرابلس محطاً لاساطيل قرطاجنة والرومان والعرب واشتهرت في الاعمال البحرية في مدة قيام الدايات فيها بالاحكام وخصوصاً في مدة حكم عائلة القرمانلى كإسبانيا

(الفصل الثانى)

ثغورها البحرية

من أشهر ثغورها طرابلس وهي حصينة وفرضتها جيدة الا ان عمق مياهها قلته لا يكفي للسفن الجسيمة وهي قاعدة الولاية المنسوبة اليها واقعة على ساحل البحر المتوسط في لسان

داخل في البحر وتبعد ١٣٥٠ كيلومترا عن جنوب شرقي الجزائر ٦٥٥ كيلومترا من
نوتس و٤٠٠ ميل نفوسها ٣٥٠٠٠ نسمة وبها سراى الحكومة حيث يقم الزوالى وعدة أسواق
وجله تجوامع ولها تجارة منسمة مع داخل افريقية وبلاد السودان ومنها تذهب قوافل عديدة
الى تلك الجهات وقد ازادت أهميتها التجارية بعد مظهر ومهدى السودان ومن صادراتها العاج
وريش النعام والابنوس وغيرهما من حاصلات السودان وقد استولى كثير من ممالك أور و باعلى هذه
المدينة لاهميتها كما سبق

وبنى غازى واحمه الله - ديم هسبيرس ثم برنيقة مدينة من برقة في ساحل افريقية واقعة على
الساحل الشرقي من خليج سدره وعدد سكانها مع ملحقاتها نحو ٢٢٠٠٠٠ بينهم كثير من اليهود
والسودان وهى في مكان سهل وأرضها رملية فاحلة على مسافة نحو نصف ميل عن البحر إلا ان
ما يلى ذلك خصب غير انه ضحى ويتردد عليها كثير من السفن الشرعية والتجارية وفرضتها تدعى
عند الفريخ مار باجوليانا واقعة الى جنوبى المدينة تحيط بها نحو رمن جهة قلعها والمدخل
اليها من بين تلك الصخور ومرسأها متسع اتساعا وافيا يسع أكبر السفن الآن على الماء غير كاف
للأسفائن الصغيرة

واجداية بلدة بقرب ساحل البحر المتوسط الابيض فى لواء بنى غازى من بلاد برقة اسمها اليوم
قصرهاني قال أبو عبيد البكري اجداية قرية كبيرة فى صحراء أرضها صفاء وآبارها منقورة فى الصفا
طيبة الماء بها عين ماء عذب وبها سائين لطاف ونخل يسير وليس بها من الأشجار الا الاراك وبها جامع
حسن البناء بناه أبو القاسم المعروف بالقائم العبيدى ابن عبيد الله المهدي له صومعة مئنة بديعة العمل
وجمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة وأهلها ذوي سار وأكثرتهم أنباط وبها بنى من
صرح لوانة ومرسأها على البحر يعرف بالمادور له ثلاثة قصور بينه وبينها ١٨ ميلا وليس باجداية
لدورها سقف خشب انما هي قباب طوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها وهى رخيصة الاسعار كثيرة
التمر يأتيها من مدينة أو جله أصناف التمر وقال غيره انها كثيرة النخل

ودرية هى درنس القديمة فرضة فى شمال افريقية من أعمال طرابلس الغرب تبعد عن
بنى غازى ١٤٠ ميلا الى الشمال الشرقي أبنيتها صغيرة الأبنها مرتبة كانت قديما من مدن
ينطا وليس عدد سكانها ٦٠٠٠ يتردد عليها كثير من السفن

وسرت فرضة بحرية بين برقة وطرابلس الغرب ربما كان خليج سيرينس أو سدره منسوب
اليها قال باقوت فى معجم البلدان هى مدينة على ساحل البحر الرومى بين برقة وطرابلس الغرب
لابأس بها وفى سمتها من ناحية الجنوب فى البراجداية ومنها يقصد الى طرابلس قال البكري سرت
مدينة كبيرة على سيف البحر عليها سور من طوب وبها جامع وحمام وأسواق ولها ثلاثة أبواب وربما
نزل المركب بساحلها بالزيت وأهلها أحوج الناس اليه ولكنهم يعدون الى الزقاق الفارغة
فيفتحونها ويكوئنها يصرفونها فى حوانيتهم وأقنيتهم ليروا أهل المركب ان الزيت عندهم كثير فلو
أقام أهل المركب ماشاء الله أن يقيموا ما اتاعوا منهم الا على حكمهم وأهل سرت يعرفون بعبيد قولة
وهم يغضبون من ذلك ولهم كلام يتراطنون به ليس يعربى ولا عجمى ولا بربرى ولا قبلى ولا يعرفه

غـ يرشهم وهم على خلاف أخلاق أهل طرابلس فان أهل طرابلس من أحسن خلق الله معاشرته وأجودهم معاملة ومن سرت الى طرابلس عشر مراحل والى اجدابية ست مراحل ومسرت واقعة على بعد ١٧ ميلا شرق طرابلس المغرب فرضتها على ساحل بحر سفيد لابس بها واقعة عند مدخل خليج سدره عدد أهاليها ١٠٠٠ نفس لها تجارة عظيمة مع داخلية أفريقيا والقطر المصري وبها عمل للطنافس و يوجد فرض صغيرة أخرى مثل مرسى بوريغو ومرسى أوجرا ومرسى بوشيقا وغيرها وعلى جميعها تتردد بعض السفن الشرعية

(الفصل الثالث)

تاريخها قبل الفتح العثماني

كانت بلاد طرابلس وما يتبعها من البلدان جزءا من أملاك القسراطجيين ثم استوت عليها الرومان بعد تغلبها على قرطاجنة وكانت في أيام الدولتين المذكورتين في غاية العمران والخصب وان كانت بها المياه قليلة ولكن الأمان القديسة بهادلة على انهم اهتموا قديما باخراج منابع المياه من العيون والآبار وكانوا يحفظون ماء المطر في برلك جعلوها لذلك وهي الآن قليلة الخصب والسكان والمور من أراضيها أودية خاصة والاقسام التابعة لولاية طرابلس الآن هي برقة وغدامس وقران وبني غازي والاخيرة نارة تنفر بالادارة ونارة تتبع طرابلس وقد فتح المسلمون هذه البلاد بعد ما فتح عمرو بن العاص مصر سنة ٢٢ هـ وذلك في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم صارت تابعة لعمال الخلفاء على افريقية ثم في عهد العباسيين كانت قلعها تحترق فلما تولى عبد الرحمن بن حبيب أصلحها من جهة البر وفي عهد الخليفة هررون الرشيد أصلح هرثة من عين القاعة من جهة البحر (١٨٠ هـ) ومن وقتئذ أخذت طرابلس تتقدم في العمران ثم تولاها الاغالبية ثم العبيديون ولما دخلت في حكم يوسف بن زيري الصنهاجي عندما انتقل المعز بن باديس العبيدي الى الديار المصرية واتخذها دار القواطم ترايدت مظالم شعيتهم في ولاية طرابلس ولم يمض على ذلك مدة طويلة حتى قامت فيها الثورات ومالت أهالي طرابلس الى الاستقلال لتخلص من ظلم عمال القواطم أسوة بباقي المقاطعات وفي أثناء تلك الثورات حضر امام طرابلس (٥٤٠ هـ) أسطول من صقلية تحت قيادة الاميرال جورجي ميخائيل وحاصر المدينة من كل جانب وكانت الاهالي مشغولة بانتخاب أمير ليتم به استقلالهم غير ملتفتين الى العدو الذي حاصرهم فانتهم الاميرال المذكور تلك الفرصة وركب على أسوار القلعة السلام وصعدت عليها جنوده فاستولى على المدينة بالسهولة ولم تدر الاهالي حتى دهمهم العدو فاندشوا ولكن الاميرال طيب خاطرهم ووعدهم بنشر العدل فخالوا ووعده ولما استتب له الامر انتخب الامير يحيى بن مطروح وجعله واليا على طرابلس من قبل صاحب صقلية وعين أبا الخجاج يوسف قاضيا عليها ففرح الاهالي بذلك وبعد مدة قصيرة أخذ منهم الرهائن على الانقياد وترك بعض الجنود الفرنجية للحفاظ على القلعة وركب هو وسفن أسطوله وعاد الى صقلية وقد تقدم كل ذلك وبعد مضي اثنتي عشرة سنة تقدمت دولة الموحدين بالفتوحات فلما وصلت جيوشها الى

طرابلس قامت الاهالي على الحامية المذكورة فقتلتها وفتحت الابواب للموحدين فامتلكوها بالسهولة
 (٥٥٣ هـ) ثم عاد ابن غانية الذي كان مقاوما للموحدين في تلك الاطراف وأخذ يحارب الموحدين
 وكان شرف الدين قره قوش مملوك صلاح الدين الايوبي صاحب مصر تقدم وتغلب على طرابلس
 وأخذ يساعدا ابن غانية على الموحدين ولكنهم اتهموا عليه ما وشتوا قومهم امن افر يقية
 وفتحوا البلاد فيها ومن وقتئذ صارت بلاد طرابلس تابعة لسلاطنة الحفصيين الذين هم فرع من
 الموحدين وما ضعف أمرهم واستبد عليهم الولاة في اطراف مملكتهم كان من جملة من عصى
 عليهم والى طرابلس فتجهز اليه السلطان الناصر الحفصي بجيش مؤلف من عشرين ألف
 مقاتل وحاربه وغلبه وولى على طرابلس أبا محمد عبد الواحد بن حفص فقبل الولاية بعدما امتناع
 طويل على شروط كما سبق أولها استمرار ولاية الى أن يعيد البلاد الى أعز ما كانت عليه
 من الثروة والراحة الثاني ان يستقل بالادارة مدة ولايته بحيث لا يعارض ولا يرد أمره في شيء
 الثالث أن ينتخب مقداراً من الجنود حسب ارادته لا عاقبته فقبل الحفصي منه ذلك واستتر في
 الولاية الى أن توفي وخلفه من بعده فيها ابنه وكان على شاكلته في نشر العدل فارتاحت البلاد
 وبلغت النهاية في الغنى فمالت الاهالي للراحة والترفيه حتى تركوا السلاح بغضاله لما سبق فيها
 من الغنى قال ابن غلبون في تاريخه ان تركهم السلاح بالمرة كان سبباً لضياغ طرابلس وذلك انه
 قدم على نغسر طرابلس سفينتان اسبانياوليتان مشحونتان تجارة من أقمشة وحلى وخلافهما
 فاشترى جميع ما قيمه مارجل واحد ونقد الثمن حالا واستدعى من فيهما لولاية أعداءهم وبعد احضار
 الطعام أخذوا قوتة فاخرة ذات قيمة عظيمة ودقها في مهرانى عمرأى منهم وذرها على الطعام قائلاً
 هذا لكم مقام الفلفل ثم أحضر بطيخة خضراء وأراد قطعها فلم يجد سكيناً فأسأل منهم سكيناً ولما
 سأل الاسبانيول عن سبب عدم وجود السكين عنده قال ان الاهالي في طرابلس كانوا ضجروا من
 حمل السلاح ليلاً ونهاراً أيام الثورات والمظالم والعدوان فلما استقر الامن والعدل صار حمل السلاح
 بيننا معياباً ومن جملة أهين بين الاهالي فتعجب الاسبانيول من ذلك ولما عادوا البلادهم أخبروا دواتهم
 بما رأوه فطمعت في طرابلس وكان عندها وقتئذ ابن السلطان الحفصي مستجداً بها على أبيه كما سبق
 شرح ذلك في تاريخ تونس فأرسلت اسبانيا أسطولاً وجيشاً قليلاً على طرابلس وامتلكتها باسم
 أحمد الحفصي المذكور بخار في البلاد أشد الجور مع الاسبانيول ولما رأى أهل ناپولي احدى ممالك
 ايطاليا وكانت وقتئذ مستقلة تدمر الاهالي تداخلت بينهم بالفساد ووعدهتهم بالحماية من ظلم
 الاسبانيول وانفقت معهم ان تحميهم تحت شرط الاستيلاء على الحصون فقط فقبلوا ذلك ثم بعد
 ما نالت مقصدها أخذت تتداخل في شؤون الاهالي لزيادة التمكّن منهم فغضب الاعيان منهم
 وقامت تحافظ على حقوق البلاد وتخصنوا في ناجورة وحصلت حروب بين الطرفين ولما علم
 الطرابلسيون بضعفهم أرسلوا وفداً من قبلهم الى دار الخلافة العثمانية مستجدين بالدولة لانتقاذهم
 من الفرنج ودعوتهم للاستيلاء على جميع البلاد الطرابلسية بما انها كانت اذذاك أقوى الممالك
 الاسلامية ولما وصل الوفد الى الاستانة العلية تعجب العثمانيون من شكل المغاربة ولم يجيدوا أحداً
 يفهم لغتهم حتى صادف أحد الخصيان من القصر الهمايوني وكان يدعى مراداً وأو يعرف باللغة
 العربية على اصطلاح البربر فتكلم معهم وفهم قصدهم فتوسط في ابلاغه الى رجال الدولة وعينه

السلطان للولاية عليهم أو أرسله بأسطول وفرقة عسكرية صغيرة لأن رجال الوفد هم لواعلي الدولة
الاستيلاء عليها بأى قوة كانت

الفصل الرابع

استيلاء الدولة العلية على طرابلس

استبداد الكبرية بأحكامها - اعلم انه لما وصل مراد آغا السابق ذكره بالقوة الصغيرة المذكورة
وشاهد الاحوال ورأى ان قوة العدو وأزيد من قوته عرض الكيفية للسلطنة السنية بالتفصيل
وفي أثناء ذلك صادف مرور الدونمة العثمانية التي كانت تحت قيادة طورغودباشا الشهير من امام
ناجوره قاصدة تونس فنوجه اليها في الحال مراد آغا مع بعض الاعيان في زورق صغير وتقابل مع
طورغودباشا وأفهمه الكيفية ولكن لما لم يكن عند الباشا المولى اليه أو امر من الاستانة في هذا
الخصوص لم يقبل مساعدتهم في أول الامر ثم قبل وقصد ميناء طرابلس بالعمارة وحارب الاجانب
للمستولين عليها فقهرهم وفتحها سنة ٩٥٠ هـ وفي رواية أخرى انه لما وصل تقرير مراد آغا
الى السلطان الغازى سليمان القانونى أمر سنان باشا الذى كان عين لفتح تونس ومعه قنج على باشا
ان يعرج بالدونمة على طرابلس ويفتحها فتوجه اليها مع طورغودباشا وفتحها قبل فتح تونس ثم
بعد ذلك تعين طورغودباشا واليا على طرابلس فصارت من وقتئذ ولاية عثمانية

ولما كان من عادة الدولة العثمانية في العصر المذكور ان تطلق التصرف للوالى بحيث يكون
له التفويض المطلق في عمل ما يراه صالحا لالتساع أطراف الدولة وصعوبة المواصلات بربة كانت أو
بحرية سار طورغودباشا فى الولاية على هذا المنوال وأوجد لطرابلس أو جاقا من الجنود مثل أو
جاقات الجزائر وتونس ثم اهتم أيضا فى توسيع أطراف ولايته وتشييد سفن القرصان حتى صارت
لهاقرة بحرية عظيمة فصار يرسلها سنويا للغزو فى البحار فتعود اليه بالغنائم الوفيرة وقد استمرت
أساطيله على الاعارة والصيل فى بجزر سفيدي مع العزم الزائد والقوة التامة حتى تمكن فى زمن قليل
من اكتساب شهرة فى البحار ووسع قموحانه فى الساحل الافريقى حتى امتد حكمه على الساحل زيادة
عن ٧٥٠ ميلا ثم حصن قلاع طرابلس فجعلها منيعه ولما هاجمها بعد ذلك الاسبانيول
بأساطيلهم (٩٦٦ هـ) لم يتمكنوا من نوال شىء بل انهزموا من امام طرابلس بالخيبة ولما أعلنت
السلطنة السنية الحرب على مالطة (٩٧٢ هـ) وساق دونمة المحاربتة أمرت طورغودباشا والى
طرابلس المذكور بالمساعدة فتوجه اليها بأسطول مركب من اثنتى عشرة سفينة صغيرة من
نوع النيشى ولكنه استشهد فى الواقعة ونقلت جثته الى طرابلس فدفنت فيها فى تربة مخصوصة وكان
طورغودباشا محبا للعمارة شيد بطرابلس أبنية فاخرة منها جامع والجام الصغير القريب منه
وأوقف أملاكا كثيرة

استبداد الكبرية بأحكام طرابلس - لمات طورغودباشا خلفه فى الولاية وال آخر

لكنه توفي بعد سنة ثم وجهت الولاية بعده الى جعفر بك وفي ولايته قامت طائفة
البيكرية الذين كان طور غوديا شاكل منهم قوة عسكرية لحماية البلاد وقبضوا على الاحكام
مستبدين بها واخذوا يظلمون وينهبون ويسخرون الاهالي ولما اشتد امرهم عادت الاضطرابات
القديمة الى الولاية فظهر في قصبه تاجورة رجل يدعى يحيى بن يحيى السويدي ودعا الناس الى
مساعدته للتخلص من ظلم البيكرية فعدا العموم عليه هذا نعمته واحوله فتمى امره واشتد ساعده
ثم قصد الاستيلاء على طرابلس فلما بلغ البيكرية امره تجمعوا وهاجوه فقوى عليهم وهزمهم
فارتدوا الى طرابلس مسرعين وتحصنوا بها وتبعهم يحيى بجموعه وحاصرهم وكادت المدينة تقع في
قبضته لولا ما حصل بينه وبين الشيخ نوير شيخ قبيلة الحامد من الاختلاف الذي انقلب الى ضغائن
فقرّبص الشيخ الى أن انتهر الفرصة في خصمه وقبض عليه وسلمه الى البيكرية فقتلوه وأرسلوا رأسه
الى الاستانة العلية وكانت فعله نوير هذا سببا في تعظيمهم له ولعائلته حتى إنهم أمروا بأنه متى
حضر نوير المذكور أو أحد من أولاده الى طرابلس تضرب له القلعة مدفعا ويخلع الوالي عليه خلعة
وبعد أن صفا الجو للبيكرية أطلقوا أيديهم في المظالم ثم انتخبوا من بينهم رجلا يدعى سليمان داي
وعينوه واليا على طرابلس وبلغت منهم الجراءة أنهم صاروا لا يخضعون للولاية الذين تعينهم الدولة
بالقرمانات بل صاروا في أغلب الاوقات ينتخبون الوالي بعرفتهم وكان سليمان داي المذكور رجلا
غدارا ظالما عذب أهالي تاجورة لقيامهم مع يحيى السابق ذكره فقصد بلادهم وخرّبها وصادرهم
في أموالهم وحيواناتهم فعرضوا عن ذلك سرا الى دار الخلافة فلم ترض سنة ١٠٢٣ هـ حتى
أرسلت الدولة سفينتين حربيين الى ميناء طرابلس بدعوى النظر في أمر الولاية كما هي العادة ثم ان
القبودان دعا سليمان داي المذكور الى ولاية ولما صار بالسفينة أمر به فقتل وصلب وعين
القبودان واليا آخر وأوصاه بالرأفة والعدل فسار بهم ما زما قليلا لأنه بعد عودة السفينتين عزله
البيكرية وعينوا بدله آخر من شيعتهم يدعى رمضان داي ولما علمت الدولة بذلك أرسلت واليا يدعى
محمد باشا الساقرلي فابقي رمضان داي في وظيفته مخافة الاضطراب وصار الاثنان يحكمان سوية
بالاتفاق ثم ان رمضان استعفى من تلقاء نفسه وترك الولاية لمشاطره الذي قام بها أحسن قيام الى
أن توفي بطرابلس وتعين بعده عثمان بك الساقرلي واليا بانتخاب العسكر فرجع عن الاهالي الاموال
التي كان فرضها عليهم سلفه ففرح الناس به ولذلك اتفق العساكر والاهالي وعرضوا عنه لدار
الخلافة فأقر له فرمان بالاقرار على الولاية ووجهت اليه رتبة الباشا واشترطت عليه الدولة الاهتمام
بتجديد القلاع والاكتراث من السفن لمحاربة الاعداء فبذل غاية الجهد في ذلك حتى ان دار الصناعة
بطرابلس أعدت للحرب بعد زمن قليل ٢٤ سنة وخرجت تغزو في البحار واغتنت غنائم كثيرة
ثم ان هذا الباشا نهرت نفسه بجمع الاموال فقبض على زمام تجارة البلاد حتى صار هو والتاجر
الوحيد في الحقيقة لا غيره وكان يتجرى كل الاصناف فقدم الاهالي من ذلك واتحدوا عليه فعزلوه
وقتلوه (١٠٨٣ هـ) وقد شيد عدة مباني عمومية كالمدراس والمساجد والحمامات والخانات
وأوقف عليها الاوقاف الكثيرة

وانتخب العسكر من بعده عثمان رئيس فلم ترض سيرته بعض العساكر فعزلوه ثم قتلوه بعد ذلك
وانتخبوا بدله بادي جاويز ولم تطل مدته فمات وانتخب بعده مصطفى البهلوان ثم عزل من الولاية

بعد ثلاثة أيام ونصب بدله ابراهيم داي ابن المصري وكان ديناً لا يخرج عن نواحي الشرع وأوامره مقدار شعرة البتة فلم يأخذ الناس بالسياسة الزمنية فلهذا خلعوه اليكبرية بدعوى عدم صلاحيته للحكم ولما بلغه خبر الاقرار على عزله فرأى الاسكندرية (١٠٨٧ هـ) وكان ساعداً للسياسة الانجليزية مدة حكمه واختار وابعده ابراهيم حلي الموردي ثم خلعوه ثالث يوم وعينو مكانه مصطفى قيودان فقبل منهم الولاية على شروط منها أن يكون مستقلاً بالحكم فقبلوا وبعدها سار في طريق الفلاح زمني اسيراً عاجلته منيته فانتخبوا بعده عثمان داي فبات بعد شهرين من ولايته وعينو وابعده محمد داي المشهور بتيهور ثم عزله وانتخبوا بعده بانفاق الآراء بأنه حسن بك من أمراء العسكرية (١٠٩٤ هـ) فأحسن السيرة وأحبه الناس ولهذا بقي في هذا العمل المضطرب والكرسى المرتجف ما يقرب من سنة ثم هجمت عليه فرقة عسكرية وعزله بلا سبب واختاروا بدله التريزي ابراهيم داي وفي أثناء ولايته وجهت الدولة من قبلها ولاية طرابلس الى وال يدعى خليل باشا على تمكن من تقرير قواعد السلم والسكينة بها ولما حضر وجد الامر يبدوا ابراهيم داي المذكور وان الاحوال صعبة مضطربة فاقام بطرابلس ولم يتدخل في امر ما خوف من بطش اليكبرية به ولما كانت الاحوال دائمة الاضطراب بطرابلس من أفعال العسكري وظلم الدايات كما علمت لم يلتفت أحد من العمال لاصلاح القلاع المتهدمة وانعاش القوة البحرية المحتضرة فلذلك اتخذت الاسباب ليول ذلك فرصة وطلب قنصلهم في طرابلس عقد معاهدة تجارية ودادية بين حكومتهم وطرابلس فعدوا معه معاهدة تحتوي على بندين البند الثاني منها يجيز له في حالة ما اذا تخاضع وطني مع اسبانيولي أن يكون الفصل في الخصام امام القنصل ولما علمت الدولة بذلك وانه مضر بنفوذها عزلت الوالي خليل باشا و ابراهيم داي معا وعينت على طرابلس واليا يدعى محمد باشا أتى من الاستانة وانتخب اليكبرية شخصاً منهم يدعى امام محمد داي فاتبع هذا الداي العدل وطريق الصلاح نوعاً لوقوف الوالي له بالمرصاد ثم سعى انوالى والد اى في فسخ المعاهدة المذكورة لاجحافها بحقوق الدولة ولما كمل القنصل في ذلك لم يقبل وحضر اسطول اسبانيولي الى طرابلس مركب من ١٥ سفينة معلنا الحرب فخافت اليكبرية في أول الامر وأرادت الزام الحكومة بالاقرار على المساعدة المذكورة ومنح أميرال الاسطول بعض الهدايا الا أن محمد باشا الوالي توقف وأزمهم بالمدافعة فأظهروا الاقدام وانهم زمام الاسطول من امام طرابلس ثم عاد بعد ان ضم اليه عشر مراب أخرى ثم أطلق نيرانه على القلاع وكانت في حالة سيئة فهدم بعضها وأسمر مركبين من مراب طرابلس ثم قبل الوالي والد اى رغباً أن تفهم تلك المعاهدة بعد ما حصل وأعقب ذلك عزل امام محمد داي وتعين مكانه قهوجى عثمان داي فلم يقبل أن يشاركه أحد في الحكم وتعب اليكبرية على الوالي المذكور فابعده عن طرابلس ولما كان عثمان داي غليظ الطبع جافى الاخلاق عزله اليكبرية بعد ثلاثة شهور من حكمه وانتخبوا بدله مصطفى داي الكيبيولى ثم قتلوه (١١١٤ هـ) وعينو وابعده بانفاق الآراء خليل بك صهر محمد باشا الوالي السابق فلما جلس أحضر نسيبه من منقاه ومن آثار محمد باشا سوقه المشهور بطرابلس بسوق الترك ونجبه جامعا عظيماً جليلاً وكانت وفاته سنة ١١١٨ هـ ودفن بترتبه المتصلة بالجامع المذكور وكان صالحاً متواضعاً ثم قامت بعض فتن ضد خليل بك الوالي بقصد خلعها لانه بصهره من منقاه ولكن حربه تغلب على العصاة فازداد نفوذه في الولاية التي اهتم باحوالها وأنشأ فيها دار ضرب

للقود وهو أول وال استعمل الملابس المزركشة في طرابلس وكان فاضلاً ثابت القول يحب العلماء ويميل إلى محادثتهم وقد أعاد شأن القوة البحرية المهمة بطرابلس وشيد كثير من السفن الحربية وبينما كان هذا الوالي يدأب في مشروعاته ظهر بين العساكر شخص يدعى إبراهيم أركر والتف عليه من على شاكلته من أهل الفساد حتى اضطر خليل بك إلى أن يهرب إلى مصر وقبض هذا الشخص على الولاية وأخذ ينتقم من حاشية سلفه بالقوة ثم تأمر وأعليه ونفوه إلى الاسكندرية وامتد حكمه خمس سنوات وذلك من النوادر الغربية في ذلك العصر وكان في تلك الاثناء اشهر رجل بين الكيصرية يقال له جن محمد بك استحوذ على تمام النفوذ بما كان له من المنزلة وعين للولاية رجلاً يقال له اسمعيل خوجه إمام جامع خروبة بطرابلس ليكون آتياً في يده ففرح هذا الاجام بهذا المنصب الذي لم يكن له بيال أصلاً وبعد شهرين من ولايته ظهر شخص يدعى بابي مويس محمود بك فقتل محمد بك المذكور وعزل اسمعيل خوجه ورد له وظيفة السابقة وجلس هو على كرسي الولاية واستمرت الاحوال على هذا المنوال إلى سنة ١١٢٠ حين ظهرت العائلة الالمانية المذكور

(الفصل الخامس)

عائلة القره مانلي واستبدادها بولاية طرابلس

(١١٢٣ - ١٢٥١ هـ)

لما استقل محمود بك المتقدم المذكور بولاية طرابلس سعى في ابعاد كل من يخافه من أمراء الكيصرية ليصفو له الجيوب لا معارض وكان من بين الامراء شخص يقال له أحمد بك القره مانلي قد انصف بالفطنة وحسن النظر وبعض النفوذ فلهدأ خافه الداي لانراه كقريب عليه فاجتهد في ابعاد هذا الرقيب ليستقل بالامر ولما كان أحمد بك المذكور محجوباً بالداي الناس لم يتجاسر الداي على قتله جهاراً فعمل لذلك حيلة ظن انها تعود عليه بما يشتهي وهي أنه أرسله في مأمورية بقضاء غير بيان وأعطاه مكنوياً يتخذه إلى عامل ذلك القضاء يأمره فيه بقتل أحمد بك بمجرد وصوله وبينما كان أحمد بك يسير قاصداً ذلك العامل حدثته نفسه ففتح المكنوب ووقف على ما فيه فرجع من ساعته وأطلع شيعته من الكيصرية على دخيلة الامر فهاجوا وماجوا وتعصبوا على الداي محمود بك وعزلوه بعد مضي خمس وعشرين يوماً من ولايته (١١٢٣ هـ) ونصب الجنود أحمد بك مكانه وهو رأس عائلة القره مانلي التي استقلت بالحكم في ولاية طرابلس مدة تزيد عن قرن من الزمان وقد اشتهرت هذه العائلة بالاعمال البحرية حتى ان الدول البحرية الاوروباية قامت لها بدفع جزية سنوية في مقابلة منع تعدى قرصانهم على سفنهم بالبحر المتوسط الابيض

ولما استقر أحمد بك هذا في ولاية طرابلس اجتمع في قطع ديار أصحاب الفساد المعارضين له وكتب الالهائي للدولة يطلبون منها تعيينه والبا عليهم والانعام عليه برتبة باشا وكتب الكيصرية يتظلمون منه ومن أعماله فأرسلت الدولة لاستطلاع حقيقة الخبر القبول ان أشجى محمد باشا

بالاساطيل ولما أراد القبودان تحقيق المهمة منع أحمد بك الناس من الذهاب اليه فراجع بخفي حنين (١١٢٥ هـ) ثم ان أحمد بك اهتم بتنظيم جيش من الاهالي وفتح بلاد فزان وقمع العصاة وكانت وفاته سنة ١١٥٨ هـ قال ابن غلبون وقد تلقب بهذا الوالي بأمير المؤمنين وقد استمر هذا اللقب لسلاسته من بعده حتى انقرضت من طرابلس

وقام بالامر من بعده ولده محمد باشا (١١٥٨ - ١١٦٧ هـ) فسار على سياسة والده وزاد في صناعة سفن القرصان وأكثر من المحاربات ومخرت سفنه في البحرية قوة وجسارته لم يسبق لها مثل فاكسبت طرابلس بذلك شهرة عظيمة حتى أوقعت الرعب في قلوب رجال السفن التجارية الأوروبية واضطرت الدول للسعي وقتئذ في عقد معاهدات مع طرابلس ودفع نفود سنوية لولاها لتأمن بذلك على تجارتها وأول من تقدم من الدول دولة انكلترة فعقدت مع محمد باشا المذكور معاهدة بدون استشارة الدولة العثمانية (١١٦٤ هـ) تحتوي على ثمانية وعشرين مادة من مقتضاها التصريح لسفن تجارة انكلترة بمعاونة التجارة في مين طرابلس وعلى كل سفينة انكليزية ان تظهر ورقة पासبور عندما تقابل سفن طرابلس والترخيص للقفص الانكليزي بالتوجه لاي فرضة من فرض طرابلس متى أرادوا اذا حاربت انكلترة قرصان الجزائر وتونس لاتساعدهم سفن طرابلس ولا تعرض لسفائن انكلترة وما يماثل ذلك من الشروط وكانت وفاة محمد باشا سنة ١١٦٧ هـ

وقام بالامر من بعده ولده علي باشا بالاستقلال (١١٦٧ - ١٢٠٧ هـ) وأكثر هو أيضا من بناء السفن القرصانية والغزو في البحار فانها تولى عليه الغنائم الكثيرة ولهذا زادت له الدول الأوروبية المرتبات وصرح لقناصلهم بالاقامة في مدينة طرابلس وقد صدق أيضا على معاهدة انكلترة المتقدمة بتمامها بدون ان يخبر في ذلك الدولة العلية صاحبة السيادة وعقد أيضا مع جمهورية البنادقة (١١٧٠ هـ) معاهدة تحتوي على ٢٣ مادة منها ابطال الحرب بين الطرفين واعادة الصلات كما كانت ومنع تعدى سفن قرصان طرابلس على سفن الجمهورية ومبادلة التجارة وتأيد المحبة ولكن بعد قليل تعدى أحد ضباط بحرية طرابلس ودخل مينازارا (١) التابعة للجمهورية المذكورة وعاش فيها اثار بوه وغلبوه وأسروا رجال سفنه ولما وصل الخبر الى طرابلس مال اليك بحرية للصلح وعقدت معاهدة ثانية كانت تحتوي على تسع مواد من ضمنها تأييد الشروط السابقة ولتقدم هذا الذي في السن أهمل أمورا للحكومة ولم يلتفت الى المنظمات العسكرية والقوة البحرية وقد طلبت دولة روسيا منه (١١٨٢ هـ) شراء الجزيرة التي في خليج عبا فقاومهم في ذلك الباب العالي ودولة فرنسا ثم قامت في طرابلس بعض فتن وثورات داخلية سعى أثناءها ولده المدعو يوسف بك في نوال ولاية العهد بعهد أبيه فغضب عليه اخوه الأكبر حسن بك ووالده ثم قتل حسن بك المذكور وقطعت يد والدته فتوسطت كبار الامة في الامر وطلبوا من علي باشا الاقرار بولاية العهد لابنه يوسف بك فلم يقبل وقال ان الاحق بهم أحمد بك فثار حزب يوسف بك وفي خلال ذلك أصدر السلطان فرمانا بتقليد علي باشا الجزائرية ولاية طرابلس فتوجه اليها بدون نعمة مرسلة من تسع سفائن وفاوض اليها (١٢٠٧ هـ) وأعلن ولايته ودخل يوسف بك القلعة مع اتباعه

(١) زاواة نقرصين تابع للدولة التماس من بلاد الداماسيا واقع على بحر الاديانك وبه يقيم قسم من الجيش التماسوي وهو أيضا قاعدة بلاد الداماسيا بالقرب منه جزائر كثيرة وكان قديما تابع للجمهورية البنادقة

وأراد المقاومة فائتلتنا انتصر على هذه السفن القليلة وندافع عن حقوقنا فقال له والده ان محاربة هذه السفن خروج على السلطان واذا فرض وانتصرنا فالدولة العلية أقوى ولا شك انها ترسل علينا عمارة أكبر من هذه بعشر مرات فرضي لذلك يوسف بك ومن معه من البيكيرية وأذعنوا الامر للدولة وسلموا زمام الولاية لعلى باشا المذكور وخرج أحمد باشا مع ولديه يوسف بك وأحمد بك مع عائلاتهم وقصدوا تونس فقابلهم واليهما جوده باشا بالاعزاز ورتب لهم المعاش الكافي

ولما قبض على باشا المذكور على ولاية طرابلس (١٢٠٧ - ١٢٠٩ هـ) تمكن بحسن سياسته من اصلاح الاحوال في طرابلس فاطاعه عوام الاله الى ما عدا قبيلة تونير الموالية لطائفة البيكيرية ثم بعد ذلك أخذت عائلة القره مانلى تدس الدسائس لعلى باشا وتبحث له على ما يربك أعماله ويعرقل مساعيه لتمتكن من القبض على زمام طرابلس ثانية فالتفت عليه جماعة من شيعتهم حسنوا له الاستيلاء على جزيرة جربة بدعوى انها كانت لطرابلس كانت لها كالهري للاقوات والموارد للزواد وقد أخذها التونسيون باهمال عمال طرابلس فجهز عليها على باشا سفن وقوة عسكرية فاستردها بغاية السهولة وعلى غرة من حاميتها أما جوده باشا والى تونس فانه غضب من ذلك جدا وأضمر السوء لعلى باشا ثم تشاور بذلك مع على باشا القره مانلى وأولاده أحمد بك ويوسف بك وأطلعهم على نيته ثم جهزهم بما يلزم من الجنود والسفن وأرسلهم فاعادوا جزيرة جربة لحكمه ثم ساق الجيوش على طرابلس وأخذ يستميل سكانها بالرغبة والرغبة حتى استولى عليها وأخرج منها على باشا بعد ان حكم ثمانية شهور وأجاس يوسف بك القره مانلى على كرسي ولايتها (١٢٠٩ هـ) وكتب عن لسان أعيان طرابلس وأهلها محاضرا أظهر فيه ارغبتهم في إعادة الولاية المذكورة لعائلة القره مانلى وأرسل تلك المحاضر الى دار الخليفة العثمانية فقبل السلطان طلبهم وأصدر فرمانا (١٢١٠ هـ) باقرار يوسف بك على طرابلس وأنعم عليه بالفرمان والتشريف ورتبه باشا

ولما جلس يوسف بك على كرسي الولاية (١٢١٠ - ١٢٥١ هـ) اهتم في إعادة الصلات القديمة بينه وبين دولة انكلترة وأقر لقتلها على المماهدة القديمة (١٢١٣ هـ) ثم تمكن في زمن قليل بما غنمه من الاموال في محارباته الاخيرة من تجهيز فرقاطة وأربعة عشر مركبا وأخرجها تغزو في البحار ثم تعود له سنويا بالغنائم الوافرة والتفت الى تنظيم احوال الولاية بحسب اغراضه وانفق ان أسطول طرابلس صادف سفننا الدولة السويدية فخار بها واستولى منها على سبع سفن فتوسط الجنرال بونا بارت وهو في القطر المصري ونخلص الاسرى وترك السفن ليوسف باشا وأعاد لطرابلس المبلغ الذي كان مرتبها من حكومة السويد فعدت علاقات المودة بينهما كما كانت وفي تلك الاثناء أتى أسطول أميريكاني من الولايات المتحدة ومن ضمن قوادس شارلس ستيوارت الشهير وهدد طرابلس بعد ان استولى على مدينة درنة ليجعلها مستعمرة ولما رأى الامر يكاتبون انه لا يمكنهم الاقامة بتلك المدينة تركوها وعقد أميرال الاسطول المذكور مع يوسف باشا معاهدة تحتمى على عشرين مادة منها منع التعدي على سفن الولايات المتحدة الاميريكانية واطلاق الاسرى واستمرار سيرة التجارة (١٢٢٠ هـ - ١٨٠٥ م)

ولما كانت أعمال القرصان في الوقت المذكور موجبة لجلل طرابلس في حرب دائمي مع الممالك

الاوروپا وبوقع الخلاف بينها وبين جمهورية طوس سكاثة ثم تمكن يوسف باشا من اعادة الصلات
بمعاهدة عقدتها مع الجمهورية المذكورة (١٨٢٦ م - ١٢٣٦ هـ) تحتوى على اثني عشر بنداً
وبعد ذلك لما تعرضت سفن طرابلس لمرء كبردانية أرسلت هذه سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م)
أسطولاً من بكمين ست سفن وأجتمعت أميراله في مداركة الامر مع حكومة طرابلس بالمحبة فلم ينجح
فأطلق النيران على القلاع وأحرق سفينتين في المناء ثم انتهى الامر بالصلح بشرط أرضت الطرفين
ثم وقعت مقاتلات ما بين سفن طرابلس وسفن ملكة نابولى فتوسط الموسيو وادنجتون فنصل
انكثرة في طرابلس اذ ذلك في المسئلة حتى أتمها بالمعاهدة التي عقدت بين يوسف باشا وملكه نابولى
(١٢٤٢ هـ - ١٨٢٧ م) ثم ان يوسف باشا اقترض مبلغاً من تجار فرنسا المقيمين ببلاد ليصرفه
على بعض أعماله وقد نشأ عن هذه السلفة فيما بعد نفور بين طرابلس وتبعية فرنسا أدى الى ان يقطع
قنصله العلائق ويبسرح طرابلس ثم أمى أسطول فرنسا سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م)
مر كبر من سبع سفن حربية تحت قيادة الاميرال روداميل الذي لى وصوله أرسل بلاغاً الى
يوسف باشا يطلب منه فيه الجواب في ظرف ٤٨ ساعة فانتم يوسف باشا بقدم معاهدة مع الاميرال
المذكور تتألف من أحد عشر بنداً نالت بها فرنسا ما لا عظيم من طرابلس وأطلقت أسراها
ومنعت تعدي قرصان طرابلس على سفنها التجارية ثم ان يوسف باشا غضب الالهالى بارتكابها
مالا يحمد فقام عليه بعض القبائل والالهالى ثم استعفى وولى مكانه ولده على بك ولما كانت الالهالى
لا تميل اليه أيضاً جاهره وبالعضيان وتبعهم في ذلك قسم من الجنود ونادوا بمحمد بك حفيد الباشا واليا
عليهم وبينما كانت المدافع تطلق من داخل القلعة معلنة بتولية على بك كان الجنود يطلعونهم من
خارجها فمحمد بك فعند ذلك كتب يوسف باشا الى القبودان خليفه لرفعته باشا بتضرع له في التوسط
للحصول على فرمان سلطاني ليلقى على الولاية حتى ترتفع الثورات القائمة ضده ولما لم ينل مقاصده
حاصره الالهالى في القلعة وكانت تأتيه الذخائر الحربية والاقوات من خزيرة ما لطة بواسطة فنصل
انكثرة المعضله ولما استمر القتال بين على باشا ومحمد بك انتمت الدولة ان ترسل في أوائل سنة
١٢٥١ هـ عمارة من كسبة من ٢٢ سفينة حربية فيها الفريق مصطفى نجيب باشا ولما وصلت هذه
الدونمة الى طرابلس أطلقت المدافع للسلام فجاء بها القلاع ثم نزل على باشا القره مانلى مع بعض
الاعيان لمقابلة القائد المذكور الذي تلقاهم بالترحاب الزائد وأظهر في خلال حديثه ان حضوره
هو لاصلاح بين الطرفين المتناظرين وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر محرم أخرج من المراكب
سنة آلاف عدكري نظامي بمدافعهم ومهماتهم الطريسة وأسكنهم بخانات المدينة ثم بعد ذلك
بيومين فرقهم على القلاع وأعلن انه لا يجوز لاحد ما ان يمشى بالسلاح بخلاف العساكر وأن امر
المحافظة على القلاع قد أحيى على عهد العساكر النظامية فلان يوم لبقاء الالهالى بها وحصل
كل ذلك ولم يخرج مصطفى نجيب باشا الى البر مطلقاً بل كان يصدر الاوامر وهو على ظهر سفينته
ثم أخرج أحد أعوانه المدعو محمد شاكرا فدى جمع المفتي والعلماء والاعيان وأعلمهم انه تعين من
قبيل السلطنة السنة والبا على طرابلس ثم فتح أبواب القلعة وكانت مغلقة من مدة طويلة
فهو سأت الاحوال وسكنت النائرة وتخلصت طرابلس من عائلة القره مانلى ثم تعين محمد رائف باشا
محافظة على طرابلس وفي سنة ١٢٥٢ هـ تعين القبودان جنكلى أوغلى طاهر باشا قائداً عاماً

اعساكرها أتي اليها باسطول مؤلف من اثنتي عشرة سفينة به كثير من الذخائر الحربية ثم أحيلت عليه بعد ذلك ولايتها وكان الاضطراب لا يزال ببعض جهاتها ثم من بعده تعين عليها سنة ١٢٥٣ هـ چشمه لي حسن باشا فأخذ في تسكين الاحوال وكان شديد الشكينة ولذلك فرح الاهالي فيه لما عزل وتعين المشير علي باشا (١٢٥٤ هـ) وقد اجتهد في اصلاحها وجعل الادارة فيها تشبه ادارة سائر الولايات العثمانية ومن وقتئذ صارت الدولة تعين الولاة لهذه الولاية من الاستانة رأسا وأرسلت القوة الكافية لحمايتها وجعلت لها حرسا أهليا و بنت بها القلاع والحصون والشكنات حتى صيرت ميناها وبعض الجهات المستحكمة فيها ذات قوة ومناعة وشيدت في ميناها بعض عمارات واعتمدت في اصلاح دارصناعتها وبطل عمل القرصان منها بالمرة ولمارات الدولة العثمانية أن بعض الدول الاوروپاوية وخصوصا إيطاليا تنتهز الفرص للتعرض لطرابلس أصدرت الاوامر لولايتها بالتيقظ وتقوية حصونها وزادت في حمايتها وحامية البلاد التابعة لها وشحنتها بالعدد والعدد وقد اهتمت أيضا بقرضه طرابلس حتى جعلتها في حالة جيدة صالحة لمرسى السفن الكبيرة

﴿ الباب الرابع عشر ﴾

تاريخ الدولة العلمية العثمانية

﴿ الفصل الاول ﴾

جغرافيتها الطبيعية

اعلم ان أراضي هذه الدولة تمتد باوروپا وآسيا وأفريقية وأهمها ما كان من بابا نسيا لاسباب كثيرة ويحتوي كل قسم من الأقسام المذكورة على أراض واسعة مخصصة وأقاليم شاسعة عامرة وصحار قاحلة مجذبة وغير ذلك ويحيط بها بحار كثيرة وهي البحر الاسود وبحر مرمرة وبحر الارخبيل والبحر المتوسط الابيض والبحر الاحمر والبحر المحيط الهندي وبحر الفرس ولذلك كانت هذه الدولة بكثرة بحورها وخليجانها من أكثر دول البحار ثغورا وأجوانا ورافى وفرضا وفيها كثير من الانهار الصالحة لسير السفن والبحيرات ما سئذ كره في مواضعه

الدولة العثمانية بأوروبا - تحدها أراضي الدولة العثمانية باوروپا بشمالا بنهر الدانوب الفاصل لها عن مملكة رومانية وبلاد السرب وبدوالة النمسا والمجر ومن الغرب بالبحل الاسود وبحر الادرياتيك وخليج أوترانت وبحر اليونان وجنوبا بمملكة اليونان وبحر الارخبيل ومضيق غيلبولي أو الدردنيل وبحر مرمرة ومضيق البوسفور وشرقا بالبحر الاسود غير داخل في ذلك بلاد بوسنة وهرسك التي احتلتها سادولة النمسا بقرار مؤتمر برلين وتتبعها في أوروبا بجزيرة كريد و طاشيوز وممرتراكى وأمبير ووليمنى أوليمنوس وتينيدوس السمماة بونجهاط وغيرها

وتمتد بها على موازاة بحر الادرياتيك استطالة جبال الالب الدينارية وسلاسل جبال اليونان التي تتصل معها بواسطة هضبة جارتاغ وارتفاعها (٢٥٠٠ متر) وجبال البلقان الممتدة على

موازة ببحر الارخبيل والتي يفصل منها جبل ررودوب أو ديسموتوطاغ وجبال استراتجه ويتخلل هذه الجبال وديان في غاية الخصوبة وسهول منبئة ومرراع نضرة وغابات واسعة جميلة وينحدر من جارتاغ والبلقان جنوباً نهار تصب في الارخبيل وهي مرتسا المسمى قديماً هير وطوله ٢٥ ميلاً واستروما ووردار المسمى قديماً كسيوس ومصصبه في جون سلانيك وطوله ٢٠٠ ميل وشمالاً نهيرات تصب في نهر الدانوب الذي يفصل السرب والبلغارور ورومانية عن بعضها أما الانهار التي تصب ببحر الادرياتيك فليست الأودية تسيل زمن الامطار وأشهر هادرينو وهو قسيمان درينو الالباني ودرينو الاسود ويصبان في بحر الادرياتيك ويونسوا وغالبها صالح للملاحة ويسير بها بعض السفائن الصغيرة واعلم أن البلاد التابعة للدولة العثمانية بأوروبا كان بها قديماً بلاد تراس ومقدونيا وبليريا وأيبير ومعالم ما وصلت اليه بلاد مقدونيا وياوطن فيلب واسكندر الاكبر من الشهرة والقوة وما كان لها من النفوذ في بلاد الاغريق والشرق وقد أخضع الرومان هذه الجهات الواسعة في ابتداء القرن الثاني تقريباً قبل الميلاد وبعد سقوط الدولة الرومانية الغربية حفظت الدولة الشرقية هذه البلاد إلى ان أعاد العثمانيون عليها واترعوها منهم

ويبلغ مسطح البلاد التابعة رأساً للدولة العثمانية بأوروبا نحو ١٦٠,٠٠٠ كيلومتر مربع وبها من السكان نحو ٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ومناخ هذه البلاد معتدل على سواحل البحر شديد البرودة بالجهات المرتفعة وبجميع حوض نهر الدانوب المتسلطة عليه رياح الشمال ومن المحاصيل النباتية بهذه البلاد الحنطة والذرة والشوفان وتزرع ببلاد البلغار وبوسنه ومقدونيا كلها تزيد عن حاجة السكان وتنتج بجميع ولاياتها كل أنواع الخضراوات المعروفة وينمو الارز على شواطئ نهر مرتسا والبطاطس في بلاد البلغار وبوسنه وهرسك وتستخرج الانبذة الجيدة من كريد واپير وجميع جزائر الارخبيل ويزرع على شواطئ الارخبيل الثمار المعروفة كالبرتقال والليمون والتين وغيرها وكذا الازهار أخصها الورد أما التبغ فيزرع في كل مكان وشهرته تغني عن وصفه ومن مزرعاتها الكثيرة أيضاً الزيتون والسهم وجبال البلقان والبانيا وبوسنه مغطاة بالغابات الواسعة التي من أشجارها البلوط والدردار والجميز واللب ومن نباتاتها أيضاً الكان والقطن والزعفران وهي آخذة في الاتساع والانتشار ويكثر بها الضأن والماعز جداً الكثرة المراعى أمام عا دنها فكثيرة أيضاً وان كانت مهملة فيوجد النخيل في بلاد الروملي ويوجد الحديد والنحاس بكثرة بجبال البلقان وبها أنواع كثيرة من الرخام والاحجار الجيدة التي تصدر إلى الخارج

المملكة العثمانية بآسيا - تشمل المملكة العثمانية بآسيا على عدة أقسام عظيمة وهي آسيا الصغرى أو بلاد الاناضول وبلاد كردستان والجزيرة المسماة قديماً ميزوپوتاميه وسورية وقسم عظيم من جزيرة العرب (١) وهي تحدها شمالاً بالبحر الاسود وبحر مرتسا وقسم من بلاد كردستان الروسية وشرقاً بكرجستان أيضاً ومملكة العجم ومن الجنوب بالخليج الفارسي وبلاد العرب وغرباً بالبحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط وبحر الارخبيل وضيق الدردنيل وهي واقعة

(١) ان بلاد العرب وان كانت بعدد من أملاك الدولة العثمانية إلا أننا نأفرد لها بالخاصة اهمية ذلك بالنسبة لتاريخها ولهذا ذكرنا جغرافية المملكة العثمانية بآسيا مجردة عن بلاد العرب

في القسم الغربي من قارة آسيا ويبلغ طولها من بحر مرمر الى خليج البصرة ٢٢٠٠ كيلومتر
ومسطحها ١,٢٥٠,٠٠٠ كيلومتر مربع وسواحل هذه البلاد كثيرة الانحناءات والتعرجات
والتلسنات حتى يحصل منها عدة خلجان وفرض منها خليج أزميزد وكلميك بحر مرمر او خليج
ادرميد و أزميزد ومن داليا واستانكوى ببحر الارخبيل وخليج انطاليه واسكندرونه بالبحر
الابيض والشواطئ المذكورة جبلية على العموم تقر بيابها كثير من الفرض والمرافئ الصالحة
لحماية السفن الآن الرياح الهابة من الشمال الغربي المتسلطة عليها تجعل البحر الاسود كثير
الاضطرابات والتويمات على الدوام تقريبا وكذا تكون الملاحة محفوفة بالاحطار بالبحر الابيض
المتوسط لهبوب الرياح المخيفة به كالبورات المعتاد حده ونها حول جزائر الارخبيل وقد كانت
السفن منذ الازمنة القديمة وفي مدة العصر الوسطى تتردد كثيرا على غور طرازون وسمون
وسينوب وغيرها من غور البحر الاسود وقد كانت سواحل كايكيا جنوبا لمجا السفن القرصان الذين
كانوا يلتجئون الى خليجي اضالية واسكندرونه وبذلك تمكنوا من عرقلة مساعي الملاحة زمانا طويلا
بالبحر المتوسط الابيض وأكثر سواحل آسيا العثمانية تلسنا سواحل بحر الارخبيل فيوجد بها
خلجان طويلة داخله في القارة تحميها منطقة من الجزائر أو شبه الجزيرة فتحفظها من تسلط الرياح
مثل خليج أدريميد الذي تحفظه جزيرة مدليلي وخليج أزميزد الغريب الذي يحميها من الجنوب والغرب
شبه جزيرة چشمه وخليج اسكالونفا الذي يسده من الجنوب جزيرة ساموس وخليج مندياليا وخليج
كوس وسيمي وهما مستطيلان ضيقان بهيئة غربية عجيبة ولذلك فقد كانت هذه الخلجان في الازمنة
السابقة تحوى عدة مدن نالت بالتجارة البحرية ثروة عظيمة مثل ترواده وفوسيا و أزميزد وأنسوس
وميليت وهالكيرناس وكينيد وغيرها ما في هذه الايام فقد تحولت كل هذه المتاجر الى مدينة أزميزد
التي بلغت من الفوز والنجاح والثروة درجة لم تلها أصلا

وبلاد آسيا الصغرى عبارة عن نجد عظيم تكثر به آبار البراكين خصوصا في الجهات الواقعة
على ساحل البحر المتوسط الابيض أي بالاقليم التي كان يسميها القدماء فرجيا المحترقة ولها ذاترى
بها الطففات والمقذوفات البركانية وتكثر بها الزلازل وينتقل عن الهضبة العظيمة الشهيرة المسماة
ارارات الواقعة على حدود بلاد العجم ثلاث سلاسل جبلية عظيمة منها سلسلة جبال ايران وتجه
الى الجنوب وسلسلة جبال طوروس وتمتد الى الجنوب الغربي وسلسلة طوروس الشرقية وتمتد الى
الشمال الغربي على موازاة سلسلة طوروس الاخرى وقد اشتهر عند العموم ان سفينة سيدنا نوح
عليه السلام وقفت بعد الطوفان على جبل ارارات المسمى أيضا بكرى طاغ وتمتد سلسلة طوروس
الشرقية على موازاة ساحل البحر الاسود ويتفرع منها بعض جبال تصل الى بحر مرمر ومن أشهر
قم هذه السلسلة قمة كوله ويلديز وهما شرقى مدينة طوقات وبلغار طاغ والاطاغ وهما باقرب
من قسطموني وجبل كيش ورومانج وهما باقرب من بروسة ومراد طاغ المتصل بقاز طاغ وهما
على موازاة سواحل بحر الارخبيل الرومى وبعد انفصال جبال طوروس المسماة أيضا بجبال قوزان
من هضبة ارارات يتكون عند خليج اسكندرونه بالجهة المسماة قوزان نصف دائرة تمتد شعبها
الى سواحل بحر الجزائر وأشهر قم هذه السلسلة هي بشكول طاغ وجمعها طاغ وأرجيش طاغ وبه أرفع
قطة بين جبال آسيا العثمانية حيث تبلغ ٤٠٠٠ متر وهو بالقرب من قيصريه وينتقل من

جبال قوزان سلسلة جبال أخرى تمتد على موازاة الساحل الشرقي من خليج اسكندرونه وتمتد إلى بلاد سورييا حيث تنفصل إلى سلسلتين شرقية وغربية تسمى هناك بجبال لبنان وتمتد بسوريا وفلسطين والقسم الأعظم من هذه الجبال مغطى بالغابات العظيمة والمرعى النضرة والحقول الخصبة وبعضها تغطيه الثلوج طول السنة ولما كانت جبال آسيا العثمانية على هذا الوضع المتقدم انقسمت إلى أربعة منحدرات أو سطوح مائلة وهي منحدر البحر الأسود وبحر مرمرة ومنحدر بحر الجزائر والبحر المتوسط الأبيض ومنحدر الخليج الفارسي ورابعها المنحدر الداخلي ولا أهمية له

أما الأنهار التي تروى منحدر البحر الأسود ونصب فيه فهي يشيل ايرمق ويسمى قديماً ايريس وقرن ايرمق ويسمى قديماً هاليس وسقار ياوفا لياس ونهر صوزورلى وهو يصب في بحر مرمرة ويجارى هذه الأنهار متعرجة تحفها نخور وهي سر بعة الجريان وفي زمن فيضانها تنسع مجاريها وتكثر مياهها بخلافها طول السنة وهذه الأنهار تجلب معها كميات عظيمة من الرمال التي تلقىها عند مصباتها وتحدث منها دلتات وبذلك أصبحت غير صالحة للملاحة ومن أشهر الأنهار بعد نهر قرن ايرمق بآسيا العثمانية نهر دليجه ودوره وكوك وكها تصب في البحر المذكور قرب بلدة باقره بعد ان تعظم ويصب بنهر صوزورلى المذكور نهر أدريناس ونيانوف الذى يأتي من جهات بروسه ثم نهر جوروك صواواقع على الحدود الشرقية وقد اشتهر في المحاربات الروسية

وأما الأنهار التي تصب ببحر الجزائر فمن أهمها نهر باقر وصارابات أوكدوس ومندرس الصغير وعند مصبه أطلال مدينة أفسوس القديمة ومندرس الكبير ويصب في البحر الأبيض المتوسط نهر سيدنوس المسمى سلافكو وسيمان وجيمان والعاصى المسمى أورونت قديماً

أما الأنهار التي تصب بالخليج الفارسي أو خليج البصرة فهي شط العرب المتكون من نهري الدجلة والفرات بعد ما يلتقيان عند بلدة قورنة ويتألف نهر الفرات من نهر قره صوم و مرادجاي وينبع قره صوم من جبال دوه بونى الكائن بالشمال الشرقي من أرض روم وينبع مرادجاي من جبال دباين القريبة من بحيرة وان ثم يجتمع هذان النهران قرب المكان المدعوكيان معدنى ويكوئان نهر واحد ينحدر نحو الجنوب باسم الفرات ويجرى هذا النهر جبلى في أعلاه منبسط عند أسفله وليست الملاحة متقدمة في هذا النهر لكثرة ما يوجد على ساحليه من الدواليب المسماة بالناعورات التي يستعملها الأهالى لارواة أراضيهم وغير ذلك أما دجلة فإنه يتكون أيضاً من عدة أنهار جنوبى بحيرة وان وبعد أن يخترق عدة نخور وجبال ينحدر إلى الجنوب ويصب فيه نهر الزاب الكبير وللأعراب بهذا النهر عدة مصالات أو كلاك يتقلون عليها المتاجر وهذه الكلاك وان كانت تذهب من الموصل إلى بغداد زمن الفيضان في مدة ثلاثة أو أربعة أيام إلا أنهم لا يقطعون هذه المسافة مدة التحريق الا في نحو العشرين يوماً

وتكثر البحيرات أيضاً في بلاد آسيا العثمانية ومن أشهرها بحيرة وان وهي أكبرها يبلغ طولها ١٣٠ كيلومتراً وماؤها مكثر الاملاح وبحر لوط أو البحر الميت وهو ببلاد سوريا وطوله نحو ١٠٠ كيلومتر وماؤه شديد المرارة والمالحة أ كئف من ماء البحر وهو منخفض عن البحر المتوسط الأبيض بنحو ٤٣٠ كيلومتراً بحيث لو حفرت بينهما ترعة لسال الماء

فيها بقوة عظيمة وبجميرة طيبرية وبحيرات طوز كول ويكنشهر وا كردير وآقشهر وميناس
 وأزنيك وصبا نجه ويستخرج الملح من غالبها وهذه البحيرات الاخيرة بجهات الاناضول وغالب هذه
 البحيرات يجف في بعض أيام السنة ويصب ببعضها وديان تتحد راليها من الجبال المجاورة لها

أما مناخ هذه البلاد فيختلف بحسب المواقع فانه في الهضبة الداخلية غيره في الجهات المنخفضة
 الممتدة على ساحل البحر فهو في الهضبة بارد جاف لانه بار تفاعه معرض للرياح الباردة الاتية من
 القطب الشمالي التي لا يمنعها مانع سهول بلاد الروسية وشتاؤه طويل قارس بخلاف صيده فانه
 شديدا لحرارة ويشبه على العموم مناخ جميع جهات آسيا المرتفعة مع فرق قليل وجميع هذه الاراضي
 المرتفعة تنقصها الرطوبة وتأتيها من جميع الجهات سحب حاملة للامطار تسوقها الرياح فتصدها
 أطراف جبال هذا التجرد أو أنها تبتدب بسبب حرارة الارض والجو بحيث انه في بعض الجهات
 الداخلية تمر الشهور ولا يظهر في السماء أثر للسحب أما الجهات الساطية فتناحها أكثر اعتدالا
 بسبب مجاورتها للبحر الذي يلطف البرودة والحرارة ويوجد في البلاد رطوبة كافية بما يتكون
 عنه من السحب ولذلك فتخدر البحر الاسود كثيرا لامطار الآن أعظم منطقة ساحلية تتمتع بحسن
 الهواء واعتدال المناخ هي بلاد كليكا القديمة القائمة على أراضيها الآن ولاية أطنه وما جاورها
 من البلاد شرقا وغربا وذلك لتعرضها للجهات الجنوبية وكونها مصنوعة من رياح الشمال بوجود
 جبال طور روس التي تكون لها كالسور وتنعكس فيها الحرارة الشمسية ومتوسط درجة برودتها
 شتاء + ١٤ ومتوسط حرارة صيفها + ٢٩ درجة ومن هذه الاختلافات الارضية والمناخية
 والمائية كانت قابلية النبات في هذه البلاد مختلفة أيضا أي انها في الاراضي العالية غيره في
 المناطق المنخفضة الساحلية فالهضبة الوسطى جبلية باردة في الشتاء كثيرة التربة في الصيف دائمة
 الجفاف بحيث تشبه سهول بلاد آسيا قبلا يوجد بها الا النباتات الضعيفة والمرعى الضئيلة
 التي تخرج بها الخيول والبغال ولا يرى بها من النباتات الناضرة الا بالاماكن المصونة من الرياح
 ويوجد بها أيضا على مسافات متباعدة كثير من الغابات والاشجار المختلفة

أما السواحل والجزائر فتختلف عن ذلك كثيرا لوفرة النبات والاشجار بها وكثرة المياه فمن نباتاتها
 الارز والقطن والتبغ وعلى سفوح الجبال بها بساين جميلة نضرة وخمائل لطيفة تغطي تلك
 السفوح ويكثر بها أيضا الخضراوات والكر وم والثمار اللذيذة التي تنقل منها الى كثير من الجهات
 حتى ان جميع ثمار أوروبا كالتفاح والخوخ والبرقوق وغيرها نقلها وكولس من شواطئ البحر
 الاسود اليها وتكثر بها أيضا النباتات والثمار كالبرتقال والزيتون والليمون والمان والتوت الذي
 يغذى دود القز والكرم المشهور ويزيد سكان تركيا آسيا عن ١٧,٠٠٠,٠٠٠ نفس وهم
 من أجناس مختلفة غالبهم من الاتراك العثمانيين والعرب والاكراد والاغريق والارمن وبينهم
 كثير من اليهود وغيرهم من الطوائف والنحل الاخرى العديدة وبهذه البلاد معادن كثيرة
 منها معادن النحاس بقرب توقات وقونية وكوشخانه وهناك أيضا معدن فضة ويستخرجون منه قدرا
 قليلا وفي كل الجبال المجاورة لنهر القرات والبحر الاسود دلائل على وجود النحاس فيها ويقرب مدينة
 عرب كير على القرات معادن فضة وذهب غنية وهناك أيضا معادن الحديد يصنع الاهالي منه

فولذا وقد وجد في الايام الاخيرة الزنجفر بالاناضول وكذا الذهب والبلور أما أنواع المرمر والرخام فكثيرة الآن من هذه المعادن ما قد فرغ في هذه الايام ومنها ما لا يستغل لعدم اعتناء الحكومة والاهالي وقد وجد قديما بحجر المغناطيس ببلاد ليديا وتنسب اليه الآن مدينة مغنيسيا ومن حيوانات آسيا الصغرى الخيل والبقر والغنم والمعز وفي نواحي مدينة انقره نوع من المهرى شعره طويل يشبه الحرير في الدقة والروث يصنع منه شالات تعادل شالات كشمير وهناك أيضا نوع من الغنم حسن الصوف جدا يجزم مرتين في السنة ونوع من الهر كبير الجثة ناعم الشعر لطيف المنظر وفي جبالها كثير من الحيوانات والطيور البرية

(الفصل الثاني)

الثغور البحرية في الدولة العلية العثمانية

لهذه الدولة على سواحل جميع البحار المهمة التي تحيط بها عدة ثغور ومرافق مهمة كثيرا أو قليلا رأينا من المناسب ترتيبها على الوجه الآتي

ثغور البحر الاسود - ان أعظم ثغور الدولة العثمانية البحرية وأهمها وأشهرها ثغور الاستانة وأدارا السعادة أو استامبول أو اسلامبول أو القسطنطينية وتسمى في بعض كتب العرب فزوق ولها فرضة عظيمة من أحسن الفرض بالعالم واقعة عند مدخل الخليج المسمى بخلج أبي أيوب الانصاري والمسمى عند الفريج كورن دورأي قرن الذهب وطوله ٦٨٠٠ متر وأصغر عرض له ١٦٠٠ متر ويسع أكثر من ألف سفينة وتدخل به أعظم السفن الحربية وعلى ساحل هذا الخليج عدة مبان وقرى متصلة بالاستانة معدودة منها ومن أشهرها قرية القنار وكانت قديما مسكنا للسفراء ويسكنها الآن طائفة الروم وبلدة بلاط وكل سكانها يهود تفريرا ووجهة سيدي أبي أيوب الانصاري وله بها مسجد عظيم مبجل عند أهالي الاستانة تحصل فيه بعض الرسوم عند ما يتولى السلطنة سلطان جديد وكلها على الساحل الايسر من الخليج المذكور وبساحله الايمن قرية خاصكوى ويسكنها أرمن ويهود ووجهة قاسم باشا وهي انظار البحرية والسجون وتمتد على شاطئها ادارا الصناعة العثمانية ومعاملها ومصانعها وأحواضها وكل ما يلزم لتشييد السفن الحربية وغيرها وهذه الفرضة من أحسن فرض العالم كما تقدم لوقوعها في مكان محفوظ من هيجان البحر في جميع فصول السنة ولا شتم لها على عمق كاف من المياه التي تحمل أشخم السفن ومن أحياء الاستانة أيضا غلطة وهي بسفح تلة ويحيط بها سور محيطه ستة كيلومترات أسسه الجنوزيون الذين كانوا يقيمون بها قبل الفتح العثماني وبهذه الجهة مباني الكرنينة وجرك الواردات ورج شاهق للانخبار بالحريق وبقره بحملة بيرة أي بك أوغلي وبها يقسم سفراء الدول الاجنبية وبها كنيسة عظيمة للطوبججية والطوبجخانه وهي بناء عظيم وبه نصب المدافع العظيمة

ولما شيّدوا الجسر بين الحديدين العظيمين الموصولين ساحل هذا الخليج ببعضها صارت المسافة الفاصلة بين الجسرين من مرسى للسفن الشراعية وصار ما هو شمال الجسر الجديد لغاية ساحل سراي

طوله بانجحه مرسى للبواخر الخربية والتجارية وما الى جنوبي الجسر القديم حتى منتهى الخليج تقريبا
مرسى دار الصناعة العثمانية وبه الاكبر جميع سفن الدولة الخربية الموجودة بالاستانة ومتى خرج
الانسان من الجسر الحديد متجها الى الشمال نحو البحر الاسود وجد على ساحل آسيا اورو وباعده
مرافئ صغيرة تصلح لوقوف المراكب البخارية والشراعية ما بين حرية وتجارية أشهرها بساحل
أورو وبالطه ليمان وبيك وبويجي كوى وأميركون واستينية وطراية ويوك دره وروملى قواق
وبساحل آسيا أسكودار وبكربك وقنديللى وبكوز وجبوقلى وأناضول قواق والحاصل ان
شاطئ البوسفور يصلحان للمرسى متى كان التيار غير مؤثر تأثيرا يخشاه السفن والحركة التجارية بهذه
المدينة عظيمة جدا وهى تزداد من سنة لآخرى ففي سنة ١٨٨٢ م دخل مينائها ١٠٠١٦٦ سفينة
شراعية ٦٠٤٠١ باخرة وبلغ مجموع محمولها ٦٠٣٩٩٠٠٠ طن

ولما فتح المرحوم السلطان محمد هذه المدينة (١٨٥٧ هـ) جعلها عاصمة للدولة العثمانية
لاهمية موقعها وتسلطها على جهات البحر الاسود والبحر الابيض ولكونها فى مكان حصين وحرز
مكين يمكن المدافعة عنه بالقوة القليلة وكانت قبل استيلاء العثمانيين عليها عاصمة للدولة الرومانية
الشرقية أو السفلى وكانت تدعى بالقسطنطينية نسبة لمؤسسها قسطنطين الاكبر (٣٣٠ م)
وكانت قبل ذلك تدعى زانطيوم (بوزنطية) ويزيد سكانها عن ١٠٠٠٠٠٠ نسمة وبها
٣٥٤ خانة و ١٨٠ حماما و ٥٠ قصرا ونحوها و ١٩٨ كنيسة للعساكر ومخافر للحرس
و ٦٧٥ جامعا و ٥٢٠ مدرسة اسلامية و ١٤٨ مدرسة عالية و ٦٥ مكتبة و ٢٣١ ديرا
و ١٨ مستشفى و ١٧٠ كنيسة منها ٦٠ للروم و ٤٠ للارمن و ١٠ لللاتين وباقها للطوائف
الآخري وبها غير ذلك من القصور والشاخصة ودوائر الحكومة الفاخرة شئ كثير جدا أشهرها ديوان
السر عسكري والباب العالى ومستودع الاسلحة الحديث

امام نظر المدينة فى غاية الجمال والابهة والفقامة تظهر للقبيل عليها كأبدع ما يكون من
المناسظر التى يتخيلها الانسان وهى تنقسم الى عشر دوائر بلدية وبها مقر الفيلىق الخامس العثمانى
ولما كانت مشيدة على سبع تلال كانت طرقها كثيرة الانحدارات والميول وهذه المدينة من أوسع
مدن العالم تجارة وقد ازدادت أهميتها التجارية الا ان بارتباطها مع عواصم أورو وباطريق
حديدي وغالب منازل المدينة مشيد بالخشاب وذلك لكثرة وقوع الزلازل بها وان كانت عرضة
للحريق الذى لا تخلو منه ليلة ما ومع ذلك فقد أخذ كثير من الاهالى الا ان فى تشييد منازلهم بالاجار
والرخام خصوصا بعد الزلزال التى حصلت سنة ١٨٩٤ م

ومن أشهر فرض الدولة العثمانية أيضا بساحل الروملى على البحر الاسود بورغاز وهى واقعة
فى منتهى الخليج المضاف اليها على بعد ١١٠ كيلومترا عن الشمال الشرقى من أدرنه وهى أهم
نغر تجارى بتلك البلاد ومن صادراتها الخنطة والشعير والذرة والصوف وماء الورد وغيرها سكانها
٥٠٠٠ نفس

ويسره بولى وهى بساحل الروملى الشرقى أيضا سكانها ٨٠٠٠ نسمة استولى عليها الروس
سنة ١٨٢٩ م وهى من أحسن فرض البحر الاسود

وورثه وهي ثغر حصين بامارة البلغار عند مصب نهر براودا بينها وبين مدينة رجبى طريق
 حديدى سكانها ٢٥,٠٠٠ نسمة بها من الجنوب الغربى بحيرة وفرضتها مكشوفة تهب عليها
 الرياح الشرقية الجنوبية وهي واسعة التجارة فى الخنطة والانبذة والثمار والخلود والعسل وخشب
 العمارة وغيرها وتشتهر بالانتصار العظيم الذى انتصر فيه العثمانيون تحت قيادة السلطان مراد
 الثانى على لادسلاس الخامس ملك المجر (١٤٤٤ م) استولى عليها الروس سنة ١٨٢٨ م ثم
 ردوها الى العثمانيين بعد أن خربوا حصونها ومن هذه المدينة يعبر السياحون القادمون من باريس
 وويأنة الى استانبول والبحيرة المذكورة صالحة لان تكون فرضة للمدينة اذا فتحوا لها ممر من داخل
 الفرضة الحالية وهناك فرض أخرى جيدة لكنها قليلة الأهمية

وأما فرض سواحل الاناضول وآسيا الصغرى الواقعة على البحر الاسود فن أهمها فرضة أركلى
 وهي مفتوحة الى الشمال وترسوفها السفن فى داخل جون قسرب من رأس بابا القرب
 من القنار ويستخرج من ضواحي هذه المدينة قحم جبرى بعرفة نظارة بحرية الدولة يستعمل وقودا
 فى بواخر الدولة العثمانية الحربية والتجارية وكانت هذه المدينة فى آخر أيام دولة الرومان وقبل
 تأسيس القسطنطينية عاصمة لاسقفية تراس

وايضا بولى وكانت تعرف قديما باسم أيونوبوليس وهي فرضة قصبة باسمها فى لواقسطموني
 على البحر الاسود تبعد ١٣٠ كيلومترا عن سينوب الى الغرب سكانها ٣,٥٠٠ نفس تصنع فيها
 السفن الصغيرة ميناها صغيرة حسنة والمدينة فى وادين جبلين يرويهما نهر دورى كان ايرمق وكان
 وراءه أحدهذين الجبلين قلعة خربت وبني فيها سنة ١٠٢٠ هـ برج لمنع اغارة القوزاق ثم هدم
 بعد مدة

وأما سترأ وهي من الفرض العظيمة ولكنها مفتوحة من جهة الشمال الغربى الى الغرب
 والمدينة واقعة على شبه جزيرة صغيرة وأكبر عمق المياه فيها يبلغ عشرين قامة وهي تابعة لولاية
 قسطنطينية أسستها استريس قريته دارا آخر ملوك الفرس وبها آثار مهمة استولى عليها السلطان
 محمد الثانى من الجنوزيين سنة ١٨٥٣ م

وسينوب وهي من أشهر فرض آسيا الصغرى (من بلاد باقلاغونى سابقيا) ويقال ان
 الميليزيين أسسوها وأرسلوا اليها جاليتين احدهما سنة ٧٥١ ق م والثانية بعد أن هدمها
 السيريون سنة ٦٨٢ ق م ولما انتزعها بركليس من يد طاغيتها أسكن بها ستمائة أثينى ولوقوع
 هذه المدينة على برزخ كان لها فرضتان وكانت أساطيلها تجعل لها النفوذ فى البحار لغاية
 البوسفور غربا وهاليس شرقا وبذلك امتدت سطوتها وأسست عدة مدن منها طرازون وكان من
 أهم محصولاتها التجارية الزنجفر والاسماك وكانوا يحفظونها داخل أحواض بحيرية وقد آثار
 عليها متريدات الخامس ملك اليون الأنة عاد على غير طائل لان أهالى رودس أمدوها بالجنود لقاومة
 هذا الملك ومع ذلك فان فريناز خليفة متريدات أخضعها للحكمه وصارت متريدات الاكبر
 الذى ولد بها عاصمة لبلاد اليون واستولى عليها بعد ذلك كلوس الرومانى الذى أعلن بحربها
 واستقلالها الداخلى (٧١ ق م) الا ان قبصر أرسل اليها سنة ٤٥ ق م جالية رومانية

نزلت بها ومع حفظها مدة في اصره الرومان لاهميتها التجارية وثروتها الا ان مدينة امانسيا اتزعت
منها هذا الامتياز بعد ان صارت قاعدة اقليم بافلاغونيا وقد ولد بها عدة من المشاهير منهم الفيلسوف
الشهير ديوجنس ولما استولى عليها السلجوقيون من دولة اليونان جعلوها قسما من امارة قسطنطيني
التي بقيت في يد امراء السلجوقيين تحت سيادة العثمانيين حتى منتصف القرن الخامس عشر من
الميلاد وقد فاجأها الروس (١٨٥٣ م) بالانغارة فخرقوا مينائها عدة سفن عثمانية وهدموا
قسما منها ومن متاجرها الا ان الارز والتمر والجلود والاشخاب وبها دار صناعة عثمانية عظيمة
تبنى بها السفن الحربية الخفيفة ويربوع عدد سكانها عن ١٠,٠٠٠ نسمة وبالجهة الشرقية
من سينوب على بعد ثمانية اميال غربي رأس بوزنية توجد قرصه صغيرة تدعى آق ليمان ويوجد في
ولاية قسطنطيني أيضا (نيلباس) و (كرهه) وهما واقعان على ساحل البحر الاسود وبعدها من
المراكز التجارية ولكن السفن التي تقصدها ترسو امامهم ما في الاهوية المعتدلة فقط وذلك لعدم
وجود مين بها تخمها من الزوابع

وسمون قرصه من ولاية طرابزون في آسيا الصغرى واقعة على البحر الاسود في خليج باسمها
عدد نفوسها ٣٠٠٠ ولها تجارة واسعة مع بغداد ودخلية البلاد العثمانية في آسيا وأعظم مكان
ترسو به السفن بها واقع بالقرب من رأس سمسون عمقه ثمان قامات ومرفؤها عرضة لرياح الشمال
ومن أهم صادراتها النحاس والاشخاب والحنطة والتبغ المضاف اليها وغير ذلك

وادونيا وهي مشيدة فوق تل مدرج يشغل أهلها بالتجارة والصناعة وتكثر بها زراعة
العنب ومن صادراتها النبيذ والقواكه والقهوان والطنافس وفرضتها عرضة للرياح الشمالية التي
يخافها الملاحون

وشونا أو فونو قرصه واقعة خلف الرأس المسمى بها على بعد ٥٠ كيلومترا من الشمال
الغربي من كريسون وعمق المياه بفرضتها يبلغ ست قامات على الأكثر وترسو بها سفنها الشراعية
مدة الشتاء

وطرابزون مدينة حصينة بآسيا الصغرى على بعد ٩٠٠ كيلومتر من القسطنطينية و ١٤٠
كيلومترا من أرض روم يزيد عدد سكانها عن ٨٠,٠٠٠ نفس وبها آثار قديمة منها هيكل لاپلون
ويتردد على مينائها سفن كثيرة ومن متاجرها الكتان والاحبال والتبغ والمنسوجات والخردوات
والاسلحة والسكر والتوابل والبن والزيت وجوز الطيب والغضار والانيبة الزاججيسة والجوخ
والعلق والنحاس والفضة والحديدية ترسو بها سفن الادارة المخصوصة العثمانية وسفن الشركة
الفرنساوية والنمساوية والروسية الذاهبة الى القسطنطينية وباطوم وهي مدينة قديمة جدا وكانت
مستعمرة لسينوب ثم أخضعها ملوك اليونان وبنوا بها مباني جميلة ولما استولى عليها الرومانيون
حسنوها خصوصا في زمن تراجان وأدرينان ويوستيانوس وصارت بعد ذلك قاعدة لبلاد يونان
الغوط أعاروا عليها وأحرقوها ولما استولى اللاتينيون على مدينة القسطنطينية (١٢٠٤ م)
صارت طرابزون عاصمة مملكة مستقلة أسسها الكسيس كومنين الأول حفيد أندرونيك الأول
ولما استولى عليها يوحنا الأول بعد الكسيس جعلها عاصمة دولته نكابة في أولاد لسكريس

قيامه القسطنطينية ثم اضطلع أمرها وسقطت درجة بلوكها الذين زوج بعضهم بناته لامراء
التركان ولا حفاذ يمولون وغيرهم الملوك المجاورين مثل بعض أمراء اللاطوا والباطة ولما افتتح
السلطان محمد الفاتح القسطنطينية أخضع هذه المدينة مدممة ملكها داود كومنين رغما عن مساعدة
أوزون حسن أمير التركان له (١٤٥٥ هـ) وفرضه هذه المدينة غير مأمونة وبجوارها مكان
صالح لوقوف السفن إلا أنه عرضة لرياح الشمال الغربي وقد أقام بهذه المدينة السلطان سليم الأول
ويوجد للدولة على سواحل البحر الأسود في ولاية طرابزون جولة بلاد عظيمة التجارة منها (ريز)
و (كيسون) و (أوف) و (تيربولي) وهي من المراسي المعدودة ولكن ليس لها فرض تحمي
السفن فلذلك لا يمكن للسفن التي تقصدها أن ترسو أمامها إلا إذا كانت الأهوية معتدلة

وباطوم وهي واقعة قرب النهر المضاف إليها بعد ١٥٠ كيلومترا عن اخلنزيج إلى الغرب
و ٢٦ ميلا بحريا عن طرابزون إلى الشمال الشرقي ومينائها حسن جدا وهي حصينة لا ترام
تقريباً لصعوبة الوصول إليها برا وبحرا وقد نالت أهمية عظيمة لوجود مركزها البحري ولقربها
من حدود الروسيا وان مرافئها أحسن مرافئ تلك السواحل حتى يمكن للمرء الكبارية
أن ترسو فيه على مقربة من الشاطئ وأما المرء كبا الصغيرة فلا آمن عليها في الشتاء وبقرها
معدن البترول (الغاز) وعدد سكانها نحو ألفي نفس بين مسلمين ونصارى وجزا كسة
وفيها حمامات وجوامع وكانت تابعة للدولة العثمانية قبل حربها مع الروسيا فهي من أعمال
طرابزون وقد حاول الروس الاستيلاء عليها مدة الحرب المذكورة فامتنعت عليهم لحصانتها
ثم احتلها بعد الحرب بمقتضى معاهدة برلين (١٨٧٨ م) وهذا فرض صغيرة أخرى للأهمية لها
تغور الدول على بحر مرمر - للدولة على هذا البحر كثير من التغور أشهرها زميسيد
أوازنيكيد وهي تقع بمسافة القديمة واقعة على مسافة ١٠٠ كيلومتر من الاستانة إلى شرقي
الجنوب الشرقي على رأس خليج مضاف إليها وهي على الشاطئ الشمالي الشرقي من بحر مرمر اجيلة
الموقع حسنة المدخل عدد سكانها يتجاوز ٤٠٠٠٠ نفس وكانت قديما كرسى مملكة بونيا
وبها ولد اريانوس المؤرخ وتوفي انيبال الشهير وقسطنطين الكبير وتوطن بها بلبنياس وتنازل فيها
دقلديانوس عن الملك ولم يبق من أبنيتها القديمة إلا القليل ويمكن لا كبر المرء كبا دخول مينائها
وبعد ان افتتحها العثمانيون (١٧١٦ هـ) اتخذوا بها ادار صناعة عظيمة وقد تقدمت هذه الدار الآن
عما كانت عليه حتى صار يصنع فيها أعظم السفائن الحربية من نوع الطرادات والمدفعية
وشيدوا بها كثيرا من معامل آلات السفن حتى وصلت لدرجة يمكن أن تعد معها الفرضة الثانية
للدولة العثمانية وهذه المدينة أيضا كثير من معامل الحري والحرف ولها تجارة في الخشب والمخ و بها
مياه معدنية وهي مركز سفن الطور يبدو

ومودانية فرضة من ولاية خنداوند كار واقعة على الخليج المضاف إليها المسمى قديما سيانوس
سينوس سكانها ٢٠٠٠٠ نفس وتعتبر ميناء المدينة بروسه

وكليك فرضة من ولاية خنداوند كار على خليج مودانية أيضا سكانها ٣٠٠٠ نفس بها دار
صناعة ومعامل للبحرية

وأردك وكانت تسمى ارنا كي أو راناسي وهي فرضة على الشاطئ الغربي من شبه جزيرة كيزيكة في بحر مرمر على مسافة ٧٠ ميلا من الاستانة الى الجنوب الغربي فيها آثار سد قديم في البحر ويصنع في جوارها خرفاخر له سوق رائج ذكره هرودوتس أن الفينيقيين أحرقوها عند محارباتهم للفرس ثم أعاد بناءها اليونان وحصنها واولى الشرق منها كانت مدينة كيزيكة القديمة وهي أكبر بلدة في شبه الجزيرة المذكورة وأكثر أهلها يتعاطون الزراعة ولها مرفأ صغير وهي من ولاية قره سي وفي قضاء أردك مياه معدنية نافعة تحمل الى كثير من البلاد

ورودستو أو تكفور طاغ واسمها القديم بيزنطة فرضة عثمانية حصينة على ساحل تركية أوروبا تبعد ٦٠ ميلا عن كليبولي الى الشمال الشرقي وهي مركز متصرفية في الروم الى ولاية ادرنه عدد سكانها ٣٠.٠٠٠ نفس محاطة ببساتين جميلة وبها خانات كبيرة واسعة وحمامات وكنايس ولها تجارة واسعة في الخبوب والصوف والسهم وكان احتلالها الروسيون سنة ١٨٣٩ م ثم أعيدت الى الدولة وهي الآن قليلة الاهمية وايدنمق واقعة بالقرب من كيزيكة القديمة وقد بنيت من خرابتها وهي قصبه ناحية باسمها من قضاء أردك التابع ولاية قره سي يكثر بها شجر التوت والكرم ويتردد عليها كثير من السفن الشراعية عدد سكانها ٥٠٠٠ نفس

وعلى بحر مرمر افرض أخرى من ولاية قره سي أشهرها فرضة باندرمه وتشتهر بالضان لكثرة المراعي فيها

وخليبولي واقعة على الشاطئ الاوروبي تابعة لولاية ادرنه وفرضتها من دوحه لوقوع المدينة على شبه جزيرة مضافة اليها والمدينة واقعة على بعد ٢١٢ كيلومترا الى الجنوب من القسطنطينية سكانها ٢٠.٠٠٠ نفس وكانت قديما قاعدة ولاية الجزائر وهي محطة لسفن الشركات العثمانية والاجنبية واسعة التجارة ومن حاصلاتها الجلود المشهورة ومن صادراتها الحرير والشراطي والجلود والاصواف والخبوب وبها مبان لطيفة وبساتين زينة ويحيط هذه المدينة أكثر من أربع عشرة قلعة وهي أول مدينة استولى عليها العثمانيون بأوروبا (٧٥٨ هـ) وقد شيد بها السلطان بايزيد الأول برجاً عظيماً لا يزال لآن أما شبه جزيرة غليبولي فهي محصورة بين بحر الارخبيل ومضيق الدردنيل وبحر مرمر او خليج ساروس وتتصل بالقارة ببرزخ ضيق بين هذين البحرين الاخيرين وبها اطلال قديمة والحاصل ان أكثر القرى والبلاد الواقعة على سواحل بحر مرمر تقع مدفوعة الى اغلب الساحل صالح لسفن والبواخر ويتردد عليها سفن شراعية صغيرة تنقل منها المحصولات الى الاستانة العلية وغيرها

والدردنيل يسمى بهذا الاسم مدينتان واقعتان وسط هذا المضيق الشهير يتجاه بعضهما ويسميان أيضاً بالقلعة السلطانية أو خناق قلعة فالمدينة التي على ساحل أوروبا يسكنها مسلمون عددهم ٧٠٠٠ نفس وتسمى كليد بحر أي سد البحر فقط والتي على الشاطئ الآسيوي يسكنها بين مسلمين وروم ويهود وأرمن ويبلغون ٥٠٠٠ نفس وتسمى بالقلعة السلطانية فقط او خناق قلعة وبها يقيم المحافظ العام لقلع الدردنيل ويقيم بها أيضاً فواصل لجميع الامم وتبني بها سفن تجارية

صغيرة لا يزيد حجمها أكبرها عن ثمانين طنساو يجرى بجوارها نهر يقال له رود بوس يصب بالدرذيل بالقرب من القلعة السلطانية والمسافة بين المدينتين المذكورتين لا تزيد عن ثمانمائة ياردة ولذلك تسهل المدافعة فيهما وجميع استحكامات الدرذيل مسلحة بأضخم المدافع وأحدث الاختراعات الدفاعية ويمكن بغاية السهولة والسرعة القاء الآلات الطور بيديها أمامها عند اللزوم وهذه المضيق شهرة عظيمة فنه اجتاز داراملك الفرس الى أوروبا واسكندر الكبير الى آسيا والسلطان سليمان الى أوروبا وقد حافظت الدولة العثمانية على حق منع كل البوارج الأجنبية من المرور فيه في أي وقت كان بلارخصة خصوصية وقد اعترفت لها بذلك دول أوروبا في سنتي ١٢٥٧ و ١٢٧٣ هـ (١٨٤١ م و ١٨٥٦ م) (١)

(١) اعلم ان هذا الموقع حصين جدا متسلط على مضيق الاستانة وطوله نحو ميلين وحيث ان القلعة السلطانية حصينة جدا وقبلها قلعة أخرى مثلها في الحصن والمائة يقال لها بالقلعة وغيرها من القلاع التي شيدت حديثا على الجانبين كان المرور من هذا المضيق من الخيال وكثيرا ما جرى بين الباب العالي والدول الأجنبية معاهدات فيما يتعلق بمرور السفن من هذا المضيق ففي سنة ١١٩٨ هـ (١٧٨٣ م) جرت معاهدة بينه وبين الروسيارخص فيها في مرور سفن الروسية التجارية ثم بعد بخمسة سنة ١٢٤٤ هـ (١٨٢٨ م) اشتمت الروسية غير مرتين عدم اجراء الباب العالي مانع منه لانه امر بالقبض على سفن روسية تجار به وأخذ ما فيها من الارزاق والامتعدة بدون تعويض شي على أصحابها ثم جرت معاهدة أخرى سنة ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ م) وهي معاهدة أدريه وفيها رخص في مرور السفن التجارية لبقية الدول كما رخص لسفن دولة روسيا وفي سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) جرت معاهدة ثانية يقال لها معاهدة همنكار أسكله بين الباب العالي والروسية مبنية على الهجوم والمدافع وكان من جملة ما تضمنته منع جميع السفن التجارية للدول معاداة الروسية فأعلنت دولة انكلترا الحجة على الباب العالي بواسطة سفيرها بالاستانة ثم في سنة ١٢٥٧ هـ (١٨٤١ م) جرت معاهدة أخرى في لوندرة بين الباب العالي وانكلترا وأستوربا والروسية وروسيا لتسوية المسئلة الشرقية وحماية الدولة العلية من المرحوم محمد علي باشا الى مصر اذذاك حيث كان غازي علي الاستيلاء على الاستانة وكانت عساكره زاحفة عليها ويومئذ صرح في تلك المعاهدة بمنع دخول سائر البواخر من بوزارجنق قلعة الا اذا اقتضى أمر الدول المذكورة دخولها للمحافظة على الاستانة فيكون لها والحالة هذه ان تتمكن منها وفي معاهدة سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦ م) أعني بعد حرب القرم أذن لجميع الدول في ان يكون لكل واحد من سفرائها باخرة بحرية صغيرة في بوزارجنق الاستانة تقابلة الطوبخانة وصرح أيضا بان البحر الاسود المشترك بين الدولة العلية والروسية يكون على الحيادة يعني لا يسوغ دخول سفن بحرية فيه لاي دولة كانت الا انه في سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) أعني بعد حرب المانيا وفرنسا أرسل البرنس غورجيفوف لأتجه الى الدول الخمس التي أمضت معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ المذكورة يخبرهم فيها بنسخ الشروط التي تقصر قوا الروسية في البحر الاسود وفي ١٣ مارس سنة ١٨٧١ م جرت معاهدة أخرى في لوندرة صرح فيها بان للروسية حقا في أن يكون لها قوة بحرية في البحر الاسود ولكن بقيت قضية منع دخول البواخر الحربية من جنق قلعة كما كانت أمعا دما من جنق قلعة من البواخر الحربية لاسباب فوق العادة نحو تقدم بعض الملوك الى الاستانة وغير ذلك من الاسباب فبلغ من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٩٥ م عدة بواخر منها باخرة انكليزية تمردت في سنة ١٨٦٢ م وفي سنة ١٨٦٦ م مرت باخرة أمريكية في سنة ١٨٦٨ م مرت باخرة روسية وفي سنة ١٨٦٩ م دخلت الاساطيل الانكليزية لحماية الاستانة من اغارة الروس وفي ١٨٧٩ م دخلت باخرة يابانية وفي سنة ١٨٨٤ م دخلت بارجة ألمانية نقل جناب اميراطور المانيا وفي سنة ١٨٩٣ م دخلت بارجة يابانية بها ما يمكن نجاة من المهمات التي كانت بالقرقاطة ارطغرل العثمانية التي غرقت بالمحيط الاعظم وفي أواخر سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) دخلت البوارج التابعة للدول الأوروبية العظمى عند مصادرها الاذن لتبقى تحت أوامر سفرائهم هناك فصار بذلك لكل دولة سفينتان

تغور الدول العثمانية على بحر الارضيل - من أشهر فرض الدولة ومرافقها على البحر
المذكور خليج نيكه أو بشيكه وهو فرضة عند مدخل الدردنيل على الشاطئ الآسيوي يبعد ٤٨
ساعة بحرية عن القسطنطينية احتلتها العمارة الانكليزية في سنتي (١٨٥٣ و ١٨٧٧ م)
وتندوس وهي جزيرة تندوس المسماة بونججه اطهرى وتبعد ٢٤ كيلومترا الى الجنوب
الغربي من الدردنيل ومدينة تندوس واقعة حول مرافق صغير على الشاطئ الشمالي من الجزيرة
المذكورة تحميها قلعة تتجاه فرضة بشيكه ولهذه الجزيرة ذكرفي حروب ترواده وقد حصل بين
العثمانيين والبنادقة عدة وقائع بحرية بجوارها بخصوص الاستيلاء عليها الجوده موقعها
وسلاينيك أو تسالونيكى وهي مقر ولاية باسمها وتبعد عن القسطنطينية بنحو ٥٢٠
كيلومترا وهي من الثغور التجارية المهمة موقعها في داخل الجون المعروف باسمها وكان هذا الخليج
قد يسمى شرميايكوس أو ثرمابيس سينوس وهو فرع من بحر ايجه بين ساحل تساليا وشبه جزيرة
خلقدونيا وكاسندر طوله ٧٠ ميلا وعرضه ٣٠ وتصب فيه أنهر سالبريا وانبجهره صوفادور
وقد اشتهرت سلانيك بحسن منظرها وجمال جوامعها وفيها آثار قديمة وتجارها واسعة
جدا يخرج منها طريق حديدى الى أسكوب ويتصل بالاسانة ووجهه بلاد أخرى من مقدونية
ومرفؤها أمين رحب يسع أكثر من ٣٠٠ سفينة جسيمة وقد وسع هذه المدينة كاسندر
المقدونى (٣١٥ ق م) وسماها تسالونيكى على اسم زوجته ابنة فيلبس فتحها الانينيون
(٤٣٢ ق م) وجعلوها أم الثغور المقدونية وبعد معركة بيدنا استولى عليها الرومان وكانت لعهد
امبراطوريتهم عاصمة الولايات الايليرية وسنة ٥٢ م جاءها بولس الرسول واعظا ثم فتحها العرب
(٩٠٤ م) عندما كانت أساطيلهم تغزو بحر الروم وسنة ١١١٥ م فتحها نورماند بوصفلية
وفي أوائل القرن الثالث عشر أخذها الماركيز بونيفاس ثم تنازل الروم عنها للبنادقة (١٤٢٥ م)
وبقيت في حكمهم الى أن فتحها العثمانيون في عهد الغازى السلطان مراد الثانى (٨٣٥ هـ
- ١٤٣١ م) ومن وقتئذ صارت سلانيك تتقدم في العمارة والتجارة الى يومنا هذا وقد أصبحت
فرضتها وسكانها يبلغون ٨٠٠٠٠ نسمة وهي أهم ثغر تجارى بتركية أوروبا وبعدها القسطنطينية
وبها قلعة حصينة قديمة ذات سبعة أبراج كالتى بالقسطنطينية وآثار قديمة شتى منها قوس نصر
لقسطنطين الكبير واعستوس ومن سكانها كثير من اليهود من نسل الذين طردهم الاسبانول
في زمن فرديناند وازابيل وهذه المدينة فابريقات اللاقشة الحربية والطنافس والجلود ومدابغ
ومصابغ للخيوط الحمراء ومن تجارتها الحرير والقطن والتبغ والاصواف والنيل والحبوب الزيدية
والجلود والشمع الاصفر ويتردد عليها كثير من سفن الشركة العثمانية والشركات الاجنبية
تور فرضة واقعة على خليج مضاف اليها من ولاية سلانيك تتردد عليها سفن الشركة العثمانية
والسفن الفرنسية وسكانها ٤٠٠٠ نفس ولها تجارة عظيمة فى التبغ وهي مسقط راس المرحوم
محمد على باشا جد العائلة الخديوية

وفي الجهة الشرقية من خليج سلانيك جون كسندره يوجد فى الساحل الشمالى والشرقى
منه مواقع كثيرة تصلح لسفن كفرضة كوفو يلتجى اليها كثير من السفن وايدت مأمونة

ولذلك فإن السفن عند الزواجع الشديدة تقلع منها وفي شرقى كستدره جون به فرضة اينوروز
أو أوثوس وفرضة سيكيا وبسواحل جون اورفانو بعض فرض أخرى ليست ذات أهمية وفرضة
اينوس وهي قريبة من السابقة

وقرء اغاج المعرفة أيضا باسم لاغوس بسنجق غليمولى من ولاية أدرنه يتردد عليها بوانخر
العثمانية والنساقرانسا وهي قريبة من جزيرة طاشموز وبعدها كثير من الصخور
ودده اغاج وهي أوسع فرضة تجارية بهذا الساحل واقعة بولاية أدرنه غربى مصب نهر
مارتسا ومرج وقد امتد إليها الطريق الحديدى الواصل لدار الخلافة
وسانت انطونيو وهي فرضة عظيمة بجزيرة لمانى (لمنوس) واقعة فى وسط الجزيرة تقريبا
حادثة من موقعى پورتليا ومودروس قال القبودان مين برايسك ان فرضة مودروس المشهورة
بسنت انطونيو توسع فى أيام الصيف عمارة كبيرة وفى زمن الشتاء لا يصيبها خطر متى رست السفن
بالجهة الداخلة منها

ويالوپوليس واقعة بخلج بورنه ولها مر فأجيد جميل بالساحل الشمالى من لمنوس
أيضا وكانت هذه الجزيرة المهمة تابعة للاثنين ثم استولى عليها الفرس ثم استردها الاثينيون بعد
واقعة سلامين ثم دخلت تحت حكم ملوك مقدونيا ثم استولى عليها الرومان (١٤٦ ق م) ثم
كانت من نصيب الدولة الشرقية حتى زمن الحملة الصليبية الرابعة فاستولى عليها البنادقة
ثم فى القرن الرابع عشر انتقلت من يدهم الى الجنوىزين هي ولسبوس وغيرها من الجزائر ثم
أخضعها السلطان محمد الفاتح (٥٨٦٧ هـ) ثم استردها البنادقة ولم يخرجوا منها تماما للعثمانيين
الا فى سنة ٥٨٨٣ هـ ولا زالت فى يدهم الى الآن

وبارقه وهي فرضة حصينة تجارية من تركية أوروبا واقعة على بحر اليونان امام
كورفو بولاية يانيه على بعد ٩٠ كيلومترا من يانيه الى الجنوب الغربى سكانها ٤٠٠٠ نفس
صادراتها الزيت والنيذ والتبغ والثمار وهي تفرح من القرن الرابع للميلاد وقد تمكن سكانها
من صدته دلتلى على باشا ١٨١٤ م وطلبوا بعد ذلك الانضمام الى جمهورية جزائر بحر اليونان
الآن الانكليز باعواها للعثمانيين ١٨١٥ م وعند مجئ على باشا سنة ١٨١٩ م هم سكانها بترك
المدينة فراروا من دخولهم تحت حكم المسلمين

جزيرة كريد ويقال لها فى كتب العرب اقر يطش طولها ١٧٢ وعرضها ٢٥ ميلا ومحيطها
٥٠٠ ميل ومساحتها ٤٥٠٠ ميل مربع وهي كثير الاعنار والاشباب وسائر الحواصل
الزراعية ولا سيما الزيتون ويحرقها من الوسط جبال شامحة ويقال ان أول من سكنها هم الفينيقيون
وأول من تولاها الملك مينوس صاحب الشرائع المشهورة بين علوم اليونان ثم أتى اليها جماعة من
جمهوريات اليونان وتوطنوا فيها الى ان فتحها الرومان (٦٧ ق م) وفى مدتهم فتحها العرب
ولم تزل بقاياهم فى نواحي جبل ايدا فى أواسط الجزيرة وبقي استيلاؤهم عليها الى القرن العاشر
للميلاد وفيه استولى عليها أهل جنوة الذين وهبواها للماركيز بونيفاس وللدوق مونت فيرات

من ايطاليا بما بعها المر كيزالمنذ كورالى أهالى البندقية سنة ١٢٠٤ م وبقيت معهم الى أن فتحها العثمانيون سنة ١٠٨٠ هـ بعد حروب دامت ٢٤ سنة وأشهر فرضها وأغظمتها خليج سورده وهو أمين جدا رطب للغاية يتسدمن جزيرة سوده الواقعة في فم البوغاز الى طولزه على طول أربعة أميال يسع أكثر من ٥٠٠ سفينة حربية وأغلب السفن ترسو في داخل الخليج بقرب طولزه المذكورة لان عمق المياه فيه يختلف من ٥ الى ١٥ قامة وقد اتخذت الدولة هذه القرية مركزا لاسطول بحور سفيد فلذلك شيدت فيها بعد ثورة (١٢٨٤ هـ) دار صناعة فازدادت بها أهمية الجزيرة عن ذي قبل وقد وضع أساس دار الصناعة هذه الفريق حسين باشا الكريدي نشيد فيها القابريقات المهمة ومعامل الحديد وركب فيها الآلات البخارية وشيد أيضا سكة عسكرية ودار للمرضى ودائرة للقائد العام وبعض مخازن للادوات والآلات البحرية ولما كان هذا الفريق رئيس المجلس البحرية في الاستانة طلب انشاء حوض لاصلاح السفائن بفرضها فلما أقروا على طلبه ذهب بنفسه (١٢٩٢ هـ) وعين موقعه وابتدأ الحفر فيه ومن أشهر ثغور هذه الجزيرة أيضا غانية وهي أكبر ثغور جزيرة كريد الواقعة على الساحل الشمالي منها على بعد ٣٠

ميلا من ريمو و ٦٠ ميلا عن مدينة قنديه غربا وعدها سكانها ١٠٠٠٠ نفس وهي محاطة بأسوار منيعة وخنادق عميقة في حاجة الى الاصلاح أما فرضتها الخار جيمة فليست آمنة لانها معرضة للرياح الشمالية والداخلية صغيرة لا تصلح للسفائن الشراعية الصغيرة وقد كانت فرضة هذه المدينة سابقا أحسن فرض الجزيرة وقد أنشأت الحكومة العثمانية بهذه المدينة (١٢٨٦ م) بنكا زراعيًا لتقديم الفلاحة فأفاد السكان كثيرا وبها عدة مدارس ومن أهم حاصلاتها الدقيق والحبوب والمنسوجات والصابون وزيت الزيتون والحريرو ويقال ان خانيسة هي سيدونيا القديمة استولى عليها العثمانيون سنة (١٠٥٣ هـ)

وريمو اوريمو وهي حصينة تبعد عن قنديه ٧٠ كيلومترا الى الجنوب الغربي سكانها ٨٠٠٠ نفس يحيط بها سور وفي داخلها قلعة وفرضها صغيرة آمنة للغاية ولكنها لا تتسع للسفائن الصغيرة التي لا يتجاوز مجموع الواحد منها ١٥ طنا و بوغازها مفتوح الى الشرق والدخول منه صعب جدا وكذا الخروج وكانت قديما بيد البنادقة استولى عليها العثمانيون سنة (١٠٥٧ هـ) والسفائن الجسيمة التي تقصد هذه المدينة ترسو في جهة الشمال الشرقي على بعد نصف ميل حيث عمق المياه فيه يبلغ ثمان قامات

وقديه وتدعى ميغالو كاسترو وشيدها عرب الاندلس لما نزلوا هذه الجزيرة وهذه المدينة محاطة باستحكامات قوية جدا وخنادق عميقة ومرفؤها صغير لا يسع الا ١٥ سفينة من السفن الصغيرة التي لا يزيد مجموع الواحد منها عن ١٥ طنا ولم يدخل مينائها مفتوح الى جهة الشرق وكانت قديما بيد البنادقة ثم اقتحمها العثمانيون ومن وقتئذ تقدمت تجارتها وكانت مقر الحكومة مدة طويلة وعدد سكانها لا يتجاوز ١٥٠٠٠ نفس والسفن والبواخر الجسيمة التي تردد على قنديه ترسو في أغلب الاوقات في شمالي قلعة الفنار على بعد نصف ميل حيث عمق المياه يبلغ ١٨ قامة وفي زمن الشتاء وقت قيام الزوابع ترسو بجزر طوشان أو ستاندبيا الواقعة في شمالي قنديه على بعد ستة

أميال وفي زمن البنادقة كانت السفن الجسيمة تدخل فرضة جزيرة طوشان وتفرض جومات في صنادل شراعية لنقلها الى قسنطينة وبهذه الطريقة كانت تسخن الصادرات أيضا ولا يزال يوجد الآن بهذه المدينة آثار قديمة عربية ويوجد في سواحل جزيرة كريد فرض أخرى كفرضة سيني لونغه أو أسبرلنغه وفرضة قولو جنيا وليمان سنت نيقوله ومرسى اسفا كيا وليمان ليتروس ومرسى سيلينو وباروملي ولكنها ليست مهمة ولا آمنة ويبلغ سكان هذه الجزيرة عموما ٢١٥,٠٠٠ نسمة بين مسلمين وغيرهم

تغور الدول على البحر المتوسط - للدولة العثمانية على سواحل البحر المتوسط الأبيض كثير من التغور المهمة أشهرها ما يأتي

ازمير وهي مدينة من آسيا الصغرى على الرأس الشرقى من خليج يدعى باسمها وهي واقعة في حضيض جبل باغوس ويتصل قسم منها بسفحة ويمتد خليجها بانعطاف في البر على طول نحو ٥٠ كيلومترا وعرض ٢٠ كيلومترا ويحيط به من الجنوب جبال ميماس ومن الشرق جبال باغوس فلذلك كان الماء فيه ساكنا هادئا ومينائها أمين لا خطر فيها البتة على السفن وليس فيها من الصخور ما تخافه السفن الصغيرة لان قاع البحر سهل مستو تقر بيا وهذه المدينة تبعد عن القسطنطينية ٤٣٠ كيلومترا الى الجنوب الغربى وعدد سكانها ١٦٠,٠٠٠ نفس منهم ٨٠٠٠٠ نفس من المسلمين والباقي من أجناس مختلفة وبها ابنية جميلة منها خشبية ومنها حجرية وبها قلعة العساكر السلطانية ومنظرها الطبيعي جميل للغاية ولا تشاهد في ميناها الاسفنا راسية وسفنا قادمة وأخرى راحلة تين حربية وتجارية من كل نوع غير ان الكثير من مبانيها غير منظم ولكنها الجزاءول التي تروى أراضيها الجيدة كثرت بها البساتين النضرة والكر وموبها من الآثار بقايا قلعة على قمة جبل باغوس من بناء الجنوزيين وهذه المدينة من أوسع المدائن الواقعة على البحر المتوسط الأبيض تجارة تقصدها التجار من البر والبحر ومن متاجرها الحرير والقطن والصوف وشعر الماعز والطنافس والبسط والتين والزبيب والعقاقير وبعض الجواهرات وغيرها قال بعض المؤرخين ان بانيتها هو طنطال ملك سيبيل المنسوبة اليه المقابر الموجودة على التلال الشمالية منها ذهب هيرودوتس ان الايوليين اسسوها سنة ١٠١٥ ق م ثم اغتصبها الكولوفونيون ثم استولى عليها الليديون (٦٣٨ ق م) وخربوها وقصد اسكندر الكبير ان يجعلها مثل الاسكندرية أهمية فنقلها على شاطئ البحر ثم أخذها ملوك برغامس ثم الرومان ثم الجنوزيون ثم فرسان رودس ثم استولى عليها السلاجقة (٤٧٧ هـ - ١٠٨٤ م) ثم حاصرها أسطول القسطنطينية تحت قيادة جان دو كاس فاستولى عليها سنة ١٠٩٧ م فاحضعها ثانية للسلطنة اليونانية ثم فتحها العثمانيون (٨٢٨ هـ ١٤٢٤ م) في عهد السلطان الغازي مراد الثاني وهي مسقط رأس أميروس الشهير وكان له فيها هيكل وبقره هيكل أسكولا ييوس إله الطب وبها ولد أيضا بيون وكينتوس وكانا شاعرين وهي الآن مقر تجارة آسيا الصغرى ويخرج منها خط حديدى عظيم يمر بمدن مهمة وميدللى أو ميتلين وهي قاعدة الجزيرة المضافة اليها واقعة على الشاطئ الشرقى وكان بها قديما مبان شهيرة خضعت مع بقية الجزيرة للاثنين ثم خرجت عليهم (٤٢٨ ق م) مدتحروب بيلوبونيز

فاستردها الاثينيون بالقوة (٣٥٦ ق م) ولما ظاهرت متريدات الكبير آثار عليها الرومان
وخربوها (٨٦ ق م) ثم جردها پومبيوس أما جزيرة ميسدبلى المسماة قديما ليسبوس فانها
من أعظم جزر بحر ايجه واقعة بالقرب من سواحل آسيا الصغرى وكانت ذات شهرة عظيمة قديما
بلحودة هوائها وحسن حنظتها ونبيذها وغير ذلك وكان يجلب اليها غابات كثيرة ومقالع للرخام شهيرة
وشاطئها الغربي قاحل الآن بخلاف شاطئها المطل على آسيا فتمتكثر به الغابات اللطيفة وأشجار
الزيتون والكرم والبرتقال وغيرها ويقال ان سكانها الاولين من أمة السيلاج وفي زمن حرب تروادة
دخلت هذه الجزيرة في قبضة الملك بريام آخر ملوك تروادة وبعد ذلك نحو قرن استولى عليها
الايوليون ومنها انتشر واعي جميع ساحل آسيا وأسسوا به عدة مدن قوية أحدثت بانحادها مع مدن
ليسبوس المعاهدة الايوليدية وبعد زمن طويل امتدت القوضى بتلك الجزيرة واستقلت كل مدينة
بها الى أن نصب الالهالي عليهم ملكا واحدا وقد استولى الفرس عليها في أول حكم كيروش وكانت
تقدم لداراوا كسرسيس سقنا في حربها اليونان ثم استقلت ثم دخلت بالقوة في اتحادنا ثم
نارت في أول حرب بيلوبونيز تريدا الانضمام لاهل اسبارطه (٤٢٨ ق م) وعند ذلك أخضع
الاثينيون مدينة ليسبوس وقتلوا من سكانها أزيد من ألف نفس وخربوا أسوارها واستولوا على
أساطيلها ومستعمراتها ثم أخضعها للقدمونيون بعد انتصارهم (٤٠٥ ق م) وقد تمكنت
هذه المدينة من حفظ استقلالها زمانا أثناء وقوع الخصامات بين القدمونياوا أثينا ثم أخضعها
اسكندر الكبير ثم الرومان وقد خرج منها كثير من المشاهير بين رجال ونساء وبقيت تابعة للدولة
الشرقية حتى زمن الحملة الصليبية الرابعة حيث دخلت ضمن بلاد الدولة اللاتينية ثم أخضعها
اغريق نيقيه (١٢٤٧ م) ثم وقعت في قبضة الجنوزيين وبقيت في يدهم الى سنة ٨٦٧ هـ
حينما استولى عليها السلطان محمد الفاتح وهي الآن إحدى اللوات الست المكونة لولاية الجزائر
وقد وجدوا بها عدة آثار قديمة وبشواطئها عدة فرض تجارة منها كولونيا وبكي ليمان وزيتون
ومحيط هذه الجزيرة يبلغ مائة ميل ومتوسط عرضها ٢٥ ميلا وطولها ٢٦ ميلا وعدد نفوسها
٤٠٠٠٠ نفس ومن العوائد عندهم ان للنساء النفوذ التام على الرجال

وأورميد قديما أدرنيتموم وهي فرضة على الساحل الشرقي من الخليج المسمى باسمها
تبعد ١١٥ كيلومترا عن ازمير الى الشمال في مقابلة جزيرة ميسدبلى أسسها جالية الاثينيين وهي
حسنة الموقع ترويهما عدة أنهر وقد صار الآن بينها وبين البحر مسافة أكثر مما كان قبل لان
الرمال التي تجلبها الانهار معها ردمت قسما عظيما من البحر وفي نواحيها جبل يسمى قازطاغ به غابات
من الصنوبر وغيره يستخرج منها القطران والرفث وأهم تجارتها الصوف وشعر المعزى والزيتون
والعص و تنسب اليها السفينة الادرميتينية التي سافر فيها بولس الرسول وجماعة من الاسراء
الى ايطاليا

ساقراو جزيرة المصطكي وهي جزيرة جبلية عظيمة الحصوبة واقعة قرب ما من الشاطئ الغربي
لاسيا الصغرى وتبعد نحو ٨٨ كيلومترا من غربي ازمير يفصلها عن ساحل الاناضول مضيق
يدعى مضيق ساقرا مساحتها ٥٠٨ أميال مربعة وأكبر عرض لها يبلغ ١٨ ميلا وعدد سكانها

٦٢٠٠٠ نفس وقاعدتها ساقر في شرق الجزيرة عند منتهى المضيق المذكور بها قلعة حصينة وسكانها ١٥٠٠٠ نفس جميلة المنظر للغاية كثيرة الغابات والاشجار المثمرة خصوصاً شجر الليمون والمسطكي ولها فرضة صغيرة لتسع الامراكب الصغيرة جداً والسفن البخارية والشراعية الكبيرة ترسو بها امام القلعة في المضيق المذكور على ربع ميل من المدينة ولها تجارة واسعة يصدر منها الحرير والقطن والصوف والفواكه والزيت والنجر والمسطكي وكان يسكنها قوم من البيلاج والقسدوميين ثم جاءها قوم من الاغريق وبها نشأ أمير روس الشاعر اليوناني وغيره وقد اشتهر اهلها من القديم في سلوك البحار فكانت لهم فيه صولة واقترار غزاها الفرس (١٤٩٤ ق م) وخر بوهاو بعد واقعة ميكاكي انضمت الى الاتحاد اليوناني (٣٧٩ ق م) ثم استقلت (٣٥٨ ق م) ثم أخذها الاسكندر الاكبر ثم فتحها الرومان ثم انتقلت للدولة الشرقية الرومانية ثم فتحها الجنوزيون ثم استرجعها حكومة القسطنطينية ثم أخذها العثمانيون وهاجمها البنادقة (١٦٩٤ م - ١١٠٤ هـ) واستولوا عليها فطردهم العثمانيون منها كما ساق ذلك مفصلاً في سنة (١٨٨١ م - ١٢٩٩ هـ) حصلت بها زلزلة شديدة تسبب عنها خسائر جمة

وخرم وتسمى قديمًا سيتوس وهي مدينة حصينة من تركية آسيا ولاية آيدين لها فرضة عظيمة جميلة واقعة في منتهى خليج من بحر الارخبيل وهي امام جزيرة ساقر تبعد عن آزميز بنحو ٦٥ كيلومترا من الجنوب الغربي وسكانها ٦٠٠٠ نسمة وبالشمال الشرقي من ضواحيها ينابيع كبريية تسمى أيلجة يقصدها بعض الناس للاستحمام وقد دمر الرومان امامها سنة ١٩٣ ق م أساطيل انطيوخس الكبير وأحرق الانكليز والموسكوف بقرضتها تحت قيادة الاميرال الفنستون والاميرال الكسيس أورلوف عمارة العثمانيين التي كانت تحت قيادة القبودان حسام الدين باشا (١١٨٤ هـ - ١٧٧٠ م) ولهذه المدينة تجارة واسعة بالسفن الشراعية بينها وبين جزيرة ساقر

دوش اطلسي وكانت تدعى قديمًا نيوبوليس وتسمى الآن أسكله نوقا وهي فرضة عظيمة من ولاية آيدين واقعة على جون ينسب اليها تبعد ٦٦ كيلومترا عن آزميز الى الجنوب سكانها ١٨٠٠٠ نفس ولها تجارة واسعة في المبوب والبن والارز والثمار والصوف وخلافه وهي آخذة في التقدم ويظن أنها ستختلف مدينة أفسوس في الأهمية التي كانت لها زمن الرومان

وسيام وتدعى أيضا ساموس وهي من جزائر الارخبيل واقعة غربي آسيا الصغرى يفصلها عنها مضيق يدعى ميكاكي عرضه لا يتجاوز الميل وطولها ٢٥ ميلا من الشرق الى الغرب ومعظم عرضها ١٢ ميلا ومحيطها ٧٠ ميلا ويخترقها من الغرب الى الشرق سلسلة جبال شاهجة تدعى اميلاوس طرفها الغربي المسمى كركي شاهق يبلغ ارتفاعه ١٤٨٠ مترا وهي عرضة للرياح الشديدة الشمالية وللإبحرة المضرّة بالصحة لان اهلها تقطعون اغلب غاباتها وتركوها بذلك المياه تأسن بالادوية وسكانها ٥٠٠٠٠ نفس أكثرهم أروام وقصبتها تدعى واتي أوقاتي

بالشمال ولها ميناء جيدة وميناء خورا بالجنوب وهاتان المدينتان هما الان أعظم نغورها ومنها الآن ميناء ميناء على خورا عرضة للرياح الشمالية ولذا كانت كثيرة الامواج ومدينة ساموس قاعدة هذه الجزيرة قديمًا بنيت على ما قيل سنة ألف قبل الميلاد وحرقها فاسيسام أمين جدا وبهذه الجزيرة عدة فرض أخرى جيدة وقد اشتهرت قديمًا بخصب أرضها ومن حاصلاتها الخلبة والمجودة والزيتون

والعنب والحبوب والحرير والقطن والتين والزيت والتجرا الفاخر المعروف بعوسكات والرمان والبرتقال
والليمون ويتردد على ميناها كثير من السفن التجارية وفيها معادن كثيرة من المرمر والحديد والرصاص
والذهب والفضة والزمرد لكنها لا تستغل وكان لهذه الجزيرة قد عاشرت عظمة وفيها آثار كثيرة
وهي مسقط رأس فيثاغورس الفيلسوف وغيره واشتهر أهلها في القرن السادس قبل الميلاد بالسير
في البحار اليونانية وفاقوا بقرتهم البحرية سائر الامم الجاورة لهم وبعده وفاة بوليكراتس الذي اختلس
حكومتها (٢٢٥ - ٥٢٢ ق م) أخضعها للفرس ثم استقلت لما انتصرت على عمارة كسرى
البحرية في خليج ميكال المذكور ثم خضعت لآثينا (٤٤١ ق م) ثم استولى عليها اليساندر
(٤٠٣ ق م) ثم أعيدت للفرس (٣٨٧ ق م) بعاهدة أنتالكيديس ثم رجعت لآثينا وانضمت
بعدها للملكة برغامس ثم أخذها الرومان (١٣٩ ق م) واستولى عليها العرب وتركوها بعد مدة
ثم استولى عليها البنادقة ثم الجنويزيون ثم فتحها العثمانيون (٩٥٧ هـ ١٥٥٠ م) وفي سنة
١٨٢٤ م منحتهم الدولة بعض امتيازات عند استقلال اليونان لاشتراكها في الثورة اليونانية وذلك
بمساعدة دول أوروبا وبإمتنان يكون الواجب اليوناني وان تدفع للدولة سنويا ٤٠٠٠ ليرة عثمانية وقد
أحدثت بعد مصادقة الدولة العثمانية سنة ١٨٥٢ م حكومة دستورية ومجلس أعيان ومجلس
نواب وبالجزيرة حامية عثمانية والى غربها جزيرة نيكارا وهي جيدة التربة وفيها كثير من أخشاب
البناء وفي ساحل الأناضول المقابل لجزيرة سيسام مواقع كثيرة لسوا السفن وكثيرا ما يتردد عليها
المراكب الشراعية تنقل منها المحصولات الى الفرض الكبيرة الجاورة لها

دياتموس او باتموس لها فرضة صغيرة لاتسع الا السفائن الصغيرة والسفن الكبيرة التي
تقصدها ترسو أمام المدينة وهي واقعة شرقي الجزيرة الواقعة بالجنوب الغربي من جزيرة سيسام على
بعد ٢٠ ميلا منها ولهذه الجزيرة نقي بوحنا الرسول وفيها كتب كتاب الرؤيا وعددها سكانها
٤٠٠٠ نسمة

ديروس وهي جزيرة قريبة من سواحل الأناضول وبها مدينة تسمى باسمها ذات فرضة عظيمة
واقعة على الشاطئ الشمالي منها أما الجزيرة المذكورة فجميلة ومن حاصلاتها العسل والضان الجيد
ولا يزيد عدد سكانها عن ٢٥٠٠ نفس وتبعد عن ينوس نحو ١٦ ميلا الى الجنوب الشرقي

ديستاكوي وهي جزيرة ويقال لها كوس أو قوص وهي من أشهر جزائر بحر الأرخبيل واقعة
عند مدخل خليج سيراميك وفرضتها المسماة باسمها واقعة على رأس الجزيرة من جهة الشرق والجزيرة
المذكورة تمتد من الشرق الى الجنوب الغربي على طول ٢٣ ميلا ومسطحها ٢٥٠ كيلومترا وهي
تجاه رأس كريو بين جزيرتي بساراو كلنو وتغرب الى ساحل آسيا الصغرى في رأس الجون المنسوب اليها
محيطها ٦٥ ميلا وسكانها ١٥٠٠ نفس ويتردد على ميناها كثير من السفن التجارية وتعد من
المراكز التجارية صادراتها الحبوب والتجرا والقطن وبها ملاحات ويتصد منها الى مصر الأثمار
خصوصا العنب والتجرا وهو أواها جيد وترتها خاصة. به كان بها سابقا هيكل اسكولاب وهيكل الزهرة
ومدرسة طبية شهيرة وقد استعمرها اليونانيون هذه الجزيرة ودخلت فيما بعد في الاتحاد الدوري ونالت
حريتها في مدة الامبراطور كاونديوس الروماني ثم ضمت الى الامبراطورية الرومانية في عهد

فسبينا فوس ثم استولى عليها فرسان رودس ثم فتحها العثمانيون وهي وطن أبقراط
وبودروم وهي فرضة تجارية امام استانكوى على ساحل الاناضول يتصل منها كتب من
المحصولات الى استانكوى على مراكب شرعية للاهالى

ومرمريس وهي مدينة صغيرة على ساحل الاناضول واسعة المرفأ آمنة جدا محيطها الداخلى
يتفعل على ٢٠ ميلا واقعة تجاه جزيرة رودس ولها تجارة قليلة ويقصدها كثير من السفائن
الشرعية الكبيرة التي تحتوى اليها من الزوابع وقد رست بها الدونمة المصرية بما فيها من الجنود
التي كانت تحت قيادة المرحوم ابراهيم باشا الاخضاع بلاد اليونان (١٢٣٩ هـ ١٨٢٤ م) وكانت
تلك العمارة مركبة من ٨٠ سفينة بين حربية ونقلية وبقرب مرمريس الى الجنوب فى داخل
خليج مكرى جملة مراسى صالحه لرسو السفائن

رودس وهي قاعدة الجزيرة المسماة باسمها واقعة على الشاطئ الشمالى الشرقى مبنية
على شكل نصف دائرة واقعة على جون بين رأسين من الارض محاطة بأسوار وأبراج قديمة من
بناء فرسان ماري يوحنا الذين اترعها المرحوم السلطان سليمان منهم ولها مرفأ ن يفصلها مرسيف
ضيق وكان به فى الطرف الشمالى الغربى من مرفأها قصر رئيس الفرسان الاكبر وهو بناء جميل
شاهق كمل خرابه فى زلزلة سنة ١٨٦٣ م وليس بهذه المدينة آثار قديمة سوى مركز فرسان ماري
يوحنا وقلعة كبيرة منيعة ذات خنادق وهذه المدينة هي مقر الولى العام لولاية جزائر بحر سفيد أى
البحر الابيض وعلى مدخل الميناء الصغيرة برج كان عليه صنم ابولون المشهور بصنم رودس النحاسى
المبنى من أدوات الحرب التي تركها ديمتر بوس بوليو كريت أحمد خلفاء اسكندر وكان من عجائب
الدنيا السبع وقد تقدم وصفه فى صحيفة ١٨٩ من هذا الجزء وقال استرابون ان رودس تفوق
كل المدن لحسن مركزها واتساع شوارعها لكنها غير نظيفة كما ينبغى واحسن ما فيها الابنية العظيمة
القديمة عليها صور ونقوش وكتابات ويظهر انها على مثال ابنية مدينته دلف اه - وقال بعضهم
انه كان بها قديما نحو ثلثمائة تمثال ويتردد الا ن على مينائها كثير من السفن التجارية والشرعية
بين عثمانية واجنبية أما جزيرة رودس فهي من الجزر المهمة ايضا وبها الشكل طولها نحو ٧٠
كيلومترا ومتوسط عرضها يبلغ ٢٣ كيلومترا ومسطحها ١٤٦٠ كيلومترا وسكانها ٣٥٠٠٠
نفس منهم ٢٦٥٠٠ من الاغريق ويفصلها عن القارة مضيق يبلغ عرضه نحو ١٢ كيلومترا
ويحترقها من الشمال الى الجنوب سلسلة جبال ارفعها جبل ارناميرا ويرى بها عدة من هيرات أشهرها
نهر فيسكا واشتهرت هذه الجزيرة قديما وحديثا بحال منظرها وجوده هوائها وكثرة نباتاتها ويخرج
منها انبذة جيدة وثمار معتبرة وقد التقت أهلها الا ن لاشجار الزيتون فرعوا منه قدرا عظيما
وإصطادا الاسفنج من شواطئها وأرضها بركانية وقد حدثت بها عدة زلازل قوية أشهرها زلزلة سنة
١٨٦٣ م التي خربت نحو ٣٠٠٠ منزل ويظهر به الجراد فى بعض السنين فيخرب مزارعها
وكانت هذه الجزيرة تسمى قديما كاريا وانا بيريا ثم دعوا رودس وهو لفظ يونانى معناه الورد
لمابنت بها من اشجاره الكثيرة ويقال ان أول من سكنها قوم يقال لهم النيلشين اشتهروا بالصنائع
والملاحة والغالب انهم من الفينيقيين ثم خلفهم قوم آخرون يقال لهم هليادى اولاد الشمس

ورعا كانوا من الفينيقيين أيضا فأسسوا بها عدة مدن ثم نزلها البيلاج أتى اليها بعضهم من جزيرة لسبوس وبعضهم من بلاد تساليا وأخيرا نزل بها الدورون الذين انضموا الى آخرين من جنسهم وأحدثوا بها حكومة متحدة وقد اشتهر واوقوى أمرهم بما كان لهم من السفن العديدة التي نشرت تجارتهم في أنحاء كثيرة وأسسوا عدة مستعمرات بايطاليا وفرنسا و صقلية وكيليكيا وبالجزائر الصغيرة المجاورة لروندس ثم ان دارا ملك الفرس أخضع هذه الجزيرة ولم تخلص من سلطتهم الا بصلح سيمون (٤٤٩ ق م) وبعد ذلك اعترفت لاينا بحق الرياسة وفي سنة ٤١٢ ق م دخلت ضمن معاهدة اسبارطة ثم انضمت الى أثينا (٣٧٧ ق م) ثم لها نالت حربها تمام ثم أخضعتها أرطيمس ملكة بلاد كارييا (٣٥٥ ق م) ولم تمكث على ذلك الا قليلا لانها نالت استقلالها بمجرد موت الملكة المذكورة بتدخل الاثينيين لخلاصها (٣٥٤ ق م) بخرصات ديموستين ثم ان رندوس خضعت لاسكندر المقدوني فاحسن معاملتها ومن هذا العصر صارت أول مملكة بحرية بين ممالك اليونان بسبب الخطا ط أثينا والسامات الاسكندر قام الرودسيون وطردها وعساكره واتحدوا مع بطليموس ملك مصر وبذلك أثارت عليها غضبا تتغيرون ملك ليديا فأنى ابنه ديميتريوس بوليوكريت وحاصرها حصارا اشهر ذكره في التاريخ القديم (٣٠٥ - ٣٠٤ ق م) ثم اتحدت مع رومية ضد فيلبس المقدوني وضد انطيوخس ملك سوريا (١٩١ ق م) واكتسبت بعد هزيمة هذين الاميرين النصر على أسطولين واستولت على بلاد ليسيا وقسم من كارييا الآن لمجلس السناتو رومية أساء الظن في اخلاص أهلها فاتزع منهم هذه الاملاك المذكورة (١٦٧ ق م) ثم انها قاومت متريدات مقاومة عنيفة الا أن سيلوس وقيصر أحسنوا معاملته سكانها في مدة حكمهم ثم ان القنصل كاسيوس أخضعها لامتناعها عن اعاقته بالسفن (٤٢ ق م) ونهب عاصمتها ولما تولى انطوان رفع عنها الخراج واعتبرها مملكة ذات استقلال داخل في ثمان كلوديوس نزع منها هذا الامتياز (٤٤ م) ولما أتى ديسياسوس حرمها مما كان يبق لها من الامتيازات وضمها الى جزيرة ساموس والى غيرها من الجزر المجاورة لها وكثر من منها جميعا اقليميا تسمى باقليم الجزائر وجعل مدينة رندوس عاصمة له ولما دخلتها الديانة النصرانية صارت رندوس قاعدة لجميع أسقفيات جزائر سكلادة وكانت هي تابعة لبطريك القسطنطينية ثم ان العرب أغاروا عليها (٦٥٦ و ٧١٣ و ٨٠٧ م) وضرر بواعليها جزية وأدخلوا بها عناصر المدن واستتبوا بها كثير من النباتات وفي أوائل القرن الرابع عشر من الميلاذ كانت مقسومة بين امراء من الاغريق والعثمانيين وفي هذا الوقت استولى عليها فرسان القديس يوحنا (١٣٠٩ م) عندما اضطروا الى اخلاء اورشليم وتمكنوا اثناء إقامتهم بها من رد هجمات العثمانيين (١٤٤٤ و ١٤٨٠ م) الا انهم ألجؤا الى مبارحة الجزيرة نهائيا بعد أن قهرهم السلطان سليمان القانوني مسددة رئيسهم فلارى لتعديهم على سفن التجارة والحجاج (٩٢٨ هـ) ومن هذا الوقت بقيت في يد العثمانيين يخفق عليها علمهم الى الآن

وترسوتة وهي فرضة بجزيرة كربة القريبة من رندوس واقعة في الرأس الشمالي الى الغرب

منها وعق الماء في داخل الفرضة المذكورة يبلغ أربع قامات ونصفا

وسميت اندريا وهي فرضة واسعة آمنة للغاية واقعة في غربي بندر جزيرة استرو وبالواقف

بوقازها الى الشمال وهذه الجزيرة واقعة غربي جزيرة استانكوى على مسافة ٢٠ ميلانها
وباغلب الجزائر الصغيرة التابعة لولاية بحر سفيد العثمانية التي لم تتعرض لذكرها
لعدم أهميتها كثير من الفرض الصغيرة يصلح بعضها لسوا السفن والبواخر الكبيرة
وأضاليا أو نطاليا أو نطاليا فرضة واقعة على رأس خليج منسوب اليها في ساحل جنوب آسيا
الصغرى وهي من ولاية قونية عدد سكانها يزيد عن ١٢٠٠٠ نفس وهي مدينة حصينة مبنية على
صخور على شكل مدرج ويحيط بها أسوار محصنة بأبراج مربعة أشرفت الآن على الدمار ومن
صادراتها الصوف والقطن والزيتون والخشب والملح والقطران والحبوب والشمع والماشية وبها آثار
قديمة ويقال ان أنالس فيلادلف ملك برغامس اختطها فسميت أتالة ثم حُرقت الى اسمها الحالي
ويقال ان بولس الرسول قد سافر منها الى انطاكية

علامة أو الأنية وهي فرضة تجارية واقعة على رأس ممتد في البحر على الساحل الشرقي من
نطليج أضاليا أمينة يقصدها كثير من السفن التجارية الشراعية تصدر منها الفواكه والاشباب
للعمارات والحريق وأغلب الساحل الشمالي من هذا الخليج صالح لسوا السفن ومنه تشحن
الاحطاب ولكنه غير أمين اذ يشتد فيه هبوب الرياح الغربية وتؤثر فيه الزوابع تأثيرا خطرا
على السفائن

وسلايين وهي ثغر تجارى بجزيرة قبرس على الشاطئ الشرقي منها أسسها أحد اولاد ملك
جزيرة سلايين التي بخليج سلاينك وقد أخضع هذه المدينة والجزيرة الملك أموزيس ملك
المصريين (٥٥٠ ق م) ثم استولى عليه امير الفارسي (٥٢٥ ق م) وأبقى لها ملوكها الوطنيين
وحريتها الداخلية بشرط أن تجعل أساطيلها وجنودها في تصرفه ثم انها نالت حريتها في صلح
مدينة سيبيوم (٤٤٩ ق م) ثم ان أحد الفينيقيين المتعصبين للفرس ثار و خلع ملكها
ايديمون وأجلس مكانه آخر يدعى ايفاغوراس من عائلة أخرى (٤١١ ق م) فأخضع كل الجزيرة
تقر بيا بعد ثلاث مدن فلما تعصبت وطلبت من ارتخشيارش الثاني ملك الفرس خلاص
الجزيرة من يدها الطاغية فسير اليها جيشا خلع ايفاغوراس المذكور ووجه لها كمال على سلايين
بشرط ان يدفع له جزية (٣٨٥ ق م) وسار خلفاؤه من بعده على هذه الشروط لاسكندر المقدوني
(٣٣٠ ق م) ولبطليموس (٣١١ ق م) ولدمتريوس بوليوكريت (٣٠٧ ق م) ولما أخضع
بطليموس هذه الجزيرة ثانية (٢٩٥ ق م) محاجج جميع ملابها من الممالئ الصغيرة وصارت سلايين
قاعدة لكل الجزيرة ومقاما للحاكم المعين من طرف ملك مصر ثم صارت مقاما أيضا للحاكم الروماني
حينما انضمت هذه الجزيرة ببناء على ما عرضه كلوديوس الى أملاك الجمهوريه وقد خربت الزلازل
هذه المدينة مدة قسطنطين بجددها ودها قسطنطينيا ثم ان العرب أخضعوها هي والجزيرة
مدة هرقل وذكروا في اليونان أن مرافها كان جيذا وهي أول مكان نزل به بولس وبرنابا في
سياحتهما الاولى

وارناكا وهي احدى ثغور جزيرة قبرس البحرية واقعة على الشاطئ الشمالي الشرقي
على بعد ٣٠ كيلومترا من الجنوب الشرقي من لقوشة (تيقوسيا) سكانها ٥٠٠٠ نفس

تجارتهم الحبوب والقطن والحرير والانبذة وبهم املاحة مهمة وبها تنقى قنصل الدول الاجنبية
وتجار الفريش

وليامسول وهي احدى ثغور جزيرة قبرس واقعة على الشاطئ الجنوبي الشرقي تبعد ٧٠
كيلومترا من جنوبي نيقوسيا ولها مرفأ صغير وتشتهر بالانبذة وبها آثار قديمة ويتردد عليها
سفن كثيرة

وفانغوسا وكانت تسمى قديما رسنوى وهي احدى الثغور البحرية من جزيرة قبرس أيضا
على الشاطئ الشرقي منها تبعد ٣٧ كيلومترا من لفقوشة وقد طمست الرمال الآن مرفأها
أسستها رسنوى أخت بطليموس فيلادلف ملك مصر وقد تمتدح بها غوى دولو زيان ملكا
على قبرس (١١٩١ م) ثم استولى عليها الجنويون (١٣٧٢ م) ثم البنادقة (١٤٨٩ م)
ولما ألقى عليها السلطان سليم الثاني الحصار قاومته زمنا ثم أخذها عنوة (١٧٨٨ هـ) وكان
عدد سكانها اذالك ٧٠.٠٠٠ نفس وقد خربتها زلزلة (١٧٣٥ م) وهي الآن قليلة
السكان كثيرة الاطلاع وقد شرع الانكليز بعد احتلالهم لها في اصلاح مينائها ويتردد عليها الآن
سفن تجارية كثيرة

أما جزيرة قبرس المدكورة فهي من أكبر جزائر البحر المتوسط الابيض احتلتها الانكليز
سنة (١٨٧٨ م) على شروط معلومة بينهم وبين الدولة العثمانية بينها وبين ساحل الاناضول
نحو ٦٥ كيلومترا وتبعد عن اللاذقية بنحو ١٠٤ كيلومترا وعن كريد ٥٣٠ كيلومترا
الى الشرق ويبلغ طولها نحو ٢١٠ كيلومترا وأكبر عرض لها يبلغ ٨٠ كيلومترا وقاعدتها
نيقوسيا وتسمى عند العثمانيين لفقوشة وعدد سكان الجزيرة ١٨٦.١٠٠ نفس منهم أكثر من
٥٥٠٠٠ من المسلمين ويقال انه كان بهذه الجزيرة من السكان قبل الفتح العثماني نحو
٤٠٠٠٠ نسمة وشواطئها كثيرة التلسنات وبها عدة رؤس ويحترقها سلسلة جبال شاهقة
كثيرة الغابات أرفعها جبل سنت كر واعليه أديرة أغريقية غنية جميلة ويروىها وديان تجف
في فصل الصيف ومناخها جيد معتدل في الشمال ويشهد البرد في جبالها شتاء وصيفها شديد الحرارة
في الجنوب وكان بها في القديم معادن ذهب وفضة ونحاس خصوصا ومنه اسمها وقد اشتهرت سابقا
بالخصوبة أما الآن فلا يزرع منها الا القمح القليل ومن حاصلاتها الخنطة الجيدة والزيت والقطن
والقنب والتوت والتبغ والخروب والثمار والانبذة وقد اشتهرت بذلك في كل عصر ومن حيواناتها
البغال والخيول والنعاج والمعز والخيل وأصل القنبيط من هذه الجزيرة وكانت مقسومة الى ثلاثة
صناجق وقت أن كانت في حكم العثمانيين وقد احتل هذه الجزيرة الفينيقيون والاعريق من أزمرة
طويلة وكان بها في وقت استيلاء الفرس عليها تسع ممالك صغيرة اشتهرت بخصوبتها وكثرة
حاصلاتها النباتية ولم يكن الاغريق تحت قيادة بوسانياس وسميون من زرعها من يد الفرس ثم
خضعت لاسكندر المقدوني ثم استولى عليها الرومان البطالسة (٥٨ م) وقال استرابون
ان سكانها كانوا يبلغون ١٠٠.٠٠٠ نسمة وبعد تجزئة دولة الرومان صارت قبرس من نصيب
الدولة الشرقية وكان يحكمها من العائلة المالوكية وفي سنة ١١٨٢ م استقل فيها الحق كومنين

وبعد أن مضى على حكمه تسع سنوات انتقلت الجزيرة إلى عائلة لوزنيان وبقيت تابعة لهم إلى سنة ١٤٨٩ م ولما استولى عليها البنادقة بعد ذلك انتزعها منهم العثمانيون (٩٧٩ هـ) وقد احتلها محمد علي باشا والي الديار المصرية (١٢٤٨ هـ) إلا أنه اضطر عقب ذلك بقليل للخروج منها وبعد مؤتمر برلين احتل الإنكليز هذه الجزيرة من العثمانيين وعقدوا معهم لذلك شروطاً سنة ١٨٧٨ م بدعوى حماية بلاد الأناضول من هجمات المسقوف وقد اكتشف بها علماء العاديات آثاراً قديمة مهمة جداً منها ما قد علم منها أن أهل هذه الجزيرة كان لهم في أزمنة قديمة جداً حروف هجائية مخصوصة ويوجد بدار تحف اللوفر ونيويورك ولوندرة والاسانية جملة آثار قديمة استخرجت من هذه الجزيرة

وطرسوس وتسمى قديماً طارس وهي قاعدة لواء من ولاية أطننة (أنه) على نهر قره صو المسمى قديماً سيدنوس عند مصبه في البحر سكانها نحو ثلاثين ألف نفس ويحيطها بساتين واسعة والمدينة الحديثة تشغل أقل من ربع مكان المدينة القديمة ومن صادراتها القطن والعنق والصوف والنحاس وغير ذلك وكانت من أعظم المدن ومحطاً عظيماً للتجارة بأسيما عقدها انطوان مجلساً للنظر في الاختلافات التي كانت حصلت بين كليوباترة وأخيها بخصوص نأج مصر وكانت مدة الرومان اشتهرت على أثينيه والاسكندرية بدارسها وصارت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد قاعدة لبلاد كيكيا وبها ولد ابولس الرسول واستخرجت منها آثار نفيسة بدار تحف الاستانة الآن قال أبو الفداء طرسوس مدينة مشهورة كانت ثغراً من بلاد الروم على ساحل البحر الشامي وقال ابن حوقل طرسوس مدينة كبيرة عليها سوران من حجارة وهي في غاية الخصب وبينها وبين حد الروم جبال هي الخابزين الروم والمسلمين اه وهي تضاهي اسكندرونة في رداءة المناخ

واسكندرونة واقعة إلى الشمال من انطاكية تبعد عنها ٢٣ ميلاً وهي على ريف البحر على الجانب الشرقي من جون يسمى باسمها وهي بقضاء بيلان من ولاية حلب وتبعد ٦٢ ميلاً عن حلب إلى الغرب عدد سكانها ٢٥٠٠ نفس وقد ترقى كثيراً في السنين الأخيرة أما عرفوها فواسع يبلغ عمق المياه به إلى عشر قاعات ولما كانت هذه المدينة ثغراً تجارياً بالحلب وانطاكية بل ولجميع المدن الواقعة بين الاديين النهرين والجزيرة والعراق كانت من أشهر المرفأ التجارية العثمانية وتجارها الجيوب والزيت والصابون والعنق والحري والصوف والقطن والتبغ وبها آثار قلعة قديمة وقد شيد هذه المدينة اسكندر المقدوني تذكراً لانتصاره على دار الثالث (٣٣٣ ق م) في شمال سهل كان يسمى اسوس أما خليج اسكندرونة المسمى قديماً سينوس اسيكوس فهو جون من البحر المتوسط يتصل به من الجنوب رأس الخيزر ومن الشمال قره طاش برون وهو مرفأ أمين للسفن التي ترسو به وأعمق المياه فيه لا يزيد عن ٥٠ قامة وترسو السفائن في أغلب الاوقات في الجهات التي عمق مياهها يبلغ خمس قاعات وجميع الساحل بقرب راس قره طاش صخري على امتداد ميلين ويوجد دائماً الجون المذكور مياه عذبة

والسويدية واقعة على مصب نهر العاصي على بعد ميلين من جنوبي مدينة سلوقية القديمة التي أسسها استوقيوس نيكاتور ومن صادراتها الحرير والحبوب ولها مرفأ تجارة رأجة وسكانها يبلغون ٨٠٠٠ نسمة

ويمن القبان صالحه لسوا السفن وتقصدها السفن في الغالب متى هبت رياح الجنوب الغربي
الصفية الشديدة وبينها وبين اللاذقية تجارة
واللاذقية وهي تبعد عن البحر نحو ميل وفرضتها غير مأمونة ترسو السفن الشراعية والبخارية
التجارية أمامها في مكان عمق المياه به يبلغ عشر قامات وهذه المدينة بناها الملك سلوقموس نيكاتور
وسماها على اسم أمه وهي على الشمال الغربي من رأس داخل في البحر وبين المدينة والميناء نحو نصف
ساعة وفيها بناؤا بنية قديمة وكانت اللاذقية من المدن المعبرة في الزمان القديم وكانت مقاما
للتنوخيين أمراء تلك الاعمال وهي من القديم نعت تجارى ومن متاجرها الآن التبغ والحرير
والقطن والسمسم والخنطة والشعير والذرة والزيت والعسل والسمن والشع والصوف وأهلها
يبلغون نحو ٤٠٠٠ نس و قد حصل فيها سنة ١٧٩٦ م زلزلة خربت منها جزأ عظيمًا وقد
أخذت حالتها العمومية تترقى الآن

وابطلف وهي فرضة واقعة في شمالى طرسوس ويرى من آثارها أنها كانت قديما فرضة
عظيمة وبها جلة زوارق وسفائن شراعية للاهالى
وطرطوس المسماة قديما ترادوس ومعناها قبالة ارادوس أى جزيرة رواد ووردت في كتب
العرب باسم انطرسوس وهي الآن قريبة من الخراب أهلها لا يزيدون عن ٦٠٠ نفس يسكنون
في بيوت داخل قلعة واسعة ويقال ان القلعة المذكورة من بقايا الفينيقيين القدماء وهي على رأس
جبل يرتفع نحو ٦١ قدما عن سطح البحر وتساهد من الساحل بمنظر حسن

أما جزيرة رواد المقابلة لهذه المدينة المسماة قديما ارادوس فهي جزيرة صخرية ارتفاعها ٧٩
قدما عن سطح البحر واقعة على بعد ميلين من الجنوب الغربي لطرطوس طولها ٨٠ يارده ومحيطها
١٥٠ خطوة فيها كثير من بقايا ابنية الفينيقيين القدماء صار بينها وبين الساحل الآن مرسى أمين
للسفن التجارية الكبيرة وليس فيها ماء الا ما يجمع من الآبار من ماء المطر وترسو السفن العظيمة
في شمال الجزيرة بمكان عمق الماء به ست قامات وأهلها الآن قلائل أكثر أعمالهم في البحر وقد اشهر وا
سابقا في سلوك البحار وأصلهم من صيدا ويقال ان قلعتها عملت للمحافظة على سكانها من لصوص البحار
وطرابلس قال أبو الفداء طرابلس مدينة موقعا على طرف داخل في البحر فتحها المسلمون سنة
٦٩ هـ وخربوها وعمرها على نحو ميل منها مدينة سموها باسمها ٥١ وهي الآن قسمان المدينة
والميناء المدينة فعلى جاني نهر أبي على أو كديشا والمياه دائرية في شوارعها وأهلها نحو ١٣٠٠٠
نفس وهي في مكان المدينة القديمة وقيل ان سكانها القدماء من صور وصيدا ورواد لما نزلوا اختط
كل قوم منهم محلة على حدة ثم انضمت تلك الابنية الى واحدة دعيت باسم طرابلس لان معناها
في اليونانية المدن الثلاث وترسو بها السفن في مكان عمق المياه به سبع قامات وفي دليل المرافئ
والملاحاة الانجليزية ان السفائن التي تريد البقاء بهذا المرفأ لا يلزمها ان لا تستقبل في مكان يكون
عمق المياه به أقل من عشرين قامة لتجنب ما عساه ان يحدث من الاخطار من تغير الهواء ليلا ٥١
وليس تجاراتها واسعة وصادراتها الحرير والاسفنج والصابون والعفص والتبغ والفواكه ويقال
ان الذى بنى قلعتها يومند الطلوشى (١١٠٣ م) مدة حروب الصليب وكان بها لما حصرها مكتبة

قد اعتمنى بجمعها القاضي أبو طالب حسن اشتملت على ٣٠٠٠٠٠ مجلد في جميع العلوم فأحرقها الصليبيون مع علمهم بها وفي سنة ٥٥٨٤ هـ حاصرها صلاح الدين الأيوبي ملك مصر فلم يفتحها ثم فتحها جيش مصر (٦٨٨ هـ) ثم أخذها منهم ملك قبرس (١٣٦٦ م) وأخرّب الأماكن التي على شاطئ البحر إلى اللاذقية وعلى رأس اللسان القريب من الميناء جملة جزائر صغيرة تمتد إلى جهة الشمال الغربي على نحو عشرة أميال وعلى الجانب الشمالي من اللسان المذكور ستة أبراج كانت بنيت للمحافظة من مهاجمة الأعداء بحرا

بيروت مدينة واقعة على سواحل سوريا بالشمال الغربي من لسان طويل داخل في البحر ومرسأها الطبيعي غير أمين ولكنها معرضة للرياح الغربية كانت السفن ترسو في خليج مار جرجي بالقرب من مصب نهر بيروت وهي هناك أيضا عرضة للخطر إذا عصفت الرياح الشمالية والمدينة على نحو ساعة من هذا الرأس وكان يحيط بهذه المدينة سور وقلاع هدمت بعضها السفن الانكليزية سنة ١٨٤٠ لما أتت لخراج إبراهيم باشا نجل المرحوم محمد علي باشا إلى الديار المصرية من بلاد الشام وفيها كثير من الآثار القديمة اختفى أكثرها تحت الاطلال ولذلك كما حفروا في أرضها يجدون كثيرا من تلك الآثار وقد ظهر في بعض الاماكن ابيسة لم تزل على حالتها الاصلية تحت التراب و ابيسة بيروت حسنة جيدة وماؤها عذب غير أنه قليل بالنسبة لعدد سكانها وهو أؤها الطيف حار رطب في الصيف وهي واسعة التجارة وتعتبر فرضة دمشق ومن أعظم مدن الشام وتردد عليها سفن تجارية كثيرة وعدد سكانها يزيد عن ٧٥٠٠٠ نفس وهي قاعدة ولاية مضافة إليها وقد اشتهرت في مدة الرومان حتى ان أغسطس قيصر منحها حقوق المدن الرومانية الاصلية وسميها على اسم ابنته جوليا فيلكس و بنت الرومان فيها جملة مباني فاخرة وفي القرن الثاني اشتهرت بيروت بمدرسة علم الفقه وأنها الطلاب من اليونان ومصر ثم بعد ما فتحها المسلمون أخذها الفريج (١١١٠ م) مدة الحروب الصليبية واسترجعها منهم صلاح الدين الأيوبي ملك مصر (٥٨٣ هـ) ثم أخذها الفريج ثانية وأخيرا تغلب عليها المسلمون (٦٩٠ هـ) وقدم منها الآن طريق حديدي إلى دمشق وقد ازدادت أهميتها التجارية بانشاء فرضتها الحديثة وبهذه المدينة كثير من مدارس الاجانب والحكومة والمطابع

صيدا فرضة من فرض الشام وكانت قديما واسعة التجارة التي تحولت الآن إلى بيروت وهي على مسافة يوم من جنوب بيروت قال أبو سيفوس المؤرخ اليهودي ان صيدا سميت على اسم صيدون بكر كنعان بن حام بن نوح وهي أقدم من صور اهـ ولها سور وقلاع ويقال ان قلعتها الموجودة بالجانب الجنوبي في أعلى نقطة من المدينة بناها لوزي التاسع ملك فرانسوا (١٢٥٣ م) وكانت صيدا قديما مركز ولاية مضافة إليها حتى قام أحمد باشا الجزائر فاختار مدينة عكا لحصانتها وقد نهب الانجليز قلاعها عند انجراح المصريين منها (١٨٤٠ م) وهي الآن رأس لواء تابع لبيروت وماء النهر القريب منها عذب للغاية عند تخرجه من الباروك وكان لهذه المدينة شهرة عظيمة في زمن الفينيقيين واستولى عليها الاسكندر المقدوني (٣٣٣ م) ثم صارت للولاة مصر وسوريا وأخذها الرومان ثم المسلمون وحصل فيها حروب من الصليبيين وترسو السفن الحربية والتجارية

الكبيرة في داخل الجزيرة على ٤٢٠ خمس قامات ومتى هبت الريح الجنوبية الغربية تلجج البحار
الى الجزيرة والسفن الكبيرة ترسو في مكان عمقه سبع قامات
وصور فرضة قديمة على ساحل الشام ومد ينها واقعة على رأس لسان داخل في البحر وهي في
جنوب صيدا على مسافة يوم منها وبينها وبين عكا مسافة يوم ونصف وهي قديمة جدا اشتهرت أيام
الفيينيقيين بالثروة العظيمة والشهرة التامة وسعة التجارة ومعرفة سكانها بفن ساوك البحر ومهارتهم
في الصنائع ويقال ان قوما من صيدا بنوها قبل بناء هيكل سيدنا سليمان عليه السلام بنحو ٢٤٠
سنة وكان يومئذ اللسان المتصل بالبر الا ان جزيرة وكانت المدينة القديمة على البر ولم يزد عدد سكانها
شيئا وما نزلهم على الجزيرة وفي أيام المنصور ملك آشور (٧٢٠ ق م) كان الجانب الاكبر من
المدينة على الجزيرة وقد حاصرها بختنصر ملك بابل ١٣ سنة ثم حاصرها اسکندر المقدوني
(٣٣٢ ق م) سبعة أشهر ثم افتتحها عنوة وقد تمكن من ذلك بإنشاء طريق في المسافة الكائنة بين
الجزيرة والقارة ولما اتصلت المدينة بالبر صار لجنوده طريق يسيرون عليه وبذلك تمكن جنوده
من الاستيلاء عليها وما زال البحر يقذف الرمال على ذلك الطريق حتى حوله الى أرض واتصلت
الجزيرة بالبر اتصالا محكما وحدث اللسان الذي عليه مدينة صور الآن وقد خربت هذه المدينة
مرارا عديدة ثم نهضت من خرابها وكانت زاوية في مدة الحروب الصليبية ولم تزل هناك آثار قديمة
اعتنى كثيرون من أهلها باستخراجها والتجارة بينها وبين بيروت عظيمة مياهها العذبة تأتي الآن
من رأس العين الواقعة على مسافة ساعة الى الجنوب الشرقي منها ويظن أنها كانت قديما واصله
اليها في قنوات وتجارة صور الآن قليلة وهي التبغ والقطن والتمح وأهل المدينة لا يزيدون عن
٣٠٠٠ نفس والسفائن ترسو في شرق الجزيرة المتصلة بالبر على عمق ست قامات أمام إدارة الجرك
وعكا واقعة الى جنوبي صور على مسافة يوم ونصف منها وكانت تسمى قديما بطوليمائس على
اسم أحد ملوك البطالسة وهي حصينة للغاية ومركز تجارة تلك البلاد وحواليها سهل مخصصة وكان
يأتيها الماء من مسافة أربع ساعات في قنوات على قناطر عالية قديما في جانب كبير منها قائما الى الآن
وأهلها ٣٠٠٠ نفس وفرضتها جيدة والسفائن الحربية الكبيرة لا تقرب من الساحل بل تبقى
على بعد ميلين منه حيث عمق المياه يبلغ ١٥ قامة وورعاست على أقرب من ذلك في عمق خمس
قامات وقاع البحر هناك أكثر رملي وقد اشتهرت عكا في زمن الحروب الصليبية شهرة عظيمة وفي
سنة ١٧٩٩ م حاصرها نابوليون بونابرت بعد احتلاله مصر مدة وكان بعكا أحمد باشا الجزائر
الشهير فقاومه برا وأمسك عليه البحر الاميرال سيدني سميت بالاسطول الانكليزي فالتزم نابوليون
ان ينصرف عنها خائبا وقد رأى من شجاعة الجزائر ومعرفة بقنونه الحرب ما أدهش حتى قال لولاه
لغيرت وجه البسيطة وفي زمن الحروب الشامية بين جيوش محمد علي باشا وجيش الدولة مدة
السلطان الغازي محمود خان حاصرها ابراهيم باشا برا وبحرا ثمانية أشهر ثم فتحها عنوة (١٢٤٨ هـ)
وقبض على واليها وهو يومئذ عبد الله باشا الجزائر وأرسله الى القاهرة وشرع في تحصينها وما زال يقويها
بالآلات الحربية حتى حضرت أساطيل انكلترة والنمسا والدولة العثمانية (١٨٤٠ م) وأطلقت
عليها القنابل وأخذتها فيمادون ساعة من الزمان وبأيتها كثير من محصولات بلاد حوران وهي
تبعد عن بيت المقدس بنحو ١١٠ كيلومترات

وحيفا وهي فرضة واقعة على جون مضاف اليها على سفح جبل وقد تقدمت وترقت أحوالها الآن ويمكن للسفائن ان ترسو أمامها في زمن الصيف على ٤٠٠٠٠ سابع قامات وسكانها يبلغون ٥٠٠٠٠ نسمة وتجارها الحنطة والشعير وغيرهما من محاصيل البلاد ويتصدر من مينائها في السنة زيادة عن ٦٠٠٠٠٠ كيلة من حنطة ومنها شعير وذررة وليمون أفحة ممسم وفرضتها أمينة قال ياقوت حيفا حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا ٥١ وربما كانت حيفا هي سيكانيوم القديمة وهي مدينة للفنيين لم تكن بعيدة عن عكا وفي سنة ١٨٦٨ م جاء حيفا قوم من مملكة تورنبرغ الألمانية وأنشؤا في الجهة الغربية منها على مقربة من موقع حيفا القديمة مستعمرة متقنة البناء كثرت فيها الصناعة والزراعة فاحيا كثيرا من الارض وأوجدوا مراكب مخصوصة تسير بين حيفا وعكا والناصره وقد تساهلت معهم الدولة العثمانية لرغبتها في اصلاح أراضي تلك الجهات

وما فاهي فرضة على ساحل البحر المتوسط أيضا وفيها آبار وبساتين كثيرة وأبنيتها جيدة متينة كلها معقودة بالحجارة ولها تجارة واسعة تأتي اليها من محاصيل داخلية البلاد وهي فرضة لبيت المقدس تبعد عنه ٤٠ ميلا تقريبا وبينها وبينه الآن طريق حديدى وقد أخذت أحوالها في الترقى وسكانها نحو ١٦٠٠٠ نفس وأعظم نقطة ترسوفها البواخر والسفائن التي تقصدها كائنة على بعد نصف ميل تقريبا منها على عمق تسع قامات وقاع البحر فيها رملي وأمامها صخور هائلة تجعل البحر يضطرب حتى في أوقات سكونه وهذه المدينة قديمة جدا حتى زعموا أنها كانت في عهد نوح عليه السلام قبل الطوفان وأنه بنى فيها أو بقر بها القلث وقد نقل المؤرخون ان تغور يافا كان من المدن البحرية التي أصابت سبب دان وكان اسمها (جافو) ومينائها معدودة من أقدم موانئ العالم وكان حيرام ملك صور ينقل اليها الارز لبناء هيكل سيدنا سليمان وقد لقبها اليهود باسم جوبا أى الظريفة وقد عانت كثيرا من الخطوب سيما في وقائع المكابيين وحروب الرومان وصارت مأوى للقرصان وقد أحرقها ستوس وقتل من سكانها ثمانمائة ألف وفي القرن السابع للميلاد استولى عليها العرب ثم احتلها الصليبيون ثم دخلت في حوزة ملوك مصر ثم أخذها السلطان سليم الاول واحتلها نابوليون بونابارت عنوة (١٧٩٩ م) وفي سنة ١٢٤٨ هـ استولى عليها محمد علي باشا والى الديار المصرية الى أن استردتها الدولة العلية سنة ١٢٥٦ هـ

تغور الدولة على بحر الادرياتيك - للدولة على ساحل هذا البحر عدة تغور أشهرها ما يأتى دراج أودوراز وأودوراتس وهي فرضة حصينة واقعة في منتهى خليج مسمى باسمها سكانها ١٠٠٠٠٠ نفس حصونها شديدة المنعة ومينائها أمين ولها تجارة مع سائر الاقطار عن طريق ترستيه وايطاليا يصدر منها التبغ والزيت والخبواب والخشب وقد حاصر قيصر بومبيوس بهذه المدينة وقهر روبرت غيسكر وهو يقود خمسة عشر ألفا من النورمندين الكسيس كومنين الثاني ملك القسطنطينية (١٠٨٢ م) وفي مدة الحروب الصليبية صارت هذه المدينة دوقية تابعة لامراء انجو (١٢٩٤ م) ثم استولى عليها البنادقة (١٣٨٦ م) ثم ضمها السلطان بايزيد الثاني للدولة وهي الآن رأس سنجق من ولاية اشقودره

أولونيه أو فالون فرضة عثمانية من ولاية يانيسه مر فوها عظيم واقعة على جون ينسب

اليها في بحر الادرياتيك سكانها ٦٠٠٠ نسمة كثيرة المستنقعات رديئة المناخ

وربه ويزه فرضة عظيمة من ولاية يانية واقعة في مدخل خليج ناردة على بعد ٢٩ كيلومترا الى الجنوب الغربي من بلدة ناردة سكانها ٩٠٠٠ نسمة ومن صادراتها الزيت والثمار والصوف والحبوب والتبغ استولى عليها العثمانيون (٩٤٥ هـ) ثم أخذها البنادقة (١٦٨٤ م) واحتلها الفرنسيون (١٧٩٧ م) ثم أعيدت الى العثمانيين وفي مدة تبسه دلتلى على باشا والى يانية المشهور حصلت فيها وقائع هائلة وهي الآن مركز الاسطول العثماني في مياه الارناؤوط يقم فيها قائد من قواد البحر (قومادور) ويجوارها انتصر خيرا الدين باشا بارباروس على سفن الدول المتحدة التي كانت تحت قيادة اندريادور يانصر امبنا سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) ويوجد للدولة جملة فرض أخرى بسواحل البانيا على الادرياتيك ضربنا عن ذكرها صفا قللة أهميتها

أما فرض الدولة في سواحل الحجاز واليمن وفي خليج العجم فقد سبق الكلام عليها في الفصل الثالث من الباب الثامن من هذا التاريخ الآن للدولة على خليج العجم فرضة مهمة وهي وان كانت ليست واقعة تماما على ساحل البحر الا أنه لما كان يمكن للسفن البحرية العظيمة ان ترسو امامها اعتبرناهما من الفرض البحرية وهذه المدينة هي مدينة البصرة وهي مدينة بالعراق العربي بناها سيدنا عمر رضي الله عنه (١٧ هـ) واقعة على رأس الخليج العجمي بعيدة عن مصب شط العرب بنحو ١١٠ كيلومترات وللدولة فيها أسطول مركب من ستة سفائن حربية للمحافظة على سواحل نجد والبلاد العثمانية في الجهات المذكورة وبها ايضا شركة بحرية عثمانية لها عدة سفن تحمل المتاجر والركاب بالفرات وغيره وسكانها يبلغون ٦٠٠٠٠ نسمة

وأما فرض الدولة العثمانية في طرابلس الغرب فقد سبق الكلام عليها في الفصل الثاني من الباب الثالث عشر من هذا الكتاب وللدولة فرض أخرى في بلادها الحقيقية ضربنا عن ذكرها صفا قللة أهميتها التجارية والحربية

(الفصل الثالث)

منشأ آل عثمان وظهور دولتهم

ذهب كثير من المؤرخين كابن خلدون وابن الاثير وغيرهم من العلماء المتقدمين مذاهب شتى في أصل منشأ آل عثمان حتى تضاربت أقوالهم واختلفت آراؤهم الا أن مؤرخي العثمانيين الذين هم ولا شك أعلم بأصل منشأ سلاطينهم من غيرهم مثل خير الله ونعيم اوراشد وجودت باشا ومنجم باشا وجلي وغيرهم من فحول العلماء المؤرخين ذهبوا الى أن أصل شجرة آل عثمان التي ابتدأت سلطنتهم من عهد السلطان الغازي عثمان خان يتصل فرعها بيافت بن نوح عليه السلام لان الغازي عثمان هو ابن الامير (ارطغرل) بن (سليمان شاه) بن (قبالب) بن (قزل بوغا) بن (ياتمور) بن (قابلمغسه) بن (طغرا) بن (قراينو) بن (بانيقر) بن (بولغاي) بن (باباستقور) بن (بوقتمور) ابن (ياساق) بن (حميده) بن (اقلق) بن (ققاري) بن (جكتمور) بن (طورج) بن

(قزل بوغا) بن (يماق) بن (باشبوغا) بن (جورمن) بن (بايسو) بن (طغرا) بن (سويج) بن (جاريقا) بن (قورماش) بن (قورخاد) بن (بالجق) بن (قاس) بن (قراغلان) بن (سليمان شاه) بن (فرحلو) بن (يورلوغان) بن (بايمور) بن (تورمش) بن (كوك ألب) بن (أوغون) ابن (قورخان) بن (قاي خان) بن (أبولجاي) بن (ماجيه) بن (أبي الحارث) بن (يافت) بن (نوح) وقيل في بعض الروايات ان قاي خان المذكور هو عيص بن اسحق عليه السلام وقال المؤرخ نشري ونشاني ان قاي خان هو ابن بولجاي بن يافت بن نوح عليه السلام وأيدت ذلك أقوال المؤرخ علي جلبي وخلافه واتفق الجميع مع اختلاف أقوالهم على ان فرع الاتراك يتصل الى يافت ابن نوح عليه السلام وقد اتضح من عمود النسب هذا ان أجداد آل عثمان من قديم الزمان أمراء وخطات وسلطين في ديار تر كستان

تظهور آل عثمان خلد الله ملكهم - اعلم انه لما أغار جنكيزخان سلطان المغول سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) على بلاد آسيا الغربية آتيا من الشمال نرج سليمان شاه بن قيا ألب من سبط قاي خان وكان نازلا في أواسط آسيا بصحراء ماهان بجهات مر ومهاجر مع نحو ٥٠ ألفا من قبيلته ومازوا يسرون يتخيرون المنازل والاعشاب حتى استقر واجهات أذربيجان وبعدها أقاموا بتلك الجهات نحو ست سنوات هاجم السلاحقة خراسان وخوارزم وقتحوها فقتل سليمان شاه راجعا الى وطنه ولما وصلوا الى نهر القرات وأرادوا عبوره غرق سليمان شاه بالنهر المذكور قضاء وقدرا (٦٢٩ هـ ١٢٣١ م) فاخرجوه ودفنوه هناك عند قلعة جعبر ولا يزال قبره يوجد للآن ويُدعى (ترك مزاري) وكان لسليمان شاه المذكور أربعة أولاد وهم سنقور زنكي وكونطوغدي وارطغرل وكوندوز وقع بينهم الاختلاف في الرحلة أو المقام بعد موت والدهم فنهس من اختار متابعة المسير الى بلاده ومنهم من فضل البقاء مع ارطغرل الذي قصد بلاد الاناضول مع أربعمائة بيت من قومه منهم نحو ٤٤٠ فارسا فساروا حتى نزلوا غربا بجهة سمره لو وباسين وضربوا بها خيامهم ولما كانت تلك الجهات غير موافقة لسكناتهم المرة أرسل ارطغرل سنة ٦٣٠ هـ ولده صارو باني بك الى سلطان الروم علاء الدين السلجوقي يطلب منه الحماية ويستعطفه في أن يمنح عشيرته بعض الاراضي الخصبه فذله السلطان جناح الرأفة وأقطعهم أراضي قرهجه طاغ قرب أنقرة وكان بهما يلزمهم من الدف عشاء والمرعى صيفا فأقاموا هناك قري العين وبينما كان ارطغرل يروى بعض الجهات يومامع فرسان من قبيلته اذ صادفوا جيشين في حومة الميدان يستعدان للقتال وكان أحدهما أقل عددا من الآخر فانضم ارطغرل بقومه الى الجانب الضعيف لانه كان يميل دائما لمساعدة الضعفاء ويقال انه وجد هما يتقاتلان وكان أقلهما عددا أشرف على الهرب فركبه حينئذ الغيرة على الضعيف فانضم اليه مساعدا له وكان أحدهما من الجيشين وهو الضعيف السلطان علاء الدين كيقباد بن كيقسرو السلجوقي والثاني لهولا كوخان من أعقاب جنكيزخان ملك المغول فلما قامت الحرب بينهما وسر الله الظفر للسلجوقيين بمساعدة ارطغرل وعشيرته وانقضى القتال وعلم السلطان السلجوقي بذلك استدعى اليه ارطغرل رئيس أولئك الغرباء وبعدها وقف منه على حالته وحالة عشيرته أظهر له عظيم

ارتياحه ومن يدشكره وخلع عليه وعلى أخيه وأقطعهم الاراضى الواقعة بجبهتى طومانج و اسكيشهر
(٦٦٣ هـ ١٢٦٤ م)

وبعد ذلك أخذ ارطغرل فى مساعدة علاء الدين السلجوقى فى أكثر وقائعه الحربية ضد المغول
ودولة توزنطية فكان له أثر مشهور ولهذا زاد السلطان علاء الدين فى الاقطاعات لارطغرل وتنازل له
عن قطعة من بلاده الاصلية و قطعة مما فتحه من دولة القسطنطينية وهى الجهة المسماة الآن
سلطانية أو صيراجى من ولاية قونية فكانت تلك الاراضى بما فيها جهة سكودمهد الدولة
العثمانية ولما وقعت الحرب بعد ذلك بين السلطان علاء الدين والمغول تعرضهم لبلاده فوض أمر
المحافظة على قلعة كونا هية التى استولى عليها المغول للامير ارطغرل فاستردها بعد قتال شديد فعلت
منزلة ارطغرل عند السلطان علاء الدين ولم يزل ارطغرل يقارع أعداء علاء الدين مؤيداً منصوراً حتى
توفى سنة ٦٨٠ هـ بسكود وسنه يتجاوز ٩٠ سنة ولما بلغ السلطان علاء الدين خبر وفاته جزع
لذلك جثداً وعين ولده الغازى عثمان مكانه ولما رآه السلطان علاء الدين من حزنه واجتهاده وانباعه
خطة أبيه فى الغزو والجهاد مده بالاعانة والامداد وأرسل اليه شاربات السلاجقة وهى الراية البيضاء
والخضراء والطبل وكبا تركى العبارة معناها استقلال عثمان بك وبان يكون له فيما بعد كل ما فتحه
من الاراضى (٦٨٨ هـ) ولما ضرب الطبل بين يدي الامير عثمان نهض قائماً على قدميه تعظيماً
للسلطان علاء الدين وقد جرت العادة بعد ذلك بان يقوم السلطان عند سماعه الطبل تعظيماً وتذكاراً
ولازال ذلك متبعاً حتى أيام السلطان محمود حيث أمر بإبطالها ولقبه علاء الدين بلقب بك وسمح له
بان يضرب السكة باسمه وبذكر اسمه على المنابر بعد ذكر السلطان

ولقد كانت عوامل الفساد والضعف دبت اذذاك فى جسم المملكة الرومية وكانت أحوال
ولاياتها غير منتظمة فكان كل حاكم من حكامها المسمى بالتكفور يستبد فى ولايته حسب رغبته
ومشاهه ولما شاهد الغازى عثمان ذلك أخذ فى التضريب بينهم وإلقاء بذور العداوة والشحناء
بين مجموعهم لان الحرب خدعة ولما تمكن من مراده أخذ فى الاستيلاء على ولاياتهم حتى ان حاكم
خرمن قيا المدعو كوسه ميخال وأمثاله من المتفقيين شرعوا فى القاء المفاسد بين الحكام وكوسه ميخال
هذا هو الذى أطلع الغازى عثمان على ما بدره له بقية الحكام من الايقاع به لما بينهم من الصداقة فى
يوم عرس حصل عند بعضهم وقد تدارك الامير عثمان هذا الخطر بحيلة خريبة غريبة ذكرها
المؤرخون وبعده ان أوقع باعدائه استولى على جهات اينه كول وبيله جك ويار حصار وكان اختطف
أثناء العرس العروس وأسرجله من أعدائه وزوج تلك العروس من ابنه أورخان خان وهى السيدة
نيافور صاحبة الامار الخيرية التى لا تزال تنسب اليها بجوار بروسه وولدت له سليمان وخداوند كار
ومراد وقدينى أولاد ميخال هذا يخدمون الدولة بالصداقة والخدم المبرورة المشكورة من بعد أبيهم
لغاية سنة ١٠٠٠ من الهجرة وكانوا يحكمون بالحدود والى وبينما كان كوكب العثمانيين فى
صعود وأمرهم فى ارتفاع اذ أغار غازان خان سنة ٦٩٩ هـ على مدينة قونية وأزال دولة السلاجقة (١)

(١) السلجوقيون هم قبيلة تركية كانت توطنت قبلا فى سهل شمال بحر قزوين وتسمى باسم جدهم سلجوق بن دقن
وكان قائداً من قواد بيغو خان ملك الترك فقغير بيغو عليه ثغاف منه سلجوقى فخرج عنه وقيل انه قتل بيغو وسار بجماعاته

مدة السلطان ركن الدين ثالث أولاد غياث الدين السلجوقي المعروف عند بعض المؤرخين بعلاء الدين الثالث وبذلك استقلت العمال كل باقليمه الذي كان يحكمه وكان من ضمن تلك الحكومات حكومة عثمان بك الغازي نعم ان الامير المشار اليه كان الحاكم المستقل في اقليمه منذ خمس عشرة سنة مضت من هذا التاريخ الا أنه لما جمل عليه من مكارم الاخلاق والوفاء بالعهد كان يعتبر نفسه تابعا لدولة السلاجقة و يقوم بما يجب عليه من الاحترام لسلطينها حتى انه لم يعلن استقلاله تماما الا بعد وفاة السلطان علاء الدين الثاني ولهذا أجمع المؤرخون على اعتبار بدء استقلال الدولة العثمانية من هذا التاريخ وهو سنة ٦٩٩ هـ - ١٢٩٩ م وان كان خالفهم البعض

وكل من أطاعه فاصدا دار الاسلام وسكنوا تحت قيادته بنواحي جند (بليدين من وراء بخارى) في القرن العاشر للميلاد ثم أسلم هو ومن كان معه وصار يغزو الترك الكفار وكان للجلوق من الاولاد ثلاثة أرسلان وميكائيل وموسى وتوفي سلجوق بجند وعمره مائة وسبع سنين وبقي أولاده على ما كان عليه أبوه من غز والكفار يقتل ميكائيل في خلال الحروب وخلف من الاولاد بيغو وطغرل بك وجعفر وبك داود ثم ارتحلوا وزلوا على فرختين من بخارى فأساء أميرها جوارهم فالتجؤا الى الملك تركستان بغراخان ثم وقع بينهم وبينه اختلاف وقتال ثم رجعوا الى جند حتى انقضت الدولة السامانية سنة ٣٨٩ هـ (وهي من الدول الاسلامية سبق الكلام عليها في صفيحة ٢٢٨) ثم حصل بينهم اختلاف يطول شرحه ولما انفصلوا عن بعضهم تمكن طغرل بك المذكور من الامارة وتلقب سلطانا وفتح على التوار خراسان وغيرها من المقاطعات وبعد ان محادولة بني بو به دخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٦ م) في خلافة القائم امر الله واستولى عليها وادعاه نفسه خادما وحارسا للخليفة وعقد للخليفة المذكور على أرسلان خاقان واسمها خديجة بنت داود أخي طغرل بك الذي صار في الحقيقة صاحب السلطة الملكية وملقباً أمير الامراء ولما مات سنة ٤٤٥ هـ (١٠٦٣ م) خلفه ابن أخيه ألب أرسلان وقد اشهر بتغلبه على رومانوس الرابع ملك الروم وأخذ أسيرا وحبسه وقد طرد الفاطميين من سورية وفتح أرمينيا وكورجستان ويقول جيبون المؤرخ الانكليزي ان أحسن قسم من آسيا كان خاضعا لاحتكامه وكانت جيوشه قد بلغت مبلغا عظيما ومات سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) قتلا قتله يوسف الخوارزمي وذلك بعد ما عقد نكاح ابنته ألب أرسلان على ولي العهد المقنن بامر الله ثم جلس بعده ابنه ملكشاه وقد بلغ من الشهامة وامتداد الملك درجة عظيمة حتى صار من أكبر سلاطين زمانه وامتدت ولايته وأحكامه من أول خراسان الى جوار القسطنطينية وفي أيامه قامت ملوك الفرنج بالجزيرة الصليبية فأصعدن التغلب على الشرق وكسرت شوكة الاسلام وكانت قوت الخلفاء وقتئذ قد ضعفت وتمكن السلجوقيون بعد ذلك من الاستيلاء على القدس وبرا الا ناضول وأسسوا ولاية قونية سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ومن وقتئذ سميت آسيا الصغرى بتركية آسيا وفي سنة ٤٧١ هـ ملك تاج الدولة بن ألب أرسلان دمشق ولما مات ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٣ م) حصل بعده كثير من الوقائع يطول شرحها كانت فيها المنازعات مستمرة بين أخيه وأولاده الارابعة بخصوص سر الملك انتهت بقسمة المملكة السلجوقية بين أربعة من العائلة المالكية فاستقلت طائفة منهم بالعراق وطائفة قوت بلاد قرمان وطائفة تولت الشام وطائفة تولت بلاد الروم وقونية وهذا الاخير هي التي قامت على انقاضها الدولة العلية العثمانية كما ذكر قال العلامة ابن خلدون بعد ان وصف السلاجقة لما انتشر السلجوقية في البلاد طالع دخل قتلش بن بيغو بن ميكائيل بن سلجوق بلاد الروم وملك قونية وأقصر او نواحيها ولما مات السلطان طغرل بك ملك العراق قام قتلش ان يتملك ما كان من الملك لظفرل بك منضميا الى ما بيده وان تكون السلطنة كلها له فتوجه بعساكره الى العراق وقصد الري لملكه فقتله ألب أرسلان الذي أخذ السلطنة بعده طغرل بك وذلك في سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) فانهزم عسكر قتلش ووجد مقتولا في المعركة بين القتلى وبقي أولاده ملوكا في الروم اه فقام بالملك بعده ابنه سليمان وملك ما كان تحت يديه من قونية وأقصر او نواحيهما ثم قتل نفسه سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) لما انهزم جيشه في قتال وقع بينه وبين تنش صاحب الشام ثم ملك بعده ابنه قتلش أرسلان وقتل في الحرب الذي قام بينه وبين صاحب الموصل

الفصل الرابع

استقرار الدولة العثمانية وتأسيسها حتى ظهور تيمور لنگ

٦٩٩ - ٨٠٥ هـ

(١) السلطان الغازي عثمان خان

٦٩٩ - ٧٢٦ هـ

لما أعلن السلطان عثمان الغازي استقلاله آناه كثير من علماء وأعيان وأمرائه الدولة السلجوقية المنقرضة ودخلوا تحت حمايته واستمر يجاهد بعد الاستقلال نحو سبع سنوات واستولى من دولة الروم على كثير من الجهات ولما رأى من نفسه عدم القدرة على تحمل مشاق الاسفار لتقدمه في السن نصب ابنه أورشان بك قائد الجنود وكان القسم الذي خص الامير الغازي عثمان يتركب من جزء من اقليم بروسه ومن كافة البلاد الواقعة حوالى جبل أولمبه بالاناضول ولاذ أيضا كثير من أعيان الروم بعدالة الغازي عثمان معترفين بسيادته وبذلك تأسست الدولة العلية العثمانية في

سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) وقيل انه وقع بقرسه في ماء فغرق وقام بعده ولده مسعود واشتهر في وقائع وغزوات كثير تومات سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) وورثه في الملك ابنه قلعج أرسلان وكان ذا سياسة وهيبة عظيمة وعدل وافر واشتهر في عدة غزوات ولما اتسعت بلاد قسمها على اولادها العشر فاضر نفسه بذلك لان أكبرهم قطب الدين ملكك شاه بعد ما قتل على سيواس طمع في ملك أبيه واخوته وقام بحرب وبطول شرحها وقبض على أبيه وأزمه بالافراق على أنه ولي عهد ثم صار يحارب اخوته لا تراخ بمالكهم وفي أثناء ذلك هرب أبو قلعج أرسلان وسار الى ولد نور الدين سلطان شاه فعضمه وعند هار جع قطب الدين الى قونية تارك القتال وخطب لنفسه فيها اوصار بعد ذلك الوالد يتردد في البلاد على اولاده معظما مجيلا الى أن وصل لانه غياث الدين كبخسر والذي لما تكدر مما حصل لابييه من الاهانة قام على أخيه قطب الدين وحاصر قونية وملكها وقبض على قطب الدين ثم مرض قلعج أرسلان ومات سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) واتفق أن قطب الدين توفي بعد أبيه بقليل فاستقر الملك لغياث الدين كبخسر وتم قام عليه أخوه ركن الدين سليمان وأخفمنه قونية فهرب كبخسر الى الشام مستجير بالملك الظاهر بن صلاح الدين وفي خلالها مات ركن الدين سليمان سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) وملك بعده ولده قلعج أرسلان فرجع غياث الدين كبخسر الى بلاد الروم وأزال ملك قلعج أرسلان بن سليمان المذكور فاستقر له الملك من بعده لا اولاد ولما توفي سنة ٦٠٧ هـ ملك بعده عز الدين زحار صاحب ارض روم وهو ٤٤ طغرل قطغر به وقتله ثم مات عز الدين سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) وقام بعده أخوه علاء الدين واتسع ملكه بفتح كثير من بلاد الروم وبلاد التتار وفي سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) وملك بعده غياث الدين كبخسر وفي أيامه استقبل أمر التتار فضحف ملك السلاجقة ثم قتله بمالكه لضيقه سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) وخلفه ولداه عز الدين وركن الدين ولكن تغلب خليفه ركن الدين وانفرد بالملك وهرب أخوه الى القسطنطينية وكان في ذلك الوقت للتتار النفوذ الاكبر واليد العليا والسلاجقة معهم كلاثي ولما قتل ركن الدين سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ م) خلفه ولده غياث الدين ولكن لما كان التصرف بيده البراوانا نائب التتار قام على غياث الدين وقتله لخالفه وقعت منه سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) وقام من بعده السلطان مسعود وفي أيامه اختل نظام سلطنة الروم السلجوقية وقتل مسعود نفسه بالسهم من مضايقة التتار له وبدوقاه وقعت فتن كثيرة بالروم وبطول شرحها ثم خلفه علاء الدين كيقباد وهو آخر من ملك من السلاجقة وقيل إن آخر من ملك منهم ابنه غياث الدين وفي قول آخر إن آخر من قام منهم بالسلطنة علاء الدين وفي آخر أيامه كان ظهور أمر السلطان عثمان جندسلطين آل عثمان العظام

التاريخ المذكور وقت الحادثة المذكورة وكانت في مبدأ أمرها حكومة صغيرة كما علمت ثم أخذت تنمو شيئاً فشيئاً بمساعي هذا السلطان وشجاعته وعدالته حتى صارت قبلة الاسلام ونقطة آمال الموحدين ولما كانت هذه المملكة الصغيرة متاخمة لمملكة القسطنطينية الاخذة في الاضمحلال كانت الحروب لا تنقطع تقر بين البلدين فكانت هذه المملكة الحديثة العهد الممثلة قوة وحماستريد محو جارتها الهرمة التي كان يعز عليها أن ترى مملكة صغيرة جديدة النشأة تحت الفها في المعتقد والعوائد تجارها في مضممار الفتوحات ثم ان السلطان عثمان وجه التفاته لتوسيع دائرة أملاكه فحاصر مدينة كبرى حصار عدة مرات حتى اضطر عاملها للتسليم ثم حاصر قلعة ازنيق الشهيرة وأنشأ في جانب قلعتها على الجبل من جهة بيكيشهر القلعة المسماة سردار طرطغان وفي أثناء ذلك اتفق عامل بروسه مع حكام اطره نوس وادربانوس وكستل وكنه على مهاجمة مدينة بيكيشهر مقام العثمانيين فقابلهم السلطان عثمان على رأس جيشه بجوار قلعة قيمون حصار وهرمهم ثم اقتنى أثرهم حتى المكان المدعو ديمبوز وأوقع بهم فيه وقتل في هذه الواقعة أمير مدينة كستل وآي طوغدي ابن أخي السلطان ثم أركن أمير اطره نوس و بروسه الى الفرار أما تكفو ركنه فانه بعد التجائه الى تكفو ومدينة أولوبادأصر السلطان الغازي عثمان على تسليمه اليه فامتثل أمير أولوباد للامر وفي سنة ٧١٧ هـ شيد السلطان عثمان بالقرب من مدينة بروسه على مسافة ربع ساعة منها عند ينبوع الماء المعدني الحار قلعتين جعل في احدهما ابن أخيه آق تيمور وفي الاخرى البطل بلباشي أحد عماليه وبعد أن تمكن من حصار بروسه بهذه الكيفية واسلم القائد كوسه ميخال الشهير ترك ولده السلطان أورخان وكوسه ميخال وصالتق ألب للحفاظ على البلاد وأنزلهم بقاعة قره حصار ثم سار هو بنفسه بقصد قلعة بلبلنجي ولفكه وحادرتق فاستولى عليها بالحرب وأخضع بعد ذلك بيكجه حصار و اق حصار وتكفو ريكاري بلا حرب أيضاً وضم الجميع لاملاكه ثم أرسل الغازي أورخان والغازي عبدالرحمن وغيرهما الى قلعة قره جيش الشهيرة وبعد حصارها أسروا حكامها واستولوا عليها مع الجهات المجاورة لها ثم استمرت الفتوحات واستولى على مدينة طوز يازاري بعد أن أخضع قلعة قره تكبه ثم ان فرقة اقجه قوجه فتحت جملة جهات في أطراف أزמידول هذا السبب كان يطلق على سنجق ازميد في ذلك الوقت قوجه ايلي وفي خلال ذلك فتح الغازي عبدالرحمن مدينة ازنيق

ولما عزم السلطان عثمان الغازي على فتح بروسه أنشأ لذلك قلعتين حولها كما سبق وعين لهذه المهمة الغازي أورخان (٧٢٦ هـ) وبعد خروجه من مدينة بيكيشهر مر باطره نوس ولما تقابل مع حكامها أراد القبض عليه ففر من وجهه الى أن وقع من صخرة قتات وأرسل الغازي أورخان خبر ذلك الى السلطان مع كوسه ميخال وبذلك أمكن الاستيلاء على مدينة بروسه بلا كبير مشقة وفي أثناء تلك الفتوحات المتعاقبة بلغ الغازي أورخان مرض والده فسافر اليه مسرعاً ولما صار بين يديه نصحته بنصائح عظيمة منها حسن المحافظة على الرعية وسياسة بهم بالعدل والانصاف ثم توفي يوم ١٧ رمضان سنة ٧٢٦ هـ وكان سنه ٧٠ سنة ونقلت جثته من داخل قلعة بروسه الى تربته المخصوصة وكانت ولادة هذا السلطان بمدينة بيكيشهر سنة ٦٥٦ هـ ومدته سلطنته ٢٠ سنة ولم يقع بينه وبين دولة من الدول الاجنبية حرب وخلاف دولة القسطنطينية أو بينه وبين الامراء

التابعين لها وترك من الذكور اثنين وهما الامير أورخان والامير علاء الدين

(٢) السلطان الغازي أورخان ابن السلطان الغازي عثمان خان

٧٢٦ - ٧٦١ هـ

علم انه عند جلوس السلطان الغازي أورخان على سري السلطنة كانت شبه جزيرة الاناضول منقسمة بين ملوك الطوائف الذين قاموا بعد انقراض دولة السلاجقة فكان بخشي بك بن محمد بك من اولاد قرمان متغلبا على مدينة قونية وبوابها أي جالسامكان الدولة السلجوقية وكان آيدين بك وصاروخان بك ومنتشاك وكرميان بك وحسيد بك وتككبك وقرهسي بك وهم من اولاد امراء السلاجقة حكاما على ممالك صغيرة أخرى الا انهم لم يكونوا تحت طاعة أمير قونية المذكور وكان اولاد أسفنديار حكاما مستقلين بجهات قسطنطيني وكانت بقية الممالك الأخرى تحت تسلط بعض عشائر التي كان فكان بمرعش اولاد ذوالقدريه وباطنة اولاد رمضان وكان من بين هؤلاء الحكومة السلطان أورخان التي ورثها من أبيه ولم تملك قونية في أول استقلالها كما لم يكن في امكانها الدخول في المنازعات التي كان يشيرها اولاد قرمان للطالبه بمراث الدولة السلجوقية أمكنها فيما بعد بما أظهره السلطان عثمان الغازي من الاقدام والحسارة ان تكتسب قدرة ومكانة خصوصا بعد استيلائها على مدينة بروسه لان السلطان أورخان بعد ان اتخذ تلك المدينة مقر السلطنة التي كانت عديمة القرا قبل ذلك تمكن بمساعده من اظهار شوكة الدولة وسطوتها بالفتوحات الآتية

ولما جلس هذا السلطان على سري الملك كان سنه يبلغ أربعين سنة وبعد ان نقل تخت المملكة الى مدينة بروسه بعد ان كان بمدينة بكي شهر مدة خمس وثلاثين سنة التف الى التنظيمات الضرورية وسن القوانين والنظامات بمساعدة رجال حكومته الذين شخص بالذكر منهم قاضي بروسه جندره لوقره خليل فكان أول شيء بدأ به أن ضرب السكة العثمانية وجعل للأموال والامراء وأصناف العساكر وطبقات الاهالي ملابس مخصوصة ولما رأى أن جيوشه المولفة من فرسان التر كان وعين قدر من الرعية على الحرب لا تطام لهم ولا معرفة بقوانين الضبط والربط ولا هم بمحكون أخذ يرتب عساكر نظامية ووضع لهم قانونا للتربية فانشأ لذلك طائفة اليكجيرية (الانكشارية) وصار حسب مراه وزيره يأخذ كل سنة العدد الممكن من اولاد النصارى ويجمعونهم ثم يعلمونهم آداب الاسلام ويعتنون بتربيتهم ومتى بلغوا السن اللائق للعسكرة أدخلوهم ضمن أوجاق اليكجيرية وكان لكل واحد منهم يوميا وظيفة مقعدة وقد استمر هذا النظام أي ادخال مثل هؤلاء الاولاد في الجيش العثماني لسنة ١٠٥٠ هـ وقد نبغ من هؤلاء كثير من الرجال تولوا الوزارة والامارة والاعمال الخلية حتى صار النصارى فيما بعد يطلبون من تلقاء نفوسهم ادخال اولادهم ضمن اليكجيرية ومن النظامات التي أوجدتها هذا السلطان منصب الوزارة عين له أخاه علاء الدين باشا فكان أول وزير في الدولة العثمانية

ولما تم التنظيمات السابقة التفقت الى اراضي البلاد المفتوحة فقسمها الى قسمين وهما خاص وتمام فكانت ايرادات الخاص للخزينة السلطانية ولامرء العائلة الملوكة ولا عيان الحكومة وايرادات التيمار لرجال الحرب ولم يكن هذان القسمان في المعاملة كالجفالك لأن اراضيها كانت عبارة عن حقول يتصرف فيها اربابها بالحرث والزرع ويعطون ما عليها من العشور الشرعية وما يخصها من خراج الانتقال من يد الى أخرى الى المنتصرين في قسمي الخاص والتيمار وكان يتعين على أصحاب التيمارات بالنسبة لحاصلات تيماراتهم أن يدرّب كل واحد منهم فارساً وفارسين أو أكثر ويعلمه استعمال السلاح ومتى وقعت الحرب اجتمع هؤلاء الفرسان تحت لواء الامير المعينون معه ثم يذهبون تحت قيادته الى ميدان القتال وقد أطلق على هذا الصنف من الجنود اسم سباهية التيمار وقد خدموا الدولة خدمات جليلة

ولما استقرت قواعد الدولة بهذه النظامات الحديثة التفقت الى الفتوحات فاشهر في سنة ٧٢٧ هـ حرباً على بلاد الروم وفي خلالها صادف وفاة حاكم ازميزد كزاقليم قوجه ايلي فالت ادارة المدينة الى ابنته وكانت ترد لها الامدادات من القسطنطينية ولما حاصرت تلك المدينة الغازي عبدالرحمن كاتبه البنت المذكورة سراً فاستولى على قلعتها وأرسل البنت المذكورة مع الغنائم الى السلطان الذي عقد نكاحها على الغازي عبدالرحمن لتكونها خديمتة وأعانت الدولة وكانت النساء اللاتي يتنظرن للسلطان اورخان يلاطفهن بالكلام وينغم عليهن بما يسر خواطرهن فالت اليه قلوب الناس وما زال يتقدم في فتوحاته حتى حضر بنفسه في سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧ م) وحاصر ازميزد وأرسل القائد قوره علي وايغور ألب مع جنود الى فتح قيون حصاراً وفي أثناء المحاربة أصيب قلابون حاكم قيون حصار برصاصة فسقط ميتاً من سور القلعة وبذلك استولت الجيوش العثمانية على القلعة المذكورة وفي خلالها سلمت بلاقونية حاكمة ازميزد (نيقوميديا) المدينة الى السلطان اورخان فأركبها هي وجنودها ومن يريد من أهالي المدينة السفن وأرسل الكل الى القسطنطينية وذلك بناء على رغبته وبذلك صارت حدود الدولة قريبة من خليج القسطنطينية

وفي سنة ٧٣١ هـ فتحت مدينة ازنيق أو ازنيك وغنم العثمانيون منها ما غنموا وافردها بعد أن اجتمع قيصر القسطنطينية في خلاصها وكان فتحها على يد الامير سليمان ابن السلطان ولما تم فتحها وأصلح ما تهدم من مبانيها حول السلطان بعض كائنها الى مدارس ومساجد وعين للتدريس باحدى تلك المدارس العالم الشهير داود القيصري وجعل على قضائها العالم العامل خليل جندارلي ولما كانت هذه المدينة في الوقت المذكور من أعظم مدائن تلك الجهات اتخذها السلطان اورخان عاصمة له ولما توفي الوزير علاء الدين سنة ٧٣٢ صار الامير سليمان باشا وزيراً للدولة وفتحت بلاد مدني وكلميك وفي خلالها أرسل قيصر الروم جملة هدايا بالسلطان اورخان وعقدين الطسرفين مهاذنة في السنة نفسها المذكورة سنة وبوجهها صارت جهات ما يناس ويدنحق وبالكسرى وبرغمه وقرهسي ومخاليج وكرمانقي من أملاك الدولة العثمانية ولم يبق بعد ذلك للقيصرة بالاناضول غير مدينة الأشهر وقلعة بيغا وضم العثمانيون أيضاً الى ممالكهم سنة ٧٣٧ مملكة قرهسي وهي أول مملكة اسلامية من الاناضول عند وقوع الاختلافات بين اولاد بجلان بك حاكمها بعد وفاته وفي مدة المهاذنة المذكورة تفرغت الدولة للاصلاحات الداخلية وسنة

٧٤٦ هـ جددت المعاهدة السلمية مع قيصر الروم وفي التي بعد هذا ذهب السلطان مع حاشيته الى مدينة اسكدار وتقابل هناك مع قيصر الروم وتأيدت بذلك المصافاة بين المملكتين
 الأندلس دولة الروم لما كانت تبطن العداوة للعثمانيين كانت تنتهز الفرص للايقاع بهم تخالفت شروط المعاهدة بعد مضي عشر سنوات من امضاؤها واتحد القيصر مع البنادقة الذين كانوا في أغلب الاوقات يهاجون حدود المملكة العثمانية من جهة البحر فلذلك أصدر السلطان أورخان أمرا الى ولده الامير الغازي سليمان باشا بالاستعداد والرحف على بلاد الروم لي تجهز الجيوش وتقدم بها في سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) حتى وصل الى مدينة چناق قلعة بساحل غربي آسيا على مضيق الدردنيل ثم عقد هناك مجلسا مع أشهر قواده وهم حاجي ايل وآجه وغازي فاضل وارنوس وكان كما قبل لمدينة بروسه ثم اعتنق الاسلام فاتفقوا على عمل صالات (اكلاك) للعبور بها وبعد انشاءها ركبا عليها السلام من بلدة ايدنجق (ايدوس) وعبروا بها الدردنيل الى ساحل الروم الى وعقب عبورهم بقليل استولى الامير سليمان باشا على قلعة چنك Tzympe سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٧ م) وهذا العبور هو مبدأ التاريخ البحري للدولة العثمانية وبعدها ان عبير سليمان وجنوده بالكيفية المذكورة أخذ في اخضاع البلاد التي تقرب من كيبولي وفي تلك الاثناء ظهرت اضطرابات ومنازعات ومناقشات بين أعضاء العائلة الامبراطورية بالقسطنطينية لانه بعد وفاة اندرونيقوس الثالث امبراطور الروم (٧٤١ هـ) كان الوارث لسري والسلطنة يوانيس أو يوحنا بالبولوغوس ولكونه كان حديث السن قام ناظر سراي الامبراطور المدعوقا قاناقوزينوس وأمثاله يطلبون لانفسهم الاستبداد بالملك حتى ان قاناقوزينوس المذکور طلب من السلطان الغازي أورخان المساعدة وزوجه بانبته تيودورا وعلى ذلك أرسل السلطان الجيوش عدة مرات لمساعدة المستجير به واسعا فله ليتمكن من قهر اخصامه ولمشرع الامير سليمان باشا في اجراء معاهدة اليه به السلطان قام الروم واتفقوا مع أهالي البحر والصر والبغار والافلاق والبغدان بقصد قتال سليمان باشا الفتوحاته باور وباومد اخلته في احوال الدولة الرومية فاستعد سليمان باشا للملاقاة قوتهم المتحدثة ثم انقض عليهم من جبال البلقان وأوقع بجمعهم ثم تجول في جهات بلاد البغار مسكنا اضطراباتهم وفي خلال ذلك حصلت منافسات كبيرة بين ملوك البحر والصر والبغار والافلاق والبغدان أدت الى منازعات التزم فيها امبراطور القسطنطينية أن يطلب من آل عثمان الاعانة ثانية فأمدوه وتقدم الامير سليمان باشا حتى عسكر تحت أسوار القسطنطينية وسكن ذلك الاضطراب ثم حصلت زلازل جسيمة (٧٥٩ هـ) دمرت جملة بلاد وقلاع من تلك الجهات وفي سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٨ م) نهض الامير الغازي سليمان باشا بجيش يبلغ عدده ٧٠٠٠ من شجعان العثمانيين الى قلعة كيبولي المعتبرة مفتاح البحر المتوسط الابيض فحاصرها مدة أيام حتى تمكن من فتحها ثم استولى بعدها على بولادير وخيره بولي وتكفور طاغ بكل سهولة وبهذا الفتح أظهر الامير المذکور لجميع الدول الاخرى ما للدولة العثمانية الحديثة العهد من السطوة والاقتدار وبينما كان الروم يطلبون من العثمانيين أن يعيدوا لهم هذه الاماكن في مقابلة مال يدفونه لهم كانت عساكرهم مهتمة بالفتوحات المتواصلة باراضي الروم لاشتغال الروم بالمنازعات الداخلية اذ ذلك ففتحت ابصاله ومعلقة وماجاورهما بكل سهولة وبينما كان الامير سليمان في القنص يوما

(٧٦١ هـ) جمع به جواده وضد منه بقوة في بعض الاشجار فكان في ذلك حتفه ومات وهو في ريعان الشباب مأسوفا عليه من جنوده الذين كانوا يجمونه جدا لما تصف به من جيد الخصال ودفن بالجامع الذي شيده بمدينة بولايه
ولما بلغ هذا الخبر المولم والده السلطان أورخان الغازي خزن عليه حزنا مفرطا ولم يمكث بعده الا زمنا يسيرا وتوفي من كدره في السنة المذكورة ودفن بمدينة بروسه وخلف ولدين الامير مراد والامير سليمان وكان هذا السلطان كوالده محبا للعلماء والفضلاء شديد الاعتناء والميل الى أصحاب الاستحقاق من الامراء عظيم الشغف في عمارة واصلاح الممالك التي استولى عليها ولما كانت خزائن الدولة ملائى بالاموال التي اكتسبت من الغنائم اهتم في تشييد المدارس والمساجد والقناطر والابار وغير ذلك من أنواع المبرات وقد قوى رجه الله ببناء الدولة التي شرع في تأسيسها السلطان عثمان وتمكن من تحويل أمته التي كانت قبل ذلك تسكن الخيام وادخالها ضمن الممالك العظيمة

(٣) السلطان مراد الاول ابن السلطان أورخان

٧٦١ - ٧٩١ هـ

لم اجلس هذا السلطان على كرسي الدولة اتبع خطة والده في الفنون ففتح سنة ٧٦٢ هـ قلعة انقره المعروفة بقلعة السلسلة وفي تلك المدة سير أهل البنادقة على العثمانيين عمارة مؤلفة من ستين سفينة افرقت فرقتين تقدمت احدهما الى قلعة كيبولى والاخرى دخلت جون المعارض وأخرجت كل منهما ١٠٠٠٠ جندي والتحق بهذا العدد بعض الاهالي ثم تقدم الجميع وهاجوا العثمانيين الموجودين في الرومالي فلقاهم الجيش العثماني بجنان نابت وحمل عليهم جملة منكورة لم يتمكن منهم الثبات امامه فارتدوا على أعقابهم عند الصدمة الاولى طالبين النجاة تاركين بميدان القتال عددا عظيما من القتلى والجرحى وقد راوا فرما من الذخائر وبعيد ذلك وسع السلطان دائرة أوجاق الانكشارية (١) وبذلك تقوّت عسكره ولم يكن للعثمانيين في هذا الوقت سفن حربية بل كان لهم بعض زوارق يستعملونها بادخل بحر مرمر افزاد السلطان عدد تلك الزوارق (٧٦٣ هـ)

(١٣٦١ م) لتساعد على نقل الجيش ومهماتهم ولما تم له ما أراد منها عبر بجيش الى الرومالي وفتح جملة بلاد وقلاع منها بطور وچورجى ومسللى وبرغوس وبرغاز وديمتوقه ثم فتح مدينة ادرنة العظيمة في هذه السنة ايضا وعين عليها الاشاهين باشا سحافظا وأرسل أورفوس بك لغزو كوملجنة ومايجاورها من البلاد الكائنة بالجهات الجنوبية من الرومالي ثم أخذ هذان القائدان في الغزو والقنوط ففتح للاشاهين باشا (٧٦٥ هـ) قلبه وزغره وماجاورها من البلاد وفتح

(١) ويقال انه لما نظم اليكچر ياتمن الاسرى الذين كان يأخذهم من غزواته أرسلهم الى خدمة الشيخ العارف بالله تعالى الحاج نكتاشولى ليعلمهم بعلمه ويسمهم باسمه ويدعو لهم بالخير والظفر فلما اجتمعوا عند الشيخ قطع كم قباية وكان من ليدقالبسره رأس رئيسهم ودعاهم بالركعة ولهذا قال البعض ان اسمهم محرف من (بناك ايجرى) ومعناه داخل النكم والاصح ان معنى هذا الاسم العسكر الخدي

أورنوس بك سيروز ومناسترو وبهشتنة وكوملجنة وموشنة ولما تم فتحها جعلها السلطان صنيقية (٧٨٨ هـ) وعين عليها اورنوس بك المذكور واليا برتبة أمير الامراء ووقعت قبل ذلك المدينة صوفية أيضا في يدا العثمانيين بعد أن حاصروها مدة ثلاث سنوات (١٣٨١ - ١٣٨٣ م) وعقب ذلك فتح الصدر الأعظم خير الدين باشا مدينة سلانيك الشهيرة وفي سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦ م) أخضع السلطان بلاد مقدونيا والباينا ولما مات في تلك الاثناء الوزير خير الدين باشا وجه مسند الوزارة لولده علي باشا قاضي العسكر

واعلم أنه الى سنة ٧٦٣ لم تكن الحكومة العثمانية تصدت لاخذ الخس المشروع أخذه من مال الغنائم والاسرى لبيت مالها ولما لم يكن من المناسب اضاءة هذا الحق الشرعي على الخزينة السلطانية كتب قره رستم أحد فحول علماء عصره الى قاضي العسكر خليل افندي يعلمه بذلك فاخبر قاضي العسكر السلطان بهذه المسئلة فصد أمره بتفويض أخذ الخس من الغنائم الى الشيخ قره رستم المذكور وقد كان كل أسير يقدر في حكمه هذا الوقت بمائة وعشرين درهما فكان يؤخذ عليه خمس وعشرون درهما ولما كانت مدينة بروسة عاصمة العثمانيين صارت في مر كز لا يصح معه أن تكون عاصمة لهم فيما بعد لاتساع فتوحاتهم ياروبا ولبعد هاجن مناظرة ما يحدث من الطوارئ بالحدود الاورباوية رأى السلطان ووزراؤه أن من الاوفق نقل العاصمة الى مدينة باورو بافوق اختيارهم على مدينة ادرنة التي بقيت لهم عاصمة حتى فتحوا القسطنطينية ثم لمبالغه قيام علاء الدين ملك القرماني على العثمانيين سافرسر يعا الى تلك الاطراف وبعد أن هزمه واستولى على مقاطعة كرميان وغيرهما من البلاد التي كانت باقية على استقلالها تزوج ابنه بايزيد باينة أمير تلك الجهة لتوثيق روابط المودة بينهما

واقعة قوصوة - وبينما كان السلطان يشتغل بهذه المسائل وغيرهما من الامور الداخلية عقد لازار ملك الصرب (٧٩٠ هـ) (١٣٨٨ م) اتفاقية مع ملوك الافلاق وأمراء الماسيا وملك المجر وملك البلغار وتحتزوا جميعا بخاربة السلطان وطلبوا من البابا أوربانوس الخامس أن يحرض أوروبا النصرانية لمساعدتهم ثم تقابلت جيوشهم المنفقة في سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) مع جيوش العثمانيين في سهل قوصوة (Cossova) وحصلت بين الطرفين معركة من أشهر معارك التاريخ انهزمت فيها جيوش المتحدين هزيمة كلية ومات في الواقعة لازار المذكور وكثير من أمراء وأعيان أوروبا الذين كانوا تطوعوا للقتال العثمانيين وأسرا العثمانيون منهم عددا وافر وهذه الهزيمة فقد الصربيون (١) استقلالهم كما فقد البلغار (٢) وبلادار وملي وآسيا الصغرى

(١) الصرب مملكة في أوروبا يتحد شمالا بالنمسا والمجر ومقاطعة اسكلافونيا وبلاد رومانيا وبفصلهما عن بعضهما نهر الطونة وشرقا لولاية البلغار وبفصلهما التيموك وجنوبا لولاية اسلانيك وغربا بصنق بيك بازار وولاية بوسنة العثمانية وتنتشر بها جبال كربات والبلقان والالاب الدينار يتوأكثرهما مسكونة بالغاليت وعلى حافتي نهر الطونة ونهر ساف سهول متسعة مخصبة ومساحة أراضيها ٤٥٠,٥٨٢ كيلومترا وعدد سكانها سنة (١٨٨٤) بلغ ٤١٩,٠٢٢ نسمة بين صقالية ويهودا وروم وغجر وتختلفهم وتجارتها ووزارعتها واسعة وأهل الصرب الاصليون من التراقيين واستولى على بلادهم الرومان جعلوها قسمين اللير يكوم وسمو هاموزيا اليا ثم غزاها الهون والاستر وقوط وغيرهم وبعد ذلك استولى عليها البرانطينيون وبقيت بيدهم الى ٥٥٠ م ثم

من قبلهم وبينما كان السلطان مراد يتجول بعد الواقعة مع حاشيته في ساحة الحرب قام من بين الموتى رجل بلغاري كان مستترا وأظهر التضرع للسلطان وتقدم نحوهم وكان يريد تقبيل يده وفي أقل من لمح البصر أخرج خنجرًا كان ستره بين ألبسته وطعن به السلطان مراد الاول في أحشائه فاستشهد ولوقته

غزاها الافاري أوائل القرن السابع وتمكن الصربيون من طردهم وبقيت الصرب تابعة للإمبراطورية الشرقية الا أن حكومتها المحلية كانت قوية منتظمة فتأيدت بينهم روح الحرية وحاول رؤسائهم مرارا الحصول على الاستقلال التام الا أن السلطة الامبراطورية أرجعت بينهما (٨٧٥ م) مدنة ناسيل الاول الملقب بالمقدوني وبقيت من بعده الاسبقية في الصرب البلغاريين وفي زمن جان ديسيسيس كسر شوكتهم ثم أبادها باسيليوس الثاني تماما (١٠١٨ م) واول صربي أنشأ إمارة مستقلة هو اصطقان بوجيرلا من سنة ١٠٤٣ م وابنه ميخائيل لقب قبالا (١٠٥٠ - ١٠٨٠ م) وحفيد بوجيرلا وسع حدود بلاده (١٠٨٠ - ١٠٩٠ م) وأخيرا أسره البرانطيون وصالحهم خلفه فلكنوس أوفوك سنة ١٠٩٤ وسنة ١١٢٧ اتخذ أوروش الاول مع المجر لمحاربة البرانطيين واستمرت المنازعات طويلا وأنشأ سنة ١١٦٥ اصطقان غمانيا حفيد أوروش الثاني سلالة ملوكية جديدة واستولى على بوسنة وغريها واتخذ راسا اي بيكي بازار عاصمته ولذلك سميت مملكة راسية وسع خلفاؤه أملاك الصرب واصطقانوس ورشان الذي حكم من (١٣٣٦ - ١٣٥٦ م) اتخذ لنفسه لقب قيصر واستولى على جزء كبير من مقدونية والبايوتسا وباوشمال اليونان والبلغار وقامت عمال الولايات في أيامه بالتورات ولما خلفه ابنه أوروش الخامس فقد كثيرا من تلك الفتوحات وأخيرا قتل سنة ١٣٦٧ وخلفه فوكاشين الذي اتفق مع اليونان على محاربة العثمانيين وفتح سلانيك سنة ١٣٩٩ الا أنه انكسر وقتل سنة ١٣٧١ وأنشأ لازاروس الاول سلالة جديدة سنة ١٣٧٤ واستولى على أكثر بلاد الصرب وهذا هو الذي انتصر عليه السلطان مراد الاول في واقعة قوصوه سنة ١٣٨٩ م وأمر بقتله كاذكر ثم بقيت بلاد الصرب يتنازعها المجر والعثمانيون الى أن ألحقها السلطان محمد الفاتح بالاملاك العثمانية (١٤٥٩ م)

(٢) بلغاريا ولاية يمتد من الدولة العثمانية الى ان يجدها شمالا نهر الطونة ويفصلها عن رومانيا وشمالا البحر الاسود وجنوبا جبال البلقان التي تفصلها عن الرومالي ومن الجنوب الشرقي برززين ومن الشمال الغربي بلاد الصرب مساحتها ٣٩٥٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها ٢٥٠٠٠٠٠٠ نفس وهم أخلاط بين بلغار وأرناك ويهود وصرب ويونان وأرمن وتارو وجرسك وارناوط وبشناق وأفلاق وعجر وقليل من الاور وياويين وبرو بهاءة آنها وتحدث بها جبال البلقان عدة أودية خصبة ويكثر بهذه البلاد الكروم والغابات وأشجار الورد التي تصدرون عطرها وكان البلغار يقيمون في أول أمرهم بشمال نهر اثل (وولغا) ثم ترك قسم منهم هذه البلاد واستوطنوا أولا على شواطئ نهر الدون ثم امتدوا الى الطونة في النصف الاخير من القرن الخامس الميلادي وكثيرا ما شنوا الغارات على الامبراطورية البيزنطية وأتى جيش منهم بدمهاجمة القسطنطينية الا أن انسطاسيوس تمكن من صرفهم بعد ان دفع لهم مبلغا وافرا (٥٠٤ م) ثم ظهروا أيضا أيام بوسنتيانوس فشتت القائد بليسا ريس ثملهم ثم أطوا ائب الاقارقه والبلغار بين ولكن بعد قليل خلعوا طاعتهم واستقلوا سنة ٦٣٥ م وعقد أميرهم كوفران مخالفة مع هرقل وبعده فوة كوفرات تفرق أولاده الخمسة فاستوطن أحدهم على شواطئ الدون والآخر في بانونيا والثالث في البغدان والرابع ذهب الى ايطاليا والخامس واسمه اسبروخ عبر نهر الطونة وفي سنة ٦٨٠ استوطن في بلاد واقعة بين ذلك النهر وجبل ايموس أي البلقان وكانت الرومان تسمى تلك البلاد ميد السفلى ثم دعت بلغاريا ولما طرد بوسنتيانوس من القسطنطينية أوجعه البلغار الى تحت وكوريس أحد خلفه اسبروخ طار بسنة ٧٥٠ بلاد ترانس الا ان جنود قتلته ثم بعد صارت الامارة بالانتخاب بعد أن كانت بالوراثة فانتخب الالهالي أميرا آخر وحصلت حروب بين البلغار والروم بطول شرحها (٨١١ - ٨١٣ م) وفي سنة ٨٦٠ دخلت الديانة المسيحية في البلغار وكان عليها نغورس الذي اتخذ لقب ملك وكانت منازعاتهم مع البوزانطينين لا تنقطع وسنة ١١٨٦ م عصى بطرس وأخو ناسان من سلالة خانات البلغار القديمة وناديا بنفسهما ملكين ومن ذلك الوقت ابتدأت الدولة الاسانية التي استمرت في حروب مع الروم والمجر والتتار الى سنة ١٣٨٩ م وفيها استظهرت عليهم جيوش العثمانيين تحت قيادة السلطان مراد الاول وعلى الصربيين في واقعة قوصوه ومن وقتها صارت بلغاريا خاضعة للدولة العثمانية معدودتين ولاياتها

وقبض الحاشية على ذلك الغدار فقطعه وارب باربا وفي عصر هذا السلطان الشهير اتخذت الدولة العلية اللون الاحمر علمها وذلك لانه بعد ان تعين تيمورطاش باشا مكان لاشاهين المتوفى نظم فرقى الخيالة العثمانية المسمين بالسباهي وجعل لهم نظاما جديدا واختار ان تكون اعلامهم باللون الاحمر ومن القوانين التي سنها ايضا ان اصلى قانون الاقطاعات الذي سنه السلطان اورخان فاقطع كل نفر منهم جزءا من الارض يزرعه اصحابه الاصليون مسيحيين كانوا أو مسلمين في مقابلة جعل معين لصاحب الاقطاع بشرط أن يسكن الجند في أرضه وقت السلم ويستعد للعرب عند الاقتضاء على نفقته وأن يقدم جنديا آخر معه وكان كل اقطاع لا يتجاوز ايراده السنوى ٢٠٠٠٠ غرش يسمى تيمارا وما زاد ايراده على ذلك يسمى زعامت وكانت هذه الاقطاعات لا يرثها الا الذكور من الاعقاب واذا انقرضت ذرية الذكور ترجع الى الحكومة وهي تقطعها الى جندى آخر بنفس هذه الشروط ولما كانت التيمارات تزداد بنسبة ازدياد الممالك العثمانية كثرت أفراد الجند السباهي حتى نظموا منهم فرقة جديدة أخرى

ومن الحوادث التي وقعت في مدة هذا السلطان تزوجه المسمى صاووجي بك وشقه عصا الطاعة متخذة في ذلك مع اندرونيقوس بن يوحنا بالبولوغ امبراطور القسطنطينية لان والده كان حرمه من الملك بعده وأوصى به الى ابنه الاصغر المدعو امانويل وقد ظاهر العاصيين على فعلهما هذا كثيرون من الخونة اصحاب المفاسد الذين لا تروج بضاعتهم الا بتعكير كاس السلام وعند ذلك جرد السلطان على ولده جيشا قويا غير ملتفت للحنوا الابوي فقهره وقبض عليه وعلى كثير من أمراء الروم وغيرهم وطلب السلطان من قيصر الروم معاقبة ابنه ففعل بان سمل عينيه ونفاه وكان قبل ذلك ترجى السلطان في معاقبة ابنه المذكور نظرا لوجهه عليه وسبب خروج ابن السلطان عليه أنه بينما كان يهتم بالفتوحات بجهات الروملى ولى ابنه الاكبر بايزيد جهات كراميان وابنه الأوسط يعقوب جلبي جهات قرهسى وجعل ابنه الاصغر صاووجي بك نائبا عنه بمدينة بروسه وفي تلك الاثناء انفق مع ابن القيصر المذكور وحصل لهما ما حصل

وقد كان هذا السلطان رحمه الله من أعظم الملوك همة وشجاعة محبا للفتوحات تمكن بمساعبه من مد حدود المملكة العثمانية الى شواطئ نهر الطونه ووجهات بوسنة ويقال إنه اشترى في سنة ٧٨٣ من صاحب بلاد جيسد خمس قلاع وهي بلواج ويكي شهر وآق شهر وقره آغاج وسيدى شهر وفي زمنه كان اختراع لون وشكل العلم العثماني على الهيئة التي نراها عليها الآن كما قلناه وكان من المنظمات الابتدائية في الدولة أن يسافر قاضى العاصمة مع الجنود عند سفرهم الى الحرب لأنه بالنسبة لكثرة الجنود رأى السلطان في سنة ٧٦٣ هـ عند ذهابه الى الروملى أن يكلف قاضى بروسه العلامة چندرلى قره خليل بأن ينظر في دعاوى والنصومات الاخرى التي تقع بين أفراد العساكر فجعله قاضيا للعسكر ولما لم يكن في هذا الزمن أحد من اولاد السلطان بلغ سن الرشد أحال وظيفة بكر بك الروملى على لاشاهين بك وفي سنة ٧٧٥ ووجهت رتبة الوزارة الى قاضى العسكر المتقدم المذكور وسعى خير الدين باشا وبعد وفاته ووجهت رتبة قاضى العسكر الى ابنه على باشا ثم تعين وزيراً أعظم وبقي منصب الصدارة في أعقابها حتى زمن السلطان محمد الفاتح وقد ترقى العلوم والمعارف

في زمن هذا السلطان خصوصا العسكرية ولما كان العثمانيون بذلوا غاية الجهد والمجهود في حصار بروسه وأزنيق أحدثوا عمل الاستحكامات في زمنه واستعملوا المدافع في واقعة قوصوه

(٤) السلطان يلديرم بايزيد الاول ابن السلطان مراد

٧٩١ - ٨٠٥ هـ

بويغ له في ميدان حرب قوصوه يوم موت أبيه (٧٩١ هـ) وكان عمره ٣٠ سنة وكان على جانب عظيم من الشجاعة والاقدام ولهذا القبوه يلديرم أي الصاعقة فمتبع خطوات أبيه في الغزو والجهاد وبعد أن بايعه الجنود والوزراء عاد إلى بروسه ونقل معه جنة والده فدفنت هناك ثم أرسل قائده الشهير تيمورطاش باشا إلى حدود الصرب فاستولى على قره طوه وما حولها من البلاد وأدخل استغان ملك الصرب تحت طاعة الدولة وكان السلطان انتخبه ملكا للبلاد بعد واقعة قوصوه المذكورة وترك له استقلاله بشرط دفع جزية معينة وتقديم عدده معلوم من الجنود وقت الحرب وطلب من السلطان على اسان قائده أن يتنازل بقبول أخته الاميرة مليجه لتكون زوجة للسلطان فقبل السلطان منه مطلبه وتزوج بها وفي تلك التجربة استولى القائد المذكور على بكيدوبوسنة ودخل فيروز بك مملكة الافلاق غازيا ففتح وغنم ثم عاد إلى بروسه وظافر اناعما

وفي سنة ٧٩٢ هـ استولى السلطان بنفسه على قلعة الاشهر بآسيا المسماة فيلادلفيا الذي الفريخ وكانت آخر مدينة مهمة بقيت للقسطنطينية بآسيا ثم استولى على مملكة آيدين صلحاء وأحال ادارتها على الامير ارطغرل ولما استولى على سنجق صاروخان ألحقه بقاطعة الامير سليمان وهي قره سي ثم أخضع جهات آمد شهر وآق سراي وأضافها إلى حكمه وبعده أن أخضع جميع البلاد المستقلة من جهات الاناضول زحف بجيش عظيم على نواحي الرومللي واستولى على مدينة سلانيك ثانية وكانت ملوك الروم ثم انفتحت البنادقة وفرانسا وجمهورية اسبانيا (٧٩٦ هـ) وأرسلت أساطيلها لخراج العثمانيين من سلانيك فقاومتهم الجيوش العثمانية وأرمتهم الرجوع عنها خاسرين ثم استولى العثمانيون على قلعة بكيشهر ولما عاد السلطان إلى بروسه بلغه أن الامبراطور باليولوغوس اتفق مع ملوك المجر والصرب وفرانسا عليه وانهم سيهاجون بلاده قريبا ولهذا استعد سرايعا وعبر بحر مرمر اقا صدادرنه ثم تقدم بجيشه وحاصر القسطنطينية وركب عليها المنجنيقات وفي خياله اساق ملك المجر جيشا على صوفيه وودين ونيكوبولي فالتمز السلطان أن يرجع عن القسطنطينية ليقابل جيش المتحدين ولما اتقى الجمعان هزمهم شرهزيمة وهرب ملك المجر في زورق بنهر الطونه وأخذ العثمانيون عدداً آلاف من الاسرى وغنموا غنائم وافرة ويقال ان قتل على جيش المنفقين بلغوا ٨٠ ألفا

وفي سنة ٧٩٨ هـ أرسل السلطان يلديرم بايزيد تحسین بك ابن تيمورطاش باشا إلى ضواحي الاستانة فاستولى على حصار شبلة وتقدم داخل سنجق قوجه ايلي حتى وصل إلى مضيق البحر الاسود وهناك أنشأ قلعة أناضول حصار الشهيرة ولما خاف امبراطور القسطنطينية من تقدم السلطان بايزيد مع عدم مقدرة من يتصدى له من ملوك أوروبا الذين استجار بهم أرسل جله هذا يستجلب بها

رضى السلطان متعهدا بدفع جزية سنوية معينة وعجل بدفع جزية سنة ورضى بان يسكن المسلمون القسطنطينية وأن يكون لهم بهامسجد وقاض يحكم في نوازلهم وكان ذلك على يد علي باشا الصدر الاعظم

ولما علم ملك بخارى بما حازه العثمانيون من الانتصارات بعث هنيئ السلطان وأرسل له سيفا مرصعا نفيسا سنة ٨٠٠ لمأوتيه من الفتوحات الباهرة اذ كانت العادة جارية اذ ذلك بأنه متى انتصر السلطان على أعدائه أخبر مملوك الاسلام المعلومين بتلك الانتصارات بمكاتيب يرسلها لهم ولقبه أيضا الخليفة العباسي بمصر المتوكل بن المعتضد بلقب سلطان أقاليم الروم وفي تلك الاثناء غزا أطراف البلغار ومقدونيا ويحيجز بزمورة ومدينة أثينا ووجهات ترحاله واستولى على معظم تلك الجهات ثم تفرغ بعد ذلك للاستعداد لحصار القسطنطينية مرة ثانية وبينما هو يهتم في ذلك اذا غارت بيمورلنك على المملكة العثمانية فاستعد السلطان الاقانه وجمع جنوده وذهب فعسكر قريسا من مدينة انقره ولما استعد الطرفان للقتال ووقعت العين على العين انفصل جنود أيدين ومنتشا وصاروخان الذين يجيش العثمانيين وعددهم خمسون ألفا وانضموا الى بيمورلنك لوجود أمرائهم الاصليين الذين استولى العثمانيون على بلادهم معه وكانوا التجؤا اليه لما شاهدوه من بأسه فضعفت بذلك قوة العثمانيين جدا وداخلهم الخوف ووقع الخلل في صفوفهم ولم يبق لهم الا الانكسار به وعددهم عشرة آلاف وعساكر الروملى ولما اشتعلت نيران الحرب انهزم العثمانيون هزيمة منكرة ووقع السلطان بايزيد مع ابنه أسيرافي يد بيمورلنك فلم يقتله وأكرم مشواه وفي رواية أنه أهانه وأبقاه بطرفه ثم انتشر التتار في داخل المملكة العثمانية يخربون وينهبون سارادوا وقد كانت هذه الهزيمة سببا في تراكم الهموم على السلطان فاصابه مرض توفي به سنة ٨٠٥ هـ وصرح بيمورلنك للا مير موسى چلبى ابنه بأن يدفن أباه في مقابر سلاطين العثمانيين فنقله الى بروسة ودفنه بالجامع الذى شيده فيها وهذا دليل على احترام بيمورلنك للسلطان بايزيد وترك المرحوم المشار اليه من الاولاد سبعة وهم أرطغرل وموسى چلبى وسليمان وعيسى ومحمد ومصطفى وقاسم وكان السلطان بايزيد رحمه الله من خيار الملوك وبطلا من أشجع الأبطال وكان على المهمة قوى النفس وسادا الامن في أيامه حتى كان الرجل يصادف الحمل من البضاعة مطر وحافى الطريق فلا يتعرض له وكان شديد البطش محبا للفتوحات فتح عدة مدن لم تصلها جيوش العثمانيين من قبله

الفصل الخامس

من اغارة بيمورلنك الى صحاح القسطنطينية

٨٠٥ - ٨٠٧

فاصلة السلطنة

٨٠٥ - ٨١٦

وقائع الدولة بعد واقعة أقره (٨٠٥ - ٨١٦ هـ) - قد كان تيمورلنك بعد غلبته على العثمانيين يقصد تعزيز دولتهم وتفريق جامعهم وان لا تقوم لهم بعد ذلك قامة ولهذا ساعد أمراء بلاد الأناضول على استرجاع البلاد التي كانت لهم سابقا وافتتحها العثمانيون ثم قامت المنازعات في السنة التي مات فيها بيازيديين أولاده بخصوص الجلوس على كرسي السلطنة وانضم إلى كل شيعة فذهب سليمان إلى بروسه ووضع يده على بيت مالها ثم توجه إلى أدرنة وجلس على تخت السلطنة المضطرب بالاركان بمساعدة الجنود ووقعت الفوضى في بلاد الأناضول ونازل أولاد السلطان فيها بعضهم بعضا ووقع الأمير موسى في يد المغول واختفى الأمير عيسى بمكان ببروسه ثم أعلن سلطنته بمساعدة الوزير تيمورطاش وذهب الأمير محمد إلى أماسيا منتظرا سئو ح الفرصة وكان تغلب على عسكر المغول في بعض الوقائع واسترد منهم بعض المدن

ثم إن الأمير سليمان التجأ إلى امبراطور القسطنطينية امانويل الثاني خوفا من المغول واتفق معه على ان يتده بالجنود والاموال ليقبض على زمام السلطنة وتنازل له في مقابلة ذلك عن بعض جهات منها سالونيك وتزوج إحدى قريبات الامبراطور ولما بلغ موسى حلبى انتصار السلطان محمد بالاناضول واشتباكه في الحرب مع التتار وغيرهم تقدم هو ونحو بروسه يريد الجلوس على تختها ومما زاد الحالة ارتباكا والامور صعوبة أن أولاد السلطان بيازيد كانوا يستعينون بتيمورلنك على بعضهم فكان يحرضهم على مقاتلة بعضهم لآخر بوابيوتهم بأيديهم وبعدها تمكن تيمورلنك من تزيق شمل المملكة العثمانية ورد غالب الامراء الذين انتزع منهم العثمانيون بلادهم إلى محالهم وأطاعته آسيا الصغرى بأكلها داخله الطمع لحب الاستكثار من الدنيا فصار يقصد بلاد الصين الغنية يخضعها لسلطنته الا ان المنية لم تعمله اذ مات في سن متقدم باحدى مدن اقليم خوقند (٨٠٧ هـ) (١٤٠٤ م)

وبعد ان ترك تيمورلنك (١) بلاد الأناضول استمرت المقاتلات بين من بقي من أولاد السلطان

(١) تيمورلنك هو من أشهر سلاطين المغول ويقال انه يتصل نسبه من جهة النساء إلى جنكيزخان ولدى قرية خوجه ايلغار من أعمال كشم من بلاد ماوراء النهر سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) ولما بلغ سنه ٢٤ سنة اشتهر في حروب أهلية قامت في بخارى ثم حصلت بينه وبين السلطان حسين صاحب هرات أمور بطول شرحها وأخيرا تغلب عليه تيمور وقاتله مع بنيه واستبد بالمملكة سنة ٧٧٣ هـ (١٣٧١ م) ثم شرع بعد ذلك في فتوحات عظيمة فوجه قوته إلى بلاد فارس وأخضعها سنة ٧٨٢ هـ ودخل خراسان واستولى على هرات سنة ٧٨٥ هـ ثم اجتاز نهر الراس من بلاد أرمينية ووصل إلى بلاد الكرج واكتسحها وفتح قفليس وأسر ملكها بكراد بن الخامس وحمله على الاسلام وبعده رجوعه من بلاد الكرج استولى على أهم مرا كزالتري كان في أرمينية وسنة ٧٨٩ هـ فتح أصفهان عنوة وبعدها قامت بينه وبين الصقالبة حرب هائلة استمرت من سنة ٧٩٠ إلى ٧٩٦ هـ وأخيرا ظفر بهم وسنة ٨٠١ هـ دخل بلاد الهند واستولى على دلهي ودمج عددا كثيرا من الهند فخضعته له امراء تلك الاقطار ثم عاد إلى بلاد سنة ٨٠٢ هـ وفي تلك الايام كان امبراطور الروم قد خاف من تهديدات السلطان بيازيد القسطنطينية فإرسل رسولا من طرفه إلى تيمورلنك يطلب عنده على العثمانيين فاجاب إلى ذلك وشرع في منازلتهم سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) فاستظهر في واقعة قيصرية على ابن السلطان بيازيد ثم حاصر سيواس فبعث أهلها إليه نحو ألف ولد حاملين لخطامن القرا ن وهم بضجون الله راجين فوال تعظفه غير أن جبروت وقساوة تيمورلنك ساقته إلى أن أمر جيشه فدا سوا الأولاد بخيولهم وفتح سيواس عنوة وأحرقها ثم حارب جيوش الظاهر برفوق ملك مصر وهزمها وفتح حلب ودمشق

وقتل الامير محمد أخاه الامير عيسى بعد ان حارب به عدة مرات وبذلك نحصت جميع آسيا الصغرى للامير محمد بلا منازع ثم تمكن بعد ذلك من استخلاص أخيه موسى وكان عند أمير كرميان سلمه اليه تيمورلنك قبل سفره وأوصاه بالمحافظة عليه ثم ان الامير محمد جهز ل أخيه عيسى جيشا عظيما وأرسله الى أوروبا والحاربة أخيه الامير سليمان الذي كان استقل بها الا انه لم يتمكن من قهره بل عاده هزوما الى آسيا ثم جمع جيشا آخر وعاد به الى أوروبا واقتتل مع أخيه سليمان خارج مدينة أدرنة وقتله (٨١٣ هـ) ثم أغار موسى على بلاد الصرب معاقبا لاهلها في خروجهم عن الطاعة وقهر ملك المجر سبجس ونذله لأنه أراد صدده عن الدخول الى بلاد الصرب ثم ان الامير موسى داخلة الطمع والكبر يا عما أو تيه من النصر فعصى أخاه محمد وأراد الاستقلال ببلاد الدولة التي بأوروبا وحاصر القسطنطينية يريد فتحها لنفسه فاستجد ملكها بالامير محمد فأقن اليه سرعا وقا تل أخاه حتى ألزسه برفع الحصار عنهم ثم اتفاه الامير محمد وملك القسطنطينية وملك الصرب وأخذوا في نصب المكاييد والحيل للامير موسى حتى تفرق عنه جيشه وغالب قواده ثم قبض عليه أخوه وقتله (٨١٦ هـ) وبذلك انقرذ الامير محمد بالسلطنة العثمانية بلا منازع

(٥) السلطان محمد الاول الملقب بجلبلي بن بايزيد الاول

٨١٦ - ٨٢٤ هـ

لما استقل بالملك بعد النزاع الطويل الذي حدث بينه وبين اخوته وجلس على تخت آباءه بلا منازع أتته رسلا من ملوك أوروبا والروم مقدمين له التهاني بالنيابة عن ملوكهم فرحب بهم وأكرمهم ثم شرع في اصلاح الامور وكان الخلل تطرق الى جميع الادارات ولذلك عقد الصلح مع الدول الأوروبية المجاورة له وقوى معهم روابط المحبة والمصافة ورد الى الامبراطور امانويل بعض الحصون والولايات التي اخذها منه الامير موسى وغير ذلك ليتفرغ الى ما عزم عليه ولولا ذلك لخيف على وحدة الدولة العثمانية ولما كان سعيد الطالع عادلا كريما شوقا على الرعية لا يسعي الى المفايه خيرا مته تكلمت مساعيه بالنجاح وكذا كل امرأ خلصت فيه النية وهو أول من شرع في ترتيب العساكر البحرية وبناء السفن في ازيسيد وكيسبولي وبعض السواحل ونقل كرسي السلطنة الى أدرنة واعادة رونق السلطنة بعد أن تداعت جوائنها الى السقوط

ولما خرج حاكم الافلاق عن دائرة الطاعة العثمانية (٨١٩ هـ) تقدم السلطان بجيشه وعبر نهر الطونة وانشأ قلعة يركوى على ساحل الافلاق وعمر قلعتي ايسا قجي ويكي ساه ثم توسط بعض حاشية السلطان الملك الافلاق فعقا عنه وورده الى ملكه ثم تقدم الجيش العثماني الى داخل بلاد المجر

وكثيرا من بلاد سور ياتم تقدم وفتح بغداد ونهب ما فيها وقصد بعد ذلك بخار به السلطان بايزيد وكان متخوف منه فالتقت الجيوش بجبهة انقر سنة ٨٠٤ و يقال انه كان مع تيمورلنك ٨٠٠ ألف ومع السلطان بايزيد ٤٠٠ ألف مقاتل وكان امام صفوف تيمورصف من القبيلة وعليها الرجال ترمي بالنبال وتقدف النار فلم يهزم عسكر بايزيد وقبض عليه تيمورلنك وعامله بالحسنى ووعده باعادته الى مملكته غير انه لم يوف بالوعد بل سجنه في قفص من الحديد وحصل ما سبق شرحه الى أن قصد تيمورلنك بخار به الصين واجتاز نهر سيحون على الجليلد وتقدم الى جهة أورتران من بلاد كستان فمات هناك بالخمسة سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٥ م) وعمره ٧١ سنة ملك منها ٣٦ سنة

انعرض سببهم وندلا مور بلاد الافلاق وفتح قلعة سورين ولما كان ملك المجر غير قادر على المقاومة قدم السلطان هدية مفخرة أرسلها مع ثلاثة سفراء من أعيان المجر وبعد عقد معاهدة الصلح معهم عاد السلطان الى أدرنة منصوبا وغائما ثم سكن بعض الاضطرابات الداخلية وكانت كثيرة من أهمها ظهور رجل يدعى بدر الدين وكان من مشاهير العلماء وكان عند الامير موسى بوطيفه قاضي عسكري وكانت اركان مذهبه هذا الرجل المساواة بين الناس في الاموال وسائر المقتنيات بالفرق بين مسلم وغيره لاعتباره الكل سواء فقيه خلق كثير من أرباب البطالة والكسل من جميع الملل والنحل حتى خيف على البلاد منه فإرسل عليه السلطان محمد الجيوش وهدأ نوارت حتى الحرب زمنابن الطرفين وكانت بجالاته تمكن الوزير بربانيدباشا من قهر جيش بدر الدين المذكور وكان تحت قيادة رجل من اتباعه يدعى مصطفى وذلك بضواحي ازمير يمكن يقال له قره برون وقتل كثيرا من اتباعه ثم ان السلطان تعقب بدر الدين الى ان تمكن من القبض عليه ببلاد مقدونية بعد ان أظهر شدة ومقاومة وأمر به فقتل (٥٨٢٠) بقتوى قاضي العسكري ولم يكده السلطان محمد يستريح من عناء هذه الفتنة حتى ظهر أخوه الامير مصطفى وكان اختفى يوم هزيمة انقره ولم يوقف له على خبره ولم يظهر وطالب أخاه بسزير الملك انضم الى حزبه قره جنيد امير ازمير السابق وغيره من القواد والجنود وأمدده أمير بلاد الافلاق بجيش لتستمر القلاقل والاضطرابات في المملكة العثمانية ويمكن بذلك أمير الافلاق المذكور وغيره من أمراء شبه جزيرة البلقان من الخروج عن دائرة التبعية العثمانية ثم ان الامير مصطفى أخذ يشن الغارة على بلاد مقدونيا والبالوا وأدركته جنود السلطان انهزم والتجأ الى مدينة سلانيك وكانت عادت الى مملكة الروم كما سبق ولما طالب السلطان تسليمه اليه أبي عليه ملك الروم وتعهد بعدم التصريح له بمقارفة سلانيك ما دام السلطان على قيد الحياة فقبيل السلطان ذلك ورتب لآخيه راتب سنوي بايعيش منه (٥٨٢٢) ولقد كانت هذه الفتنة آخر الفتنة الداخلية التي حدثت بالمملكة بعد تيمورلنك وبعد ذلك تفرغ السلطان لاصلاح المملكة وتنظيم الجنود والنظر فيما يعود على الدولة بالترقي وبينما هو يجرى في ذلك انفا جاءته المنية بمدينة ادرنة (٥٨٢٤) وأوصى بالملك من بعده لابنه مراد ولقد كان رحمه الله تعالى الهمة فاضلا تقياد عنة وورع وشفقة على الرعية يعفون عن المسيء ويحسن الى البائس وقد اشتمت بحبته للعلوم والفنون وهو أول سلطان عثماني رتب الهدية السنوية التي ترسل للآن الى الحرمين الشريفين باسم الصرة وقال بعضهم ان أول من أرسل الصرة هو السلطان الغازي سليم الاول بعد فتحه مصر (٩٢٣ هـ) الآن رواية المؤرخين الذين يوثق بكلامهم تؤيد ان السلطان محمد جلبي هو أول من رتب ذلك وترك خمسة أولاد وهم الامير مراد والامير مصطفى والامير أحمد والامير يوسف والامير محمود

(٦) السلطان مراد خان الثاني ابن السلطان محمد الاول

(٨٢٤ - ٨٥٥ هـ)

لمجلس هذا السلطان على كرسي السلطنة كان عمره ثمان عشرة سنة وبعد أيام من جلوسه

أرسل له أمير بخارى سيفانقيساقته قلده في بر وسة ثم التفت الى بلاده مهتما باصلاح شؤونها وكان
محباً للغزو والفتوحات وتوسيع أطراف سلطنته الا انه كان له من أحوال مملكته ما يشغله عن مراده
ولذلك سعى حتى ابرم صلحاً مع أمير القرمانيين وهدنة مع ملك البحار لمدة خمس سنوات وبينما هو
يسعى في هذا الطريق السلمي اذ طلب منه امانويل ملك القسطنطينية التعهد له بان لا يحاربه مطلقاً
وأن يعطيه اثنين من اخوته تأميناً على هذا العهد رهناً على قيامه بهذا الشرط والاطلاق سراح عمه
مصطفى بن بايزيد من سلانك وتركه بعيد في انحاء السلطنة فلم يقبل السلطان مراد بذلك أصلاً
ورد طلبه فاطلق عند ذلك امانويل الامير مصطفى وجهزه بما يلزم من الذخيرة والجنود وأعطاه عشر
سفن حربية جعل على قيادتها أحد رجاله المدعو دمتر بوس لاسكاريس فانت هذه العمارة وحاصرت
مدينة غامبولي وشدت عليها الحصار حتى سلمت بعد أيام الاقلعتها ثم تركها الامير مصطفى وحولها من
الجنود من يضيق عليها الحصار ويمنع وصول المدد اليها وقصد مدينة أدرنة تحت السلطنة باوروبا
فلاقاه في الطريق الوزير بايزيد باشا وعند ذلك نادى الامير مصطفى في جنود السلطان بانه هو الاحق
بالسلطنة واعداً من ساعده منهم بالمكافأة العظيمة فأثر كلامه في الجنود حتى انهم قتلوا الوزير
بايزيد باشا وانضم اليه بعضهم

ثم تقدم وتلاقى مع ابن أخيه السلطان مراد فحاطا نال الدهر ساعده على مطلوبه الا أن الجنود
لم تطاوع هذه المرة بل حملت عليه حملة منكورة فشدت شمل جيشه وتخلص هو ناجياً الى مدينة
غلبولي فقبض عليه هناك وسلم الى السلطان مراد الذي أمر بشنقه ولما كان امبراطور
القسطنطينية هو السبب في هذه المشاكل والمذابح عزم السلطان على معاقبته فاستعد لحصار
مدينته وجرده عليه جيشاً يبلغ مائتي ألف مقاتل ثم تقدم وحاصره والمدينة بنفسه سنة ١٤٢٥ هـ
(١٤٢٢ م) حصاراً شديداً وهذا هو الحصار الرابع للعثمانيين الا أنهم لما كانت حصينة متمتعت
عليه ولم يتمكن من التفرغ لها لان الثورات كانت قامت بجهات الاناضول بتحريرات أخيه الامير
مصطفى جلبي الذي شق عليه عصا الطاعة وقد تمكن السلطان من قهره وقتله وكان الامير مصطفى
هذا الاستعانة على أخيه السلطان مراد ببعض أمراء اسيا الذين كان تيمورلنك رداً اليهم أملاً بهم
التي انتزعتها العثمانيون منهم ولما كانت مساعدهتهم لآخيه الناظر عليه منافية لحق الجوار أغار
السلطان على بلادهم وانتزعهما منهم وأضافها تائباً الى مملكته وكان منهم أمير قسطنطين وأمير
صاروخان ومنتشا وأمير بلاد القرمانيين ولما استراح السلطان من شرورهم أمكنه التفرغ للنظر
في الفتوحات الخارجية التي كان يستعد لها من زمن فجرده على ملك المجر أشد معانديه وبعد ان
قهره ونكل به ألزمه بالتوقيع على معاهدة تقضى بان يكون نهر الدانوب فاصلاً طبيعياً للاملاك
العثمانية عن أملاك المجر وقبل أيضاً ملك الصرب بجورج برانكوفيتش دفع جزية سنوية قدرها
٥٠٠٠٠ من الذهب وان يمدد السلطان بفرقة من جنوده في زمن الحرب وان يقطع كل صلة بينه
وبين ملك المجر وان يتنازل أيضاً عن مدينة الآججه حصار (كروشيوفتس) الكائن في وسط
بلاد الصرب ليجعلها السلطان حصناً تقيم به جنوده ثم انه جرد على مدينة سلانك قصد افتتاحها
ولما توفي امبراطور القسطنطينية امانويل (١٤٢٥ م) وخلفه يوحنا باليولوغوس واعترف
السلطان مراد رسمياً بجولوسه على تحت القسطنطينية فرض عليه جزية معلومة يدفعها لخزنته في

كل سنة وشرط عليه أن يتنازل له عن جميع البلاد خلا القسطنطينية وضواحيها وقد التزم
الامبراطور بالجديد بهذا الاقتراح وبذلك استولى السلطان مراد على جميع القلاع والحصون
الباقية تحت تصرف الروم على شواطئ البحر الاسود وسواحل الروم الى

استرداد سلا نيك (٥٨٣٢) - لما كان السلطان مراد استرد كل المدائن والبلاد التي كانت
للعثمانيين مدة السلطان بايزيد بل زاد عليها وكانت مدينة سلا نيك من المدن التي وقعت في قبضتهم
واستولى عليها الروم ثانية اراد اخضاعها ايضا فخردها عليها يريد حصارها وكان المتولى على هذه المدينة
وما يتبعها اندرون نيك ثالث اولاد القيصر المتوفى وكان أهلها لما رأوا أنهم لا يقوون على صدمها جنة
العثمانيين عنها سلموها بالارغم عنه للبنادقة (١٤٢٥ م) لماعهدوه ففهم من المهارة بالاسباب الحروب
وفنون القتال ولما تسلط البنادقة على سلا نيك أظهر والاهلها في أول الامر العدل ورقة الجانب
وأطلقوا الهم الحربية في أن يحكوا أنفسهم حسب قوانينهم الا أن ذلك لم يدم زمانا طويلا لانهم أخذوا
يوجدون أسبابا متنوعة لاذلالهم ونفوا منهم خلقا كثيرا وشردوهم في جزائر الارخبيل التي كانت
يومئذ في حوزتهم ولو أنهم لم يهملهم السلطان مراد لكانوا يبدلوا جميع سكان سلا نيك بغيرهم ولما كان هذا
السلطان العظيم لا ينظر بعين الرضا الى استيلاء البنادقة على هذه المدينة المهمة لانهم من ألد
أعدائه مظهر ارغمة في افتتاحها ثم اثباتا اجتمدا للبنادقة في احباط مسعاها واستغاوا بالقيصر يوحنا
ليتوسط بينهم وبينه فأرسل يوحنا الى السلطان مراد سفيرا يذكروا بان هذه المدينة التي عزم على
افتتاحها ليست من مدن الاعداء بل هي من المدن التابعة للقسطنطينية فقال السلطان لو كانت هذه
المدينة باقية بيد اندرون نيك أختي يوحنا لما كان قصدها بالشر ولما أخفق سعي القيصر وعلم البنادقة
لاصرار السلطان على قصده حصون تلك المدينة تحصينا قويا وأرسلوا عمارتهم لاحتراق السفن
العثمانية الراسية في ميناء غليمولي قصده رقلة مساعي السلطان فيما يقصد وكانت تلك العمارة تحت
قيادة ندر اوس مو كينكو أميرال خليج البنادقة وبعد أن هاجم العمارة العثمانية في خليج غليمولي
ولم يقو على نيرانها الردم قهورا ولقد كانت هذه النصر البحرية من الاسباب التي أعانت العثمانيين
على فتح سلا نيك ثم شدد العثمانيون الحصار على المدينة ففتحوها عنوة وهربت منها طامية البنادقة
الى سفنهم (١٤٢٩ م ٥٨٣٢) ولما وقعت سلا نيك في أيدي العثمانيين ترعزعت أركان
سلطنة الروم وانخلعت لها قلوب أهل القسطنطينية وصاروا من ذلك الوقت يتوقعون أن يصيب
مدينتهم ما أصاب تلك المدينة العظيمة وبعدها ملكوا سلا نيك أخذوا في مدس طوتهم في تلك
الاطراف فاستولوا على اخائية واپيرة وبانبة وغيرها وكانت الدائرة فيها طورا على الروم وطورا
على العثمانيين الا أنهم كلما أرادوا الدخول الى بلاد البانيا صدمهم أهلها فخرجوا منتظرين
الوقت المناسب

وبعد ذلك التفت السلطان الى الاهتمام بالتنظيمات الداخلية بينما كانت قواده مثل علي بك
وعيسى بك اولاد ادرانوس واشحق بك وثمان جلبي بن تيمورطاش باشا وغيرهم يفتحون بفتح جهات
أخرى من بلاد مقدونية و تساليا وكان سنان باشا بكر بك الروملي استخلص جميع المدن والبلاد التي
بجهات برزخ كورنثة وعانت بجهات مورة ثم قصد بلاد المجر ففتح وغنم ذلك لان ملك المجر كان اتفق

مع ابراهيم بك بن قرمان سرا على الاخلال براحة الدولة وشق عصا الطاعة وقد تعدي بالفعل على بعض اقاليمها (٨٢٩ هـ) ثم ان السلطان قصدمدينة قونية واستولى عليها من يد ابن قرمان (٨٢٩ هـ) الذي طلب العفو من السلطان عاصدمرمنه فأقر لذلك على قونية بشرط التبعية محاربة الصرب والمجس^(١) وواقعه دارنة الشهيرة - انه بعد ان نكل السلطان بن قرمان رأى

(١) بلاد المجر أو هنكار يملكه من دولة النمسا نحو شمالا بجبال كربات الفاصلة لها عن غاليسيا وشرق بلاد ترانسلفانيا وجنوب نهر الطوبه الذي يفصلها عن الدولة العثمانية وعن بلاد كرواتيا ورومانيا وغربا ببلاد ستيريا ووقية أوتريش ومورافيا ومسطحها نحو ٢٢٦,٥٩٧ كيلومتر مربعاً وسكانها يبلغون ١٢,٠٠٠,٠٠٠ من الانفس نصفهم تقريباً من المجر وما بقى أخلط بين صقالية وصرب ورومان ويهود وغير يروي هذه البلاد نهر الدانوب وما يصب فيه من النهرات وبوسطها سهل عظيم وبجهاها الجبلية غابات وافرة وهو أفاؤها شديد البرودة الجبال معتدل حتى في السهول ومن حاصلاتها الواقعة الحبوب والسكر ومن التسع الخبيذ والخضراوات والثمار وفيها خيول جيدة وأراضيها كثيرة المعادن والاحجار النفيسة وفيها أيضاً ما معدنيته معتبرة يستشفي بها وبمعدنها كثير من المصانع والمعامل المختلفة

وهذه البلاد وان كانت خاضعة لامبراطور النمسا الا ان لها نظاما خاصا بها وأراضيها تشغل الا ان مكان بلاد بافونيا الشمالية وداشيا الشرقية وقسم من جرمانيا القديمة وقد أخضع قواد الامبراطور أغسطس هذه البلاد بعد ان قامهم سكانهم مقاومات عنيفة ثم أخضعها الغوط سنة ٢٧٥ م والوندال سنة ٣٣٧ م والهون سنة ٤٠٧ م حتى موت ملكهم أنيلا ٤٥٣ م ثم ان اللومباردين طردوا قبائل الجيذ الذين احتلوا البلاد بعد الهون ٥٦٧ م وفي ٥٦٨ م أقبلت طوائف الافاروزلوا هذه البلاد الى أن تغلب عليها شارلمان سنة ٧٩٩ م وضمها الى دولة القرنك أما المجر وهم من أصل فنلندي فقد استولوا على هذه البلاد سنة ٨٨٩ وفي مدة ملكهم ارطادا الاول وخلقائه من بعده أغار المجر على بلاد المانيا وفرنسا واطاليا وخربرها وقد اهتم ارطاد بتنظيم البلاد والحكومة ورب جيشا وقسم البلاد الى كوتات وفي سنة ١٠٠٠ من الميلاد اعتنق اثنان من الملوك المجر الديانة النصرانية ولقبه البابا بلقب ملك وسن للبلاد قانونا وأخضع بلاد ترانسلفانيا والبلغار وقهر الصقالية ثم ان بعض الملوك من الاجانب حكموا هذه البلاد بسبب ثوراتها الداخلية الى أن أتى لادسلاس الاول (١٠٧٧ م) وتمكن من تسكين الاضطرابات وقهر الافلاق والروس والبولونيين والبوهيميين واستولى على بلاد كرواتيا وعرض ابنه المدعو كولومان لجيش الصليبيين الذي كان تحت قيادة غوته وغونشالك فاذا قسماته وأخضع دلماسيا ولما قسم الامبراطور ركونراد الثالث الدولة لثلاث بكونتية ترانسلفانيا اقوام من القلاماندين سنة ١١٤٨ م ولما قام الملك يلا الثالث أدخل الى بلاد المجر عوائد وأخلاق الاغريق ثم تزوج بجرغريتا ابنة لوز السابع ملك فرنسا واشترك اثنان في الحملة الصليبية الخامسة ونظم للبلاد قانونا (١٢٢٢ م) وفي مدة حكمه أخذ أهل خوارزم في شن الغارة على بلاد المجر الى أن أخضعوها واقاموا ينهبون بها مدة ثلاث سنوات (١٢٤١ م) وتمكن اثنان من قهر البوهيميين والنمساويين والبلغار وتلقب ملك البلغار ولما زالت العائلة الملكية من هذه البلاد وهي عائلة ارباد انتخب المجر يون وانسلاس ملك بوهيمية ثم اتخبا أوتون ملك بافيرا ثم ان البابا كليمان الخامس في سنة ١٣١٠ جعل المجر يعترفون بشارل رويكونت بلاد أنجو ملكا عليهم وعند ذلك ترق أمر المجر وازدادت سلطتهم وسطوتهم حيث أخضعوا بلاد كرواتيا واسبانيا والصرب وترانسلفانيا وداشيا والمصعدا بنه لوز الاول على تخت المجر جرد على ملكة تابلوك (١٣٤٨ م) فقهرها سنة ١٣٧٠ م حكم على بلاد المجر وبولونيا ولما قام مجسموندا أمير لوكسمبورغ وتزوج الملكة ماري التي حكمت بعد أيها لوز الاول وتمكن من حماية بلاد المجر من اغارات لادسلاس ملك بولونيا الا ان العثمانيين قهره وبعده يشكو بوليس (١٣٩٦ م) وفي مئذرية (١٤١٢ م) ولما ارتقى امبراطور على المانيا تنازل له طاغية الصرب عن مدينة بلغراد التي اتخذها حصنا يافع به عن بلاد من اغارة العثمانيين عليها وقد أحرى بالبلاد عدة تنظيمات وتحسينات ثم انه اضطر لاخلع بلاد بوهيمية ثم ان جان هونياد أمير ترانسلفانيا والنائب عن لادسلاس الخامس انتصر على العثمانيين بمدينة

من الضرورة تأديب ملك المجر وجورج برانكو قتش أمير الصرب لاتفاقهما على الاضرار بالعثمانيين
ولمساار الجيش العثماني وعبر نهر الطونة دخل بلاد المجر وعاث فيها حتى بلغ بلاد دمشق وارهرمانشتاد
وذعبت فرقة منه الى بلاد الصرب فاستوت على مدينة سمندرة عاصمة تلك البلاد ثم شرع الجيش
العثماني في حصار مدينة باغراد الا أنه لم يتمكن من فتحها وبعد ذلك طلب أمير الصرب أن يرزج
ابنته للسلطان ويقدمه صلحا فقبل السلطان منه ذلك الا أنه لما علم أن أعماله كانت ولا تزال مجلبة
عليه غضب السلطان فرمتهجئا الى ملك المجر لادسلاس ولهذارأى السلطان من الضرورة سوق
الجيش مرة ثانية على بلاد المجر ولما دخلها الجيش العثماني أخذ في شن الغارة عليها حتى باغ مدينة
هرمانشتاد وشرع في محاصرتها وفي هذه الاثناء كان ظهور رجان هونياد المشهور أمير الاردل وفي
خلال ذلك نهض البابا أوجيانيوس وشرع في عقد تحالف بين دول الفرنج وعصبيهم على محاربة
العثمانيين فتصدى لادسلاس ملك المجر وبولونيا وتقدم بعساكره تحت قيادة جان هونياد للقاء
المجرى الشهير بعدما انضم الى جيشه جهور من الفرنسيين والجرمانيين وقصدوا جيوش
العثمانيين في جوارهرمانشتاد سنة ١٤٤٥ هـ وكان حاكم بلاد ترانسلفانيا التي منها مدينة هرمانشتاد
المذكورة تابع الملك المجرى وكان على هذا الاقليم جان هونياد المذکور الذي أتى مسرعاً للدفاع عن
هذه المدينة فانصر على العثمانيين وقتل منهم قدرا عظيما حتى ألزم من بقي منهم الى القهقري ولما علم
السلطان بذلك أرسل جيشا اخر تحت قيادة شاهين باشا فاصابه ما أصاب الاول من هونياد وجنوده ووقع
شاهين باشا أسيرا في موقعة قرب بلدة يقال لها اوازاج ١٤٤٥ هـ وكان السلطان في خلالها مشغلا
بمحاربة ابراهيم أمير بلاد قرمان وبعدان قهره السلطان كان المجرىون تقدموا وانفقوا مع
الصربيين على محاربة العثمانيين ولما انقوا معهم جهة بلغراد صدتهم العساكر العثمانية فانقلبوا
على أعقابهم وكانت هذه الفعلة خدعة منهم لانه بينما كانت جيوشهم أخذة في التمهق والعثمانيون
في تعقبهم انبهم ارتدوا على العثمانيين بينما كانوا يسرون خلفهم في مضيق نيش واحاطوا بهم
من كل جهة في المضيق المذكور وحصلت بين الطرفين واقعة دموية انجملت عن انتصار هونياد
وهزيمة العثمانيين هزيمة شنعاء وقتل منهم عدد وافر بين امرء وجنود وأسر منهم كذلك
(١٤٤٦ هـ) وما زال فلهم يفر حتى وصل الى أدنة ثم توسط جورج برنكو قتش ملك الصرب في

نيش (١٤٤٣ م) وعقد معهم معاهدة تزجدين الا أنه في الواقعة التي حصلت سنة ١٤٤٤ م قهر العثمانيون
المجر والبولونيين وبدوا شملهم وقهروا وبعدهم هونياد وجيوشه في واقعة توفصوة (١٤٤٨ م) وعند ذلك ترك
الحكومة للملك لادسلاس الخامس (١٤٥٣ م) وقد كان من حق هذا الملك أن يحكم على بلاد النمسا وبوهيميا والمجر
التي فقدت استقلالها في الحقيقة ولما أتى السلطان محمد الثاني وحاصر بلغراد سنة (١٤٥٦ م) تمكن هونياد
ونائب البابا من صدده ولما مات لادسلاس الخامس (١٤٥٧ م) صدع ما تيسر كورفين بن هونياد على كرسى
المملكة وقد جعل هذا الملك بلاد المجر فوق كل البلاد المشككة الا لدولة النمسا واستولى على مطبعة أوترش من
يد الامبراطور رفرديك الثالث وعند موته سنة ١٤٩٠ حكمه وولادسلاس الثاني على بلاد بوهيميا ولويزا الثاني على
بلاد المجر وقد كسر العثمانيون جيشه وقتلوه في واقعة موهاكز (١٥٢٦ م) وبعد ذلك حصلت وقائع ومحاربات
انصر فيها العثمانيون وضموها هذه البلاد الى ملكتهم وحفظوا لها استقلالها ولم تدخل بلاد المجر تحت يد ملوك النمسا
نهايا الامدة الملك مكسليان (١٥٧٠ م) وستأني بقية أخبارها عند الكلام على دولة النمسا في الجزء الثالث
من هذا الكتاب ان شاء الله

الصلح فقبسه السلطان واشترط فيه بقاء الصرب و بوسنه يدفعان خراجا للدولة العلية واستقلال
 الافلاق عن السلطنة العثمانية تماما وان ترد قلعة سمندره الى الصرب واخلاء سبيل بعض الاسرى
 من الجاتيين وغير ذلك وتقرر ان تكون الهدنة لمدة عشر سنوات ولما انتهى الامر على ما تقدم بعده هذه
 الحروب والمخاصمات وسكنت الفتن والقلقل توفي الامير علاء الدين وكان والده يحبه كثيرا فاورثه
 الهموم حتى انه عزم على تفضية ببقية حياته في راحة معتزلا عن الملك فتنازل عن كرسي السلطنة
 الى ولده محمد الثاني الملقب بالفاتح ثم ضم اليه بعض خواصه وقصد مدينة مغنيسيا متفرغا للعبادة
 ولما علم بذلك لادسلاس ملك المجر ظن ان الجوخا لاله لوال مقاصده فتقدم بجيش عظيم ولم يراع
 الهدنة التي عقدت بينه وبين السلطان وأغار على املاك السلطنة وكان ذلك بخرصات البابا ولما
 رأى السلطان مراد هذه الاحوال خاف من عواقب الامور فاضطر ان يعود الى الملك ثانيا وأمر
 بسرعة التجهيزات الحربية ولما قصد العبور من جهة كيمبولي وجد ان سفن الاعداء اسدت ذلك
 المعبر فالتزم العبور من مضيق البحر الاسود وكان بصحبه خليل باشا الوزير الاعظم وشهاب الدين باشا
 ولما وصل الى ادرنة وجد الجيش الهمايوني على قدم الاستعداد تقدم وتلاقى مع جيش المجر المشكل
 من ٨٠ ألف مقاتل وكان لادسلاس قبل ذلك دخل بلاد البلغار وبعقدان وهرسكو وبوسنه
 واتفق مع امرائها على ان يكونوا يدا واحدة وكانت ملاقاتة الجيشين امام مدينة وارنه على سواحل
 البحر الاسود (١٤٤٤ م) ٢٨ رجب ٨٤٨ هـ ولما اشتعلت بينهم نار القتال وحى وطيسها
 تقدم لادسلاس ملك بولونيا والمجر ومعه فرقة منتخبة من جنده واقحم الميدان فاصدا الهجوم بنفسه
 على السلطان مراد الذي كان واقفا على تل مرتفع يعطى الاوامر لجيشه وعند ذلك اطبقت الجيوش
 العثمانية على لادسلاس وقتلوه وبعونه انهزمت جيوش المجر ومخالفهم وتفرق شملهم وأخذتهم
 سيوف العثمانيين في كل مكان وصار هونيدا قائدهم يجمع شيت العساكر ويحرضهم على
 الرجوع والنبات فلم ينجح لان الرعب كان قد استولى عليهم وقتل من جيش الاعداء في ذلك اليوم
 ما يزيد عن عشرة آلاف نفر واعتمت الجيوش العثمانية في هذه الواقعة غنائم لا تحصى ثم عادت
 الى ادرنة غانمة ظافرة وكان من بين القتلى القونت سيزاري بنى رسول البابا ثم ان السلطان بعد ان رد
 كيدا اعدائه في نحوهم ومهدا امور المملكة تنازل عن الملك ثانيا الى ابنه السلطان محمد الثاني وعاد
 الى عزلته كالاول ولكن لم ترض الانكسارية بذلك وتدمروا واضطربوا فاضطر ان يعود الى
 السلطنة ولما كسر شوكتهم خاف من قيامهم مرة اخرى فأراد اشغالهم بالحرب ولذلك تقدم وأغار
 على بلاد اليونان وساعده على مقصوده هذا ان امانويل ملك القسطنطينية كان قسم مملكته في
 حال حياته بين اولاده بان اعطى مدينة القسطنطينية وما حولها من البلاد القربية الى ابنه حنا
 وبلاد موراقسما من تساليا لابنه قسطنطين وهو آخر ملوك الروم ولما علم قسطنطين بعزم السلطان
 مراد على فتح بلاده ابتي بير زخ كورنثة حصونا ومعاقل جعلته لا يرام ومع ذلك فان هذه القلاع
 لم تكن شيئا امام عساكر العثمانيين الابطال لانهم سلطوا مدافعهم على اسوار تلك الحصون حتى احدثوا
 بهائلة ودخلوا منها قاصدين مدينة كورنثة ففتحوها وقد كان في نية السلطان الاستمرار على فتح
 هذه البلاد لولا ظهور اسكندر بك الشهير وثارته القلاقل بالباينا فاكفى بضرب الجزية عليها

ولما عقد الصلح مع اسكندرا عاد الكرة عليها وقد كان يسلد البانيا أمير يدعى جان كاستر يويحكم بالارث على قسم صغير من تلك البلاد فلما رأى قدوم السلطان لمحاربتة خاف سوء العواقب فعقد معه معاهدة قبل فيها ان يدفع جزية سنوية وان يتقاد الى جميع أوامره بشرط ان يبقية في ولايته وان يكون من جملة عماله فأجابه السلطان الى ذلك بعد ان أخذ اولاده الاربعة رهينة عنده حتى يأمن شره في المستقبل فاختلف هؤلاء الاولاد برجال البلاط السلطاني وارتقى أحدهم الى درجة سامية ثم اعتنق الدين الاسلامي ظاهرا ولقب اسكندر بك وكان يسمى سابقا جورج كاستر يونا وتولى على البانيا من طرف السلطان بعد وفاة والده بكتاب مصطنع عن لسان السلطان تحصل عليه من سرقرنا السلطان وكان اسكندر بك المذكور ذهب لمقاتلة هونيد فأوقع الهزيمة على الجيش العثماني فصد امنه في تشويش حال الدولة ليمتكن من الاستيلاء على البانيا ولما فر الى البانيا دخل عاصمتها بلا حرب ولا قاه الاهالي بالترحاب ثم فتح في قليل من الزمن جميع المعاقل العثمانية وكان يخير حاميتها بين شيئين اما اعتناق النصرانية أو القتل وبذلك قتل جميع الجنود العثمانية التي كانت بتلك الحصون تقريباً ثم خلع الطاعة بعد ذلك على الدولة وهزم لها عدة جيوش فطارز كره وعسلا أمره واستمر مؤيداً منصوراً مدة ٢٥ سنة لوعورة تلك البلاد وصعوبة مواقعها

واقعة قوصو الثانية - وبينما كان السلطان يشتغل بحاربة اسكندر بك المذكور (١٥١) قام جان هونيد وكيل ملك المجر وجمع في دائرة اتفاهه عدة أمر من أوروبا وهاجرت جنوده الروملى تحت قيادته فعاد السلطان الى صوفية وجمع الجنود العثمانية فيها ثم تقدم والتقى مع جيوش هونيد في وادي قوصو (١) (١٥٢ هـ) حيث انتصر السلطان مراد الاول قبل ذلك بستين سنة وحصلت بينهما حروب شديدة امتدت ثلاثة أيام قتل فيها من الطرفين ما يقرب من ٦٠ ألف مقاتل ثم انهزم هونيد وفر من ميدان القتال بعد ما لحقه من الخسائر ما لا يحصى ثم عاد السلطان الى ادرنة واهتم ببناء جامع الشهير فيها وفي سنة ١٥٣ هـ عقد السلطان لابنه محمد على ابنة اسكندر بك وبعد عودة السلطان من هذه الحاربة الى ادرنة تزوج ابنة أمير بلاد دى القدرية الى ولده السلطان محمد سنة ١٥٣ هـ ثم اعتراه مرض بعد ذلك بستين مكث به اثني عشر يوماً ثم ارتحل الى الدار الآخرة ١٥٥ هـ فمكث أمراء الدولة خبر موته مدة اثني عشر يوماً حتى حضر ابنه السلطان محمد ثم نقل نعشه ودفن في مدينة بروسة في تربته المخصوصة وكان رجحاً الله ملكاً جليلاً صالحاً جامعاً بين العلم والعلماء والصالحاء مقدماً مانكاً شجاعاً كريماً واسع العطايا عين الحر من الشريفين من خاصة صدقائه في كل عام ٣٥٠٠ دينار وهو وان لم يصل الى ما وصل اليه أسلافه من الفتوحات الا أنه جدير بأن يشترك مع والده في لقب الباني الثاني للدولة العثمانية وذلك لان هذين السلطانيين توصلوا بساعهما العظيمة لجبر وملافة الخسائر والتجربيات التي أحدثتها بثوراتك ولما عزم على الاستراحة من عماء الملك وتفرغ للعبادة ورأى ما كاد يصل الى جسم الدولة من الاذى استلم زمام السلطنة بيده القوية فكبح أعداءه وسارت جيوشه منصوراً حتى بلغت جهات مورة واشقودرة

(١) قوصو Cassovo هي سهل في بلاد الصرب بين اسكو بيا وكوبانيك برويهانتردين

﴿ الفصل السادس ﴾

من فتح القسطنطينية الى انتقال الخلافة الاسلامية لسلطان آل عثمان

٨٥٧ - ٩٢٢

(٧) السلطان الفاتح محمد خان الثاني

(٨٥٥ - ٨٨٦ هـ)

جلس هذا السلطان الشهير والبطل الكبير وهو السابع من سلالة ملوك آل عثمان على سرير السلطنة بعد وفاة أبيه وكان سنه اذ ذلك ٢٢ سنة وعقب جلوسه قام عليه كثير من أمراء بلاد الاناضول الذين كان فتح العثمانيون بلادهم بدعوى استرداد تلك البلاد فتمكن في آخر الامر من ادخالهم جميعا تحت لواء الطاعة ولما استلم زمام السلطنة كانت جميع بلاد آسيا الصغرى خاضعة للسلطنة العثمانية ما عدا بلاد ابن كرمان ومدينة سينوب ودولة طرابزون أما باورويا فكانت دولة القسطنطينية لا تزال على استقلالها وبلاد بيلوبونيز (موره) منقسمة بين عدة أمراء من اليونان واللاتينيين وبلاد البانيا خاضعة لاسكندربك وبوسنة مستقلة تمام الاستقلال وبلاد الصرب تدفع جزية للعثمانيين وما عدا ذلك من الجهات فكان في قبضة العثمانيين

نسخت القسطنطينية - كان ملوك القسطنطينية يجتهدون على الدوام في بث الدسائس ونفخ روح العصيان في جسم مملكة العثمانيين منذ عظم أمرهم وفضخم ملكهم ليأمنوا على ما يديهم من بقايا الدولة اليونانية العظيمة وكان الامبراطور قسطنطين من يوم تبوئه عرش المملكة وهو عامل على طريقة اسلافه من إحداث الثورات وتشيط عوامل الاضطرابات الداخلية بالمملكة العثمانية فانتهز السلطان المشار اليه ذلك فرصة لانعام مقصوده ونيل مرغوبه من فتح القسطنطينية سيما وان أحوال تلك المدينة الداخلية كانت محتلة بسبب التعصبات المذهبية والتلاقل الدينية وبعد أن صمم السلطان على انفاذ غرضه واحتاط لأمره وأعد جيوشه خرج من ادرنة عاصمة بلاده بعد ان وطد الامن في أنحاء المملكة وأدخل تحت لواء طاعته من نار عليه من الامراء المارذ كرههم على رأس جيش كثيف يبلغ مائتي ألف جندي ومعه أسطول مؤلف من ثلثمائة غراب حربي وكثير من سفن النقل وكان أمر تجهيزها بمدينة كليبولي قبل خروجه وكانت هذه الاساطيل تحت قيادة بلطه أوغلي سليمان بك المعتبر لدى المسالحين أول قبودان للاساطيل العثمانية ومعه أيضا كثير من آلات الحصار وأدوات الحرب والتزال وحاصر مدينة القسطنطينية برا وبحرا قال فولتير كان بمدينة القسطنطينية خزبان يضاد بعضهما بعضا كما كان بمدينة أورشلين حين ما حصرها فاسبا سيبان وطيطوس وهما حرب الامبراطور وأشرف الالهالي وقصده ضم الكنيسة الاغريقية للكنيسة اللاتينية اعتقادا منه أن ذلك ينهض همم الكاثوليك والبابا بالمديد المساعدة لدولة اليونان لانه متى توحد الاعتقاد تألف جميع أصحابه والاخر وهو حزب القساوسة وعامة الامة وهو يقاوم كل من يقول بالرأى الاول ويستكشف ضم

الكنيسةين حتى ان أعضاهم لم يكونوا يدخلون الكنائس التي يدخلها أعضاء الحزب الاول لانه كان لا يزال يتذكر ما حصل ليلاده من اغارة الصليبيين وبينما هم في هذه المشاحنات والمجادلات انبأ الاتراك على أبواب القسطنطينية اه

ولمشرع السلطان في تهبة الاسباب لفتح القسطنطينية وأخذ في بناء الحصون على ساحل البحر الاسود أرسل امبراطور القسطنطينية قسطنطين بالبولوغ يتضرع اليه ويسأله العدول عن مشروعه هذا وفي مقابلة ذلك يتعهد بدفع الجزية التي كان يدفعها سلفه فلم يقبل السلطان ذلك من رسله ونقل بعض المؤرخين أنه أرسل للسلطان ثمانية رسولا يقول له ان بناء هذه الحصون والقلاع ما وراءها الا القتال وتجر يد جيوش الشر والحرب فان لم تحملك المواثيق على عقد الصلح بيننا فذلك اليك وقد فوضت أمري الى الله تعالى فان هداك وعطف قلبك كان ذلك غاية المراد وان كان قدر لك بفتح القسطنطينية فلا مرد لقضائه ولا مانع لحكمه والافلا أزال أدافع عنك الى آخر رمق من حياتي

وقد بذل هذا السلطان في أمر حصار القسطنطينية من السعي والاقدام ما جعله يعد من أعظم الفاتحين ولم يترك أية وسيلة ممكنة لنجاح مرغوبه ونييل مطلوبه فصنع من خوارق العادات ما لم يسمع بمثله منها انه سبك مدفعا جسيما من البرونز قطرها ثمان عشر شبرا يقذف كرة من الحجر يبلغ وزنها اثني عشر قنطار المسافة ميل وكان خدامه يبلغون سبعمائة شخص ويحتاج حشوه لساعة من الزمان ولما أرادوا نقله من مدينة أدرنة حيث صبوه لوضعه على حصار القسطنطينية خصصوا له خمسمائة زوج من الثيران القوية وثلاثة آلاف جندي ومنها هو وأغربها تسمير السفن الحربية على اليس مسافة فرسخ من عند المكان المسمى الآن طولها بانجحه الى المكان المدعو قاسم باشا وكيفية ذلك أنه أمر ببناء على اشارة المهندسين بتغطية الارض التي يراد سحب السفن عليها بالواح الصنوبر المدهون بالشحم حتى صارت كالزلقان ثم سحبوها عليها وكانت عبارة عن ثمانين غرابا وسبعين سفينة خفيفة بقوة الايدي والآلات المستعملة اذ ذلك لانه رأى تعذر ادخال السفن الى ميناء المدينة لانها كانت مقلبة بانجخ السلاسل الحديدية ومحصنة بأقوى الآلات الدفاعية وأجودها فتمت جميع هذه الاعمال في ليلة واحدة فقط وعند الصباح اندهش المحصورون تمام الاندهاش حينما شاهدوا أسطولا حربيا تام المعدات انحدروا من الشاطئ الى ميناهم ثم انشأ العثمانيون في نفس ذلك اليوم جسرا عظيما من السفن المذكورة ونصبوا عليه احدى بطارياتهم الاربعه عشر كل ذلك على مرأى من المحصورين ونقل هامير المؤرخ ان السفن انشاء سحبها كانت ناشرة شرعاتها اوربا بينها على مقدمتها وكانت الابواق تضرب والطبول تعزف ولما طلع الفجر شاهد المحصورون أزيد من سبعين سفينة حربية راسية بميناهم اه ولما علم الامبراطور ضعف عساكره امام عسكر العثمانيين المنتظمة المدربة على القتال العارفة بالاسباب أرسل يستغيث باوروبا النصرانية فاعارته اذنا صما وأرسل البابا اليه رسولا يحرضه على مداومة القتال وشده العزيمة ويعده بانه سينادي بالحرب المقدسة بين أمم النصارى ومع ذلك فإنه لم يكن بأوروبا اذ ذلك من ملوك النصارى من له قدرة على مساعدة القسطنطينية ومقاومة جيوش العثمانيين القوية غير أميرين وهما هونياد أمير ترانسلفانيا الا أنه لم يكن في مقدرة

غير حفظ نفسه والاخر هو اسكندر بك الشهير الذي كان يهتم في حفظ مركزه بجبال بلاد ايبير
كما كان يفعل الدون بيلاج بجبال استورى حين اغارة المسلمين على بلاد داسپانيا ولما كان لمدينة
جنوه منافع تجارية ومواصلات مستمرة مع القسطنطينية ولها عدة مخازن تجار به بجهة غلطة
أرسلت الى الامبراطور دونته مؤلفة من خمس سفن حربية تحت إمرة رجل شجاع يدعى
(جوستينيانى) ومعه ستة آلاف جندى فتمكن هذا القائد بجهارته من ازال جيشه الى البر
على مرأى من العثمانيين وعند ذلك انتعشت قلوب المحصورين وقويت نفوسهم واجتهد ذلك القائد
الجنوى زى مرار فى احراق السفن العثمانية فلم ينجح أصلاً لتليقظ جنودها حتى انه أتى ذات ليلة
تحت دجى الظلام لهذا القصد فوجد جنود العثمانيين متيقظاً فلهجوه ولما هم بالرجوع أطلقوا
عليه نيراناً قوية فأغرقتوا سفينته وكان بها أزيد من مائتى شاب من متطوعة الطليانين ومن أولاد
أشرافهم ولم ينج ذلك القائد بنفسه الا بعد جهد جهيد وعناء شديد ثم أخذ هذا الأجنبي
يدبر أمر الدفاع عن المدينة قال قولتير عند ذلك انه كل بناء جعل تحت مراقبة أجنبية
تداعت أجزاءه للسقوط ولم يتفق أصلاً أن قدماء اليونان رأوا عليهم رئيساً فارسياً ولم تسلم قيادة
الجنود الرومانية لرجل غالى ولهذا يلزم أن تسقط المدينة فى يد الفاتحين وقد حصل ذلك بالفعل اه
ولماتين العثمانيون من نجاح مشروعههم وانهم يستولون على المدينة لاسمحالة أرسل
السلطان قبل الهجوم العام بيوم واحد رسولا الى الامبراطور يخبره بأنه ان سلم المدينة من غير
قتال فان السلطان يمنح جميع الرعايا الحرية التامة ولا يتعرض لهم فى شئ أصلاً ويهب الامبراطور
بلاد مورثى مقابلة ذلك فلم يقبل من الرسول قولاً وردة بعد أن وبخه ومما قال له ان السلاطين الذين
أتوا قبل محمد هذا سعوا فى افتتاح القسطنطينية فلم يقدر وامن ما بذلوه من القوة والسعى فالاصح
للسلطان أن يرجع بعسا كره وهو يتعهد بدفع الجزية كالاول ولما شك الامبراطور مجلسه
الخاص وعرض عليه ما قاله رسول السلطان أطرقت الاعضاء برؤوسهم ولم يعارض واحد منهم دلالة
على القبول ما عدا رسول البابا ومنذوب اسبانيا وغيرهما فانهم أشاروا على الامبراطور بعد اومة القتال
وانتظار امداد أوروبا

وقال بعض المؤرخين نقلاً عن تاريخ البرنس ديمتريوس كاتميرانه بعد حصار دام تسعة وأربعين
يوماً اضطر الامبراطور قسطنطين بالبولوغ الثانى عشر لتسليم المدينة بالامان فارسى رسل من
طرفه للخبرة مع السلطان فى ذلك وأخذ الشروط منه فحصل الاتفاق بين الطرفين على عدة شروط
ويؤيد ذلك ما قاله المؤرخ دو كالى الذى كان بالمدينة أثناء حصارها من ان السلطان محمد عرض فى
شروطه على الامبراطور قسطنطين بأن يقطعه هو بلاد مورثى ويعطى لخواه بعض الأقاليم
ويستولى على المدينة من غير أن تنهبها عسا كره ويحافظ عليها تمام المحافظة ولكن اتفق انه عند
عودة رسل الامبراطور الى المدينة ليخبروا بذلك خطر ببال السلطان خاطر أراد أن يقوله لهم وبأخر
بعض العسكر بالعدو خلفهم لردهم فلما شاهد المحصورون من أعلى الاسوار ان جنودهم من الاتراك
يعدون خلف رسلهم أطلقوا عليهم أسلحتهم بدون تبصر فى الامر وعند ذلك انضمت الى ذلك الجند
طائفة أخرى وأخذوا يترامون مع المحصورين وكانت رسل اليونان دخلت القسطنطينية من باب

سرى في أحد الحصون فوج الاترا لمعهم على حين غفلة منهم ودخلوا المدينة واستولوا على قسمها المرتفع فبادرت عساكر اليونان برد الهاجين وحصلت بينهم ملحمة قتل فيها الامبراطور واتخذ السلطان سراى ملوك القسطنطينية مقره وخلفائه من بعده وحول كنيسة اياصوفية الى مسجد وأمر باظهار الزينة في المعسكر وايقاد الشموع فحصل ذلك مع أصوات التهليل والتكبير والتجأ مقدار عظيم جثام من الاهالي الى كنيسة اياصوفية حتى ملأ طرقاتها وفسحاتها وغصت بهم جهاتها باعتقاد ان أحد الملائكة سينزل من السماء للدفاع عنهم فقتل العثمانيون بعضهم وأسروا من بقي منهم ولم يذهب السلطان لاداء الشكر لله سبحانه وتعالى على هذا الفتح المبين بذلك المسجد الجديد الا بعد غسله بماء الورد اه

فهذه رواية تدو كاعلى ما فيها من الامور المستبعدة جدا أمارا واية غالب المؤرخين فهي أن السلطان لما شرع في الهجوم العام رتب عساكره وقسمهم الى فرق تحت قيادة أمهر ضباطه ونادى مناديه في المعسكر بان أول من يتساق سور المدينة من العسكر يوايه السلطان ولاية من أغنى الولايات وينم عليه بالعطايا والوافرة والاعانات الجزيلة وأخذ هو يجول بين الصفوف على ظهر جواد يحرص الجندو يستمعهم وأمر فسار المتطوعون امام العسكر ويبد بعضهم أحجار ويسد البعض الآخر أخشاب أو أكياس ملئت بالطين والرمل ليملقوها بالخندق لتكون كالجسر يعبرون عليه لامة لآك المدينة ولما صدر لهم الامر بالسير اندفعوا كالسيل المنهمر وانقضوا كالأسود وصاروا يلقون ما بأيديهم بالخنادر فانصبت عليهم من أعلى السور نيران الاعداء وقتلت منهم كثيرا وأنظلم الجو من دخان المدافع وحببت الشمس حتى صار النهار ليلًا وقابلتهم سهام الهاجين كل ذلك والجيوش المنتظمة لم تبد أقل حركة مسدة ساعتين حتى تعب عسكر الامبراطور وضعفت نيرانهم فعند ذلك تحركت تلك الفرق وزحفت على الاسوار بقلوب لا تخاف الموت وأمامهم أبراج من الخشب على عجل يجرها الجند مكسوة من الخارح يجلود يملون بالماء على الدوام لتمنع تأثير النيران التي يقذفها المحاصرون وبدخلها عد من أبطال الجند معهم آلات الدفاع وشرع النقاون من أهالي توقات في نقب الاسوار ورمت سهام التسلق على الابراج واشتبك القتال وقويت نيران الاعداء بعد ضعفها وفتحت مدافع العثمانيين أفواهاها الشبيهة بالبراكين حين ثورتها وقذفت عليهم مقذوفاتهم الهائلة وصار الامبراطور يطوف بنفسه على العسكر ليعت فيهم روح القوة الخالدة ثم اقترب العثمانيون من الاسوار جدا وضربت مدافعهم أغلب الحصون والابراج وعبروا الخندق على الجثث الملقاة ودخلوا المدينة فاستولوا عليها عنوة ويقال ان الامبراطور قتل اثناء مقاومته الهاجين خلف الباب ويقال انه أصابه سهم وهو فوق السور يحرص عسكره فخر قتيلا وسعه أحد عسكره المنهزمين يتضرع اليه بان يحترق رأسه لكي لا تعلم جثته بين القتلى فيمثل بها المتغلبون وكانت القسطنطينية في غاية المنعة متينة الاسوار والحصون والابراج وقد حوصرت تسعًا وعشرين مرة وكانت هي المنصورة وكان بها من السكان اذذاك أزيد من ٣٠٠ ألف نسمة (١)

(١) أسس هذه المدينة الامبراطور الروماني قسطنطين سنة ٣٣٠ م على مكان بيزانسة القديمة (بوزنطية) شيدها على سبعة تلال مثل رومية وكان بها مثلها أيضا قلعة يقال لها كابلتيول والبحر محيط بها من كل صوب الا الطرف الغربي

ولما استولى السلطان المشار اليه على تلك المدينة الجسمية وامتلكها بحق الافتتاح أبقى للنصارى عدة كنائس خصوصا الكنائس الموجودة بالقسم المنخفض من المدينة فانهم لم تمس أصلا ووجدوا الفاتحون بالمدينة من الاموال والنفائس والامتنعة الثمينة شيئا كثيرا جدا خصوصا ما كان للقيصرية بقصورهم

ومما يدل على مكارم أخلاق هذا السلطان انه أبقى للنصارى خلاف ما أبقاه لهم من الكنائس والصوامع كنيسته وحارة بتمامها مراعاة لمهندس معماري يدعى كريستبول كان استعمله السلطان محمد في بناء بعض المباني وأعطاه تلك الحارة بتمامها لتكون ملكه ولذريته من بعده قال قولتير بعد روايته هذه الحادثة ليست هذه الحادثة من الحوادث التي تستحق الذكر في التاريخ أي ان مهندسا كان يمتلك حارة بتمامها بل القصد ان يبين ان الاتراك لم يعاملوا النصارى بقسوة كما نعتقده نحن ولا تجبر أمة من أمة النصارى ان يكون للمسلمين مسجديا لادها أصلا بخلاف الاتراك فانهم يسمحون لليونان المقيهورين بأن تكون لهم كنائس وكثير من هذه بجزائر الارخبيل تحت مراقبة أحكامهم اه

وكان استيلاء العثمانيين على هذه المدينة العظيمة في يوم الثلاثاء عشرين شهر جمادى الآخرة سنة ٨٥٧ هـ (٢٩ مايو ١٤٥٣ م) بعد حصار دام ثلاثة وخمسين يوما حسب رواية غالب المؤرخين وقد أرخ بعضهم سنة افتتاحها بقوله (بلدة طيبة) ولما دخلوا المدينة بجشوا عن رحمة الامبراطور

وهو خزي سير وأحاطوها بثلاثة أسوار وعدة خنادق يجري فيها ماء البحر وأقاموا فيها ملاعب ومجامع وغير ذلك وقد نقل قسطنطين لهذه المدينة كثيرا من آثار وأبجرام مدن اليونان وايضا بالباحث من نفس رومه ولقد كانت نفود قسطنطين عليها صورة ذئبية بلعولها نجمان اشارة الى انه صار للدولة بل للعالم أجمع عاصمتان ولما ضاقت حظيرتها على سكانها اضطروا والتشديد المنازل حتى وصلت الى البحر وصارت هذه المدينة عاصمة للدولة الشرقية من حكم تيودوس الاول ثم عظمت مسدة تيودوس الثاني واسوربان وجوستينيان الذي شيدها كنيسة القديسة صوفية الشهيرة التي تحولت الازالي مسجد وقد حازت أهمية وشهرة في تاريخ الكنيسة واشتهرت من بطارتها عسدة منهم المجمع السكوني الكنائسي الذي عقد سنة ٣١٨ م الرئاسة على مظارئة النصرانية الاخرين وقد اجتمع بهذه المدينة أربع مجامع كنائسية ولونظرنا الى تاريخ هذه المدينة السياسي لوجدنا عبارة عن ثورات وانقلابات واضطرابات محزنة انتهت أثناءها الجنود حرمة المملكة وخطو اعظام الامبراطورية وفي زمن يوستينيان حدثت بها حرب أهلية قتل فيها أزيد من ثلاثين ألف نفس وسبب ذلك الحقد الذي نشأ عن الالعب العمومية وحاصر هذه المدينة الافارسة سنة ٥٩٣ م ثم حاصروهاهم والفرس متحدون سنة ٦٢٥ م ومع ذلك لم ينالوا منها لانقاذ الدفعتين ثم ان أساطيل العرب هاجموا في زمن معاوية رضي الله عنه من سنة ٥٠ الى ٥٦ هـ (٦٧٠ - ٦٧٥ م) كما ذكر في صحيفة ١٨٩ من هذا الكتاب وكان في هذه الغزوة كثير من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمرو وابن الزبير وأبو أيوب الانصاري وغيرهم رضي الله عنهم وكان معهم بزبن معاوية وقيل كان هو قائد الجيش وقيل كان القائد الامير سفيان ابن عوف فلم ينالوا منها شيئا وذلك للثأر اقرية التي كانت تقذفها الحصون وكذا في عهد سليمان بن عبد الملك حاصرها جيوشه تحت قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك من سنة ٩٨ - ٩٩ هـ (٧١٦ - ٧١٧ م) فاصابه ما أصاب الاول كما ذكر في صحيفة ٢٠٠ من هذا الكتاب وقد امتعت أيضا على البلغار بين سنة ٧٥٥ م وعلى الاريك النورماندي سنة ٨٦٦ م ولما كانت هذه المدينة آخذة في الاضعف السرب سقطت سنة ١٢٠٤ م في قبضة الصليبيين الذين اجتمعوا فيها وأخذوا جهاد دولة لاطينية ثم ان عائلة بالبولوغ استردتها منهم سنة ١٢٦١ م وقد هدها بذلك العثمانيون عدة مرات الى أن استولوا عليها تماما كما نرى خندا في يوم ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م

بين القتلى ولما وجدوها حسب دلالة من يعرفه دفنوها بما يليق بهما من التعظيم في مقابر الملوك
واقتمدى السلطان كثيرا من أمراء اليونان ممن كان وقع في يد العسكر أسيرا
وقد أوقع هذا الظفر جميع أوروبا في الخيرة والاندھاش فهاجت ملوكها وماجت وأظهر
السلطان من يد التفاته لراحة الرعايا وأمر للنازحين منهم بالعودة إلى أوطانهم وبجر بهم في معتقداتهم
وأصولهم الدينية وبحسن تدبيره جعل شعله هذا الهيجان تخمد نوعا
قال بعض المؤرخين لما سقطت القسطنطينية في يد الفاتحين وقع الرعب في قلوب جميع سكان
ممالك اليونان حتى كانوا يصيرون عصبية عظيمة فهاجت سكان مورة والجزائر المجاورة لها وتركوها
مواطنهم هائمين على وجوههم لا يدرون أي جهة يقصدون وكان البحر مغطى بالسفن المقلدة للأموال
والعائلات الاغريقية يتجهون إلى الجبال والاديرة والجزائر التي تسكنها البنادقة والجنويزيون وقال
غيره ان ما حصل لليونان من التشتت في ذلك الزمن يشبه تشتت شمل الاسرائيليين حين خراب بيت
المقدس اه ثم أمر السلطان بانتخاب بطريرق لليونان حسب عادتهم فانتخب جورج جينادوس
وألبسه التاج بيده وسلمه عصا البطارقة وقال له اذالك كن بطريرقا لمتك وليحفظك المولى ويجب
عليك في جميع الاحوال ان تتأكدم من محبتي وخلوص طوبى اليك وتمتع بالمزاي التي كان يتمتع
بها اسلافك من قبل ولما امن اليونان على أنفسهم وأموا لهم وحرية عبادتهم أصدر السلطان
المشار اليه فرمانا يصرح لهم فيه بحكم أنفسهم بأنفسهم فشكروا طائفة منقصة تمام الانفصال عن
الامة الفاتحة وكان بطريرقهم حائرا لرئاسة وزير ودرجة شرف بين ضباط الانكشارية وكانت
تعرض على مجلسه جميع القضايا المدنية والعقوبات وكان هذا المجلس المشكل من أعيان الطائفة
يصدر الاحكام حتى الامر بالقتل وتنفيذ القوة العسكرية بما أمر به وغير ذلك من المزايا كالاعناء
من ضريبة الاطيان وغيرها ولم تكن هذه الامتيازات ممنوحة لبطريرق القسطنطينية فقط بل
لو كلائه في الجهات أيضا وقد وهم كثيرا من مؤرخي الفرنج في حق السلطان محمد الفاتح كما وهموا
في كثير من مشاهير الاسلام ورموه بالخشونة خصوصا مؤرخو اليونان الذين وات الدولة عنهم
وذكروا عنه أفعالا لم يحمله على ذكرها الا الخفاة والجهل قال فولتير مما ثبت صراحة أن
السلطان محمد الفاتح كان عاقلا حليما تاركه للسيجين المقهورين الحرية في انتخاب بطريرق لهم
ولما انتخب ثبته هو مع التعظيم وسلمه عصا البطارقة وألبسه الخاتم حتى قال ذلك البطريرق عند ذلك
انني نجل مما لاقيته من التجميل والاحترام الذي لم يفعله ملك النصراني أصلا مع أسلافي اه
ولما كان سقوط القسطنطينية في يد الاسلام من الحوادث التاريخية المهمة اعتبره المؤرخون
حدا فاصلا لزمان تاريخ القرون الوسطى عن تاريخ الازمنة الحديثة ولما انتشر خبر هذا الفتح
في الآفاق على يده هذا السلطان هابه ملوك العالم فأرسل صاحب مصر وصاحب العجم وصاحب
المغرب بالمكاتبات والمراسلات يهنئونه بالفتح ولا شك أن هذا الفتح من أعظم الفتوحات الجليلة
حيث رام كثير من الظلمة والملوك نواله فلم ينالوه مع ما صرفوه من الهمم والاموال وما أنفوه من القواد
والرجال وقد أرخ بعضهم هذا الفتح فقال

رام أمر الفتح قوم أتون * حازه بالنصر قوم آخرون

وبعد أن أتم السلطان تنظيم أحوال هذه المدينة العظيمة وإصلاح ما تخرّب من حصونها سافر في سنة ٨٥٨ بالجيوش الكثيرة العمد والعدد لفتح بلاد جديدة فغزى مقاطعة بوسنة واستولى على أكثر بلادها وأضافها إلى أملاكه ثم قصد بلاد مورده فأسرع أميراه ديمتريوس وتوماس قسطنطين وطلبان من السلطان أن يقبل منهم ما دفع جزية سنوية قدرها ١٢٠٠٠ من الذهب فقبل منهما وكان أرسل قبل ذلك أسطولاً تحت قيادة الرئيس خاص يونس ففتح قلعة اينوز وجيزي سمدريك وطاشيوز وكانتا للبنادقة ولما عاد السلطان إلى ادرنة قتل وزيره چندرلي قرة خليل باشا بتهمة أخذ الرشوة من امبراطور القسطنطينية وقت النسخ وقد كان الوزير المذكور يجهّد ويمسك بالمساعي في تحويل فكر السلطان وصرف عزمه عن فتح القسطنطينية وقد كان قبل ذلك أيضاً اجتهدياً في تسيب همة السلطان بايزيد عند ما أراد مقابلة جيش المتفقين في الواقعة الشهيرة التي انتصر فيها بورنة وقد عزل السلطان أيضاً كلا من الوزيرين يعقوب باشا ومحمد باشا السوء ظنه في سلوكهما ونفياً إلى بعض البلاد البعيدة وبعد قتل خليل باشا بقي مسند الصدارة خالياً مدة سنتين إلى أن وجهت إلى محمود باشا الشهير

ولما كان فتح القسطنطينية قد أثار عواطف الغضب والحقد عند ممالئ أوروبا وبخاصة بابا روميسة كالكستوس الثالث منهم لما كان يرجونوا له من ضم الكنيسة الشرقية والغربية إلى بعضها مسعى في تأليف حملة صليبية فتم له ذلك وأغار جيش أوربي مختلط على حدود المملكة العثمانية بأوروبا سنة ٨٦٠ هـ (١٤٥٦ م) فلما بلغ السلطان محمد الفاتح نهض بجيش يبلغ ١٥٠ ألف مقاتل وأسطول من كعب من ٢٠٠ سفينة وذلك بعد أن رتب إدارة الأمور بالقسطنطينية وحاصر مدينة بلغراد عاصمة بلاد الصرب برا وبحرا وكاد يفتحها إلا أنه في خلال ذلك هاجم جان هونيد قائد الجرساطيل العثمانيين وأتلف منها قسماعظيما وكان دخل المدينة قبل حصارها ودافع عنها دفاع الأبطال فالسليم السلطان ترك حصار بلغراد بعد أن قتل من جيشه عدد كبير وقد جرح هو ونيا في هذه الحرب جرحا بليغا مات به بعد عشرين يوماً من رفع الحصار ولما علم السلطان بموته أرسل محمود باشا الصدر الأعظم فأتم فتح بلاد الصرب (٨٦٠ هـ) وبذلك فقدت هذه البلاد استقلالها تماماً ثم توجه إلى مورده عن طريق سيروزويكيشهر واستولى على مدينة كورنثة وماجاورها من البلاد وبذلك لم يبق لتوماس باليولوغ أخى قسطنطين شئ من البلاد التي كانت له ثم أراد التقدم لفتح بلاد مورده تماماً إلا أن ديمتريوس تعهد بدفع الجزية فقبل السلطان ورجع عنه في هذه المرة ومع ذلك فإنه لما أظهر الطغيان بعد بقليل دخل السلطان بلاده في هذه السنة فأخضعها تماماً وفر توماس إلى إيطاليا وتوفي ديمتريوس في إحدى جزائر الأرخبيل

وبعد رجوع السلطان عن بلغراد مات أمير الصرب وجلس مكانه ابنه وخليفته لازاري إلا أنه لم يكتف في الملك الأزمنياً سيرا ومات بلا ولي يخلفه فكان من الزوم لذلك انتقال تاج بلاد الصرب إلى السيدة من سلطنة حليلة السلطان مراد إلا أن ملك بوسنة صهر لازار قام بطلب بتاج الصرب باسم زوجته غير أنهم لما كانت متمذهبة بالمذهب الكاثوليكي ردأها إلى الصرب قولها ورفضوا مبايعتها وقام أعيانهم وصناديدهم وانتخبوا أبانغو ويح أخا الوزير الأعظم محمود باشا فاعاظ هذا الانتخاب ملكة بوسنة فأجتمعت في قتل أبانغو ويح المذكور ولذلك رأى السلطان أن من الضروري

مداخلة في الامر بالفعل فاصدر امره لمحمود باشا الصدر الاعظم بالذهاب مع جيش الى بلاد الصرب لغزو وهادفة نالته فافتح قلعة سمندرة وغيره من الحصون سنة ١٨٦٣ هـ وقد كانت بلاد الصرب تدفع للدولة العثمانية خراجا بعد محاربة قوصوة وفي عهد السلطان مراد خان الثاني فتحت مدينة سمندرة وغيره من المدن وطرده ملكها الا أنه بعد هزيمة الجيوش العثمانية أمام لادسلاس ردت تلك المدن الى بلاد الصرب ثانية بحكم المعاهدة التي عقدت بين الطرفين أما في هذه المرة فقد استولى العثمانيون على جميع بلاد الصرب ما عدا مدينة بلغراد التي بقيت في يد المجر

سج ايا صرة و سينوب و طرابزون - لما نال السلطان مراده من الاستيلاء على بلاد الصرب واليونان حول عزمته لتسخير الممالك الباقية في حالة استقلال على سواحل البحر الاسود وهي ايا صرة و طرابزون و سينوب وكانت الأولى تابعة للجنوزيين والثانية وهي طرابزون تابعة لامراء من بيت قياصرة القسطنطينية وكانت تشكلت حين اغارة الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٠ هـ على مدينة القسطنطينية واستيلائهم عليها فتم له فتح ايا صرة سنة ١٨٦٣ هـ وأخضع أيضا ملكة طرابزون ولم ينفعها تصدى الامير اوزون حسن لحمايتها من محالب العثمانيين سنة ١٨٦٥ ثم نقل ملكها داود كومنين هو وعائلته الى القسطنطينية وترتب السلطان لهم ما يكفهم من المرتبات

أما مدينة سينوب فقد استولى عليها من يد صاحبها اسمعيل بك من عائلة اسفنديار وهم بقية من طوائف ملوك الاسلام كانوا يحكمون قسطنطينية و سينوب وهم وان كانوا يدعون للدولة اتاوة سنوية معينة الا أنهم كانوا لا يفترون عن بث الدسائس واغلاق الراحة بجهات الدولة العثمانية كلما تمكنوا من ذلك ولما رأى السلطان أن بقاء هذه الامارة وان كانت خاضعة له عرقلة لتساعيه أراد محو استقلالها وضم الممالك الاسلامية المنفرقة الى بعضها ولذلك أصدر امره الى وزيره الاعظم محمود باشا بداركة ما يلزم لفتح تلك الامارة فساق عليها جيشا بريا واسطولا مؤلفا من مائة غراب حربي ومساعد السلطان على نجاح مشروعه بسهولة أن أخاه اسمعيل بك المذكور المدعو قزل أحمد بك كان حدث بينه وبين أخيه منازعات بخصوص الوراثة وكان التجأ الى السلطان يطلب منه النصفه وكان السلطان ولاءه احدى العمالات ووعدته بالمساعدة وكانت أهالي مملكة اسفنديار منقسمة الى فرقتين فرقة له وفرقة عليه ولما خرجت الاساطيل العثمانية لتسخير مدينة سينوب (١٨٦٤ هـ) أشاءوا قسدا أنها خرجت للاستيلاء على مدينة طرابزون وكتب السلطان الى اسمعيل بك أن يدفع الاتاوة السنوية المضروبة عليه الى قائد الاساطيل العثمانية ويساعده بما يلزم من الذخيرة والزيادة لئلا يكن من فتح طرابزون وأمره أيضا أن يعاقب كل من ظهر منه تمرد من الجنود أثناء وجودهم بسينوب ثم سارت الجنود البرية في حجة السلطان حتى وصلت مدينة سينوب فوجدتها مغلقة محصنة فضربت عليها الحصار ولما رأى اسمعيل بك المذكور أن ليس لديه من القوة ما يرد به هجوم هذا الجيش طلب الامان والتسليم وذهب بنفسه الى نخيصة السلطان مسلما خاضعا فغاف عنه وبش في وجهه وأكرم اقامه وأقطعته هو وعائلته محصولات جهات بروسه وبيكيشهر وايشه كول ويار حصار ونصب ابنه عاملا لحدى السناجق وبذلك دخلت مملكة اسفنديار في قبضة العثمانيين

وكان العثمانيون عند حصارهم مدينة طرابزون وجدوا بفرضتها سفينة جديدة حولتها مائة طن
 واثنا عشر طناً فارساوها الى الاستانة لعظم حجمها ولما شاهدوها اتجهت انظارهم وتبتهت أفكارهم
 للتقدم في فن انشاء السفن واتخذوا تلك السفينة مثالا يحذون عليه وشيدوا مثلها لكنها أعظم منها
 جسامه حولتها ٣٧٠ طناً غير أنهم لم يمتقنوا عملها لم يتمعوا بما فيها وذلك أنهم لما انتهت وباشير العمال
 انزالها الى البحر وجدت فاقدة للوازنة فهوت الى قاع البحر وقد ادعوا ان ذلك أن الموقع الذي شيدت فيه
 غير مناسب لابتناء السفن فلذا نقلت دار الصناعة الى محلها الحالي ولما علم السلطان في سنة ٨٦٦
 باستغاثة بعض أهالي الافلاق (١) به ليخلصهم من ظلم أميرهم المدعو ولاد (أى الشيطان الاسود)
 الذي كان جلس على تخت تلك البلاد بعد وفاة أبيه دراقوله وهو المعروف في تواريخ العثمانيين
 باسم قازقلى ويورده أراد تخليص تلك البلاد من يده هذا الظالم الجائر فأمر والى ويدين حمزه باشا
 بالذهاب اليه وردعه عن غوايته فقبض أمير الافلاق المذكور عليه وعلى من برفقته من الاتباع
 وقتلهم على الخازوق ثم سار في مقدمة جيش وعبر نهر الطونة وأخذ في شن الغارة على بلاد البلغار
 التابعة للدولة فأمر السلطان حينئذ وزيره الاعظم محمود باشا فقصده بلاد الافلاق مع الجنود الكافية
 براوساق السلطان اسطولا مؤلفا من مائتى سفينة الى نهر الطونة فاقعوا بجيئود تلك البلاد وفر الامير
 ولاد المذكور الى بلاد المجر فعند ذلك نصب السلطان أخا الامير الفاراد المدعو رادولة على تلك البلاد
 وجعل له امتياز مخصوصا ثم عاد ظافرا غانما

فتح مدليل - بعد عودة السلطان من غزواته المذكورة اهتم بتقوية البحرية فانشأ كثيرا
 من السفن الحربية على أشكال أساطيل البنادقة وصارت الدونمة العثمانية تخرج سنويا للغزو في
 بحر الارخبيل لانظاراً نار البسالة العثمانية لسكان جزائره ولما كانت جزيرة مدليل واقعة على
 طريق بوغاز الدردنيل صمم السلطان على ضمها الاملاكة تأمينا لهذا الطريق فأرسل وهو في كلبولى
 سنة ٨٦٦ هـ (١٤٦٢ م) الوزير محمود باشا مع الجيوش براوساق أساطيل الاستانة وغلبولى
 بجزر الفلما وصلت الاساطيل اليها نقلت الجيوش من ساحل الاناضول الى الجزيرة وشرع في حصارها
 فحضرها كهاوأظهر الخضوع فاستولى الباشا على قلعتها وباقى البلاد الموجودة بالجزيرة وعين لها
 محافظا وقاضيا وحامية ثم عاد ظافرا ومن وقتئذ أخذ السلطان يشيد الحصون والقلاع في بوغاز
 الدردنيل وجزيرة بوزجه أطمه لحماية طريق القسطنطينية

(١) الافلاق هي أحد قسمي مملكة رومانيا وهي عبارة عن القسم الغربي منها تمتد بها شعب جبال كريات شمالا
 وروبيها عدة أنهار أشهرها نهر الطونة وتاريخها مرتبط بتاريخ بغداد من القرن الثالث عشر فقد كانت مستعمرة
 رومانية ثم أغار واستولى عليها البلغار والمجر ولما ترك قبائل الكومان والتتار سهول بلاد داسيا أخضع رؤساء
 الرعايتها المسمى واحدهم ويورده البلاد ومن أشهر هؤلاء رودلف الاسود (١٢٩٠ م) حيث استولى على
 بلاد الافلاق واستوطن بمدينة كيمبولونغ ويظهر ان منصب الويود كان في أول الامر بالانتخاب وكانت البلاد
 مقسومة بين عد من الامراء وأصحاب الاقطاع وهم الذين كانوا ينتخبون الملوك وقد استمرت المدن المسماة بالمدنة
 الاهلية في تاريخهم الى سنة ١٣٩٢ م الا انه في سنة ١٣٩٣ م اضطر أميرها المدعو ميرتشا بارابو ابن
 رادو رودلف الثاني الذي انتخب سنة ١٣٨٢ م ان يختمى بالسلطان بيلايد الثاني ويدفع له جزية سنوية تبلغ
 نحو ١٨٠٠ فرنك وبقية أحواله المذكورة في مواضعها بتاريخ الدولة العثمانية

سج بلاد بوسنة^(١) - انه لما تبس ملك بوسنة من المداخلة في أمور بلاد الصرب كإقلائه فيما سبق أظهر التمتع عن دفع الجزية السنوية المضروبة عليه سيما انه كان رأى قرب وقوع الحرب بين العثمانيين والبنادقة لهذا رأى السلطان ووزرائه أن من الوجوب الاستيلاء على بلاد بوسنة لئلا يتمكنوا من تهديد بلاد البنادقة فلهذا أمر وزيره الاعظم محمود باشا سنة ٨٦٧ هـ بالخروج من مدينة اسكوب لمحاربة ملك بوسنة ولما وصلت الجنود العثمانية الى بوسنة أخذت في مطاردة ملكها الذي كان يفر أمامها من نقطة الى أخرى الى أن حاصروه ببلدة كوجي ولما رأى عدم مقدرة على المدافعة سلم نفسه وخضع أيضا جميع من بالقلاع والمدن من الحكام وكانوا أظهر وافي أول الامر بتدبيره واشديدا ومع ذلك فإن السلطان أمر بقتلهم جميعا بناء على ما أفتى به الشيخ على البسطامي وكان يرافقه جيش العثمانيين ولما تم للعثمانيين الاستيلاء على بلاد بوسنة وعاد السلطان أغار ميماس كورفين بن هونباد بقوة عظيمة على بلاد بوسنة قصد استردادها فسارت اليها الجيوش العثمانية ثمانية سنة ٨٧٠ هـ تحت قيادة الوزير الاعظم محمود باشا وما زالوا ينازلون المجر حتى طردوهم من تلك البلاد بعد أن قتلوا منهم عددا عظيما واستردوها تماما ومن هذا الوقت دخلت بلاد بوسنة في عداد الممالك العثمانية ونزع امتيازها تماما وتروكوا بقلعها العدد الكافي من الجنود ثم أسلم فيما بعد غالب أشرافها ولما كان البنادقة لا يتركون وسيلة لانخراج العثمانيين من جهات مورة خصوصا وكثيرا ما هاجوا الثورات بتلك الجهات وقتلوا من العثمانيين عددا عظيما ساقوا أسطوولهم المركب من ٦٠ سفينة واستولوا على انيزور فعند ذلك قامت الحرب والبحرية بينهم وبين العثمانيين واستمرت ١٦ سنة وتمت باستيلاء العثمانيين على جزيرة اغريبيوز (نغروبوت) مركز مستعمراتهم في جزائر بحر الروم سنة ٨٧٣ هـ (١٤٧٠ م) بعد ما حاصرها الوزير محمود باشا بالدونما العثمانية المركبة من نحو ١٠٠ سفينة بجراو بالجيش برا وفي خلال ذلك حضرت عمارة البنادقة التي كانت قبل ذلك استولت على انيزور تحت قيادة الاميرال نقولا كومانيل وكانت مركبة من ٨٠ سفينة وقصدت مهاجمة الدونما العثمانية ولكنها المارات العلم العثماني قد تموج فوق حصن اغريبيوز هربت الى جهة پلاس باندارس وبعد ذلك وجه السلطان نظره الى آسيا الكثرة قلاقلها ولان الامارات الصغيرة الممتازة التي كانت بمداثبة على ايجاد الاضطرابات والثورات على العثمانيين فتمكن من ضم امارة قرمانها الى مالكة وقبض على أميرها اصحق بك وقع أيضا أوزون حسن وكان من ألد أعداء الدولة في هذا الوقت ومن خلفاء تيمورلنك وكان ملكه يمتد على جميع البلاد الكائنة بين نهر جيحون شرقا والفرات غربا وبعد ذلك لم يتجاسر أوزون حسن على محاربة الدولة أصلا

(١) بوسنة ويقال لها أيضا بلاد البشناق وهي ولاية الى الشمال الغربي من تركية أور و با واقعة بين بلاد النمسا والجبيل الاسود وهي تشتمل على بلاد بوسنة الاصلية وسنجق يكي بازار وكرواسيا العثمانية وهرسك يبلغ مسطحها ٦٠٠٠ كيلومتر مربع وسكانها ٣٢٦,٠٠٠ نفس منهم نحو ٤٥٠,٠٠٠ من المسلمين ويخترقها من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي جبال الالب الدينارية و يربو بها عدة أنهار وهي طبقة الهواء معتدلة الاقليم بها غابات عظيمة ومراع جميلة ومعادن ذهب وفضة وحديد وتجارتها ازدهرت في السوق رغما عن رداءة طرقها وكانت هذه البلاد قديما تابعة لبلاد بافونيا ثم استقلت في الازمنة الوسطى بعد أن كانت تابعة للدولة اليونانية السقلية واستولى عليها العثمانيون بعد أن حاربوها نحو ١٧ سنة سنة ١٤٨٠ م

سج بلاد القريم^(١) - قد كانت بلاد روسيا الشرقية وشبه جزيرة القريم وجميع الجهات الواقعة شمالي البحر الاسود يحكمها من زمن جنكيز خان امر امن التتار وكانت الطوائف المذكورة اعتنقت الدين الاسلامي من عهد تيمورلنك وقد كان تيمور جمع الطوائف النازلة ببلاد قازان وأزدرهان والقريم وقبچاق من التتار وشكل منها مملكة القبچاق وقد استمرت هاته الحكومات زمنا طويلا فاحتمة قوية الا أنه بعد مدة اعتراه الوهن والاختلال فانهز الجنويزيون فرصة ضعفهم واستولوا على نغو آراق وكفه ومنكوب وغيرها واتخذوها محطات للتجارة وكانوا ينتفعون كثيرا من وقوع الاضطرابات بين الممالك المذكورة وفي سنة ٨٨٠ هـ أمر السلطان وزيره الاعظم كديك أحمد باشا بالذهاب الى تلك الجهات وفتحها وطردها الجنويزيين منها وكان تولى الصدارة بعد عزل محمود باشا ثم خرج اليها بقود ٣٠٠ سفينة بين حريسة ونقلية وأخضع البلاد التي كانت في قبضة الجنويزيين بأكلها وطردهم من تلك الاطراف وانفق في تلك الانشاء أن الحاج كراي آخر ملوك القبچاق كان توفي وترك اثني عشر ولدا كرافقام هؤلاء الاولاد على بعضهم كل يدعي حق الملك واستمرت المحاربات بينهم زمنا طويلا حتى ضعف حالهم وانقسمت مملكتهم فقام عند ذلك علماء القريم وأشرفها وعرضوا للسلطنة العثمانية بمحض قدموه بلمسوا اصلح ذات البين وتقرير قواعد النظام والسكنة ببلادهم وقد كان العثمانيون وجدوا من ضمن الاسرى الذين قبضوا عليهم عمرا كب الجنويزيين من منكلي كراي أحد اولاد الحاج كراي ولما عرفوه أظهر له السلطان الاحترام وعامله بما يليق وأطلععه على الحضرم المقدم من أهل بلاده ثم نصبه خانا على بلاد القريم بالنيابة عنه وأنعم عليه بالخلع السنية والتشريفات المخصوصة وأرسله الى بلاده وبعد ذلك صارت بلاد القريم ولاية ممتازة تابعة للدولة العثمانية (٨٨٠ هـ) وانتقلت جميع المنافع التجارية التي كانت للجنويزيين بتلك الجهات الى يد العثمانيين

ثم ان تلك العمار التي فتحت كفه استولت أيضا على نغراق كرمان وبعدها أفلعت الى نهر الدانوب (الطونه) للكرة على بلاد البغدان وكان السلطان ذهب اليها أيضا بجيش قوى الا أنه لسبب جهل العثمانيين بمفاوز تلك البلاد لم يتمكنوا من النصر تماما على البغدانيين بل عادوا كالمتهزمين (١٤٧٦ م) وذلك مدة ملكهم اصطفان الرابع الذي نال بذلك شهرة واعتبار الذي البيا الذي لقبه بحسامي حتى النصرانية وبعد ذلك بقايل استعاض السلطان عن فتح بغدان بالاستيلاء على قسم عظيم من أملاك البنادقة حيث أغار عليها (٨٨٢ هـ) واجتاز اقليمي كروايساود الماسياخاف البنادقة

(١) القريم هي شبه جزيرة واقعة في جنوب المملكة الروسية باورويا بغمر هاشرة الخليج المسمى بوتريد من الجهات الاخرى البحر الاسود ولاهلها عنابة في تربية الماشية ومعرفة في استخراج الاملاح وهاوديان خصبة ينبت بها جميع الفواكه والخضر تقريبا ومساحتها ٢٥٥٩٠ كيلومتر مربع وسكانها ٣٠٠٠٠٠ نفس بين تتار وروس ويونان ويهود المان وأرمن وغيرهم وقد أسس اليونان من أول القرن السادس قبل الميلاد بها مستعمرات ثم أخضعها مسترديات ومنه انتقلت الى الرومان ثم الى القوط ثم الى الهون ثم الى المجر ومنهم الى التتر القبچاق ١٢٣٧ م وكان للبنادقة والجنويزيين مستعمرات على شواطئها وأسس الجنويزيون بها على اطلاق مدينة تيمودوسيا القديمة مدينة كفه التي صارت فيما بعد مركز تجارتهم على البحر الاسود ثم انه في سنة ١٤٧٥ م أخضعها السلطان محمد الفاتح بعد أن طرده المذكورين منها

منه على مدينتهم الاصلية وأبرموا معه صلحاً تعهدوا به بدفع مائة ألف من الذهب سنوياً وتنازلوا له عن مدينة كروياى اقبه حصاراً عاصمة اسكندر بك الشهير لانه بعد أن هزمه العثمانيون وطرده من البانيا (١) كان التجار اليهم طالبين انصرتهم له وقبل موته أورشهم مملكته ثم تقدم وفتح غيرها من بلاد البنادقة ثم استولى أيضاً على مدينة اشقودرة المهمة وكانت تابعة لهم في مقابلة بعض امتيازات تجارية منحها لهم ووقع الطرفان على معاهدة بينهما بذلك (٥٨٨٤ - ١٤٧٩ م) قال الفاضل فريد بك في تاريخه وهذه أول خطوة خطتها الدولة العثمانية بالتدخل في شؤون أوروبا إذ كانت جمهورية البنادقة اذذاك أهم دول أوروبا في التجارة البحرية وما كان يعادلها في ذلك الا جمهورية جنوة ٥

ولما أخضع العثمانيون بلاد البانيا (٨٨٣) خرجت منها عائلة كستريو جسد اسكندر بك التي كانت تحكمها ونزلوا في مملكة نابولي بايتاليا فأعطاهم ملكها أرضاً ثم لحقهم فيها بعض الالبانيين فأذن لهم أيضاً ملك نابولي المذكور بالنزول في مقاطعة كلابريا ولما استولى العثمانيون على بلاد بوسنة والبانيا سهل عليهم شن الغارة على مملكة البنادقة وايتاليا وكذلك تمكن الوزير كديك أحمد باشا من إخضاع مدينة أوترانت بايتاليا وضواحيها (٥٨٨٣ - ١٤٧٨ م) وبقيت في قبضة العثمانيين زمنائهم تمكن الفرنج من استردادها لوفاة السلطان وعزل كديك أحمد باشا عن ولاية مورة قال المؤرخون ان سكتوس الرابع القائم مقام البابا اذذاك لما رأى نجاح الاساطيل العثمانية في فتح أوترنته وبلغه ان السلطان يقصد فتح بلاد ايتاليا بتسليمها أخذ يستعد للهرب الى جبال الالب ومع ذلك فان المقادير وأحوال ذلك الزمن لم تساعد الدولة على إتمام هذا المشروع الجسيم

وفي سنة ٥٨٨٤ أرسل السلطان أسطولاً من بكامن ثلاثين سفينة تحت قيادة بك سنجق قوجه ابلي وفتح قلعة بونيه وكانت باقية بيد الجنويزيين في البحر قرب أرتاق وكان كديك أحمد باشا لم تساعده الاحوال على فتحها عند استيلائه على القريم وأصدر أيضاً أمره بإقامة الحصون وبناء المداثر في جزيرتي بوزجه أطة وبنوس وكان تاماً أوى لسفن القرصان في بحر الروم وبذلك أمن الطرق البحرية وفي السنة المذكورة حصلت بينه وبين السلطان خو شوق مقدم ملك مصر وحشة لما أظهره من الموانع للعباج العثمانيين ولسبب مساعدته بذاق بك اخي الامير ارسلان أمير مصر عرش الداخل في حماية الدولة قصد اعانتته على اجلاسه مكان أخيه ارسلان المذكور وقد توصل ملك مصر من قتل الامير ارسلان وهو في الصلاة وتنصيب بذاق بك مكانه الا أن السلطان لما علم بذلك أرسل أخاهم

(١) البانيا ولاية بالجنوب الغربي من تركيا أوروبا ويحدها شمالاً الجبل الأسود وبسنة وشرقاً اليان برز رين ورتاله وسلانك وجنو بالبلاد اليونان وغرباً بالبحر الادرياتيكي وهي تنقسم الى أربع جهات مختلفة بالنسبة للقبائل الاربع التي تسكنها أو يدخل في هذه البلاد بلاد البيلار الرومانية القديمة وبلاد البيرويهو جبال شاذغة وعرة وأنها عديدة وهي اطيغة الاقليم الا انها قليلة الخصب وتكثر بها الغابات وعدد سكانها ١٥٠٠٠٠٠٠ نسمة ويقال لهم الالبان أو الارناوط وهم من نسل الالبان بين القدماء اختلطوا باليونان والصقالبه وفي القرن الخامس عشر من الميلاد قوم سكانها العثمانيين مقاومة شديدة تحت قيادة اسكندر بك الشهير بذلك حفظوا أوروبا من استيلاء العثمانيين وقد احتل البنادقة عند ضعف الدولة اليونانية من سنة ١٤٠٧ الى سنة ١٤٢١ م مدن اشقودرة وودو راز وودوسينو وغيرها وكان استيلاء العثمانيين على هذه البلاد تماماً بعد وفاة السلطان محمد

الثالث المدعو شمسوار بك ومعه القوة الكافية من الجنود لم يسع بندق عند ذلك الا الهرب الى مصر ثانية وقد كانت هذه المنازعات بين المملكتين من الاسباب التي دعت السلطان سليم للاستيلاء على مصر وازالة دولة الجراكسة منها

الحملة الاولى على رودس - لما بلغ السلطان سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) ان سفن قرصان أمير جزيرة رودس وهو من نسل أمراء الصليبيين الذين بعد أن طردوا من الديار الشامية تمكنوا من الاستيلاء على جزيرة رودس وجعلها دارا قامة لهم وكانوا أخذوا يعمون في بناء السفائن الحربية وارسالها للاصبال والفتك بسفن التجارة العثمانية وكانت أضرت بها كثيرا صدم السلطان على تسخير هذه الجزيرة المهمة لتأمين طريق التجارة فأرسل عمارة بحرية مؤلفة من ١٦٠ سفينة حربية وجيشا بريا يبلغ مائة ألف مقاتل تحت قيادة مسيح^(١) باشا ولما وصلت هذه القوة الى الجزيرة حاصرت المدينة وبعد مدة استولت على بعض الحصون لكن لما أصدر هذا القائد لجنوده الامر بعدم التعرض للغنائم وقع منهم هذا الامر أسوأ موقع لنعهم عن التمتع بالفوائد المطلوبة والثمرة المرغوبة ونتج عنه تكاسلهم وتراخيهم عن الهجوم وبعد حصار ثلاثة شهور التزم مسيح باشا بالرجوع عنها وتأخر فتحها نحو خمسين سنة ومع ذلك لم تفتقر همة هذا السلطان العظيم عن الفتوحات بل جهز في سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨١ م) جيشين عظيمين أحدهما لفتح جزيرة قبرس وقاد الثاني بنفسه لغزو بلاد العجم وبنما هو في الطريق أدركته الوفاة

ولما كانت البحرية العثمانية في أيامه تقدمت كثيرا عده المؤرخون مؤسسا للبحرية العثمانية وقد فتح العثمانيون في زمنه فتوحات كثيرة وعمدت أركان السلطنة عن ذي قبل بحيث أصبحت حاكمة على جميع جهات البحر الاسود تقريبا وبحر مرمرا كاه والقسم الاهم من جزر الارخبيل ولولم يكن له الا فتح القسطنطينية لكفاه نغرا ومجدا وتلك من الاولاد الذكور اثنين الامير بايزيد والامير جم وكان ملكا جليلا يحجز الواصفون عن مقدار فضائله ومحاسنه وكان رحمه الله محبا للعلم والعلماء شجاعا كريما اقلاله الفتوحات العظيمة والمآثر الجسيمة معدودا من أعظم الفاتحين وأسمى المتغلين وهو الذي افتتح مدينة آتينا وكسر أساطيل البنادقة مرارا حتى جبرهم على دفع الجزية له ونزع من بلاد ايطاليا عدة مدائن وافتتح دولة طرابزون وغير ذلك ثم في أثناء مشروعه الجسيمة اعتراه مرض أوقف اخراجهما من القوة الى الفعل فانتقل الى رحمة ربه في سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨١ م) بمدينة ككبوزه بعد ان حكم اثنتين وثلاثين سنة حكما مكللا بالنصر والمجد ودفن بجامعه الذي شيده بالقسطنطينية المعروف باسمه وكان قبل وفاته يستعد للتغلب على جزيرة رودس ونزعها من يد طائفة الفرسان لكثرة شرورهم ونهبهم سفن المسلمين ويقود بنفسه جيشا لافتتاح مدينة رومة

ولقد كان الاستيلاء على مدينة القسطنطينية في مدة هذا السلطان من أعظم الدواعي لتقدم المملكة العثمانية وضم أجزائها الى بعضها لانه لم يكن من المناسب بقاء دولة مستقلة وسط دولة أخرى واسعة الاطراف خصوصا اذا كانت هذه الدولة الثانية عاملة على بث عوامل الشرور في جسم المملكة

(١) وكان يدعى ميشطس أصله من أقارب قياصرة القسطنطينية اعتنق الدين الاسلامي بعد فتح القسطنطينية وله خدمات مهمة

الاولى كما كانت تفعله دولة القسطنطينية الضعيفة زيادة عن ان وقوع القسطنطينية في وسط المملكة العثمانية يكون بعد فتحها العاصمة التي منها يمكن لسلطين آل عثمان مراقبة أطراف مملكتهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ولذلك فانهم بعد فتحها تقبلوا اليها عاصمتهم لوقوعها في المكان المتوسط من أملاكهم

وكان هذا السلطان من أعظم ملوك زمانه تديبا وعلما فكان يحسن العربية والفارسية والتركية واليونانية واللاتينية وغيرها وله ميل شديد لفن التصوير ويعرف ما يمكن معرفته اذ ذلك من الجغرافيا والتاريخ والرياضة وكان يقرأ القصائد اللاتينية التي كانت الشعراء من أهل البنادقة والجنوزيين يمدحونه بها وكان يطالع مؤلفات بلوتارك بمواظبة ويهتم في تقليد اسكندر الاكبر وقيصرو الفاتحين الشهيرين الذين ذكرهم هذا المؤلف وقد انققت أقوال مؤرخي اليونان والبنادقة والجنوزيين على محبة السلطان محمد للعلوم وانكبها على دراستها ولما سمع بشهرة المصور البندقى جنتيلي بيليناوا حضره لاديه فلما قدم أحسن وفادته وغمره بالهدايا وأنعم عليه بتاج وقلادة من الذهب وغير ذلك ورده الى بلاده مع الاحترام اللائق بأمثاله وكان يحضر بنفسه امتحان العلماء والفقهاء المستعدين للترقى في الدرجات العلمية السامية وأعلى شأن العلم كثيرا وعضده

(٨) السلطان الغازي بايزيد خان الثاني

٨٨٦ - ٩١٨

لما توفي السلطان محمد الفاتح كان ابنه السلطان بايزيد في جهات أماسية حيث كان واليا فطار اليه الخبر ولم اوصل الى القسطنطينية وجد اليكجيرية شقوا عصا الطاعة ونهبوا كثير من منازل الاغنياء وقتلوا الصدر الاعظم قزمانلى محمد باشا لانه كان أخفى موت السلطان حتى يحضر ولى عهده ويجلس مكانه الا أنه لم يحسن التدبير في ذلك ويقال انه كان أرسل أيضا الامير جهم بعلمه سرا بموت أبيه لانه كان يعيل اليه فلما علم اليكجيرية بذلك فعلموا ما فعلوا ومن حسن الطالع أن تمكن اسحق باشا محافظ استانبول من تهدئة الخواطر بمبايعته الامير قورقود من أولاد السلطان مبايعة وقتية حتى يحضر السلطان بايزيد ولما حضر السلطان بعد ثمانية أيام وجد الاحوال مضطربة فاجتهد في تسكينها وهدى اليكجيرية بالعطايا والهبات ومن هذا الوقت وجدت عادة اعطاء الهبات والعطايا للجنود وضباطهم كل حسب مرتبته كلما جلس سلطان جديد وكانت هذه العادة سببا لفتن كثيرة جلبت على الدولة مشا كل جمعة ولقد كانت هذه الفعلة أول ظهور عمرد ووطغيان الانكشارية

وقام الامير جهم - أما الامير جهم وكان واليا قونية فكان يطمع في السلطنة على انفراد أو يشارك أخاه فيها وكان كثير من أمراء الدولة وجنودها يميلون اليه ويرغبون لذلك ولما عظمت عنده هذه الآمال شق عصا الطاعة على أخيه ثم التف عليه كثير من شيعته حتى صار له جيش عظيم وأخذ في شن الغارات وفتح القلاع فجهز السلطان عليه جيشا تحت قيادة ياس باشا لأنه هزم هذا الجيش وأسرقائه وكثير من ضباطه ثم تقدم جهم بجيشه وفتح بروسة واستقبلته سكانها بالترحاب

وسلوه المدينة وبعد أن رتب أمورها استولى على جميع البلاد المجاورة لها وكون من ذلك مما كره
خطب له فيها على المنابر ورتب له وزراء وقوادا ولما علم السلطان بذلك خاف سوء العقبى واحتمل
وزراءه لذلك بحيلة وهي أنهم اجتهدوا في استمالة مدبر الامير جم المدعول لاي يعقوب ووعده
ومنوه فنجحوا في قصدهم وباتخاذ المدبر المذ كورضعفت عساكر السلطان جم واستظهرت عليه
جيوش السلطان بايزيد ثم هرب جم جريحا الى قونية متجئا عند أولاد قرمان ولما علم أن الجيوش
العثمانية تتبعه أخذ اتباعه والتجأ الى قايتباي ملك مصر اذ ذلك أما السلطان بايزيد فانه توجه
الى ديار القرمات واستولى عليها عاقبا لأمراءها على ما فعلوه من نصرته جم ثم عين ولده الامير عبد الله
واليا عليها ولما عاد الى الاستمارة عزل وزيره اسحاق باشا ونفاه الى سلانيك وعين مكانه داوود باشا
صدرا أعظم وأخذ في ترتيب ادارة الدولة فنظم الباب العالي وعين للدولة أربعة وزراء وفي تلك
الثناء هاجم قاسم بك أمير قرمان السابق الامير عبد الله الذي ولاه السلطان بلاده فارسل السلطان
عليه هرسة زاده أحمد باشا بجيش عظيم فاستظهر على قاسم بك المذ كور وشت شهه ولما عدم
قاسم بك شيعته هرب الى طرسوس وكان الامير جم بعد التجأ الى قايتباي ذهب الى الحج وبعد
عودته سعى قايتباي في الصلح بينه وبين أخيه فلم يجد سعيه نفعاً ثم ان الامير جم راسل قاسم بك
المذ كور واتفق معه على محاربة السلطان وتحزب معهما عدة أمرافهزمهم السلطان بايزيد بقرب
جبل طوروس بالجيش الذي أرسله صحبة كديك على باشا ولما ضاقت الارض في وجه الامير جم
أخذ يضرب في الارض ثم ذهب أخيرا الى جزيرة رودس (١٤٨٢ م) فلقاه فرسانها بالترحاب
وأزله من خيم منزل وكان قبل ذلك سعى كثيرا في الصلح مع أخيه بشرط أن يمنحه بعض الاقطاعات
فرفض هذا الطلب خوفاً من ان ذلك يؤدي الى مالاتحمد عاقبت ولما علم السلطان بالتجأ أخيه
الى فرسان رودس أرسل لهم رسولا يطلب منهم ابقاء الامير جم عندهم وعدم التصريح له بمبارحة
الجزيرة المذ كورة وفي مقابلة ذلك تبعه دلهم السلطان بعدم مساسه بقتلهم وان يعطيهم
سنويا ٤٥٠٠٠ من الذهب فقبل رئيس الفرسان ذلك وقد وفي الفرسان بهذه الشروط ولم
يصرحو بالامير جم بمبارحة الجزيرة وكذلك يسلموا فيه حتى حينما طلبه ملك المجر وامبراطور
المانيا اللذان طلبا اطلاق سراحه للتشعيب به على الدولة العثمانية ولما خاف رئيس الفرسان من
فراره وأخذ منه بالقوة أرسله تحت الحفظ الى مدينة نيس فأقامهم ازمنا ثم نقل منها الى مدينة
سجري ومنها الى غير هامة سبع سنوات ثم ان رئيس الفرسان سلمه أخيرا (١٤٨٩ م) الى
البابا ينوسان الثامن الذي خاب السلطان في ذلك وطلب منه أن يدفع اليه ما كان يدفعه لفرسان
رودس بشرط أن يحافظ على الامير جم فقبل السلطان منه ذلك وبقي الامير جم عنده هذا البابا حتى
مات ولما خلفه البابا اسكندر بوجا عرض على السلطان أنه يرجع من أخيه اذا دفع له ثلاثمائة ألف
من الذهب وفي تلك الاثناء أغار شارل الثامن ملك فرانس على ايتاليا فاصدا انفاذ مشروعه الوهمي
وهو الاستيلاء على القسطنطينية وكان يريد الوصول اليها من طريق البنادقة فالبانيا ولذلك كان
أرسل رواد القننة والفساد الى مقدونيا واليونان لاثارة الافكار على العثمانيين لأن ملك نابولي
وجهورية البنادقة لما أقام أن الدولة الفرنسية يعلو قدمها ويعظم شأنها ووضعا العراقيل
في طريقها وأرسل الى السلطان يخبرانه بما عزم عليه ملك فرانس وما يشه من الدسائس وطلب منه

ارسل جيوشه الى بلاد ايتاليا وأن يأخذ حذرته في داخلته ولما حاصر ملك فرانسامدينة رومية طاب من البابا أن يسلمه الامير العثماني ليحمله وسيلة يتدرع بها الانقاذ مقاصده وسلمه البابا اليه مرغما ويقال انه أسقاه سما قبل أن يسلمه اليه وما زال هذا الامير مصاحبا للجيش الفرنساوية حتى توفي في ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٥ م) بمدينة نابولي ودفن ببليدة جايت من أعمال ايطاليا وبعد ذلك نقلت جثته الى بروسة ودفن في مقابر أجداده وكان سنه لما توفي ٣٦ سنة قضى منها نحو ١٣ في حالة تشبه الاسر وكان شاعرا لبيباً شهما ويقال إنه أصيب بالجنون في اخر حياته

وقد كان ملوك الجرا كسة أصحاب مصر والشام أغضبوا المرحوم السلطان محمد الفاتح بما فعلوه مما كان سبباً في تغير خاطره وقد كان همهم بما عاقبتهم لولا أن المنيّة أدركته ولمامات وجلس ابنه السلطان بايزيد أراد ملكهم اذذاك وهو قايتباي انفاذ حكمه على بلاد ذى القدرية والبستان الكائنة على حدود المملكيتين وأخذ أيضاً في تشجيع أخصام الدولة عليها وكان قبل ذلك آوى اليه الامير جرم وأظهر توجهاته والنقاهة الى قاسم بك القرمانى السار الذي كره واغتمص من رسول ملك الهند السلطان محمد البهنى غالب الهدايا التي أرسلها معه السلطان بايزيد عند جلوسه على كرسي السلطنة فتلقّت الدولة العثمانية كل ذلك كخصومة خفية فلها هذا أعلنت الحرب على قايتباي وحدث لذلك بين الطرفين مناوشات خفيفة كانت الحرب فيها بجبالا ثم ان الدولة قوت جيشها الذي على الحدود وجعلته تحت قيادة هر سزاده أحمد باشا فارتد مغلوبا ثم عينت الدولة جيشا رادها تحت قيادة خادم على باشا (٨٩٣ هـ) ولما لم يتمكن هو أيضاً من التغلب على خصمه اضطر للعودة عند ذلك شق الامير علاء الدولة أمير بلاد ذى القدرية عصا الطاعة على الدولة وانضم الى قايتباي وقامت الخاصات بعد ذلك على قدم وساق واكتسبت أهمية شديدة لانها صارت بين العرب من جهة والعثمانيين من الاخرى الا أن الله سبحانه وتعالى تدارك الامر بتدخل حاكم تونس المولى عثمان الحفصي حيث توسط في الصلح وأخذ أيضاً مقفى ذلك العصر الشيخ زين الدين بن العربي في التوفيق بين الطرفين ناهيا عن سفك دماء المسلمين من بها على ذلك بالنصائح المؤثرة حتى تم الوفاق والصلح بين المتخاصمين (٩٠٦ هـ)

الوقائع الجهرية في العهد المذكور — لما حدث الثورات والاضطرابات المتقدمة بين مصر والاسنانة انتهز البنادقة فرصة ذلك وأرلوا أساطيلهم لهاجة سواحل الدولة العثمانية ولما تخلص السلطان من تلك المشا كل أصدر أمر باستعداد العمارة وتجديد سفينتين طول كل واحدة منهما ١٨٠ قدما وأن ينزل فيهما ألفا فحارب خلاف ما بهما من الجنود البحرية لصدا البنادقة عن تعدياتهم ولما تمت المعدات أفلعت الدونما (٩٠٤ هـ ١٤٨٨ م) تحت قيادة القبودان داود باشا وكانت منقسمة الى قسمين أحدهما تحت قيادة كمال رئيس والاخر تحت قيادة براق رئيس لطرده البنادقة من القلاع الباقية في يدهم بشبه جزيرة مورة ثم وصل المدد الى قسم كمال رئيس حتى بلغت سفنه ٣٠٠ سفينة مختلفة النوع والقدر وكانت عمارة البنادقة تحت امارة انطوني فريناني وكانت مر كبة من ٣٦ سفينة من نوع الغالي و ٥٠ من نوع الغليون و ٤ سفينة ثقيلة وبهذا كانت تفوق العمارة العثمانية قوة و ضخامة وعلى الاخص عندما انضم اليها أساطيل بعض الدول الاور وباوية

البحرية التي صيرتها أعظم مما كانت عليه قبلا وكان رسوها أمام قلعة متون (Modon) الكائنة في شمال جزيرة سابيا بنجحة بالجنوب الغربي من مورة و بقيت تلك العمارة في انتظار العمارة العثمانية حتى وصلت الى تلك الجهة بعد مضي ثلاثة شهور من خروجهما وعليها نيف و ٢٠٠ ألف مقاتل جميعهم قد تأهبوا للقتال وفاضت صدورهم بحب التشنى والانتقام من عدوهم كما هو شأنهم وبعد وصولها بقيت عشرين يوما بلا قتال ريثما أخذت كفايتها من المياه والذخائر ثم شكل كمال رئيس مجلسا حريبا من الامراء للاتفاق على أحسن طريقة يمكن اتخاذها للقتال فتقرر بعد المداولة أن يبحار بوادونما العدو وقبل الدخول في جون ايشه بجنتي (Lépantes) (المدعوالا نيجون بتراس) وبناء على ذلك تقدمت الدونما العثمانية وأخذت في اطلاق مسدافها على أساطيل البنادقة التي قابلتها بيران قوية ثم حملت عليها والتحمت السفن ببعضها وكانت جيوش العثمانيين متشوقة للكفاح رغم اعن التعب الذي صادفوه أثناء الطريق فخاصدقوا أن يروا ربح الحرب دائرة حتى انقضوا على عدوهم انقضا آذنه بالويل والدمار وبشره بسرعة الهزيمة والانكسار وقد حدث أن بعض العثمانيين لم يستطع صبرادون أن وثب داخل في سفن عمارة البنادقة والتصق بعساكرها وقتل فيهم فتكاشدوا فلم يكن الا القليل من الزمن حتى لحق البنادقة ومساعدتهم من العثمانيين مالحقهم من الهزيمة وتم الانتصار لكل رئيس واستولى على بعض سفنهم وأحرق البعض وأغرق البعض وانسحب الاميرال انطوني فرعياني يباقي سفن عمارته ورسابها فيهم جون ايشه بجنتي فلم يشعر الا والعمارة العثمانية مستعدة للحملة عليه ثانية ودخول الجون المسد كور فلما رأى ذلك استعد لمقاومتها ولكن استعداده كان لحركة المذبوح فلم يجده نفعا بل دخلت العمارة العثمانية الجون رغم اعنه وقام هو عمرا كبه عائدا الى عاصمة البنادقة خوفا من ضياعها هي الاخرى فلما وصل العاصمة المذكورة وعرض لحكومته تقرير الواقعة عقدت له مجلسا حريا لمحاكمته فحكم عليه بتجريد من رتبته ونزع العمارته من تحت قيادته وتسليمها لاميرال آخر يسمى تراويسانو وفي تلك الاثناء كان السلطان بايزيد قد تقدم بجيوشه برا الى قلعة ايشه بجنتي فحاصرها وأمر العمارة بالحصار فبحراو بذلك سلمت القلعة ثم عادت الدونما العثمانية بعد ذلك للاستئانة لتمضية فصل الشتاء بها كالعادة السنوية وكان هرسل زاده أحمد باشا قائدا على الجيوش البرية ومعه مصطفى باشا وسنان باشا فعادوا بجمعة السلطان الى أدرنة وفي شتاء سنة ١٥٠٥ هـ استولت سفائن البنادقة على جزيرة كفالونيا وهاجوا مينابروية واحرقوا بعض السفائن العثمانية التي كانت راسية فيها

ولما وصلت هذه الاخبار الى الاستانة سير السلطان في سنة ١٥٠٦ هـ العماره بحراو أمرها بحصار قلعة متون السابق ذكرها ونقض هو بجيش عظيم برامن أدرنة الى هذه القلعة وعند وصول العمارة اليها تلقاها الاميرال تراويسانو باساطيل البنادقة فالتحم بينهما قتال عظيم جدا وأخيرا دارت الدائرة على الاميرال المسد كور فهاد بالخيبة بعد ان خسر كثيرا من سفنه واستولت الدونما العثمانية على سفينتين عظيمتين من سفن البنادقة أضافتها الى العمارة العثمانية واستولى العثمانيون أيضا على قلعتي متون وقرون (Coron) ثم دخل السلطان مورة بجيوشه ولما رأى الاميرال تراويسانو ذلك قام فهاجم على ميناناوارين واستولى عليها ومع ذلك فلم يهمله البطل كمال رئيس الشهير في الحروب

الاندلسية بل تعقبه بثلاثين سفينة وحملهم على أساطيله في ميناء ناوارين المذكورة وبعد فترة قصيرة من الزمن استولى على ثمان مراكب من أسطول البنادقة المذكور واسترد منهم قلعة ناوارين فعاد الاميرال تراو يسانو بمبارته من مزما ومن شدة تأثره مما ناله من الخسران والانهمزام أصيب بمرض شديد مات بسببه سيما وان مثل هذا الانهمزام كان السبب الوحيد في محاكمة سابقه وتجريده من رتبته وان جمهوره البنادقة قد جعلته محل تقفها وموضع الامل بفوز عمارتها ونجاحها فلم يكن منه الاخيبة المسعى وعكس ما كانت تأمله فيه

وتصادف ان الاسبانيولين أرسلوا سنة ٩٠٧ أسطولا مؤلفا من ثلاثين سفينة تحت قيادة الاميرال غونزالو الملقب بكيد الذي ظفر في محاربات نابولي فلما التقى بها أساطيل البنادقة المذكورة اشتد أزرها وصممت على معاودة الحرب للاخذ بالثار ثم عادت العمارتان وهاجمتا في الشتاء كفالونيا ودراج واستولتا عليهما ثم وصلتا الى بونغازا الدردنيل وأزلتا العساكر بجزيرة مديلي واستولتا على قلعتها ولما بلغ هذا الخبر القسطنطينية أرسلت الدولة في الحال أساطيلها تحت قيادة كمال رئيس المتقدم المذكور وجيشا عظيما تحت قيادة هرسل أوغلي أحمد باشا وسنان باشا والى الاناضول فاستردوا قلعة مديلي بعد الهجوم الاول وفر العدو هاربا بسفائه فالتزمت حكومة البنادقة الى طلب الصلح من العثمانيين وبعد تقرر بشروطه (٩٠٩ - ١٥٠٣ م) عقدت بينهما معاهدة الصلح تحت شروط إعادة جزيرة كفالونيا للدولة وبقاء جزيرة سنت ماورستة ولة والترخيص للبنادقة بالسير في البحر الاسود وان يكون لهم قناصل في الاستانة والحاصل انه في زمن السلطان بايزيد الثاني اكتسبت البحرية العثمانية شهرة عظيمة أوقعت بها الرعب والخوف في قلوب الدول البحرية الاوروپاوية بالبحر المتوسط الابيض

وقد استمرت الدولة العثمانية في أيام بايزيد الثاني ملتزمة جانب السلم مع الممالئ المجاورة لها الا انها كانت لا تخلو عن فتن ومشاجرات داخلية لتعدد اجناس سكانها واختلاف نحلهم ومشاربهم ووجهتهم ولما كان هذا السلطان يميل الى السلم والمسالمة وديعيا يكره سفك الدماء بلا سبب استخف به جنوده وأولاده فكدر واصفوا أيامه في آخر حياته وذلك انه لما خاف منهم فرقه في الولايات فعين الامير قرقود باحدى الولايات البعيدة والامير أحمد على أماسيا والامير سليمان وهو اصغرهم سنا على طرابزون وعين سليمان ابن ابنه سليم على كفة من بلاد القريم الا أن سليمان لم يقبل بهذا المنصب لبعده عن مقر السلطنة وطلب من جده ولاية قريية وبعد أخذ ورد عينه على مدينتي سمندرة وودين حقا للدما سنة ٩١٧ هـ (١٥١١ م) ولما وصل خبر نجاح سليم لاختوته قاموا جهارا على أيهم فأرسل السلطان عليهم الجيوش فقتلهم ولما كان الامير سليم لم يكنف بمنصبه الجسدي أيضا سيما وان اليكچر به كانوا يميلون اليه كثيرا فاصدأ درنة فاحتلها ونادوا به سلطانا الا أن والده لم يمهله بل جرد عليه حتى ألجأه الى الفرار الى بلاد القريم ثم سعى اليكچر به لدى السلطان حتى عفا عنه ورضي برجوعه الى سمندرة وبينما هو عائد اليها قابلها اليكچر به وهو نوا عليه الجلوس على تخت السلطنة فقبل منهم وساروا به الى والده الذي لم يقدر في هذه المرة على المقاومة لتقدمه في السن ويميل وكلاء الدولة عموما الى والده بل استزم أن يتنازل له عن الملك وخلع نفسه وطلب أن يذهب الى

ديتوقه (١) ليضى بها بقية أيامه وقد شيعه ابنه وسار بجانب عربته ماشيا مسافة طويلة الا انه لم يصل اليها بل مات في الطريق سنة ٩١٨ (١٥١٢ م) ويقال انه مات مسموما وسنه ٦٧ سنة فنقلت جثته الى الاستانة ودفن في تربته المخصوصة داخل جامعها وكان السلطان بايزيد لما ألع عليه وكلاء الدولة بانتخاب أحمد أولاده للسلطنة لعدم مقدرته على تحمل مشاق الحروب ولتفاقم أخطار الشاه اسمعيل الصفوى الذى كان يهدد الدولة بالهجوم وقع اختياره على ولده الامير أحمد ووافق بعض الوكلاء على ذلك الا أن اليكجيرية هاجروا ماجوا وطلبوا تعيين السلطان سليم لانصافه بعلاو الهمة والجسارة وهجموا بعض بيوت الوزراء ونهبوها وعند ذلك ألع الوكلاء على السلطان حتى قبل بتعيين ولده السلطان سليم

ولما لم يكن هذا السلطان يعيل الى سفك الدماء لم تزد أملاك الدولة في زمنه شيئا كبيرا وكانت حروبها خارجية اضطرارية للدفاع عن الدولة حتى لا يستخف بها أعداؤها وفي عهده ابتدأت علاقات الدولة العثمانية مع ممالك أوروبا فإرسال الروس مدة ملكهم ايوان الثالث الملقب بدوق موسكو أول سفير روسى (١٤٩٢ م) ومعه جلة هدايا للسلطان وبعد ذلك بأربع سنوات أتى سفير آخر استحصل من الدولة على بعض امتيازات لتجار الروس وابتدأت في عهده المواصلات الحبية مع مملكة الهستان (بولونيا) فعقد بين المملكتين معاهدة سنة ١٤٩٠ م ثم تجددت سنة ١٤٩٢ م الا ان هذا الوفاق لم يمكث زمنا لادعاء كل من الدولتين حق السيادة على بلاد بغداد وانغارة ملك بولونيا عليها فاضطر العثمانيون للانغارة على حدود بولونيا ووضعوا حيايتهم النهائية على بلاد بغداد (٢) ولذلك ابتدأت الخبارات بين الدولة وبين البابا اسكندر السادس بورجى وملك نابولى ودوق ميلانو وجمهوريه فلورانس وكان كل منهم يحتمدنى

(١) مدينة بتركية أوروبا على نهر مرج بولاية ادرنة سكانها عشرة آلاف نفس وبها قلعة قديمة كان يسكنها في بعض الاحيان سلاطين آل عثمان قبل فتح القسطنطينية وقد أقام شارل الثاني عشر ملك السويد بهذه المدينة بعد واقعة بولنواو (٢) بغداد أولمدا قبا بلاد من أوروبا وانضمت الا ان مع بلاد الافلاق أو الفلخ وكوت ما يعرف بملكته وماينا تحده من الشمال الشرقى والشرق ببلاد ساربايا يفصلها عنها نهر بروث ومن الجنوب الشرقى بالبحر الاسود ومن الجنوب الدبر وجبة والافلاق يفصلها عن الدبر وجبة نهر الطونة ومن الغرب ترانسلفانيا مساحتها ١٨٤٣٥ ميلامربعوا سكانها نحو ١٤٠٠٠٠٠ نسمة تكثرت فيها المراعى والغابات وأهلها القبيح من البغدانين الاصليين والافلاقيين واليونان والارمن واليهود والمجر والفرنج والعبير والديانة الاكثر انتشارا بها هي الاورثوذكسية ويشغل أهلها بالزراعة سكنها في القديم قبائل الحبيته وأغار عليها دار يوس هيسناسب عند اغارته على بلاد السينيين ثم أغار عليها الغوط والهون والبلغار والصقالبية ثم تغلب عليها قبائل الاقار في القرن السادس للميلاد ثم أخضعها البلغار الذين خضعوا لهم أيضا بعد زمن للخرز والبيضاقي وبعد ذلك حدث بها حروب واضطرابات داخلية الى أن أخضعها المغول وفي النصف الاول من القرن الرابع عشر للميلاد حل بها قوم من المجر تحت رياسة رجل يقال له بغداد فانزأ مع ابنه دراغوش دولة عرفت في التاريخ باسم دراغوشية وحينئذ سميت البلاد باسم مولدافيا من نهر مولدا في سميت أيضا بغداد باسم ملكها المذكور ثم اشتهر من عائلة بغداد استقاناوس السادس الملقب بالكبير المتوفى سنة ١٥٠٤ م ولما جلس ابنه بغداد الثالث بعد حصولته له حروب مع المجر والبولونيين صادف فيها فشلا ولما أغارت عليه التتار دخل تحت حماية الدولة العثمانية ومازالت هذه البلاد تحت سيادة الدولة العثمانية بالاسم تاريخا والى الفعل الى أن أدخلها السلطان سليمان الثاني ضمن الممالك العثمانية حين حملته على مدينة فيينا أما الحوادث التي حصلت بها بعد هذا التاريخ فانها مذكورة ضمن تاريخ الدولة العثمانية

مخالفة الدولة العثمانية للاستعانة بجنودها البحرية وأساطيلها البحرية وبذلك سهل على العثمانيين انتزاع مراكز كثيرة وقلاع حصينة من يد البنادقة ببلادمورة وغيرها كما سبق ولولا قيام أولاد السلطان عليه لثم فتح بلاد البنادقة لانه اضطر لبرام الصلح معهم ومع غيرهم كما ذكر

(الفصل السابع)

من انتقال الخلافة الإسلامية آل عثمان الى وفاة صقولي محمد باشا

٩٢٢ - ٩٨٦

السلطان سليم الاول الملقب بياوز

٩١٨ - ٩٢٦

قبض على زمام الملك وسنه ٤٦ سنة وكانت الاحوال الداخلية في ارتباك لان السلطان أحمد كان يدعى الحق في السلطنة لانه أكبر سنًا ولان والده كان انتخبه قبل تنازله عن السلطنة وصادق على ذلك كبار الدولة فساق جيشًا تحت قيادة ولده الامير علاء الدين وفي تلك الاثناء وفد من كان يبروسة من أولاد السلاطين الى استانبول وبايعوا السلطان سليم وأخذوا منه الاذن فأذن لهم بالعودة والاقامة ببروسة ثم بعد ذلك تزايدت ادعاءات أخيه السلطان أحمد وأخذت أفكار كبار الاناضول تتغير وتميل الى جهته فخاف السلطان نتيجة ذلك ودرجته لانه لا يطغاه نار هذه الثورة الداخلية فأمر بقتل جميع اخوته وأولاد اخوته وأقاربه الذين صرح لهم قبلًا بالاقامة في بروسه وكانوا كثيرين وبعدهم خاف أخوه قورقود وأرسل للسلطان تنازلا عن جميع حقوقه ومدعياته ولكنه مع ذلك قتل باغراء بعض أصحاب الغايات ولم اوصول للسلطان أحمد خبر هذه الحوادث خاف على نفسه ولم يجد طريقًا للتخلص سوى كونه توجه بنفسه الى الاستانة والتجأ لرحمة أخيه ومع ذلك قتله السلطان خوفًا منه في المستقبل وكان للامير أحمد هذا ولدان التجأ أحدهما بعد قتل أبيهما وهو الامير مراد الى بلاد النجف عنده الشاه اسمعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية والتجأ الآخر وهو الامير علاء الدين الى الملك الأشرف قانصوه الغوري ملك مصر ولما طلبه ما امنه الامتنع عن تسليمهما فكان ذلك داعية لوقوع الحرب بينهما وبين هذين الملكين

حرب ايران (٩٢٠ هـ) - قد كان الشاه اسمعيل الصفوي يجتهد كثيرًا في إيجاد القلائد والاضطرابات في داخلية الدولة العثمانية فبث لذلك بذور الفساد في جميع الجهات المتاخمة له منها ولهذا رأى السلطان سليم أن من الضروري جدا استئصال بذور هذا الفساد ولما بلغه أن كثيرا من رعيا الحكومة العثمانية تذهب بذهب الشيعة على أيدي دراويش القزلباش الذين بشتم الشاه اسمعيل بالجهات أمر بحصرهم وتعدادهم في السر فبلغوا أربعين ألفًا ونحوها وقصدته من ذلك أخذ الاحتياطات اللازمة ليتمكنه تجنب ما عساه أن يجرئوه بخاينة البلاد اذا اشتبكت الدولة في حرب أجنبية

ثم عقد السلطان بمدينة ادرنة مجلسا جمع اليه جميع الوزراء والقواد وهدم سدوات استمرت
طويلا اقر واجمعا على اعلان الحرب على الشاه اسمعيل ثم خرج السلطان من ادرنة (١٤٠٠ هـ)
قاصدا استانبول فاقامهم اياما ثم ترك ابنه الامير سليمان نائباعنه بتلك المدينة وانتقل الى مدينة
اسكدار وبعد ان تمت لديه الاستعدادات خرج من اسكدار قاصدا بلاد العجم وبينما هو يسير
في الطريق اذ قبضت جنوده على جاسوس ايراني ولما اتوا به في حضرة السلطان امر باطلاق سراحه
واعطاه مكنوفا يتضمن اعلان الحرب الى الشاه اسمعيل وما زال الجيش العثماني يتقدم من مدينة
الى مدينة حتى وصل الى سيواس وهناك استعرضه السلطان وامر باحصائه فبلغ ١٤٠٠٠٠
جندي ترك منه ٤٠٠٠٠ للمحافظة بين سيواس وقيصريه وتقدم هو بالباقي عند ذلك اخذ
محمد خان حاكم جهات ديار بكر في تخريب المزارع وهدم القرى ببلاد كردستان ثم انكش بجيوشه
داخل بلاد العجم وكذا الشاه اسمعيل لم يتجاسر على الظهور امام العثمانيين ولم يجرأ ابدا على
الكتابين اللذين ارسلهما له السلطان تباعا ثم لما تقدمت الجيوش العثمانية في صحارى بلاد القرس
اعتراهم الضجر واستولى عليهم المال واخذوا يتكلمون فيما بينهم بان هذه الحاربة لا نتيجة منها
ولمبالغ السلطان تدمير الجنود خاف سوء العاقبة فقبض على بعض اصحاب الجرارة منهم وقتلهم
ارهابا للغير وامر بالتقدم الى مدينة تبريز وعندما وصلوا الى مدينة طراجان اذ بالكبرية فوضوا
خيامهم بغتة واخذوا في اطلاق بنادقهم على خيمة السلطان عند ذلك ركب السلطان وخلفه وزراؤه
ونادى في الجنود قائلا من اراد النوم على بساط الراحة في بيته فيرجع ومن اراد ملاقات الاعضاء
في ساحة الوغى فليأت معي وان احببتكم جميعكم العودة فلكم ذلك وانا انا تقدم بمفردي ولم يكذبتم
كلامه حتى اشار الجنود باجمعهم بعلامة الطاعة والانقياد

وبعد ذلك بآيام اذن جواب الشاه اسمعيل رد المكاتب السلطان الثلاثة ومعه كاس به نوع
محبون فأجابه السلطان في مقابلة تعريفة بهذا بأن ارسل له كسوة من لباس النساء يحرضه بذلك
على الخروج الى حربه وفي آخر الامر خرج الشاه اسمعيل بجنوده حتى اشرف على طليعة العثمانيين
التي كان على قيادتها شمسوارزاده على بك وعلى بك ابن مختال وغيرهما ثم اتى في الجيشان بصحراء
چالديران عند ذلك اخذ العثمانيون في تعبئة جنودهم على الطريقة المتبعة اذ ذلك في جيوشهم ووقف
السلطان خلف الجنود في مكان يشرف منه على ميدان القتال ومعه وزراؤه وهم هر سكرزاده اجد
باشا و اجد باشا ابن دوقه كين ومصطفى باشا وجعل الجنود المدافع خلف ظهورهم ليخفوها عن أعين
الفرس ووضعوا امامهم عربات النقل والجمال وقد كان الجيشان في العدد سواء الا اننا لو اعتبرنا ما
اصاب العثمانيين من الضعف الذي استولى عليهم من السير مدة أشهر وسط بلاد قاحلة وصحار مقفرة
لقلناهم اضعف حسا ومعنى من أعدائهم وقد كان جيش الايرانيين مؤثقا جميعه من الخيالة ومنهم
فرق تلبس الزرد وفرق من طوائف القداوية المشهورين وكان بعية الشاه كثير من الامراء والاعيان
والمشاخ وغيرهم ولم يكن بجيشهم أسلحة نارية ولما استعد الشاه للحاربة قسم جيشه الى فرقتين جعل
احدهما تحت رياسته والاخرى تحت رياسته أشهر قواده ثم اعاد بفرقة على الجناح الايسر لجيش
العثمانيين المؤلف من عساكر الروملى فهزموهم وقتل منهم كثيرا من ضمتهم رئيسهم حسن باشا ولما
ارادت الفرقة الاخرى الهجوم على الجناح الايمن قابلها العثمانيون بجنان ثابتة واعلموا مدافعهم

قصده وها بعد أن أحقوا ما خسر أجرة ثم تقدموا إلى قلب الجيش فبددوا شمله وقتلوا منه مقتلة عظيمة عند ذلك ولي الفرس الأديار واستولى العثمانيون على مضاربهم وما كان معهم من الذخائر والأدوات وجرح الشاه اسمعيل فسقط عن جواده وكاد يقع في قبضة العثمانيين لولا أن أعانته اثنان من محاليكه ووقعت خيمته وحرمه وخزائنه أمواله في قبضة العثمانيين وقتل في ذلك اليوم من الفرس أربعة عشر أميراً ومن العثمانيين أربعة عشر من أمراء السناجق غير ما قتل من جنود الطرفين وفي اليوم الثاني من هذا الانتصار تقدم الجيش العثماني يقصد تبريز فدخلها ظافراً ولما كان في نية السلطان عضوية فصل الشتاء بمدينة أذربيجان والعودة في السنة المقبلة لتعقب الشاه وازالة بناء الدولة الصفوية من الأساس لم يمكث تبريز غير ثمانية أيام تفرج في أثنائها على آثار تلك المدينة وصل إلى الجمعة بجماهعها الأعلام وخطب له باسمه على منبره وعند وصول السلطان إلى مشتاقه باغ أخذ في محاسبة جنوده وقواده فقتل منهم من استحق القتل عقاباً وكافأ من استحق المكافأة جزاء وكانت هذه المحاربة سبباً في أقول بحج الشاه اسمعيل بالمرّة

وقد نقل السلطان عند عودته من تلك البلاد إلى الاستانة عدداً عظيماً من مهرة العملة والصناع في كل فن وصنعة ووجاب معه من النفائس والطرف ما لا يقوّم ومن ذلك تحت ملوك الفرس الذي كانوا يجلسون عليه في الاحتفالات الرسمية ويقال أنه يوجد لآن بدار التحف السلطانية بأسكى سراي قال أحد الذين شاهدوه أنه على جانب عظيم من غريب الصنعة به من الأبحار الكريمة شيء كثير بحيث لا يقوّم بحال

ولما كان علاء الدين بك أمير بلاد ذي القدرية كثيراً ما ينتهز الفرس تشويش حال السلطنة أرسل عليه السلطان وزيره الأعظم سنان باشا ورفقته على بك ابن شمسوار من آل ذي القدرية ومعهم الجيوش الكافية فالتقوا مع جنود ذي القدرية بجبال طورنه فهزم موهاش هزيمة وقبضوا على علي بك وأولاده وعائلته وقتلوهم جميعاً وقد كان آل ذي القدرية سبباً في تكدير العلاقات بين العثمانيين وملوك الجرا كسة وضمّت بلادهم وهي جهات مرعش إلى الممالك العثمانية (٩٢١ هـ)

أخصّاع بلاد كردستان (٩٢١ - ٩٢٣ هـ) - لما كانت بلاد الكردستان من أخصّاع بلاد إيران كانت أمراءها متفادّة تماماً للشاه الفرس ولما كان السلطان بعثت إلى أماسيه نهض وفتح قلعة كاخ وذلك قبل محاربتة بلاد ذي القدرية الآن بلاد الكردستان لما كانت جبلية وعرة كان فتحها من أعسر الأمور ومع ذلك فأنه جرد عليها وجعل على رياسة جيشها يهتلى محمد باشا ولما رأى السلطان أن الباشا المذكور ربما لا يتأقن له بمفرده فتح تلك البلاد عين معه المولى ادریس البتليسي ولما كان المولى المذكور كردى الأصل ومن أحقاد أوزون حسن الشهير وكان رئيس ديوان الانشاء لدى السلطان يعقوب سلطان تلك البلاد كان له بالطبع وقوف تام على أحوال تلك البلاد فقام هذا الشيخ بما عهد إليه أحسن قيام وتمكن طوراً بالترهيب وطوراً بالترغيب من ادخال عدّة أمراء من أمراء الأكراد تحت تابعية الدولة العثمانية غير أن الشاه اسمعيل شق عليه هذا الأمر وأخذ في بث الدسائس والثورات بين أهالي تلك البلاد ومدّهم بالمساعدات لعرقلة مساعي بيته على محمد باشا والمولى ادریس المذكورين ولما رأّت الدولة أن مداعبتهم بالم مساعدات بالثمرّة

المرغوبة أمّتهم ما يجيوش أخرى ثم في نهاية الامر تلاقى الجيوش العثمانية مع جيوش قره خان
أخي استاجلو محمد خان الذي نصبه الشاه اسمعيل أميراً على بلاد الكرديستان بقرب بلدة قوجصار
وحصلت بين العسكرين معركة شديدة دارت فيها الدائرة على عساكر الشاه وقتل قره خان المذكور
أميرها فعند ذلك رأى أمراء الاكراد أن لا طاقة لهم على دوام المقاومة والمخاصمة فدخلوا تحت
جناح الدولة العثمانية وبذلك تم الاستيلاء على هذا الاقليم الجسيم عما أظهره كل من هذين الشخصين
محمد باشا بجهارته العسكرية والمولى ادریس بحسن سياسته وتديره ثم عاد السلطان الى الاستانة
تاركاً تلك الاطراف بعض القواد لفتح وتسخير بعض بلاد العجم فاستولى خسرو باشا على خرپوط
واستولى بيقلی محمد باشا على ديار بكر وغيرها

وقد كان أول شيء اهتم به السلطان بعد عودته الى الاستانة (٩٢١ هـ) النظر في أحوال
العسكرية لما حصل منهم من التمرد أثناء حرب ايران فغير وبدل في أوجاق اليكچرية ورأس عليه
كثيرين من خدمة السراي السلطانية الذين اشتهروا بالصدقة والمسامحة والحسنة وجعل لذلك
الأوجاق مجلساً عاماً يسمى بديوان الاناوجاق جعل للوجاق أركان حرب انتخبهم من اشتهروا بسعة
الاطلاع في الفنون العسكرية ولم يكن اهتمام السلطان بالقوة البرية أقل منه بالقوة البحرية
حيث أمر القبودان جعفر بك أحد قواد البحر بتوسيع دار الصناعة التي بساحل قاسم باشا وأمر
فانسابها عدة سفائن جسيمة بين حربية ونقلية حتى صير بذلك قوة الدولة البحرية بمعادلة قوة
البنادقة واسبانيا معاً

وبعد عودة السلطان بقليل أرسل ملوك البنادقة والجزر وإيطاليا واسبانيا سفراءهم بالهدايا
النفيسة والمكاتيب مخطوبون مودته وتجدد روابط الصلح والمسالمة بينهم وبينه ولما كان عييل هو
أيضاً لهذا الامر ليتفرغ للنظر في أحوال الشاه اسمعيل وقانصوه الغوري قبل مطالبهم وأحسن
سفراتهم ووردهم بالاعزاز والتكريم

استيلاء العثمانيين على مصر

(٩٢٢ - ٩٢٣ هـ)

قد سبق ذكر الفتور في العلاقات الذي حدث بين ملوك الجزائر كسة حكام الديار المصرية
والشامية وبين السلطان محمد خان الفاتح وما تسبب عن ذلك من الحروب التي قامت بينهم وبين
السلطان بايزيد خان وتوسط فيها العلماء وملك تونس حقناً للدماء حتى أصلحو ذات البين إلا أنها
كانت حكومة ذي القدرة هي الحد الفاصل بين مصر والدولة العثمانية وكانت مركزاً للفتن
والدسائس اهتم السلطان بإزالة حكمها وقتل أمرائها فوق وقع هذا العمل عند الملك الأشرف قانصوه
الغوري موقعا سبياً وأطلب من السلطان الترضية عن ذلك بأن تستمر الخطبة في الاقليم المذكور
باسم قانصوه فخا وبه السلطان على مكتوبه بالفاظ التهديد والوعيد وبعثه برأس الامير علاء الدولة
آخر أمراء بلاد ذي القدرة بقتام الغوري لذلك وقعد وعزم على الأخذ بالشار وأخبر بذلك مخالفه
الشاه اسمعيل الذي أخذ في اضرام نار التجرىض في قلبه وشجع عماله على محاربة آل عثمان واعداً اياه

بالمساعدات فانخذ السلطان الغورى في جمع الجنود والاكثار من العدة والسلاح على حد قول
المثل (استعد بالسلاح ان أردت الصلح والصلاح) وفي سنة ٩٢٢ هـ جهز السلطان
جيوشه مظهرا أنه يريد الحيلة على بلاد ايران مع انه في الحقيقة مصمم على فتح بلاد مصر ثم خرج
الوزير الاعظم خادم سنان باشا طليعة بجيش مؤلف من أربعين ألف مقاتل واتجه الى قيصرية
ومنها الى ديار بكر ثم قام السلطان بعده بجيش عظيم يبلغ مائة ألف وخمسين ألف مقاتل ومعهم
المدافع الكثيرة والعددا الوافرة وأرسل المولى ركن الدين قاضي عسكر الروم الى مع قره جبه باشا
من طرفه الى سلطان مصر ليقفوا على حالته ونواياه وكان قبل خروجه ترك على مدينة أدرنة
ولده الامير سليمان وعلى استانبول الوزير ييرى باشا وعلى بروسة هر سرك زاده أحمد باشا وأوصاهم
بالحفاظة على الامن وسيرا أيضا سطولا عظيما للذهاب الى مدينة الاسكندرية تحت قيادة القبودان
جعفر بك

وكان السلطان الغورى يتوجس شرا من استعدادات السلطان وقد قوى عنده هذا الفكر
خصوصا حينما وصلت الاساطيل العثمانية الى مياه الاسكندرية عند ذلك اهتم بالاستعدادات
الحربية وخرج بجيش عظيم الى مدينة حلب مترقب ما سيحصل ثم بث العيون في كل مكان لياتوه
بالاخبار وأخذ أيضا في مخابرة أوزون حسن والشاه اسمعيل المقهورين ليتفقوا جميعا على الاغارة
على البلاد العثمانية وغير ذلك وبينما الغورى بحلب اذ قدم عليه سفير السلطان فأمر بالقبض عليهما
وكبلهما بالقيود وألقاهما في السجن وبعد أيام أدخل سيبلهما وطيب خاطرهما ووردهما الى بلادهما
وبيناهما في الطريق قابلا للجيش العثماني فكان يقال له بوجاق دره ولما أخبرا السلطان بما
حصل لهما وما شاهداه أمر جيشه بالاتجاه نحو الجنوب لانه كان كياروى يقصد في أول الامر
التنكيل بالشاه اسمعيل ثم يقصد مصر بعد ذلك فأنحدرت جيوشه نحو مصر ولما وصل الى مدينة
عينتاب أتاه واليهامصرى المدعو يونس بك طالبا الامان فأمناه وجعله دليلا وما زال يقطع الفيافي
والقفار حتى وصل الى مرج دابق القريب من حلب في ٢٦ رجب سنة ٩٢٢ (٢٤ أغسطس
١٥١٦ م) وتلاقت عساكره مع عساكر الغورى وبعد مناوشات بقيت أياما حصلت بين الطرفين
مخاربة عظيمة انجبت عن هزيمة المصريين هزيمة منكرة وقتل قانصوه وكثير من أمرائه واغتنم
السلطان سليم جميع أمواله وذاخاره ثم دخلت الجنود العثمانية مدينة حلب فاغتنمت جميع ما بها
من النقود والاشياء النفيسة ثم بعدها استولى السلطان على حماة وحص ودخل دمشق الشام بكل
سهولة وانقادت لسلطانه جميع مشايخ العرب والدروز

وبعد أن مكث ببلاد الشام نحو أربعين شهرا للنظر في أحوالها استمر سائر نحو الجنوب وفتح في
طريقه قلعة القدس الشريف وغزة واستحجب معه واليهما جابر الغزالي ثم عقد مجلسا من القواد
والامراء فاستقر رأيهم على التقدم لفتح بلاد مصر ولما وصل الى صحراء السويس بلغه ان طومان
باي الذي تمرد تخنت مصر بعد قانصوه الغورى وكان ولاءه عليها قبل سفره يمتم بتجهيز الجيوش
واعداد العدد لصده عن دخول مصر فارسل له السلطان بأن يكف عن ذلك وهو يبقيه على الديار
المصرية بشروط منها الاقرار بالتبعية العثمانية وضرب السكة باسم السلطان وكذا تكون الخطبة
فلم يقبل وفي يوم ٢٩ الحجة من السنة المذكورة تقابل مع جنود طومان باي قريبا من خانقاه

بمكان يدعى الريدانية وحصلت معركة شديدة انهزم فيها عساكر طومان باي بعد أن أظهر وامن
الفرسية والشجاعة ما لا يوصف مع عدم حيازتهم للأسلحة النارية وأسر المصريون سنان باشا فقتله
طومان باي ببركة الحج وكذا قتل من أمراء العثمانيين في هذه الواقعة محمود بك ابن رمضان ويونس بك
والى عينتاب المتقدم وغيرهما ثم عين السلطان سليم يونس باشا صدرا أعظم مكانه واقتفت الجنود
العثمانية أثر طومان باي ومن معه حتى جهات مصر العتيقة وفي أثناء مروره ببعض الجنود العثمانية
من حارات مصر صارت النساء ترمي على عساكرهم من الطاقات أحجارا ونيرانا فقتل منهم خلق كثير ثم
ان طومان باي أعاد الكرة على العثمانيين بعد ان جمع جيشا من الجرا كسة والعربان فلم يفلح وقد ظهر
منه من الاقدام والشجاعة ما أذهل العقول ثم قبض عليه أخيرا بعض العربان أثناء فراره الى
الاسكندرية وسلموه الى السلطان فسجنه أياما ثم أطلقه وأقبل عليه وأمر له بالحضور في حضرته
بلا ممانع وكثيرا ما سأله في أموره تتعلق بأحوال الديار المصرية وأخيرا أمر به فصلب على بابز ويلة
بالقاهرة وكان القائم بأمر صلبه على بك بن شمسوار لانه كان صلب أباه منذ أيام مضت بالباب المذكور
وكان السلطان في أول الامر أراد استبقاه لولا أن بعض وزرائه خوفه العاقبة وبذلك انقضت دولة
الجرا كسة أو المماليك البرجية بعد ان ملكوا مصر نحو ١٣٩ سنة ومن ذلك الوقت صارت مصر
لحدى الايلات العثمانية وعين السلطان سليم خيرى بك وكان واليا حلب من طرف الغورى أميراعلى
مصر بلقب بالمعرفة أحوال البلاد واخلق سكانها

وبعد قتل طومان باي دخل السلطان سليم القاهرة عاصمة الديار المصرية وكان قبل ذلك يقيم
هو وجنوده بجزيرة الروضة (٩٢٣ هـ) ثم انه رحل الى الاسكندرية في طائفة من جنوده وأبقى بها
حامية تحت قيادة جعفر بك وأسطول الحماية بالبلاد من تلك الجهات ثم عاد الى القاهرة مهمتها بتنظيم
أمورها والنظر فيما يحتاجه

ولما كان السلطان سليم يخاف على مصر من عدو تخارجى ومن ثمرد أهلها وتلاعب ذوى
الاغراض بها أحدث لها نظاما خاصا بها وأبقى بها العدد الكافى من الجنود وذلك أنه نصب عليها
خيرى بك المتقدم الذكر وأنعم عليه بلقب باشا وجعل عصر ثلاث ادارات كل منها تراقب أعمال
الآخرين وبهذا أمن اتحادها وتمدها بالقوة الاولى الباشا وأهم واجباته ابلاغ الاوامر السلطانية
لرجال الحكومة وللأمة ومرأسة تنفيذها والقوة الثانية الوجاقات لانه جعل بالقاهرة وبالمدن
المهمة من القطر ٦٠٠٠ فارس و ٦٠٠٠ راجل مسلحة بالبنادق وجعلها تحت قيادة أحد
قواده العظماء المدعو خير الدين باشا وأمره بالمقام فى القلعة ولا يخرج منها الا بسبب كان وواجبات
هذه الوجاقات حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وجباية خراجه وهذه الوجاقات هى وجاق
المتفرقة ووجاق الخاويشية ووجاق الهجانة ووجاق التفكجية ووجاق اليكجيرية ووجاق العزب
وعلى كل وجاق منها ضابط بلقب بالانما يصعبه الكيخيا والباشا اختيار والدفتر دار وانجاز نذار
والرناججى ومن اجتماع هؤلاء الضباط المختلفين يتألف مجلس شورى الباشا المسمى بالديوان فلا
يقضى أمر الا بصادقتهم ولهم ان يوقفوه عن العمل متى رأوا منه ما يقتضى ذلك ولهم ايضا ان يطلبوا
عزله أما القوة الثالثة فهم المماليك وهم من بقايا الدولتين السالفتين والقائده منهم حفظ الموازنة

بين الباشا والوجاقات لانهم في الاصل اعداء لكل من الفريقين ومن غرضهم الانتصار للفريق
الاضعف ليمنعوا القوى من الاستبداد وقسم السلطان أيضا البلاد الى اثني عشر قسما يقال للقسم
منها صغوية يحكم كلامها كما يقال له صبحي أو بك يعينه ديوان مصر من أمر اء الممالك وجمه
الصفة استراحت الدولة من وجود الشعب في مصر وصارت على ثقة من بقاء بلاد مصر في قبضتها

و بينما كان السلطان يهتم بهذه التنظيمات اذوردت الاخبار من الاستانة تستدعي حضوره
على وجه السرعة فخرج من مصر (٩٢٣ هـ) وأخذ بعينه ابن الغوري ومحمد المتوكل على الله
العباسي الخليفة الثامن عشر من العباسيين بمصر وأخذ أيضا بعض الامانات النبوية الشريفة
الموجودة لآب نبار الخلافة وغير ذلك من النفائس والاموال التي وجدها بنجران مصر ولما وصل
السلطان الى مدينة حلب قابله الصدر الاعظم بييرى باشا الذي تولى الصدارة بعد بونوس باشا وأخبره
بان الصفوين يجمعون العساكر بالحدود فامر السلطان بالذهاب سر يعالوا جهتهم الا أن الصدر
الاعظم لما عبر حدود العجم بلغه ان الشاه تقهقر الى خراسان فلم يرد الصدر الاعظم اتباعه وبعده أن
مكث مدة بتلك الجهاد عاد الى الاراضي العثمانية

استقال الخليفة الاسلامي سلاطين آل عثمان ٩٢٢ - لقد كان فتح الدولة العلية لبلاد مصر
ودخول هذه البلاد المشهورة من القديم بالثروة وحسن الموقع في عداد الولايات العثمانية موجبا
للفوائد العظيمة مليحة كانت أو سياسية ومن حسن حظ السلطان سليم أنه في أثناء اقامته بمصر حضر
ابن أبي البركات شريف مكة المكرمة وقدم له بيده مفاتيح الحرمين الشريفين طائعا مختارا وهناه
بالفتح بالنيابة عن والده وصارت الخطب التي تتلى بالمساجد في أيام الجمع والاعياد بعد فتح حلب يذكر
فيها السلطان بعنوان خادم الحرمين الشريفين وأنه عند عودته الى القسطنطينية أخذ معه المتوكل
على الله آخر الخلفاء العباسيين بمصر وتنازل له المتوكل عن الخلافة الاسلامية فانضمت من وقتئذ
الخلافة الاسلامية الكبرى للسلطنة العظيمة العثمانية وأنه في أثناء اقامة السلطان بمصر قدم له
الرئيس بارباروس خير الدين الطاعة وبذلك صارت بلاد البربر معدودة ضمن الايالات العثمانية

أما الاعتراض على هذا السلطان العظيم في محو دولة الجرا كسة و ابادة أصولها فلا وجه له لان
المخذورات والخواف التي كانت تحصل للدولة العلية من وجودها تبرر الاحتمال هذا الفعل الجليل الذي
أوجب استتباب الامن وارتفاع المخذورات على أن السلطان لم ينج من الوجود جرؤتهم بل مرة بل انه
شكل مما بقي من جنودهم وضباطهم قوة اناط بها المحافظة على بلاد مصر كما سبق وأبقى معها قوة
عسكرية مؤلفة من نحو ستة آلاف عسكري ولم يأخذ من خزائنه مصر الا الامانات النبوية الشريفة
وبعض الاشياء النفيسة النادرة الوجود وأبقى بها باقي الاموال حتى انه مع صدور فتوى من العلماء
تجيز له وضع يده على الاوقاف العتيقة لم يعمل بثلاث الفتوى بل انه زاد تلك الاوقاف كما هو مشهور
وفي كتب التاريخ مفصل مذکور واذن فلا وجه للاعتراضات على هذه الاعمال النافعة
والاجراءات المفيدة

وفي أو اخر حكم هذا السلطان ظهر أحد الاشياء المسمى بالشيخ خلال بجهات توقات مدعيا
انه المهدي واجتمع عليه خلق كثير يبلغون عشرين ألفا ف ارسل السلطان عليهم (٩٢٤ هـ)

أحمد قواده المسمى على بك بن شمسوار فتمكن من تثبيت جمعيتهم وبقي بسلاطد الاناضول بعد ذلك طائفة من اتباع ذلك الرجل يقولون بمذهبه وهم المسمون بالجلالية وفي تلك الاثناء ظهر أيضاً شخص يدعى انه الامير مراد ابن السلطان أحمد فجرد عليه السلطان من خذله ولما كانت مدينة القدس الشريف انتقلت الى يد العثمانيين كانت قال مصر اليهم رأى بعض دول أوروبا ان من الضروري أخذ التصريح للحجاج من رعاياهم للتردد على تلك المدينة المقدسة كالسابق فحضر لذلك سفير من اسبانيا يحمل الهدايا وطلب من السلطان التصريح لاهل أوروبا بزيارة القدس كعادتهم فقبل منه على الشروط التي كانت بينهم وبين مصر وهي دفع قدر من المال كل سنة

وقد كان أقصى مرام السلطان محو الدولة الصفوية للتخلص من أشرارها الآن الوزراء حولوا نظره عن محاربة بسلاطد العجم وحسنوا له فتح جزير قردوس فكان يقول لهم اني أرغب فتح الاقاليم لا تسخير جزيرة اصول وليس اماهي من الاسفار غير السفر الى الدار الباقية وفي سنة ٩٢٦ هـ خرج بجيش عظيم كامل العدد والعديد بقصد مدينة أدرنة فقات بال طريق ولقد كان رحمه الله من أكبر السلاطين وأعظمهم همة وأوفرهم عقلاً وأسدهم رأياً وأثبتهم جناناً وأعلمهم وأقدرهم وامضاهم عزيمه شديداً الشكيمة وكان يستدل من أطواره وحر كانه تحقيق أقصى أمانى موسى بن نصير وعبد الرحمن الغافقي من المجاهدين السابقين من ادخال البحر المتوسط الابيض في دائرة الاسلام وضم الممالك الاسلامية المتفرقة الى رأى واحد ووجهة متحدة ولو أمداً الله في أجله لكان حقق هذه الامانى الشريفة وكان يقول الشعر الجيد باللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية وكان يريد اصال البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر بواسطة ترعة تمر من برزخ السويس كالتى فتحت حديثاً لولا ان وزراءه شوا عزمه عن هذا الامر وكان قصده منه ارسال الاساطيل بجمرا لقتال سلطان المغول ببلاط الهند وهو من سلالة تيمورلنك مقابلة لما فعله بالعثمانيين

(١٠) السلطان الغازى سليمان خان القانونى

(٩٢٦ - ٩٧٤ هـ)

كانت ولادته هذا السلطان العظيم والملك الجليل الذى بلغت الدولة العثمانية فى حكمه أعلى درجات الشرف والكمال سنة ٩٠٠ هـ ولما وصله خبر موت أبيه سر الان الوزراء وأرباب الدولة كانوا أخفوا موته لئلا يشور اليكبرية قام مسرعاً من اقليم صاروخان الى أن دخل استانبول وقابله أرباب الدولة والجنود على اختلاف طبقاتها بالتهليل والترحيب وطبوا منحه الانعام بالهدايا المعتاد توزيعها عند جلوس السلاطين ولما جرت رسوم المقابلات وقد عليه جميع الامراء والوزراء والقواد والاعيان وكانوا يعزونه بموت والده ويسلمون عليه بالسلطنة والخلافة وبعد أيام من جلوسه أتت جثة أبيه فاحتفل بدفنها احتفالاً عظيماً وأمر بأن يشيد عليها الجامع الشهير للآن وهو من أعظم جوامع استانبول ولما صعد على تخت الخلافة أخذ فى سن القوانين والنظامات الكافلة بتمكين بنيان الدولة والتفت أيضاً الى تنظيم الجيوش وتقوية أساطيل البحر الاسود والبحر المتوسط الابيض

ولما علم والى الشام جان برذر الغزالي بعوت السلطان ظن أن ذلك فرصة مناسبة لتحقيق أمانيه فأمر فارتنه واستولى على قلعة دمشق وغيرها وراسل خير بك عامل مصر على الانضمام معه مسهلا عليه أمر الفوزلارتبلك السلطنة كدعواه وبعدها ران الخلافة عنهما فخا وبه خير بك بالمرادغة وأرسل مكاتب الغزالي الى السلطان فعين السلطان الوزير فرهاد باشا بجيش و حاربه حتى تمكن من رده ثم قبض عليه وقتله (٩٢٧ هـ) وأرسل رأسه الى الاستانة وتعين مكانه ياس باشا واليا على بلاد الشام ثم أمر السلطان فرهاد باشا بالذهاب الى الحدود الشرقية لمقابلة جيوش الشاه اسمعيل وصددهم عن شن الغارات وفي تلك الاثناء أرسل السلطان سليمان مأمورا مخصوصا من طرفه لمقابلة ملك المجر لتسوية بعض المسائل الموقوفة بين المملكتين ولأخباره بارتقاء السلطان على كرسي السلطنة فلما وصل هذا المأمور قتله ملك المجر فساء هذا الأمر السلطان وأمر جيوش الروم الى بالاستعداد ثم شكل منهم جيشا تحت قيادة الوزير أحمد باشا ثم خرج السلطان مع معظم الجيش من مدينة ادرنة وأمر بالي بك بغزو بلاد كرواسيا والحزوات وخسرو بك محافظ سمندرة بجessar بلغراد ومحمد بك بن ميخال بغزو وجهات ترانلقانيا ثم فتح أحمد باشا قلعة بكوردان واستولى ييري باشا الصدر الاعظم على قلعة زميني وضم جهات سمرم بالقوة الى الممالك العثمانية وألقى السلطان بنفسه الحصار على بلغراد وبعد أن حاصرها نحو شهرين ونصف وخرب أسوارها بالانعام استولى عليها عنوة (٩٢٧ هـ) ولما دخلها صلى الجمعة باحدى كنائسها التي حولت فيما بعد الى مسجد وقد كانت هذه المدينة أقوى حصن للمجر مانع تقدم العثمانيين الى ما وراء نهر الدانوب ثم أعلن السلطان مولك أورو با بهذا الفتح ولما تم فتحها ألحقت بسنجقية سمندرة وصارت فيما بعد تابعة لولاية بوسنة وفي تلك الاثناء استولى العثمانيون أيضا على قلاع (اسلانقش وقونك وايق و ابرشوه) من بلاد المجر ثم عاد السلطان الى دار الخلافة قائما ظافرا وبعد عودته الى استانبول أرسل اليه رؤساء جمهوريتي البنادقة وراغونة يهنئانه بالفتح وأرسل اليه أيضا وصلى قيصر الروس يهنئه ويعرض عليه عقد معاهدة دفاعية وهجومية بين المملكتين وذلك على يد مدير قصره المدعو جان موزوروف وكان يحكم صورة تلك المعاهدة فلم يقبل السلطان ذلك وفي سنة ٩٢٨ هـ أمضيت بين الدولة العثمانية وجمهورية البنادقة معاهدة تجارية تؤيد المعاهدات السابقة على يد سفيرها المدعو مارقومون وزير عليها أن قنصل الجمهورية أى وكيلها باستانبول يغير كل ثلاث سنوات وأن يكون له الحق في نظر أمر تركت رعيته وأن يرسل من طرفه ترجمانا لحضور المرافعة التي تقام ضد رعايا حكومته أمام المحاكم العثمانية وأن يكون المبلغ الذي تدفعه الى الدولة نظيرا لاحتلالها جزيرتي قبرص وزنطة عشرة آلاف دوكان الاولى وخمسة مائة عن الثانية ولهذه المعاهدة أهمية عظيمة لانها أس الامتيازات الاجنبية ببلاد الدولة العثمانية ولما بلغ السلطان سنة ٩٢٨ هـ أن سفن قرصان رودس عاملة على معاكسة سفن التجارة العثمانية والحجاج والايقاع بها كسأ أمكتهم الفرصة وكانوا اغتصبوا حديثا بعض تلك السفن وأسروا وقتلوا من بها فتكدر السلطان جدا من هذا الخبر ولما كانت أهمية موقع تلك الجزيرة تزايد من وقت ما فتحت الديار المصرية ضمهم السلطان نهائيا على فتحها وضمها للممالك العثمانية منع المضرات والتعديات الحاصلة من أهلها من جهة وللحفاظة على طريق التجارة والهج من جهة أخرى ولكي لا يكون لاجنبي وسط بلاده موقع حصين تجا اليه عمارات الدول المعادية للدولة وقت

الحرب وقد انتهز السلطان فرصة اشتغال ملوك أوروبا بأمورهم الداخلية لتنفيذ مرقوبه من فتح رودس وذلك لان ملك فرنسا سافر انسوا الاول وشارل الخامس أوشارل كان ملكا اسبانيا والمانيا كانا مشغولين بحاربة بعضهم ما والبا بالاون العاشره متما بمجادلة ومقاومة الراهب الجرمانى لوتر مؤسس مذهب البروتستانت وبلاد المجر فى اضطراب وتشويش حال لصغر سن ملكها لوزر الثاني فلهذا أصدر الاوامر باستعداد الجيوش والاساطيل

فتح جزيرة رودس - ٩٢٩ لما انتشر خبر التجهيزات المذكورة وما عزم عليه السلطان خافت فرسان

رودس سوء العاقبة فأمر عن رئيسهم المدعو ويليه دوليل ادم De Villiers de l'Isle-Adam وأرسل سفرا من قبله الى الباب العالي بانه مستعد لدفع جزية سنوية للدولة فاصد ابذلك تحويل السلطان عن نيته حتى يتيسر لاوروبا بمداده الا أن السلطان طلب منه اخلاء الجزية وأن يأخذ معه كافة أمواله وكل من يريد الهجرة ولمالم يقبل أقلعت الاساطيل تحمل الجنود ومدافع الحصار الضخمة (٩٢٨ هـ) وكانت الدوننا من كبة من ٣٠٠ سفينة حربية و ٤٠٠ سفينة نقلية تحت قيادة القبودان بيلان مصطفى باشا وبها ١٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة الوزير الثاني داماد مصطفى باشا ثم خرج السلطان بجيش عظيم برا فاصد افرضه مرمريس الواقعة بساحل الاناضول تجاه جزيرة رودس للامداد والوقوف على حركات التجريدة وفى اليوم الرابع من شهر شعبان من السنة المذكورة وصلت الاساطيل الى ساحل الجزيرة المذكورة أمام المكان المسمى الآن جم بانجه ولاجل اشتغال أهالى رودس حتى تخرج العساكر بالسهولة أخذت السفن تمر أمام قلعتها الحصينة ذهابا وجيئة: أطلق عليها المحاظنون قنابل كالامطار ولكن لم تصب السفن بشئ منها القربها من الساحل ثم رست مع باقى السفائن فى فرضة أو كوز بورنو الواقعة غربى الجزيرة وأخرجت المهمات والذخائر ومدافع الحصار ثم شرع القائد عند ذلك فى ترتيب نظام الحصار حول مدينة رودس وبينما كان مصطفى باشا يحاصر المدينة وصل السلطان برا مع الجيش الى فرضة مرمريس وذهبت السفن اليه فنقلته مع الجيش الى الجزيرة وبعد أن شاهد حصونها شرع فى ترتيب أمر الحصار بنفسه ولما رأى متانة القلاع التى شيدها فرسان الجزيرة حول مسدينتهم وما أظهره من الشجاعة والاقدام فى أمر الدفاع أصدر الاوامر المحتمة بتشديد الحصار برا وبحرا ومداومة الهجوم واستعمال المدافع الجسيمة وغير ذلك من الترتيبات ومع هذا فقد استمر الحصار مدة سبعة شهور متوالية ولما رأى الفرسان أن التضييق عليهم وتخريب قلاعهم أضرا بهم وعلخوا أن السلطان لا يرجع عن منازلهم الا بالاستيلاء على المدينة سيما وان هو القائم بنفسه على قيادة جيوشه وأن ليس فى امكان أوروبا بالمدادهم بادر وابتلخوع وطلبوا تسليم المدينة للسلطان فعند ذلك أصدر الاوامر للاساطيل والجيوش بالكف عن الحرب وأرسل اليهم زغر جي باشا رئيس اليكبرية ليعقد شروط التسليم وفى تلك الاثناء وصلت سفائن من أوروبا بالمساعدة الفرسان فلما رأوها ظنوا أنهم تقوا واهبوا صافى امكانهم صداد أبطال العثمانيين فعادوا للمدافعة والمقاومة فأمر السلطان بزيادة التضييق والاكتنا من الهجوم عليهم فلم يفخوا فيما ظنوه بل صار لهم ضغثا على ابالة لانهم بعد أن خسروا خسرنا عظيمة عادوا وطلبوا الامان من السلطان فأمنهم وأتى رئيسهم

فلارى آدام بنفسه الى خيمة السلطان لعقد شروط التسليم التي كان من ضمنها التصريح لكافة أمراء
الفرسان المذكورين ومن تبعهم بمبارحة الجزيرة وان يأخذوا أمتعتهم وأسلحتهم الخصوصية
فقط وغير ذلك ولما تم عقد الشروط استولى السلطان على قلاع المدينة المذكورة في يوم ٧ صفر
سنة ٩٢٩ هـ (١٥٢٢ م) واحتلتها جنوده أما فرسان القديس يوحنا فانهم ذهبوا الى جزيرة
مالطة وأمن السلطان الاهالي وصرح لهم معاطاة أعمالهم واجراء رسوم دينهم بكل الحرية
واتفق ان أمراء اسانت يوحنا المذكورين لما توجهوا الى جزيرة مالطة كان الشقاق والخلاف
قائمين بين فرنسيس الاول ملك فرنسا وبين شارل الخامس امبراطور ألمانيا وكانت أوروبا بسبب
ذلك قد وصلت الى درجة الانحطاط فلما وصلوا أقطعهم شارل المذكور مدينة مالطة واشترط عليهم أن
يदाؤوا على حرب الامة الاسلامية وبعدها أن أتم السلطان فتح رودس وأرسل فرقة من الدونما تحت
قيادة قره محمد رئيس لفتح الجزائر التابعة لرودس ففتحت جزيرتي هلكة وانجيري الى القريتين من
رودس ولما وصلت تلك الفرقة الى جزيرتي تختالو واستانكوى سلطنة العثمانيين بلا قتال وكذا فعلت
قلعة بدروم المقابلة لاستانكوى وكفى الله المؤمنين قتالها ثم عاد السلطان سليمان القانوني الى دار
الخلافة مؤيداً ظفراً

وكان السلطان قبل سفره الى رودس عين فرهاد باشا للحفاظ على حدود الدولة من جهة
الاناضول لان الشاه اسمعيل ملك العجم كان دائماً يتربص الفرصة لاجل الاغارة على حدود الدولة
فقام به هذه المأمرية بأحسن قيام وفي أثناء ذلك تمكن فرهاد باشا أيضاً من القبض على بك أمير
بلاد ذى القدرية وقتله هو وأولاده وأراح منهم الدولة وأرسل رؤسهم الى السلطان وهو في بروسة
فسر السلطان من ذلك وأحل وزيره محمداً باشا غناط الوشاة والحسادور موافق فرهاد باشا بعض
المقريات حتى قتله السلطان وبعدها ذلك أمر السلطان سليمان باشا والى الديار المصرية بتجهيز دونما
كافية بدارصناعة السويس للحفاظ على سواحل البحر الاحمر من تسلط الاعداء وتأمين
طريق الهند

ولما كان السلطان مشتغلاً بفتح رودس اتخذ لويس الثاني ملك المجر ذلك فرصة وتعدى على
حدود الدولة بالروم الى قواومه جنود نيكبولي وسمندرية فلما عاد السلطان وبلغه هذا الخبر صمم
على محاربة المجر فأرسل جيشاً من ٣٠٠ ألف مقاتل تحت قيادة الصدر الاعظم ابراهيم باشا
(٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م) وأسطولاً من ٨٠٠ سفينة مشحونة بالذخائر والعدد الى نهر
الطونة ثم خرج السلطان بنفسه حتى وصل الى جهة سمر بعد ان عبر نهر صاوه على جسر ودخل الصدر
بجيشه بلاد المجر وفتح جملة بلاد منها (راجه) و (ارادين) و (ابلوق) و (أرل) و (غراغوريجه)
و (جزويك) و (برقاص) و (ديتروفجه) و (توكلي) و (بوداخ) و (براجه) و (دوكن)
و (صوتين) و (بقوار) و (ارداد) وغيرها ثم تقابل مع جيش مجري مؤلف من ١٥٠ ألف مقاتل
بقوده لوزير الثاني ملك المجر بنفسه في صحراء مهاج Mohacs وانتشبت بينهم القتال وفي أثناءه
وصل السلطان الغازي مع جموعه فأخذ قيادة الجيش بنفسه فمقرت بذلك قلوب العثمانيين وتضاعفت
شجاعتهم الفطرية خصوصاً لما نادى السلطان فيهم مشجعاً حاشاً بحرصا واعداء متوعداً لم يرض على
ذلك غير القليل حتى انهزم المجر بون مع من كان انضم اليهم من جيوش الكرواسيين مساعدتهم

وبينما كان لويو الثاني يولي الادبار ساخت قوائم فرسه في غدير فوق وقع وقعة شديدة كان فيها حتمه ومات من جنوده في هذه الواقعة أكثر من عشرين ألف جندي وبعد قليل استولى السلطان على مدينة بودين (بوده) تحت مملكة المجر بالحرب وأمر فنقل منها جلة آثار قدسية إلى الأستانة العلية ثم بعد ذلك استولى على مدينة واردين وفتح قلاع بشته (بست) و (زجدين) و (باچقه) و (تتل) و (باچ) و (سينا) و (بانقه) و (بيرلك) و (قينى) و (فلك حاجى) وعدة جهات من جنوبي تلك المملكة ثم قفل راجعاً إلى استانبول منصوراً ظافراً

ولمات لويس الثاني نصب السلطان على مملكة المجر ملكاً آخر يدعى جان زا بولي الآن فردي نند ملك النمسا كان يرى ان مملكة المجر تؤل اليه بحق الوراثة سيما وان أخاه شارل كان امبراطور ألمانيا كان المتفرد بالنفوذ في ذلك العصر بمالك أوروبا فأقام أكثر أهالي بلاد المجر وأعلنوا بعدم قبولهم جان زا بولي المذكور الذي نصبه السلطان ودعوا فردي نند ملك النمسا ليكون ملكاً عليهم فاستعد فردي نند عند ذلك ثم سار يقود جيشاً عظيماً واستولى على مدينة بودين ففر جان زا بولي وطلب مساعدة السلطان وحمايته على يد رسول أنفذه لذلك فغضب السلطان لما حصل من الأهانة تجان زا بولي لانه هو الذي نصبه سيما وان وقوع بودين في يد العائلة المالكة ببلاد أوستوريا يخالف تمام السياسة السلطنة فلذلك أمر في الحال بسوق العساكر على مملكة أوستوريا (٩٣٥ هـ) و جهز جيشاً عظيماً وما زال هذا الجيش يسير حتى نزل بصحرأ داود باشا وأقام بتأهب بها ثم تقدم قاسم باشا بكر بك الروملى على رأس جيش كطليعة الجنود العثمانية التي كانت تحت قيادة الوزي الاعظم ابراهيم باشا وكان أرسل بعد محاربة المجر الاولى لاطفاء بعض الثورات التي ظهرت ببلاد الأناضول ولما جعله السلطان في هذه المرة قائداً للجيش أحال عليه أيضاً مسند السر عسكرية وكان ايجاده هذا المسند في تلك الايام لأول مرة وضم الي مرتبه ألف ألف فضة فاصبح مرتبه ثلاثة ملايين فضة في السنة

ولما وصلت الجنود العثمانية ومعها السلطان الغازى الى صحراء مهاج قابلهما جان زا بولي ومن معه من فرسان المجر الذين انضموا اليه وساروا تحت رايته ولما تمثل في حضرة السلطان قابله بالاحترام ثم تقدم السلطان وضرب الحصار على بودين (٩٣٦ هـ) ولما كانت عساكر أوستوريا المحصورة بتلك المدينة لا تقوى على المدافعة طلبت التسليم بشرط حفظ أرواحهم فقبل السلطان طلبهم وأطلق السراح لهم في الذهاب إلى بلادهم الا انه وقت خروجهم من المدينة تطاول بعضهم على بعض الجنود العثمانية وجرده عليه سيفه فاتخذ العثمانيون ذلك نقضاً للعهد المعطى اليهم وانقضوا عليهم فقتلوهم عن آخرهم ثم اجلس السلطان جان زا بولي على تخت المجر بالقوة والاقتدار رغم ان أوف أعدائه واشترط عليه دفع جزية سنوية مقررة وصارت بذلك بلاد المجر من أملاك الدولة وأبقى السلطان ٣٠٠٠ جندي تحت قيادة قاسم باشا للمحافظة على تلك المدينة

محصرة ويانة - لما لم يكتف السلطان باسترداد بودين واقام جان زا بولي على تختها أراد أن يظهر لفردي نند وشرل كان ما عليه العثمانيون من القوة والاقتدار فصمم على محاصرة مدينة ويانة

المسماة في التواريخ القديمة العثمانية باسم بيج ولما سمع فردي نند بعزم السلطان أخذ في جمع الجنود واستمد شارلكان واستعد لصد العثمانيين الذين لما وصلوا الى جهات استرغون (١) بلغهم أن فردي نند لما لم يتمكن من جمع القوة الكافية للدفاع ترك عاصمته وانسحب الى الجهة الاخرى من مملكته فتنفرق العثمانيون فرقا عديدة أخذت في النهب والتخريب والاعارة حتى وصلت في العشرين من شهر محرم من السنة المذكورة الى مدينة ويانة وهناك نصبوا خيامهم وخطوا رحالهم واستعدوا لالقاء الحصار عليها ولم يكن تلك المدينة للتساويين سوى ٢٠ ألف جندي معهم ٧٢ مدفعا أما جيش العثمانيين فكان يتألف من ١٢٠ ألف مقاتل معهم ٤٠٠ مدفع ثم حصل بين العثمانيين والنمساويين نحو عشر وقائع كان النصر فيها جميعها للعثمانيين ولما رأى السلطان ان العدو كف عن القتال وما عاد يخرج من المدينة كالسابق وان فصل الشتاء قد أقبل وأنه لم يجلب معه مدافع الحصار العظيمة لان مجيئه لم يكن القصد منه الاستيلاء على ويانة التي لا يمكن فتحها الا بالمدافع الضخمة قرر العودة الى استانبول للاسباب المذكورة وفي تلك الاثناء أتى ما مور من عند النمساويين للكلمة في الصلح مخبرا بان دولة النمسا تتعهد بالامتناع بعد ذلك عن المدائن في احوال المجر ثم أطلق سراح الاسرى من الجانبين وعاد السلطان الى استانبول وقد تحمل الجيش مشقة عظيمة عند الرجوع لحوال فصل الشتاء (٩٣٦ هـ)

وفي سنة ٩٣٧ هـ حضرت جلة سفراء من مملكة المجر والروسيا وقد مروا هدايا مفضرة الى السلطان وأقبل أيضا من خصون من دولة النمسا يقصدون عقد محالفه مع الدولة ولما لم يقبل منهم تقدم فردي نند وحاصر قلعة بودين ثانيا فامر السلطان بالاستعدادات الحربية ثم أرسل جيشا مريكا من ٢٠٠ ألف مقاتل (٩٣٨ هـ) تحت قيادة الصدر الاعظم لمحاربة المجر وأرسل دونما مشككة من ثمانين غرابا تحت قيادة القبودان باشا كنانكش أحمد بك الى البحر الابيض المتوسط ثم سافر السلطان (٩٣٩ هـ) حتى وصل بلاد النمسا وفتح قلاع (قبوني) و (برنجه) و (سلاوار) و (شوريل) و (قدوار) و (بايروجه) وجعلها تحت الادارة العثمانية ولما لم تتمكن جيوش النمسا والمنايين الثبات امام العساكر الاسلامية طلبت النمسا الصلح فاجيب طلبها ثم عاد السلطان بالغنا ثم الاسرى التي اكتسبها من ولاية اشتار (Styrie) واسقلاونيا امام غراج (Gratz) على طريق دراوة الى دار الخلافة

وفي خلال ذلك كان الاميرال الاسبانيولى اندريادور المشهور استولى على قلعة قورون وغيرها ببلاد مورة الآن السكان والحامية تمكنوا من صدّه وبعد عودة السلطان الى استانبول منصورا غانما عادت أيضا دونما التي تحت قيادة كنانكش أحمد بك * وعما زين الله به عصر هذا السلطان الشهير والقانوني الكبير ظهور عائلة بارباروس بسواحل الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وكان وجودها واسطة أخرى لاعلاء اسم البحرية العثمانية واشتهار شأنها حتى وصلت درجة عظيمة فلهذا رأينا من الضروري ذكر طرف من سيرة هؤلاء الابطال الذين رفعوا قدر الاسلام بما حازوه من النصرات التي خلدها لهم التاريخ فنقول

(١) استرغون هي مدينة من بلاد المجر رأس عمالة واقعة عند ملتقى نهري غران بالطونة حيث يوجد جسر من السفن وسهامها معدنية حارة وكناش ودبونه ومدارس شهيرة ويخرج منها نبيذ جيدو بعد ان أخضعها العثمانيون من مناطق بلا استردها من يدعم خناسو بيسكي ملك بولونيا وشارل أمير بلاد لورين وسكانها يبلغون ٦٠٠٠ نسمة وتسمى عند القر نيج (Gran) وقديما Strigonium ومنه اسمها عند الازراك

آل خير الدين واصلم وحوادثهم - اعلم أن أصل هذه العائلة من صحراء آجه بالاناضول
كان والدهم من عساكر السباهى انتقل الى جزيرة مدىلى بعد فتحها بحجة الجيش المحافظ واتخذها
موطناله ووزق هنالك بأربعة أولاد وهم اسحق وأوروج وخضر والياس ولما وصلوا الى سن الرشد
اشتغل أحدهم وهو اسحق بالتجارة واشتغل الثلاثة الباقون بالاسفار البحرية للكسب والغنمة
فكان خضر يتردد بالاسفار زمن السلطان بايزيد على سواحل مورة وسلاييك وكان أوروج وأخوه
الياس يترددان على السفرى الى مصر ورو الشام فصادف امره في بعض أسفاره ما سفن القرصان رودس
قبل فتحها فحصل بينهما وبين هذه السفن محاربات دمو به قتل فيها الياس وأسر أوروج فلما بلغ الامير
قورقود ابن السلطان بايزيد وهو حاكم القرمات تلك الحادثة تدخل في الامر حتى تمكن من اطلاق
أوروج الذى صمم على الاخذ بالثار من أعدائه واستأذن الامير المشار اليه فى الخروج فأمره
بسفينة ذات ستة وثلاثين مقعدا فاوكان السير بالبحر الابيض المتوسط فى الوقت المذكور محفوفا
بالاخطار لتعرض سفن القرصان للراكب التجارية ولعدم الامنية كانت السفن التجارية مضطرة
لان تكون دائما مجهزة بالآلات الحربية ثم تقابل مع أخيه خضر بالقرب من جزيرة واتفق مع
الامير محمد الحفصى سلطان تونس على أن يتنازل لهما عن قلعة حلق الوادى ليجعلاهما مركز الهما
ويكفيانه بذلك شر أعدائه ويقاسماته فى كافة الغنائم التى يستولىان عليها ولما قبل منهما ذلك
أخذوا يتجولان بسواحل أوروبا والغز ووالغنمة ولما انضم اليهما بعد ذلك أخوهما اسحق الذى
كان يشتغل بالتجارة كثرت مراكبهم وطارذ كرمهم وعلاهمهم فى البحار وقد امتلك المذكورون
بشمال أفريقيا مدن جيجلى والجزائر ونرشميل ونس وتلمسان وبجاية وصاروا حكاما عليها ثم
اتحد الاسبانيول مع التلمسانين بقصد الايقاع بالبارباروسيين المذكورين وبعد أن حاصروهم
سنة شهور بتلمسان حصارا شديدا استشهد الاخوان المذكورون فبقى أخوهم خضر بعد ذلك
صاحب المدن التى بقيت لهم من المدن المذكورة يحكمها مستقلا فآخذ هنالك بسواحل أوروبا
شهرة عظيمة وذكرا مهيبا حتى كان الافرنج يخوفون بذكراه أطفالهم واعلم أن خضرا هذا هو الذى
أتى للاستانة فى عصر السلطان سليم بحجة ابن أخيه الرئيس محي الدين مقدم طاعته ومعه كثير
من نفائس الهدايا فاقبالها السلطان بالترحاب وأعطاه سفينتين كاملتين وأنعم عليه بالملابس
الفاخرة وسيفاهم صعا وعينه برتبة بك بكير بك الجزائر فعاد يسحب مطارف السرور بما شمله من الشرف
والجور وأخذ يحارب الاسبانيولين حتى أجلاهم عن مدينة الجزائر واسترد حصونها التى أقاموا
فيها زيادة عن أربع عشرة سنة ثم تغلب على الدونما الاسبانيولية التى حضرت لاستخلاص
الجزائر واستولى على معظم سفنها وذكرا الاجانب فى توار يخفهم البحرية ان اسبانيا فى واقعة الجزائر
المذكورة أصابها من الخسائر ما لا يمكن للعلم حصره لكثرة نتم تسمر له بعد ذلك نقل ٧٠٠٠
من مسلمى الاندلس أنقذهم بذلك من الاهانة التى لحقتهم من الاسبانيولين ولما قص بارباروس
تفصيل وقائعه البحرية على السلطان سليمان القانونى نال منه جانب التعطف وتعام الالتفات
وأمره أن يعامل سفن فرانس المتجابهة مع الدولة العثمانية معاملة حسنة ويردع الاميرال أندريادوريا
الجنويزى الآخذ فى التعديت على سواحل الدولة بأمر اميراطور جرمانيا شارل الخامس فقام
بتنفيذ هذا الامر أحسن قيام وممر بمارنه على سواحل جنوة لمقابلة اندريادوريا وأحرق جنوة بالنار
ونالت منها جنوده غنائم وفى سنة ٩٤٠ (١٥٣٤ م) عاد بارباروس الى استانبول بناء على دعوة

السلطان ليتذاكر معه في أمر اندريادور بالمدكور وكان معه عشرين مراكب ملاحية بالهدايا والغنائم وبوصوله إليها قابل السلطان الذي كان عاد ذلك اليوم من حرب العجم وفتح بغداد و قد علمه جميع قبودانات السفن المرافقة له فقالوا جميعا حسن الرعاية والاكرام من السلطان الذي نصب بارباروس قبودان باشا للعمارة العثمانية لما اشتهر به من المهارة في فن الحرب البحري وما اتصف به من الاقدام والجسارة وسماه خير الدين لما اوتيه من الانتصارات والاعمال التي عادت على الاسلام بعلا المقام في البحر وبعدها غمره هو ومن معه بالصلوات جهزه بالاساطيل وأرسله الى سواحل ايطاليا واسبانيا لشن الغارة عليها فهاجم جزيرة بلاريك وريغيو وسترارو وسبرلونغو وفوندي وغيرها من الجزائر الواقعة قرب تلك السواحل فانتصر وغنم

وفي خلال السنة المذكورة توسل أهالي تونس بالسلطان سليمان القانوني ليخلصهم من مظالم مالوك بن حفص أصحاب تونس في ذلك الوقت فأصدر أمره لخير الدين باشا بالتوجه بالعمارة الى تلك الديار وكانت الحكومة الاسبانية وليمة انتهزت فرصة اشتغال السلطان بحرب العجم وأرسلت عمارتها مع جيش عظيم يبلغ عشرين ألف مقاتل (٩٤١ هـ) (١٥٣٥ م) لتعصيد المولى حسن الذي كان التجار اليها طالب بالمساعدة لرجوعه كما على بلاد تونس كما كان وقد تمكنت الحكومة الاسبانية وليمة من اعادته الى سلطنته واستولت على قلعة حلق الوادي بعد حروب طويلة وكان امبراطور اسبانيا شارل الخامس يقود تلك التجربة بنفسه ثم عادت عمارة الاسبانيول بعد ان تركت قوة من الجنود في قلعة حلق الوادي وبعدهم استولى نائب خير الدين جعفر المهتمدي على مدينة تونس بعد ان قتل حاميتها القليلة بمساعدة من كان في سجونهم من الاسراء وما علم خير الدين باشا بما حدث في تونس سار بالاساطيل الى سواحل الجزائر ثم عاد الى الاستانة (٩٤٢ هـ) (١٥٣٦ م) أما خير الدين باشا فرجع مع من بقي معه من البحرية ومن التجار اليه من أهالي تونس الى مدينة بجاية ودخل شارل الخامس المدينة وأجلس السلطان حسن على كرسي إمارته بها وأخذ جنود الاسبانيول ينهبون المدينة وقتلوا كل من تخلف بها من المسلمين ثم سافر شارل بعد ان ترك بقعة حلق الوادي ٤٠٠٠ من جنوده للمحافظة عليها وذلك بالاتفاق مع المولى حسن وكان خير الدين باشا ترك قبيل ذلك بمدينة بجاية فرقة من أساطيله مؤلفة من خمس عشرة سفينة تحت قيادة من اراده من ضباطه ولما بلغ هذا الضابط وصول شارل الخامس باساطيله وأساطيل من اتحد معه من دول أوروبا الى تونس أغرق تلك السفن بمصنهر ادوس الواقع بجوار بجاية بناء على ما أوصاه به خير الدين باشا وشيد عند مصب النهر المذكور استحكامات قوية وبعده عودة خير الدين باشا أخرج تلك السفن وضم اليها ما كان موجودا منها بمدينة الجزائر وغيرهما من سفن قرصان الجزائر وبذلك صار لديه دون ثمان مائة من ٣٢ سفينة ثم أفلح بها حتى وصل الى جزيرة مينورقة وقبض من ثغورها على خمس سفن كانت آتية من حرب تونس ثم أخرج جنوده الى تلك الجزيرة ففتحت وغنم ثم عاد ظافرا معه نحو ٥٧٠٠ من الاسرى ولما قدم خير الدين باشا الى الاستانة بعد ذلك رحب به السلطان وأكرمه وجهزه لعمارة مراكب من ٢٨٠ سفينة وجعل ما به من الجنود تحت قيادة السردار لطفى باشا وقصدت الزنيسة من ثغور البانيا (٩٤٤ هـ) ثم سافر السلطان براجيوش أخرى والتقى مع الاساطيل بالزنيسة وهناك أمر السلطان لطفى باشا بالرياسة على فرقة من الاساطيل وسيره لشن

الغارة على سواحل وثغور ايطاليا و امر أيضا خير الدين باشا بنقل أرزاق ومهمات الجيش العثماني بسفن النقل التي أتت من مصر وتوصلها الى مدينة الونية

وفي تلك السنة نقضت البنادقة العهد التي كانت بينها وبين الدولة من زمن السلطان بايزيد الثاني واتحدت مع حكومة اسبانيا وايتاليا ثم جعلت هذه الحكومات عمارتها الجسيمة وسيرتها الى جزيرة كورفو تحت قيادة الاميرال الشهير اندريادور يانم تلاقى هذه الاساطيل مع الاسطول العثماني الذي كان تحت قيادة الرئيس علي چلبى وكان ذاهبا الى الونية فملت عليه عمالات الدول المتحدة المذكورة ولما دارت رحى الحرب بين الطرفين لم ينظر العثمانيون لقتلهم بل نظر والشأنهم وعلو اسمهم وحوار على أعدائهم حملات منكورة ومع ذلك فقد تحطمت أكثر سفنهم وقتل منهم عدد عظيم وكانت خسائر المتحدين عظيمة أيضا وجرح قائدهم اندريادور يانم الذى التجأ بعد الى كورفو ولما بلغ هذا الخبر مسامع السلطان أمر في الحال باعلان الحرب على تلك الدول

وبعد ان استعدت الدولة خرج خير الدين باشا بالدونما العثمانية وكانت تؤلف من ٤٠ غرابا قاصدا مياه الارخبيل للانتقام من البنادقة الذين تعدوا على اسطول علي چلبى السابق ذكره وقد تمكن من الاستيلاء على جزائر (جوقه) و (مرتد) و (باره) و (نقشه) و (انابولى) و (كستل نوره) وكانت البنادقة وذلك بعد حروب شديدة ثم رتب ادارة تلك الجزائر ونصب عليها حكاما من أهلها وخصص على كل جزيرة قدر من المال تدفعه سنويا وعاد الى استانبول لتفضية فصل الشتاء بمينائها ولما أتى فصل الربيع خرج بمعه من السفن المستعدة وصدرت أوامر السلطان بأن يضاف الى عمارته أربعون سفينة أخرى لتقويتها وان يجعل فيها العدد الكافي من أمراء البحر المحرمين الماهرين وان يجعل بها ثلاثة آلاف من الكيقرية ومعهم كل من يك قوجه ابلى على بك وتكبه بكى وخرم بك وبك صيداعلى بك وبك علا به مصطفى بك وأقلعت الى البحر سفيدى يوم ٩ محرم سنة ١٠٤٥ هـ (١٥٣٨ م) ولما وصلت الى جزائر اشكنوز تلاقى مع سفن قرصان الاعدا وشنت شملهم بعد ان أسرت منهم ٣٨٠٠ أسيرضمتهم الى عملة السفن العثمانية وفي تلك الاثناء حضرت عمارة عثمانية أخرى من كبة من تسعين سفينة من استانبول وحضرت أيضا الاساطيل التي تحت قيادة أحد رؤساء البحر المدعو صالح بك وكانت من كبة من عشرين سفينة فصارت الدونما السلطانية بذلك قوية جدا وقبل أن يقطع خير الدين باشا من تلك الجزيرة استعرض جميع السفن التي فوجد من بينها ١٢ سفينة لا تصلح للحرب فأعادها الى الاستانة بعد ان وزع ما بها من الآلات والانفار على باقى سفن الدونما ثم خرج من اشكنوز ولما قرب من جزيرة اشكنولوز التحق باساطيله نحو السبعين من زوارق قرصان الارخبيل ثم أتى مر اسية بنغر الجزيرة المذكورة فقدمت أهلها الطاعة واستأمنوا فأمهم خير الدين باشا وضرب عليهم جزية سنوية وأقر عليهم حكامهم الذين اتخبوهم يعرفتهم ثم أتى هناك بعض السفن ألف منها اسطولا لخصوصا وعين لقيادتها صالح بك وأمره بالمحافظة على جزائر الارخبيل ثم أقلع هو بالدونما وفتح جزائر (الديرة) و (استنديل) و (ميقونوز) و (شيره) وطرد منها البنادقة وضمها الى التبعية العثمانية ثم قصد جزيرة كريدالأنه لما رأى مائة من خانية ورسمه وقدرية وعلم أن فتحها يحتاج لزم من طويل اكتفى بسن الغارة على بلادها وغنم منها ما غنم كثيرا وأرسلها

مع السفائن التي ضبطها من الاعداء الى دار الخلافة ثم مر على جزائر (كربة) و (كاشوت) و (استانباليا) وتردد بأطرافها زماناً ثم قصد أخيراً استانبول فاستعرض بها سفنه وأكمل ما بها من النقص من مهمات ورجال مما وصله من جهات الأناضول

مخاربه كورفر البحرية الشهيرة - لما أفلعت الدونما السلطانية من استانبول ووصلت الى اغريو زلحق بها اسطول صالح بك المذكور وبعدها أخذت ما يلزمها من المعاد والذخيرة وتركت ما معها من السفن الضخمة أفلعت قاصدة الجزائر السبعة وبوصلها الى متون رست بها وهناك علم خير الدين باشا أن أساطيل الدول المتحدة مجتمعاً امام بزمه ويزه تخاصروا كافواش وداعليها الحصار فأرسل صالح بك باسطوله الى تلك الجهة للاكتشاف ولما وصل الاسطول المذكور الى جزيرة زانطة شاهد فرقة بحرية من سفن الاعداء آخذة في التقدم نحو الشاطئ ولما وصل الى جزيرة باكسو وشاهد الاعداء توج العلم العثماني تر كوا بزمه ويزه ورجعوا الى جزيرة كورفو وأما خير الدين باشا فانه بعد ان أخذ ما يكفيه من المياه من بلدة جلوميج قصد كفالونيا وأرسل فيها بعض جنوده وتقدم نحو ميناء بزمه ويزه فظهر الاعداء اسطوة العثمانيين وتلاقى باسطول صالح بك ثم قوى قلعة بزمه ويزه ووضع فيها ذخائر بحرية كثيرة وزاد في حاميةها من عساكر الدونما ثم أخذ يراقب أحوال دونما الاعداء المجتمعين بخليج كورفو ومقدرا قوتها ثم عرض ماراه من ذلك على السلطان وفي غرة جمادى الاولى من سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) أقبلت دونما الاعداء تحت قيادة اندريا دور ياتجاه بزمه ويزه وألقت مراسيها امام جزيرة سنت ماور والبعيدة عن موقع دونما العثمانيين بأربعة أميال وكانت هذه الدونما الخمسة مركبة من ٥٢ سفينة للاميراطور شارل كان و ٧٠ سفينة للبنادقة وكانت تحت قيادة الاميرال كابلو و ٣٠ سفينة للباوا و ١٠ سفن لقرصان مالطة و ٨٠ سفينة لاسبانيا وبعض سفن أخرى للحكومات الأخرى البحرية أما دونما العثمانية فكانت مركبة من ١٤٠ سفينة مابين صغيرة وكبيرة فقط وبعدها تبادل خير الدين باشا مع جميع رؤساء سفنه وفرقه طويلا وكان من أشهرهم مراد ريس وطورغودو كوزلجه وصالح ريس أجمعوا على قتال الاعداء بلا توان ولما أقبل الليل قصد العدو أن يخرج الى البرقسيان العساكر ولذلك أراد إشغال العثمانيين عن التصدي له بمحاولة احرأق أساطيلهم أو بعضها الا أنه لتيقظ العثمانيين لم يتمكن الاعداء من نوال مقصدهم ثم بعد يومين أرسل العدو جملة من سفنه من نوع الغالي فأتت ووقفت امام مضيق بزمه ويزه ناشرة قلوبها وأخذت في اطلاق المدافع على دونما العثمانية فغضب العثمانيون من هذه التعديت وفارت دماؤهم وأمر خير الدين باشا قائدهم بدق طبول الحرب ثم خرج بالدونما خارج المياه بعد ان رفعت أعلامها واصطفت على بعد ثمانية أميال منها على هيئة حربية ثم أمر خير الدين باشا السفن التي صارت على مرمى نيران المدافع أن تهجم على العدو وبعدها تطلق عليه الثلاثة مدافع الموجودة في مقدم كل منها وكانت نيران الاعداء شديدة ثم تمكنت فرقة من السفن الاربعين التي كان عيها خير الدين باشا للهجوم ودخلت وسط دونما العدو وقبل الغروب بعد ان تمكنت بقوة مدافعها من تفريق سفنه الى قسمين ثم بعد قليل تشتت السفن التي قدرت على التحرك من سفن الاعداء شذرا منذر بمحالة سيئة وكان دخول الليل فرصة عظيمة للعدو حيث تمكن بعض سفنه من الهرب الا أن العثمانيين اقتفوا أثرهم وفي اليوم

التالى صباحا دارت الدونما العثمانية خلف جزيرة آيا ماورو وتقابلت مع سفن العدو ثانية بينما
 ايجير فهاجتها ولمالم يتمكن العدو من الفرار لسكون الريح صصف سفنه على هيئة حربية وانتشب
 القتال باطلاق المدافع وكانت السفائن الجسيمة الحربية التي من نوع الغالون هي والتي من نوع القاراك
 فى المقدمة أما باقى السفائن الصغيرة فكانت فى الخلف ترصد هناك حتى متى وجدت فرصة هجمت
 على الجهة المراد مهاجتها كل ذلك بقتضى فن الحرب البحرى فى العصر المذكور وبهذه التشكيلات
 تمكن الاميرال اندريادور يامن مقاومة العثمانيين زمن اطويلا وانكون سرعة سفن الغالون والقاراك
 بطيئة حركتها كانت مقدوفات مدافعها الضخمة لا تذهب الى مسافة طويلة وبذلك كانت أقل
 سرعة وحركة من أغربة العثمانيين التي كانت مقدوفات مدافعهم ترمى الى مسافات أبعد بكثير من
 مدافع العدو ولهذا استولت الحيرة على الاميرال المذكور ولم يدري ما يصنع فانفق عند ذلك الاميرال
 اندريادور يامن أميرال البنادق وصنع حركة حربية قدما بها سفن الغالى الى الامام لتجوس سفنهم
 الجسيمة المذكورة ولما شاهد خير الدين باشا هذه الحركة قابلها بمفرقة من أساطيله فخافا سوء العاقبة
 والستزما الرجوع خلف غلايينهم وأغربتهم وصمم فى هذه الحالة اندريادور يامن على الهجوم على
 العثمانيين من الخلف ليحصرهم بين الغلايين والأغربة وسفنه الخفيفة الأناخير الدين لم يترك له وقتا
 لانفاذ هذا التدبير حيث انقض عليه سرىعا بأساطيل الجناحين ثم هجم عليه حتى اضطره للقهرى
 وهجم أيضا على السفن الخفيفة المحمية خلف الغالونات فبحيرا الاميرال اندريادور يامن هذه الحركة التي
 لم تكن تخطر بباله أصلا ولذلك التزم القرار من ميدان الحرب بما لديه من الأغربة السريعة تاركا كافة
 السفن الجسيمة فاستولى العثمانيون على أغلبها وغرق الكثير منها وأحرق خير الدين باشا ما لا يصلح
 من بينها

ولما كانت التعميمات والتشكيلات التي أجزاها خير الدين باشا فى هذه الحروب هي السبب
 الاكبر لانتصار الدونما العثمانية على دونما الدول المتفقة مع انها كانت أقل عددا وسفنها أصغر
 جرمان سفن الاعداء بكثير كما سبق امتدح المؤرخون مهارة خير الدين باشا وأضافوا هذا الانتصار
 الى انتصاراته العديدة التي استحق عليها اعظيم المدح ووافر الثناء وقد دعت العثمانيون هذه الواقعة
 البحرية بواقعة كورفوز دعاها الاورور وپاويون بواقعة بره ويزه

ولما كانت مناورة خير الدين هذه كدرس مفيد فى علم الحرب البحرى استعملها أميرالات الدولة
 الانكليزية فى محارباتهم البحرية كالاميرال رودنى والاميرال جرفس سنت وينسنت والاميرال
 نيلسون وغيرهم فكانت كافة لهم بالانتصارات العديدة والظفر فى كل حروبهم البحرية وعقب هذا
 الانتصار أنعم السلطان سليمان على خير الدين باشا بلقب تغازى

ولما ردت باقى الاساطيل بالخسبة أراد قوادها أن لا يرجعوا الى بلادهم الا باكتساب نصر ولو
 جزئى يحط عنهم بعض مالمصق بهم من ادران العار فخرجوا على قلعة نوه الواقعة فى ساحل ولاية هر سك
 وحاصروها برا وبحرا ولم يتمكن أمير تلك الولاية المسمى بالى بك من تخليصها من الحصار فسلمت اليهم
 عنوة وقتلوا جميع حاميتها من المسلمين ولما بلغ السلطان خبر ذلك أصدر الاوامر بالتجريد عليهم لرددها
 من يدهم فأمر ع خسر وباشا والى الروملى بجيشه وحاصرها فى فصل الربيع ولما وصلت الدونما مع

القبوودان باشا بجرا تمكنتوا من استخلاصها (٥٩٤٦ هـ) ثم فتح قلعة نيرة من يد البنادقة واهتم جنرال البنادقة الذي بقلعة زاره من ردها فعاد خائبا

وفي سنة ٩٤٨ هـ (١٥٤١ م) اتفقت حكومتا ايطاليا واسبانيا بايعاز شارل الخامس وارسلتادونتما كبة من مائة سفينة حربية وثمان مائة سفينة ثقيلة وجيشا برابيا كبيرا لفتح بلاد الجزائر في شمال أفريقيا فلقى الجيش المذكور مقاومة عظيمة من باي الجزائر المدعو خادم حسن آغا وثار على العمارة المذكورة زوبعة عظيمة تلاعبت أمواجهابرا كها حتى أغرقت منها ثيفا و ١٥٠ سفينة وألقت بعضها على البر كما تقدم بأوفي بيان في تاريخ الجزائر ولما وصل خبر قدوم خير الدين باشا بالدونما العثمانية الى الجزائر رهلت قلوب العدو وخوفوا لم يسعه الا الهرب عبرا كبة الباقية تاركين ميدان القتال كثيرا من مهماته وذخائره ولما كانت انتصارات العثمانيين أضرت كثيرا بالبنادقة وحطت من شأنهم وعطلت متاجرهم أرسلوا الى الاستانة سفراء لطلب الصلح تحت شروط منها أن يتركوا جميع الجزائر التي استولت عليها الدولة وينكسروا نابولي والبلاط التي لهم في مورة ودماسيا وان يدفعوا ثلثمائة ألف بندي فقبل السلطان منهم ذلك وأمضت الشروط المذكورة

وقبل وفاة جان زابولي ملك المجر الذي كان تحت حماية الدولة العثمانية المتزوج بالاميرة ايرابيله بنت ملك بولونيا كان جعل ولده الذي له منها المسدعوا استيفان ولي عهده الآن فردينند ملك بوهيميا طلب من الملكة ايرابيله تسليم المملكة اليه حسب المعاهدة التي اتفق عليها مع زوجها قبل وفاته وعرض على ايرابيله اقليم ترانسلفانيا وهو الاردل تحكيمه مع ابنها المذكور فلم تقبل وعدت ذلك منه تعديا على حقها فأرسل فردينند عند ذلك جيشا لمحاربة المجر ولما رأت ايرابيله أنها غير قادرة على مقاومتها أرسلت رسولا الى السلطان سليمان ومعهم جزية سنتين تلتئم منه المساعدة والامداد فأرسل جيشا تحت قيادة الوزير صقولي محمد باشا وخسر وباشا بكركر بك الروملي ثم أرسل الاساطيل العثمانية تحت قيادة خير الدين باشا للمحافظة على جزائر بحر سفيدي ثم خرج السلطان بنفسه الى بلغراد ليدرك جيشه عند اللزوم وليكون أقرب الى ميدان القتال (٥٩٤٨ هـ) ولما اقترب السلطان من مدينة بودين أرسل له الوزير يخبره بنظره على الاعداء نصر اميننا ثم تقدم السلطان فرحاحتي وصل بودين ولما كان حفظ بلاد المجر من الامور المهمة اللازمة للدولة وكان استيفان غير كفء للجلبوس على تحتها الصغر سنه أقطع السلطان استيفان والدة اقليمان من بلاد الاردل وهو الاقليم الذي كان لابييه من قبل حتى يبلغ رشده ومتى بلغه أعيدت له مملكته وضممت مدينة بودين وما يتبعها الى الممالك العثمانية وصارت تابعة للدولة رأسا وعين لها ما يلزم من الموظفين كالوالي والقاضي والدفتر داروقائد الجنود وما أشبهه وكان ضم مدينة بودين الى الممالك العثمانية اشارة الى دخول جميع بلاد المجر في تصرف العثمانيين (٥٩٤٨ هـ) وقد كان استيلاء السلطان سليمان على مدينة بودين بهذه السهولة سببا ليقظ الملك فردينند وتأثره فأخذ يرسل الثوار والخواارج الى مدينة بيشته الكائنة امام مدينة بودين المذكورة ثم أقبلت جنود أوستوريا وها حاصروها حصارا شديدا ولما علم السلطان بذلك أمر بالاستعدادات براوجرا وأرسل خير الدين باشا بالاساطيل على شارل كان أخى فردينند ومحاربيه وخرج هو بقوة كافية يقصد بلاد المجر (٥٩٥٠ هـ) وقد كان

في هذه الحملة العسكرة العثمانية على غاية من النظام والترتيب والتدريب بحيث كان الموكب السلطاني يفوق كل ما رآه الراؤن لذلك الوقت ولما اقترب السلطان من حدود بلاد المجر أتاه القصاد يبشرونه بهزيمة العدو الذي كان يحاصر مدينة بشته بعد ان تكبد خسائر جمة ثم ان السلطان فرق جيشه طوائف طوائف وأرسله لفتح بلاد المجر ففتحوا على التوالي مدن والپوا Valpo وشا كلوس Siklos واسترغون واستوني بلغراد Stuhlveissenbourg وشغرادونوي غرادوغيرها ونصب على كل منها محافظا وقاضيا وجنودا وأصلح ما تخرب منها من أسوارها ثم نصب على مدينة بودين دقتدارا من مهرة السياسيين يدعى خليل أفندي اجتهد كثيرا في ضبط المملكة وحسن ادارتها مما خلده ذكر احسنوا بعدها عاد الى الاستانة طافرا منصورا

وفي سنة ٩٥٠ هـ (١٥٤٣ م) لما تعدى شارل كان على فرنسيس الاول ملك فرنسا طلب هذا نجدة من السلطنة العثمانية فأرسل له السلطان دونما مشكلة من مائة سفينة حربية تحت قيادة خير الدين باشا للمساعدة العمارة الفرنسية التي كانت تحت قيادة دوق انغيان وكانت حربية من أربعين سفينة حربية في محاربات نيس وسواحل اسبانيا وفتح للفرنساوين جملة حصون وسلمتها لهم ولما حل زمن الشتاء عادت العمارتان الفرنسية والعثمانية الى ميناطولون لتمضية فصل الشتاء حسب العادة وفي أثناء اقامتهما بتلك المدينة كان خير الدين باشا كلبا زار أوقابل ضباط البحرية لاهمهم على إهمالهم أمر سفنهم وكان الاميرال الفرنسي (دوق انغيان) يسمع هذه الاعتراضات باذن صاغية من هذا البطل الشهير ويحملها حملها من الاعتبار وقد أرسدالفرنساوين بذلك الى جملة تحسينات بحرية وفي مدة اقامة خير الدين باشا في ميناطولون كان لشدة احتراسه وتيقظه بأمر جميع سفنه بأن تكون على تمام الاهبة والاستعداد ليللا ونهارا كأنه في بلد معادية له فتوجهت الحكومة الفرنسية بحذوهم من سلوكه هذا وأرادت التخلص منه بالتي هي أحسن سيما وان الاهالي حنقوا بحدوهم واحكومتهم بسوء الاعتقاد لاستعانتها بالمسلمين فأعطته ٨٠٠٠٠ قران (القران الواحد = ٣٥) مصاريف سفريه وطلبت منه أن يعود الى بلاده شاكرة حسن مسعاه على مساعدته اياها ثم خرج بالدونما عائد الى الاستانة

وقال جونكيير (Jonquière) في تاريخه ما ملخصه انه لما فترت العلاقات بين شارل كان والسلطان سليمان بسبب مهاجمة شارل كان لمدينة الجزائر وارتداده خائب عنها (١٥٤١ م) أرسل فرنساوا الاول ملك فرنسا الموسيورانسون (Rinçon) ليطلب من السلطان المساعدة على محاربة خصمه شارل كان ولما قتله عامل شارل كان في مقاطعة ميلان وبلغ خبر ذلك ملك فرنسا أرسل بدله القبودان بولان (Polain) فقابل السلطان وعرض عليه طلب المساعدة بالدونما فتردد السلطان أولا لعدم ثبات فرنساوا الاول في عزمه وأخيرا قبل بناء على الحاج بولان وفي سنة ١٥٤٣ سافر السلطان بالاوردي الى بلاد المجر لمحاربة جيوش شارل كان وبعث الدونما تحت قيادة خير الدين بارباروس مع السفير الى مرسيليا فعزى في طريقه جملة بلاد من ايطاليا وصقلية ولما وصل قبل من الامة الفرنسية بالترحاب وبعد ان انضم اليه أسطول فرنسا قصدوا مدينة نيس وحاصروها برا وبحرا وفتحوها عنوة ثم عاد خير الدين باشا لتمضية فصل الشتاء في فرضة تولون الفرنسية وصرف له ملك فرنسا مبلغا وافرا من المال للصرف منه ولما خاف فرنساوا من هياج المسيحيين عليه لاستعانتهم بالمسلمين أذن للدونما العثمانية بالعودة

وأبرم مع شارل كان صلح كرسبي فعاد خير الدين الى القسطنطينية (١٥٤٤ م) وقال صاحب كتاب مشاهير البحارة الفرنسيين ليون غيرين L. Guérin مالمخضه انه لما احتاج فرانسوا الاول لطلب مساعدة السلطان على عدوه شارل كان أرسل لذلك الاميرال بولان فأقطع من بحر الادرياتيك (١٥٤١ م) ورسا باساطيله على مدينة سيبينيكوم من بلاد الماسيا (Sebenico) ثم تقابل مع السلطان حين مروره ببلاد بوسنة وعرض عليه مائة سفينة وسبعمائة رجل وهداياها وكانت عبارة عن أوام مختلفة من الفضة منقوشة نقشا جميلا ترن ستمائة رطل ووزع أيضا على خواص السلطان ووزرائه خمسمائة بيلة من الحرير والصوف والارجوان وبعد ان تكلم عن الاهانة التي لحقت بالسلطنة العثمانية وبفرانسوا الاول بسبب قتل رانسون التمس من السلطان أن يرسل جيشا بحرا وبعامة مساعدة سيده ويستعمل ماله من النفوذ ليحمل جمهورية البنادقة على التحالف مع ملك فرانسوا ضد شارل كان فوعده السلطان بالمساعدة في البر والبحر وبعد أن وصل السلطان الى القسطنطينية وهو بعجسته جمع أرباب الدولة واستشارهم فأشاروا باجابة التمس فرانسوا واذن لبولان بالعودة الى سيده وأنعم عليه قبيل مبارحته دار الخلافة بحوادين عريين وسيف مرصع ولما وصل كافأه الملك على خدمته التي حصل له منها السرور وبعد ان عين فرانسوا المكان الذي يجتمع فيه جنوده مع جنود السلطان للشروع في الحرب أمر بولان بالعودة سرا الى القسطنطينية (١٥٤٢ م) فمر على مدينة البنادقة ليحتشد في حل الجمهورية على الانضمام الى دولته ولم يكن مندوب السلطان قد وصل اليها فتباحث مع حكومة الجمهورية وخطب على أعضاء مجلس السناتو خطبة مؤثرة أظهر فيها اوجوه المسئلة والفوائد التي تعود على الجمهورية اذا اشركت في هذا التحالف ثم وصل سفير السلطان وتداول في الامر فلم تقبل البنادقة الاشراف انما صرحت بانها تلتزم الحيادة التامة أثناء الحرب ثم لما وصل بولان الى القسطنطينية وجد الافكار تغيرت ومالت عن مساعدة فرانسوا ولكنه اجتهد بمهارته حتى جعل السلطان وهو في ادرنة يميل لمساعدة فرانسوا وكتب يبشر سيده بهذا الخبر المفرح وسارهوا الى استانبول ليرجوا لوزراءه بالاهتمام وكان خير الدين بارباروس الشهير يشغل ليلا ونهارا في تجهيز الاساطيل وقد كان الملك فرانسوا لعدم وجود من يحسن فن البحرية في بلاده يوظف لقيادة اساطيله عمالامن الاجانب وقد تعلم بولان علم البحرية في هذه السياحة لانه رأى في الاساطيل العثمانية استعدادا ومهارة واتقاناً لم يرها من قبل وقد تم له ذلك حتى صار من أشهر قواد البحر في زمنه ثم سافر صحبة الجيش البحري الذي خرج تحت قيادة خير الدين باشا في ٢٨ مايسنة ١٥٤٣ ولما مرت العمارة على جزيرة نغريونت انضم اليها عدة شواني حتى بلغت مائة وخمسين سفينة بين شانية وغيرها ثم قصدت مسيني وضربت في طريقها قلعة تريو التي كانت بيد الاسبانول وقتحتها وغتم الجنود منها غنائم وافرة وحطفت ايطاليا من العمارة العثمانية وتوسط البابا في الصلح فلم يفلح ثم عرجت العمارة على مصب نهر التبروناف سكان رومة ولكن بولان طمن البابا ثم قصدت تسكانه وليفورنه بدون ان تتعرض لسكانها ثم اتجهت الى بلاد بروفسا لانخاضها بالمشاركة مع جيش فرانسوا وفي شهر يوليو سنة ١٥٤٣ وصلت الى مرسيليا فعم الفرح السكان لبحي عمارة عظيمة اسلامية لتشارك أمة نصرانية في عملها ثم توجه خير الدين بالدونما المحاصرة مدينة نيس وأوصى فرانسوا بولان أن يراقب أعمال عساكر المسلمين حتى لا تنضرا أعمالهم باهمه وشهرته من حيث كونه الابن

البرى للكنيسة الكاثوليكية ثم انضم لجيش العثمانيين أربعون سفينة فرنسوية تحت قيادة الكونت انغيان D'Enghien أمير بيت بوربون وأعلم ملك فرنسا الجنويزيين بأن لا يخافوا من العثمانيين وترجى أيضا خير الدين باشا بأن يطلق من بين بحارته كل من عرفه أهل المدينة وفي أثناء حصار نيس فرغت ذخيرة وقنابل الفرنسيين فطلبوا من القائد العثماني مقدارا بالثمن فوجههم كثيرا ولا مهم وهددهم ولما علم الفرنسيون بمجيء مرابك اسبانيا تحت قيادة اندريادور ياخاقوا وفشل ريجهم وتركوا الحصار وهجم العثمانيون على نيس وفتحوها ونهبوها ثم أفلح خير الدين الى شواطئ بلاد انتيب التمضية فصل الشتاء وفي خلالها كانت أساطيل فرنسا ذهبت لتستعد للملاقاة أندريادور يا فبلغها أن زوبعة شديدة القت سفنه على الشاطئ ولما وصل خير الدين الى طولون أرسل فرقة مؤلفة من عشرين سفينة مع بعض سفن فرنساوية الى نغرفيلا فرانكا (Villa-Franca) لتستولى على انقاض السفن الاسبانية التي انكسرت هناك وأرسل فرقة أخرى مؤلفة من ٢٥ سفينة الى سواحل اسبانيا فأغارت على مدينة روزاس Rosas ونهبها وكان فرانسوا بعدان بذل ما بذل من المساعي لئلا يساعد العثمانيين بتكته سريره ويوجه ضميره لاستعانتهم على النصرانية بمن ليس من أبنائهم فقصمهم على إرجاع العمارة العثمانية الى القسطنطينية وقد كان خير الدين باشا ستم أيضا وحنقه يزداد بسبب الخطة التي اضطره الفرنسيون الى اتباعها فكان يسأل هل أن يجيئه الى فرنسا ولكي يقف بسفنه ورجاله بلا عمل سيما وان بولان كان وعد السلطان عن لسان سيده أن العمارة تعود في سنة ١٥٤٤ ثم عادت العمارة في أوائل مايو من السنة المذكورة ورافقها اسطول فرنسوي مشكل من خمس شوان تحت قيادة القبودان بولان ٥ وكانت هذه المحاربة آخر محاربات خير الدين حيث مات بعدها عقب مرض لم ينفع فيه علاج سنة ٩٥٣ هـ (١٥٤٦ م) وقبره اللاان قرب من ساحل بشكطاش وقد أبقى هذا الملاح الجسور ذكرا حسنا في التاريخ استحق به أن تكون مقبرته تذكارا يحمد ويفخر به في تاريخ البحرية العثمانية وكل ملاح فيها (١) وتعين لرياسة البحرية بعده القبودان محمد باشا الطويل ثم خلفه القبودان سنان باشا (٩٥٧) الكرواسي الاصل وهو أخو رستم باشا الذي تولى الصدارة بغاية الصداقة لدى السلطان سليمان مدة ١٥ سنة وبمساعي هذا القبودان فتحت طرابلس الغرب من يد الاسبانول وكانت وفاته سنة ٩٦١ هـ ودفن بمدينة اسكدار وخلفه بياله باشا وقد تخرج على يد خير الدين باشا عدة من الرؤساء أشهرهم طورغودجه (٢)

(١) بارباروس هومن أعظم وأمهرة قواد البحر في العالم وأصله من القرصان كما سبق ذكره في وقائمه البحرية ولقد كان على معرفة تامة بسلوك البحار وعلم الحرب البحرية وقد كان يعرف من اللغات الاجنبية الرومية والتليانية والفرنساوية وقد أطلق عليه مؤرخو القرنينج لقب بارباروس الثاني ومعناه ذوالالحية الشقراء وكان يطلقون هذا اللقب على أخيه أروج الذي قتل بثلثان وهو عندهم بارباروس الاول وقد أدرج بعضهم موته بقوله (مات رئيس البحر

(٩٥٣)

(٢) طورغودجه أو طورغود هومن مشاهير قواد البحر لدى العثمانيين أصله من الاناضول وخدم في أول أمره مع خير الدين باشا بارباروس وحضر كثيرا من الوقائع البحرية وهددا كثيرا سواحل اسبانيا وقلية وايظاليا ويعرف عند القرينج باسم دراغوت Dragut وقد وقع أسير في بعض الوقائع التي حصلت بين أندريادور يا وخير الدين باشا ثم استخلصه خير الدين باشا عند ما أغار على مدينة جنوة (١٥٥٠ م) ولما وصل الى الاستانة صحبه خير الدين باشا

وصالح رئيس (٣) وباليه (٤) المذكور وسيد علي رئيس (٥) وأولو ج علي (٦) وأمثالهم من الذين أبغوا العثمانيين حسن الظن بأن يكون لاساطيلهم في البحار شأن يذكر وخبر يؤثر وقد حقت الأيام ذلك فيما بعد كما ستقف عليه إن شاء الله

مخاربات العثمانيين بحجر المخذ - أعلم أنه بينما كانت الدولة العثمانية مشغولة بالمخاربات البحرية والبرية المستمرة مع البنادقة وإسبانيا والدول المتفقة معها في البحر الأبيض المتوسط كان البرتغاليون يمدون قوتهم بسواحل الهند ذاهبين اليها من طريق رأس عشم الخير بجنوبي أفريقيا وكانوا استولوا على كثير من البلاد الكائنة على السواحل المذكورة وصاروا يتقلون منها بسفنهم تجارة هذه البلاد إلى بلادهم وبلاد أوروبا من طريق المذكور وبعدها كانت التجارة الهندية والصينية تنقل من هاته البلاد إلى نجر السويس ومنه إلى الاسكندرية ومنها إلى أوروبا في البحر المتوسط الأبيض بواسطة السفن التجارية العثمانية وغيرها من سفن الدول المتحابة كانت أعمال البرتغاليين التي ذكرناها سببا لتعطيل المنافع والتجارة العثمانية فأصدر السلطان الاوامر المشددة إلى وزيره الذي اشتهر وقتئذ بالشجاعة وحسن التدبير وهو الخادم سليمان باشا وإلى مصر بتجهيز الاساطيل اللازمة في البحر الأحمر لإرسال الحملة التي صمم السلطان على إرسالها لمحاربة البرتغال بجهات الهند وتأمين طرق التجارة وأرسل لذلك من الاساتذة سليمان رئيس وكن أشهر رجال

الاعتقالات السلطان سليمان القانوني فعينه قبودا نابساو محل بلاد البربر فأقنع من وقته إلى تلك الجهات وتمكن من جمع كثير من سفنها - كل منها استولوا قويا بأغربه على سواحل إيطاليا وإسبانيا ليتقدم منها على ما أصابه من الناب واليهوان أثناء أسره وقد تمكن من هدم كثير من القلاع والمدن حتى خافته تلك الأرجاء وارتعدت فرائص سكانها من سطوته ثم انتفى راجعا إلى طرابلس الغرب (٩٥٩ هـ) فانتزعها من يد الأسبانيول بعد أن أوقع بهم مرارا ومما سهل له هذا الاستيلاء مساعده الدولتين العثمانية التي كانت تحت قيادة سنان باشا كلبق بتاريخ طرابلس ثم التقت إلى الأعمال البحرية فحاز نغرا يعادل فخر باروس بانتصاره العديدة على أندريادور ياومات هذا القبودان في محاربة مالطة (١٥٦٦ م)

(٣) صالح رئيس هو من قواد السفن الذين كانت لهم اليد البيضاء في الأعمال البحرية العثمانية
(٤) بياله باشا وهو من أشهر قبودات البحر أصحاب الذكرا الحسن مجرى الاصل خرج من بلاد وهو حديث السن بسبب واقعة حربية حصلت بجوار مدينة مهاج (١٥٦٦ م) ثم أسلم ونشأ في الجيش العثماني بأمر السلطان سليمان الثاني ولما مات سنان باشا ولده السلطان امارة ضيق غلبولي وقيادة الاساطيل العثمانية (١٥٥٥ م) وبعد ذلك بثلاث سنوات أنعم عليه بولاية جزائر الغرب علاوة على مسنده ثم ساعد الاساطيل الفرنسية في الاستيلاء على مسيني ورومن الاسبانيول وغزا جزائر البليار فخر قبلاعهما وفي سنة ٩٦٧ هـ خرج بالاساطيل العثمانية إلى البحر الأبيض المتوسط وافتتح بلاد مور وأمر قبودان قلعة نابولي وغير ذلك ولما عاد أكرمه السلطان وكافأه على ذلك بأن زوجه بمفيدة ابنة الامير سليم خان ثم فتح جزيرتساقر (٩٧٠ هـ) فقال شهرة عظيمة وبقي في هذا المنصب مدة ١٤ سنة ثم ترقى إلى رتبة الصدارة العظمى وكانت وفاته سنة ٩٧٨ هـ ودفن في الجامع المعروف باسمه في جهة قاسم باشا وهو الذي استولى من الاسبانيول على جزيرتسار بعد محاصرتها ثلاثة اشهر ثم فتح قلعة سانت المايجزر بمالطة

(٥) السبيده قبودان هو من أعظم قواد البحر وأعلمهم وسيأتي ذكره وأعماله في مخاربات الدولة مع البرتغال في بحر الهند

(٦) أولو ج علي وهو من أهالي الانضول ومن الذين تفرغوا على فن سلوك البحر وحر به مع خير الدين باشا الشهير وله شهرة عظيمة بجهات جزائر الغرب ولما انتصر نصرته الآتي ذكرها من السلطان سليم الثاني بعامه بنته كلبانت ورجع إلى الاسكندرية رجب به السلطان ومما قلع على باشا وسيأتي ذكره وأعماله في محاربا

عصره معرفة بالملاحة والبحرية لمساعدة سليمان باشا في هذه الأمورية فتمكن الاثنان بما بذلاه من النشاط من تجهيز وتشيد جلة سفائن في فرضة السويس (٩٤٤ هـ - ١٥٣٧ م) وفي خلال ذلك قام هما بون شاه ملك الهند بقصد محمولك الطوائف الذين بأطراف بلاده ولما هددهم بادر شاه ملك كجرات سنة ٩٤٣ هـ أرسل هـ ذامن طرفه سفيرا الى السلطان سليمان يطلب تجديده فكانت هـ ذمة المسئلة وسيلة أخرى لتنفيذ ما صمم عليه السلطان من ارسال الجيوش والاساطيل الى بلاد الهند ولما تمت التجهيزات أقطع سليمان باشا من السويس بمبارة مؤلفة من ثمانين سفينة تحت قيادة سليمان رئيس بها عشر بن ألف جندي ولما وصلت هذه السفن الى عدن سنة ٩٤٥ هـ استدعى سليمان باشا أميرها المدعو عامر بن داود فقبض عليه ووصله في سارية من سوارى السفن بعد ان كان وعده بالامان وبذلك استولى على امارة عدن بلا حرب وأبقى فيها بعض الجنود ونصب عليها بهرام بك أحد أمراء الجنود العثمانية محافظا ثم أقطع منها قاصدا سواحل الهند فوصلها بعد أيام ولما أرسى على ساحل كجرات بلغه أن بهادر شاه الذي كان طلب مساعدة الدولة تصالح مع خصمه بعد ان تحارب امرارا وكانت الاساطيل البرتغالية تسلطت على تغور كجرات واستولت على فرضة ديو وماجاورهما من البلاد ومات في الحرب بهادر شاه وخلفه الملك محمود في مملكته وكان هادن البرتغاليين ثم ان سليمان باشا الخادم أخرج الجيوش الى البر بعد ان اتحد مع الملك محمود وأخذ يقاتل البرتغاليين حتى استولى منهم على قلعي كوله وكات وقتل منهم أكثر من ألف محارب ثم شرع يحاصر فرضة ديو برا وبحرا وتمكن بعد زمن من الاستيلاء على قلاعها الامامية الا أن مقاومة محافظها البرتغالي المسدع وانطوان وما أظهره من الجسارة والاقدام في المدافعة عن القلاع الداخلية أعلمه أن الاستيلاء عليها لا يمكن فواله بسهولة سيما وأنه لم رأى أن ذخيرة العساكر قاربت الفراغ طلب من الملك محمود إمداده بالذخيرة غير ان الملك محمود كان يخاف أن يصيبه منه ما أصاب أمير عدن فلم يلتفت اليه بل صالح البرتغاليين فالتزم سليمان باشا عند ذلك برفع الحصار عن الفرضة المذكورة والعودة الى السويس وقد لام صاحب تاريخ الخبر العجيب سليمان باشا الخادم على فعلته بأمر عدن لأنها كانت سببا في ضياع الفوائد التي اكتسبها في سفرته هذه بالبلاد الهندية وبعده عودة الاساطيل والجيوش الى عدن حضر أمير بلاد الشحر وقدم خضوعه للسلطنة فقبل الباشا منه ذلك وأمنه ودخلت تلك الجهات ضمن الاملاك العثمانية ثم مر على سواحل اليمن وأخضعها وولى عليها مصطفي بك ابن بيقل محمد باشا

ولما بلغ السلطان أن فرد ينتم ملك النمسا تعدى على بلاده بشن الغارة سنة ٩٥٨ هـ بناء على تحريضات رجاله لما أصابهم من مكيدة أم اصطغان ملك الاردل أصدر أمره الى قائد جيوش الروم الى صوقالي محمد باشا بالتجهيز والاعارة على بلاد النمسا فقام بالامر وعبر بجيشه البالغ ٨٠ ألف جندي نهر الطونة وافتتح عدة مدن وقلاع منها بيجي (١) وچناد (٢)

- (١) بيجي مدينة من بلاد المجر قاعدة عمالة روتال على نهر بيغاسكانها ثمانون ألف نفس ومن حاصلاتها الحرير وتسمى عند الفرنج (Becsé, Gross - Beeskerek)
- (٢) وچناد مدينة من بلاد المجر واقعة جنوبي العمالة المضافة اليها على الشاطئ الايمن من نهر ماروس سكانها نحو ٥٠٠٠ نسمة وتسمى لدى الفرنج (Csanad)

وليموه (٣) وطمشوار (٤) ولما رأى ملك النمسا ذلك اتحد مع لويس ملك بولونيا وأعد جيوشا وخرجا بالسرعة حتى تلاقيهم الوزير محمد باشا وتمدك من صدده واسترد بعض القلاع التي فتحها العثمانيون عند ذلك عين السلطان الوزير الثاني قره أحمد باشا بجيش عظيم ولقبه بسردار المجر (٩٥٩ هـ) وكان معه صوقلي محمد باشا أيضا وقد تمكن أحمد باشا من كسر جيوش المتفقين واسترده منهم ما كانوا احتلوه من القلاع وفتح بسبرم Wesprim وصولتق Solnock ثم عاد منصورا ومعه من الغنائم والاسرى شئ كثيرا لانه لم يتمكن من فتح مدينته اكرى (٥)

التجريدة الثانية البحرية - سحر الهند - قد علمت مما سبق أن الخادم سليمان باشا استولى على مدينة عدن أثناء زها به بالجملة الاولى ولما كان هذا الاستيلاء لم يحصل بوجهه الشرعي لقتل أميرها المدعو عامر بن داود ظلما وعسوانا نارت الالهالي خصوصا آثاره على الحاكم الذي تعين لمحافظةها واتفقوا مع البرتغاليين وساعدوهم على تسليم المدينة لهم ولما علمت الدولة بذلك سيما وان نجاحها في التجارة الاولى لم يأت بالفائدة المطلوبة أرسلت في سنة ٩٥٩ هـ (١٥٥١ م) عمارة أخرى من البحر الأحمر تحت قيادة المدعو يري رئيس مؤلفة من ثلاثين سفينة بين أغربة وشواني وغلايين وقد تمكن هذا القبولان من استرداد عدن والاستيلاء بعد ذلك على مدينة مسقط وجزيرة هرمز ودرناخت الواقعة عند مدخل الخليج الفارسي ليجعلها نقطتين يلتجأ اليهما عند الحاجة ثم أقبل على مدينة البصرة وهناك بلغه أن اسطول البرتغال آت محاربتة ولما كانت أساطيله يتقص منها بعض الأدوات والآلات تركها بالبصرة وعاد بغرايين الى مصر ثم عين السلطان مراد بك قبودانا على اسطول مصر فقصده البصرة بعمارة عظيمة وبعده ان ترلثها نحو سبعين سفينة خرج باسطول مؤلف من ١٧ سفينة وبوصوله الى مضيق هرمز تقابل مع البرتغاليين ولما انتشب القتال بينهما انتصر البرتغاليون وقتل من أساطيل العثمانيين كثير من قوادها عند ذلك اضطر مراد بك الى الرجوع الى مدينة البصرة ثم عين السلطان البحري الشهير والفلكي الخبير سيد علي رئيس قائد الاساطيل المصرية (٩٦٠ هـ) وكان لهذا الرئيس اطلاع تام على بحار الهند وخواصها وله في ذلك تأليف معتبر منها كإبته الذي سماه بالمحيط وصف فيه بحار الهند وصفامدققا وقد تدرن على الغزوات البحرية مع خير الدين باشا الشهير ولما وصل الى البصرة ورتب أساطيله ووضع فيها ما يلزم من القواد والبحارة

(٣) ليوم مدينة من بلاد المجر بقاطعه تقيس على الشاطئ الايسر من نهر ماروس سكانها نحو سبعة آلاف نسمة وبها

معامل لآنية الفخارية ومن حاصلاتها الالبنة والتمر وغيرها وها قلعة قديمة وتسمى عند الفرنج (Lippa)

(٤) طمشوار مدينة حصينة من بلاد المجر رأس عمالة مضافة اليها واقعة على نهري بغاوتيس وسسط غياض

بالجنوب الشرقي من قاعدة المجر سكانها نحو ٣٤٠٠٠ نسمة تصفهم من الالمان وبها كنائس ومدارس وودور

للرضى ودار صناعة وهي جيدة البناء واسعة التجارة والصناعة بها معامل للاقشة والجلود والابنة والكاغداستولى

عليها العثمانيون من سنة ١٥٥١ الى ١٧١٦ م حين انتزعا منهم أمير ساقوا المدعو أوجين عقدت بها محالفة

بين النمسا والعثمانيين سنة ١٦٦٢ م وتسمى عند الفرنج (Temesvar)

(٥) اكرى هي مدينة من بلاد المجر واقعة على نهر باسمها وهي رأس عمالة يبلغ سكانها ٢٠٠٠٠ نسمة وبها

مدرسة تالت شهيرة قديما ودار كتب ومرصد فلكي وحمائم معدنية حارث شهيرة جدا وهي مدينة جميلة الموقع محيط

بها الكروم وبها معامل للاقشة وقد انتزعا منها مصائب عديدة منذ حروب التتار والعثمانيين وتسمى بالمجرية أجر

(Eger) وبالفرنجة (Agria) (Erlau)

أقلع حتى وصل الى جهات هرمز لمازلة البور تقالين هناك وكانت سفنهم ثلاثة أمثال سفنه ومع ذلك فقد انتصر عليهم نصر امينوا وأغرق من سفنهم عددا كثير ثم خرجت عليه أنواع عظيمة اتلفت بعض سفنه وألقت بالبعض الآخر على سواحل بلاد الهند فساءت حالته وضعف أمره وخاف قواد السفن الباقية من زوابع البحر المحيط الهندي فارتدى بها على سواحل كجرات وخرج من بقي بها من الجنود الى البر وسلم السفن وأدواتها الى الملك أحمد ملك كجرات ثم عاد بنحو الخمسين فقط من أتباعه بين رئيس ومرؤس مارين بالبلاد الهندية وبلاد العجم حتى وصلوا الى الاراضي العثمانية بعد ان صادفوا من الاهوال والمشقات ما لا يوصف ذكرها في رحلته المسماة بمرآة الممالك التي كتبها بعد عودته وبعد ذلك صارت الاساطيل العثمانية تتردد على بحار الهند وتنازل البرتغاليين حتى أضعفت سلطتهم وكان لها في ذلك الوقت القدح المعلى في سلوك البحار

الحاربة مع مملكة ايران - اعلم أنه في سنة ٩٥٥ هـ التجأ أخو الشاه طهماسب المدعو القاص ميرزا الى السلطان مستجير اياه من ظلم أخيه وتعديده على حقوقه الشرعية فتمت زوال السلطان من ذلك وكان ينتظر سبباً موعداً لقتال العجم وبعدها جهز الجيش خرج به قاصداً تلك البلاد وما زال سائرا منصورا حتى وصل الى مدينة تبريز وعند عودته استرد مدينة وان التي كان الاجم استولوا عليها ولما كان أهل الكرج يظهر ان الخصومة للدولة العثمانية انتهز السلطان أيضا فرصة وجوده بتلك الجهات وأرسل وزيره الثاني قره أحمد باشا بالقوة الكافية فأخضع بلادهم وأدخلها ضمن الاملاك العثمانية وبعد خروج العثمانيين من بلاد العجم تقدم ملكهم طهماسب الذي لم يتجاسر على الوقوف امام العثمانيين في المرة الاولى وأخذ في شن الغارة على جهات موش وعاد لحواز وأخلط وغيرها فخرده السلطان لذلك جيشا كثيفا جعل عليه وزيره الاعظم رستم باشا ولما كان هذا الوزير متزوجا بابنة السلطان كان يسعى من زمن طويل في حصر السلطنة بعد السلطان سليمان في ابنه بايزيد لانه شقيق زوجته وقد أثارت هذه المساعي غضب الامير مصطفي لكونه هو الاحق بالسلطنة فانتهر هذا الوزير بالخانن فرصة تعيينه على محاربة العجم لالقاء النفرة بين الامير مصطفي ووالده السلطان حيث كتب اليه بان ولده هذا يحرض الجنود على عزل السلطان ليجلس مكانه كما فعل السلطان سليم الاول مع ابيه السلطان بايزيد الثاني من قبل ولما وصل هذا الخبر الى السلطان وكانت والدة بايزيد قد تمكنت من تحويل أفكار السلطان نحو ولدها خرج في الحال من استانبول متظاهرا بأنه يريد أن يتولى قيادة الجيش بنفسه فلا قام ولده الامير مصطفي في الطريق وكان اذذاك والى بلاد القرمين ولما أتى الى سردق والدة السلام عليه أمر فقبضوا عليه وقتلوه (٩٦٠ هـ) فذهب شهيد دسائس الخونة والمفسدين وقد اعترض كثير من المؤرخين على السلطان لعدم ثبته في المسئلة كما كان ينبغي وكان الامير مصطفي شجاعا شاعرا محبا للعلم والعلماء اديبا ولهنا حزن الناس لموته ورثاه كثير من الشعراء وقامت اليكچرية وطلبت من السلطان قتل ذلك الوزير المدبر لهذه المكيدة فعزله السلطان تسكيناً لخواطرهم وولى مكانه الوزير قره أحمد باشا وبعد ذلك تقدم السلطان نحو بلاد العجم لمحاربتها فوصل الى مدينة وان وفتحها وأخربها ثم تقدم في سنة ٩٦١ هـ فافتتح عدة مدائن وحصون ونهبت جنوده وخربت كل ما صادفته من قصور الملك ومنزلهاته بالبلاد التي استولت عليها ثم فتح مدينة تبريز ونهبها بعد أن قتل عددا وافرا من العجم ثم أغار على مدينة مراغة فأحرق وقتل وانتصر بجوارها على جيوش العجم

انتصارا مبينا وأخذ منها أرباحهم المرصعة وأعلامهم وطبوا لهم وفي أثناء ذلك وصل وفد من طرف شاه العجم يحمل للسلطان مכתوبا أظهر فيه الشاه التندم على ما أتاه من العداوة وطلب الصلح فأجابته السلطان على ذلك وعقد مع العجم مشاركة (١٦٦٢ هـ) أباح فيها للعجم الحج لبيت الله الحرام ومنزولة مذهبهم بلا تعرض وكانت هذه أول معاهدة عقدت بين الدولة والعجم ثم توجه السلطان لتمضية فصل الشتاء بمدينة اماسيا ثم عاد الى دار ملكه بالاستانة

مساعدة السلطان للملك فرانس - لما وقعت العداوة والشحناء بين فرنسيس الاول ملك فرانسوا وشرلكان امبراطور المانيا وملاك اسبانيا استجبد ملك فرانسوا ثانيا بالسلطان سليمان طالبا مدا دة لرده خصمه القوى فامر السلطان وهو بحارب العجم طورغود بك المعروف عند الفرنج باسم (Dragut) بالسفر صحبة العمارة البحرية لمساعدة فرانسوا فتوجه هذا القائد الشهير بالاسطول العثماني ومعه العدد الكافي من الجنود (١٦٦٠ هـ - ١٥٥٣ م) واتحد مع القبودان يولان المتقدم الذي كرر رئيس أساطيل فرانسوا وحاربا بالاسبانول وانتصر على كثير من سفنهم وفتح عدة قلاع ومدن ساحلية أضيفت الى أملاك فرانسوا ثم خلع طورغود نحو سبعة آلاف أسير من المسلمين كانوا لدى الاسبانول في قلعة بشتيا (Bestia) من أعمال قورسقة وغير ذلك ثم حصل بينه وبين قائد أساطيل الفرنسيين خلاف فعاد الى استانبول وأحسن السلطان عليه برتبة بلكربك الجزائر مكافأة له

قال صاحب كتاب مشاهير البحارة الفرنسيين وهوليون غرين ان القبودان يولان صدر له الامر بان يذهب وينضم الى الاساطيل العثمانية الراسية بمضيق ليانت المعقود ولوأها للقبودان طورغود وكانت أساطيل يولان ٣٦ من نوع الثانية وأساطيل طورغود ٦٠ من هذا النوع أيضا ثم أفلح الامير الان معاني أوائل يونيو سنة ١٥٥٣ وافتتاح عدة ممرات على سواحل كلابريا وجزائر صقلية والب وبيانوسا (Pianosa) وكان ظهورهما امام مدينة نابل داعية لان يرفع الاسبانول الحصار عن مدينة سيين (Sienna) المهمة ثم وصل الى العمارتين المتحدتين قوة عسكرية مؤلفة من ٢٥٠٠ جندي قصد انزالها في قورسقة وصدرا الامر أيضا للقبودان يولان بان يهاجم المدن الساحلية التي كانت في قبضة الجنويزيين ويطلب من الجيش البحري العثماني مساعدته اثناء قيامه بذلك فقبل طورغود وحاصر مدينة بونيفاس من قورسقة وما زال على حصارها حتى استولى عليها صلحها ثم حصل بينه وبين يولان خلاف فعاد الى استانبول

وبعد عودة طورغود بديق الفرنسيين بالانصير ولا معين حتى كادت جميع البلاد التي فتحوها بمساعدة العثمانيين تقع في يد أعدائهم ثانية فطلب ملك فرانسوا النجدة من السلطان على لسان سفيره الذي بدأ بالخلافة وكان مات في هذا الوقت سنان باشا القبودان الاكبر لعمارة العثمانية ووجهت رتبة القبودانية لبياله باشا فصدر له أمر السلطان سنة ١٦٦١ هـ (١٥٥٤ م) بان يستعد بالاساطيل لمساعدة ملك فرانسوا ويأخذ معه طورغود ليستعين بأرائه وأفكاره اه فقام بالامر وأقلع من الاستانة بعمارة مؤلفة من ستين سفينة بحرية بين غراب وقلبون وبينما العمارة العثمانية تسأرة انشأها من بعد الاميرال اندريادور بالاسبانول فخاد عن لقاءها بخافة هزيمة تلحقه كهزيمة

يرموز التي لم يعد ينسأها ولما وصل الى سواحل ايطاليا غزا بلاد وقلاع واغتم غنائم كثيرة
 وأسرع دوا وافرأ ثم تقابل مع الاساطيل الفرنسية واتحد معها في المحاربات وتمكن بياله باشا
 من فتح جلة قلاع من يد الاسبانيول وسلمها للفرنساويين منها ميني وريو ثم حاصر قلعة فاله من
 ايطاليا وفي أثناء الحصار حصل بين العساكر الفرنسية والعساكر العثمانية اختلاف
 ومنازعات حتى التزم بياله باشا ترك مياه الحسرب وعاد بالدوتما العثمانية الى دار الخلافة وفي
 سنة ٩٦٤ هـ (١٥٥٦ م) خرج بالاساطيل العثمانية وغزأ جزائر البيار ودمر قلاعها ثم عاد
 بالغنائم الوافرة

محاورة تجربة الشهيرة - خرج بياله باشا سنة ٩٦٦ بعمارة حربية مؤلفة من ٨٨ سفينة
 وتقابل في مياه سيبانجه بسفينة طليانية فقبض عليها ولما استندطق طاقمها علم منهم انه لما زادت
 الدولة العثمانية قوتها البحرية في سواحل بلاد الجزائر ومالطة خافت طائفة فرسان مالطة
 واستغاثت باورو وياو التمس من حكومتها البحرية امدادهم بالاساطيل فتداوت تلك الحكومات
 في الامر ثم أقر واعوم على مهاجمة العثمانيين فنقل بياله باشا هذا الخبر الى السلطان الذي اهتم
 بالامر غاية الاهتمام وأرسل من استانبول اثني عشرة سفينة لتقوية العمارة العثمانية على أعداها
 وأمره السلطان بالتربص في سواحل الارنود للاستطلاع أحوال العدو وتقوية حصون تلك
 البلاد فقام بياله باشا بتفيذ هذا الامر كما يجب ثم عاد بالعمارة في الشتاء الى خليج استانبول وبعد
 وصوله بقليل ورد خبر من بكر بك طرابلس الغرب طور غود باشا بنبي بانه بعد عودة الدوتما العثمانية
 من البحر المتوسط الابيض حضرت أساطيل الدول المتحدة الى جزيرة تربة وأخذت في إقامة
 الاستحكامات بقصد الاستعداد للهجوم على طرابلس الغرب في أول الربيع وبناء على ذلك
 صدرت أوامر السلطان ببناء وتجهيز السفن للسفر وقام بياله باشا بامشارة وتنفيذ هذه الاوامر
 وصار يراقب دار الصنعة باستانبول وكيمبولى بنفسه حتى تمكن بعد قليل من بناء ١٢٠ سفينة
 وفي اليوم الثامن من شهر رجب سنة ٩٦٧ (١٥٦٠ م) أبحر بياله بالاساطيل المذكورة وما زال
 يجدي في السير حتى وصل الى جزائر قيون حيث تلاقى مع السفينة التي أرسلها طور غود باشا حاملة
 أخباره وبعد ان اطلع على ما تحمله من المكاتب أخذ في السير وفي تلك الاثناء قبضت فرقة
 العمارة التي تحت قيادة أولوچ على رئيس وكانت في المقدمة على سفينة حربية للاعداد بقرب متون
 وعلم من طاقمها التي وقعت بيد العثمانيين أقوال مطابقة تماما لما كان أخبر به طور غود باشا أي
 ان دوتما الدول المتفقة تقصد الهجوم أولا على طرابلس الغرب ثم اجتمع بياله باشا بفرقتي
 مصطفي بك حاكم مدبلي وقورد اوغلي أحمد بك بك رودس بمياه متون المذكورة وسار الجميع
 يقصدون طرابلس الغرب وبعد أربعة أيام وصلوا الى جزيرة غوزة القريبة من دارالمس وباستنطاق
 الاسرى مرة ثانية تبين من أقوالهم ان عمارة الدول المتحدة الموجهة بمياه جزيرة كبة من
 ٣٦ سفينة من نوع الغالون ومثلها من القاراك و ٤٩ من نوع الغالي وغيرهما من السفن
 بحيث يبلغ عددها جميعا ما ثني سفينة ثم ان بياله باشا ذهب الى خليج سفاقس ورسابه امام جزائر
 كركنة الصغيرة وفي الصباح أطلع منها وفي مساء اليوم الثاني وصل قريبا من جزيرة قاستقبل

على بعد ١٢ ميلا منها على هيئة حرية وقد ذكره ونحو أوروبا بان دونتمت الدول المتحدة المجمع
في جربة كانت تحت قيادة الاميرال اندريادور بالشهر يرومرسكة من مائتي سفينة وتابعة
لحكومات جنوة وفلورانس وصقلية ومالطة واسبانيا وكان بهامن الجنود تسعة آلاف تحت
قيادة الجنرال دون الوارو الذي كان تعهد لتلك الدول بان يفتح لهاهم هذا الجيش سواحل افريقية
الشمالية الى القطر المصري وكان يشتغل منذ خمسة شهور بعمل الاستحكامات القوية حتى صير
جزيرة جربة حصنا منيعا وكانت أساطيل الدول المنفقة لما بلغها من أهالي مالطة محبي الاساطيل
العثمانية بعدت عن الشاطئ والقت مراسيها على بعد ثمانية أميال منه

وفي يوم ١٨ شعبان سنة ٩٦٧ هـ (١٥٦٠ م) تحركت الاساطيل العثمانية
عند النجف وما زالت تتقدم نحو الجزيرة حتى شاهدت الاسطولان بعضهم ما عند ذلك أخذ الطرفان
في التعبئة والتصنيف ثم ابتدأت السفائن العثمانية باطلاق مدافعها المشهورة بسرعة حتى
دمرت للاعداء جولة سفن وقطعت جولة غالونات عن الحركة فتوقفت عن اطلاق نيرانها فتهز
العثمانيون هذه الفرصة وتقدمت فرقة من أسطولهم حتى دخلت وسط صفوف سفائن العدو
وفرقتهم الى شطرين وبذلك التجأ من الجناح الايمن ١٤ سفينة الى ميناء جربة وخرجت السفائن
التي كانت تحت قيادة اندريادور الى عرض البحر فترك بياله باشا عند ذلك فرقة من أساطيله في جربة
وخرج هو ببقايا السفن لتعقب العدو وما زال يطارده حتى استولى منه على سبع وعشرين غليوناً
وعشرين شانية الا أن غالبها غرق مما أصابه من القذوفات وفر الاميرال اندريادور ياتار كافي قبضة
العثمانيين كثير من أمراء أوروبا وبرنساتها وكانوا رافقوه طمعاً في تخيلاته الوهمية واغتراراً
بعوده السراية أما الجنرال دون الوارو وقائد الجيش البري فلم يتدر على المقاومة سوى ثمانية أيام
ثم هزم ووقع هو ومن رفاقه من أعيان أوروبا بالسرى في يد الجيش العثماني أيضاً وبذلك انتهت هذه
الواقعة وفاز العثمانيون بهذه النصر العظيمة وأخذوا بعدها في تشييد وتقوية حصون جربة
وطرابلس وسفاسس مخافة مفاجأتها ثم ودع بياله باشا طورغود باشا الذي أظهر من الشجاعة في
الوقائع البرية ما زاد قدره وعاد بالدونمة الى الاستانة فوصلها في يوم ٢ محرم سنة ٩٦٨ هـ
(١٥٦٠ م)

وفي يوم دخول الاساطيل العثمانية الاستانة أشرف عليها السلطان من قصر مطل على البحر
وكان دعا الامراء والعظماء والسفراء لهذا الاحتفال فدخلت الاساطيل رافعة أعلام النصر
تلوح على وجوه قوادها اعلامات الشجاعة والفوز تجر خلفها ما استولت عليه من سفن الاعداء
حاملة ما غنمته من الغنائم النفيسة فكان لذلك منظر من أحسن المناظر وأبهجها وكان قبودان
الاساطيل العثمانية علق العلم الاسباني في وسط السارية كما يكون ذلك في حالة الخبز دلالة على
ما لحق الاسبانيون ومخالفتهم من القهر والنكال وأصعد الدون الوارو وغيره من القواد والاسرى
الى أعلى مكان بمؤخر السفينة (كباتا) ومرت الاساطيل على هذه الحالة عند ذلك قام سفير
فرديندا اميراطور المانيا وهنأ السلطان على الانتصار العظيم فأجابه السلطان بقوله (اذا افنكر
الانسان في ان هذا التوفيق العظيم قد ساقه الينا الباري جل وعلا بالطافه الالهية فلا داعي اذن
للغرر أو التفخر) ثم أمر بالانعام على الامراء والافراد وزوج بياله باشا أميره من العائلة السلطانية

وبعد وفاة رستم باشا الوزير الاعظم (٩٦٨) نصب السلطان مكانه الوزير الثاني سمي علي باشا وقد كان هذا الصدر المتوفى صهر السلطان وعلى جانب عظيم من الدراية والياقة نال في حياته ثروة وافرة ضربت بها الامثال وقال المؤرخون ان عادة أخذ الرشوة القبيحة لم تكن معروفة عند رجال الدولة قبل زمن هذا الصدر وهو الذي أحدها وقد قدرت متروكاته بعد وفاته فكانت نحو احد عشر مليوناً وثمانمائة ألف غرش وهو مبلغ جسيم جداً بالنسبة لتلك الايام

محصرة جزيرة مالطة - لمارات الدولة العثمانية ان فرسان مالطة أو طائفة القديس يوحنا الذين توطنوا بهذه الجزيرة لازالوا يظهرن التعدي والعداوة على سفنها وراعيها وكثيرا ما كانوا يساعدون اسبانيا وباقي الحكومات البحرية الاوروپاوية في جميع محارباتهم مع الدولة العثمانية وجهه السلطان سليمان القانوني عليهم في شتاء سنة ٩٧١ هـ (١٥٦٤ م) الاساطيل بعد ان شجنتها بما يلزم من العدد والعدد وعين الوزير الرابع مصطفى باشا سردار على الجيش وبساله باشا فاتح جزيرة قانداغاما للاساطيل وأمر أيضا طورغود باشا بمرافقة الحملة بجماعه من الجنود البرية وفي أواخر شعبان سنة ٩٧٢ هـ (١٥٦٥ م) وصلت الاساطيل الى الجزيرة المذكورة وأنجرت العساكر والمهمات في جزيرة سرينغو وعسكر الجيش بجوار نهر بالكان المدعو بستان بك كل ذلك ولم يبد فرسان الطائفة مقاومة ثم هجمت فرقة من خيالة تلك الطائفة يبلغ عددها ثمانمائة جندي على العساكر العثمانية وانتشب بينهما القتال وبعد قليل ولت تلك الفرقة الادبار بعد ان تركت كثيرا من قتلاها وجرحاها ثم حاصروا العثمانيون المدينة من ناحية سنت المواجهين أعمالهم على قلعتي سان ميشيل وسان انجيلو وكانتا على غاية من المنعة ولما كانت مقذوفات مدافعهما قوية سر بعة التزمت العساكر العثمانية بالقهقري وفي تلك الاثناء أصيب القائد الشهير طورغود باشا بجرح بليغ ثم عاود العثمانيون الهجوم مرارا من جهة سنت الموالتى كانت اتخذتها العساكر العثمانية موقعا مستحكما لها بناء على اشارة سردارها المذكور وكان من رأى بياله باشا وطورغود باشا الاستيلاء على المدينة قبل مهاجمة القلاع فليوافقهما السردار على هذا الرأى وقد نجم عن الاختلاف في الرأى عدم النجاح وضياع فائدة المهاجمات والمحاصرات ولما توفى طورغود باشا من جرحه ورجح القوادع عدم النجاح استقر رأيتهم على مبارحة الجزيرة وتركها لوقت آخر ثم عادت الاساطيل العثمانية الى استانبول بعد ان فقدت كثيرا من الجنود وبعد عودة الاساطيل بتمة قليلة توفى الوزير الاعظم علي باشا ووجه مسند الوزارة الى الوزير الثاني صوقللي محمد باشا الشهر

وقد كانت جزيرة ساقر تابعة للدولة من زمن مضى ولها امتيازات معلومة وكان الجنويزيون يدبرون أمورها باتفاق بينهم وبين العثمانيين الا أن السلطان لما بلغه ان الجنويزيين يسعون في تحريض الاهالى على الثورة صمم على نزع امتيازاتها فاسل القبودان بياله باشا سنة ٩٧٣ هـ بفرقة من الاسطول ولما وصل الى مدينة چشمه الواقعة امام الجزيرة في بالاناضول دعا اليه مأمرها فحضروا اليه يحملون جملة هدايا فأنزلهم في سفينة وأرسلهم جميعا الى الاستانة ثم توجه بسفنه امام ساقر واستولى عليها بالحرب وعين لها حامية ونصب عليها محافظا وقاضيا ثم عاد فأنزلها تعكرت الصلات بين الدولة العثمانية والجزر سنة ٩٧٣ هـ (١٥٦٦ م) صمم السلطان

على محاربة المجر وسبب ذلك أن مكسيمليان الثاني ملك المانيا كان قد خلف فرديناند الأول على تخت
 امبراطورية المغرب فضم هذا بلاد المجر الى الامبراطورية كاييه وعند ذلك استمد استفان زابولى
 الدولة العثمانية فأرسل له السلطان جيشا من ثمانين ألف مقاتل تحت قيادة صوقلى محمد
 باشا الوزير الأعظم وبه من الوزراء بروتو باشا وفرهاد باشا وأحمد باشا ومصطفى باشا وكثير من بكوات
 الروملى والناضول ولما كانوا بجهة بلغراد لحقهم الجيش السلطانى وبعد المداولة أقر وعلى
 مهاجرة قلعة كرى أولا لأنه بسبب تعرض الجنرال زرينى (Zriny) الشهير لفرقة من الجيش
 العثمانى رأى السلطان وقواده أن من الضرورى الاستيلاء على قلعة سكودار (١) حيث يقم
 هذا الجنرال فاستولوا عليها بعد حصارها (٩٧٤ هـ) وكانت من أمنع الحصون وفى تلك المدة
 كان اعترى السلطان الضعف والهزال لتقدمه فى السن حتى أنه أوصى بالسلطنة من بعده لابنه
 سليم وكانت وفاته ببدء النقرس وله من العمر ٧٦ سنة وأخفى الوزير الأعظم صوقلى محمد باشا
 وفاته شفقة على الجيوش ثلثا يفسلوا ويذهب ريجهم وأمر رئيس الأطباء بتخصيط جثته وبعد
 تمام القتح أخذت العساكر فى ترميم القلعة واصلاحها وبعث الوزير الأعظم المذكور الى
 السلطان سليم يدعوه الى سكودار وكان يومئذ على امارة كونايهيه فلما وصله الخبر قام مسرعا
 حتى وصل الى دار الخلافة على حين غفلة من أهلها وجلس على سرير الملك وبعد أن تمت له البيعة
 واطمأن الناس قصد سكودار مكان الجنود فأقام ببلغراد حتى وافته هناك ثم حل نعيش والده على بحلة
 الى الاستانة حيث واروه التراب وكان سلطانا رفيع القدر حاز ما موصوف بالحكمة والاقدام وقد سن
 عدة قوانين جديدة نظم بها السلطنة فقوى شأنها وسياستها ولهذا لقب بالقانونى وقسم الدولة الى عدة
 ايالات جعل فى كل اية منها فرقة من الجنود للمحافظة عليها ورتب نظامات وتنسيقات جديدة لضبط
 العسكرية ووضع منوالا جديدا ليراد الدولة ومصرفها فتحسن أحوالها حتى بلغت درجة لم
 تنلها من قبل ولا من بعد وكان رحمه الله تعالى محبا للعمارة والمباني جتدا المساجد وشيد المدارس
 والقلاع وأوقف أو قافا كثيرة فى أكثر جهات المملكة وخصص وظائف للدرسين والطلبة ورتب
 لهم المرتبات من الاوقاف وبتدعيم عمارة الحجرة النبوية (٩٣٥ هـ) وأرسل منبرا - من الرخام
 النقى الى مكة (٩٥٦ هـ) لا يزال بالآن وله ما أثر يعجز عن حصرها القلم وهو بالاحتصار من
 أعظم وأشهر ملوك آل عثمان

(١١) السلطان سليم الثاني ابن السلطان سليمان خان

٩٧٤ - ٩٨٢

لما توفى السلطان سليمان القانونى أمام قلعة سكودار كما ذكرنا أخفى صوقلى محمد باشا
 الوزير الأعظم خبر وفاته مخافة حدوث ما يكتدر الامن العام بالمملكة وأرسل مکتوبا خاصا

(١) سكودار أو سيكتو وار مدينة حصينة من بلاد المجر رأس عمالتهما على الشاطئ الايمن من نهر تيس واقعة وسط
 مستغدرات سكانها نحو ٧٤٠٠٠ نفس وبها مدارس مختلفة وكنايس وتبني بها السفن وهى واسعة التجارة
 والملاحة ومن حاصلاتها الالذة والتبغ والملح والحبوب والصابون وغيرها وقد طغى عليها النهر سنة ١٨٧٩ فأغرق
 جابا عظيمها وتسمى عند الفرنج (Szégedin) أو (Seged)

الى السلطان سليم الثاني بكونها مية يخبره بذلك عن بدرجل من أمنائه يدعى حسن چاويش ولما
وصله المكتوب بعد ثمانية أيام أقبل مسرعا صحبة طاشيته حتى وصل الى دار الخلافة يوم ٩ ربيع أول
سنة ٩٧٤ هـ وجلس على تخت أجداده وكان سنة اذ ذلك ٤٥ سنة وبعد أن بايعه شيخ الاسلام
أبو السعود افندي واسكندر باشا وكان نائباً عن السلطان سليمان في غيبته والعلماء والوزراء
والامراء والاعيان زاروا ضربة أجداده ثم توجه الى بلقراد فقابل الوزير الاعظم وكانت الاعمال
الحربية متوقفة بسبب دخول فصل الشتاء وهناك بايعه الجيش وباقي الامراء

ولما طلبت اليكجارية منه العطايا المعتادة عند الجلوس أبي ذلك علمهم وردعهم فاطهر وا
عند عودتهم التذمر وأتوا كثير من قبائح الاعمال حتى التزم الوزراء بان يتوسطوا لدى السلطان
فأمر بان يصرف لهم بعض تلك العطايا ووعدهم بما بقي الى عودته الى استانبول فلم يزد لهم ذلك الا
عتوا وافسادا وفاقحة حتى ان الوزير الثاني برتو باشا لما أراد نصيحتهم قبضوا عليه وقتلوه وأهانوا
أيضا فرهاد باشا وأخيرا أشار الوزير الاعظم وباقي الامراء على السلطان بأن يعينهم هو بنفسه فسكن
اضطرابهم نوعا وبعد أن صرف لهم المقدار الباقي بعد العودته تمكن الصدر الاعظم من معاقبة من عتزد
منهم وبذلك ارتدع الباقيون عن غواياتهم وكان سبب تأخير الصرف فراغ خزينة الدولة وعدم ورود
الارادات من النواحي وقد راجت بعد ذلك وتحسنت حالتها بعد وصول القبودان بياله باشا
بالاساطيل من سواحل ايطاليا

وبعد وصول السلطان الى الاستانة أرسل له مكسيميليان ملك النمسا سفارة مخصوصة مر كبة
من خواصه وأمرائه وهم انطوان وزاينوس السلمي وكرستوف ونفيناخ والبرت وايليس وبعد
أن هنوا السلطان بجلوسه نيابة عن ملكهم طلبوا ترك العداوة وتجديد المصالحة بين الطرفين فعددت
بذلك معاهدة في أوائل رمضان سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧ م) مضمونها أن ملك النمسا يستمر على
دفع الجزية السنوية التي مقسداها (٣٠٠,٠٠٠) دوفا كما كان وبقاء الروابط القديمة على
ما كانت عليه وأن تعترف النمسا أيضا بتبعية أمراء ترنسلفانيا والافلاق الى الدولة العلية وتجددت
أيضا الهدنة مع ملك بولونيا واعترف الباب العالي بالتحالف الذي بين ملك بولونيا وأمير البغدان وغير
ذلك وكل ذلك بمساعي صقولي محمد باشا الذي لولاه لفشلت الدولة وارتبكت أحوالها وبعد ذلك زينت
دار الخلافة فرحالها الانتصار بأمر السلطان وأرسل كل من طهمااسب شاه ايران وأمراء الاردل
والافلاق والبغدان سفراء يهنئون السلطان بالجلوس كما أن سفراء فرانسوا والبنادقة هنؤوه خارج
استانبول قبل ذلك بينما كان يجاهد بوسنه

وفي أوائل جلوس هذا السلطان عصته عرب البصرة وخرجوا تحت قيادة أحد مشايخهم المدعو
ابن عليان فجهز عليهم العساكر الكافية وأرسلها تحت قيادة اسكندر باشا بكر بك ديار بكر وخرج
لحربهم أيضا جانبولاد بك بعساكر حلب وأورفا فبحر في خمسمائة وخمسين سفينة في شهر الفرات
وبعد وفاته عديدة تمكن العثمانيون من اخضاع تلك القبائل وأذعن ابن عليان المذكور لدفع
فريضة سنوية الى خزانة البصرة قدرها ١٥٠٠٠ من الذهب (٩٧٥ هـ) وفي السنة التالية
سارت الجيوش تحت قيادة سنان باشا والى مصر لتمام فتح بلاد اليمن وقهر ثوارها وطردها من تغلبين
من البرتقال عليها وبعد عدة وقائع انتصروا على المنغليين والمتمردين وأخرجوا البرتقاليين منها

وملكوا صنعاء واعترف سلطانهم الشريف مطهر بن شرف الدين يحيى بالحكومة العثمانية ثم عين
سنان باشا عليها أحد القواد المسمى عثمان باشا واليا ثم عاد سنان باشا ظافرا
ثم بعث السلطان اسطولين لتسكين الثورات التي قامت بجهات يانين وطرابلس الغرب وبعد
اعادة السكينة الى تلك الجهات عزل يياله باشا عن رياسة البحرية وولاهاموذن زاده علي باشا
المعروف بالشهيد ولما كانت فرانساسي من زمن في زيادة نفوذها وتقريرها من المملكة العثمانية
بذلت مساعيها سنة ٩٧٦ هـ (١٥٦٩ م) حتى نالت تصديق السلطان على الاتفاقيات التي تمت
بين الدولتين في زمن السلطان سليمان ونالت من السلطان سليم تأييد الامتيازات القنصلية وأضيف
عليها مواد منها معاقاة كل فرنساوي من دفع الضريبة الشخصية وأن يكون لقنصل فرانساحق
البحث عن يكون لدى العثمانيين في حالة الرق من الفرنسيين واطلاق سراحهم ومنها أن يراد السلطان
ما تغتصبه سفن قرصان الممالك التابعة له من سفائن فرانسوا ومعاقبة المعتدى ومنها أن تساعد
السفائن العثمانية سفن فرانساتي أصابها خطر في سواحل الدولة ومنها أن يكون للفرنسيين جميع
مالاهل البنادقة من الامتيازات ولزادة توثيق عرا الاتحاد بين الدولتين انفقتا على ترشيح هنري
دوكالوا أخى ملك فرانسالكبرى بلاد يولونيا ليكون للدولةين ظهيرا ونصيرا على النمسا والروسيا ولما تم
ذلك دخلت يولونيا تحت جاية الدولة بالفعل وبموال فرانساهذه الامتيازات قبضت على موارد
التجارة ومصارفها بالبحر الابيض المتوسط وجميع البلاد التابعة للدولة وأخذت ترسل بناء على هذه
الامتيازات عدة ارساليات دينية حيث يوجد المسيحيون ببلاد الدولة خصوصا الى بلاد الشام
وأمدتهم بالنقود وأظلمت نفوذها ليسعوا في جلب القلوب نحوها وتعظيم اسمها وشأنهم اليهم ولقد
كانت هذه الامتيازات والحق أقول على ما فيها من زيادة المواصلات والتسهيلات والتعارف من
الاسباب التي أدت بالدولة العثمانية الى حالة الضعف وذلك لتداخل القنصل والسفراء في أعمال
الدولة الداخلية بدعوى رفع المظالم وإجراء العدالة ومحو الوحش وابداء التعصب وغير ذلك من
الالفاظ والاقوال التي اتخذوها اسلحا لهم في بلاد الشرق عموما وفي الدولة العثمانية خصوصا وقد
كان من نتائج هذه الامتيازات أن جرت كل دولة من دول أوروبا وبالهاطائف من نصارى الشرق
تحررها عند اللزوم وتصرفها في منفعتها متى شاءت وحيث شاءت فلاحول ولا وكان أضر نتائج هذا
التداخل أن اشتملت دول أوروبا بالارساليات الدينية لحفظ الجنسية واللغة عند كل شعب مسيحي
حتى انهم متى رأوا من الدولة ضعفا أمكن لهذه الشعوب طلب الاستقلال بمساعدة تلك الدول أو
الانضمام اليها كما حصل ذلك مرارا ولازال يحصل للآن وقد ساعد عليه اغفال الدولة أمر هذه
الطوائف وعدم تعرض لها فيما تلقى من الدسائس وتبشع من المبادئ الفاسدة مما سنأتى على
ذكرة في محله

فتح جزيرة قبرس - كانت جزيرة قبرس تابعة للبنادقة وكثيرا ما حدثت من أهلها ما يخالف
المعاهدات كتمريض سفنها للسفينة التي كانت تقل دفتدار مصر غير تعديت سفن قرصانها على
السفن التجارية العثمانية في سواحل مصر وسورية وفينيقية وما سبق منها مائة ولاية هذا السلطان
على كوثاهيه عندما كان ولي عهد واغتصابها خيوله والأشياء التي كان ابتاعها لنفسه من مصر ولم
يتمكن من استردادها منهم الا بعد مشاق جة فلما صد على كرسي السلطنة وحدث من سكان هذه

الجزيرة ما حدث صم على اخضاعها خصوصا وانها كانت من قبل للسليمن من عهد خلفاء بني أمية
فجردها عليها الجنود وأفتى بجواز ذلك شيخ الاسلام أبو السعود أفندي وفي ١٥ الحجة من سنة ٩٧٧ هـ
(١٥٧٠ م) أقلعت الاساطيل العثمانية وكانت مراكبة من ٣٦٠ سفينة تحت قيادة
القبودان الاعظم مؤذن زاده على باشا وكان بها عساكر الاناضول والروملى وأكثر بكوات
الصناجق ونحو ٥٠٠٠ من الانكشارية تحت قيادة سردار الوزير الالمصطفى باشا وأمر
السلطان وزيره الثالث بياله باشا بمعاونة الجزيرة بالسفن الحربية لقطع الامدادات الخارجية
عنها ثم وصلت الاساطيل والعساكر الى ليمان طوزله من الجزيرة المذ كورة واستقرت آراء القواد
على حصار قلعة لفقوشه (Nicosie) أولاد هي قاعدة الجزيرة وبعد حصارها أياما دخلوها
عنوة وقتلوا كثيرا من سكانها ولما شاهد أهل كرينه (Gétrina) ذلك خافوا وسلموا بدون قتال
ثم حاصروا قلعة ماغوسه (Famagoustie) وكانت من أمنع الحصون وأصعب المعاقل ولما
اشتد الحال بالمحصورين أرسلوا يستجدون ملوك أوروبا فإلما لم يفتحهم أحد سلموا بالامان ودخل
العثمانيون ماغوسه وغنموا منها غنائم كثيرة ورحل كثير من أهل الجزيرة عنها ثم ان بياله باشا ترك
قسم من العماره للمحافظة على السفن الثقيلة الراسية في الميناء السابق ذكرها وأقلع بالباقي الى
سواحل الشام لنقل العساكر الآتية من حلب مدد للعساكر العثمانية وبعد تمام الفتح عاد بياله
باشا بالغانم الى استانبول لدخول فصل الشتاء ولاصلاح بعض السفن وتجهيزها وبصحبته
القبودان على باشا وترك بالجزيرة أربعين سفينة تحت قيادة عرب أحد بك بك رودس وبقى بالجزيرة
أيضا السردار مصطفى باشا الفتح مابق من قلاعها وفي خلال محاصرة باقي المدين خرج راجادينو
البندقى صاحب قبرص بلبسه الارجوانية وأتى الى المعسكر وقابل السردار وتطاول عليه بالفاظ
خشنة ولما كان أمر يقتل أسرى العثمانيين قبل أن يسلم أمر السردار أيضا بخارج من بالسفن من
أسرى الافرنج وقتلهم بحضوره ثم أمر به فقتل هو أيضا

معاربة ايزنهجنى المشهورة بواقعة لاياتو - لما دخل فصل الربيع من سنة ٩٧٨ هـ خرجت
العماره العثمانية من خليج استانبول وكانت مراكبة من ٢٥٠ سفينة بحرية تحت قيادة
القبودان على باشا وبها السردار الثانى برتو باشا طاملة ما كولات وذخائر حربية لعساكر قبرص
وبعد أن أخرجتها عادت الى ميناء قبرص المراقبة لجزيرة رودس لمراقبة مراكب العدو والتى
أشيع أنها ستحضر للجهات المذ كورة ولما تم افتتاح جزيرة قبرص سافرت الاساطيل الى كريدو والتحق
بها أثناء سفرها أسطول باى الجزائر اولوج على باشا وكان مؤلفا من عشرين سفينة بحرية ثم ذهب
الجميع الى سواحل البانيا ثم هاجت العماره جزيرتي كورفو وكفالونيا (Céphalonie) وكانتا
للبنادقة وأخرتتهما واستولت على مدينتي (أولكون) (Dulcigno) وبار (Antivari)
وبعد أن أقامت العماره بتلك الجهات زمن التوطيد الامن وتقوية دعائم السكينة ولم تصادف للاعداء
سفن عادت فدخلت جون ايزنهجنى وغلول زمن الشتاء فترقى بعض ملاح السفن وكثير من
الانكشارية التى بها حدث من ذلك نقص فى عساكر وطوائف السفن
وقد كانت أساطيل الدول المتحدة فى ذلك الوقت الاتية لمساعدة البنادقة مجتمعة بميناسيني

وكانت مؤلفة كما يأتي فكانت أساطيل اسبانيا وعددها ٧٠ تحت قيادة الاميرال دون جوان
 وأساطيل البايبا تحت قيادة الاميرال مارك انطوان مركبة من ١٢ سفينة وأسطول صقلية
 تحت قيادة الاميرال چاندو ووردو مركب من ثمان سفائن وعمارة البنادقة تحت قيادة الاميرال
 ونبيرو مركبة من ١٠٨ سفائن وأسطول نابولي مركب من ٣٢ سفينة وأسطول مالطة مركب
 من ست سفائن وأسطول فرنسا مركب من ثلاث سفائن فيكون عدد الجميع ٢٣٠ سفينة وكانت
 القيادة العامة لا كبر الاميرالات وهو دون جوان اميرال اسبانيا المتقدم وكان من سفن البنادقة ست
 سفائن من نوع الغالي مدافعها كبيرة بالنسبة لمجمها ذات عيار كبير وأما سفن الاسبانول فهى
 وان كانت جسيمة قوية جيدة الآلات والاسلحة الا أنه لم يكن معها ما عونات كالبنادقة
 وفي ٧ جمادى الاولى من سنة ٩٧٩ هـ لما ظهرت عمارة العدو المذكورة أمام خليج
 اينه بنجنى عقد القبودان الا كبر مؤذن زاده على باشا مجلساً مؤلفاً من كل من برتو باشا السردار
 وباى الجزائر أولوج على باشا وباى طرابلس الغرب جعفر باشا وخير الدين باشا زاده حسن باشا
 ومن نحو خمسة عشر من بكوات صناع السواحل وبعدها اتوا اتفاق الجميع على وجوب
 المدافعة والمحاربة وهم داخل الخليج لتساعدهم القلاع بنيرانهم النقص الموجودين عساكر السفن
 وقلة الادوات اللازمة لها فلم يقبل القبودان منهم ذلك الرأى بل خالفهم فيه مخالفة كلية ليظهر
 جسارته مع أنه لم يسبق له رئاسة وقائع بحرية مهمة ولما كان هو صاحب الرئاسة العمومية التزم
 أعضاء المجلس موافقته ظاهراً ثم تقدم اليه أولوج على باشا وكان أرسخ منه قدماني الفنون الحربية
 البحرية وقال له اننا اذا خرجنا بالعمارة لمحاربة الأعداء يلزمنا أن نقابلها على بعد من البر لتتمكن
 السفائن من اجراء حركاتها بسهولة وهو رأى صائب خصوصاً السفن التي يلزمها ميدان
 واسع للدوران فلم يقبل القبودان منه هذا الرأى أيضاً وفي اليوم العاشر من الشهر المذكور أصدر
 القبودان باشا وأمره لعموم أساطيل العمارة فخرجت قبل الزوال من داخل الخليج المذكور وكانت
 عمارة الدول المتحدة راسية بجوار جزيرة كار زولارى الكائنة في مدخل جون باتراس الواقع شمالاً
 بالدمورة وبعدها عبي العثمانيون أساطيلهم على الشكل الحربي المعلوم اذ ذلك واصطفت أيضاً
 أساطيل المتحدين وأخذ كل من القسرين في تشجيع جنوده وقواده تقدمت العمارتان نحو
 بعضهما ولما تقاربتا خرج من وسط العمارة المتحدة من جانبي سفينة الاميرال جوان السفينتان
 الرابك فيهما ونبيرو وكولونه وكانا رئيسين لفرقة العمارة وعرضاً أنفسهم على امراء العمارة العثمانية
 فقابلتهم العمارة العثمانية بالمثل وخرج كل من سفينتي برتو باشا والقبودان على باشا من وسط
 العمارة العثمانية ليظهرا العدو مكانهما وكانت هذه الحركة غير صائبة لان دون چوان لما رأى
 جسارته قومندان العمارة العثمانية اتخذ مناورة أخرى للاحتراس من حركتها وكان القبودان
 العثماني غافلاً عن هذه المناورة لان دون جوان قدّم الست ما عونات التي كانت في قلب عمارته
 وهى المجهولة كقلاع عوامية الى المقدمة وأخر باقى سفائن الفرق خلف الست ما عونات التي ذكرت
 فابتدأ القبودان باشا بالجله عليها ولما كان أولوج على باشا مشاهداً حركه العدو نادى على القبودان
 باشا بترك المواعين وأن يأمر بالجله على سفائن الجناحين فلم يقبل منه ذلك قائلاً لا أقبل على نفسى
 أن يقال ان العمارة العثمانية هربت من أمام سفن الأعداء فكان هذا الخطأ سبباً في ضياع كثير من

السفن العثمانية لان المواعين المذكورة قامت بخدمة عظيمة لعمارة العدو فكانت كتراس لها
 أمام سفن العثمانيين ومع ذلك فان السفن العثمانية لم تتأخر لشدة النيران بل تمكنت من مضايقة
 العدو من الجناحين وحملت على خط حربه وتعلبت الى ان دخلت وسط سفنه ثم حملت سفينة
 قبودان باشا على سفينة دون جوان المذكور فحضرت سفن بعض الامراء المساعدة أميرالهم
 فتقدمت سفينتان من فرقة القبودان باشا وحملتا على سفن الامراء التي تقدمت فكان لهذه السفن
 في القتال منظر يهول من يراه وقد امتدت الحرب ساعتين أصيب في خلالها على باشا القبودان
 عندما كان يبحث عن دون جوان وفي الاثناء تقدم المركيز انطه كروس بفرقة الاحتياطية
 واستولى على سفينة قبودان باشا وكان مطر وحاملي ظهرها فقطع رأسه من جسده وعلقه اعلى
 السران (الخشبة الموضوعه عرضا بالسارية) ولما رأت السفن العثمانية القرية رأس قبودانها
 حصل عندها اضطراب شديد بسبب منه انهزام الجناح الايمن أما الجناح الاخر فكان فيه أولوج
 على باشا منصورا بفرقة على فرقة جان اندريا وكان تمكن من تشتيت مرابكبه واستولى على
 ١٥ سفينة من سفن البنادق وماطة وقطع بنفسه رأس جاندو كوردو أميرال مسيني وعزق شمل
 الفرقة التي كانت معه أيضا مفرقة البنادق التي كانت أمام الجناح الايمن للعثمانيين تحت رئاسة
 الاميرال بار يريغوفانها خسرت خسائر جسيمة ومات فيها الاميرال بار يريغو المذكور وخسرت
 مرابك العثمانيين التي كانت في قلب الفرقة في الجناح الايمن خسائر بليغة أيضا

ولما شاهد أولوج على باشا قومندان الجناح الاخر قتل القبودان باشا وأن الدولنما العثمانية
 قد لحقتها الخسائر العظيمة أخذ الاربعين سفينة التي كانت بمعينته ومع السفن التي استولى عليها
 من سفن العدو وخرج بها الى وسط البحر بعدما كسر خط حرب الفرقة التي كانت تحاول منعه
 عن الخروج أما باقي السفن التي خلصت من الجناح الايمن ومن فرقة الوسط فاقربت من الساحل
 وهناك غرزا قوادها في الرمال حتى لا يتمكن العدو من الاستيلاء عليها وقد ضاع للعثمانيين في هذه
 المحاربة ما تناسل سفينة حربية منها ٩ غرقت والباقي غنمه العدو وتقا ستمته الاساطيل المتحدة وقتل
 بهذه الواقعة من الجنود العثمانية نحو ٢٠٠٠٠ بين جنود وقواد وقد كرت تفصيلات هذه
 الواقعة المهمة في تواريخ أوروبا ومنها يعلم أن تلافيات العدو كانت ١٥ غالى و ٨٠٠٠ جندي
 بما فيهم كثير من الامراء والبرنسات وقد ذكر المؤرخ دون كويكزون الاسباني تولى وكان بعمارة
 الدول المتحدة هذه الواقعة بعبارة تقرب كثير من التي ذكرناها قال بعض مؤرخي أوروبا بأنه بعد
 ما عادت العمارات الى مين الحكومات التابعة لها أخبرت أن العثمانيين لا تقوم لهم في البحار قائمة
 بعد ذلك أما أولوج على باشا فانه بعد أن خرج من وسط المعركة جمع ما تشتت من سفن العمارة
 واستعجب معه المرابك التي كانت معينة للحفاظة على الجزائر وسحب المرابك التي ضبطها من
 العدو فكانت جميعها ٨٠ سفينة بها كثير من الاسرى ثم عاد بالجميع الى الاستانة فكافاه
 السلطان على شجاعته برتبة قبودان باشا ولقبه قانج على باشا ولما كان يباله باشا اليزال على قيد الحياة
 في هذا الوقت أصدر السلطان أمره اليه والى قانج على باشا بأن يجهز العمارة ويسرع في بناء السفن
 لتلافي ما حصل وقد تمكن من تجهيز مائتي سفينة جسيمة وبناء نحو ثمان من نوع الغالى ثم سلخها
 بالمدافع الضخمة حتى صيرها من أقوى السفن التي كانت للدول المتحدة في واقعة لياتنوا المذكورة

وقد ذكر المؤرخون هذه الاستعدادات فقال المؤرخ كريسى (Cressy) في حوادثه عن واقعة لباتنو إن الدول الأوروبية التي اتحدت في الواقعة المذكورة ارتاح بالها بعد هزيمة العثمانيين واشغلت في زمن الشتاء ببناء الكنايس شكر على انتصارها في لباتنو أما العثمانيون فقد عادوا مهتمين في فصل الشتاء ببناء وتشييد السفن الجسمية في دور صناعاتهم اه وفي الواقع أن الدولة العثمانية لم يسبق لها قبل هذا التاريخ خساؤ بحرية في الوقائع السابقة كالتى حصلت لعمارته في واقعة لباتنو هذه فلذلك حصل منها الاهتمام الذي لا مثيل له في بناء سفن العمارة في فصل الشتاء وصرفت عليها أموالا باهظة حتى أنجزتها في زمن وجيز لانه لما كانت الاستانة غير مستعدة لبناء عدد كثير من السفن في زمن قليل التزمت بتوسيع دار صناعاتها المذكورة فأخذت كثير من المساكن الموحودة بخاص بانججه بالاثمان و اضافتها اليها حتى صيرتها واسعة بقدر الكفاية ووضعت عليها القزاقات أى المزالق التى بنى عليها السفن وعلت جلة مخازن وبذلك تيسر لها في سنة ٩٨٠ هـ (١٥٧٢) اخراج عمارة مشكلة من ٢٥٠ سفينة حربية تحت قيادة فلنج على باشا مظهرة للدول البحرية انها عادت لمركزها القديم في البحر المتوسط الابيض وبعده زمن يسير وصلت الدونما العثمانية الجديدة الى مياه ناوارين بجزيرة مورة ولما علم البنادقة الذين كانوا بذلك الاطراف بحضور العمارة العثمانية ولو الادبار سر يعافلم يجد فلنج على باشا المشار اليه لزوماته عقبها سيما وان الملاحين الذين كانوا موجودين معه لم يكونوا على درجة كافية من التمرينات الحربية الا ان عمارة البنادقة بعد فرارها عادت مع عمارة اسبانيا بقصد محاربة الدونما العثمانية ولما راهما فلنج على باشا اقرب بسفنه من الاستحكامات الموجودة بالجبهة المذكورة واستعد للدافعة بالسفن والاستحكامات معافله لم تجاسر عمارة العدو على الدونمه فأقام يدرب عساكره على التعليمات البحرية و يتم استعدادتهم فيها حتى صيرهم على درجة كافية من المهارة ثم عاد في زمن الشتاء بالاساطيل لاستانبول وعند عودته أمر السلطان جميع دور الصناعة بالاهتمام في تشييد وبناء السفن فلم يرض زمن طويل حتى صارت الاساطيل العثمانية أقوى وأعظم مما كانت عليه قبلا

وفي سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) خرجت العمارة العثمانية الى بحر سفيد وكانت مشكلة من ٢٥٠ سفينة مختلفة و ١٢ ماعونة تحت قيادة فلنج على باشا وعين الغازى بياله باشا سردار عليها فهاجت سواحيل ايتاليا وغزت كثير من حصونهم وقد دوى رنين هذا الخبر في آذان دول أوروبا والبحرية التى كانت مشتركة في واقعة لباتنو فلم تحرك ساكنا ثم تقدمت الاساطيل العثمانية ودمرت جميع حصون سواحيل بلاد البنادقة فالتزمت جمهوريتها بالطلب الصلح فأجيب طلبها وعقد بين الطرفين معاهدة (١) بذلك وتعدت في الحال مبلغ ٣٠٠,٠٠٠ من الذهب للعمارة العثمانية

(١) أولاته مهد جمهورية البنادقة أن تدفع مبلغا من المال يعادل ما كانت تعهدت بدفعه السلطان سليمان عقب محاربة كورفو في ظرف ثلاث سنوات من تاريخ التوقيع وقد ر هذا المبلغ ثلثمائة ألف من الذهب نظير مصر وفات جملة قبرس ثانيا - تعاد قلعة صوبونو بكافة مدافعها الى جمهورية البنادقة ثالثا - مبلغ الخمسمائة من الدواك التى تدفعها سنويا لجمهورية البنادقة للسلطنة في مقابل احتلالها لجزيرة زانطه بصيرا بلاغه لاف وخمسمائة رابعا - تعهد جمهورية البنادقة للسلطان سليم بالحفاظة على شروط المعاهدة التى أعطاها السلطان سليمان خلفا - تعنى جمهورية البنادقة من الجزية السنوية التى كانت تدفعها عن جزيرة قبرس سادسا - تبقى الممالك الكائنة بمجبهات البانيا ودلماسيا بين الطرفين على حالتها القديمة سابعا - ترد وتضمن جميع السفائن التجارية والاموال التى ضبطت من تجار الدولتين المتعاهدتين في أثناء الحرب الى أربابها اه من الخبر الصحيح عن هامير

بصفة غرامة حربية تعهدت بدفع جزية سنوية للسلطنة صار الاتفاق على مقدارها وبعد ان صادقت حكومة البنادقة على المعاهدة المذكورة عادت العمارة الى الاستانة وكان هذا الحرب آخر حرب كانه بياله باشا الشهير حيث توفي بعد قليل (٩٨٥ هـ) ودفن في قبره الذي بناه لنفسه في جامعته بجهة قاسم باشا باستانبول

قال المؤرخ كريسى فى تاريخه عن واقعة البنادقة الاخيرة هذه ان الدول المتحددة ساعدت البنادقة فاكتسبت محاربة واحدة يعنى بها واقعة ليانتو الا ان نتيجتها ان اصبح العثمانيون حكاما على البحر المتوسط الابيض باسره واستشهد على ذلك بالمعاهدة المتقدمة التى خصعت لها البنادقة بعد ان دمرت العمارة العثمانية حصونها ولم يفقد العثمانيون من املاكهم شيئا فى تلك الحروب وقال ايضا انه لما بلغ حكومات اوروباصعوبة الشروط التى التزم البنادقة بالقيام بها لحقهم كدر عظيم وقالوا ان العثمانيين قد اكتبوا واقعة ليانتو ثانية وبعد تقرير الصلح مع البنادقة ارادت اسبانيا ان تستغل نفسها بنفسها فذهب امير الهادون جوان باساطيلها وهاجم تونس واستولى على مدنها وقلاعها ولما علم بذلك السلطان اهتم له جدا و امر بالاستعدادات الحربية فأنحذت دار الصناعة فى العمل بنشاط لتجهيز السفائن وتسلحها بحيث لم ينته فصل الشتاء حتى جهزت الاساطيل والجيوش وفى سنة ٩٨٢ هـ (١٥٧٤ م) أظهر حاكم البغدان العصيان على الدولة وامتنع عن دفع الخراج فارسلت الجيوش لقمعه وبعد وقائع هائلة قبض عليه وضرب عنقه عقاباله ووردت الامثلة

صيرورة تونس ولاية عثمانية - سبق ذكر الحروب التى حرت بين خير الدين باشا بارباروس والسلطان حسن الحفصى والنجاء السلطان حسن لشارلسكان امبراطور اسبانيا ثم تنازل عن بعض الجهات للاسبانيول الذين ردوه الى تخته وكان الاسبانيول بنوا قلعة متينة فى ممر حلق الوادى وعينوا لها أربعة من المحافظين و بعد مدة توفى السلطان حسن المذكور وخلفه ولده السلطان حميد ولما كان ظالما عاتيا كآبائه نفرت منه الامة وكانت القبودان قلنج على باشا مذكور واليا على الجزائر واتفقوا معه سرا على خلع السلطان حميد وكان القبودان المذكور اطاع الدولة على هذا الامر فامدته بالسفن والجنود وامر به بفتح تونس فحمل على تونس وهرب السلطان حميد كآبائه الى الاسبانيول وعينت الدولة جعفر باشا واليا لتونس وأبقت معه الجنود الكافية ولكن بقيت قلعة حلق الوادى المذكورة بيد الاسبانيول ولما حضر الاميرال دون جوان سنة ٩٨١ هـ باسطوله المركب من ١٥٠ سفينة وحاصر تونس التزم جعفر باشا بالرجوع الى مدينة القيروان لعدم قدرته على المقاومة لقلعة جنوده فعاد السلطان حميد عند ذلك لكرسيه وشرع يعامل الاهالى بالقساوة انتقاما منهم على ما فعلوه معه ولما رأى الاسبانيول انه يسعى فى نقض الشروط التى بينهم وبينه أحضر وأتاه محمدا وكان محبوبا فى مسينى من أعمال صقلية وأجلسوه على التخت مكانه فقبض على أخيه وجسده وألزمه مساعدوه أيضا التوقيع على معاهدة من ضمنها أن يكون تحت حماية اسبانيا وان يحتل بلاده ثمانية آلاف من جنود اسبانيا لحمايتها وغير ذلك من الشروط ولما علم السلطان سليم ما فعله الاسبانيول صمم على فتح تونس كما قتلناه وعين الوزير سنان باشا سردار الجيشها وفى ٢٣ محرم سنة ٩٨٢ هـ (١٥٧٤ م) أفلعت العمارة العثمانية من استانبول وكانت مركبة من ٢٦٠ سفينة حربية ١٥٠ ماعونة و ١٥٠ غليوناً تحت قيادة القبودان قلنج على باشا فاصدمه مياه تونس

ومرت في طريقها بايتاليسافغرت جمله قلاع وبلاد منها ومن جزيرة صقلية لمساعدتهم أعداء الدولة عليها في كل وقت وبذلك انتشر خبر قدوم الدونمنا العثمانية عند دول أوروبا وفي تلك الاثناء كان استولى طورغوديا على طرابلس الغرب ويقال ان عمارة سنان باشا مرت بها عند ذهابها لتونس وساعدته على فتحها وفي أوائل ربيع الاول من السنة المذكورة وصل سنان باشا الى تونس وأخرج عساكره الى البر بلامانع ثم أخذ في محاصرة قلعة حلق الوادي ولم يستول عليها الا بعد مضي ٣٣ يوما من حصارها وقتل من حاميتها نحو ستة آلاف جندي وأسرا ألفين وغنم منها خمسة مائة مدفع وكثيرا من آلات الحرب ولما رأى ان إزالة تلك القلعة أصوب من بقائها أمر فوضعوا تحتها ثلاثين لغما من البارود ودمروها تدميرا وبعد استيلائه على باقي الاستحكامات دخل بالجنود المدينة في رمضان من تلك السنة ونادى في الناس بالامان فهدأ رؤسهم وعادوا الى أعمالهم وأقيمت الخطبة باسم السلطان وضربت السكة باسمه أيضا وعين أحمد القواد محافظا عليها وأبقى معه قوة كافية لحفظها بعد ان رتب الحكومة وجعل لها ما يناسب من القوانين وصارت تونس من وقتئذ اية بالة عثمانية ودخلت في عداد الولايات كالجزار وطرابلس الغرب ثم عادهو وقلنج على باشا بالعمارة الى دار الخلافة ومعهم ما كتسبوه من الغنائم ولما وصلوا رحب السلطان بهم وكافاه وكافة من كان معهم من الجنود

وكانت وفاة هذا السلطان في سنة ٩٨٢ هـ وعمره اثنتان وخسون سنة وسبب وفاته انه انشأ حماما بقصره وأحكمه وأبدع فيه غاية الابداع حتى صار لا مثيل له وبينما هو يمشي فيه اذ لقت قدمه فسقط سقطه عظيمة مرض منها أياما ثم توفي وكان أوصى بالملك لولده الا كبر السلطان مراد خان الثالث وكان رحمه الله شهما شجاعا زكيا تقيا محبا للصلحين ضاعف مراتب الحرمين الشرقيين وشيّد مسجدا في ادونة (٩٨١ هـ) وكان محبا للعمارة صنع جسرا جسيما في قصبه بجمجمة وأصلح جامع اياصوفية ولم يكن حصل له اصلاح من تاريخ انشائه وكان تخرب من الزلازل وأضاف اليه جملة مبان ولقد كانت أحوال السلطنة في أول أيامه مرتبكة الا أن وجود الوزير الشهير صوقالي محمد باشا وما كان عليه من المعارف الحربية والسياسية مهدت تلك الارتياح بل أزالها فاعظم اسم الدولة وزادت مهابتها في قلوب أعدائها وفي أيامه طلب أهالي بلاد قازان من الدولة بواسطة سفرائهم اتصال نهر ترن الذي يصب في البحر الاسود بنهر الائل (ولغا) الذي يصب في بحر الخزر عند اطلال مدينة أزدرهان القديمة ليسهل عليها تنسيق سفنها وحيوشها الى بلادهم مخافة استيلاء الروس عليهم فقبل السلطان مطلبهم وعين قاسم بك الجركسي واليا على اية كفه من هذه البلاد وبعد ان خطط المهندسون ذلك العمل أرسلت الدولة الاساطيل والجنود اللازمة لمباشرة الحفر ولكن بعد ان فتح ثلث المسافة خاف خان القريم على بلاده طنانا ان هذا الفتح يضربه فأخذ في اثاره الفتن واخافة العساكر العثمانية من شدة شتاء تلك البقاع حتى جعلهم يتردون ويتركون العمل فاضطرت الدولة لاعادتهم وبذلك ضاع عليها ما صرفته وما كانت تستفيد من القواد بعد ذلك

الفصل الثامن

من وفاة صوقالي محمد باشا الى وفاة السلطان محمد الاول

(٩٨٦ - ١٠٢٦)

(١٢) السلطان الغازى مراد خان الثالث ابن السلطان سليم الثانى

(٩٨٢ - ١٠٠٣)

لما توفى السلطان سليم كان ابنه السلطان مراد بنه مغنيسيا والبا عليها فاخفى الصدر الاعظم خبر موت السلطان أحد عشر يوما الى ان حضر وجلس على تخت أجداده وكان عمره وقتئذ عشرين سنة وبعد دفن أبيه فى تربته المخصوصة صرف للجود عطايا الجلود المعتادة وقدرها ١١٠,٠٠٠ من الذهب فنفق بذلك الاضطرابات التى كانت تحدث عادة اذا تفرغ من تلك الهبات واقعه دادى السيل (٩٨٣ هـ) - اعلم انه فى السنة الثانية من جلوس السلطان مراد

جهز دون سبستيان ملك البرتغال حلة قوية ظاهرها مساعدة عم أمير فاس الشريف محمد المتوكل السعدى ونقل الجيوش بالاساطيل العديدة الى بلاد فاس كما سبق (صحيحة ٣٢٠) فعندها استجد الشريف عبد الملك بالسلطان مراد فأمر السلطان رمضان باشا بكرك بك الجزائر بالانحياز ناصره بالقوة بعد ان يتوسط فى الصلح أو لا يمنع اراقة الدماء ولم يتم صلح مسمى الوالى المذكور فى التوفيق بين المتخاصمين تلاقى جيش والى الجزائر ومن انضم اليه من شيعة عبد الملك بجيش سبستيان ومخالفة الشريف محمد المتوكل وبعد قتال شديد دار بين الطرفين هزم جيش سبستيان ومخالفة وقتل سبستيان وحصل بعد ذلك ما تقدم ذكره بتاريخ مرا كس ولم يقم للبرتغال بعد ذلك قائمة وحيث تم ملك فانس ما يريد بمظاهرة السلطان أرسل له سنة ٩٨٤ م كتبوا يشكره فيه ويدعوه بالنصر والتأييد ويعلمه بالانقياد اليه وأرسل مع سفيرة هدية قدرها الموترخون بمائتى ألف من الذهب وفى سنة ٩٨٣ (١٥٧٥ م) لما علمت الدولة العثمانية بان ملك بولونيا المدعو هنرى دى فالوادوق بلاد انجو وأخو ملك فرنسا شارل التاسع ترك مقر حكومته وعاد الى فرنسا وصت أعيان بلاد بولونيا بانتخاب اتين باتورى (Etienne Bathory) أمير بلاد الاردل (ترانسلفانيا) التابعة للدولة العثمانية أميراعليهم فانتخبوه وصارت بذلك بلاد بولونيا تحت حماية الدولة العثمانية وبعد ذلك عقدت هدنة بين الدولة والامبراطور رودلف ملك المانيا المدة ثمان سنوات ذكرت فيها بلاد بولونيا ضمن البلاد التى للدولة حق السيادة عليها ومما يؤيد هذه السيادة استنجد باتورى المذكور بالدولة عند اغارة التتار على بلاده ونعهد الدولة بمعاهدة رسمية بحماية تلك البلاد (٩٨٥ هـ ١٥٧٧ م) ولما كان الوزير الاعظم صفولى محمد باشا سعى فى ايجاد السلم والصلح بين الدولة وممالك أوروبا واجدد الامتيازات القنصلية لملك فرنسا والبنادقة وزاد عليها بعض بنود لم تفتحها أهمها أن يكون سفير فرنسا مقدما على كافة سفراء الدول الاخرى فى المقابلات والاحتفالات الرسمية وتحصلت لذلك اليصابات (أزابيلا) ملكة الانكليز على امتياز خصوصى اتجار ببلادها وهوانه يسوغ غلرا كهارفع العلم الانكليزى فى فرض الدولة وكان لايجوز لها ذلك قبل الات بل كانت السفن على اختلاف أجناسها عداسفن البنادقة لا تدخل ثغور الدولة العثمانية الا وهى حاملة العلم الفرنساوى كما قضت بذلك العهود التى أبرمت مع السلطان سليمان القانونى وابنه السلطان سليم الثانى وتجددت فى أوائل حكم هذا السلطان

الحمله على بلاد العجم — لما قامت الثورات في بلاد العجم بين أولاد العائلة الملوكية عقب وفاة الشاه طهمااسب كتب خسرو باشا الى أرضروم الى الدولة يعلمها بالحاصل في بلاد العجم ويجريها على فتحها فعين السلطان لالامصطفى باشا فاتح قبرس وسرعسكر الشرق قائدا لهذه الحملة فلما وصل الى أرضروم بالعساكر تقدم الى حدود العجم وحاربهم بجوار قلعة جلدير وقهر قائدهم طوقان خان وبعد ذلك فتحت الجيوش العثمانية كرجستان ثم دخلت تفليس وتعين جعفر باشا محافظا لقلعتها وسنة ٩٨٧ هـ ساقط العجم أربع فرق لاعادة البلاد التي فتحتها الدولة فقبأ بهم عثمان باشا ابن أوزيمور وردهم على أعقابهم خاسرين وفي هذه السنة تعيين لالامصطفى باشا المذكور صدرا أعظم بدلا عن صوقلي محمد باشا الذي جلس في دست الوزارة ١٥ سنة خدم فيها الدولة والملة بالصدقة والامانة مما خلده لأجل ذلك وأحسن السيرة وسيأ في أسباب قتله وما قيل فيه ولم يمكث هذا الصدر الجديدي في منصبه زمنا لأنه عزل بسبب غلظته في حروب العجم وتعين بدله سياوس باشا وأرسل فرهاد باشا بجيش جديد لحرب العجم وفي خلال ذلك جلس الشاه عباس على سرير العجم وطلب من الدولة عقد الصلح على شروط أن يترك للدولة العلية آذربيجان وشروان ولورستان وتبريز ويبقى ابن أخيه ميرزا حيدر رهن في استانبول على انفاذ ما تعهد به فقبل منه ذلك وأمضيت المعاهدة بين الطرفين سنة ٩٩٨ هـ ثم عاد فرهاد باشا منصورا ومعه ميرزا حيدر المذكور الى دار الخلافة

• احوال البحرية في المدة المذكورة — اعلم أنه في مدة الاربع عشرة سنة الماضية كانت جمهورية البنادقة قد ضعفت من الحروب البحرية الكثيرة ومن الخسائر التي لحقتها من ضياع مستعمراتها فلهذا سارت في طريق المسالمة مع الدولة مراعية ما بينهما من العهود والمواثيق أتم المراعاة وكانت اسبانيا ذلك في حرب مع فرانسوا انكلترة وكانت وجهت على انكلترة في سنة ١٥٨٨ م عمارتها العظيمة الشهيرة باسم ارماة وكانت مؤلفة من ١٥٠ سفينة حربية جسيمة الآن الانجليزية انتصر عليها ومحو تلك العماره بتمامها وفقدت اسبانيا في تلك الحروب أكثر من ثلاثين ألف مقاتل وبذلك كفت عن الحركات العدوانية على الدولة العلية في البحر المتوسط الابيض وكانت حكومة ايطاليا والبابا مشغولين بحرب بينهما الداخلية ولهذا كانت الاساطيل العثمانية لا رقيب لها في البحر الابيض المتوسط في تلك المدة حتى ان اليصابات ملكة انكلترة طلبت من الدولة العثمانية قبل واقعة الارماة المذكورة بحجة بحرية لمساعدتها في محاربة اسبانيا وقد ذكر المؤرخ هاجر الالماني صورة المكاتب الاربعة اللاتينية العبارة التي أرسلتها حكومة انكلترة للدولة العثمانية في هذا الخصوص فالخزير الاول تاريخه ١٥ نوفمبر (١٥٨٢ م) للوزير الاعظم محمد باشا الصوقلي والثاني في سبعة من نوفمبر (١٥٨٧ م) أرسل مع سفير مخصوص معه بعض الهدايا للعضرة السلطانية والثالث في شهر يونيو من السنة المذكورة تطالب به اخلاء سبيل الاسرى التابعين للدولة الانكليزية والرابع تاريخه ٧ ابريل سنة ١٥٨٨ م تبشر به الدولة بانتصار الاساطيل الانكليزية على الارماة الاسبانية انتصارا تاما وكان السفير الانكليزي تحصل على وعد تام بالمساعدة من قبل الدولة العثمانية بناء على التماس دولته كما تقدم

ولكنه لاستغال الدولة ببحر وب العجم لم يتمكن من القيام بما وعدت به الا أنه ورد في الاغانى والمرائى
 التى نظمها الانكليز فى هذه الواقعة المشهورة ذكر ذهاب فرقة من أساطيل العثمانيين لمساعدة
 الانكليز وبالنظر الى ذلك نقول انه مما لا شبهة فيه أن أحد رؤساء البحر به العثمانية المتطوعين
 المدعوسنان رئيس رافق مع فرقة من الاسطول العثمانى الاميرالين درينك وريلى فى القنال الانكليزى
 وكان الرئيس سنان هذا من الرؤساء المشهورين فى البحرية وهو الذى حمل بفرقة المشكلة من ١٥
 سفينة على مرأى كبر البرقاليين الذين أتوا سنة ٩٨٢ هـ (١٥٧٤ م) للاستيلاء على مملكة فاس
 وهزمهم كما تقدم وقال بعض المؤرخين ان أهل البرتقال فقدوا فى الوقائع البحرية التى حصلت اذ
 ذلك عدة من أساطيلهم فى مياه مرأى كس وقدم مدح مؤرخوا البحر به بحسرة العثمانيين فى البحار
 اذ ذلك وكان يوجد بسواحل بلاد البربر كثير من فرق السفن التى اتخذت تلك البلاد لمجأ الهاميل
 سفن الرئيس سنان هذا ولقد كانت هذه الوجاهات موجودة لزمان قريب وهم المعبر عنهم بقمر صان
 الجزائر كما لا يخفى على من له الملم بالتاريخ وقال البروفسور رانك الانكليزى فى تاريخه ان زمن
 تقدم الانكليز فى البحار على العثمانيين يتبدأ من زمن الملكة اليصابات وقد أصاب هذا المؤرخ
 لان الشهرة والحسرة كانت للعثمانيين فى البحر وكان تقدمهم فى فن الحرب البحرى لا يزال يعلو
 ويعظم حتى جاء زمن اليصابات المذكورة فأهملت بعد ذلك الخصوصيات البحرىة فى مناطقها
 وبعد ان كانت سفائن العثمانيين تتردد فى البحر الابيض المتوسط بلا معارض أو قريب أخذت فى
 التهقر شياً فسياً حتى وصلت الى ماهى عليه الآن أعنى ان سفنها صارت لا تبارح دار صنعها
 الا نادراً بخلاف الدول الاورباوية التى أخذت فى التقدم والترقى حتى بلغ تقدمها درجة عظيمة
 فسيرت سفائنها وعماراتها الى أفريقيا وسواحل الهندوا كتشفت الاماكن البعيدة
 بلا منازحهم وتجولت فى الجهات النائية بلا مشاركة وأخذت ترسل اليها المهاجرين من بلادها
 وتوسكهم اياها وتجعلها لهم وطناً وبذلك كثرت من المستعمرات والتزلات ما جعلها تتم فى
 تشييد وبناء السفن وتدأب فى تحسين وتوسيع نطاق فن الملاحة حتى نبغ كثير من رجالها فى
 هذه العلوم وتوسعوا فيها توسعاً كبيراً فامتدت بذلك تجارتها وانتشرت فى سائر الاقطار شهرتها وأحكمت
 دور صنعها وأتقنت معاملها وصنعت من السفن الجسيمة الهائلة ما لم يسمع بمثله

مقتل صفولى محمد باشا - انه بعد حرب العجم المتقدم بسنة نقرى باعسكر رجل أبه مجذوب
 من طعن الصدر الاعظم صفولى محمد باشا فقتله (٩٨٦ هـ) وكان رحمه الله من أشهر رجال
 الدولة حافظ على نفوذها وعلو كعبها من أواخر عهد السلطان سليمان القانونى وتمكن بجهارته
 العسكرية وقوته السياسية من قهر أعدائها و ابرام الصلح مع أكثر دول أوروبا والمعاديه لها وأعاد
 شأن العمارة البحرىة العثمانية بعد ضياعها فى واقعة اينة بخجى وتدابيره العالية ففتح جزيرة
 قبرس وأصلح المعويج من الادارة بما كان له من الاقتدار والكفاية وقد نسب بعض المؤرخين
 قتله لسياسة بعض حاشية السلطان حسدا منهم وقد ترك هذا الوزير بالدولة زاهية زاهرة قوية
 مهيبه الجانب قال المؤرخون العثمانيون انه يموت صفولى محمد باشا انه هدم ركن عظيم من الدولة
 لان الصدور الذين أتوا بعده وقعت بينهم المنازعات والمشاحنات ولعظم منزلة هذا الصدر عند

العثمانيين جعلوا نار مخموتة من الحوادث الشهيرة وقد جاريناهم على ذلك ولطول مدة حرب العجم والمنافسات الحاصلة بين رجال الدولة أخذوا انتظام يفارق ربوعها ويسود الخلل والاضطراب في ادارتها وبالنسبة للاكتثار من الجنود حصلت المضايقة المالية في صرف العلوقة حتى رأى الوزراء بتدابيرهم السقيمة انزال عيار النقود ووزنها فحدث من ذلك نزاع بين اصحاب الاسواق واصحاب العلوقات ولذلك ارتبكت الاحوال وتعد بعض فرق الجيش ولم يتمكن الحكومة من ردعهم ازدادوا في طغيانهم وخرجوا عن حدودهم

وبعدموت هذا الوزير الشهير كثر عزل ونصب الصدور فبعين بعده أجد باشا (٩٨٧ هـ) ثم سنان باشا (٩٨٨ هـ) ثم سياوس باشا (٩٩٠ هـ) ثم عثمان باشا (٩٩٢ هـ) ثم طازم مسيح باشا (٩٩٣ هـ) ثم سياوس باشا ثانيا (٩٩٤ هـ) ثم سنان باشا ثانيا (٩٩٧ هـ) ثم فرهاد باشا (٩٩٩ هـ) ثم سياوس باشا ثالثا (١٠٠٠ هـ) ثم سنان باشا ثالثا (١٠٠١ هـ) وفي خلال ذلك توفي القبودان قنچ علي باشا ودفن باستانبول بجوار الطوبخانه في الجامع المنسوب اليه (٩٩٥ هـ) ووجهت رئاسة البحرية للقبودان ابراهيم باشا وفي هذه السنة تمرد الانكشارية وقتلوا نظير الضربخانه محمد باشا والدفتر دارمحمود أفندي وهاجوا السراي السلطانية وعظم شرهم في دار الخلافة بدعوى ان النقود التي صرفت اليهم ناقصة العيار ومع ذلك فقد تمكنت بقية الجنود من ردعهم والقبض على ثخوالفين منهم لمعاقبتهم وكانوا رأس الفتنة ولما علم ملك بولونيا بهذه الاضطرابات شن الغارة في سنة ٩٩٦ هـ على حدود المملكة العثمانية فأمر السلطان خان القرع بجاربتسه وفي هذه السنة حضر من الغرب أولوچ حسن باشا الشهير في الاسفار البحرية فنصبه السلطان قبودان بالعمارة العثمانية وبعده ان تم تجهيزها خراجها الى سواحل البربر ومات عند عودته سنة ٩٩٨ هـ ودفن بترية قنچ علي باشا ووجهت رئاسة البحرية بعده للقبودان شغاله زاده سنان باشا وخرج بالدونما الى ابيه بجنتي كالعناد سنو بالمراقبة حركات سفن الدول الاوربية والبحرية ولما استفحل أمر المجر في حدود الدولة أرسل السلطان الصدر الأعظم سنان باشا بالجيوش لطردهم من أطراف بودين (١٠٠٢ هـ) وبعده حروب يطول شرحها انتصرت عليهم الجيوش العثمانية وفتحتم قلاع سامخارتون وپاپوايانق (١٠٠٣ هـ) ولما شق ميخائيل أمير الافلاق عصا الطاعة تقهرت الجيوش العثمانية الى خلف نهر الطونة وانتصر الامير المذكور ثانية على الجيوش العثمانية بقرب جورجوفو واستولى منهم على مدينة نيكوبولى وغيرها

مخاربات التماس (١٠٠١ - ١٠١٥ هـ) - لما ترددت طائفة البيكجربة وقرع الاختلال أبواب الدولة رأى الوزراء أن من حسن السياسة اشغال العساكر بالمخاربات ثم الالتفات الى تقرير الاحوال وتسكين الاعمال فأوعز والى حسن باشا والى بلاد البوشناق بشن الغارة على بلاد النمسا لمساعدة ملكهم رودلف الثاني أمة المجر إلا أنها لما تقدم جيش حسن باشا ببلاد كرواسيا وقع في كين للنمساوين فقتل هو وغالب عسكره ولم ينج منهم الا القليل ولما بلغ هذا الخبر الدولة العثمانية أخذ الوزراء يتسددون في الديوان العالي فيما اذا كان الواجب الانتقام من دولة النمسا باعلان الحرب عليها أم لا وكان رأى كثير من الوزراء تجنب الحرب لما فيه من الارتباك حتى ان الشيخ سعد الدين أفندي معلم السلطان قال في ذلك المجلس انى أكتب تاريخا للدولة العلية وصلت فيه الى هذا

العصر وأريد أن أجعل خاتمته قولى ان أحد عبيد السلطان أخذ ابن أخى شاه العجم وأحضره بين يديه وان ملك النمسا مجل بدفع الجزية عن سنتين آتيتين وبذلك كان يرجح جانب الصلح غير ان سنان باشا وهو الصدر الأعظم ففتح بلاد اليمن لما كان يحسد فرهاد باشا على ما ناله من الشأن والشهرة فى حرب العجم أراد أن يفوقه شهرة فرجح جانب الحرب وقال مخاطبا السعد الدين يمكنك أن تختم الوقائع بقولك ان أحد عمالك السلطان قبض على ابن أخى شاه العجم وأخذ رهينة وقبض مملوك آخر على ملك النمسا وأحضره بين يدى السلطان وبمثل ذلك من أقوال الغر وفتح باب الحرب مكفرا كل من خالفه فى رأيه وهذا وأمر فى الحال ببناء على أمر السلطان بسرعة التجهيزات وكان الفصل شتاء ثم تحرك الجيش الى أن ركز اعلامه بمدينة بلغراد ولما كان حرب النمسا هذا قد طالت مدته وامتدت أيامه أكثر من حرب العجم بحيث لم ينته الا فى زمن السلطان أحمد الاول (١٠١٥ م) بمعاهدة زيدو تروك (Sitovatorok) رأينا من المناسب الكلام على ما كان له من النتائج مدة هذا السلطان

وقد كانت وفاة هذا السلطان سنة ١٠٠٣ هـ وعمره خمسون سنة ويرى أنه لانهما كاه الزائد بالنساء خلف مائة ولد وخمسة عشر ولدا وكان له اشتغال ومشاركة ببعض العلوم وله شعر بليغ بالعربية والفارسية والتركية وكان يميل الى علم التصوف محبا للعلماء تقياء فى زمنه نظرق الخلل الى نظمات وقوانين الدولة

(١٣) السلطان محمد خان الثالث ابن السلطان مراد خان الثالث

١٠٠٣ - ١٠١٢ هـ

لمامات السلطان مراد خان كان ولده السلطان محمد بنغيسيا واليا ولما حضر مجلس على تخت أجداده بلا منازع وعمره اذذاك ٢٩ سنة ولما تمت له البيعة كان أول أمر اهتم به أن أمر بقتل جميع اخوته الذكور وكانوا تسعة عشر أميرا وكان لابييه عشرين نساء حبلى فأمر باغراقهن فى البحر ثم التفت الى اتباع السراى السلطانية فشتت شملهم وحل نظامهم وكان يقصد بذلك استئصال الفتنة والوساوس حسبا وصل اليه عقله وأشار به عليه أخصاؤه وغير أيضا الوزراء فرفعين فرهاد باشا للصدرارة وخليل باشا قبودانا للجرية بدلا عن سنان باشا

مخاربات النمسا - قد سبق ذكر حوادث الحرب التى اشتعلت نيرانها بين الدولة والنمسا وعصيان ميخائيل بك أمير الافلاق وسجسmond ملك الارذل ولمارات الدولة استفعال أمر ميخائيل المذكور سيرت عليه جيشا تحت قيادة سنان باشا الكبير وعينت ابنه محمد باشا قائد الجيش البحر لصد النمساويين عن التقدم ومع ذلك فلم تأت هذه الاستعدادات بفائدة لان ميخائيل تقدم منصورا واستولى على قلعتى بكرش (Bucharest) وترغووشته (Tergovist) بعد ان قتل حاميتهما وكان العثمانيون اهتموا بتحصينهما تحصينا جيدا وفى أثناء رجوع الجيش العثمانى كمن له جيش من جيوش الافلاق فى الطريق ونجح عليه نجاة فبهدد نظامه وهزمه هزيمة منكرة ومن جهة أخرى فان الجيش الذى كان نخرج لصد عساكر النمسا قهر وغلب لجهل قواده واستولى النمساويون على

قلعة استرغون (١٠٠٤ هـ) ولما وقعت هذه الهزيمتان يجيش السلطنة العثمانية رأى الوزراء وأرباب الدولة ان ذلك محل شأنها ووقارها سيما وان العساكر العثمانية التي دوخت جيوش أوروبا بمدة قرون لا يتأتى لها الا ان التغلب على أمير افلاق صغير فالخ سنان باشا الصدر الاعظم وسعد الدين أفندي شيخ الاسلام على السلطان وحرصاه على الخروج الى الحرب بنفسه فقبل وأمر بالاستعدادات وقبل خروجه من استانبول توفي سنان باشا وتولى الصدارة مكانه ابراهيم باشا وكان متهماً بالمدخلة في قتل فرهاد باشا وغير ذلك مما يشين بجماله ولما وصل الجيش السلطاني الى بلغراد صار يقصد قلعة اكري (Erlau) وبعدها حاصرها نحو عشرين يوماً ثم له الاستيلاء عليها (١٠٠٥ م) ولما علم ملك النمسا كسبيلان وسيجيموند ملك الاردل بخروج السلطان الى الحرب بنفسه جمع عسكرهم ماوزحقا للملاقاة الجنود العثمانية ثم وقع بين الطرفين محاربة عظيمة بالمكان المدعو خاج أوه (Kereštez) سنة ١٠٠٥ هـ (١٥٩٦ م) وقد استمر القتال طول النهار ولم يخرج جنود المتفدقين من استحكاماتهم لقتال العثمانيين بل كانوا يراقبون حركات الجيوش العثمانية ثم انتهزوا فرصة في الجيش العثماني وخرجوا عليه على حين غفلة فاخترقوا صفوفه وبددوا جموعه وفر معظم الجيش وتقدمت خيالة الأعداء حتى صارت على مقربة من خيمة السلطان عند ذلك قابلهم خدام الخيمة وحراسها وقاوموهم أشد المقاومة وأخذ الامراء يعملون الخيلة في خلاص السلطان من هذه الورطة الا ان الشيخ سعد الدين أفندي شيخ الاسلام أخذ يجرض السلطان والامراء على الصبر والثبات الواجبين في هذا الوقت وانهما سبب الفوز والنجاة ويشجع الوزراء حتى فاضت قلوبهم حمية وامتلأت ابدانهم جسارة ومقاومة أما الأعداء فانهم اغتروا بما نالوه من النصره وأخذوا في تعقب الفارين فكأن لهم قائداً المقدمه بجغاله زاده سنان باشا واستعد السلطان فيمن معه من الجنود وحصر وهم في وسطهم وأعملوا فيهم السيف والنار حتى أبادوهم عن آخرهم تقريباً وانقلب الحال عليهم من الغلبة الى الهزيمة وقد ورد في بعض الروايات أن مقدار القتلى منهم بلغ مائة ألف وغنم العثمانيون منهم مغنم وافرة ثم كافأ السلطان من أظهر الأقدام والبسالة من الامراء والجنود كما يحاسبهم من فرمهم من ديوان الجيش وقد أعادت هذه النصره العظيمة الى الدولة ما كان لها من الاقتدار والصوله في عصر السلطان سليمان القانوني ثم عاد بعد ذلك السلطان الى استانبول غانماً منصوراً قال ابراهيم أفندي في تاريخه وكان حاضر في تلك الواقعة انه لو أمضت العساكر العثمانية شتاء ذلك العام بالحدود ثم تقدمت في الربيع لكان أمكنها افتتاح مدينة فيينا وكانت تمكنت الدولة من عقد مصالحة كتبت الأمان عودة السلطان الى استانبول جعل للنمسا الوقت الكافي للاستعداد وملافاة ما خسرت في الهزيمة المذكورة

وبعد عودة السلطان الى استانبول تمكن ابراهيم باشا بواسطة والده السلطان من استلام مسند الصدارة مرة ثانية ولما كان من أصحاب الغايات والاعراض خديس الطباع عزل حسن باشا ابن صوقلي وكان عهد اليه قيادة عسكر المجر ثم أحال وظيفة السر عسكر المهمة الى ساطورجي محمد باشا وكان غير أهل للقيام بها حتى انه لما حاصر الأعداء قلعة بانق وكانت حصينة كاملة الادوات والمهمات والذخائر لم يعرف ماذا يفعل وارسل في أمره وخرج الى جهات الاردل يجيشه

ليوقع الرعب في قلوب الاعداء وحاصر مدينة وارات (١) وبينما هم في حصارها تار كاجهية بلاد النمسا خالية من الجنود تقدم النمساويون حتى وصلوا الى مدينة بودين وضيقوا عليها الحصار ولانه وان كان العثمانيون تمكنوا فيما بعد من تخليص بودين وطرد الاعداء عن حصارها الا أنهم فقدوا في ذلك كثيرا من الجنود والامراء وبينما كان الديوان السلطاني يتذاكر في دفع هذه المصائب اذ بلغه خبر مؤلم ما له أن ميخائيل بك قتل حافظ أحمد باشا ومن معه من الجنود بمدينة نيكبولي فغضب السلطان على السرعة كرساطور بجي محمد باشا وقتله لاجماله مع أنه كان ظهر عليه عدم اللياقة والاستعداد لهذا المنصب من اول الامر

واقعة قنيزة الشهيرة - انه بعد حدوث الحوادث السابق ذكرها اضطر الصدر الاعظم ابراهيم باشا المذكور لقيادة الجيوش بنفسه وكان هذا الوزير سافل الاخلاق من ذوى المطامع والاغراض الا انه كان جسورا ذال لياقة واقتدار فتقدم بالجيوش سنة ١٠٠٨ هـ وفتح قلعة قنيزة (Kanischa) وهي من أشهر وأحصن قلاع بلاد النمسا وتقدم أيضا سرعسكر الطونه كوزلخه محمود باشا وهزم جيوش ميخائيل بك هزيمة تامة بعد أن قاوم عساكر الدولة وعمر عليها مائة خمس سنوات ولما كان فتح قنيزة عاد بالخسارة على النمسا قام الارشيدوق فرديناند بجيش يبلغ ٥٠,٠٠٠ جندي بقصد استرداد تلك القلعة الا أن ترياكي حسن باشا الذي تعين محافظا لها تمكن من الدفاع عنها وفي تلك الاثناء مات الصدر الاعظم ابراهيم باشا وخلفه ميشجي حسن باشا وكان يبجل دار الحرب ولم تطأها قدمه قبل ذلك ولهذا بينما كان يستطلع أحوالها انتصرت جيوش الاعداء في اسطوني بلغراد على العثمانيين ولما قصدت بعد ذلك محاصرة قلعة قنيزة تمكن ترياكي حسن باشا وهومن أشهر رجال التاريخ العثماني من المدافعة عنها بمساعدة الجنود القليلة (١٠١٠ هـ) التي لا تزيد عن أربعة آلاف جندي ومن استئصال جيش الارشيدوق وعدده نحو الخمسين ألف مقاتل كما هزم وغنم منه ذخائره ومدافعه وخيامه وأعلموا أمر هذا الانتصار العظيم بجميع جهات الدولة وكافاه السلطان على شجاعته وانتصاره بأن ولاء الوزارة وبعد ذلك تمكن ميشجي حسن باشا أيضا من استرداد اسطوني بلغراد المذكورة ولكن الاعداء انتهزت فرصة وقوع الاختلاف بين القواديين حسن باشا الذي تعين لولاية بوسنه واستولت على قلعة بشته

ولما رأى الشاه عباس ملك ايران (١٠١٢ هـ) اشتغال الدولة بمحاربات النمسا نقض معاهدة الصلح التي كان عقدها مع فرهاد باشا (٩٩٨ هـ) وقصد استرداد مقاطعات آذربيجان وشيروان فأعلن الحرب سنة ١٠١٢ على الدولة ثم تقدم واستولى على تبريز من زنجير قزان على باشا ثم أغار على جهات روان وفي خلال ذلك توفي السلطان محمد خان الثالث ولم يتجاوز سنه ٣٧ سنة وكان رحمه الله ساطعا عظيما القدر على الهمة مظفر في وقائعه تقيما محبا للعدل والانصاف يميل الى العلماء والصلحاء محبا للعلوم والصنائع راغبا في ترقية أساليبها ورواج سوقها وكان عادلا مستقيما غير أن طول زمن الحرب مع دولة النمسا وجب اشتغالها بها وعدم الاهتمام بغيرها فتأخر تنفيذ تلك المقاصد

(١) مدينة حصينة من بلاد البحر وهي قاعدة عمالة وها مدارس وكنائس ومياه معدنية حارة ومعامل للحرير وغير ذلك وسكانها نحو ٣٢٠٠٠ نفس وتسمى هذه المدينة جروس واردين (Grossewardin) واسمها عند الأتراك ماخوذ من اسمها بالبحرية

لهم وكانت دخلتها الى الدولة العثمانية بمثابة كسر لاجد جناح دولة النمسا اضطرت الى طلب المذاكرة في أمر الصلح من لالا محمد باشا وللملتمات لالا محمد باشا المذكور وتعين في منصبه قبوحي مراد باشا وكان على قيادة بعض الفرق العسكرية في هذا الحرب منذ عشر سنوات كان بمن لهم وقوف تام ومعرفة جيدة بما تقتضيه الاحوال فاراد انعام هذا الحرب وعين من طرفه على باشا محافظ بودين وهابل أفندي قاضيها من خصين للمذاكرة في أمر الصلح ثم اجتمع هذان المأموران مع مرخصي دولة النمسا بجهة تدعى زيده توروق (Sitvatorok) على نهر الطونه بين مدينة استرغون وقومران سنة ١٠١٥ هـ (١٦٠٦ م) وفي هذه المحاربة التي استمرت نحو ١٥ سنة استردت الدولة العثمانية مدن يانق واسترغون واسطوني باغرادو وبشته وافتتحت أيضا ثمانية صنماحقا كرى وشنيره واويوار

ولما كان الحرب في نفس بلاد المجر كان هنالك فرق عظيم بين الانتقالات العسكرية من الطرفين المتحاربين بالنسبة للوسائط والتسهيلات وكان حصول الدولة العثمانية على النتائج الآتية يمكن اعتباره في الظاهر من المواقفات والانتصارات الا ان تلك الهيبة التي أظهرتها القوة العثمانية في عصر السلطان سليمان مائة نحو ثلاثين سنة ظهر عليها في هذا الوقت علامات التزلزل والانحطاط في الداخل لطول حرب النمسا هذا الذي بقي مدة خمس عشرة سنة ومن الاضرار المعنوية التي أصابت الدولة من هذا الحرب ان الجزية التي كان يدفعها النمساويون سنويا ومقدارها ثلاثون ألفا من الذهب تحولت بموجب هذه المعاهدة الى هدية مناسبة غير معينة المقدار سيما انه لا امتداد هذا الحرب تزيدت بجهات الاناضول ثورات طائفة الجلالية وامتد شرهم مما كان سببا لاضرار وتخريبات عظيمة حتى أدى في آخر الامر لحصول حرب ايران وقد كانت تلفيات الطرفين المتحاربين بين ماليسية وعسكرية عظيمة جدا وفي مقابلة رضا العثمانيين بالصلح دفع النمساويون لهم مائتي ألف من الذهب دفعة واحدة وكان من أحكام المعاهدة المذكورة أيضا ان لا يخاطب امپراطور النمسا بلقب قرال أو ملك بل بلقب قيصر رومة وبعده هذه المحاربة بقيت بلاد المجر تابعة للدولة العثمانية بعضها بالفعل والبعض بالحماية

حرب ايران — قد علمت مما سبق ان شاه العجم نقض معاهدة الصلح التي بينه وبين الدولة واستولى على تبريز حين اشتغال الدولة بحرب النمسا ولما جلس السلطان أحمد عزل شغاله زاده سنان باشا من امانة البحرية وعينه قائدا عاما على جيوش بلاد الشرق وأمده بالجيوش والمعدات لصدة العجم الا انه لم يتمكن من تخلص قلعة روان التي كانوا يحاصرونها ثم اضطر بعد ذلك الى الرجوع الى بلاد كردستان بجيشه في حالة سيئة وذلك لان ضباط جيشه خالفوا أوامرهم وامتنعوا عن الرضوخ لرأيه الصائب وهو قضية فصل الشتاء بجهة يقال لها قره باغ حتى اذا ما أقبل الفصل الموافق كانوا قريبين من دار الحرب وفي السنة التالية لما سافر يريد فتح تبريز تقابلت طليعة جيشه وكانت تحت قيادة صفر باشا محافظ أرضروم مع جيش الشاه عباس بجوار بلدة يقال لها سلماش ولما انتشب الحرب بينهما وكان الجيش العثماني لم يصل بعد ان انخرمت الطليعة تماما وقتل قائدها فآثر هذا الانهزام في الجيش العثماني تأييدا سينا وحل عزيمته وتفرق عنه أمره الا كرادخوصا فتهجر عند ذلك سنان باشا بمن بقي معه من الجنود القليلة الى مدينة وان ومنها

الى ديار بكر فبات هناك حزنا على ما أصابه من القتل وخلت الحدود الشرقية من المحافظين وبذلك خلا الجوّ للاعجام الذين زاد عدوتهم واستولوا على جهات شروان وشماتخي وغيرهما ولقد كانت هزيمة جيش الشرق هذه من الوقائع المهمة بالنسبة للدولة العثمانية لان مخالفة أمراء العسكرية لامر السر عسكر كان سببا في اختلال النظام العسكري في الدولة ومنه يمكن الحكم بتضعف قوى الدولة المادية واضطراب أساسها لانه بسبب فساد نظمات العساكر السباهية أصحاب التيارات الذين هم من العساكر المنتظمة تطرق الخلل لمجموعهم وقدرتهم فصارت الدولة مضطرة لتربية طوائف من الجنود لاقبلة لهم وكانت هذه الطوائف من جهة أخرى بلاء على الدولة في المحاربات وكانوا هم منبع مذهب الجلالية بالاناضول فكان الواحد منهم متى خرج من بين الجيش العامل انضم الى الجلالية أو تذهب بذهبهم وضم اليه آخرين وأخذ في تخريب الممالك وشن الغارات ونهب أموال الناس

ولما كانت الدولة العثمانية اشغلت زمانا طويلا بأمر المحاربة بينها وبين أوستوريا من جهة وبين ايران من الجهة الاخرى لم تتمكن من الالتفات لاهوال ولاياتها جيادا ولهذا صارت بلاد الاناضول جميعها مظهر المفاسد طائفة الجلالية المذكورة الا أنه لما خلصت الدولة من أمر محاربة النمسا بمصالحه زيد و تورولك المتقدمة خرج الصدر الاعظم قسوقجي مراد باشا بنفسه في جيش ونكل بابن جانبولاد وابن قلندر وقره سعيد واوزون حسن وأمثالهم من شيوخ هذه الطائفة وأذاقهم شرشقاوتهم ثم عاد الى الاستانة وكان لدخوله يوم مشهود وأحله السلطان محلا ساميا (١٠١٧ هـ) وقد تمكن هذا الباشا من تطهير بلاد الاناضول من هذه الطائفة وأوقع بهم في عدة وقائع وقتل منهم الآف عديدة وحل نظامهم حلا وشئت شملهم تشيتا وأحضر معه الى استانبول كثيرا من أعلامهم وغنائمهم وأسراهم وفي سنة ١٠١٩ هـ خرج مراد باشا المذكور لبقائه العجم اطغيانهم وعزدهم الا أنه لما كان متقدما في السن مرضا انتهز فرصة ذلك حسوده نصوح باشا والى ديار بكر وأرسل الى دار السلطنة من يشهد له بعلا المنزل والمقدرة على تشكيل الاعداء وبذلك تمكن من نوال مسند الصدارة بدسائسه ومفاسده (١٠٢٠ هـ) بعد وفاة مراد باشا المذكور

وقد كانت أنظار نصوح باشا ترمى الى عقد الصلح مع الشاه عباس (١٠٢٠ هـ) فتم لذلك وأمضاه على قواعد الصلح التي كان شرع فرهاد باشا من قبل في عقدها وهي أن يرادى شاه العجم أقاليم تبريز وروان وشروان وكانت تحت يد الدولة العثمانية وان يدفع الشاه كل سنة مائة حمل من الحرير وغيرها من محصولات تلك الاقاليم بصفة جزية ولما تم أمر الصلح أخذ معه جزية سنة عن تلك الاقاليم وعاد الى الاستانة الا أنه حصل فيما بعد ان الشاه لم يوف بما وعده وتعهده من دفع تلك الجزية في الوقت المعين لها وكذا لم يدر السلطان ماذا حصل لسفيره المدعو انجيلي مصطفى لدى الشاه حيث مضى عليه سنتان ولم يرد منه خبر لهذا رأى السلطان من الضرورى اعلان الحرب على بلاد ايران ثانية سنة ١٠٢٦ هـ وتعين للحملة عليها أو كوز محمد باشا ثم خلفه خليل باشا

احوال الجهرية في الوقت المذكور - لمات عين القبودان حافظ باشا الرئاسة البحرية في عهد هذا السلطان التفت فورا لاصلاح العمارة التي كان تفهقر شأنها تبعالت تفهقر حالة الدولة ولما تمت

معداتهم أفلح بها سنة ١٠١٦ من استانبول يريد نغر الاسكندرية لاحتضار وركوب بلاد مصر
كاجرت العادة بذلك ولما خرج في طريقه على مدينة رودس عند ذهابه ترك بها بعض السفن التي
حين عودته ولما كانت طائفة هذه السفن قليلة لان حافظ باشا المذكور كان أخذ معه معظمها
هجمت عليها قرصان البحر فاستولوا عليها من فيها ولما عاد القبودان من مصر الى الاستانة تكدر
السلطان بما فعله ووجهه على ذلك ثم عزله وعين بدله على العمارة القبودان خليل باشا القيصري
(١٠١٨ هـ) ولم يأت هذا القبودان باصلاح جديد في احوال العمارة لعدم التفات السلطان اليها
في ذلك الوقت الا انهما كثر عيث قرصان القوزاق بالبحر الاسود وأخذوا يشنون الغارة على سواحل
بلاد الدولة ينهبون ويحرقون هاجت السكان وكتب الولاة الى دار الخلافة يثشكواهم فسافرت
العمارة العثمانية الى البحر الاسود وعكنت من ملاشاة طائفة قرصان القوزاق ثم عادت الى استانبول
وقد روى بعضهم ان العمارة العثمانية لما خرجت لطر دقرصان القوزاق تحت قيادة حافظ خليل
باشا صادفت صعوبات جمة لعظم سفنها وخفة سفن القرصان التي أرعبت الشواطئ وأزعجت التجار
حتى ضواحي البوسفور وفي هذا الوقت كانت دول أوروبا والتفتت الى تقوية وتحسين السفن
وتغيير أشكالها وتسليحها بالسمك أكثر واخضع مما كان بها وكان في مقدمة هذه الدول اسبانيا
وانكلترا وأثأت الاولى منها سفينة عظيمة تدعى فيليب (١٥٩١ م) ذات ثلاث طبقات بها من
المدافع سبعة وستون وأثأت الثانية سفينة عظيمة سميت أبرش (١٦١٠ م) كان طولها
١١٤ قدما وعرضها ٤ قدما بها من المدافع ثمانية وستون وبعد قليل اقتدى باقي دول أوروبا
بهاتين الدولتين وقوت أساطيلها وبحريتها وما يذكر أيضا في هذا الوقت ان أسماء السفن الحربية
تغيرت من غالي وغليون وغراب وشانية وغيرها الى قروبت وفرقاطة وبقاق

وكانت وفاة هذا السلطان في سنة ١٠٢٦ هـ وهو الرابع عشر من سلاطين آل عثمان العظام
تولى السلطنة وعمره أربع عشرة سنة وجلس على تخت أربع عشرة سنة وقد كان صالحا معيل
الى العلماء والسادات خيرا وكان عزم لشغفه بما يريث الله الحرام على أن يكسوه بالذهب والفضة
فخعه المفتي محمد بن سعد الدين من ذلك فجعل للكعبة ثلاث مناطق من الفضة المحلاة بالذهب
صونا لها من الهدم وكساها هي والحجرة النبوية والاضرحة بأخضر المخيشان المقصبة وعمر مسجد
البيعة قرب عقبة منى وأصلح جملية جهات بمكة وأوقف من قرى مصر وقفا على خدام الحرمين
الشرقيين وفي سنة ١٠٢٤ هـ أرسل حجج من الماس للحجرة النبوية بقيمتها ثمانون ألف ليرة
وأبدل شبابيك الحجرة وجعلها من الفضة المحلاة بالذهب وأخذ الشبابت القديمة ووضعها في مدفنه
بالاستانة تبركا وأصدر في سنة ١٠٦٦ م أمره الى أحمد باشا والي الديار المصرية بارسال مقدار
من الايرادات لعمارة الحرم النبوي وفي أيامه زرع التبغ بالممالا العثمانية ودخنه الناس باستانبول
ويقال ان أول من جلبه اليهم أهل هولاندة (١٦٠٥ م) ومن آثاره الطوبخانة ومسجده الشهير
ذي الست منارات وهو من أجمل جوامع الاستانة وأخضعها وفي أيامه اشتكى هنري الرابع ملك
فرانسا من باي تونس مصطفى باشا و باي الجزائر سليمان باشا دعوى انهما يساعدا على التلصص
البحري ويشتريان مع القرصان في الغنيمه ويساعدا سفن الانكليزي في الاغارة على سفن الفرنسيين
والبنادقة فاحل السلطان شكواهم محل القبول لحسن العلائق بين الدولتين وعزل والييين المذكورين

ونصب خلفاهما وقد كان عزل هذين الواليتين بمجرد شكوى ملك الفرنسيس التي كانت دائماً مبنية على معارومات باطلة وبدون اجراءات تحقيقات معهما سببها في ضعف البحرية بالولاياتين المذكورتين كما قاله بعض المؤرخين ومن أعمال هذا السلطان ترتيب أصول وقانون لوراثة السلطنة

(الفصل التاسع)

من وفاة السلطان احمد الاول الى صدارة كوبرلي محمد باشا

١٠٢٦ - ١٠٦٦

١٥ السلطان مصطفى الاول ابن السلطان محمد خان

(١٠٢٦ - ١٠٢٧ هـ)

لما توفي السلطان أحمد بايع الوزراء والامراء السلطان مصطفى قيا ما بحق الوصية وكان عمره لا يتجاوز العشرين سنة الا أنه لما كان أمضى أيامه قبل ذلك في حالة حجر ومنوعا عن مخالطة الناس مسجوناً داخل القصر لا يسمع ولا يرى شيئاً مما يحصل بالدولة ظهرت عليه علامات عدم القدرة بشؤون الدولة بمجرد جلوسه على التخت وأخذ يبدد أموال الخزانة بطرق صيانية ولذلك كثر القيل والقال بين الناس حتى خيف حدوث اضطراب عام داخل ولم يكن مضى على حكمه ثلاثة شهور وعشرة أيام حتى تقدم مصطفى أعادار السعادة وقبض عليه وسجنه بمكان داخل السراي في يوم صدور الفتوى من شيخ الاسلام بخلعه وببيع لا كبيراً ولاد السلطان أحمد المتوفى

١٦ السلطان عثمان خان الثاني ابن السلطان أحمد الاول

(١٠٢٧ - ١٠٣٢ هـ)

جلس هذا السلطان وكان سنه أصغر من سن سابقه لا يتجاوز ١٣ سنة الا أنه كانت تلوح عليه علامات الشجاعة والاقدام لبنائهته وجوده قريحتته وفي أول حكمه أرسلت الدولة السفراء الى كافة الجهات وعقدت معاهدات الصلح مع فرانسوا وكثير الدول الاور وباوية وسوت أيضاً مسألة بوهيميا مع امبراطور المانيا لان هذا الاقليم لما كان عصى عليه طلب أهله من الدولة حمايتهم وبما بذله وزراء الدولة من المساعي تحسنت علاقات الاقليم المذكور مع الامبراطورية الالمانية وفي السنة الاولى من حكم هذا السلطان عاد القبودان چلبى على باشا بالدونما من البحر الابيض ومعهم ست سفائن للقرصان اعنتهم امددة سفره وأكثر من مائتي أسير من أجناس مختلفة ومقدار عظيم من الغنائم ولما عرض على السلطان ما فعله في سفرته هذه من يوم خروجه الى وقت مجيئه كما هي العادة أنعم عليه وقربه اليه ولما كانت أحوال العجم لازالت تستدعى اهتمام الدولة لسعي ملكها في بث الدسائس واغلاق

الراحة جردت الدولة سنة ١٠٢٧ جيشاً عظيماً تحت قيادة خليل باشا الصدر الأعظم لمحاربة العجم ولما التقى بجيوش الشاه عباس حدثت بينهما معركة انتهت بانتصار العثمانيين انتصاراً باهراً واستخلصوا من الاجرام الجهات التي كانوا اختلسوها من الدولة العثمانية أثناء الوقائع والاختلالات الماضية مثل تبريز وغيرها وقبل الشاه عباس تجديد أمر الصلح على أساس مصالحة نصح باشا وكان السلطان عثمان يرى ان كل الفخر في ظلال السيوف فاجتهد في تنظيم القوة البرية والبحرية والاكتثار منهما و مداومة الحروب والغزوات وقد ساعدته المقادير لانعام بعض اغراضه من ذلك وهو ان ملك بلاد الاردل كان يرغب في توسيع نطاق ملكه من اقاليم النمسا والاطلع السلطان على مرغوبه حسن له الاغارة على بلاد النمسا وسهل عليه فتح عاصمتهم فاصدر السلطان الاوامر بتجهيز الجيوش لمحاربة بولونيا ولا ثم قبل ان يبارح استانبول أمر باخيه الامير محمد فقتل اتباعاً للقاعدة القبيحة التي سنها بعض السلاطين خوفاً من أن يخرج عليه اثناء غيبته وأصدر أمرًا بتقليل اختصاصات مقتي استانبول ونزع منه ما كان له من السلطة في تعيين وعزل الموظفين وجعل وظيفته قاصرة على الاقتاء ليس الا تخافة ان يصيبه منه ما أصاب سلطنة من العزل الا انه لما كان الحدز لا يمنع القدر لم يأت الامر كما كان ينبغي كما ستعلم وبعده هذه الترتيبات خرج بجيش مؤلف من ٣٠٠ ألف مقاتل وانضم اليه جنائيك كراي خان القريم وبتلن غابور أمير الاردل وأمير الملكتين وما زال هذا الجيش يسير بنظام حتى نزل امام مدينة شوكرزم أو خوتين (Choczim) ثم تلاقي بجيش البولونيين وكان يرأسه القائد ولنا أحد مشاهير قوادهم وكان متحصناً في هذه المدينة وبعدها هاجمه العثمانيون عدة مرات ارتدوا عنه بلا فائدة لترداد الانكشارية وطلبهم الكف عن القتال واتفق ان طلب البولونيون أيضاً الصلح لموت قائدهم المذكور وغيره من ضباطهم في القتال فعقد الصلح بين الطرفين وبعده التوقيع على شروطه التي لم يستفد منها العثمانيون أدنى فائدة عاد السلطان الى استانبول (١٠٢٩ هـ) ومن حوادث تلك السنة ان اشتد البرد جدا حتى جد البوسفور وصار الناس يعبرون على الجسر من استانبول الى اسكدار

ولما عاد السلطان عين القدر دار مصطفي باشا قبودا نال اللذونما العثمانية وعزم على السفر الى بلاد الشام ومصر وشاع انه متوجه من هناك لتأدية فريضة الحج ولما كان يسير في تدمير وفاق الانكشارية لما ظهر منهم من التوقف والتردد في محاربة بولونيا وزيادة طغيانهم وكونهم أصبحوا أصحاب العقدة والحل في الدولة هاجروا وهاجروا ما بلغهم نية السلطان على الحج وألزموا المفتي باخراج فتوى مضمونها ان السلاطين لا يتكفون الحج وبعثوا للسلطان بعض الشيوخ يعلمونه بالمسركز الحرج الذي بات فيه فلم يلتفت الى أقوالهم بل هتدهم وقال وهو في غضبه اني سأدمر وفاق هؤلاء المردة للملاعين فلما عادوا وأخبروهم بما حصل هاجروا هياجاً كبيراً ونادى أحدهم بالسلطان مصطفي وتبعه الباقون ثم هجموا دفعة واحدة على السراي وأخرجوا السلطان مصطفي من حبسه وعند ذلك خاف السلطان وندم على ما فعل وأراد أن يسلم للعصاة دلاور باشا الصدر الأعظم وسليمان أغا أنغاي السراي فلم يرضوا بذلك وقال لهم العلماء ان السلطان مصطفي مسلوب العقل ولا يجوز مبايعته فهجموا على العلماء أيضاً وألزموهم البيعة له وأخيرا قضوا على السلطان عثمان وأخذوه ماشياً بكل احتقار حتى أوصلوه الى بعض الشكنات العسكرية وحبسوه فيها (١٠٣١ هـ) ثم نقلوه الى

قلعة يدي قله ولم يكتفوا بجعله بل قتلوه بأمر داؤد باشا الذي تقلد الصدارة في أثناء ذلك ولما زاد لهيب الثورة تجمع كثيرون من أهل الفساد و صاروا يقتلون كل من خالفهم و بنهبون خزائن الدولة ثم قامت طائفة تطالب بدم السلطان عثمان المقتول ظلمًا فقتلوا داؤد باشا و كل الذين لهم يدي قله

استيلاء الشاه عباس على بغداد - اعلم انه في أثناء هذه الاضطرابات والاختلالات قامت دولة العجم واستولت على كثير من البلاد التي كان أخذها العثمانيون منها سابقا وكانت بغداد في كفالة الوزير يوسف باشا وحدث انه وقع بينه وبين أحد كبار العسكرة للدعو بكر أعاصو باشي اختلاف أدى الى التعزيب ثم ان بكر أعاصر يوسف باشا في القلعة الى ان تمكن من قتله والتغلب على بغداد و قد ساعده على مدسوطته اختلال أحوال الدولة اذ ذلك ثم أظهر العصيان والاستبداد ثم وجهت عليه الدولة جيشا تحت قيادة حافظ أحمدا باشا والي ديار بكر فلما بلغه ذلك كتب الى الشاه عباس يستقدمه للاستيلاء على بغداد وأرسل من ينوب عنه لذلك فأرسل الشاه من يستلم منه مفايح المدينة بحسبة فرقة عسكرة بمؤلفة من ثلثمائة جندي وأنعم على بكر الصو باشي المذكور بالعمامة الخاصة بطائفة قزل باش انا انه قبل وصول العجم الى بغداد و وصلت جيوش الدولة و أقامت الحصار عليها ولما خاف بكر الصو باشي المذكور أن يرسل لاجد حافظ باشا الوزير مكتوب يطلب فيه ان يوليه على مدينة كلس وهو يتعهد بطرد الاجرام فلم يقبل منه حافظ باشا مخافة ان يكون ذلك خداعا منه وفي ذلك الوقت وصل رسول العجم الى بغداد وأرسل يقول لحافظ باشا ان بكر الصو باشي تابع الان لشاه العجم فان كنت تريد حفظ الصداقة بين البلدين اترك بغداد و اذهب لحال سيديك فغضب حافظ باشا لذلك وأجاب به غليظ الكلام ثم لما رأى حافظ باشا انه لا يمكنه فتح بغداد لحصانتها وكثرة جيوش العجم الآتية تباعا وان حالة الدولة لا يمكنها من الاهتمام ببغداد أكثر من غيرها احتال لذلك بحيلة وهي انه كتب لبكر الصو باشي بالولاية على بغداد وترك حصارها وعاد على طريق الموصل ولما وصل خبر الولاية الى بكر الصو باشي ورأى أنه بلغ مرامه قتل جماعة شاه العجم و علق رؤسهم على شرفات السور وأخذ العمامة التي بعثها اليه الشاه عباس و وطنها برجله وأرسل رسولا الى حافظ باشا يشكر فضله أما الشاه عباس فانه لما بلغه ما فعله بكر الصو باشي حضر بالجيوش وحاصر بغداد بنفسه و بعد حروب يطول شرحها خدع الشاه عباس محمدا بن بكر الصو باشي المذكور بالوعدو الباطلة وكان محمدا هذا أخا لبكر من والده و بيده أمر بحراسة القلعة ففتحها للاعجم لئلا يدخلوها وبذلك غلب الشاه عباس المدينة (١٠٣٢ هـ) وقبض على بكر الصو باشي وسجنه في قفص من الحديد ثم أحرقه في صندوق مليء بالرف والكبريت و بعد ثلاثة شهور أمر الشاه بقتل أخاه محمدا الخائن المذكور أيضا

عصيان أبان باشا - لما انتشر خبر قتل السلطان عثمان قام أبان باشا بكر بك ارضروم مطالبا بشاره واجتمع عليه نحو ثلاثين ألفا من الاتباع و صار يقتل من يقابله في طريقه من السباهية والكبكرية الى أن وصل سيواس وألزم بعض أمراء تلك الاطراف بالانضمام اليه وأخذ يخرب البلاد و يقتل العباد و ينادي بأنه سيد نخل استانبول و ينتقم من كافة طبقات الجنود فهال الدولة أمره وحافت امتداد نفوذها واجتهد الوزير في توقيف حركته فلم يوفقوا حتى ان السلطان عزل لذلك أربعة

من الصدور في مدة ثلاثة شهور وكان ملك روسيا أرسل سفيرا الى الدولة في ذلك الوقت يطلب عقد اتحاد معها لمحاربة بولونيا ومحو استقلالها فلم تتمكن الدولة من المفاوضة معه بالنسبة لارتباك الاحوال وأخيرا رأى رجال الدولة وقواد الجيوش سوء الحالة تدموا على ما حصل منهم من الموافقة على خلع السلطان عثمان وقتله وصموا على خلع السلطان مصطفى ثانية ولما علم السلطان بذلك بادر فخلع نفسه بعد ان حكم سنة وشهرين (١٤ القعدة ١٠٣٢) وبويع لابن أخيه السلطان مراد الرابع أما السلطان مصطفى فأنه هجرت الى ان مات وعمره ١٦ سنة

(١٧) السلطان مراد خان الرابع ابن السلطان أحمد خان الاول

(١٠٣٢ - ١٠٤٩ هـ)

مخاربه العجم وثورة أبازة باشا - جلس هذا السلطان على تخت وعمره ١٤ سنة ولما علم أن الصدر الاعظم كسكش على باشا أخفى عليه خبر سقوط بغداد في يد العجم عدته خائنا وعزله وعين بدله بكر كس محمد باشا فكان أول شيء أجراه هذا الصدر انه توجه بجيش جرار لاطفاء ثورة أبازة باشا وبعد واقعتين حصلت بينهما تمكن الوزير من تشتيت شمل جموع أبازة باشا واستأن من كثير من قواده وبعد ذلك أرسل أبازة باشا يلتمس العفو من السلطان فعفاه عنه وجعله بكر بك ارضروم كما كان (١٠٣٤ هـ) ولما جدت نيران هذه الفتنة من جهات ارضروم وسيواس أخذ الصدر المذكور يجهز الجيوش بعد عودته الى نوقات لاسترداد بغداد الا أنه مات بعد عودته بقليل ولما وجه مسند الصدارة الى حافظ أحمد باشا تجهز جيشا بديار بكر يبلغ عشرين ألف مقاتل ثم سار به وحاصر بغداد وانتشب القتال ودام أياما ولماطال الحصار سئمت العساكر وأخذوا يهزؤون بحافظ باشا لانه قال لهم ان مفتاح بغداد في جيبه ثم نأمر واعليه وعزله وجسوه في قلعة خارج بغداد وأقاموا عليهم مراد باشا ثم عزله هو أيضا وأرجعوا حافظ أحمد باشا ثم قاموا عليه أيضا يريدون قتله وأخيرا اتفقوا معه ثم نهض بهم راجعا عن حصار بغداد بعد ان دفن في الارض ما كان يجيشه من المدافع وآلات الحصار وأرسل الشاه عباس خلفه فرقة من الجنود تتعقبه فعاد اليها وأوقع بها ثم قتل مراد باشا لانه السبب في نحر يك طوائف السباهية وعمردهم ثم تقدم الى الموصل وأقام به حتى أتاه أمر السلطان بالتقدم الى حلب حيث يصله المدد وبعد ذلك عزل حافظ باشا ووجهت الصدارة الى خليل باشا

ولما عاد حافظ باشا مهزوما تقدمت الاجمام واستولت على قلعة أنسخنه وحاصروا قارص ولما وصل الصدر الجديد خليل باشا الى مركز الجيش بتوقات عين أبازة باشا والى ارضروم المتقدم الذكر لاسترداد أنسخنه الا أنه بينما كان يستعد للسفر أتى أمر بتعيين قائد آخر بدله يدعى حسين باشا فخلق لذلك أبازة باشا وادخله الخوف واحتمل حتى اغتال حسين باشا وأتباعه شافعاصا الطاعة ثم تحصن في ارضروم وأتى الصدر خليل باشا وحاصره الا أنه لم يتمكن من عمل شيء لنقص ذخائره الحربية ولما توفي خليل باشا بعد ذلك ولّى الصدارة خسرو باشا ولما كان من رجال اليكبرية ومن ذوى التدبير والشدة تمكن من تنظيم الجيوش وقمع من تمرد منها وبعد ان أصح ذات البين بين شريف

مكة ووالى اليمن ووالى مصر قاد جيشا يبلغ ١٥٠٠٠٠ مقاتل وتقدم لحصار بغداد وأرسل وهو فى الطريق جيشا مع جعفر باشا بكركى قارص فهزم جيش العجم الذى كان يقصد مساعدة أبازيه باشا ثم أخضع أبازيه باشا (١٠٣٨ هـ) ولما حاصر الصدر المذكور ببغداد لم يتمكن من فتحها فعاد الى الموصل وهناك صنع وليمة لبعض طوائف الجنود ولما اجتمعوا خرج عليهم من أكتفهم لهمم فقتلواهم لانهم السبب فى عدم نجاح حصار بغداد ثم طلب الامداد من الدولة لاعادة حصار بغداد وبعد حوادث طويلة ماتت الشاه عباس بعد ان حكم ٤٣ سنة فأرسل حفيده الشاه صفين الذى جلس مكانه جيشا عجميا يبلغ ٤٠ ألف مقاتل تحت قيادة زينل خان للمحافظة على الحدود فقباله الصدر الاعظم خسرو باشا وهزمه أمام قلعة مهربان وقتل من الايرانيين ٣٠ ألف نفس واستأمن زينل خان بمن معه لأنه قتله أيضا وهرب الشاه وأغار الصدر الاعظم خسرو باشا على جهات همذان ودر كزين ونهاوند (١٠٤٠ هـ) وبينما كان يقصد مهاجمة أصفهان مقر الدولة الصفوية أتاه مر سوم السلطان بالعودة الى حصار بغداد ولما كان يستعد لتفاد الامر عزل من الصدرة وولى مكانه الصدر الاسبق حافظ أحمد باشا (١٠٤١ هـ)

احوال البحرية تبنى الوقت المذكور - بينما كانت الدولة العثمانية مشتغلة بمحاربات العجم كانت السفن التى تشييد بدور صناعاتها التزال تبنى على الطرز القديم الذى لا يناسب الزمن الذى ترفت فيه صناعة السفن نوعا وزيادة على ذلك كان ملاحوتك السفن غير مدربين على الاعمال البحرية لعدم خروج الاساطيل العثمانية الى البحار كلسابق وزد عليه ان فرق اللوندات التابعين لوجاقات الجزائر وتونس وطرابلس وهى التى كانت تساعد الدولتين العثمانية فى أغلب المحاربات البحرية بغير نظامها ووضع لها نظام صيرها مغلولة الايدى عن العمل للتشكيات المتردفة من دولة فرانسوا وكثرة والبنادقة وبما وضع لها من النظم الجديدة ترك فرق اللوندات أيضا الاعمال البحرية والغزوى فى البحار واشتغلت معظم سفن الاربعة ووجاقات المذكورة بالتجارة البحرية فضعت بذلك قوة الدولة البحرية ومع هذا فان الحكومات الاوروپاوية المذكورة لم تبطل الشكوى بل كان اذا تعرض لسفهم بعض قرصان الاجانب نسبوها للوجاقات العثمانية وما ذلك الا لقصده اضعاف القوة العثمانية البحرية واطفاء شهرتها ولما رأت الدولة المسابقات والترقيات الحاصلة فى بحريات الدول أو عززت الى رؤساء البحرية بتجسيم السفن الحربية وتشبيدها على النمط الجديد لتقوم بها ودعى ملاحوها بالقلوب نجمة بعد ان كانوا يدعون فى الازمنة السابقة بالعزب ثم أخذت الدولتين العثمانية ترتب طوائفها على الهيئة الاوروپاوية وتوظف بها قبودانات وملاحين مخصوصين وجعلوا يدخل السفن مطابح لعموم الطائفة بعد ان كان كل فرد منها يطبخ منفردا لنفسه أو بالاشتراك مع بعض أقرانه وبذلك انتظمت أحوال وهيئة البحرية العثمانية نوعا وفتحت الدولة مجلة مدارس بحرية لدراسة فن الملاحة فيها ورتبت الاقلام والدواوين المخصوصة لدور صناعاتها فانظمت هيئتها انتظاما وافق ذلك الوقت ولما خرجت الدولتين العثمانية الى البحر الاسود سنة ١٠٣٤ هـ (١٦٢٤ م) لمطاردة قرصان القوزاق الذين كانوا أغاروا على سواحل الدولة ونصبت الدولتين لهم جلا عليها بمائتين وخمسين سفينة من نوع الشيقة وكانت الدولتين مؤلفة من خمسين سفينة بحرية تحت قيادة القبودان رجب باشا لأنه لسكون الهواء لم يتمكن من اجراء

حركتها بالشرع وبعد محاربة دموية تمكن القوازيق من الدخول في السفن العثمانية حتى كادوا يستولون على بعضها لولا هبوب الريح الذي تمكن به السفن العثمانية من الحركة ثم انتصرت على سفن القوازيق وأوقعت بها نكالا بحيث لم يتخلص منها سوى ١٥ سفينة ولما قفل رجب باشا المذكور سنة ١٠٤١ هـ في فتنه اليكچر به خلفه جتالجه حسن چلبى باشا ثم عزل بعد عودته بالدونما من البحر الابيض وخلفه جانبولا دزاده مصطفى باشا الذي خرج بالدونما (١٠٤٢ هـ) وحارب عمارة الاسبانبول واستولى على سفينة من سفنهم ثم خلفه قره مصطفى باشا المعروف أيضا بكنكش (١٠٤٥) وهو الذي رافق السلطان في حرب العجم كما سيأتي ولما تولى الصدارة العظمى (١٠٤٨ هـ) خلفه على العمارة دلى حسين باشا وخرج بالاساطيل لمعاينة قرصان القوازيق لما أتوه من الاعمال المخلة بالامن وبعد أن نكل بهم عاد غانما

ذكر الثورات العظيمة — لما أشيع خبر عزل خسرو باشا من الصدارة بين العساكر أثناء حرب العجم قامت جميع صفوفهم على قدم تنادى بصوت واحد منهم لا يقبلون غير خسرو باشا سردار عليهم وهموا على الأمور التي حضر بالمرسوم السلطاني وكادوا يبطشون به لولا أن خسرو باشا تدارك الأمر بنفسه وامتلأ أمر السلطان مخافة الاضطراب وأقام في توقات ثم إن السلطان طلب حضور الجيش الى استانبول ولما وصل عمت الثورة جميع أنحاء العاصمة وامتد الهياج الى الاناضول والقرمان وسيمواس حتى خيف على حياة السلطان وكان رجب باشا الذي انفصل من القبودانية وخلفه جتالجه حسن چلبى باشا يهيج الثائرين ويقومهم ثم هاجم أهل الفساد من طوائف السباهى سراى السلطان فأطل عليهم السلطان مراد بنفسه من شباك وأخذ ينجحهم وينذرهم فلم يرتدوا بل صموا على طلب الصدر حافظ باشا وشيخ الاسلام يحيى افندى الشهير والد فترار مصطفى باشا وأربعة عشر شخصا من خواص السلطان وفي أثناء ذلك الهريج قال حافظ باشا للسلطان جعلت فداك يا مولاي وتقدم نحو الجوع ايسأل منهم عن مرادهم ويمنعهم فهجموا عليه وقطعوه إربا إربا واتجبروا رجب باشا بالسند الصدارة واختفى يحيى افندى وتولى مسند المشيخة الاسلامية حسين افندى أما السلطان فإنه اغتاض جدا من حدوث هذه الفتنه وأظهر الشدة والثبات وأمر بقتل رجب باشا المذكور وأراح منه العباد ومع ذلك فإن الفتنه لازالت قائمة ونسب تجر يكها أيضا الى خسرو باشا وهو في توقات ومن قتلوا في هذه الثورات الدقترار مصطفى باشا وأغا اليكچر به حسين آغا ومن التدمان موسى وچلبى وغيرهما ثم أخذ السلطان يجتهد في إطفاء نيران الفتنه بالشدة التي استعملها فقلد مسند الصدارة محمد باشا الارناؤدى فبجث عن رؤساء الفتنه وقطع دابرهم واحدا بعد واحد فهابته اليكچر به وداخلهم منه الرعب وهدأت الاحوال في الظاهر وفي سنة ١٠٤٢ هـ تمكن أيضا من تطهير الاناضول وصاروخان والقرمان ومرعش وحب من العصاة والخوارج وبذلك أطفئت الفتنه من كل الجهات ثم التفتت الدولة لتسوية أمر الخلاف والتزاع الحاصل بين أشهر أمراء مكة فأزالتهم مهتده فاطمة أنت بذلك قلوب أهالى تلك البقاع

وبعد ذلك تقدم الوزير الاعظم محمد باشا بالجيش الى جهة الشرق (١٠٤٣ هـ) واسترد خيل

باشا قلعة وان ولما وصل الصدر الى مدينة حلب أخذ في قتال علي بك ابن المعنى أمير لبنان وكان شق عصا طاعة الدولة منذ ٣٠ سنة وكانت الدولة غير ملتقطة اليه لاشتغالها بما هو أهم وبعد عدة وقائع تلاقى الصدر مع الامير المذكور بصحراء صق فبدد شمله وأسره وبعثه الى استانبول مكبلا إلا أن السلطان عفا عنه وورده الى وطنه وحارب والى دمشق أيضا فخر الدين أمير الدروز لشقه عصا الطاعة ثم هزمه وأسره هو وولديه وأرسلهم الى الاستانة أيضا فقبلهم السلطان بالكرامة إلا أنه لما أراد أحد أقرابه على الدولة بعد ذلك بقليل واتضح أن ذلك بايعا زفر الدين المذكور وولده الأكبر أمر بهما السلطان فقتل عقابا لهما (١٠٤٤ هـ) وأمر فقسوا وجبل لبنان وجبل الدرور الى قطائع وضعت تحت ادارة الوالى العثمانى رأسا عسى بذلك يمكن استئصال الفتن منه وفي تلك الاثناء تعدى ملك بولونيا ولادسلاس السابع على حدود السلطنة العثمانية وفتح بعض القلاع التابعة لها فاضطر السلطان الى الخروج بنفسه الى أدرنة ليستعد منها لخرجه إلا أن أبازه باشا أسرع وجمع جيشا من التتار ونازل ملك بولونيا المذكور وكسره وأسره كثيرا من جموعه فاضطر ملك بولونيا لطلب الصلح فأجيب على شريطة أن يدفع للدولة مبلغا جسيما في نظير غرامة حربيه ثم عاد السلطان الى دار الخلافه سفا السلطان الى آذربيجان وفتح روان - لما كانت سوق الحرب قائمة بين الدولة ومملكة العجم منذ زمن طويل لم تنقطع وان كانت توقفت في بعض الاحيان أى عقب موت الشاه عباس للاسباب السابق ذكرها صمم السلطان على قيادة الجيش بنفسه لفتح بغداد واستعد للحملة على العراق إلا أنه حوّل بعد ذلك عزمه وأراد فتح مدينة روان فقصدتها (١٠٤٤ هـ) بعد ان ترك بيرام باشا للحفاظة على دار الخلافه وفي أثناء زها به قتل كثيرا من الامراء الجلالية الذين تحقق له ارتكابهم المفسد والتعديت ثم تقدم وفتح روان وكان قصده تمضية فصل الشتاء في حدود العجم ثم يقصد اصفهان في الربيع الا انه أصيب بالنقرس في ركبتيه فعاد الى الاستانة وترك مرضى باشا للحفاظة على روان وأخذ معه خان روان المدعو أمير كون وكان استسلم للدولة (١٠٤٥ هـ) ولما أقبل الشتاء جمع الشاه جيشا وحاصر روان واستردها بعد حصار جرح فيه مرضى باشا جرحا بالبلغمات به ولما كان الصدر الاعظم محمد باشا بالجيش في أرض روم ولم يجد مرضى باشا قصدا كما ظهر من التحقيقات التي أجريت بعد ذلك لكراميه الصدر لمرضى باشا عزل الصدر المذكور وولى مكانه بيرام باشا (١٠٤٦ هـ)

استرداد بغداد - لما كانت مدينة بغداد من المراكز المهمة التي يجب ان تكون في يد الدولة وكان السلطان صمم على استردادها بنفسه ولم يصر فنه عنه الا فتح مدينة روان أمر سنة ١٠٤٧ بالتجهيزات ثم قصد العراق على رأس جيش يبلغ مائة ألف مقاتل ورافقه شيخ الاسلام محيي أفندي والقبودان قره مصطفي باشا وقبض وهو في الطريق على رجل كان يدعى المهدي ويسمى بالشيخ كامل وقتله بعد ان أفتى له العلماء وأراح من بدعته العباد ولما وصل الى الموصل قدم عليه سفراء من قبل ملك الهند شهاب الدين جهان شاه وأعلموه ان ملكهم سيهجم على بلاد العجم من جهات قندهار ثم بعد أيام توفي الصدر الاعظم بيرام باشا فتولى الصدارة طيار محمد باشا ولما قرب السلطان من حدود العجم كان انضم الي جيشه جميع الجنود المعسكة ببلاد الاناضول حتى بلغ جيشه فيما قيل ٣٠٠ ألف

مقاتل ثم وصل الجيش أخيرا الى بغداد بعد خروجه بمائة يوم وسبعة وتسعين يوما وفي الحال
أحاطت العساكر بأطرافها وكان الشاه لم يبلغه تقدم الجيش السلطاني أتى من تبريز بالجيش
والتقى بعساكر الدولة على شاطئ الدجلة فقاتلوه قتالا شديدا ثم هزموه هزيمة منكرة ثم شدوا
الحصار على بغداد وسلطوا المدافع على الابراج وكانت مائتي برج تخربت وهدمت كثير منها
وأمر المهندسون بعمل لغم عظيم وملؤه بالبارود ولما أطلقوه هدم جانيا عظيم من الاسوار فلما رأى
أهل بغداد ما دهمهم بعثوا إلى الشاه بانهم سيضطرون الى التسليم ان لم يتجدد لهم فبعث الشاه الى
السلطان في طلب الصلح فلم يقبل منه ثم شد الحصار وأكثرت من الهجوم ليلاتها حتى قتل الصدر
الاعظم وبعد مضي أربعين يوما من حصار المدينة استأمن محافظها بكباش خان فدخلها الفاتحون
يوم الجمعة الثامن من شعبان سنة ١٠٤٨ هـ وقتلوا في ذلك اليوم من العجم أكثر من عشرين
ألفا وأسروا كثيرا من رؤسائهم ولما كان مرض التقرح يشتد بالسلطان ترك أمر الصلح والحرب
بيد الصدر الاعظم قره مصطفي باشا الذي تولى بعد محمد باشا ورجع هو الى دار السلطنة بالمناغانما
منصورا وكان لدخوله فيها احتفال عظيم وكان معه خمسون من خانات العجم على بسهم مكبلين
بالسلاسل وكان حاملا بيده خزمة من الاسلحة مشتملا جلدهم كما فعل اسكندر الاكبر حينما فتح
مدينة بابل وبعد عودة السلطان طلب شاه العجم الصلح من الصدر الاعظم وأرسل لذلك سفراء على شرط
ان تستولى الدولة على بغداد وترد ليران مدينة روان وبعد ان نقل الصدر هذه الشروط الى السلطان
وتبدلت المخابرة فيها بين الطرفين تم أمر الصلح وأمضت شروطه (١٠٤٩ - ١٦٣١ م) ثم
اشتد المرض بالسلطان فعاجلته الوفاة في السادس عشر من شوال من السنة المذكورة وكان
رحمه الله عاقلا نقيب الرأي شجاعا له قوة يفوق بها أعظم الابطال حتى لقبه المؤرخون باسكندر الثاني
وكان على جانب عظيم من الاقتدار والهمة قبض مع صغر سنه على زمام الادارة وهي على ما هي
عليه من الاختلال فاحسنها وقهر المفسدين ووقع العصاة واستأصل الطغاة من جنود الكيخسروية
الذين قتلوا أخاه ومدحته الشعراء وقد لقب هذا السلطان بمؤسس الدولة الثانية لانه أحيانا بعد
السقوط ونشرها بعد الحشر بسبب تلك الثورات وأكثر من الفتوحات وأصلح حال ماليها حتى
أمست في سروسن لها النظمات العادلة والقوانين الموافقة

(١٨) السلطان ابراهيم خان ابن السلطان أحمد خان الاول

(١٠٤٩ - ١٠٥٨ هـ)

لما لم يترك السلطان مراد خان الرابع من يرث تحت السلطنة بعده من صلب ال عثمان الا
السلطان ابراهيم جلس هذا على التخت بعد وفاة السلطان أحمد وكان عمره اذ ذلك ٢٥ سنة
وأقيمت له حفلة المبايعه على الطريقة القديمة ووزعت عطايا بالجلوس على أربابها
وقد زاد احتلاطه بالنساء كثيرا بمجرد جلوسه كثيرا للذرية حتى أدى به الامر أن هامهن شغفا
ولازم الحرم فصار لا يخرج منه وقد أثر ذلك على صحته فأصبح نحيلًا ضئيلا ولهذا كان نساء السراي

السلطانية نفوذاً عظيماً وتدخلت في أمور الدولة بأجمعها وبمساعين وصل رجل يدعى حسين أفندي ويعرف بجواجه جنجى الى رتبة قاضى العسكر في زمن وجيز وصار يتدخل في كل أمور الدولة الا ان الصدر الاعظم قره مصطفي باشا لما كان من أصحاب الدراية لم ترج له يد هذه الاعمال المفسدة وبمساعيه تمكن من قطع دابر هؤلاء الاشقياء (١٠٥٣ هـ) وتمكن أيضاً من تسوية مسألة المسكوكات وكانت من المسائل المهمة أحدثت ارتباهاً كافي أحوال الدولة وفي سنة ١٠٥٠ سعى هذا الوزير حتى جدد المعاهدات مع الدول الاوروبية وبوابة وكل ذلك بمشورة ومساعدة والده السلطان المسماة ماهيبيكر سلطانة وسوى المعارضات التي حدثت بخصوص حدود النمسا والمجر على حاله ترضى الطرفين ثم أتت الجزية من بلاد الاردل وراغوزة والهدايا من روسيا والجم على يد السفراء فراجت الاحوال ولما كان استعمال التبغ لا يزال ممنوعاً لما أفتى به بعض العلماء ولما أحدثته من الاضرار شدد هذا الصدر في هذا المنع حتى انه لشدة التضييق والجزاء على مستعمله قالوا ان كل الافيون واستعمال السعوط راجت سوقه سماً في جهات غلظة وفي سنة ١٠٥١ قبض على الاشقياء الذين حرقوا كنيسة بروسة وعاقبهم أشد العقاب وبعث بقوة عسكرة الى ولاية بغداد لردع العربان الذين أخذوا في قطع الطريق ونهب القرى فأعاد النظام والسكينة بالولاية المذكورة

اعمال البحرية في العهد المذكور - لما تعين سياوش باشا مستند القبودانية (١٠٥١ هـ) خرج بالدونما لاسترداد قلعة ازاق الواقعة شمالي بحر اوف وكان القوزاق استولوا عليها في زمن السلطان مراد الرابع الا انه لما لم ينجح عزل وتوفي بعد أيام نغم على ما أصابه وخلقه في رياسة البحرية أوزون بياله باشا فخرج بالدونما الى البحر الاسود ومعه جيش من ٢٦٠٠٠ مقاتل تحت قيادة اسلام باشا وتمكن من استرداد ازاق وتعقب القوزاق حتى قطع دابرهم من تلك الاطراف وعاد الى دار السلطنة نظراً غانما تمضية فصل الشتاء وفي ربيع سنة ١٠٥٣ هـ خرج الى البحر الابيض وقبض على سفينة لقرصان القرنج وأحضرها معه الى الاستانة ولما وصل رموه بتهمة قتل بسببها وخلقه على رياسة البحرية والى رودس أبو بكر باشا (١٠٥٤ هـ) وخرج بالدونما في فصل الربيع كالمعتاد وبعد تجوله في البحر الابيض المتوسط وعودته الى الاستانة عاجلته الوفاة وخلقه في رياسة البحرية القبودان يوسف باشا الذي اشتهر بفتح قلعة خانية من أعمال جزيرة كريد وبعد عزل قره مصطفي باشا من الصدارة لسبب عسر المالية الذي حصل من كثرة وجود العدد العديد بالسراى من الخواري خلفه سلطان زاده محمد باشا (١٠٥٤ هـ) ولاختلاف حصل بينه وبين القبودان يوسف باشا عزل وولى الصدارة من بعده صالح باشا فلم يلبث فيها الاياما ثم عزل ووجهت الى هزار باره أحمد باشا (١٠٥٧ هـ) وكان دنيا من نسيان لهذا خرجت عليه الجنود وقتلوه

ابتداء محاربة جزيرة كريد (١٠٥٥ هـ) - لما رأت الدولة العثمانية انه صار في قبضتها معظم سواحل البحر الابيض المتوسط وخصوصاً سواحل أفريقية رأت أن من الضروري فتح جزيرة كريد لحفظ وحراسة مستملكتها وسواحلها لان موقع الجزيرة الجغرافي يستدعي الاهتمام بذلك فأخذت تتخير الاوقات وتنتظر الفرص وبينما كانت المانيا وأوربا مشغولة بحروبها بخصوص

مسألة البروتستانت اتفق انه في سنة ١٠٥٤ هـ (١٦٤٤ م) تعدت بهض سفن قرصان مالطة وقبضت على سفينة عثمانية تجارية كان بها حجاج وبينهم سنبل أغاناى دار السعادة ولما وصلت سفن القرصان المذكورة الى جزيرة كريد تقاسم أصحابها ما بها من الاسلاب مع حاكمها ليدافع عنهم وبعد ان أقاموا مدة في هذه الجزيرة ارتحلوا عنها الى جزيرة مالطة وأخذوا معهم تلك السفينة هذا ولما علم السلطان بهذا الخبر غضب جدا على هذه التعديت وأصدر أمره في الحال بجمع دور الصناعات يذل الاهتمام في بناء السفن واصلاحها لتقوية الدولتها وأمر الولايات بتجهيز الجيوش وعين القبودان يوسف باشا الذي تقلد رياسة البحرية (١٠٥٤ هـ) بعد أنى بكر باشا سردار على الجيوش أيضا وبعد ان استعرض هذا القائد جنود البحرية في نظارة البحرية ووزعهم على السفن (١٠٥٥ هـ ١٦٤٥ م) ثم أقطع بالدونما وكانت مشكلة من ١٥٠ سفينة بحرية بها نحو مائة وخمسين ألف قطار من البارود ونحو خمسين ألف من مقذوفات الحديد وخمسين مدفعا للحصار وغير ذلك من الآلات الحربية الاخرى ولما خرجت هذه العمارة من الدردنيل توجه منها تسعون سفينة لينا سلايك وستون سفينة لينا جشمه لتأخذ منهم العساكر التي كانت استعدت بالجھتين المذكورتين واكثرت العمارة أيضا خمسين سفينة تجارية لحمل الارزاق والمهمات وبعد ذلك قصدت هذه السفن جميعها ميناناوارين للسفر منها الى مالطة بعد ان التحق بها أساطيل طرابلس الغرب وكانت عثمانية تحت قيادة حاكم طرابلس عبدالرحمن باشا ووصولهم جميعا الى ميناناوارين أخذوا المياه اللازمة لهم ثم دعا السردار كافة الامراء وقرأ عليهم الفرمان السلطاني الأمر بالسفر الى كريد لاجل فتحها ثم أبحرت العمارة قاصدة تلك الجهة الى أن وصلت الى ساحلها وأنزلت الجيوش في مكان يدعى غرامبوسة ثم وصلت الجيوش بعد يومين قرب بلدة خانبة وبقيت على بعد أربعة أميال منها بين ساحل كريد وجزيرة ايا تودوري (Théodoro) ثم ألفت مراسيها وخرج منها كوجك حسن باشا بكر بك الروملى بعساكره وكل من مراد أغانا كخذاي اليكبرية ومن معه من الجنود بمهماتهم وعددهم وعسكر وابساطى نهر بلاطانية واستولت الدونما على القلعتين الموجودتين بجزيرة تودوري المذكورة ثم حاصرت الجيوش قلعة خانبة الشهيرة من كل جانب الى ان استولت عليها بعد خمسين يوما من حصارها وذلك في ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٠٥٥ هـ (١٦٤٥ م) وبعد مضي أربعة عشر يوما من افتتاحها حضرت عمارة البنادق للمعالج المعجى العثمانيين تحت قيادة الاميرال العام بارونيموروزونى (Morozini) فمرت امام القلعة المذكورة ثم دخلت ميناسودة وهو أكبر نغر في جزيرة كريد وبعد ان جمع الاميرال المذكور كافة سفن البنادق الموجودة بجماء الجزيرة المذكورة في مركز واحد وخرج بها وأتى امام خانبة وكانت السفن الكبيرة من الدولت العثمانية مستقبلة بجوار جزيرة ايا تودوري وكانت الصغيرة في ميناخانبة وكان البنادق طلبوا مساعداة أورويا فلم يجبهم لقيام الحر و بين عمالكها وأرسل لهم أهل مالطة عشرين سفينة وأمدتهم الفرنسيون بالنقود سر تخافة الاخلال بالمعاهدات التي بينهم وبين العثمانيين ولما أراد سردار الجيش اخراج الدولت في صباح اليوم المذكور لمحاربة البنادق اتفق قيام زو بعة قوية جلبت اضرارا عظيمة بعمارة البنادق

فانهزمت بدون قتال وينماهى تسيرواصادفها في الطريق ثلاثة غلايين من الدونمما العثمانية فاشتبك القتال بينهما وبعد قتال عنيف أسرا البنادقة غليوناً واحداً وتمكن الاثنان من الهرب ولما أخبرتا بما حصل أقطع قيودان باشا سريعا بالدونمما العثمانية مقتنياً أثر عمارة البنادقة فلم يتمكن من لحاقها ولما عاد الى خانبة أخذ في اصلاح ما تخرب من قلعتهما ووضع بها العدد الحربية والارزاق وأبقى بها أحد القواد ولما عاد هو بالدونمما الى الاستانة أمره السلطان بنقل حسين باشا القيودان الاسبق ومن معه من العساكر الى جزيرة كريد للمحافظة ثم عادت الدونمما الى الاستانة بحلول عيد الفطر ثم ان السلطان أصدر أمره الى القيودان يوسف باشا بأن يخرج بالاساطيل لفتح قلعة قسديه ولما كانت بعض سفن العمارة محتاجة للاصلاح سيموا وان فصل الشتاء قارب الحلول طلب إرجاء هذا الامر للربيع حتى تتم الاصلاحات اللازمة فتغير خاطر السلطان من هذا القيودان وسعت الوشاة في حقه الى ان قتله السلطان هو واخرين وعين بدله لياسة البحرية الوزير موسى باشا فاجرى في فصل الربيع قاصداً جزيرة كريد ولما وصل الى جزيرة اغريبيوز (Ngrepont) تلاقى مع سفن للقرصان فاراد ضبطها الا انه قتل في المعركة وتعين بدله الافتقدار موسى باشا قيودان اعاما للعمارة وأمره السلطان بالذهاب الى البحر الابيض المتوسط لنقل عساكر من الروملى والناضول الى جزيرة كريد وقد صادف في أسفاره موانع كبيرة ومشقات عظيمة من سفن الاعداء والقرصان فعزل من القيودانية وتعين بدله فضلى باشا الاماد فقام بجمعها اليه وأخذ في نقل الامداد والذخائر الى جزيرة كريد وصادف مرة عمارة البنادقة ووقع بينها وبينه محاربة لم تكن ذات شأن يذكر وبعد عودته عزل وتعين بدله محمد باشا عماد زاده (١٠٥٦ هـ) ولما كانت جزيرة كريد ذات أهمية عظيمة تجارية وعسكرية وكانت البنادقة يخشون جداً من سقوطها في يد الدولة العثمانية كانوا لا ينفكون عن عرقلة مساعي العثمانيين والتعرض لسفنتهم في البحار حتى انهم في سنة ١٠٥٧ هـ (١٦٤٧ م) أرسلوا الجنرال طوماس موروزوفى بهارة مشككة من ٢٤ سفينة من نوع القليون الى بوغاز الدردنيل لمنع الامدادات التي ترسلها الدولة العثمانية الى جزيرة كريد وتمكن الجنرال المذكور من الاستيلاء على قلعة جزيرة بوغجه اطه (Ténédos) الواقعة في فهم المضيق المذكور ولما أراد محمد باشا الخروج بالمباراة لم يتجاسر حينئذ فأمرو السلطان بقتله حيث وجد بوجهة البوغاز وتعين ونيق أحمد باشا مكانه قيودانا وكانت الدولة أرسلت في خلال ذلك أسطولاً بحرياً مريكاً من خمس سفائن تحت قيادة حين باشا ومعها جيش برى فتمكن في وقت قريب من ضرب سفن الجنرال طوماس المذكور وطرده عساكره من جزيرة بوغجه اطه المذكورة ومن قلعتهما وانهمزمت عمارة البنادقة شرمهزجة نظراً لما لحقها من الدمار فألقت الى خليج المعارض فقابلتها الدونمما العثمانية التي خرج بها ونيق أحمد باشا وبعد محاربة قوية تدمرت سفن الاعداء تدميراً وتمكنت الدونمما من توصيل الامدادات والذخائر الى الجيش العثماني المحاصر لمدينة خانبة من كريد التي فتحت بعد قليل (١٠٥٥ هـ) ولما وقعت بعض مدن جزيرة كريد في يد العثمانيين خصوصاً مدينة خانبة انتمت البنادقة بأن أحرقوا غورمتمون وبتراس وقورون من بلاد مورة ويقال ان السلطان هم في مقابلة ذلك بقتل جميع النصارى الموجودين في ممالكة لولا معارضة شيخ الاسلام أسعد زاده على سعيد افندي أماما باني من عمارة البنادقة فإنه وصل بعد الجهد الى قرصة سودة من أعمال كريد

وانضم الى ما بها من السفن البندقية لمساعدة قلعة سودة وإمدادها بالاقوات والذخائر ولذلك تأخر
فحصها وقد انفق وفاة السردار محمد باشا فصمم دلى حسين باشا الذى خلفه (١٠٥٦ هـ) على ترك
حصار قلعة سودة الى وقت آخر وتوجه بالجيش وحاصر قلعة رسمو الا ان الاعمال العسكرية اعترها
تراخ وبطء لما هو حاصل اذ ذلك من الاضطرابات الداخلية التى امتدشها الى نفس دار السلطنة
حتى قتل فيها الوزير الاعظم صالح باشا وامتدت الفتنة الى الروم الى بتكاسل واليهاب ابراهيم باشا وكان
السلطان ابراهيم يأمر كل يوم باعدام بعض الوزراء والكبراء عليه يمكن من اخذ الفتنة الا ان
ذلك كان سبباً في زيادة اشتعال نيرانها وقتل الوزير أحمد باشا الذى تولى بعد صالح باشا وكانت والدة
السلطان تستعمل كل الوسائل لتسكين الاضطراب ولكن تعمس عليها الوصول الى المرغوب ولما
ازدادت الاضطرابات بالاستتانه وكان منبعها في الحقيقة ضباط اليكچرى به أراد السلطان الفتك
بهم في ليلة زفاف احدى بناته على الصدر الاعظم لانتقادهم اعماله وميلهم المستمر الى المداخله في
أعمال الدولة ولما علموا ما عزم السلطان عليه أجمعوا آراءهم وتآمر واعلى عزله وانضم اليهم بعض
العلماء وأثاروا اليكچرى والسباهية فتم لهم خلعه وسجنوه ولو ان ابنه محمد خان الرابع الأتبه بعد
أيام من عزل السلطان ابراهيم تدمر السباهية وأظهر واعدت ارتياحهم من السلطان الجديد لصغر
سنه وهموا باقعاد السلطان ابراهيم على كرسي الخلافة ثانية فغشى عند ذلك رؤساء العصابة التى
عزلته من ان يبسط بهم ان عاد ووصموا على قتله ثم ذهبوا الى السراى ومعهم الخلد قره على فقتله
خفقا (١٠٥٨ هـ) وقد كان هذا السلطان غير مبال الى الحرب الا أنه كان شديد المحافظة على
كرامة الدولة لا يغتفر لمن يمسها بسوء أصلاً

الفصل العاشر

من صدارة كوبريلى محمد باشا الى معاهدة قروچوق

١٠٦٦ - ١١١٠ هـ

السلطان محمد خان الرابع ابن السلطان ابراهيم خان

(١٠٥٨ - ١٠٩٩)

تولى هذا السلطان وعمره سبع سنوات وكان أكبر إخوته ولما تقلد السيف وأقيمت له الرسوم المعتادة
وصرفت للجنود ما جرت به العادة من الاموال أخذ ينظر في الاعمال بمساعدة وزراءه فقتل عدته من
رؤساء الفتن مثل جنجى خواجه واضرابه وقد صودرت أموال هذا الرجل فبلغت ألقى ألف
من الذهب وكانت الاحوال مختلفة لقيام الجنود بالافساد في كل جهة وخلعهم طاعة أولياء أمورهم
وقتل الصدر الاعظم صوفى محمد باشا من الجنود الثائرة نحو ثلثمائة ومع ذلك فلم يرتد عواثم عزله
السلطان وسلم خاتم الصدارة الى قره مراد أغانا اليكچرى به فجمع هذا هيئة جديدة من ضباط اليكچرى به
واشترك معهم في ادارة شؤون الدولة ولما ظهر له أنه لا يمكنه ادارة الامور استغنى وتولى ولاية بويدين
ووجهت الصدارة الى ملك أحمد باشا (١٠٦٠ هـ) ومع تعاقب عزل وتنصيب الصدور لم

تحصل فائدة بل كانت الثورات متوالية تارة من اليكبرية وتارة من السباهية وطوران الاهالي وقد تدخلت جثة السلطان المسماة ماهيه ككر في ادارة الدولة وكانت هذه السيدة من افاضل النساء عقلا وتدبيرا وكانت رأت حكم أربعة من السلاطين فاكسبت عقلا وتجربة وقد اعانت كثيرا على اصلاح الاحوال ثم سعوا في حقها حتى قتلوا وقتل معها كثيرا من ضباط اليكبرية والكبراء وأحيلت مشيخة الاسلام الى شيخ الاسلام السابق أبي سعيد أفندي ثم عزل الصدر الاعظم وتولى بعده كورجى محمد باشا ولم يلبث أياما حتى خلفه طرخونجى أحمد باشا (١٠٦٢ هـ)

احوال البحرية في المدة المذكورة - اعلم انه بما كانت عليه الدولة في هذه المدة من الاختلال وفساد الادارة والاحكام انتهز البنادقة فرصة ذلك وأرسلوا عمارة لتمديد مضيق الدردنيل ولما أنت هذه العمارة حصل بينهما وبين العثمانيين عدة وقائع يأتي ذكرها ولما رأت الدولة ان سفن البنادقة قوية وجسيمة وان معظم سفنها هي صغيرة أصدرت الاوامر مدة صدارة صوفى محمد باشا الى دار الصناعة بالمبادرة في بناء وتشيد سفن كبيرة من نوع الغليون لتكون العمارة على الدرجة الكافية من القوة فشرعت دور الصناعة في العمل وأرسلت الدولة أيضا مبلغا من المال لاويحات ولايات المغرب لتجهيز أساطيلها واحضارها في فصل الربيع لاتمام فتح كريد في سنة ١٠٥٨ هـ (١٦٤٨ م)

أقلعت العمارة العثمانية قاصدة جزيرة كريد تحت قيادة القبودان ونيق أحمد باشا وكانت مؤلفة من ستة غلايين وخمسة وستين غرابا ومعها ما يلزم من الذخائر والادوات ولما وصل خبر قيامها العمارة البنادقة أقبلت سر يعالى بوغاز الدردنيل ورست بقرب المكان المدعو كفر الكاشن بالبوغاز فالتقت بها الدونما العثمانية المذكورة حين نحر وجهها وحصلت بينهما محاربة قوية تمكنت الدونما العثمانية في آخرها من الخروج الى البحر الابيض المتوسط ثم تقابلت العمارتان ثانية ولما صارنا بالقرب من بعضهما أخذتا في اطلاق المدافع مدة على غير طائل ثم انسحبت عمارة البنادقة الى جهة اميروز (Imbros) أما الدونما العثمانية فانها رست تحت قلعة فوجيه (Foggia-Nova) وفي صباح اليوم التالى جلت عمارة البنادقة على العمارة العثمانية بغتة فقابلها القبودان العام ببعض سفنه وانتشب بينهما الحرب ثم جلت احدى سفن العدو على سفينة ولكن العساكر صدمتها ودخلت الى سفينة العدو وتقتل جنودها وبينما هي تجاهد في ذلك اذ أشعل أحد ملاحي سفينة البنادقة النار في مخزن البار ودفن كسر غليون العدو وطار قطع في الهواء وأثر ذلك على السفينة العثمانية التي كانت خلف سفينة القبودان باشا فغرقت وبينما كان القبودان المذكور مشغولا في هذه الحركة تمكن بعض سفن العدو من ضبط خمس سفن عثمانية وهر بوابها ولم يتمكن العثمانيون من تخليصها وكانت خسائر البنادقة في هذه الواقعة غليونين كبيرين وخسائر العثمانيين أربعة غلايين وثلاثة أغربة لان طوائف السفن العثمانية كانوا من الجنود الحديث العهد بالخدمة لم يسبق لهم اجراءات من قبيل حرية فضلا عن كونهم من اجناس مختلفة ثم اقلع القبودان باشا بسفنه الباقية قاصدة جزيرة كريد مارا على بعض الجزر الاخرى ولما وصل الى جزيرة رودس قابله اسطول تونس وكان مشكلا من عشرة غلايين وعشرة أغربة فانضم الى العمارة العثمانية ثم التحق بها أيضا ١٨ سفينة آتية من الاسكندرية تحمل أرواقا توجه الجميع الى جزيرة كريد وسلموا امامهم من المهمات والارزاق الى سردار الجيش العثمانى بها وبينما كانت العمارة بكر يدغرق ونيق أحمد باشا القبودان في البحر قضا

وقد راو خلفه سنة ١٠٥٩ هـ على رياسة الاساطيل يقبلى مصطفي باشا وأقلع بالدوننما من استانبول الى كريدقات بها وخلفه على رياسة البحرية حيدر آغا زاده محمد باشا فعاد بالدوننما في السنة المذكورة ولم يتمكن من الوصول الى مدينة ثانية فأرسي امام رسمو وبينما كان يخرج الجنود والذخائر الى البرشاهد دوننما البنادقة آتية من قنديه تخاف من لقائهم وأقلع سر يعاقه بصد جزيرة ميدبلى (Mityline) ولهذا صدر الامر بعزله وتعيين حسام بك زاده على باشا مكانه (١٠٦٠ هـ) وفي تلك الاثناء قبضت إحدى السفائن العثمانية بمياه الارخبيل على غليون كبير لاهل مالطة ولما أرسل الى الاستانة وشاهده عمال دار الصناعة بها فنجبوا من اتقانه وجودة بناؤه وعظم جرمه وكان يحمل سبعين مدفعا فأتخذوه نموذجاً للسفنهم وكانت أساطيل العدو جميعها اذ ذلك بهذا القدر والاتقان لان فن انشاء السفن كان ترقى جدا اذ ذلك في كافة البلاد الاورباوية وكانت جميع المعامل تبني سفننا على هذه الهيئة الجديدة المذكورة بخلاف البحرية العثمانية فانها كانت متأخرة في ذلك الوقت عن مزاجيهما من دول أوربا لعدم التفاتها للاساطيلها لكثرة مشاغلها ولما أرسلت الدولة أساطيلها ثانية سنة ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) الى بوغاز الدردنيل لطرده عمارة البنادقة المركبة من ٢٢ غليوناً و ٨ أغربة تمرد اليكبرية والملاحون وأجموعاً عن الهجوم على سفن العدو بدعوى أن سفنهم أكبر وأمتن من السفائن العثمانية ثم لما قامت عمارة العدو من البوغاز خرج أسطول الدولة وتمكن من اىصال الامدادات اللازمة الى جزيرة كريد ثم عاد الى خليج استانبول ولقد كان إجماع اليكبرية عن الهجوم وقبض العمارة العثمانية على الغليون المتقدم من الاسباب التي نهت الدولة الى بناء عدة سفن جديدة على الهيئة الحديثة فأصدر السلطان بذلك مرسوماً الى دار الصناعة للاهتمام بذلك في شتاء السنة المذكورة وقد بذلت البحرية في ذلك مزيد العناية بحيث لم ينقض فصل الشتاء الا وقد أنزلت الى البحر عدة سفن عظيمة ولما تم تجهيز العمارة (١٠٦١ هـ) كانت مؤلفة من ثلاثين غليوناً كبيراً وثلاثين غراباً وست ماعونات وخصصوا لها الملاحين والعساكر اللازمة وتعين لقيادة الجنود الذين تزوجها أحمد باشا بكر بك الانا طول مع الضباط واقامت لذلك الافراح والولائم والزيارات الجميلة امام سراى بشكطاش

مخاربه "تمش البحرية" - لما تم تسليح الدوننما وتجهيزها أقلعت من استانبول ثم عبرت مضيق جزيرة ساقز (Chios) حيث التحق بها سفن البكوات ثم قامت بجميع ملحقاتها فاصدة جزيرة كريدو وجرورها على جزيرة نقشه (Naxia) تلاقت مع دوننما العدو في الممر الواقع بين جزيرة كرمناك (Milo) وجزيرة بوليقياندرو (Policandro) وكانت مركبة من ستين غليوناً وقع الحرب بين الطرفين وامتد من الصباح الى المساء وكان قاصراً على اطلاق المدافع من الجانبين بشدة بحيث أضر بالطرفين ولما أقبل المساء انسحب حسام بك زاده على باشا ودخل في ليمان نقشه وأمضى الليل هناك يصلح ما لحقه التلف من سفنه وأخذ المياه العذبة اللازمة وفي الصباح خرج بالعمارة وكان خروجه بهيئة غير منتظمة فقابلته دوننما العدو وباطلاق المدافع واشتبك القتال بينهما ثانياً ثم قسم القبودان باشا العمارة الى قسمين وضع الاول تحت قومندانة كتحدا الترسانة وقاد الثاني بنفسه ثم هاجم العدو من الجانبين واشتد الحرب بينهما وتقاربت السفن من بعضها الا أن الملاحين الذين كانوا بسفن العثمانيين لم يكونوا يشبهون من كان منهم مع

خير الدين باشا بارباروس أومع بياله باشا المشهور بل كانوا من المتشردين الانحمار الذين لم يخوضوا
ببحار المعامع ويتدربوا على أعمال الوقائع فلهذا المهاجم القبودان على الاعداء لم يجد بجانبه سوى
عشر سفن فقط وتأخر الباقي الى الخلف تاركين القبودان وسط النيران اما فرقة كتخذ ادار الصناعة
فانهم لم يتجاسر بالكلية على الهجوم بل ولت الادبار وعند ذلك ارتبك القبودان في أمره ووضع
رشدته فتقدم أحد القواد المدعو بوسلجي أو غلو وتوسط النيران وربط سفينة القبودان بسفينته
وأخرجها سالمة أما سفن كتخذ ادار الصناعة الجبان وباقى سفن اليكجيه التي هربت فانها بقيت
تتفرج من بعيد على القتال فتكدر القبودان باشان هذه الحالة كدرا الامر يد عليه وكتب
في الحال الاوامر الاكيدة الى قواد السفن بأمرهم بالعودة الى قتال العدو وخوفهم عاقبة
الامتناع ولما شاهد اليكجيه الزوارق قابلة تحمل الاوامر وعلموا مقتضياتها باداهة ملؤا بناذقهم
ووجهوها نحو حمله تلك الاوامر قائنين ان ليس منهم من يخاطر بنفسه الى هذه الدرجة ويلقيها
في الهلاك وبذلك لم يمكن قبليغ تلك الاوامر لاربابها وقد نشأ عن هذه الحالة التعيسة تعطيل
سفن الجبجية وبعض الغلايين عن الحركة لما أصابها من التلف واحترق الغليون الكبير الذي كان
بناه الوزير الاعظم وقليلون آخر مشحونون بالعساكر ولم يقبل البكوات أيضا الهجوم على الاعداء
ثم هجم الاعداء على السفائن المعطلة وقتلوا جميع من فيها واستولوا عليها وما زال أحد باشا بكنر بك
الروملى المذكور يقاتل الاعداء بغليون واحد فقط الى ان قتل في الواقعة واستولى الاعداء على
غليونين بن فيه وقصد سفينتان من سفن اليكجيه بالبر وخرج من بهما فاحرقهما الاعداء وقبضوا على
غالب من كان بهما وقتلواهم عن آخرهم

ولما رأى القبودان باشا ان لا فائدة في البقاء أخذ ما بقي من السفن وفز الى جزيرة رودس والتحق
به هناك باقى السفائن التي كانت تفرقت عنه ثم عقد مجلسا حيا بسفينته لمحاكمة كل من تردد
أو اخطأ أو قصر في واجباته من العمال وفرض على كل ما يناسبه من العقاب وكان منهم كتخدا
الترسانة المذكور الذي كان تولى رياسة أحد قسمي الاساطيل كما سبق وكان الحكيم عليه بالتجريد
من الدرجات وحلق لحيمته (وكان هذا الامر في الوقت المذكور من الاهانات العظيمة) وجعله مع
طائفة القورسة التي تعمل بالمقاذيف ثم بعث تقريرا مفصلا عن ذلك كله الى استانبول وتعين قورد
چلبى كتخذ الترسانة مكانه ثم أقبلت الدوننما من رودس الى كريد لتسليم ما بها من الارزاق والذخائر
الى سردار الجيوش ثم عادت الى الاستانة

وفي أوائل جمادى الاولى من سنة ١٠٦٢ هـ (١٦٥٢ م) جهز القبودان على باشا الدوننما
لتوصل الذخائر والمهمات الى جزيرة كريد ولما وصل الى چناق قلعه وجد دوننما البنادق راسية
امام كفر محاصرة للبورغاز مانعة عبورا الاساطيل فانتهز القبودان نيلام الليل وتمكن من اخراج
ثمانية سفائن مشحونة بالارزاق بدون ان يشعر به العدو وأما القبودان فانه سافر براحتى وصل الى
جزيرة سيدلى وهناك ركب السفن المذكورة وأخذ معه كثير من سفن أمراء البحر وبينما هو
ذاهب الى كريد اراد فتح جزيرة استنديل (Tino) وأخرج جملة من العساكر لمهاجمتها
وبينما هو في ذلك اذ حصلت زو بعة منعت السفن الوقوف وشنتها وبينما هو يلم شعنها اذهاجه
العدو وألحق به خسائر جمة وأخيرا قصد جزيرة كريد وأخرجها امامه من الذخائر والمهمات ولما

عاد الى استانبول وقدم تقريره وأمنه سوء التدبير فعزل من رئاسة البحرية وصادروه وعينوا مكانه بحر كس درويش محمد باشا ولما أفلح هذا بالعمارة (١٠٦٣ هـ ١٦٥٣ م) قصد جزيرة كريد ثم حاصر قلعة سلته واستولى عليها عنوة فكتب السردار حسين باشا الى الاستانة يشتم منه ويقول ان أهالي القلعة المذكورة قدموا له الطاعة من مدة وقبلوا دفع الجزية ولهذا كان عمل القبودان مما لا فائدة فيه غير الخسائر ثم أفلح القبودان الى جزيرة رودس ثم أتت عمارة البنادقة وحاصرت الميناء فلم يجاسر القبودان على الخروج ولبث بالجزيرة مدة ولما علم السلطان بالحالة التي عليها القبودان وجه مسند القبودانية الى جاويز زاده محمد باشا فخرج بالذخائر والذخائر الى جزيرة كريد ولما عاد عزل ووجه مسند القبودانية الى الوزير مراد باشا بكر بك بودين في السنة المذكورة وقد بذل هذا الوزير مزيد الهمة في تقوية العمارة وترتيب أمورها ونظم أحوالها ودرج رجالها وشيد جلة غلايين عظيمة وكثيرا من السفن الحربية الاخرى وكتب الى جميع وجات بلاد المغرب بأخذ الالهبة والاستعداد سريعاً ثم أتى من طرابلس الغرب أسطول مؤلف من سبعة غلايين تحت قومندانية محمد أغا كما طرابلس وهو من أمراء البحرية المحمديين المشهورين وكان بصحبته القبودان كويك محمد وكان من البحارة الجيدين فضمهما القبودان اليه للاستعانة برأيهما ثم عقد مجلساً منهما ومن خلافهما للنظر في أحوال العمارة العثمانية وما يلزمها من المعدات والتحسينات وأنعم السلطان على جميع جنود وقواد أسطول طرابلس بالهدايا والصلوات ثم قسموا العمارة الى أقسام وتعين لكل قسم قائد مخصوص مسؤول عن ادارة سفن قسمه وتنظيمه وقد استمرت التجهيزات والتعليمات طول فصل الشتاء حتى أصبحت الدولة على غاية من الاستعداد

وكانت مالية الدولة في ذلك العهد وصلت الى دركة عميقة من الفساقه لاستغلالها بازالة الغوائل الداخلية والخارجية الكثيرة فأوقع هذا الامر الوزير ابي الارتباك وعطل يدهم عن اجراء الترقيات فاهتم لذلك الصدر الاعظم طرخونجي أحمد باشا بسن لوائح جديدة (١٠٦٣) قلل فيها بعض المصاريف وعدل الضرائب وفرض بعض رسوم جديدة ولما أخذ الولاة والمأمورون يعلمون بمقتضاها ظهرت الشكاوى وتقرد الكبرية وأخذوا في الافساد وفي تلك الاثناء حصلت محاربة بشيكة البحرية الثانية المذكور

واقعة بشيكة الشهيرة - اعلم انه في ٢١ جمادى الآخرة من سنة ١٠٦٤ هـ (١٦٥٤ م) صدر مرسوم سلطاني للقبودان مراد باشا بأن يتوجه بالدونميا الى كريد ولما أراد العبور من بونغاز الدردنيل وجد في ساحل خليج بشيكة (Beshika) عمارة البنادقة وكانت مركبة من ٢٦ قليوناً اقترب بص القبودان في البونغاز الى ان وصلته أربعة غلايين تونسية وسفن البكوات وبعد ان انضمت الى أساطيله واستعرضها عزم على الهجوم على عمارة الاعضاء وعباها على الكيفية الاتية فجعل الغلايين الحاملة لتعساكر الالبات وسفن البكوات في الجناح الايمن وجعل غلايين طرابلس الغرب وغلايين الدولة العثمانية في الجناح الايسر وجعل المواعين والاغربة التي بها اليكبرية في القلب ثم تقدم بالجميع هاجموا على سفن البنادقة الذين لم تحصل منهم أدنى حركة حربية ارتسكوا على ما نالوه قبل ذلك من الانتصارات العديدة على أساطيل العثمانيين ولم يشعروا الا بالمراتب العثمانية محذقة بهم من كل صوب والتصقت بسفنهم فاعترتهم الحيرة والاندھاش السلكي وحمل

غليون أمين قبودان القاسم باشا على أحد غلايين البنادقة فضبطه من أول هجمة وضبط غزاة
 طرابلس الغرب غليوناً آخر من العدو وهجمت إحدى الموعين على غليون ثالث ولما كادت
 تستولى عليه أشعل جنوده النيران في مخزن باروده فتفرق وقع وقع معظم عساكره في البحر فالتقط
 جنود العثمانيين من منهم على قيد الحياة وأسروه واشتعلت النيران بغليون رابع وقبض العساكر
 العثمانية الذين كانوا تحت قيادة محمد قبودان الاسكندري على غليون خامس ولما سعدوا فيه
 أشعل أحد طاقته الناري باروده فطار مع مركب محمد قبودان الاسكندري المذكور لانه كان
 ملاصقاً له والتقط العثمانيون من كان على قيد الحياة من جنودهما وقبض العثمانيون أيضاً على
 ثلاثة غلايين أخرى وعند ذلك نشر أميرال البنادقة قلعوه وكانت الرياح تهب بشدة والتجأ إلى
 الفرار وتبعه بقية السفائن إلى جزيرة أيروز وكانت خسارة البنادقة ثمانية غلايين بن فيها غم
 العثمانيون خمسة منها واحترق ثلاثة وكان بالسفن التي غنمها العثمانيون ثمانمائة أسير منهم
 ابن الجنرال نيقو وكتب سره وكان الجنرال قتل في الحرب ثم ان الدونما العثمانية انتقلت أمام
 بوغجه اطه في ليمان بوز و هناك دفن العثمانيون موتاهم ثم بعث القبودان الكتخداقره كوز
 محمد افندي إلى استانبول لاجل اخبار الدولة بذلك رسمياً وطلب ما يحتاجه من ذخائر و جنود وأدوات
 ولما بلغ هذا الرسول رسالته أنعم عليه السلطان وأمر بالاسراع في انجاز مطلوبه وبعد أن وصل
 إلى العمارة ما يلزمها أقلعت قاصدة بجزيرة ساقز وهناك انضم إليها أحد عشر غليوناً من أسطول
 طرابلس الغرب ثم سافرت إلى جهة أغريوز ثم وصل إلى الحكومة العثمانية خبر حاصله أنه لما
 بلغ جمهورية البنادقة انهزام عمارتها كما سبق أرسلت إليها ١٨ غالباً و ٢٨ غليوناً لتقويتها
 وأنها حضرت إلى جزائر الارخبيل أما العثمانيون فأنهم ذهبوا إلى جزيرة استديدل وكانت بيد
 البنادقة وأخر جوافها فرقة من جنودهم فعادوا بالجزيرة ثلاثة أيام ثم عادوا غانمين إلى سفنهم
 ولما بلغ القبودان باشا أن دونما البنادقة بجزيرة كرمليك (Milo) ألقوا اليها وهاجها ثاني يوم
 وصوله قرب كوجك كرمليك (Anti-Milo) وكانت سفن العدو على غاية ما يكون من الاحتراز
 من مهاجمة العثمانيين لها ولهذا استمر التراخي بالمدافع بينهما من بعيد ولا شداد الرياح ومخالفته
 لم تتمكن الأساطيل العثمانية من القرب من سفن العدو ولهذا بقيت طول النهار ترمي بالمدافع ولما
 أسبل الليل سدوله انفصل الدونمتان عن بعضهما وعاد القبودان باشا إلى ساقز وترك الغلايين
 والسفن الجسيمة في جهة فوجه وخصص خمسين غليوناً لتسير حول سواحل الرومالي ثم ذهبت
 تلك الغلايين إلى جزيرة أغريوز واستمرت في جهات الارخبيل مدة لم تصادف دونما العدو
 ولا سفن القرصان أما القبودان باشا فإنه ذهب إلى كريد حيث تلاقى مع السردار العثماني ثم مر
 بجزيرة رودس ثم قصد أزمير وبعد أن أمضى بها عيد الفطر رخص لامراء أساطيل الغرب
 والباكوات بالعودة إلى بلادهم وعاد هو إلى دار الخلافة ومعه الغنائم والأسرى فرحب به السلطان
 وأنعم عليه والتمس من السلطان ابقاء طواقم السفن وعساكرها على ما هي عليه حيث كان
 المعتاد أن يوزعها في فصل الشتاء فأجيب طلبه ونجى عن ذلك تحسينات مهمة في العمارة واكتسب
 ملاحوه و عساكرها مهارة تذكروا

مহারية كفر الجهرية - لما علمت الدولة بحضور دونما البنادقة الى جهات البوغاز أمرت القبودان مصطفى باشا الارنؤدي بالخروج بالدونما وكان تولى رئاسة البحرية بعد مراد باشا فخرج في أوائل شعبان من سنة ١٠٦٥ هـ (١٦٥٥ م) فوجد عسكرة البنادقة أمام كفر فاراد مهاجمة الغلايين الامامية منها الا أن سكون الرياح لم يمكن غلايينه من الحركة بالاشرعة وساقها التيار قسرا الى ساحل الرومالي فاشتبك بين الطرفين الحرب بالمدافع من وقت الزوال الى الغروب وكانت أتلاف الطرفين كثيرة حتى تغطى سطح البحر بقطع السفن وقد أظهر كثير من العثمانيين في هذه الواقعة تجلدا وصبرا جديرا بالذكور وأغرق العثمانيون البنادقة غليونين وفقد العثمانيون تسع سفن ثم أخذ القبودان الدونما وذهب الى ساقر وذهب البنادقة الى جزيرة كردمناك ولما بلغ القبودان باشا أن البنادقة حاصروا جزيرة نقشة للاستيلاء عليها قصد هاجمها به فهرب العدو وخاف لقاءه وقد عد المؤرخون هذه الجسارة للقبودان تعويضا لخسائره التي فقدوها في الواقعة السالفة

وفي سنة ١٠٦٦ هـ (١٦٥٦ م) ورد تقرير من حسين باشا سردار كردي يعلم بضعف حالة الجنود بها القلتهم وأنه يتعذر فتح قلعة قنديه لذلك بل ربما حصلت صعوبة في المحافظة على القلاع التي صار الاستيلاء عليها وأنه اذا لم تتم الدولة في فتح باقي الجزر في تلك السنة فالاولى تسليم القلاع التي يسد العساكر الاسلامية الى الاعداء واخراج الخامية منها فقدم الوزراء مجلس البحث في طريقة نهائية ومن جهة أخرى كانت البنادقة أتتها نجيدات من حكومات أوروبا فاقا كتسبت بذلك قوة وكثرت سفنها حتى بلغت سبعين سفينة حربية فتمكنت من سد بوغاز الدردنيل ومنعت العمارة العثمانية من العبور وفي خلال ذلك هرب من سفن البنادقة أحد القبودانات ومعه ثلاثون نفرا وسلم نفسه الى مصطفى باشا احتال باش محافظ البوغاز واعتنق الديانة الاسلامية ولما أرسل الى الاستانة عينته الدولة في دار الصناعة برتبة قبودان قليون وفي تلك الاثناء عزل القبودان مصطفى باشا من رئاسة البحرية وكان جسديا بمنصبه عالما بكافة أمور ومصالح دار الصناعة له دراية تامة بإيراداتها ومصروفاتها وكانت الاعمال بها في أيامه جارية على أحسن نظام هذا خلاف معلوماته في فن الملاحة وتجاريه العديدة وجسارته وكانت أمراء اللوندات تعتمد عليه وتحسب له حسابا وتعيين بدله حاليجي زاده مصطفى باشا (١٠٦٦ هـ) ولما كان من أصحاب الثروة المترفين لم يقبل هذا المنصب المحفوف بالاحطار والمشاق فعين لولاية مصر وتعين بدله جركس كنعان باشا

مহারية جنات قلعة الجهرية - اعلم ان القبودان كنعان باشا هذا لم يكن من الرجال البارعين في ادارة الامور ولا من الذين يعتمد عليهم في مثل هذا المنصب المهم فقد كان حريصا على نوال الالقاب ولهذا فانه لم ينظر الى ما عليه الدونما من الضعف وعدم النظام خوفا من ان طلباته تضايق مالية الدولة فيضطر للاستقالة فابقي الحال على ما هي عليه ثم أقطع بالعمارة سنة ١٠٦٦ هـ (١٦٥٦ م) وكانت من كبة من سبعة غلايين وسبع ماعونات وخمسة وأربعين غرابا ولم يكن بهاما يكفي من الجنود المتدربين ولما وصل الى البوغاز أرسى امام قلاع الاناضول ولما شاهد سفن البنادقة وما هي عليه من الانتظام والاستعداد خاف وداخله الرعب وعقد مجلسا عند محافظ البوغاز وتقرر فيه انه لوجود نقصان بسفن الدونما الهمايونية اذا هاجمت دونما الاعداء الكثيرة العدد المتقنة النظام

لابدون يلحق بالعثمانيين خسائر عظيمة وكتبوا بذلك قرارا ولما أراد القبودان ان باقى القوادى يوقعون عليه امتنعوا وقالوا ان القرار من خصائص القبودان ان شاء قدمه وان شاء تركه ثم قام بعض الجنود وهم اللوندات وطلبوا علفاتهم كالعنادفاجيبوا بانها تنصرف لهم بعد المحاربة فلم يقبلوا ذلك بل تركوا السفائن وخرجوا ولم يعودوا فحدث نقصان زائد فى افراد المراكب وقد أثر هذا التذمر والخلف على باقى الطائفة حتى أدى بهم الى الفوضى ثم ان القبودان باشا فر ر الهجوم على الاعداء فى اليوم الرابع من شهر رمضان من تلك السنة الا ان من بقى من الجنود عصوا وقالوا انه لا يمكن مباشرة الحرب بهذا النقصان وترك غالبيتهم السفن وخرجوا منها هارين ومع ذلك فان القبودان صمم على مهاجمة العدو بمن بقى معه واتفق ان قامت ريح جنوبية غربية عند تحرك الاساطيل كانت سببا لحصول الخلل فى حركة سير السفن ثم بدأت سفائن العدو فى اطلاق مدافعها واخذت تهاجم العثمانيين بقوة حتى اختل نظامهم وتلاطمت السفن مع بعضها من شدة التيار وارتبكت أعمالها فاعتري الجنود من ذلك دهشة كبيرة وعولوا على الهرب وسار بعض الجنود بالسفن نحو الشاطئ لاجل ان ترتطم به ثم بقرون خلاصا من الموت وامتنع البعض عن اجراء الحركات الحربية بالمرة فارسل القبودان عند ذلك بعض السفن الخفيفة لتحرى بعض سفن العدو من كورة الا ان نيران مدافع العدو منعت تلك السفن من التقرب ثم اشتد الخوف بطوائف السفن الباقية وتلاعبت بها الريح حتى ضاعت بتمامها تقرىبا أما القبودان باشا فانه تمكن هو وبعض السفن من التجاؤ والتجؤ الى قلعة برالاناضول ورسوا امامها ولم ارأى محافظ القلعة ان العدو ولا يزال يقرب هاجا وان مدافع القلعة لا تؤثر فى سفنه لوجود السفن العثمانية امام خط نيرانه طلب من الدونما العثمانية الابتعاد قليلا فلم يصغ القبودان الى اقواله ثم اقتربت دونما العدو جدا حتى استولت على عشرة اغرية اخرى وعلى السفائن التى تحت قيادة عبدالرحمن باشا وجرى كتحذادار الصناعة وبيراميك وهمت بك وعلى سبعة غلايين اخرى واخرقت ١٥ غرابا وما عونتين وعشرين من نوع الغاليتة وقد بلغت خسائر العثمانيين فى هذه الواقعة المؤلمة نحو سبعين سفينة ولم ينج من الدونما العثمانية سوى بعض سفن من سفن البكوات ونحو اثنتى عشرة من نوع الغاليتة ثم ذهبت عمارة البنادقة الى جزيرة بونججه اطه وبعدها حاصرتها نحو تسعة عشر يوما استولت عليها ثم قصدت جزيرة ليمنى واخضعها ايضا بعد قتال واستولت ايضا على جزيرة ايمرو زاما القبودان كنعان باشا فان السلطان امر فقتلوه عقابا على فشله وعدم تبصره وتعين بدله سيدا جديا باشا قبودانا الا انه بعد ذهابه بايام للمحافظة على بونغاز حتى قلعه ظهرت عدم كفاءته فعزل ثم قتل (١٠٦٧ هـ) وتعين طوبال محمد باشا قبودانا ولما كان البنادقة باستيلائهم على الجزر السابقة ضيقوا على العمارة العثمانية جدا وهددوا بالخلافة كان السلطان والوزراء يتفكرون دائما فى طرد البنادقة من تلك الاطراف وبعدها أرسلت المهمات والارزاق الى كريد أمر السلطان فشيدها ومن الشناستين سفينة حربية ولما كملت واستعدت سيرها ومنها عمارة مؤلفة من ٣٦ من نوع الغاليتة والاغربية وأربع شوانى لمطاردة عمارة البنادقة (١٠٦٧ هـ) تحت قيادة القبودان طوبال محمد باشا المتقدم فربها على ساقز ورووس ووجد بجانب جزيرة انجبرى (Nisero) غليونين لاهل مالطة ينتظرون مرور السفائن القادمة من القطر المصرى بالارزاق للفتك بها فأغرق منها غليونان وتمكن الثانى من الفرار بعد ان قبض على عدد من طاقمهما ثم

استولى أيضا على عدة سفائن بجوار جزيرة رودس وفي تلك الاثناء ظهرت دونما البنادقة الجسيمة بجوار ساقر واستولت على ١٨ سفينة من السفن القادمة من الاسكندرية حاملة للارزاق وتصدت أيضا للاسطول القادم من جزائر الغرب وكان يؤلف من ثمانية غلايين قدمه ولما وصلت هذه الاخبار الى دار الخلافة تلقاها الناس عموما بالكدر والياس أما القبودان باشا فإنه لما شاهد دونما البنادقة وماهى عليه من القوة والاتقان لم يتجاسر على الخروج من مينارودس ولما كانت الاخبار الواردة من جزيرة كريدأ ايضا تنبئ بماهى عليه الجنود العثمانية فيها من المضايقة والفاقة والضعف اهتمت دار الصناعة بتجهيز أسطول آخر من كيب من تسعة عشر غليوناً وعشر ماعونات وثلاثين غالبية وبعدها شحنت بالادوات وتعيين لقيادة الجنود التي بها أحد ضباط اليكبرية المدعو قاسم أغا أفلعت تحت قيادة شمسي باشا وكيل القبودانية

وزارة كوبريلى محمد باشا - قد كانت أحوال الدولة في ذلك الوقت في أشد المضايقة وماليتها على شفا الافلاس وجنديتها البرية دبث بينها عوامل التخرب والانحطاط وأباد البنادقة أساطيلها في عدة وقائع واستولوا منها على عشر جزر مهمة ببحر الارخبيل كل ذلك والدولة في حالة سبات وتجول لا تمكن من رتق فتق الا وقد فتح فيها فتوق ولا تقدر على سدشق الا واتسعت منها شقوق حتى قبض الله لها رجلاشهما حازما ووزيرا على الهمة نادرا الا هو كوبريلى محمد باشا وكان من الذين حنكتهم التجارب ودربتهم الايام ولما قبض على مسند الصدارة شمير عن ساعد الجسد اخلخل ورأب الصدع فتمكن من مراده لكونه كان يريد في الحقيقة الاصلاح وينتفي بكل جوارحه النجاح وهكذا كل أمر خلصت له النية وحسنت فيه الطوية فأنخذ في استئصال عروق الفساد والتفت الى توطيد دعائم السلطنة وتحسين نظام الادارة وتقوية الجنود البرية والبحرية وترتيبها وتدر بها وغير ذلك من الاعمال المفيدة والآراء السديدة حتى اكتسبت الدولة حياة جديدة وطريقة جديدة

ذكر محاربة قوم بروني البحرية - لما كانت حالة الدولة السياسية والادارية وصلت الى ما مر به وكانت سفائن البنادقة لا تقدر عن محاصرة الدردنيل لتمنع خروج الاساطيل العثمانية منه رأى الصدر المذكور ان من العار بقاء الحالة على هذه الكيفية فقاد الجيش بنفسه وذهب الى البوغاز وجعل القلعة السلطانية مركز الاعمال وانشأ بجهات صوغانلى من ساحل الرومللى وكفر من ساحل الاناضول جبهة استحكامات وسلحها بالمدافع الجسيمة وبذلك تمكن من طرد جميع سفن العدو الراسية في تلك الجهات الا أن عمارة البنادقة لما كانت لا تزال راسية على بعد عشرة أميال من كفر المذكور صدم الصدر على محاربتها لطردها عما وما بعد ان دبر أمرها هاجمها ودارت رحى الحرب زمانا طويلا بين العمارتين وظهر من الطرفين إقدام عجيب ثم غرقت ماعونة من سفن العثمانيين باصطدامها بماعونة أخرى من سننهم وقبض البنادقة على ماعونة نالسة ولما رأى اليكبرية ذلك فروا بأغربتهم وكانت ثلاثين غرابا وهربت عشر ماعونات بمن فيها ولم تنفذ تحريصات ونشويات الصدر الاعظم شيئا مع ما بذله من الماسعى وما أمر به من قتل من خالفوا الا واهم ولما رأى الصدر ذلك أخذ في تشييد الاستحكامات بساحل الاناضول ليحفظ ما بقى له من السفن من تسلط الاعداء عليها ولما شاهد البنادقة هزيمة العمارة العثمانية أظهروا الجسارة ولبشوا يرمون مقذوفاتهم على السفن

الراسية وعلى التسلاخ ثلاثة أيام بلياليها وكان العثمانيون يقابلونهم بنيران قوية وأخير المالم يستفيدوا من ذلك شياً أصمهم أميرالهم طوماس موحنيغو (Thomas Mocenigo) على القبض على الدونما العثمانية الراسية بجوار قوم برون ولما حمل عليها تحير الصدر الاعظم في أمره لان سفنه تعطلت وعساكره أظهرت الجبن والخيانة ومع كل ذلك أخذت يوشج طوبجية الاستحكامات فتقدم أحدهم وكان يدعى قره محمد و صوب المدفع على سفينة الاميرال ثم أطلقه فوقع مقدوفه على مخزن بارود السفينة فتفزع وطارت السفينة في الهواء وقتل الاميرال ونحو ألف نفر معه واضرت كثيرا بالسفن التي كانت بجوارها فالتزمت عند ذلك ودونما العدو بالرجوع فقهرها وكان الاميرال طوماس المذكور من أمهر أميرالات البنادقة حارب العثمانيين نحو ١٥ سنة انتصر في أكثر وقائعها وهو من أفارب فرانسيسكو موروزيني أميرال الدونما التي كانت هاجت خانية بعد فتحها وكان مشهورا بلقب الاميرال الاعرج ولما قتل الاميرال وقع الهرج بين قواد العمارة ورجعوا في الحال إلى بوغجه اطه تاركين ستة غلايين لم يتمكنوا من أخذها ثم إن الصدر كافأ الطوبجي المذكور بمكافأة فاخرة هو وكل من صدق في المحاربة وعاقب كل من استحق العقاب من القواد ثم أخذت تجهز قوة بحرية أخرى ويصلح سفنه هذا وقد كان معظم العمارة العثمانية مع القبودان الا كبرطوبال محمد باشا خارج البوغاز لم يشترك في القتال وكذا سفن تونس والجزائر ولما حضرت أنتم الصدر على القبودان وقبل معذرتهم ثم وجهه على جزيرة بوغجه اطه فاستردها من البنادقة بعد قتال وطرد سفتهم من جوار البوغاز وشيد بالجزيرة قلاعاً وأبقى بها حامية تحت قيادة سهراب باشا ثم أرسل عمارة أخرى بها خمسة آلاف جندي مع القبودان طوبال محمد باشا إلى جزيرة ليمنى فاستولت عليها من يد البنادقة بعد ان حاصروها نحو ستين يوماً ثم إن الصدر رجع إلى استانبول فرحب به السلطان وفي سنة ١٠٦٧ (١٦٥٦ م) أي بعد فتح جزيرة قلتي عزل طوبال محمد باشا من القبودانية وعين محافظاً للجزيرة سافر ثم قتل بها لان السلطان كان لا يزال يرميه بالجبن وتعين بعده چاوش زاده محمد باشا ولم يمكث طوبال لان دلي حسين باشا تعين بعد عودته إلى الاستانة قبوداناً على الدونما الا انهم قتلوه بعد سنة وتعين بدله والده كتهداي علي باشا (١٠٦٩ هـ) ثم خلفه حسام بك زاده علي باشا

أورة أبازة حسن باشا (١٠٦٨ هـ) - بينما كانت الدولة مشغولة بحرب البنادقة لطردهم من بوغاز الدردنيل كما سبق قام أبازة حسن باشا وأصله من أبناء السباهي بشورة عظيمة بجبهات الاناضول والتف عليه نحو خمسة عشر من الباشوات المعزولين وغيرهم وجعله من عساكر السباهي الذين فروا من عقاب الوزير الشهير كوبرلي محمد باشا وطلبه هذا الخارج من الدولة عزل الوزير المذكور من الصدارة ومعاقبته وتوجهها إلى طيار زاده أحمد باشا وكان من حزبه ثم أخذت شيعة هؤلاء الاشقياء تتزايد يوماً عن يوم حتى ارتعب الوزراء والسلطان منهم ثم جهز السلطان عليهم جيشاً جعل عليه من ناضي باشا وإلى ديار بكر وطلب الصدر الاعظم وكان ييلاذ الاردل إلى أدرنة للقاوضة معه ثم انضم كنعان باشا وإلى بروسة للثائرين ثم تقدمت الجنود وكسرت الثوار وأرجعهم إلى قونية بعد ان هضموا خسراناً عظيمة وتتابع الفتاوى الشرعية من جانب شيخ الاسلام للثوار بالنصائح

المؤثرة فترك كثير منهم طريق الشقاوة والتجؤا الى الجيوش السلطاني فضعف أمر الثوار جدا حتى التزم أبازة حسن باشا بالتسليم الى مرتضى باشا بمدينة حلب بعد ان أمنه على نفسه وعلى جميع أتباعه الا انه لم يوف له بالعهد بل قتله هو ورؤساء الثورة (١٠٦٩ هـ) ثم أتى السلطان الى بروسة وعين اسمعيل باشا النائب عنسه باسلامبول قائدا عاما على الاناضول لقطع دابر ما بقي من أشقياء الجلالية فتمكن من ذلك

وقائع حدود الدولة الشمالية - اعلم انه في هذه الفترة (١٠٦٩ هـ) كانت نيران الحرب مشتعلة بين ملك بولونيا ميخائيل وشارل غوستاف ملك السويد الذي طلب من الدولة أن تقدمه على محاربة بولونيا وادخالها تحت حماية السلطان بالفعل فلم يقبل السلطان ذلك ثم لما بلغ السلطان ان راكوكسى أمير ترانسلفانيا وقسطنطين الاول أمير الافلاق اتحدا مع ملك السويد على محاربة بولونيا أمر بعزلهما وعين محنته بك (Mihne) الرومي الاصل أميرا على الافلاق الا ان راكوكسى لم يمتثل للامر وقابله بالعصيان واستظهر على جيش للعثمانيين بالقرب من ليبا (Lippa) ثم تعين القبودان كوسه على باشا سرعسكرا على الجيوش فتقدم بها وقهر أمير الاردل المذكور مع ابن راكوكسى وكان من المتفقين معه وعين بارخاى أقوشى (اشانيوس بركىسى) قرا على الاردل وخرّب مدينة ترغو ويشته التي كانت لذلك العهد دار امارة الافلاق وشيد نحو عشرين بلدة أخرى ولما كانت هذه الوقائع التي جرت بالمملكتين والاردل حصلت في حدود المجر وتولد منها بعض مضايقات لحكومة النمسا طلبت على يد سفيرها باستانبول تسوية فلم يقبل منه بل تقدم السرعسكرا كوسه على باشا المذكور وارتد قلعة وارانت (Grosswardein) وكانت استولت عليها النمسا من الدولة من مدة (١٠٧١ هـ) وبعد سنة من ذلك عينت الدولة ابان في ميخائيل قرا على الاردل وكان من أمرائها وهو آخر قرا لصبته الدولة بعرفتها على تلك البلاد وقد استمر جالس على تختها مدة عشرين سنة وبعد محاصرة وبانه خلفه ابنه وفي تلك الاثناء قبضت الدولة على بعض أوراق استدلّت منها على ان دولة فرانسوا تدخلت سر المساعدة البنادقة للدفاع عن جزيرة كريد وأمدتها بالسلاح وكانت تلك الاوراق مرسله الى الميودى لاهى سفيرها باستانبول فوقعت في يد الصدر كوبرلي محمد باشا (١٠٧٠ هـ) فقبضت الدولة على ابن سفير فرانسوا المخالفة ووقعت منه وألقته بالسجن مدة سنة من الزمان ثم توفي كوبرلي محمد باشا بمدينة أدرفه في ٦ ربيع أول سنة ١٠٧٢ هـ وسنه ٨٠ سنة ولقد كان من أمهر رجال السياسة وأصدقهم وأصحهم نظرا وعقلا خدم الدولة خدمات جليلة وتمكن من طرد البنادقة من البوغاز وجمد به القلاع وأصلح أمور الداخلية وحارب الحروب الطويلة ولما مات ولي السلطان ابنه فاضل أحمد باشا مكانه وسنه عشرين سنة وكان والده أوصاه بما يلزم ورسم له خطة السير وكان هذا الوزير كاسبه ذكاه ومهارة سلك مسلكه بناء على وصيته

مخاربات النمسا وفتح ابوار وواقعة سان هوار - قد كانت النمسا المتجاوزت حدودها وتدخلت في أحوال بلاد ترانسلفانيا وات عليها من قبلها أمير يدعى كيانوس (Komény) بعد ان ولت الدولة عليها ميخائيل ابان في تقدم السرعسكرا كوسه على باشا وهزم كيانوس وقتله وأخرج جيوش النمسا من داخلية الايالة المذكورة وطلب من الدولة تكليف النمسا بدم قلعة زه

رينوار التي شيدها الامبراطور ليو بولد الثاني وان لا تقبل مقترحات دولة النمسا وجمهورية البنادقة في
 أمر الصلح ولما توقفت النمسا أعلنت عليها الدولة الحرب وأخذت في سنة ١٠٧٣ (١٦٦٢) تسير
 عليها الجيوش وأتى السلطان أدرنه وقلد الصدر الاعظم أجد باشا وظيفه القيادة العامة وسيره على
 رأس جيش يبلغ ١٢٠٠٠٠ جنسدى فتقدم به على طريق أوسك وبودين واسترغون حتى وصل
 الى قلعة ابوار (Nouhensel) وضرب عليها الحصار وكان العثمانيون فتحوا هذه القلعة سابقا
 سنة ١٠١٢ هـ ثم عادت للنمسا وبينما العثمانيون يحاصرون المدينة المذكورة أتتهم نجدة عظيمة
 تحت قيادة ابن خان القرم أحمد كراى تبلغ ألف جنسدى ونحو عشرين ألفا من القوامن القوازي وبعد
 ما شدوا الحصار على القلعة شهرا كاملا التزمت بالتسليم فدخلها الوزير فاتحما (١٠٧٤ هـ)
 ثم بعد ذلك أقام على نهر الطونة جسر من جهة استرغون وعبر بالجيوش وتلقى مع جيش النمسا وبين
 الذي كان أتى لقتاله تحت قيادة الجنرال مونتيكوكولى (Montécuculli) وهزمه وأسرمه ثمانين
 ألف أسير وغنم غنائم لا تحصى فاندش لهذه الاخبار امبراطور النمسا حيث رأى جيوش العثمانيين
 انتشرت في بلاده باقلمجي مورافيا وسيليزيا وفتحوا نوغراد (Novigrad) وأطرافها وكان اندهاشه
 هذه المرة عظيما أكثر ما اندهش منه أسلافه من قبل مدة السلطان سليمان القانوني الذي وطي
 بلاده من المرات العديدة وذلك لانه كان يظن ان قوة العثمانيين قد انحطت في أوروبا وبالماعتري
 دولتهم من الفتن والاختلالات الداخلية منذ نصف القرن الماضي أى منذ معاهدة زيدوه توروك
 السابق ذكرها ولما خاف الامبراطور من تقدم العثمانيين واستيلائهم على أوروبا باطلب من البابا
 اسكندر وساطته في دعوة لوي راباع عشر ملك فرانسالى انضم اليه ويحارب العثمانيين معا فاسرع
 البابا في الوساطة ودعا ملك فرانسالى الذى ابى الدعوة وأرسل قوة عسكرية تحت قيادة الكونت دى
 كوليني (Coligny) وفي خلال ذلك عاد الصدر الاعظم الى مشتى بلغراد وأذن لقرال الاردل
 وأميرى المملكيتين بالانصراف الى اماراتهم وقبل مضى فصل الشتاء حاصر الجنرال زرينى الملقب في
 التواريخ العثمانية بالخازوق الحديدي قلعة قنيزه ولما بلغ الصدر هذا الخبر وكان بلغراد استعدنى
 الحمال وكان الفصل شتاء وجمع الجنود من مشاتها وزحف على قنيزه فخاف الجنرال زرينى
 (Zriny) ملاقاته وترك الحصار ثم تقدمت الجنود العثمانية نحو حصون زرينوار الواقع الخلف
 عليها واستولت عليها ثم هدمتها وعند عبور هانر مور (Mor) واشتبا كها مع العدو وهزمته
 وقتل في الواقعة الجنرال استروزي (Strezzi) قائد الجيوش النمساوية فقطع امبراطور النمسا
 عند ذلك العشم من الانتصار وأرسل الى الصدر سفيرا يطلب الصلح طبقا لمعاهدة زيدوه توروك
 التي عقدت مع قبوچى مراد باشا وتعهد بفتح جزية قدرها ثلاثون ألفا من الذهب الآن الصدر
 الاعظم ما طله وتقدم نحو قلعة يانيق يريد فتحها وبينما كانت الجنود العثمانية تعبر نهر راب
 (Raab) تقابلت مع جيش للنمسا يقوده القائد العام الجنرال مونتيكوكولى السابق وبعد واقعة
 دموية شديدة استمرت يوما تمامه (١٠٧٥) لم يثبت فيها هذا القائد الشهير بل تقهقرا امام
 الجنود العثمانية الذين فقدوا في هذا اليوم العصيب نحو عشرة آلاف جنسدى وكان يساعد جيش
 النمسا في هذه الواقعة القوت كوليني (Coligny) مع ستة الاف من الفرنسيين أرسلهم ملك
 فرانسالى لمساعدة النمسا وكانت هذه المساعدة سببا لحدوث التفورالاتى ذكره بين فرانسالى والدولة

العثمانية وتسمى هذه الواقعة بواقعة سان غوتار نسبة الى الكنيسة التي حصلت الواقعة بقربها ثم جمع الصدر بقية جنوده في قسبة واسوار (Vasvar) حيث عقدت شروط الصلح بين الدولتين (١٠٧٥ هـ) وكان من مقتضاها أن النمسا لتدخل في أمر بلاد الاردل فيما بعد وتعرف بامارة اباني ميخائيل عليها وأن تهدم قلعة زهر ينوار ولا تصلح بعد ذلك وان تدفع ٢٠٠٠٠٠ غرش غرامة وان تبقى قلعتي اوارونو يغرادللدولة العثمانية وان تبقى أربع مقاطعات من بلاد البحر للدولة العثمانية وان تراعى العهود السابقة المعقودة بين الطرفين

فتح قنديه وواقعة صغرى البحرية (١٠٨٠ هـ) - اعلم ان الحروب استمرت في جزيرة كريد من سنة ١٠٥٥ هـ ولم تتمكن الدولة مع ذلك من الاستيلاء عليها بتمامها الضعف الذي كانت عليه بحريتها ولكثرة مناعها بجبهات أوروبا والاناضول خصوصاً مما تقدم ذكره ولما سكنت أحوالها نوعاً عمت عنكبوت أحمد باشا سردار اعلى جيوشها هناك (١٠٧٢ هـ) وأمرته بسد الهمة وأمدته بالجنود والذخائر وأمرت القبودان على باشا ابن حسام الدين بك بأن يسافر بالدوننا الى البحر الابيض المتوسط الأتومات في أثناء سفره وخلفه على رئاسة البحرية القبودان عبد القادر باشا فلم يمكث الا أياماً وخلقه قره مصطفى باشا وكان والياً على ديار بكر وبعد ان أتمت الدولة مسئلة بلاد الاردل صهمت على اتمام فتح كريد فأخذت تجهز الجيوش وأرسلت سنة ١٠٧٧ هـ الصدر الاعظم قائد الجيوش التي بالجزيرة المذكورة وسيرت أيضاً أساطيلها تحت قيادة قبالان مصطفى باشا ولما وصل أخذ يدبر الامر لفتح قلعة قنديه وفي تلك الاثناء تقابل أسطول مصر وكان قادماً لينضم للدوننا بمعاينة البنادقة ولما انتشب القتال بينهما انهمزت السفن المصرية وأسر البنادقة قائدها رمضان بك (٢ رمضان سنة ١٠٧٧ هـ) ولما شد الصدر الاعظم الحصار على قنديه استغانت جمهورية البنادقة بدول أوروبا باقوعدها بالمساعدة ولما منعت قنديه على العثمانيين صمم السلطان (١٠٧٩ هـ) على الذهاب بنفسه الى جزيرة كريد ليرى فيها ربه ولما شاهد القواد تصميم السلطان تبعته فيهم روح الاهتمام والغيرة واجتهد سفراء البنادقة وفرنسا والنمسا الى الدولة العثمانية في تحويل عزم السلطان عما نوى عليه لئلا يتركوا من إمداد قنديه وأرسل السلطان الاوامر الاكيدة الشديدة للصدر الاعظم بسد كل مرتخص وغال لفتح قنديه ولما شاع الخبر بذلك أرسلت البنادقة أسطولاً الى مياه الارخبيل لاشغال الدولة وغل يديها وحدث من ذلك ان وقعت المحاربة البحرية السابقة وحاصلها أنه بينما كان أسطول طرابلس الغرب المركب من ست سفن حربية يتجول بمياه كسندره (Kassandra) وسلانيك لحراستها تلاقى مع عمارة البنادقة المركبة من ثلاثة غلايين و١٧ فرقاطة وكانت تحت قيادة الاميرال جورجي فوقع القتال بينهما ولما علم القبودان قبالان مصطفى باشا بهذا الخبر سار بالدوننا التي كان خرجها الى البحر الابيض لامداد أسطول طرابلس المذكور وكانت مشكلة من ٣٥ سفينة مختلفة القدر والنوع ولما شاهد البنادقة عمارة العثمانية هموا بالهرب الا أن العثمانيين قطعوا عليهم طريق الهرب وقبضوا منهم بعد حرب دام بعض ساعات على غليونين وتمكنت باقي السفن من الفرار وكان بالغليونين مائة شخص وأربعة أشخاص من أسرى المسلمين

ويقال ان قائد البنادقة قتل في هذه الواقعة ولكن لم تحققة نواريج الفريج ثم حصلت أيضا واقعة بحرية أخرى امام قلعة قنديه بين أسطول عثمانى مؤلف من ١٢ سفينة معين للحراسة وبين سفن البنادقة دارت فيها الدائرة على العثمانيين ومع كل ذلك لم تفتزمه الصدر الاعظم بل كرم المهاجمات على القلعة الا ان المدينة لما كانت غير محصورة من جهة البحر تمكن أسطول به جيش فرنسوى عدده ستة آلاف جندى به كثير من أشرف فرانسوا كان حضر لامدادها تحت قيادة الدوق ده نوايل (Noailles) من امدادها (١٠٨٠ هـ) ثم بعد أيام قلائل حضرت سفن أخرى من طرف البابا ومالطة ودلماسيا لانها أيضا الآن هذه التجددات كانت سببا في اثاره حمية العثمانيين فشدوا الحصار وضيقوا القلعة وهدموا أسوارها بالانغام ولما نقص عدد حاميتها الى نحو أربعة آلاف جندى ورأوا انهم لا يمكنهم الاستمرار على المدافعة اضطروا لحفظها البندقي الجنرال موروزينى الى التسليم فدخلها الصدر الاعظم كوبرلى أحمد باشا فى اليوم الاول من جمادى الاولى من سنة ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ م) تحت شروط عقدت بين الطرفين اعترف فيها القائد المذكور بالنيابة عن جمهورية البنادقة بالتنازل عن جزيرة كريدما عدد ثلاثة ثغور منها وهى سودا (Suda) وكرا بوسه (Corabusa) واسينا وونغه (Spina-Longa) ثم كتب الصدر بيده كتابا يشرفه السلطان بهذا الفتح المبين وبعده ان أصح ما تخرب من قلاعها وأتم تنظيم ادارتها عاذا الى استانبول فاحسن السلطان ملتقاها وأتم عليه وعلى كافة من كان معه من الضباط والجنود بالانعامات الجزيلة

وفى خلال ذلك كانت دولة فرانسوا ترسل سفنها لمحاربة سفن بلاد المغرب بدعوى استمرارها على الايقاع بسفنها وقد عينت لذلك الاميرالات بوفور (Beaufort) ودوكسن (Duquesne) ودستري (D'Estrées) وطورفيل (Touroville) ثم ان التجربة التى وجهها لوزير الرابع عشر على جيجملى من سواحل الجزائر لاحتلالها عسكريا أعانظ الدولة العثمانية جدا حتى ان بقية الفريج الذين باساكل الدولة خافوا عاقبة الامر واعلنوا جميعا بمعاداة الفرنساويين وبغضهم لهم

ولما تكدرت العلاقات بسبب ذلك بين الدولة وفرنسا ساعدتها جمهورية البنادقة سعى وزير فرانسوا المسيو كولبير فى تحسين العلاقات مع الدولة وأوعز الى السفير بذلك الا ان السفير وكان يدعى المسيدوى لاهى لما أراد التكلم مع الصدر الاعظم فى هذا الخصوص انتهره الصدر ولم يسمع منه قولا ولما لم يقدر السفير المذكور على إعادة الصلات بين الدولتين كما كانت عين لوزير الرابع عشر ملك فرانسوا سافيرا آخر يدعى الماركيكيزدى نواتل (Nointel) (١٠٨٠ - ١٦٧٠) باسطول حربى مؤلف من أربع سفن ظن ان من هذا الفعل ربما أخاف السلطنة وأعان على مبتغى فرانسوا وأمر قائده باحضار السفير وحاشيته وكل من أراد المهاجرة من الفرنسيين اذا امتنع السلطان عن قبول الصلح ومع ذلك فلم يقبل الصدر ما عرضه هذا السفير حتى كاد التفور يودى الى حرب بين الطرفين الا ان اللين والموادعة والمداهنة التى استعملها هذا السفير فيما بعد بارشاد كولبير مكنته من نوال رضا السلطان فجددت المعاهدات وعادت الصلات بينهما الى ما كانت عليه سابقا

محاربة بولونيا ومساعدة بوجاش (١٠٨٣ هـ) - لما قام النزاع والشقاق بين القوزاق المشهورين باسم صارى قامش النازلين في ديار أوقرين وبين قوزاق زاووروغ المتوطنين بين مدينة أوزى (Otchacov) وفم نهر بوغ وطلب كل منهم المساعدة والحماية من خان القريم دخلت أخيرا قوزاق صارى قامش في حى السلطنة السنية وبذلك امتدت أملاك الدولة في تلك الجهات فاحتج ميخائيل ملك بولونيا على ذلك مدعيان ولاية أوقرين (Ukrain) هى من بلاده وان دوروشنقو أمير القوزاق المذكورين (Dorozenko) من الذين يفسدون في الحدود ثم جرد عليه ير يدخره فعقدت الدولة ذلك بحماها بحقوقها وأعلنت الحرب على بولونيا في أوائل سنة ١٠٨٣ هـ وخرج السلطان بنفسه مع الجيش وعبر نهر الطونة من جهة ايساقي ومازال يتقدم حتى وصل الى بلاد ليهستان (بولونيا) عن طريق خوتين (Chokzim) وحاصر قلعة قامنيجه (Kaminiec) وفتحها ثم دخل بجيشه في ايللة بودوليا واستولى على مدينتي ايلبو (Lemberg) ولوبلن (Lublen) المشهورتين وعلى جميع ما يتبعهما من الدساكرو عانت بهما الجنود العثمانية كالعادة المتبعة اذ ذلك فطلب قرال بولونيا المذكور الصلح بشرط ان يترك ولاية أوقرين للقوزاق واقليم بودوليا للدولة وان يدفع جزية سنوية قدرها ٢٢٠٠٠٠ من الذهب فقبل السلطان منه ذلك وأمضيت به معاهدة (١٠٨٣ هـ ١٦٧٢ م) في بوجاش (Busacs) ثم عاد السلطان الى أدرنة وأمر سليم كراى خان القريم بالعودة الى بلاده وكان يصعبه في هذا الحرب ولمامات أمير بولونيا المذكور وانخبوا بدله حناسو ويسكى ولم يبق بشرط المعاهدة المذكورة اشتعلت نار الحرب ثانية بين الطرفين وامتدت الى سنة ١٠٨٧ هـ وكانت سجالا وكانت بلاد خوتين وقامنيجه وايلالتي بودوليا وأوقرين تقع في بدالتار والعمانيين نارة وفي بدال بولونيين أخرى ثم توسط سليم كراى خان القريم في الصلح أخيرا وتجددت معاهدة بوجاش بعد ان حذقت منها المادة المختصة بدفع الجزية

وفي سنة ١٠٨٧ توفى الصدر أجد فاضل باشا ابن كوبرلى باشا الشهير وله من العمر ٤٧ سنة أقام منها ١٥ سنة في الصدارة وكان من أفاضل الوزراء وأحسنهم سياسة وفكرا اتصف بجميد الخصال وممدوح الصفات وبأفكاره المصائب أعاد للدولة ما كان لها من المجد فخرن عليه السلطان والناس جدا وكان قبل وفاته أمره السلطان بان يقود الجيش بنفسه لحرب بولونيا والسباب الآتية وخلفه في الصدارة زوج أخته قره مصطفى باشا ولم يكن كسابقه كفاءة واستعدادا بل كان من الضربات على الدولة لانه باع المناصب والمعاهدات ومن سوء سياسته وتدبيره شق التار عضا الطاعة باقليم أوقرين واستجدوا بالمسقوف ولما كانت دولة الروسيا تنظر لتقدم العثمانيين بعين الغيظ والحسد أرسلت سنة ١٠٨٨ هـ جيشا عظيما وفتحت قلعة جههرين (Radzin) ثم قامت الحرب أخيرا بين الروسيا والدولة العثمانية والتار وامتدت زمنا الى أن انتهت بعقد معاهدة رادزين الآتية المذكور

محاربة فرانسوا قرصان ولايات الغرب - لما كانت المناوشات البحرية مستمرة بين سفائن فرانسوا وقرصان الغرب أتى في سنة ١٠٩١ هـ (١٦٨١ م) اسطول فرانسواى مشكل

من ثمانية غلايين تحت قيادة الاميرال دوكنس (Duquesne) الى ميناء جزيرة ساقر وأطلق قنابلها على مدينتها ولاحراق غلايين طرابلس الغرب التي كانت تصلح عينا تلك المدينة وقد حصل من هذا التعدي الفجائي للأسطول المذكور خسائر جسيمة وتلفيات عظيمة وكان ذلك على مشهد من القبطان العام قره ابراهيم باشا حيث كان هنالك بأسطول مؤلف من ثلاثين شانية ولما وصل هذا الخبر الى دارالخلافه هددت الدولة سفير فرنسا الماركيز غليراغ (Guelleragues) وجميع رعاياها بالطردهن من الممالك العثمانية فارتبك السفير واعترف بان هذه الحركة مخالفة للعهود التي بين المملكتين واعترض بان التعديت المذكورة بما وقعت من أسطول دولته بغير علمها وطلب الامهال ريثما يستعلم عن الحقيقة فأمهل أياما ثم جاءه الجواب بان حكومة فرنسا لا تعلم شيئا عن هذه التعديت كلها وانها استجازى المتعدي باشد الجزاء وقد تمت للدولة أعذارها عما حصل وترلفت الى السلطان والوزراء بنفيس الهدايا وشفع الصدر الاعظم لسفيرها لدى السلطان فصفح عنه وقابله بيالى كوشك وينفهم من هذه الحادثة ما كانت تكنه فرنسا من العداة لسفائر قرصان الجزائر لولا خوف حكومتها من الدولة العثمانية وقد ذكر كريسى في تاريخه ما كانت عليه وجاقت الغرب البحرية في أواخر القرن السادس عشر من الميلاد فقال ان حكومات وجاقت الغرب التابعة للجزائر وتونس وطرابلس كانت حاصلة في الوقت المذكور على نوع من الامتياز ويجب عليها أن تقدم للدولة العثمانية بعض المراكب الحربية لمساعدتها من الحرب وترسل كل بضع سنين للسلطان ووزرائه هدايا جليلة وكانت الدولة تعطىها الذخائر الحربية اللازمة لدور صناعتها وكانت سفن بلاد الجزائر أقوى سفن قرصانها من الحكومات لانهم تمكنوا بالسطو على سواحل الممالك النصرانية الواقعة على سواحل البحر الابيض المتوسط فقط بل كانت تخرج من مضيق جبل طارق وتغير على السواحل الجنوبية والشمالية وعلى جزائر ماديرة والساحل الغربي من بحر انكلترا وقد استمرت سنين عديدة تسطو على جزيرة ايرلاندة وبقادماها على ذلك وجسارتها وصلت الى جزيرة اسلندة واسكندنافيا وكانت اجراءت قرصان الجزائر في الاغارة على سواحل البحر الابيض المتوسط تشبه أعمال النورماندين الذين تفرّدوا بالسطوة في المحيط الاطلانطيقي وكانت سفن أهل الجزائر فضلا عن صغرها وسرعة سيرها تحمل الواحد منها من ثلثمائة مقاتل الى أربع مائة ومن أربعين مدفعا الى خمسين وكان عددا الاسرى المسيحيين الذين يستخدمونهم في تجريك المقاذيف يبلغ من ١٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠ أسير وكانت قوة بحرية تونس وطرابلس الغرب بالنسبة لاهل الجزائر قليلة جدا وقد تقدم انه في سنة ١٠٦٥ هـ (١٦٥٥ م) حضر الاميرال بلاك أو بليق بعمارة انكليزية امام مدينة الجزائر وطلب من حاكمها انحلاء سبيل أسرى الانجليز فأخاوا سبيلهم وسلوهم اليه بلا نزاع بخلاف التونسيين الذين كانوا أقل منهم قوة فانه لما طلب منهم مثل ذلك رفضوا طلبه وتسبب من ذلك انه أحرق جميع السفن التي كانت راسية تحت قلعة تونس وضرب القلعة بالمدافع ثم انتهى الامر باجابة طلبه وقد هاجم الجزائر بين أضياف أزمينة مختلفة كل من الاميرال دوريتير بعمارة هولاندة أي الفيليك والاميرال بوفور بعمارة فرنساوية قصد الانتقام منهم على ما فعلته قرصانهم فقوا موه بشجاعتهم المشهورة وقد مكثت قرصان الجزائر حائرين لشهرتهم البحرية حتى زمن اغارة العمارة الانكليزية عليها تحت قيادة اللورد اكسموث اه ملخصا

مخاربه جهرين ١٠٨٩ - لما اتضح للدولة نفاق وتلون رئيس قبائل صاري قامس التنارية المدعودوروشنقو (Dorozensko) وكانت الدولة نتجته من يدملك بولونيا الما التجا إليها وأعانتها وانخرج عليها جهارا وانصاع الى الروسية وسلم لها بلدة جهرين قاعدة بلاده وجه السلطان عليه خان القريم سليم كراى والسرعسكر شيطان ابراهيم باشا الا أنهم ما نهر ما امام جهرين ولم يتمكن من فتحها فاهتم السلطان لذلك جدا وخرج بنفسه لمحاربة الروسية وتقدم حتى وصل الى سلستره فكث هناك وبعث الصدر الاعظم بالجيوش (١٠٨٩ هـ) فسار الصدر حتى قدم البلدة المذكورة وتلاقت عساكره مع عساكر الروس والتار وبعد محاربة بدمويه استولى الصدر عليها ولما كانت بعيدة عن الحدود العثمانية هدمها ثم عاد بالجيش الى سلستره (١٠٩٠ هـ) ومع ذلك فان السلطان صمم على مداومة قتال الروس لحمايتهم احدى اتباعه الا ان الروس بادروا بارسال سفير عنهم لطلب الصلح وبعد ان تفاوض مع ارباب الدولة عقدوا معه صلحا مضمونه بقاء الحال على ما كانت عليه قبل الحرب (١٠٩١ هـ - ١٦٨١ م) بمعاهدة تدعى معاهدة جهرين اوردزين (Radzin) وذلك بمساعي امير القريم

مخاربات النمسا (١٠٩٣ - ١١١٠ هـ) ومحاصرة دياته - اعلم ان هذا الصدر مرزيفونى قره مصطفى باشا وان كان نشا مع فاضل احمد باشا الشهير وخدم الخدمات المتنوعة في الدولة الا ان كبره وجبروته وجهله كانت المانع الاكبر من عدم توفيقه في أكثر أعماله ولما كان مسرفا لا يبق على مال امتدت يده الى قبول الهدايا بكافة أنواعها وكان يعامل سفراء الدول معاملة خشنة غير لائقة بمقامهم حتى كدر بذلك العلاقات الخارجية التي بين الدولة وأوروبا وكان ليوبولد الاول ملك النمسا بعد حرب الثلاثين سنة قبض على صوبخان الحكيم بيلاذ الجمر ايضا محتسلا له وأعدم ونفى كثيرا من أعيانها فاشتعلت فيها نيران العصيان والاختلال وقام أحد شبان أمراء الجمر المدعو أمره توكلي (Eméric Comte de Tœkli) وترأس على الخارجية على حكومة النمسا للتخلص من استبدادها وبعدها حاربها في عدة وقائع أرسل سفراء من طرفه يطلب من الدولة المساعدة وقد اشترك معه ايضا في ذلك ابان امير الاردل ولما كانت مدة هدنة اسوار قرب انقضاءها أعلنت الدولة الحرب على النمسا ونصبت والى بودين أوزون ابراهيم باشا سرعسكر اعلى الجيوش التي أمرت بالزحف على النمسا ثم تقدم السرعسكر ومعه أمير توكلي وأمير الاردل ابان المذكورين حتى وطئ بلاد النمسا وأخذ في مقاتلة جيوشها (١٠٩٣ هـ) وعينت الدولة توكلي بلك المذكور أمير البلاد الجمر الوسطى أو بلاد قرص (Kruczes) ثم سار الصدر الاعظم قره مصطفى باشا بالاوردي الى بلغراد وعبر نهر الطونة ووصل الى نهر راب عن طريق استوني بلغراد وجمع مجلسا عسكريا واستشاره بخصوص الحرب وبعد طرح الآراء خالف الصدر رأى أوزون ابراهيم باشا وأصر على مهاجمة دياته بعد ان وخب ابراهيم باشا على رأيه وتقدم في الحال نحو المدينة المذكورة وضرب عليها الحصار وكان ذلك في يوم ١٩ رجب من سنة ١٠٩٤ هـ (١٦٨٣ م) واستمر محاصر الهامة شهرين واستولى على كافة قلاعها الامامية وهدم اسوارها بالمدافع والالغام وكاد يفتحها تماميا بعد قليل لولا ان جناسو ويسكي ملك بولونيا هو ومنتجبي ساكس وباقي اميرائه تقدموا بجيوشهم جميعا لفتح بيات البابا اينوشينسيوس الحادى

عشر الذي أضرم في قلوبهم نار التعصب الديني وهجم سويديكي على جيوش العثمانيين لانه كان القائد العام للجيوش التي أتت معه وذلك في شهر رمضان من السنة المذكورة واستمر الحرب والقتال بين الطرفين طول النهار وأخيرا انهم قره مصطفي باشا بجيوشه تاركا كافة المدافع والذخائر للعدو ومازال يتقهقر حتى وصل الى قلعة ياتقي في حالة صعبة بعد ان كابد مشاق شديدة وهناك جمع ما نشئت من جنوده ثم أخذ يري أوزون ابراهيم باشا الذي خالفه في الرأي أو لابسوه التسدير والغلطات حتى صدر أمر السلطان محمد الرابع بقتل ابراهيم باشا المذكور ظملا وبعزل مراد كراي خان من إمارة القريم وقد استهرسويديكي هذا في جميع ممالك أوروبا وبعده ذلك بجماي النصرانية لانه خلص مدينة ويانة الشهيرة التي كانت تعد وقتئذ مقتاتالاور وبامن تسلط الاسلام

وأخذ قره مصطفي باشا عند عودته يحرق القرى ويحرب البلاد حتى وصل بودين ثم بلغراد وعاد السلطان الى أدرنة متسكرا بجدت من هذه الهزيمة ولم يعزل قره مصطفي باشا من الصدارة بل قربه وقلده سيفاً مرصعاً ولما اقتفى العدو أثر الجيوش العثمانية المنهزمة استولى عن قلعة استرغون وأراد يخضر باشا أحد القواد صد العدو والانه غلب وقتل هو وجميع فرقته ولما وصل هذا الخبر غضب السلطان لسوء تصرف الصدر فأصدر أمر بقتله ووجه مسند الصدارة الى قره ابراهيم باشا (١٠٩٥ هـ)

اتفاق اعداء العثمانيين عليهم وهزيمات جيوشهم - اعلم انه بعد الهزيمة المتقدمة اتفقت البنادقة وپولونيا والبابا ورهبنة مالطة والروسيا والقوزاق وتسكانه مع النمسا كونواعصبة واحدة تعرف باسم سانت اليانس (Sainte-Alliance) أي الاتحاد المقدس على محاربة الدولة العثمانية التي أصبحت بلا نصير ولا معين ثم تقدمت جنود هذه الممالك من كل جهة تقصد المملكة العثمانية فتفرس الصدر الاعظم قره ابراهيم باشا في وخامة العقاب التي تحدث من اتفاق الاعداء وروح البقاء في دار الخلافة ليتم بأمر التجهيزات وغيرها وعين تكفور طاغلي مصطفي باشا سرعسكرا لعسكر المجر وكتب لخان القريم سليم كراي خان بالزحف بجيوشه على پولونيا وجعل معه القائمقام سليمان باشا ثم أرسل خليل باشا لصد البنادقة الهاجين على بلاد مورة وفي خلال ذلك اتصرف قائد جيوش النمسا دوق لورين الشهير (Duc de Lorraine) على العساكر العثمانية التي بمدينة ويشغراد ووايچن (Vaczen) واستولى على بلاد وايچن وبشته وحاصر مدينة بودين وقتل محافظها قره محمد باشا الا أن شيطان ابراهيم باشا تمكن من رد الاعداء عن المدينة المذكورة واسترد منهم قلعتها فلهاذا عين سرعسكرا ابدل من تكفور طاغلي مصطفي باشا (١٠٩٦ هـ) وقد تمكن هـذا السرعسكرا الجديد بعد ذلك أيضا من استرداد قلعة وايچن من يد الاعداء لانه لسبب تفرق الجيوش العثمانية في كثير من الجهات لم تات أعماله الحربية بفائدة لان النمسا غارت بجيوشها على بلاد المجر وأهملت كل أمر الدفاع فاتهم بالتسكاس قصد اقبض عليه وسجن وأمر السلطان أيضا بقتل السرعسكرا ابراهيم باشا في بلغراد ووجهت الصدارة الى سليمان باشا وقد قام هـذا الصدر بأمر الحرب في پولونيا أحسن قيام (١٠٩٧ هـ) وبعده ان أجرى بعض الاصلاحات الداخلية قصد بلاد المجر حيث كان الدوق دولورين دخلها بجنوده ومعه البرنس أوجين دي سافوا وحاصر بودين وضيق

عليها الحصار ولم يتمكن الصدر من انبجاده فسقطت في يدا الاعداء قبل وصوله (١٠٩٧ هـ)
 وقتل محافظها عبدى باشا وكذا جميع حاميتها من العثمانيين وكانوا أربعة آلاف بعد ان دافعوا ودافع
 الابطال والحقوا بالمحاصرين خسائر جمة وقد دخلت هذه المدينة في يدا العثمانيين من سنة ١٠٦٦ هـ
 وبعد سقوطها أخذ الصدر يستعد في زمن الشتاء بجمع كافة الجيوش العثمانية المتفرقة في
 تلك الجهات فبلغت ٦٠,٠٠٠ مقاتل معهم سبعون مدفعا تم تقابل مع الجيوش المتفوقة بين سهول
 مهاج وأوسك يوم ٣ شوال من سنة ١٠٩٨ هـ وبعد قتال شديد انهزمت الجيوش العثمانية
 بعد ان تكبدت خسائر جمة واستولى المتفقون على ابالة الارذل بتسلمها

الوقائع المحريرة في الوقت المذكور — اعلم انه لما نقض البنادقة عهد الصلح واشترت كوامع

الدول المتقدمة في التحالف المقدس على محاربة العثمانيين أرسلوا جيشا تحت قيادة الجنرال
 موروزيني محافظ قنديه سابقا ومعه عمارة بجرية فاستولى على قلعة ماورومين بلا منورة بعد
 حصارها مدة ولما كانت الجيوش العثمانية تحارب النمسا ومن اتحد معها من الدول منذ مدة كان
 اعتراضا بعض الضعف لما لحقها من الهزائم السابقة ولذلك لم يمكن للدولة اجراء أى عمل مع البنادقة
 لما أتوه من الافعال العدوانية في الوقت المذكور غاية الامر ان الدولة عينت مصاحب مصطفى باشا
 قبودانا على الدونما (١٠٩٥ هـ) وأمرته بالاستعداد وكانت الدولة تريد في الوقت المذكور
 عشر سفن كبيرة من نوع الغليون منها اثنتان طول كل واحدة منهما ٥٠ ذراعا أى ١١٠ أقدام
 انكليزية وطول كل واحدة من الثمانية الاخرى ٤٥ ذراعا وبذلك تقوت الدونما ثم قسمت الى
 فرقتين (فيلو) جعلت احدها تحت قومندان ابراهيم باشا والثانية تحت قومندان بابا
 حسن باشا وكانت ما موريتهما قبل ذلك مراقبة بناء هذه السفن ثم رتبوا الهما الضباط والملاحين
 والعساكر اللازمة بعد ان سلحوهما بالاسلحة والمدافع

وفي سنة ١٠٩٦ هـ (١٦٨٥ م) عرض بعض أصحاب التروية طلب الدخول ضمن أمراء
 البحرية على شرط أن يبنوا من أموالهم مراكب حربية فأجيب طلبهم وشيدوا عدة سفن حربية
 عظيمة وقد نجح عن هذا الامر ان حصلت الدولة على دونما قوية في زمن قليل كانت مر كبة
 من ستين سفينة حربية معظمها حديد وان كان أصاب بعض أولئك المترين مضايقات شديدة
 لتراكم الديون عليهم لانهم لم يتدبروا في الامر جيدا قبل إقدامهم عليه وبعد ان تم تجهيز السفن أفلح
 بها القبودان مصاحب مصطفى باشا المذكور في أول فصل الربيع وتجهول بين جزائر الارخبيل وكانت
 قد شيدت الدولة في تلك المدة قلعة عظيمة في فم خناق قلعة وقلعة أخرى بقله الفنار بجزيرة ساقز وبعد
 أن تم تشييد هاتين القلعتين وتسليحهما بما سعى القبودان العام أفلح الى رودس وتلاقى بالسفن
 المصرية القادمة بالارزاق وخوف عليها من أن يصيبها حادث رافقتها الدونما الى جزيرة ساقز وكان هذا
 الظن في محله لان فرقة من عمارة البنادقة كانت محتفية خلف جزيرة ساقز قصد القتال بسفن
 العثمانيين وكان عليها القبودان باولوا المشهور بالتلصص في البحار هذا ولما شاهد القبودان المذكور
 محي الدونما العثمانية وكان لا يظن ذلك لطول المدة التي استغرقتها في التجول في البحار وقع في الحيرة
 والاضطراب ثم لما شاهد انه قد صدر الامر لبعض سفن الدونما العثمانية بالحملة عليه ولى منهزما

فافتق أثره كل من عبد القادر باشا الملقب بماجا ماوس سليمان باشا فلم يدركه لاشتهاد هبوب الريح المساعدة له على الفرار ولان القائدين المدكورين لم يبذلوا ما يلزم من المجهود في تعقبه فأسرها القبودان لهما حتى انه لما وصل بالدوننما الى جزيرة رودس عقد مجلسا حريا بما كتبهما وبعد سماع أقوالهما عاقبهما بما يستحقانه ثم أقلعت الدوننما الى سواحل مورة وعاد سردارها السابق عبد القادر باشا بالدوننما الى استانبول وكان البنادقة استولوا اذذاك على قلعتي متون وقرون بمساعدة بعض الالهالي الذين انضموا الى عساكرهم

وفي سنة ١٠٩٧ هـ (١٦٨٦ م) تعين مصري زاده ابراهيم باشا قبودانا للسدوننما وكان قبل ربانا باحد غلايينها وله شهرة في الفنون البحرية والحربية لان أصله من أوجاقات بحرية طرابلس الغرب ولما عين قبودانا رفاقه السلطان الى رتبة الوزارة وقداهتم بعمل الآلات اللازمة لانشاء السفن الحربية بدلار الصناعة باستانبول وقد عدت له تلك الاعمال أثرا مجيدا ولا يخفى ان توجبه مسند القبودانية العامة لاجدرجال البحرية هو تسليم القوس باريها واسكان الدار بانها وقد كان البنادقة لعدم تعرض الدولة لهم في أعمالهم البحرية قويا نفوذهم وامتد سلطانهم ببحر اليونان واستولوا على قلعتي انابولي واتنه الا انهم هزموا أمام قلعة اغريموز وتكبدوا خسائر جسيمة وكانت وفاة مصاحب مصطفى باشا سنة ١٠٩٨ هـ بعد أن تعين محافظا لقلعة سد البحر بالدرينيل وتعين اسمعيل باشا بدله سردارا على جيوش مورة وقد أخذ هذا السردار يهتم بحاربة البنادقة بتلك الاطراف ليسترد منهم القلاع التي استولوا عليها وفي هذه السنة خرج القبودان مصري زاده ابراهيم باشا بالدوننما الى بحر سفيد ولما توالى الهزيمة على الجيش اشتعلت نيران الفتنة والقلاقل بين أفرادها لانحلال روابطه وانفكالك ضوابطه فلما رأى السلطان ذلك عزل الصدر الاعظم سليمان باشا ظنانا عزله رجا كان فيه فائدة لتسكين الهيجان ووجهت الصدارة الى سياوش باشا الذي انتخبته الجنود بعرفتها ورقى كوبريلى زاده فاضل مصطفى باشا مسندا للقاعة قامية ولما رأى السلطان ان الاحوال لم تهدأ بعد بما أجراه من الخيل تنازل عن كرسي الخلافة والسلطنة مفضلا الانزواء عن هذه المعيشة الملائمة بالخوف وورد في بعض الروايات أن الجنود تجوزوا عليه مع الالهالي وأجمعوا على خلعته فخلع سنة ١٠٩٩ هـ وخلفه أخوه السلطان سليمان الثاني ولم يمكث السلطان محمد بعد تركه كرسي السلطنة غير خمسة أعوام وكان رحمه الله حلما كريما محبا للعدل يعمل الى الصيد والقنص كثيرا حتى لقبوه بالصيدا وتولعه بذلك كانت أكثر اقامته بمدينة أدرنة لكثرة غاباتها

(٢٠) السلطان سليمان خان الثاني ابن السلطان ابراهيم خان

١٠٩٩ - ١١٠٢

استمرار الفتنة والارتباكات - بوبع هـ هذا السلطان بالخلافة بعد أخيه وعمره ٤٧ سنة وبمجرد جلوسه أمر بصرف هبات الجلوس على أربابها قبل سكون الاضطراب بين الجنود بفكرة

ان ذلك يسكن الثائرة وقد كانت أحوال الدولة في ارتبالي بمحاربات النمسا والبنادقة من جهة وثورات اليكجيرية المتزايدة في داخل عاصمة الدولة من الجهة الاخرى وبلغت الجراحة والوقاحة عند هؤلاء الجنود حتى انهم صاروا يتعدوا داخلون في أمور الدولة فيقولون من أرادوا ويعزلون من أرادوا وما كان فاضل مصطفى باشا القاقم يسمي في تسكين الاضطراب بكل جهده أرادوا التخلص منه فعينوه محافظا لبوغاز الدردنيل ونفوا شيخ الاسلام دباغ زاده محمد افندي وعينوا يكن عثمان باشا سرعسكرا على الرومللي وقتلوا الصدر الاعظم سياوش باشا ومنه بمنازله ولما ارتقى اسمعيل باشا المرعشى لمنصب الصدارة بعده بذل غاية مجهوده في اعادة النظام وتسكين الاضطراب بمساعدة أهالي استانبول الذين تسلطوا وهاجوا اليكجيرية وقتلوا منهم جملة فسكن اضطرابهم ولزموا واحد منهم قوما وفي خلال ذلك عادت الدونما الى استانبول ودخلت الخليج بالرسم المعتاد وطلع السلطان على ضباطها الخلع النفيسة وتعين القبودان باشا محافظا لآغريوز وخلفه في رياسة البحرية القبودان قلايلى أحمد باشا وقاد الدونما لياها آغريوز ثم عاد وكانت النمسا انتهزت فرصة وقوع الاضطرابات المذكورة وأغارت بيجيوشها على حدود الدولة واستولت على قلعة كرى واينوار واستولى بلغراد وواردين ثم دخلت بلغراد بدون مقاومة تذكر وعند ذلك طلب الصدر الصلح من النمسا فلم يجبه فعزل وخلفه تكفور طاغلى مصطفى باشا ثم خلفه عرب رجب باشا ولم يتمكن رجال الدولة من منع النمسا عن التقدم وقد استولت على قلاع سمندرة ونيش وودين ثم تقدم جنسدها من جهات اسكوب وشهر كوى الى صوفية واستولت البنادقة أيضا على آتينة من أعمال اليونان وعلى حوالى بالوقية وبرزورنيك من أعمال بوسنة ولما كانت هذه الاحوال موجبة للضعف وناشئة عن عدم كفاة المأمورين عقد السلطان مجلسا في أدرنة للدولة فيما يلزم عمله ووجهت الصدارة الى كوبرلى زاده مصطفى باشا (١١٠٠ هـ) ولقد كان هذا الوزير ورث من أبيه وجده المهارة الحريسة والسياسة معا فلقد تكلت مساعيه بالنجاح وتمكن من تخليص الدولة من الحالة السيئة التي وصلت اليها

نجاح كوبرلى فاضل مصطفى باشا — لما استلم هذا الوزير زمام الادارة شمر عن مساعد الجسد فأنظر ما فطر عليه من الحزم والفظانة وصرف متأخرات الجنود والموظفين ثم التفت الى الاحوال الداخلية فاحسن نظامها وقوى بنيانها ثم جهز جيشا عظيما فاده بنفسه وتقدم به من شهر كوى فاسترد نيش وودين وسمندرة وبلغراد وطاردا النمساويين حتى أبعدهم الى الضفة الاخرى من الطونة وفي تلك الاثناء ساق الروسيون جيشا عظيما على بلاد القريم فقبالهم سليم كراي خان بجيشه وهزمهم عند برزخ أورقوبو (Pérecop) وهزمت فرقة بحر كس أحمد باشا الذي أرسل الى بلاد الاردل برفقة توكللى بك جيوش النمسا في الجهة المذكورة وتمكن قوجه خليل باشا الذي تعين واليا لمورة من استمالة الروم الذين كانوا يكرهون ادارة البنادقة الكاتوليك واستخلص أولونيسة وغيرها وقد كانت هذه البشائر من الاسباب التي انعشت القلوب وقوت الامل وشجعت الجنود وفي سنة ١١٠٣ هـ توفى السلطان سليمان خان الثاني بادرنة من مرض اعتراه وكان رحمه الله حليبا تقياسا عيدا الطالع تمكن في زمن قليل من اعادة مجد الدولة في أعين أوروبا بعد ان اعتراه الضعف لجهل الوزراء السابقين بأمور السياسة والادارة

(٢١) السلطان أحمد خان الثاني ابن السلطان إبراهيم خان

١١٠٢ - ١١٠٦ هـ

واقعه صلواتهمين ومقتل الصدر فاضل مصطفى باشا - لما جلس هذا السلطان على تخت
أجداده كان سنه ٥٠ سنة فاجريت له رسوم التولية بادرته وأرسل الفرمانات الى الجيوش المحاربة
ببقا الصدر الاعظم فاضل مصطفى باشا وباقي الوزراء في مناصبهم وكان الصدر تقدم ملاقاته عساكر
النمساو بعد وصوله الى بلغراد عبر نهر صاوا على جسر ثم تلاقى مع جيوش الاعداء الذين كانوا تقدموا
من وارادين تحت قيادة الجنرال لوي زدي بادبكان يقال له صلواتهمين (Salankemen) فهاجمهم
بشدّة والتحم الفريقان وأزاح العثمانيون أخصامهم من موافقهم وتقدموا حتى ضربوا قلب
الجيش وبينما كان طائر النصر يرفرف على رؤس العثمانيين اذا صيب الوزير برصاصه كان فيها
حتفه ولما شاع خبر وفاته بين العساكر تفهقرت وتفرقت (٢٥ ذى القعدة ١١٠٢ -
١٦٩١ م) وتقرر بين الامراء انتخاب أقدم الوزراء ليكون قائدا عاما فانتخبوا خليل باشا الذي
تمكن من ارجاع الجيش بحالة منتظمة الى بلغراد وخسر النمساويون في ذلك اليوم خسائر كبيرة
توازي خسائر العثمانيين ان لم ترد عليهم او كان لهم على بعد ست ساعات من محل الواقعة المذكورة
أساطيل كثيرة في نهر الطونة فهاجمتها الدونما العثمانية وأحرقتها عن آخرها وبلغ السلطان
خبر وفاة الصدر تكديرا لذلك ووجهه مسندا الصدرة لعربى على باشا والسمر عسكرة لخليل باشا
وأخذت الدولة في اعداد الجيوش وتجنيد الجنود لعزمها على مناصبة العدو والقتال

أما البنادقة فانهم لمالم يتمكنوا من زعزعة مقام العثمانيين بجزيرة كرى يدع ما بذلوه
من المساعي وما نالوه من الانتصارات ففرت همتهم حتى ان القبودان البندقى لمالم ينجده من وطنه سلم
(١١٠٣ هـ) قلعة قرابوسة (Carabusa) من أعمال كرى بالوزير على باشا محافظ خانية
بنفس شروط تسليم مدينة قنديه وقد خصصت الدولة لهذا القبودان بعد تسليمه وحضوره الى
استانبول ما يلزمه من التخصصات وأسكنته بمكان يليق به ثم حضرت عمارة البنادقة ومعها قوة
عسكرية الى كرى وخرجت تلك القوة العسكرية الى البر فاصرت خانية مدة شهرين ثم تمكن
محافظها وكان شجاعا من طردهم فولوا الادبار بسفقتهم بعد ان تركوا جميع مدافعهم ومهماتهم
الحربية ثم أرسلت الاساطيل الى البحر الاسود وغيره من الجهات لتأدية بعض الاعمال وفي سنة
١١٠٤ هـ خرج القبودان يوسف باشا الذي عين لرئاسة البحر في السنة السابقة بباقي الغلايين
والاغربة الى البحر الابيض كالمعتاد

وصدرت الاوامر بجمع الجنود في أدرنة وتعيين عليها بقل مصطفى باشا سردارا ثم قصدر وسمح
وأمر السلطان أيضا سليم كراى خان القرم بالانضمام الى الجيش العثمانى لمحاربة النمسا ببلاد
الاردل فلما علم القائد النمساوى بذلك رفع الحصار عن مدينة بلغراد وتركها راجعا ولما بلغ خان
القرم خبر رجوعه عن بلغراد اقتنى أثره وفتح قلعتى طمشوار وكبوله ومن الحوادث التى حدثت
في زمن هذا السلطان ظهور ثورة ببلاد الشام فارسلت الدولة جيشا لاطفائها وحدث حريق

باستانبول جهة يازمه قپوسى امتدالى اون قبان وآت بازار وكان جسيما أحرقته فيه عدة منازل
ومبان وجامع السلطان سليمان (١١٠٤) وكان الجيش السلطانى حاصر سنة ١١٠٥ وارين
واستولى جيش بوسنه على قلعة غبله من يد البنادقة وشنت شمل جيشهم فى تلك الاطراف ودخل
جيش التتارى الى بلاد الاردل وشنت شمل عساكر التتسا

ولما كانت حكومة البنادقة غير قادرة على محاربة العثمانيين بفردىها وكثيرا ما ساعدها البابا
بضم بعض دول أوروبا واليهاء كانت دول أوروبا بالاعتكافها كلها كل وقت من مساعدتها انضم اليها
هذه المرة البابا وأهالى مالطة وأرسل الكل أساطيلهم بها جنودهم فأنزلوها بجيزيرة ساقز سنة ١١٠٦
(١٦٩٤) فأمر السلطان بجمع العساكر من كافة الجهات وتجهيز الدونما وأنشاء مراكب جديدة
بغاية السرعة لتقوية العمارة وقد تم ذلك فى فصل الشتاء ثم اشتكى بعضهم القبودان يوسف باشا
بأنه كان بالعمارة فى بحر الارخبيل وقت استيلاء البنادقة ومساعدتهم على جزيرة ساقز وكان فى
امكانه المدافعة عنها الا أنه لم يفعل ولما حكته الدولة وجدت للشكوى بعض الحقيقة فعزلته عن
رياسة البحرية ونفته الى قلعة مديلى وتعين الوزير عوجوزاده حسين باشا وكان محافظا للقلعة
سد البحر بالدرديس قبل وداناللدونما وقد أظهر اهتماما زائدا بأمرها وفى تلك الاثناء اشتد المرض
بالسلطان فتوفى بادرنة ودفن بجامعه الذى شيده قرب باغچه قپوسى (١١٠٦)

(الفصل الحادى عشر)

من معاينة قارلوفية الى جلوس السلطان سليم الثالث

١١١٠ - ١٢٠٣

(٢٢) السلطان مصطفى خان الثانى ابن السلطان محمد الرابع

١١٠٦ - ١١٥

بويغ له بالخلافة يوم وفاة السلطان أحمد وكان سنه ٢٢ سنة وفى اليوم الثانى من جلوسه أصدر فرمانا
شديدا للعبارة مضمونه ان الحالة التى وصلت اليها الدولة من الضعف مدة أسلافه الذين رقدوا على بساط
الراحة والدة أدت لحصول الخلل فى المنظمات والادارة وأنه سيقبض بيده على زمام الاعمال
مستظلما للحركات والسكنات وأنه ترأس بنفسه على الجنود فى ميدان القتال وما مثل ذلك من
الترتيبات والتدابير المفيدة ثم أمر بالتجهيزات الحربية برا وبحرا ولما طلبت اليكجربة منه
انعامات الجلوس كالعادة تنههم الى عسر المسالية وضمت الاحوال ووعدهم بمطلوبهم بعد النصر
فقبلوا ثم ساق معظمهم الى ميادين القتال وأمر بسرعة الحركة لاعادة جزيرة ساقز

عرب ساقز - لما اشمر السلطان مصطفى الثانى عن ساعد الجدة وعزم على السير فى طريق الحزم
ليرجع للدولة مقامها السابق وشرفها القديم ويسترد ما استولى عليه أعداؤها من أملاكها أمر
العمارة فأقلعت من استانبول وكانت مركبة من عشرين غليوناً و ٢٤ غراباً تحت قيادة عوجوزاده

القبودان حسين باشا ومعه حسين باشا الجزائري الملقب عند الفرنج ميزمورتوبوظيفة نائب عنه (بطرورنه) ومعهما العدد الكافي من الجنود وبعد مضي ثلاثة أيام من خروج العمارة صادفت قرب جزيرة قيوناطه (Spalmatori) عمارة البنادقه تقودها سفائن السحب لسكون الريح وقتئذ وكانت مؤلفة من عشرين غليوناً وست ما عنونات عند ذلك أمر القبودان باشا ستة عشر غليوناً بالجملة على غلايين البنادقه المذكورة وخصص الاربعة غلايين الباقية للهجوم على مواعينهم وأمر قواد السفن بدقة الملاحظة والانتباه واجراء الحركات الحربية بكل نظام وترتيب وترور ثم حل القبودان ميزمورتو على غليون أميرال البنادقه وأطلق عليه مدافع الخشب (الابانده) مرة واحدة فتعطل من ذلك بعض مدافعه وطارت قطع من أخشابها فأصابت أكثر من مائة نفس من طائفته ووقع الهرج والاضطراب بين من في الغليون المذكور وفي الحال اقتربت منه سفينة رئيس يدعى عبد الفتاح وألقت عليه أقشمة مغموسة بالزفت والنفط والقطران (ياغلي بجاوره) من مدافعه فأصابت مؤخره فالتهب في الحال ولم تتمكن عساكره من اخماد النيران فزادو يلهم وعظم عويلهم وأراد غليون آخر من سفن البنادقه أن يمد له يد المساعدة لأنه لم يكدي يقرب منه حتى عمت النار أرجاءه ووصلت الى جحيماته فطار الغليونان في الجوّ صعدا أما عساكرهما فمهم من قتل ومنهم من ألقى نفسه في البحر فقبض عليه العثمانيون وحملت المركب التي كان يقودها عبد القادر باشا زاده على ما عنونات العدو وقويت عليها وغطت مدافعها ثم التحم الفريقان واشتد بينهما القتال بالأسلحة البيضاء وتصادم خان المدافع فكسا الجوّ حلة سوداء وأظلم المكان بعد الضياء بحيث صار لا يمكن ان السفن ترى بعضها أصلاً وأخير الم يسع العدو والانسحاب من مياها الحرب بما بقي معه من سفنه وفترها ربا والتجأ الى ميناء تير فيسيل واستمرت هذه المحاربة من ضحوة النهار الى الغروب وغرق من سفن العدو عدة غلايين وانكسر منها عدة أيضاً وكانت خسائر الدونما العثمانية قليلة جداً ففرح الجنود وتشجعوا ثم سار القبودان باشا فإزاً من صوراً الى أن وصل الى ساحل الاناضول فأرسي هناك وصمم على إعادة الكرة على العدو لزيادة الايقاع به فأمر بالاستعداد ثم قام بالدونما في اليوم الرابع من رجب من السنة المذكورة ولما قرب من ساقزوراه العدو مقبلاً سار نحوها الى خارج الميناء ومعه ستة وعشرون غليوناً وقبل أن يشتبك الطرفان في القتال جعل العثمانيون عمارتهم على الترتيب الآتي وهو ان القبودان باشا جعل نائبه بسبعة غلايين عند أول مضيق ساقزور فوق الزيج وجعل ما بقي من السفن تحت الريح وبعد أن أخذت كل سفينة موقعها اشتعلت نيران الحرب بينهما وقذفت المدافع من فوهاتها المقذوقات العظيمة فوجم العدو لذلك وعلم أن لاطاقه بالوقوف بسفنه بين نارين شديتين وليس في مكانه أيضاً المقاومة أمام هذه التعبية العجيبة فالترزم أن يدخل الغلايين التي تعطلت الى داخل الميناء ثم ولي هاربا بما بقي معه منها وعددها أربعة عشر وأخذت العمارة العثمانية مع ذلك في تعقب البنادقه واطلاق المدافع عليهم ورمت سفينة أشجبي زاده محمد قبودان من مذوفات على غليون للبنادقة فأصابت مخزن باروده وكان يحمل ٢٥ مدفعاً فتفرق لوقته وتبدد في الجوّ قطعاً ما الاربعة الغلايين التي تعينت لمحاربة ما عنونات في مبدل الامر فقد قازت فوزاً مينا ولما عطلت ما كان أمامها من سفن البنادقه قبضت عليها وعلى جميع من كان بها بكل سهولة وقد تكبدت البنادقه في هذه الواقعة خسائر شتى وهربت باقي سفنهم ودخلت سفن الاميرال مينا ساقزوراً وأُنزلت

في قلعتها خمسة مائة خيال ولما دخلت الدونما العثمانية ساقز لم تجر فيها للعدو أثر وصادفت في البوغاز احدى المواعين المعطلة المشحونة بالذخائر فاستولت عليها عن فيها وكان بها ١٦ مدفعا من النحاس وستة هوانات وخمسة آلاف بندقية وكثير من المهمات والذخائر والجحوانات و ٢٨٠ جندي ولما استولت الدونما على القلعة والمينا وجدت بها أيضا أربع مراكب للسحب وأربعة غلايين كبيرة مشحونة بالاسلحة ودخل العساكر المدينة ولم يتعرضوا لاحد بسوء مطلقا فقام بهم السكان بالترحاب وقد اغتمت الجيوش العثمانية ما استجد بالقلعة من الادوات وكانت ١٦ مدفعا وثمانين ألف مقذوف وكثيرا من المهمات والجحوانات وغيرها ولما انتهت المحاربة وانزل بساقز الحامية الكافية من العساكر الذين نقلوا من حشمة بساحل الاناضول عادت الدونما ظفرا الى الاستانة فسر السلطان من القبودان حسين باشا ورفاه الى مسند القاعة قامية وخلفه على رئاسة البحرية القبودان ميره مورتوح حسين باشا وقد اهتم من يوم توليته في انشاء السفن الحربية واصلاحها التقوية الدونما وأتمن الآتها ولو ازمها وانتخب لها العدد الكافي من الملاحين وأرباب الفن ثم أكثر من التدريبات والتمرينات حتى صير طوائف السفن على غاية من الاستعداد والمهارة والاجتهاد في الفنون الحربية البحرية

معاربات النمسا وهزيمة زاتما (١١٠٩ هـ) - اعلم انه بعد الانتصار البحري المذكور واسترداد ساقز قادم السلطان بنفسه الاوردي الهمايونى سنة ١١٠٧ (١٦٩٥ م) وعبر به نهر الطونة فوصل الى بانجوه وعسكر في صحراء طمشوار واستولى على قلعة ليبوه (Lippa) وجميع ما بها من الذخائر والمهمات وانتصر في واقعة لوجوس (Lugos) الدموية وقتل قائد جيش النمسا الجنرال وتران (Vétérani) بعد ان شنت شمل جيشه وأسره ثم عاد الجيش بعد ذلك لتمضية الشتاء في بلغراد وسار السلطان الى القسطنطينية فأتى منصورا الآن هذه الهزيمة المذكورة لم تكن بالقاضية على النمساويين لانهم أعادوا الكرة على الحدود العثمانية ثانية (١١٠٨ هـ ١٦٩٦) وحاصروا طمشوار بجيوش عديدة فتقدم السلطان بالجيش ورددهم عن القلعة المذكورة وقهر للنمساويين جيشا عظيما كان مجتمعا في مضيق بتلك الاطراف تحت قيادة منتخب ساكن فريدريك قرب مدينة أولاش (Olasch) وكانت هذه النصر الثانية سيالبت روح الشجاعة والاقدم في الجنود العثمانية ثم عاد السلطان الى أدرنة بعد ان قوى طمشوار وأكثر من بناء القلاع بالحدود ثم اهتم في تحسين واصلاح الامور العسكرية والملكية وكان الروس أثناء هذه الحروب حاصروا مدينة ازاك (Azov) (١١٠٧ هـ) فقاومتهم جيوش خان القريم والحامية العثمانية هناك وتغلبوا عليهم وطردوهم وقتلوا منهم نحو ثلاثين ألف جندي الا أن بطرس الاول قيصر الروس عاد بجيش ككثيف يتجاوز ٦٠ ألف جندي (١١٠٨) وحاصرها ثانية ولما كانت الدولة مشغولة بالحروب القائمة بجهات مورة والجر وپولونيا وبوسنة لم تتمكن من تجديدة تلك المدينة فتم له الاستيلاء عليها وجعلها ثغرا على البحر الاسود لان قبائل القوزاق كانت حائلين البحر وبين الروس وفي سنة ١١٠٩ هـ قاد السلطان الجيش بنفسه لمحاربة النمسا ولما وصل بلغراد عقد مجلسا للدولة فاستقر رأى على ان يسير الجيش الى جهة طمشوار

كإسار في العامين السابقين ثم عبر الجيش الطونة الى يانجوه وتقدم حتى وصل الى مدينة زانتا (Zenta) الواقعة على نهر تيس ونصبوا هناك جسرا يعبروا الى الضفة الاخرى وبينما الجيش آخذ في العبور اذ هاجمه القائد النمساوي العام البرنس أوجين دى سافوا الشهير (Eugène de Savoie) ولما اصطدم الجيشان انكسر الجسر فانقسمت القوة العثمانية الى قسمين وضعف أمرها وظهرت عليهم اعلامات الهزيمة وكان القتال عنيفا ومات من العثمانيين عدد عظيم بين أنفارق وواد منهم الصدر الاعظم الماس محمد باشا والى الافاضول مصرى زاده ابراهيم باشا ومخافظ طمشوار جعفر باشا ووالى اذنه (اطنه) فضلى باشا واغاة الشكجريه بالظه زاده محمود باشا وعشرة من البكوات ونحو خمسة عشر ألفا من الجنوديين قتيلا وغير بق ولولا وجود السلطان بالضفة الاخرى لوقع أسير في يد الاعداء وبهذه الهزيمة ضاعت كافة قلاع بلاد المجر من العثمانيين (٢٣ صفر ١١٠٩) واستولى النمساويون على بلاد بوسنه وغيرها ولما عاد السلطان وجهه مستندا الصدارة الى كوبر بلي عموجه زاده حسين باشا

معاينة قارلوفجر (١١١٠ هـ) - لما قبض الصدر الاعظم الجديد الذي هو من اولاد الوزير الشهير صاحب الافكار العالسة والاراء السديدة المرحوم كوبر بلي باشا الكبير على زمام الاحكام أخذ ينظم الادارة ويدبر المصروفات والايادات فزادت بذلك الاموال في الخزينة وانتعشت الامال وابتهجت الاحوال حتى تمكن من تجهيز جيش جديد بلغ خمسين ألفا من الرجال وأربعين ألفا من الخيالة خلاف الطوبجية ثم تقدم به نحو بلغراد وتقابل مع البرنس أوجين المذكور باقليم بوسنه واستظهر عليه حتى ألزمه الرجوع الى ما وراء نهر صاوه (Save) تارك بلاد بوسنه وبينما كان السلطان مصطفى مصرعا على استرداد جميع ما فقد من أملاك الدولة كان امبراطور النمسا يعامل جد الصلح والمسألة المالحقة من الخسائر مدة الحروب الطويلة المذكورة ففتح باب المفاوضات بين الدولتين وتداخل لوزير الرابع عشر ملك فرنسا وأراد ان يدخل الدولة العثمانية في معاهدة ريسويك (Ryswyck) التي أمضيت في ٢٠ سبتمبر سنة ١٦٩٧ بين فرنسا من جهة والنمسا واسبانيا وانكلترا وهولاندا من جهة أخرى وهي المعاهدة التي أرجع بها لاسبانيا ما كانت فقدته من أملاكها فلم تقبل الدولة لتعصب دول أوروبا عليها وسعيهم في محو نفوذها والحاصل انه بعد مخابرات استغرقت مدة طويلة قبلت دول النمسا والروسيا والبنادقة وپولونيا شروط معاهدة قارلوفجر المذكورة (Carlowitz) قطعيامع الدولة (١١١٠ هـ - ١٦٩٩ م) وتم بذلك الصلح وكان أهم شروطه مهادة النمسا لمدة عشرين سنة وان يبقى للدولة العلية ولاية طمشوار (Temeswar) المعروفة ببيانات وتأخذ النمسا بلاد الاردل وما استولت عليه من بلاد المجر وعلى ذلك تكون الحدود بين الطرفين أشهر ماروش وتيس والطونة وصاوة ومهانة مع دولة پولونيا لمدة عشرين سنة أيضا وان ترد للدولة العثمانية البلاد التي استولت عليها من بغداد وتبقى الحدود القديمة على ما كانت عليه ويعاد لپولونيا اقليم بودوليا وأوقرين وقامنيجه وتعني من الجزية التي كانت تدفعها الخان التتار وان تنازل الدولة العثمانية للبنادقة عن شبه جزيرة ممورة واقليم الماسيا وان تعني النمسا وغيرها كما كانت تدفعه للدولة العثمانية ولما كان مرخص الروسي اغبر حارثا لثقة التامة عقدت معه متاركة لمدة ثلاث سنين تحت شرط بقاء قلعة اراق بيد الروس ثم نأيدت هذه

المتاركة فيما بعد بينهما (١١١٣ هـ) وبعد ذلك استمرت هذه المهاذنات حتى صارت صلحا دائما
بين الطرفين

الوقائع البحرية منذ الحرب المذكورة — لما استولت الروسيا على قلعة ازاق (١١٠٨ هـ
١٦٩٦ م) صدرت الاوامر الى دار الصناعة بسرعة انشاء السفن الحربية لتقوية الدونما
في البحر الاسود ونهر الطونة والبحر الابيض المتوسط وأظهر القبودان ميزه مور توحسين باشا في ذلك
من بدالاهتمام ثم حضر أسطول طرابلس الغرب لينضم الى الدونما وكان مر بكامن خمسة غلايين وورد
الخبر باستيلاء أسطول جزائر الغرب على ثلاث سفن للبنادقة ولما تمت التجهيزات البحرية بأبلغت
قوة الاساطيل بالبحر المتوسط الى عشرين غليوناً جعلت تحت رياسة ستة من قواد البحر وأضيف اليها
بعض الفرقاطات والشواني وزيدت دونما البحر الاسود حتى صارت ٢٠ غاليته صنعت بسينوب
وضم اليها ٢٥ شبيقة صنعت بروسجق و ١٥ قطيرة وخمسة غلايين أما أسطول نهر الطونة فكان
يتركب من ١٢ سفينة من نوع الشبيقة صنعت بساحل الطونة بنيكبولي وروسجق وسلسلة
وبلغراد وأضيف اليها بعض السفن التي علمت بجهات اسماعيل وايساقي وقرين فكان مجموعها
عشر غاليات و ٣٣ فرقاطة و ٢٩ صندوقاً وسفينة من النوع المعروف باوستي اجق
(المفتوح من أعلى) وفي ١٥ الحجة من سنة ١١٠٩ (١٦٩٨ م) خرجت الدونما من
الدرديسل تحت قيادة القبودان ميزه مور توحسين باشا وهزمت عمارة البنادقة وكانت رياسة قرب
جزيرة بوزجه اطه بعد ان استولت على ثلاث سفن منها وتعطلت البنادقة غليونان آخران فارتطما
بالشاطئ وبعد هابقت الدونما العثمانية تمخر في بحر الارخبيل بلا معارض ثم عادت لتمضية فصل
الشتاء بالاستانة ولما خرجت ثانيا سنة ١١١٠ هـ (١٦٩٩ م) وجد القبودان باشا
المدكور عمارة البنادقة في بوغاز جناق قلعة استولت على جهتي عابرين ومارين فحمل عليها حمله
منكرة فهزمها شرهزيمة ثم اقتنى أثرها حتى أدركها بجوار رأس الزيتون من جزيرة مدبلي وأطلق
عليها المدافع طول النهار حتى أباد كثيرا من سفنها ولما أسبل الليل سدوله هربت ووات الادبار
وقد اشتهر القبودان حسين بهذه النصرات وذاع صيته بين رجال البحرية وامتدحه مشاهير
مؤرخي أوروبا ولم يعبر بعد ذلك طويلا فتوفي سنة ١١١٣ هـ وخلفه على رياسة البحرية
عبد الفتاح باشا ومات بعد سنة وتعين مكانه آتشي محمد باشا وقاد الاساطيل في البحر الاسود

اصلاحات داخليه — انه بعد ان تفررت مصالحه فارلوجة بين العثمانيين ومن مر ذكرهم
من دول أوروبا باعاد السلطان من أدرنة الى استانبول فقابل السفراء ثم أخذ ينظر فيما يقتضيه
ملكه من التحسينات وأخذ الصدر الاعظم عوجه زاده حسين باشا في اصلاح الاحوال الداخلية
التي أصابها المضار من طول زمن الحرب المذكورة فرفع عن عاتق الاهالي ما يجز واعن أدائه من
الضرائب بعد ان قللها وقبض على كل المفسدين وأصحاب الدسائس والسوابق من بين الجيوش
وأبادهم نفيا وقتلا وأخذ في تشجيع الاهالي وحثهم على زيادة الاعتناء بالزراعة والصناعة إذ عليهما
مدار تقدم البلاد وبينما كان الصدر يهتم في هذه اصلاحات النافعة حدث بينه وبين شيخ الاسلام
فيض الله أفندي اختلاف لان فيض الله أفندي المذكور كان معلم السلطان قبل جلوسه على

كرسى السلطنة وكان السلطان ولاءه مسند المشيخة الاسلامية وصار يستشير في كل الامور فاذا غاظ ذلك الصدر لتداخل شيخ الاسلام في الاحوال السياسية التي ليست من تعلقات وظيفته أصلاً وكان القيودان ميزه موروثاً حسين باشا مدة حياته يجتهد في التأليف بينه وبين الصدر ويزيل النفور من قلوبهم الا انه بعد وفاته استبد الشيخ في آرائه وأظهر العظمة فلم تحمل الصدر ذلك وقدم استعفاه (١١١٤ هـ) وأقام في ضيعة له منفرداً حتى مات بعد سبعة عشر يوماً ونقلت جثته الى استانبول ودفن في مدرسته المشهورة

واقعه ادرنة (١١١٥ هـ) - اعلم انه بعد ان استقال الصدر حسين باشا وجه السلطان مسند الصدارة الى دال طيان مصطفى باشا الذي التزم السير على الخطة التي رسمها له شيخ الاسلام المذكور ولما كان هذا الصدر يعيل من طبيعته للحرب والقتال في الوقت الذي كانت الدولة فيه في أشد الاحتياج للمسالمة والراحة بعد الحروب الطويلة لتلقت لاصلاح احوالها الداخلية اختلت بذلك احوال السياسة وارتبكت العلاقات الخارجية حتى خيف على روابط السلم أن تنقطع ثم عزل وقتل لما تحقق للسلطان وبقية الوزراء انه يخطئه هذه توقع الدولة فيما تخافه من الحروب ولما كان الوزير المذكور من مشاهير الابطال وقع اضطراب وشغب بسبب ذلك بين صفوف الجنود وتعين للصدارة راعي محمد باشا وكان مرخصاً للدولة في صلح قارلوقچه وكان عالماً بالامور الادارية والاحوال السياسية وقد تمكن بمساعدة محاميه شيخ الاسلام من تحسين الاحوال واصلاحها الا أن شيخ الاسلام لما كان يعيل الى التغلب والتحكم في كافة الامور والصدور يريد مراعاة حقوق مقامه أخذ يفكر في منع تسلط الشيخ المذكور الذي لما أحس بذلك أشعل نار الفتنة حتى استفحل أمر الهياج بين الجنود وكان السلطان في ذلك الوقت بادرنه لتولعه بالقنص كايه ثم انتهت الفتنة بقتل شيخ الاسلام فيض الله أفندي المذكور ولما بلغ السلطان مصطفى انهم يريدون خلعه دخل على أخيه أحمد خان وأعلمه بالامر وتنازل له عن كرسی السلطنة في ٩ ربيع الاوّل سنة ١١١٥ هـ ثم مات بعد مائة وأربعين يوماً وكان شجاعاً يعيل الى الاقتداء بجدده السلطان سليمان في الفتوحات حضر بنفسه ثلاث غزوات مهمة وكان فطناً شفوفاً عادلاً محباً للعلماء والعلوم والمعارف ولما كانت هذه الواقعة حدثت باستانبول وقصد أربابها مدينة أدرنة للافساد بها دعيت بواقعة أدرنة

(٢٣) السلطان أحمد خان الثالث ابن السلطان محمد خان الرابع

١١١٥ — ١١٤٣

لما تبوأ هذا السلطان تخت العثماني بعد تنازل أخيه له كان عمره ثلاثين سنة واستمرت الفتنة في أول حكمه ولم يتمكن من اخذها وبقيت نحو ستة أسابيع وقتل فيها كثيراً من اهل الاسلام فيض الله أفندي المقتول ثم نفوا باقي عائلته الى قبرس وخرّب الثائرون جملة منازل وقتلوا جاليق أحمد باشا أغا الكجيرية وكان نال رتبة الوزاره وعزلوا الصدر الجدي بقوانوز أحمد باشا وشيخ الاسلام امام محمد أفندي وغيرهما لتساهل السلطان لهم خوفاً على مركز السلطنة من أن يكون العوبية في

يدأرباب الغايات وما زالت عوامل الثورة قائمة حتى تمكن السلطان ووزراءه من نفي بعض أرباب
المفاسد فهذات الاحوال نوعا

وبينما كانت الاضطرابات بالاستسنانة تعدت عن بان الخجاز على قوافل الخجاج بالتهب والقتل
فاهتت الدولة بتأديبهم وسيرت عليهم العساكر من طرابلس الشام وبيروت وجبل عمالون والقدس
فاوفعت بهم وعادت الامنية الى ربوعها وابتقت الدولة الشريف سعد شرى بالمسكة المكرمة كما كان
مع قيام الادلة على اشتراكه مع العرب (١١١٦ هـ) ولما رأت الدولة سعي دولة الروس في مد نفوذها
بجهات البحر الاسود شيدت بباطوم وبغداد جك وطمرق قلاعاً لحماية البلاد الا تسيوية وعزل
السلطان الصدر داماداً حديداً بخلاف وقع بينه وبين أوزون سليمان أعاناً عادار السعادة وقد اهتم
هذا الصدر كثيراً بنافع الاصلاحات فنظم دار الصناعة وأكثرت من انشاء المدارس والمعامل وغيرها
وخلفه في الصدارة قلايلى قوزا حديداً باشا قلم بلبث بها طويلاً

احوال البحرية في العهد المذكور — لما قبض السلطان أحمد خان على زمام السلطنة وغير
وبدل في الوزراء والمأمورين رغبة في الاصلاح أنزل أيضاً أشجى محمد باشا الى وظيفة قبودان
غليون لعدم قيامه بتمام الاعمال البحرية كما ينبغي ووجهت القبودانية العامة الى كوجك عثمان
باشا فاهتم بأمر البحرية باهتامة عظيمة وأكثرت من المدارس البحرية وأصلح دار الصناعة باستانبول
وجدد فيها وبدل أكثر مما صنعها مده خدمته فيها ثم خرج القبودان باشا بالدونما الى البحر الاسود
حينما علمت الدولة بالتجهيزات التي شرعت فيها دولة روسيا وكانت تقطن ان الروس يتنوى اجراء
حركات حربية أثناء اشتغال دول أوروبا وباجتروب الوراثة باسبانيا الآن الروس بما علمت بانتباه
العثمانيين لعمالها حوات نظرها عن البحر الاسود وأرسلت الدولة أيضاً القبودان باشا بالعمارة لبناء
قلعة جديدة بالجهة المسماة اقدى برون بالبحر الاسود وفي انشاء العمل قامت زوبعة شديدة أغرقت
تسع سفائن من العمارة ولما عاد الى استانبول عزل لاهماله وتعين واليا على صيدا وخلفه بلبط جى
محمد باشا ولم يمكث طويلاً في رياسة البحرية لانه نولى الصدارة بدلا من أحمد باشا وتعين لاسطول البحر
الاسود فرتك عبد الرحمن باشا ولما كانت الدولة لا تزال تنوى بناء القلعة المذكورة أمرت القبودان
الجديد أن يذهب بالاسطول الى البحر الاسود لتمامها (١١١٧ هـ) وكان هذا الاسطول يتركب
من ١٩ سفينة صغيرة وعشرة غلايين ولما تم له انشاء القلعة سلحها بالالات والمدافع الضخمة
وأرسلت الدولة انشاء ذلك الاسطول آخر من يكمن تسعة غلايين للمحافظة على سواحل البحر الابيض
فالتقى مع سفن للقرصان وبعدها ان وقع بهم أسر منهم ثلاثة غلايين وسفيتين ثم عاد الى استانبول
وبعد عودته بأيام التهمت النيران مخزن أخشاب دار الصناعة فانسبوا ذلك لاهمال فرتك أحمد باشا
وتراخييه وحاكمه وحكموا عليه بالقتل ودفن بجوار بياله باشا الشهير وخلفه في رياسة البحرية
ولى باشا ولما انتهى الشتاء خرج اسطول مؤلف من ستة غلايين للحراسة بالبحر الابيض المتوسط
كلعتاد (١١١٨) ولما وردت الاخبار من خان القريم بان الروس ربما نقضوا العهد وأغاروا
على أملاك السلطنة لما رآه منهم من الاعمال العدوانية سيرت الدولة الاسطول (١١١٨) بحجة
القبودان ولى باشا وكان يستعد قبل ذلك للذهاب الى البحر الابيض وأمرته بتقوية قلعة أوزى

بتلك الاطراف ثم أقبلع باسم طول مؤلف من ١٧ سفينة وأربعة غلايين متوسطة القدر وبعد أداء ما موريته عاد الى استانبول فأنعم عليه السلطان وعلى من معه ثم صدرت مراسيم السلطان بإنشاء ستة غلايين بجهة كويلى اغرى بسواحل البحر الاسود يختلف طول الواحد منها بين ٥٣ و ٥٥ ذراعاً وعهد بناؤها الى محمد أفندى البوسنوى بشرط انه كلما تم واحد منها تقدمت به دار الصناعة أربعين ألف غرش وفي هذه المدة سعى بعضهم بالوشاية في حق القبودان ولي باشا فقتل ودفن باسكدار وخطفه في رياسة البحرية القبودان ابراهيم باشا وكان كتحذير لولي باشا الصدر ثم سافرت الدونما الى البحر الابيض (١١١٩ هـ) وبعد عودتها خلع السلطان على القبودان باشا وقواده كالمعتاد ثم أبحرت أيضاً في السنة التالية وعادت في الخريف وبعد عودتها حصل ان أحد الغلايين لم يخرج ما كان أخذ معه من البار ودالى المخزن فاشتعلت به النار قضاء وقدرها فدمرته وقتل أكثر طائفته وتسبب من ذلك خسائر كبيرة لسراى دار الصناعة وللكافة المنازل الكائنة بالفنار وبالطبة اسكله (١١٢١ هـ) وكانت العادة ان مخاطيف سفن العمارة تشتري من بلاد الانكليز الى أن انتبه أحد عمال معمل المقذوفات ووجد ان عمل المخاطيف سهل لا يحتاج الى مزيد مشقة فعرض ذلك على رؤسائه ففرضوا وشجعوه على صناعتها ومصنع واحد منها كافؤه وأفردوا له قسمان من الصناع ليعلمهم ذلك وقد تمكن من عمل مخاطيف يزيد الواحد منها عن ثمانين قنطاراً وهو شئ لم يسبق له مثيل لدى العثمانيين لذلك العهد ولما عاد الحاج ابراهيم باشا القبودان الى استانبول عينوه لولاية مصر ووجه منصب القبودانية لمحمد باشا ابن كوسج على باشا الاغرى بيوزلى وفي هذه السنة خرج جانم خواجه الحاج محمد باشا وكيل القبودان العام بأسطول مؤلف من تسعة غلايين للمحافظة على سواحل البحر الابيض المتوسط وبينما هو يتجول أسراً أحد غلايينه غلبونا كبير القرصان ما الطبة ٤١ مدفعا ثم عادت الدونما من البحر الابيض ومعها سبعة غلايين وسفينة صغيرة استتوت عليها من قرصان البحار وقبض أيضاً القبودان جانم خواجه الحاج محمد باشا المذكور على سفينتين احدهما البنادقة والاخرى الماطبة كاتماشت غلوتين بالتلصص مستمرتين على التعدي على سفن تجار العثمانيين

بطرس الأكبر وشارل الثاني عشر وبالطبعي محمد باشا واقهرت - اعلم انه من يوم ان تموا السلطان أحمد الثالث الخت والحروب قائمة بين دولة السويد ودولة روسيا ولما دخل شارل الثاني عشر المعروف عند العثمانيين بنيمو رباش (رأس الحديد) بجيشه الجسم في بلاد الروس واتصر عليهم في واقعة ناروا Narva وقهر جيوش الساقسون والبولونيين المتففين واستولى على بلدتي لمبرغ ووارسوف وانصب أحد ضباطه المدعو ستاناسلاس ولهجنسكى (Stanislas Leczinski) أميراً على اللهستان ثم اقتضى أثر ملكها السابق أغست الثاني (Auguste II de Saxe) حتى أغار على ساكسونيا واضطره الى طلب الصلح والتنازل عن دعواه في مملكة اللهستان وكانت دولة روسيا من مندمه اهدته قارلوفجه أخذت تبنى قلاعاً في بحر ازاك وحده دودا ووزى وبندر وشيد سفن لانها كانت تتوى الضرر للدولة العثمانية وغفلت الدولة عن مراقبة حركاتها مر اقبه شديدة دقيقة لاستصغار العثمانيين شأن هذا العهد والجديد وكانت الدولة لما وقعت الحرب بين شارل و بطرس

افتكرت ان شارل ربحا قام بتنفيذ ما يجب عليها من اضعاف شأن روسيا وأرسلت له يوسف باشا محافظ باباطاغ ووالى أوزى بشجعه على دوام القتال وبعده بان الدولة أمرت خان القريم بمساعدته متى دخلت عساكره داخل بلاد روسيا ويرى أيضا انها كانت تريد ان تقدم معها اتفاقية سرية مبنية على الهجوم والدفاع لولا معارضة الصدر الأعظم جوريلى على باشا الذى كان يرغب التمسك بشروط المعاهدة الصلحية المعقودة بين الدولة وروسيا وخير البقاء على الحياة مدة المحاربات المذكورة ثم لما انتصر بطرس الأكبر على شارل الثانی عشر في ملحمة بلباوه (Poltawa) وانهمز بحر وحا التجار للمالك العثمانية (١١٢١ ٥ ١٧٠٩ م) وتوسط له يوسف باشا المتقدم الذى كره حتى تحصل على رخصة من السلطان تجيز لشارل الإقامة بمدينة بندر ولما تعدت فرسان روسيا الذين كانوا يتبعونه حدود الدولة من جهة أوزى وبغدان وكانت روسيا أدخلت تحت سلطتها جميع القوزاق وهددت الحدود السلطانية بما شيدته من الحصون والمعقل وكانت دائبة على اثاره أهالى الملكتين على العثمانيين عدت الدولة كل ذلك من الاسباب الشرعية لمحاربة روسيا وسجنت سفيرها في قلعة يدى قله كالعتاد لان هذه العادة في الوقت المذكور كانت بمثابة أخذ السفير رهينة حتى تخرج تجار العثمانيين ورعاياهم من أراضي الدولة المراد محاربتهم أعلنت الدولة الحرب على بطرس الأكبر (١١٢٢ ٥) وتقدم الصدر الأعظم بالطه جى محمد باشا بقود جيشا عظيما يزيد عن مائة ألف مقاتل الى جهة الطونه في أوائل سنة ١١٢٣ ٥ ولما عبر مضيق ايساقجى وخرج الى صحراء تال بلغه خبر وصول جيش الروس وعدده أربعون ألف جندى من جهة حدود البغدان فتقدم الجيش العثمانى وأحاط بجيش الروس بقرب قرية فالجى في المستنقعات الكائنة بجانب نهر بروت حتى أخفى بطرس الأكبر بجيشه في قبضة العثمانيين ونقدمهم الزاد والذخيرة وقطعوا الأمل من النجاة الا بالاستسلام ولولان زوجته كاترينا تداركت الامر بفطنتها وحيلتها لكان قضى على الروس سياسيا وذلك انها عمدت الى مامعها من المجوهرات والنقائس وماع من رفقتهما من الاميرات والوصائف فجمعتها وأرسلتها الى الصدر الأعظم بالطه جى محمد باشا فقبلها لمناخسة نفسه وذناهة أصله وأفرج عن الجيش وعقد معهم صلحا من شروطه تنازلهم عن قلعة ازاق بما فيها من المدافع والآلات للدولة وان يهدموا جميع القلاع التى شيدها حديثا في حدود الدولة وان لا يتداخلوا فيما بعد في أحوال القوزاق وان لا يتعرضوا لشارل الثانی عشر عند عودته الى وطنه وهذا الصلح وان كان صلحا مجيدا يناسب مقام العثمانيين الا أنه كان أكثر فائدة للروس لانه خلصهم من ورطة لوقوعها بالمسا كانت تقوم لهم بعدها قائمة وتسمى هذه المعاهدة بمعاهدة فلكرزن (Falksen) ولما سمع شارل ملك السويد بما فعله بالطه جى باشا اغتاظ جدا واجتهد في اعلام السلطان بخيائته ويقال انه لما لام الصدر على عدم قبضه على بطرس الا كبر قال معسذرا من الذى كان يحكم بلاده بالتبابعة عنه وليس من الصواب ان يكون كل الملوك خارج بلادهم وبعده التصديق على المعاهدة المذكورة (١١٢٢ ٥ ١٧١١ م) استولى العثمانيون على قلعة ازاق بلا قتال ثم ان ملك السويد ورجاله اشتمكوا السلطان بما فعله الوزير بطه جى محمد باشا وكيف انه أخذ الرشوة من كرينيه وأطلق السراح لجيش الروس وقد صادق خان القريم على أقوال ملك السويد المذكورة وثبتت هذه الأقوال حينما توقف مأمور والروسيا عن تنفيذ بعض بنود المعاهدة المذكورة فعزل الوزير بطه جى محمد باشا ونفى الى الجنى وأحيل مسند

الصدارة على يوسف باشا ولم رأى السلطان منه استحسانا للمعاهدة التي عقدها بلطيم على باشا عزله وولى مكانه سليمان باشا واستعد السلطان بنفسه لمحاربة الروسيا فقصداً أدركه في الشتاء وعزل الصدر لانه لم يوافق على الحروب ونصب بدله القيودان خواجه ابراهيم باشا (١١٢٤ هـ) وأصله قيودان غليون ونال القيودانية بعد حاجي محمد باشا ثم تداخلت دولتنا لكثرة وهولاندة في حسم الخلاف الذي بين الروسيا والدولة لان الحرب يضر مصالحهما التجارية وانتهى الامر بعقد معاهدة أدركه (١١٢٥ هـ - ١٧١٣ م) وكان من مقتضاها ان تنازلت الروسيا عن كافة ما لها من الاراضي على البحر الاسود بحيث لم يبق لها عليه ولا ميناء واحدة ورفع عن عائقها نظير ذلك المبلغ الذي كانت تدفعه سنويا لخانات القريم وعزل سليمان باشا من القيودانية ووجهت الى خواجه سليمان باشا ووجهت الصدارة العظمى للداماد على باشا بعد عزل خواجه ابراهيم باشا لجهله بالامور السياسية ثم ان شارل لم يتم حصول على مرغوبه عاد الى بلاده ثانية بعد ان أقام بأراضي الدولة ست سنوات

حالة البحرية في الوقت المذكور — ان النظمات التي كان أدخلها في البحرية مبرزة ومبرورة حسين باشا عادت على الدولتين بالنجاح والفلاح وصيرتها قوية مهيبه ووصلت الى درجة عظيمة من الاتقان والانتظام حتى أوقعت الرعب في قلوب الاعداء ولما تعين جانم خواجه محمد باشا (١١٢٦) قيوداناعاماً للدونما تلتقي الضباط والافراد عمومات عينه بالسرور والانشراح لانه أول قيودان عام تخرج من الوجاهات البحرية ولما كان السلطان شديد الغيرة على ارجاع ما كان للدولة من البلاد أراد استرداد جزيرة موردة وكان البنادقة استولوا عليها كما سبق وتأييد حكمهم لها بمعاهدة قارلوفجه

وفي مدة الحروب المتقدمة كانت الدولة مهتمة بتقوية أساطيلها كاهتمامها في تنظيم جيوشها وتقوية قلاعها وكانت دار الصناعة تبني ثلاثة غلايين كبيرة ولما كملت احتفلوا بازالتها في البحر احتفالاً شاقاً حضره السلطان بنفسه وخلع على الصدر الاعظم والقيودان باشا ومسدهما على اهتمامهما (١١٢٢ هـ) ثم أرسلت الدولة أسطولاً مؤلفاً من ثمان سفائن حربية للمحافظة على جزائر الارخبيل من تعدييات البنادقة خصوصاً وقد قبض هذا الاسطول على فرقاطة ابن مانيات أحد مشاهير قرصان البحر وكان بها نحو ستين شخصاً وبذلك عاد الامن نوعاً الى تلك الجهات لكثرة تعدي هذا الشقي على سفن التجارة العثمانية ثم عاد القيودان الى استانبول وبعد عودته باشر بناء عدة سفائن من النوع الخفيف لتكون صحيحة العمارة عند استرداد مدينة ازاق من الروسين ولما تمت التجهيزات خرجت العمارة (١١٢٣ هـ - ١٧١١ م) وكانت مركبة من ٢٢ قطيرة من قطار أمراء البحرية و ٢٧ غليوناً و ٦٠ فرقاطة و ١٢٠ سفينة خفيفة لتفصل المهمات ومائة صندل من النوع المسمى قانجه باش وبروليتي وغيرهما فكان الجميع ٣٦٠ سفينة بها نحو ثلاثين ألف مقاتل تحت قيادة الحاج محمد باشا ومع ذلك فان الدولة استوت على المدينة المذكورة بموجب معاهدة بروت السابق ذكرها بالا احتياج لحركات حربية وبعد ذلك أبحر أسطول مركب من ثمانية غلايين تحت قيادة خواجه ابراهيم باشا للمحافظة على سواحل الدولة في البحر الابيض المتوسط

حرب البنادقة واسترداد موردة — لما كانت الدولة العلية لا يقبلها قرار الا باسترداد موردها في تملكها من المنافع السياسية والتجارية واهتمام السلطان بهذا الامر كثيراً أرسلت

سنة ١١٢٧ هـ (١٧١٥ م) دوننا مركة من ثلاثين غليوناً وأربعين غراباً يقودها القبودان العام
جانم خواجه محمد باشا وكانت العساكر البرية في تلك الاطراف يقودها الصدر الاعظم داماد علي باشا
ولما وصلت العمارة الى سلانيك استأذن القبودان الصدر الاعظم في فتح جزيرة استنديل (Tinos)
فلما صرح له ذهب وحاصرها من كل جانب وبعد قليل من الزمن استولى عليها وطردها حماية البنادقة
منها وكانت هذه الجزيرة في قبضة البنادقة مدة أربعة قرون تقريبا وكثيرا ما حاولت الاساطيل
العثمانية افتتاحها فلم يتيسر لها فلما افتحوها هذه المرة فرحوا واستبشروا وقويت آمالهم ثم تقدم
الجيش البري تحت قيادة السردار المذكور وحاصر قلعة اناطولي وساعده الدونما بجزر اقم له
الاستيلاء عليها بعد ان مكث على حصارها ثمانية أيام وما زالت الجنود العثمانية بعد ذلك تتقدم فتاعة
منصورة حتى أخضعت مدن متون وقرون وكردوس (Corinthes) وغيرها في زمن يسير
وفتحت العمارة جزيرة جوقه (Serigo) بحيث لم يبق الا القليل من الزمن حتى استردت الدولة
شبه جزيرة مورورة مع ملحقاتها من الجزائر وأسست فيها ادارة منتظمة كما كانت قبل تعدى البنادقة
عليها وهذا وقد أمرت الدولة الوزير محمد باشا بحفاظ قلعة خانية وازميرلي على باشا بحفاظ قلعة قندية
من جزيرة كريدبلاستيلاء على قلعة سودة وأسير لونغه وكورا بوزه وكانت لاتزال باقية تحت يد البنادقة
بالجزيرة المذكورة من حين فتح قندية وقد تمكن القائدان المذكوران من تنفيذ ما عهد اليهما عاما
ومن ذلك الوقت صارت كريدبلاست تابعة للدولة العثمانية وزال من تلك الاطراف ما كان يأتيه
قرصان البنادقة من المفساد والاضرار بالارواح والاموال اذ كانت تلك الجهات من كراعمالهم
وماوى لمفسادهم ولما عادت الراحة والطمأنينة الى هاتيك المعالم والمعاهد وانقشعت غياهب
المظالم قفلت الدونما عائدة الى استانبول وذهب الصدر الاعظم الى أدرنة لمقابلة السلطان

وقائع النمسا ومحاصرة كورفو ومحاربة توارادين - لماعاد الصدر الاعظم شهيد على
باشا من مورقة هتم كثيرا في اصلاح الامور الداخلية بينما كان يجهز أسطولا وجيشا لفتح جزيرة
كورفو وفي تلك الاثناء كانت انتهت الحروب التي حدثت بسبب وراثة الملك باسبانيا وعقد
الامبراطور شارل السادس امبراطور المانيا مع ملك فرنسا لويس الرابع عشر معاهدة وارشتاد
(١١٢٥ هـ) ولهذا أمكن لجمهورية البنادقة الاستغاثة بامبراطور المانيا المذكور لانه الخماي عن
معاهدة كارلوفيجه ولما عزم على الاخذ بناصرها بعث الى الدولة العثمانية يطلب منها ان ترسل
معمدا امر خصا من قبلها الى حدود المجر لتفاوضه معه في مسئلة البنادقة وان تكف عن القتال
وترد للبنادقة ما أخذته منهم وقال اذالم ترسل الدولة معتمداها وتقبل ما ذكر فهو لا يتأخر عن اشهار
الحرب عليها ولما وصل رسول الامبراطور بجمع السلطان الوزراء والعظماء للشاورة فآقر واعلى
رفض مقترحات الامبراطور وأمر السلطان ببذل الجهد في الاستعدادات الحربية لانه لا يسترد
ما أخذته النمسا قبلا من الجهات وأخرج الدونما الى البحر ولما استعرضها سر من استعدادها

وفي سنة ١١٢٨ هـ أقطع القبودان ابراهيم باشا باسطول الطونة وكان مؤلفا من ١٥
غاليته و ٢٥ فرقاطة وعشرة زوارق من النوع السمي قانجه باش وعثمانية أباريق ثم أعلنت
الدولة الحرب على النمسا وأمر السلطان سرع كرمورة قره مصطفي باشا والقبودان باشا بحاصرة
جزيرة كورفو وهي المكان الوحيد الباقي للبنادقة بنلك الاطراف ثم تقدمت الجيوش العثمانية نحو

قلعة وارادين وابتدأت المناوشات الحربية بين الجندين وتجاوزت الجنود العثمانية مدينة فارلوفجه (Carlowitz) ولما وصلت الى وارادين مع الصدر الاعظم فاجأتها الجنود النمساوية تحت قيادة البرنس أوجين دوسافوا وحدثت بينهما واقعة شديدة قتل فيها الصدر الاعظم على باشا وبعض القواد وانهمزم الجيش العثماني تاركاً ميدان القتال ولهذا صدر الامر بعد ذلك للعساكر الذين كانوا على حصار كورفو بتركها ولما عادت العساكر المنهزمة الى بلغراد تقدمت جيوش النمسا وفتحت مدينة طمشوار من يد محافظها الحاج مصطفى باشا واستولت على أكثر اقليم البغدان (١١٢٩ هـ) وتولى الصدرة خليل باشا محافظ بلغراد ثم وصلت جيوش النمسا وحاصرت بلغراد ولما تفهقر الصدر الجديد استولت الاعداء أيضاً على بلغراد (١٧١٧ م)

واقعة أيروز ومعاهدة بيساروفجه - انه بعد ضياع بلغراد من يد العثمانيين قامت الدونما من الاستانة ولما وصلت الى غليبولي اتصل بها خبير حضور عمارة البنادق وفيها أكثر من عشرة آلاف جندي من جيش النمسا للاستيلاء على بوغاز الدردنيل وانها قد دارت حول جزيرة أيروز لاجراج العساكر بها وعند ذلك أرسل القبودان في الحال فرقة من السفن لاكتشاف جلية الامر واستطلاع حقيقته ولما شاهدت هذه الفرقة في اليوم الثاني عند الصباح سفن البنادق اقربت منها وأطلقت عليها المدافع حتى ألجأتها الى الفرار من امامها ثم تعقبها فادركتها فغصبتين وفي كليهما حدثت بينهما محاربات عنيفة ثم فرت ثالثة فاتبعتها وقد ازدادت بعساكرها الخوة والحماس حتى لحقتها بجوار نابولي من بلاد اليونان وحملت عليها حملة منكرة فلم يمكنها المقاومة بل ولت هاربة الى جزيرة كورفو بعد ان أصابها خسارة عظيمة وقد حدثت من القبودان العام جانم خوجه محمد باشا في هذه المحاربات ما أوجب عزله وجبسه في قلعة يدى قلده وخلفه على البحرية الوزير الحاج ابراهيم باشا وفي هذه السنة انتصرت دونما الطونة على أسطول النمسا بجوار المكان المسمى تيمورقو بعد محاربة شديدة استولى فيها العثمانيون منهم على ١٦ سفينة ثم عادت العساكر العثمانية التي تقدمت نحو بلاد الاردل الى أدرنه ولما عزل خليل باشا بسبب انهزامه امام بلغراد عين الداماد ابراهيم باشا لمسد الصدرة وفي أول مدته حصلت مذاكرة الصلح وذلك بعد انهزام دونما البنادق في الارخيل ثلاث مرات وابتدأ السفراء الذين بعثوا للعقد المشارطة (١١٣١ هـ) فعقدوا وجلساتهم في بيساروفجه (Passarowitz) من سنجقية سمندرة ثم أمضيت المعاهدة (١١٣١ هـ - ١٧١٨ م) ومن شروطها ان تبقى جهات طمشوار وبلغراد وبعض بلاد الصرب وبلاد الافلاق لغاية بلدة لونا للنمسا وان تحفظ البنادق القلاع التي لها بلاد البانيا وترك مورة للعثمانيين وجميع جزائر الارخيل وبعد ذلك تحصل بطرس الاكبر بمساعجه على تعديل معاهدة فلكرزين والقسطنطينية وأدرنة بكيفية تدل على عدم كفاءة الوزراء الذين تولوا الصدرة بعد المرحوم كوبرلي باشا (١٧٢٠ م) ثم ان دولة روسيا أرادت في سنة ١١٣٢ هـ التداخل لتعديل معاهدة بيساروفجه لتنال منه شيئاً حتى ان القيصرتوجه بنفسه الى باريس فاصداً بذلك اقناع فرانس الاصلاح بعهودها المرتبطة بهامع الدولة العثمانية ولما لاحظت الدولة ما تضرره روسيا لها من المكائد أرسلت عنها سفيرا الى باريس يدعى محمد أفندي جلبي للوقوف على جلية الامر والمكاملة مع فرانس في ذلك ولما وصل قابله حكومة فرانس اعجز بالاحترام والتعظيم وكلفته بتحرير بعض الدولة على محاربة روسيا المنع تعديها

على مملكة السويد فلم يقبل السفير ذلك وخاف سوء العاقبة للاتفاق الحاصل بين الر وسييا والنمسا
ولهذا لم تأت فائدة من مأمورية السفير المذكور ولم مات القبودان بازة سليمان باشا (١١٣٣ هـ)
وبجهد الدولة مستند القبودانية الى خواجه سليمان باشا متصرف رودس ومن بعد هذا التاريخ
أخذت بحرية البنادقة في الاضمحلال وسعدتها في الافول والزوال حتى تخرب ربع قوتها بعد ان
كان مهورا وأصبحت بعد منعتها كان لم تكن شيئا من كوزا فسبحان من بيده الملك والملكوت وله

العزة والدوام والثبوت

ولهذا بقيت الدولة العثمانية بعد هذا الزمن نحو خمسين سنة لا تحارب في البحر وال قوة
خصيمتها المذكورة الا أن دولة الروسي لما كانت أخذت في الترقى والقوة من وقت ان أصبح لها
في البحر الاسود عمارة قوية كادت تعادل قوة بحرية الدولة العثمانية حتى صارت لها كالبنادقة وجه
السلطان أحمد خان الثالث مزيدا اهتمامه (١١٣٥ هـ) الى تقوية واصلاح الدولتين العثمانية
واتقان فن انشاء السفن حتى وصلت القوة البحرية في مدته الى درجة عالية وغاية سامية فبنيت
السفن التي من نوع أوج انبارلي (ذات الثلاث بطاريات) وتعين لرياسة البحرية اتلعجي مصطفى باشا
ولما كمل انشاء أول سفينة من النوع المذكور أنزلت في البحر باحتفال عظيم حضره السلطان بنفسه
وقام العجم - لما أصيبت الدولة الصفوية باضعف والانحطاط ومال آخر ملوكها الشاه

حسين الصفوي الى الجور والظلم في حق أهل السنة انطاعين لحكمه استغاثت القبائل السنية
النازلة في جهات القوقاز وشروان بالخلافة الاسلامية وشقت كذلك قبائل الافغان النازلة بالحدود
الشرقية من ايران عصا الطاعة وقام رئيسهم محمود خان ابن الرئيس الامير اويس على رأس جيش
ودخل مملكة ايران وحاصر اصفهان وقتلها وأسر الشاه حسين (١١٣٤ هـ) ثم قام الشاه طهمااسب
ابن الشاه حسين المذكور ببلاد قزوین واستقل بحكمومتها الا أنه لم يكن حازما لوسائل الملك تمكنت
قبائل الافغان من تثبيت قدمهم في شرقي ايران وانفصلوا عنها فاقل نجم السلطنة الصفوية وعند
ذلك أرادت السلطنة العثمانية الاستفادة مما هو حاصل بتلك البلاد وسأقت جيوشها ففتحت بلاد
کردستان وكرجستان واستولى الوزير حسن باشا والى بغداد وكوبرلي زاده عبد الله باشا والى
وان على جهات كرمانشاه واردلان وخواج بالسهولة (١١٣٥ هـ) فقام بطرس الاكبر عند ذلك
يطلب لنفسه نصيبا من ميراث الدولة الصفوية واجتاز بجيوشه جبال القوقاز التي كانت حدا
لبلاده من جهة الجنوب واحتل طاغستان وقلاع دربند وبا كوال الغربية ثم عقد اتفاقا مع الشاه
طهمااسب المذكور ما آله ان عساكر الروس نظرد الافغانيين من ايران بشرط ان يتنازل له عن
بحر الخزر وكيلان ومازندران واستراباد ولهذا كادت الحروب تقع بين بطرس الاكبر والدولة
العثمانية ولما علم امپراطور روسيا ان ليس في امكانه مقاومة الجيوش العثمانية اذا انتشب الحرب
بجعل الموسيود وبوا (Dubois) سفير فرانس في الاستانة واسطة بينه وبين الدولة العثمانية لمنع
الخلاف الحاصل فقبل السفير ذلك وبذل همته ومساعدته حتى تمكن من ازالة الخلاف الواقع بين
الدولتين وعقدت بينهما معاهدة (١١٣٦ هـ) من شروطها ان تتكاتف الدولة العثمانية ودولة
الروسيه كل ما احتلته جيوشهما من بلاد العجم وبذلك زال الخلاف الا أنه بعد وفاة بطرس (١١٣٧ هـ)

وقيام زوجته كآثرينه عقدت مع النمسا اتفاقية فالتزمت الدولة ان تقوى حصونها الشرقية التي
 خصتها من هذه المقاسمة فامرت قوادها ووجدها بالتقدم تحت قيادة الوزير الاعظم ابراهيم باشا الذي
 تمكن في ثلاث سنوات من فتح بلادهمذان وروان وتبريز واردبيل ولورستان وقره باغ ومرغه
 وكنجة وأرمية وغيرها قال مؤرخو العثمانيين ان هذه الانتوحات على كثرتهم لم تكن موجبة
 لارتفاع شأن الدولة العثمانية ونظرها بل احدثت فلاقا ومنازعات أضرت بها كثيرا لان الايرانيين
 لم يقبلوا ان تقسم بلادهم أصلا ويروا بالثذالة والجهن كغيرهم من الامم فقاموا كرجل واحد لرد
 ما خسروه ومع كل ذلك لم يمكنهم بما اتصفوا به من الشجاعة والاقدام صد العثمانيين ثم استمرت
 المنازعات حاصلة بين الشاه أشرف الافغانى والشاه طهماسب الساسانى وعقد الشاه أشرف مع الدولة
 العثمانية معاهدة (١١٤١ هـ) قصد بها تقرير حركه كل من شروطها تنازله عن جميع البلاد التي
 امتلكها العثمانيون من مملكة ايران نظيرا لاعتراؤها بالحقم على مملكة ايران
 ثم بعد وفاة الشاه أشرف وانفراد الشاه طهماسب بملك ايران طمع في رد بلاده فتقدم بجيش
 مركب من ٤٥ ألف مقاتل وحاصر اردبيل لأنه عا دنا ثباتا الى خراسان ثم هاجم الافغان وأوقع بهم
 وعاد الى تختة في اصفهان وجمع فيها الكنايب ثم سار بها الى تبريز وأرسل من طرفه في سنة ١١٤٢ هـ
 سفراء الى استانبول يطلب من الدولة العثمانية تسليمه البلاد التي أخذتها من أجداده بماتة الوارث
 الشرعي لها ولما كان السلطان عييل الى الصلح عقد مجلسا لهذا في هذا الموضوع وفي أثناء ذلك
 تجاوزت جيوش ايران حدود زنجان فلما وصل هذا الخبر توقفت المذاكرة في الاستانة والتزمت
 الدولة بتجهيز جملة جديدة الى الشرق وفي خلال التجهيزات استولت الاجمام على بلاد تبريز وهندان
 وكرمان شاه (١١٤٣ هـ - ١٧٢٠ م) وفي هذا الوقت نسب اليكيزية الى الصدر الاعظم الداماد
 ابراهيم باشا الاهمال والخيانة فثار واورفعوا علم العصيان وقام رجل من الاو جاقلية يدعى باترون خليل
 مع نحو العشرين من أمثاله ونهب الاسواق وقصد السراى وطلب من السلطان عن لسان الاو جاقات
 قتل الصدر الاعظم داماد ابراهيم باشا وأعوانه ممثل صهره رئيس البحر مصطفى باشا القيودان
 المدعو قيمانق أو تلجى وصهره الثاني كخدا محمد باشا وتمكنوا من دخول السراى وفتكوا بهم وألقوا
 بهم في البحر أما شيخ الاسلام أفندى فعزل ونفى ولم تقصر الفتنه على ذلك بل امتدت حتى
 خلع السلطان أحمد خان الثالث وجلس ابن أخيه السلطان محمود خان الاول مكانه في ١٥ ربيع
 أول سنة ١١٤٣ وبقي السلطان أحمد معزولا الى ان انتقل الى الدار الآخرة (١١٤٩ هـ)
 وكان من الصالحين محبا للجهاد واقامة الحق ومن التجديدات المفيدة التي حصلت في أيام السلطان
 أحمد إنشاء المطبعة لأول مرة بالمملك العثمانية وكان انشاؤها بمدينة اسكدار وسبب ذلك ان الدولة
 لما أرسلت جلبي محمد أفندى سفيراعنها الى باريس كما تقدم أنخدمه ولده محمد سعيد أفندى
 (وهو الذي ترقى لمسند الصدارة عمدة السلطان عثمان خان الثالث) ولما رأى رواج فن الطباعة وكثرة
 المطبوعات بتلك البلاد مال لنقل المطبعة لبلادهم وعند عودته الى استانبول تكلم مع أحد رجال
 الدولة المدعو ابراهيم أفندى الجرجى (١١٣٩ هـ) ثم الاذنا بيجاد المطبعة بمدينة اسكدار وكان
 فقهار سميا وتعيين بعض العلماء لتصحح مطبوعاتها سنة ١١٤١ هـ وأول ما طبع بها من الكتب
 ترجمة صحاح الجوهرى وغيره من كتب التاريخ والادب فانتشرت بذلك المعارف واستطلعت الاممة

وقائع ماضيا فانتسعت أذهانها ومالت الى الاقتداء بجدنية أور وبا ونبغ بعد ذلك كثير من رجال السياسة والعلم عاوقوا عليه من أحوال سياسة الدول المعاصرة لهم ولما استحسّن الناس المطبعة لما فيها من التسهيلات والمزايا العظيمة في نشر العلوم والمؤلفات النفيسة صدرت الفتوى من شيخ الاسلام عبد الله أفندي اليكيشهري بجواز ايجادها بناء على سؤال وجه اليه ومن التحسينات أيضا ان التفت الصدر الاعظم داماد ابراهيم باشا لترقية الصنائع الداخلية فأوجد معامل الاقشة والكاغد وغيرها وانشأ المدارس والكتبخانات ونظم فرقة مخصوصة لاطفاء الحريق وبنى كثيرا من المنازل والمنزهات بجهات البوغاز خصوصا ونبغ في عصر هذا السلطان عدّة من مشاهير الشعراء والكتاب

٢٤ السلطان محمود خان الاول ابن السلطان مصطفى خان الثاني

١١٤٣ - ١١٦٨ هـ

تبوأ تحت الخلافة بعد خلع عمه وعمره اذذاك ٣٥ سنة وكانت الاحوال مضطربة بثورة اليكجيرية والعجم تهتد حدود الدولة الشرقية ولما جلس وجه مسند الصدارة العظمى الى طوبال عثمان باشا ورئاسة البحرية الى چاهين محمد باشا فأخذ الوزير الجديديهم تم في اطفاء الهيب الثورة فقتل ونفي نحو خمسة عشر ألف نفس من الثوار وبذلك عادت السكينة الى ربوعها

حروب العجم - بعد ان سكنت الاضطرابات وركدت زوابع الفتن الداخلية واستقر الامن التفتت الدولة الى الاهتمام ببحر ويران وأخذت تجهز الجيوش ثم تقدم سر عسكر الشرق والى بغداد أجد باشا المنازلة للعجم ولما تقدم طهمااسب شاه لاسترداد همدان قابلته الجيوش العثمانية بعكرا، قوريجان وحصلت بينهما مقتلة عظيمة انتصر فيها العثمانيون وفتح على باشا ابن الحكيم أرمية وتبريز (١١٤٤ هـ) ولما نُسّ طهمااسب من نوال ما يتغيه طلب الصلح فعقد معه السر عسكر أحمد باشا معاهدة من شروطها رد ولايتي تبريز وهمدان الى الشاه وبقاروان وشروان للدولة ولما علم السلطان بما فعله السر عسكر المذكور غضب جدا عليه لاقدامه على ذلك من نفسه ولانه كان في امكانه ان لا يترك للعجم شيئا مادامت العساكر العثمانية هي الغالبة فعزله هو وباقي الوزراء وعين للصدارة حكيم أوغلي على باشا والبحر بعبدي باشا ولكنه توفي بعد مدة قصيرة وأعيد جاثم خواجه محمد باشا القبودانية العامة ثم ان نادر على خان أحد امراء العجم وجد وسيلة لبرازماني ضميره وطعن في حق من كان السبب في عقد هذه المعاهدة وأجلس الشاه عباس الثالث مكان الشاه طهمااسب واستقل هو بلقب وكيل الشاه ثم جمع الجوع وهاجم العراق وحاصر بغداد ولما بلغ الدولة خبر ذلك أرسلت جيشا عظيما تحت قيادة الصدر الاسبق طوبال عثمان باشا فردهم عن بغداد مهورين ورجع نادر على خان محجور وحالي همدان (١١٤٦ هـ) الا انه عاد في هذه السنة فجمع الجوع وتجاوز الحدود العثمانية وانقض على جيوشها وكان السر عسكر طوبال عثمان باشا مريضاً خيمته فلم يقدر على تولي القيادة العامة ولم يحسنها من أنابه عنه فتمهقرت الجيوش العثمانية وقتل السر عسكر المذكور وتشتت الجيش (١١٤٦ هـ) ثم ساقّت الدولة في السنة التالية جيشا آخر تحت قيادة كوبريل زاده عبد الله باشا فانكسر أيضا وقتل بجوار روان في واقعة اربيه

جاني (١١٤٨ هـ) وبذلك انتقلت جميع البلاد التي كانت فتحها الدولة من ايران اليها ثانية وجلس نادر علي شاه على تخت العجم وثبتت قواعد سلطنته وطلبت الدولة الصلح وبعدها المداولة تم الاتفاق بينهما في تفليس (١١٤٩ هـ - ١٧٣٦ م) على شرط ارجاع الحدود القديمة الى ما كانت عليه في مدة السلطان مراد الرابع

حرب روسيا والنمسا ومعاهدة بلغراد - لما انكشفت نيات روسيا بخصوص بولونيا والعجم للدولة العثمانية واتفق موت أوغوست الثاني ملك بولونيا وصار ملكها السابق استانسلاس من تبطامع لويس الخامس عشر لزوجته بابتها سعت حكومة فرانسادي امرء بولونيا حتى انتخبوه ملكا عليهم كما كان (١١٤٦ هـ) الا أن النمسا والروسيا انتخبتا اوغست الثالث منتخب ساقسونيا ولم يرعيا أميال الاهالي في ذلك واستعملت امبراطورة روسيا أناتوليانا والكبرياء والجيروت في هذه المسئلة فقامت فرانسوا وشهرت الحرب بخصوص بولونيا على روسيا والنمسا وأوعزت الي سفيرها بالاستانة الماركيزدي ويدنوف (Villeneuve) بان يسعى جهده لحل الدولة العثمانية على الاشتراك مع فرانسوا في هذا الحرب وزودته بالتعليمات التي من مقتضاها ان امتداد نفوذ روسيا مضرب مستقبل الدولة العثمانية وكان الصدر حكيم أوغلي علي باشا من الواقفين على سر سياسة روسيا وشديد ميلها للفتح فاطهر عظيم الخافقة لاعمال روسيا حتى التزم الباب العالي اعلان الحرب على روسيا ولما استشعرت النمسا عساي فرانسادي الدولة العثمانية خافت من ضياع النتيجة في مسئلة بولونيا وأسرعت الى مصالحة فرانسوا وعقدت معها معاهدة في ويانة (١١٤٨ هـ - ١٧٣٥ م) فكفت يدها عنها بذلك ثم اشتركت مع روسيا لمحاربة الدولة العثمانية وحسنت لها اظهار العداء لالعثمانيين فقامت روسيا في أواخر حرب ايران (١١٤٨ هـ) ومنعت قبلان كراي خان القريم وبيوشه من المرور من مملكتي داغستان وقبارطاي عند ذهابه لامتداد جهات شروان مدعية ان المملكتين المذكورتين هما من أملاكها ولا يحق للدولة أخرى العبور منهما بغير رضاها ولما احتجت الدولة على ذلك أخذ سفير روسيا في استانبول المسيو نيلويه في يقيم الادلة على صحة دعوى دولته فلم تقبل منه الدولة قولها ولما تم الصلح مع ايران تعين السلطان محمد باشا للصدارة وفي خلال ذلك سافت روسيا جيشا عظيما تحت قيادة القلدمارشال مونيخ وحاصرت فرقة منه قلعة ازاق ودخلت فرقة أخرى من برزخ أورقو وهددت بلاد القريم وهاجمت فرقة ثالثة قلعة كيلبرون (Kilburn) وعند ذلك اضطرت الدولة العثمانية لاعلان الحرب على روسيا واصر الصدر الاعظم الجديد بالجيش لقيادة أوردي باباطاغ ولما لم تكن دولة النمسا على قدم الاستعداد للحرب قصد شارل السادس امبراطورها تاخير الدولة عماشعرت فيسه من التجهيزات باطالة زمن المحاربات حتى يتمكن من التجهيزات وأوعز الى الموسيو طلمان سفيره في استانبول بالوساطة لازالة الشقاق حقا للدما فآخذ يتخبر مع الصدر الاعظم في باباطاغ ويماطله مدة شهر من الزمان وفي أثناءها سافت النمسا جيوشها على قلعة نيش وشهر كوي ودخلت عساكرها بلاد بوسنة ثم تقدمت الجيوش العثمانية بعد ذلك وحاربت النمسا واتصر الصدر الاسبق حكيم أوغلي علي باشا على النمساويين في ولاية بوسنة وشتت شملهم في الوقائع التي حصلت في سنة (١١٤٩ هـ)

و (١١٥٠ هـ) و (١١٥١ هـ) واسترد كوبريلي حافظ أجد باشا جهات نيش وشهر كوي ثم عاد مظفرا الى بلغراد وهزم سرعسكر و يدين عوض محمد باشا بمساعدة القاتدين السابق ذكرهما جيشا ثالثا للنمساويين كان يتقدم على ويدين وأحرق العثمانيون لهم سبع مراكب حربية في البحر تجاه قلعة اليزايت ثم عبرت الجيوش العثمانية نهر الطونة واستولوا على أراضي بانجوه وحوالي مهاده (Mohadia) واقليم بانات أو طمشوار واعتصمت كافة مدافع ومهمات النمساويين وفتح الصدر الأعظم يكن محمد باشا أورسوه (Orsova) وفتح الاسلام وقلعة اطه وسمندره على التوالي (١١٥٠ هـ) وعند ذلك التزمت النمسا أن تطلب الصلح (١١٥١ هـ - ١٧٢٨ م) وتوسط سفراء فرانسوا هو لاندو والسويدي في ذلك وفي تلك الاثناء انتصرت الجيوش العثمانية أيضا في واقعة كروسكا (Krozka) على قائد جيوش النمساويين القونت واليس (Wallis) (١١٥٢ هـ) وحاصرت استوار ولو احتاط الصدر الأعظم للامر قليلا لكان أسرجيش الاعداء بتمامه وفي السنة المذكورة هزمت الجيوش العثمانية أيضا جيوش الروسيا بقرب شاطئ نهر بروت ووجهة أورقوبو ودخلت الدونما العثمانية الى البحر الاسود تحت قيادة القبودان سليمان باشا الذي خلف لاز على باشا المتوفى سنة ١١٥٠ هـ وانتصرت على الاسطول الروسي في بحر ازاك وكانت هذه الانتصارات من أعظم الاسباب للوصول الى الصلح الذي انتهى بمعاهدة بلغراد في شهر جمادى الآخرة سنة ١١٥٢ هـ (١٧٣٩ م) وأن تسلم أوستوريا بلغراد وكذا جميع البلاد الواقعة على الضفة اليمنى من نهرى صاووه والطونة وهي التي كانت استولت عليها بمعاهدة ساروفجه وان ترد الى الدولة العثمانية اراضي أورسوه والبلاد المسماة بالافلاق النمساوية وان تترك الدولة العثمانية للنمسا المواقع التي كانت استولت عليها من جهات بانجوه وطمشوار وان يكون الصلح لمدة ٢٧ سنة أما الروسيا فقد تعهدت امبراطورتها ان ابواقونابهم قلعة ازاك وان لا يكون لها فيما بعد مراكب حربية ولا تجارية بالبحر الاسود وبحر ازاك معا وأن تعيد للدولة كل ما فتحته من البلاد وان تنقل تجارتها على سفائن أجنبية وبعده هذا الصلح أبرمت الدولة العثمانية معاهدة هجومية ودفاعية مع السويد ضد الروسيا بتوسط سفير فرانسوا المسيو ويلنوف (Villeneuve) وكذا تجددت معاهدة تجارية مع حكومة السيلستين وجددت الدولة مع النمسا سنة ١١٥٣ هـ (١٧٤١ م) المعاهدات التجارية ومنحتها بعض تسهيلات جديدة تجارية وفي سنة ١١٥٤ هـ (١٧٤١ م) لما توفي شارل السادس امبراطور النمسا والمانيا خلفته ابنته مارية تريزة وقامت فرانسوا واتحدت مع بعض دول أوروبا وعلى محاربة هذه المملكة وتقسيم أملاكها للعداوة الكاثنية بين ملوك فرانسوا والعائلة الحاكمة بالنمسا وسعى فرانسوا دائما في اضعاف النمسا وهدم أركانها ولذلك قامت بين فرانسوا والنمسا محاربة المعروفة بحرب الوراثة في النمسا واستمرت زمنا وانتهت به فوز النمسا

ولما وقعت الحروب بين المملكتين أخذت فرانسوا ومحالفوها في تحريض الدولة العثمانية على محاربة النمسا واعدتها باحتلال بلاد المجر وغيرها حتى ترجع الى الحالة التي كانت عليها في زمن السلطان سليمان القانوني ويمكنها بذلك أن تعرف لمساى الروسيا المنهجية في مدنفونها المضمر

بالدولة ولو انصاعت الدولة لهذه الاقوال لعادت عليها بالفائدة الا أن السلطان محمود لم يقبل تغيير مسلكه السلمى بل استمر متمسكاً بمعاهدة الصلح مظهر التمسك به ووده

تجدد الحرب مع ايران بخصوص المذهب الجعفرى (١١٥٦ - ١١٥٩ هـ) - اعلم انه فى خلال السكينة التى استمرت أربع سنوات بعد عقد معاهدة بلغراد المذكورة قام نادر على شاه ملك العجم واعتبر المذهب الجعفرى من المذاهب السنية وعده مذمهاً خامساً وتشبث بان يجعل له مكاناً مخصوصاً فى الحرم النبوى الشريف وأرسل لاستانبول سفارة مخصوصة معها كثير من الخدم والحشم لتنال بذلك تصديقا وتصريحاً بالانها لم تستفد جواباً قطعياً فى هذا الخصوص جرد على العراق ودخلها بجيوشه بفترة (١١٥٦ هـ) وحاصر بغداد وفتح كر كوك وتقدم نحو الموصل فعينت الدولة على التعاقب ثلاثة من الصدور المعزولين لقيادة الجيوش التى وجهت على العجم وهم شهلاً أحمد باشا ويكن محمد باشا وحكيم أوغلى على باشا وكانت الحرب متواصلة فى الثلاث سنوات الاولى وأخيراً استردت الجيوش العثمانية كر كوك وضائق يكن محمد باشا نادر شاه بقربروان حتى اضطرب الشاه فى أمره وفى أثناء ذلك أصيب السرى عسكر المند كور بجرحى محرقة فمات وحصل بموته خلل فى الجيش آل الى انهزامه (١١٥٨ هـ) فتقدم نادر شاه الى جهة ارض روم وطلب من الدولة تسليمه بالالات وان الموصل وبغداد والبصرة فلم تجاوبه الدولة الا بجمع جيوش الروملى والناضول وطلبت الامداد من خانات شروان وداغستان وقوق وقيناق فخاف نادر شاه عاقبة هذه التجهيزات وعدل عن مطالبه وطلب من الدولة بعض طلبات خفيفة فتجددت معه المعاهدة (١١٥٩ هـ) على شروط مصلحة السلطان مراد خان الرابع

احوال البحر يه تسمى المند كور - لما جلس السلطان محمود خان الاول على سرير السلطنة أصدر أمره الى دار الصناعة بتقوية الدونما العثمانية ولإنشاء سفن جديدة فشيئت ثلاث سفن من نوع الاوج انبارلى وأمر أيضاً بان يوضع للسفن أسماء تعرف بهم بسهولة تمييزها عن بعضها وكانت السفن العثمانية لغاية زمن هذا السلطان لا تسمى باسماء مخصوصة بل تدعى باسماء قبوداناتها فسمى الغليون الذى تم بناؤه سنة ١١٦٢ هـ باسم برجورى والذى تم بناؤه سنة ١١٦١ هـ بناصر بجرى واستمرت دار الصناعة بعد ذلك تسمى سفنها الحربية باسماء مخصوصة الى هذا العهد وفى مدة حرب العجم الاخيرة تولى رياسة البحرية أربعة قبودانات على التعاقب الاول شمسوارزاده مصطفى باشا ثم خلفه راتب أحمد باشا ثم خلفه صارى مصطفى باشا ثانية ثم خلفه صوغان يميز محمود باشا وفى سنة ١١٦٢ هـ ساقطت الدولة عمارتها الى البحر الابيض المتوسط تحت قيادة صوغان يميز محمود باشا المذكور ولما توفى تعيين بدله طررق محمد باشا فقاد الدونما وطرب سفن القرصان وخلص منهم كثيران أسرى الاسلام عندهما كانوا يحاولون الالتجاء الى بلاد ايطاليا ولما عاد بالدونما الى استانبول عزل وخلفه ملك محمد باشا فسافر بالدونما الى البحر الابيض مرتين وفى سنة ١١٦٣ هـ ساقطت الدولة قوتها بحرية وبرية لتسكين ثورة طائفة الوهابية وفى السنة التى بعدها قامت الاكراد على بعضهم ولكن بالحكمة التى استعملتها رجال الدولة سكنت الفتنة وعادت الطمأنينة بينهم ثم بعد ذلك حصل اختلاف بين أشرف مكة وهو انه لماولى محمد بن عبد الله بن سعيد

الامارة بعد ابيه المتوفى اختلف مع عمه مسعود (١١٤٥ هـ) وقامت بينهما حروب يطول شرحها
وبعد ان تم الصلح بينهما (١١٥١ هـ) بتوسط الاشراف عاد الخلاف الى ما كان وعرضت الشكوى
على الدولة فاصلحت بينهما

واعلم ان معاهدة اقس لاشايدل فتمت لاورربا عصر صلاح ورفاهية وانتشرت التجارة واتسع
نطاقها وساد السلام في اوروبا حتى صار من الامكان الظن بدوام هذا الصلح الى الابد وقد اثرت هذه
الحالة السلمية بالممالك العثمانية ايضا فاستفادت منها حيث اهتم السلطان ووزراؤه في ايجاد ما به
الراحة العمومية واسباب العمران وقد بقيت الحالة على ذلك مدة نحو تسع سنوات وبينما كان
السلطان عائدا من صلاة الجمعة على جواده مات فجأة عند دخوله في باب السراي (صفر ١١٦٨ هـ)
وكان يتصف بالثبات في الاعمال والاقوال وسلطنته التي استمرت نحو ٢٥ سنة معدودة في تاريخ
العثمانيين من اجل الايام وابهى العصور ومن كثرة تردد سفرائه على مدينة باريس ومن مكالماتهم
ومخاطباتهم الكثيرة مع السفراء المقيمين بالاسنانة اكتسب رجال الدولة معلومات سياسية مهمة حتى
ان بعضهم لما تال مسند الصدارة العظمى كان على علم تام ومعرفة جيدة بالاحوال السياسية العمومية
ولذلك عدم مؤرخو العثمانيين عصره اذ عرصرت في المعارف السياسية لدى العثمانيين ولما
كانت افكار هذا السلطان تميل لنشر المعارف والمدنية اُنشأ بالاسنانة فقط أربع كتبخانات وجعل
بكل واحدة منها دروسا عمومية وكان مرعى الخاطر معظم ما لى معاصريه من الملوك وفي عصره اشتهر
الحاج بشير اغاغا دار السعادة وزاد نفوذه ولما كان من العقلاء واصحاب الرأي والتدبير اتخذ
السلطان مستشارا خاصا له وخلق في السلطنة اخوه السلطان عثمان خان

(٢٥) السلطان عثمان خان الثالث ابن السلطان مصطفى الثاني

(١١٦٨ - ١١٧١ هـ)

جلس هذا السلطان على سري السلطنة وعمره ٥٨ سنة وقلد السيف بجماع ابي ايوب
الانصاري كالعادة وافته سفراء اوروبا بالتهنئة وحيكم ثلاث سنوات فقط لم يحدث بها حروب
ولامنازعات خارجية لالتزامه جانب السلم وتفضيله السكينة واهتم في اصلاح الداخلية وابتعد
كثيرا من حاشية السراي الذين اشتهروا بخلق الدسائس وتعكير صفاء الامن منع القلاقل واصدر امرا
يمنع كل ما يخالف الشرع الشريف حتى انه منع الخمر من التجول في الطرق بهيئة تبرج وفي
السنة الثانية من سلطنته قامت فتنة بين اللاتين والروم في كنيسة بيت لحم تسبب عنها بعض
مشاكل خارجية فاهتم بتسويتها ونقو متره بول الكنيسة المذكورة وفي السنة الاولى من حكمه
عزل ثلاثة مدور وهم كوسه ماهر مصطفى باشا وحكيم اوغلي علي باشا ونايلي عبد الله باشا ثم بقل
علي باشا وفي سنة ١١٦٩ هـ ايضا غير الوزارة فوجهت الصدارة الى سعيد محمد باشا وهو الذي اُسس
المطبعة عند عودته من باريس كما سبق ثم قتل لاسباب خفية وخلق كوسه ماهر مصطفى باشا ثانية
وتعين على البحرية احدى امراءها القبودان قره باغلي سليمان باشا ثم التفت السلطان الى الحرب
البحري الحاصل بين سفن وجاتا الغرب وبين سفن حكومة نابولي فحسمها بالطرق السلمية ولما

ثارت بعض قبائل الاكراد وتحصن بعضهم في قلاع (موش) و (بتليس) و (ملاس) و (كرد) و (موشان) ووجه عليهم والى ارض روم فسكن الاضطرابات ولما شقت اليكجرية في بلغراد عصا الطاعة وعانوا في الارض فساد حتى التزم كوبريلى زاده أحمد باشا أن يترك تلك المدينة ساق السلطان عليهم الجنود حتى ردهم الى الطاعة وقبض في سنة ١١٧٠ هـ على قره عثمان وأغلى الذي أدخل بالراحة في سنجقية أيدين وقتله وأخذت الحكومة أمواله وبعد ذلك عزل الصدر الأعظم وخلفه محمد راغب باشا صاحب الآراء السديدة والسياسة الشهيرة وهذا الوزير هو الذي باشر تحرير معاهدة بلغراد منذ كان بوظيفة مکتوبجي فزاد بذلك اطلاعا على سياسة أوروبا وكان قبل ذلك من مندوبي الدولة في عقد الماتركة مع العجم وتولى مصر وبعثاد ومع ما قام به هذا الوزير من الخدم الجليلة سعى في حقه أعاد ارا السعادة أبو وقوف أحمد أتا حتى عزل وقد نجاه الله من القتل بوفاة السلطان الذي توفي فجأة يوم ١٦ صفر سنة ١١٧١ هـ وكان ميل الى السلم وتم في أيامه بناء المسجد الجامع العظيم الذي ابتداء في تشييده أخوه السلطان محمود خان وسماه نور عثمانية وفي أول جلوسه ابتدأت في أوروبا بالحرب السماتة بحرب السبع سنوات الشهيرة

(٣٦) السلطان مصطفى خان الثالث ابن السلطان أحمد الثالث

١١٧١ - ١١٨٧

جلس هذا السلطان على تخت الخلافة وعمره اثنتان وأربعون سنة وكان له اطلاع على الخلل الموجود بادارة الدولة فأبقى الوزير الشهير قوجه راغب في الصدارة لياقته وسعة اطلاعه وقد اجتهد هذا الصدر في تسكين ثورة عرب الشام الذين أخلوا بالامن لتعدياتهم على قوافل الخراج وكان هذا السلطان ميل الى محاربة الروس والعلمه ما تنويه للمالك العثمانية من الاضرار ولكن لما كان الصدر محمد راغب باشا يعلم جيدا الفرق الموجود بين جيوش أوروبا التي سارت شوطا بعيدا في التعليمات والانتظامات وبين جيوش اليكجرية الذين جعلوا عدم الاطاعة والتمرد قانونا لهم أخذ ينصح السلطان في تأخير تنفيذ نواياه حتى يتم التنسيقات والتنظيمات المراد ادخالها بالجيش العثماني وتمكن هذا الصدر بمهارته من عقد اتفاق مع حكومة روسيا الجديدة لتساعد الدولة عند الحاجة على التمسك والروسيا وقد كان هذا الوزير يرهم أيضا توسيع نطاق التجارة البحرية والبرية فلهذا كتب تقسيرا يرغب به فتح خليج لا يصل نهر الدجلة بيوغاز الاستانة وان تستعمل الانهار الطبيعية مجرى له ليسهل نقل الغلال من الولايات الى دار الخلافة ويساعد على نشر التجارة الا أن المنية عاجلته قبل الشروع في مقصوده (١١٧٦ هـ) وقد كان وحيد زمانه في الشعر والادب والفلسفة ومدحه المؤرخون كثيرا وبعجبوا بغيرته ومعارفه ولقبه المؤرخ واصف أفندي بصدر الوزراء واطان الشعراء والانسان الكامل وهو صاحب الكتاب الشهير المسمى بسفينة الراغب وخلفه في الصدارة توقيعي حامد حجة باشا ثم خلفه كوسه مصطفى باهر باشا (١١٧٧ هـ) ثم بعد سنة تولاها محسن زاده محمد باشا (١١٧٨ هـ)

الاعمال البحرية في المدة المذكورة - لما وجه مسند القبودانية الى عبد الكريم باشا سنة ١١٧٣ هـ خرج بالدونما الى البحر المتوسط الابيض كالمعتاد ولما وصل الى جزيرة استانكوى وخرجت طوائف السفن لصلاة الجمعة قام الاسرى الذين بالاسطول المسخرون لادارة المقاذيف وكسر واسلاسلهم وقتلوا الباشا القبودان وكان تخلف عن صلاة الجمعة لعذره وهو في نفر قليل وقتلوا من قلوبهم من الجنود ووربطوا باقيهم بالسلاسل والاحبال وهربوا بسفينة القبودان الى جزيرة مالطة فلما وصل هذا الخبر الى الاستانة عينوا امير اخو ومصطفى باشا قبودانا (١١٧٤ هـ) ولكنهم عزل بعد خمسة شهور وولفقه حسن باشا ثم عزل وصار كخدا محمد باشا قبودانا (١١٧٥ هـ) ثم خلفه سنك مصطفى باشا ومات بعد سنة وعين واقره باغلي سليمان باشا ثانية لمسند القبودانية ثم عزل (١١٧٧ هـ) وتعين بدله طوسون محمد باشا وفي سنة ١١٨١ هـ تعين حسين حسني باشا وخرج بالدونما الى البحر الابيض لمطاردة القرصان الذين ظهر وافي البحر المذكور ثم خلفه اثان آخران واخيرا وجهت القبودانية الى حسام الدين باشا

حرب روسيا - اعلم أنه في خلال تلك المدة قامت كثيرينه زوجة بطرس الثالث حفيد بطرس الاكبر وخلعت زوجها من ملك روسيا وجلست هي مكانه على كرسى المملكة عقب قتله ثم لما توفي اغوست الثاني ملك بولونيا أخذت تسعى في تعديل القانون الاساسي لهذه المملكة لتنصب عليها عشيقها ستاناسلام بونيا توسكي فقام حينئذ حزب الاستقلال المسمى (Confédération de Bar) في بولونيا وطلب المساعدة من انكلترة وفرنسا ولما قطع الامم من مساعدتهم الايقاف ما كانت كثيرينه الثانية تنويه لهم من المضار وعينت بونيا توسكي بالقوة استمدت الحزب المذكور الحماية من الدولة العثمانية (١١٧٨ هـ) لحفظ بلادهم من تعديت روسيا وكانت الدولة الفرنسية تحرض الدولة العثمانية وتحثها على اعلان الحرب على روسيا لانها كثر يفة في احوال بولونيا مضرب سياستها وكان الصدر محسن زاده محمد باشا يمنع ذلك كثيرا لانه يرى أن من المفيد تأجيل محاصمة روسيا حتى يتم تحصين المعامل والحصون والقلاع التي يحدود الدولة وشحنها بالمهمات والذخائر الكافية فعارضه في ذلك بقية الوزراء ولم يستحسنوا رأيه ولهذا عزل من منصبه وتولى مكانه سلمي دارماهر خزة باشا (١١٨٢ هـ) وكان من الذين يميلون لاعلان الحرب على روسيا وامر فقبضوا على سفير روسيا او برشقوف وسجنوه في يدي قلة كالعادة المتبعة وأرسلت الدولة امرا لكريم كراي خان القريم بفتح باب الخصام فاستند على بعض أعمال انتها روسيا مخالفة للعاهدات وذلك أن بعض فرق القوزاق دخلت مدينة بلطه تتبع بعض البولونيين واستولت على المدينة وذبحت السكان فساغ حينئذ لامير القريم ردهم بالقوة فوطى أرض روسيا واعاد غانغا منصورا ومعه نحو ٢٥ ألف أسير وبينما كان يستعد لاغارة اخرى عاجلتها منيته وقام في منصبه دولت كراي خان وانغار على بلاد روسيا فوجهت عليه قوة وبذلك فتح باب الحرب ثم تقدمت الجيوش العثمانية تحت قيادة الصدر الاعظم وقد كانت الاحوال في الدولة سيئة جدا اذ ذلك مالبية فارغة وجيش خائر القوى من طول الحروب واساطيل ضعيفة وليس بين رجال الدولة من الاكفام ما يشبهون كوبر بلي أو غيره من الصدر المشاهير والحاصل ان الدولة

لم تقدم على حرب قبل ذلك وحالتها كما هي الآن من الضعف والاختلال وزيادة عن ذلك فان كثيرا من جهات آسيا لم يكن يعترف للسلطان بالتبعية الا بالاسم فقط وكانت جهات لبنان وسوريا في حالة تشبه الاستقلال التام ولم تكن الدولة تجبى من تلك الجهات خراجا الا التزرا اليسير وان جيبته فبشق الانفس وسبب ذلك عدم تمكنها من الالتفات الى ادخال هذه البلاد ضمن دائرة النفوذ الفعلي لها هي فيه من الاشتباك في الحروب وغلبة اعمالهم وتمددهم لاخذ الرشوة من الجهة الاخرى وكان السلطان يعلم ذلك جيدا الا ان الحزب الذي يرغب الحرب أمكنه القبض على أزمة الادارة والسياسة وقد تمكن الصدر الاعظم مع ذلك من المدافعة عن قلعة خوتين (شو كزيم) ولكن لجهله عزل وعين للصدارة والسر عسكريه باعلاقه حتى زاده محمد أمين باشا فتوجه بالاوردي انهر الطونة وفي أثناء ذلك عبرت عساكر الروسيان نهر طور له أو دنيستر (Dniester) وحاصروا خوتين ولكن مولدواني على باشا ودولتكر اى خان تمكنان من طرد الروس من حول القلعة المذكورة ثم عزل الصدر لاهو وصدرت منه واتهمه الجنود بسوء التصرف فقتل وحمل رأسه الى استانبول ووجهت الصدارة الى مولدواني على باشا (١١٨٣ هـ) وكان شهما أكثر استعدادا ولياقة من سلفه الا أنه لم يكن أسعد منه طالعا وقد أظهر اهتماما وغيره ونقدم للعبور نهر طور له ونصب عليه جسرين من السفن وبينما هو يستعد لمهاجمة أعدائه فاضت مياه النهر المذكور دفعة واحدة وخاف الجنود من أن المياه تلتف الجسرين فأسرعوا بغير انتظام للعبور ورترا كوا على الجسرين فانقلب في النهر وغرق غالب من كان فوقه - ما من الجنود وكان السر عسكرو وضع بالصفة الاخرى ستة آلاف جندي لحماية الجسرين فلما كسرا بقوا مفردهم بالشاطئ الاخر فقتلهم الروس عن آخرهم ثم أخلى السر عسكرو خوتين بعد أن جردها من الذخيرة فاستولت عليها الاعداء بكل سهولة ولهذا عزل مولدواني على باشا المذكور من الصدارة وأحيلت هي والسر عسكريه على عوض زاده خليل باشا وكذا اعزات الروسيان فأنهالها العام المرشال غاليتسين (Galitzin) وعينت المرشال رومانزوف وكانت جيوش الروسيان التي في الحدود العثمانية الاسيوية في ذلك الوقت منصوره أيضا فاستولت على قبارطاي وكرجستان وجزء كبير من ارمنستان (١١٨٣ هـ)

واقعه **شهر المحرمية** وهزيمه قزاق - اعلم ان الروسيان كانت أرسلت قبل أن تجرد عليها الدولة كثيرا من أتباعها التحريكين اليونان والصرب والجبل الأسود وغيره من الجهات التي يكثر بها العنصر النصراني الارثوذكسي خصوصا للقيام بالثورة وتوقع الدولة في ارتباك داخلي وتصيبها بجزخ دام باطنى تضطر بسببه أن تضمده باحدى يديها وتدافع باليد الاخرى ومن الغريب أن الروسيان استعملت هذه الوسيلة في كل محارباتها مع الدولة وصادفت فيها نجاحا وكان عمالها يهبون السكان الهبات الوافرة ويمنونهم بكل ما يرتاحون اليه وقد نجحت في ذلك أولا الا أن الدولة أرسلت الجنود فأوقعوا بالنوار في كل الجهات تقريبا ومع ذلك فان الدولة اضطرت لان تبسقى بالجهات المذكورة حماية كثيرة دعها متى تمردت ولمالم يكن لدولة الروسيان وقتئذ قوة بجزيرة بالبحر الاسود يمكنهم امنازلة الاساطيل العثمانية بالبحر المذكور أرسلت من بجزر المطيق عمارة قوية وتداركت بعض سفائن حربية من انكلترا والبنادقة واستأجرت ضباطا وأنصارا لخدمتها ثم دخلت هذه العمارة من مضيق جبل طارق الى البحر الابيض المتوسط تحت قيادة الاميرال الكسندر أورولوف

ومرت هذه الاساطيل أو لابسوا حل مورة وأمدت الثوار بالسلحة ونفود وشجعت رئيسى الثوار هنالك وهم باباس أوغلى وبناسخى (Bénaki) ولما علمت الدولة بذلك عينت محسن زاده محمد باشا سردار على جيش مورة وأمدته بجنود جديدة فتمكن هذا القائد من تسكين الاضطراب والقبض على الاشقياء ولكن بعد خسائر كثيرة

ولما كانت حكومة فرانساسيوها أن ترى انتصار الروس على العثمانيين لان ذلك كان يضر باحوالها السياسية عرضت على الدولة مساعدتهم بالها وذلك حينما بلغها ظهور العمارة الروسية في البحر الابيض المتوسط وأرسلت لها بطان من ضباطها ليساعد مهندسى العثمانيين على انشاء القلاع أو تقويتها وهو البارون توط (Tott) وعرضت على الدولة أيضا مساعدة اسبانيا لها بشرط أن تمنحها بعض امتيازات تجارية فلم يقبل الباب العالي ذلك وكان الوزراء يرغبون في الصلح بكل طريقة حتى أنهم طلبوا من دولة أوستوريا التوسط فيه ولقد كانت طويجية العثمانيين في ذلك الوقت في حالة تقهقر عظيم فبعد ان كان لهم المقام الاول في أوروبا من حيث التنظيمات العسكرية بأنواعها خصوصا الطويجية منها بقيت حالتهم في ذلك ثابتة لم تتقدم وكانوا الايرالون يستعملون المقذوفات من الحجر وقد سعى البارون توط المذكور حتى تمكن من جعل الوزراء يصغون الى نصائحه ويستبدلون ذلك بمقذوفات من الحديد على الطرز المستعمل اذ ذلك

وفي ٢٠ صفر سنة ١١٨٤ هـ أقلعت الدونما العثمانية من خليج دار الخلافة تحت قيادة القبودان حسام الدين باشا الى البحر الابيض المتوسط وكانت مراكبة من ٣٩ سفينة مختلفة النوع والقدر ولما وصلت الى ساقز رست في مكان مناسب قريب من ساحل الاناضول ثم تلاقت مع الدونما الروسية التي تحت قيادة الاميرال أورلوف المسد كور وكانت تؤلف من عشرة غلايين وعشر فرقاطات وبعض سفن صغيرة ولما وقعت الحرب بينهما كانت الدونما العثمانية هي الغالبة في أول الامر لما بذله القبودان الثانى حسين باشا الجزاىرى من المهارة وأساليب القتال البحرى المتنوعة التي أبقت له في تاريخ البحرية العثمانية ذكرا جليدا وكان من باب الاحتياط أرسل قبل الاشتباك في الحرب فرقة لانشاء الاسحكامات في البر ثم حل بغليونيه على غليون الاميرال وضايقه ولما كاد يستولى عليه ألقى الاميرال الروسى المسد كور النار بجحز البارود بعد أن تركه وانتقل الى غليون آخر ولما تفرق الغليون الروسى أصيب حسين باشا بعثة جراحات وقتل كثير من كان معه وأخرج القبودان الى البر لتضميد جروحه ولما احترقت سفينة الاميرال الروسى أمر جعفر بك الريان القوادى بادخا ن سفن الدونما الى ميناء حشمه ولما كان التجاء الدونما العثمانية الى تلك الميناء ليس من الصواب في شئ لانه يصيرها غير قادرة على أى عمل لصغر الميناء حتى حسين باشا رغب عن آلام جراحه وتكلم مع القبودان العام حسام الدين باشا وأبذره بأن يقاء السفن داخل هذا النغر ينجم عنه ضياعها بتمامها فلم يستعملوا ميناء حشمه ولم يصغ لرأيه الصائب وأججم عن الخروج الى عرض البحر فقبج من ذلك ضياع الدونما كما ستعلمه وذلك انه كان بين الضباط الذين استأجرتهم الروسيا ثلاثة من الانكليز كان أحدهم المسمى القنستون (Elphinstone) أركان حرب للاميرال الروسى ولما رأى الدونما العثمانية دخلت ميناء حشمه أشار على الاميرال بحاصرة مضيق الميناء لمنعهم من الخروج ثم رتب

السفن التي وكل اليها تنفيذ هذا الامر حسبا أشار به الضابط المذكور وبعد ان أخذت السفن مواقعها ووقفت على شكل خط حرب أخذت في اطلاق المدافع وتولى الضابط الانكليزي الثاني المدعو غراغ حركة طوبجية عموم الدونما الروسية واشتغل الثالث المسمى داغدل بتوجيه الحراقات على الدونما العثمانية التي وقعت بين نيران المدافع ونيران الحراقات على حين لم تكن سفنها قادرة على المدافة لعدم امكانها اتيان أى حركة حربية لضيق الميناء كما سبق فاحترقت جميعها خلافاً لظن قاطنين بكل واحدة أربعون مدفعا وخمسة مراكب صغيرة كانت عمكنت من الخروج من بين تلك النيران ومع ذلك فان الدونما الروسية قبضت عليها فيما بعد وقال المؤرخ الجرمانى شيلوزر عن هذه الواقعة ان هذا الانتصار الذى ناله الروسيون لم يكن الامن حسن تدبير الضباط الثلاثة المذكورين ولما وصل خبر هذه النصر الى الامبراطورة كترينه الثالثة فرحت جدا ولقبت الاميرال بلقب چشمسكى تذكارا لانتصاره هذا وبعد الانتصار ألح الفنتستون الانكليزي على الاميرال الروسى بالمسور بالدونما من خناق قلعة قوة واقتدار حتى يدخل القسطنطينية فلم يقدم الاميرال على هذا الامر الخطر أو لاثم ارتد خائبا فيما بعد كما سأتى لان الدولة العثمانية كانت استقدمت من الروملى مولدوانى على باشا وأرسلته بحسبة الجنرال البارون دى توط فرنساوى المذكور لتقوية حصون وقلاع البوغاز وتشييد بعض قلاع جديدة أخرى هناك ولما وصل الباشا المذكور ورأى أن مأموريته تحتاج لوقت طويل أمر فدهنوا خارج القلاع بالخير لتظهر للرائى كأنه صار اصلاحها وبارشاد الجنرال طوتشيد وقلعتين بساحل الاناضول ومثلها ما بساحل الروملى لمنع سفن العدو من العبور فشيدها وسلمها بالمدافع حتى انه لما أراد الاميرال أورلوف فيما بعد العبور من بوغاز الدردنيل حصل لسفنه من ضرب أول قلعة من القلاع المذكورة ضرر جسيم فاضطر للعدول عن مقصوده وذهب الى الجزيرة ليمنى وحاصر قلعتها واستولى عليها هذا أما حسين باشا الجزائرى فإنه لما التأمت جراحه وعاد الى الاستانة طلب من الصدر الاعظم التصريح له باسترداد جزيرة ليمنى وقال له انى لأرغب أخذ مراكب حربية لذلك بل فقط أرجو التصريح لى بجمع بعض الاهالى ولما صرح له الصدر بذلك جمع من أهالى الاستانة نحو أربعة آلاف نفر وشطحهم بالبنادق ثم سافر بهم سريعا

ولما بلغ سفير فرنسا هذا الخبر قابل الصدر وقال له ان ما صنعته حسين باشا لاسترداد قلعة ليمنى لا يجدى نفعا كلية وأرى ان الاوفق عدم القاء العساكر فى الهلاك بلاغرة فقال له الوزير انى على يقين من ان ما فعله حسين باشا غير مطابق للفنون الحربية غير انه ان ينجح فقد حصل المقصود والافتككون الحكومة قد اراحناحت من أربعة آلاف نفس من الذين يقلقون الراحة أما حسين باشا فإنه توجه توالى الى الجزيرة المذكورة وأخرج جيشه الصغير الى البر بزوارق وصنادل استأجرها من الاهالى هناك بدون ان يشعر به الاعداء ثم هجم على الروس بغتة فى صباح يوم ١٠ أكتوبر من السنة المذكورة فوقع بهم ولما لم يقدر واعلى المقاومة ولو الادبار ونزلوا فى السفن فاسترد الجزيرة بذلك وقد خاب الروس أيضا وارتدوا بالهسارة عندما أرادوا الهجوم على طرابزون وكرجستان

ولما وصلت هذه الاخبار الى استانبول سكن جاش الاهالى نوعا وارتفع الرعب الذى حل بقلوبهم مما فعله الروس وذاع صيت حسين باشا الجزائرى واشتهر اسمه ولهج العالم بامتداحه لحسن

مهارة ولذلك تعين قبودانا عاماللدوننا ومحافظالمضيق جنق قلعة ولايقوت القراء أنه لو كان قومندان الدوننا التي ضاعت في حشمه اقتدى باقواله وعمل بأرائه لما كانت حوصرت وضاعت ياسرها كما قدمنا ولما استلم حسين باشا زمام البحرية أخذ في اصلاح السفن الموجودة بدار الصناعة ثم ضم اليها بعض الغلايين ونحو عشرين سفينة للسحب وكون من مجموع ذلك عمارة ثم أذن السلطان بالذهاب بها الى جزيرة ليمني وهناك التي بعمارة الاميرال أورلوف ووقع الحرب بينهما مدة ولما شاهد الاميرال الروسي انه لا يمكنه الثبات امامه وتيقن انه لو استمر على المحاربة ربما ضاعت منه عمارته ولى الادبار منهزما وقد أرجف الروسيون في بلادهم بأن عمارتهم اكتسبت هذه الواقعة أيضا ولكن لأصل لذلك وقد أيدهم في تاريخه عند ذلك هذه الواقعة صحة انتصار حسين باشا وكذب اخبار الروس وقد كان الروس أثناء الحرب يرسلون عمالا لباراة الفتن على الدولة في الجهات التي يكثر بها النصارى على الخصوص كما تقدم ذكره وقد تمكنوا أيضا من جعل رئيس كولمان مصر المدعو على بك يشق عصا الطاعة ويسعى في الاستقلال وكذا الشيخ طاهر شيخ عرب عكا وأمدروس هذا الشيخ بار بهامة مقاتل من رودس أخرجهتم الدوننا الروسي الى البرالآن الجنود العثمانية التي توجهت لردع الشيخ المذکور قتلتهم عن آخرهم كما أنها شنت جموعه وفي منتصف سنة ١١٨٤ هـ تقدم القلدمارشال رومانزوف ودخل المملكتين فأرسل الصدر الاعظم عوض زاده خليل باشا من باباطاغ جيشا مع خان القريم وقوة أخرى مع عبدى باشا سرعسكر بغداد وقوة مع أعالي الكجورية قيوقيران محمد باشا الصدر القلدمارشال المذکور الا انه لم يكن إمدادهم بالجنود اللازمة فيما بعد كما طلبوا الاختلال الاحوال العسكرية ولدخول فصل الشتاء ثم عبر الصدر الاعظم بالجيش نهر الطونة على مرأكب النهر المسماة اچيقي من ايساقچي (Isaktchi) الى قرنال وتقابل مع الجيوش الروسية القادمة مع رومانزوف وحصلت بين الطرفين محاربة دامت ثمان ساعات انتهت بهزيمة العثمانيين وغنم الروس أغلب المدافع والمهمات ولم يكن للدولة اذالك بجهات الطونة أكثر من أربعين ألف جندي غالبهم لا يحسن القتال على الاصول العسكرية

ثم انه بعد واقعة حشمه تقدمت عساكر روسيا واستولوا بعد ان انتصروا على الجيش العثماني المذکور في عدة مواقع على قلاع اسماعيل وكلى و بندر و اق كيرمان ولما علمت الدولة بهذه الاخبار المحزنة أمرت بسرعة جمع الجيوش وفي خلالها توسطت النمسا وروسيا في عقد الصلح وكانتا تفقنا مع روسيا على تقسيم بولونيا الا ان الروس يارضت تداخلها ما وأرادت عقد الصلح مع الدولة مباشرة ولما عرضت مطالبها ورأتها الدولة صعبة غير مقبولة رفضت المكالمة معها واستمرت الحروب كما كانت ثم استولى عساكر الروس على قلاع ماچين وطولچى وايساقچي ودخلت جنودها بلاد القريم واستولت على قلاع (طومان) و (كروج) و (كفه) و (كوزلوه) وانتخب لها خانا يعرفتها هاجر كثير من التتار الى الاناضول بذلك

ضياح بلاد القريم (١١٨٥ هـ) - اعلم انه في خلال استيلاء الروس على طورله المعروفه أيضا بنحمدردينستر وعلى بغداد والافلاق ساقف روسيا جيشا تحت قيادة البرنس دولغوروكى (Dolgorouki) على القريم الا أن سرعسكر القريم السلحدار ابراهيم باشا تمكن

من صده وقهقرته عند برزخ أوريقو (١١٨٤ هـ) ولم يمكن الروس دخول القريم أخذت حكومتهم تبت بين الاهالى الفتن وتجرضهم على الثورة بواسطة عمال السوء كقولهم للاهالى انكم انتم التارسلالة جنكيزخان الشهير بعد ان كنتم اسياد البلاد وحكامها تتمتعون بحكومة مستقلة صرتم عبيد الال عثمان يستبدون عليكم ويتصرفون فيكم كيف شاؤوا ومتى شاؤوا فاذا انفقت مع الروس ساعدوكم على نوال الاستقلال واعادوا لكم ما فقدتموه من المجد الاثيل فانصاع قوم لهذه التعريضات الفاسدة التي أخذت تنتشر بين الاهالى فاحدثت اثر اسبئنا وحلت من العزائم قوة وهدت من العصبية ركنا حتى ان الروس بما لوجهت على القريم تجر يذة اخرى وتصدى لها السر عسكري المذكور عند أوريقو لم يمكن من صدها مع ما بذله من المساعي والنبات ولم يصدق سليم كراى فى الدفاع كالسابق فاستولى الروس على البلاد المذكورة (١١٨٥ هـ) وفى خلال ذلك توسطت أوستريا والبروسيا فى الصلح ولما تهادن الطرفان ابتدأت المذاكرة اولافى فوكشان من بلاد الافلاق (Focksany) وتعين من قبل الدولة رئيس الكتاب عبد الرزاق أفندى ومن قبل الروسياً وبرشقوف واجتمع فى بكرش أى بخارست وعقد المجلس التقرير بأمر الصلح (١١٨٦ هـ - ١٧٧٣ م) وكان أساس المذاكرة التى قدمتها روسيا استقلال القريم وان تستولى هى على قلعتى كرتش ويكى قلعة الواقعتين فى مدخل بحر ازاك وان تكون الملاحه حرة لسفن روسيا التجارية فى جميع فرض الدولة والبحر الاسود وان يكون لها حق حماية المسيحيين الاورثودكس فى بلاد الدولة فرفضت الدولة هذه الشروط لاجحافها بحقوقها واستأنف الطرفان القتال وتقدم الجنرال رومانوف بجنوده وقاد الصدر الاعظم محسن زاده محمد باشا الذى ولى الصدارة سنة (١١٨٥ هـ) جيوش الطونه (١١٨٦ هـ) وانصر على الروس بجوارى زارحق ووارنة وصدهم أيضاً على باشا الداغستانى امام روسيحق وهزمهم سرعسكر سلسرة الغازى عثمان باشا هزيمة منكرة قتل فيها منهم تسعة آلاف جندى واغتنم العثمانيون جميع مدافعهم ونحارهم وأسروالجنرالرينين وجرح الجنرال واسيمان جرحاً بليغاً مات به وعند تفهقر الروس قتلوا فى طريقهم جميع أهالى قره صوو و بازارحق تخلوهم من الجنود

أما تار القريم فانهم بعد ان وافقوا الروس عادوا وطلبوا الحماية من الدولة العثمانية التى عينت دولتكر اى خان الاسبق وچنيكلى حاجى على باشا لاسترداد القريم ثم عاد العثمانيون اليهم ففروا سر يعا قالها مر فى تاريخه أنه لما فرالروس من بازارحق ودخلها العثمانيون وجدوا اللحم فى القدر وعلى النار وهذا يدل على الرعب الذى وقع فى قلوبهم من الجيوش العثمانية وبينما كان السلطان مصطفى الثالث مصمماً على قيادة الجيوش بنفسه فاجأته الوفاة (١١٨٧ هـ - ١٧٧٣ م) وكان رحمه الله من أعظم الملوك الذين أداروا أمور السلطنة بالجد والاقدام وكان فعلاً يتصرف فى الامور بحكمة مهتم بجميع المال والرجال والمهمات للدفاع عن بلاده محباً للعلم والعلماء يعيىل الى العمارة انشأ جامع ايازمه فى اسكدار ولله لى ووقف عليهم الاوقاف الوافرة وأصلح جامع السلطان محمد الفاتح لانه كان تهدم بزلافة وله غير ذلك من الآثار

٢٧ السلطان عبد الحميد خان الاول ابن السلطان أحمد الثالث

(١١٨٧ - ١٢٠٣)

جاس على تخت الخلافة العثمانية بعد أخيه وعمره نحو سنين ولم ينبع بعطاييا الجلوس عقب
تقليده السيف كالمعتاد لعسر المالية واحتياج الدولة للاموال لتصرفها في حرب الروسيا وأبقى
الصدر والوزراء في مراكزهم وقد انتهزت الروسيا فرصة موت السلطان وجلوس أخيه هذا
وأرسلت الجنرال سواروف (Souwarow) مع جيش عمره ممدادا لجيش القائد العام
المارشال رومانزوف لينحرف به على تخت الخلافة فامر السلطان عند ذلك بتسيير الجيوش وتقدم
بها الصدر الاعظم محسن زاده محمد باشا وكانت الروس اجتازت نهر الطونة وقصدت واردة قتلاقت
مع الطليعة التي أرسلها الصدر من شمى مع اغاة اليكچريه يكن محمد باشا ورئيس الكتاب عبد الرزاق
باهر أفندى في جهة يقال لها قوزليجه وبعد حرب طوي بل انهزمت الطليعة المذكورة فاضطرب
الجيش الذى مع الصدر ودانها الخوف ثم بعد قليل ظهرت طلائع جيش رومانزوف وكان
استولى على كافة المواقع المهمة التى فى طريق واردة وتقهقرت جميع الجيوش العثمانية مظهرة
التمرد والعصيان حتى لم يبق بعسكر الصدر سوى اثني عشر ألف مقاتل ولما كان لا يصح القتال
يجنود هذه صفقتهم التزم الصدر الاعظم عند ذلك أن يطلب من المارشال رومانزوف
(Romanzoff) توقيف القتال للمكالمة فى الصلح وأرسل من جانبه مرخصين وهما
أحمد رسمى أفندى من الديوان الهمايونى ورئيس الكتاب ابراهيم أفندى الى قصبه
كوجك فينارجه من بلاد البلغار وفى ظرف ثمان ساعات تقرر شروط الصلح وأمضيت المعاهدة
(١١٨٨ هـ - ١٧٧٤ م) وشروطها استقلال تاتار القريم وقوبان وبوچاق وبقاء ما يتعلق
بامور الدين من خصائص الخلافة وترك يكي قلعة وقلعة كيرج وقلعة ازاك وأراضها وبالبلاد
الواقعة بين أوزرى (Dniepr) وأقسو^(١) (Bug) وقلعة كلبورن (Kilburn) للروسيا
ويجلى الروس عن بلاد كرجستان ومكريليه^(٢) (Mingrelie) والمملكيتين وبوچاق
(Bessarabie) وتكون الحدود بين المملكيتين نهر آق صوالد كوروان تطلق للروسيا حرية
الملاحة والتجارة بالبحر الاسود والبحر الابيض المتوسط وأن تدفع الدولة العثمانية ١٥٠٠٠ كيسه
تضمينات حربيه وتخرج الروسيا أساطيلها الموجودة بالبحر الابيض المتوسط وتعيد للدولة الجزائر
التي استولت عليها وان يرا دامتياز بلاد المملكيتين ويتأكد ويصير مبادلة الاسرى بين الطرفين
وقد فتح البند السابع من هذه المصالحة ميدانا واسعا للدسائس الروسية حيث منحهم حق حماية
الدين النصراني وكأنه ومن ذلك نتجت حرب سنة ١٨٥٤ م كإسبانيا وان تعترف الدولة أيضا
بتقسيم بولونيا وقد التزمت الدولة بقبول ذلك اتباعا للقاعدة الحكمه بل غلب وانتهت الحرب ونالت

(١) نهر من بلاد الروسيا يصب فى نهر دنيبر من جانبه الايمن قريبا من مصبه ويسمى قديما هيبانيس (Hypanis)
(٢) هى عمالة من بلاد القوقاز واقعة على السفح الجنوبي من جبال القوقاز بين البحر الاسود وغربا وكرجستان شمالا
تنزل عنها أميرها للروسيا سنة ١٨٦٧ م وهى عبارة عن بلاد كولشيد القديمه (Colchide)

الروسيا أمانها ولما كانت هذه الحروب وغيرها سببها مملكة الهستان انفقت مملكة روسيا والروسيا والنمسا على تجزئتها بينهم (١١٨٦ هـ - ١٧٧٢ م) وهذا هو التقسيم الاول الذي أعلنه الملك بولونيا في ١٨ سبتمبر من السنة المذكورة ثم عاد الصدر الاعظم بالاوردي وبينما هو بجوار قرين أباد مات فجأة ونقل جسمه الى استانبول ووجهت الصدارة الى عزت محمد باشا (١١٨٨ هـ) وبعد ذلك التفتت الدولة لاصلاح أمور داخلها واهتم القيودان حسين باشا الجزائري في انشاء السفن الحربية لاعادة ما كان للعثمانيين من السطوة في البحار لانهم فقدوا أغلب سفنهم في هذه المحاربة كما علمت ثم خرجت الدونما بعد ان ضموا اليها بعض السفن تحت قيادة القيودان باشا المذكور مع جيش برى وأمرت الدولة أيضا بمحمد بك أبو الذهب أحد أمراء مصر بأن يذهب الى سوريا لاطفاء ثورة الشيخ طاهر عمر فخاصره هو والقيودان عكا وقتل أبو الذهب أثناء الحصار ولما أراد طاهر عمر المذكور الهرب لم يمكن فقبض عليه وقتل وبعث برأسه الى الاستانة

محاربة ايران (١١٨٩ هـ) - اعلم انه بعد ان قتل نادر شاه عادت العداوة بين الامراء في البلاد الايرانية وامتدت الحروب الداخلية واستعمل في جهات شيران رئيس عشيرة زان المدعو عبد الكريم خان ونشيع له كثير من الاعداء الى ان تمكن بدهائه ومهارته وفطنته من القبض على مملكة ايران بتمامها ثم لاج بفكره ان يكتسب شهرة أخرى بتوسيع المملكة فانتهز فرصة ما أصاب الدولة من الضعف بعد حروب روسيا السابقة وأعلن عليها الحرب ودخل بجيشه العراق العربي ونعسدى على كثير من الاهالى والبلاد ثم حاصر البصرة فارسلت الدولة عليه جيشا عظيما من اربعين ألف مقاتل تحت قيادة والى بغداد الجديد سليمان باشا المشهور وبعد وقائع قليلة انتصر الباشا المذكور على الاجام حتى أجلاهم عن البلاد في سنة ١١٩٠ هـ عزل الصدر الاعظم درويش محمد باشا لتقصيره في بعض الواجبات وتعين بدله دراندهلى محمد باشا

استيلاء الروس على القريم (١١٩٧ هـ) - اعلم انه بعد ان آلت روسيا اتار القريم الاستقلال الادارى عن الدولة العلية بمعاهدة قونية ارجحه وكان ذلك من شروط عقد الصلح كما سبق أخذت تبث بينهم هموم الفتن والايقاع ففرقوا بينهم ليسهل عليها احوال ما تقصده من امتلاكهم وضم بلادهم اليها ولما اشتعلت نيران الفتن تدخلت بجيوشها بحجة تسكين الاضطراب وهرب خان القريم دولنكرى فاجلس الاهالى مكانه شاهينكرى خان وذلك بمساعدة روسيا (١١٩١ هـ) وكان شاهينكرى خان هذا أقام مدة قبل ذلك بمدينة ترسبورغ تعلم فيها الآداب والعادات الروسية وقلدها في مأكله وملبسه فكان يتناول الخمر علنا ففرت منه الامة خصوصا بعد قبوله حماية روسيا وأنتمت عليه كثيره بالعطايا الواقعة والرتب العسكرية والنيشانات واستخدم لديه بعض ضباط الروسيا فحق الاهالى وتدمروا وأظهروا العصيان ثم قامت الامة عليه وخلعته وكان ذلك في الحقيقة في مصلحة الروسيا لانها كانت مع ذلك عاملة على اشغال نيران الفتن فكانت تحشد الجنود على حدود القريم تحت قيادة الجنرال بوتكين (Potemkin) بدعوى تعضيد شاهينكرى المذكور ثم أمرت الجنرال فدخل بلاد القريم بسبعين ألف جندي واستولى عليها وتم لها ما تقصده وكان

هذا أعظم سبب للحروب التي ذكرها

مخاربه الدول للروسيا والتمها (١٢٠١) - لما استولت الروسيا على بلاد القريم عدت الدولة ذلك تعديا عليها المخالفة مع معاهدة فينارجه القاضية باستقلال القريم استقلالاً تاماً وهاجت عليها الامه وكبر عليها الامر فأخذت تخاير باقي الدول الاوروپاوية ليقاف الروسيا عند حد ها وفي تلك الاثناء عزل سبعة صدور وأخيرا وجهت الصدارة لقوجه يوسف باشا الشهر (١٢٠١ هـ) وكان من أصحاب الحمية والغيرة والاقدام وهو وان كان أمياً إلا أنه كان يستعين بأفكار أصحاب الآراء السديدة ويعمل اليها وكان من الذين يريدون مخاربه الروسيا التي لم تكن تفكر بالاستيلاء على بلاد القريم بل انها أرسلت سنة ١١٩٧ هـ جيشاً وفتحت بعض جهات وتقاصت بولونيا (١٧٨٢ م) مع النمسا وبروسيا تم استمرت المخابرات السياسية بين الدول الاوروپاوية والدولة العثمانية لحل الخلاف بصورة سلمية ثم سعت فرنسا وكانت مشغولة وقتئذ بالحرب مع انكلترا بخصوص استقلال امريكا بواسطة سفيرها بالاستانة لمنع الدولة من التورط في الحرب لانها لا تعود عليها الا بالخسائر لان كثيره كانت تستعد للحرب من زمن سيموا وانما أبرمت مع النمسا معاهدة سرية عند مقابلتها مع الامبراطور يوسف الثاني في مدينة كرسون (Kherson) (١٧٨٤) وكان من مقتضاها الاتفاق على مخاربه الدولة العلية وان تساعد النمسا الروسيا على انشاء مملكة في حدودها تكون حاجزاً بينها وبين الدولة العثمانية وتكون هذه المملكة من أقاليم الافسلاق والبغدان وبسارابيا وتعين لها حكاماً اورثودوكسيا ثم تقسم بلاد الدولة بينهما في أوروبا وقد تأكدت أخبار الاتفاقية المذكورة في المحافل السياسية واستفعل أمر تعدي الروسيا خصوصاً عند ما أخذت تحصن ميناسواستبول وتبني دارصناعة عظيمة في نغر كرسون وتشكل عمارة بجزيرة بماشيدته من السفن الحربية الجديدة الطرز في البحر الاسود ورأى الصدر الاعظم ان هذه الاجراءات هي تهديد واضح للسلطنة العثمانية وأخذ السفير الانكليزي يحرض الدولة على اعلان الحرب على الروسيا ويؤكدها كدلها استعداد دولته لمساعدتها بجميع سفنها وانها تسعى لدى بولونيا والسويد حتى تجعلهما يعلنان الحرب على الروسيا فأرسلت الدولة بلاغاً إلى سفير الروسيا بالاستانة المسمى بولجاكوف تطلب منه مخاربه دولته في تسليم (موروكردانو) أمير الافلاق الذي التجأ اليها بعد ان شق عصا الطاعة وان تنازل عن حماية بلاد الكرج لانها معدودة من أملاك الدولة وان تعزل بعض القناصل الذين يهيجون الاهالي وان يكون للدولة قناصل في نغور البحر الاسود وان يكون لها فيما بعد الحق في تفتيش السفن التجارية الروسية التي تمر من البوسفور والدردينيل ولما رفض السفير هذه الطلبات بأمر دولته قبضت الدولة عليه حسب المعتاد وسجنته في يدى قنصله (١٢٠١ هـ - ١٧٨٧ م) وأعلنت الحرب على الروسيا وكانت فرانساتيل لسياسة الروسيا سرا مادولة الاسويج وأهالي بولونيا بروسيا فانهم تعاهدوا مع الدولة لمساعدتها فكان غوستاف الثالث ملك السويد يدايتها فرصة وقوع الحرب بين العثمانيين والروسيا ليعيد لبلادها ما أخذته الروسيا منها

ولما كان مقام الجنرال بوتكين غير متين في القريم أشار على الامبراطورة كثيره بتترك هذه البلاد

خوفاً من سوء العاقبة لقلية المعدات الحربية والجنود لديه فلم تقبل الامبراطورة ما عرض به الجنرال بل أمرته بالتقدم نحو مدينتي بندر وأوزي لاختدهما فسار وحاصر أوزي ولما كانت النمسا حليفة للروسيا كما سبق أعلنت الحرب على الدولة أيضاً ولما حضر الغازي حسين باشا الجزائرى القبودان العام من مأموريته الى استانبول خطأ الصدر لاعلانه الحرب في هذا الوقت وقبح رأيه لان الدولة كانت في حالة لا يمكنها معها مباشرة محاربة عظيمة كهذه سيما وانها قد اشترت اتفاق الدولتين معا وهما روسيا والنمسا على منازلتها من الصدر فاد الخيش بنفسه وتقدم للملاقاة جيوش روسيا والنمسا (١٢٠٢ هـ - ١٧٨٧ م) وفي خلال ذلك أنت الامبراطورة كثرية بذاتها الى القريم مع جيشها وأتى الامبراطور يوسف الثاني بجيشه الى حدود الدولة من جهة بلغراد ثم دارت رحى الحرب واستلم القبودان حسين باشا الجزائرى قيادة الدونما العثمانية ولما لم يكن لديه الوقت الكافي لمداركة النقص الموجود بالسفن جمع اليه كافترا بين المراكب حتى غص بهم المكان وقام فيهم خطيبا (١) مشجعا منضاهم مهم واعداد متوعدا ثم فرقهم على السفن

محاربة أوزي البحرية - لما صدر الامر للاساطيل العثمانية سافرت قاصدة أوزي فوصلتها في السنة المذكورة واستقبلت امامها ثم وجه القبودان باشا امرا كبه الصغيرة الحربية القادرة على اجراء حركتها البحرية بين الشعاب الصخرية وفي المياه القليلة العمق لمحاربة دونما روسيا المشكلة من صالات ومراكب صغيرة وكانت واقفة أمام رأس قيل ولما وقعت الحرب بينهما غرق للروسين صال فيه مائة جندي وغرقت شالوينة صغيرة للعثمانيين وكان بها سبعة عشر جنديا ثم بعد مضي أيام حلت العمارتان المذكورتان على بعضهما فارتدت العمارة الروسية بعد أن تكبدت خسائر جسيمة بخلاف العمارة العثمانية فإنه لم يصحاضر ريد كرت ثم حصل هجوم ثالث وكانت سفن الروسية اقتربت من الساحل بعد أن وضعت بين الشعاب الصخرية علامات لسهولة مرور سفنها الباقية وحلت المراكب العثمانية عليها وبينما كان العثمانيون يهيمون بطرد عساكر الروس من رأس قيل المذكور هجم عليهم الجنرال سواروف (Souvarof) بجيشه وبعد

(١) هذه صورة خطبة هذا القائد الشهير مترجمة من تاريخ البحرية العثمانية لسليمان نطق افندي أيها الرفاق تعلمون ما أجرته مع تصوري من الاصلاحات والخدم في المدة الطويلة للدين والدولة وبعناية الله تعالى وحسن توفيقه قد نجت في معظمها وفي هذا اليوم قد أحبل على عهد في اعلامنا وشهرة الدولة العلية لبقاء سلامتها فقيامنا بحق النعمة التي نحن متمتعون بها في ظل هذه الدولة يلزمنا جميعاً أن نضع نصب أعيننا فداءها بأربابها واحنا فيما عهد به لنا ولاجل أن نفى لها بهذه الخدمة المقدسة تحتاط للظوارئ التي تصادفنا رغبة في الوصول الى المرام بأحسن طريقه وقد اعتقت جميع جوارى وكافأت كل واحد منهن حسب خدمتها الى قيامها واجب ما يلزم في هذه الدار وفي أستودع الله أولادي وأحباني لا تمكن من القيام بهذه الوظيفة المهمة بالاخلاص والصدق فان عدت سالما كان ذلك من مواهبه سبحانه وتعالى على انكم أنتم أمراء البحرية الذين ترسك عليهم الدولة فيلزمكم أن تضعوا أهمية هذه الخدمة التي عهدت اليكم نصب أعينكم وتقطعوا عنكم العلاقات الدنيوية حتى بذلك تؤدون الخدمة التي يلحق لها وان كان لديكم من الاعذار ما يمنعكم من أداء هذا الواجب يلزمكم ايرادها لسماعها اليوم منكم وان الاعمال التي يقع منكم امام العدو من حركات مخالفة للنظام بوجوب المسؤولية على فاعليه امام جميع الامة ولا يخفكم ما يترتب على فاعليه من الجزاآت الشديدة فمن عزم منكم على الخدمة في الواقع المتظرة بالصداقة والحسرة التامة فليقسم حتى يطعم من رفاقه الباقون ولما أتى عليهم هذا الخطبة أقسم كل منهم على حدة بان يخدم بكل جسارة وصداقة كما طلب ٥١

مقاومة شديدة ارتدت العساكر العثمانية بخسائر عظيمة ونزلت الى السفن و ساطت القلعة التي أنشأها الروسيون برأس قيل نيرانها على العثمانيين الذين عند عودتهم وجدوا أن الروسيين نزعوا تلك العلامات من فوق الصخور وبهذه المكيده لم يمكن للسفن العثمانية الاهتداء للطريق فشصطت فوق تلك الشعاب الصخرية وانهالت عليها تيران القلعة فدمرت غالبها ثم أتى البرنس ناسوجين (Nassau-Siegen) من نيقولايف ببعض سفن صغيرة من نوع البومبات والغامبوت والصنادل وهاجم بها المراكب العثمانية الصغيرة المذكورة و وقعت محاربة قوية قتل فيها كثير من العثمانيين وغرق فيها بعض مراكب الروسيين وقد تمكنت بعض شالوبات العمارة العثمانية من انقاذ كثير من بحارة الصنادل المرتطمة وضاع للعثمانيين بالمكان المذکور جميع مراكب الاسطول الخفيفة ولما شاهد القبودان باشا ذلك أمر بابقاء الخمسة مراكب الصغيرة التي نجت وقام بالدونما الى جزيرة بيره زن ليعث من هنالمن يوصل الاخبار الى استانبول

مخاربة بيلا ناطه البحرية - انه بعد الواقعة المذكورة حضرت في العاشر من شهر ذي القعدة من السنة المذكورة مراكب من مراكب القرمه قول العثماني وأخبرت القبودان باشا ان دونما الروسية قامت من ميناسواستوبول قاصدة جزيرة بيلا ناطه فاقطع في الحال لمقابله هذه الدونما التي لم يسبق لها الظهور في البحر الاسود مطلقا وسبب ذلك ان البرنس ناسوجين لما تولى قيادة أساطيل الروسية بعد واقعة أوزي السابقة أحب منازلة العثمانيين ولما رأى القبودان الغازي حسين باشا محي والدونما الروسية أخذ يصف أساطيله وأرسل البطرونه باشا وسفن الصناجق وخمسة غلايين لمقابله العدو بجوار بيلا ناطه (Serpent) المذكورة ورتب سفنه ترتيبا حيا ووضع ثمانية غلايين تحت قيادة كل رئيس من رؤساء سفن الصناجق وأمرهم أن لا يفارق بعضهم بعضا ثم تقدم الطرفان ولم تفرهمة القبودان العثماني عن الضرب والتزال بل تقدم بشجاعته وبسالته المعلوماتين وأطلق مدافعه على سفائن العدو فأتلقت منها كثيرا ولاحت له علامات التفرغ ثم تقدم البطرونه بسفينته واستولى على غليون روسي وغرق كثير من فرقاطات العدو من مدافع العثمانيين وظهر على الروس العجز والخذلان كل ذلك قبيل وصول ما تأخر من سفن العثمانيين ولما رأى الاميرال الروسي قوة العثمانيين ومهارتهم فرمى باقى معه من السفن فتعقبه العثمانيون حتى سواستوبول والتجأ الى مينائها محتميا بقلاعها وبعدها حاصرت العمارة العثمانية سواحل تلك الجهات عدة أيام عابها القبودان باشا الى ميناسنه (Sulina) عند مدخل نهر الطونة وعند وصوله شكل مجلسا حربيا للحماكة الذين أظهروا الجبن والخيانة في هذه المخاربة فحكم عليهم مجزا أن قوته عقوبة لهم وعبرة لآقرا نهم وطلب من الدولة مكافأة من أحسنوا الخدمة وسمى الغليون الذي أخذ من الروس في هذه الواقعة باسم خندا ويردى (أى عطية الله) ثم حاكم عمر قبودان الكردي وحكم عليه بالصلب على طرف سران مراكبه (السران طرف عود الشراع القائم على السارية) والخلاصة ان القبودان باشا وان كان فقد سفن الدونما الخفيفة في واقعة أوزي كما سبق الا انه انتصر على دونما الروسية الجسمية وعطل قواها بحيث اضطرها لان لا تنصدي بعد لمقابله العثمانيين وبعده محاربة جزيرة بيلا ناطه هذه اهتم الغازي حسين باشا باصلاح ما أصابه التلف من سفن العمارة

وطلب ارسال عساكر بدل الذين ماتوا أو جرحوا وبعض مرابطات حربية خفيفة اما الجنرال سواروف فكان شديداً خلال ذلك لاجل استحكامات جهة قيل برون وهاجت الدونما الروسية الخفيفة التي حضرت من نيقولايف تحت قيادة البرنس ناسوجين قلعة أوزي وكانت تحت يد العثمانيين وكتب حسين باشا المذكور لاستانبول بأن ليس في امكانه امداد القلعة المذكورة قبل ان تصل السفن الخفيفة ولما قرب فصل الشتاء وكان معظم سفن الدونما محتاجا للاصلاح عاد الى استانبول بعد ان تمكن من امداد القلعة المذكورة بخمسة آلاف جندي بمهمة اتمام الحربية وذخائرهم السفيرية وبينما كان القبودان باشا مشتغلا بمحاربات الروسية تقدم الصدر الاعظم بالجيوش الى ادرنة وأجبل أمر الدفاع عن جهات الطونة على سرعسكر مدينة اسماعيل الصدر السابق شاهين علي باشا ولما تعذر تقدم جيش الصدر الاعظم الى ودين أرسل بعض الفرق لامداد قومندانات أوزي وخوتين وبندر وكانت النمسا قد شيدت استحكامات في مضيق مهادية لمحاصرة بلغراد ثم عبر الصدر قوجه يوسف باشا بجيوشه الطونة من جهتي ودين وبلغراد واستولى على بوزان مهادية بعد ان قهر جيوش الامبراطور وكاد يأخذه أسيرا وأخضع جميع جهات بانجوه واستولى على نحو عثمانين مدفعا وعلى كثير من الالات والادوات الحربية (١٢٠٢ هـ) ولما رأى الامبراطور هزيمة جنوده عاد وترك على جيشه الجنرال لورين وبينما كانت الجيوش العثمانية منصوره على النمسا كانت الروسية منسورة على الممارة العثمانية كما تقدم ثم تقدمت بجيوشها واستولت على بلاد بوجدان وعلى كثير من القلاع والحصون كل ذلك ولم تبدد دولة من دول أوروبا التي وعدت الدولة بالمساعدة اعتراضاً ومساعدة وتكدر عموم الاهالي من المسلمين وتأثر السلطان جدا حتى انه لم يكتب بعد ذلك طويلا حيث توفي يوم ١٢ رجب سنة ١٢٠٣ هـ (١٧٨٩ م) وجلس بعده ابن أخيه السلطان سليم خان الثالث وكان رحمه الله منصفاً بالتقوى والورع شفوفاً على الرعية ميالا الى اصلاح أمور الدولة حتى انه كثيرا ما كان يحرض الوزراء على ذلك ويساعدهم بما يصل اليه الامكان اذ ذلك

﴿ الفصل الثاني عشر ﴾

من جلوس السلطان سليم الثالث الى صدور خط الكفانية

١٢٠٣ - ١٢٥٦ هـ

(٢٨) السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى خان الثالث

١٢٥٢ - ١٢٠٣

جلس هذا السلطان على تخت وعمره عشر وثمانون سنة وفي أول جلوسه وجه همهته الى اصلاح حال العساكر وتقوية الممارة البحرية وأمر بجمع الجيوش من كافة الولايات فاجتمع لديه في وقت

قريب نحو ١٥٠٠٠٠ مقاتل في مدينة صوفية وكانت الاحوال السياسية مضطربة والحروب قائمة بين الدولة الروسية كما تقدم ذكره ومع اهتمام السلطان بذلك كان اليأس استولى على الجنود وترك كثير منهم النقط التي عهد اليهم حراستها

حركة الاساطيل في الوقت المذكور - انه بعد ان اتم القبودان حسين باشا اصلاح سفن الاساطيل وانجز لوازمها بحيث أصبحت الدونما كاملة الأوت والالات عزل عن رياسة البحرية وعين بدله حسين باشا الكريدي وتعين هو سرعسكر اعلى أوردي سلسرته وقد نسب بعض المؤرخين عزله عن رياسة العمارة للخسارة التي لحقت بالدونما الحقيقية وتأخره عن امداد قلعة أوزي وعودته بالدونما قبل الميعاد المعين مع علمه بما كانت عليه الاحوال في البحر الاسود وزاد مؤرخو عصره مثل واصف وغيره ان عزله كان لاسباب أخرى نسبوها اليه ولكنها غير حقيقية وانما كان عزله عن الدونما للتغيرات التي تحدث عادة عند جلوس كل سلطان جديد وكان أعظم وزراء ذلك العهد قام بعدة خدم مهمة أبقته بين أعمال الوزراء كراجيد او قال المرحوم الشهير جودت باشا في تاريخه عن الدولة العثمانية ان حسين باشا المذكور بعد تعيينه سرعسكر السلسرته خدم هناك خدما يبضت بها صحف تاريخه وكانت درة في اكليل أيامه الماضية وأزمانه السابقة ثم ارتقى الى وظيفة الصدارة العظمى ثم اغتالته المنية فجأة (١٢٠٤ هـ) ولو كان للباشا المذكور غير الاعمال الحسنة لما توظف في هذه الوظيفة السامية بل لما كان تعيين بوظيفة أخرى بعد عزله عن الاساطيل على الغالب

وبينما كانت الدونما العثمانية مشغولة بالحروب المتواصلة بالبحر الاسود كانت مراكب قرصان الروسيات تخرب في بحر الارخبيل حول جزيرة موردة تخرض الاشقياء على الثورة ضد الدولة العثمانية وتدعمهم بالنقود التي تبرع بها كثير من أهالي الروم والروس فاشتروا بها الاسلحة والالات الحربية ولم يفقههم ذلك بل تعدوا بالمضرة على الاهالي انخاض عين للدولة العثمانية وتعرضوا للسفن التجارية قصاروا يقبضون عليها وعلى من فيها ولهذا خربت سنة ١٢٠٢ هـ دونما عثمانية الى البحر الابيض مركبة من ١٨ سفينة عساكر كبرية تحت قيادة كوسه مصطفي باشا ومعه السيد علي قبودان الشهير بالشجاعة والنبالة قومندانا للفرق البحرية التي حضرت من جزائر الغرب وتونس ولما وصلت هذه الدونما الى جزيرة مر تداستولت عليها وكان الاشقياء اتخذوها مركزا لاعمالهم ثم تقابلت الدونما بعد أيام بأساطيل الاعداء وبعد محاربة شديدة استمرت نحو سبع ساعات أظهرت فيها أساطيل أهل الجزائر شجاعتهم المشهورة وجاؤا على سفن الاعداء فاستولوا عليها بعد قتال عنيف وكان الجزائريون سلطوا مدام فاعهم على سفينة قبودان الاشقياء المدعو لامبرو فاغرقوها بعد زمن قليل الا ان القبودان نجح من الغرق بتزوله في مركب صغير وفراره من حومة القتال واتبعته السفن الباقية له ثم ان أساطيل العثمانيين اقتربت من قلعة الجزيرة المذكورة وبعدها دمرتها أخذت ما بها من المدافع والذخائر واستولت أيضا على سفينتين كانتا داخل الميناء جازائر وآلات باعوها وفرقوا غنائمها على الضباط والجنود الذين بالدونما

محاربة نخل برون البحرية - انه في أواسط رجب من سنة ١٢٠٣ هـ (١٧٨٩ م) خرج

القبودان حسين باشا المذكور بالدوننما وكانت مشكلة من خمسين سفينة بين كبيرة وصغيرة الى البحر الاسود ولما وصلت الى نغرسنه (Sulina) تركت به مامعها من السفن الصغيرة ثم أفلتت تقصد كيرج (Kerch) الكائنة بقرب نخل برون وهناك تقابلت مع الدوننما الروسية وكانت مركبة من خمس غلايين و ١٦ فرقاطة ولما اشتبك القتال بين الطرفين تمكن طويحية العثمانيين من تعطيل أربع فرقاطات روسية ومع ذلك فلا زالت الحرب قائمة باطلاق المدافع مدة سبع ساعات متوالية ولم يمنعها الا دخول الليل وكانت الخسائر من الطرفين عظيمة وفقر الروس ليلال الى ميناء كفه (Kaffa) فعدت الاساطيل العثمانية الى نغرسنه ثانية التي خرجت منه وبعد ان أصحلت من شأنها خرجت في أوخر ذى القعدة من السنة المذكورة لاقفاء أثر العدو وبمياهه وجهه بك أو أوديسا وهناك أخبرتها سفينة عثمانية من سفن القره قول أنها رأت الدوننما الروسية المشككة من سبع وثلاثين سفينة حربية قامت من جهة رأس قيل وهي تقصد هذه الجهة فأخذت الدوننما العثمانية حذرها وكانت الرياح اذ ذلك شديدة تهب من الجنوب الشرقي فكانت تسوق مراكب العدو وتساعد ما بقدر ما كانت معاكسة لسفن العثمانيين المواجهة لها فامر لذلك القبودان العثماني سفنه بنشر الشراعات والابتعاد عن الشاطئ وقبل الزوال بيرهه صغيرة تقابل الدوننمان وابتدأت بينهما الحرب باطلاق المدافع وقد أحدثت سفينة القبودان العثماني ببعض سفن الروس خسائر وافرقة وفقدال روس فرقاطتين ولما أقبل الظلام اقترب الدوننمان عن بعضها وقامت في الليل زوبعة شديدة اضطرت سفن الروس بالترك ميدان القتال واستقبلت في مكان قريب أما الدوننما العثمانية فانها تفرقت عن بعضها وبقى القبودان الثاني بسفينة في معترك القتال بمفرده وعند الصباح هجمت عليه سفن الروس واحتاطت به من كل جهة ومع ذلك نخوفامن أن يرمى بالجبين استمر يقاتل بمفرده بكل جهده وشرف حتى آخر رمق من الحياة ثم مضى شهيد الصداقة والاخلاص ومات غالب من كان معه من الجنود وعند ذلك أضرم أحد رجال تلك السفينة النار في مخزن بارودها فاحترقت وطارت قطعاً وأغرقت السفينة الروسية التي بجانبها وكانت الدوننما العثمانية ظهرت في تلك الاثناء وأرادت نجدة سفينة القبودان الا أنه لم يمكنها ذلك لبعدها المسافة ومخالفة الريح لها ولما رأت ما وقع لهذه السفينة كبر عليها ذلك وتوجه بها القبودان الى جهة كايغراد واستقبل قريمان الساحل وأرسل خبر وقائع هذه المحاربة للاستانة والتمس التصريح بعودة الدوننما العثمانية بعد ذلك الى البحر الاسود سنة ١٢٠٥ (١٧٩٠) قابلت

العمارة الروسية بجهة انابا وكانت مؤلفة من ٤٢ سفينة وكانت تقصد سواستبول فاستعدت الدوننما العثمانية لمتازلتها الآن الاميرال دخل ميناء سواستبول ثم قصدت العمارة العثمانية كايغراد واستقبلت امامها وظهر بعد ذلك ان الروسيين كانوا ينتظرون حضور الغلايين التي جددوها لتقوى دوننماتهم ولما التحقت بهم خرجوا من الميناء وقصدوا محاربة الدوننما العثمانية ولما شاهد القبودان باشا قادمهم عليه خرج بسفنه للاقاتهم وكان ذلك أول يوم من عيدا الاضحى من السنة المذكورة وحمل البطرورنه السيد علي بفرقتة على مراكب الروس ودخل وسطها مع ان القبودان باشا كان حذرهم من الهجوم بهذه الكيفية لعدم مطابقتها الاصول فن الحرب البحري في

ذلك الوقت ولذا كان هجومه هذا سببا لوقوع سفن فرقته وسط نيران سفن العدو ومع ذلك فإنه ألحق بالاعداء خسائر هائلة ثم تقدمت بقية السفن العثمانية المتأخرة وحملت على مراكب الروسيين الجانبيين فانقذت سفن السيد علي من الاخطار المحدقة به ولم تسترل جميع السفن العثمانية في هذه الواقعة لعدم مساعدة الريح لقسم عظيم منها عن التقدم في ذلك اليوم ولهذا كان عددهم سفن العثمانيين التي حضرت الواقعة لا يتجاوز ١٥ سفينة ولهذا ألحق بالعثمانيين خسائر عظيمة ولما دخل الليل انفصل الدونتان عن بعضهما وموجب كل من الطرفين مراكبهم المعطلة وبأوليلتهم يهجمون في اصلاحها وفي صباح اليوم التالي لما شرعت الدونتان العثمانية في أخذ الاهبة للقتال امتنع البطر ونه عن ان يسترل معها وأخذ سفنه التي لحقها التلف وقصد استانبول وأراد القبودان منعه فلم يلحقه أما القبودان فإنه أخذ في اصلاح سفنه وكانت خسائر الدونتان الروسية كثيرة أيضا ولما شهد الروسيون تفرق الدونتان العثمانية وأنه لم يبق امامهم سوى القبودان باشا فر بوا من رأس أمينه لاصلاح ما تصدع من سفنهم وأحرقوا الغلايين التي أصبحت غير صالحة للقتال وكان في نية القبودان مهاجمة عمارة روسيا الآن الرياح لم تساعد على انفاذ مقاصده واضطرته للعودة الى استانبول ولما بلغ الاهالي حضور الدونتان هذه الكيفية تأثر واوتكدر وامن ذلك جدا وأمر السلطان بعدم دخول الدونتان الى استانبول بل رسم بوقوفها في فم البوغاز وقد علم من التقرير الذي قدمه القبودان ان الذين ماتوا في هذه المحاربات كانوا ألف نفر وجرح ثلثمائة ولما مثل القبودان باشا امام السلطان لآمه كثيرا وبخه وأظهر الكدر منه ومن أعماله

الوقائع البرية ومعاهدة ماش - لما جمعت الدولة الجيوش وجهرتها بما يلزم عهدت بقيادتها للصدر الاعظم يوسف باشا فتقدم وتقابل مع جيوش روسيا وكانت متسلطة على اقليم بغداد وانتشبت بينهما حرب شديدة انتهت بانهزام الصدر الاعظم واستولى الروسيون على أكثر مامعه من المدافع والآلات وأخضعوا عدة جهات فعزله السلطان ووجهه منصب الصدارة الى كفتداحسن باشا وبعدها استعد هذا الصدر خراج (١٣٠٤ هـ) بجيش عظيم وحارب الجيش الروسي الذي كان تحت قيادة الجنرال بوعكين فكسره بجوار قلعة اسماعيل فكان هذا الانتصار تعويضا للخسارة التي لحقت بالعثمانيين في الواقعة الاولى الآن فرقة روسية هاجت أفكرمان (Akkermann) واستولت عليها واستولت جيوش النمسا أيضا على بلغراد فقصدت الدولة بذلك جملة قلاع أخرى وعزل الصدر الاعظم ووجهت الصدارة الى حسين باشا الجزائرى (١)

(١) حسين باشا هذا أصله من القبائل التركية المازلة بمجودايران وكان أحضر للاستانة أسيرا ضمن أسرى الحرب وترى في منزل أحد الاعيان بسكفورطاغ ولما بلغ أشده تطوع مع طائفة إحدى مراكب التجار ليذهب للاستغار وافتمام الاخطار ولما وصل الى بلاد الجزائر بلغرب أظهر من الشجاعة والاقدام ما جعله والى الجزائر ببقية في خدمته فتحصل في زمن وجيز على وظيفة رئيس لميناء الجزائر وكانت من الوظائف الخطيرة في ذلك العهد وموقع بينه وبين شجعان الجزائر بين بعض خرازات ومناقسات تسبب منها قراره الى ايطاليا خوفا على نفسه ثم ذهب منها للاستانة وتوصل بمجد ونشاطه حتى صار من أمراء البحر يتلدى الدولة وحظي بحسن التقاء الوزراء والسلطان وعنايتهم به في زمن قليل سماعه ما أظهر من البسالة العجيبة والاقدام الغريب في واقعة جشمه المتقدمة التي أصيب فيها وانما أظهر من المهارة في استرداد قلعة ليني من يد الروس لجدير بتخليد كروا علاه شأنه وهي القلعة التي تلبسها الوزراء ثم

الملاح الشهير الذي لما ذهب الى مواقع القتال عاقب قواد مدن بسدر واكرمان وغيرهما لعدم مدافعتهم كما يجب عن هاتين المدينتين ولما مات هذا الصدر الشهير بل البطل الكبير بجفاء خلفه في الصدارة حسن باشا الر وسجقي وفي هذه السنة عقد الصلح بين الروسيا والسويد لان غوستاف الثالث ملك السويد كان أعلن الحرب على الروسيا لما اشتبكت في القتال مع العثمانيين وبينما كانت الدولة مهتمة بتجهيز الجنود ومداركة المعدات الحربية لمقابلة خصمها القويين مع ما كانت عليه من ضيق المالية وقتها تهاجر القوة الحربية حدثت حادثة مهمة وهو موت الامبراطور يوسف الثاني ملك النمسا بجاءة وخلفه أخوه ليوبولدوق وسكانه وبمجرد ان قبض على صولجان الملك حول وجهه عن سياسة سلانه وعقد مع الدولة صلحا عاجلا (١٧٩٠ م) بمدينة زشتوة وكان ذلك سيلا لاند هاش الباب العالي ورد للعثمانيين البلاد التي فتحها جنوده ماعدا أورسوه والبلاد التي يحدها نهر اونا (Unna) وأبقى في يده أيضا مدينة خوتين لحين عقد الصلح بين الدولة والروسيا كل ذلك ليتفرغ لاعمال فرانسوا التي كانت تعد اذ ذلك المشنقة للملكها الوزير السادس عشر ثم سعت أوررو بالعقد الصلح بين الدولة والروسيا الآن كثرينة أظهرت عدم الرضا فاستمرت جيوشها تحارب العثمانيين ثم تقدم الجنرال سواروف وحاصر قلعة اسماعيل الحصينة وكان بها نحو ثلاثين ألف مقاتل وبعد ان شدد الروس عليها الحصار وقطعوا عنها المواصلات والاتقوات والذخائر هاجوها واستولوا عليها بعد مقاتلة عنيفة وقتلوا غالب حاميتها وسكانها بكيفية قذيمة وحشية بلا فرق بين الرجل والمرأة والطفل والشيوخ ودام القتل بالمدينة ثلاثة أيام بلياليها ولم يبلغ خبر سقوطها دار الخلافة حاجت الافكار

صار تبولدان باشا ومحافظة البوغاز حسبما ذكرنا من الرأس على البحرية بدل غاية ما يمكن من المهمة في تقوية بحرية الدولة وانما كثيرا من السفن وأصلح أحوال طوائفها ورب قوانين الجزاآت لعدم مناسبتها أحوال ذلك الوقت وما زال المعرزا مكرما على الجانب مسموع الكلمة حتى وفاته وان ذكاه الطبيعي وقوة اندراكه قد صير قادرا على فهم اجراء المنافع الكثيرة العامة حالة كونه لم يتصلع من غوامض الفنون البحرية ولا توغل في دقائقها من ضمن هذه المنافع أن وجد محلات للتعليم فصيروهم أهل السواحل يميلون لاقتراطهم في سلك المراكب البحرية العثمانية ومنها أن جعل صناعة المراكب الحربية مطابقة لترقي والتقدم الذي حدثت في بحريات الدول عموما ومنها ان اهتمت بحرية الضباط وتقدمهم في الفنون والعلوم البحرية ومنها ان نظم ملبوسات العساكر البحرية ووضع جميع ما يختص بهم تحت روابط ونظامات في غاية الضبط ومنها ان استخدم بدرا الصناعة أحد الصناعات البحرية بين من الانكيز وبعاد به صارت المراكب أسرع سير وحر كة وحسن منظرها داخلها وخارجها وصارت أرمها (آلة شرائها) خفيفة سهلة الاستعمال ومنها ان كثر عدد الغالين في زمنه حتى وصل الى أربعين غليوناً حرياً ومنها انه قدم تقريرا للسلطان يطلب به انشاء مائة غليوناً للمحافظة على سواحل الدولة فاجيب طلبه ومنها انه استخدم كثيرا من الملاحين المتدربين على الاسفار والتجارة البحرية ممن سبق لهم خدمات في اوجافات الجزائر وولايات الغرب من أترال وأزمين وأروام وخلافهم وجعلهم معلمين يعلمون الجنود الحديثة ومنها انه بنى مكنة بحرية تجهة قائم باشا لاقامتهم وغير ذلك من الاعمال النافعة ومع مباشرة هذه الاعمال كلها كان يخرج بالدولة نفقات في فصل الصيف للتعليم والمأموريات البحرية ثم يعود للاستانة في فصل الشتاء كالعتاد ومن تمام أعماله الخليلية واجرا أنه الجليلية انه تمكن (١١٨٩ هـ) من تسكين العصيان الذي أشعلت نار الر ووسيا في جهات موزة والشام وقع أيضا أحد أمراء الغز على بك الملقب بلوط قا بان الذي نار على الدولة وكذا من التمتع عليه من أمراء مصر بين الذين استمر واعلى ظلم الالهالي وترادفت في حقهم الشكاوى ولما وصل الى شواطئ مصر ودخل بسفنه الصغيرة من قم رشيد قهر الامراء المذكورين بجوار بلدنا الرحمانية وبده شملهم واستمر في القطر المصري عهداً مورياً وبشتت نوره الى ان طلب الى دار الخلافة عند ظهور الحرب بين الدولة والروسيا

وطلب الناس قتل الصدر الاعظم القائد العام للجيوش في الروم الى لاهماله أمر المدينة المذكورة فقطع رأسه في شمنى ونقل الى الاستانة وأعيد يوسف باشا للصدارة والسر عسكرية وأخذت الدولة تجمع جنودا جديدة وبعده سقوط اسماعيل عبرالروس نهر الطونة وأخذوا باقتناون العثمانيين بالروم الى ثم توسطت انكلترة وبروسيا والنمسا والزموا الروس بيا بعد الصلح مع الدولة فعقدت المعاهدة (١٢٠٦ - ١٧٩١) بمدينة ياش (Yassy) بشروط منها ان ترد الروس الى الدولة العثمانية كل الاماكن التي فقعتها ما خلا أوزى وأوكزاكوف والاراضي الواقعة بين نهرى بوغ وديستر وتترك الدولة القريم وشبه جزيرة طمان وبلاد قوبان وبارابايا الى الروس وان يكون بوغاز سنه حدافاصلا في أوروبا بين الدولتين وصدق السلطان سليم الثالث على المعاهدة المذكورة في ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢٠٦ هـ (١٠ يناير ١٧٩٢ م)

العمارة العثمانية في البحر الابيض - انه في خلال الحروب السابقة ظهر شخص من الاشقياء يدعى صوتيرى وكان من عمال الروس الذين يبحر كون العصيان بين سكان شبه جزيرة مورة وكان الروم والروس جمعوا له مبالغ وافرة ممكنة من انشاء ١٢ سفينة بمدينة تريسته وجع بها بعض الاخلاط من روم جزائر الارخبيل وجعل على هذا الاسطول لاسيرو اللص البحرى الشهير فسار بهذه العمارة يحمل علم الروس بالذرا الفساد في جزائر الارخبيل ومورة وأخذ يسطو على جهاتها ويبت الفتنة بين أهاليها ولما تم أمر الصلح بين الدولة والروس أرسلت الدولة عمارتها تحت قومندانية كوجك حسين باشا الى بحر الارخبيل فتقابلت بسفن اللص المذكور بقرب جامليجه ولما حمل عليها القبودان لم تبدأ أقل مقاومة بل أسرع الى الشاطئ وخرج منها لاسيرو المذكور وأعانوه وجرأوا الى القرار بعد ان غرزوا مراكبهم في الصخور وقد تمكن القبودان باشا من القبض على بعضهم وقتل البعض ثم سارت الدولتان لتسكين الاضطرابات بالجزائر المذكورة ففلاقت بفرقة أخرى من سفن لاسيرو وهذا بقرب رأس مانيسه وأسرت جميع من بها وكانوا يحاولون النزول الى البر ولما كان العصيان القائم مقلقا للدول الاخرى ألحقت بواسطة سفرائها لدى الباب العالي باجراء الوسائل اللازمة لاعادة السكينة والراحة فاهتمت الدولة بذلك جدا حتى أرجعت الطمانينة الى تلك الجهات في أقرب وقت

التنظيمات الداعية - لما جلس السلطان سليم الثالث على تخت السلطنة أظهر ميلا شديدا ورغبة زائدة في اصلاح احوال الدولة وانهاضها من ورطتها بادخال عناصر الترقى والتمدن الحديث فأخذ في اخراج الدولة من عزلتها العقيمة وادخالها ضمن دائرة التجديدات المفيدة والتعسينات المهمة التي حصلت باور وباهو عمل من أشد الاعمال خطرا وأصعبها سيما في بلادهم تشرف ولو بعض اشراف على المدنية الاوروبابوية فلم يوفق لذلك الامر بعلمه الله وكانت نتيجة مساعاه أن خلج وقتل وكان أول أعماله ان أظهر الرجة والشفقة والكرم واجتهد في تعميم العدالة بالمحاكم وقد قابل كثير من الاهالى هذه الاعمال بالفرح والمسرّة خصوصا وان يعود سلطان شاب نشيط متصف بشرف الخصال ومحمود الفعال على سرير الخلافة جعل الامنة تبتهج وتمتشم خيرا في المستقبل ولما تم الصلح بين الدولة والنمسا عين للقبودانية العامة كوجك حسين باشا وكان من اعظم

أعظم الرجال الذين تولوا المناصب في الدولة وقد أتى عليه ومدحه كثير من رجال أوروبا وكان من أوائل أعماله طرد عمال الروس من جهات بحار اليونان والبحر الابيض المتوسط وتحصين الحدود وتسليح قلاعها وشحنها بالعساكر والمعدات الحربية واستخدام أيضا عدة مهندسين من السويد وفرنسا ووجه عنايته لتقوية العمارة وترتيب مدرسة البحرية والطوبجية ووظف بها ضباطا من الفرنسيين وأمر بطبع عدة مؤلفات معتبرة في الفنون الحربية والرياضية وأنشأ دار كتب بها، بعناية مؤلف من أحسن المؤلفات العسكرية الفرنسية وأمر أيضا بإدخال بعض دروس اللغة الفرنسية بالمدرستين المذكورتين وبأمره شيدت عدة مباني كثيرة وأساطيل حربية على الطرز الحديد وغيرت مقذوفاتها فجعلت على الطرز الروسية وسن للبحرية عدة قوانين ونظامات مضبوطة جعل بها لكل سفينة قبودانا خاصا وجعل للسفن الصغيرة ضباطا صغيرين ومنع عزل الضباط ما لم يصدر منهم ما يوجب عزلهم وعين شروط توظيف الضباط وترقيهم في الوظائف فجعله بحسب الأقدمية والاستعداد وزاد في مرتبات الضباط وقسم دار الصناعة الى مخازن للهمات وورش للصنائع بحيث يصير كل مأور مكلفا بعمل خاص لا يتعداه لغيره وسن قانونا خاصا للمرتبات والعلوفات فصار كل نفر من الجنود يأخذ تعيين ستة شهور على الأقل دفعة واحدة وجعل للعساكر الحق في ترك بعض هذه التعيينات لعائلاتهم بحيث لم تأت سنة ١٢٠٩ هـ الا وكان للدولة عمارة قوية منتظمة تشمل على أضخم السفن وامتها وأقوى المدافع وأحدثها وغير ذلك من الاصلاحات العديدة

ولم أرأت فرنسا اهتمام الدولة بإدخال الاختراعات العسكرية بين جيموشها حضر سفيرها المسيو أو بيرد وبيات (Aubert du Bayets) عند مجيئه الى استانبول عدة من مهندسي الفرنسيين وضباطهم ومعلمهم لكل الاسلحة و جلب أيضا عساكر وصناع المدافع وحتى بعض المدافع مركبة على عجلها وبهذا العناصر شكلت الدولة طائفة مركبة من عائلاتها من الطوبجية ونظمت فرقة أيضا من الخيالة مسلحوها وعلوها على الطرز الأوروبية وأوجدت أيضا أورطة من البيادة فكانت هذه الطوائف جرثومة للعسكر الجديد (١٢١١ هـ - ١٧٩٦ م) الذي جعل تحت قيادة انكليز مصطفى باشا وأصله ضابط انكليزي وكان الروسيون ينظرون لهذه التجديدات بعين الحسد والغيف فكانوا يسعون جهدهم في إيجاد الاسباب للاخلال بمعاهدتهاش المذكورة وبينما كان السلطان ووزيره يجتهدان في ترقية شأن النظامات اذ ثارا أحد ضباط الجنود المدعو بازوند أوغلي عثمان أعاوبعدان التف عليه كثير من أمثاله تمكن من طرد والى بودين وضبط حوالى تلك المدينة (١٢١٢ هـ) فجردت عليه الدولة جيشا تحت قيادة القبودان كوجك حسين باشا وبعد عدة وقائع كان الحرب فيها سجالات بين الطرفين انتصر القبودان باشا ثم عفا السلطان عن بازوند أوغلي المذكور وعينه محافظا لودين

وأخذ السلطان بعد ذلك يدخل الاصلاحات الجديدة في كافة فروع الادارة ولكن المصدر الاعظم حافظ اسمعيل باشا الذي خلف يوسف ضيا باشا كان يظهر انه ممن يميلون للتنظيمات الجديدة ويقدرونها فقد ردها الا انه كان يكرهها في الباطن فان كسبت بذلك الطائفة المخالفة لها قوة وحدث من ذلك واقعة أدرنه الآتية وسببها ان الدولة أرادت بث التنظيمات الملكية والعسكرية بجهات

الروم الى فارس لتلك والى قونية عبد الرحمن باشا المشهور بالقاضى وأمرته فى الظاهر بالتنكيل باشقيا الصرب وفى الباطن بالقيام باجراء الاصلاحات كما رسمته له (١٢٢١) ولما بلغ أعيان الروم الى ذلك توجهوا خيفة واتفقوا جميعا واجتمعوا فى أدنة لنعته بالقوة فلما أشيع خبر ذلك أشارت رجال الدولة بلزوم عودة الباشا المذكور وكانوا غير مصيبين فى رأيهم فاعادوا الى ولايته وعند ذلك تفرقت أعضاء تلك العصبة الى بلادهم وقد اشتهرت هذه الواقعة فى التاريخ العثمانى بواقعة أدنة الثانية

عظيمة ليون بونابارت على الديار المصرية (١٢١٣ هـ) - لما أرادت الجمهورية الفرنسية الاستيلاء على مصر لمعاكسة التجارة الانجليزية بجهات الهند أو عزت الى نابوليون بونابارت بالاستعداد لذلك وان يكون هذا الامر فى السر خوفا من اطلاع انجلترا عليه فقابل هذا الامر بالسرور والارتياح لانه هو الذى حرض مجلس الامة على ذلك وبين له فوائد هذا المشروع العظيم

ولما أخذ نابليون يجهز الاساطيل البحرية فى ترسانة طولون تطلعت الدول عموما وشخصت بانظارها اليه لمعرفة الجهة التى يقصدها بهذه العمارة العظيمة ولما علموا أن ترسانة طولون تستخدم اناس لهم المام بالعبية علموا ان مقصدهم من هذه الاستعدادات الاغارة على الاقطار المصرية سيما وان حركات الوكيل السياسى الفرنساوى بالاستانة كانت تؤيد ذلك فالتزمت الدولة العلية بمداورة الامر باتفاقها مع الدول المعادية لفرنسا المناظرة لها فى حب الاستعمار ولما خرجت الدولتونا الفرنسية من طولون (١٧٩٨ م) كان أول أعمالها فى طريقها مهاجمة جزيرة مالطة والاستيلاء عليها وفى تلك الاثناء كان القبولان العثمانى شرم بك الكرىدى الذى عينته الدولة بقرقة من العمارة مراقبة حركات دولتنا فى انسا أرسل مکتوبا أخبر فيه بان نابليون بونابارت لم يقصد بهذه الحركة مع جسامه عمارة وقوتها فتحجيرة مالطة فقط بل انه جعلها فى طريقه لمحط القواء ومن المحتمل انه بعد ذلك يهاجم الاقطار المصرية وقد كانت حالة الدولة فى ذلك الوقت من نيكة جدا للاضطرابات الداخلية واجتهاد اليونان والصرب فى نوال استقلالهم وعصيان حكام الاقاليم مما جعل أوروبا وانعتقدان فى ذلك نحو السلطنة العثمانية أما انكثرة فانها انتهزت فرصة حركة نابليون على الديار المصرية ومالت الى الدولة العلية بكيبتها ساعية فى قطع العلائق القديمة الموجودة بين الباب العالى وفرنسا ولم يتمكن القائم باعمال فرنسا اذالك بالاستانة وهو الموسى روفين (Ruffin) من إقناع الباب العالى بشئ يجعله يرفض نصاب انكثرة فقرر الوزير اعلان الحرب على فرنسا وقبض على روفين المذكور وسجن كلعادة بقلعة يدى قله وحرب العثمانيون مخازن التجارة الفرنسية التى يسيلاد اليونان وسورية والاتاضول وقبضوا على تجارهم الذين بازمير وبيروت وغيرهما ولما بلغ انكثرة قيام العمارة الفرنسية من طولون أرسلت ١٤ سفينة جسمية تحت قيادة الاميرال نلسون لمراقبة حركاتها ونظر ما يكون من أمرها وما يحدث عن شأنها وعند ما استولت الدولتونا الفرنسية على مالطة التى هى النقطة المهمة الوحيدة فى وسط البحر الابيض المتوسط والى تعتبرها الدول البحرية مركز التجارة اندشت انكثرة ذلك ولما بلغ الدولة العثمانية قيام الدولتونا الانجليزية أصدرت أوامرها لجمع ولاياتها مساعدتها عند ضرورها ومداورة ما يلزمها من

الماء كل والمشارب وخلافه من سائر الحوائج وفي ١٢ محرم سنة ١٢١٣ (١٧٩٨ م) من الاميرال نلسون بعمارة على ميناء الاسكندرية يبحث عن العمارة الفرنسية فلما لم يجدها أخبر حكام الاسكندرية بخروج مرآكب الفرنسيين تقصد الديار المصرية وأعلمهم انه مستعد لمساعدتهم فتوهموا أن ذلك خدعة من الانكليز فلم يعقبوا بقوله ثم بارحهم للبحث على الفرنسيين بالسواحل السورية

وفي اليوم السابع عشر من الشهر والسنة المذكورين وصلت الدونما الفرنسية الى الاسكندرية وذهب القيودان ادريس قومندان الفرقاطة العثمانية المسماة عقاب بحرى المعينة للتجول بالمياه المصرية الى الدونما الفرنسية المسد كورة ولما رآه نابليون قال له بنفسه اني لم أحضر لضراً أحدهنا وانما أتوجه لتخليص الاقليم الهندي من أيدي الانكليز أعدائنا وانى على فرض اننى عدو للدينا بما هما فانى محب للعثمانيين ولذلك انصحكم بان لاتصدوا المدافعة اذ انه لا يجوز ولا يتصور عقلا انكم تقاومون أربع مائة سفينة حربية فلما سمع منه القيودان هذا الخطاب لم يجاوبه بشئ أصلاً ولم يعلم نابليون بحضور الدونما الانكليزية قبله بثلاثة أيام بادراً بخارج عسكره الى البر ولم يتجاسر على دخول الميناء لظنه ان قلاع الاسكندرية ربما كانت قادرة على المدافعة وأخرج في الليل خمسة آلاف جندي وهجم بهم صباحاً على المدينة فاستولى عليها بالامقاومة تذكر

وكانت الدونما الفرنسية واقفة تحمل جيشاً من كمان ثلاثين ألف مقاتل ولما استولى على المدينة أدخل كافة المراكب الصغيرة الى الميناء وأخرج جميع عساكر الجيش الى البر أما المراكب الحربية الجسيمة التي لا تقف الا في المياه العميقة فانها ذهبت الى أبي قير واستقبلت هناك وكان في ذلك الوقت بميناء الاسكندرية مرآكب يوناني تجارى ولما رأى عمارة الفرنسيين بين أقطر خوفهم وقوع الحرب وبينما كانت هذه المركب قريبة من رودس عند عودتها قابلتها سفينة من سفن العمارة العثمانية التي خرجت للوقوف على حركات وحوادث العمارة الفرنسية ولما استعلمت منها أخبارها بما قدراته بميناء الاسكندرية وما حصل فيها من الفرنسيين بين فعاتدات السفينة العثمانية وأخبرت أميرالها بما قد سمعت فأرسل القيودان ذلك الى استانبول في الحال وكان قيودان باشا الدونما العثمانية اذ ذلك كوجك حسين باشا يقاتل باسيان أوغلي كبير أشقياء الروملى بودين كما تقدم ولما وصل خبر استيلاء الفرنسيين على نجر الاسكندرية الى الاستانة حصل بها هرج وواضطراب شديد واندهاش عظيم وتغيرت بسبب ذلك الافكار وكثرت الاقاويل وزادت الارجافات وفي أول شهر ربيع الأول من السنة المذكورة (١٧٩٨ م) عاد الاميرال نلسون الى نجر الاسكندرية وعلم ان الدونما الفرنسية راسية بمخيلج أبي قير البعيد عن الاسكندرية بنحو عشرين ميلاً بحرياً فأقطع بعمارته يقصدها وكانت الدونما الفرنسية مركبة من ١٤ غليوناً وأربع فرقاطات تحت قيادة القيس أميرال برويس (Brueys) وهو مستقبليها على خط واحد قبالة جزيرة أبي قير وجاءت المسافة بين السفينة والاخرى ١٦٠ ياردة على طول ميلين تقريباً فاقرب نلسون بعمارته وكانت مركبة من ١٢ غليوناً وفرقاطتين ورتبها ترتيباً يحاربها على كل سفينة وأخرى ١٦٠ ياردة أيضاً بحيث كانت كل سفينة من سفنه مقابلة لسفينة فرنسية

ولما أخذت كل سفينة موقعاها استقبل الاميرال نلسون بسفينة أمام سفينة الاميرال

الفرنساوى المسماة أوربانى وهى من الارجانبارلى وبسببها مؤرخو الشرق نصف الدنيا ولما رأى
الفرنسويون أن حركة سفن الانكليز تمت بكل جسارة استولى عليهم الفزع والاضطراب وما كادت
هذه الحركات تتم حتى قامت الحرب بين الدولتين وأخذت السفن ترسل قنابلها من أفواه مدافعها
على بعضها وكان بالدونتين أنى مدفع تطلق طلقاته متابعاً وتقذف قذفاً متواليًا فكانت أصواتها
تدوى بالاقبح بحيث يخال للسامع أن السماء انشقت والارض خسفت والجبال نسفت وقد استمرت
الحرب بهذه المثابة ساعتين من الزمان وفي نهايتهما أصيب الاميرال نلسون بجرح فى رأسه فعصها
بمخيط ولما زال منه الانغماء عاد الى موقعه الاول كما كان وقد قويت السفن الانكليزية على خصيمتها
ودمرت منها عدة ولم تأت الساعة الثامنة بعد الزوال الا والنار قد اشتعلت بسفن الفرنساويين
فصيرت ظلام الليل الحالك نهاراً وارتفع اللهب والدخان الى عنان السماء وكان الاميرال برويس
الفرنساوى أصيب بجرحين فى الساعة الاولى من القتال وبينما كان ينزل من سطح الكيماينة الى سطح
الكويرية أصابه مقذوف من مدافع الانكليز فسطره شطرين وكذلك أصيب القادورالفرنساوى
المسمى كازابيانكا (Casabianca) بجروح هائلة مات بسببها فى الحال وقد أنقذت مدافع الانكليز
كثيراً من سفن الفرنساويين وكسرت سوارىها وشرعاتها وألحقت بها الخسائر القادحة من كل نوع
ولما احترقت السفينة أوربان المذكورة ووصلت النار الى مخزن بارودها تفرقت وطارت
قطعاً فى الجو ولما شاهد نلسون ذلك أمر بحارته بتخليص بحارة الفرنسويين فلم يمكن التخلص
البعض منهم وكانت خسائر الفرنساويين فى هذه الواقعة لا تدخل تحت حصر واستولى الانكليز منهم
على تسعة غلايين وتمكن غليون وفرقاطتان وأربع سفن من نوع القرويت من الهرب أما باقى
سفن العمازة فانها احترقت بتمامها ولما وصل خبر احتراق الدولتين الفرنسوية ومحاصرة
الانكليز للاسكندرية الى معسكر الفرنساويين بمصر حصل به اضطراب زائد وخوف شديد

وكان الفرنسويون الحواعلى القبودان ادريس سوارى الفرقاطتين العثمانيتين الراسيتين بشعر
الاسكندرية أن يرفع فوق سفينته العلم الفرنسوى فلم يقبل ثم اضطروا أخيراً للخروج من ميناء
الاسكندرية فاقطع منها مع السفن التجارية العثمانية التى كانت بالميناء وعددها ثلاثين ولما أحاطت
السفن الحربية الانكليزية بالسواحل المصرية انقطعت الامدادات عن نابليون فكان يتفكر
دائماً فى مصير حاله ويقول فى نفسه اذا لم يتفوق جيشى بعساكر جديدة كانت نتيجة هذه الحياه
منثورا وكان دائم التفكير فى هذه المسالحت وفى الطريقة التى بها يتخلص من الاقطار المصرية
بشرف وسلامة

ولما علمت الدولة ما أصاب الفرنساويين فى أبي قير أرسلت حتى الاميرال نلسون وتشكره على
عمله ولما وردت تفصيلات واقعة أبي قير من انكليز قلو كيلها السياسى بالاستانة وأبلغها الباب العالى
البسته الدولة فرة سمو رفاخرة طبق عوائد ما أحسنت على الاميرال نلسون بعد قد جوهر ثمين
وأرسلت القى ليرة عثمانية لتوزع على جنود الدولتين الانكليزية ولما وصل العقد الجوهري الى الاميرال
نلسون صور نفسه وهو لا يسه وقد تم تلك الصورة الى السلطان ولا تزال هذه الصورة محفوظة

الى الان ضمن امانة الخريضة العثمانية وقد طبعت جريدة الجغرافيا الانجليزية هذه الصورة
 باحد اعدادها سنة ١٨٨٩ م وكانت فرانسما اتحدت مع النمسا قبل ذلك وازالتا جمهورية
 البنادقة بمعاهدة كامبوفورميو (١٢١٢ هـ - ١٧٩٧ م) استولت على الجزائر
 السبع اليونانية الكائنة بجزر الادرياتيك وعلى خمس جهات أيضا بالساحل وهي (بروزيه)
 و (كوماتيجه) و (برغه) و (ونيجه) و (پوترينتو) واستولت النمسا على عدة جهات من ممالك
 البنادقة أيضا فلما اغار الفرنسيون على البلاد المصرية وبعدها واقعة أبي قير التي تقدم ذكرها
 أمرت الدولة العثمانية والى يانينيه بدلتلى على باشا بان يسترد كافة الجهات المذكورة من يد
 فرانساقبالها على ما فعلته معهم من الخيانة ولما تم الاتفاق بين الدولة العثمانية وسفير روسيا
 مسيو طمارا وسفيرانكتره على منازلة الفرنسيين سوية شككت الدولة أسطولاً خفيفاً مؤلفاً من
 سفن عثمانية وروسية جعلته تحت قيادة مرابط زاده حسين باشا الروسى وأرسلته الى مياه
 الاسكندرية لمهاجمة أسطول فرنسا الصغير الموجود بمينائها وكانت قبل ذلك بعثت فرقاطتين
 ليكونا مع الدونما الانكليزية الموجودة بمياه الاسكندرية

أما الدونما الروسية فأقلعت مع الدونما العثمانية المشكلة من سبع وثلاثين سفينة بعد
 ان اتفق قائدها قدرى بك مع الاميرال الروسى أو كوفوف على الحركات التي سيقومان بها في جزائر
 اليونان (١٢١٣ هـ) فلما وصلتا الى مياه اليونان استولتا على جزيرة بوقه فقام أهالى جزيرة
 زانطة وكفالونية وقبضوا على عساكر الفرنسيين وسلموهم الى تبه دلتلى على باشا والى يانينيه وعلقت
 بذلك الدولتان الجزيرتين ثم قامت الدولتان المتحدتان الى جزيرة كورفو وكان تبه دلتلى على باشا
 تغلب في ذلك الوقت على الفرنسيين بقرب دولينيه وأرسل ولده مختار بك طليعه له يقوده ستة آلاف
 من الخيالة وتقدم هو وخلفه مع المشاة وهجم الاثنان على القوة الفرنسية التي كانت مجمعة حول
 بروزيه فتغلبا عليها وأسرا منها عدة أسراء ولما علمت الدولة بذلك أنعمت على على باشا برتبة الوزارة ثم
 استولت الدولة على قلاع بروزيه وقوماتيجه وپوترينتو ما قلعة بارغه فانها قاومت نحو ١٤
 سنة ثم استردتها الدولة أخيراً وكانت العمارتان المتحدتان استولتا أيضا على جزيرة كورفو فعادت
 تلك المواقع جميعها الى الدولة العثمانية كما كانت من قبل أما الجزائر اليونانية السبع فانها جعلت
 تحت حماية الدولتين العثمانية والروسية وعقدت بذلك شروط بينهما (١٢١٥ هـ ١٨٠١ م)
 ولما طلب أهلها فيما بعد دخولهم تحت حماية الروسية وافقت الدولة العثمانية على ذلك حسبما
 اقتضته ظروف الاحوال

تعدى نابليون على سوريا - لما رأى نابليون ان مركزه أصبح مهدداً بصرا تفكر في ان
 في استيلائه على سوريا فاجتهد سيموان من استولى على احدى البلادين لا يبدله من الاستيلاء على
 ثانيتهما فخرج في ٣٠ رمضان من سنة ١٢١٣ هـ - (١٧٩٩) بجيش عدده ثلاثة عشر ألف
 مقاتل واستولى على العريش ثم تقدم واستولى على غزة بغير قتال وبعدها حاصر يافا سبعة أيام

(١) هي بلدة من أعمال إيطاليا بمقاطعة البندقية وبها أمضى الجنرال نابارت مع استور المعاهدة المسماة بمعاهدة
 كامبوفورميو (Campo-Formio) وبعثت هذه المعاهدة بين فرانسابلاد البجينا وخط نهر الرين
 ومدينة ميانن والجزائر اليونانية وتترك بلاد الماسيا وابتير ياومالك البنادقة لاستوريا

استولى عليها وأسر منها ألفي عسكري من الارنؤد الذين قاتلوا جيش فرنسا وبين بشهامة غريسة فأمر نابليون بقتلهم جميعا رميا بالرصاص خارج البلد فكانوا ينجحونهم فرقة بعد فرقة للقتل ومن هذا الفعل القطيع المخالف لقوانين الحرب والانسانية بتأ كد المطالع ما كانت عليه حالة الخروب في ذلك الوقت ثم تقدم بجيشه الى عكلا وحاصرها برا وهدم أكثر بر وجها واستحكاماتها بعد افعه وكان المدافع عن عكلا أحمد باشا الجزائر البطل الشهير وفي هذه الاثناء قبض الغليونان الانكليزيان المعينان نخر سواحل الشام تحت قيادة الاميرال سدننى سمث على سفينة فرنساوية تحمل كثيرا من المهمات الحربية لنابليون وسلمها لجنود عكلا وكانت اعانة للجيوش العثمانية على أعدائهم ولما وصلت الامدادات للفرنسويين بعد أيام أمكنهم كسر جيش الشام بجهة جبل طابور الذي أتى لقتالهم وتمكنوا ايضا من ان يمنعوا الامداد عن العثمانيين الذين بعكلا ثم أخذوا يهاجمونها المرة بعد الاخرى حتى تمكنوا من الدخول فيها الا انهم لم يلبثوا برهة حتى قاومتهم الجنود العثمانية أشد المقاومة فتقهقر الفرنسيون من امامهم تاركين مدافعهم ومعداتهم وفي خلال هذه الحوادث وصلت الدونما العثمانية وكانت مركبة من سبعين سفينة حربية بها ١٤٠٠٠ من الجنود النظامية تحت قومندانية مرابط زاده حسين باشا الرودسى وأخرجت ذلك الجيش وذخايره بمدادا لعكلا ثم تقدم هذا الجيش ورد جيش نابليون واقترق العثمانيون بشجاعتهم أثره حتى متاريسه وهجمت فرنساويون في هذه المحاصرة ثمان مرات وهجم العثمانيون عليهم ثلاث عشرة مرة وأظهرت عساكر الفريقين شجاعة غريسة واقداما مجييا ثم اضطر نابليون للرجوع مكسورا بجيوشه الى جهة العريش بعد أن تلقى منها في حصار عكلا عشرة آلاف واقترقت العساكر العثمانية أثره حتى الحدود المصرية ثم أرسلت الدولة العثمانية الى مصر جيشا من بكامن عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة كوسه مصطفى باشا ومعه دونما عثمانية الى أبي قير فخرج الجيش واستولى على القلعة ولما بلغ نابليون حضر بنفسه وهجم بعساكره على الجيش العثماني بغتة ومع كون العساكر العثمانية كان معهم المدافع الكافية والطوبجية المهرة الا أنه لم يكن معهم فرسان لصد هجمات الاعداء ولذلك التزم مصطفى باشا أن يحفر خندقا حول معسكره لحمايته من هجمات سوارى فرنساويين وقد تكرر الهجوم من نابليون وقاومه السرعسكر بجيشه بكل ثبات وقوة وكانت مدافع الدونما العثمانية تساعد الجيش بمقدوفاتها حتى اضطر نابليون لان يرجع متقهقرا فخرجت العساكر العثمانية من خلف الخندق لتعقبهم وكان خروجهم بلا انتظام لان قائدهم كان جرح فعادت خيالة نابليون عليهم ثانية وشتتوهم وتقدموا الى خيام المعسكر ودخلوا خيمة السرعسكر وكان مجر وحا كما تقدم فأسروه وتوفي بعد سنة من أسره

وبعد هذه الواقعة مكث نابليون في مصر مدة ثم بارحها سرا من غير أن يشعر أحد به أو يعلم مقصده قبل الخروج وسيأتى سبب ذلك بتاريج فرنساوي جعل الجنرال كليبر أحد قواده وكيلاعنه وقوض اليه أمر البقاء بمصر وأخرج منها حسب ما يراه وكان جيش عثماني يتقدم اذ ذلك الى الحدود المصرية من جهة الشام تحت قيادة السردار يوسف ضيا باشا وبعد أن استولى على العريش طلب من الجنرال كليبر والوكيل عن نابليون بمصر والقائد اعظم المعسكر الفرنسيين بها الاخلاء ببلاد مصر فقبل الجنرال المذكور في الظاهر وأمضى مع يوسف باشا شروط الجلاء في ٢٨ شعبان

سنة ١٢١٤ هـ ولما كان ذلك حيلة من الجنرال ولم يعمل بمقتضاها قامت الحرب بينه وبين الجيوش العثمانية وكانت سجالا

وفي سنة ١٢١٥ هـ عادت الدونما الروسية من البحر الابيض المتوسط الى الاستانة ودخلت البحر الاسود ولما كانت الدولة تخاف من أن نصرات الجيوش الفرنسية ربما كانت سببا لتمكين قدم الفرنسيين في مصر جهزت هي وانكلترا الاساطيل والجيوش لحسم المسئلة المصرية فخرج القبودان حسين باشا بالدونما ومعه قوة عسكرية بعد أن اتفق مع الاميرال الانكليزي ثم أخرج الاميرال الانكليزي جيشا في أبي قبر مؤلفا من خمسة عشر ألف مقاتل تحت قيادة الجنرال ابركر ومي (Ralph Abercromby) وتقدم الى الرحمانية وتقدم السرदार العثماني يوسف باشا من جهة الشرق يريد القاهرة فخرج الجنرال منوير يديقتال الانكليزي فانهزم والتجأ الى الاسكندرية يريد الحصن بها فقطع الانكليزي سد أبي قبر وهو السد المانع لمياه البحر من الاغارة على مصر فانحصر الجنرال منو بذلك في الاسكندرية والجنرال منوهذا هو الذي صار وكيلنا بلبيون بعدموت كبير الذي قتله شخص يدعى سليمان الحلبي كما سأتى مفصلا بتاريخ مصر

ثم تقدم الجيش الانكليزي والعثماني ودخلا القاهرة بعد أن حاصر من بهامن الفرنسيين الذين كانوا تحت قيادة الجنرال بليار الذي لما رأى انه لا يمكنه المقاومة عقد مع القائدين المذكورين شروط التسليم وأخلى المدينة ثم خرجت العساكر الفرنسية من القاهرة وأقلعت بهم السفن من رشيد هذا أما منوف فانه بعد أن قاتل العثمانيين والانكليز في عدة وقائع اضطر لان يعقد صلحا بها ثم جاء الاميرال كيث (Keith) الانكليزي والصدر الاعظم يوسف باشا في ٢٢ ربيع الثاني سنة ١٢١٦ هـ وذهب الى بلاد على سفن الانكليز وخرج الفرنسيون من الديار المصرية وهم يبيكون حظهم وبعد أن أخلوا مصر وانسحبت جميع جيوشهم منها أقام الانكليز سنة كاملة في نجر الاسكندرية وكانهم لما رأوا سرعة خروج الفرنسيين وضعف أحوال الدولة وحالة الديار المصرية هموا باحتلالها بدل الفرنسيين الآن الفرنسيين لما لاحظوا ذلك من مخزجهم أخذت الخبايا السياسية تجري بينهم وبين الانكليز والعثمانيين الى أن خرج الانكليز أيضا (١٢١٧ هـ) منتظرين فرصة أخرى أكثر مناسبة وفي ٢٣ صفر سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) عقد نابليون بونابرت مع الباب العالي الصلح ليسترمدودته وليكون له ذخرا عند الحاجة وكان ذلك سببا لوقوع التفور بين الانكليز والفرنساو بين لانهم كانوا يودون بقاء تعكير السياسة بين العثمانيين والفرنساو بين بالنظر لما أجراء نابليون بونابرت من المقاصد السياسية المضرة بالانكليز

فتمة الوعائية - اعلم انه في أثناء اشتغال الدولة بالمسئلة المصرية ظهر ببلاد نجد رجل من علماء الحنابلة يعرف بالشيخ النجدي ويدعى محمد عبد الوهاب وأصله من المشرق من بني عيم وكانت ولادته سنة ١١٢١ هـ وكان في ابتداء أمره من طلبة العلم بالمدينة المنورة وكان أبوه من أهل الصلاح والعلم وكذا أخوه الشيخ سليمان وكان أخوه وأبوه ومشايقه يتفرسون فيه ان سيكون له شأن لما يشاهدونه من أقواله وأفعاله وشذوذه في كثير من المسائل الدينية فكانوا يسمونه

ويحذرون الناس منه فحقق الله سبحانه فراسمهم فيه لما أظهر مذهبه وجاهر بخلته التي استهوى بها عقول كثير من الناس وخالف بها أئمة الدين ومن أقواله ان زيارة النبي صلى الله عليه وسلم والتوسل به وبالانبياء والاولياء والصالحين وزيارة القبور شرك وحرف كثير من الاحاديث النبوية والآيات القرآنية بتخر يبجها على وجه يخالف الاجماع ثم قصد ان يفسد عقائد علماء الحرمين فأرسل جماعة من علمائه اليهم يدخلون عليهم الشبهة بالمنظرة والكذب فقاومتهم العلماء وردوا أقوالهم وكفروهم ثم قوى أمرهم وحركوا الفتى وقامت حروب هائلة بينهم وبين أمير مكة الشريف غالب بن مساعد ابن سعد بن زيد (١٢٠٥ هـ) وامتدت فتنتهم الى اليمن ولم يزل أمرهم يقوى الى سنة ١٢١٧ هـ حيث ساروا ويجيوشهم الكثيرة على الطائف وتلكوها وقتلوا أهلها ثم بعد الحج استولوا على مكة وانسحب الشريف غالب الى جدة (١٢١٨ هـ) ثم ساروا ويجيوشهم الى جدة لقتال الشريف فلما أطا طواهم هزمهم حاميتها بالمدافع وطالت الحروب بين الجيوش العثمانية وبينهم وانست طريق الحج من سنة ١٢٢١ وما زال أمر الوهابيين في ازدياد حتى آبادهم الى الديار المصرية المرحوم محمد علي باشا الكبير في عهد السلطان محمود خان الثاني كما سيأتى موضعا في تاريخ مصر

احوال الجهرية في الوقت المذكور - لما توفي القبودان الشهير الغازي حسين باشا الجزائرى سنة ١٢١٨ هـ كانت قوة بحرية الدولة مر كبة من أربع سفن من نوع الاوج انبارى بكل واحدة مائة مدفع وعشرين غليوناً يحمل كل واحد سبعين أو تسعين مدفعا وعشرين فرقاطة تحمل كل واحدة خمسين أو ستين مدفعا و ١٥ سفينة من نوع القرويت ولما خلفه في مسند القبودانية محمد قدرى باشا وكان من متخري وجاقات البحرية اساء السيرة خصوصا لما أرسلته الدولة لمدينة عكا (١٢١٩ هـ) لاصلاح الفساد الذي حدث فيها بعد وفاة الجزائر أجد باشا فعزلته وجرده من رتبة الوزارة وتعين مكانه حافظ اسماعيل باشا

الحرب مع روسيا والدونما الانكليزية باستانبول (١٢٢١ هـ) - لما عقد نابليون بونابارت معاهدة الصلح مع الدولة أرسل الجنرال سبسيان الى الاستانة ليكون سفيرا فرنسا وأوصاه قبل مبارحته باريبان يبذل كل مجهود ويسعى بجميع الوسائل لتحسين العلاقات بين الدولتين وارجاعهما لما كانت عليه قبل الحرب فبذل هذا السفير جهده واستعمل كل الوسائط حتى أعاد روابط الالفه والمحبة بين الطرفين ولما كانت الدولة تود ذلك أيضا لم يصادف السفير في طريقه عقبات أو موانع وفي تلك المدة خلعت الدولة أميرى الافلاق والبعغان لانهما هما الى روسيا وتروىجهما سياستها ومقاصدها وعينت بدلها من المخلصين لها (١٢٢١ - ١٨٠٦) فاغتازت الروسيان ذلك جدا وخشيت من تقرب فرنسا الى الدولة وأهمها ذلك حتى انها أرسلت جيوشها واحتلت الولاياتين المذكورتين بلا اشهار حرب بدعوى ان عزل أميريهما مضر بسياستها جدا ولما علمت الدولة بدخول عساكر الروسيان في بندر ونحوهين التزمت باشهار الحرب عليها ولما كان الانكليزي يعلمون يقينان ان دولة روسيا هي الدولة القوية التي يمكنها مقاومة نابليون الذين كانوا يخشون سطوته جدا اجتهدوا في منع وقوع الحرب بين العثمانيين والروس على ان الدولة لم يكن غرضها من ذلك الاعلان الا لابعاد جيوش روسيا عن حدودها فقط

وكانت الدولة العثمانية تسعى في ذلك الوقت بكل نشاط لاستدامة الروابط والعلاقات الودية بينها وبين الدول الاخرى حتى لنها أجابت الدولة الانكليزية لما أشارت عليها بمخاطبة محمد علي باشا الكبير من ولاية مصر ووليتته على سلاتنيك الآن استرحام بقائه بمصر الذي طلبه العلماء وأشرف الالهائي من السلطان كان السبب في عدول الدولة عن ذلك وقد كانت الدولة لا تحب ان تبعد عنها دولة فرانس لما اقتضته سياسة الوقت فلهدا السبب والسبب السابق انخرف الانكليز عن العثمانيين واتحدوا مع الروس على حرب الدولة ولما لم تتمكن انجلترا بواسطة سفيرها بالاستانة السيرار بوتوث (Arbuthnot) من جعل الباب العالي يعدل عن مخالفة فرانس أرسلت أسطولاً تحت قيادة الاميرال اللورد دوكورث (Duckworth) الى مضيق الدردنيل ولما كان السفير الانكليزي حاد المزاج سريع التأثير تكدر من عدم نوال مرغوبه ونزل ليلابسة سفينة انجليزية (١٢٢١ هـ - ١٨٠٧ م) وهرب من الاستانة ولما علم رجال الدولة بقراره في اليوم التالي تأكدوا من قيام انكثرة لمساعدة الروسيا ضدهم فازدادت المسئلة اربابا كوقد كانت قلاع الدردنيل في حالة سيئة لا يمكنها مقاومة عمارة قوية كعمارة الانكليز ومع ذلك فان الدولة لم تهتم باصلاحها وتقويتها رغما عن أقوال سفير فرانس ومن معه من ضباط الفرنسيين وكان المانع لها عن ذلك أقوال السفير الانكليزي الذي كثيرا ما قال للسندوبي الدولة ان مسئلة الخلاف الحاصلة بين الدولة والروسيا يمكن تسويتها بالصلح والسلم بدون احتياج لحرب ولذلك تم للسفير ما كان يقصده وهو تأخير تقوية الاستحكامات الامر ضروري جدا في ذلك الوقت ولما رأت الدولة اشتداد الحالة أرسلت الجنرال سياستيان ومعه بعض ضباط من الفرنسيين وغيرهم لينظر وفيما يحتاجه تحصين البوغاز ويقدموا بذلك تقريراً مستوفيا الى السلطان الا أن الصدر الأعظم وغيره من الرجال وكذا القبودان باشا كما فلو يكرهون تداخل الاوررو باو بين في أعمال الدولة لم يتموا بمهر التحصينات كما أمر السلطان

أما سفير انكثرة الذي فر من الاستانة فانه تمكن من الوصول الى جزيرة بونجهاطه سالما وهناك طلب من الدولة استمرار الخبارة وأرسل ترجمانه الى جنق قلعة لذلك وأرسلت الدولة من قبلها من يقوب عنها وكان غرض السفير من هذه الخبارات أن عمال الدولة يهملون عمل الاستحكامات التي تقرر انشاؤها متى علموا بعود مخبارات الصلح وكانت الدولة الانكليزية تنتظر مساعدة الهوام والفرصة المناسبة لاجتياز الدردنيل ثم أرسلت الدولة عمارة تحت قيادة القبودان الحاج صالح باشا لتقف في البوغاز تمنع سفن الانجليز من عبورهم متى أرادوا وكانت هذه العمارة مربعة من ست سفن وقد اتفق ان هبت رياح موافق يوم عيد الاضحى من سنة ١٢٢١ هـ (١٨٠٧ م) عند الصباح فاقلع الاميرال الانكليزي المذكور باسطوله المركب من خمسة قبايات وقر قاطنين وحرقتين وقر ويطين بهامن المدافع ٦٠٨ مدافع ودخل البوغاز وتمكن بلا أدنى مقاومة من المرور من أمام قلعتي قوم قبود وسد البحر لوجود كافة حفظة القلاع المذكورة بالجوامع لصلاة العيد ولما وصل الاسطول المذكور الى قلعتي كليد بحر و جنق قلعه قابلته الدولة العثمانية المذكورة باطلاق المدافع فلم توقف سيره بل استمر مسرعا ثم استقبل في ايمان بوغاز ثم حل على الدولة العثمانية ولم يكن بها الا بعض الجنود لتغيب معظمهم يوم العيد ولما لم يكن للعساكر البحرية

الموجودة بتلك السفن القيام بمقاتلة الأعداء لقلتهم احترق للعثمانيين أربع سفائن واستولى
الانكليز على سفينتين ولم يسلم من الاسطول العثماني الا ابريق حربي واحد تمكن من الهرب
وقال بعض المؤرخين انه لولا جبن القيودان باشا وسوء تصرفه لتمكن للاساطيل العثمانية على ما بها
من الضعف فهدر اساطيل الانجليز سيما وقد كانت هي الغالبة في أول الامر بحيث انها أحدثت
بالسفن الانكليزية خسارة عظيمة

ولما عاد الأبريق الحربي الذي هرب من المحاربة الى الاستانة في اليوم الثالث من عيد الاضحى
وأخبر قيودانه بما حصل هاجت الافكار واضطربت الخواطر وعم القلق وصدرت الاوامر سريرا
باقامة الاستحكامات حول الاستانة وفي ذلك اليوم وصل الاسطول الانكليزي واستقبل بجانب
جزائر الامراء عشر في البوغاز وأرسل السفير الانكليزي بلاغها ثانيا للصدر الاعظم مشتملا على المواد
الاتية وهي - أولا ان يتحالف الباب العالي مع الروسيا وانكثرة - ثانيا ان تسلم الدولة
في الحال لانكثرة سفن العمارة العثمانية واستحكامات الدردنيل - ثالثا أن تنزل الدولة للروسيا
عن ابالي الافلاق والبغدان - رابعا أن تطرد الجنرال سبستيان سفير فرانسوا وان تعلن الحرب
على فرانسوا وحدد الاجابة على هذا البلاغ مدة ٢٤ ساعة فعمد الوزراء في الحال مجلسا وبعد المداولة
أجابوا السفير برفض هذه المقترحات رفضا باتا وباستعداد الدولة للمحاربة والمدافعة وقام الجنرال
سبستيان بتكليف من الدولة بتنفيذ أمر الدفاع وبذل جميع الاهالي أيا من كل جنس ونوع
نشاطا وهمة عظيمة في بناء الاستحكامات وتقويتها وكان وزراء الدولة يتردون كثيرا على هذه
الاستحكامات لتظرها يوميا بل كل ساعة كما أن السلطان سليم خان كان يذهب بنفسه اليها ويشجع
القائمين بانشاءها الى احكامها وانقلها بحيث انها تمت في زمن يسير وأصبح بها في اليوم الخامس نحو
ألف ومائتي مدفع وفي أثناء هذه الاستعدادات عرض السيد علي بك الجزايري وكان رئيس بوابي
الدائرة الخاصة على السلطان بانه بما له من المعلومات البحرية يمكنه قهر العمارة الانكليزية لو سلمت
اليه قيادة العمارة العثمانية وهو ن على السلطان كثيرا أمر الاعداء فسر السلطان من أقواله
وأصدر أمره بتعيينه قومندان على الدونما الراسية بخليج الاستانة وكانت مؤلفة من عشرين
سفينة حربية مختلفة النوع والقدر فقاده اورسها أمام سراي بشكطاش ولما كان أهالي
الاستانة قد امتلأت صدورهم غيظا وحقا على تجاوز الانكليز لهذا الحد سيما الجنود منهم
تطوع منهم في يوم واحد أكثر من سبعة آلاف وخمسمائة شخص في البحرية وبعد أن قيدوا
أسماءهم وزعواهم على السفن هذا أما القيودان باشا الذي أعدم الانكليز عمارته فانه بعد وصوله
براعزل لاهماله وتعيين بده السيد علي بك المذكور وورقي الى مسند الوزارة وأحيلت عليه ولاية
الجزائر وقتل أيضا فيضى أفندي محافظ بوغاز الدردنيل لتقصيره في أداء واجباته عند مرور الدونما
الانكليزية من البوغاز وعينت الدولة بعض الضباط ومعهم نفر من مهندسي الفرنسيين لتقوية
قلاع واستحكامات الدردنيل ولما بلغ أهالي البلاد المجاورة للاستانة مرور الدونما الانكليزية
من البوغاز ومحبتها للاستانة حضر كثير من أعيانهم وحضر أيضا سردار شيله أوزون حسن باشا مع
جيشه ونزلوا بالدونما استعدادا للقتال وحضر كثير من أعيان الروملي والناضول لهذا القصد وعبر
قسم من عساكر فنار بانجه الى جزيرة قنالي وأوقعوا بزوارق الانكليز التي أتت للاستماع منها وأسروا

بعض الجنود وكان من بينهم ابن أميرال الدونما الانكليزية ولما بلغ السلطان خبر هذه الواقعة أنعم على أولئك الجنود ولذلك أخذ كثير من صيادى الاسماك يناوشون الجنود الانكليزية التي كانت تردد بزوارقها بين السفن وبعضها وأراد بعضهم منع الانكليز من الاستقام من جزيرة قتالي فلم ينجح والحاصل انه في مدة خمسة أيام من تاريخ وصول العمارة الانكليزية تم عمل الاستحكامات بجهات سراي برون ويدي قله وقرقله وساحل قاضي كوي وضعت فيها المدافع العديدة ولما استعد القبودان باشا الجديد المذكور أراد الهجوم على العمارة الانكليزية فتمعه القواد وطلبوا منه أن يكون مدافعا للمهاجم عليه العمارة الانكليزية من الاستعداد وتدريب جنودها على القتال بخلاف الجنود العثمانية الحديثة العهد بالبحرية وفي تلك الاثناء كانت الخبارات مستمرة بين السفير الانكليزي ورجال الدولة وأخيرا خفف الانكليز طلباتهم وكانوا كلما قدموا طلبا رفضه العثمانيون ثم لما رأى ربان العمارة الانكليزية انه لا يمكنه ضرب الاستانة لمنعتها وتممس الاهالي والجنود وان استحكامات الدرديسل جارتقوي يتأهبوا وخشى من انه لو مضى الوقت على ذلك أصبح في مركز حرج أفلح في يوم الاحد الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة ولما امر على جهات البوغاز وغيرها ورأى ما بهما من القلاع الجديدة ثبت لديه ظنه وانه صار عاجزا عن عمل ما ولو تهديدا ولذلك بادر بالخروج سالما

ولما رأى أهالي الاستانة عودة العمارة الانكليزية بصفحة المغبون فرحوا وهللاوا وكبروا ولما وصلت الدونما الانكليزية الى جهة أكينك القريية من كليبولي مكنتها يومين وتركت فيها السفينتين العثمانيتين اللتين استولت عليهما في واقعة البوغاز كما تقدم وفي اثنا مرورهما من البوغاز أطلقت عليهما بعض قلاعه الحديثة مدافعها فحدثت بها خسائر كبيرة وأغرقت منها سفينتين من نوع القرويت وقتل من جنودها ستمائة نفر سميان والمدافع الجسيمة التي تركت أخيرا في الاستحكامات كانت من عيار ثمانمائة ليبره وبعد أن تخاصمت العمارة الانكليزية من تلك الشدة درست قريبان جزيرة بوزجعه اطه لتصلح ما لحقها من التلف وكانت الدونما الروسية وصلت قبل ذلك بقليل الى جزيرة بونجه اطه تحت قيادة الاميرال سينيواين (Siniawin) ولما تقابلت مع الدونما الانكليزية عرض ربانها على الاميرال الانكليزي أن يصحبه ليدخل اسوية من الدرديسل ويضرب بالاستانة فلم يقبل الاميرال الانكليزي لعلمه أن ذلك أصبح بعيدا عليهم ثم استوليا على جزيرة بوزجعه اطه المذكورة وصارا يصادران بسفنهما كل سفينة تجارية عثمانية ومما تقدم تعلم ما حازه العثمانيون من الفخر في هذا الدفاع العظيم وقيامهم كرجل واحد للدفاع عن استقلالهم الذي لعبت به أيدي الاجانب لعدم تبصرهم وتهاونهم وقد كان بقاء العمارة العثمانية مدافعة لامهاجة من أحكم الآراء وأصوب الافكار لانا قدمنا أن هذه الدونما كانت مشكلة من السفن الصغيرة وجنودها كانوا من أفراد الاهالي الذين لم يمارسوا الاعمال البحرية ولا عاينوا الاحوال الحربية ولا أحكوا الفنون والنظامات العسكرية بل هم رعايا قادتهم الهمم الابية والنخوة العلية لان يصدموا بأنفسهم عدوهم وأن يصلوا احر المعمة ويخوضوا عابها بخلاف السفن الانكليزية فكانت ذات قوة وخصامة وجسامة وأفرادها على معرفة تامة بالفنون البحرية وأساليب القتال

اطلاق العمارة الانكليزية قتلها على الاسكندرية - علمت مما سبق أن العمارة الانكليزية بقيت راسية بجيزة بوزجه اطه تم تد الدردنيل وتقبض على سفن التجارة العثمانية وفي شهر محرم سنة ١٢٢٢ أنتها بمجده قوية مؤلفة من احدى وثلاثين سفينة بها سبعة آلاف مقاتل لان الحكومة الانكليزية أرادت محوما لحقها من العار في مسئلة استانبول هذه ولذلك أمرت أميرال هذه العمارة بالذهاب الى مدينة الاسكندرية واحتلالها فقام بعاهد اليه وأتى الى الاسكندرية وبعد أن ضرب قلاعها ولم تكن شيأ يذكري في يوم ١٠ محرم سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) أخرج العساكر من السفن بقصد الاستيلاء على البلاد المصرية تحت قيادة الجنرال فرازر (Fraser) ثم بعد بضعة أيام ذهبت فرقة من أولئك العساكر الى رشيد لاختذها وقبل وصولها كان محافظ رشيد المدعو علي بك لما علم بسير الانجليز نحو استه عدل لقتالهم بما لديه من الجنود القليلين وأمر أهلها بالسكون والثبات والاختفاء حتى اذا أعطى اليهم الاشارة شنوا عند ذلك الاغارة فانصاعوا الامر وامتثلوا لما قام به فكره وبذلك صارت الطرق والشوارع كالاطلال البلاقع ودخل الانكليز بلا معانع ولا مدافع فظنوا أن الديار قد دخلت من قطاتها والمدينة قد دخلت من سكانها ولم يعلموا ان الاسود را بضة في آجامها وأطيار المنايا تغنى على أفنانها ولما ألقوا عصا التسيار وتفرقوا في أكنافها للاستراحة من الاسفار لم تمض برهة حتى انسكب عليهم هطال من الليوث لامن الغيوث ودهمهم الا بطال فاضطرت أفكارهم وبهتت أنظارهم وما زال أهالي البلد يلبسونهم حلالا حراما من نسيج السلاح ويفتكون بهم فتكليس بعده صلاح حتى فرقوهم بأيدى سبا وجعلوهم معنون فراروا هربا وقد أوقعوهم في خسائر عظيمة ومصائب جسيمة وأسروا منهم أعدادا وافرة أرسلوا بها الى القاهرة ولما وصل الاسرى الى المحروسة حصل لاهالي القطر المصري جسارة عظيمة وتقدم الى مصر وقتئذ وهو الهمام الشهير محمد علي باشا الكبير بقوة الى دمنهور لمحاصرة الانكليز بالاسكندرية

ولما علم الباب العالي خيرا استيلاء الانكليز على الاسكندرية أعلن الحرب عليهم الا انه لم يمكنه ارسال قوة بريية من الاسنانة الى الاسكندرية عن طريق البحر لوجود العمارة الروسية راسية أمام بوغاز الدردنيل ودوننا الانكليز بسكندرية أصدر أمره الى والى صيدا والى كنج يوسف باشا بان يقوما بالقوى اللازمة من جهة سور بالمساعدة الحكومة المصرية على ان همة محمد علي باشا والى مصر لم تكن تحتاج لهذه المساعدة بالكلية لانه لما تقدم نحو دمنهور كما سلفنا وحاصر الانكليز في الاسكندرية في أواخر جادى الثانية من السنة المذكورة تحققوا عدم طاقتهم على المقام بها ولذلك طلبوا مخابرة محمد علي باشا في اخلائهم لها تحت شرط أن يعيد لهم أسراهم كما أنهم يعيدون اليه الاربع سفن والبحرية العثمانيين الذين كانوا استولوا عليهم يوم استيلائهم على الاسكندرية فلما تم ذلك أحلوا الثغر في أواسط رجب من تلك السنة ولما كان قطع العلائق مع الدولة العثمانية يضر بسياتهم انسحبت سفنهم من البحر الابيض المتوسط ومن بحر الارخبيل ولما علم السيد علي قيودان باشا بسفر المرابك الانجليز بخرجه بالدوننا لمحاربة العمارة الروسية راسية أمام البوغاز الا أنه ارتد مقهورا بعد أن أظهرت جنوده من الاقدام والشجاعة ما اعترف به بالاعداء ومع ذلك فان الخسائر الجسيمة التي أصابت أساطيل الروسية اضطرتهم بالذهاب الى جزيرة كورفو

صعود محمد علي باشا على ولاية مصر (١٢١٩ هـ) — لما تعين القيودان كوجك حسين باشا بالدونما السلطانية لاجراء الفرنساويين من مصر أرسل مكتوباً إلى جورباخي مدينة قواله حسين آغا بأن يرسل مالدیه من الجنود فارسل حسين آغا المذکور العساكر وكانوا مائتي نفس مع صهره محمد علي آغا فأنزلهم القيودان باشا المذکور بالسفن وأقلع برید مصر وبعد علم الفتح بقيت بديار مصر أكثر الطوائف العسكرية التي توجهت إليها من بلاد الارنؤود والروم والي ومن ضمنهم محمد علي آغا المذکور وكان يتصف بالذكاء الفطري والاستعداد الغريزي للرئاسة وادارة أعمال الحكومة فأخذ يفكر في ذلك واخراج تصوراته من القوة إلى الفعل بكل احتياط ودقة وما زال يسعى يجتهد ونشاط حتى حصل على منزلة كبيرة وساعدته فرص الزمان والمكان فلم يعب زمان طويل حتى نال منصب سرچشمه وبنوالة هذا المنصب صار رئيساً على عموم كبراء عساكر الباشا بوزوق وكان إلى مصر آنذاك قوجه خسر وباشايتهم بتنظيم وترتيب الایالة ويسعى في تخلص مصر من عساكر الباشا بوزوق لما أتوه من الأعمال الشريرة ولما أخبر رؤساء هؤلاء الجنود بضرورة عودهم إلى بلادهم قبلوا وامتلأوا لأنه لم يصرف لهم علوفاتهم بالتمام أظهر والعصيان وشقوا عصا الطاعة وقتلوا الدفتردار رجائي أفندي واضطر خسر وباشا إلى الفرار ولقد كانت هذه الواقعة مبدأ للضعف والعداوة بين محمد علي باشا وخسر وباشا المذکور وبعد فرار خسر وباشا سعى محمد علي آغا في القبض على زمام الحكومة المصرية من جهة ومن جهة أخرى أخذ يقاوم جنود الكولمان بكل قوته وينبهاهم يدأب في محو الشقاق والفساد لا عادة السكينة للبلاد المصرية نصبت الدولة خورشيد باشا والي الديار المصرية فخصر البها هو وحاشيته

ولما كانت الدولة تميل لخلاص البلاد المصرية من الكولمان أخذ خورشيد باشا يساعد أعمال محمد آغا وشجعته على ذلك الآن والي المذکور لما وقف على مسلك محمد علي آغا الحقيقي نشبت في اخراجه من الديار المصرية وسعى له حتى أسندت إليه ولاية مدينة جديدة مع رتبة الوزارة الآن عساكر الباشا بوزوق تعصبوا ل محمد علي وأظهروا العصيان ثانية وحاصروا خورشيد باشا في قلعة القاهرة ١٢١٩ هـ ولما وصل خبر هذه الحادثة إلى الاستانة خاف السلطان ورجاله من استمرار الفتن بمصر فبذلوا الزواجر حيلة وهي أنهم جعلوا السلطان يصدر فرمانين أحدهما بإبقاء خورشيد باشا في مركزه والولاية على ديار مصر والثاني بتعيين محمد علي باشا والي مصر أيضاً وعين أحدهما المدعو صالح بك لتوصيل هذين الفرمانين وأمرته الدولة بأنه متى وصل القاهرة أظهر ما رآه موافقاً ومناسباً من الفرمانين حسب الظروف ولما وصل الأمر إلى كور ورأى أن الالهائي يضادون خسر وباشا أظهر فرمان تولية محمد علي باشا وتلاه بالصفة الرسمية بحضور العلماء والاعيان والجنود وبذلك استتب الامن وارتقى المرحوم محمد علي باشا على ملك مصر من ذلك اليوم عما أظهره من الحزم والجد والنشاط وبما وهبه الله من عظيم الصفات وحيداً خلال اللازمة لا عاظم الرجال وأكبر الابطال وسأني على أخبار محمد علي باشا مفصلة بالجزء الثاني ان شاء الله تعالى

الإصلاحات بالدولة وتوقيع التتمة (١٢٢٢ هـ) — اعلم انه بينما كانت الحروب قائمة بين العثمانيين والروسيين دخل والي ولاية بوسنة بجيشه إلى إقليم الصرب ومنع تأثره من الالتحاق بالجيش الروسي وفي سنة ١٢٢١ هـ هزم قاسم باشا محافظ اسما على جيش الروسي ومنعه

من التقدم وفي ٢٦ محرم سنة ١٢٢٢ هـ خرج القبودان السيد علي باشا بدون ونامو لفة من ١٨ سفينة حربية الى بونغاز الدردنيل لمقابلة الدنمالي الروسية التي كانت تحاصره تحت قيادة الاميرال سيناوين (Siniawin) فحمل عليها القبودان باشا المذكور في اواخر ربيع الثاني بدون احتراس واستعمل في هجومه الطريقة القديمة التي تستعملها سفن قرصان أو جاقات الغرب المخالفة لفرن حرب الوقت المذكور فأسقط الریح سفنه خلف سفن العدو فتمكن منه الاميرال الروسي وأسر سفينة وكيلاه أبي بكر بك وخرّب وأحرق بعض السفن الاخرى فاضطر القبودان باشا للخجاء بياقي سفنه الى داخل البونغاز ثم اتهم القائد الثالث شره متبك (شير مرد) وبعض من رؤساء السفن بالتقصير ليخلص من العار وينجو من العقاب وقد كان وعقاعنه السلطان وأمر بقتل شره متبك ومن نسب اليهم التقصير ظلماع أنهم عن اشتروا في خدمة الدولة بالصدقة ولما كانت سفن روسيا أصابها أيضا خسائر جمة أقطعهم الاميرال الى كورفو من جزر اليونان ليتمكن من اصلاحها وبذلك تخلص البونغاز من محاصرة الاساطيل الروسية وقد عد المرحوم جودت باشا ذلك انتصارا لانه انكساراً لهذا السبب ثم استعد الجيش السلطاني بحضراء داود باشا الملاقة الاعداء وتعين خورشيد أحمد باشا اسر عسكراً على جهة صوفيه ووجهت اليه ولاية الروملى ومحافظه مدينة نيش وتعين ادريس باشا محافظاً لواردين وولى الدين باشا لولاية مورره وتعين محمد باشا لولاية قارص وأرسلت الدولة المهتمات والجيوش الى شاطىء الطونة تحت قيادة الصدر الاعظم مصطفى باشا جلبي ومصطفى باشا البيرقدار وكان المارشال ميكسون القائد العام الروسي قد زحف بجيش مؤلف من خمسين ألف مقاتل على مدينة بخارست ولما دارت رحى الحرب تمكن العثمانيون من منع الروس عن التقدم على الاراضى العثمانية هذا وفي تلك الاثناء كان السلطان سليم يبذل الجهد في تنظيم العساكر على الطريقة الجديدة الاوروبية لالغاء وجات اليكجيرية ولما كانت هذه الاصلاحات من أكبر المصائب بالنسبة لليكجيرية بها جوارها وما جوا واعتصبوا في داخل استانبول وكان يساعدهم على أفكارهم العقيمة المضرة بحالة الدولة كثير من رجالها خلاف السواد الاعظم من الاهالى وكان عطاء الله أفندى شيخ الاسلام وكذا قائم مقام الصدر الاعظم موافقين لاهل الثورة في الرأي يحرضانهم سرا حيث رشح في أذهانهم أن النظام الجديد طريقة افرنجية وان من تشبه بقوم فهو منهم ولما فويت هذه الخجة الواهية في صدورهم قالوا جميعا هيا بنا نلاشى النظام الجديد ونتمقم من الوزراء الذين أقسروا الدين بأفعالهم الشنيعة فأخذوا ينهبون ويقتلون وكان المفتى عطاء الله أفندى أعطاهم كسفاً بأسماء بعض كبار الدولة لقتلهم فأخذوا يتلونه ويفتشون على أولئك الرجال فوجدوا البعض منهم فقتلوه واخفى كثير وقيل انهم قطعوا ١٧ رأساً من بين أكبر رجال الدولة ولم يبقوا عند هذا الحد بل صموا على طلب السلطان سليم والقبض عليه نخلعه وصاروا يجاهرون بأقوال تهكمية كقولهم بأيتها السلطان المغشوش بهذه التعاليم أنسبت تلك أمير المؤمنين وعوضاعن اتكالك على الله القادر العظيم الذي يستد بقدرته الجيوش الكثيرة أردت أن تشبه الاسلام بالكفار ومثل ذلك من الاقوال وأرسلوا شيخ الاسلام عطاء الله أفندى المذكور للسلطان سليم ليكافه بالتنازل بلا مقاومة فدخل عليه منذ لا منخفص الرأس قائلاً يا مولاي قد حضرت بين يديك برسالة مخزنة أرجو قبولها التسكين الهيجان وليس يخفى على عظمتكم أن عموم العساكر اليكجيرية نادوا باسم السلطان مصطفى ابن عمك سلطانا عليهم ولا سبيل الى المقاومة فالتسلم

لامر الله أوفق وأسلم من كل شيء فأظهر السلطان تجلدا ولم تبد عليه علامات الكدر من هذا الحديث بل قبل كلام الشيخ وتنازل عن السلطنة يوم ٢١ ربيع الأول من سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) وجلس بعده السلطان مصطفى خان وكان السلطان سليم رحمة الله عليه حليما سليم الطبع كريم الاخلاق محبا للمعارف والعلوم ونشرها في المملكة على الطريقة الاوروبية وباوية الحديثه لانه كان يعلم انها هي الواسطة الكبرى لتأمين انتظام الحكومة وتكثير منابع الثروة والرفاهية

(٢٩) السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد الاول

(١٢٢٢ - ١٢٢٣)

احوال دار الخلافه - جلس هذا السلطان على تخت وعمره ٢٩ سنة ولما كانت احوال العاصمة في اضطراب شديد سلك مسلكا يخالف مسلك من سلفه لان اصناف العساكر اضطرت له لان ينبذ الاصلاحات الجديدة النافعة التي كانت أدخلت ويعيد الاصول والمراسيم والعوائد القديمة وبذلك تأخرت الدولة في طريق التقدم نحو نصف قرن آخر وفي مدة حكمه القصيرة التي بلغت أربعة عشر شهرا كانت مداخلات الجنود الشائرة في ادارة الحكومة تتزايد يوما عن يوم حتى أصبحت الحالة قريبة من الفوضى وقد اغتصب القاعة ام موسى باشا اموال الذين قتلوا في الثورة ولما علم امره اقبل من منصبه ونفي الى بروسه وبعد عشرة ايام من ذلك عزل أيضا شيخ الاسلام عطاء الله أفندي لتحريره الثاثرين على أفعالهم التبجيحة فهاجت عند ذلك الجنود وتشمعوا له وأجلسوه في منصبه ثانية فطغى واستبد فازدادت الاحوال تكديرا وقد كان وصول خبر خلع السلطان سليم الى امبراطور فرانسوا نابليون الاول وقت فوزه على قيصر الروسي وبعده معاهدة تلسيت (1) (Tilsitt) الشهيرة وتداخل نابليون في الصلح حتى عقدت هدنة بين الدولة العلية والروسيا ثم انسحبت الجيوش من حدود المملكتين وعاد الجيش السلطاني الى أدرنه لان تلك المهادنة صارت صلحا دائما ثم نابليون غير بعد ذلك سياسته مع الدولة وتعاهد سرا مع الروسي على تقسيم الممالك العثمانية بينهما بمعنى أن فرانسوا تأخذ بوسنة والباينا وياينا وموره وتسايبا ومقدونيا وتأخذ روسيا الافلاق والبغدان والبلغار والروملي وتعطى الصرب للتساع هذا الامر أرسلت الدولة سفيرا الى نابليون يدعى محب أفندي للمفاوضة معه واستطلاع نواياه نحوها

موت السلطان سليم - اعلم أن مصطفى باشا البيرقدار المتقدم الذكروا كان أميا الا أنه كان جريئا جسورا سليم العقل كريم الخلق ذاجية ووطنية أظهر في حروب الروسي الاخيرة من الشجاعة والاقدام ما جعله معسودا من أعظم الرجال وقد أتم عليه السلطان برتبة الوزارة ووجه اليه ولاية سلسرة ولما كانت مقادير الرجال لا تقدر قيمتها وقت الاختلالات والاضطرابات وكثيرا ما قلوبهم الحساد وقع بينه وبين الصدر الاعظم جلبي مصطفى باشا نفور ثم تصالحا وعاد الى روسحق ولما دعيا الى استانبول امتنعان مبايعة السلطان مصطفى وسعيان في ارجاع السلطان سليم الى كرسيه ثانية

(١) تلسيت مدينة واقعة بمملكة بروسيا الشرقية بنيت سنة ١٥١٢ م وبها عقدت المعاهدة الشهيرة بين فرانسوا والروسياتي ٨ يولييه سنة ١٨٠٧ م ومن مقتضاها أن يأخذ نابليون الاول اقليم بروسيا الواقعة غرب نهر السبوواد بولونيا ويعترف القيصر اسكندر الاول بيوسوف ببارت مكالناولي ولورم كالهولاندتو بلاد الرين المتعاهدة

لميلهما الى سياسته ولما أحس السلطان مصطفى بذلك بعث أناسا خفيوا والسلطان سليم وأرسل
آخرين لخلق أخيه الامير محمود الا أن مصطفى باشا البيرققدار تدارك الامر وأرسل من طرفه أناسا
أحضر والامير محمود عنده لجمائته من كل من يريد به شر او نادوا في الخيال بالسلطان سليم الا أنهم لما
علموا بموته أرسل مصطفى باشا في الحال جماعة من طرفه فقبضوا على السلطان مصطفى وخلعوه
وأجلس السلطان محمود على كرسي السلطنة وسنه ٢٤ سنة

(٣٠) السلطان محمود الثاني ابن السلطان عبد الحميد الاول

(١٢٢٣ - ١٢٥٥)

صدارة الپيرقدار وقتنة اليكچرية - لما بويع السلطان محمود بالخلافة عين في الحال مصطفى
باشا البيرققدار لسند الوزارة وعرب زاده عارف افندي للشيخية الاسلامية ولما رأى ديوان الشورى أن
بقاء السلطان مصطفى في قيد الحياة يكون سببا للفتن والقتال التي أودت بالدولة الى ذركات الضعف
أفروا على قتله وقتلوه خنقا وكان ذلك على غير ارادة السلطان محمود ثم ان الصدر بحث عن جميع
الاشخاص الذين لهم يد في قتل السلطان سليم وأعدمهم عن آخرهم ونفى شيخ الاسلام السابق عطاء الله
افندي ومن على شاكته من قضاة العساكر

ثم التفت الى معانديه وبتكل بهم فخلاله الجور وقبض على زمام السلطة وشكل الوزارة من رجال اشتهروا
بالاخلاص والميل له ثم وجه همته لاستئصال المفاسد التي فشت بين طائفة اليكچرية وهو عمل من
أصعب الاعمال وأشدها خطرا لانه كان السبب في فشل كثير من الوزراء قبله ولما عزم على ذلك عقد
مجلسا حافلا دعا اليه جميع الباشاوات والاعيان ولما كل عدد هم عرض عليهم ضرورة اصلاح فرق
اليكچرية بشرط عدم ملاقاتها لانهم صاروا الى حالة سيئة من الاختلال والجهل بقنون الحرب
وعرض لذلك عدة طرق من شأنها أن تعيد لهذا الجيش قوته السابقة ومهابته القديمة مستندا في
ذلك على ضرورة انشاء جيش منظم يعادل جيش الاور وباوين ثم قال لم يعد عند أحد من التعظيم
والنخلة لجيش اليكچرية المجيد قدرا ما عندى له من ذلك وانني أفخر بتبعيةي لهذا الجيش الذي
اذ لم تلحقه عوامل التطرف المضرة ولم يغير النظم التي سنهاله حاجي بكتاش لصار لا يقهر الا أن
كما كان في السابق وصارت الوظائف فيه يدل أن تعطى حسب الاستحقاق والشجاعة صارت تباع
وتشترى وأصبحت الثكنات مأوى للذين لا مأوى ولا صناعة لهم أو للانذال الذين يفرون من الشغل
وقد ساد الاختلال وعمت القبائح المخجلة جميع فرقهم ونسوا الترمينات التي حتمت عليهم قوانين
وأوامر السلطان سليمان وأن اليكچرية المستعملين في الحفظ والحراسة صاروا يتسذون أموال
الرعية وينسذون أمر الاشتغال بالمحافظة على الامن ظهر باوليت نتيجة ذلك الا الجهل بالقنون
العسكرية وعدم الانتظام حتى عدمت منفعة جيش كان مدة قرون الفخر للدولة والعز للملحة بحيث
كانت الدنيا ترتعد منه خوفا وصاروا عظام العلماء والقضاة يدفون أجور مخدومهم من خزينة
اليكچرية وكثيرا ما ترى عدة جوامك ونفقات سرية تعطى لشخص واحد لم تسبق له خدمة بين
الجنود أصلا ولم يحمل السلاح للدفاع عن الدين والدولة مطلقا وقد أخذ ضباط اليكچرية يتعاملون
معاملة مخجلة يبيعا وشرا في أوراق مرتبات الجنود بمساعدة بعض المرابين من اليهود بحيث انهم

يخرجون في الغالب بما يأخذونه من الربالفاحش الخندي الغيور المحافظ على واجباته من المرتبات التي مضتها الحكومة مكافأة لاتعباه وتأمين المعيشة وان مولانا السلطان الذي يصرف همه ليعيد لهذه الدولة مجدها السابق وسطوتها القديمة يشعر أنه من المهم العودة للنظامات الحربية القديمة التي أعلنت شأن الدولة وقد كلفني بان ابلغكم نواياه

ثم عرض الوزير على الهيئة اجراء الامور الآتية وهي اول اباداة عادة بيع الوظائف ثانيا تكليف جميع اليكجربة الغير المتزوجين بسكنى الشكنات ثالثا ان لا تدفع جامكية الاليكجربة الذين في الشكنات المؤدين للخدمة بالفعل رابعا ان يمنع بيع الجامكية مطلقا الا في احوال خصوصية وان من خالف ذلك يعاقب عقابا شديدا خامسا ان يضبط جدول المخصصات العمومي التي تدفع من خزينة اليكجربة سادسا ان يجبر اليكجربة على اجراء التريينات التي سنها السلطان سليمان وأن يكونوا خاضعين لنظام دقيق سابعان أن يؤمر في الحال باستعمال الاسلحة الجديدة والتسمية التي يستعملها الاوروبايون بين جميع الجنود العثمانية وهي أعمال باحتفاواى المفتحة. ومن ذلك فانه خوفان أن الغاء هذه القبائح والاختلالات واعادة النظام القديم مرة واحدة ربما أحدثت عوائق مهمة أقر مولانا السلطان على أن ينتخب من بين اليكجربة الاقوياء من غيرهم من شبان المسلمين المقيدين في ديوان الجيش العدد الكافي لتنظيم فرقة لقتال الفرنج ويكون نظام اليكجربة السابق ويكون لها في غريباتها وتريباتها في القتال وفي وجودها بالشكنات ما للجيش الاوروبايه من النظام الذي جعله في الحرب الحديث من الضروريات

فأقر المجلس بان اتحاد الآراء على هذه الافكار وصدق عليها كتابة وأقرها شيخ الاسلام بلا صعوبة وخرجت بها القوي والحاصل ان الاحوال تعثت كما يجب البيروقراطية وقد أسكره بعد ذلك خيرا نتصاره فتكبر وتجب حتى أعضب خزنة وأغاظ الجيش والعلماء واليكجربة فصاروا من ذلك الوقت يترصون له الى أن خلت الاستانة من جيوشه التي كان رتبها وجعلها قوة يعتمد عليها عند الحاجة ولم يبق منها بالعاصمة الا القليل فانتهز اليكجربة تلك الفرصة وثاروا في رمضان من السنة المذكورة ثم قصدوا سراى السلطان مصطفى يريدون اجلاسهم على العرش فاعتزتهم البيروقراطية وقاومهم شديدا الا أنه هزم ولما أحس بتغلب الثائرين خشى من عزل السلطان محمود خان العبدى فأمر بقتل السلطان مصطفى خان الرابع والقضاء بجنته للثائرين كما صنع السلطان مصطفى الرابع بسليم الثالث فلما رأى اليكجربة جنحة السلطان مصطفى زادوا وطغيا وهاجموا على السراى الملوكية والقوا النار في جوانبها الا أن الصدر الاعظم أبي التسلیم لهذه الفتنة الباغية فقات حرقا هو وبعض أتباعه ويقال أنه تحصن في بعض الابراج وأشعل مابيه من البارود فقات وهزم اليكجربة أيضا محاربين من رجال الاصلاح مثل رامن باشا أمير البحر والقائد عبدالرحمن باشا واضطر السلطان محمود خان بعدما أجراه اليكجربة من التدمير والتخريب ان يقبل طلباتهم مؤجلا دمار هذه الفرقة الباغية الى فرصة أخرى

احوال البحرية في الوقت المذكور - لما عزل السيد علي باشا من مسند القبودانية ونفى الى بروسه (١٢٢٣ هـ) تعين مكانه السيد عبد الله رامن باشا وكان من حزب البيروقراطية فأخذ يقلل المصاريف بدار الصناعة وتصدى لمنع المفاسد التي كان يأتها الجنود البحرية بفتح طوائف

القليونية نجيبة مما كانوا يرتكبونه من الاعمال المغايرة لآداب والامن وعاقب كثير منهم وقتل رجلا قهوجيا كانت تأوى اليه الاشقياء من البحرية فقرح الناس وكان البيرقدار مصطفي باشا المذكور هو المنفذ لهذه الاحكام لاستغلال القبودان باشا بامور أخرى تخاف القليونية والملاحون الموجودون بخدمه دار الصناعة وغيرها وانكش كثير من طوائف اليكچريه البحرية الذين كثيرا ما كانوا يتألبون ويتعدون بظلمهم على السفن التجارية العثمانية الا أنهم مازالوا يحسدون له الشر الى أن تمكنوا من قتله في بعض ثوراتهم كما سبق وكان مصطفي باشا المذكور مهيبا صارما ولما قتل ظهر رجل من الاشقياء يدعى محمداً عامعروف بفساده ومشهور بقبائحه وأصله من أتباع السيد علي باشا الجزائرى القبودان السابق والتفت حوله عصابة من أمثاله وهجم بهم على دار الصناعة وضبط السفن العثمانية الحربية الموجودة بها واستولى أيضا على الطور بجنازة وامتدت مفساده ومفساد أتباعه بداخل المدينة واجتمعت عليهم طوائف اليكچريه وأخذ الكل يعيشون في الارض فسادا وبغز رامن باشا عن ردعهم لموت البيرقدار مصطفي باشا فاستقال من وظيفته وأرسل الشقى محمداً أعنا المذكور الى السيد علي القبودان باشا المنفى في بروسه يستدعيه ليتولى هذا المنصب فحضر واستلم المنصب بقوة هؤلاء الاشقياء وكان السيد علي باشا المذكور من قواد البحر مع حسين باشا الجزائرى (١٢٠٥ هـ) مذ كانت العماره بالبحر الاسود كما سبق وامتد عنقه الى مسند القبودانية العمومية فانفق مع الجزائريين على أن يعمل عملا حرييا ينال به هذا المنصب عن استحقاق وهو انه أغار على سفن الروس بكيفية مخالفة للفنون الحربية البحرية ولولا أن أنجده الفرق العثمانية لقتل ثم فر هارباً قاصداً الاستانة كما مر ولما صدر من حسين باشا الصغير المذكور مدة قبودانيته ما يخالف القوانين حكوا عليه بالاعدام ثم استبدلوا هذا الحكم بتجريد من رتبته ونفيه الى طرابزون ثم عاد للاستانة وتعين رئيسا لبوابى السراى السلطانية ثم كان ما كان من حضور الدونما الانكليزية ومحاطبته للسلطان بما كان سيبا في تعيينه بوظيفة قائد للعشرين سفينة الحربية التي خصصت لمقاومة الاساطيل الانكليزية وترقيته لوظيفة القبودان باشا كما مر - يان ذلك ولما كان هذا القبودان تربى برا كعب القرصان لم يكن يقبل السير على النظام الجديد الجارى اذخاله اذ ذلك في كافة الدوائر العسكرية والبحرية كرهية السلطان محمود خان الذي أمر بالذلة وچاقات اليكچريه ببل كان يرغب في ادارة دار الصناعة على الهيئة القديمة التي ظهر فسادها وكانت من أكبر الاسباب لبقاء الدولة في حالة تاخر ولذلك كان مذموما عند هذا السلطان وقد حصل في مدة قبودانيته أن هزم خارج البوغاز أمام أساطيل الروسية واتهم بعض الرؤساء ظالميا فكوا عليهم بالقتل كما سبق بيان ذلك وساعده على أقواله من على شاكلة من الذين يكرهون النظام الحديث كما تقدم ومع هذا فقد نال هذا الغشوم جزاء أفعاله حيث عزل ونفى الى قره حصار (١٢٢٤ هـ) وتخلصت البحرية منه ومن أمثاله الذين كان معظمهم من طائفة اليكچريه وتعين بعده جرحه بي علي باشا قائما مقام الصدارة وأصله من مماليك أنفى بك أحد أمرام مصر حضر الى الاستانة بحجة يوسف ضيا باشا الذى كان قائد للجيش العثمانى المرسل لاجراخ الفرنسيين من مصر وفي هذه المدة كانت الدونما الروسية تهدد سواحل البحر الاسود وتعرض كثير السفن التجارية العثمانية حتى ألحقت بالتجارة خسائر جسيمة

وفي سنة ١٢٢٣ هـ أتى أسطول المجلىزى مؤلف من أربع سفن حربية وأرسي خارج بوغاز

الدرزبل وبه من خصون لعقد الصلح مع الدولة فاجتمع الوزراء وبعد المذاكرة طويلا قرروا قبول الصلح على حد قول من قال ان من أعظم الخطايا محاربة من يطلب الصلح وكتب بذلك معاهدة تحتوي على اثني عشر بنداً وصدق عليها من الجانبين ومن مقتضاها مبادلة الأسرى وان تحل انكسرة جميع الجهات التي احتلتها بما فيها من المهمات الخيرية فعادت التجارة والصلوات الودية بذلك بين الدولتين كما كانت

استئناف الحرب بين الدولة والروسية - اعلم أنه في سنة ١٢٢٤ هـ ألقع القبودان بخرخه جي على باشا بالدونما العثمانية بتصد مطاردة سفن الروسية وكانت هذه الدونما مؤلفة من ١٣ سفينة مختلفة القدر والنوع ثم تقدم الى كستنج وقبل وصوله الى وارنه رأى ثلاثة غلايين تحمل أعلاما غير روسية فلم يتعرض لها وكانت هذه السفن روسية الأناهم المارآت الدونما العثمانية على بعد أخفت بخودها وورفت أعلاما أجنبية ولما وصل الى وارنه علم أن الثلاثة غلايين المذكورة أتت على حين غفلة وأحرقت سفينتين عثمانيتين كانتا بالمرسى وأسرت طوائفهما وكان القبودان المذكور ممن ليس لهم المام تام بالبحرية وليس معه من يرشده من الضباط الخبيرين لان بعضهم قتل في مدة السيد على باشا السابق وحكم على بعضهم بالنفي في بلاد بعيدة وجرد البعض وطرد من بين البحرية فلم يكن معه في هذا السفر الا الجهال الذين كانوا يصرفون أوقاتهم فيما لا ينفع أصلا بل يمكن بين الضباط من يعرف القراءة والكتابة فضلا عن العلوم الرياضية والهندسة وعلوم الملاحة التي هي أهم الامور في الوظائف البحرية ولهذا لم تستفد الدولة من دونمتها في هذه المرة أدنى فائدة أصلا حتى انه من جهل الرؤساء اتفق أن سفينة حربية روسية ساقطها الرياح بالرغم عنها حتى ألقها ليللا وسط سفن العمارة العثمانية ثم خرجت ولم يتمكن أحد من القبض عليها وذلك كافي للحكم على درجة قواد هذه العمارة ثم عزل هذا القبودان عند عودته الى استانبول وتعين بدله حافظ على باشا

وفي سنة ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) خرجت الدونما العثمانية الى البحر الاسود وقبضت على سفينة روسية ولما وصلت الى وارنه اضطر الجيش الروسي الذي كان يريد حصارها أن ينصرف عنها وبسبب ما كانت عليه أساطيل العثمانيين في ذلك الوقت من الاختلال والضعف كانت قرصان الروسية تتعرض لها في الطريق وتحاربهم ثم عادت في فصل الخريف ولم تجر عملا ما وفي سنة ١٢٢٦ هـ تعين قره محمد باشا قبودان بالدونما وعمونه تعين خسرو محمد باشا وهو كرجي الاصل وخرج بالدونما سنة ١٢٢٧ هـ الى البحر الاسود وكانت العمارة الروسية تطوف حول شواطئ بلاد الكرج فبعثت الدونما العثمانية تتردد بين سواحل سينوب ومضيق البوسفور ولم تتعرض احدى العمارتين للآخرى

اعمال الجيش العثماني ومعاهدة بكرش (١٢٢٧ هـ) - كان القائد للجيش العثمانية في هذا الحرب هو الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا تعين بعد وفاة البيرقدار مصطفي باشا فلم يكنه منع العساكر الروسية من التقدم فاستولوا على مدن اسماعيل وسليستره وروستوق وجهات نيكوبولى ووزارجق وهزارغراد في سنتي ١٢٢٥ و ١٢٢٦ هـ ولذلك اتهموا ضيا باشا بالتهاون فعزل وصورد ونفي الى ديمتوقه ووجهت الصدارة الى لازا محمد باشا ولما قاد الجيش بالروملى وكانت ٦٥ ألف مقاتل هاجم الروس ١٢٢٧ هـ وألزمهم القهقري واخلاء روسحق بعد أن خربوها وأحرقوها وفي

خلالها وأردت فرنسا التوسط في الصلح فرفض السلطان محمود ما دخلتم لأنه غضب جدا من المعاهدة التي عقدها نابليون بونابارت مع قيصر الروس اسكندر الأول في تلسيت وكان من شروطها المشاركة في تجزئة البلاد العثمانية كما تقدم واستمرت الدولة تحارب روسيا على غير فائدة لهزيمة جيوشها وينما كانت الحالة وخيمة العاقبة على الدولة من كل صوب إذا تأها الله بالفرج فتمسك كأمس السياسة بين نابليون الأول وبين دولة روسيا لعدم قيامها بتنفيذ بعض شروط معاهدة تلسيت التي كان من مقتضاها ان الروسية تعاكس وتعارض تجارة الانجليز بفتح أبواب نغورها عليها وأشهر عليها الحرب (١٢٢٧ هـ - ١٨١٢ م) وسار جيوش جرارة وقوة هائلة الى بلاد روسيا فالتزمت روسيا عنده ذلك أن تسحب أكثر جيوشها من الحدود العثمانية وسعت في مصالحة الدولة وعينت الدولة غالب أفندي كخدا الصدر الأعظم وغيره مندوبين عنهم بعثتهم الى مدينة بكرش في أي بخارست وهناك عقدت المعاهدة المسماة بمعاهدة بكرش في ١٧ جادى الثانية سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) وكانت موافقة جدا للدولة العثمانية وبعتمضاها بقرية الافلاق والبغدان تابعتين لها كما كانتا وكذا بلاد الصرب مع بعض امتيازات ولما تم الصلح وعادت الجيوش عادت العمارة العثمانية أيضا الى استانبول وقد اغتم السلطان محمود الثاني فرصة الصلح وأخذهم في تسكين الثورات القائمة بولايى بغداد وأيدى وغيرهما واتمام المشروعات الحسنة والتعليمات الجديدة التي كان بدأها السلطان سليم خان الثالث وأوقفه عن تمامها ثورة الكبرية وحرب روسيا

رأى مؤرخى الدولة في حالة بحريتها - وضع المؤرخ الشهير كاتب جلبي (١) في تاريخه تحفة البحار في أسفار البحار مقالة رنانة شرح فيها بلسان عثمانى غير على وطنه منتصر ملته قوة الدولة البحرية فقال ما ملخصه غير خفى ان الامور البحرية هي الركن الاعظم الذي يجب على الدولة العلية الاهتمام به والتقسيد بشأنه لانهز يادة عن العنوان الذي للدولة العلية وهو سلطنة البرين وحاكمة البحرين كانت أكثر مما لكها المحروسة عبارة عن جزائر وسواحل بحرية خصوصا وان دار السلطنة أعنى مدينة القسطنطينية واقعة بين بحرين ولما كان ضبط ذلك وحفظه وحراسته متوقفا على أن يكون لها الشأن المهم في البحار اعتنى السلف بالبحرية اعتناء لا من يد عليه ولذلك وجب أن لا يغفل هذا الامر المهم أصلا بل يلزم بذل المقدور في جعله تاما كاملا اه وقد حذا المؤرخ شافى زاده (٢) حذوه حيث قال انه رأى كثيرا من سراة القوم وأعيانهم يتسامرون في مجالسهم الخصوصية بأحاديث وأقوال عن بحرية الدولة وقالوا انهم لم يروا أقل منفعة عادت على الدولة من زمن مديده من أساطيلها وعوضا عن أن يقولوا انه اذا كان من الاقارب التي يلقب بها خليفة الاسلام لقب حاقان البحرين وكانت الدولة تريد المحافظة على هذا اللقب العظيم وجب عليها ان تهتم من يدا الاهتمام وبذل مالها من الممكنات في اكمال واتمام السفن الحربية لزيادة القوة البحرية

(١) كاتب جلبي هو أحد العلماء والمؤرخين المشهورين توفي سنة ١٠٦٧ من الهجرة ومن تأليفه المعروفة تاريخه المشهور وكاتب كشاف الظنون النادر المثل وكاتبه المسمى جهانغاوغر بهان من الكتب النقبسية التي جعلته بعد ضمن أشهر المؤلفين والمؤرخين لدى العثمانيين

(٢) شافى زاده ويدهى محمد عطاء الله أفندي وهو من المؤرخين توفي منقباسنة ١٢٤٢ هـ وله مؤلفات في الطب والطبيعات ومن تأليفه مرآة الابدان في التشريح ومعيان الاطباء والمقررات والمرئيات واصطلاح الاطباء وغيرها في الطب وله مؤلفات معتبرة في الحساب والهندسة والجبر والمقابلة وله تاريخ معتبر

سمعتهم يقولون بعدم لزوم الدولتين ما قبل الاولى حذف مصاريف دار الصناعة وصرها في شؤون أخرى الا أنه بحمد الله كانت هذه الاقوال ساقطة لدى السلاطين وليس لها أقل تأثير عند أصحاب النفوذ اه وقد فات هؤلاء المنتقدين ما وصلت اليه الدول البحرية من القوة العظيمة خصوصاً دولة انكلترة ذات القوة البحرية العظيمة التي فضلا عن محافظتها على جزائرها الاصلية تمكنت بهم ان مد جناح سلطتها وسلطانها على كثير من الجهات البعيدة الغنية ولذا ترى المؤرخين من الانكليز وكبارهم يحثون دولتهم دائماً على زيادة قوتها البحرية وأساطيلها الحربية اذ هي أصل رفعتها وسبب قوتها فرحم الله المؤرخ كاتب جلبي حيث كشف بعد ذوبه ألقاظه قناع الجهل عن وجه الحقيقة ونظم فرأى فوائده في سموط الاقوال التاريخية بأحسن طريقة ورمى عن قوس الافكار المتوقدة فأصاب من الصواب كل دقيقة فانه أظهر ما تحتاجه دولتنا العلية من القوة البحرية وكثرة السفن الحربية حتى تكون على الدوام آمنة على سواحلها وجزائرها الداخلية في مستملكاتنا بالبحر الايض والبحر الاحمر وبحر فارس والبحر الاسود ولقد كان عمل السفن قبل هذا الاهمال والتراخي اللذين أشرنا اليهما جاريابكثرة في دور صناعة الدولة ببعض سواحل بلادها ولم يكن عملها قاصراً على دور صناعة الاستانة فقط فكانت الغلايين تشيد في بدروم الواقعة أمام جزيرة استسكوى ببحر الارخبيل وكانت الفرقاط تبنى في كرميستان بسواحل آسيا الصغرى وفي جهات كثيرة من سواحل البحر الاسود ثم بطل العمل مدة من الزمن الا أنه في ١٢٣٤ هـ أصدر السلطان فرماناً الى القبودان ايج ايللى أحمد باشا الذي خلف محمد خسرو باشا (١٢٣٣ هـ) باعادة العمل في الجهتين المذكورتين فشيء فيهما ما غلبونا وفرقاطتين وعين لذلك ما يلزم من العمال وفي سنة ١٢٣٦ هـ أى مدة قبودانية حسين باشا صنع في دار صناعة استانبول كثير من السفن الحربية وشيدوا فرقاطتين بمدينة سينوب وشرعوا في بناء غليون كبير آخر بالجهة المذكورة وأمر وابعاد قطع الاخشاب اللازمة لبناء السفن وصدر بعد ذلك أمر لدار صناعة سينوب بعمل فرقاطتين آخرين وبذلك تم للدولة الحصول على سفن كثيرة في زمن وجيز وقويت بحريتها

اهتمام السلطان محمود باستئصال ثورة الوهابية - قد ذكرنا فيما سبق ظهور طائفة الوهابية وأعمالهم وتعدياتهم على الاراضي الحجازية ولما رأى السلطان محمود أن امتداد نفوذهم موجب لتفرق الكلمة في الاسلام عزم على ابادتهم تماماً ولما كانت أحوال الدولة في ذلك الوقت لا تساعد على ارسال الجيوش العثمانية الكثيرة لقمعهم كلف المرحوم محمد علي باشا الكبير والى الديار المصرية (١٢٢٢ هـ) بحاربهم واسترجاع مكة المشرفة والمدينة المنورة من أيديهم فامتثل محمد علي باشا للأمر وأخذ في اعداد الجيوش وانشاء السفن بدار صناعة بولاق ثم نقلها قطعاً وركبها بنهر السويس الا أنه افتكر أن المماليك أعداءه رعباً تنهزوا فرصة خلوا بسلاطنتهم الحامية والجنود والقواد وقاموا بشورة تكون مضرة بنفوذهم فعزم على استئصالهم قبل سفر الجنود وكشف بعض أخصائه بذلك فدبروا له حيلة وهي أنه دعاهم الى حفلة بقلعة القاهرة ولما تكاملوا وقع بهم فلم يفلت منهم الا اثنان أحدهما أحمد بك صهر ابراهيم بك الكبير والثاني يدعى أمين بك وكان أتى متأخراً ولما سمع اطلاق النيران بداخل القلعة عمل المكيدة وهمز جواده وفر الى بلاد الشام وكان ذلك في خمس خلون من صفر سنة ١٢٢٦ هـ ثم سافرت الجنود بعد ذلك تحت قيادة ولده طوسن باشا فخرب الوهابيين

واستخاص منهم المدينة المنورة ثم قصد مكة فحاصروه بجهة الطائف ولما بلغ محمد علي باشا ذلك سافر
مصر الى مكة في شعبان سنة ١٢٢٧ هـ وقبض على شريف مكة الشريف غالب وأرسله الى مصر
أولاً ومنها الى سلايك فبقى بها الى أن توفي (١٢٣٠ هـ) وأجلس الشريف يحيى بن سرور مكانه ثم
قهر الوهابيين في جملة وقائع واسترد منهم عدة بلاد ولما توفي زعيمهم سعود في ١٩ ربيع الثاني من
سنة ١٢٢٩ هـ تضعفت قوتهم وعاد الأمن في طريق الحج وخرج في تلك السنة خلق كثير ورجح
أيضاً محمد علي باشا ومن رافقه ثم عاد الى مصر في رجب سنة ١٢٣٠ هـ

وفي خلال ذلك تقدم ولده طوس باشا بالجيش المصري الى بلاد نجد لمهاجمة مدينة درعية مركز
الوهابيين فاحتل مدينة الرس بعد وقائع انتصر فيها ثم أرسله عبد الله بن سعود الذي ترأس على هذه
الفتنة بعد وفاته زعيمهم السابق فقبل طوس باشا منه الصلح أخيراً تحت شرط أن يدخل بجيشه درعية
وأن يرذل الوهابيون جميع ما نهوه من الحجرة الشريفة النبوية من الجوهرات والنقائس وأنه مكتوب
من والده يقول له أن يكلف عبد الله بن سعود بالتوجه الى اسنة انبول لتقديم خضوعه وان أبي
فالسيف حكم إلا أنه حصل بالقطر المصري في تلك المدة ما أوجب عودة طوس باشا سريراً ثم أرسل
محمد علي جيشاً آخر تحت قيادة ولده الأكبر ابراهيم باشا في شوال سنة ١٢٣١ هـ فنقدم من ينبع الى
نجد وأخذ يجارب الوهابيين حتى دخل درعية عنوة في شهر القعدة سنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م)
ونفذ الشروط التي كان اشتراطها طوس باشا من قبل وأعيدت الجوهرات والدرية النفيسة المعروفة
بالكوكب الدرى وكافة التحف الى الحجرة النبوية وسافر عبد الله بن سعود الى الاستانة وقتل هناك
واقطع بذلك دابر الوهابيين وعاد الأمن الى الاقطار الحجازية ثم عاد ابراهيم باشا بجيشه الى مصر فأنما
ظافرا سنة ١٢٣٥ هـ (١٨١٩ م) وكان لدخوله يوم مشهود

استئصال الدر بكرة وقتل تيمورلنقى على باشا (١٢٣٦ - ١٢٣٧ هـ) - اعلم أنه بعد أن
انتهت الدولة من مشاغل الحروب الروسية ومسئلة الوهابية سعت في ازالة نفوذ الامراء أصحاب
الاقطاعات وهم المسمون بالدره بكرة فقتلت منهم عدة وكان والى يانية تيمورلنقى على باشا وهو من
أشراف الارنؤدو ومن أرباب الدراية والشجاعة فيهم حكم بثلاث الاطراف نحو أربعين سنة وحاز أموالاً
وأملاً كواسع في يانية ويكيشهر وسلايك ومناسير وغيرها وأخذت شهرته وثروته ومهابته تتزايد
يوماً فيوماً حتى أصبح صاحب النفوذ في جنوب الروم الى وقد ساعد الدولة كثيراً في حرب روسيا
الاخيرة ولما تعدت فرنسا على الديار المصرية أنعمت الدولة عليه وعلى أولاده برتب تليق بهم وأقطعت
سناجق موره وما جاورها ما بذله في خدمتها وقد خدم هذا الباشا الدولة سياسياً خدماً جليله وان كانت
معاملاته لرعيته قاسية ظالمة وكان يجب ترقى أحوال بلاده فلذلك اهتم بتنظيم الطرق وتنشيط الزراعة
ونحوها ورتب جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف عسكري منظمة ولما كان لعلى باشا المذكور من السطوة
والنفوذ الذي يؤثر به على أهالى جهات موره المستعدين لآبارة الفتن كانت الحكومة العثمانية تستعمل
معه الملاطفة والملاينة دائماً حتى اتضح الامر الذي كان بينه وبين حالت أفندى كتحدا الوزارة
وصاحب النفوذ في ذلك الوقت بهروب باشوبك كتحدا على باشا الى الاستانة فأخذ هذا الوكيل
يذيع من الاسرار والمخبات التي يعرفها السيده ما سقطت به منزلته من نظر السلطان ثم أعلنوا
عصيانه لما أظهر التمرد وازداد ظلمه وجوره ومال الى حب الاستقلال بآبالة يانية وشبه جزيرة موره

وجهاً ترحاله وبيروس والجزائر السبع حتى انه كاتب نابليون بونابارت يطلب مساعدته على ادراك هذه الاماني ليكون له نصيراً وظهيراً فلما علمت الدولة بذلك عينت والى مورده خورشيد باشا سر عسكر التأديبية في أوائل سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢١ م) فتقدم بالجيش وهاجمه من كل جانب حتى حصره أخيراً في قلعة يانيه وأرسل تقريراً الى استانبول بما حصل فأمرته الحكومة بقتل الناصر المذكور حيث وجد وفي أثناء ذلك أرسل على باشا المذكور للسر عسكر يطلب التسليم ولما اجتمع معه لتقرير شروط الصلح أخرج له السر عسكر المذكور الفرمان القاضي بقتله فاحتاطت به العساكر وقبضوا عليه وقطعوا رأسه وأرسلوه الى الاستانة ولما انتشر خبر قتل علي باشا بين أهالي مورده الذين كانوا يسمونه بسبع يانيه الكهل شقوا عصا الطاعة وقاموا بالثورة كما سيأتي

الثورة اليونانية ووقائع مورده - لما كانت البلاد اليونانية جبلية وأراضيها وعرة صعبة المسالك شب أهلها على حب الثورة والميل الى شق عصا الطاعة ولذلك لما أرادوا الخروج على الدولة في هذه المرة اجتمع زعماءهم بعد أن اجتمعوا رأيتهم في نهاية القرن الثاني عشر الهجري خصوصاً لما أرت فيهم التهربات الاجنبية بظاهر وبالبعين (١١٨٢ هـ) واستعدت الدولة لكبحهم وعينت محسن زاده محمد باشا والي اعلى مورده ثم خلفه حسن باشا الجزائري وبما أظهره هذان القائدان من السطوة تمكن من ردع الارواح في الظاهر ثم ظهر في تلك الاطراف تيه دلنلي على باشا وبعثت عليه من القوة والنفوذ منع تصميمات الروم فكان سداً منيعاً لثوراتهم الا أنه بعد أن كسرت الدولة جيوشه وقتلته على يد والى مورده خورشيد باشا كما مر بك اشتعلت نيران الثورة بين الروم وزادت ما جمعيتهم السرية المسماة هيتريا (Hétérie) ^(١) اشعالا وهذه الجمعية كانت تشكلت في مدينة ويانه بابعازن الروسيا وكان ظاهرها السعي في تعليم شبان اليونان المعارف والعلوم وباطنها بث روح الفساد والفتنة لتنفيذ المقاصد السياسية وكان بين أعضائها كثير من كبار الروم والقساوسة الساكنين في بلاد الروسيا والمملكيتين والولايات العثمانية ومن أوائل أعمال هذه الجمعية ان أحدثت فتنة في بلاد المملكيتين قتل فيها المقرب باشا أمير الافلاق سنة ١٢٣٦ هـ

ولما أخذت الدولة العثمانية في تسكين الاضطراب الذي حدث بالملكتين قام اليونان جميعاً في مورده والتجاسكناهم من المسلمين الساكنين في القرى والمدن الى القلاع واشتد أمر الثوار وقوى

(١) يطلق هذا الاسم الذي معنا الاتحاد والمواخاة على جمعيتين يونانيتين تأسستا احدهما بمدينة ويانه بمساعي الكونت كابودي استيريا وكان غرضها اتحاد مدارس بلاد اليونان وان تعصم عن المباني اليونانية القديمة وتحافظ عليها وقد ساعدها العلماء والامراء وانتقل مركزها أخيراً الى مدينة آتينيا الا أنها بقيت أموالها بمدينة مونينج والآخرى جمعية سرية وهي المرادفة لها تشكلت بقصد تخليص بلاد اليونان من حكم الدولة وقد انضم اليها كثير من أمراء أوروبا ووزرائها وملوكها وساعدها بالاموال الظالمة ورجوا أفكارها ويقال ان امبراطور الروسيا كان رئيسها الاعظم وكان يشترط على أعضائها ان يقسموا الالمان المغلظة بأن يجعلوا أموالهم تحت تصرف الجمعية وأن يكونوا على استعداد لتضحية حياتهم لنجاح مشروعهم وأن لا يقبضوا سر من أسرارها أصلاً وكان لهذا الجمعية شعبه أخرى بالقطنطينية يدبر أعمالها ثلاثة رؤساء وكانت وظيفتها ارسال الرواد الى المدن التركية الكبرى بخرصون الناس على الانضمام اليها سرا (١٨١٧ م) وقد نجحت هذه الشعبه كثيرا حتى انه بعد مضي سنة من تأسيسها صار لها شعب فرعية سرية بأزمير وساقز وساموس وكالامطة وميسولونكي ويانيه وبخارست وباشوتز وبست وموسكو وبعد ان استمرت هذه الجمعيات تشغل سرا جاهدت بمقاصدها مرة واحدة بعد ان عت الدولة تيه دلنلي على باشا ويقال ان المؤسس لهذه الجمعية شاعر يوناني يدعى ريفاس قتلته العامل العثمانى سنة ١٧٩٨ م

ساعدتهم عما كان يصلهم من الامدادات الخارجية فأخذوا يحاصرون القلاع واستولوا على كثير من
الاستحكامات الصغيرة واستمر واحصرون بلاد طرابلس والبلجة وانا بولي وكردوس مدة ثورتهم بأجدها وقد
كان رجال الدولة وقتئذ يجهلون المساعي التي تبثها جمعية هيتري بالمد كورة حتى ان خورشيد باشا لما
سافر من مورده الى يانيا لقتال علي باشا تركه عائلتها في مقر الولاية بطرابلس ولم يتم بادخار الذخائر
والمهمات الكافية بقلعتها ولما فاز الثوراني أكثر الجهات لتراخ الولاية في تأديتهم اقتدى بهم كثير من
البلدان الاخرى فشقوا عصا الطاعة وكان الكل يفتكون بالاهاى المسلمين فتكاذر بها وحشيا
وامتدت الثورة أيضا الى جزائر الارخبيل وآتته وقارلى ابلى وترحاله ولم يتمكن كوسه محمد باشا وبهرام
باشا اللذان تعينوا لولاية مورده بعد ذلك من ردع الاشقياء وكذلك تحصل نتيجة من الوسائل التي استعملها
بندرلى على باشا ولما تعين الصدر السابق سيد على باشا عساعى حالت أفندي سرعسكر المورده بتدبت
قوته العسكرية قبل أن يصل الى محل مأموريته فاشتدت عند ذلك الثورة وزاد أربابها جراءة واقداما
وضيقوا التسلاع وشدتدوا عليها الحصار الى أن استولوا على طرابلس وأسر وانساء خورشيد باشا
وكوسه محمد باشا وكافوا بها كما مر ووضع اليونان السيف في الاهاى ثلاثة أيام بلياليها ولم يحترموا شيئا
ولا طفلا ولا امرأة ونهبوا جميع المنازل

وفي تلك الاثناء كان خورشيد باشا أتم مسألة يانيه وقتل على باشا فاكسب نفوذا واعتبارا الذي
الدولة خصوصاً لانه كان على مذهب حالت أفندي يرى ما يراه بخصوص تبه دلنلى على باشا الا أن
خورشيد باشا لم يجد في خزان على باشا ما كان يظنه هو وصاحبه حالت أفندي من الاموال بل وجد بها
ما يكتفي مصاريف العسكرية مدة شهرين فقط ثم عزل سيد على باشا من السرعسكريه وبقى برفقة درامه لى
محمود باشا الذي خلفه في منصب السرعسكريه بمورده ولما سافر أخذ معه قوة مركبة من ٢٥٠٠٠
مقاتل (شعبان ١٢٣٧ هـ) وفي شهر رجب من السنة المذكورة حدثت مسألة سافر وسيأتى
الكلام عليها في الوقائع البحرية أما الدرامه لى محمود باشا المذكور فانه توفي بعد وصوله الى مورده بزمن
يسير قبل أن يتمكن من اجراء عمل ما ووقعت قلعة انا بولى البحرية المهمة في يد الاعداء (١٢٣٨ هـ)
قال المؤرخون ان حالت أفندي المذكور كان السبب فيما أصاب الدولة من الهزيمت والظسائر لانه
اهتم كثيرا بمسألة عدوه تبه دلنلى على باشا وجرده عليه من كل مكان قصد هزيمة في أقرب وقت فأهمل
بذلك وقائع مورده ولم يهتم بها كما يجب حتى وصلت الى هذا الحد مع أنه كان في امكانه ملافاة الامر قبل
استفحاله ولكن قدر فكان ولما كان المولى سبحانه وتعالى كسيرا ما يعجل بعقاب من أهملوا أمر
العباد في هذه الدنيا ليكونوا عبرة للغير سلط حمد الله باشا الصدر الاعظم على حالت أفندي فتمكن من
نفيه الى قونيه ثم تحصل من السلطان على فرمان بقتله كما سعى هو في قطع رأس تبه دلنلى على باشا
(صفر ١٢٣٩ هـ) ولما وصل خبر قتل حالت أفندي الى خورشيد باشا اعتراه الفزع والخوف لانه
كان صديقه ومستودع أسراره ففرض من ليلته بمدينة بيكيشهر ومات بها (ربيع أول ١٢٣٩ هـ)
وخلفه في السرعسكريه جلال باشا والى بوسنه وتوفي في الطريق عند ذهابه ولما مات الدرامه لى محمود
باشا انتخب القواد أجدادى باشا وكيل للسرعسكريه حتى تصدر الاوامر الا أنه مات بعد يومين من
ذلك حيث أصابته سحى محرقة وبذلك لم يبق بمورده من القواد أحد ولهذا اهمت الدولة وأرسلت عدة
جيوش وقواد فاجتمع بذلك في حدود اليونان عدد كبير من القواد الا أنهم مع ما بذلوه من الهمة
والشجاعة

والشجاعة لم يمكنهم اطفاء نار الثورة لاشتدادها وامتدادها فر وعها في كافة الجهات ولفقد النظام من فرق اليكبرية وعمردهم وخروجهم عن حدود الطاعة عند الحاجة فلهدا السبب سقطت مدينتا آتينا وميسولونكي في يد الثوار وليتأ أحوال مورده مضطربة الى أن وجهت الصدارة الى غالب باشا الشهير (١٢٣٩ هـ) وكان قبل أن يتولى هذا المنصب رئيسا للكتاب وبذا كان له الوقوف التام على مصالح الدولة الداخلية والخارجية ولما قبض على زمام الاحكام سعى في اصدار فرمان الى محمد علي باشا والى الديار المصرية وطلب منه ارسال الجنود المصرية الى بلاد اليونان فلبى الطلب ونصبت الدولة ولده ابراهيم باشا الكبير الذي اشتهر بفتح الوهاية سرعسكر اعلى مورده (١٢٣٩ هـ) وعينت رشيد محمد باشا سرعسكر الروم ابلى (١٢٤٠ هـ) وهو الذي كان بمعينة خورشيد باشا السابق الذكر وبدد شمل ثوار بلاد ترحال فقتلهم هذا القائد بجيشه الذي رتبته في بكيشهير وحاصر ميسولونكي وفي أثناء اشتغاله بحصارها تمكن ابراهيم باشا بجيوشه واساطيله المصرية من استرداد قلعتي متون وناوارين الواقعتين في جنوبي مورده وأزل الجنود المصرية في فرضتي قورون وقلاماطه ثم تمكن بعد ذلك من فتح عموم بلاد مورده في ظرف عدة أسابيع ثم سار را الى مدينة باليه بادره والتحق بالسرعسكر رشيد محمد باشا المحاصر لميسولونكي وفي خلال ذلك ذهب القبودان خسرو باشا بالدونما السلطانية وكسر أهالي جزيرتي ايدصاره وسيسام لمساعدتهم الثوار (١٢٤٠ هـ) ثم عاد القبودان المذكور بالدونما الى ميسولونكي وحاصرها بجرا وبما يذله الوزراء الثلاثة المذكورون فتحت ميسولونكي في أوائل سنة ١٢٤١ وبذلك دخلت عموم بلاد مورده تحت الطاعة وانقضت غيوم الفتنة من كافة أطرافها

وقد كان الوفاق تاما بين القواد الثلاثة المذكورين أثناء محاصرة ميسولونكي حتى فتحها الأتية بالنسبة لما كان بين خسرو باشا القبودان وبين محمد علي باشا والى مصر من العداوة القديمة أخذ في معا كسة ولده ابراهيم باشا واجباط مساعيه وصار كل منهما يكتب التقارير والعرائض ضد رفيقه ويرسلها الى الاستانة ولما خافت الدولة من أن هذه العداوة ربما كانت سببا لافساد ما أصلحته من أمر الثوار أرسلت أحدر جالها المدعو حسن بك وقيمو كتحدا مصر نجيب بك الى مورده لتأليف بين القائدين وازالة النفور من صدرهما وقد استمر خسرو باشا أيضا على معا كسة محمد علي باشا حسدا منه على ماناله ولما بينهما من العداوة القديمة منذ كان واليا بمصر حتى أنه منع ذهاب سفن الدونما لنقل الميرة اللازمة للجيوش المصرية من مصر ولما علم المرحوم محمد علي باشا بذلك وأن جنوده أصبحت لاميرة ولأنظار عند هابت شكواه للدولة متوجعا من سير خسرو باشا وسيرته ولما كان السلطان محمود خان يعلم حقيقة العداوة التي بينهما أمر ببقاء عشرين سفينة من الاساطيل الهمايونية صحبة ابراهيم باشا وأحال عليه قيادة عموم الجيوش البرية والبحرية بمجوره (١٢٤١ هـ) واستدعى القبودان خسرو باشا المذكور الى بونغازا لدرنيل ليكون على مقر به من الاستانة عند مباشرة الغاء أوجاق اليكبرية واصلاح أحوال العسكرية ثم فتح السرعسكر الكبير رشيد محمد باشا قارني ابلى وايته بجنتي وليواديا وحاصرا تينا ثم فتحها عنوة وسكن بعد ذلك الثورة التي حدثت في جزيرة كريد فكان ذلك النجاح سببا لسرور العثمانيين لظنهم أن المسئلة اليونانية قد انتهت خصوصا بعد أن أوقع السلطان اليكبرية وشكل النظام العسكري الجديد (١٢٤١ هـ)

الوقوع البحرية أثناء ثورة اليونان - لا يخفى أن اليونان اشتهر وافي القديم بالتمصص البحري والمهارة في سلك البحار قال أحد قواد البحار ان الملاحة أصبحت في بحر الارخبيل أكثر خطراً منها في سواحل بلاد البربر فلم يمكن السفن أن ترسو أو تتقف على سواحل ذلك البحر بدون أن يلحق بها أضرار عظيمة لأنه كان يوجد على الدوام في تلك الجهات بعض السفن الكامنة خلف الصخور مترقبه مرور سفن التجارة خصوصاً لتقص عليها وكان بين بحارة تلك السفن والاهالي سكان الشواطئ علامات متى علمت لهم تمركز أعمالهم وأنوامسرعين لمساعدة لصوص تلك السفن على النهب والقتل ثم يأخذون في مقابلة ذلك نصيبهم من الغنيمه وكان قرصان اليونان متى استولوا على سفينة أخذوها الى بعض الجزر المتباعدة وهناك صنعوا بها وبعن بقى فيها ما يحسن لهم صنعهم وفي الغالب الكثير كانوا يقتلون من بها مخافة أن يعلموا ويعلم أمرهم وقد دام الحال على ذلك زمناً حتى ضجعت أوروبا وبأفامرت دول انكلترة وفرنسا وروسيا سنة ١٨٢٧ م قواد سفنها بالقبض على كل سفينة تحمل علماً يونانياً ما عدا السفن الحربية التابعة للحكومة

ومما ساعد اليونان على الانتصارات البحرية التي نالوها مدة ثورتهم - عدم وجود قواد بحري يعتمد عليهم لدى العثمانيين في ذلك الوقت وكون سفنهم خزمة ثقيلة تعسر عليها الحركة الا في الاماكن الرحبة والمياه العميقة بخلاف السفن اليونانية فقد كانت خفيفة صغيرة تمكن من اجراء جميع حركاتها في كل مكان لانها كقافلة كانت بنيت بقصد التلصص في البحار واعلم أن اليونان لما قاموا بالثورة أظهر وامن الافدام والكرم ما خلد لهم ذكر او ان كان الفضل في الحقيقة في نوالهم بغيتهم لا وروبا التي أخذت عندهم بالامرال والذخائر والسفن من أول ثورتهم وقام انطباء والشعراء بأورو وياحرضون الامم والحكومات على مساعدة اليونان بكل الوسائل ليتخلصوا من حكم المسلمين وقد أثرت هذه الاعمال في الاهالي والحكومات معا وتطوع كثير من أمراء أوروبا وأمريكا وقوادهم ما وذهبوا الى بلاد اليونان وقادوا جيوشهم ونظموا أعمالهم أما اليونان فقد تبرع اصحاب السفن منهم بسفنهم الى القائمين بأمر الثورة ووشب جميع الاغنياء منهم أموالاً طائلة لجمعية الثورة بحيث لم يدخر غنى أمواله أو يقصر في بذل ما تعلق به من امواله حباً في الاوطان وقد كان اليونان يملكون في هذا الوقت سفناً تجارية كثيرة جداً وكانت تلك السفن تتردد على جميع نغور البحر الابيض المتوسط حيث أخذت الأهمية التي فقدتها سفن فرنسا وبين التجارة بعد خروجهم من مصر واكتسبوا أيضاً تقدماً حينما اشتغلت انكلترة بمعاكسة مشروعات نابليون بحيث انه في سنة ١٨١٥ كان لجزيرتي هيدروا وبيصاره فقط ٦٠٠ سفينة بها ٣٠,٠٠٠ من الملاحين

واعلم انه لما حاصرت الجنود العثمانية مدينة يانية من رك على باشا كان بحر فإرورية التابعة لها ١٦ سفينة حربية على باشا واليها ولما اشتد الحصار على الوالي المذكور خاف قومندان تلك السفن من الدونما العثمانية فأمره ولي باشا ابن علي باشا وكان محافظاً لثورة باغراق تلك السفن ببوغاز المدينة المذكورة ليسد بها ممر السفن حتى لا يتمكن الدونما العثمانية من دخول المرفأ المذكور فأغرقتها ولما انتهت مسألة علي باشا واستتب أحكام الدولة بولاية يانية كما كانت وتظهر من بعدها ثورة اليونان خافت الدولة من أن الثوار ربما أخرجوا تلك السفن واستعانوا بها على أعمالهم ولما لم يكن مع نصوص زاده على بكربان الاساطيل العثمانية الراسية بتلك الجهات من العساكر ما يكفي لاجتراح

السفن المذكورة استعان بالاهالي حتى أخرجوا تلك السفائن في ليلة واحدة وسحبوها حتى أوصلوها الى داخل الجون الموجود في فم لوروس وسلموها الى الاوردي العثماني النازل في تلك الجهة ولاختلال الاحوال وانتشار الفتن في معظم جزائر الارخبيل كان من الواجب اتخاذ الوسائل المؤدية لاجتذابها قبل تمكنها واخراج الاساطيل من دارالصناعة الى البحر الابيض لتأمين الطريق البحرى الا أنه بالنسبة لمشاغل الدولة الداخلية اذ ذلك كما يقول مؤرخوها لم يكن الاهتمام بهذا الامر المهم ولذلك امتد واشتد العصيان بكثير من جزائر الارخبيل بتحريرات قرصان اليونان وقد ازدادت جراءة الثوار لما ناراهل الافلاق والبغدان على الدولة بدسائس الروسيا الامر الذي كان السبب الاكبر لمنع الدولة من ارسال اساطيلها في الوقت المذكور خارج بونغاز الدردنيل الا أنه بعد أن عكفت الدولة من اجتذاب ثورة هاتين المملكيتين أرسلت أسطولا تحت قيادة نصوح زاده على بك الى سواحل البانيا وأمرته بالتيقظ والالتفات في أعماله لان الدولة علمت أن اليونان حصلوا على كثير من السفن الحربية السريعة السير التي تضارع سفن انكلكره الحربية في القوة والمناورة وانها راسية بالقرب من ايته بجنتي في ميناء جامليجه وصوليجه ثم بلغها أيضا أنها أنت الى سواحل الاناضول تمنع سفن الدولة من نقل الجنود والسطوع على السفن التجارية العثمانية

ولما كانت أكثر سفن الاسطول الذي خرج مع على بك من النوع الخفيف وخافت رياسة البحرية باستانبول من أنه لا يقوى على سفن اليونان كتبت الدولة للرحوم محمد علي باشا بارسال قسم من الاساطيل المصرية ليكون تحت امره أحد قوادها لينضم للاساطيل العثمانية وطلبت منه بذل المهمة في ذلك وارسال بعض سفن أخرى لتردد بين جزيرتي رودس وساقز لتأمين تلك الجهات وحفظ طريق الصادرات والواردات من الدولة واليهما في تلك الاثناء طلبت أهالي جزيرتي بوزجماطه وساقز من الدولة قدرا من العساكر لحماية جزيرتهم ما من اعتمادا سفن اليونان المتجولة بين جزائر مدبلي وصوليجه وايبصاره وغيرها فأجابت الدولة طلبهم وأرسلت لهم العدد الكافي من الجنود ثم أبحر أسطول عثماني آخر من استانبول الى البحر الابيض المتوسط مركب من ١٢ سفينة حربية بين كبيرة وصغيرة تحت قيادة نو ميك زاده على بك ولما هبت رياح الثورة والعصيان بجزيرة سيسام وامتدت الى جزيرة قوشاطه وجهت الدولة عليها قوة عسكرية وعينت سيسام معييل باشا متصرف سنجق نيكده وصار أهل سيسام يتعرضون لسفن التجارة العثمانية ويقتلون من بها وبذلك قطعوا الطريق البحرى بين سيسام وساقز ولانتشار الثورة بجزائر البحر الابيض المتوسط كما علمت كان يتعدى على الدولة اتصال الارزاق والمهمات الحربية الى قلاع مور من طريق البحر ولذلك رأيت من الضروري جلب قوة عسكرية من الاناضول للروملى ليتمكنها من ارسال الامدادات الى الجهة المذكورة برا وأمرت دارالصناعة بتسليح الدونماخالا وقر مجلس البحرية الذي عقد لذلك تحت رياسة حمدالله باشا القبودان العام بان لا ترسل سفن بحسمة كالغلايين بل ترسل سفن من نوع الفراقيط والقراويت والباريق لتستل العساكر من الاناضول لان السفن اليونانية التي مع العصاة لا يمكنها مقاتلة القوة البحرية العثمانية المركبة من هذه السفن كما علم من الوقائع الماضية حيث ظهر أن سفن اليونان متى تقابلت مع قوة بحرية عثمانية تخاف منها وتركن الى الفرار ولان السفن اليونانية هي من النوع الخفيف وفي استطاعتها القرب من الساحل لصغر حجمها فاذا كانت الدونماخ العثمانية مركبة من سفن خفيفة كان في امكانها أن

تحمّل على الاشقياء هما اقربوا من السواحل بقصد الهرب وتذاكر المجلس أيضا في سفن وجاغات
 الغرب فأقر على عدم صلاحيتها في الحرب ثم أقر المجلس على ارسال فرقة بحرية ممتطوقة من سفن
 التجار ترافق الدونما العثمانية وكتب بذلك أوامرا لمتصرف رودس ووالي مصر ووجاغات الغرب أن
 يرسلوا سفنهم الحربية الخفيفة لمرافقة الدونما العثمانية ثم أخذت دار الصناعة في اعداد أسطول
 خلاف الاسطول السابق وكان يتركب من ثلاث فراقيط وثلاثة أباريق ليتجول بالبحر الابيض المتوسط
 وفي خلال ذلك وردت محررات من نصوص زاده على بك قومندان أسطول سواحل البانيا وموره
 بان العصيان بها نيك الجهات قد استفحل أمره وانتشر في كافة السواحل ويطلب لذلك مدد من
 السفن وأوصى بأن سفن النظار التي ترسل اليه يلزم أن ترافقها سفن حربية لحمايتها من تعديات
 اليونان الذين لا ينفكون عن الفتك بسفن الدولة وقال انه جمع سفنه التي كانت منتشرة في السواحل
 الابانية بقصد الخفارة في نقطة واحدة وتوجه بها الى جهة اينة بجنتي مخافة أن يصيبها أمر وهي
 متفرقة وأنت أيضا مكاتب من خورشيد باشا سمر عسكر يانبه مؤيدة لما ذكره القبودان المذكور
 ثم كثر تعرض سفن اليونان للسفن التجارية العثمانية خصوصا حتى ان عدة منها تعرضت لسفينه
 آتية من مصر وكان بها السيد محمد سعيد افندي قاضي الديار المصرية فقبضوا عليه وقتلوه وهو من
 معه وذلك في أواسط شعبان من سنة ١٢٣٦ ولما علم السلطان بذلك تكثروا وأصدر فرمانا بتجهيز عدة
 من السفن الحربية لتقويه الاسطول الذي تعين من قبل للحفاظة على جزائر الارخبيل فاهتمت ادارة
 البحرية بتنفيذ الاوامر وسلمت ثمان مراكب تجارية بعد تغيير شكلها الى شكل حربي واتفق أيضا
 أن سفينة تجارية عثمانية كانت آتية من كريدالي استانبول وبينما هي سائرة اذا احتاطت بها ثمان
 سفن يونانية وكادت تفتك بها لولا أن أغاثا الله بوصول الاثنتي عشرة سفينة حربية التي أرسلها
 المرحوم محمد علي باشا الكبير والى الديار المصرية تحت قيادة موره محرم بك فسلمت على السفن
 اليونانية وشتمتها وقبضت على اثنتين منها ولما اتصل بالاستانة أن محمد علي باشا عزى بمصر جهز
 دونما أخرى مراكب من ١٨ سفينة حربية صدر الامر بخروج الدونما العثمانية وبعدها
 تنضم للاسطول المصري المذكور يذهبان سوية الى بوزة ليخلصا الاسطول العثماني الموجود
 هناك تحت قيادة نصوص زاده حيث أصبح كالمحجور عليه وبعدها قيام الاسطول العثماني خرجت
 أيضا الثمان سفن التجارية التي تم تسليمها كما تقدم وأصبحت بفرقاطة وفي هذا الشهر أوقع اليونان
 بسفينة عثمانية من نوع القباق كانت خرجت لتنضم للدونما وقتلوا غالب من بها من الجنود وذلك
 في ايمان صغرى من جزيرة مديلى وسبب ذلك أن طائفته لم تصخ لاقوال ربان القباق والرزمه بالدخول
 الى الميناء المذكور فاحتاطت بهم اليونان براويجروا فتركوا بهم ووردت محررات الى الاستانة من الرباله
 سيد علي بك بان أهالى جزيرة جونده منعوا العساكر العثمانية من النزول الى البر بقوة السلاح ولما
 كانت التعليمات التي أعطيت له قبل سفره هي ردع كل من يظهر العصيان بالقوة ولم يقم باجراه هذه
 التعليمات أضع الوقت في المخارات على أنه من الضروري ملافاة الخطب قبل تفاقمه وان الاحوال
 لا تساعد على المخاطبات بما لا طائل تحته ولذلك عزل من قومندانية الاسطول الذي يقوده وتعين مكانه
 البطرونة مختار بك وأمدوه بعليونين وفرقاطة

طائفة اليونان وبرعوا فيها حتى فاقوا غيرهم كثيرا وحافظت الدولة من خيانتهم لها متى كانوا بالسفن التي تطارد سفن اليونان أو تحاصر بلادهم صممت على تغييرهم بعمال من التليانيين ثم بدلتها فيما بعد ما جعلها تعدل أيضا عن التليانيين إلى صناع من المسلمين ونشرت بذلك الأوامر بكافة السواحل العثمانية مثل الاسكندرية ومصر والشام وكربدو رودس وطرابزون وشواطئ العرب وبذلك تمكنت دار الصناعة في زمن يسير من الحصول على القدر اللازم من الصناعات المسلمين بل انهارت أن ملاحى سواحل العرب أمهر من الملاحين الاوروبيين في ذلك الزمن ولهذا استجلبت منهم ما يلزمها العموم سفن الدونما ثم سيرت الدولة أساطيلها التي كانت راسية بيوغازا الدردنيل إلى البحر الأبيض للتحول والمراقبة كما سبق

ووردت مكاتيب من محمد علي باشا إلى الديار المصرية إلى نجيب أفندي قبمو كتحدا مصر أن الثمانية عشر سفينة التي جهزها المرافقة الدونما العثمانية قامت من نغر الاسكندرية في ٢٣ شوال سنة ١٢٣٦ هـ تحت قيادة طيزوزاغلو القپوچي باشي محمد آغا وانها أمرت بالتوجه إلى رودس لتنضم إلى الدونما العثمانية وترافقها إلى برويزه وهناك تلحق بالأسطول المصري الذي تحت قيادة محرم بك وقال انه كلما جهزت سفائن حربية أخرى ترسل في الحال حسب الوعد السابق ولما وصلت الدونما الهمايونية التي قامت من الاستانة تحت قيادة البطر ونه مختار بك إلى سيسام ورأتها سفن اليونان المجتمعه هناك ولت الادبار في الحال ولما راسا أمام الجزيرة أرسل السفن التجارية معه لنقل الجنود من الراناضول إلى الجزيرة المذكورة لتأديب سكانها بالقوة لشقهم عصا الطاعة واختلالهم بالراحة وارتكابهم المفااسد وبنما هو يستعد لذلك اذ ورد له أمر من القبودان باشا يستدعيه بلا ابطاء لانضمام إلى أسطول القبودان على بك فجمع القواد وتلا عليهم الأمر وأمر بالاقلاع حالا ولم ينتظر حضور السفن التجارية التي أرسلها لنقل العساكر كما تقدم ولم يترك سفينة من سفن العمارة خلفاتها ولما كانت طوائفها من المتطوعين الذين يجهلون الأعمال البحرية وقعوا في يد اليونان الذين أحرقوا سفنهم عن آخرها بعد قتال عنيف وذلك من اهمال مختار بك وعدم تبصره في الامر وفي أثناء ذهاب مختار بك تقابل مع الاسطول المصري فسار سوية وكانت سفنهما خمسين سفينة ولما اقتربا من استانكوى تلاقيا بمائة سفينة شرعية يونانية فاحتاطا بها بقرب بدروم المقابلة لاستانكوى ومع ذلك فانه لما تناهى اليونان وعلوا أنهم مأخوذون لاجل حاله هجمت عدة منهم بشدة وجراة هجوم اليائس على بعض الاساطيل العثمانية ففتحو الهمة طريقا بينا هربوا منه بعد أن كانوا في قبضة العثمانيين وكان يمكن العثمانيين تعقبهم لولا أن ماوردية مختار بك تستدعي حضوره سريرا ولما وصلت فرقة مختار بك إلى يسارده وانضمت إلى فرقة على بك أرسلت قسما من سفنها أغار على سفن اليونان الراسية بمينا فانه أيكسيدي فاحرقها وغنمت منها ١٨ مدفعاً وذاخر حربية وقد نسب المؤرخون هذا الانتصار ليوسف باشا متصرف بادره ومع ما كان للدولة من هذه السفن لم تستفد منها شيأ يذكر وكل هذا من اهمالها بمجرىها وعدم اهتمامها بها كاهتمامها بالجنود البرية وفي شهر صفر من سنة ١٢٣٧ هـ عينت الدولة نصح زاده على باشا المتقدم الذي كرمبودانا غاما مع جعلها كالبلاد الجزائر وعينت محمد باشا محافظ البحر الأبيض وسردار على العساكر وأمرتهم بالذهاب إلى مورد لقمع الثورة

قد علمت مما سبق أن اليونان كان لديهم كثير من السفن ولمهارتهم في الملاحة ضايقوا الاساطيل العثمانية كثيرا وتمكنوا من تخريب عدة قلاع ساحلية وذلك أنهم في شهر جادى الآخرة من السنة المذكورة أتى من سيسام ستون من سفنهم الى جزيرة ساقز وأخرجت بها ٧٠٠٠ نفر فحاصروا قلعها مدة ٢٨ يوما وما زالوا ينزلونها ويشددون عليها الحصار حتى نفذ بارودها وطاميتها وقنابل مدافعهم ووقع باهل الجزيرة من المسلمين اليأس الكلى وكادت القلعة تقع في يد الثوار لولا أن الدولة بادرت بإرسال العمارة العثمانية تحت قيادة القبودان نصح زاده على باشا وبها ما يلزم من المعدات الحربية ولما فربت من تلك الجزيرة وصارت أمام جزائر قيوناطه ورأتها سفن الاشقياء فرت هاربة من أمام القلعة وكنت خلف الجزيرة ولما رست الدونما وأرادت اخراج الجنود تعرض لها الثوار المحيطون بالقلعة وأرادوا منعها فهرتهم الجنود حتى بددت عليهم الأتوم قبل فرارهم تمكنوا من احراق سفينة عثمانية كانت قريبة من الشاطئ ثم أخرجت الدونما عثمانية جندى الى القلعة فانضهوا الى قوة وحيد باشا محافظها ثم بدأت العساكر العثمانية التي كانت مجمعة بساحل چشمه بالاناطول في العبور منه الى الجزيرة بالزوارق ولما قويت الحامية العثمانية هناك بما وصلها من الامداد والذخيرة هاجت الثوار وأوقعت بهم في كل جهة بحيث لم يعض الا القليل حتى ضرب الامن سرادقه ونصبت الراحة أعلاها فوق الجزيرة المذكورة وفي ذلك الزمن وقع اختلاف بين القبودان باشا وبين محافظ الجزيرة المذكورة بخصوص ابقاء العمارة العثمانية بمياه ساقز وبعد أن قعا الثورة سوية بجزيرة ايبصاره فعاشكواهما الى الاستانة وقال القبودان باشا في تقريره ان اشتغاله بنقل العساكر الى جزيرة سيسام وبقائه في مياه ساقز يؤخر اتمام مسائل موره التي هي أهم بكثير من غيرها ولما صادقت الدولة على قوله استعفى وحيد باشا من وظيفته فعينت الدولة مكانه محافظا آخر يدعى عبيدى باشا واتفق انه قبل قيام وحيد باشا من جزيرة سيسام وقبل وصول خلفه اليها وقعت حادثة غريبة للقبودان باشا ضي عليه بسببها في تلك المواقع ذكرها الكاتب الشهير ديشلك فيضى أفندى في تاريخه الذى كتبه عن واقعة ساقز الشهيرة وقد رأينا من المفيد أن نذكرها هنا تيمنا للفائدة وهي

حادثة ساقز - انه في يوم الثلاثاء ٢٨ رمضان من سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) بينما كانت الدونما العثمانية التي تحت قيادة نوح زاده على باشا راسية أمام جزيرة ساقز حضرت سفينة حربية رافعة راية النمساوية ورست بعهدا عن الدونما ونزل قبودانها لزيارة القبودان باشا كالأصول البحرية فقابلها في سفينته وفي أثناء محادثتهما عا خبر قبودان السفينة النمساوية القبودان باشا بعزمه على القيام غدا وبعد خروجه حضر بين يدي القبودان باشا التسلامدة المهندسون الذين بسفينته وقالوا له انهم مشتبهون في شكل وهيئة هذه السفينة النمساوية ويلتمسون أنه يأمر بكشف حقيقةها حسب أصول البحر وقواعده خصوصا في أزمة الحرب هذه فلم يلتفت لقولهم ولم يهتم به أصلا وعند غروب ذلك اليوم أفلعت السفينة المذكورة بسرعة فوقع الشك عند جميع ضباط العمارة العثمانية لان رباها خالف بذلك ما قاله للقبودان باشا من قيامه في صباح اليوم التالي ولذلك قابلوا القبودان باشا وطلبوا منه الامر باستعداد العمارة للدفاع لئلا يكونوا في أمن مما عساه أن يحدث

من مكابدة الاشقياء فقتل لهم انكم رجال خوافون لان العدو اذا كان نارافلا يحرق الاعلى قدره فسكتوا عند ذلك وتحققوا أن تلك السفينة لم تكن الا يونانية محضة أتت لاختبار حالة العثمانيين ومعرفة موقع سفينة القبودان باشا وموقع بقية سفن الدونما أثناء وقوفها ولما تم لها ذلك أفلعت كما تقدم ولقد تأثر قبودانات الدونما العثمانية من غفلة القبودان باشا وعدم تبصره في العواقب وسرت هذه الغفلة اليهم هم أيضا فلم يتموا حسب الواجب عليهم في التيقظ والانتباه لما عساه يحدث من المكابدة بل ألقوا أجسادهم على مهال الدعة والسكون ولما كانت الساعة السادسة ليلا لم يشعروا الاوحراقات اليونان التصقت بالدونما العثمانية وألقت النار بغليون القبودان باشا وحل الخوف والذهول يباقي قبودانات السفن حتى انها لم تبدأ أقل حركة لانقاذ سفينة القبودان من الهلاك ثم سرت النار منها الى سفينة أخرى كانت تحت ربح الاولى وعند ذلك نشرت بقية السفائن أشرعتها وابتعدت عن السفينتين الملتئمتين ولما ينس القبودان باشا مع ما بذله من المجهود نزل في زورق يريد النجاة الا ان النيران كانت وصلت الى مخزن بارود السفينة فتفترقت وطارت في الهواء قطعوا وقتت قطعة ملتئمة منها على زورق القبودان فاغرقته عن فيه وهكذا ذهب القبودان فريسة جهله وعناده وقد وجدت جثته طافية على الماء فاستخرجت ودفنت بجزيرة ساقر وكان هذا من اية هذه الحادثة التي نتجت من عدم التبصر والتدبر في الامور وخسرت الدونما غليونان من الغلائين المهمة وبعد موت القبودان باشا خلفه في مسند القبودانية العامة مختار بك بأمر من وحيد باشا حين صدور أمر من الدولة ثم تعين فره محمد باشا وكان سرعسكر اعلى الجيش الموجود بالسفن المتجولة بجبهات بالوبارده وتعين مختار بك قبوداننا للسفن المصرية وسفن وجاقات الغرب وأمر بالذهاب الى جزيرة كريد بعد أن يرافق العمارة العثمانية الى مياه بالوبارده ويسلمها الى القبودان باشا ليضمها الى السفن الموجودة تحت ادارته ولما تعين فره محمد باشا لمسند القبودانية العامة لم يلتفت الى الجهات الواقعة فيها العصيان ولم يهتم باحوالها ولم يعد أيضا قلعة انابولى بالسدد الذي يحفظها بل تركها هي والسواحل في أشد الحصار ورجع بالدونما الى بونغازا للدردنيل فعزل لئذ اتسه وعدم كفاءته (١٢٣٨ هـ) وتعين مكانه محمد خسرو باشا والى طرابزون هـ

وفي أول شعبان من سنة ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣ م) جهزت الدولة دونما مركبة من خمسين سفينة حربية من نوع القرويت والفرقاطة ألقع بها خسرو باشا الى البحر الابيض وخرجت أيضا دونما أخرى مركبة من نوع الاوج انبار الى وأربع قباقات وعشرين فرقاطة للمحافظة على بونغازا البحر الاسود ولو كانت تمكنت الدولة من ارسال هذه القوة البحرية الى سواحل اليونان مباشرة لامتكنها قمع ثورتهم وابادة وحدتهم ثم ذهب خسرو باشا الى ساحل موره ولما وصل اليها وجد اليونان أعاروا بسفنتهم على ناحيتي مندمن وكوزل حصار ثم ذهب من هنالك الى المياه المصرية لاصلاح بعض سفنه وأخذ ما يلزمه من المهمات كإرواء لطفي أفندي في تاريخه وفي سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٤ م) صدر فرمان الى ابراهيم باشا منجل محمد علي باشا والى الديار المصرية بان يتولى أمر تسكين ثورة موره بشرط أن يكون مستقل الرأي نافذ الامر في كل ما من شأنه اتحاد الهيجان وحل هذا فرمان الى الاسكندرية أحد قواد البحر العثمانيين المدعو حسين بك ومعه فرقة من العمارة العثمانية ثم صدر

أمر آخر الى القوة البحرية الموجودة بسواحل بالوبارده تحت قومندانية چشمه الى خليل بك بأن يكون تحت إمرة ابراهيم باشا وفي معيته و بناء عليه قدم ابراهيم باشا المشار اليه من نغرا الاسكندرية بدونما عظيمة وقوة عسكرية جسيمة وذلك في شهر القعدة من السنة المذكورة وفي أثناء ذهابه تلاقى مع خسرو وباشا جيها ت بودروم وكان تأخير خسرو وباشا عن الوصول الى ثلاث المياه لهذا الوقت هو لهجوم عده من سفن الاشقياء عليه بقرب جزيرة سيسام فخار بهم وأوقع بهم وقبض على كثير من سفنهم ثم انهم أرادوا بعد ذلك الانتقام منه على ما أصابهم فوجهوا على سفنه بعض الحراقات فألقها لشدة تيقظه وتيقظ ضباطه ثم ان خسرو وباشا أقطع بقسم من السفن عائدا الى الاستانة لبعض الشؤون وأبقى العمارة تحت قيادة مختار بك وبمعيته المرحوم ابراهيم باشا ولما أقطع ابراهيم باشا من بودروم قاصدا موره تعرض له في الطريق بعض سفن اليونان قسرا فخر بهم محاربة شديدة وشتت شملهم ولم ينالوا منه سوى الهزيمة والفرار

أما ابراهيم باشا فكانت الرمح غير مساعدة للسفن التي بمعيته ولذلك رساها على نغرا مريس ثم قام منها الى ليمان سوده بجزيرة كريدو وبعد أن مضى على أسفاره هذه أربعة شهور أقطع أخيرا من سوده في رجب سنة ١٢٤٠ هـ وكانت الجنود التي معه يبلغ عددها ستمائة ألف من الرجال وستمائة من الخيالة ولما وصل الى ساحل موره قرب قلعة متون وأخرج عساكره الى البرق التوار الذين كانوا يحاصرون قلعة متون وقرون أما السفن التي كانت تحمل الادوات والذخائر فقد تأخرت عنه في الطريق فاضطر أن ينتظرها بجوار قلعة متون حتى وصلت اليه جميعها في أواسط رمضان من السنة المذكورة ولما قرب فصل الربيع ابتدأت الاعمال الحربية بجميع الاماكن العاصية وتقدمت القوة البرية التي مع ابراهيم باشا الى ناوارين وسارت الدونما بحرا اليها أيضا وحاصرتها وبعد وقوع محاربة شديدة برا وبحرا التزم التوار بتسليمها فدخلتها الجنود المصرية واعتمت منها غنائم جسيمة وأموال عظيمة وفي شهر شعبان من سنة ١٢٤٠ هـ قام مجد رشيد باشا سمر عسكر الروملى وحاصر مدينة ميسولونكي وأقطع القبودان خسرو وباشا باسطول مركب من ١٨ سفينة كانت بنيت بالاستانة تحمل ذخائر وأدوات حربية فصادفه عند موره من بوغازانديره بعض سفن للتوار فوقع بهم وشتت شملهم الا أنهم استمروا على سفينة من سفنه كانت تحمل خزينة العمارة ولما وصلت الدونما الى ميسولونكي أخرج القبودان باشاها المهتمات الحربية التي كانت مع هذه البلدة ثم بعد أن أصح ما لحقه التلف من سفنه في واقعة اندرية المذكورة عاد وانضم الى الدونما المصرية التي كانت تحت قيادة الاميرال المصري محرم بك صهر محمد علي باشا الكبير وذها معا الى ميسولونكي ثم حضر ابراهيم باشا بالاوردي الى جهة بادره وانفق مع السمر عسكر باشا على حصار ميسولونكي برا والدونمان يحاصرها بحرا وبذلك انقطعت الامدادات اليونانية عن هذه القلعة وفي أثناء الحصار هاجت سفن كثيرة يونانية السفن العثمانية والمصرية فدفعتين الا أنها ارتدت خائبة وأنت أيضا بعد ذلك أربع سفن حربية يونانية ومعها ١٥ حراقة وأرادت مهاجمة الاساطيل المصرية والعثمانية وتوصيل الذخائر والادوات الحربية للمحصورين فلم تفلح وكسر بعضها وقال بعض المؤرخين ان السفن اليونانية هذه كان معها سفينة بخارية ولا بعد صحة ذلك

ذلك القول لان الآلات البخارية كان قد تم اختراعها وظهر في العالم البحري وجودها ولكن لم تكن منتشرة كثيرا

وقد كانت ميسولونكي من القلاع المنيعه وكان موقعها الجغرافي يجعل الوصول اليها كتناول جبهة الاسد لانه يحيط بأطرافها مستنقعات وبساحلها شعاب صخرية ممتدة في كل أطرافها على بعد نحو ميل بحري وحولها جزائر كثيرة منها جزيرة واسيلقوز وهي جزيرة صغيرة فوقها عدة استحكامات قوية ولما نزع العثمانيون في حصارها قرر قائدهم لزوم ضبط الاستحكامات التي يجزيرة واسيلقوز أولا وعلى ذلك رتبوا عدة صالات وفلائك وسلحوها بالهتوانات والمدافع للهجوم عليها وعينو الهند الفرقة البحرية الخفيفة السرخس حشمه حسين بك أحد أمراء القوة المصرية بصفة قومندان بحري فتقدم المذكور ورويدار ويدا سايرا غور الماء ولما وصل الى الجزيرة المذكورة وهجم عليها مدافع الثوار عنها مدافعة الابطال المستميتين غير أن شجاعة العثمانيين تغلبت عليهم وقهرتهم فاستولوا عليها في الساعة الحادية عشرة من اليوم المذكور (١٥ رمضان ١٢٤٠ هـ) ولما كانت قلعة ميسولونكي من أمنع قلاع الجهات المذكورة كما أسلفنا وضع بها ثوار اليونان أموالهم وأمتعتهم الثمينة وكذا عائلاتهم ولذلك بعد استيلاء العثمانيين عليها اغتتمت العساكر منها غنائم وأموالا لا تحصى ثم استولت الجنود بعد ذلك على كافة الاستحكامات التي شيدها اليونان فوق الجزائر الصغيرة الاخرى

ولما كانت أموال اليونان وذخائرهم وعائلاتهم بقلعة ميسولونكي كما قلنا وخشوا من وقوع تلك القلعة في يد العثمانيين تقدموا بفتحهم نحو بيروت وقبرص وغيرها من نغور الدولة فهاجموا بقصد أنهم بذلك الهجوم يجعلون بعض قوة الدولة العلية البحرية ترك حصار تلك القلعة لمنازلتهم الا أنهم خابوا فيما أتوه وارتدوا من تلك السواحل مقهورين وفتحت قلعة ميسولونكي كما تقدمت ووصلت البشري بفتحها والاستيلاء عليها الى الاستانة بعد سبعة أيام وبعد الفتح حدثت نفرة بين خسرو باشا القبودان و ابراهيم باشا سيبها الظاهر أن خسرو باشا كان تأخر عن اسعاف ابراهيم باشا في ارسال السفن اللازمة لاحضار ذخائر وأدوات حربية من مصر وان ابراهيم باشا كان لا يأتمن في الغالب الابما يصدر له من والده المرحوم محمد علي باشا ثم أقلت عشر وسفينة حربية عثمانية تحت امره ابراهيم باشا للاستيلاء على جزيرة بريجامليجه ووصله وهو كاتسماوى للشوار وأقلع خسرو باشا يباقي العمارة الى سيسام ثم عاد الى مضيق الدردنيل بامر من الدولة التي خافت من ان النفور الذي بينه وبين ابراهيم باشا ربما أدى الى ما لا تحمد عاقبته كما مر وما زال النصر يرافق الجنود العثمانية والمصرية في غالب الوقائع بحيث لم تنته سنة ١٢٤٢ حتى استردت الدولة كل مقاطعات أتينها وقلاعها وكانت في قبضة الثوار واقطعت منها أسباب الخصاص وذلك بهمة البطل الشهير ابراهيم باشا المصري وبما عليه الجنود المصرية من حسن النظام وكال التدريب ومع ذلك فلم تنفك سفن اليونان عن التعدي على السفن المصرية والعثمانية السائرة بالبحار ولما رأت الدولة نتيجة المهمة التي بذلها المرحوم محمد علي باشا أصدر له السلطان فرمانا أحال عليه تخليص جزائر البحر الابيض من قبضة الثوار وكبح جماحهم والولاية على جزيرة كريدو بلا دموره (١٢٤٢ هـ - ١٨٢٧ م)

ثم عزل خسرو باشا من رياسة البحرية وخلفه فيها عزت باشا وعين جنك أوغلي طاهر باشا
البطرنة قومنداناً على الدونما التي عياه مورده فافلح بها الى ناوارين ثم وصلها المحرم بك صهر محمد علي
باشا الكبير بالدونما المصرية (١١ صفر سنة ١٢٤٣ ١٨٢٧ م) وبذلك أصبح مجموع
هاتين العمارتين يتألف من ٥١ سفينة حربية جعلت تحت رياسة ابراهيم باشا وصدرت لها الاوامر
بالذهاب الى جزائر صوليجه وجامليجه وفي خلال ذلك أتت سفن يونانية وهاجت قلعة سوليون
وكانت هذه القلعة في أيديهم ونزعت منهم فأرسل ابراهيم باشا عليهم قوة بحرية ردتهم عن مبتغاهم ثم
بعد ذلك كانت مداخلة أوروبا وواقعة ناوارين كما سيأتي

مشارطة آقكرمان (ربيع الأول ١٢٤٢) - لما عقدت الروسية مع الدولة معاهدة
بكرش السابقة كانت الظروف اضطرت الروسية الى سرعة الافرار عليها النقل جيوشها من حدود
الدولة الى حدودها الغربية ولذا كانت بعض أحكام المعاهدة المذكورة تحتاج الى التفسير والايضاح
ولمات اسكندر قيصر الروس وصعد مكانه نيقولا الاول ورأى أن الدولة مشغولة بمسائل اليونان
وغيرها انتزعت فرصة ذلك لتوال مرغوبه وعرض على الباب العالي بواسطة سفيره تحريك المعاهدة
وأخير المالم يتل سفيره مرغوبه سافر من الاستانة ولما كانت الدولة وقتئذ مشغولة بشورة اليونان
من جهة وعمجوا وبقاق اليكجيرية من الاخرى خشيت حدوث ارتباكات مع الروسية فقبلت الخبارة
معها التفسير ما انهم معناه من بنود المعاهدة المذكورة وعينت من قبلها مرخصين وهما هادي
أفندي محاسبي الاناضول و ابراهيم عفت أفندي من الموالى وأرسلتهما الى آقكرمان وهناك تقابلا
مع مندوبي الروسية بعد مذاكرات طويلة أقروا على توسيع بنود المعاهدة المختصة بحدود الاناضول
وبامتيازات المملكتين والصرح على أن يجوز تنصيب أميرهم من أعظم أهاليهم المدة سبع سنوات
ومتى عزلاً أو نصبا كان للروسيان حق المشاركة في الرأي وعليه مادفع الخراج المضروب للدولة وأنه ليس
لروسيان حق المداخلة في أمر سكنى الاهالي الاسلامية في القلاع ولا في ادارة داخلية الايالات
المذكورة (١٨٢٦ م) وأن يكون للروسيان بحرية الملاحة في البحر الاسود

ابادة أوجاق اليكجيرية وتنظيم العسكرية - لما تبين السلطان ان السبب الوحيد في انحطاط
الدولة هو أوجاقات اليكجيرية لتمردهم وطغيانهم وعتوهم ونجبرهم وممانعتهم لكل أمر جديد يعود
على الدولة بالاصلاح والتحسين كما مر بك بعضه شرع في سنة ١٢٤١ في تعليم عساكر جديدة
على القاعدة الحديثة الاوروپاوية وأخذ من ذلك اليوم يفكر في تدمير اليكجيرية وابداء أوجاقهم
ولذلك أصدر منشورا سلطانيا يتضمن القدح في أعمالهم عتدفيهم ما ارتكبوه من الفظائع وقتلهم
لبعض السلاطين ظلما وطغيانا فلما بلغ اليكجيرية بذلك هاجوا واما جوارعهم وهاجموا على بيت
الصدر سليم باشا وبعض الوزراء وأخذوا ينادون في الشوارع بجواز قتل العلماء ورجال الدولة وكل
من له يد في وضع النظام الجديد وأخذوا يقتلون كل من صادفوه وينهبون ويحرقون وقد تمكن
الصدر من الفرار والتجأ الى السلطان وعرض عليه الكيفية فأمره بجمع طوبجية العسكر
الجديد وارسالهم على اليكجيرية وأن يدعو الناس للاجتماع أمام السراي فاجتمع خلق كثير من
علماء وقواد وضاة واعيان وغيرهم وخرج السلطان اليهم وأخذ يخطب فيهم محرصا منير الخوتهم

فأقسم الجميع على القيام بتنفيذ أوامره ثم أخرج البيرق الشريف فاجتمع حوله لحاق لا يحصون عددا ووزع عليهم الاسلحة وسلم البيرق لشيخ الاسلام قاضي زاده طاهر افندي وكان السلطان همّ بالسير بنفسه لولا ممانعة الوزراء له في ذلك وكانت اليكجيرية تجمعت للقاومة ثم سار الصدر الاعظم سليم باشا أمام تلك الجوع التي كانت تزيد عن ٦٠,٠٠٠ نفس وهاجوا اليكجيرية مكبرين وأطلقوا عليهم البنادق والمدافع فقتلوا منهم م عددا كثيرا وهرب الباقي وتمحصنوا في ثكناتهم فحاصرهم الصدر وأشعل النار فيها فاحترق منهم أيضا خلق كثير وتشتت الباقي في كل صوب وأصدر السلطان الاوامر الى جميع الجهات بقتل كل من وجد منهم فقتلوا منهم م عددا كثيرا أيضا وارتاحت الدولة من شرورهم ولما كانت طائفة البكتاشية (١) تعزب الى أوائل الجنود وكان غالبهم من أتباع هذه الطائفة أصدر السلطان أمرهم بهدم تكاياهم التي كانت منابع لاشنع المحرمات والقبائح وأخذ الموكولون بذلك يطاردونهم حتى أبادوهم تقريرا يقتلا وتشريدا ففرقوا في الجهات الاخرى وهدموا لهم أشهر تكاياهم ولما كان السلطان محمود يرغب رغبة شديدة في ادخال ما يوافق من المنظمات الاوروپاوية غير ملبوسه وتريازي العسكر الحديد وأبدل العمامة بالظربوش فكان أول من فعل ذلك من سلاطين آل عثمان

بقية وقائع اليونان ومحاربة نادارين الجسرية (ربيع الآخر ١٢٤٣) - اعلم انه في أثناء ثورة اليونان هاجت الافكار بأوروبا ونالفت الجمعيات بجميع بلادها التحمل حكامها على المداخلة لحماية اليونان المسيحيين وكانت هذه الجمعيات تمد الثوار بالمساعدة أديبا وما ديا فلما استردت الجنود العثمانية مدينتي ميسولونكي وايتينا وغيرهما وسكنت الثورة ببلاد اليونان الغربية وأخضع ابراهيم باشا معظم بلاد مور وراى اليونان وأوروبا ان أمهلهم في انالة اليونان الاستقلال قد زال بسبب ذلك تقريرا علنت أصوات المشفقين على اليونان واتحدت الروسيان وكنكته وفرانسا على المداخلة الفعلية والاخذ بناصر اليونان وعقدوا لذلك مؤتمرا بمدينة لوندن (٣ القعدة ١٢٤٣ - ١٨٢٧ م) أقر مرسومهم فيه على قرار مضمونه الزام الباب العالي بالقوة منخ البلاد اليونانية استقلالا اداريا بشرط ان يدفع اليونان اناوة يتفق على مقدارها فيما بعد كما يتفق على حدود البلادين وبعد ان صدقوا عليه أبلغوه للباب العالي وأمهلوه شهر التيتمكن من توقيف

(١) تنسب هذه الطائفة الى رجل من الاولياء كان في أيام المرحوم السلطان مراد الاول ولما أنشأ هذا السلطان أوجاق اليكجيرية سنة ٧٦٣ طلب من الحاج بكتاش ان يبارك هذا العسكر الجديد ويضع له اسما كاذكره في حقيقة ٤٩١ وكانت وفاة الحاج بكتاش سنة ٧٦٩ وله ضريح براروي تبرك به في قرية على البوسفور قرب عطله ومن سمي الطائفة المنهورة التي تنسب اليه لبس البياض وعمائم الصوف يرخون لها عذبات مجدولة في الغالب وهم يسكنون القرى والمدن العظيمة بجميع أقطار العالم الاسلامي تقربا ويباح لهم الزواج اذا أرادوا ومن دأبهم التطواف في البلدان البعيدة والسلام على كل من صادفوه ولهم اعتقادات وصلوات تخالف الشرع على خط مستقيم وهم يقولون ان الله مجرد عن الصفات فهو كأنه بسيط لا يمكن للفكر البشري ان يدركه بساطة جوهره ويوجدون الله ولهم باهو وقد ذكر بعضهم طائفة اخرى من الدراوش باسم بكتاشية نسبة الى بكتاش أحد أغوات اليكجيرية في أيام السلطان محمد الرابع والعامه تسبهم مطلقا المصايح لانهم يقولون انهم يجلسون في الظلام ويرتكبون الفواحش وأما مذهبهم فهو نفس مذهب البكتاشية المنار كرههم اه من الدائرة بتصرف

الاعمال العسكرية برا وبحرا فلم تلتفت الدولة الى هذا القرار لانه ليس للدول المذكورة حق
 المداخله أصلا في أمورها الداخلية كما لا حق لها في المداخله في أحوالهم كما هو القانون الدولي
 ولكن فاتهم أن الحق في شرع أوروبا أصبح للقوة وان أوروبا لا تعترف بالحقوق الدولية الا متى رأت
 قوة تعارضها ولهذا وجهت الدول المذكورة بعد انقضاء المدة المعينة أساطيلها الى مياه اليونان
 للتهديد والوعيد وكان أسطول الروسي يتألف من ثمانية بوارج بها ٤٦٤ مدفعاً تحت قيادة
 الكونت أميرال هايدن (Heyden) وأسطول انكلترة يتألف من ١٢ بارجة بها ٤٠٠
 مدفع تحت قيادة الويس أميرال السير ادوارد كودرينجتون (Codrington) وأسطول فرنسا
 يتألف من سبعة بوارج بها ٣٧٤ مدفعاً تحت قيادة الكونت أميرال دوريني (Rigny) أما
 الدونما العثمانية التي تحت أوامر ابراهيم باشا فاند مورده العام فكانت تتركب من ٣٧ بارجة
 عثمانية بها ١٢٨٨ مدفعاً تحت قيادة البطرورنه العثماني جنكشلي أوغلي طاهر باشا ومن ١٦
 بارجة مصرية تحت قيادة محرم بك المصري وسفن أخرى لتونس وبلاد الجزائر وكانت كلها راسية
 داخل ميناناوارين ولما وصلت أساطيل الدول الثلاث رست خارج بوغاز ناوارين المذكور وأرسل
 قوادها بالاعان الى ابراهيم باشا يطلبون منه ابطال الحركات الحربية برا وبحرا ويقولون ان روسيا
 وانكلترة وفرنسا جميعاً قرروا على استقلال اليونان وانه اذا خالف ذلك ينعونه بالقوة فاجابهم ابراهيم
 باشا بانه لا حق لاية دولة كانت في منع سير الدونما العثمانية وحركتها داخل بحورها وانه ملزم باتباع
 أمر دولته القاضي عليه بتوجيهها داخل الارخبيل الى أية جهة أراد فكرر واعليه القول بانهم
 مجبورون على منع الحركة بصورة قطعية ثم تقابل ابراهيم باشا مع أميرال الاسطول الفرنسي ولما
 تحقق منه صدور القرار المذكور أخبر الباب العالي بكل ما حصل وانظر الجواب وتعهده بشرفه
 بان لا يخرج الاساطيل العثمانية والمصرية من ميناناوارين وأن يوقف الحركات الحربية حتى
 يرد اليه من الدولة أمر أما اليونان فلم يزالوا على عدوانهم وبينما الحال على ذلك اذ علم ابراهيم باشا ان
 ست سفن انكليزية هاجت أمام ميسولونكي مما اكسب شرعية عثمانية وأغرقتها وعند ذلك هاج
 غضب ابراهيم باشا وقال كيف ذلك وكيف يحق لليونان المستندين على مساعدة أوروبا بالاستمرار
 على اظهار العداوة بينما تغل أوروبا بأيدى العثمانيين عن حقوقهم ولهذا رأى انه لم يبق ملزماً
 باتباع ما تعهده من ابطال الحركات الحربية مؤقتاً وكان الاميرالات أخبروا ابراهيم باشا قبل ذلك
 بعدم تدخلهم في أمر توصيل الذخائر الحربية الى القلاع السلطانية الموجودة بسواحل موره
 غير أن الاميرال الانكليزي أرسل فرقاطة الى فم مضيق ناوارين بصفة قره قول لمنع السفن
 العثمانية الحاملة للذخائر المراد ارسالها الى ايسنه يختم من السفر كنية مع أن علائق الحجة الرسمية لم
 تنقطع بعد بين السلطنة العثمانية واحدى فاته الدول ثم ورد الجواب من الباب العالي الى ابراهيم باشا
 بامر به أن لا يكثر بتهديد الدول وانه يحافظ بكل استطاعته على مضيق ميناناوارين وانه اذا
 أراد تحريك أساطيله الى أية جهة أرادها ورأى من الدول وانه المذكورة مقاومة قابلها بالمثل كما
 تفرضه واجبات الدين والوطن وأباحت الدولة له حرية العمل بما يراه فأخذ ابراهيم باشا حذرهم من
 اخراج الدونما الى البحر وتداول مع أمراء البحر فاعلموه بان السفن العثمانية والمصرية الموجودة
 بمياه ناوارين ليست كفؤاً لمحاربة سفن العمارات الثلاث المذكورة وعلى ذلك حرروا مضبطة بعث

بها ابراهيم باشا بالاستانة بما قاله امراء البحرية وأصحابها بحررات أخرى قال فيها انه مستعد للدافعة عن شرف الدولة على الصفة التي تراها موافقة وأخذ بذلك يتداول مع أرباب المعرفة والمعلومية بالفنون البحرية وأوصى جنكبل أوغلي طاهر باشا ومحرم بك بأن لا يخرجوا في المعاملة مع دونمات الدول المتفقعة عما تقتضيه علائق المحبة ثم قصد هودا خلية مور لهبناثرة الحركات البرية تاركا للدونمات العثمانية والمصرية داخل المينال مذكورة وبعد سفره بقليل أتى الى الضباط الفرنسيين والبريطانيين المستخدمين بالدونمات المصرية مكاتيب من الاميرال الفرنسي مضمونها انه تقرر محاربة الاساطيل العثمانية وبأمرهم بتترك وظائفهم والاتحاق به فصدعوا بالامر وعند ذلك أرسل محرم بك ترجمانه للاميرال الفرنسي ساوي يقول له ان حركات دونمات الدول هذه قد سلبت الامن من بين الطرفين ويلزم أن لا تدخلوا المينال كان هذا البلاغ سببا في تعجيل وقوع الحرب التي حصلت في اليوم الثاني بين الطرفين بحالة تستوجب الاسف قال مؤرخو العثمانيين ان طاهر باشا كان من رأيه اخراج الدونمات خارج المينال لبقاء هاد اخلها مضر بها اذا وقع حرب وربما كان السبب في فنائها بخلاف ما اذا كانت خارجها قائمة على شراعاتها فان الحسائر تكون أقل بكثير ولما لم يقبل ابراهيم باشا هذا الرأي طلب منه طاهر باشا كتابة رسمية ليخرج نفسه من المسؤولية فيما بعد فاعطاه ما طلب ومع ذلك فان طاهر باشا ما لم يستبوا غازنا وارين كما تقتضيه الحروب البحرية بل تركه للعدو يقتمه متى أراد ثم استعدت الدونمات الاجنبية للحرب يوم ٣ ربيع الاول سنة ١٢٤٣ في منتصف الساعة الواحدة بعد الزوال حسب الاوامر التي أعطاها الاميرال الانكليزي الذي أخذ القيادة العامة لافدميته في وظيفته واكبر رتبته وتقدم هو بأساطيله واتبعته باقي الاساطيل وكانت الدونمات العثمانية وقتئذ راسية داخل المينال على شكل نصف دائرة معرضة لجهة البوغاز فرست أساطيل الدول أمامها فوق الريح أخذت هيئة حربية ثم أطلقت مدافعها فقابلها العثمانيون بالمثل الا أنهم لم يقروا عليها لثانتها وجودة تسليحها وحسامة سفنها ومهارة ضباطها وقوادها وانفازها وعدم استعداد الاساطيل العثمانية والمصرية وصغر حجم سفنها ومدافعها وغير ذلك وبعد أن اشتد وطيس الحرب بين الطرفين مدة خمس ساعات انقطعت نيران العثمانيين تماما وانجلى هذه الواقعة الهائلة عن غرق عشرين سفنًا واحترق ثلاثين من السفن العثمانية والمصرية أما ما بقي من الثلاث والخمسين سفينة فان الريح ألقاها على الساحل وتمكن طاهر باشا من نجاة سفينته وكان الاله المتطاي من السفن أثناء احتراقها يخيّل للرائي أن فرضة ناوارين تحوالت الى بركان جهيم وفي اليوم الثاني من هذه الواقعة خرجت سفن العمارات المتحدة خارج المينال بعد أن أحرقت ما بقي من سفن العثمانيين والمصريين ولما أرسل هذا الخبر الحزن الى ابراهيم باشا وكان في قرية دوزجه من قضاء ارقاديا أتى مسرعا واجتمع مع طاهر باشا ومحرم بك وباقي من بقى على قيد الحياة من الضباط وكتبوا بما حصل تقريرا مفصلا أرسلوه الى الاستانة في ٧ ربيع آخر سنة ١٢٤٣ ويروى أن الاميرال الانكليزي تبرأ من تبعه ما حصل بقوله انه لم يكن السبب في وقوع هذه المحاربة وانما تسبب فيها العثمانيون وهو قول بعيد عن الحقيقة بعد ما أعلن سفن العثمانيين كانت مستقبلة داخل المينال وهو الذي دخل عليهم بأساطيله وأساطيل فرنسا والروسيا ولم يتعرض له العثمانيون ولان كانوا معه بمقدوف أصلا ولم تضرب قلعة من قلاع المينال على سفينة من سفنهم

ولم يكن يريد بخاطر العثمانيين أن هذه الدول تعاملهم بغير معاملة الحب والولاء وانما الذي حصل
الاميرال الانكليزي على هذا القول هو ما جاهر به المنصفون من أهل أوروبا من نفاضة هذا الامر
ومخالفته للقوانين المتبعة وانه خيانة وغدر ولما حل به من الخسائر في تلك الواقعة لم تنل دولته من
ذلك منفعة حقيقية سوى ما تكنه الضمائر وتحو به السرائر من الحقد الكين وسعي دول أوروبا
في رفع يد العثمانيين عن حكم الطوائف المسيحية ليس الا وقال المرحوم الشيخ بيم التونسي صاحب
صفوة الاعتبار انه في أيام جورج الرابع ملك انكلترة وقع الغدر في أسطول الدولة العثمانية من
أسطول انكلترة المترس على أساطيل الدول في تظاهرهم على طلب تسليم الدولة العثمانية لليونان
بالاستقلال فن غير اعلان بالحرب لها تخلت الاساطيل من بين أسطولها المركب من سفنها وسفن
مصر وطرابلس وتونس والجزائر وهم على اطمئنان السلم والامن وأطلقت عليهم النيران دفعة
واحدة بحيث لم يبق منهم باقية غدر أو شناعة لا تنمى ومعرفة لا تزول على خصوص الانكليز لانهم
هم الذين يدهم امرة جميع الاساطيل الدولية وعند ما سمعت الندوة الانكليزية بقطاعة الواقعة
شاجوا وماجوا وطلبوا محاماة رئيس الاساطيل وحكم عليه مجلس حربي بالقتل مع دفاع وزير
البحر عنه بكل ما يمكن من الاعتذار وتلقيق دعوى بان احدى السفن العثمانية أطلقت النار
عليهم ولم يجد كل ذلك شياً وعند ما تحقق الرئيس الحكم عليه بالقتل أسر الى وزير البحر بأن
التذكرة التي بخطه في الامر باحراق الاسطول العثماني قد نسى أن يحرقها معه مثل ما أمر وحينئذ
تحول المجلس الى جلسة سرية ثم أطلق الرئيس اه

وقال مؤرخ أوروبا بان التعليقات التي أعطيت للسفير كودرينكوتون كانت تحظر عليه
عمل أى عمل عدائى مع العثمانيين ومع ذلك فانه كان على هامش هذا الامر العبارة الاتية
كتبها اليه لورد الاميرالية الاول وهو الدوق كلارانس (Clarence) وهى ان هذا لا يمنعك
يا عزيزى ادوار بان تحرق البارود متى انتهزت فرصة لذلك ورأوا أيضا كتابا من سفيرانك تكثره اذ ذلك
بالاستماتة وهو استرافورد كاننج (Strafford-Canning) الى الاميرال المذكور يشتمل على
ما فى العبارة الماضية من انتهاز الفرصة لضرب الاساطيل العثمانية وقد ذكر اليوزباشى شارل لوف
(Low) فى تاريخه البحرى عند كلامه على هذه الواقعة ان الذين قتلوا من أساطيل الدول المتحددة
كانوا ١٧٧ نفسا والذين جرحوا كانوا ٤٨٠ نفسا ولما وصلت اخبار هذه الحوادث الى دار
الخلافة هاجت الافكار واضطربت وأرسل الباب العالى بلاغا الى سفراء الدول بيقم اللجنة على هذه
الاعمال المخالفة للقوانين الدولية حيث لم تعلن الحرب بين الجانبين وطلب فى البلاغ من الدول
أن تمتنع كلية عن المداخلة فى شؤون الدولة الداخلية وأن تدفع للباب العالى التعويضات عما لحقه
من الخسائر فى ناوارين فلم يكن من سة فراء الدول الثلاث الا انهم قطعوا العلائق مع الباب العالى
ولم يجاوبوه على بلاغه ونزلوا فى سفنهم الراسية بالبوسفور (١٢ جمادى الثانية سنة ١٢٤٣)
فالتزمت الدولة عند ذلك أن تعلن عموم ولاياتها بسوء نيات الدول المذكورة وفى مقدمتهم الروسية
حيث كانت لها اليد الكبرى فى تحريك الثورات واشعال نارها فى أكثر ولاياتها وفى تلك الاثناء
وردت أوامر الى ابراهيم باشا من والده بان يعقد سر وطامع الدول المتحددة لاختلاعه مورم من القوة
المصرية ويعود الى الديار المصرية وكان ذلك بمساعي قناصل الدول المذكورة بمصر ثم عقد الدول

مؤتمراً في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٢٨ للنظر في مسألة استقلال اليونان وتعيين حدود بلادهم ورفض الباب العالي المشاركة في ذلك المؤتمراً محافظة على أقواله السابقة من أنه لا يتخبر بأصلا مع الثوار ثم صدر من لؤنذره وروثوقول في السنة المذكورة مضمونه وضع بلاد مور وجزائر سيكلاد تحت حماية الدول الثلاث وعلان استقلالها وأن ينصب عليها أمير مسيحي تنتخبه الدول المذكورة وأن تدفع هذه الامارة للباب العالي جزية سنوية قدرها ٥٠٠٠٠٠ غرش وأن تعوض على المسلمين ما فقدوه من أملاكهم ومع ذلك فإن هذا القرار لم يرض الجانبين وعلى ذلك عادت الحرب بين الجنود العثمانية الباقية ببلاد اليونان وبين اليونان ولم يحسمها الا انتصارات الروسية على العثمانيين في الحرب الالمانية

محاربة روسيا ومعاهدة ادرنه ١٢٤٥ - لما كانت المناسبات السياسية بين الدولة والروسية تزداد تعقيداً من يوم الى يوم خصوصاً من بعد واقعة ناوارين لتعصبهم لليونان تعصباً شديداً ارتبكت الاحوال بينهما ارتبنا كاشدينا بحيث لم يمض يوم ١١ شوال سنة ١٢٤٣ هـ (١٨٢٨ م) حتى أعلنت روسيا الحرب على العثمانيين انتصاراً لاهالي مور وسيرت جيوشها الى شواطئ نهر الطونه وبلاد الاناضول فاضطرت الدولة العثمانية مع ما هي عليه أن تسوق جنودها أيضاً لمصادمة عدوتها تحت قيادة سليم باشا الصدر الاعظم ثم حصل بين الجيشين حروب شديدة استظهرت فيها جيوش روسيا حتى التزمت الجيوش العثمانية أن ترجع القهقري واستولى الروس على وارنه بجيانه قائداً لجنودها وهو يوسف باشا ومع ذلك فقد تمكن القبودان باشا الذي كان رأساً ما يجيئنا تلك المدينة من استرداد قلعتها بعد خروج العسكر منها ولم يكن معه الا ثلاثمائة من الشجعان فقط ولما علم القيصر بهذه الشجاعة الغربية منح الفاتحين حربة الذهب وفي أثناءه وجههم أدت اليهم العساكر الروسية التعظيمات الواجبة تلقاها ما أظهره من الشجاعة أما يوسف باشا فقد حكم عليه الباب العالي بالاعدام جزاء خيانتته ومع ذلك فإن هذا النذل ذهب الى بلاد روسيا وتمع بالاموال التي نالها من الروس واتهم الباب العالي الصدر الاعظم بالاهمال وعدم الاهتمام قصد اذ ذلك عزله السلطان محمود وأمر بنفيه ووجهت مسند الصدارة الى عزت محمد باشا وسأقت الدولة جنوداً أخرى الى جبال البلقان فتحول الروس عن محاصرة شومله قهر اعينهم وكانوا قد استولوا على سلبستره هذا بالروملى أما بالاناضول فكان الروس يتقدمون بلا مقاومة تذكر واستولوا على قلاع قارص وباريزيدوطبراق قلعة وارضروم وأسررو القائد صالح باشا وتقدم جيش روسي في الروم الى يبلغ عدده ١٦٠ ألف مقاتل وحاصر قلعة ادرنه ثم استولى عليها وكان بها من الحامية نحو عشرة آلاف وكان القيصر هو القائد العام للجيوش الروسية وقد جعل مقامه بمدينة بازار بحق

ولم اذت دولة النمسا أن انتصار الروس مضر بسياستها عرضت على فرانسوا وانكثرت المداخلة لحسم الحرب فقبلت انكثرت ذلك أما شارل العاشر ملك فرانسائه عارض معارضة شديدة في المداخلة بين المتحاربين وذلك لان عائلة البوربون كانت تريد أن تخرج الانكليز من البحر الابيض المتوسط وتستولى على جميع الساحل الايسر من نهر الراين ولكي تصل الى مرغوبها هذا أظهرت الميل والمساعدة للروس ولم تمنعها في حربه سيرها نحو الاستانة

وفي أثناء هذه الوقائع البرية والهزيمات التي لحقت بالعساكر العثمانية لم يحصل من العمارة التي بقيت للعثمانيين أقل حركة حربية للنهوض الذي حصل بهما من واقعة ناوارين السابق ذكرها ولهذا خلا الجو للعمارة الروسية التي كانت تتركب من ١٦ غليوناً وكثير من الفراقيط وأخذت تجول في البحر الأسود بالرقيب ولا معارض حتى حاصرت وارنه بجزر اوساعدت جيوش دولتها على الاعمال الحربية فتمشعت في نقل الذخائر والمعدات الى الجيش الروسي الذي تجاوز جبال البلقان والتقت به بينا بورغاز الواقعة بين وارنه وبوغازا البوسفور على سواحل الروم ابلي وكانت هذه المساعدات التي حصلت من الدونما الروسية لجيوشها في تلك الوقائع سببا كبيرا للسرعة حر كانت جيوش الروسية وتقدمها نحو دار الخلافة العثمانية ثم لما تحقق السلطان عدم اقتدار الصدر الاعظم عزت محمد باشا عزله في (رجب سنة ١٢٤٤) ووجه مسند الصدارة الى رشيد محمد باشا الذي اشتهر في محاربات مورده وفي خلال ذلك كان الجنرال باسكيه وييج (Paskievitch) قومندان جيش القوقاز يتقدم على ارض روم ولما تحققت الدولة أن غالب باشا والى ارض روم وسر عسكر الشرق لا يمكنه المدافعة ولا صد الروس لضعف قوته مالت لعقد الصلح وعزلت غالب باشا المذكور وولت مكانه كيتلي صالح باشا ولما كانت الدولة لا تتمكن وهي في هذه الحالة من امداد جنودها الذين يبلاد اليونان تغلب الثوار عليهم علو صل اليهم من الامدادات الاوروپاوية بين رجال وأموال و ذخائر فاستردوا جميع المدن التي احتلتها الجنود العثمانية

والحاصل ان لما اشتد الامر على رجال الدولة والسلطان محمود اضطررت الاحوال اضطرابا كثيرا واختلفت أمور الدولة جدا وساد الضعف والفساد وخيف على دار الخلافة من الروس الآن السلطان محمود أظهر الثبات وقوة الجنان في وسط تلك الاخطار المحدقة به وبدولته ثم تدخلت بعد ذلك دول أوروبا في الصلح فقبله الطرفان وعقدت بينهما معاهدة ادرنه في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٢٤٥ هـ (١٨٢٩ م) وكانت شروط المعاهدة تشتمل على ما يأتي وهي أن يبقى نهر بروث حدا فاصلا للدولتين بأوروبا وأن تستولى روسيا على مصبات الطونه وأن يكون لها سحرية الملاحة في البحر الاسود والبحر المتوسط الابيض وتستولى على بوني وعلى الجزء الاعلى من مصب نهر خوربا آسيا وكان هذا الشرط الاخير يفصل الدولة العثمانية عن الامم الحربية الساكنة ببلاد القوقاز ويسبب خضوعهم الى روسيا وأن تبقى امتيازات المملكتين وتنا كدو ينتخب حكاهما مدة حياتهم ولا يمكن عزلهم الا في احوال مخصوصة وبمرضاة روسيا وأن يمنع جميع المسلمين من سكني المملكتين وقد أعطيت لهم مهلة قدرها ثمانية عشر شهرا ليتمكنوا من بيع أملاكهم أما بلاد الصرب فانهم اتفقوا على ما عينته معاهدة اقرمان وأن يدفع الباب العالي تعويضا حريا قدره ١٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠ من الفرنكات في مدة عشر سنوات ويدفع أيضا ١٦٠,٠٠٠,٠٠٠ لتجار الروس على ما أصابهم من الخسائر مدة الحرب وأن تخرج الجنود الروسية من ادرنه بعد أن تدفع الدولة القسط الاوّل وأن تذهب خلف جبال البلقان بعد دفع القسط الثاني وتعتبر نهر الطونه بعد دفع القسط الثالث وأن تحتل روسيا بلاد المملكتين احتلالا عسكريا حتى تدفع الدولة جميع ما تبقى من الاقساط السنوية وأن يصدق السلطان على معاهدة لوندره وعلى البر وتقول الذي حرره الدول الثلاثة أعني انكلترة وروسيا وفرنسا وبعد ذلك بعدة

شهوراً في سنة ١٨٣٠ م اعترف الباب العالي باستقلال اليونان استقلالاً تاماً وأقر على الحدود التي عينتها الدول وكانت هذه المملكة الحديثة تشمل في أول تشكيلها على جزائر سيكلاديه ونغروبونت وموره وفي القارة كانت تحت سيطرته وهي ممتدة من خليج ارطيه الى خليج فولو وهو الفاصل لها عن أراضي الدولة وهذا الحد الغير المعقول الذي سبب فيما بعد عدة منازعات ومخاضات قوية كان السبب في تحديده بهذه الصفة انكثرت والنساقصد الايجاد النفور المستقر بين الدولة والروسيا

أوجاقات الغرب واستيلاء الفرنسيين على الجزائر - قد سبق ذكر الحالة التي كانت عليها أوجاقات الغرب مفصلاً في أخبار الجزائر وتونس وطرابلس وما كانت تفعله سفنهم من أعمال التلصص في البحر المتوسط الابيض وغزوها السفن تجار دول أوروبا وبأوسطواتها المتكررة على سواحل إيطاليا واسبانيا وجزائر صقلية وسردينيا والحروب التي وقعت بينها وبين كثير من أساطيل الدول الاجنبية الى أن آل الامر لاستيلاء فرنسا على الجزائر الغرب (١٢٤٧ هـ - ١٨٣٠ م) مدة ولاية الداى حسين باشا حله وظلمه وعمقه وكانت أوروبا تقدمت في ذلك الزمن باختراعاتها الحربية والصناعية أما الاحوال الحربية والبحرية في الأوجاقات المذكورة فكانت لا تزال على حالتها القديمة متأخرة ارتكنا على شجاعة ومهارة رجالها وهذا التزم الدولة أن تتبع وقتئذ طريق المسالمة عند مهاجمة الفرنسيين بل بلاد الجزائر احدى ممالكها المكوثة لدولتها وخروجها من غوائل حروب موره والروسيا ومسئلة الكبرية مكسورة الجناحين واكتفت بارسال القبولان جنكلى أوغلى طاهر باشا باسطول الى تونس للتوسط بين والى الجزائر المذكور وبين الفرنسيين ولكن صادفته جله عراقيل في مأموريته منعتهم من حل المسئلة فعدائياً كما تقدم ذكر ذلك وقال بعض المؤرخين ان ملك فرنسا كان يرغب وقتئذ في إعادة بلاد الجزائر الى الدولة كما كانت وهو قول لوصح لكان ملك فرنسا ولاشك يريد أن تتنازل له الدولة عن أرض أخرى أو تمنحه امتيازات تعود على بلاده بالمنفعة العظمى اذ كيف يعقل أن بلاداً شرقية تقع في قبضة دولة أجنبية وتتركها بلا موجب سيما اذا كانت خصبة معمورة جيدة المركز كبلاد الجزائر قالوا وبينما كانت المخبرات جارية اذ حصل الاتفـلاب في حكومة فرنسا ولبثت مسئلة الجزائر معلقة الى أن أقرت حكومة فرنسا الجديدة على ضمها الى أملاكها واحتجت الدولة على ذلك بلا جدوى ولهذا المرات الدولة أن ابقاء باقى أوجاقات الغرب على الحالة الشبيهة بالاستقلال التي لها يتسبب عنه ضياعها أرسلت القبولان الشهير جنكلى أوغلى طاهر باشا بالدونم الى طرابلس الغرب فألقى امتيازاتها وطردها عن أهل القره مائلى وسوى مسئلة تونس بأن منح بعض امتيازات للعائلة الحسينية الحاكمة بها

أحوال بلاد العراق وأوجاق الكولن - اعلم انه في مدة صدارة النوشهرى ابراهيم باشا الداماد كان حدث حرب بين الدولة والمجسم اشترفيه والى بغداد وسر عسكر الشرق حسين باشا بما أظهره من البسالة وما حازه من النصر ولهذا أبقته الدولة والى بغداد مدة حياته وتولاها من بعده ولده أحمد باشا مدة عشرين سنة وفي زمن ولايتهما أسسوا جوجاق الكولن (وأصلهم جنود مجمكون عند الوالين المذكورين) واستمر هذا الأوجاق في العراق مدة مائة سنة تقريباً وكان رجاله

يقاومون كل وال يظهر الطاعة للدولة حتى انحصرت أمورا بالة بغداد في أعقاب أحمد باشا المذكور الى سنة ١٢٢٦ هـ ولما كان أحدهم المدعوس سليمان باشا واليا أرسلت الدولة حالت أفندي المشهور بالشانجي لاستلام باقي وير كوالولاية المذكورة فتوقف الوالي والتزم حالت أفندي أن يعوذي الموصل ثم استجيب معه والى الموصل وجيشه وعاد لمحاربة سليمان باشا وما زال ينازله حتى قتله وعين على بغداد أحد عماليك الوالي المذكور ويدعى داود أفندي بعد أن تعهد بالطاعة وتسديد الاموال في أوقاتها وأنعم السلطان عليه بالوزارة وكان داود باشا هذا فاضلا من أصحاب اللياقة والاقدار حتى انه لما قامت الحروب بين الدولة وايران سنة ١٢٣٩ هـ واستظهرت جيوش ايران على جنود الدولة التي كانت تحت قيادة سرعسكر الشرق بجبار زاده جلال الدين باشا وانهمزم معه داود باشا المذكور بذل المسمى حتى عادت العلاقات بين الدولة وايران الى ما كانت عليه من الصفاء وفي أثناء اشتغال الدولة بجزيرة اليونان والروسيما عينت أحد رجالها المدعوصادق أفندي بمأمورية الى بغداد لابلغ مخصصاتها الى ١٢٠,٠٠٠ كيس لا يتجاوز الى الدولة الى النقود اذ ذلك الا أن هذا المأمور لم يحسن القول والفعل فانه قبل أن يقف على أحوال تلك البلاد طلب عزل داود باشا ولما علم الوالي بذلك غضب وأهان المأمور المذكور ثم قتله فانتمت الدولة أن تجرد عليه وعينت لازعل باشا والى حلب بجيش للقبض على داود باشا فقام هذا الوالي بماعه اليه وحاصر بغداد تسعين يوما الى أن فتحها وقبض على داود باشا المذكور وأرسله مكبلا الى الاسنانة ومحال وجاق الكولن بالكلية ثم ان السلطان عفا عن داود باشا الماله من الاعمال المشكورة سابقا وتولى بعد ذلك بعض المناصب وتوفى وهو بوظيفة شيخ الحرم النبوي الشريف

الحوادث المصرية - سبق لاذكر الاحوال التي ساعدت المرحوم محمد علي باشا على نوال ولاية مصر ونقول الآن ان هذا الشهم النابغة بمجرد قبضه على زمام الحكومة واستتباب الامر اليه أخذ في تنظيم الاحوال وازالة نفوذ الكولن الى أن أبادهم تماما سنة ١٢٢٦ هـ قبل ارسال الجيوش الى الحجاز لاطفاء فتنة الوهابيين كما سبق وقد ساعد الدولة بمساعدة تذكرك في حرب اليونان وبذل الجهود في اتقان الزراعة والري بما فتحه من الجداول والترع خصوصا ترعة المحمودية التي أوصلها نهر الاسكندرية وشيد المباني والمعامل وفتح كثيرا من المدارس المختلفة لتعليم شبان القطر المصري العلوم والصنائع ووسع نطاق التجارة فتمت الايرادات التي كانت لا تتجاوز ٣٠٠٠ كيس في مبداء حكمه حتى بلغت في أواخر مده ٤٠٠,٠٠٠ كيس وزاد الوير كوالذي يدفع للدولة وأبلغه ١٢٠٠٠ كيس وتمكن بزيادة الايرادات من تنظيم قوة عسكرية جسيمة على النسق الاوروبي بلغت المائة ألف وأنشأ عمارة بحرية قوية وسياحي ذلك مفصلا في تاريخه بالجزء الثاني

ولما رأى المرحوم محمد علي باشا في نفسه قوة واقتدارا وعلم ضعف الدولة وارتباك حالتها عقب حرب الروسيما واليونان ومقاومة حزب عظيم من الاهالي للسلطان فيما يدخله من الاصلاحات زين له أهل الفساد الذين لا تروج بضاعتهم الا زمن الفساد والاضطرابات أن يطمح بانظاره الى الاستيلاء على ولايات الشام وحلب من يدولة طالماسهم بمساعدتها وناضل عن تاجها وسلطانها والسبب الذي

استحل به محمد علي باشا سوق جيوشه على الشام فراراً حذماً اليك وبعض أهالي مصر والتجائم الي
 والى عكا عبد الله باشا وامتناع هذامن تسليمهم اليه وكان هذا الوالى أظهر قبل ذلك العصيان على
 الدولة ولما أرادت الدولة تأديبه توسط محمد علي باشا له فعفا السلطان عنه وفي سنة ١٢٤٧ هـ
 (١٨٣١ م) سارت جيوش محمد علي باشا البرية والبحرية تحت قيادة ولده الاكبر ابراهيم باشا ففتح في
 طريقه غزة وبافا وخيفا ثم حاصر عكا وافتتحها لينتقم من عبد الله باشا على ما فعل معه ولما علمت الدولة
 بتقدم جيوش مصر أرسلت الي محمد علي باشا تأمراً بالكف عن أفعاله واخراج عساكره من القطر
 الشامي وله بعد ذلك أن يرفع شكواه الي الباب العالي ليحكم بينه وبين خصمه وأمر السلطان بأن
 ينصحوه ليطيع الأمر ولما يقبل ذلك جمع السلطان مجلساً من مشاهير العلماء والمدرسين
 وعرض عليهم ما حصل من محمد علي باشا فأفتوه جميعاً والفتوى على قدر السؤال بخروج محمد علي باشا
 عن طاعة السلطان فأرسلت الدولة عليه والى أدرنه حسين باشا ومعسه ثلاثون ألف عسكرى ولما
 وصل الي الشام وتلاقى مع الجنود المصرية بين حلب وحض انهم بعد أن قتل من جيشه قدر عظيم
 (محرم ١٢٤٨ هـ) ثم دعت الدولة الصدر الاعظم رشيد محمد باشا وهو من أعظم القواد وأمرهم
 وكان يبلاذ الارنؤدي نظم أحوالها عقب انفصال اليونان عن الدولة وأرسلته بجيش اصدار ابراهيم باشا
 الذي كان عبر جبال ايج ايل ونزل بصحرا قونية وبعد حروب طويلة استظهر فيها الصدر على عساكر
 مصر أسروهم جيشه في يوم ما طر كثيرا السحاب والضباب لانه بينما كان يعي جيشه للقتال دخل
 بين صفوف الخيالة المصرية نظامنه بانهم عساكره فأسروه وابتسار خبر ذلك بين الجيش السلطاني
 اختل نظامه وهجمت عليه عساكر مصر فهزمته (٢٨ رجب ١٢٤٨) وبعد واقعة قونية
 هذه تقدم ابراهيم باشا الي كوتاهيه حيث لا قوة تعارضه وعند ذلك اكتسبت المسئلة أهمية
 عظيمة ولما انتصر ابراهيم باشا في واقعة قونية المذكورة وهم بتوجيه عمان عزيمته نحو مدينة
 بروسه خابر السلطان محمود قيصر الروسية انيقولا الاول الذي كان يسعى من زمن طويل بواسطة
 سفيره في الاستانة في التوسط بين المتحاربين وطلب منه المساعدة فأرسل أسطولاً وجيشاً يبلغ
 عدده ١٥٠٠٠ مقاتل معاونة للدولة ونزلت هذه القوة بالمكان المدعو هنكار اسكاه سي داخل
 البوغاز وعقدت هناك بين الطرفين معاهدة دفاعية وهجومية لمدة ثمان سنوات محرم ١٢٤٩ هـ
 (١٨٣٣ م) ومن مقتضاها أن امبراطور روسيا تهدب معاهدة الدولة في كل الاحوال والاعمال
 وأن يتعهد السلطان محمود في مقابلة ذلك بأن يصرح عند الاقتضاء للدونما الروسية أن تمر من
 البحر الاسود الي البحر الابيض وبسد بوغاز البحر الابيض المتوسط أمام جميع سفن الدول الاخرى
 الحربية وبهذه المعاهدة أخذت المسئلة شكلاً سياسياً آخر في عواصم أوروبا وكانت سبباً لاهتمام
 اللورد بالمرستون رئيس وزراء انكلترة والبرنس مترنيخ رئيس وزراء النمسا وأخذت بخبار ان مع فرانسوا
 وروسيا وبتهداخلهم ما أوقفوا ابراهيم باشا عن التقدم واضطر والمرحوم محمد علي باشا على
 عقد الصلح والانصياع لأمر الدولة كل ذلك ليس حبا في الدولة ولا في مصر بل لاطماعتهم
 السياسية ومقاصدهم الخصوصية ولكن مع عقد الصلح في الظاهر لازال الطرفان يستعدان
 ويتربصان لبعضهما فكان محمد علي باشا يرى أن لا حق لدول أوروبا في هذا التطفل الذي سيرده
 عن غنيمته مع ما ناله من الاستظهار وكانت الدولة ترى في انتصار أحد ولا تها عليها اهانة ماسية

جدابكرامتها ومجدها وربما كان سببها في أن يجترأ عليها غيره من الولاة ويشق عصا طاعتها مع ما يكون لدول أوروبا عليها بعد ذلك من الايادي اذ كانت سبب نجاتها خصوصا دولة الروسا بعد قوتها القديمة ولذلك أخذ ابراهيم باشا يحرص مضيق كوكك الواقع بين قونيه واطنه (اذنه) ووالده في مصر يهتم في انشاء السفن لزيادة قوته البحرية والاكتار من العساكر النظامية لتقوية جيوشه البرية واهتمت الدولة بالمسئلة أكثر من ذي قبل فاعادت رؤف باشا المسند الصدارة بعد وقوع رشيد محمد باشا أسيرا ولما عذر رشيد باشا المذكور الى الاستانة (١٢٥٠ هـ) عينته واليا لسيواس وفوضت له ادارة ديار بكر وخرطوم وربت له جيشا دعت أنها تقصد بواسطته اصلاح احوال بلاد كردستان وغير ذلك من الاعمال (١٢٥٢ هـ) ولما مات رشيد باشا قبل أن يأتي بهذا الجيش عملا عينت الدولة مكانه فريق كونايهي حركس حافظ محمد باشا ثم اهتمت مع ماهي فيسه من الضعف ذلك الوقت باكمال الاوردى الهمايونى وكان في جيش حافظ باشا وقتئذ الضابط البروسيانى مولتسك الشهرير وكان أشار على حافظ باشا برأى في القتال الآن حافظ باشا لم يحفل به لغروره بنفسه ثم تقدم بالجيش السلطانى لصد ابراهيم باشا وعبر نهر الفرات حتى قابله بجوار حلب في جهة زيب (نصيبين) ولسوء تدبيره وقله خبرته انهزم هو أيضا (١٢٥٥ هـ) فكان ذلك سببا لان يحتل ابراهيم باشا جملة بلاد أخرى وقبل أن تصل اخبار هذه الهزيمة الى استانبول اتفق موت السلطان محمود وكان اعتراه قبل ذلك بجمسة شهر وانخراف في صحته وأشار عليه الاطباء بتبديل الهواء فنقل الى مصيف شقيقة أسما سلطان الواقع في جامليجه من ضواحي استانبول وكانت وفاته في ١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ وعمره لا يتجاوز السادسة والخمسين وكان السلطان محمود رحمه الله من أعدل سلاطين آل عثمان كثير الاهتمام جدا بما يعود على الدولة بالمنافع والقوة عارفا بالامور جسورا فعلا لا يرجع عن نواياه الا اذا اخرجها من القوة الى الضعف تمكن من اخضاع فتنة الوهابية وفتنة البانيا التي أشعل نارها نيه دلتلى على باشا وفتنة عائلة القره مانلى بطرابلس الغرب وغيرها من الثورات واهتم بوضع النظام العسكرى الجديد ومن أعظم أعماله ازالة أوجاق اليكچرىة الامر الذى سعى فيه قبله السلطان سليم خان الثالث وغيره وأدخل كثيرا من الاصلاحات في كافة الولايات العثمانية وكان له الوقوف التام على احوال الدولة وما يحتاجه من الاصلاح ولم تخل سنة من سنى حكمه من الاضطرابات والاختلالات ومع ذلك فقد تغلب عليها جميعها بما أوتيه من علو الادراك وهو الذى أزال امتياز الاعيان (دره بلكر) الذين كانوا على نوع من الاستقلال لا يعترفون للدولة بالتابعية الا ظاهرا هذا ان أرادوا وبذلك جعل البلاد التي كان يحكمها هؤلاء الاعيان مرتبطة ارتباطا متينا مع دار السلطنة

الاهمال البحرية انشاء المسئلة المصرية - كانت عمارة الدولة في ابتداء هذه المسئلة مركبة من ٣٧ سفينة ثنتان منها من نوع أوج انبارلى وسبعة غلايين واثنتى عشرة فرقاطة وأربع عشرة من نوع القرويت وكانت تحت قيادة القمودان خليل رفعت باشا الداماد وقد مدح مؤرخو البحار البحرية العثمانية ورجال الدولة لتمكنهم في زمن قليل من الحصول على قوة بحرية عظيمة مثل هذه بعد أن فقدت الدولة معظم قوتها البحرية في واقعة ناوارين كما تقدم ولما تجرت هذه العمارة

أثناء المسئلة المذكورة مرت على سواحل الشام وبعد أن هددت حصونه التي في يد المصريين ووقفت على قوتهم هناك عادت الى الاستانة في زمن الشتاء وذكروا أنه في زمن تلك الحروب خرجت الدونما العثمانية وكانت مقسومة الى ثلاث فرق تحت قيادة كل من چشمه لي حسن باشا وشكري باشا و ابراهيم باشا ومرت بالتجول في مياه قبرص ومرسين وأنطاكية وبينهما في ذلك استولى المصريون على بعض سفن صغيرة من سفن القره قولات التي في تلك السواحل ثم خرج القبودان جنك أوعلي طاهر باشا سنة ١٢٥١ وقاده الى سواحل الغرب وعاد ولما تعين هذا القبودان محافظا لطرابلس الغرب سنة ١٢٥٣ خلفه في مسند القبودانية فرارى أحمد فوزي باشا فخرج بالدونما ولما كانت مركبة من ٢٤ سفينة جسيمة ظنت دولة فرانس أن قيام مثل هذه الدونما الجسيمة هولا مر قصدت الدولة أن تجر به في بلاد الجزائر خصوصا وانها كانت قبل ذلك بستين خلعت عائلة القره مانلي من ولاية طرابلس الغرب وأغت امتيازاتهم وأضافتها الى أملاكها فلذلك أوعزت الى سفيرها بالاستانة أن يستفهم عن المقصود من خروج هذه العمارة ولم يطمئن بالفرانس حتى أكدت الدولة بأن ليس في الامر من شئ تخافه فرانساً وغيرها

الفصل الثالث عشر

(من صدور خط الكليخانة الى زمننا الحاضر)

٣١ السلطان عبدالمجيد خان ابن السلطان محمود خان الثاني

١٢٥٥ - ١٢٧٧

التنظيمات الخيرية - جلس هذا السلطان على تخت أجداده العظام وسنه ١٨ سنة وكانت الاحوال في اربناك كما علمت وعجز جلوسه وجه مسند الصدارة الى رئيس مجلس الاحكام العدلية خسرو باشا العدو والاد محمد علي باشا والسرعسكريه للداماد خليل باشا وهومن مماليك خسرو باشا وفي اليوم الثاني من جلوسه وصل خبر واقعة تريب وانكسار الجنود العثمانية وبعد عشرة أيام وصل خبر تسليم القبودان فرارى أحمد باشا الدونما العثمانية لمحمد علي باشا في الاسكندرية ولكن هذه الاخبار على خطارتهم تؤثر في السلطان لانه كان جسوراً مقداماً سيما وانه لو أظهر كدراً ربما أضرب ذلك بالحالة أكثر مما هي عليه ولما عادناظرنا الخارجية مصطفى رشيد باشا من المأمورية التي كان أرسل لها مندوبين باور وباو وأطلع السلطان على رأى دولها بخصوص مصر أصدر فرماناً بالتنظيمات الخيرية التي كان عزم والده على اجرائها في سنة ١٢٥٤ هـ فكان ذلك من أكبر الاسباب لترقي وتقدم البلاد العثمانية على الطريقة التي كانت جارية وقتئذ في عموم أوروبا

المسئلة المصرية وطها - اعلم أن معاهدة هنكارا سلكه سى التي تقرت بها الروسيان الدولة العلية كانت الباعث لاتباه رجال السياسة في أوروبا باحتي جعلوا المسئلة المصرية كسئلة أوروبا وية ولذا أخذت الدول تنذاً كرفها ملياً وكانت فرانساً وحدها تميل لمساعدة مصر حتى

تسبب عن ذلك تغيير وزارة كيزووتيريس وبسبب ذلك ضعفت سياسة لويس فيليب ملك فرنسا في
المسائل الخارجية وبعد هذا كرات طويلة بين دول أوروبا باعقدت انكلترة وأوستريا وروسيا
والروسيا اتفاقية مع السلطنة العثمانية بخصوص مصر كإسياني وكان توجيه مسند الصدارة
العظمى الى خسرو باشا الكبير لا يرجي منه تسوية المسئلة المصرية على ما يوافق صالح الدولة لعداوتة
الكبرى لمحمد علي باشا كما علمت ولما أصدر السلطان عند جلوسه فرمانا الى محمد علي باشا والى الديار
المصرية بالعفو قابل حامل هذا فرمان المسمى عاكف افندي أحد كتاب الباب العالي في أثناء هبابه
مع القبودان فرارى أجد باشا وأخبره بما حصل من التبديل في الوزارة وبصدور فرمان سلطاني بالعفو
عن محمد علي باشا وعدم احتياج الحالة لعمال الدونما التي يلزم أن لا يبارح القلعة السلطانية ولذا
كلفه بالعود بها الى الاستانة تخاف أجد فوزي باشا من التبديلات الوزارية ودار بخلفه
أن تنصيب خسرو باشا لمسند الصدارة مضربه شخصيا لما بينهما من العداوة الشديدة فافتكر أن
تجانبه هي أن يتقدم مع محمد علي باشا ويسلمه الدونما ثم أرسل أحد ضباطه بسفينة الى امستانبول
لينوب عنه في تقديم واجب تبريك الخاوس السلطاني ليعده عنه بذلك المظان ثم انه بعد أن حبس
مصطفى باشا الفريقي في سفينة أقطع بالدونما الى نغراسكندرية وبوصله سلمها الى محمد علي باشا
وذلك في ٢٥ جمادى الاولى سنة (١٢٥٥ هـ ٨ يوليو ١٨٣٩) وكانت الدونما المذكورة
تركب من تسعة غلايين كبيرة و ١١ فرقاطة و ٥٥ قرويات عدد رجالها ١٦١٠٧ من
الملاحين هذا خلاف الالين من العساكر عدد رجالها ٥٠٠٠ فيكون الجميع ٢١١٠٧ من
الجنود وبذلك دخلت المسئلة المصرية مع الدول في شكل جديد أكثر تعقيدا كما كانت ولهذا
عزل خسرو باشا من الصدارة ووجهت الى رؤف باشا ثانية (١٢٥٦ هـ) وانفقت انكلترة
والروسيا وأوستريا وروسيا على حل المسئلة المصرية حلانها بما وعقدوا ذلك مؤتمرا بالاستانة
تحت رئاسة الصدر الاعظم (٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩ م) وكانت فرانس تطهر المييل
والمساعدة لمحمد علي باشا وترغب اطلاق السراح له وعدم تقييده بشئ وسعى مسيو كيزووتيريس
وزرائها الذي الدول ليجملها على عدم تدخلها لان مسئلة مصر يمكن انها أوها بين التابع ومتبوعه
مباشرة وكان يقصد بذلك أن يكون لفرانس الزمن الكافي لنوال مرغوبها الا أن دول أوروبا
فهمت نوايا فرانس انفقوا على تنفيذ ما قرروه ومضمونه أن يعطى السلطان لمحمد علي مصر يحكمها
هو وأولاده من بعده على طريقتي الوراثة وولايتي عكا وصيدا مدة حياته فقط وأن يخلي بلاد
العرب وسوريا وكرد وغيرها من الجهات التي بها عساكره في مئة عشرة أيام وان رفض
الرضوخ لذلك ساعدت الدول المذكورة الدولة بالقوة ولما رأيت فرانس أن ارجاع دول أوروبا
عما اتفقوا عليه من أصعب الامور غيرت وزارتها وعينت مسيو تيريس رئيسا لها وأخذت في
الاستعدادات الحربية خصوصا بجبهة نهر الرين وسواحل البحر الابيض المتوسط وفي تلك الاثناء
أرسلت الدولة لمحمد رفعت بك مستشار الصدارة لمصر لابلغ محمد علي باشا قرار الدول وقبول
الدولة له وانها لم يقبل ذلك في ظرف عشرة أيام استردت الدولة منه ابالي صيدا وعكا ولم يقبل
أرسلت انكلترة وأوستريا والدولة أساطيلها فاصروا سواحل الشام واستولوا على بيروت واللاذقية
وطرسوس وطرابلس وصيدا وصور وفتحوا عكا عنوة بعد أن أطلقوا النيران عليها مدة ثلاث
ساعات ونصف وكان ابراهيم باشا يعتمد عليها أكثر من غيرها ولما كانت جميع الذخائر والادوات

الحرية المصرية بهذه المدينة وقعت في يدا المتفكرين انهزمت الجنود المصرية الى منحدر جبال الدروز
 بعد محاربات طويلة والتزم ابراهيم باشا أن يتقهقر الى وديان تلك الجهات وكانت الاهالي تظهر العداوة
 لابراهيم باشا وجنوده حيث وجد ولما اشتدت به الحالة اضطرراً أن يعود الى مصر (١٢٥٦ هـ)
 ثم توجهت فرقة من السفن المتفقة الى الاسكندرية تحت قيادة الاميرال ناير (Napier) الذي
 ألزم محمد علي باشا بقبول القرار الدولي القاضي بان لا يكون له الا بلاد مصر (٢٧ نوفمبر ١٨٤٠)
 ثم أرسل المرحوم محمد علي باشا الدونما العثمانية الى الاستانة وسلمها للدولة في أول الحجة سنة ١٢٥٦
 (٢٤ يناير سنة ١٨٤١) أما فرانسافان أتمت المارات أنها صارت بمعزل عن دول أوروبا
 وانها بذلك ربما أضاعت نفوذها الذي حازته بالشرق هاجت واضطربت وعلى ذلك تغيرت الوزارة
 وتحول مجرى سياستها والتزمت أن تدخل في دائرة السياسة الاوروپاوية التي أجمعت على ابطال
 معاهدة هنكاراسكلهسي المذكورة وانهاء المسئلة المصرية في أقرب زمن وانفقوا على عقد معاهدة
 مع الدولة العثمانية بخصوص حق المرور من مضيق البوسفور والدردانيل (جمادى الاولى
 سنة ١٢٥٧ - ١٨٤١) وتعرف هذه المعاهدة بمعاهدة البواغيز وكانت بين الدولة من جهة
 وبين انكلترة والنمسا والروسيا وبروسيا وفرنسا من الجهة الاخرى وكان من مقتضاها الاعتراف
 من هذه الدول بالحق المطلق والحكم المستقل للدولة على البوغازين المسذكورين وانه لا يصرح
 لدولة أن تمر بسفنها الحربية من هذين البوغازين أصلاً ثم صدر فرمان الوراثة لعائلة محمد علي
 باشا مشتملاً على امتياز حكم القطر المصري بمصادقة الدول الاوروپاوية وتوجه بعدها محمد
 علي باشا الى استانبول لعرض طاعته على السلطان وبذلك تجددت الروابط الودية بين مصر ودار
 الخلافة (١٢٦٢ هـ)

الترقيات في الدولة العلية وخط الكفائة - لما انتهت المشكلة بين مصر والدولة بتسداد
 الدول الاوروپاوية اهتم السلطان عبدالمجيد خان بتأييد النظمات الجديدة وأصدر فرمان
 المعروف بفرمان الكفائة فانتسعت به أسباب العمران في كافة المملكة العثمانية واستتب الامن
 وتأسست المدارس الرشدية (٢٦ شعبان ١٢٥٥) وأدخلت النظمات والتحسينات في
 المدارس الحربية والملكية والبحرية وحصل اقتصاد كلي في ميزانيات البرية والبحرية معاومت
 كل هذه النظمات بغاية الهمة وامتدت الاصلاحات الى جميع الولايات وأبدلت الاسلحة القديمة التي
 كانت بأيدي الجيوش الشاهانية باسلحة جديدة من آخر اختراع وهي بنادق الششخانة ذات الكبسول
 فأصبحت القوات العسكرية عمومها على وتيرة واحدة في النظم والترتيب وامتدت الاصلاحات
 أيضاً الى معامل الطوبخانة ومحطاتها من باقي المعالم العسكرية بالسلطانية وبهذه الاعمال النظامية
 والمواد الاصلاحية قطعت الامة العثمانية مراحل شاسعة في طريق التقدم والعمارة في أسرع
 زمن وبالانحصار في جميع مصالحها واداراتها وما يتبعها من الفسود حتى صارت الامة بسبب
 ارتياحها لهذا الاصلاح العظيم في غاية الامن والراحة

وقد وفق الله السلطان الى انفاذ جميع الرغائب والاماني لاصلاح شؤون الرعية وعمارة الممالك
 ونشر لواء الامن والراحة وقطع جرائم الدناس الاجنبية وكان الوزير رشيد باشا المسذكور له من
 سعة المعارف والوقوف على ضرور السياسة وجه همتة أولاً لاجل دول أوروبا وجميعها تعترف للدولة

العثمانية باخلاص النية وطهارة الطوية بما أوجدته في داخلها من الإصلاح والتقدم حتى
سبقته كثير من دولها في هذا الشأن
مركباتها باور وباومعاينة بالظلمة - اعلم انه في تلك المدة ظهرت فتنة عظيمة في بلاد
المجار (١٢٦٤ هـ ١٨٤٨ م) كانت كرتة فعل الثورات التي حدثت في هذا التاريخ
بكتير من ممالأ أور وبا حيث نارت الام طلبا للحصول على نظامات دستورية يتخلصون بهما من
حكوماتهم الاستبدادية وكان أول ظهور هذه الحركة بباريس وانتهت باسقاط حكومة لور فليب
والمناداة بالجمهورية الثانية وعجزت دولة النمسا عن تأديب عصاة المجر فلذا اضطرت لطلب المساعدة
من روسيا فارسلت روسيا جيشا تحت قيادة البرنس باسكيه ويج الروسي وهو الذي اشتهر باعماله
الحربية وقسوته الفظيعة ببلاد ايران والناضول واللهستان ولما دخل بهذا الجيش بلاد المجر
تغلب على الشائرين لعدم انتظامهم وتفرق رأى قوادهم (١٨٤٩) وكان للروسيا في ذلك مصلحة
لانها لا تحب استقلال المجر لئلا يكون لها بمثابة عائق يمنعها عن التقدم نحو البلاد العثمانية ولما كانت
بلاد المجر محاطة بالجنود من جميع جهاتها وكان البرنس باسكيه ويج اشتهر بالقسوة سدت في أوجه
الذين تداخلوا في هذه الفتنة من المجر أبواب النجاة سيما وان ديوان الحرب الروسي حكم عليهم
بالاعدام ولما كان المجر عيالون من القديم الى الدولة العثمانية التجؤ اليها فقبلتهم الدولة بالترحاب
ونشرت عليهم جناح رافتها وكان من بين المنجسين الى الدولة الجنرال ديمينسكي (Dembinski)
وكوسوت (Kossuth) وجم (Bem) وكلايكا وغيرهم من القواد وكان من بينهم أيضا
اندراسي الذي صار فيما بعد رئيس الوزراء النمسا وغيرهم من الالهالي وأرباب الحرف والصنائع
والضباط والاطباء والمحاميين يبلغون الستة آلاف (١٢٦٥ هـ) وقد اتخذوا كثير هؤلاء
الممالك العثمانية وطنا ثانيا وخدم كثير منهم الدولة الخدم الجليلة وقد حدثت من حماية الدولة لهؤلاء
المنجسين أحسن تأثير باور وبا وتظاهر القوم تظاهرا واداءيا أمام سفارة الدولة العثمانية بباريس
ولوندره وحدث أنه بينما كان سفير الدولة بلوندره يسير بعربته في إحدى طرفات المدينة صفوقه
القوم وهلوا استحسناتهم ومحبوا عربته بايديهم حتى أوصلوه الى دار السفارة بعد أن تزعموا الخيل
منها ولما طلبت دولة روسيا من الدولة العثمانية تسليم اللاجئين بحماها امتنعت الدولة من تسليمهم
لانه ليس بينهم عهد وتفضي بتسليم المجرمين السياسيين وحدثت من هذه الحركة التي أثرت باور وبا
هذا التأثير أن قام أهالي افلاق وبغدان يطلبون الاستقلال التام والانضمام الى بلاد
ترانسلفانيا لئلا يكونوا دولة رومانية ومارالاهالي على أميرى الولاياتين حتى اضطروا وهما الى الفرار
وكونوا حكومة مؤقتة وعند ذلك بادرت الدولة بارسال الجيوش الى تلك البلاد بقودها عمر باشا
الشهير فطردها الحكومة المؤقتة ولما رأت روسيا أن ذلك مضعف لنفوذها في البلدين المذكورين
أرسلت جيشا (١٨٤٨ م) واحتلت الاقليمين المذكورين فعارضتها الدولة في ذلك حتى
خيف من انتساب القتال بينهما ثم دارت المخابرات بين الطرفين واتفق أخيرا على بقاء حق تعيين
الامراء بالولايتين المذكورتين للدولة العثمانية كما كان وأنها يحتمل البلاد جيش مختلط من عساكر
عثمانية وروسية لمدة سبع سنوات حتى يستتب الامن وكان التوقيع على هذه المعاهدة ببلدة
بالظلمة ليمان من ضواحي استانبول ولهذا أضيفت المعاهدة المذكورة اليها

حروب الترم واسبانيا - لما كانت دولة الروسيا على يقين من أن الاصلاحات التي أدخلتها الدولة في حربيتها وتنظيم جيوشها البرية والبحرية هي نفس الاصلاحات التي أكسبتها الانتصارات في وقائع حروبها مع الدولة العثمانية وكانت تمنى أن لا ترى الدولة العلية متقدمة في مراقي الفلاح لان ذلك ينافي سياستها وأمانها بالجهات الشرقية كانت تنظر اليها بعين الحقد وتودع رقلة مساعدتها في الاصلاحات القائمة بها فقامت بتحمل سببها بخول لها محاربة الدولة فقالت بجماعتها للجميع الاورثودوكسين التابعين للدولة العثمانية وأخذت تزرع بذور الدسائس كعادتها بين أولئك الاقوام ومن سوء الحظ أن أعمال بعض عمال الدولة كثيرا ما فححت لدول أوروبا بالتحج منه لخاصة الدولة وقد انتهزت الروسيا فرصة الاختلاف الواقع بين طائفتي الروم واللاتين في القدس من سنين مضت بسبب كنيسة القيامة وبعض الاماكن المقدسة الاخرى وقامت كل طائفة منهم ما تدعى لنفسها حق الرياسة والتقدم على الاخرى في حق السدانة على كنيسة القيامة ثم أخذت هذه المسئلة تتعاظم بينهما وتمتد يوم بعد يوم الى أن آل الامر الى النزاع والجدال في سنة ١٢٦٨ هجرية فوقع الباب العالي في الارتباك والحيرة واهتم بايجاد نار العداوة من بين الطائفتين المذكورتين لان دولة الروسيا كانت تدافع عن حقوق الروم الاورثودوكسين ودولة فرانس تدافع عن اللاتينيين بمقتضى عدة معاهدات قديمة تدعى أنها تخول لها هذا الحق وعلى الخصوص بمقتضى الامتيازات الممنوحة لها في سنة ١٧٤٠ ميلادية فتدخل سفيران كثر في هذا المشكل ورسم ترينالا ائتلاف اللتين المتخالفتين فقبلته فرانس ولم تقبله الروسيان مقصدها الا كبرليس المحاماة عن حقوق الروم الاورثودوكسين كما تقول بل كانت لها غايات أخرى كثيرا ما كانت تجتهد في نوالها وتترقب الفرص للحصول عليها وهي ابعاد الدولة العثمانية عن المجتمع الاوربي ليسهل عليه الاستيلاء على أملاكها فانهز قيصرها نقولا تلك المنازعة فرصة مناسبة لنوال بغيته وبلغ أر به وأرسل ناظر بحريته البرنس منجيموف الى دار الخلافة العثمانية بصفة سفير مرخص للخبرة في مسئلة الخلاف الواقع بخصوص الاراضي المقدسة بعد أن بعث جيشا مؤلفا من ١٤٤ ألف مقاتل الى حدود الدولة ولما وصل رفض مواجهة فؤاد أفندي وزير الخارجية فعزلته الدولة ووجهت مسند نظارة الخارجية لرفع باشا ثم تذاكر الوزراء في البلاغ الذي قدمه البرنس المذكور لنظارة الخارجية (١٩ نيسان ١٨٥٣) ولم يوافقوا عليه ولهذا أخذت الدولة تجهز الجيوش استعدادا لما يحدث من الطوارئ ولا نهأت أن الروسيان لازلت مستمرة على تعريض الاروام على العصيان وبيدأوا امر الدولة مشوقا ياهم بكل ما تقدر عليه من أنواع المشوقات ثم انفردت من بين دول أوروبا ووقفت في ميدان السياسة بفردها مدعية على الدولة العلية بانها تسيء معاملة التصاري الاورثودوكس خصوصا وتطالبها باصلاح حالهم مع أن التنظيمات الخيرية تكفلت لهم ولغيرهم بذلك كما يعلم من مطالعة النرمان الصادر بها ولما رأته الدولة أن الروسيان لازلت مصرة على مدعياتها أخذت في التجهيزات الحربية ولكي تتمكن من ذلك ويكون لها الوقت الكافي قررت إعادة النظر في طلبات الروسيان وغيرت هيئة الوزراء (١٢٦٩ هـ) فوجهت مسند الصدارة الى مصطفى نائلي باشا ونظارة الخارجية لمصطفى رشيد باشا وكان من أصحاب الخبرة والذكاء ولما أعاد الوزراء المذكورون النظر في طلبات الروسيان رأوا أن لاحق لها أصلا وأنها خرجت بهذه الدعوى عن جادة الصدق قام وزير الخارجية معارضتها

وتمكن عهارة من الدخول مع دول أوروبا في المناظرة والمباحثة والمجادلة والمناقشة ولم ينته من عمله حتى أظهر لها الحجج الدامغة والأدلة الكافية على بطلان مدعى روسيا وعدم وجود أثر للصحة فيما تدعيه مبتدأ أو جده الدولة العلية منذ أزمنة مديدة من الاصلاحات العميمة والنظامات القويمة في ممالكها المختلفة ونشرها العدل بين رعيتها على السواء وإيجادها كل ما من شأنه رفع أمتهالى معارج السعادة والرفاهية وأيد جميع هذه الأقوال بما سبق من اعتراف الدول بوجود هذا الاصلاح في الممالك العثمانية ومصادقتها على تعميمه فيها وارتياحها للدولة العلية حيث قامت به على حسن النية وانحلاص الطوية ولم يخرج هذا الوزير من هذا الموقف المهم حتى تحقق للدول جميعها فساد قول روسيا وانها تبطن خلاف ما تظهر وبناء على ذلك رفضت الدولة العثمانية بلاغ روسيا عما تقدم من جيقوف أولتيا توم بلاغا غنائيا (٢١ مارس سنة ١٨٥٣) وبارح استانبول مع عموم هيئة السفارة الروسية

اعلان الحرب على الروس والوقائع بجبهات الطونة والاناضول - لقد كانت رجال الدولة ومحافل أوروبا تظن أن ما استعمله البرنس منجيقوف في أموريته من الغلظة والجبروت ربما كان على غير ضادولته إلا أنه لما أتى محررناظر خارجيتها القوت ده نسلرود (٣١ مارس سنة ١٨٥٣) اتضحت مقاصد روسيا وظهر أن منجيقوف لم يصدع الا بما كانت تأمر به دولته سيما وان الخنزال غورجاقوف عبر نهر بروتمبا كان تحت قيادته من القوة السابق ذكرها وانتشرت جيوشه في أراضي المملكتين ولما رأته الدولة أن ذلك عبث بالعهود أعلنت الحرب على روسيا (الحجة سنة ١٢٦٩) وكتب عند ذلك عمر باشا المجرى قائد عموم جيوش الروم ايلي الى القائد الروسى المذكور يطلب منه اخراج عساكره وانحلاء أرض المملكتين في مدة خمسة عشر يوما حسب الاصول المتبعة ولما علم عمر باشا أن جيوش روسيا تقصد عبور الطونة من جهة ودين تحرير الصربين على العصيان أرسل قوة كافية عبرت من ذلك المكان الى جهة قلفات (١٢٧٠) وأنشأت هناك بسرعة بعض استحكامات وطوابق لاشغال العدو ومنعه من التقدم وأجاز أيضا من طوره فان الى أولتنا نجيحه ومن روسحق الى ركوك قوتين آخرين هدد بهما مدينة بكرش فسيدت هاتان القوتان بعض القلاع وتمكنت من صد هجمات الروس ولما التقى عمر باشا مع عسكري الروم في أولتنا نجيحه انتصر عليهم انتصارا باهرا بعد حرب شديدة (٣ صفر سنة ١٢٧٠) وكذا لما تجمعت قوة روسيا بقرية جتانه الكائنة بجوار قلفات عين رئيس أركان حرب الروم ايلي القرين ناظر أحمد باشا بقلفات ثلاث فرق عسكرية تحت قيادة كل من جركس اسماعيل باشا ومصطفى توفيق باشا وعثمان باشا وهجمت هذه الجنود على الروس من ثلاث جهات فهزمتهم شرهزيمة (الخميس ٥ ربيع الاول) واستولى العثمانيون على معسكرهم جميعه بعد أن ولوا الادبار من جتانه وصدتهم أيضا العساكر العثمانية في روسحق وموطن أوغلي اطهسى وسليستره وقره لاش اطهسى وزشتوى ونيكبولي وماجين وايساقجي وانتصرت عليهم في كل سواحل الطونة ثم هزمتهم أيضا حاكم باشا عند ما هاجروا قلفات حتى اضطرهم الى الرجوع الى ماوراء نهر أوتو من جهة بلاد افلاق الصغيرة وقد كانت هذه الانتصارات المتتابعة سببا لاندهاش العالم الاوروبى إلا أنه لما أقبل فصل الشتاء

ببرده الشديد وتراكت الثلوج الكثيرة التزم عمر باشا أن يلجئ إلى الحصون وأن لا يتعقب الروس المنهزمين هذا ووردوا أما الجيوش العثمانية بالحدود الآسيوية فكانت تحت قيادة عبسدة الكريم فادر باشا تنقذتم أيضاً منصوره في جهات آخسخته وأر بهجاني واستولى العثمانيون بمابله رئيس أركان حرب الجيش تاجرلى أحمد باشا على قلعة كرى وحاصر الروس في آخسخته ثم ان نظارة الحرب بسبب استاتبول رأيت من عبدالكريم باشا التواني في الحركات العسكرية فعزلته ونصبت مكانه قائدا آخر يدعى أحمد باشا ولما أقبل فصل الشتاء تعطلت الاعمال الحربية بتلك الجهات أيضا

واقعة سينوب البحرية (٢٧ صفر سنة ١٢٧٠) - كتب هنرى نابول اسكواير تاريخا مخصوصا لوقائع حرب القريم ذكر فيه محاربة سينوب هذه تلخصها على الكيفية الآتية قال انه في شهر محرم من سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ م) أرسلت الدولة العثمانية إلى البحر الاسود أسطولين أحدهما مشكل من خمس سفن حربية تحت قيادة البطر ونه مصطفى باشا بها أدوات وذخائر حربية لا يصالها إلى نغر بطوم وكان بهذا الاسطول ٨٨ مدفعا والآخر مشكل من ثلاث عشرة سفينة حربية تحت قيادة البطر ونه عثمان باشا والرياله حسين باشا وأمر بالذهاب إلى فرضة سينوب وكان به من المدافع ٤٠٦ مدفعا ولما وصل هذا الأخير إلى ميناسينوب واستقبل فيها أقبلت بعد أيام من وصوله عمارة روسية مركبة من ثلاثة قباقيات وأربع فراقيط وأربعين واحدا معرفة مواقع السفن العثمانية وقوتها وبقيت هذه العمارة خارج الفرضة محاصرة لها ولما وقف أميرال هذه العمارة المدعو ناچيموف (Nachimof) على حالة الدولت العثمانية كتب لدولته يطلب منها أن تمدّه بعدة من السفن الحربية الموجودة بسببواستبول ولما وصلت إليه السفن كما طلب قوى ساعده ودخل المينابرج طيبة وأبقى خارج الميناء أربع سفن تراقب السفن العثمانية وتمنعها من الهرب لو أرادته ووقف هو بسفنه بعيدا عن مرعى مدافع البطاريات البرية على نحو ألف ياردة من سفن العمارة العثمانية التي كانت مستقبلة في الميناء على خط واحد

ولما رأى الريان عثمان باشا أن سفن الروسية قد دخلت الميناء هذه الكيفية أمر قواد السفن العثمانية بالاستعداد للحرب ومباشرة القتال والضرب وأن يذلوأما في طاقتهم من الاجتهاد ويبيعوا نفوسهم جبالدينهم وأوطانهم وغيره على مملكتهم وسلطانهم إلى آخر ممق من حياتهم وبعد ذلك شرعت الفرقاطة العثمانية المسماة نظامية باطلاق المدافع فخرجت المقدوفات من مدافعها كالصواعق اذا المحدثت أو الشهب اذا انقضت وابتدأت الحرب بين الطرفين ودوت الاصوات في الآفاق واشتدت الحال وحجى الوطيس بين الفئتين وتحقق المتقاتلون أن هذا آخر الاجل المناح الآن من تأمل وقت ذلك إلى هاتين القوتين كان يرى فرقا عظيما وبونا جسيما إذ أن السفن العثمانية صغيرة والسفن الروسية ضخمة كبيرة فلذا كان يتأكد من أن العثمانيين إما أن يسلموا سفنهم بغير قتال والامحتما أساطيل الروسية في الحال ومع هذا فقد استمرت الحرب ساعتين ونصفا أتلّف فيها الاسطول الروسي الفرقاطة العثمانية المسماة ناولو بجري ولما رأى قوادها انه لم يبق في وسعها المقاومة والمدافعة أمر باشا بالفتح النار في مستودع بارودها لا عدامها بجن فيها حذرا وتفاديا من وقوعها في أيدي العدو

ولما امتنعت طائفتهم من انفاذاً امره هذا تقدم هو بنفسه وأشعل الجحشانة فقطارت السفينة قطعاً بمن فيها جميعاً وهو معهم ولقد كانت هذه الخسارة سييافاً في اضعاف قوة باقي السفن العثمانية ووقوع الخلل في نظامها الروية عسا كرها قطع الفرقاطة وهي تتطير في الفضاء وأجسام شهدائها تنتثر ودماؤها تضر على سطح المياه كالسيل المنهمر فياله من منظر تنفطر منه الاكباد وتفتت له القلوب ولم تمض برهة حتى احترق قسم من السفن العثمانية بعقدوفات الروس ووصل الحريق الى مستودع بارودها فتشمت وتطارت قطعاً وعند ذلك صعد عسا كرا الروس فوق السورارى وهلاوا فرحاً وكان يبق بعد ذلك من السفن العثمانية فرقاطتان في المينا وكانتا تطلقان على السفن الروسية مدافعهما بلا انتظام الا أن أصواتهما لم تكن الا اشهاراً للحزن والاسف على أبطال الرجال وليوثها الذين عدوا وقد تخرب معظم المدينة من وقوع قنابل المدافع عليها حتى أصبحت غير صالحة للسكنى الا القليل منها وقد فعل الروس في هذه المحاربة أفعالاً وحشية منافية للشهامة والمروءة على خط مستقيم فانهم لم يكتفوا بما نالوه من النصر لان قوتهم البحرية كانت أضعاف قوة العثمانيين بل كانوا يطلقون المقذوفات على جرحاهم ومن كان ساجداً منهم فوق المياه فيقتلون هؤلاء الضعفاء المساكين الذين كانوا يلتمسون الخلاص أما الفرقاطتان البايتان من السفن العثمانية فدخلت معاً كرا الروس ووجدوا عثمان باشا القومندان مصاباً بجراح في احدى رجليه ومعها اثنان من القبودانات و ١٠٥ من الانفار فأسروهم وأحرقوا الفرقاطتين لعدم صلاحيتهما لشيء أما حسين باشا الريحه فكان أصيب بمقدوف مات به في أول المحاربة ووجدت جثته مدفنت في تلك الجهة ومات من الدونما العثمانية أكثر من ألفي نفس في أوائل المحاربة أما تلفيات الروس ونحسائهم فكانت كثيرة وكسرت المقذوفات العثمانية سورارى الاربعة قباعات وبسبب ذلك بطل استعمال المدافع بها ثم مكنت السفن الروسية مينا سينوب حتى أصلح ما أمكن اصلاحه منها وسحبوا ما تعطل من سفنهم ثم قصدوا سيواستروبول قبل ورود السفن الحربية الانكليزية والفرنساوية اليها وحصل أنه بعد انتشاب القتال هربت احدى البواخر الى الاستانة وأخبرت بهذه الواقعة ولم تتمكن السفن الروسية المعينة للمحافظة طارج المينا من منعها فعند ذلك أرسلت دونما انكلترا الموجودة بالبوغاز احدى بوخرها وأرسلت دونما فرانساً الموجودة معها باخرة أخرى فذهبتا الى مينا سينوب للوقوف على حقيقة الواقعة ولما وصلت اليها التقطتا بعض الجرحى الذين طالت أعمارهم وأوصلتا هم الى الاستانة وكان بالمينا أثناء القتال سفينة تجارية انكليزية قتل منها نفران بمقدوفات الروس ثم احترقت أخيراً في الحريق الذي وقع بالسفن الحربية العثمانية ولما أنت السفينة الانكليزية المذكورة أخذت معها ربابان تلك السفينة وتجارتها وبوصوله هو وطاقته الى الاستانة قرر واصفة الواقعة كما شاهدوه ومضمونها أن الاساطيل العثمانية حاربت الاعداء بكل شجاعة واقدام مع ما كانت عليه من القلة بالنسبة لاساطيل

الروس اه

وقد كتب المسيو منجي قوف رئيس وكلاء دولة روسيا الى قيصرها يصف له محاربة سينوب المذكورة قائلاً قد جهزت دونمنا الموجودة بالبحر الاسود تجهيزاً يكسبها النصر طبق ارادة القيصر وكانت في هذه المرة تحت قيادة الاميرال ناچيموف الذي حارب بها دونما العثمانية

فغلب عليها ومحامها عن آخرها ولم ينج منها الا سفينة واحدة فقط وأسرنا قومنا عثمان باشا وكان جريحاً وأحضرتة الدونما الى سيواستوبول وأما دونمنا المشككة من ٧ فراقبط ٣٠ قراويت وباخرتين وهي التي أخرجت الى البحر الاسود لتهدد أهالي القوقاز واشغال بلدة مخوم المعلم أمر هالدي عظمة تمكم فقد ضاعت بتمامها هناك ولم ينج منها سوى سفينة واحدة وقتل وجرح منها كثيرون

ومما ذكر يظهر أن الدونما الثانية كانت ذهبت لاجل أعمال أخرى فقل بها ما حمل وكان الاميرال ناچيموف الروسي كتب بعد محاربة سينوب الى فنصل التساقفها يقول اني أعتد بربحنا بكم في مدينة سينوب بصفتة ما مور من خص فأعرض عليكم مر امي وأرجوكم في آن واحد أن تبلغوا معروضاتي هذه للحكومة التي أنتم منسوبون اليها وباقي القناصل وهي أن المحاربة التي حصلت جعلتني أنأسف على تخريب المدينة لانه حصل من شدة مدافعة العثمانيين الذين قاموا بها في الواقعة المذكورة وبما أن ما مور بقي لم تكن الا الاحتمال سواحل القوقاز وتخريب الدونما العثمانية التي خرجت لتوصيل الادوات والذخائر الحربية الى أهالي القوقاز لتحرر يكهم وتحرر بضمهم على الثورة ضد حكومة القيصر فلهذا السبب قد حصل أيضاً تخريب مدينة سينوب اه ومن ذلك يظهر أن الروس كانوا يظنون أن الاساطيل العثمانية التي أحرقوها كانت ذاهبة لتحمل الذخائر الحربية لاهالي القوقاز لتحرر بضمهم على الثورة ضد حكومتهم وتحتل نغرخوم وهو وهم اختلقته دولة روسيا لتبرئ نفسها أمام دول أوروبا وليس من الحقيقة في شيء ومن أمعن النظر وتبصر في هذه المسئلة توقف على جليتها وانتهى الى حقيقتها وحكم بأنها على غير ما قيل فيها وأن التعدي قد كان مقصوداً بالذات من دولة روسيا وان كانت أنوار هذه الحقيقة قد أطفئت بافواه رجالها الذين انتحلوا الاباطيل واختلفوا الاقوال الملققة وفضلا عن ذلك فقد أبلغ قبل وقوع هذه المحاربة قيصر روسيا دول أوروبا انه غير مبال للعرب ولا يريد لها وأن يفتح السلم على قدر وسعه ومدام على طلب توسط دولة أستوريا في الصلح بينه وبين الدولة العلية ولكن تعدي أساطيله على الدونما العثمانية ووقوع الحرب بينهما في تلك الواقعة ينافي هذه الاقوال التي صرح بها كما أن نسبة العثمانيين لتحرر أهالي القوقاز وغيرهم هو في غير محله وينافي الحقيقة بالمرّة لان من شاهد أهالي القريم الذين أدخلتهم روسيا تحت طاعتها منذ سبعين سنة وزيادة وهم مداومون على اشهار السلاح في وجهها بلا محترض لهم من دار الخلافة قط لا يستبعد أن يداوم القوقازيون الذين عاشوا في ظل عدالة الدولة العلية مدة أجيال طويلاً متمتعين بكل الحرية في عقائدهم بدون معارض ولا منازع لهم فيها على اقامة الثورات ضد روسيا حذراً ونفاذاً من دخولهم تحت أسرطاعتها وحفظ أحكامها والافلو فرضنا أن الدولة هي المحرضة للقوقازيين على ذلك فن المحترض لاهالي القريم مدة السبعين سنة المذكورة فما تقدم يقين أن هذه الاقوال التي اختلقها الروس ليس لها نصيب من الحقيقة البتة بل الحقيقة هي تعدي روسيا على الدولة العلية بغير موجب يستدعي ذلك وان اعداها أحد الاسطولين الذين أخرجتهما الدولة للحفاظ على سواحل البحر الاسود كما يقول مؤرخو العثمانيين عند التجائه الى فرضة سينوب بسبب ظهور زوبعة (٢٨ صفر سنة ١٢٧٠) انما كان مقصوداً بالذات بلا شك وقد علمت ذلك دول أوروبا وتحققته كما سيذكر

اتحاد فرنسا وانكلتره مع الدولة - لما كانت المخابرات جارية بين الدولة والروسيا قبل حرب القريم تأثرت فرنسا تأثراً شديداً لان نابليون الثالث الذي جلس على تخت فرنسا في أواخر سنة ١٨٥٢ خالف في السياسة الخارجية الطريقة التي كان سلفه لويز فيليب يسير عليها فكان يظهر للدولة العثمانية الارتياح الكلي من الاصلاحات التي أدخلتها ببلادها ولما كان تعهد بحماية الكنيسة الكاثوليكية كان يعيل جداً الى حل المسئلة المتنازع فيها بمدينة بيت المقدس بما أن ذلك كان يسر فرنسا ويغدها وكان السير هاميلتون سيمور سفير انكلتره في بترسبورغ عند مقابلة السرية لقيصر الروسيا يقول الا اول وقف على تصميحات دولته بخصوص بلاد الشرق ولما كانت حكومة السفير المذكور من اتباع المذهب البروتستانتى لم يكن لهم - تم بمسئلة بيت المقدس كاللائم أما النمسا فقد أظهرت الاشمزاز الكلي من منشورات البانسا ولاويست لان نزوع أهل الجبل الاسود للاستقلال وتشكيل حكومة منتظمة فتح باب الأهل الى الماسيا وخرواتيا والولايات المجاورة ولذلك تأثرت حكومة النمسا من ذلك وعرضت وساطتها لاتعام حادثة الجبل الاسود بسرعة واطفان سيران فتمت بيت المقدس الا أنهم لم تمكن من تأييد ذات البين ثم اتفقت مع بروسيه اعلى عدم المداخلة وانتظار النتيجة وكان دخول ايتاليا في المسئلة غير ظاهر بل كانت اخذة في أسبابه بسعى ملك سردينيا وبقوت امانويل لينال بذلك رضا أوروبا وبينما كانت الاحوال سائرة هكذا أرسلت الروسيا البرنس منجيكوف (Mentschikoff) الى الاستانة سفيراً فوق العادة فظنت أوروبا بأن القصد من مأموريته هذه المكالمة في مسئلة الاراضى المقدسة الا أنه لما أشيع أن القصد من مأموريته عقد مشاركة مخصوصة مع الدولة أو تجديد معاهدة هنكارا سلكه سى اندشتت أوروبا بخصوص الماشاهد سفر أوها في الاستانة أعمال السفير الروسى المغيرة لقواعد حقوق الدول فالت أفكار عموم أوروبا بالمساعدة الدولة وفي أثناء ذلك كان الامبراطور نيقولا يلج على السير هاميلتون سيمور سفير انكلتره بعاصمة الروسيا يريد اجتناب انكلتره للاتحاد مع الروسيا اضعا فالنفوذ فرنسا في الشرق وليتقاسمها أملاك الدولة العثمانية سوية فلما طلعت انكلتره على مقاصد الروسيا خافت من امتداد نفوذها في الشرق ومشاركتها في البحار القابضة هي على صولجانها وتجايزت الملكة فكتور باملكة الانكلتره مع نابليون الثالث امبراطور فرنسا للاتحاد مع الباب العالي لتأييد المعاهدات المختصة ببيت المقدس وفي خلاها أعاد السلطان مصطفى رشيد باشا الى الصدارة وكان عزل منها الرضاء الروسيا وعزم على رفض مطالب البرنس الروسى وأعلن باحترام حقوق الكنيسة الارثوذكسية وبعد مخابرات يطول شرحها قطع السفير الروسى العلاقة مع الدولة وعاد الى بلاده ثم أطلعت الدولة اللورد استراتفور دسفير انكلتره على جميع المخابرات التي دارت بينها وبين الروسيا فانضمت انكلتره الى فرنسا وأرسلت الى أساطيلها بالطله بان تستخدم مع الدولتيا الفرنسية في كافة الاعمال وأمرت الدولتان أساطيلهما بالحضور الى جون بشبكة القريم من بوغاز الدردنيل فحضرت اليه في أواسط يونيه سنة ١٨٥٣ وكان الامبراطور فرنسا جوزيف ملك النمسا يتردد في السياسة التي يتبعها بعد أن بذل جهده في منع الحلاف بلا حرب وسعى في عقد مؤتمر وياه الذي انعقد في شهر أغسطس من سنة ١٨٥٣ ولما لم تأت جلسات العديدة بفائدة تحقق

لدى جميع الدول سوية روسيا وحضت انكلترة وفرنسا الدولة العثمانية على رفض طلبات روسيا في المؤتمر ومدادومة الدفاع عن حقوقها وحصل ما سبق ذكره من عبور جيوش الدولة نهر الطونة وانتصارها في كافة الوقائع الحربية التي حدثت هناك فظهر لا ورو بذلك فائدة التنظيمات التي أدخلتها الدولة في جيوشها وفي أثناء ذلك رضيت الدولة بدخول أساطيل فرنسا وانكلترة البوسفور ولما عبرته رست في بيوك دره من ضواحي الاستانة لتسكون على مقربة من البحر الاسود منعا لهجمات الروس ثم بعثت فرنسا من طرفها المارشال شيل باراجي ديليه (Baraguay D'hil'iers) بمأورية فوق العادة الى الاستانة تظاهرها السعي في أمر الصلح وباطن ادرس أحوال العسكرية العثمانية فقابله السلطان (سبتمبر ١٨٥٣) باحتفال وافر ولما وصل خبر واقعة سينوب البحرية وضياع أساطيل الدولة مع تعهد الروس والدولتي فرنسا وانكلترة بانهم لا تقصد اجراء أى أمر عدواني في البحر الاسود أصدرت الدولتان أوامرها الى أساطيلهما الراسية في بيوك دره بالدخول الى البحر الاسود فدخلته (٤ مارس سنة ١٨٥٤) وكانت عمارة انكلترة مركبة من ٢١ سفينة حربية تحمل ١١٦٢ مدفعات تحت قيادة الوردس أميرال دنس دانداس (Deans Dundas) والكتير أميرال السير ادمند لاينس (Sir Edmund Lyons) وعماره فرنسا مركبة من ٣٩ سفينة تحمل ٢٧٤٠ مدفعات تحت قيادة الاميرال هاملين (Hamelin) والكونتر أميرال بروات (Bruat) وبمحبتهمما الدولت العثمانية المركبة من ١٢ سفينة حربية تحت قيادة قيصره الى أحمد باشا وكان قبودان السفينة محمودية وقتئذ اتش محمد بك الذي صار فيما بعد قبودان باشا وله اليد البيضاء في اصلاح البحرية مدة السلطان عبد العزيز خان كما سيأتى في محله ثم رست هذه الاساطيل أمام وازنه وكتب الامبراطور نابليون الثالث كتابا الى الامبراطور نيكولا في أواخر يناير سنة ١٨٥٤ شرح له فيه المسئلة باطرافها وتعديات روسيا وعرض له فيه بعقد مؤتمر دولي للنظر في أمر الصلح تحت شرط اخلاء اقليمي الافلاق وبغدان من الجيوش الروسية وفي مقابلة ذلك تنسحب أساطيل الدولتين من البحر الاسود فكان جواب امبراطور روسيا عدم امكانه قبول ذلك وبناء على هذا الجواب عقدت فرنسا وانكلترة مع الدولة العثمانية في الاستانة اتفاقية على محاربة روسيا تحت شرط سحب جيوشها من بلاد الدولة العلية بعد خمسة أسابيع تمضى من يوم الصلح الذي يتم مع روسيا وأمضيت في ١٣ جمادى الثانية سنة ١٢٧٠ (مارس سنة ١٨٥٤) وبعد خمسة عشر يوماً أعلنت الدولتان الحرب على روسيا وكان الامبراطور نيكولا يخاف من انضمام النمسا وروسيا الدولتين المذكورتين فإرسل الى برلين وويانه سفيراً مخصوصاً يدعى الموسيو أورولوف يطلب من امبراطور النمسا وملك بروسيا اما المساعدة أو البقاء على الحيادة وفي شهر مارت من السنة المذكورة أرسلت انكلترة عمارة كبيرة الى بحر بالطبق مركبة من ٤٠ سفينة حربية تحت قيادة الاميرال السير نابير (Napier) وأرسلت بعد ذلك فرنسا اسطولاً آخر من ١٦ سفينة حربية تحت قيادة الكونتر أميرال بينود (Penaud) وبوصول هذه الاساطيل أخذت في الاعمال الحربية فاستولت على جزيرة الآند وشرعت في تهديم مدينة كرونستاد الحصينة التي بها الميناء الحربية للروسيا وسند كروباقي أعمال هذه الاساطيل في البحر المذكور في تواريخ الدولتين المذكورتين ان شاء الله تعالى

وبعد ذلك أرسلت فرنسا وانكلتره جيوشهما فاجتمعوا بكمبيولى في يوم ١٢ من جمادى
الآخرة سنة ١٢٧٠ هـ (مارث ١٨٥٤ م) وكان جيش فرنسا يتربك من ٥٠٠,٠٠٠
مقاتل تحت قيادة المارشال سنت آرنو (Saint-Arnaud) ويتألف جيش انكلتره من
٢٥٠,٠٠٠ مقاتل تحت قيادة اللورد راجلان (Raglan) وفي أثناء محاربة الدولة للروسيا ثار
بعض أشقياء اليونان فاقامت الدولة على حكومة اليونان الحجة الشديدة فالتزمت حكومتها بتأديب
المفسدين وأعدت السكنينة للحدود سريعا ولما أعلنت انكلتره وفرنسا اشتراكهما في حرب الروسيا
التزمت النمسا أن تقوم بالتهييزات الحربية واتفقت مع الدولتين بان تكون معهما في حركة متحدة
حتى يتقرر الصلح العمومي ولذلك احتلت بلاد المملكيتين

حرب سيواستوپول ١٢٧١ هـ - بينما كانت جيوش الدول المنفقة تجتمع في
كمبيولى كما ذكره المارشال البرنس باسكيه ويحضر الطونة وأخذ يحاصر مدينة سلستره
فبعثت الدولتان في ١٥ ابريل سنة ١٨٥٤ خمس سفن حربية انكليزية وثلاثة فرانسوية
الى ميناهو جيبك (Odessa) ولما رست أمامها طلبوا من حاكمها تسليم كافة السفن الروسية
التي بها ولما لم يرد منه الجواب أطلقوا عليها القنابل (٢١ ابريل سنة ١٨٥٤) وضربوا
مينها واستحكما ماتم وأحرقوا السفن الروسية كما فعلته الروسية بسينوب بالسفن العثمانية
وفي خلال ذلك كانت جيوش الدولتين تترمن أمام الاستانة تفصد واره وكان الجنرال باسكيه
ويج ارتد خائبا من محاصرة سلستره وكانت الجيوش التي أرسلها السردار عمر باشا من ركوك في
٢٠ رمضان سنة ١٢٧٠ وصلت الى بكرش في أوائل مايو سنة ١٨٥٤ وأجلت
جيوش الروسيا عن تلك الاطراف ولما كانت دولة النمسا عقدت بينها وبين الدولة اتفاقا على أن
تحتل بجيوشها المملكيتين الى انتهاء الحرب وقرار الصلح التزمت الروسية بسحب جيوشها من
المملكيتين وأدخلتهم بساراييا وبذلك انتهت الحرب من شواطئ الطونة ثم عقد قواد فرانسوا
وانكلتره مع قواد الدولة مجلسا في واره ونقرر بينهم جعل شبه جزيرة القريم دار للحرب وبناء على
ذلك ركبت الجيوش المنفقة وكان عددها يزيد عن ٧٠٠,٠٠٠ مقاتل من واره وبالبحق على نحو
خمسائة سفينة بين نقلية وحربية وأفلعت في أواسط الحجة سنة ١٢٧٠ قاصدة بلاد القريم
ولما وصلت الى سواحلها الجنوبية احتلت كوزلوه (Eupatoria) قال المؤرخون انه لم
يسبق اجتماع عمارة جسيمة كهذه في أى جهة مما وكانت المدينة المنيعه في القريم هي نغر
سيواستوپول الواقع بالجنوب الغربي من الشبه جزيرة المذكورة وكانت تلك المدينة
محموظة من البر والبحر باستحكامات جسيمة وبذلك كانت تعد من المواقع الحربية الاولى في
أوروبا ولهذا وجه قومندانات الجيوش المنفقة حركاتهم لفتحها وكان للروسيا فيها دونها
قوية تبلغ ٢٥ سفينة بل أكثر من ذلك ومع ذلك لم يتجاسر قائدها من الخروج بها الى عرض
البحر لضعفها عن المقاومة ورأى من الصواب اغراقها في قوم بوزاغزينا سيواستوپول ليستبها
ذلك البوزاغز ثم تقدم الجيش المتفق من كوزلوه وصادف جيشا للروسيا في ساحل نهر الما (Alma)
فحاربه وهزمه في يوم ٢٧ الحجة ١٢٧٠ (٢٠ ستمبر ١٨٥٤) وكان عددها هذا الجيش

المنهزم ٥٠,٠٠٠ مقاتل تحت قيادة البرنس منجيقوف وبهذا الانتصار تشجع الجيش المتفق وعزم على حصر سيواستوبول من كل جانب وفي ٢٦ سبتمبر استولى على فرضة بالقلوه (Balaklava) ولما كان المارشال الفرنسي ساوى سنت آرنوا عتراه من مدة خلل في صحته، وصار غير قادر على الخدمة أحيل أمر قيادة الجيوش الفرنسية على قائد الفرقة الأولى الجنرال كاتروبير (Canrobert) أما المارشال فانه مات في الطريق أثناء عودته الى استانبول (٢٩ سبتمبر) فشيعت جنازته باحتفال عسكري عظيم ونقلت جثته الى باريس وبعد أن أتمت الجيوش حصار سيواستوبول أخذت في إطلاق القنابل عليها من يوم ١٠ أكتوبر وفي ٣ صفر سنة ١٢٧١ (٢٥ سبتمبر) حدثت واقعة بالقلوه المذكورة وذلك أنه قبل ما ينتقل السردار عمر باشا من الروم ايلي كانت قيادة العساكر الشاهانية التي أرسلت للقريم مع المتحمدين لرسم باشا وأحيل أمر المحافظة على موقع بالقلوه على عهده ولما هاجمه فيما بعد القائد العام الروسي منجيقوف بجيشه صدته الجيوش العثمانية ببسالتها المعالومة واتفق وصول امداد من الجيوش المتفقة تحت قيادة الجنرال ليراندى فهزمت الروس شر هزيمة وفي ٥ نوفمبر من السنة المذكورة حصلت واقعة انكرمان العظيمة وذلك أن الروس أرسلوا جيوشا عديدة لتخليص القريم فهاجموا الجيوش المتفقة من الخارج وخرج عساكر من الروس المحصورين في سيواستوبول حتى صارت عساكر المتفقين بين نارين وهاجم الجنرال غورجاقوف طوابي الانكليزا الموجودة على تلال انكرمان وقد ثبتت حاميتهم قلة عددهم وساعدتهم العساكر العثمانية والفرنساوية بسرعة فلنهزمت الروس أيضا في هذه الواقعة شر هزيمة ولما وصل خبر انتصارات الماوانكرمان أطلقت المدافع في استانبول ولوندره وباريس فرحوا وتبشيرا

ولما كان حصار سيواستوبول استغرق مدة أكثر مما كان يظن لقله الجنود المتفقة لان عددها لم يزد عن ٨٠,٠٠٠ مقاتل بينما كانت قوة الروس اهانك ثلاثة أمثال ذلك أخذت الدول في زيادة قوتها وأرسلت أغلب السفن الى الاستانة لاصلاحها خصوصا بعد ما أغرقت روسيا عمارتها في فم بوغاز ميناسيواستوبول وسدته كما سبق وأرسلت العساكر العثمانية التي كانت باقية مع السردار عمر باشا الى القريم وفي تلك الاثناء حصلت مخبرات بمدينة نيويان عاصمة النمسا للوصول الى الصلح فلم تفد شيبان وبناء على ذلك دخل ملك بلاد بيمون وساردينيا ويكتورامانويل في الاتفاق الدولي (٢٦ ديسمبر سنة ١٨٥٥) وأرسل قوة عسكرية مشكلة من ١٠,٠٠٠ مقاتل تحت قيادة الجنرال لامارمورا (La Marmora) وقد اكتسبت عساكر ايطاليا في هذه الحروب نغرا بكافي عساكر الدول المتفقة ولما أصرت الدول على الاخذ بالشد في هذه الحروب وضعت جميع فرض روسيا بالبحر الاسود وبجرازاق تحت الحصار الحربي وفي يوم ٩ ديسمبر سنة ١٨٥٥ (١٩ ربيع الآخر ١٢٧١) حصلت واقعة في بالقلوه انهزمت فيها روسيا وفي يوم ٢٩ جمادى الأولى من سنة ١٢٧١ بينما كان عمر باشا السردار مشغولا بتنظيم وترتيب جيشه في كوزلوه هاجمه الروس بغتة الا أنه انتصر عليهم انتصارا باهرا ومات في هذه الواقعة من الامراء المصريين الفريق سليم باشا والميرالاي رستم بك وقدم مدح القائد الفرنسي الجنرال كاتروبير وشجاعة العساكر العثمانية في هذه الواقعة في النشرة التي نشرها على جيشه

ولما حاصرت الاساطيل المتفقة قلاع سيواستوپول بجزايرها كثيرا وكثرت من رمى المقذوفات عليها (٢٥ محرم ١٢٧١) وقد كان الحرب في اليوم المذكور شديدا جدا حتى ان الارج انبارلى فيل دو بارى الفرنساوى والارج انبارلى برتانيا الانكليزية اقتربا على مسافة اقل من ألف ياردة من الاستحكامات ووقفت باقى السفن الفرنسية فى جهة الشمال والانكليزية من جهة اليمين على خطين وبينهما الارج انبارلى العثمانى محمودية والغليون بيك مسرت وأخذ الجميع فى اطلاق المدافع ودام الحال على ذلك اغاية شهر الحجة من السنة المذكورة وفى ٢ مارس من سنة ١٨٥٥ توفى قيصر الروسيا تيمقولا الأول وخلفه ولده الكساندر الثانى وفى أثناء ذلك هزمت الجيوش الروسية بانكرمان كما سبق فتأثر قائد الجيوش الروسية منيكيةوف من ذلك كثيرا حتى مرض ومات وخلفه فى القيادة العامة غورجاكوف وأصيب أيضا الاميرال ناچيموف الذى أحرق دونما الدولة فى سينوب أثناء اطلاق المدافع على سيواستوپول ببحر

ولما حل فصل الربيع حيث تسهل الحركات العسكرية كان الخط الحديدي الذى أنشأه الانكليزي من بالقولوا الى المعسكر تم وشيدت أيضا الطوابى والاستحكامات التى بنتها العساكر المتفقة لتشديد الحصار ووضع بها نحو أربع مائة مدفع من مدافع الحصار فاشند بذلك التصديق والضرب على قلاع سيواستوپول وفى ١٦ مايو انفصل الجنرال كازروبير وخلفه فى القيادة على الجيوش الفرنسية الجنرال بليسيه (Pélissier) ثم دخلت اساطيل الدول المتفقة فى أوائل شهر رمضان بجزازاق واستولت على بلدتى كرج ويكى قلعة فهرب الاهالى والعساكر الروسية منها تاركين كافة الادوات والذخائر وأخربت المراكب المذكورة جميع الاستحكامات الروسية فى بحر ازاق المذكور وفى ٢٨ يونيه من سنة ١٨٥٥ مات اللورد راجلان قائد جيوش الانكليز بالوباء أمام سيواستوپول وشيعت جنازته باحتفال رسمى عظيم وخلفه فى القيادة الجنرال جيس سيمسون وفى ١٦ أغسطس حدثت واقعة تراكير (Traktir) حيث هاجم نحو ستين ألف روسى جيش المحاصرين فى تلولى نهر جرنابه (Tchernaja) فارتدوا من زمين انهمز امانا ما بعد محاربة شديدة وفى ٢٦ الحجة سنة ١٢٧١ هاجمت جميع العساكر المتفقة حصون سيواستوپول وكانوا قبل ذلك استولوا على قلعة الراس الاخضر فهجمت فى هذه المرة العساكر الانكليزية على قلعة ريدان والعساكر الفرنسية على قلعة مالاكوف فلم يظفر الانكليز أما الفرنسية ففهم استولوا على القلعة التى هاجوها وكانت خسائر الطرفين فى هذه الواقعة جسيمة حيث بلغت ٢٥,٠٠٠ جندي وبعد ذلك افتتحت قلعة ريدان المذكورة ولما كانت هاتان القلعتان أكبر قلاع سيواستوپول أحرق الروس الجهة الجنوبية من المدينة وخرجوا منها وانقلوا على السفن الى الجهة الشمالية وبهذا الانتصار كادت المحاربة تنتهى وتقرر الصلح مبدئيا وكانت الاساطيل المتفقة مجمعة من أول سبتمبر أمام قلعة أوزى وأطلقت المدافع أيضا على قلعة قيليرون

وقام الحرد والشرقية - ان الفرقة العثمانية النازلة بجهة چورول و صو كانت استولت فى أول القتال على قلعة شوكديل وتقدم قائد الاناضول عبد الكرىم نادر باشا الى جهات آخضه وأر به چاى وبهمة ناجرى أحمد باشا رئيس أركان حرب الجيش استولى العثمانيون على قلعة كرى

فاضطار الروس أن يلتجئوا الى آخضه فصددها القائد المذكور وضرب عليهم الحصار ولم ينسب أحد باشا الى عبدى باشا أحد القواد الا همال في أعماله وعزل كما تقدم استقل هو بالقيادة ولمالم يكن القائد الجديد المذكور من الذين يرتكن عليهم في المحاربات لجهله وعدم خبرته انتصر الروس في بعض الوقائع بجهات آخضه وكري فعزل أحمد باشا المذكور وجر من رتبة الوزارة ونفي الى قبرص وأحيلت القيادة على نظريف مصطفي باشا والى ارض روم وكان الشيخ شامل أحد امراء الداغستان لبث مسددة طويلا بجهات الروس مما فعلته من المظالم وأظهرته من القسوة نحو أهالي تلك البلاد فلما أعلنت الدولة الحرب على الروس انتبه هذا الامير فرصة ذلك وأخذ يحرض الاهالي على الثورة وتحركت قبائل الجركس والابازة مساعدة للدول وسافت الدولة المتففة سفنها الى جهات سخوم وآنايه ووزعت على الاهالي الاسلحة والذخائر ولمالم يتمكن مصطفي باشا من ضبط الحدود تقدمت جنود روسيا الى جهات قارص (رمضان ١٢٧١) ولما حاصرتها في أواخر هذه السنة عينت الدولة لقيادة جيوش الاناضول واصف باشا فقام بالدفاع عن تلك الجهات أحسن قيام خصوصا في أشهر محرم وصفر وبيع من سنة ١٢٧٢ ورد الاعداء بالتنكيل والخسائر العظيمة فكافاه السلطان على ذلك وشكره وبعث السردار عمر باشا بقوة عسكرية الى جهات سخوم لمتانزلتها بفكرة ان الروس يخففون الحصار عن قارص أو يتركونه فتمتكن الدولة من امدادها أما حامية قارص فانهم قاوموا الاعداء الى آخر درجة ممكنة ولما فرغت ذخائرهم اضطر وأن يسلموا للروس (٧ ربيع الاول ١٢٧٢ هـ - ٢٨ نوفمبر ١٨٥٥ م)

معاهدة باريس (٢٤ رجب سنة ١٢٧٢ هـ) - لما تحقق اسكندر الثاني امبراطور روسيا من عدم الفوز في هذه الحرب خصوصا وان دولة النمسا أظهرت له العداء جهارا بعد سقوط سيواستوبول وانضمام دولة السويد الى الاتحاد الاوروبي بالمعاهدة الدفاعية والهجومية التي عقدتها مع فرنسا وبروسيا ضد روسيا (٢٠ نوفمبر سنة ١٨٥٥) أشارت النمسا على الدول بارسال بلاغ عن هاتي للروسيا فقبلت الدول وأظهرت الروسية الميل للصلح وكانت تطلبه هي أيضا وتقرر عقد مؤتمر في باريس وعينت الدولة العلية وفرنسا وانكلترا وأستراليا وساردينيا وروسيا وبروسيا من خصمين من قبلهم واجتمعوا في باريس للمرة في شرائط الصلح على القواعد الاساسية التي كان حصل التكلم فيها في مؤتمر ويانه قبل ذلك وبعد المذاكرة طويلا أمضيت شروطه النهائية (٢٤ رجب سنة ١٢٧٢ هـ - ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ م) وكانت تشمل على ٣٤ بندا أهمها أن الدولة العلية يكون لها الامتيازات التي لباقي دول أوروبا من جهة القوانين والتنظيمات السياسية وتكون مستقلة في عملاتها كغيرها من الدول ولا يجوز للسفن الحربية الدخول بالبحر الاسود أصلاما عند الدولة العثمانية والروسية فان لهما الحق في أن يكون لهما بعض السفن الحربية للمحافظة على ثغورهما هناك ولا يجوز للدولة العثمانية وللروسيا انشاء دور صناعات حربية على شواطئ البحر المذكور وأن يشكل قومسيون مختلط لتأمين السفن التجارية في نهر الطونة وأن تكون ايلات الافلاق وبغداد والصرب ذات استقلال داخلي كما كانت سابقا وأن يكون للدول الموقعة على هذه المعاهدة حق

المشاركة في الرأي في انتخاب وتعيين أمرائه هذه البلاد وبعد ذلك انسحبت الجيوش في مدة عينها المؤتمر وعادت الى بلادها وانتهت هذه الحروب التي لا داعي لها أصلا سوى المطامع والاعراض الذاتية

حوادث بوسنة وهرسك وكريد وواقعة حيدرة - اعلم أنه بعد أن انتهت حروب القريم بصدمة مطامع الروس في الشرق ونالت الدول الاوروبابوية رغائبها من حيث الامن على حصول الموازنة في البحر المتوسط الابيض أخذ بعضهم يسعى في اضعاف نفوذ الدولة العثمانية بتدخلهم في شؤونها الداخلية وأعمالها الخصوصية بيث روح الفساد في بعض ولاياتها وذلك أنهم بعد أن تمكنت في سنة ١٢٧٢ من اطفاء الفتنة العظيمة التي قامت في مكة المشرفة بين الاهالي والعساكر العثمانية بسبب الاوامر التي أصدرتها بمنع التجارة في الرقيق وانتهت بالقبض على الشريف عبدالمطلب بن غالب وعزله من امارة مكة وتنصيب الشريف محمد بن عون بدلا عنه في شهر رمضان بشوا بذور الفساد في ولايتي بوسنة وهرسك محرضين أهاليهما على طلب الاستقلال الداخلي كالصرب والمملكتين فسافت الدولة الجيوش لانجاح هذه الفتنة وعند ذلك تداخلت سفراء الدول يريدون منع الدولة من قمع العصيان بالقوة واستمروا أقوالهم بديهة شديدة للهجة ولم تكف الدول بعمل سفرائها هذا الذي لا تجوزة القوانين الدولية أصلا بل أرسلت بعض سفن حربية سنة ١٢٧٤ لمنع الدولة من انزال عساكرها الى سواحلها ببحر الادرياتيك حينما أرادت رديع أهالي الجبل الاسود لاسدادهم الثأرين عليها بولايتي بوسنة وهرسك وفي تلك الاثناء توفي الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا السياسي الشهير وخلفه في مسند الصدارة محمد أمين عالي باشا ووجهت نظارة الخارجية الى فؤاد باشا وكان من مشاهير الرجال وأمهرهم في الاعمال السياسية وقد اجتهد في اتمام جميع المسائل الداخلية وتسكين الاضطرابات وأظهرها في ذلك اقداما ومهارة وسياسة مما جعلهما من أعظم الرجال ومنع سفراء الدول من التداخل بما أدياه من الملاحظات الحققة فعادت أحوال بوسنة وهرسك الى السكينة لكن لم تمض على ذلك مدة حتى حرك بعض الدول الثورة في جزيرة كريد وقامت السكان من اليونان فيها يطلبون الانضمام الى اخوانهم فاجتهد الوزيران في هذه المسئلة أيضا وتلافيا بالحكمة وتعيين عليها أحد الولاة الخبيرين المدعوسا من باشا فسكنت الاحوال ولم يمض بعض أيام على مسئلة كريد هذه حتى حدث في مدينة جدرة حادثة أخرى وهي أنه في شهر الحج من سنة (١٢٧٤ هـ يوليو ١٨٥٨ م) حصل بين سكانها المسلمين ونزلاتها المسيحيين منازعات لا اختلاف حصل من بعض أصحاب السفن في رفع العلم العثماني أو الانكليزي على بعض المراكب التجارية وانتهت بالقتال بين الطائفتين وقتل فيها قنصل فرانسوا وكيل قنصل انكلترة ولما وصلت الاخبار الى دار الخلافة أرسل الباب العالي سريعا أحد القواد المدعوسا من باشا وأحجبه ببعض الجنود لتحقيق المسئلة ومعاقبة القاتلين بالاعدام متى ثبتت الجناية عليهم وقد تم سفيرا فرانسوا وانكلترة لأئحة مشتركة الى نظارة خارجية الدولة يخبرانها بانهم أرسلوا أساطيلهم الى فرضة جدرة معاقبة القاتلين فاجابهما فؤاد باشا باهتمام الدولة بالمسئلة وبما تنويه من العمل وبأنهم مستعدون لاعطاء التعويضات وفي تلك الاثناء قبض نامق باشا والي مكة على المجرمين وأخذ في محاكمتهم وبينما هو في ذلك اذا قبلت سفن الدولتين وأخذت تطلق مدافعها على

جدة يوماً بتمامه وفي اليوم الثاني وصلت الباخرة الحاملة لاسماعيل باشا المذكور فواقفت السفينة الانكليزية الضرب وخرج المنسوب العثماني ومن معه من العساكر وأخرج المركب الانكليزي بعض عساكر أيضاً وبعد الوقوف على ما حصل نفذ حكم الاعداد على القاتلين وانتهت بذلك المشكلة وأقلعت السفن الاجنبية الى حيث أتت

حادثة الشام - انه في سنة ١٢٧٦ هـ (١٨٦٠ م) قامت ببلاد الشام ثورة هائلة بين طائفة الموارنة من نصارى لبنان وبين الدرروز كانت رديئة العاقبة على المسيحيين وان كانوا أكثر من أخصامهم عدداً ونفوذاً الا أنه بسبب تخاذلهم وعدم تبصرهم وانقيادهم الى الدسائس الاجنبية التي لا تحمد عقبها ففك الدرروز بهم خصوصاً في واقعتين حصلتا ببلدة حاصبيا ورأشيا ثم امتدت الفتنة الى زحلة ولولما أظهره سكانها من الشجاعة لفتك الدرروز بهم وأوقع الدرروز أيضاً بالنصاري في عدة مواقع أخرى واتهم عثمان بك قائم مقام حاصبيا وأحمد باشا والى دمشق بمساعدة الدرروز ولما اشتدت وطأة المسئلة تدخلت الدول الاوروپاوية وعرضت فرانساستعدادها لارسال جيوشها الى بلاد الشام لتسكين الفتنة وحماية النصاري فلم تقبل الدول في أول الامر خصوصاً ان كتبه ثم أرسلت جميع الدول على يد سفرائها الى الباب العالي بلاغات فاجتمع الوزراء تحت رئاسة فؤاد باشا ناظر الخارجية وبعد المذاكرة طرقت بلاتقرب لزم تسمية قوة عسكرية لاجتداد الثورة بالديار الشامية وسافرت تلك القوة سرعاً تحت قيادة فؤاد باشا وكانت مؤلفة من سبعة آلاف جندي الى بيروت لاجتداد الفتنة فوصلها في يوم ٢٨ الحجة من سنة ١٢٧٦ ثم قصد دمشق وهناك عقد مجلساً حريماً من أمراء الجيش وحكام رؤساء الفتنة وقتل كثيرين منهم وقتل أيضاً والى دمشق المرحوم أحمد باشا لانهم اتهموه بمساعدة الدرروز على المسيحيين واهمال أوامر الدولة مرة واحدة وورد في بعض الاوراق العثمانية أن أحمد باشا كان بريئاً لانه قبل حدوث الواقعة بأربعة شهور كان بالشام أربعة طوابير من الجنود وصدده امر السرعسكر وقتل رضا باشا بارسالها الى الروم ابلي فعرض أحمد باشا لمحو طائفة السرعسكرية والمالين الهمايون في بعدم جواز تقليل القوة من الشام نظراً لثورة الافكار بها والمالين يجب طلبه طلب الاسمة فلم يقبل منه أيضاً ويقال ان قتله كان لما تحقده عليه فؤاد باشا للمالين من الثور ومنذ كانا سوية في بكرش والله أعلم بالحقائق هذا

أما نوارنج أوروپا فاتهم بالبشام المذكور وتلقى عليه مسؤولية عظيمة ومع ذلك فإنه بقتل الوالي المذكور وغيره من رؤساء الفتنة لم تقنع دول أوروپا بالاختلاف غاياتها وتعدده مقاصدها بل اتفقوا على أن ترسل دولة فرانسالى الشام قوة عسكرية لمساعدة الجيش العثماني فتوقف السلطان في أول الامر لكنه لما رأى اجماعهم على ذلك عاقبهم وكان القصد منها منع التعدي الحاصل على طائفة عشرة آلاف جندي تحت قيادة الجنرال دو بول وكان القصد منها منع التعدي الحاصل على طائفة الموارنة من الدرروز ولما نزلت في بيروت وحدثت الاحوال ساكنة فلم تبدأ أقل حركة وأرسل أيضاً بعض الدول مراكباً حربية الى بيروت وأرسلت الدولة أيضاً عمارة حربية جعلت قيادتها لأحمد باشا القيصريه لي تم عينت الدول الاوروپاوية العظمى مندوبين عنها فاجتمعوا ببيروت تحت رئاسة فؤاد باشا ولمهارة هذا الوزير في أساليب السياسة أوجد الخلاق بينهم حتى صار بقودهم الى حيث شاءت شأواً وبعد المذاكرة طرقت بلاتقرب لزم تسمية قوة عسكرية لاجتداد الثورة بالديار الشامية وسافرت تلك القوة سرعاً تحت قيادة فؤاد باشا وكانت مؤلفة من سبعة آلاف جندي الى بيروت لاجتداد الفتنة فوصلها في يوم ٢٨ الحجة من سنة ١٢٧٦ ثم قصد دمشق وهناك عقد مجلساً حريماً من أمراء الجيش وحكام رؤساء الفتنة وقتل كثيرين منهم وقتل أيضاً والى دمشق المرحوم أحمد باشا لانهم اتهموه بمساعدة الدرروز على المسيحيين واهمال أوامر الدولة مرة واحدة وورد في بعض الاوراق العثمانية أن أحمد باشا كان بريئاً لانه قبل حدوث الواقعة بأربعة شهور كان بالشام أربعة طوابير من الجنود وصدده امر السرعسكر وقتل رضا باشا بارسالها الى الروم ابلي فعرض أحمد باشا لمحو طائفة السرعسكرية والمالين الهمايون في بعدم جواز تقليل القوة من الشام نظراً لثورة الافكار بها والمالين يجب طلبه طلب الاسمة فلم يقبل منه أيضاً ويقال ان قتله كان لما تحقده عليه فؤاد باشا للمالين من الثور ومنذ كانا سوية في بكرش والله أعلم بالحقائق هذا

مسيحي المذهب يتخار مع الباب العالي رأسا وبعده أن صدقت الدولة على ذلك ووجهت المنصرفية لداود باشا وهو أرمني واستمر الاحتلال الفرنسي الى ٥ يونيو سنة ١٨٦١ الموافق لآواسط شوال سنة ١٢٧٧ وبعده ذلك انسحبت الجيوش الفرنسية من أراضي الدولة بعد أن تظاهرت بحماية الموازنة من تعديلات الدروز وفي تلك الاثناء انتقل السلطان المرحوم الغازي عبد المجيد خان الى رحمة الله بعد مرض لم ينفع فيه علاج وكان ذلك يوم الثلاثاء ١٧ القعدة سنة ١٢٧٧ (٢٧ ما يوسنة ١٨٦١) ودفن في قبره الذي أعده لنفسه حال حيائه بجوار جامع السلطان سليم وكان رحمه الله من أجل السلاطين قدرا محبا للاصلاح نشرأوامر العدالة الشهيرة المسماة بالتنظيمات الخيرية ثبت بها العدل في المملكة العثمانية وأدخل اصلاحات حجة في الجيوش عاد بها مجد الدولة وترقت في أيامه العلوم والمعارف واتسعت دائرة التجارة وشيد كثير من المباني الفاخرة والقصور المزخرفة ومن ما تراه تجديد بناء المسجد النبوي بالمدينة المنورة (١٢٧٠) وكان كإبناؤه السلطان قايتباي وجعل سقوفه قبيبا من الحجر كالمسجد الحرام وتمت عمارته في أربع سنوات وشيد عمارات كثيرة أيضا بالحرمين الشريفين ووجد كذلك مئذبات الكعبة المشرفة (١٢٧٥ هـ)

٣٣ السلطان عبد العزيز خان ابن السلطان محمود خان الثاني

١٢٧٧ - ١٢٩٣

لماصعد السلطان عبد العزيز خان على كرسى الخلافة وجد الدولة في حاجة الى اتمام الاصلاحات التي سعى أخوه بمهمة في ادخالها بالادارات الملكية والعسكرية بانواعها والتي كان توقف سيرها بالنسبة لحرب القريم خصوصا وغيره من المشاكل العديدة التي منيت بها هذه الدولة منذ تدخل الاجانب في أعمالها وبعده أن تقلد السيف يوم الخميس في الثامن عشر من شهر ذي القعدة بجماع سيدي أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه كما جرت به العادة أبقى الوزراء في مناصبهم ما عدا السر عسكر رضا باشا فانه عزله وعين بدله ناهق باشا ثم أصدر فرمانا الى الصدر محمد أمين عالي باشا الذي خلف قبرصلي محمد باشا مظهر احسن قصده ومن يدرغبته في متابعة السير بالجد والاجتهاد لتنفيذ الاصلاحات الضرورية لترقيته حال الدولة وابتعاد المساواة بين جميع أفرادها بالاتباع وبتأسيس في ٦ محرم سنة ١٢٧٨ مجلس الاحكام العدلية وعين لرئاسته الوزير الشهير محمد قزاد باشا وجعله ثلاثة أقسام أحدها لادارة الامور الملكية والثاني لسن القوانين والنظامات والثالث للمحاكمات وكان لاهتمامه بذلك يحضر بنفسه في آخر كل سنة الى الباب العالي ليتسلى في حضرته ملخص الاجراءات والاعمال التي قام بها المجلس المذكور مدة السنة الماضية وبقى هذا المجلس يسير في أعماله الى ٨ ذي الحجة من سنة ١٢٨٤ حيث صدر الامر السلطاني بالغائه وتعويضه بمجلسين آخرين يشكلان على نظاماته الاساسية وهما شورى الدولة وديوان الاحكام العدلية وقد فجع هذان المجلسان في أعمالهما حتى انه لما أصدرت الدولة نظامهما سنتي ١٢٨١ و ١٢٨٧ وحددت فيهما وظائف جميع المأمورين من الولاة الى صفغار الخدمة اتضح أن بعض الذين تعودوا السير على طريقة التنظيمات الخيرية القديمة لم يقابلوا ذلك بالارتياح لان التنظيمات الجديدة قيدت حركات المأمورين وغلت أيدي مظامعهم وكبعت شهواتهم فأصدر ذلك فرمانا بمحاكمة كل

من يقاوم تلك التنظيمات ولهذا كما كواعدة من كبار الحكام مثل خسرو باشا وعاكف باشا و طاهر باشا و نافذ باشا و حسيب باشا جزاء لهم على ما صدر منهم وعبارة لغيرهم و بذلك ظهر للعموم حب السلطان للعدل و الاصلاح و اهتم السلطان أيضا باصلاح الاحوال المالية اذ ضم اقوام الدولة فأصدر فرمانا سنة ١٢٧٨ الى الصدر الاعظم محمد فؤاد باشا الذي خلف محمد أمين عالي باشا الذي وجهت اليه نظارة الخارجية بعمل ميزانية مضبوطة للمالية عن سنتي ١٢٧٧ و ١٢٧٨ و بعد ذلك صدر قرار من الدولة بالغاء القوائم المالية وهي أوراق تتداول كالنقود كانت أصدرتها المالية في عهد المرحوم الغازي عبد المجيد خان للعسر المالي الذي كانت وقعت فيه واقترضت الدولة لذلك ثمانية ملايين من الليرات فسوت جميع ديونها و ألغت القوائم في نحو الشهرين و أصبحت المعاملة في كافة الولايات بالنقود و انتظمت أحوال المالية

ولما كانت حروب القريم أثرت نوعا على قوة بحرية الدولة و ضعفت بها عمارتها البحرية بضياع عدة أساطيل في واقعة سينوب و وجه السلطان عنايته أيضا لتقوية الجيوش و تغيير كافة الاسلحة النارية باخرى من أحسن طرز و أصدر أمره بذلك الى السر عسكر محمد درشدي باشا الذي خلف نامق باشا (٢٣ ربيع الاول سنة ١٢٧٨) و اتفقت ادارة الطوبخانة و السر عسكرة على اتياع القدر اللازم منها من أحسن معامل أوروبا و كانت من النوع المعروف بندي الابرة ثم وضعت التسيقات العسكرية على النمط الجديد و لحب السلطان عبد العزيز في العسكرية و مياله اليها من يوم ارتقائه على عرش الخلافة أمر أيضا بجمع واعداد و افراس من أولاد أمراء العشائر و القبائل من كافة الولايات و شكل منهم فرقة عسكرية جعل ملاسهم على الرى الذي يستعملونه عادة فكان ذلك من أحسن الوسائل التي تحبب الامة في العسكرية بزيادة على ما لها فيها من الميل الغريزي ثم التفت الى القلاع و الحصون فسلحها بانواع المدافع الجديدة الضخمة التي تملأ من الخلف كإغير المدافع في الجيوش و بعد قليل أصبحت طوبخانية الدولة يضرب بها المثل في التقدم و أصبح أيضا الطوبخانة و أدخل بها كثيرا من الآلات الحديثة حتى صار يمكنها عمل كافة الاسلحة على الطرز الجديد و تغيير هيئة الاسلحة القديمة الى هيئة جديدة

الاصلاحات في البحرية - لما تولى المرحوم السلطان عبد العزيز كانت نظارة البحرية تحت ادارة محمد علي باشا و لما كان السلطان شديد الرغبة في الاصلاحات الحربية خصوصا كما علمت عزله و نصب مكانه مصطفى باشا رئيس مجلس البحرية (١٢٧٩ هـ) و بعد قليل صدر أمره بتولية آتش محمد باشا هذه النظارة و أمره ببذل الهممة الزائدة لاصلاح الاحوال البحرية فافتدى هذا الوزير الشهير بجنك أوغلي طاهر باشا الذي وسع نطاق المدرسة البحرية و معامل و مصانع دار الصناعة و أخذ يرسل كثيرا من الضباط الذين أتوا علومهم بالمدرسة البحرية الى بلاد الانكليز لانعام التريينات الحربية و البحرية و ابتاع كثيرا من المدرعات من أوروبا و شيدها عدة بواخر حربية بدور صناعة الدولة و أدخل عدة معامل لصناعة المدرعات و الآلات و المراحل (القزانات) و شكل بالطوبخانة ادارة تكون مسؤولة عن جميع الآلات و المعدات البحرية و دعيت هذه الادارة فيما بعد

بمستشارية البحرية ولما توفي آنس محمد باشا سنة ١٢٨١ هـ وجهت القبولانية العامة الى الحاج وسيم باشا الذي اتبع طريق سلفه فيما يعود على البحرية بالترقي ثم لما عين لقيادة الاساطيل المذهبة الى جزيرة كريدمة ثورتها سنة ١٢٨٢ هـ خلفه في القبولانية خليل شريف باشا وأصدر السلطان عند ذلك فرمانا بتاريخ ٥ محرم سنة ١٢٨٢ هـ يحث به ناظر البحرية والعسكرية على الاهتمام التام والسعي الخيث لبلاغ القوة البرية والبحرية شأوا ورافعا ومن الاطلاع على صورة هذا فرمان (١) تعلم عناية السلطان بأمر البحرية والعسكرية ثم أعيد محمد علي باشا الى نظارة البحرية وانفرد خليل باشا بمشيرية الطوبى بخانة لاهمية هاتين الوظيفتين (١٢٨٢ هـ) وكانت الحكومة أحضرت من بلاد الانجليز بعض المعلمين كلهم من الرساكين وغيرهم ووظفتهم بمعامل دار الصناعة وسلمت اليهم كثيرا من الشبان لتعليمهم وعمر بينهم وكان متى برع أحدهم في صنعه عينته الدولة بعد امتحانه في وظيفة المعلم الانجليزي وأخلت هذا من خدمتها وقد اعترض السفير الانجليزي على ذلك فلم يكن من الدولة الا أن أقنعت به بحسن عملها بكلام مؤلم ولهجة شديدة فسكت

وقد تقلب في نظارة البحرية كثيرون وأظهر واجيعاهمة ونشاطا وحسن ادارة وأدخلوا عدة تحسينات على نظامها وازدادوا في عدد بوارجها حتى بلغت القوة البحرية بمبلغا عظيما حيث أصبحت تتركب من ٢٥ سفينة مدرعة غير السفن العديدة الاخرى وصارت الدولة العثمانية تعديين الدول البحرية الاولى والفضل في ذلك للرحوم السلطان عبدالعزير لانه أول من أوجد سفنا مدرعة للدولة وقد تولى نظارة البحرية بعد محمد علي باشا ثم حسين عوني باشا (١٢٨٨) ثم قيصريه لي أحمد باشا (١٢٨٩) ثم أحمد أسعد باشا (١٢٩١ هـ) ثم رؤف باشا (١٢٩٢ هـ) ثم القيصريه لي أحمد باشا ثمانية ووصلت دار الصناعة باستانبول الى درجة واقية تضارع دور صناعات أعظم الدول البحرية باوروبا وعادت أيضا أهمية دار صناعة از ميدو والبصرة الى ما كانت عليه وشيد وأصلح في دار صناعة استانبول كثيرا من الاحواض لاصلاح السفن ومن الجدول الآتي يعلم عدد الاحواض المذكورة ومقاساتها

(١) وزيرى سمير المعالى محمد فؤاد باشا

كأن ادامة وترقية الاصلاحات العائدة الى كل شعبة من مصالح دولتنا تخفى أفكارى كذلك كان تقدم الامور البحرية أقدم آمالى وقد كانت الخصوصيات العائدة الى بوارجنا (دونمتنا) منقسمة الى قسمين أحدهما الامور العسكرية وماد تسيير السفائن والثانى الانشاء وتنظيم المهمات وللادول لياقة الامراء والضباط البحرية كافية والثانى موجب للاعتناء بقضاء على ما ذكر كان لا بد من احواله هذا الامر الثانى على من هو ذواته واطمئنانا ومعلومات حيث ان دراية خليل باشا بالطوبى بخانة واستقامته ومعلوماته ومهارته في مثل هذا الامور منسوبة الى حاله القبولانية الى المشار اليه مع بقا افعال المهمات الحربية وتنظيمها في عهده بعد نقل مصالح القلاع المنسوبة الى الطوبى بخانة ومصالح العساكر الطوبى الى الباب السرى فاحضر المشار اليه لدينا وأجرت ما أمر به فليبتدىء اعلان ذلك جعل الحق الجميع موقنين اه كثر الرائب

تاريخ الانشاء	الجهة المصنوع بها	عمقه بالقدم	عرضه بالقدم	طوله بالقدم
١٢٨٦ هـ	قرب باب العزب	٢٦	٩٠	٣٨٠
١٢٤١ هـ	بين الحوضين	٣٠	٦٠	٢٥٥
١٢٩٢ - ١٢٢٧ هـ	قرب قاسم باشا	٣٠	٦٥	٤٠٠
١٢٨٧ هـ	بقرب الترسانة	٣٢	٥٢	٢٥٥
١٢٨٠ هـ	اينه لى قواق	٢٣	٦٥	٤٠٠
١٢٤٨ هـ	اينه لى قواق	٣٢٥	٦٠	٤٠٠

ولزيادة شعف السلطان بالبحرية أدخل ابنه الامير محمود جلال الدين أفندي برتبة ملازم في سلك البحرية (١٢٨٧) فكان ذلك من البواعث لسرور عمال البحرية كما ألحق قبل ذلك أكبر أنجاله الامير يوسف عز الدين أفندي بالاوردي الخاص الهمايوني (١٢٨٥ هـ) والحاصل أن الاهتمام الذي بذله المرحوم السلطان عبدالعزيز في الاصلاحات والتنظيمات الكثيرة بعموم ادارات الدولة العثمانية وما أدخل في عهده من التحسينات بالمصالح العسكرية والبحرية أو وصلها الى درجة عالية من التقدم والانتظام وقد قوى أيضا القلاع والحصون وشيد أخرى بحدود الدولة الشرقية والغربية وفي بونغازي البوسفور والدرديبل وسواحل الطونة وسلمجها كلها باضخم المدافع من آخر اختراع من جنس الكروبو والارمسترونغ وبما جرده من المعامل بالطوبخانة أمكن الدولة عمل مدافع الشخانة على هيئة أتقن وأحكم من التي كانت تشتريها من الخارج وبترقية هذه الاعمال ترقى أيضا الصناعة الوطنية وكثرت الاختراعات حتى فرح لها كل محب واهتمت الدولة أيضا بتحسين حالة مصانع البارود والفشيك الموجودة بمالكها

معرض الاستانة (١٢٧٩) - لما كانت غاية مقاصد السلطان تقدم الصناعة وتوسيع نطاق التجارة وتحرير ارض الامية العثمانية على ما فيه خيرها كما علمت أصدر فرمانا عقب مبايعته بالخلافة بانشاء معرض عام بالاستانة ولما تم بناؤه سنة ١٢٧٩ هـ افتتحه بذاته باحتفال باهر وكان برفقة جلالاته جناب المرحوم الخديو اسماعيل باشا وكان المعرض المذكور يحتوي على عشرات قاعات فسيحة وضع بكل واحدة منها نوع خاص من المصنوعات والحاصلات الوطنية التي استحضرت من جميع الاقطار العثمانية وكان من أهم وأنفس محتويات هذا المعرض المجوهرات والاشجار الكريمة والاسلحة النفيسة من آثار سلاطين آل عثمان الفخام مما لا يمكن للقلم أو اللسان البليغ أن يصفه وكان يوسط المعرض حوض بديع من الرخام البديع الصنعة ينقذ من وسطه الماء صعدا بهيئة تسر الناظرين وكان به غير ذلك كثير من نفائس الصنعة

زيارة السلطان لقطر المصري - لما كان السلطان عميل جدا الى استطلاع أحوال المملكة العثمانية قصد زيارة البلاد المصرية فسافر الهاسنة ١٢٧٩ يحفزه أسطول حربي عثماني وكان بعيته من الامراء الاماجد مراد أفندي السلطان السابق ومولانا السلطان وخليفتنا الحالي السلطان عبد الحميد ورشاد أفندي ويوسف عز الدين أفندي ومن الوزراء محمد فؤاد باشا والقبودان آتش محمد باشا وغيرهم من الوزراء والقواد والجنود ولما قدم الى الاسكندرية احتفل المرحوم

الخد يوا - معايل باشا به احتفالاً لامثيل له و بعد أن تفرج على الاسكندرية ووصل بجامع سيدي
الاباصيري في مقصورة خصوصية سافر الى القاهرة فقوبل بجزيد التجلة والاحترام اللائق ب مقامه
العالي وزار من بهامن آل البيت النبوي وأغدق بالصدقات على خدمة المساجد والتسكيات الاسما
الجامع الازهر وبالجملة فقد أدخل على أهل مصر السرور وغمرهم بخيره المشكور و بعد أن بقي
بها أياماً عاد الى دار الخلافة

الاحتلالات والمخاربات الداخلية في عهد المرحوم السلطان عبدالعزير

وقائع الجبل الاسود - اعلم أن دول أوروبا والمسا كانت تسعي من زمن طويل في تقليص ظل
نفوذ العثمانيين واستعملت لذلك جميع الالعب والاساليب السياسية كما مر بك بعضه في هذا
التاريخ وورأت في هذه المدة أن الدولة العثمانية قامت تبذل المساعي الحقة في اجراء التنظيمات
المختلفة والتحسينات المتنوعة حتى ترفت بها البحرية والحربية والصنائع والمعارف واتسعت دائرة
التجارة أخذت في عرقلة مساعي الدولة بنبذ الدسائس وبذرائق في جميع أنحاء ما توصلها الى غرضها
المشؤم وكان أول هذه الثورات بعد ثورة بلاد بوسنة وهرسك السابق ذكرها ثورة الجبل الاسود التي
انتهت من أول الامر بمخلع أميره نيقولا وتنصيب البرنس دانييل لملكه (١٢٧٧ هـ) الآن
الاضطرابات لما كانت لا تزال سائدة بجبهات الجبل المذكور أعدت الدولة أخيراً ثلاث فرق عسكرية
الأولى تحت قيادة عبد الكرى بنادر باشا المعروف بعبدى باشا والثانية تحت قيادة درويش باشا
والثالثة تحت قيادة حسين عوني باشا وهاجم بها عر باشا السردار الجبل من ثلاث جهات و بعد أن
أوقعوا بالثوار زحفوا على حنينه عاصمة الجبل فالتمز أميره دانييل أن يطلب الامان وقد قبل ما اشترطته
عليه الدولة من ابعاد ميركو والده من بلاد الجبل وأن تقم الدولة حول حدود الجبل بعض الابراج
والحصون تحتلها جنودها للمحافظة على الراحة العمومية لمنع أهل الجبل من الثورة ثانية ولما تم
ما أرادت عادت السكينة وقد صرفت الدولة على ذلك المصاريف الجسيمة الآن أمير الجبل لم يقم بعد
ذلك بما تعهد به وأظهر العناد بتحرير بعض دول أوروبا وبأن تداخلت فرانسوا الروسية في المسئلة
واستمرت المداخلات السياسية الاجنبية تلح على الباب العالي حتى قبل هدم تلك الابراج والقلاع
(١٢٨٠ هـ - ١٨٦٤ م) وقال الجبل بمساعي أوروبا وتطفلها على موثدا السياسة العثمانية
استقلالاً ادارياً

وقائع الصرب - ان الامتياز الذي نالته مقاطعة الصرب بمقتضى معاهدة باريس
(١٨٥٦ م) كما سبق جعلها متمتزة الادارة تحت سيادة الدولة العثمانية وجعل للدولة الحق في ابقاء
حامية عثمانية في ست قلاع فقط من حصون تلك البلاد ثم بعد ثورة بوسنة وهرسك السابق ذكرها
(١٢٧٨ هـ) استمر الاضطراب ببلاد الصرب وأظهر أهلها العدواة للعثمانيين في كثير من
المسائل الى أن تداخلت الدول في ذلك وعقد سفراءهم مؤتمراً بالاستماتة برضا الباب العالي كان
على باشا الصدر الاعظم مندوبه عن الدولة و بعد مداولات تقرر أن يخلى العثمانيون قلعتين
من الست قلاع المذكورة وتبقى جنودهم في أربع فقط وهي بلغراد وسمندره وفتح الاسلام وشيانس
(١٢٧٩ هـ - ١٨٦٢ م) ومع هذا فان الروسية لازالت تلح على الدولة بترك بلاد الصرب

تمام التغل بديهما عن السير في طريق الإصلاح ولعب الجنرال اغنا تيف سفيرها في الاستانة أدواره السياسية الى أن تنازلت الدولة أيضا للصرب عن القلاع الباقية وكانت حجة دولة أوروبا في ذلك أن بقاء الجنود العثمانية يبلد الصرب تهديدا لها فاضطرت الدولة الى قبول هذه الامور المحققة بحقها التي اعترفت لها بها أوروبا سابقا وذلك لاجتماع دولها عليها ولظهور الثورة بتركيد (١٢٨٣ هـ - ١٨٦٧ م) ولم تخرجت العساكر العثمانية من بلاد الصرب خرج معها جميع العائلات الاسلامية من سكان تلك البلاد لاستحالة الإقامة عليهم بعد خروج الجنود وتركوا أملا كههم في مقابلة تعويض دفعته الدولة لهم وهكذا استقلت الصرب ولم يبق للعثمانيين بها من أثر لتابعة غير رفع العلم العثماني بقلعة بلغراد بجانب العلم الصربي فقط وقد تنكدر الرأي العام بالاستانة من ذلك جدا ولولا مراقبة الدولة الاحوال لحدثت فتنة داخلية شديدة

حوادث المستكتمين - اعلم ان أمير هذه البلاد جان الكسندر الاول المدعو كوزا الذي تساهل الباب العالي في تعيينه على هاتين الولايتين مع ما عرف عنه من الافكار المخالفة لسياسة الدولة أخذ يسعي من تاريخ توليته (١٢٧٨ هـ) في فصل كنيسته عن بطريك الاستانة وبعده مشاحنات يطول شرحها أيد الباب العالي (١٢٨١ هـ ١٨٦٤ م) استقلال كليروس رومانيا استقلال تاما عن بطريك القسطنطينية قطع العرق الاساس الاجنبية ومنع الحدوث المشاكل التي كانت تخافها الدولة لما هي فيه من الحالة الصعبة ثم لما أظهر الامير المذكور الجبروت والقسوة تأمر عليه بكار رجال الولايتين وأرزموه بالاستعفاء (١٢٨٢ هـ) فتدخلت الدول عند ذلك في انتخاب خلفه كجوردج عاهدة باريس ولم تدخل روسيا قصد التحفظ لنفسها حقا ولما أقروا على انتخاب البرنس شلر هو هنزولرن من عائلة بروسيا المالكة وتوحيد حكومة الولايتين وتسميتهما برومانيا عارض الباب العالي في ذلك أشد المعارضة وساق جيوشه على الحدود لينع الانتخاب بالقوة الا أن ظهور الثورة بتركيد اضطره للاعتراف بهما الامر منع اللاربتا كان

ثورة جزيرة كريد (١٢٨٣) - قال الفاضل أحمد مدحت أفندي في القسم الاول من كتاب أس انقلاب مخلصه مترجما انه كلما سمعت السلطنة العثمانية في الاصلاحات سمعت دولة روسيا في اختلاق المشاكل بداخلة الدولة لعرفلة مساعيا عن السير في طريقها ولذلك لما رأيت سعي الدولة هذه المرة في الاصلاحات الداخلية العسكرية والبحرية دست الى الاهالي الغير المسلمين بجزيرة كريد المنعويدين من القسديم على الثورات بان يقوموا ويطلبوا ضم جزيرتهم الى اليونان وأوعزت اليهم بان سيكون لهم من روسيا واليونان نصير فاصاعوا العذوبة هذه المواهب المحشوة بالسهم القتال وثاروا على الدولة باجمعهم واستفعل أمرهم واستعدت الدولة لقمعهم بالقوة (١٢٨٣ هـ - ١٨٦٦ م) ثم ظهر أخيرا أن مصلحة الدول البحرية لاتساعدهم على نوال مطالبهم اذ كانت جميعها مضادة لسلح كريد عن الدولة ثم ساقت الدولة عليهم الجيوش برا وبحرا تحت قيادة مصطفي باشا الكريدي (١٢٨٣ هـ) وأمرته أن ينصح الثوار ولأبالا خلد الى السكنة كما هي عادتها حتم اللدماء ومع جده واجتهاده في ذلك لم يمكنه حملهم على الطاعة بل أصروا على العناد مع محبتهم لذلك القائد ولما تم بق وسيلة الامتناع الحسام أخذ يقاتلهم وأرسل المرحوم

الخدويو اسماعيل باشا في شهر ربيع الاول من السنة المذكورة قوة عسكرية من ستة أليان
بياده وبعض بطاريات طوبجية تحت قيادة شاهين باشا ثم تعين لقيادتها القائد الشهير اسماعيل
سليم باشا الفريق ناظر الجهادية اذ ذلك وبعد وفاته خلفه عبد القادر باشا الطوبجي ثم لادعت
الدولة مصطفي باشا الكريدي الى الاستانة بعد أن استقال محمد رشدي باشا من الصدارة وخلفه
محمد أمين عالي باشا (٦ شوال سنة ١٢٨٣) تعين لقيادة الجنود العثمانية عمر باشا
وهو صربي الاصل وقد أظهر النشاط في مطاردة الثائرين أولا ولما كانت الذخائر الحربية تصل
الى الثائرين من الخارج خصوصا من بلاد اليونان لعدم تيقظ بعض عمال الدولة هناك واهمالهم
مع أن الاساطيل العثمانية كانت تحاصر الجزيرة المذكورة من جميع جوانبها أصدرت له الدولة
الاوامر بتشديد الحصار البحري حول الجزيرة وأعلنت بذلك عموم الدول التي أمرت سفنها الحربية
المتجولة في تلك الاطراف بنقل العائلات التي رغبت في المهاجرة من الجزيرة فكانت تنقلها بتصريح
من الدولة العثمانية

الحركات البحرية تني كريد - لما قامت الثورة بكريد عينت الدولة أولا أسطولا كبيرا تحت
قيادة الفريق ابراهيم باشا الموردي مشكلا من عدة مدرعات و فرقاطات و طرادات (١٢٨٣ هـ)
ثم تعين القبودان السابق المشير الحاج وسيم باشا قائدا عاما عليها (١٢٨٤ هـ) وبقي الفريق ابراهيم
باشا وكيلاه وأرسل المرحوم الخديو اسماعيل باشا عدة بواخر أخرى جعلت قيادتها القاسم باشا وكانت
جميعات الثورة في بلاد اليونان ترسل الذخائر والمساعدات للثائرين على وابورين سرربي السير
ابتاعتمال هذا الغرض ولما ضيقت سفن الدولة الحصار على كريد تلاقى أحد وابوراتهم المسمى
عز الدين مع أحد الوابورين اليونانيين المذكورين فطارده ولما ضاقت عليه المسالك دخل في الجون
المدعوق وكربو من ساحل كريد وأحرق طائفته جميع الذخائر الموجودة به خوفا من استيلاء
العثمانيين عليه وافر واهارين الى الجبال وكان هذا الوابور يسمى ار كادي فقبضت عليه السفن
العثمانية وجلبته الى فرضة سودة وهناك أصحح اصلا حواقيها حيث كان مقدمه تمشم واحترق
بعض أخشابه ثم أرسل الى الاستانة وبعد اصلاحه أدخل ضمن عداد الاساطيل العثمانية واقتفت
بعض سفن الدولتها الهمايونية الوابور الثاني ويسمى انوسيس الى فرضة بيره من بلاد اليونان ولما
طلبت تسليمه من حكومتها قامت جمعية الثورة بممنعت تسليمه فاتهمت الدولة حكومة اليونان
بالاشتراك في الثورة وقطعت معها العلاقات الرسمية وطردت قناصلها ورعاياها من الممالك
البحر وساقطت عمارتها المدرعة تحت قيادة الاميرال هو بارت باشا الانكليزي الى مينابيره
لمحاصرتها ولما وصلت المسئلة بين الحكومتين الى هذا الحد تدخل بعض الدول وفي مقدمتهم
فرانسا وطلبت ارسال لجنة دولية الى الجزيرة للنظر في أمر ثورتها وتسويتها فرض الباب العالي هذا
الطلب أولا لعدم اتفاق الدول عليه وعين الصدر الاعظم عالي باشا مندوبا عاليا سياسيا للنظر في أحوال
الجزيرة فسافر اليها في شهر جمادى الثانية من سنة ١٢٨٤ هـ (اكتوبر ١٨٦٧ م) وأخذ
يجتهد في تسكين الخواطر وكتب عن ذلك تقريرا مهمارفعه الى المابين الهمايونيين وعليه فصل عمر
باشا عن قيادة الجيش العامة لعدم قيامه بما يجب وتركه الاحوال تجري طبيعتها وميله الى الخلاعة

لانه كما علمت أجنبي الاصل لايهمها انتصرت الدولة أو خسرت وهذه كانت حالة معظم الاجانب الذين عهدت اليهم الدولة وظائفها السامية فكانوا عليهم من أشد الضربات نسأل الله التوفيق وعين مكانه حسين عوفى باشا وأحيلت عليه أيضا ولاية الجزيرة فقام بذلك خير قيام وأظهر الكفاءة والاستعداد التام ثم اتفقت الدول وانعقدت باريس مؤتمر تعين لحضوره من قبل الدولة فرؤاد باشا وقد أظهر هذا المندوب العثمانى فى جلسات المؤتمر براعة سياسية وتكلم بلهجة شديدة جعلت الدول المذكورة تنقل الامتيازات التى كانت قررت فى أول الامر الزام الحكومة العثمانية بمخها الجزيرة كريدفا صدر السلطان ارادة سلطانية فى ١١ جمادى الثانية سنة ١٢٨٦ بمخ الجزيرة بعض امتيازات فانتهت بها الثورة وعادت الجيوش الى بلادها وكذا الجيوش المصرية عادت الى مواطنها واحتفل الخديوى لهم عصر احتفالا شائقا لما أظهره ومن النبالة والشجاعة خصوصا فى واقعة اركادى الشهيرة وبعد ذلك أخذ الجنرال اغنا تيف سفير الروس فى الاستانة يسمى لاقالة مدحت باشا من ولاية الطونة لاهتمامه فى اصلاح شؤون تلك الولاية ولان الاصلاح فى تلك الجهات مانع وحاجزون تنفيذ ما آرب الروسى التى ألقت بذور هابين شبان البلغار لتنال ما تمنناه فى المستقبل من قيامهم بالثورات فلم يقبل المرحوم السلطان عبد العزى برخان له وللهذا أخذت الروسى فى تحريض رؤساء الفساد بتلك الولاية فاخذوا ينشرون بين الاهالى جملة أوراق مهيجة لاحداث الثورة الا أن همة مدحت باشا حالت دون اغراضهم ومنعت اشغال نارها بل أخذها بحكمة وسياسة وقبض على المحرضين وحاكمهم (١٢٨٤ هـ) وبعدها بقليل (١٢٨٦ هـ) قامت عربان العراق بتحريض بعض ذوى الغايات من رؤسائهم فتمكنت الدولة أيضا من تشتيت شملهم فى وقائع دعاوة والديوانية والحلة وكر بلاه

ثورة العمير و احوال شمس - انه بعد وقائع الوهابية المتقدمة المذكور خففت الدولة مراقبتها على الولايات العثمانية بجزيرة العرب فكان هذا من سوء السياسة وتمهون فى حقوقها الانها تبرك مشايخ القبائل يستبدون باحوال تلك البقاع على هيئة استقلال تقريبا بحيث أصبح نفوذ الحكومة العثمانية فيها بالاسم لا بالفعل حدث الخلاف بين مشايخ العرب ببلاد اليمن فقام فى ٣ رمضان من سنة ١٢٨٧ أمير العسير محمد بن عايض وكانت الدولة غمرته بنعمها وأخذ فى اخضاع القبائل والحيف عايبا حبا فى الاستقلال فاشتكى من أعماله هذه كثير من مشايخ تلك الاطراف ولهذا رأت الدولة لزوم ارسال الجنود لتسكين الثورة وتمكين دعائم الحكومة العثمانية فى تلك الاطراف وساققت فرقتين احدهما من الاستانة الى بلاد اليمن لحرب العسير والثانية من بغداد الى نجد وكانت فرقة الاستانة تحت قيادة الفريق محمد رديف باشا ومعه الميرلوا أحمد محدثا رباشا رئيس الاركان الحرب وقد نازلت هذه الفرقة الثايرين فى مواقع كثيرة ببلاد عسير وصنعاء وفحمت تلك البلاد فتحاجد ابيد بعد حروب بطول شرحها وأعدت اليها النفوذ العثمانى وكانت هذه الفرقة على تمام الاستعداد كاملة الالهبة قال الاجانب الذين شاهدوها انها أحسن استعدادا من الفرقة العسكرية التى أرسلها الانجليز لحرب الحبشة سنة ١٨٦٦ م ثم سافر رديف باشا الى الاستانة وكان السلطان أنعم عليه برتبة الوزارة ووجهت بعد ذلك ولاية اليمن وقيادة الجيوش بهام رتبة المشيرية الى الغازى

أحمد مختار باشا الذي رتبها ادارة منتظمة وشيد فيها كثيرا من العمارات وأصلح عدة طرق سهل بها التجارة فالت القلوب الى محبته أما فرقة بغداد فانها تقدمت نحو بلاد نجد تحت قيادة أحمد مدحت باشا وكانت أكثر حظام من الفرقة الاولى لانهم تصادف مقاومة كبيرة بل خضع لها أكثر البلاد بالحرب ومع أن مدحت باشا لم يكن من رجال العسكرية إلا انه بما له من حسن الرأي ومساعدة أركان حربه وضباطه تمكن من تنظيم ادارة عسكرية في تلك البلاد ثم عاد الى الاستانة وفي سنة ١٢٩٢ شقت القبائل في تلك الاطراف عصا الطاعة وقتلوا في الجهة المعروفة بالعيون أربعين نفرا من عساكر الضابطة الا أن الدولة تمكنت من اعادة النظم سريرا

زيارة السلطان لمعرض باريس - لما صمم نابليون الثالث امبراطور فرنسا على فتح المعرض العمومي الذي أقامه في سنة ١٨٦٧ م دعا جلالة السلطان عبدالعزيز لحضور الاحتفال كما دعا عموم قيامة وملوك أوروبا فقبل السلطان الدعوة وسافر على باخرة المسماة سلطانية وكان بعية جلالاته عدة من الامراء اولاد السلاطين وكثير من الخاشية ١٩ صفر (١٢٨٤ ٥ ١٨٦٧ م) ولما وصل جلالاته الى باريس أقام له الامبراطور نابليون الثالث احتفالا باهرالم يعمل لاحد قبله من الملوك وهذه أول مرة زار فيها سلطان عثماني بلاد أوروبا وبعد أن مكث بفرنسا أياما زار لندن وقينا ثم عاد الى بلاده منسرحا مسرورا مما رأى (٦ ربيع الثاني سنة ١٢٨٤ ٥) وأقيمت لمقدمه الزينات الفاخرة فرحالعودته ولقد أفادته سياحته بأوروبا كثيرا لانه عقب عودته أصدر خطا ثريا الى الصدر الاعظم على باشا أظهر فيه أمياله للاصلاحات التي رأى لزوم ادخالها بالممالك العثمانية كنشر المعارف والعلوم واكثر الطرق والمعارب المنتظمة وانتظام القوة البرية والبحرية واصلاح الاحوال المالية وما أشبه ذلك

اقتيادات مصر وتغيير طريقها لوراثة بها وفتح القتال - لما ارتقى السلطان عبدالعزيز خان على عرش الخلافة كان الوالي على مصر وقتئذ المرحوم محمد سعيد باشا الذي لما أراد ادخال بعض تعديلات جديدة على الجيش المصري بعد عودته من حرب القرم دعيت الحاجة لزيادة المصروفات طبعها ولا سبيل لذلك الا بالاستقراض مبلغ من المال لهذا الغرض ولتسوية الدين الجزفي الذي استدانته الحكومة المصرية قبل ذلك ولما لم يتمكن المرحوم سعيد باشا من تسديد السلفة الاولى من ايراد تلك السنة كما كان يظن مع ما بذله من المساعي العديدة حتى انه باع غالب أمتعة القصور الخديوية وغيرها يقوم بالسداد في حينه دعيت الحالة لخبايرة الباب العالي ليصرح له بالقرض كما هي الامتيازات وقتها ولما كتب للدولة بذلك أتاه محرر من الصدر الاعظم محمد أمين عالي باشا بتاريخ (١٢٧٨) يحذره فيه من وخامة عاقبة الاستقراض وضرره بالممالك ويعنسه من الاستدانة ببراكين قوية وحجج دامغة جديدة بالتمسك بها (١) ومن الاطلاع عليها

(١) معروضها كركينه ليريدك

وصل اليها محرر من العالي الخديوي المؤرخ ٨ رجب سنة ١٢٧٨ المختص بمسئلة الاستقراض فتلقيناه بكل تعظيم وتبجيل وصار منظور الحضرة السلطانية لما احتوته مواد كما أنها طولعت بمجلس الوكلاء وحصلت المذكرة فيها ونقيد كم عنها بما ينأق

انه ولئن كانت الطوائف التي حصلت من فيضان نيل هذه السنة على البلاد فأصابها المحصولات بالخسارة والنقصان

تظهر حدود الامتيازات التي كانت عليها الحكومة المصرية وقتئذ ولما سبوا أريكة الخديوية المصرية المرحوم اسمعيل باشا (١٢٧٩ هـ) وظهر للخليفة ميله الى السير في طرق الاصلاحات التي كان جلالتها يجتهد في تعميمها عمالها منحه جملة امتيازات بقرمانات متعددة سيأتي ذكرها في

رغم ان كثر ما نوه به من البشري التي صدرت لثامن جناحكم الداوري أثناء فاه تمكم بهذا الطرف من انه قد اتخذت اصول نافعة وأسباب قوية يمكن بها بحسن التصرف الخديوي نحو الدين الموجودة في ظرف ثلاث سنوات قد كانت في الحقيقة موجبة للاسف والحزن اذا انها حالت دون هذا الغاية الحميدة و قامت في وجه تنفيذ هذا المقاصد المفيدة الا انه لا يخفى على داور يكوم ان الاستقرضات ولو كانت ذات شروط هينة الا ان الحاجة تدعو داء الاجل تأدية القروض ورأس المال الى خروج كثير من نقود المملكة المستقرضة ويؤدي ذلك لاجالة الى تكليف الامة بما لا تطيق من الضرائب الكافية بوجود النقود المذكورة ومن جهة أخرى فان الجاري بالدول المتحابة هو مقارنة ما يعود من الاقتراض عليها بما يكسبه من السداد وانها لا تقدم على سلفة ما لم تعلم ان نتائجها ومنافعها اقوازي أضعافا مضاعفة لغوائها كان تصرف في الاعمال النافعة جدا للوطن أو تخليصه من مهلكة أو لاقاد من خطر أو نحو ذلك أما الاستقرضات التي لا تعود بمثل هذا الخاصيات ولا يكون نفعها عائد على المملكة والا هين فضررها ثابت رأي العين ثم انه في حالة استدانته ٦٠ مليون من الفرنكات تكون كمية هذا المبلغ والارباح والكومسيون نحو من مائتي مليون من الفرنكات فيترتب على ذلك نحو بل ارادات كثيرة من المملكة عن الصرف المتمرسين عديدة أما الانقع لذلك فهو اختيار السير عن هذا الطريق الى حيث تنتظر فائدة عمومية رائدة و بناء عليه يتصرف بحسبكم بتدبير سموكم انه لو جعلت بعض الدين الموجودة قنصليدا ويسوى ما بقي منها بواق الارادات المتحصلة بتصرفات متنوعة يكون ذلك أفيد وأوفق وان المظالمات المبنية على ذلك هي من عاقبتها المشددة معلومة عند نظامه سموكم الداوري بكل الموهبة الالهية ونظرا لانضمام المنافع الوطنية فانه في الامكان اجزاؤها اليوم بمهنتكم الجلية كما هو مجزوم عند سموكم وانه بعد تعهد المقدمات العمومية على مادنا لاساس في البحث في الشروط المندرجة في مسودة تسندي الشروط تقديم سموكم بما سيأتي اذا فرض واستقرضت دراهم فلكونها غير وطنية فبالطبع يقع الاختيار على الذين تكون شروطهم أهون وذات منفعة وانه المستقرض بدون شكل تمييز التكاليف المعروضة والتسلك منها بغير موافقة المصلحة على ذلك فان الدولة العلية تعطى آراءها ولحوظاتها على كل من المسودتين الموضوعتين لدقة النظر وتشير بادى بد على أنها لا تشبه أدنى اشتباها في حق أى دولة من الدول الفخيمة المنفقة من جهة اخلاصها ومحبتها لخيرها وانما أقدم وظائف جميعنا تقضى علينا بان نوازن أطراف الشر وط المهمة التي تتعهد بها الخطة المصرية المنفذة لاجزاء الممالك المحروسة الساهاانية مدتمد يد حتى لا يقتضى تكرار ما يشأ عنه أما المسودة التي عملت بواسطة المسيو او بنهايم فلدى البحث فيها على موجب الحق بمعرفة الرجال الذين لهم المام تام ووقوف عظيم على الامور المالية سيما ما يختص منها بهذه الامور وقد وجدت صعوبة فضلا عن غلائها الشديد فان التأمينات الحاصلة لها منحصرة في بنوكها ومن جهة أخرى فانه ليس بها من الامنية وعلاوة على ذلك فانها محتوية على جملة مواد تدعو الى مباحثات شديدة وتؤدي الى مشا كل عديدة قد صرنا النظر عن تعدد هاهنا واذا تحولت الافكار لها من جهة السياسة فلعلم لدى داو ريكوم العالى أن التحويلات التي تستخرج بحسب ما ل هذا الاقتراض الرسمي من الديار الاجنبية اذا كانت باسم مصر فقط تقع منافية لحقوق السلطنة السنية التي لاشك أنها عندكم كرم خديوي بتكم مقدسة عن كل شئ كهلوم مسلم بدون اشتباه سيما وان واردات القطعة الجسمية المصرية تتعصر مدة ثلاثين سنة باعتراف بين وعلى مقتضى المادة السادسة عشر من المسودات المبحوث عنها تكون قضايا المنازعات والمشكلات التي تظهر وتجمع من نصوص المقالة المنعقدة بين الطرفين لا تنظر الا بحكمة تشكل من اثنين من كل طرف تحت رئاسة قنصل جنرال البر وسيا الموجود بسكندرية وهو بيت حكمه فيها قضايا ولاشك أن قبول هذا الاساس يجعل مأمورا رسميا لولة اجنبية حاكما مستقلا في الامور المالية التي هي غنابة تروح للاموال الداخلية وذلك مغاير لكل المعايير للاصول هذا سوى ما هو مندرج في جملة جهات من المسودات المحكي عنهما من المهمات التي لا تنقطع بسببها المشكلات والمنازعات فتصعب وجها هذا المحكمة الاستثنائية محكمة دائمة فلهاذا لا تظن انه يحصل من جانب سموكم الطاهر

تاريخ مصر ان شاء الله وكان بين رجال الماسين الهمايونى عدة من الوزراء الذين كان يهاديهم مديبا
فانخرة قبل ذلك ساعده وعلى نوال مقاصده ومنحته الدولة لقب خديو ثم انه فى سنة ١٢٨٣ تحصل
على فرمان سى سلطانى غير به طريقة الثورات فى منصب الخديوية المصرية فبعد ان كانت لا كبرانيا
المرحوم محمد على باشا انحصرت بهذا فرمان فى ذرية اسماعيل باشا وصارت لا كبريا ولاد الجالس
على الاريكة الخديوية ثم منحه ايضا فى سنة ١٢٨٩ عدة امتيازات اخرى واصدر له سنة ١٨٩٠
فرمانا جديدا شامل لجميع الامتيازات المصرية بما فيها كيفية التوارث فى منصب الخديوية سياقى
ايضا بتاريخ مصر

مسئلة قتال السويس - ان هذا القتال الذى اوصل البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط
علم اهميته ومنفعته كثير من الملوك الاقدمين بين مصريين واجانب مسلمين وغيرهم كما سياتى مفصلا

موافقة عليها كما ان السلطنة السنية لا تجوزها أصلا كتمتضيقات الضروريات الملكية والحاصل ان نصيب المال
والحقوق والسياسة والمحظورات الموجودة فى المسودة المذكورة تمنع عقد هذه المعاهدة منعاً قاطعاً وأما الأئمة مقاولو
بنك الاسقنوط الواردة لى محرراتكم الخديوية فان مقدماتها ظاهرة وتخص منها بالذكر ما مضمونه

أولا انه لاجل تعيين مقدار الاستقراض الذى سيجرى بشرط عمل تفتيش فى المستقبل على دفتر الدين والواردات
واذا وجد فيها اختلاف ما يناط الفصل فيه بدولة فرانس

ثانيا ان يعين قومسيون من الاوروپويين لاجل مناقرة صحة دفتر الاراد والمصر وفات السنوية ويكون بقاء
الوكيل الذى يتعين من طرف البنك وعدمه مقوضا لمر الدولة المذكورة

ثالثا ان تقيده بيات الدين المختصة بنفس سموكم فى قنصلنا بفرانس

رابعا ان مقدار المصر وفات يلزم أن لا يتجاوز الارادات وان دولة فرانس هى التى تعين شرطها وبذلك تكون
ملاحظتنا على ذلك هى تمامها الملاحظات التى شرحناها من جهة مداخلة قنصل بروسيا نحو الاستقراض من بنك
ساكس السابق شرحه وايضا حه

ولان كانت مداخلة فرانس (التي تعطى لها بموجب هذا الشرط) ذات وجه خبرى وكانت استفادة
سياستها بربى منها أن تداخلها ينحصر فى تحسين المالية المصرية لا غير حتى لا يوجد عند الدولة العلية فكر عميق
فى هذا الباب الأتھارى أيضا أن الاشياء المماثلة لذلك من حقوق أساس استقلال كل دولة وان اجراء التصرفات
فى المواد المالية بحسن الادارة الداخلية التى تتخذ وتنفذ بكل اخلاص وأمانة أفضل بكثير من التدايرا المثبتة التى
توضع تحت وصية خارجية لانها تسلب الاعتماد العمومى ولا ينجم منها سوى أنواع المناسك التى تقع بين الحكومة
والمملكة الامر الذى تنوقى ذاتكم العلية الخديوية من الدخول فيه لاسمائه لم يسبق له مثيل وصعوبته التى لا تنحصر
تعود بالضرر على الاموال فلاجل المحافظة على الحقوق المشروعة للحضرة الشاهانية يلزم صرف النظر بالكلية عن
هانين اللاتحين وأن تجر واتسوية الضيق الحاصل بالطرق الداخلة وتلتئم من سموكم بصفة خصوصية صرف
هممكم الجليلة الحسدوية فى ذلك وقد تقرر بين الوكلاء ان هذه المحفوظات الخالية عن الغايات بعد أن قرضت بطرف
سموكم فى ميزان التسوية طبقا لى جواب الذى يرد عنهم من داوركم تعاد فيه المذاكر بحسب ايجاب الحال وقد تعلقت ارادة
الحضرة الشاهانية بذلك وان الانتقانات المورثة للمباهات المبذولة من طرف خديو يتكم لحسبكم أقدم منها الشكر
والحمد وفى كل حال من الاحوال الامر والفرمان للحضرة من له الامر

الامضا ٨١ مترجمين

الى

كتاب المحررات النادرة

الى

الى

الى

في تاريخ مصر ومع ذلك فانه لم يتم لهم كل رغبا واوخابت مشروعاتهم فيه أو تعطلت بعد قليل حتى كان زمن المرحوم محمد سعيد باشا والى الديار المصرية الذي منح المسمو فرديناند دولابس الفرنساوي بعد سبعين طويلا أمرا بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ بفتحها وتشكيل شركة مساهمة لذلك غير معلومة الاعضاء وعلى ذلك أخذ يستعد للقيام بهذا العمل الجسيم والمشروع الفخيم وتحصل من الوالى المشار اليه على عدة أوامر لتساعد الحكومة المصرية على عماله من تقديم العملة واعطاء الاراضى اللازمة بل والنقود كل ذلك قبل أن يعقد بينه وبين دولابس المذكور شروطا تبسط فيها المنافع العائدة من ذلك على القطر المصرى ثم تعرض على الباب العالى ليرى رأيه فيها كما تقتضيه الفرمانات ولما رأت الدولة أن إحدى الشركات منحت امتياز اولاية معدودة من أجزائها المتجهة لها تداخلت وعارضت في المشروع واستمرت المكاتبات والمعارضات جارية حتى نولى على الديار المصرية المرحوم اسماعيل باشا الذى أخذ يوفق بين الخلاف ويجهتد في وضع مسألة ترعة السويس ضمن حدود معينة فخاطب الباب العالى في هذا الخصوص وكتب محمد أمين على باشا السفيراء الدولة العلية لدى دول أوروبا ومحرقا عن هذه المسألة (١) أبان فيه خطأ الشركة وأن للاحق لمصر

(١) لا يخفى أنه لما وضعت مسألة قتال السويس للبحث فيها أمام الدولة العلية قبل الآن بنحو بضع سنوات كانت أرادت أن تضع بعض اشتراطات لازمة ودرجها ضمن مواد مسودة المشارطة المختصة بذلك بقصد المحافظة على حقوقها وقد كانت أعلنت ان أهميتها تقع هذا الطريق تحتاج لضمائم خارجية فلهذا ترغبت أن ترى الاتحاد حاصل بين الدولتين البحريتين العظيمتين في هذا الخصوص وبما أن هذا الاتحاد لم يحصل إلا وان صاحب القنطرة والدولة اسماعيل باشا والى مصر اللاحق قد طلب رسميان الدولة أن تعين له في هذه المسألة ملكا فحسب الوظيفة قد بلغت جناب المشار اليه بان إعطاء التصريح والرخصة منها يتوقف على وضع الشروط واللازمة لذلك ولهذا بناء على الارادة السنية سنعرض الشروط المحكى عنها على الملكين الفخيمين المتفقين معنا ليقدر الحق فيها حسبما تطوت عليه ضمائمهم الخيرية لئلا لان مأمورى القومانية بغير أن يراعوا حقوق السلطنة السنية قد باشر والاعمال التمهيدية لهذا العمل قبل انتظار موافقة الدولة عليه ولما شاهدنا منهم ذلك قد تأقنا وأرأينا من الوجوب عدم التأخير في ابداء آرائنا عن هذا الباب وبناء على ما ذكر وتطبيقا لنقطة نظر منافع السلطنة السنية ومساعدة حكومتنا المملكة المذكورة صرحنا بما جرت على يان هذا الامر المقصود بصور ظاهرة كإسباني

أولا ولو أن الفوائد المأمول الحصول عليها من القتال المبحوث عنه مبهمه وشكوك فمما فانه لم يحظر في فكر الدولة منع حصول هذا المشروع وانما بدون ما نوضع الشروط التى تتضمن إمكان سده كسائر نواعات السلطنة السنية في البحر الأسود لم يرض والحالة هذه بفتح هذا القتال سيما وان المسودة الموجودة بيدنا الآن لا تثنى بهما من هذه الضمائم التى لا بد منها ثانيا لقد وجدنا في ابتداء الامر مادتين جليتا كمال دقة نظرنا وهما الأولى مع كون الضخمة ملغاة في ممالك الدولة العلية فان الوالى السابق جعل من طرفه أنه في حالة اجراء هذه الانشآت بصيرت بقاعدة ههنا الضخمة الظالمه لتكون من الاشياء المعينة على تلك الاعمال ولذا دعت الظروف الى ابقائها حتى يمكن استدامة الاعمال المذكورة وعليه صارت الادارة المصرية بمتنزه نحو عشرين ألف نفس من الاهالى بترك حرفهم وزراعتهم وطائلتهم للمساعدة في عملية فتح القتال وهؤلاء المتكردى الحظ يتكبدون مصارف عودتهم لبلادهم وفضلا عن الاضرار التى تلحق معظمهم بحربا يتركهم الحربة والكسب يلزمون بالاقامة في جهات متباعدة عن قراهم وان زراعتهم وصناعة وتجارتهم المملكة التى تعطل ليست فقط قاصرة على العشرين ألف المذكورين بل تعدى الى تعطيل ستين ألفا لانه عندما يكون العشر ون ألف عامل يشتغلون بالعمل يكون مثلهم عائد من البلادهم ومثلهم مسافرين الى القتال يعنى ان ٤٠٠٠٠ نفس يكونون بالطريق فهذه الحالة يكون المعطل عن العمل والمتباعد من عائلته الستين ألف السابق ذكرهم ونرى ان ضرر هذه الطريقة ومخالفتها للانسانية أمر ظاهر لا يمكن ان يهمل

في التصريح لشركة مماثلة لذلك باجراء عمل مشكوك في منفعتها ويعارض استيلاء الشركة على
 اراض لا حق لمصر التي هي جزء متم للسلطنة في التنازل عنها بوجه من الوجوه ويقدر في طريقة
 تضيير أهالي القطر المصري وتعطيلهم عن أعمالهم العاشية وغير ذلك من الأقوال والملاحظات
 المعترية وبعد ذلك تدخلت حكومة فرنسا للمساعدة الشركة حتى قبلت الحكومة المصرية أخيرا
 ما حكم به بالمليون الثالث الذي جعل حكا في هذه المسئلة ولقد كان حكمه فيها سماع الله ذمته جلا
 ثقيل على مالية مصر وأخيرا أصدر السلطان فرمانا بتاريخ ٢ القعدة سنة ١٢٨٢ هـ
 (١٨٦٦ م) بالتصديق على فتحه ولما تم الفتح عمال مصر ورجالها ومساعدتها كإسياني مفصلا في
 الجزء الثاني من هذا التاريخ زار الخديو اسمعيل باشا عواصم أوروبا في شهر مارت من سنة ١٨٦٩
 ودعى ملوكها لحضور الاحتفال بفتح القنال المذكور فحضر كثير من منهم وزارت أكثر أساطيل

الدولة العلية بأى صورة وبأى شكل كان لا تصدق على تصرفات مغايرة للحق والانسانية والتمدن ولدرجة قاعدة السياسة
 من جميع الوجوه كهذه

المادة الثانية - مسئلة الترة العذبة والاراضى المحيطة بها فانه في حالة قبول هذه المساعدة تكون الشركة
 (المجهولة الاعضاء) حاكمة حكما مطلقا على قطعة جسيمة من اراضى القطر المصري الواجب من بدأ الاعتناء بحفظها
 وزيادة على ذلك فانه بموجب الكونترات يكون للشركة حق التصرف في كافة الاراضى الواقعة على سواحل الترة العذبة
 مهما امتدت وبهذه الصورة تدخل مدن السويس والتمساح و بورت سعيد وكافة الحدود والفواصل لمصر عن الشام
 في حوزتها ويمكنها اذا أن تشغلها بسكنى مهاجرين من دول أجنبية غير تابعين للدولة العلية ولا شك أن أى دولة تحافظ
 على حقوقها ووظائفها لا تسمح بذلك مطلقا ولا تقبله والبحرى الدولة العلية ولكن بما أن رفض هذه الشروط رفضا تاما
 من قبلها يلبسها نيب التهمة بانها لم تساعد على هذا المشروع والمأمول افادته وبذلك يكون غير معترفة في نظر الدول
 فضلا عن تأسيس وتقرير رحلة أحوال المنازعات المتبادية فلهذا تم تسهيله وتعمل الموافقة عليه مرتبطة
 بهذه الشروط وهي إمكان سد القنال والغاء أصول السفرة وترك الشروط المخصصة بالترة العذبة والاراضى
 المحيطة بها ومضى ذلك تأخذ الدولة في مناقشة باقى مواد الكونترات بكل جدوسه والتصديق عليها أما الشركة
 فلا يمكنها أن تدعى إلا بالحصول على التصديق بدون حصوله كما أن المسبود ليس متعهد بكون تراتوا لوالى المرحوم
 بحصوله على تصديق الدولة في ظرف ١٨ شهرا ولم يف بوعده لآن ثم ان الدولة قد راجت اثنتين من متفقهما
 الاختصاص بالتمتاد تام عليهما وصوره بخصوصية واستصمرت منهما عن المسالك الذى سيخذه في مثل هذه المسئلة التي
 هي عبارة عن تأسيس شركة مجهولة الاعضاء في داخل الممالك المحررة والشاهانية بمجرد استحصالها من حاكم
 القطر الذى هو تحت سلطة الدولة على وعد المساعدة والتصديق من الذات العلية بالامتياز على شروط مخصوصة
 وهل يمكن أن تساعد هذه الشركة التي تدعى بحقوق لا تقر بها الدولة ولو أنه حصل بعض حركات غير مرضية أو جبت
 الشكوى منها فانه بناء على النيات الحسنة المطبوع عليها الجنب السلطاني أكرر القول بانى مستعد لتدقيق النظر
 بدون غرض في باقى نود الكونترات بعد تعديله كما تقدم ومن المين ان المصر وقت التي أجزتها الشركة قبل استيفاء
 شروط الكونترات يتمها (وهو شرط الحصول على تصديق الدولة) عائذ ضررها عليها ومع كل ذلك فان الدولة
 مستعدة لنظر المنافع المخصوصة الداخلة في هذا العمل واذا كانت الشركة لا تقبل المداومة عليه بحرماتها من
 المساعدة فالسلطنة باتخاذها مع حضرة الولى المتبينة في اتخاذ التدابير اللازمة لرد المبالغ التي صرفتها لها و بدأ تنضم
 الشركة طيبا بترك الاشياء التي علمت والاراضى التي تحت يدها للدولة وتبدأ المداومة وست الشركة على اجراء تصورها
 فان الدولة تسهل وجود شركة مختلطة بكل ما في وسعها وتضمم الولى المشار اليه في اخراج العمل الى حيز الفعل
 وانى لعقد سد وجازم بان هذه الابضاحات مستقدر ونها حق قدرها وتقبل بلونها باستقامة و اخلاص ولهذا تقر وثها لناظر
 الخارجيه طرفكم وتتركون له نسخة منها ما الامضا انتهى مترجم من كتاب المحررات النادرة

على

أوروبا والسواحل المصرية مدة الاحتفال بفتحته الذي صرفت فيه القناطر المقنطرة من الذهب والفضة لما قام به المرحوم اسمعيل من الزينات والاحتفالات النادرة المثال في التاريخ وكان فتحه يوم ٩ من جادى الثانية سنة ١٢٨٦ (١٧ سبتمبر سنة ١٨٦٩) ويروي أن بعض دول أوروبا كانت تريد مساعدة المرحوم اسمعيل باشا على انفاذ ما ربه يوم الاحتفال بفتح القنال وأن فكتور مانويل ملك إيطاليا أرسل أساطيله لهذا القصد تحت قيادة ولي عهدته الى مياه الاسكندرية لهذا الخصوص ويقال ان امبراطور فرنسا نابليون الثالث أو عز الى الامبراطورة أوجيبنى عند سفرها الى مصر بالمساعدة وانفاذ ما يبغيه الخديو الا أن الدولة العثمانية وانكثرة لما علمت بذلك اعترضت بالمحررات السرية وشددت انكثرة في الامر حتى التزمت إيطاليا بارجاع أساطيلها من نهر الاسكندرية فلم تحضر الاحتفال بفتح القنال كبقية الدول وبذلك حفظت مصر من أمر كان القاضي على استقلالها

المشاكل والارتباك في الدخايم - قال العلامة أحمد مدحت أفندى في كتابه أسس الانقلاب لمخلصان العناية التي بذلها السلطان عبد العزيز بنخان في السنين الاولى من جلوسه على سري الخلافة في اتمام الاصلاحات التي أدخلها على جميع دوائر الحكومة كما جعلت الامة العثمانية تأمل خيرا كثيرا في المستقبل الا أنه لما قرب جلالته اليه بعض أصحاب المطامع وقضت الغلطات السياسية هدم القلاع التي شيدتها الدولة حول الجبل الاسود كما سبق ونخلته قلاع الصرب التي فتحت بدماه أبطال العثمانيين والاموال الوافرة وغير ذلك مما أصاب الدولة من تراخي من أشرفنا اليهم من الرجال وظهر وثورة كرد التي لم يهتم الوزراء باطفاؤها بسرعة تعجزت ضد هذه السياسة سرا كثير من الوزراء خصوصا لما رأوا أن جلالته ميال الى تغيير هيئة الوراثة في السلطنة العثمانية ولما كان تغيير طريقة الوراثة بالخدوية المصرية التي نالها المرحوم اسمعيل باشا رضوا السلطان منعت المرحوم مصطفى فاضل باشا من حقوقه مال الى الحزب كور والتف حوله بعض شبان العثمانيين الذين ثارت في قلوبهم الحمية الوطنية والهبة المليية ونخص بالذكر من هؤلاء على سعاوى بك وضيا بك ونامق بك وغيرهم ورحل الكل الى أوروبا وأخذوا يذيعون هناك بما ينشرونه من المكاتبات والخرائد الاغلاط الحاصلة في سياسة الدولة وينتقدون عليها وعلى أعمال فؤاد باشا وعلى باشا وأصدروا كثيرا من الرسائل الهجومية تجماموا فيها على بعض رجال الدولة الذين تبرههم أعمالهم الحسنة ومساعدتهم المشكورة مثل على باشا وفؤاد باشا وغيرهما ولما توفي على باشا الذي كان موته فاتحة باب شرور على الدولة وجلس مكانه محمود نديم باشا (١٢٨٨ هـ) في مسند الصدارة انتهج طريقا معوجا ساءت به الاحوال عن ذي قبل فاختلفت الامور المالية واقترضت الدولة من أوروبا أموالا كثيرة لم يعد منها على مستقبلها فائدة عظيمة واستبدت العمال في الاحكام حيث لا رقيب ولذلك صدر أمر سلطاني بمحاكمة ثلاثة من المشيرين وهم حسين عوفى باشا وشير واني زاده رشدى باشا ومشير الضبطية حسنى باشا واصر نفيهم بدون أن تطبق محاكمتهم على القانون ولذلك اندهشت رجال الدولة من هذه الاحوال وكثرت التغيير والتبديل في الولاة بحيث صاروا يستبدلون بعد مضي خمسة عشر يوما تقر يبا من تنصيبهم فزادت الاحوال ارتباكا ولما لاحظ السلطان سوء الحالة عزل محمود نديم باشا من الصدارة

بعد أن تولاهما أحد عشر شهرا وقد طعنت فيه الجرائد العثمانية وأظهرت ما نأه من الاعمال المضرة بالدولة وقد كثر تغيير الصدور بعده حيث تولى الصدارة مدحت باشا (١٢٩٢ هـ) ورشدي باشا الكبير وأسعد باشا وشيرواني رشدي باشا وحسين عوفى باشا وأسعد باشا ثانية في مدة ثلاث سنوات ولما انتخب السلطان للصدارة محمود نديم باشا ثانية خطر في فكر رجال الحزب المضاد لسياسة الحكومة أن السلطان راض عن أعمال الوزير المذكور خصوصا وان الجنرال اغنائيف سفير روسيا بالدولة نال مكانة عالية عند جلالته فصار لا يعمل عملا الا بعد استشارته حتى وصلت الحالة بالدولة الى ما لا تحمد عاقبته وقد تمكن السفير الروسي المذكور من نوال مقصده خصوصا وان دولته كانت تمكنت أثناء حرب فرنسا والمانيا (١٨٧١ م) من تعديل بعض بنود معاهدة باريس المعقودة سنة ١٨٥٦ م المختصة بالبحر الاسود ورضيت الدولة بان يكون للروسيا بالبحر المذكور أساطيل حربية ودور صناعة ولما حصلت الروسية على ذلك أوجدت هناك الاساطيل القوية ثم طرقت أبواب السياسة الشرقية بترويج جمعيات الصقالية التي كانت مراكزها بمدينة بطرسبورغ عاصمتها وفيها عاصمة النمسا حركت الثورات في ولايتي بوسنة وهرسك (١٨٧٥ م) وبنيت بين أهالي البلغار بذور الفتنة فثارت بعض جهاتهم (١٨٧٥ م) الآن عمال الدولة هناك تمكنوا من اطفاء الفتنة بسرعة وبعد مدة قليلة هيج البلغار بون بعض دعاة الثورة والفساد الذين أرسلتهم جمعيات وبنائه فقاموا ثانية (مايو سنة ١٨٧٦ م) وأخذوا في قتل المسلمين وحددت عدة مذابح في جملة قرى خصوصا في باتاق واستمر هذا الهياج الى ٢١ يولييه من السنة المذكورة وعند ذلك قام بعض رجال السياسة باوروبا وفي مقدمتهم غلادستون يطعنون في الدولة باغلاظ الالفاظ وأشنع التعبيرات وينسبون حصول تلك المذابح الى شوكت باشا وحافظ باشا وغيرهما من المأمورين وتمكنت الدولة هذه المرة ايضا من اعادة النظام الى الولاية المذكورة وفي تلك الاثناء استعمل لهيب الثورة في بلاد بوسنة وهرسك بتحريرات أهل الصرب والجبل الاسود وغيرهما فأصدرت الدولة الاوامر لقواد الجيوش بسرعة اعادة السكينة فأخذت نظار العصاة ولما خافت الدولة من أن تقوى الدسائس الاجنبية على مساعياها أصدر السلطان في ١٢ ديسمبر سنة ١٨٧٥ م فرمانا بمنح تلك الولايات بعض نظامات لتسكين الخواطر الا أنهم لم يقبلوا استمر العصاة يعينون فسادا وطلبوا من الدولة سحب جيوشها من البلاد كما أخرجتها قبل ذلك من قلاع بلاد الصرب فاشتد بذلك الامر وقدم السكونت اندراسي لائتمته المشهورة في أواخر السنة المذكورة وكان من مشتملاتها انفاذ ما جاء بالفرمان السلطاني من الامتيازات التي منحها السلطان لاهالي الولايات المذكورتين وتشكيل قومسيون من الاهالي لمراقبة تلك الامتيازات فقبل السلطان وأصدر عفوا عن جميع المجرمين الا أن الاهالي لوثوقهم بمساعدة أور وبالهم على نوال مرغوبهم كما كانت تلقية عليهم عمال الثورة أصروا على طلبهم الاول من اخراج العساكر العثمانية من بلادهم أو تقيم في القلاع فقط خصوصا بعد حادثه سلايك التي وقعت في ٥ مايو سنة ١٨٧٦ م وسببها أن فتاة بلغارية اعتنقت الديانة الاسلامية وأنت سلايك لالبيات اسلامها فتصدى لها بعض سفلة الارواح حسين توجهها الى دار الحكومة واحتفظوها من أيدي المحافظين عليها بالقوة وأخفوها أولا في بيت فنصل أمر يكاثم نقلها الى دار أحد كبارهم ولما أشيع ذلك بين المسلمين هاجت نفوسهم وتجمع منهم نحو ثلاثة آلاف أمام سراي الحكومة وطلبوا احضار

البنيت المذكورة وتخليصها من أيدي الذين استولوا عليها لحفظ التاموس الامنة العثمانية ولمالم يحضروها وتجمعوا في اليوم الثاني داخل الجامع المعروف بجامع سليم باشا القريب من سراي الحكومة للداوله فيما يمكن به ارجاع الفتاوى بينهما هم كذلك اذ حضر الموسيوي مولين قنصل فرانسوا والموسيوي هنري أبود قنصل المانيا وأراد دخول المسجد عنوة فتصدى الناس لمنعهما أولاً إلا أنهما دخلا بالرغم عنهم وكان المتداول على الالسنه أن البنيت في بيت قنصل المانيا المذكور ومما زاد الهياج عند المسلمين أن القنصلين المذكورين تفقروا بالفاظ غير لائقة فاشتد حنقهم وهجموا عليهم وقتلوهما وكان الوالي محمد رفعت باشا استنجد بقوة عسكرية من القره قولات ومن ملاحى السفن العثمانية الراسية بالمينا لأن تلك القوة لم تحضر سر يعا حصل ما حصل ولم يبلغ الباب العالي ما حدث أرسل في الحال لجنة بينهما مستشار نظارة العدلية لتحقيق المسئلة وأرسلت دولتا فرنسا والمانيا اسطولين وبعث كل من انكلترة و ايتاليا والنمسا والروسيا واليونان سفن حربية ثم انتهت المسئلة بعمل تراض للدولتين المذكورتين وهي أن ينفي الوالي وبعض المأمورين وأن يقتل الذين تجاروا على سفنك الدماوان يضرب باسم كل دولة من الدولتين ٢١ مدفعا وترتب على ذلك أن انفقت روسيا والنمسا والمانيا و قدموا للدولة لائحة برلين المشهورة بعد أن صادقت عليها ايتاليا وفرنسا وما آهأ أنهم طلبوا من الباب العالي تنفيذ فرمان ١٢ ديسمبر سنة ١٨٧٥ م وتعيين مجلس دولي للمراقبة تنفيذ الاصلاحات فرفض الباب العالي ذلك لأنه ما من بحقوقه فارتبكت الاحوال ولما كانت الامنة ترى أن الصدر الاعظم محمود نديم باشا لا يعمل عملا الا يرى السفير الروسي نسبت هذه الامور الى هذا الوزير العلقني فكرهه الناس وشنعوا عليه خصوصا لما أشيع أن السفير الروسي أشار على السلطان باحضار قدر من الخمر واتمين للمحافظة على قصره حينما دخله الريب في اخلاص الجنود والامة وصار لا يثق بجراسة الخصوصيين وشاع خبر استقدامه ثلاثين ألفا من العساكر الروسية للمحافظة على حياته وعند ذلك اضطربت الافكار وهاجت الخواطر وأول الناس تلك الاشاعات تأويلات كل على حسب غرضه ورموا الصدر المذكور بالخيانة الكبرى لافعاله المذمومة وأنه يريد أن يسلم الروس أعدائهم البلاد غنمية باردة فقامت طلبة العلم (الصفط) والتف عليهم كثير من الاهالي في أواسط ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ وأرسل السلطان لشيخ الاسلام يطلب منه السعي في تسكين أفكار الطلبة وارجاعهم الى مدارسهم وكان الناس يشيعون أيضا أن شيخ الاسلام وقتئذ حسن فهمي أفندي يعيل الى سفير روسيا وينزله منزلة وولده فأشركوه أيضا في الخيانة ولما خاف السلطان تفاقم الخطوب عزل محمود نديم باشا من الصدارة وحسن فهمي أفندي من الشيخة (١٦ ربيع الأول) ووجه مسند الصدارة الى محمد رشدي باشا الكبير المعروف بالترجم والمشيخة الاسلامية الى خير الله أفندي والسر عسكرية الى حسين عوفي باشا

فزع السلطان عبد العزيز وفاة - لقد تبنا نت الاقوال كثيرا في سبب خلع السلطان فن قائل ان الجنرال اغنا تيف سفير روسيا المارأي تغيظ السلطان وتأثره من الزام الامة اياه بطرد الوزير محمود نديم باشا صاري حرضه على الاتقام من المتسبين وابعاد كثير من الذين بكرهم السفير المذكور ليخلصه جوار السياسة فينال ما يشاء فهاجت الافكار لذلك ومن قائل ان السياسة الانكليزية التي تخاف تقرب

الدولة من الروسية اقتضت بالتحريض على خلع السلطان لما رأته أن جلالتها يميل الى محالفة الروسية ولذلك كان يرتكن كثيرا على آراء سفيرها في الاستانة ومن قائل ان الوزراء خافوا من أن يبطش السلطان بهم فتأمر وعليه وغير ذلك من الروايات والحاصل أنه اجتمع كل من رشدي باشا ومدحت باشا وحسين عوفي باشا وأجد باشا القيصريه لى وشيخ الاسلام حسن خير الله أفندي وأمثالهم من رجال الدولة وأركانهم وقرروا خلع السلطان عبدالعزيز فيما بينهم وبقى هذا الامر سرا لا يذيعونه حتى تمكنهم الفرصة من اجرائه وكتبوا يستفتون شيخ الاسلام فأفتى بالجواز وعلى ذلك حاصروا السراى السلطانية برا وبحرا بالجنود قبل غروب يوم الاثنين ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٩٢ هـ (٢٨ مايو ١٨٧٦ م) ومن الغريب أن الجنود كلها لم تكن تعلم شيئا من سبب تجمعها بهذه الصفة ولما تم الحصار ذهب السر عسكر حسين عوفي باشا الى مقر السلطان مراد خان وطلب مواجته فخرج اليه وقد اعتراه الخوف لا يقاظه من النوم في تلك الساعة وبعد أن هدأ روعه أركبه معه في العربة وسلمه عتارة بست طلاقات لتكون معه ولما أتى به الى باب السر عسكرية أجلسه في الخجرة التي أعدت لمبايعته وفي الحال حضر الشريف عبد المطلب وغيره من أعيان الدولة ورجالها وعظماؤها وبايعوا السلطان في الساعة الثالثة بعد نصف الليل ثم أرسلت الفتوى الى رديف باشا وكان الموكل بأمر الحصار فأحضر لديه رئيس أغوات السراى جوهر أغا وأبلغه بأن الامسة قد خلعت السلطان عبدالعزيز وبايعت السلطان مراد خان وأنه مأمر بارسال السلطان المخلوع الى سراى طوبقو ولما بلغ جوهر أغا هذه الرسالة كان يضطرب ويرتعد فقال له السلطان عبدالعزيز ارجع اليه وقل له هل خلعي أمره هين فقال له رديف باشا ان العساكر محيطه بالسراى بحرا وبرا فإذا امتنع عن الخروج والذهاب الى سراى طوبقو طوعا أخرج كرها وأرسل له فتوى شيخ الاسلام^(١) القاضية بخلعه فلما نظر السلطان الى العساكر والفتوى لم يجدها من الخروج فخرج وأنزل في زورق ومعه ابنه الامير يوسف عز الدين أفندي ونقلت عائلته أيضا الى تلك السراى وكانت محاطة بالعساكر كذلك وفي الصباح أطلقت المدافع من المراى البرية والبحرية فذهب الناس من مضاجعهم وهم يسمعون صوت المنادى يقول ان السلطان مراد الخامس جاس على سرير السلطنة السنية فخرجوا أفواجا وتوجهوا الى سراى بشكطاش فقبل لهم ان السلطان في سراى السر عسكرية فقصدها وهاو دخلوا عليه وبايعوه وكانت تلوح على وجوههم علامات السرور والفرح وفي نحو الساعة الثالثة ركب السلطان مراد عسكره وقصد سراى بشكطاش وأقبلت اليه الجوع هنالك تبايعه وقد استمرت المبايعه ثلاثة أيام

أما السلطان عبدالعزيز فإنه لم يمكث بعد خلعه إلا أربعة أيام على قيد الحياة ثم مات وللناس في أسباب موته اقوال ظاهرة وأخرى خفية تداولها فيما بينهم أما الاولى فهي أن هذا السلطان

(١) اذا كان زيد الذى هو أمير المؤمنين مختل الشعور وليس له المام فى الامور السياسية وما يرح بنفق الاموال المبرية فى مصارفة التفاسية فى درجة لا طاقة للإن والملة على تحملها وقد أدخل بالامور الدينية والدينية وشؤونها وخرب الملك والملة وكان بقاءه مضر اياهم هل يصح خلعه فى الجواب يصح ما كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه

العظيم اعتراه من يوم خلقه مرض في رأسه صيره للجنون فاضطربت أحواله وحركانه فكان يتخيل تخيلات زاذبها سافقا حتى انه لم يعد يستطيع الرقاد ليلة وفاته وهي ليلة الاحد الموافق ١١ من شهر جمادى الاولى ولما أصبح الصباح دخل الحمام كعادته ثم خرج الى بستان السراي ثم عاد الى حجرته وأمر بفتح الشبائيك والابواب وأخذ يتمشى بها ثم عاد وخرج ثانية الى البستان وكان الديناضات عليه ثم حاول الخروج الى شاطئ البحر فغصه ضابط الحرس بكل أدب وقال له يا مولاي لا آذن بالخروج فأبى وشتمه فغضض ضابط آخر وأشار اليه بالدخول فدخل وقد زاد بلباله واضطرابه حتى ظهرت عليه علامات الاختلال وأخيرا طلب من احدى الجوارى مقصا يقص به أطراف لحيته كعادته فخرجت الجارية وأخبرت والدته بذلك فاعطتها مقصا ومرة آتة لتناول المقص وأخذ يقص به أطراف لحيته ووالدته تنظر اليه من وراء الباب ولما رآها أمرها بالانصراف ثم جلس على متكا ونادى أحد الاغوات وخاطبه بمحاربة العدو الذي كان يتوهمه في كل لحظة ثم أخذ المقص وشرع يقطع به عرقا في وسط ذراعه الايمن فحاول الخادم أخذ المقص منه فأنعه فذهب الى والدته صارخا في تلك الاثناء جلس السلطان على المتكا وقطع عرق يده اليسرى قطعاً بليغا وقيل انه قبل أن يفعل ذلك أحكم غلق الباب ولما جاءت والدته والجوارى طفن بصرخن ويكيين وكسرن زجاج الشبائيك ولما أقبل الضباط بلغهم الخبر وقيل انه كان يفتكر من مدة في الانتحار ولما وصل خبر ذلك الى السلطان أصدر أمر بتشكيل لجنة طبية للتحقيق بسبب الوفاة ولما كسفوا عن اللجنة حرروا مضبطة (١) وقع عليها الاطباء وكانوا ١٩ طبيبان أكبر اطباء الاستانة بينهم أطباء بعض السفارات وما آل تلك المضبطة لا يخرج عما ذكرناه هذه هي الرواية الظاهرة الآن بهض الواقفين على خفايا الامور قالوا بنا كيدان وفاة السلطان عبد العزيز بلاية وأن تكون بفعل فاعل ونسبوا ذلك الى أن مدحت باشا وحسين عوفى باشا وغيرهما من الذين انفقوا على قتله منعا لحصول القلاقل المستقبلة مادام على قيد الحياة وليكونوا في مأمن من الانتقام فيما بعد وقالوا انهم وكوا بقتله اثنتين من

(١) انه على مقتضى ارادة الحضرة السلطانية السنية والاوامر المعطاة من حضرات الرؤساء الفخام قدوجهنا في يوم الاحد ١١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ هـ (٢٧ مايو ١٨٧٦ م) قبل الظهر بداعه الى القرية فونحانته المتصلة بسراي جراغان الهمايونية للتحقيق بسبب موت السلطان السابق عبد العزيز بن عثمان فأدخلونا هناك في اودة بالدور الاسفل فوجدنا جرحا مطروحا فوق متكا موضوع على الارض مغشى علاة جديدة وعندنا رفعا الغطاء المذكور وجدنا جسد السلطان السابق عبد العزيز بن عثمان ولدى المعايمة اتضح لنا أن أطرافه قد ردت وخلت من الدم بالكلية ويوجد في بعض جهات الجسم دم متجمد وكان الجسد في وقتها لم يبرد تماما وكانت جفونه مفتوحة وحصل تكاتف خفيف في قرنتيهما وكان فمه مفتوحا قليلا والاقنعة الساترة لذرعيه ورجليه ملطخة بالدماء ولما رفعا الغطاء عن ذراعيه شاهدنا في ساعده اليسرى جرحا طوله خمس اصابع وعمقه ثلاث اصابع وأطراف هذا الجرح بارزة بغير انتظام واستقامتها المتمددة من الاعلى الى الاسفل غائرة من الداخل الى الخارج والعروق منقطعة والشرايين ممزقة بارزة الى الخارج نقر بيابا وجدنا بالذراع الايمن قرب المفصل جرحا طوله اصبعان ونصف وعرضه اصبعان وأطرافه بارزة الى الخارج بانحراف ولكن الشرايين فيه سالمة والعروق ظاهرة بطول عشرة اصابع ووجدنا مقرضا صغيرا ملطخا بالدم وقالوا لنا ان هذه الجروح المذكورة الموجودة بالسلطان السابق أجزاها هو بيده ثم أدخلونا اودة كبيرة كان يجلس فيها السلطان المرحوم فوجدنا في احدى ركناتها بقرب الشباك متكا قالوا لنا انه كان جالسا فوقه وكان ملطخا بالدماء وشاهدنا على مقربة من هذا المتكا فوق الحصير بقع دم منتشرة انتهارا وعلى ذلك قررنا جميعا بالاتحاد ما أتى أولا ان وفاة السلطان السابق عبد العزيز خان تسببت من قطع الاوعية الموجودة بذراعيه من سيلان الدم منها ثانيا ان الاكالات التي شاهدناها يمكن احدان

الفداوية بعد أن اتفقوا على ذلك مع أحد البكوات الذي كان انتخبه السلطان عبد العزيز ليرافقته أثناء عزائه وكان يعتمد عليه كثيرا ولا يخاف منه ثم أوقد أعز هذا البك إلى والده السلطان أن تأخذ من السلطان خنجر السلطان عثمان وكان يتهلله دائما وقال لها إنه لا يصح أن يبقى هذا الخنجر مع السلطان خوفا من أن يضرب به نفسه فصدقت قوله لعلها بمحبته الشديدة لابنها واحتالت حتى أخذت الخنجر المذكور وفي تلك الليلة أقفل ذلك المأمور الأبواب ودخلت الفداوية من شبابيك البستان وتمكنوا من قتل السلطان عبرت خصميه ثم حصل ما حصل والله أعلم بالحقايق وذلك كان سيدي في قيام الضابط حسن الجركسي وقتله بعض الوزراء كما سيأتي أما السلطان فشيعت جنازته ودفن بجوار أبيه السلطان محمود رجهما لله رجة واسعة

وكان رجه الله قوى البنية يجب السير على خطة أسلافه من اصلاح أحوال المملكة ومعاملة جميع الرعايا على السواء بحسب العمارة شيد كثير من المباني والقصور الفاخرة والمعامل المفيدة في جملة ولايات فقويت بها المملكة برا وبحرا ومدججه خطوط حديدية في بعض ولايات الروم ايلي وأصلح فم نهر الطونة ومهد عدة طرق بالاناضول فاتسعت دائرة التجارة ولولا الدسائس الاجنبية لكانت أيامه تعد من أعظم الايام وكان ميالا إلى السياسة الروسية كثيرا وهذا ما أمال الامة عنه لأنه كان يرى في موالاته للروسيا تحقيق المآرب وغاياته كما كان يوعز اليه بذلك سفير الروسيا الجنرال أغنايف ولذا كان السلطان يتظاهر بالميل اليه كثيرا

٢٣ السلطان مرادخان الخامس ابن السلطان عبد المجيد

١٢٩٣

لما تمت مبايعة السلطان مرادخان الخامس كما تقدم أظهرت الامة العثمانية انشراحها وسرورها واحتفلت باقامة الزينات في دار الخلافة ثلاث ليال وأعلن الباب العالي الحكومة الخديوية وسائر الامارات الممتازة تلغرافيا بجولس السلطان مرادخان الوارث الشرعي لسكري الخلافة وفي اليوم العاشر من الشهر كتب المرحوم السلطان عبد العزيز نختان مكتوبا^(١) إلى السلطان مرادبه كثير

الجروح المذكورة بها ثالثا انه من هيئة استقامة الجروح ومن الانتصار الحاصل بالالات الجارحة المذكورة يستدل على حصول تلف النفس المحكي عنها وبناء على ذلك تقدم بماضيا آتنا هذا المضبطة التي حررها بقرة قول سراي جراجان الهمايونية ما

دوقتور	دوقتور	دوقتور	دوقتور	دوقتور	دوقتور	دوقتور
مارقو	فوزي	صوفو	اسبانيول	مارق ماركيل	بارديلو	عبدالنور
دوقتور	دوقتور	دوقتور	دوقتور	دوقتور	دوقتور	دوقتور
زوت	دوقتور	دوقتور	زول ميلتجن	قسطنطين قرطودري	ديكسون	ويتالس
دوقتور	دوقتور	دوقتور	دوقتور	دوقتور		
ادواراسيادارد	نورجيمان	مليان بك	مصطفى	محمد		

(١) بعد انكالى على الله تعالى وجهت انكالى عليك فأهنتك بجولسك على تخت السلطنة وأبين لك ما في من الاسف على اني لم أقدر على أن أخدم الامة حسب مرادها فأؤمل انك أنت تبليغ هذا الارب وانك لانسى أني تشببت بالوسائل الفعالة لصيانة المملكة وحفظ شرفها وأوصيك بأن تتذكر أن من صير فيك في هذه الحالة هم العساكر الذين سلحتهم

من الاقوال الحكيمية ينفي ما أشاعوه عنه من اصابته بالاختلال العقلي وكانت الاحوال مضطربة والجزائر تكتفب المقالات الطويلة طالبة تشكيل مجلس شورى من نواب منتخبهم الامة وسن قانون اساسى للدولة ولما خافت الحكومة سوء العاقبة أصدرت ادارة المطبوعات الى عموم الجزائر أمرا بمنع الكلام فى هذا الخصوص فانساءت الامة من ذلك و بعد خمسة أيام من هذا الامر صدر خط همايونى فى ١٦ جمادى الاولى الى الصدر الاعظم محمد رشدى باشا يبقائه هو وسائر الوزراء فى مناصبهم وكان يحتوى على مبادئ الشورى التى تصدج لانه ادائها الاصلاح كافة الادارات

حادثة حسن المحركسى - قال الفاضل مدحت أفندى فى القسم الاول من أس الانقلاب مالمخلصه، ترجايه بعض تصرف انه بعد صدور فرمان الساطاني السابق ذكره دعا الصدر الاعظم كشيرين من الاعيان والوجهاء وعقد مجلسا خاصا من الوكلاء للنظر فى مسألة القانون الاساسى الذى يطلب الجمهور سنة ليمتنع دور الاستبداد القديم ولما انعقد المجلس المذكور مرة ثانية بمنزل مدحت باشا (٢٣ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ هـ) حضر أحد ضباط العسكر به ويدعى حسن محركس بك وطلب مواجبة بعض الاعضاء بدعوى توصيل أمر مهم اليه فلم يأذن الخادم له ثم احتال حتى دخل حجرة المجلس متواضعا وتناول مستسا من المستسات التى معه وأطلق عدة رصاصات على حسين عوفى باشا السر عسكر ومحمد راشد باشا ناظر الخارجية فقتلها موارح القبولان أحد باشا الذين لم يتمكنوا من الهرب أو أبدي بعضهم مقاومة ثم قبضوا عليه و بعد استنطاقه حكم عليه بالقتل فشنقوه على شجرة فى ساحة بايزيدوى معلقا ثلاثة أيام وبذلك قوى عند العموم القول بقتل هؤلاء الوزراء السلطان عبدالعزير قصد اباعاز من بعض سفراء الدول أما محركس حسن هذا فهو ابن اسماعيل بك أحد اعيان الجزائر كسة المهاجرين درس بالمدارس الحربية العثمانية وترقى الى رتبة اليوزباشى وكان ياور الامير يوسف عز الدين أفندى منذ كان مشيرا للوردى انماص همايونى ولما توفى السلطان عبدالعزير خان أراد حسن عوفى باشا السر عسكر اباعاده عن الاستانة فرقاها الى رتبة الصاغ قول انامى وألحقه باوردى بغداد وأمره بالسفر فامتنع فأمر بحبسه كالتقتضيه القوانين العسكرة ثم عاد فأظهر الرغبة فى السفر وطلب الاذن بأن يبقى يومين بالاستانة يقضى فيها حوائج السفر فأجيب الى طلبه وكان منه ما كان

ثورة الصرب والجبل الاسود - لما جلس السلطان مرادخان على سرير الخلافة كانت الثورة بولايتى بوسنه وهرسك لاتزال مشتعلة وكذا الحال ببلاد البلغار وكان رجال الثورة الذين اجتمعوا فى قلبه و طرنوه صعدوا الى جبال البلقان لتهميج أهاليها وأخذوا فى مقاتلة العساكر الشاهانية والقتل بالاهالى الاسلامية القاطنين بتلك البلاد والاطراف وقد اهتمت الدولة بمنع هذا العصيان وأصدر السلطان عقوا عاما عقب جلوسه عن العصاة وكتبت النصائح اللازمة ونشرت على البلغاريين وأخذت الدولة أيضا فى تجهيزات العسكرة بظلام أفق السياسة وطلبت كشيرين من عساكر الريف من برناييدى وحيث كان من دأبى دالما الرقى بالظلمين وشمولهم بالمعروف الذى تقتضيه الانسانية أرغب اليك أن تقضى من هذا المكان الضيق المعنى الذى صرت اليه وتعين لي محلا أكثر لامة لي وأهنتك بأن الملك انتقل الى ذرية أخى المرحوم عبدالمجيدخان ما حرقى ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ عبدالعزيراه كتر الرقاب

الاناضول وساقتم الى تلك الاطراف ولما كانت دسائس الروس لا تزال تروج الثورات بتلك النواحي
شقت امارات الصرب والجبل الاسود عصا الطاعة أيضا فاتسع الخرق على الدولة وتعددت مشاكلها
وزادت جروحها خطرا حتى اضطرت لاختذ الاحتياطات الشديدة وطلبت مددا من المرحوم اسماعيل
باشا خديومصر فأجدها مريعا بقوة عسكرية مؤلفة من ثلاثة ألاف من المشاة ويطارين من
المدافع وكان يقود هذه القوة الفريق راشد حسني باشا ومن قوادها العظام اسماعيل كامل باشا
وسافرت على خمسة وابورات مصرية تحت ملاحظة محمد كامل باشا قومندان وابورات المحروسة ووصلت
هذه القوة الى سلانيك في شهر رجب من سنة ١٢٩٣ هـ ثم سافرت من طريق اسكوب الخديدي
الى جهات يكي بازار وذهبت من هناك والتحقت بالجيوش العثمانية النازلة بجمود بلاد الصرب
وأرسل الخديوي أيضا كثيرا من الاسلحة والمعدات الحربية لتوزعها على الجنود العثمانية وبعث
ثلاثة وابورات للمساعدة في نقل الجيوش العثمانية ثم عمت الثورة أنحاء تلك الامارات وسرت الى
ولاية الروم الي وقاتل الطرفان وانتصر عثمان باشا بقرب قسبة زاجار على الصرب انتصارا باهرا ثم
سار سليمان باشا من جهة شهر كوي وحافظ باشا من جهة بلانقة وبعدها تقابلاها جبال الصرب بين
فهزماهم هزيمة هائلة حتى اضطر والترك حصونهم والاتجاه الى داخل البلاد وأرسل أيضا الصرب
عبد الكريم نادر باشا من نيش فرقة عسكرية تحت قيادة أحمد أيوب باشا فكسر الصرب بين في
مضيق غراماده واستولى على ما معهم من المدافع ثم تقابل أحمد أيوب باشا بسليمان باشا وتقدما
وكسرا قوة الصرب بين في مضيق بانديرو ثم تقدم على صائب باشا الى مدينة الكسناج فانصهر على
الصرب بين بجوارها ثم انضم اليه أحمد أيوب باشا بفرقة وحاصرها الا ان العثمانيين لم يستولوا عليها
الافى عهد مولانا السلطان الاعظم عبد الحميد خان وفي تلك الاثناء أيضا كان محمد علي باشا منتصرا
بالجيوش المصرية بجهات يكي بازار واستولى على قلاع ياوور وهذه الانتصارات المتقدمة انقطع أمل
الصرب بين وداخلهم اليأس وفي خلال ذلك أيضا انتصر أحمد جدي باشا بفرقة على ثوار الجبل
الاسود في جهتي قوج وصلاحق ارن لاجه وانصر سليم باشا بفرقة عليهم في الجهة الواقعة بين نواسين
وغناجقه وتقدم أحمد مختار باشا بقوة كبيرة عليهم أيضا من جهة نواسين وبعدها بتدبيرهم استولى
على استحكاماتهم التي أنشوها بتلك الجهات المستحكمة استحكما طبيعيا ثم تقدمت عساكره حتى
وصلت الى محل يدعى بيلك ولما تقدم عثمان باشا وسليم باشا بفرقتيهما احتاط بهما الجبليون من
كل صوب وتغلبوا على القائدين العثمانيين وكسروهما وقتل سليم باشا والتزم عثمان باشا أن يسلم
فأخذوه أسيرا وعاملوه بالحسنى مدة أسره ثم تقدموا المصادمة بقوة أحمد مختار باشا ولكنه قاومهم
وكسروهم في جلة وقائع ولما رأى زيادة قوتهم وتجمعهم عليه طلب من جنود بوسنة قوة فأرسلوا له
سته عشر طابورا ولما وصلت اليه أخذ يهاجم الثوار ويضيقهم في جهات فريج وغور وترهين ثم
أرسلت الدولة جيشا آخر من الاستانة وبر الشام على البواخر تحت قيادة محمود باشا فنزل في فرضة بار
الأنه هزم واضطرت لان يرجع متقهقرا الى اشقودره وسبب ذلك وعورة تلك الاطراف وعدم محاربة
الجبلين محاربة منتظمة وكان الروس لا يتفكرون عن ارسال الاسلحة والذخائر الى الصرب بين
والجبلين ورسولون اليهما أيضا متطوعين من الجيش الروسي وغيره لقيادة الثوار كل ذلك بمساعي

جمعيات الصقالبة بأوروبا ومع هذا فان ما بذله العثمانيون من الهمة والنشاط وكبح الثورات أدعش الروس

مرض السلطان مراد وخلعه - اعلم أنه لما أجمع القوم على خلع المرحوم السلطان عبد العزيز خان وتولية السلطان مراد وذهب حسين عوفى باشا الى حيث يقيم السلطان مراد واعلامه بذلك واحضاره الى باب السر عسكريه وكان ذلك بعد منتصف الليل اعترى السلطان دهشة وفتح لانه لم يكن يعلم شيئاً من ذلك كما تقدم وقد ازداد معه هذا الامر بما حدث بعدم من الحوادث وظهرت عليه علامات الاضطراب حتى انه لما بلغه خبر قتل حسن الجزكسي للسر عسكري وناظر الخارجية وغيرهما وقت تناوله الطعام ازداد اضطرابا وتغير افتراك الطعام وقام فأغمى عليه وتقبأاً وصار بعد هذا لا يعيز الوزراء من بعضهم ومع ذلك كان الصدر الاعظم رشدي باشا يجتهد في اخفاء هذا الامر عن العموم في أوله واستمر يسير المصالح السياسية والادارية بهمة عظيمة الا أن امتناع السلطان عن حضور الاحتفالات الرسمية ونقله السيف حسب المتبع وعدم مقابله للسفراء لتقديم أوراقهم الرسمية ببقائهم في مراكزهم كالمعتاد ومضى على ذلك أكثر من شهرين أدخل الرب عند الامه وذاع خبر مرض السلطان ولما اشتد الامر به أبلغ ناظر الخارجية جميع السفراء بالحالة وأخبرهم أيضاً بزوم خلع السلطان ثم ان الوزراء استدعوا الدكتور ايدروزف النمساوي رئيس مستشفى ويانه الشهير في الامراض العقلية وطلبوا منه اختبار حالة السلطان وبعد أن لازمه جلة أيام وتأمل في حركته وأحواله واستعلم عن كيفية معيشته في أيامه الماضية كتب تقريراً ذكر فيه أن مرضه هذا كان مقر ونا بالخطر وقد بذل الجهد في معالجته وأوصى باستنشاقه نسيم البحر فصاروا يخرجونه في يخته الخصوص الى البوغاز يومياً الا أن المرض كان يأخذ في الاشتداد حتى ظهرت عليه علامات غريبة توجب الحزن من ذلك انه أراد مرة أن يلقي بنفسه من احدى النوافذ وأخبر انشا و الوزراء ثم عرضوا الامر على أخيه الامير عبد المجيد افندي وأن يستلم مقاليد الدولة فنصحهم بالتأني وعدم التسرع في الامور ولما كان بعض الدول المتحابية يلج باجلاس سلطان جديد ليتيسر للدولة متابعة الاصلاحات تعينت لجنة من الاطباء للنظر في حالة السلطان مراد ولما نظره الاطباء قرروا^(١) باصا بته بداء عضال لا يرجى شفاؤه

ولما كانت مصالح السلطنة تحتاج الى من ينظر في شؤونها اجتمع الوزراء واستقر رأيهم في المجلس المنعقد يوم الاربعاء العاشر من شعبان سنة ١٢٩٣ هـ (٣٠ أغسطس ١٨٧٦ م) على مبايعة أخيه مولانا السلطان الخالي عبد المجيد خان وأرسلوا الى والدته السلطان مراد يبلغوها مع الاسف

(١) اننا نتقدم ونحزم أن مرض السلطان هو داء عضال كما بيناه سابقاً ونضيف الآن على ذلك اننا اذا فرضنا خلافاً للأمول وشئ منه بعدئذ مندبته لا تعود اليه تماماً وان المدركة وعقله كما كان في ٢٠ يوليو سنة ١٨٧٦

الامضات

طبيب سفارة انكتره	طبيب سفارة فرنسا	طبيب سفارة النمسا	طبيب سفارة المانيا
ديكسون	ماروان	سوقو	مولنج
الدكتور	الدكتور	الدكتور	الدكتور
مونجورى	عاكف	فاستورى	

الشديدا ما استقر عليه رأى الوكلاء والوزراء فأرسلت الى الصدر الاعظم رقيا أظهرت فيه قبولها لما
استصوبوه ثم اجتمع الوزراء وتذاكروا في الامر بعد أن استفتوا شيخ الاسلام ودولتو خير الله افندى
فأفتى بالجواز (٢) وعلى ذلك تقرر وجوب مبايعة سيدنا ومولانا السلطان عبد الحميد خان الثاني
أدام الله أيامه

السلطان ابن السلطان السلطان عبد الحميد خان الثاني

ابن السلطان الغازي عبد الحميد خان خليفتنا الحالي

جلس حرسه الله على تخت الخلافة الاسلامية في يوم الخميس ١١ شعبان ١٢٩٣ هـ (٣١
أغسطس سنة ١٨٧٦ م) وحضر لمبايعة الوزراء والاعيان وأرباب المناصب العلمية والعسكرية
والمملكية في سراي طوبوقوم ثم قصد سراي بشكطاش فوفد عليه رؤساء الطوائف المختلفة وهنؤه
بالخلافة وأطلقت المدافع في الاوقات الخمس من سائر المرامي البرية والبحرية بسائر أطراف السلطنة
كأهي العادة وأقيمت الزينات بجميع جهات الاستمانه وغيرها ثلاثة أيام بدياليها وأرسل الصدر
الاعظم التلغرافات فأعلم البلاد الممتازة ثم في يوم الخميس الثامن عشر من شعبان نقلد الخليفة
السيف على الرسوم المعتادة بجامع سيدي أبي أيوب الانصاري قلده ياه نقيب الاشراف بحضور شيخ
الاسلام والوكلاء كالمعتاد ثم عاد في موكب حافل فاخر كما أتى ولما قبض على زمام الاعمال أخذهم تم
في اصلاح الامور مهمة ونشاط وأقر محمد رشدي باشا في الصدارة وكذا باقى الوزراء وأصدر فرمانا بتاريخ
٢١ شعبان ١٢٩٣ هـ أظهر فيه رغبته في السعي في اصلاح أمور الدولة

وقائع الروم ابلى - لا يخفى أنه في مبدا جلوس مولانا السلطان كانت الدولة محفوفة
بالارتباك الشديده والاضطرابات العديدة والثورات الكثيرة المنتشرة بولاياتها بالروم ابلى ولذا
أصدر السلطان الاوامر بسرعة ارسال الجنود الى حدود الصرب والجبل الاسود وبوسنه وهرسك
لاخذ الثورة فاستدعت نظارة الحربية عساكر الرديف من كافة الايلات وبعد أن سلحتهم أرسلت
غالهم الى المواقع العسكرية وشددت الاوامر على قواد الجنود بالمواقع الحربية ببذل المجهود وصرف
الهمة لسرعة اطفاء الثورة فانصرت العساكر العثمانية في غالب الوقائع وشدد السردار عبد الكريم
فادر باشا الحصار على الكسناج حتى انه بعد أيام كسر جموع الصربين وهزم قائدهم الجنرال جرناف
الروسي الذي كان متقلدا اقيادة الصربيين بايعاز من دولته التي كانت تسعى في تهيج الطوائف
المسيحية على الدولة كما هي عادتها وعادة الدول الاوربية الاخرى متى أرادت معاكسة الدولة
وانصرا أيضا أحمد أيوب باشا وسليمان خيرى باشا على جيوش الصرب التي كانت تحت قيادة لاشانين
وفتحت نيشواز ثم رتب السردار عبد الكريم باشا الجنود وتقدم الى بلغراد فانهمزمت باقي جموع

(٢) اذا جن امام المسلمين جنونا مطبقا فقات المقصود من الامامة فهل يصح حل الامامة من عهده ٥١

الجواب يصح واقه أعلم كتبه الفقير حسن خير الله عن

الصربيين وخاف البرنس ميلان أمير الصرب من عاقبة الامر فطلب من قناصل الدول (٢ شعبان ١٢٩٣ هـ) التوسط في الصلح وبناء على ذلك تداخلت الدول الاوروبية التي لما يقنت بعجز الثائرين توسطت في طلب المهادنة ولوالى شهر لوضع شرائط الصلح وأبلغ السير هنري أليوت سفير الانكليزي في الاستانة ذلك الى الدولة وأيد طلبه جميع السفراء الا أن الباب العالي اعترض على محرراتهم الشديدة اللهجة ثم قدموا شرائط المصالحة والتزم الباب العالي بقبول المهادنة في ظرف ٤٨ ساعة وكان الباب العالي يظن أن الدول الاوروبية تعلن أميرى الصرب والجبل الاسود بتوقيف الخصام الأتيم لم يتوقفا الا بعد مخبرات وتداخلت دولة روسيا في الامر بشدة واستمرت المخبرات السياسية بين الدول والباب العالي بواسطة السفراء لا تنقطع وكانت الدول تغل يد الدولة في غالب المخبرات عن التصرف في حقوقها الشرعية وفي تلك الاثناء استعفى محمد رشدي باشا من منصب الصدارة لتقدمه في السن (٤ ذى الحجة ١٢٩٣ هـ) ووجهت الصدارة الى مدحت باشا وتقرر امتداد زمن الهدنة وعينت الصرب من قبلها المسيو قورستيج ومايخ فتق بالامع صفوت باشا ناظر الخارجية وبعد المذاكرة اتفق الطرفان وعادت المناسبات بينهما ببقاء كل شئ على أصله كما كان ولما كانت مسألة الجبل الاسود لم تنته بعد رأت الدولة لزوم تجديد الاعمال الحربية وأصدرت الاوامر الى عموم المراكز العسكرية في حدود الجبل المذكور بأن تكون على قدم الاستعداد حتى اذا انتهت مدة الهدنة وتصدت جنود الجبل لاستعمال السلاح وابلتها العساكر العثمانية بالضرب

القانون الاساسي ومجلس الشورى - لما كان جبل مقاصد مولانا السلطان عبد الحميد خان من يوم جلوسه على تخت الخلافة منح البلاد نظاما دستوريا شوريا مناسبا لمخالفاتها يحفظ لعموم الامة العثمانية حقوقها ويربط جميع الاجناس والملل المتكونة منها الدولة العثمانية ببعضها لمنع الدسائس الموجبة للنزاعات واشترط جميع الرعايا في تحسين شؤون الدولة أصدر فرمانا ببناء على ما قرره الوزراء في ٥ شوال سنة ١٢٩٣ بتنظيم مجلس عمومي يتكون من مجلسين أحدهما ينتخب الالهالي أعضائه ويسمى بمجلس المبعوثان والثاني تعين الدولة أعضائه ويسمى بمجلس الاعيان وبعد أن مضى أربعة أيام على صدارة مدحت باشا أصدر له السلطان فرمانا مرقبا بالقانون الاساسي يشمل على ١١٩ مادة يأمر بان يكون العمل بمقتضاه في جميع الممالك العثمانية وتلى هذا القانون بالاستانة في محفل عام (١٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٣) وأطلقت المدافع من القلاع البرية والبحرية سرورا بذلك ويتضمن هذا القانون الحقوق العمومية لتبعية الدولة العلية وواجبات الوزراء والمأمورين والمجلس العمومي وهيئة مجلس الاعيان وهيئة مجلس المبعوثان والمحاكم والديوان العالي والامور المالية والولايات ومواد شتى أخرى وقد أعلنه الباب العالي لعموم الولايات ثم أخذت الدولة في السير على موجهه والعمل بنصوصه من ذلك التاريخ ولقد كان صدور هذا القانون في الزمن الذي كانت فيه الدولة تمر بتيكة بتداخل روسيا ودول أوروبا في مسائلها الداخلية ثم قويت الدسائس الروسية حتى تمكنت من عزل أحمد مدحت باشا أول الساعين في وضع هذا القانون الشورى ونفى الى خارج الممالك العثمانية (٢١ محرم سنة ١٢٩٤) أي بعد شهرين من صدارته لانهم نسبوا اليه السعي في ارجاع السلطان مراد الى عرش الخلافة وفصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية بمعنى أن السلطان لا يكون خليفة لجميع المسلمين في المعمورة بل يكون سلطانا على الامة العثمانية فقط

تفصيلاً المقاصد بعض الدول الاوروپاوية الساعية في اضعاف الشوكة الاسلامية وتعين بعده للصدارة
أدهم باشا قال بعض الواقفين على السياسة انه لم يكن من الصواب نفي مدحت باشا في الوقت الحرج
المذكور لانه لو بقي في منصبه ربما أمكنه بعد أن رفضت الدولة قرار المؤتمر الذي عقده السفراء في ذلك
الوقت بالاستانة كما سيأتي أن يجادل للشا كل التي حدثت معظمها بسببه ثم اجتمع مجلس المبعوثان
العثماني (٤ ربيع الاول) في سراي بشكطاش وافتتح بحضور جلالة مولانا السلطان وتليت فيه
خطبة عظيمة عن لسانه الملوكي وأخذ بعد ذلك يعقد جلساته ويتذاكر فيما يعرض عليه من المسائل
وقد امتدح سيره كثير من الجرائد الوطنية والاجنبية على اختلاف أنواعها ومشاربها وقالت ان حسن
سيره وانظام جلساته يدل على ترقى الامم العثمانية ولكن من الاسف أن استعمل بعض أعضائه حدة
في أمور لا لزوم للخوض فيها في ذلك الوقت ولما كان بعض دول أوروبا بالانحياز أن ترى اتفاق الامم
العثمانية وأن يكون لها مجالس نيابية شورية أخذت تدس الدسائس من يوم ظهور هذا المجلس الى
عالم الوجود ولما خافت الدولة من ان رواج الدسائس الاجنبية بين بعض الاعضاء يؤدي بلاشك الى
المشاكل والاختلالات التي أرادت الدولة التخلص منها بتشكيل هذا المجلس فتكون جلست على
نفسها الضرر من حيث أرادت المنفعة صدر أمر سلطاني بعد اتفاق وزراء الدولة وأعيانها بارجاء
اجتماعه الى أجل غير محدود (١٠ صفر سنة ١٢٩٥) وقد قال كثير من عقلاء الامم الذين خبروا وأحوال
الدولة العثمانية وأحوال شعوبها وواقفهم على قولهم هذا من تنزهوا عن الاغراض من رجال سياسة
الدول الاجنبية بعدم امكان تأليف مجلس كهذا للامم العثمانية في ذلك الوقت لاسباب عديدة أهمها
عدم تجانس الامم العثمانية وميل جميع الطوائف الغير المسلمة بها الى ترويج مصلحة الدولة الاوروپاوية
التي تستند عليها تلك الطائفة لانه من المصائب التي ابتليت بها هذه الدولة أن مالت كل طائفة غير
مسلمة بها الى دولة أوروپاوية ومنها عدم بلوغ الامم العثمانية درجة التعليم التي تؤهلها الى تفضيل
مصلحة الوطن عن غيرها ومنها سعي كثير من دول أوروبا في تقرير بقا الجماعة العثمانية لئلا يوايد ذلك
ما ربههم الخصوصية وأشد هذه الدول ممانعة لذلك دولة روسيا جارة الدولة العثمانية القوية البطش
المعادية لهم من قديم الزمان ذات الحكومة المطلقة والسلطة الاستبدادية وهي اسباب جديرة بالاعتبار
يوافق على صوابتها كل من عرف حال الحكومة والامم العثمانية وتنزه عن الاغراض والغايات والله
ولي التوفيق وبعد أن قبضت الحكومة على من استعملوا الشدة في التعبير من أعضاء المجلس كما قلناه
أثناء المذاكرات غير ناظرين الى الارتباك التي أحاطت بالدولة اذ ذلك خصوصاً وان الحرب الروسية
كانت على الابواب ففتحهم الى البلاد الخارجية

رفض قرار المؤتمر والبروتوكول وحرب روسيا - قلنا فيما تقدم ان الدول اتفقت على التضييق
على الدولة العثمانية واجبارها سياسياً على قبول مهادنة الصرب والجبل الاسود وكان ذلك تارة بالنصائح
المؤلمة وتارة بالتمديد ولما قبلت الدولة ذلك أرسلت تلغرافين لاميرى الصرب والجبل الاسود تدعوهما
الى عمل طريقة لتسوية الخلاف فأجاب البرنس ميلان أمير الصرب تلغرافياً بقبوله المصالحة على طريقة
(الاستاتيكو) أي بقاء حالة امتيازاته كما كانت عليه أولاً وعين من قبله المندوبين السابق ذكرهما
أما جواب البرنس فيقول أمير الجبل الاسود فتأخر خمسة أيام وكان بلاشك يستشير بعض دول أوروبا
التي تستند عليها ثم طلب تقرير قاعدة لذلك بعرفة مندوبى الدول الذين تداولوا في أمر المهادنة الاولى

غير أنه لم ترض الامدة قليلة حتى قامت الروسية في ميدان المعارضة تطلب عقد مؤتمر للنظر في مسئلتى
 البلغار وبوسنه فزادت الحالة ارتباكا وبعد أن أظهرت الدولة جنوحها الى السلم قامت الدول
 الاوروپاوية بتساعد دولة الروسية في طلبها وعقد مؤتمر بالاستانة من سفراء الدول وعينت الدولة
 صفوت باشا ناطرا الخارجية وأدهم باشا سفيرها بباريس مندوبين من طرفها وبعد عقد جلساته
 أخيرا في نظارة البحرية تحت رئاسة صفوت باشا قرر طريفة الاصلاحات اللازمة ادخالها في ولايات
 بوسنه وهرسك والبلغار تحت مراقبة الدول ثم قدموا ذلك القرار الى الدولة وكانوا قبل ذلك اجتمعوا
 بسفارة الروسية وقرروا المواد الاساسية لهذا المؤتمر ولم يسمحوا للمندوبين الدولة بالحضور وهذا مما
 دل على تحيزهم للروسية وبالهم على معاكسة الدولة العثمانية وفي خلال ذلك ساقطت الرؤسايام اثنين
 وخسين ألف عسكري الى حدود المملكتين و ١٥٠,٠٠٠ الى حدود الاناضول وهاجت الافكار
 في بلاد الروسية وفي كثير من عواصم أوروبا وباقالت النمسا اذا تجوزت الروسية انظر الطونة أرسل
 عسكري للمحافظة على بوسنه وقال اليونان اذا تقدمت الروسية للعرب مع الدولة لزمنا ان نظهر التشيع
 للاروام الموجودين في أراضيها ولهذا كانت الدولة العثمانية في مركز بحيث لو أقدمت على
 الحرب لاضطرت لمقاومة هذه الامم بفردها ولهذا أصدر السلطان الاوامر الى نظارة الحربية بحشد
 الجيوش في حدود الدولة من جهتي الروم ابلي والاناضول وعين المشير أحمد مختار باشا قائدا عاما على
 جيوش الاناضول والمشير عبد الكريم نادر باشا قائدا عاما على جيوش الروم ابلي وعين المشير درويش
 باشا قائدا للباطوم وكان عثمان باشا وقتئذ قائدا على فرقة ودين ورأى جلالة السلطان أن يشركه
 الامة معه للنظر في هذه الحالة كما هو القانون الاساسي فجمع مجلسا عاما مؤلفا من كافة الوزراء
 الموظفين والمعزولين والعلماء والاعيان والتجار والرؤساء الروحانيين وبعض كبار المأمورين بحيث بلغ
 عددهم مائتي نفس وعرض عليهم قرار المؤتمر فاجعوا على رفضه لان الاصلاحات المطلوبة فيه للولايات
 موجودة في القانون الاساسي الذي منحه الخضر السلطانية لجميع الشعوب العثمانية بلا استثناء
 ولان قبوله موجب لتداخل الاجانب في أمور الدولة الداخلية أما قرار المؤتمر المذكور فكان يشمل على
 المواد الآتية وهي أولا اضافة جهة مالي روزنيك الى بلاد الصرب ورتد حدودها القديمة اليها ثانيا
 أن يضاف الى الجبل الاسود جهات اسبيذا و ١٢ مقاطعة من البانيا وهرسك ثالثا منح بلاد بوسنه
 وهرسك استة لادارايا وأن يعين الباب العالي له ما حاكم مسيحي المدة خمس سنوات رابعا منح
 الاستقلال الداخلي لبلاد البلغار أيضا خامسا تشكيل بوليس وطني للاقالم المذكورة واعتبار اللغة
 السلافية لغة رسمية لانها اللغة الأكثرين وتخصيص نصف ايرادات البلاد المذكورة لثانها فعها الداخلية
 سادسا حرية انتخاب مشايخ القسري والقضاة والبوليس وغير ذلك في اقاليم قلبه ومقدونيا العليا
 الجاورة للبلاد المذكورة سابعاً أن يحتل هذه الاقاليم مدة زمن قوة عسكرية بلجيكية تكون مصاريفها
 من طرف الدولة

وقد نارت هذه الطلبات الغربية الاحساس الوطني لدى العثمانيين وتهموا جميعا بالرفض لان أوروبا
 لا تحرمهم بذلك من ثمرات انتصاراتهم وفتوحاتهم فقط بل تاملهم أيضا كغلوبين والامر بخلاف
 ذلك كما علمت ولما رأت حكومة اليونان أن العنصر السلافي سيقوى بهذه الاقتراحات انضمت في
 الرأي الى الدولة العثمانية ومع أنه صار تعديل هذه الاقتراحات فيما بعد الآن الدولة رفضتها رفضا باتا

ولما رفضت الامة والدولة قرار المؤتمر كاذ كرسافر مندوبو الدول وقناصلها من الاستانة كاتمهم بذلك قطعوا معها الصلات الودية وبعد ذلك كتب البرنس غورچةوف نشرة الى سفراء روسيا الى دول أوروبا (٣١ يناير سنة ١٨٧٧) قال فيها برفض الدولة العثمانية لقرار المؤتمر ويطلب منهم أن يعلموه بأراء الدول التي يتوبون لديها ليتفق الكل في العمل ازاء الدولة العثمانية وكتب أيضا صفوت باشا ناظر خارجية الدولة الى سفرائها يعترض على عقد المؤتمر عدة جلسات بالاستانة لم يحضرها مندوبو الدولة لتقرر بما يتفق على تقريره حتى كان المؤتمر لم يعقد فيما بعد بطر بقة رسمية الا تعرض أمور انفتحت الدول عليها من قبل التصديق عليها فقط وقال ان الدولة لا يمكنها أن تقبل هذه الاقتراحات أصلا لانها تحط بقدرها أما الدول فلم ترسل جوابا عن ذلك لروسيا ولالدولة وفي تلك الاثناء تم الصلح بين الدولة والصرب بشرط أهمها خروج العساكر العثمانية من الصرب وان لا تشيد الصرب فيما بعد قلاع جديدة وأن يرفع العلم العثماني بجانب العلم الصربي ولم تعقد المصالحة مع الجبل الاسود لطلبه تنازل الدولة له عن قطعة من أراضيها ولمارات روسيا أن مساعيا التي اجتمعت في الحصول عليها بما ضاعت بالصلح بين العثمانيين والبلاد التي أنارتها عليهم ومال سكانها من التصاري الى السكنية بعد ان أصابهم من الخسائر الجمة وهزيمة جنودهم ما أصابهم ولا يعود لها فيما بعد حق بالمداخلة في أمورهم لتحسين حالتهم كما هو ثابت بذلك لدى دول أوروبا واسميا وان الممالك العثمانية أصبحت لها قانون أساسي يمنح المساواة للجميع الرعايا بالتمييز وهو الامر الذي لم تحصل عليه الا آن حرر البرنس غورچةوف بروتوكول أي بلاغاتهما أيما وعرضه على الدول الاوروباوية التي اشتركت في مؤتمر الاستانة وهو يتضمن ارجاع الدولة لجنودها وترك السلاح وتحسين أحوال الولايات المذكورة تحت مراقبة السفراء لتأمين تغيير التصاري وبعد أن صدقت عليه نواب انكلترة وأستوريا وفرنسا والمانيا وإيطاليا (٣١ مارس سنة ١٨٧٧) أرسلوه الى الدولة وأوعزت انكلترة سرا الى سفريها بالاستانة بأن يخبر الباب العالي بان تصديقها على هذا البروتوكول هو للحفاظ على السلم في أوروبا فقط أي انها لا تصادق عليه في المعنى وهو تشجيع للدولة في أن تستمر على رفض القرار المذكور ولما وصل هذا البلاغ الى الدولة العلية طلبت أن يكون ترك السلاح منها ومن روسيا معا في آن واحد كما تقتضيه العدالة ولما لم تقبل روسيا ذلك التزمت الدولة برفض البروتوكول وكتب ناظر الخارجية لسفراء الدولة بأوروبا بنشرة قوية الخجة جدا تبرأ فيها من عدم ميل الدولة للسلام مظهرا تحامل أوروبا عليها بأقوال جديدة بالمطالبة ولكن ما فائدة الحق اذا كان صاحبه ضعيفا وعليه انقطعت العلاقات السياسية بين الدولتين وأعلنت روسيا الحرب على الدولة بكتوب أرسلته الى نائب سفيرها في بترسبورغ (١١ ربيع الآخر سنة ١٢٩٤ - ٢٥ ابريل سنة ١٨٧٧) ثم تقدمت الجيوش الروسية وتجاوزت الحدود العثمانية بعد ان تعاهدت مع رومانيا سرا على أن تجعل رومانيا جميع مخازنها ومؤنها وذخايرها الخربية وجيشها تحت تصرف روسيا وأصدرت أيضا الدولة الاوامر الى جميع قوادجيشها بمقابلته العدة وبعاء هدم فيهم من البالة والاقتدام وكتبت الى دول أوروبا نشرة تعترض فيها على ما فعلته رومانيا من الفعل المخالف للقانون لانها لا تزال بلادا خاضعة للسيادة العثمانية كما قررته الدول ولاحق لها في عقد معاهدة مع دولة معادية لها ومع ذلك فان الدول لم تلتفت الى هذا الاحتجاج الشرعي فتأملوا يادوى الابواب ولما لامت الدولة رومانيا على فعلها هذا وأرسلت

بعض مدرعاتها فاطلقوا النيران على سواحلها بنهر الطونة أظهرت العداوة وأرسلت جيشها وعدده ٦٠ ألف مقاتل فانضم الى الجيوش الروسية وأعلنت استقلالها (١٤ مايو سنة ١٨٧٧)

حركة الاساطيل العثمانية مدة الحرب - اعلم انهما تغيرت صدارة مدحت باشا خلف
 أحد باشا القيصريه الى المشير رؤف باشا على نظارة البحرية (١٢٩٤ هـ) ثم عين الفريق محمد عارف
 باشا الاقصري الى قومندان على أسطول نهر الطونة بدلا من حسين باشا الكريدي الذي عين أميرالا
 لاسطول البحر الابيض وكانت أساطيل الطونة وقتئذ من خمسة مدركات تعرف بالدوبات
 ومن أربع وواحدة من نوع الاسفوننة ومن أربع طرادات وكان بالنهر المذ كورغائية وابورات للادارة
 النهرية وكانت الدولة ساقطت الى البحر الاسود أسطولين الاول أقلع يوم ٧ ربيع الثاني وكان من كبا
 من عشر وواحدة بحرية تحت قيادة مصطفي باشا الى باطوم وأقلع الثاني في اليوم الثاني وكان يتركب من
 أربع قراويت ومدرتين تحت قيادة علي بك اللاتحاق بأساطيل الطونة التي يقودها محمد عارف باشا
 وفي يوم اعلان الحرب استعرض رؤف باشا ناظر البحرية الاسطول المدرع الذي كان تحت قيادة
 الفريق البوزججه اطه الى حسن باشا في آينه في قواق وألقي على ضباطه وعساكره خطابا مشجعا مثيرا
 لحياتهم وأجابه الفريق المذكور بما يناسب المقام ذكره ثم أصدر مولانا السلطان فرمانا للعموم
 قومندان الاساطيل السلطانية تلغرافيا يحثهم على الاهتمام وبذل غاية الجهد وفي يوم السبت
 ١٤ ربيع الثاني من السنة المذ كورة تقدم الاميرال حسن باشا واستولى على قلعة شوكلد احدى
 القلاع الروسية الموجودة بسواحل القوقاز شمال باطوم ولم ينزل بها قوة عسكرية مخافة من تفريق
 قوته وتقدم الى الشمال وقبض على سفينة روسية كانت تحمل لمخالف الجيش الروسى الذى يجهة قلعة
 پوتى وأرسلها الى باطوم ثم تقدمت الدونما المذ كورة وبعدها انطلقت النيران على قلعة پوتى
 استولت عليها وأنزلت بها حامية ورفعت فوقها العلم العثمانى وكان كثير من سفن الدولة مشتغلا
 بنقل الجنود والذخائر الى جهات بلاد الاناضول

وفي تلك الاثناء قررت نظارة البحرية وضع البحر الاسود تحت الحصار البحرى (ابلوقه) وأن السفن
 التجارية الاجنبية الموجودة اذالك بجميع مين روسيا بالبحر الاسود يمكنها أن تبارح المين المذ كورة
 في مدة ثمانية أيام وبعدها ذلك لا يكون لمدح حق فيما يدعيه اذا صادرت السفن الحربية العثمانية
 تلك السفن وأبلغت النظارة المشار اليها هذا القرار الى عموم الدول ووكلاء القومبانيات فى الاستانة
 كاهى الاصول البحرية بين الدول وفي يوم ٢٧ ربيع آخر توجهت الدونما المدرعة التى تحت قيادة
 بوزججه اطه الى حسن باشا الى جهة نخوم بسواحل القوقاز شمال قلعة پوتى وأخرجت بعضا من
 عساكرها فانفقوا مع بعض أهالى السواحل المذ كورة على الهجوم على القلعة وعليه اجتمع منهم
 نحو ثلاثة آلاف رجل من قبيلة ابازة واستعدوا للهجوم واقرب الاميرال بسفنه من القلعة وصفها
 تصفيقا حريا وعند الفجر ابتدأت السفن المذ كورة فى اطلاق المدافع على القلعة وهاجمتها القوة
 التى تجمعت برا وكانت قد زادت فى اليوم الثاني حتى زاد عددها عن عشرة آلاف رجل واستمر الضرب
 والهجوم من البحر والبر حتى لم تمض الساعة الخامسة من ذلك اليوم الا والقلعة فى قبضة العثمانيين
 والعلم العثمانى يخفق فوقها

ولما كانت أسلحة الاهالى الذين ساعدوا السفن العثمانية من الطرز القديم وبعضهم مسلح
بالسيوف والخنجر فقط وزرع عليهم حسن باشا قومندان الاسطول نحو من ألفى بندقية من الطرز
الجديد مع ما تحتاجه من الذخيرة وبذلك انتصر واعلى القوة الروسية التي كانت حول سخوم وقتل في
هذه الواقعة كثير من عساكر القوزاق الروسين ولما رأى حسن باشا كثرة المتطوعين الذين قاموا
لمساعدة الدولة من الجرا كسة استحضر من باطوم خمسة آلاف بندقية أخرى ووزعها عليهم وفي
هذه المدة استعملت روسيا التور بيدو في نهر الطونة لمنع سير المدرعات والسفن الحربية العثمانية لكن
لما كانت السفن العثمانية في غاية التيقظ وقد ثبتت الخفرة في نقط سواحل النهر لم تتمكن الروسيان
هذا القصد سيما وان تيار النهر لسرعته كان يمتد التور بيدو ولما استولى العثمانيون على سخوم من
الروس أمثال روس جهة زيل من أعمال القوقاز بقوة عسكرية خوفان وقوعها في يد العثمانيين
وعند ذلك اتفق قومندان باطوم مع الاميرال حسن باشا الذي تقدم بالدوننا واستولى على جهة
زيل المذكورة وغنم منها تسعة عشر مدفعا على أربعة عشر منها الطغراء الشاهانية العثمانية باسم
السلطان عبد المجيد خان ويظهر أن الروسيين كانوا نقولها من جهة قارص في حرب القريم فأرسلت
جميعها للاستانة وفي آخر هذا الشهر أتى بابور روسي تور بيدو وأراد اقاء التور بيدو على بعض
السفن العثمانية الراسية بينا باطوم الآن تيقظ العثمانيين ردها ثانيا بعد أن أصيب بتلف وبعده أيام
وصل الى سخوم عشرة طوابير من الجنود لحمايتها وكانت تحت تصرف قائد يدعى فضل باشا ولما رأت
الدولة سرعة تقدم الروس نحو الاستانة أرسلت في ١١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٤ كثيرا من
مدافع كروبو فوضعت بقلاع الدردنيل ولما بلغ حسن باشا تجمع الروس بمجهة اردنيل القريبة من
سخوم أرسل عليهم قوة بحرية وبعض الجنود المتطوعة تحت رياسة أحد أمراء الابازة فقهرهم
وأخرجهم من القلعة ولم يفلتوا من أيديهم الا بالتجاهم الى غابات هناك

أما جهة الطونة فان الاساطيل العثمانية أطلقت النيران على بعض بلادها وردت هجمات
بعض السفن الروسية أولا الا أن الروس تمكنوا بعد من اقاء التور بيدو على مدرعة عثمانية تدعى
سيفي فيكسروها وبعده أيام خرج الفريق هو بارت باشا الانكليزي أحد قواد العمارة العثمانية يقود
بعض السفن الحربية ورجال في جهات نهر الطونة واوديسا والقريم متفقا متجسسا الا أنه مع ذلك لم
يأت أمر ايدون مع مهارته في الاعمال البحرية الحربية كما يقال والحاصل أن العثمانيين اكتسبوا
بعض وقائع صغيرة بنهر الطونة لا يصح في الحقيقة ان تسمى انتصارات لما كان لهم من الاساطيل
العديدة والسفن الحربية المدرعة المختلفة التي جعلتهم اذ ذلك يعدون ضمن الدول البحرية الاولى سيما
وأنه لم يكن للروسيا وقتئذ قوة بحرية بحرية بالبحر الاسود خلاف بعض واطر تجارية وأخرى حربية
صغيرة هذا أما اسطول البحر الابيض المتوسط فذهب الى الاسكندرية لمرافقة السفن المصرية المعتدة
لنقل الجيش المصري الذي أرسله المرحوم الخديو اسمعيل باشا لمساعدة الدولة وكان تحت قيادة ولده
المرحوم الامير حسن باشا

وفي خلال ذلك أراد الروس احراق الاساطيل العثمانية الراسية جهة سوسة قريبا من مصب نهر
الطونة وكانت تحت قيادة اللواء مصطفى باشا فوجهوا عليها خمس صنادل تور بيدو الا أن السفن

العثمانية عكنت من اغراق ثلاثة منها وقر الاثنان وفي اثناء فرارهما اتقيا تور يبدو على بعض السفن العثمانية الا انها لم تصب بضرر وعند الفجر وجد العثمانيون ستة انفار سابحين على الفلين من الزوارق التي غرقت وكان أحدهم انكليزيا وعلم من أقوالهم أن بعض هذه الزوارق آت من سيواستوبول وبعضها من اوديسا حضرت للايقاع بالسفن العثمانية وقالوا أيضا ان الروسية شارطت مع الملاحين الذين يقبلون الدخول في زوارق التور يبدو أن يبذلوا مجهودهم في الايقاع بالمدركات العثمانية واذا مات أحدهم أثناء تأدية ما موربته تدفع الحكومة الروسية لعائلته عشرين ألف فرنك وان عاد واسالمين وأعوأ أعمالهم حسب الشروط دفعت لهم أيضا هذا المبلغ وفي أواخر هذا الشهر خرج مدرع عثماني وأغرق سفينتين روسيتين جهة فلانمده وأطلق النيران على بعض البلدان ولما رأى كثرة سفن الروس التزم بالعودة الى نيكبولى ليكون فيها مدافعا ولما كانت الاساطيل العثمانية سيبت للروسين خسائر في نهر الطونة اجتهدت في وضع اللغام في كثير من جهاته حتى تعطل سير الاسطول العثماني فيه خصوصا بعد عبورهم النهر ومحاصرتهم لبلدة بلونه

وبعد أن رافق اسطول البحر الابيض المتوسط السفن المصرية الحاملة للجيش كما سبق ذهب للتجول في جزائر الارخبيل لانه كان أشيع أن الروسية تقصد ارسال أسطول اليها من بحر بالطق لا تارة سكان تلك الاطراف كعادتها (٢٨ جادى الاولى ١٢٩٤ هـ - ٢١ يونيو ١٨٧٧ م) ولما وصل الامير حسن باشا الى الاستانة قصد هو وجيشه مدينة وارنه لينضم الى القوة المصرية التي نقلت اليها من سلانيك وكانت تساعد الجيش العثماني بالصرب والجبل الاسود تحت قيادة الفريق المصرى راشد حسنى باشا وأرسل الخديو المشار اليه أيضا بعض السفن المصرية لمساعدة سفن الدولة في نقل الجيوش تحت امره قاسم باشا وكيل البحرية المصرية وكان قبل ذلك يقود عدة سفن مصرية أرسلت لمساعدة الدولة في ابتداء محاربة الصرب والجبل الاسود وكان المؤلف صحبة هذا القائد كياور له طول زمن الحروب المذكورة وأرسل أيضا باخرتين مشحونتين بالاسلحة والذخائر الحربية مساعدة للجيوش العثمانية وأرسل بعض اطباء وأدوات المستشفيات النقالة لمساعدة الجمعية العثمانية الخيرية التي تشكلت اذئذ للمواساة جرحى الحرب وتسمى بجمعية الهلال الاحمر ثم في ٢٥ جادى الآخرة من السنة المذكورة سافت الدولة أسطولا آخر من كياور من اربع مدرعات الى سواحل سيواستوبول فهدم قلاع كوزلوه وعاد الى سنة ولمالم يكن لدولة روسيا في الوقت المذكور قوة بحرية بالبحر الاسود كما تقدم سلحت بعض بواخرها التجارية وجعلتها كطرادات لمطاردة السفن التجارية العثمانية في البحر المذكور وتمكن بعضهم من القبض على باخرة عثمانية من بواخر شركة الادارة المخصوصة كانت تحمل كتب البريد الى طرابزون واجتهدت روسيا أيضا حتى أدخلت ٢٥ سفينة مختلفة الى نهر الطونة (١٠ رجب سنة ١٢٩٤) ولما علم قائد الاساطيل العثمانية بنهر الطونة تلاقى مع هذه السفن وتمكن من طردها بعد أن جالها خسائر عظيمة ولما تقدمت الروس نحو الاستانة عينت الدولة المشير الحاج وسيم باشا قومنداناعاما للمحافظة على بوزغاز البحر الاسود فرسى باسطوله في فرضة بيولدره

اجيوش العثمانية بالروم الى - سبق ذكر اغارة الجنود الروسية على حدود الدولة ودخولها

ولايق افلاق وبغدان ثم تقدمت الجيوش الروسية والرومانية تحت قيادة الغراندوق نيقولا (٢٧) يونيو سنة ١٨٧٧ م) وتمكنت من عبور نهر الطونة على صنادل من جهة سمبنتزه (Simnitsa) ومدت بعد ذلك جسرا فوق الصنادل عبرت عليه أكثر جيوشها سرا بما ثم تقدمت تقصد مدينة طرفوه وبينما كانت الجيوش الروسية تعبر نهر الطونة وتنتشر طولاً وعرضاً بالأراضي العثمانية كان السردار عبد الكريم نادر باشا بعسكره في شمله لا يمدى حراكاً ولا يخرج من خيمته الا في النادر غير مهمتهم بامر القتال كما يجب ويصرف أوقانه في أمور لا فائدة منها تقريباً وكان أحمد أيوب باشا معسكره بفرقتيه بجوار قرية تدعى ترانسك من أرض البلغار فأرسل الطلائع للناوشات ولما انتشر خبر دخول جيش الروسيما ولاية الطونة وقع اضطراب جسم وقلق شديد بالاستانة فأرسلت الدولة السراييف باشا ومعه ناصق باشا بجرا الى وارنة ومنها الى روجق لتحقيق كيفية عبور الجيوش الروسية نهر الطونة بدون مقاومة والنظر في الاهدال الذي حصل من الحاميات العثمانية الموجودة هناك لانه لم يسبق للروس قبل ذلك عبور هذا النهر بدون أن يتكبدوا خسائر جسيمة لانه من الموانع الطبيعية أمام الجيوش وقد ظهر من التحقيق أن عبد الكريم نادر باشا القائد العام كان ينوي متانته الروس في بلاد البلغار لعدم امكان عبور الجيوش العثمانية الى أراضي الافلاق والبغدان لقلعة الاستعدادات من جهة وتشتت جيوش الدولة في حدود الصرب والجبل الأسود واليونان وغيرهما من جهة أخرى ولعصيان أهالي المملكتين وغير ذلك وقال ان الدولة غيرت قومندان سفن الطونة الموجود بهذه الوظيفة منذ عشرين سنة وله المام تام بتلك الجهات ومعرفة المواقع التي يمكن للعدو العبور منها مما يمكن لقائد الجيوش أن يستشير في هذه الاحوال وعينت مكانه قائد الميسوق له سفر في نهر الطونة قط ولما نظروا ان الحرب في التقصير الذي رفعه اليه السراييف باشا ورأى أن عبور الروس هو من اهدال السردار العام فصله عن وظيفته وعين مكانه محمد علي باشا وشكلت الدولة مجلساً حراً لخاصة عبد الكريم نادر باشا ووصلت المسؤولية أيضاً الى السراييف باشا فحكم عليهم بالانقي الى بعض جزائر البحر الابيض المتوسط ووجهت السراييف باشا الى محمود باشا الامام

ثم تقدمت جيوش الروسيات نحو البلقان واستولى الجنرال غوركوف على مضائق البلقان ومواقع شبيقة واحتل البارون كروندز (Krudner) مدينة نيكبولي عنوة وأسر بها سبعة آلاف جندي واستولى على ١١٣ مدفعا وعشرة آلاف بندقية (١٥ يولييه سنة ١٨٧٧ م) فسار الغازي عثمان باشا بفرقة من ودين وكانت مر كبة من أربعين أروطة مسرعا لمساعدة نيكبولي ولما قرب منها وبلغه سقوطها فاصدموقع بلونه لمنانته ولاكونه ملتقى الطرق العسكرية الموصلة بين سواحل الطونة وغيرها من البلاد الى مضائق جبال البلقان وعسكر فيه واهتم في تشييد الاستحكامات لصد هجمات الروس الذين هاجموا فيها دفعتين الاولى في ٢٠ يولييه تحت قيادة الجنرال شيلدر (Schilder) والثانية في ٣٠ منه تحت قيادة الجنرال كروندز فارتدوا خائبين وكانت قوتهم في الهجوم الثاني تزيد عن ثلاثين أروطة بقيادة وقد رها من السوارى ومدافع الطونجية تزيد عن مائتي مدفع وبعد رجوع الروس من أمام بلونه متهورين وصلت الامدادات الى العثمانيين فتمكنوا بها من الاستعداد للحركة التعرض والهجوم وانقسم الجيش الى ثلاثة أقسام الاول انضم الى فرقة الغازي عثمان باشا وبقي في

مواقع بلونه للدفاع عنها وتقدم بالثاني السردار محمد علي باشا الخمارية الجيش الروسي الذي تحت قيادة
البرنس الكسندر ولي عهد القيصر والثالث انضم الى جيش سليمان باشا الذي دعي من حدود الجبل
الاسود بجيشه لاستخلاص مواقع شبقه من يد الروسيين فتقابل مع الجنرال غوركوف واتصر عليه
انتصارا عظيما باسكي زغرة ولما نهزم غوركوف الى البلقان تعقبه سليمان باشا وسعى في الاستيلاء على
مضيق شبقه وبينما كان جيش محمد علي باشا منصورا في واقعة صاري نصور حار التي اشترك فيها الجيش
المصري تحت قيادة الامير حسن باشا قسم الغراندوق نيقولاقواه الى فرقين وجه احدهما لمقابلة
جيش محمد علي باشا وجعل الاخرى مدد له عند اللزوم او الى ردة عثمان باشا الذي كان يهددنا لخطوط
الروسية وبالانتصارات التي حازها محمد علي باشا وسليمان باشا وعثمان باشا وقرب اجتماعهم معا
للاطاحة بأجنحة بعض الفرق الروسية أصبح شأن الجيش الروسي حرجا للغاية وعند ذلك تقدم
امير رومانيا بجيشه البالغ عدده مائة ألف مقاتل لمساعدة الروسية واجتاز به نهر الطونة وصادف
حضور قيصر الروس بنفسه لميدان القتال لتشجيع جيشه مع بعض الامدادات فتقوت الروس بذلك
واتصروا في بعض المواقع على الجيوش العثمانية وكان الجنرال زمرمان ع. ب. يفرقتسه نهر الطونة
من حوالى ايساخني ودخل اراضى دوبرويجه وقصد بازار جق حيث القوة المصرية وبعد عدة وقائع
تفقهق راشد حسني باشا ومات في تلك الواقعة الواهز كريا باشا المصري وعادت الجيوش الى وارتها اتباعا
للاوامر التي اصدرها الامير حسن باشا بعد عودته بالجيش المصري من واقعة صاري نصور حار التي
انتصر فيها محمد علي باشا على جيش الروس كما سبق

ثم اقتدت الروس بنصائح المارشال مولتك الالماني حيث قال ان حصار القلاع القوية أفضل من
الهجوم عليها لان الحصار سهل الاستيلاء والانتصار سيما وان أركان حرب الجيش الالماني هم الذين
رسموا معظم خطوط السير للجيش الروسي وشجعوه على مقاتلة العثمانيين وهم الذين نصحوه على عبور
نهر الطونة بكل ما يمكن من السرعة وغير ذلك من المساعدات الاديبة التي قامت بها المانيا للروس. يا
في هذه الحرب فحسموا على محاصرة بلونه من كل جانب واناظروا امر هذه الحركة بالجنرال طوبلبن
(Totleben) فرتب حوالها العدد الكافي من الجيوش وشيد ثلاثة خطوط من الاستحكامات كل
خط بعد الآخر لتمكين الحصار ولما تم هذا العمل (٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧٧ م) صار وصول المدد الى
عثمان باشا من رابع المستحيلات ولبث مدافعاه من كركزه حتى نفذ كل ما اذخره من الاقوات
وعند ذلك عزم على الخروج بجيشه وخرق صفوف الاعداء فان فازوا كان ذلك غاية المراد وان ماتوا
ماتوا مدافعين عن شرف الدولة شهداء مؤدبين للواجب عليهم كما نقرضه الواجبات نحو الدولة والدين
ثم استعدت الجنود (٥ الحجة سنة ١٢٩٤ هـ - ١٠ ديسمبر سنة ١٨٧٧ م) وأخلت المواقع
العسكرية وخر جواهره وواحدة مستمتين واستمر وافي سيرهم بقصدون الاستحكامات التي اقامها
الروس ولا يزالون بالقدرة والتمساقطة عليهم وكانوا قبل خروجهم بأربعة ايام لا يتناولون من الغذاء
غير القليل من الدقيق الذي بقي في بعض المخازن ومع ذلك فانهم اقتحموا الخط الاول والثاني وكادوا
يستولون على الخط الثالث لولا ان أصيب قائدهم البطل الشهير الغازي عثمان باشا برصاصة في
نخذه ولما سقط هذا الشجاع على الارض ظنت عساكره انه استشهد واستولى الرعب والفشل عليهم
وأراد بعضهم الرجوع الى المدينة التي كان احتلها الروس بعد خروجهم منها ولما رأوا أنفسهم بين

نارين رأى قوادهم أن الصواب التسليم فرفعوا علامته وتوقف الروس عن اطلاق النيران ثم ذهب اللواء توفيق باشا رئيس أركان حرب الجيش العثماني وهو الذي بهارته شيد القلاع والحصون حول بلونه وطلب مقابلة القائد الروسي العام وهو الجنرال جانتسكي ثم ذهب الجنرال استروكوف مع توفيق باشا وقابل عثمان باشا في المكان الذي وضعه فيه بعد جرحه وطلب الجنرال من عثمان باشا أن يأمر أولاجنوده بالبقاء السلاح ثم تكون المكاملة فيما بعد لان ذلك الجنرال لم يكن لديه تعليمات من القائد العام الروسي وهو الغران دوق نيقولا أخى القيصر ولما قبل عثمان باشا طلب الجنرال المذكور عاد وأخبر جانتسكي بما تم فأتى بنفسه الى مقر عثمان باشا وبعد أن حياه وهنأه على أعماله الحربية التي تشهد له وبلونه بالسالة وعلق المترلة طلب منه فأصدر أوامره الى الجيش العثماني بالبقاء السلاح وبعد هاسلم سيفه ثم أركبوه في عربة وذهبوا به الى بلونه وفي أثناء مسيره قابله الغران دوق نيقولا ومعه أميررومانيا وسلم عليه باحترام وفي اليوم التالي صبا حاذب عثمان باشا مع طبيبه الخاص الى حيث ينزل القيصر ولما دخل عليه قام له اجلالا وبش في وجهه وأظهر إعجاب به من مداقته عن بلاده واقدمه ورد اليه سيفه وأمره بأن يحمله علامة الاحترام والتجلة ثم أرسلوه الى مدينة كركوف يقيم بها الى انتهاء الحرب

ولقد كانت الجيوش التي مع عثمان باشا الغازى في بلونه لا تزيد عن ٥٠,٠٠٠ معهم ٧٧ مدفعا أما الجيش الروسي المحاصر فكان يزيد عن ١٥٠,٠٠٠ معه ٦٠٠ مدفع ومن ذلك يظهر الفرق بين شجاعة المتحاربين ومما يؤثر عن الجنود العثمانية أنهم لم يسلموا إلا علامهم قط بل انهم قبل خروجهم للمرة الاخيرة دفنوا بعضا في صناديق من الحديد تحت الارض وأحرقوا الباقي يوم التسليم وكانت الدولة لما رأت تفاقم الخطوب وازدياد الشرور وانارة الروس الطوائف المسيحية القاطنة بولاياتها وخصوصا المسقط مدينة بلونه أرادت طلب الصلح من الروسي الا أن السير لا يارد (Layard) سفيرا نكلتريه بالاستانة وعدها بتدخل الدولة الانكليزية لتدخل عسكرها لولا هذه المواعيد العرقية لكانت الدولة فازت بمصالحة أخف ضررا من التي حصلت فيها بعد كما استراه

الاعمال الحربية بالاناضول والهدنة ومعاهدة سان ستيفانوس - هذا ملخص الحركات الحربية التي تمت بأوروبا قبل أن يجتاز الروس البلقان أما في أسيا فكان النصر في أول الامر حليف العثمانيين وكان الجنرال ميكوف ذهب يقصد مدينة قارص وأخذ الجنرال درهو جاسوف (Der Hongassof) يهدد مدينة بايزيدوسا رغيرهما من قواد الروس للاستيلاء على أردهان وباطوم ثم تمكن الجنرال ميكوف من الاستيلاء على مدينة أردهان عنوة (١٧ مايو سنة ١٨٧٧ م) وحاصر قارص وأخذ يهدد ارضروم وبعد أن استولى الجنرال هو جاسوف على مدينة بايزيد (٢٠ ابريل سنة ١٨٧٧ م) واتصر على العثمانيين بجهة درام طاغ (١٠ يونيو سنة ١٨٧٧ م) تقدم جيش الغازى مختار باشا واحتل مرتفعات زوين وكان يتركب من ٥٩ طابورا من المشاة و ٤٠٠٠ من السوارى و ٦٠ مدفعا بينما كان القائدا معيل حق باشا يقود قوة عظيمة من الاكرايين يهددها قوة الجنرال هو جاسوف وبذلك تمكن العثمانيون من قهر ميكوف وهو جاسوف وانصر جيش مختار باشا انتصارا عظيما (٢٦ يونيو سنة ١٨٧٧ م) حتى سحق الجيش الروسي بجهات زوين ولهذا اضطر ميكوف أن يرفع الحصار عن قارص ويرجع القهقري نحو الكسندر فولى وتبعته

العساكر العثمانية أما الجنرال هو جاسوف فقد عكس من القهقري بحالة انتظام وأخذ الاحتراس التام من أن يقع في يد العثمانيين وتوجه نحو جدير ثم ذهب إلى معيل باشا للقتال هو جاسوف بجيش مؤلف من ٤٠ طابورا و ٥٥٠ مدفعائينما كان مختارا باشا يسر تعدد الاجهزة على قوة الجنرال مليكوف وبعد ذلك انتصر العثمانيون انتصارات مهمة على الجيش الروسي الذي طرده تماما من الاراضي العثمانية وأشهر هذه الوقائع هي وقائع كركانه واني وايبنيه واياك تبه سي وأوليار وقزل تبه وأشهرها جميعا واقعة كد كار التي أرسلت بسببها الحضرة السلطانية فرمان تشكر الى مختار باشا ولقبته بلقب غازي وبعد ذلك اقتصر الروس على اجراء المظاهرات والمناوشات الخفيفة مبتعدين ما أمكن عن الاشتباك مع الجيوش العثمانية وسبب ذلك أن قواتهم العسكرية نقصت جدا بحصول لهم من الهزائم ونفدت تقريباً ذخائرهم الحربية وأرسل الفران دوق ميخائيل حاكم بلاد القوقاز العام يطلب الامداد والذخائر ولما أتى المدد ونفدت الجيوش الروسية في أواخر سبتمبر سنة ١٨٧٧ سار الجنرال مليكوف في طريق الهجوم ثم تقدم نحو مختار باشا المعسكر في قزل تبه وتلاقى معه في جهة الالجه طاع ودام القتال بينهما أياما ثم تقهقرا العثمانيون بعد خسائر عظيمة ولذلك اضطر مختار باشا أن يلجئ الى ارض روم فتمكن الروس من محاصرة قارص محاصرة شديدة ومنعوا عنها المواصلات الخارجية تماما حتى استولوا عليها عنوة (١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٧) وأسر وامنوا ١٧,٠٠٠ جندي واستولوا على مدافعها وكانت ٣٠٠ وأراد مختار باشا بعد ذلك أن يوقف سير خصمه فلم يتمكن ولذلك ذهب الى مدينة ارض روم وأخذ في جمع العساكر المنتشثة واقامة الحصون والمعقل حول تلك المدينة وقد نجح في ذلك بكل سرعة ولهذا أجمعت الجرائد العسكرية على مدح هذا القائد العظيم وبقى في هذه المدينة يصد هجمات الروس الى أن انتهى الحرب واعلم أنه لما انتشر خبر سقوط بلوفه وقارص وتقهقرت العساكر العثمانية أمام أعدائها أعلن أمير الصرب المدعو ميلان الحرب على الدولة (١٤ ديسمبر سنة ١٨٧٧) وذلك بعد أن اتفق مع الروسي وأوعزت له بذلك لتكون حجة في المستقبل أقوى لنوال ما يطمح اليه بإبصاره متى تقررت شروط الصلح أما الدولة العثمانية العديمة النصير فلم تستغرب من خيانة هذا الأمير وكفر الصربيين بنعمتها لأنها كانت تنتظر ذلك من وقت الى آخر وأرسل الباب العالي منشورا الى الصربيين يعلن فيه بعزل أميرهم ميلان وينصحهم في عدم التعرير بأنفسهم وكانت عساكر الجبل الاسود تخطت حدودها أيضا وشتت الغارة على الاراضي العثمانية لان الدولة لاحتياجها للجنود كانت استرجعت معظم القوة العسكرية الضاربة في تلك الاكاف كما ذكر فيمتضح من ذلك أن الدولة العثمانية في هذه الحرب المشؤمة لم تكن تحارب الروس فقط بل كانت تنازل الروس وأفلاق وبغدان والصرب والجبل الاسود وجميع المسيحيين رعاياها تقريرا ولما أقبل فصل الشتاء زمهريه كانت الدوائر العسكرية تظن أن ذلك يعطل الحركات الحربية ويجعل للدولة العثمانية الوقت الكافي لتجنيد قوة جديدة تنازل بها الاعداء الآن هذه الظنون لم تتحقق لان الروس عقب انتصاراتهم السريعة ساقوا جيوشهم نحو البلقان ورأى الجنرال طوطين أن من الصواب الاستيلاء على ودين وروسجق وشمل قبل الذهاب الى البلقان فأحيل عليه فتح هذه المدن وتقدم الجنرال غوروكويزيد اختراق البلقان مهما كلفه ذلك من الرجال والاموال وسار هذا الجنرال في وسط الشتاء والثلوج حتى تلاقى مع شاكر باشا وبعد أن نازله وهزم جيشه استولى

على صوفيه (٤ يناير سنة ١٨٧٨) وصلت أيضا العساكر العثمانية التي كانت تحمي شسبقة
 (٩ يناير) ثم زحف الجنرال غوركوف ففلق مع جيش سليمان باشا وبعد أن استمر الحرب بينهما ثلاثة
 أيام أظهر فيها العثمانيون شجاعة تخلد لهم ذكر في التاريخ بالقرب من مدينة فلبة تفهقروا مهزومين
 الى جبال ردوب (١٩ يناير) وفي يوم ٢٠ منه احتلت مقدمة الجنرال اسكوبيليف (Skobelev)
 مدينة أدرنه وكانت القيادة العامة على عساكر البلقان لرؤف باشا ناظر الخربية ثم تقدم الروس حتى
 أضخروا على أبواب الاستانة بينهم وبينها مسافة ٥٠ كيلومترا ومارت الدولة سوء حالها طالبت عقد
 هدنة للكاملة في شروط الصلح وأرسلت من طرفها نايق باشا وسرور باشا للمخاطبة مع الغراندوق نيقولا في
 هذا الخصوص وأرسلت معهم مأمورين عسكريين وبعد أن تقابل هؤلاء المندوبون مع الغراندوق
 في بلدة قزانق وعرضوا عليه مأموريتهم أخذهم معه الى أدرنه حين مجي مجواب القيصر على ذلك ثم
 صار التوقيع على اتفاقيتين احدهما بين الغراندوق وسرور باشا ونايق باشا فاذهما استقلال
 البلغار استقلال اادارياوا استقلال رومانيا والجنبل الاسودا استقلال اسيا مع تعديل حدودهما
 وتقرير غرامة حرية للروسيا تدفع نقدا أو بدستعاض عنها ببعض البلاد والاخرى بين المندوبين
 العسكريين العثمانيين والروسيين ببيان شروط المهادنة وعلى ذلك توقفت الحركات العدوانية (٣١ يناير
 سنة ١٨٧٨ م) وأمر الباب العالي برفع الحصار عن سواحل الروسيا التي على البحر الاسود وعاد
 الغراندوق نيقولا الى بطرسبورغ غانما طافرا ولما علمت انكثرة حصول الهدنة والشروط الابتدائية
 خافت على الاستانة كما تدعى أن تقع في يد الروس ولذلك أمرت عمارتها التي كانت يتخلى بشيكة فدخلت
 بحر مرمره (١٤ فبراير سنة ١٨٧٨) خلافا لمعاهدة باريس القاضية بمنع مرور السفن الخربية من
 مضيق الدردنيل ولما لم يمكن الدولة منع الاساطيل الانجليزية من عبور المضيق المذكور اكتفت
 باقامة الحجة على ذلك وأراد بعض دول أوروبا أن يكون عقد شروط الصلح على يدها مخافة أن يوجد
 بها ما يخجل معاهدة باريس المبرمة في سنة ١٨٥٦ فلم تقبل الروسيا ذلك ورغبت أن يكون الصلح بينها
 وبين الدولة العثمانية فقط بلا وسيط ولهذا لم تعلن صورة هذه الاتفاقيات بصورة رسمية الا في
 ١٥ فبراير سنة ١٨٧٨ وبعد ذلك اجتمع المندوبون من الدولتين ببلدة سان اسيفانوس التي جعلها
 الجيش الروسي مقره بعد الهدنة فكان صفوت باشا ناظر الخارجية وسعد الله بك سفير الدولة في
 برلين من قبل الدولة والموسميون نيلدوف والكونت أغنايف من طرف الروسيا وبعد اجتماعاتهم
 اضطر المندوبان العثمانيان للتوقيع على معاهدة مؤلفة من ٢٩ بندا أهمها المواد الآتية وهي
 أن تزداد أراضي الجبل الاسود أكثر من ضغفي حالها التي كانت عليها وتستولى على نغرى اسبيتزا
 واتيقاري ويضاف على بلاد الصرب التي أصبحت مستقلة لواء انيش وتأخذ رومانيا التي استقلت أيضا
 جهات دوبروجا بدلا عن سارابيا التي استولى عليها الروس وأن تكون البلغار بالة متميزة تمتد حدودها
 من نهر الدانوب الى بحر الارخبيل بحيث لا يترك للدولة العثمانية باورو بالا الاستانة وغلبولي
 وسلايك وضواحيها وبلاد ابيروتسايا والانيا وبوسنه وهرسك أما مجبهات اسيا فتستولى الروسيا
 على قارص وأردهان وباطوم وباريزيد وأن تدفع الدولة العثمانية غرامة بحرية قدرها ١٠٠٠٠٠٠٠ ر ١٤١٠
 روبل (٢٤٥٠٢١٧٣٩١) ليرة عثمانية ولما شاعت هذه المعاهدة التي أمضيت في ٣١ مارس سنة ١٨٧٨
 بنشرها في الجريدة الرسمية الروسية بعد مضي ٤٢ يوما من التوقيع عليها اغتاضت انكثرة جدا

وأمرت بجمع احتياطي جيشها العامل وأمرت أساطيلها بالتجمع في مالطة حيث أحضرت اليها قوة عسكرية من الهند ومع ذلك لم يمكنها أن تنصهدي لا يقف الروس بالقوة لأنه لم تساعدها دولة من دول أوروبا على ذلك وقد ذهبت مساعي السفيرة الانكليزية الموسيولا يارد أدرج الرياح ولم يتمكن من تجديد القتال بين الجنود الروسية والعثمانية المعسكرة في جتالجه أو بين الروس وأهالي جبل رودوب من المسلمين الذين صبت عليهم أنواع البلاء من أهل البلغار والروس أثناء الحرب مع ماصرفه من الجهود ولم تقبل الدولة العثمانية اشاراته لانها خافت من قيام المسيحيين في كريدوتساليا وغيرهما وبعد مبادلة المكاتب بين لوندروه وبطرسيبورغ زمن ساند اخل البرنس بسمارك حتى عقد وفاقا سر باين الروسيا وانكتره وأستوريا (٣٠ مايو سنة ١٨٧٨) وقبلت الروسيا أن تعرض معاهدة سان استيفانو على مؤتمر أروبي بعد أن كاد الامر يفضى الى انتساب الحرب بينهما وبين انكتره كما سبق وفي نفس هذا الوقت تمكن اللورد بيكونسفيلد من أن يعقد مع الدولة معاهدة دفاعية من مقتضاها صد الروسيا لو تقدمت نحو بلاد الاناضول وتعهد الباب العالي باجراء الاصلاحات اللازمة لتحسين حال المسيحيين الذين بتلك الجهات خوفا من أن ينقادوا الى مطامع الروسيا وأن تسمح الدولة لانكتره باحتلال جزيرة قبرص وادارة شؤونها لتكون على مقربة من بلاد الروسيا ويمكنها صد هجماتهم لو دعت الحاجة ولو جود الاضطراب بالاستانة وخوف الباب العالي من أن يحتلها الروس كما كانوا يحاولون ونظر اللارنبا كلت الحاصلة قبل الباب العالي تلك المعاهدة حفظ الباقي أملا كه وتعديل معاهدة سان استيفانو بكيفية أرجح لمصلحه (٤ يونيو ١٨٧٨) وفي أثناء انعقاد المؤتمر ببرلين ذيل الحكومتان هذه المعاهدة ببعض بنود لتوضيح كيفية ادارة الجزيرة المذكورة والمبلغ الذي تدفعه عنها انكتره سنويا للدولة وجعلت تركها موقوفا على ترك الروسيا لمدني باطوم وقارص اللتين أضيقنا الى الروسيا نهائيا (أول يوليو سنة ١٨٧٨)

معاهدة برلين - لما رضيت الروسيا بعرض معاهدة سان استيفانو على مؤتمر دولي كتب البرنس بسمارك تلغرافا الى كافة الدول العظام يدعوهم فيه لارسال مندوبين عنهم للاجتماع في مؤتمر برلين يوم ١٣ يونيو ١٨٧٨ الذي سيكون تحت رياسته وأرسل أيضا كثير من الامم ذات الصوالح مندوبين عنهم لتقديم طلباتهم وعرض رغباتهم على أعضاء المؤتمر وان لم يكن يصرح لهم بالحضور في جلساته الا اذا طلبوا وبعد المناقشات والمداولات أياما بين المندوبين وقعوا على المعاهدة المعروفة بمعاهدة برلين وكان ينوب عن الدولة في هذا المؤتمر محمد علي باشا وقره تيمودوري باشا وسعد الله بك ولم يستحسن بعض المؤرخين تعيين محمد علي باشا في ذلك المؤتمر لانه الماني الاصل اعتنق الدين الاسلامي كما هو معلوم فكان مندوبو الدول وخصوصا البرنس بسمارك يتطرون اليه بعين الغيظ والتحقيق مما كان سببا في أن البرنس بسمارك انهره مرة أثناء انعقاد المؤتمر أما المعاهدة المذكورة فأهم مشكلاتها ما يأتي تقسيم اماره البلغار التي كان طلب الجنرال اغنايف تكويها الى قسمين يكون القسم الشمالي منهما بلاد البلغار الممتازة والقسم الجنوبي بلاد الرومالي وله نوع امتياز أيضا وأن تستقل رومانيا استقلال سياسيا ويضاف الى بلادها مقاطعة دوبروجيه في مقابلة استيلاء الروسيا على بلاد بساريا وأن يضم الى بلاد الصرب التي أصبحت مستقلة تماما إقليم نيش وأن يبقى لامارة

الجبل الاسود التي تعترف الدولة باستقلالها كذلك فرضة انتيفاري (بار) وثالث الاراضى التي أعطيت لها بموجب معاهدة سان استيفانو وأن تستولى روسيا على بساريا التي كانت انتزعت منها معاهدة ١٨٥٦ كما تقدم وتضم الى أملاكها بسامدن قارص وأردهان وباطوم التي جعلت نغرا حرا بعد هدم استحكاماتها وأن تترك للدولة بايزيد وادى الشغراد أما من خصوص الغرامة الحربية فقد قرر المؤتمر بقاءها على حالتها كما وردت بمعاهدة سان استيفانو بشرط أن حقوقها من حيث الغرامة لا تنصرف لصالح أصحاب الديون الاوروبين وقرر المؤتمر أيضا أن تستولى ايران على اقليم قطور والنمسا على فرضة اسپيزا (Spizza) وأن تحتل عساكرها بوسنه وهرسك الى زمن غير محدد لتجرى فيها ما يوافقها من الاصلاحات وتعهد الباب العالي بأن يقبل بسلا تميز في الدين شهادة جميع رعاياه أمام المحاكم وأن يجرى بالدقة في جزيرة كريد النظام الاساسى الذى عمل لها سنة ١٨٦٨ وأن يدخل نظامات مشابهة لتسا في نظامات تلك المعاهدة مع تطبيقها على الاحتياجات المحلية في جميع جهات تركية أوروبا التي لم يسن لها المؤتمر نظاما خاصا وأن يقوم فعلا بلا تأخير في تحسين وتنظيم الاقليم التي يسكنها الارمن حسب احوال واحتياجات تلك الجهات وأن يحميهم من تعديات الجركس والاكرد وأن يبلغ من وقت الى آخر دول أوروبا بما أدخله من النظامات التي قضت بها هذه المعاهدة وهذه شروط لم نسمع بعقد مثلها بين دولتين أوروبا ويتين قهرت احدهما الاخرى ولكن ما حيلة هذه الدولة بمفسردها أمام دول أوروبا جميعا ومن تأمل في بنود المعاهدة التي لم يغب ذكرها عن الأذهان يرى أنها زعت من يد الباب العالي جميع الامارات التي كان له عليها حق السيادة وأخذت منه ما يقرب من نصف أملاكه بأوروبا ولم يرض على هذه المعاهدة المشؤمة الا بعض شهور حتى قام أهل كريد مطالبين بما خصهم به مؤتمر برلين من النظامات فعينت الدولة المشير الغازى أحمد مختار باشا فذهب الى تلك الجزيرة ونظم المعاهدة المعروفة في التاريخ بمعاهدة هليبه (٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٨) وصدر أمر مولانا السلطان بانفاذ ما احتوته تلك المعاهدة ثم قام اليونان وأهل الجبل الاسود بطلبون الدولة بما خصهم المؤتمر المذكور ولما أرادت الدولة انفاذ ذلك عارض أهالى البانيا لان تنازل الدولة عن قطعة من اراضيهم مضر جدا بصالحهم وهي معارضة حقة لوعايرتها وأوروبا جانب الالتفات ولما أرسلت الدولة المشير محمد على باشا بمورية اقناع الاهالى وتسكين اضطرابهم واعلامهم بأنه لا بد من اجراء ما أقرت أوروبا على عمله وأن الدولة لولا ذلك لم تفرط في شبر أرض من بلادها قام الاهالى عليه وقتلوه وعند ذلك أرسلت انكلترة وفرنسا وروسيا والنمسا واطاليا والمانياتى اليونان مراكبهم الحربية الى مياه الدولة ورست تلك الاساطيل بشغرها غوزوه وبذلك تم لليونان وأهل الجبل الاسود استيلاء على ما خصهم من الاراضى

واعلم انه بعد أن وضعت الحرب أوزارها بين الدولتين عقدت الدولة العثمانية مجلسا حربيا لمحاكمة جميع القواد الذين أهملوا أو تهملوا أو أخلوا بواجباتهم العسكرية ونفت منهم كثيرين من بينهم المشير سليمان باشا ووجد البعض من رتبهم ونياسينهم وبرئت ساحة البعض ومن الحوادث المهمة الجديرة بالذكر التي حدثت بالاستانة وقت احتلال الروس لاصواحيها الحادثة المعروفة بمحادثة براجان وسببها ان شخص يدعى على سعاوى أفندى أحد الذين كانوا فورا زمن المرحوم السلطان عبدالعزير من الاستانة مع مصطفى فاضل باشا (١٢٨٢ هـ) وكان فصيح اللسان قوى الجنان له

مشاركة حسنة في كثير من العلوم وبعض اللغات لاسيما اللغة العربية وكان لما عاد الى الاستانة بواسطة مدحت باشا عين مدير المكتب السلطاني الذي يتعلم فيه اولاد الحضرة الفخيمة السلطانية ولما عزل لتدخله في الامور السياسية اخذ في بث الفتن كعادته ودير مكيدة لاجلاس السلطان مراد على عرش الخلافة وقد انتهز لذلك فرصة اشتغال الدولة بالخبايا السياسية واضطراب الافكار وخوف الناس من تقدم الروس نحو الاستانة وانفق لذلك مع بعض المهاجرين الذين التجؤ الى الاستانة في ذلك الوقت وبعد ان اجتمعوا انقسموا الى قسمين قصد قسم منهم بحرا سراى چراغان حيث يقيم السلطان مراد وقصد القسم الثاني وكان يقوده على سعاوى المذكور السراى المذكورة برا ثم اجتمعوا عند باب السراى ولما منعهم الحراس قتلوهم ودخلوا يفتشون على السلطان مراد حتى عثروا عليه وهو باخراجيه وفي تلك الاثناء أتت فرقة عسكرية من سراى يلدز وحصرت الثائرين برا كما حاصرتهم البحارة بحرا وهجموا على السراى وقتلوا كل من بهامن الثائرين ومن ضمنهم على سعاوى أفندي وبعد ذلك نقل السلطان مراد وعائلته الى قصر ضمن سراى يلدز ثم هدأت الافكار وعادت الاعمال الى ما كانت عليه وبعد ذلك بأيام حصل حريق هائل بالباب العالي ويقال انه بفعل أرباب تلك الثورة انتقاما لما أصابهم من الخذلان

أما بقية الحوادث التي أصيبت بها الدولة بعد الضعف الذي اعترها من معاهدة برلين مثل استيلاء الفرنسيين على تونس فقد تقدم الكلام عليها في تاريخها أما احتلال الانكليز لقطر المصري فسيأتي الكلام عليه في تاريخ مصر وبعد ان تفرغت الدولة العثمانية من مشاكل الحرب وما ولدته بنود مؤتمر برلين من الصعوبات اهتمت بتحسين الحالة العسكرية خصوصا والادارات وتطورت كذلك في سبب مقتل المرحوم السلطان عبد العزيز خان فشكلت لذلك محكمة خصوصية أحالت عليها محاكمة المتهمين علانية وبعد مرافعات طويلة أصدرت أحكاما متفاوتة في الشدة وحكمت على بعضهم بالاعدام الآن مولانا السلطان عماله من الحقوق أبداً بحكم الاعداء بالنفي المؤبد وكان من الذين حكم عليهم بالنفي المؤبد مدحت باشا وغيره مما هو معلوم لقرب عهده ولما كان موضوع كتابنا هذا ذكر المحاربات البحرية بنوع أخص كما يشعر به اسمها رأينا من اللازم أن نذكر فيما أتى الادارة البحرية العثمانية بجميع فروعها ومال الدولة من السفن الحربية والنقلية على اختلاف أنواعها ومقاساتها وقوتها وغير ذلك ثم نعقبه بذكر القوى الحربية البرية التي يمكن لدولتنا العلية أن تجندها وقت الحرب والسلم مستعينين في ذلك بما ورد في أشهر وأصدق المؤلفات والنشرات العثمانية والاجنبية فنقول

الفصل الرابع عشر

(الادارة البحرية وحالتها الحاضرة والقوة البحرية)

اعلم أن الادارة البحرية التي الكلام عليها في الدولة العثمانية صارت بما أدخل فيها من التحسينات والترتيبات مؤلفة على الطريقة المذكورة بعد

الجبل الاسود التي تعترف الدولة باستقلالها كذلك فرضة انتيفاري (بار) وثالث الاراضي التي أعطيت لها بموجب معاهدة سان استيفانو وأن تستولى روسيا على بسارابيا التي كانت اترعت منها معاهدة ١٨٥٦ كما تقدم ونضم الى أملاكها باسيا مدن قارص وأردهان وباطوم التي جعلت نغراحر بعد هدم استحكاماتها وأن تترك للدولة بايزيد ووادى الشغراد أما من خصوص الغرامة الحربية فقد قرر المؤتمر بقاءها على حالتها كما وردت بمعاهدة سان استيفانو بشرط أن حقوقها من حيث الغرامة لا تضرب مصالح أصحاب الديون الاورو باويين وقرر المؤتمر أيضا ان تستمر لى ايران على اقليم قطور والنمسا على فرضة اسپينا (Spizza) وأن تحتل عساكرها بوسته وهرسك الى زمن غير محدد لتجربى فيها ما يوافقها من الاصلاحات وتعهد الباب العالي بأن يقبل بسلامة في الدين شهادة جميع رعاياه أمام المحاكم وأن يجرى بالدقة في جزيرة كريد النظام الاساسى الذى عمل لها سنة ١٨٦٨ وأن يدخل نظاما مشابهة لما فى نظامات تلك المعاهدة مع تطبيقها على الاحتياجات المحلية فى جميع جهات تركية أو روبا التي لم يسن لها المؤتمر نظاما خاصا وأن يقوم فعلا بلا تأخير فى تحسين وتنظيم الاقليم التي يسكنها الارمن حسب احوال واحتياجات تلك الجهات وأن يحميهم من تعديت الجركس والاكرد وأن يبلغ من وقت الى آخر دول أوروبا بما أدخله من النظامات التي قضت بها هذه المعاهدة وهذه شروط لم نسمع بعقد مثلها بين دولتين أوروبا وبين قهرت احدها من الاخرى ولكن ما حيلة هذه الدولة بمقردها أمام دول أوروبا جميعا ومن تأمل فى بنود المعاهدة التي لم يغب ذكرها عن الاذهان يرى أنها زمت من يد الباب العالي جميع الامارات التي كان له عليها حق السيادة وأخذت منه ما يقرب من نصف أملاكه بأوروبا ولم يرض على هذه المعاهدة المشؤمة الا بعض شعور حتى قام أهل كريد مطالبين بما خصهم به مؤتمر برلين من النظامات فعينت الدولة المشير الغازى أحمد مختار باشا فذهب الى تلك الجزيرة ونظم المعاهدة المعروفة فى التاريخ بمعاهدة هليبه (٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٨) وصدر أمر مولانا السلطان بانفاذ ما احتوته تلك المعاهدة ثم قام اليونان وأهل الجبل الاسود يطالبون الدولة بما منحهم المؤتمر المذكور ولما أرادت الدولة انفاذ ذلك عارض أهالى البانيا لان تنازل الدولة عن قطعة من اراضيهم مضر جدا بصالحهم وهي معارضة حققة لو أعارتها أوروبا باجانب الالتفات ولما أرسلت الدولة المشير محمد على باشا موراوية اقناع الاهالى وتسكين اضطرابهم واعلامهم بأنه لا بد من اجراء ما أقرت أوروبا على عمله وأن الدولة لولا ذلك لم تفرط فى شرب أرض من بلادها قام الاهالى عليه وقتلوه وعند ذلك أرسلت انكتره وفرانسوا وروسيا والنمسا ويطاليا والمنايا حتى اليونان مراكبهم الحربية الى مياه الدولة ورست تلك الاساطيل بشغرا غوزره وبذلك تم لليونان وأهل الجبل الاستيلاء على ما خصهم من الاراضي

واعلم انه بعد أن وضعت الحرب أوزارها بين الدولتين عقدت الدولة العثمانية مجلسا حربيا لمحاكمة جميع القواد الذين أهملوا أو تهاملوا أو أخلوا بواجباتهم العسكرية ونفت منهم كثيرين من بينهم المشير سليمان باشا وجرى البعض من رقبهم ونياشينهم وبرئت ساحة البعض ومن الحوادث المهمة الجديدة بالذكر التي حدثت بالاستانة وقت احتلال الروس لاصواحيها الحادثة المعروفة بمحادثة چراغان وسيهان شخص يدعى على سعاوى أفندى أحد الذين كانوا فرزان من المرحوم السلطان عبد العزيز زمن الاستانة مع مصطفى فاضل باشا (١٢٨٢ هـ) وكان فصيح اللسان قوى الجنان له

مشاركة حسنة في كثير من العلوم وبعض اللغات لاسيما اللغة العربية وكان لما عاد الى الاستانة بواسطة مدحت باشا عين مدير المكتب السلطاني الذي يتعلم فيه أولاد الحضرة الفخيمة السلطانية ولما عزل لتدخله في الامور السياسية أخذ في بث الفتن كعادته ودير مكيدة لاجلاس السلطان مراد على عرش الخلافة وقد انتهر لذلك فرصة اشتغال الدولة بالخبايا السياسية واضطراب الافكار وخوف الناس من تقدم الروس نحو الاستانة وانفق لذلك مع بعض المهاجرين الذين التجؤوا الى الاستانة في ذلك الوقت وبعد أن اجتمعوا انقسموا الى قسمين قصد قسم منهم بحرا سراي سراغان حيث يقيم السلطان مراد وقصد القسم الثاني وكان يقوده على سعاوي المذكور والسراي المذكورة برا ثم اجتمعوا عند باب السراي ولما منهم الحراس قتلوهم ودخلوا يفتشون على السلطان مراد حتى عثروا عليه وهو باخراجهم وفي تلك الاثناء أتت فرقة عسكرية من سراي يلدز وحاصرت الثائرين برا كما حاصرتهم البحارة بحرا وهاجموا على السراي وقتلوا كل من بهامن الثائرين ومن ضمنهم على سعاوي أفندي وبعد ذلك نقل السلطان مراد وعائلته الى قصر ضمن سراي يلدز ثم هدت الافكار وعادت الاعمال الى ما كانت عليه وبعد ذلك بأيام حصل حريق هائل بالباب العالي ويقال انه بفعل أرباب تلك الثورة انتقاما لما أصابهم من الخذلان

أما بقية الحوادث التي أصيبت بها الدولة بعد الضعف الذي اعترها من معاهدة برلين مثل استيلاء الفرنسيين على تونس فقد تقدم الكلام عليها في تاريخها أما احتلال الانكليز لقطر المصري فسيأتي الكلام عليه في تاريخ مصر وبعد أن تفرغت الدولة العثمانية من مشاكل الحرب وما ولدته بنود مؤتمر برلين من الصعوبات اهتمت بتحسين الحالة العسكرية بخصوصها والادارات وتطورت كذلك في سبب مقتل المرحوم السلطان عبد العزيز خان فشككت لذلك محكمة خصوصية أحالت عليها المحكمة المتهمين علانية وبعد مراجعات طويلة أصدرت أحكاما متفاوتة في الشدة وحكمت على بعضهم بالاعدام الآن مولانا السلطان بماله من الحقوق أبطل حكم الاعدام بالنفي المؤبد وكان من الذين حكم عليهم بالنفي المؤبد مدحت باشا وغيره مما هو معلوم لقرب عهده ولما كان موضوع كتابنا هذا ذكر الحاربات البحرية بنوع أخص كما يشعر به اسمها رأينا من اللازم أن نذكر فيما يأتي الادارة البحرية العثمانية بجميع فروعها ومال الدولة من السفن الحربية والنقلية على اختلاف أنواعها ومقاساتها وقوتها وغير ذلك ثم نعقبه بذكر القوى الحربية البرية التي يمكن لدولتنا العلية أن تجندها وقت الحرب والسلم مستعينين في ذلك بما ورد في أشهر وأصدق المؤلفات والتشرحات العثمانية والاجنبية فنقول

الفصل الرابع عشر

(الادارة البحرية وحالتها الحاضرة والقوة البحرية)

اعلم أن الادارة البحرية التي الكلام عليها في الدولة العثمانية صارت بما أدخل فيها من التحسينات والترتيبات مؤلفة على الطريقة المذكورة بعد

قسم مجلس شورى البحرية - يتركب من فريقين وستة ميرالايات واثنين برتبة قائمقام وباشكاتب وكاتب ثانی وهذا المجلس يتداول ويتظرفى كافة الطلبات التى تلزم للاساطيل ولباقى السفائن الحربية ولددار الصناعة ويقرر ما يوافق منها

قسم النظام البحرى - وهو تحت رياسة ناظر البحرية وله وكيل برتبة لواء وبه ثلاثة ميرالايات وقائمقام واحد وبكباشى واحد وكاتب وهذا القسم يتظرفى كافة ما يلزم للنظام فى البحرية العثمانية

قسم ارکان حرب البحرية - وهو تحت رياسة فريق أى فيس أميرال وبه قائمقام واحد وبكباشى واحد واثنين برتبة الصاغ قول أعلى وثلاثة برتبة قول أعاسية ثوانى وأربعة يوزباشية وملازم واحد وثلاثة كتبة وهذا القسم يتظرفى كافة الاعمال الحربية وما يختص بنظامات الحرب البحرى بالمدرعات وخلافها

قسميون الفن - وهو تحت رياسة ناظر البحرية مباشرة وله وكيل برتبة لواء وبه ميرالاي واحد واثنين برتبة صاغ قول أعاسية واثنين يوزباشية وملازم واحد وكاتبان وهذا القسميون منوط بالبحث فى كافة ما يلزم للفن الحربى البحرى ويجب جميع المؤلفات المستجدة فى هذا العلم من أوروبا ويستخرج منها ما يلزم للتعليمات والترقيات الفنية بالاساطيل العثمانية وينشر الرسائل العلمية والنظامات المحتوية على التعاليم والقوانين وخلافها ويصدر أيضا جريدة بحرية أسبوعية تحتوى على كافة حوادث اساطيل الدول الاجنبية وما يحصل فيها من مناورات ومستجدات واكتشافات وما أشبه ذلك ويصدر أيضا رسالة شهرية فى الفنون الحربية والعلمية البحرية لكافة ضباط الاساطيل العثمانية قسميون الاصلاحات والتدقيق والحاسبة - وهو تحت رياسة ناظر البحرية أيضا ويتشکل من ميرالاي بحرى واثنين برتبة قائمقام وصاغ قول أعاسى واحد وستة كتبة ويتظرفى جميع ما يختص الاصلاحات البحرية والتدقيق والحاسبة العمومية

قسمندانية اليمان - وهى تحت رياسة ناظر البحرية وقومندانها الثانى برتبة لواء أى كوتنر أميرال ومعه ميرالاي وصاغ قول أعاسى واحد وستة كتبة وهذا القسم عبارة عن أميرالية دار الصناعة وله النظر والرياسة على كافة السفن والاساطيل التى تكون بدار الصناعة لاصلاحتها وادارة الشؤون المختصة بها

قسم مامور الترسانة - ورئيسه برتبة فريق أى فيس أميرال وبجمعيته أربعة كتبة وهو منوط بملاحظة الامور المختصة بدار الصناعة العمارة بالاستانة

الهيئة الطبية البحرية - وهى قتر كى من طبيب برتبة فريق كريس وثلاثة أطباء برتبة لواء وأربعة ميرالايات وقائمقام واحد كاعضاء يتظرون ويبحثون فى كافة ما يختص بالصحة البحرية والاساطيل ويقررون ما يلزم لها ليسير عليه قسم الادارة الصحية البحرية الذى يكون تحت رياسة ميرالاي طبي وقائمقام وصاغ قول أعاسى أطباء يوزباشى صنائعى بصفة أعضاء ويختص هذا القسم بادارة الامور الصحية البحرية عموما

قسم المهمات الحربية البحرية - وهو تحت رياسة أحد الميرالايات البحرية ومعه قائمقام واثنان

رتبة صاغقول أغاسى وكاتبين وهو منوط بادارة عموم المعدات الحربية اللازمة للدوارع والاساطيل
في فروع البحرية عموما

المجلس الحربى البحرى - وهو يتشكل تحت رياسة ميرالاي وأعضاؤه واحد رتبة قائمقام
واثنان رتبة بيكباشى وثلاثة رتبة صاغقول أغاسى وكاتب وهو الذى يحاكم كل من يحال عليه من
المدنيين ويؤدى أحد أعضائه رتبة القول أغاسى وظيفه المدعى

قومسبون الطور بيدو - وهو تحت رياسة أحد القائمقامات وبه اثنان رتبة بيكباشى وثلاثة
رتبة صاغقول أغاسى وأربعة يوزباشية بصفة أعضاء وكاتبان وهو المنوط بالاعمال المختصة بالالغام
البحرية وما يتبعها من الآلات والأدوات الكهربية ويتطور ويقرر جميع التعليمات والاصلاحات
والتمارين اللازمة لسفن الطور بيدو ورجاله ويتبع هذا القومسبون ستة ضباط بين يوزباشية
وملازمين كمعاونين له ولفن الطور بيدو قسم آخر منوط بالرسم حيث يرسم فيه كافة ما يلزم للالغام
البحرية والاعمال اللازمة لها وهو تحت نظارة صاغقول أغاسى وبرفته مهندس ميكانيكى ويوزباشى
وملازمان

قومسبون الاعمال - وهو تحت رياسة أقدم القراء بالبحرية وأعضاؤه فريق آخر ولواؤه
واثنان رتبة ميرالاي وثلاثة رتبة قائمقام وبيكباشى واحد وينظر هذا القومسبون في كافة الاعمال
العمومية التى تجرى بدار الصناعة من انشاء السفائن وعمل الآلات البخارية والقزانات الانبوية
وما أشبه ذلك ويتبع ذلك قومسبون آخر يدعى بقومسبون الانشاء تحت رياسة قائمقام وبه
بيكباشى واحد واثنان رتبة القول أغاسى وكاتب ويختص بما يصنع من السفن الحربية وما أشبه ذلك
من الانشآت كالزوارق والصنادل وخلافها وله قسم آخر يدعى بقلم رسم الانشآت البحرية تحت
رياسة ميرالاي وهو الرسام الاوّل به ومع بيكباشى وصاغقول أغاسى كمعاونين له ويوزباشى وثلاثة
رسامين رتبة ملازم وفي هذا القسم ترسم المشروعات اللازمة للانشاء

قومسبون الفابريقات - وهو تحت رياسة قائمقام ومع قائمقام آخر وثلاثة بيكباشية واثنان
صاغقول أغاسيه وكاتب وهذا القومسبون ينظر في كافة الاعمال التى تجرى بالفابريقات ويتبع هذا
القومسبون قومسبون آخر للرسم وهو تحت رياسة ميرالاي مهندس بحرى ومع ثلاثة قول أغاسيه
 وخمسة يوزباشية وعشرة ملازمون أوائل وأربعة ثوان وهو يتولى رسم كافة الآلات والمشروعات
المقتضى صناعتها بالفابريقات

فابريقات دار الصناعة بالاستانة - اعلم أن هذه الفابريقات هى الآتية بعدد ويوجد بدار
صناعى از ميدوسوده بجزيرة كريد فابريقتان أخريان يصنع فيهما جميع ما يلزم للسفن من التعميرات
وخلافها وقوة فابريقة الاولى ١٥ حصان بخارى وقوة فابريقة الثانية ٢٥ حصانا أمامعامل
دار صناعة الاستانة وقوتها البخارية فهى كياتى

أسماء القابريقات		حصان تجارى		قطر الاسطوانه		الاصطوانات والاصترات		معددا لاصطوانات	
أسماء القابريقات		حصان تجارى		قطر الاسطوانه		الاصطوانات والاصترات		معددا لاصطوانات	
				نوصه		نوصه			
				انجليزى		انجليزى			
٢٤	١٨	٢٥	١٠	١	١٢	٢	٧	١	١٠
٤٨	٩٠	٤٠	٩	١	٢٠	١	١٠	١	٩
٢٤	١٨	٢٥	٥٠	١	٤٢	٢	٢٣	١	٥٠
٦٠	٤٥	١٢٥	٢٠	١	١٤	٢	١١	١	٢٠
٣٠	١٨	٢٥	٢٥	١	٤٨	١	١٨	١	٢٥
٤٠	٢٧	٢٥	٢٥	١	٤٨	١	١٨	١	٢٥
٢٤	١٨	٢٥	١٠٠	١	٦٠	٢	٣٠	١	١٠٠
٣٦	٣١	٦٠	٠٠	١	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠
٢٤	١٨	٥٠	٠٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠
٢٦	٢١	٢٥	٠٠	١	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠

ويتبع قسم الادارة البحرية قومسيون المعاينة وهو تحت ادارة احدى البكباشية واثنين برتبة
صاغقول أغانى وكاتب وقومسيون آخر لتوزيع المعينات تحت ملاحظة بكباشى ومعه اثنا عشر
كاتب وقومسيون السوقيات أى التسفيرات وهو تحت ملاحظة احدى الصاغقول أغانى ومعه اثنان
برتبة يوزباشى وكاتب ويتولى هذا القومسيون تسفير العساكر المتأخرة أو المستجدة الى جهاتها
والمعدات التى تلزم السفائن الموجودة بالمأموريات فى مياه الدولة أما العنابر الموجودة فى دار الصناعة
العاهرة بالاستانة فهى

عنبر الملايس	عنبر التريزية	مخزن الفحومات
عنبر الفلايك	عنبر الكرسة أى الاخشاب	فرن الجراية والسفخانة
عنبر المهمات العمومية	عنبر التجارين الدقيين	عنبر التفنكخانه
عنبر التعيينات	عنبر البراميل والدلاء	عنبر الصفائح
عنبر البويات	عنبر الارغاد والدومان	عنبر الحدادين
عنبر المهمات الحربية	عنبر الزيت والقطران	عنبر النقاشين
عنبر البكرات	مخزن السوارى والسرينات	عنبر الطربيدو
عنبر القلوع	عنبر البصلات والمساطر	عنبر الطلومبات والخرطوم
عنبر القلغظية والبرغوجية	مخزن الاحطاب	

أما قابريقة الفنكخانه البحرية فهى تحت نظارة ميرالاي بحرى و برفته بكباشى وأربعة

قول أغاسية وإثنان يوزباشيه وهذه الفابريقة تصنع الفشنكات اللازمة لعموم الاسلحة النارية الموجودة بالاساطيل وفروع البحرية ويتبع ذلك صناعة الافواه النارية كالسواريح الحربية والسواريح العادية والمهاجمات وخلافها

المطبعة البحرية - وهي تحت نظارة أحد المكيين برتبة ممتاز ومعه ثمانية عشر موظفا من صنايعية وخلافه ويطبوع فيها جميع القوانين والنظامات والتعليمات والفنون البحرية والجريدة البحرية والرسائل العلمية الشهرية وأوامر الدونما وكافة الأرائك التي تلازم للدواع والاساطيل والادارة البحرية ودار الصناعة ويطبوع فيها أيضا فائز عموم البحرية والاساطيل الشهرية والسفوية وجرنالات السفن أما أقلام نظارة البحرية فتتركب كالاتي

قلم شورى البحرية - به أحد وعشرون موظفا ملكيا برتب مختلفة ومديره ممتاز
 « دائرة النظام - به تسعة وعشرون موظفا ملكيا برتب مختلفة ومديره برتبة ثانية
 « الحسابات الجارية - به اثنان وثلاثون موظفا ملكيا برتب مختلفة ومديره برتبة أولى صنف ثاني
 « الحسابات المركزية - به سبعة عشر موظفا ملكيا برتب مختلفة ومديره برتبة ثانية
 « المراجعة البحرية - به أربعة وثلاثون موظفا ملكيا برتب مختلفة ومديره برتبة ثانية
 « التحريات البحرية - به خمسة عشر موظفا ملكيا برتب مختلفة ومديره برتبة ثانية
 « الاوراق العمومية - به تسعة عشر كاتباً من ذوى المراتب ومديره برتبة ثانية ممتاز
 « الموازين البحرية - به ستة كتيبة من ذوى المراتب ورئيسه برتبة ثانية ممتاز
 « الجرنال - به تسعة موظفون ملكيون من ذوى المراتب ورئيسه برتبة ثانية صنف ثاني
 « المصالح المتداخلة - به عشرة موظفون برتب مختلفة ورئيسه برتبة ثانية صنف ثاني
 وهناك خلاف الاقلام المذكورة فروع صغيرة كقسم السجلات وقلم المحفوظات وقلم دار الصناعة وقلم الترجمة وقلم البوستات والتلغرافات وقلم الخدمة السائرة ولناظر البحرية مكتوب محيي برتبة أولى صنف أول ومحاسبي برتبة أولى صنف ثاني
 نظارة المعادن النجم - وهي تابعة للادارة البحرية ورئيسها مهندس ميكانيكي برتبة لواء وقلم
 تحريات على حدته به ثلاثة كتاب ويتبعه قومسيون المعادن وهو تحت رياسة أحد القائمات
 وأعضاؤه بكباشي وثلاثة صاغقول أغاسيه وخمسة يوزباشيه وكاتبان

المدارس البحرية - وهي تنقسم الى جملة أقسام قسم المهندسين البحرية وهم أركان حرب البحرية وقسم فن الميكانيكا وقسم المدرسة البحرية التجارية والجميع تحت نظارة أحد لواءات الحربية البحرية ومعه قائمات ناظر للدروس وقائمات معلم للرسم والمناظر وقائمات طيب وثلاثة بكباشيه وثلاثة صاغقول أغاسيه وخمسة صولقول أغاسيه وستة عشر يوزباشي وثلاثة ملازمون كلهم مدرسون وضباط ولها أيضا امام وكاتب حسابات وكاتب تحريات وأربعة كتاب حسابات ومطبع محيي لطبع كراريس التدريس وما يلزم للسلامة وأما مواد أي مخزن نجي ولكنه من الضباط وأجزبي وعددا للتلامذة لا يتقص عن ٣١٠ تلامذة والعلوم الجارية تدريسها في المدرسة البحرية هي

لغة أجنبية ورياضة ومثلثات كروية وحساب المثلثات المستقيمة والجبر والهندسة الرسمية وتاريخ البحرية وفن الملاحة وفن رسم خرائط البحار وفن سير السفن وفن الهيئة أى الفلك وفن البحرية وفن الحرب البحرية وفن الإشارة والفتوغرافيا أى التصوير الشمسى وفن الآلات أى الميكانيكية وفن انشاء السفن ثم اللغة التركية وفروعها وفن الانشاء والتجارات

ويوجد فرع آخر تابع للمدرسة البحرية يسمى بالمدرسة التجارية النهارية وهو منوط بتعليم ملاحي سفن التجارة العثمانية فن سير السفن واستعمال الخريطات وعلم الملاحة والقصد من هذه المدرسة نشر المعارف البحرية عند عموم رجال الملاحة بالدولة لتوسيع نطاق التجارة البحرية وللمدرسة البحرية مدرسة أعدادية لها مدير برتبة صاغ قول أعاسى وخمسة مدرسون وأربعة يوزباشيه وملازمان مدرسون أيضا وبها أربعة كتبة وضابط برتبة يوزباشى وتحضر هذه المدرسة الابتدائية تلامذة بالمدرسة البحرية الحربية العالية المتقدمة الذكرو يتبع المدرسة العالية ثلاث بوارج وهى فرقاطة محمد سليم وهى مدرسة للتمرين البحري وفرقاطة مخبر سرور وهى مدرسة لتعليم فن التوربيدو وفرقاطة السلمية وهى مدرسة لتعليم فن الطوبجية البحرية أمام مدرّج البحريّة العثمانية العاملين فى الإدارة وفى السفن بحسب الوارد فى السانامة البحرية العثمانية فهو كالاتى

عدد	مقامه	عدد	مقامه
٧٢	ميرالايات مهندسون انشاء سفن	١	ناظر البحرية ورتبته مشير وهو أيضا الاميرال الاول
٤	ميرالايات صناعيه	٢	رتبة مشير وهو مامن ياوران الحضرة السلطانية
١٣	قائم مقام بحرى منهم ١٣ سواريان بالمدرعات واثنان برتبة قومودور	٩	رتبة فريق أى فيس أميرال بعضهم من ياوران الحضرة السلطانية
٣٧	أحدهما فى أسطول برويزه والثانى بشرفه البحر الأبيض والباقي فى الإدارة البحرية	٤	وبعضهم بالإدارة بالترسانة العامرة برتبة فريق أطباء بحرية
١٥	قائم مقام أطباء بعضهم بالسفن	٣	رتبة فريق مهندسون انشاءات وآلات ميكانيكيه
٨	قائم مقام مهندسون ميكانيكيه منهم ٨ بالبوارج والباقيون بدار الصناعة	٦	رتبة لواء أى كوترا ميراليه
١٨	وبالفروع البحرية	٤	رتبة لواء أطباء
٢	رتبة قائم مقام مهندسون انشاء السفن	٤	رتبة لواء مهندسون انشاءات وآلات ميكانيكيه
٢	رتبة قائم مقام صناعيه	٤	ميرالاي أى قومودان فيس منهم ٦
٢٢	بكبائى أى قومودانات فراقب منهم ٢٢ بالبوارج البحرية و ٨ بوابورات الشركة	٢٤	سواريان بالمدرعات والباقيون فى الإدارة البحرية
٨٢	المخصوصة والباقي بالإدارة البحرية وفروعها	٥	ميرالايات أطباء
١٠	بكبائيه أطباء بعضهم بالسفن	١٠	رتبة أميرالوا مهندسون ميكانيكيه
٢٤٤		٧٢	

عدد	مقابله	عدد	مقابله
٩٤٣	صولقول أغانى صنايعية بالورش والعباب	٢٤٤	بكباشى مهندسو ميكانيكيه منهم ١٧
٤٠	كاتب بالفلايين والبوارج الحربية وخلافها	٤٨	بالبوارج الحربية والباقي بالفروع
٤٥	امام اصنف ثاني بالبوارج الحربية	٣	بكباشيه مهندسو انشاء السفن
١٩	يوزباشى منهم ١٤٦ بالبوارج الحربية و ١٢ بوابورات الادارة المخصوصة والباقي بفروع البحرية	١١	بكباشى بقسم الصنائع البحرية
٢٤٨	يوزباشى أطباء بالبوارج الحربية والاستشفيات البحرية	٤	أئمة الايات بحرية
٢١	يوزباشى مهندسو ميكانيكيه منهم ١٢٥ بالبوارج الحربية و ٢ بوابورات الادارة المخصوصة والباقي بشاريقات دار الصناعة والفروع البحرية	١٤٠	صاغقول أغانى قبودانات قراويت بعضهم بالبوارج الحربية والبعض بوابورات الادارة المخصوصة والباقيون بالادارة البحرية
٧	يوزباشية مهندسو انشاء السفائن	١١	رتبة صاغقول أغانى أطباء بحرية
٧٤	يوزباشى صنايعية منهم ٣١ بالبوارج الحربية و ٣ بوابورات الادارة المخصوصة والباقي بدار الصناعة	٦٥	صاغ مهندسو ميكانيكيه منهم ٣٦ بالبوارج الحربية و بوابورات الادارة المخصوصة والباقي بدار الصناعة وفروع البحرية
٦٥	كاتب قرويط منهم ٢٣ بالدواع والباقيون بالفروع البحرية	٧	رتبة صاغ مهندسو انشاء سفن بدار الصناعة
٨	أئمة صنف ثالث جميعهم بالدواع	٢١	رتبة صاغ صنايعية شرحه
١٨٠	رتبة ملازم أول منهم ١٢٣ بالدواع البحرية و ٣ بوابورات الادارة المخصوصة والباقيون بالفروع	١٠	أئمة صنف أول
٢	كذلك أطباء بالاستيالية	٢١٤	صولقول أغانى منهم ٦٣ بالبوارج الحربية و ١٢ بوابورات الادارة المخصوصة والباقي بفروع البحرية والادارة
٢٧٨	كذلك مهندسو ميكانيكيه منهم ١٤٦ بالدواع البحرية و ٤ بوابورات الادارة المخصوصة والباقيون بالفابريقات بدار الصناعة والفروع البحرية	١٧	صولقول أغانى أطباء بالسفن والفروع
٦	كذلك مهندسو انشاء سفن	١٣٢	صولقول أغانى ميكانيكيون منهم ٦٥ بالبوارج الحربية و ٦ بوابورات الادارة المخصوصة والباقي بدار الصناعة وفروع البحرية
٢٥	كذلك صنايعية	٦	رتبة صولقول أغانى مهندسو انشاء السفن بدار الصناعة
٢١٩٩		٩٤٣	مقابله

عدد	ماتله	عدد	ماتله
٢٥٤٦	(أنفار عسكرية بالبلوكات الآتي ذكرها)	٢١٩٩	كاتب فرويط منهم ٤٠ بالدواع
٦٥٠	ببلوكات الصنایعیة	٩٣	والسفن الحربية والباقون بالفروع البحرية
٤٦٢	بمعدن فحم اركلی التابع لدار الصناعة	١٥	امام صنف رابع
٩٠	بترسانة البصرة	٧٥	برتبة ملازم ثاني منهم ٣٦ موظفون بالدواع البحرية و ٢٩ تحت التمرين بفرقاطة محمد سليم المعسدة للمدرسة البحرية والبعض بفرقاطة مخبر مرور للتمرين في فن الطور يبدو أي الانغام البحرية
٦٠	بترسانة سينوب	١٦	برتبة ملازم ثاني مهندسوميكانيكة
٤٠	بترسانة ازميد	٩	كذلك مهندسون انشاء
٢٠	بترسانة السودة بجزيرة كريد	٥	كذلك صنایعیة
٥٥	بترسانة كلكمك	١٣٤	كاتب ابريق منهم ٨٩ موظفون بالدواع والسفن الحربية و ٥ بوابورات الادارة المخصوصة والباقي بفروع البحرية
٢٨٣٣٣	ملاحون وطوبىجية بالسفن الحربية	٢٥٤٦	
٩٦٥٠	عسكر البيادة البحرية		
٤٢١٦٦	(ضباط موجودون بالاستيداع كاحتياطي)		
٤	ميرالای		
٢٠	صانعات		
٣٣	صولقول اناسية		
٢٨	بوزباشی		
٢٩	ملازمين أول		
١٨	قلاغوز		
١٣١			

أما الضباط والكتبة والمأمورون الموظفون بالمرافق العثمانية وبوابورات الادارة المخصوصة وبالسفارات كما مورين بحرين وبأموريات أخرى فهم وان كانت أسماءهم واردة ضمن العدد المذكور من قبل بالنامة البحرية لأنهم يستولون من قباتهم من ميزانيات الجهات التابعين لهم لها أما ترقياتهم فهي بحسب أقدميتهم كالوارد بجداول ضباط البحرية لان المصالح المذكورة تعد من الفروع البحرية المنفردة أما القوة الموجودة بالاساطيل والسفن الحربية فهى من ضمن مجموع العدد المذكور وهي واردة بالتقاويم الاوروباية البحرية بتعدد يختلف قليلا عن التعداد الرسمى الآتي بيانه

عدد	
٦	أميرالات برتبة فريق يتراسون على السفن وقت حركة الاساطيل والآتي بقومون بالادارة في الترسانة العامرة كما سبق ذكره
١١	كوترا ميرال جميعهم برتبة لواء
٢٥	ميرالای وقائم مقام سواريان بالمدرعات وهم قبودان فيسودر جة أولى ودرجة ثانية
٤٢	

عدد	ما قبله	٤٢
٢٢	بكاشى قبودانات فراقيط ووظائفهم سواريان بالدوارع	
٤٠	صاغقول اغاسى قبودانات قراويت البعض مفردات أى يكنجى قبودان	
٢٠٩	صولقول اغاسية ووزباشية واردين بالتقاويم الاورو باوية باسم بوزباشية قيسو	
١٦٥	ملازم أول وثوانى واردين بالتقاويم الاورو باوية باسم (ضباط ومهندسون ميكانيكية لادارة الآلات البخارية بالدوارع)	
٥٣	باشمهندس برقب ميرالايات وقائمقامات	
٦٣	مهندس درجة أولى بكاشية وصاغات	
١٢٥	مهندس درجة ثانية صولقول اغاسية وخلافه	
١٤٦	مهندس درجة ثالثة بوزباشية وملازمين	
٦٣	ضباط أطباء برتب مختلفة	
٦٠	امام من ثلاث طبقات موزعون بالسفائن حسب جسامتها	
٣١	ضباط صنائعية من رتب مختلفة	
١٩٧	كاتبان درجات كتاب قليون وفرقاطة وقرويت واربوق	
٢٨٦٢٣	كدكيمان أى صف ضباط ونفقات بحرية وطوبجية للدوارع نصفهم موجود تحت السلاح والنصف الآخر تحت الطلب	
٩٦٥٠	عسكري بياذة بحرية للخفر والمدافعة بالدوارع موجود منهم ستة آلاف تحت السلاح والباقي تحت الطلب	
٣٩٤٤٧		

جداول أسماء وأبعاد المدرعات والبواخر والطرادات الحربية العثمانية لغاية ١٨٩٦ ميلادية حسب الوارد بالتقاويم البحرية الاورو باوية ومطبعا على الوارد بالسالنامة البحرية العثمانية بيان الاصطلاحات الموجودة بالجداول الآتية

صلب	ص	فرقاطه	فر
صلب وحديد وخشب	ص ح خ	رجل	ر
معدن الومينيوم	الوم	متر أمتار	متر
خشب	خ	مواد أدوات	ماد
مركب	م	أدوات مخصوصة	ادخ
على الفزاق	قز	عدد	عد
حصان معين	ح م	ممشى	مم
حديد	ح	تحت التصميم مشروع فيه	تح تص
حديد وصلب	ح ص	ملحاً الوسط	مل و س
حديد وصلب وخشب	ح ص خ	الطريقة المائية	طرما
حديد خشب	ح خ	طونيلاطه	طن
سنتيتر	سنت	ب	بوصه

الطائفة المقررة		الذرع		الآلة		البيكيتة				أهمها للسفن وأنواعها							
رجل	عدد	الكوري	القطع أو ما جز العرضي	الأراج	القطر بقاء والمجأ	حزام الوسط	ذخيرة الفحم	رقص	سرعه	قوة حصان بخاري	حوله	ارتفاع	عرض	طول	نوع المعدن	تاريخ إنزالها البحر	
٤٥٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٣٥٠	١	١١٥٠	٣ ح	٤٦٧٧	٨١٠	١٩	٨٨	خ	١٨٦٥	سليمية (مدرسة اللاداع) طرادات درجته أولى
٠٠	٤	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٢	١٨٥٠	٢٤٠٠	٤٦٥٠	٧٥٠	١٥	٨٥	س	فسز	خداوندكار
٠٠	٤	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٢	١٨٥٠	٢٤٠٠	٤٦٥٠	٧٥٠	١٥	٨٥	س	١٨٩٠	سليمية
٠٠	٤	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٢	١٨٥٠	٢٤٠٠	٤٦٥٠	٧٥٠	١٥	٨٥	س	١٨٩٢	بنوفا لام لادن
٠٠	٤	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٢	١٨٥٠	٢٤٠٠	٤٦٥٠	٧٥٠	١٥	٨٥	س	١٨٩٢	بنوفا لام لادن
٠٠	٧	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٢	١٧٥٠	٢٤٠٠	٤٦٥٠	٧٥٠	١١	٧٠	س	فسز	طرادات درجته ثانية
٠٠	٧	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٢	١٧٥٠	٢٤٠٠	٤٦٥٠	٧٥٠	١١	٧٠	س	١٨٩٠	فرض باي
٠٠	٧	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٢	١٥٥٠	٢٤٠٠	٤٦٥٠	٧٥٠	١١	٦٩	س	١٨٩٠	هيبت غا
٠٠	٧	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٢	١٥٥٠	٢٤٠٠	٤٦٥٠	٧٥٠	١١	٦٤	س	١٨٩٢	لطف همايون
٠٠	٧	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٢	١٧٥٠	٢٤٠٠	٤٦٥٠	٧٥٠	١١	٧٠	س	١٨٩٢	شاديه
٠٠	٤	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠	١٩٥٠	٤٥٠٠	٩٠٠	٩٠٠	٧٠	س	فسز	طراد طور بيدي	
٠٠	٤	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠	١٩٥٠	٤٥٠٠	٩٠٠	٩٠٠	٧٠	س	فسز	بدرافاسم ولائق	
٠٠	١	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٢	١٨٥٠	٢٥٠٠	١٢٠	٢٢٠	٧	٤٧	س	١٨٩٠	سفن ضد الطور بيدي
٠٠	٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٢	٢١٥٠	٢٧٨٠	٢٣٠	٢٧٠	٧	٥٧	س	١٨٩٠	احدر
٠٠	٣	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٢	٢٢٥٠	٢٥٠٠	٤٥٠	٢٤٠	٧	٦١	س	١٨٩٢	نعمت
٠٠	٣	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٢	٢٢٥٠	٢٥٠٠	٤٥٠	٢٤٠	٧	٦١	س	١٨٩٢	شاهين دريا

سفن حربية

الاسم	الاسم		الاسم		نوع المعدن	سنة	أسماء السفن وأفرادها
	مقدار خزين الفحم	حزام الوسط	البطارقة أو المصباح	الأبراج			
سبار	طن	ميل	حصان	متر	متر	١٨٦٦	سبار
باني كوتسكي	٣٢٠	١١٥٨	٣٢٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	باني كوتسكي
بوريوربا	٣٠٠	١١٥٨	٣٠٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	بوريوربا
طرادات ذات رفاس	٣٢٠	١١٥٨	٣٢٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	طرادات ذات رفاس
آيينده فوان	٢٠٠	١١٥٨	٢٠٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	آيينده فوان
اربيكن	٢٤٠	١١٥٨	٢٤٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	اربيكن
احسان	٣٢٠	١١٥٨	٣٢٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	احسان
لهي	٢٠٠	١١٥٨	٢٠٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	لهي
مرمره	٢٤٠	١١٥٨	٢٤٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	مرمره
زيش	٢٤٠	١١٥٨	٢٤٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	زيش
ممنيت	٢٤٠	١١٥٨	٢٤٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	ممنيت
برهت	٢٤٠	١١٥٨	٢٤٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	برهت
بيك تجارت	٢٤٠	١١٥٨	٢٤٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	بيك تجارت
سودا	٢٤٠	١١٥٨	٢٤٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	سودا
صلبه	٢٤٠	١١٥٨	٢٤٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	صلبه
طائر بحري	٢٤٠	١١٥٨	٢٤٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	طائر بحري
سفن نقل ذات رفاس	٢٤٠	١١٥٨	٢٤٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	سفن نقل ذات رفاس
بابل	٢٤٠	١١٥٨	٢٤٠	١١٥٨	١	١٨٦٦	بابل

مدايع
من صنف كروبي وارسترونغ
١ - نداء على - سترونغ
٢ - كروب
٣ - جازيمير
٤ - ميزالور
٥ - سريغ الضرب
٦ - من قن

الطائفة المقررة
النايب لاطلاوي الطور يندو

١٣٤

رقم	الطائفة المقررة	النايب لاطلاق الطور وبدو	مناطق	الدرج				الارتفاع				الامتداد				تاريخ انزالها البحر	اسماء السفن واقواعها
				العرض	الارتفاع	العرض	الارتفاع	العرض	الارتفاع	العرض	الارتفاع						
١٣٥	مدريه	مدريه	من صيف كروب و رستور و قوع تدلى على الارض و قوع كروب عيار رستور منذ اليوز سريع الضرب مدريه و عيار المدافع	١	٣	١	٣	١٥٠	٣٥٠	٨	٧٨	١٨٦٩	١٨٦٩	١٨٦٥	شاهه مقدمه تريف بشك مسرت ده برقوقين سفن نقل فانت دوراليب	اركاوى اركاوى تنديه فوقايد اسماعيل	
١٣٤	مدريه	مدريه	مدريه	١	٣	١	٣	١٥٠	٣٥٠	٨	٧٨	١٨٦٩	١٨٦٥	شاهه مقدمه تريف بشك مسرت ده برقوقين سفن نقل فانت دوراليب	اركاوى اركاوى تنديه فوقايد اسماعيل		
١٣٣	مدريه	مدريه	مدريه	١	٣	١	٣	١٥٠	٣٥٠	٨	٧٨	١٨٦٩	١٨٦٥	شاهه مقدمه تريف بشك مسرت ده برقوقين سفن نقل فانت دوراليب	اركاوى اركاوى تنديه فوقايد اسماعيل		
١٣٢	مدريه	مدريه	مدريه	١	٣	١	٣	١٥٠	٣٥٠	٨	٧٨	١٨٦٩	١٨٦٥	شاهه مقدمه تريف بشك مسرت ده برقوقين سفن نقل فانت دوراليب	اركاوى اركاوى تنديه فوقايد اسماعيل		
١٣١	مدريه	مدريه	مدريه	١	٣	١	٣	١٥٠	٣٥٠	٨	٧٨	١٨٦٩	١٨٦٥	شاهه مقدمه تريف بشك مسرت ده برقوقين سفن نقل فانت دوراليب	اركاوى اركاوى تنديه فوقايد اسماعيل		
١٣٠	مدريه	مدريه	مدريه	١	٣	١	٣	١٥٠	٣٥٠	٨	٧٨	١٨٦٩	١٨٦٥	شاهه مقدمه تريف بشك مسرت ده برقوقين سفن نقل فانت دوراليب	اركاوى اركاوى تنديه فوقايد اسماعيل		
١٢٩	مدريه	مدريه	مدريه	١	٣	١	٣	١٥٠	٣٥٠	٨	٧٨	١٨٦٩	١٨٦٥	شاهه مقدمه تريف بشك مسرت ده برقوقين سفن نقل فانت دوراليب	اركاوى اركاوى تنديه فوقايد اسماعيل		
١٢٨	مدريه	مدريه	مدريه	١	٣	١	٣	١٥٠	٣٥٠	٨	٧٨	١٨٦٩	١٨٦٥	شاهه مقدمه تريف بشك مسرت ده برقوقين سفن نقل فانت دوراليب	اركاوى اركاوى تنديه فوقايد اسماعيل		
١٢٧	مدريه	مدريه	مدريه	١	٣	١	٣	١٥٠	٣٥٠	٨	٧٨	١٨٦٩	١٨٦٥	شاهه مقدمه تريف بشك مسرت ده برقوقين سفن نقل فانت دوراليب	اركاوى اركاوى تنديه فوقايد اسماعيل		
١٢٦	مدريه	مدريه	مدريه	١	٣	١	٣	١٥٠	٣٥٠	٨	٧٨	١٨٦٩	١٨٦٥	شاهه مقدمه تريف بشك مسرت ده برقوقين سفن نقل فانت دوراليب	اركاوى اركاوى تنديه فوقايد اسماعيل		
١٢٥	مدريه	مدريه	مدريه	١	٣	١	٣	١٥٠	٣٥٠	٨	٧٨	١٨٦٩	١٨٦٥	شاهه مقدمه تريف بشك مسرت ده برقوقين سفن نقل فانت دوراليب	اركاوى اركاوى تنديه فوقايد اسماعيل		

وابورات الحكومه المسماة بوابورات الادارة الخصوصه

الجملة بالطن	أسماء الوابورات	الجملة بالطن	أسماء الوابورات	الجملة بالطن	أسماء الوابورات	الجملة بالطن	أسماء الوابورات	الجملة بالطن	أسماء الوابورات
٧٥	أبدین	١٥٠	هركه	٢٧٤	استنبه	٨٩٥	عمر حديد	١٤٩١	ارسلان
١٠٠	شاهین	١٤٩	قادريه	٢٥٩	خارث عجرى	٨٨٠	سقاريه	١٣٠٣	سكوفل
٥٥	بندك	١٣٨	ازبند	٢٢١	بلوچه	٦٧٨	خانك	١٢٠٥	حسن بانا
٥٠	فرزاد	١٣٠	موصل	٢١٧	كر كركر	٥٢٢	طوله بيجيه	١١٨٥	علي صابو بانا
٥٠	مسمود	١٢٢	أناطول	١٨٠	ادريده	٥١٥	بارس	١١٨٤	كامل بانا
٤١	شمس	٩٢	تصفور طائي	١٠٢	سلوري	٥٠٦	سلالين	١١١٩	ترك
٣٠	بكي قيو	٩٠	احسان	١٥٠	فناك	٤٠٠	غند	١١١٦	شرفريمان
..		٧٥	زنجيه	١٥٠	مرمره	٢٨٢	كريد	١١١٦	مدارو بيق
..		٧٥	ماليه	١٥٠	مدارو ابد	٢٥٢	مغازي	٩٩٣	قصورى
..		٧٥	قاضي كوي	١٥٠	هكيدك	٢٣٣	لطفيه	٩٩٣	فنان

ولهذا الالادار زوزو وكان حمار بانا ايضا

بواخر ادارة عمان النهريه بالبصره

عرضها بالقدم	طولها بالقدم	جسامتها بالطن	أسماء السفائن	عرضها بالقدم	طولها بالقدم	جسامتها بالطن	أسماء السفائن
٢٠٠	١٢٠	١٤٩	عزريه	٢٤٥	١٩٠	٥٣٨	موصل
١٣٠	١٢٠	١٠٠	بصون	٢١٥	١٧٨	٢٨٩	فراش
١٢٠	٥٦	٧٠	شبهها	٢٠٥	١٧٥	٢٤٦	رسافه
٠٩٠	٦٤	٦٥	ترايا	٢١٥	١٥٠	٢١٣	مسكت
١٠٥	٥٤	٦٢	حديه	١٥٥	١٤٤	١٦١	بغداد

﴿ الفصل الخامس عشر ﴾

﴿ القوة الحربية البرية لدولتنا العلية ﴾

طريقة الدفاع بتركية أوروبا وما بها من الحصون والقلاع

اعلم أن المسئلة التركية محصورة بتمامها في مدينة القسطنطينية ولذا قد أجمع رجال السياسة من أهل أوروبا على سلامة الدولة العثمانية من أن تسهبا لاد اغراض وتأيد ممر كز العثمانيين بهذه المدينة المهمة حفظها من مطامع الروسيا خصوصا وقد أبدت أوروبا بذلك بعدة معاهدات أشهرها معاهدة باريس ومما ثبت بهذا القول الثماون الذي أظهرته دول أوروبا وبخصوص مالدولة العثمانية من الاملاك الاخرى والسهولة التي صدقوا واعترفوا بها على استقلال الولايات التي انفصلت عن الدولة ولهذا السبب كنت ترى أن قوة الدفاع بأجمعها يبيلاد الدولة انحصرت تقريرا بالقسطنطينية وعلى ساحل البوسفور ومع أن معاهدة برلين الشهيرة (١٣ يولييه سنة ١٨٧٨ م) قضت بتأسيس اماره متمتزة وهي بلاد البلغار الا انها جعلت الحق للدولة العثمانية بأن تحصل جنودها من الحرب خطوط جبال البلقان لكن بما أدخل على هذه المعاهدة بعد ذلك من التحويرات مثل اجتماع إيالاتي البلغار والروم إلى الشرقية إلى اماره واحدة لم يبق للدولة الحق في استعمال هذا الخط الدفاعي الطبيعي النفيس ولهذا لم يبق للدولة العثمانية بأوروبا ما مانع عظيم يحمي قلبها من جهة البر هذا ومن جهة ثانية ترى أن الروسيا لعدم اعتبارها معاهدة باريس المبرمة سنة ١٨٥٦ وتشيد هادونتها بحرية عظيمة ودور صناعات بالبحر الاسود صار في امكانها ومن السهل لديها الاغارة على أملاك الدولة ببحر وتلقاه هذه الاحوال والاسباب كانت الضرورة القاضية على الدولة العثمانية بحماية قلبها من دوجته وهي أن تحصن القسطنطينية تحصينا يقيها من كل هجوم يرى وأن تجعل الاقتراب اليها من طريق البحر مستحيلا أعني أن تستد مضيق الدردنيل والبوسفور سدًا محكما

ولما لم يكن من الممكن أن تكون أسباب الدفاع البرية قاصرة على القسطنطينية وحدها كان من الواجب إيجاد نقط حصينة أمام هذه العاصمة لاستنباب قدم الدولة في أقاليمها الاخرى ولتشرف من هنالك على ممالك أوروبا والتحقق لنفسهم ادرجة بين ممالكها هذا حصنت الدولة المذ كورة مدينة أدرنة الواقعة في مكان عظيم جدا لانها كالعتبة الفاصلة لفروع جبال رودوب الاخيرة عن جبال استرانجه ولوقوعها عند ملتقى وادي مرج وطونجه الكبيرين وعقدة الاتصالات المؤدية إلى القسطنطينية وقد أقامت الدولة بهذه المدينة الآن أكثر من أربعة عشر حصنا منفصلة مشيدا عاليها من التراب كأنظر بقة الحديثة ولما كانت هذه الحصون واقعة متقابلة على شاطئ نهرين كانت من أحسن النقط الارتنكازية التي يمكن للجيش الاعتماد عليها لانها تسمح لها باجراء جميع حركاتها في كل الاتجاهات متى أرادت

أما القسطنطينية فيقسمها خليج قرن الذهب أو الخليج الابوي إلى قسمين الجنوبي منها هو استانبول والشمالى عبارة عن غلظه وبيرا (بك أوغلي) فاستانبول محفوظة من جهة البر بسور قديم يمتد من قلعة يدي قلّه جنوبا إلى الخليج الابوي جاعلا جهة سيدي أبي أبواب الانصارى خارجة عنه ويحمي

القسطنطينية مباشرة بخط دفاع عظيم يسمى بخط الكاغد خانة وهذا الخط يتركب من ثلاثة خطوط
حصينة أبعد هابتدي من بحر مرمرية إلى قرية مكري كوى وينتهي على ساحل البوسفور وعند
بيولدره وانخط الثاني بقوى الخط الأول شمالا وهذا الخطان مكوّنان على الخصوص من متراس
أوردي وانخط الثالث يكون ملجأ للعداين أو الخطين السابقين وهو مركب من ثكنات عظيمة
دفاعية وهو متسلط على المدينة مباشرة وهذه الثكنات هي ثكنة داود باشا ورامن حقلك غربا
وقلعة طاييه وثكنة الطوبجيجة والمجيدية شمالا

أما الخط الاستحكامي الدفاعي الثاني المسمى بخط جتالجه فإنه واقع على مسافة يوم للبحر من غربي
القسطنطينية وهو يمتد من البحر الأسود إلى بحر مرمرية على عرض يبلغ ثلاثين كيلومترا ويمنع كل
جيش يريد القرب من العاصمة وبه عدد كثير من الاستحكامات والحصون المنعزلة والبطاريات بها
أزيد من ٢٥٠ قطعة من المدافع المختلفة العيار ونحو ١٢٠ من المدافع الجبلية وغير ذلك واعلم أن
كل من تفكر فيما تصف به العثمانيون من قوة الدفاع الغربية والصدق والصبر في القتال والاقدام
لايشك أصلا في أن الهجوم على القسطنطينية برا يعرض الجيش الهاجم لصعوبات هائلة ويحتاج
لهدر دماء الآلاف المؤلفة من الجنود

أما الدفاع عن هذه المدينة الشهيرة ببحر من أسهل الامور لانه لا يمكن الدخول منها الا من مضيقين
طويلين وهما البوسفور والدردينيل فمضيق البوسفور قناة كثيرة التعاريج يبلغ طولها ثلاثين
كيلومترا تقريبا ويختلف عرضها بين ستمائة متر وثلاثة آلاف متر وأشهر قلاع البوسفور هي حصون
روم ايلي قواق ونالي طاييه على الشاطئ الاوروبي وآناضولي قواق ويوشع أو مجمار قلعة تسمى على
الشاطئ الآسيوي ومدخل هذا المضيق يحميه من جهة البحر الأسود قلاع روم ايلي فناري
وآناضولي فناري ويحمي الأولى منها طوابي كيليه او كيلوس وحصار قاجه وهي تمنع السفن من أن
تقرب من شاطئ أوروبا ويحمي الثانية طاييه ابروه أو الماسر ووظيفتها كوظيفة الأولى أي أنها
تمنع السفن من القرب إلى الساحل الآسيوي ويحمي هذا المضيق جنوبا أمام القسطنطينية
قلعتاروم ايلي حصار وآناضول حصار الا انه ليس لهما الآن أهمية عظيمة ويوجد على الشاطئين
بين هذه القلاع المتباعدة عدة طوابي وبطاريات غالبها حديث الانشاء تتقاطع مقدوفاتها وهي وان
لم تجعل المرور من هذا المضيق مستحيلا الا أنها تجهد له من أصعب الامور وأشدّها خطرا

أما مضيق الدردنيل فطولُه نحو ٧٥ كيلومترا وعرضه يختلف بين ١٢٠٠ متر و ٧٥٠ متر
وتبلغ سرعة تياره في الساعة خمسة كيلومترات ويختلف عمقه بين ٥٠ و ٦٠ مترا وقلاعه واقعة عند
منتهاه من جهة البحر الابيض المتوسط وبه أيضا حصون أخرى عديدة إلى الشمال تمتد على طول الجهة
الضيقة منه حيث يشتد التيار الآتي من بحر مرمرية والتيار الآتي من البحر المتوسط ويحمي مدخل
هذا المضيق قلاع وبطاريات ستة البحر على الشاطئ الاوروبي وقوم قلعة تسمى أو حصار سلطاني
على الشاطئ الآسيوي وهاتان القلعتان وان تباعدتا عن بعضهما بنحو أربعة كيلومترات تقريبا
الا أن مقدوفاتها تتقاطع تماما إلى الشمال بالجهة الشمالية والجنوبية من ميدوس على الشاطئ
الاوروبي وجنوبي رأس ابيدوس على الشاطئ الآسيوي توجد قلاع وحصون وبطاريات تسد
هذا المرصد استحكا ومن أشهر القلاع وأمنعها حناق قلعة أو القلعة السلطانية على الساحل

الآسيوى وسد البحر أو كلبد بحر على الساحل الاوروبى وهاتان القلعتان مشيدتان عند مكان ضيق لا يزيد عرضه عن ١٢٠٠ متر يمكن سده حالا بواسطة النوربيد أو السلاسل الحديدية أو غيرها من الموانع وجميع هذه الحصون والقلاع والطوابى مسلحة بأختم المدافع وأحدثها اختراعا وقد اعتنت بها الدولة خصوصا في هذه الايام المتأخرة اعتناء عظيما وأخذت ترسل من وقت الى وقت الضباط والمهندسين ليرفعوا اليها التقارير المفصلة بما يرووه من النقص أو أسباب التقوية وما مائل ذلك وليس للدولة العثمانية فيما بقى من أملاكها باورويا من المدن المحصنة تحصينا حقيقيا على الاصول الحديثة الا القليل أهمها المدن القريبة من حدود بلاد اليونان وبعض مدن البانيا أما جميع ما عد ذلك من المدن والمواقع المهمة والنقط الثانوية في جميعها قلاع قديمة معتبرة كما يمكنه تركيز عليها القوة العثمانية وهذه القلاع وان كانت متخرجة تقريبا الا انها لازالت تصلح جيد للدفاع أثناء الثورات الاهلية ومع ذلك فانه لا جيل قع دسائس أهل الصرب والجبل الاسود وغيرهما مشيد العثمانيون نقط مستحكمة تعتمد عليها جيوشهم في سنجق بيك بازاروشيدوا أيضا كثير من القلاع المنعزلة حول مدينتى سنجيه وبيك بازار وحصنوا أيضا قلاع مدينة برويزه الواقعة عند مدخل خليج أرطه من جهة بلاد اليونان

طريقة الدفاع بتركية آسيا وما بها من الحصون والقلاع

لا يخفى ان ميدان الحرب الاخير بين الروس والعثمانيين لم يكن بقطعة أوروبا بقطب بل كان أيضا بآسيا الصغرى وهذا كان من الموافق أن نذكر باختصار طريقة الدفاع التي للدولة بآسيا الصغرى فنقول ان أعظم وأهم النقط المستحكمة بهذا القسم هي مدينة أرضروم الواقعة بين هضبة أرمنيا وهضبة آسيا الصغرى عند ملتقى الطرق الآتية من بلاد القوقاز المؤدية الى آسيا الصغرى وبلاد فلسطين والخليج الفارسي ولما كان لهذه المدينة من الأهمية ما ذكرناه اعتنى العثمانيون بتحصينها تحصينا قويا بحيث أصبحت الآن من المعامل التي لا ترام ويحمي هذه المدينة سور حصين يدافع عنه ست قلاع منعزلة وخارج هذا السور على مسافة من المدينة خط آخر به عشرة حصون وكثير من الطوابى المنعزلة وبهذه المدينة غير ذلك عدة مستودعات ومخازن عسكريه بها كثير من الاسلحة المختلفة ومعدات الحروب والأتها بحيث تكفى على الأقل جيشا يزيد عن ٥٠,٠٠٠ مقاتل وبيرو الاناضول أيضا عدة مدن مستحكمة أشهرها مدينة بايزيدوهي تحفظ الطريق بين اروان وأرضروم والشكرد وهذه الاخيرة هي نقطة اتصال بين أرضروم وبايزيد وشوش قلعه وهي من القلاع التي تصدهجمات الجيش الذي يريد الاحاطة بأرضروم من جهة الجنوب

وجميع الجزر التابعة للدولة قلاع وحصون بها جنودها المستحفظه وأهم هذه القلاع وأمنعها وأجودها تاسلج الكائنه منها بجزيرة كريدك قلاع قنديه وروحو وخانيه

الطرق الحديدية - تنقسم الطرق الحديدية بتركية أوروبا الى فرعين كبيرين وهما خط بلاد الروملى ويشتمل على خط القسطنطينية وأدرنه حتى حدود البلغار وبه عدة نفرعات منها الفرع الذهاب الى دده اناج المار بقلهلى برغوس ومنها الى ادرنه وثانيها خط بلاد مقدونيا ويشتمل على

الخط الذهاب من سلانيك الى متروبيجه وبه فروع منها فروع أسكوب الواصل الى حدود الصرب
شخو وورانبجه والخط من سلانيك الى مناستير وبه هذه الخطوط يمكن نقل الجيوش العثمانية الى الجهة
الشرقية من تركيا أو روبا إلى المدافعة عن القسطنطينية وحمايتها وللاذهاب على بلاد البلغار واعلم
أن الجنود المعسكرة بجهة قوصوه وغيرهما من بلاد مقدونيا والتي يمكن جلبها بواسطة الفروع
الحديدية المختلفة بهذه الجهات الى مدينة سلانيك يمكن نقلها من هذه المدينة بحرا الى دده أناج
أو الى القسطنطينية ان لم تسافر من سلانيك الى القسطنطينية بواسطة الخط الحديدى الذى تم
أو كاد يتم انشاؤه قريبا بعدين العاصمة وهذه المدينة ولكن لما كانت عربات هذه الخطوط الحديدية
قليلة وليست الخطوط مزدوجة يظن أن النقلات زمن الحرب يعثر بها بانه ان لم تتداركها الدولة بما
يمنع ذلك

الجيش البرى

جميع العساكر - ان القانون الصادر فى ٢٧ صفر سنة ١٣٠٤ (٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٦)
يجعل الخدمة العسكرية اجبارية وشخصية على جميع رعايا الدولة المسلمين ومدتها عشرون سنة
ومع ذلك فان عدة طوائف من المسلمين معفون من القرعة العسكرية ومدتها الخدمة فى الجيش موزعة
على الكيفية الآتية ست سنوات فى الجيش العامل أو النظام والاحتماطى وثمان سنوات فى جيش
الريفي وست سنوات فى جيش المستحفظين والقسم الذى يؤخذ كل سنة ينقسم الى طبقتين تشمل
الاولى الشبان الذين لا يعرفون من الخدمة لسبب من الاسباب والطبقة الثانية تشمل المعفيين بأسباب
عائلية أو صناعية أو غيرها كالمعفيين بسبب العاهات ورجال الطبقة الاولى يدخلون فى سلك الجيش
العامل مدة ثلاث سنوات أو ستة شهور أو تسعة وذلك حسب ما اذا كانوا أدرجوا ضمن الفرقة الاولى
أو الثانية من القسم السنوى وجنود الطبقة الثانية أى المعفون لاسباب عائلية أو غيرها كما تقدم أى
الذين يصلحون منهم للخدمة العسكرية تعطى لهم التعليمات العسكرية يوم فى الاسبوع مدة ثمانية
شهور ويقوم ضباط الريف الدائمين بتعليمهم أما رجال الفرقة الثانية فانهم بعد أن يتموا مدة خدمتهم
العسكرية التى تكون من ستة شهور الى تسعة كما قلناه (أى الى الوقت الذى ينتقلون فيه الى
احتياطى الجيش العامل فى نفس الزمن الذى ينقل فيه جنود الفرقة الاولى الذين هم من درجتهم)
فانهم يكونون جيشا احتياطيا يمكن ادخاله فى سلك الجيش العامل لسد النقص الذى يحدث بين مجموع
جنوده الموزعين بالبلاد فى وقت السلام

نظام الجيش - ان الحضرة العلية السلطانية هى الرئيس الاعظم لجميع الجيوش البرية والبحرية
أما وزير الحرب التابع لحضرتها مباشرة فانه رئيس ادارة الجيش ورئيس أركان الحرب العمومية
واعلم ان أرض الدولة مقسومة الى سبع مناطق عسكرية بكل منطقة منها جيش يسمى
بالأوردى وهذا الأوردى أو القملى ينقسم الى أربع فرق وثمان لوات و ١٦ ألأياو و ٦٤ أورطة
و ٢٥٦ بلو كاوكل أو ردى من هذه الأورديات ما عدا السابع الذى لا يوجد به الجنود عاملة
يتحركون زمن الحرب ويشتمل كل أوردى على جيش من النظام وجيشين من الريف وجيش من

المستحفظين وفي زمن السلم يكون بكل جهة من جهات الاورديات المذكورة جيش تام من النظام وأربع فرق من بيادة الرديف (١) وما عدا هذه الاورديات السبعة فان بلاد كريد وطرابلس الغرب والحجاز تحتلها جنود عديدة ليست داخله ضمن الاورديات المذكورة وكل أوردي يشتمل على فرقتين من الرجالة بكل واحدة منهما أو رطة يقال لها أوجيه (أي صيادون) وأربعة آليات من الرجالة وفرقة من السواري بهما ستة آليات تكون ثلاث لواءات وفرقة من الطوبجية مشتملة على عدة بطاريات راكبة وستة آليات مكوّنة لثلاث لواءات وأورطة مهندسين حربية وبلوك تلغرافية وأورطة للحملة وهذا الجيش التي يجزيرة كريد وبالطرابلس الغرب وبلاد الحجاز مسلحة بالسلحة مختلفة

الجيش وقت السلام - يتألف الجيش العثماني في وقت السلم من رجالة وفرسان وطوبجية أما الرجالة فتشتمل على ٦٦ آليات بكل ألي أربع أورط ومن الآيين من الزخاف بكل ألي أورطتان ومن ١٥ أورطة من جنود الأوجي وأورطتين من البياده مستقلتين منهما واحدة راكبة فيكون المجموع ٢٨٢ أورطة

أما الخيالة فمتركب من ٣٩ آليات بكل ألي خمس أورط ومن نصف ألي به أورطتان الجميع ١٩٧ أورطة ويضاف الى ذلك ألي سواري لتربية الخيول أوجعها من كبد من خمس أورط والاورطة الخامسة من كل ألي تكون بمثابة احتياطي له

أما نظام الطوبجية الحالي الذي ترتب في سنة ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م) فلا يشتمل الا على ٣٢ آليات (٢) وأقسام طوبجية الفرق المختصة لاراضي الدولة ومجموع كل ذلك ٢٣١ بطارية منها ١٨ بطارية سواري و ١٣٩ بطارية راكبة و ٤٤ بطارية جبلية (بكل بطارية ستة مدافع) وقد اشترت الدولة من معمل كروب في سنة ١٨٩٤ ٧٢ هاونا (عيار ١٢ سنتيمتر) لايجاد ١٢ بطارية وعلى ذلك يكون ترتيب قسم الطوبجية في الاوردي الواحد على الكيفية الآتية يرتجى لواء يشتمل على قسم مستقل من الطوبجية الراكبة (ذو ثلاث بطاريات) والايين يشتمل كل واحد منهما على قسمين (بكل قسم ثلاث بطاريات راكبة) ايكنجى لواء يشتمل على الآيين (بكل ألي قسمان بكل قسم ثلاث بطاريات راكبة) وأوججى لواء يشتمل على الآيين بكل ألي قسم به ثلاث بطاريات راكبة وقسم به ثلاث بطاريات جبلية

طوبجية القلاع - أما طوبجية القلاع فانها تتركب من ثلاث آليات بكل ألي أربع أورط وآلي به خمس أورط وأورطة منفردة للجميع ١٨ أورطة

مهندسو الحرب - ينقسم مهندسو الحرب الى جنود ميدان معتبرة بمثابة قسم غير منفصل من الاورديات والى جنود قلاع تابعة لجيوش الطوبجية أما جنود الميدان فانها منتظم تماما (حتى

(١) قدسنت نظارة الحربية هذا الترتيب بحيث انه يكون في كل جهة من جهات الاورديات ٤٤٨٠٠٠ جندي تقريبا يختلف بينهم بين ٢٠ و ٤٠ سنة مكفون جميعا تأدية الخدمة العسكرية

(٢) قال موزيمولا صاحب كتاب القوى العسكرية بالدول أوروبا وهو الذي خلصنا منه هذا الفصل ان النظام الحديث الذي سن الطوبجية العثمانية لم يتقبل بعد لغاية السنة التي طبع فيها كتابه وهي سنة ١٨٩٥ م

سنة ١٨٩٤) وتشتمل فقط على أربع أورط من المهندسين بكل أورطة أربع بلوكات وثلاث بلوكات مستقلة من البطيحية وأربع بلوكات للتاغراف الجميع ٢٣ بلوكا واعلم أن كل أورطة بها بلوكان من البطيحية وبلوك من الأعجمية وبلوك من صنائعي الجسور (كوبريجية) أما جنود الحملة فيتركبون من ست أورط بكل أورطة ثلاث بلوكات

جنود الادارة العسكرية - تتركب جنود الادارة العسكرية من الألى شغالة بثلاث أورط بكل أورطة ٨ بلوكات ومن سبع أورط شغالة أيضا أما التمارجية فانهم داخلون ضمن خدمة الاستباليات ولبسوا مقسمين الى أقسام خصوصية وقد جعلت الدولة العثمانية جيشها العمومي في وقت السلام مائتي ألف جندي تقريبا

ويتركب كل أوردي من الارادى الستة العاملة السابقة من أربع فرق من الرديف مكونة لثمانية لوات ١٦ آليا و ٦٤ أورطة و ٢٥٦ بلوكا وكل قسم من الاقسام المذكورة من أول الفرق لغاية البلوك بما يكفي من الضباط الدائمين لجعل هذا القسم على قدم الحرب الجيش في زمن الحرب - اعلم أن الدولة العثمانية يمكنها أن تجرد من الجنود المنظمة المدربة في زمن الحرب ما يأتي بيانه

أولا - ستة أورديات (١) (جنود عامة واحتياطية) . ٢٤٠,٠٠٠ رجل

ثانيا - ١٢ أوردي (٢) من الرديف ٤٦٠,٠٠٠ رجل

مجموع جيش الميدان ٧٠٠,٠٠٠

ثالثا - ٧ أورديات من النظام وثلاث فرق للاحتلال ٧٨,٠٠٠

رابعا - جيوش طوبجحية القلاع ٣٥,٠٠٠

خامسا - المستحفظون ويتركبون من ٣٨٤ أورطة . ٣٦٠,٠٠٠

مجموع الجنود ١,١٧٣,٠٠٠

ويضاف الى جنود الميدان الايات الخيالة الغير المنظمة تنظيميا عسكريا بحقيقة المسمون بالالايات الجديدة ويتألفون من رجال قبائل الاكراد الذين لم يكونوا يخضعون قبيل ذلك لقانون القسرة العسكرية ويريد مجموع هذه الجنود عن تحسين الآياي يختلف عدد الآياي الواحد بين ٥١٠ و ١١٥٠ خيال وهم من أحسن الجنود قوة وجراءة وإقداما وصبرا على القتال ومعرفة تامة بركوب الخيل بحيث انهم لا تصافهم بهذه الصفات الحربية الخاصة بهذا الجنس بعوضون ما يمكن أن ينقصهم من التعليم العسكري والنظام الحربي وعلى ذلك كان في إمكان الدولة العثمانية أن تضع على قدم الاستعداد في وقت الحرب

(١) كل أوردي به ٣٤ أورطة بياده وعشر اورط سوارى و ١٢ بطارية وغير ذلك مما يحتاجه الجيش من الجنود الاخرى

(٢) بكل أوردي ٣٢ أورطة بياده وعشر أورط سوارى و ١٢ بطارية ويضاف اليها ما يلزم من الجنود للخدمات الاخرى

أولا - جنود منظمة تنظيما تاما بين جيوش عامة واحتياطية ما يبلغ ٢٥٠,٠٠٠

ومن الرديف ٢٨٠,٠٠٠

ومن المستحفظين ١٨٠,٠٠٠

٧١٠,٠٠٠

ثانيا - من الجنود الذين لم يتم تعليمهم - تعليم عسكريا بين جيش
عامل واحتياطي

ثالثا - من الجنود القليلة النظام أو العديمته بين جنود عاملة
واحتياطية

ومن الرديف ٣٢٠,٠٠٠

ومن المستحفظين ١٨٠,٠٠٠

المجموع ٦٥٠,٠٠٠

المجموع الكلي ١,٤٩٠,٠٠٠

وقد اتضح من ذلك أن الدولة العثمانية تمتلك جميع العناصر اللازمة لتكوين ١٨ أوردى

يمكنها أن تسوقها إلى ميدان القتال عند اللزوم

سلاح الجنود - اعلم أن قسما من الجنود الرجال مسلح ببنادق ماوزر اختراع سنة ١٨٨٤ من عيار

٩٥٠ ميليمترات مخزن يسع ثمانية خراطيش ويستعمل الطوبجية مدافع كروب من عيار ٩

سنتيمتر وذلك في البطاريات الرابضة وعيار ٨ سنتيمتر في بطاريات السوارى وعيار ٧ سنتيمتر في

البطاريات الجبلية ٥ بتصرف من كتاب الميسومولار المسمى قوى الدول الأوروبية المطبوع

بباريس في سنة ١٨٩٥ م

ولا يخفى أن الدولة العثمانية جعلت من أول واجباتها من القديم العناية بجيوشها فكانت بذلك

لا تهمل طريقة من الطرق التي تعود على جنودها بالمنفعة فهي دائبة النظر والامتحان لجميع

الاتجاهات الحديثة والمخترعات العسكرية الحالية فإذا أضفنا إلى ذلك ما اشتهر عن الجندي

العثماني من الاستعداد والاقدام والصرف في القتال والطاعة التامة لرؤسائه لمكننا بأن القوة

العسكرية العثمانية هي من أحسن وأقوى القوى العسكرية بجميع الدول الأوروبية

وقد أيد هذه الحقيقة كثير من ضباط أوروبا وأمرائها العسكريين

وتخص بالذكر منهم امبراطور ألمانيا الذي أعجب كثيرا بنظام

الجنود العثمانية وشجعهم حينما زار

الاستانة سنة ١٨٨٩

٢

تم الجزء الاول ويليها الجزء الثاني يحتوي على تاريخ مصر وانكثره وفرناسا

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين ﴿وبعد﴾ فقد دعاني صديقي
الفاضل حضرة اسمعيل سرهندك بك ناظر المدارس الحريسة للنظر في تأليفه المسمى بحقائق
الانخبار عن دول البحار فوجد اسمه طابق مسماه ومبناه وافق معناه اذ قد اشتمل على ما لم يشتمل
عليه مؤلف عربي من نوعه فيما علم حتى أضحي لا يستغنى عنه كل مهذب يريد استطلاع أحوال
الغابرين ووقائع الماضين وأخبار الملل وحالات الدول وماجزيات الاعصار وحوادث الادهار
وكان بحمد الله كتابا وافيا وللرام كافيا ومن داء الجهالة في هذا الفن شافيا بعبارة عربية مصححة
مرصفة منقحة وها هو بنفسه شاهد للشاهد ولا يحتاج العيان الى برهان * سبوح لها منها
عليها شواهد * ولما كانت فائدة التاريخ لا تخفى كان هذا الكتاب من ألزم ما يحتاجه المعلم والمتعلم
والمحرر والفقير والنائر والشاعر فهو خزانة آداب وروضة معارف والله أرجو أن ينفع به
ويجعله تبصرة لمن يتعقل ونبراس لمن يتدبر كما هي رغبة مؤلفه الفاضل

مصححه ومرصفه

القاهرة في ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٣١٤

اسمعيل رأفت

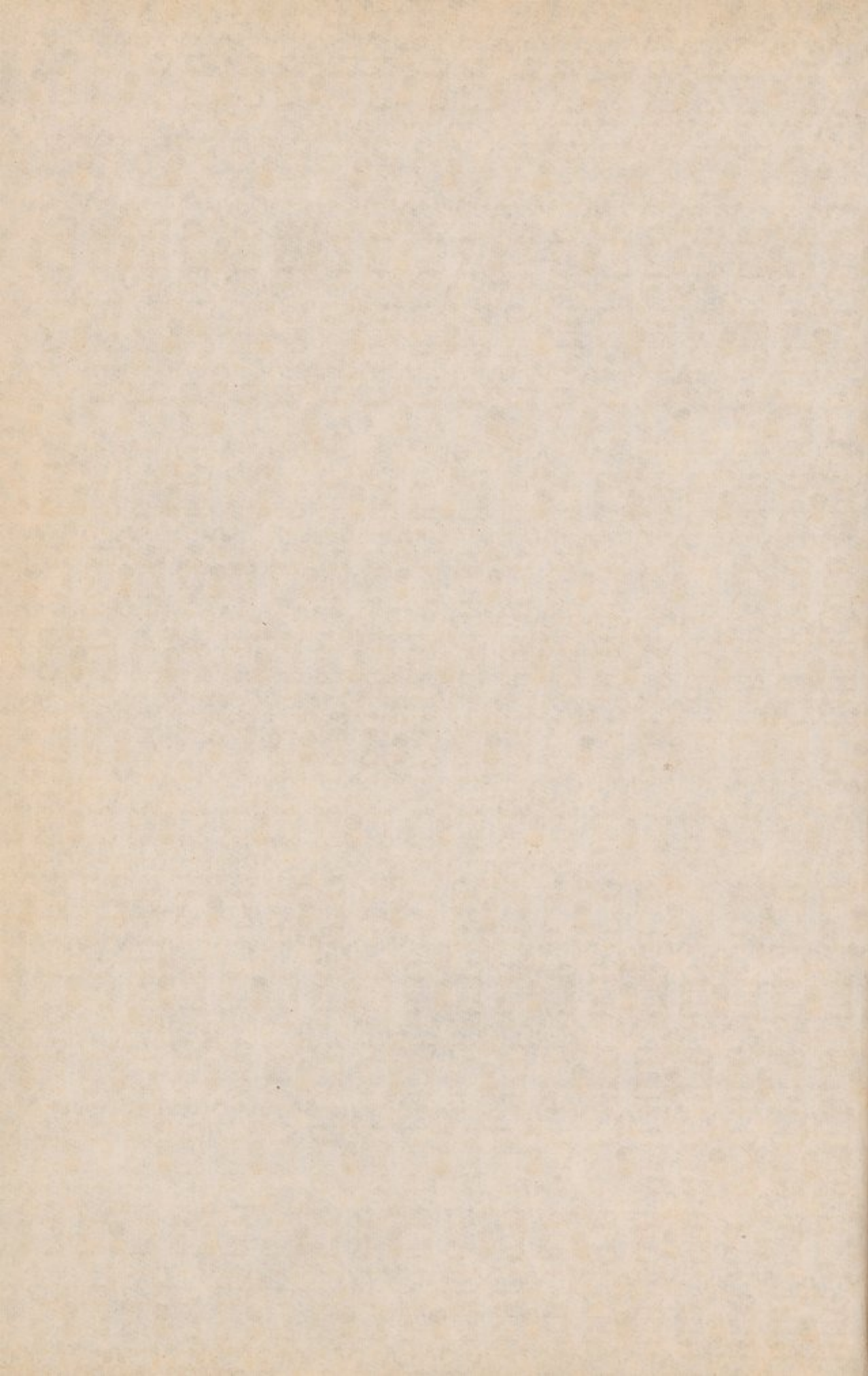
مدرس التاريخ والجغرافيا

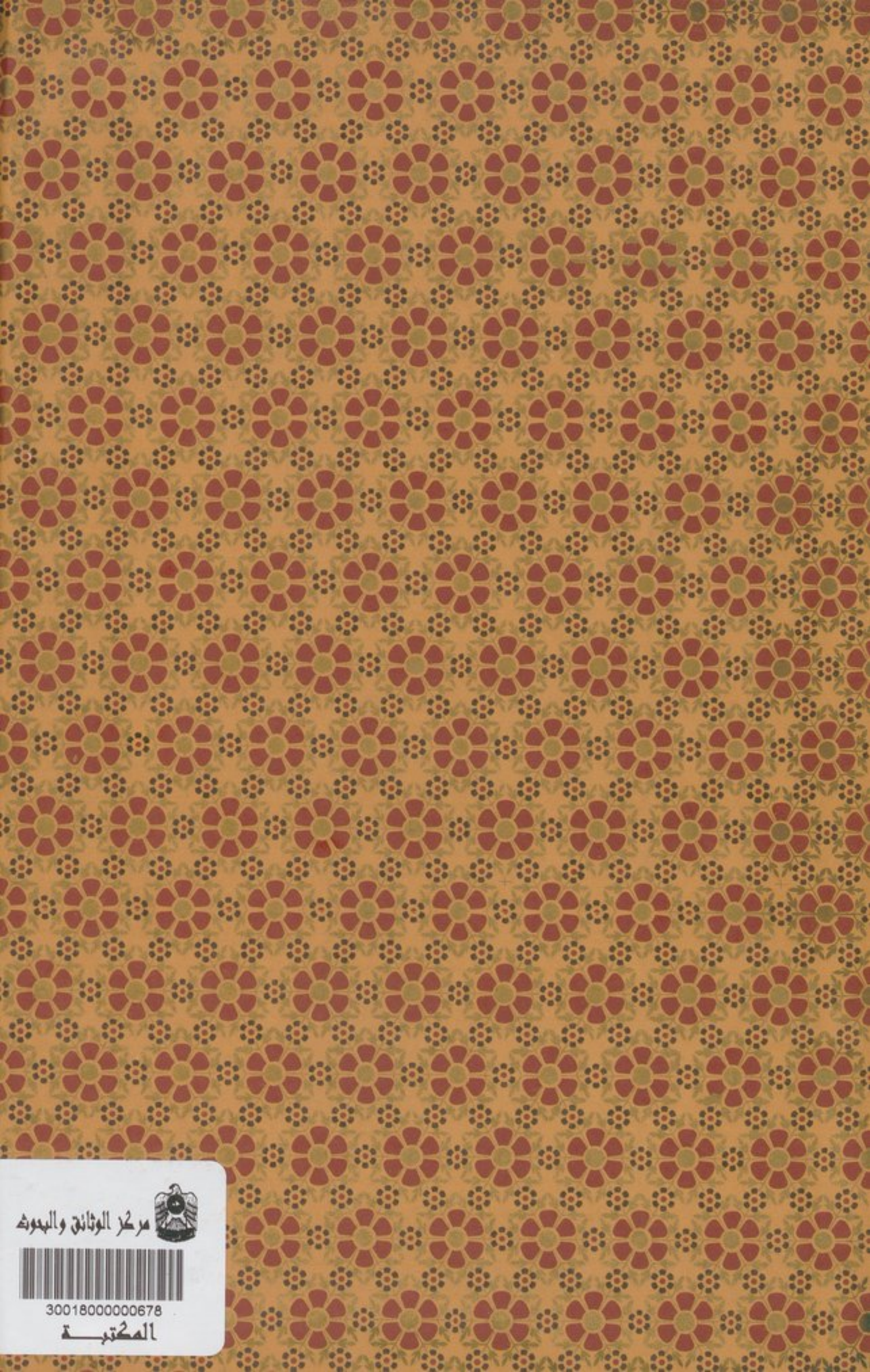
بقسم المعلمين

العربي

يقول خادم تصحيح العلوم بدار الطباعة البهية بيولا ق مضر المعز به الفقير الى الله
تعالى محمد الحسيني أعانه الله على أداء واجبه الكفائي والعيني

بحمد الله تم طبع الجزء الاول من الكتاب الذي كتب في طيه جميع المحاسن والطرس البهيج سطرت
سطوره سطر الزهر سقى بماء غير آسن المسمى بحقائق الاخبار عن دول البحار ابدى لنا
عجائب الاولين وعرائب الآخرين وبين لنا ما كان عليه اصطلاح الاقدمين في أحكامهم
وتراتب معاشهم ونظامهم وخطط ابنية ومدائن الماضين ومزارعهم ورياضهم وسلمهم
وحروبهم وغاراتهم وأظهر لنا تاريخ الانسان من مبدا الخلق الى حادثة الطوفان وما انتشأ
بعده مما اشتملت عليه السفينة من الانسان وغير الانسان وجميع الدول والشعوب والقبائل
العربية وغير العربية حتى انتهى بدولة آل عثمان وبالجملة فهو بحر زاخر احتوى على جميع
أحوال الاوائل والاواخر مشيد المباني مؤيد الاحكام والمعاني رقيق الالفاظ محكم العبارة
متنق الاسلوب دقيق الاشارة كيف لا وهو طراز غنم بنان الفطن المتقن ووشى زركشه الصنع
المتفنن الذكي الاريب الفهامة الليب حضرة اسمعيل بك سرهنگ ناظر المدرسة
الحرية ولما كان غاية مطلب كل طالب ومنتهى رغبة كل راغب يحتاج اليه المتعلم
ويستفيد منه المعلم شرع مؤلفه حفظه الله في طبعه رغبة في عموم نفعه بالمطبعة الزاهية
الزاهرة بيولا ق مصر القاهرة فانهى والحمد لله طبع هذا الجزء على أحسن وضع وأجل
صنع وقد بذلنا الجهد في تأمله وتصحيحه وتهذيبه وتنقيحه فإب بحمد الله يسر الناظر
ويشرح الخاطر في عهد من جعله الله درجة عظمى لرعيته ونعمة كبرى على بريته محيي
السيرة العمريه ومجدد العدالة الكسرويه وحامي حتى الحوزة النبيلة والايالة المصرية
المحفوظة بآيات المثاني أفندينا المعظم (عباس حلي الثاني) أدام الله أيامه ووالى على رعيته
انعامه ملحوظا هذا الطبع البهيج والعرف الارجح بنظر من عليه أخلاقه بمجمل الطبع
تنتى حضرة وكيل المطبعة محمد بك حسنى وكان تمام بدره وإبتسام زهره في
أوائل ثاني الجمادين عام أربعة عشر وثلثمائة وألف من هجرة
من خلقه الله على أكمل وصف صلى الله وسلم عليه وعلى
آله وصحبه كلما ذكره اذا كرون وغفل عن
ذكره الغافلون





مركز الوثائق والبحوث



3001800000678

المكتبة



